ترجمان

رولف فيغرسهاوس

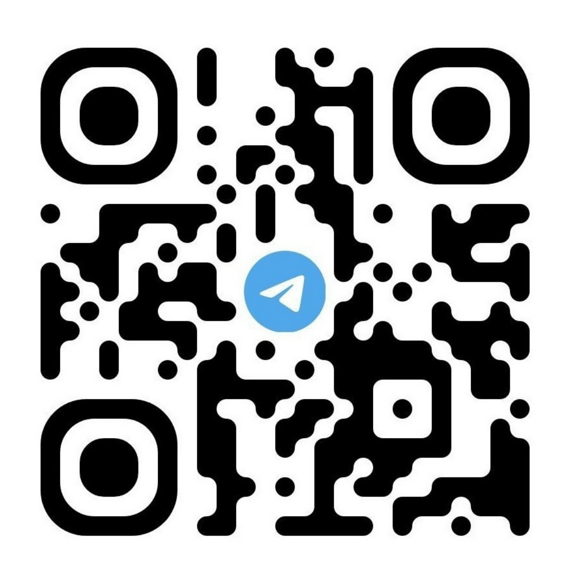
مدرسة فرانكفورت

تاريخها وتطوّرها النظري وأهميتها السياسية

ترجمة: عصام سليمان - غانم هنا



المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies



مدرسة فرانكفورت

تاريخها وتطوّرها النظري وأهميتها السياسية



هذه السلسلة

في سياق الرسالة الفكرية التي يضطلع بها "المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات"، وفي إطار نشاطه العلمي والبحثي، تُعنى "سلسلة ترجمان" بتعريف قادة الرأي والنخب التربوية والسياسية والاقتصادية العربية إلى الإنتاج الفكري الجديد والمهم خارج العالم العربي، من طريق الترجمة الأمينة الموثوقة المأذونة، للأعمال والمؤلفات الأجنبية الجديدة أو ذات القيمة المتجددة في مجالات الدراسات الإنسانية والاجتماعية عامة، وفي العلوم الاقتصادية والاجتماعية والإدارية والسياسية والثقافية بصورة خاصة.

وتستأنس "سلسلة ترجمان" وتسترشد بآراء نخبة من المفكرين والأكاديميين من مختلف البلدان العربية، لاقتراح الأعمال الجديرة بالترجمة، ومناقشة الإشكالات التي يواجهها الدارسون والباحثون والطلبة الجامعيون العرب كالافتقار إلى النتاج العلمي والثقافي للمؤلفين والمفكرين الأجانب، وشيوع الترجمات المشوَّهة أو المتدنية المستوى.

وتسعى هذه السلسلة، من خلال الترجمة عن مختلف اللغات الأجنبية، إلى المساهمة في تعزيز برامج "المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات" الرامية إلى إذكاء روح البحث والاستقصاء والنقد، وتطوير الأدوات والمفاهيم وآليات التراكم المعرفي، والتأثير في الحيز العام، لتواصل أداء رسالتها في خدمة النهوض الفكري، والتعليم الجامعي والأكاديمي، والثقافة العربية بصورة عامة.



مدرسة فرانكفورت

تاريخها وتطوّرها النظري وأهميتها السياسية

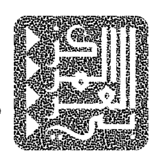
رولف فيغرسهاوس

ترجمة

عصام سليمان - غانم هنا

مراجعة

عصام سليمان



المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

الفهرسة في أثناء النشر - إعداد المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

فيغرسهاوس، رولف

مدرسة فرانكفورت: تاريخها وتطورها النظري وأهميتها السياسية/ رولف فيغرسهاوس؛ ترجمة عصام سليمان، غانم هنا ؛ مراجعة عصام سليمان.

928 ص. ؛ 24 سم. - (سلسلة ترجمان)

يشتمل على ببليوغرافية (ص. 903-912) وفهرس عام.

ISBN 978-614-445-477-0

1. مدرسة فرانكفورت (علم الاجتماع). 2. الاجتماع، علم. أ. سليمان، عصام. ب. غانم، هنا. ج. العنوان. د. السلسلة.

301.01

هذه ترجمة مأذون بها حصريًا من الناشر لكتاب

DIE FRANKFURTER SCHULE.
Geschichte. Theoretische Entwicklung. Politische Bedeutung

By Rolf Wiggershaus

عن دار النشر
Carl Hanser Verlag GmbH & Co. KG

الناشــر



شارع الطرفة - منطقة 70
وادي البنات - ص. ب: 10277 - الظعاين، قطر
هاتف: 00974 40356888

جادة الجنرال فؤاد شهاب شارع سليم تقلا بناية الصيفي 174
ص. ب: 4965 11 رياض الصلح بيروت 2180 1107 لبنان
هاتف: 8 1991837 00961 فاكس: 1991839 00961
البريد الإلكتروني: beirutoffice@dohainstitute.org
الموقع الإلكتروني: www.dohainstitute.org

الطبعة الأولى

بيروت، تموز/ يوليو 2022

المحتويات

شكر وتقدير

عليّ أن أتوجّه بالشكر إلى كثيرين. كان ميشاييل كروغر ودار نشر كارل هانز (Carl Hanser Verlag) قد أبديا بسرعة استعدادهما في عام 1979 لدعم مشروع عرض شامل لتاريخ مدرسة فرانكفورت. وأتاح هربرت شنيدلباخ إنجازًا غنيًا واعدًا للمشروع من خلال توصيته جمعية البحوث الألمانية تقديم منحة بحثية للمشروع. وقد موّلت الجمعية المشروع عبر منحة بحثية مدتها عامان ونصف العام، ودفعت نصف نفقات رحلة إلى الولايات المتحدة، أما النصف الآخر من النفقات فتكفّلت زوجتي بتقديمه.

أُقدّم شكري أيضًا للأشخاص التالية أسماؤهم، على المناقشات المهمة والمحفزة، والتي تكرّر بعضها، وكانت قيّمة ومفيدة للغاية: فيلهلم بالداموس من ليدز، بريطانيا؛ وفالتر ديركز من فيتناو بالقرب من فرايبرغ في بافاريا؛ ولودفيغ فون فريديبرغ، فرانكفورت أم ماين؛ وأولريش غمبارت، كولونيا؛ ويورغن هبرماس، فرانكفورت أم ماين؛ وفيلي هارتنر، باد هومبرغ؛ وبيتر فون هازلبرغ، فرانكفورت أم ماين؛ وماري ياهودا من كيمر في هاسوكس، بريطانيا؛ ورينيه كونيغ، كولونيا؛ وفرديناند كرامر، فرانكفورت أم ماين؛ وليو لوفنتال، بيركلي، الولايات المتحدة الأميركية؛ وأليس وجوزف ماير، نيويورك؛ وكورت ماوتس، فيزبادن؛ وإريكا شيروفر ماركوزه، سان دييغو، الولايات المتحدة؛ وفيلي ستريليفيتش، هانوفر؛ ورولف تيدمان، فرانكفورت أم ماين؛ وكارل أوغست فيتفوغل، نيويورك. كما أتقدّم بالشكر إلى موزس إ. فينلي من كامبردج في بريطانيا، لتفضّله بالإجابة الموجزة عن بعض الأسئلة.

كان مصدر المعلومات الأهم لمؤلِّفي هو أرشيف هوركهايمر في فرانكفورت الذي يضمّ التركة الشاملة الاستثنائية لهوركهايمر وبولوك؛ إذ يضم إلى جانب الموجودات الضخمة من الكتب أكثر من 200,000 صفحة من رسائل ومسودات ومقالات. وكان من لطف ألفرد شميدت أن أتاح لي الوصول إلى هذه التركة قبل الانتهاء من عملية الأرشفة. كما كان غونتسلين شميد نوير لطيفًا أيضًا بحيث لم يرَ في بحثي أي بلبلة في عمله الأرشيفي؛ وكان بإمكاني أن أناقش معه بعض التفصيلات والتقديرات المبدئية الصعبة. والشكر موصول أيضًا للتالية أسماؤهم: جمعية حماية العلم والتعليم في لندن ومكتبة بودلي في أكسفورد؛ أرشيف لوكاتش في بودابست؛ كارستن فيته وقسم المخطوطات في أرشيف الأدب الألماني في مارباخ أم نِكر؛ أرشيف مدينة فرانكفورت أم ماين؛ ليزيلوته موهل، الموظفة في مكتبة معهد البحث الاجتماعي؛ الأستاذ بومه رئيس لجنة الترويج الفلسفي المسؤول عن ملفات كلية الفلسفة؛ رولف تيدمان مدير أرشيف تيودور أدورنو، وهنري لونيتس العامل معه؛ وأخيرًا باربرا بريك المهتمة بأرشيف ماركوزه.

لم يُتَح لي الوصول إلى أرشيف جامعة فرانكفورت أم ماين؛ فبذريعة أن الملفات لم تكن منظّمة بشكل سليم من وجهة نظر حماية البيانات، وأن الكادر الوظيفي لأعمال تصنيف مماثلة غير متوفر، رفض الأستاذ هارتفيغ كيلم الذي كان آنذاك رئيس جامعة فرانكفورت السماح بالوصول إلى الوثائق والملفات الخاصة بمعهد البحث الاجتماعي. كما لم يُفِد الدعم الذي قدّمه القيّم على حماية المعلومات في هِسِن الأستاذ سبيروس سيميتيس الذي أكد أن ملفات أرشيف الجامعة التي أريد الاطلاع عليها لا تقع في مجال اختصاص حماية البيانات. وهكذا جرى لي ما جرى لغيردا شتوخليك التي تلقّت من الجميع، باستثناء أرشيف جامعة فرانكفورت، الدعم السخيّ في أبحاثها حول جامعة فرانكفورت في الحقبة النازية[1]. غير أن أولريكه ميغدالز قدّمت لي، تعويضًا عن ذلك، العرضَ الذي كُتب في السبعينيات عن **التاريخ المبكر لمعهد البحث الاجتماعي في فرانكفورت**، الذي تناول بالتفصيل ملفات أرشيف الجامعة التي

---

(1) Gerda Stuchlik, *Goethe im Braunhemd - Universität Frankfurt 1935-1945*, Frankfurt a. M. 1984.

تخصّ معهد البحث الاجتماعي، والفصل حول معهد البحث الاجتماعي في كتاب باول كلوكه عن جامعة فرانكفورت: *Die Stiftungsuniversität Frankfurt am Main*.

مع فريدريش شميدت أمضيت بعض الأمسيات نتجاذب أطراف الحديث عن أدورنو وهوركهايمر، وعن المحاكاة والتحكّم بالطبيعة، وعن الميتافيزيقا بعد أوشفيتس. كما وَجدتُ في إغينهارد هورا المحررةَ المعطاء الشديدة الحساسية، وأخيرًا، كانت هناك أيضًا القارئة الأولى التي تقف وراء كل هذا الإنجاز.

مدخل

"مدرسة فرانكفورت" و"النظرية النقدية"؛ يثير هذان الاسمان في المخيلة سلسلةً من الأسماء، على رأسها أدورنو وهوركهايمر وماركوزه وهبرماس، أكثر مما يثيران أفكارًا عن نموذج من علم اجتماع. وهما يثيران كذلك تداعيات على خط الحركة الطلابية، والنزاع حول الوضعية، ونقد الثقافة، وربما أيضًا تداعيات حول الهجرة والرايخ الثالث واليهود وفايمار والماركسية والتحليل النفسي. يتعلق الأمر، كما سيتضح حالًا، بأكثر من مجرد اتجاه نظري، وبأكثر من مرحلة من تاريخ العلم.

في هذه الأثناء، أصبح من المألوف الحديث عن جيل أول وجيل ثان من المنظِّرين النقديين[1]، والتمييز بين مدرسة فرانكفورت القديمة وما جاء بعدها، أي منذ السبعينيات [من القرن العشرين]. هذا يغنينا مؤقتًا عن السؤال حول بقاء مدرسة فرانكفورت واستمرارها وتوقفها، ويجعل من السهل وضع حد زمني لعرض تاريخ مدرسة فرانكفورت على نحو لا يكون مبالغًا في تعسفيّته: وفاة أدورنو، آخر من بقي في فرانكفورت من ممثِّلي النظرية النقدية الأقدم وآخر العاملين في معهد البحث الاجتماعي.

عبارة "مدرسة فرانكفورت" هي تسمية جاءت من الخارج في الستينيات [من القرن العشرين]، استخدمها أدورنو نفسه، في النهاية، بفخر لا يخفى على أحد. كان يُقصد بهذه التسمية، في بادئ الأمر، علم اجتماع نقدي وجد في

(1) يراجع على سبيل المثال:
Jürgen Habermas, *Drei Thesen zur Wirkungsgeschichte der Frankfurter Schule*; Van Reijen, *Philosophie als Kritik*.

المجتمع كلية متناقضة، ولم يقصِ من الفكر هيغل ولا ماركس، بل نظر إلى نفسه وريثًا لهما. ثم أصبحت هذه التسمية منذ زمن طويل مفهومًا أكثر غموضًا وشمولية. فشهرة هربرت ماركوزه (Herbert Marcuse) بوصفه معبود الطلاب الثائرين - كما نظرت إليه وسائل الإعلام حينذاك - إلى جانب ماركس وماو تسي تونغ وهو تشي منه، جعلت من مدرسة فرانكفورت أسطورة. إلى أن أنزل المؤرخ الأميركي مارتن جي (Martin Jay)، في بدايات السبعينيات، هذه الأسطورة إلى أرض الوقائع التاريخية، وأظهر بوضوح ما هو الواقع المتعدد الأوجه الذي يختبئ وراء تسمية مدرسة فرانكفورت، التسمية التي أصبحت منذ زمنٍ طويل جزءًا لا يتجزأ من تاريخ التأثيرات التي كانت تمثلها هذه المدرسة، بغضِّ النظر عن مدى إمكانية الحديث عن "مدرسة" بالمعنى الحرفي للكلمة.

لا شك في أن بعض الصفات الأساسية لمدرسة كانت موجودةً، إما على نحو دائم أو مؤقت أو من وقت إلى آخر، من بينها: إطار مؤسساتي (معهد البحث الاجتماعي الذي وُجد بشكلٍ عابر، وإن كان بين الآونة والأخرى بشكلٍ بدئي فقط)؛ وشخصية فكرية كاريزمية يملأها الإيمان ببرنامج نظري جديد، ومستعدة وقادرة على التعاون مع علماء مؤهَّلين (ماكس هوركهايمر بوصفه "أستاذًا إداريًا"، وضع دائمًا وأبدًا أمام أعين المتعاونين معه أنهم ينتمون إلى القلة التي يقع بين أيديها تطوير "النظرية")؛ وبيانٌ (هو أول خطبة لهوركهايمر (Max Horkheimer) في عام 1931 حول "الوضع الراهن للفلسفة الاجتماعية ومهمات معهد البحث الاجتماعي" الذي كان يرجع إليه دائمًا، وقد عاد هوركهايمر إليه أيضًا في حفل إعادة افتتاح المعهد في فرانكفورت عام 1951)؛ نموذجٌ جديد (النظرية "المادية"، أو بالأحرى "النقدية" لعملية الحياة الاجتماعية الشاملة التي تدمج منهجيًا في إطار التوفيق بين الفلسفة والعلوم الاجتماعية، علمَ النفس التحليلي وبعض موضوعات مفكري النقد العقلاني والميتافيزيقي مثل شوبنهاور ونيتشه وكلاغز (Ludwig Klages) في المادية التاريخية. وقد استمرّ الاحتفاظ بتسمية "نظرية نقدية" إلى حدّ ما، على الرغم أن من كانوا يستخدمونها فهموا أشياء مختلفة بها، وحتى هوركهايمر غيّر تصوراته الأصلية المرتبطة بها)؛ وظهرت مجلة ووسائل أخرى لنشر الأعمال البحثية للمدرسة (**مجلة الأبحاث الاجتماعية** الناطقة باسم المعهد و**كتابات معهد البحث الاجتماعي** في دور نشر

علمية مشهورة: بدايةً في دار نشر هيرشفلد في لايبزيغ، وفي ما بعد في دار نشر فليكس ألكان في باريس).

غير أن معظم هذه الصفات لا ينطبق إلا على العقد الأول من عهد هوركهايمر في المعهد، أي على الثلاثينيات وخصوصًا على فترة نيويورك. لكن إبّان فترته في نيويورك عمل المعهد، من ناحية أخرى، بنوع من العزلة الرائعة إزاء محيطه الأميركي. لم يعد إلى ألمانيا في [الفصل الدراسي] 1949/ 1950 إلا هوركهايمر وبولوك وأدورنو. ومن بين هؤلاء الثلاثة، كان أدورنو الوحيد الذي واصل الإنتاج النظري، ونُشرت له وحده كتبٌ تضم أعمالًا جديدة وقديمة. لم يكن هناك مجلة بعد الحرب، بل سلسلة **مساهمات من فرانكفورت في علم الاجتماع**، ينقصها الطابع المميز للمجلة السابقة والتي لم يُنشر فيها لأدورنو وهوركهايمر إلا مرةً واحدة، في أوائل الستينيات، مجموعة محاضرات وخطب. "بالنسبة إلي، ما عادت توجد نظرية مترابطة. كتب أدورنو مقالات ثقافية نقديةً وعقد حلقات بحث حول هيغل. وكان يستحضر خلفيةً ماركسية معينة؛ لقد كان هذا كل شيء"[2]. هذا ما يستذكره هبرماس الذي كان في النصف الثاني من الخمسينيات مساعدًا لأدورنو وعاملًا في معهد البحث الاجتماعي. وحينما تبلورت في الستينيات فعليًا صورة المدرسة، اختلط فيها تصورٌ لمفهوم علم اجتماع نقدي في فرانكفورت، وكان من أبرز رموزه أدورنو وهبرماس، مع تصور لمرحلة مبكرة جذرية اجتماعية - نقدية، وفرويدو - ماركسية للمعهد، بقيادة هوركهايمر.

يُظْهِر هذا التاريخ المغاير جدًا، انطلاقًا من الظروف الخارجية، أن من الحكمة ألّا يؤخذ تعبير مدرسة فرانكفورت بدقة. يشهد على ذلك أيضًا أمران آخران. أولهما واقع أن "الشخصية الكاريزمية"، هوركهايمر، ابتعد أكثر فأكثر عن تبني موقف حاسم وملائم لتكوين مدرسة. وثانيهما الوضع التالي الوثيق الصلة بالأمر الأول. فإذا ما نظرنا إلى العقود الأربعة الأولى من وجود مدرسة فرانكفورت القديمة بأكمله، يتبين أنه لم يكن هناك نموذجٌ واحد، حتى

(2) Theodor W. Adorno, "'Dialektik der Rationalisierung', Jürgen Habermas im Gespräch mit Axel Honneth, Eberhardt Knödler-Bunte und Arno Widmann," *Ästhetik und Kommunikation*, vols. 45-46 (Oktober1981), p. 128.

ولا نموذج متغير، ينضوي تحته كل ما هو ضروري عند الكلام عن مدرسة فرانكفورت. كان الشخصان الرئيسيان، هوركهايمر وأدورنو، يعملان من موقعين مختلفين كلِّيًا على موضوعات مشتركة. تقدّم الأول كمُلهِم لنظرية تقدمية للمجتمع ومتعدِّدة الاختصاصات، وارتضى لنفسه في النهاية دور ناقد لعالم مسيَّر كانت فيه جزيرة الرأسمالية الليبرالية الرائعة، المعقل الأخير في تاريخ حضارة مخفقة، مهددة بالزوال. أما بالنسبة إلى الشخص الآخر الذي تقدَّم المشهد كناقد للفكر المحايث ومدافع عن موسيقى جديدة متحرِّرة، فقد أصبحت فلسفة تاريخ الحضارة المخفقة قاعدةً لنظرية اللّاهوية، أو بالأحرى نظرية الأشكال المتعددة الأوجه التي وجد فيها اللامتماهي الاعتبار على نحو متناقض. مثّل أدورنو تفكيرًا مسيحانيًا تحليليًا دقيقًا ربط بينه وبين فالتر بنيامين الذي أصبح بوساطة أدورنو أحد العاملين في *Zeitschrift für Sozialforschung* (**مجلة الأبحاث الاجتماعية**)، وفي النهاية أحد المساعدين في المعهد، وبينه وبين زيغفريد كراكاور (Siegfried Kracauer)، كما ربط بينه وبين إرنست بلوخ أيضًا. نقد العقل في كتاب **جدل التنوير** الذي ألّفه بالاشتراك مع هوركهايمر في السنوات الأخيرة من الحرب العالمية الثانية، لم يغير تفكير أدورنو. إلا أن هوركهايمر الذي كان قد انفصل في السنوات التي سبقت عملهما المشترك على هذا المؤلَّف عن عالم النفس الاجتماعي إريك فروم (Erich Fromm) وعن منظِّرَي القانون وعلم الدولة فرانتس نويمان (Franz Neumann) وأوتو كيرشهايمر (Otto Kirschheimer)، متخليًا بذلك فعليًا عن برنامجه لنظرية اجتماعية شاملة متعدِّدة الاختصاصات، وقف بعد **جدل التنوير** هناك فارغ اليدين. وكما وجَّه نظره إلى الوراء نحو المتعهِّدين المستقلِّين في العصر الليبرالي بوصفه عالم اجتماع، كذلك وجَّه نظره إلى الوراء نحو فلاسفة العقل الموضوعي الكبار من حيث هو فيلسوف. حظي هوركهايمر في الستينيات، إبّان الحركة الطلابية، باهتمام متزايد بسبب النبرة الماركسية العدائية في مقالاته الأولى، ووجد نفسه قريبًا من موقف ماركوزه في الرفض الكبير الذي غدا هجوميًا، في هذا الوقت بالذات كتب أدورنو الشهادتين الكبيرتين في تفكيره المسيحاني الدقيق: **الجدل السلبي والنظرية الجمالية**. لم يكن هذان المؤلَّفان عصريين يومذاك. في المقابل، اكتُشِف بنيامين "الماركسي"، وأصبح شخصية مفتاحية لنظرية مادّية في الفن والميدِيا. بعد عقد ونصف على موت أدورنو، قال ميشيل فوكو، أحد أهم مفكري

ما بعد البنيوية: "لو كنت عرفت مدرسة فرانكفورت في الوقت المناسب، لكنت وفَّرت على نفسي الكثير من العمل، ولم أقل الكثير من الأباطيل، ولم أتخذ الكثير من الطرق الملتوية بقدر ما حاولت، ولم أدع نفسي أُضلَّل، في حين كانت مدرسة فرانكفورت قد فتحت الطريق فعلًا"[3]. وصف فوكو برنامجه بأنه نقد "عقلاني للعقلانية". وكان أدورنو قد وصف بكلمات مشابهة تقريبًا في عام 1962، في محاضرة حول المصطلحات الفلسفية، رأى فيها أن مهمة الفلسفة هي "الشروع بنوع من عملية مراجعة عقلانية ضد العقلانية"[4]. ما يسمى مدرسة فرانكفورت شديد التنوع والاختلاف، ومن ثم هناك جانب منها له أهمية راهنة دائمًا، وجانب آخر يتبين أنه غير مكتمل ويتطلب المضي قدمًا في إنجازه.

لكن، ما الذي وحَّد أولئك الذين ينتمون إلى مدرسة فرانكفورت، حتى ولو لم يحصل هذا في معظم الحالات إلا أحيانًا؟ هل كان هناك ما يربط بينهم جميعًا؟ كان جميع الذين انتموا إلى الجيل الأول من مدرسة فرانكفورت يهودًا، أو أناسًا أرغمتهم بالأحرى النازية على الانتماء مرة أخرى إلى اليهودية. وسواءً أكانوا يتحدَّرون من أسر برجوازية كبيرة أم كانوا، مثل فروم ولوفنتال (Leo Löwenthal)، من أسر غير ميسورة، لم يجنبهم هذا الانتماء الطبقي في أحسن الأحوال، حتى بعد عام 1918 وقبل عام 1933، تجربة أن يبقوا مهمشين داخل المجتمع. التجربة الأساسية المشتركة كانت: لم يكن التأقلم كافيًا كي يتمكَّنوا من الشعور أبدًا بأمان بالانتماء إلى المجتمع. وكما جاء في كتاب سارتر **تأملات في المسألة اليهودية** الصادر في عام 1946: "هو[5] يرقص مثل الآخرين رقصة الشرفاء والمحترمين، وهو فوق ذلك ليس في الحقيقة عبدًا لأحد، إنه مواطنٌ حرٌّ في دولة تكفل له المنافسة الحرة، لا يُحرم من أي شرف اجتماعي، ولا تمنع عنه أي وظيفة في الدولة، ويعلَّق على صدره وسام حارس الشرف، ويصبح محاميًا كبيرًا ووزيرًا. لكن، في اللحظة عينها، ونظرًا إلى كونه قد تسلَّق قمة المجتمع الشرعي، ينكشف له في لحظة خاطفة مجتمعٌ آخر، لا صورة له،

---

(3) Michel Foucault & Gérard Raulet, "Um welchen Preis sagt die Vernunft die Wahrheit? Ein Gesprach," in: *Spuren* (Januar 1983), p. 24.

(4) Theodor W. Adorno, *Philosophische Terminologie*, *Band. 1*, p. 87.

(5) أي اليهودي.

غامضٌ وحاضرٌ في كل مكان يرفض أن يضمَّه إليه. إنه يشعر عن كثب بتفاهة الوقار الخارجي والحظوظ السعيدة، لأنه حتى أكبر نجاح يحققه لن يمكِّنه إطلاقًا من الدخول في ذلك المجتمع الذي يُسمِّي نفسه المجتمع الحقيقي. وبصفته وزيرًا، سيكون الوزير اليهودي، معالي الوزير والمنبوذ في آن واحد"[6].

كان على اليهود أن يشعروا بطريقتهم بشعور ليس أقلّ حدَّة بالاغتراب وعدم صدقية الحياة في المجتمع البرجوازي-الرأسمالي، مثلهم مثل البروليتاريين. وإذا كان اليهود في قسمهم الأعظم يتمتعون بامتيازات أكبر مقارنة بالعمال، إلا أنه كان يصحُّ أيضًا أن حتى اليهود ذوي الامتيازات، لم يُفْلِتوا من كونهم يهودًا. أما العمال المتميزون فكانوا يتوقفون عن أن يكونوا عمالًا في الجيل الثاني في أقصى تقدير. إلا أنه كان يصعب عليهم الوصول من جديد إلى التمتع بالامتيازات. وهكذا خلقت تجربة تمرس الاغتراب الاجتماعي التي مرَّ فيها اليهود، نوعًا من التقارب مع تجربة تمرس الاغتراب التي كان العمال عادةً يمرُّون فيها. إلا أن هذا لم يقتض التضامن مع العمال. لكنه غالبًا ما كان يؤدي، في أي حال، إلى نقد جذري للمجتمع، يتلاءم مع المصالح الموضوعية للعمال.

منذ مقالة هوركهايمر عن "النظرية التقليدية والنظرية النقدية" (1937)، أصبحت "النظرية النقدية" التسمية الرئيسية التي وصف منظِّرو حلقة هوركهايمر أنفسهم بها. لقد كانت أيضًا بالفعل مفهومًا مموِّهًا للنظرية الماركسية، بل وأكثر من ذلك، تعبيرًا عن حقيقة أن هوركهايمر والعاملين معه لم يتماهوا مع النظرية الماركسية في صيغتها الأرثوذكسية التي ركزت على نقد الرأسمالية بوصفها منظومة اقتصادية مع بناء فوقي مرتبط بها وفكر أيديولوجي، بل كانوا يتماهون مع مبادئ النظرية الماركسية. تمثّل قوام هذه المبدئية في النقد المحدد للعلاقات الاجتماعية المغتربة والمغرِّبة. لم يأتِ المنظِّرون النقديون من الماركسية ولا من الحركة العمالية، بل كانوا يعيدون على نحو معين تجارب ماركس الشاب. أصبح اكتشاف ماركس الشاب، بالنسبة إلى إريك فروم وهربرت ماركوزه، الإثبات القاطع لصحة تطلُّعاتهم الخاصة. بالنسبة إلى ماركوزه، كان [كتاب] **الكينونة والزمان** الدافع إلى الذهاب إلى هايدغر في

(6) Jean-Paul Sartre, *Drei Essays*, p. 149.

فرايبرغ، لأنه اعتقد أن هناك جرى تناول السؤال حول الوجود الحقيقي للإنسان بطريقة حسّية. وعندما تعرَّف بمخطوطات باريس لماركس الشاب، عندئذ فقط أصبح ماركس مهمًا حقًا بالنسبة إليه، وأصبح الآن أيضًا أهم من هايدغر وديلتاي (Wilhelm Dilthey). لأن ماركس هذا قد مارس في نظره فلسفةً واقعية، وأظهر أن الرأسمالية لم تكن تعني أزمة اقتصادية أو سياسية فحسب، بل كانت كارثة الجوهر الإنساني. ما فعله البؤس لم يكن بالتالي مجرد إصلاح اقتصادي أو سياسي، بل كان ثورة شاملة. أما بالنسبة إلى فروم الذي كان في المرحلة الأولى مما سمِّي لاحقًا مدرسة فرانكفورت، إلى جانب هوركهايمر، أهمّ عقل نظري، فقد أضحى ماركس الشاب الإثبات على أن المعني بنقد المجتمع الرأسمالي إنما هو التفكير في الجوهر الحقيقي للإنسان. في المقابل، لم يصبح ماركس الشاب حدَثًا أساسيًا، بالنسبة إلى أدورنو مثلًا. لكنه أراد هو أيضًا في مقالته الأولى الطويلة عن الموسيقى التي ظهرت في **مجلة الأبحاث الاجتماعية** عام 1932 بعنوان "عن الوضع الاجتماعي للموسيقى"، أن يبرهن أن كل الطرق مغلقة في الرأسمالية، وأن المرء في الحين ذاته يصطدم، أينما ذهب، بحائط زجاجي، وأن البشر لم يصلوا بعد إلى الحياة الحقيقية[7]. الحياة ليست حيَّة؛ هذا الإقرار للوكاتش الشاب كان العنصر المحرك أيضًا للمنظِّرين النقديين الشباب. أصبحت الماركسية بالنسبة إليهم مصدر إلهام في المقام الأول، بمقدار ما كانت متمركزة حول هذه التجربة. بالنسبة إلى هوركهايمر وحده (ومن ثم بنيامين، وبعده ماركوزه) شكَّل استنكار الظلم الذي لحق بالمستغَلّين والمستضعفين شعارًا أساسيًا للتفكير. لكن ما كان حاسمًا في النهاية، بالنسبة إليه، هو استنكار أن السلوك العقلاني المسؤول أمام الجمهور، والقابل لأن يُحسب في تبعاته على الجمهور، في المجتمع البرجوازي-الرأسمالي، لم يكن ممكنًا، وأن حتى الفرد المتميز والمجتمع كان مغتربًا أحدهما عن الآخر. شكَّل هوركهايمر لزمن طويل نوعًا من ضمير اجتماعي ونظري للحلقة، وكان المرجع الذي يلحّ باستمرار على أن المهمة المشتركة هي تقديم نظرية للمجتمع بأكمله، نظرية للزمن الحاضر، تجعل من البشر بوصفهم منتجين لأشكال حياتهم التاريخية موضوعها، لكنها أشكال حياة مغتربة عنهم.

(7) ينظر رسالة أدورنو إلى كراكاور، 12 كانون الثاني/ يناير 1933.

صوّب هوركهايمر في بداية الثلاثينيات باندفاع نحو "النظرية". ومنذ الأربعينيات كان لديه شك في إمكانيتها، من دون أن يتخلى عن الهدف. وكان من المفترض لتعاونه في العمل مع أدورنو أن يصبَّ أخيرًا في نظرية الزمن الحاضر، لكنها لم تصل عبر **شذرات فلسفية** - وهو البحث الذي ظهر في ما بعد كتابًا بعنوان **جدل التنوير** - إلى أبعد من نتيجة مرحلية أولى. لكن "النظرية" بقيت شعار "مدرسة فرانكفورت". وعلى الرغم من كل التباينات في ما بينهم، تشارك هوركهايمر وأدورنو وماركوزه بعد الحرب العالمية الثانية القناعة بأنه يجب على النظرية - ضمن تقليد النقد الماركسي للطابع الصّنمي لإعادة إنتاج رأسمالي للمجتمع - أن تكون عقلانية، وأن تقدّم في الوقت نفسه الكلمة الصحيحة التي تفكّ الحرم الذي يقع على كل شيء؛ على البشر والأشياء والعلاقات بينهما. أفضى التشابك بين هذين العاملين أيضًا إلى أن يبقى الروح الذي يمكن النظرية أن تتطور انطلاقًا منه حيًّا، حتى حينما كان العمل على النظرية يركد وتتنامى الشكُّوك في إمكانية النظرية في المجتمع الذي أصبح لاعقلانيًا. يقول هبرماس في الحوار المذكور سابقًا في **علم الجمال والتواصل**: "عندما تعرَّفت إلى أدورنو ورأيت كيف كان يتكلّم فجأة بنَفَس يخلب اللب عن صنمية السلع، ويطبِّق هذا المفهوم على ظواهر ثقافية ويومية على حدّ سواء، كان هذا، في بادئ الأمر، صدمة. لكنني قلت في نفسي بعدئذ: حاول أنت أن تتصرف كما لو كان ماركس وفرويد - وهما اللذان تكلَّم عنهما أدورنو بطريقة أرثوذكسية - **معاصرَين**". وهذا ما حصل له تمامًا، حينما عايش أول مرة هربرت ماركوزه[8]. النظرية التي كانت لا تزال تملأ بعد الحرب أدورنو وماركوزه بوعي الرسالة، كانت في الواقع من نوع خاص: فياضةً بالشكِّ وبالتشاؤم من أجل الخلاص بواسطة معرفة محفِّزة. لم يتحقق الوعد ولم تتمّ خيانته؛ بل تمَّ الحفاظ عليه حيًّا. ولكن من كان بمقدوره الحفاظ على الوعد حيًّا بهذا الشكل مثل أولئك المحكوم عليهم بأنهم "خوارج البرجوازية"، بسبب انتمائهم إلى مجموعة من البشر يُطلق عليهم اسم "اليهود" (هوركهايمر)؟

---

(8) يُنظر ص 745 وما بعدها في هذا الكتاب.

يعالج الكتاب تاريخ نصف قرن وتاريخ "مدرسة فرانكفورت". أماكن هذا التاريخ هي فرانكفورت أم ماين[9]، وجنيف، ونيويورك، ولوس أنجلس، ثمّ فرانكفورت أم ماين. السياقات المعاصرة لهذا التاريخ: جمهورية فايمار بـ "طابعها المريب" (براخر)، وانتهائها بالنازية؛ الصفقة الجديدة (New Deal)، وفترة الحرب، وعهد مكارثي في الولايات المتحدة الأميركية؛ والانقلاب الرجعي على خلفية مناهضة الشيوعية، والمرحلة الانتقالية بين مراحل الاحتجاج والإصلاح في جمهورية ألمانيا الاتحادية. أما أشكال المأسسة المختلفة في سياقِ هذا التاريخ فهي: معهد مستقل كنواة لبحث اجتماعي - نقدي ماركسي؛ وما تبقى من معهد تعهد بما يمثله من حضور جماعي توفيرَ الحماية لعلماء خاصِّين؛ ومعهد يستفيد من أموال الدولة المخصصة للأبحاث، أو من التكليفات، بوصفه خلفية لعلم اجتماع وفلسفة نقديين. كان مجال أنواع "النظرية" وتحولاتها على مرِّ هذا التاريخ كبيرًا جدًا، كما أنها لم تكن متزامنة، بحيث يكون التقسيم إلى مراحل شبه مستحيل بالنسبة إلى "مدرسة فرانكفورت". ولعل الأنسب أن يتمّ الكلام على توجُّهات في التشعُّبات المنفصل بعضها من بعض: انفصال بين النظرية والممارسة، وبين الفلسفة والعلم، وبين نقد العقل وإنقاذ العقل، وبين العمل النظري والعمل في المعهد، وبين الإصرار على الخصام والجسارة. تُشير فصول الكتاب المختلفة إلى مراحل هذا التشعُّب المنفلتة. وتُظهر، في الوقت عينه، القدرة النقدية التي لم تضعف لهذا النوع أو ذاك من النظرية النقدية، والتي لوحظت في السياق. في النهاية، نصل إلى الاستمرار المؤثِّر لقطبَي النظرية النقدية - الأدورني والهوركهايمري - لدى الجيل الجديد من المنظِّرين النقديين.

بقي كتاب مارتن جي حتى الآن العرض التاريخي الشامل الوحيد لتاريخ مدرسة فرانكفورت. لكن هذا العرض يتوقف عند عودة المعهد إلى فرانكفورت في عام 1950. كان عرضه عملًا رائدًا، اعتمد - في ما عدا أعمالًا منشورة - على حوارات مع عاملين سابقين في المعهد، وعلى معلومات مفصلة من ليو لوفنتال، وعلى الرسائل التي بحوزة لوفنتال، وعلى مذكِّرات وتقديمات المعهد لنفسه، وسوى ذلك. استطاع هذا الكتاب الذي بين أيدينا أن يبني، إضافة إلى

(9) أي على ضفتَي نهر الماين، ونكتبها اختصارًا فرانكفورت أ. م. (المترجم)

عمل مارتن جي، على سلسلة من أعمال تاريخية وأعمال إعلامية تاريخية ظهرت منذ ذلك الوقت حول مدرسة فرانكفورت وتاريخها السابق، مثل كتب دوبييل وإرد ولوفنتال وميغدال وسولنر، فضلًا عن اعتماده على سلسلة جديدة من منشورات لنصوص من مدرسة فرانكفورت - على سبيل المثال بحث فروم حول **العمال والموظفين عشية الرايخ الثالث** الذي نشره فولفغانغ بونص (Wolfgang Bönß) وأشرف عليه، و**الأعمال الكاملة** لفالتر بنيامين التي قام بنشرها رولف تيدمان (Rolf Tiedemann) وفيها شروحات غنية، أو نشر أعمال لهوركهايمر لم يسبق نشرها من قبل، في إطار **الأعمال الكاملة** التي نشرها ألفرد شميدت (Alfred Schmidt) وغونزلين شميد نوئر (Gunzelin Schmid Noerr)، والتي ظهرت في عام 1985. يُبنى هذا الكتاب الذي بين أيدينا، إضافة إلى ما سبق، على محادثات مع عاملين سابقين وحاليين في معهد البحث الاجتماعي ومع معاصرين ممن اهتموا أيضًا بمدرسة فرانكفورت. كما يستند بشكل خاص إلى مواد الأرشيف؛ منها ما وجد في أرشيف هوركهايمر من مراسلاته مع أدورنو وفروم وغروسمان وكيرشهايمر ولازارسفلد ولوفنتال وماركوزه ونويمان وبولوك، إضافة إلى ما وجد من تقارير عن أبحاث ومذكِّرات وما إلى ذلك. إلى جانب ما ذكر، كانت من الأهمية بمكان رسائل أدورنو؛ الرسائل المتبادلة بين أدورنو وكراكاور المحفوظة في أرشيف الأدب الألماني في مدينة مارباخ على نهر النيكار الذي يحتوي على ما تبقّى من أعمال كراكاور؛ الرسائل المتبادلة بين أدورنو والمجلس الأكاديمي للمساعدة المحفوظة في مكتبة بودلي في أكسفورد؛ ومحفوظات أدورنو وهوركهايمر في عمادة كلية الآداب في جامعة يوهان فولفغانغ غوته في فرانكفورت؛ ومحفوظات في أرشيف مدينة فرانكفورت ومجموعاتٌ حول معهد البحث الاجتماعي وحول أشخاص بعينهم؛ وتقارير عن أبحاث وعن أعمال المعهد في الخمسينيات والستينيات، موجودة في مكتبة معهد البحث الاجتماعي.

وعلى الهامش: لو لم يُفسد علي الموت ذلك، لكنت تقدَّمت لنيل شهادة الدكتوراه بإشراف أدورنو، وقد سبق أن تمَّ الاتفاق معه على الأمر.

الفصل الأول

عند الفجر

فليكس فايل، ابن المليونير، يؤسِّس معهدًا للماركسية على أمل أن يستطيع تسليمه يومًا ما إلى دولة شيوعية ألمانية منتصرة

ما كادت ثورة تشرين الثاني/ نوفمبر تبدأ في ألمانيا، حتى انطلق مسافرًا إلى برلين روبرت فيلبراندت (Robert Wilbrandt) ابن الثلاثة والأربعين عامًا، وأستاذ الاقتصاد الوطني في توبنغن منذ عام 1908، وأحد اشتراكيي المنابر الألمان القلائل، والمكروه لهذا السبب من زملائه بوصفه يساريًا متطرفًا. مكث هناك طوال شتاء الثورة. كان يعمل قبل الظهر في مكتب التسريح التابع للجيش الذي كان عليه القيام بدمج الجنود العائدين من الحرب أفواجًا في العملية الاقتصادية، وبعد الظهر في لجنة التحويل الاشتراكي. "كان المهمُّ هنا ارتجال ما هو مفيد بسرعة وعلى نحو ملائم بحيث تهدأ الجماهير، ويتمكن الصناعيون من الإنتاج، وتُحَلُّ الصعوبات التنظيمية"[1]. وقفت الأحزاب الاشتراكية التي كانت ترى الاشتراكية نتاج رأسمالية بالغة النضوج، والتي لم تكن "لتُطبخ مسبقًا انطلاقًا من وصفات مطبخ المستقبل" (كاوتسكي)، وقفت في عام 1918، وقد وصلت إلى السلطة فجأة، من دون أن يكون لديها تصورات عملية عن نظام اقتصادي اشتراكي. كانت كلمة "التحول الاشتراكي" بعد ثورة تشرين الثاني/ نوفمبر على كل لسان، ولكن كشعار مختلف المعاني، جعله حتى يميني مثل ألفرد هوغنبرغ (Alfred Hugenberg) شعارًا لنفسه، حينما وصف في آب/ أغسطس 1919 في صحيفة *Süddeutsche Zeitung* (**صحيفة جنوب ألمانيا**) مشاركة العمال في تقاسم الأرباح والمشاركة في إدارة المعمل بأنها مضادة للاشتراكية، لكنه كان مستعدًا سلفًا لأن يسمّي شيئًا كهذا "تحولًا اشتراكيًا"، لكي "يبقى للمشاركين كلمة أضحت محبّبة لديهم"[2]. في هذه الحالة كان فيلبراندت ينتمي إلى القلة التي كانت تبحث

---

(1) Robert von Wilbrandt, *Ihr glücklichen Augen*, p. 337.

(2) Felix Weil, *Sozialisierung*, p. 85.

عن سبل للأخذ بالنظرية الماركسية في ممارسة تراعي الوضع على محمل الجد. وأصبح من بين اشتراكيي المنابر الماركسيين، الأمر الذي اقتضى أن يذهب لإلقاء محاضراته حول الاشتراكية في توبنغن قبل الحرب، بسبب الازدحام الشديد، إلى قاعة الجامعة للاحتفالات، وكان قد أصبح كبير الماركسيين الشباب أو "الاشتراكيين العمليين". في منشوره الذي ظهر في ربيع عام 1919 بعنوان **هل الاشتراكيون اشتراكيون بما يكفي؟** اشتكى مما يلي:

"أغضُّ النظر عن البرجوازية التي يلوح لها بأنني سوف أسبِّب لها صدمةً، وعن 'أصدقاء الوطن' الذين لا يقدِّمون للوطن، وهو في أشدِّ الحاجة، سوى اليأس، ولا يحبُّون العمل البنّاء. إنني أتوجَّه إلى الاشتراكيين وحدهم. نعم، أنتم مخلصون! أنتم أمناء للنبوءة، لذلك أنتم تنتظرون حتى يحين الوقت. ولذلك أنتم تتكلمون عن مؤسسات ناضجة للتحويل الاشتراكي، بدلًا من أن تثقوا بأنفسكم بأنكم ناضجون بما يكفي لكي **تجعلوا** تلك المؤسسات ناضجة؛ وبدلًا من أن تطبخوا في قدر الاقتصاد الجماعي الثمار غير الناضجة، مثلما فعلت الاشتراكية **العملية**، اشتراكية التعاونيات والبلديات بنجاح بالغ (عند الخبازين والجزّارين!)؛ وبدلًا من أن تجدوا بأنفسكم الصيغة، رغمًا عن ماركس وهيغل اللذين منعانا من الاختراع. [...]

وحده **التحويل الاشتراكي**، أو الانتقال وفق الخطة وفي الوقت المناسب إلى الوضع الاشتراكي، بإمكانه أن يحمينا من وضع تكون فيه الأولى (المؤسسة الرأسمالية) قد انتهت والثانية (المؤسَسة الاشتراكية) لم توجد بعد. مطلب اليوم هو **الحفاظ** على المؤسسات ونقلها إلى صيغة اشتراكية للإدارة تشجع التعاون وتفسح المجال للسيادة المشتركة، وتوضيح الوضع للعاملين، ووصول المحصول إلى الجميع وإلى أولئك العاملين في المؤسسة، أي **تحفيزهم**، وإعطاؤهم مهمة داخلية لأنفسهم وللجماعة **للعمل** والرضى بما هو **ممكن**.

وإن لم يتم ذلك، عندئذ تقوم 'البلشفية' به بوسائل أخرى. فهي تحرِّك الأهواء، وتخلق بطرق مصطنعة جيشًا من **العاطلين من العمل** [...] وتطالب علنًا بإضرابات، وبإضرابات أكثر فأكثر، وتفكر بجديد تفرضه، بحيث تجعل القديم مستحيلًا"[3].

(3) Ibid., pp. 11, 25 f.

أظهر مصير "لجنة التحويل الاشتراكي" كم كان اهتمام الحكومة بتلبية المطلب الشعبي بالتحويل الاشتراكي غير جدّي، وكم كان زهيدًا استعدادها هي نفسها للقيام بإصلاحات اقتصادية يتعين أن تقطع، في نهاية الأمر، الطريق على مطالب جذرية عبر تقديمها تنازلات رمزية. كان مجلس ممثّلي الشعب المؤلَّف من ممثِّلي الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني (SPD) واتحاد الحزب الاشتراكي الألماني (USPD) قد أعطى تلك اللجنة وظيفة استشارية لا غير، وشكّل أعضاءها من ممثِّلين عن اتجاهات مختلفة. انتمى إليها عضوان من اتحاد الحزب الاشتراكي الألماني، هما رودولف هيلفردنغ (Rudolf Hilferding) وكارل كاوتسكي (Karl Kautsky) الذي شغل منصب الرئيس. وكان في عدادها أيضًا عضوان من الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني، أحدهما نقابي، والآخر إصلاحي برجوازي، وبعض الأكاديميين الاشتراكيين؛ فهناك إلى جانب فيلبراندت أستاذ الاقتصاد الوطني البرليني كارل بالود (Karl Ballod)، ومدرِّس الجامعة إميل ليديرر (Emil Lederer) من هايدلبرغ، والأستاذ جوزف شومبيتر (Joseph Schumpeter) من غراتس. كان برنامج اللجنة متواضعًا، جاء فيه أنه لا يمكن أن يتم إضفاء الطابع الاجتماعي على وسائل الإنتاج إلا "بعملية بناء عضوية طويلة الأمد". وأن العملية يجب أن تبدأ في تلك الميادين من الاقتصاد "التي تشكلت فيها علاقات سيطرة رأسمالية احتكارية"[4]. لكن حتى هذه الفعّالية المتبقية للجنة في هذا الإطار قد عطّلتها البيروقراطية. لم تبقَ التقارير ومشاريع القوانين لإخضاع صناعة استخراج الفحم الحجري للتحويل الاشتراكي، وتأميم صناعة صيد الأسماك وشركات التأمين غير منشورة فحسب، بل كانت وزارة الرايخ للاقتصاد تحاول، إضافةً إلى ذلك، تحويرها. لذلك قدم أعضاء لجنة التحويل الاشتراكي هذه استقالتهم من مناصبهم في بداية نيسان/ أبريل 1919 مرفقةً بكتاب احتجاج على موقف الحكومة، وعاد فيلبراندت يائسًا إلى كرسي الأستاذية في توبنغن.

هنا كان من بين المستمعين إلى محاضراته في الفصل الصيفي لعام 1919 فليكس فايل. كان طالب العلوم الاقتصادية والاجتماعية - ابن الحادية

(4) "Programm der Sozialisierungskommission vom 11 Dezember 1918," in: Herbert Michaelis & Ernest Schraepler (Hg.), *Ursachen und Folgen III*, pp. 33 f.

والعشرين، ابن الأسرة الغنية، الذي وضع نفسه بكامل حلّته الرسمية في أيام ثورة تشرين الثاني/ نوفمبر برفقة حرسه من فصيل جمعية الطلبة تحت تصرُّف مجلس العمال والجنود في فرانكفورت - كان قد قدم لهذا الغرض بالذات إلى توبنغن لكي يستمع إلى الأستاذ الاشتراكي. وكتب بحثًا عن "جوهر التحويل الاشتراكي وطرقه"، نشره في المجلة البرلينية *Arbeiterrat*. تطور هذا البحث بتحفيز من فيلبراندت إلى رسالة جامعية نال بموجبها فايل - وهو الذي اعتقل مؤقتًا بسبب أنشطة اشتراكية في تشرين الأول/ أكتوبر 1919، ثم أقصي من جامعة توبنغن وطُرد من مقاطعة فورتمبرغ - في عام 1920 درجة الدكتوراه في فرانكفورت. نُشر هذا العمل - **التحويل الاشتراكي: محاولة تأسيس مفاهيمي إلى جانب نقد خطط التحويل الاشتراكي** - في عام 1921 كمجلد سابع وأخير من سلسلة "الاشتراكية العملية" التي كان يصدرها كارل كورش (Karl Korsch)، الأستاذ المعين في جامعة يينّا. افتتح كورش الذي كان مساعد فيلبراندت في لجنة التحويل الاشتراكي سلسلة المنشورات بكتابه **برنامج الاشتراكية العملية** الذي نشر تحت عنوان **ما هو التحوُّل الاشتراكي؟** لقد أراد كورش لهذه السلسلة أن تماثل سلسلة المنشورات التنويرية لجمعية فابيان الإنكليزية التي كان قد انتسب قبل الحرب إلى منظمتها الشبابية في أثناء إقامته لسنتين في إنكلترا. وهذه السلسلة توفر "للموهوبين عقليًا" الفهم الصحيح لجوهر الاشتراكية والرغبة في العمل على تحقيق مشاريع اشتراكية واقعية.

إنجاز حازم وسريع لتحوُّل اشتراكي جازم، أو إعراضٌ واضح عن أي تطلّعات في هذا الاتجاه؛ كان هذا هو فحوى رسالة فليكس فايل الجامعية. "شيءٌ واحدٌ أكيد - برأيه - هو أن الأمور لا يمكن أن تسير على ما هي عليه اليوم، حيث يُردع رب العمل الحر عن القيام بمهماته بروح الإقدام، حيث تذبل الحياة الاقتصادية الألمانية بسبب إضرابات، وأجور مرتفعة، وضرائب، ومجالس عمّال، وانعدام ثقة متبادل، وخوف من التحوُّل الاشتراكي.

العودة إلى الاقتصاد الحر، أم التقدّم نحو الاشتراكية؟ هذا هو السؤال.

ليس البتُّ في هذا مهمة هذا البحث"[5].

---

(5) Ibid., p. 83.

لم يكن هذا مجرد تنازل استراتيجي - ففي النهاية، لم يكن فايل يريد أن ينال الدكتوراه ليحصل على عمل يقدِّمه لأساتذة لم يكونوا اشتراكيين على الإطلاق - بل كان له أيضًا معنًى وجودي. كان يشهد على الصراع بين وضع الأب بوصفه رجل أعمال، والميول الاشتراكية لابنه، وعلى صراع كان موجودًا بالأحرى عند الأسر اليهودية من البرجوازية الكبرى أكثر مما هو موجود لدى الأسر البرجوازية غير اليهودية، لكنه صراع لم يكن قد بلغ من الحدَّة مبلغ أن يقطع الابن مع عالم الأب مهما كان الثمن. كان على الغِنى أن يتبدى بالنسبة إلى اليهودي بوصفه ينبوع الحقد المعادي للسامية وحماية له أيضًا، وبوصفه دافعًا إلى التماهي مع المواقف المضادة للرأسمالية، وشيئًا يجب التخلِّي عنه أولًا إن أراد الشخص أن يتأكد من أن له مستقبلًا لا تعود الحماية فيه ضرورية بعد ذلك؛ لا سيما أنه تكرر كثيرًا، مثلًا، تشهير الصحافة برئيس وزراء بافاريا كورت أيزنر (Kurt Eisner) الذي قُتل في شباط/فبراير 1919 على أنه "الغاليّ"، و"اليهودي الشرقي"، وأنه "الغريب" و"سالومون كوزمانوفسكي (Salomon Kosmanowsky) من ليمبرغ".

العودة إلى الاقتصاد الحر أم التقدم نحو الاشتراكية؟ كان لهذا الكلام، بالنسبة إلى فايل، معنًى خاص جدًا. فمن ناحية، كان هو ابن رجل أعمال ناجح بامتياز هو هرمان فايل (Hermann Weil)، المتحدر من أسرة تجار من مقاطعة باد. وقد سافر الأخير في عام 1890 بعمر 22 عامًا بصفته موظفًا في شركة تجارة حبوب كبيرة من مانهايم، إلى الأرجنتين. وفي عام 1898 استقل بعمله، ونجح في وقت قصير في جعل شركته واحدة من كبريات شركات الحبوب في الأرجنتين، وواحدة من الشركات العالمية مع حجم تعاملات بالملايين، قام هو وأخوه بإدارتها. في عام 1907، حينما بدأت تظهر علامات مرض خطير هو الشلل، عاد صاحب الملايين مع ابنه فليكس المولود في عام 1898 في بوينس آيرس إلى ألمانيا، واستقر في فرانكفورت. هنا عاش الأب إلى أن وافته المنية في عام 1927 في فيلّا في مرتفعات غينهايم، وكان لا يزال محبًا للأعمال التجارية، وقد وسَّع نشاطه الرأسمالي بالمضاربات العقارية وتجارة اللُّحوم[6].

---

(6) هذه المعطيات وغيرها حول هرمان فايل مأخوذة بشكل خاص من:
Ulrike Migdal, *Die Frühgeschichte des Frankfurter Instituts für Sozialforschung*, p. 11, passim.

حاول هرمان فايل في أثناء الحرب العالمية أن يقدِّم خدمات للقضية الوطنية. استغل خبراته المتراكمة على مدى سنين وعلاقاته لمراقبة الأسواق العالمية وأسواق الحبوب والوضع الغذائي للقوى العظمى المتحاربة، وكان يرسل تقارير حولها إلى السلطات الحكومية في برلين. التفاؤل الذي كانت تعكسه هذه التقارير الواثقة من النصر نال إعجاب فيلهلم الثاني، لكن تقارير هرمان فايل المتفائلة للغاية حول تبعات انخفاض أسعار بواخر نقل الحبوب لدول التفاهم ساهمت في إطالة حرب لا معنى لها. وفي النهاية، وقف "أبو حرب الغوّاصات" كرجل أدى دورًا مشؤومًا. إلا أن العلاقات الاقتصادية مع الأرجنتين التي بقيت صديقة لألمانيا بعد الحرب سرعان ما عادت إلى مجاريها، وعرفت أنشطة الاستيراد الخاصة بهرمان فايل ذروة جديدة، وبات بإمكانه أن يظهر الآن كمشجِّع سخي لجامعة فرانكفورت ولمؤسسات خيرية مختلفة، وأن يتقبّل أخيرًا، لتأسيس معهد البحث الاجتماعي، الدكتوراه الفخرية من كلية العلوم الاقتصادية والاجتماعية.

كان أمام عيني فليكس فايل، بوصفه ابنًا لهذا الرجل، مثالًا صارخًا على نجاحات الأعمال الحرة. ومن ناحية أخرى، كان لا بدَ من أن تبدو له حياة كهذه غير مغرية كثيرًا. نشأ هو وأخته في بوينس آيرس من دون أن يكرِّس الأب والأم لهما الوقت الكافي، فترعرعا بدلًا من ذلك على يد مربية وخدم آخرين. وفي فرانكفورت عاش فليكس فايل عند جدَّته. ربما لم يصرَّ الأب على الابن، بسبب بعض الشعور بالذنب تجاه طفولته وفترة شبابه اللتين افتقرتا إلى الحب، أن يتخذ مسار الأعمال أو أي مهنة أخرى لها علاقة بالمال. فلم يصبح فليكس فايل رجل أعمال حقيقيًا ولا عالمًا حقيقيًا ولا فنانًا، بل غدا فاعل خير يساريًا وعاملًا في العلم كلما سنحت الفرصة. كان واحدًا من أولئك الشبان الذين كانوا - وقد سيَّستهم نهاية الحرب وثورة تشرين الثاني/ نوفمبر - على قناعة بإمكانية تحقيق الاشتراكية وبتفوُّقها بوصفها شكلًا اقتصاديًا أعلى، والذين كرّسوا أنفسهم لدراسة النظريات الاشتراكية، وهكذا اعتقدوا، وقد تسلَّحوا بذلك، أن بإمكانهم أن يشغلوا قريبًا مناصب رفيعة في الحركة العمالية، أو بالأحرى في نظام اجتماعي اشتراكي. لكنه كرّس نفسه لهذا الهدف مع الحفاظ على مسافة معينة، كونه بالضبط فاعل خير يساريًا وعاملًا في العلم

كلّما سنحت الفرصة. وبوصفه "بلشفيّ صالونات"، كما وصف نفسه عام 1973 في محاضرة ألقاها بمناسبة مرور خمسين عامًا على قيام معهد البحث الاجتماعي، عمل في عشرينيات القرن الماضي على هامش الجناح اليميني من الحزب الشيوعي الألماني. فهو لم ينخرط قط في هذا الحزب، على الرغم من أنه كان صديقًا لكلارا تسِتكين وباول فروليش، وتزوّج ابنة اشتراكي قديم وصديقة جدًا لتستكين. كان يموِّل إلى حدّ بعيد دار نشر ماليك في برلين، التي كان من بين ما نُشر فيها كتاب جورج لوكاتش **التاريخ والوعي الطبقي**. كما ساعد فنانًا يساريًا مثل جورج غروز (George Grosz). وكانت أولى مظاهر دعمه، تمويله رحلة إلى إيطاليا لغروز وزوجته، وهو لم يكن قد تعرَّف إليهما بعد، في بداية العشرينيات، حينما كان العوز سائدًا في ألمانيا، واستضافهما أيضًا بسخاء في كاستيلّو براون في بورتوفينو. كذلك ساعد الزعيم السابق للحزب الشيوعي الألماني إرنست ماير (Ernst Meyer) المريض المغضوب عليه وزوجته المريضة أيضًا بتمويل إقامة استجمام طويلة الأمد.

قبل أي شيء آخر، حاول فليكس فايل القيام بشيء يخدم به النظرية الماركسية. وكان هذا يعني أيضًا احتكاكًا محيطيًا بالحزب الشيوعي الألماني. لم يكن هذا الحزب في مرحلته الأولى بعد مثبتًا على مصالح الاتحاد السوفياتي وعلى الطريق البلشفي نحو الاشتراكية. كان الحزب الشيوعي الألماني قد تطوَّر انطلاقًا من تيار يساري من الديمقراطية الاجتماعية الألمانية، وكان يستطيع، على خلاف أحزاب شيوعية أخرى، أن ينظر إلى الخلف، إلى أصول كانت مستقلة عن الثورة الروسية. عندما عُقِد مؤتمر الرايخ لعصبة سبارتاكوس قبل فترة وجيزة من اتحاده مع شيوعيي ألمانيا الأمميين (الأصوليون اليساريون في بريمن) في الحزب الشيوعي الألماني نهاية عام 1918 وبداية 1919 في برلين حيث كان ينعقد مؤتمر الرايخ لعصبة سبارتاكوس، كانت روزا لوكسمبورغ (Rosa Luxemburg) وليو يوغيش (Leo Jogisches) يناديان بتسميته "الحزب الاشتراكي"، وهذا يُنصح به بالنظر إلى مهمة الحزب الجديد بأن يقيم "الصلة بين ثوريي الشرق واشتراكيي أوروبا الغربية"، ولضرورة أن يكسب أولًا جماهير أوروبا الغربية لمصلحة الأهداف الخاصة. وقد سبق أن سيطر مع ذلك اليسار المتطرّف والطوباوية الراديكالية في المؤتمر التأسيسي للحزب. كانت مشكلة

الحزب الشيوعي الألماني منذ البداية تكمن في حقيقة أنه جذب في المقام الأول مجموعات هامشية من العمال من خارج التنظيمات القائمة، وكانت مليئة بالحماسة للعمل، لكن من دون خبرة سياسية.

أن يتخذ الحزب الشيوعي الألماني من أنشطة مقاومة عمال بعض المصانع هنا وهناك ضدّ نزع شرطة الأمن البروسية في آذار/ مارس 1921 سلاحهم فرصةً للدعوة إلى الإضراب العام والتسلُح، حيث قام الحزب بتحريض العمال على الهجوم على مقارّ حزبهم، وعلى مسلّة النصر في برلين، وما إلى ذلك، وأن يصاب في هذا كله بهزيمة واضحة، كانا كافيين - كما سابقًا في معارك برلين في كانون الثاني/ يناير 1919 أو لاحقًا في "تشرين الأول/ أكتوبر الألماني" عام 1923 الذي فشل فشلًا ذريعًا - لأن يُحكم عليه بوصفه نزعة انقلابية، وأن يُنظر إليه حتى من الشباب اليساريين النافدي الصبر، كدليل على الاستعداد للعمل الثوري. استطاعت مراحل سياسة الجبهة الوحدوية، أي جهود التعاون بين الحزب الاشتراكي الديمقراطي والنقابات العمالية، أن توقظ من جديد انطباع القدرة على تحالف عقلاني. حينما استخلصت في أوائل العشرينيات - مع تطبيق السياسة الاقتصادية الجديدة (NEP) في الاتحاد السوفياتي وإدخال نهج حياة جديد مع الدول الرأسمالية - النتائج من عدم قيام ثورات غربية، وكانت مرحلة الأزمة في ألمانيا، والأمل في تدويل الثورة لا يزالان قائمين، وحينما لم تحدث بعد "بلشفة" الحزب، وحين بدا أن المجال لخلافات داخل الأحزاب ولنقاشات نظرية لا يزال متاحًا، في هذه المرحلة ظهرت سلسلةٌ من المحاولات لمثقفين اشتراكيين للتفكير في طابع ووظيفة النظرية الماركسية وممارستها. كان "أسبوع العمل الماركسي الأول" في ربيع عام 1922 إحدى هذه المحاولات. وكان صاحبا المحاولة هما فليكس فايل الذي موّل المشروع، وكارل كورش. عقد اللقاء في فندق في إيلمِناو، وهي بلدة صغيرة جنوب شرق ييّنا على سفوح الغابة التورينغية، مقرِّ مدرسة الشعب العليا في مقاطعة تورينغن. كان من بين المشاركين الأربعة والعشرين، إضافةً إلى صاحبي المشروع وزوجتيهما، جورج لوكاتش، وكارل أوغوست وروزه فيتفوغل، وفريدريش بولوك، ويوليان وهِدِه غومبرتس، وباول ماسينغ،

وريتشارد وكريستيانه سورغه، وإدوارد ألكسندر، وبيلا فوغاراسي[7]. كانوا بمجملهم مثقفين، ومعظمهم دكاترة. كانوا جمعيهم تقريبًا أعضاء في الحزب الشيوعي الألماني. وكانوا جميعًا، باستثناء كورش ولوكاتش وألكسندر، دون سن الثلاثين. من اللافت للنظر أن الكلام في مذكرات هِذِه ماسينغ هو عن "لقاء لطلاب ماركسيين"[8]. كان لنصف المشاركين تقريبًا في ما بعد علاقةٌ، بشكل أو بآخر، مع معهد البحث الاجتماعي. كانت منطلقات النقاش - معطياتُ المشاركين القليلة والمختلفة تجبرنا على تخمينات - في معظمها على الأرجح محاضرات لكورش ولوكاتش في الموضوعات التي كانت محور كتبهم التي صدرت في السنة اللاحقة. تشارك كورش، انطلاقًا من تصورات ديمقراطية راديكالية للتحويل الاشتراكي، ولوكاتش، انطلاقًا من تصوّر ثقافة يمتلكها إلى أقصى حد جميع أعضاء المجتمع، الأملَ في بروليتاريا تعمل بوعي ذاتي، بروليتاريا لا تنظر إلى العالم بمنظارِ نزعة كاوتسكية [نسبة إلى كاوتسكي] تطوُّرية أو بمنظار نزعة إصلاحية تنطلق من بقاء لامحدود للرأسمالية، بل تدركه من منظور فهم مادي للتاريخ مشبع بالروح الجدلي للفلسفة الهيغلية. كان لمقبوس ماركس في نهاية كتاب كورش **الماركسية والفلسفة** - "لا يمكنكم أن تلغوا الفلسفة من دونِ أن تحقِّقوها" - في تلك الحالة معنًى ملموس. كان يعني أن وظيفة مهمة قد أُنيطت بالمثقفين المستعدين للتحالف مع البروليتاريا. لم يكن هذا ليعني أن عليهم ترك ثقافتهم، بل كان يعني توصيلها إلى العمّال. "تربية الموهوبين وصعودهم، وتقسيم العمل" أصبحت موضوعًا لأسبوع عمل ماركسي ثان[9].

اجتماع المثقفين في إيلمِناو، الذي لم يُعقد في إطار الحزب الشيوعي الألماني بل في محيط الحركة الشيوعية إلى حد ما، جعل المشتركين يستشعرون الصعوبات التي تنتظر العلاقة بين المثقفين الاشتراكيين والشيوعيين المنظَّمين في حال أضحى التحضير للثورة حالةً مستدامةً، وفي حال أصبح

---

(7) ينظر بشكل خاص:
Michael Buckmiller, *Karl Korsch und das Problem der materialistischen Dialektik*, p. 403, anm. 195.

(8) Hede Massing, *Die große Täuschung: Geschichte einer Sowjetagentin*, p. 69.

(9) Migdal, *Die Frühgeschichte*, p. 35.

حزبٌ من ثوريين محترفين ينظرون بريبة إلى الجماهير التي يمثلونها، ولا سيما إلى أعضائه الناقدين لأنفسهم، في المعسكر المضاد. بدا في أثناء لقاء إيلمِناو أن كل شيء ممكن. كان كورش - المدرِّس الجامعي في فيينّا منذ أيار/ مايو 1920، والعضو في الحزب الشيوعي منذ كانون الأول/ ديسمبر من العام نفسه - مثالاً للمحاولة النادرة التي تتمثل في إظهار المثقف الأكاديمي موقفًا ثوريًا علنيًا. أما لوكاتش - الذي أخفق مرات عدة في نيل شهادة الأستاذية، وكان منذ كانون الثاني/ ديسمبر 1918 عضوًا في الحزب الشيوعي الهنغاري[10] - فقدَّم، على العكس، صورة قيادي في الحزب الشيوعي أصرَّ على استخدام قدراته الثقافية والاعتراف بها. في حين كان ريتشارد زورغه (Richard Sorge) - عضو الحزب الشيوعي الألماني النشط في الخفاء ومساعد لأستاذ العلوم الاقتصادية كورت ألبرت غرلاخ (Kurt Albert Gerlach) - في الأساس عضوًا في الحزب الشيوعي، وكان نشاطه الثقافي ينحصر في التمويه على عمل الحزب.

التقت رغبة فايل في مأسسة النقاش الماركسي بعيدًا عن ضغوط العمل العلمي البرجوازي وبعيدًا عن العناد الأيديولوجي لحزب شيوعي، مع المشاريع الإصلاحية لكورت ألبرت غرلاخ صديق ريتشارد زورغه، الذي كان يُعتبر أحد المثقفين الأكاديميين الذين كانت حرية العلم والمصلحة العملية في القضاء على البؤس والقمع، بالنسبة إليهم، شيئين متلازمين. ولد غرلاخ عام 1886 في هانوفر ابنًا لمدير مصنع. وبعد إقامة طويلة في إنكلترا، حيث أثَّرت فيه تأثيرًا عميقًا جمعية فابيان، نال شهادة الأستاذية في لايبزيغ بعمل عن **أهمية حماية العمال الداخلية**. ثم أصبح، ولسنوات عديدة، مساعدًا في معهد كيل للاقتصاد العالمي والنقل البحري الذي وضع نفسه في أثناء الحرب في خدمة التغلُّب على المشكلات الاقتصادية الناتجة من الحرب. وهذا كان من الأسباب التي جعلت والد فليكس فايل يدعمه بتبرعات مالية وبتقارير ومقالات. منذ عام 1918، كان غرلاخ، وقد أصبح ديمقراطيًا اجتماعيًا يساريًا، يجمع في بيته طلابًا لمناقشات حول النظريات الاشتراكية. وكان في عام 1920، وقد غدا في غضون ذلك أستاذ كرسي العلوم الاقتصادية في آخن

(10) يُنظر ص 118 في هذا الكتاب.

(Aachen)، الأصغر والأكثر راديكالية من بين الخبراء الذين كان اتحاد السياسة الاجتماعية يستشيرهم في قضايا البحث في شأن إصلاح الدراسات الجامعية في العلوم السياسية. في عام 1922 جاءته دعوة جامعة فرانكفورت، وسنحت له، في الوقت نفسه، الفرصة للاشتراك مع فليكس فايل في بناء معهد مخصَّص لدراسة الاشتراكية العلمية.

كانت ظروف انطلاقة مشروع غرلاخ وفايل مؤاتية للغاية:

- أبٌ ثري يريد أن يدخل تاريخ المدينة (فرانكفورت) كمحسن، ويتطلّع إلى الحصول على دكتوراه فخرية. وكان قد قام في عام 1920 بمحاولة فاشلة لإنشاء مؤسسة تشجع - بحسب نظامها الداخلي - "البحث والتدريس في مجال العلوم الاجتماعية، خاصةً قانون العمل ودستور العمل"، بغية تحسين عمل معاهد العلوم الاجتماعية ودعم الطلاب والأكاديميين الشبان الأكفاء الذين كانوا "يسعون إلى حل المشكلات الاجتماعية علميًا، بروحية السلام الاجتماعي"؛ وكان على استعداد حتى لتمويل معهد للعلوم الاجتماعية ذي ميل يساري على غرار معهد ماركس - إنغلز في موسكو، سواء أكان ذلك انطلاقًا من ضمير معذَّب واهتمام بالمسيرة الأكاديمية لابنه الذي أصبح الآن متعاطفًا مع الماركسية أم أملًا بتشجيع العلاقات التجارية لشركته مع أوكرانيا الروسية السوفياتية[11]؛

- مدينةٌ يشكِّل فيها اليهود النسبة المئوية الأكبر من السكان مقارنة بالمدن الأخرى، وثاني أكبر جماعة يهودية بعد برلين وأوسعها شهرة؛ مدينة هي الأكثر تميزًا في العطاء داخل الطبقة البرجوازية الكبرى وبدرجة خاصة للمنشآت التربوية ذات التوجُّه الاجتماعي والسياسي-الاجتماعي أو السياسي-الاقتصادي، وفيها افتُتحت جامعة خيرية قبل بداية الحرب العالمية الأولى احتوت بدلًا من كلية اللاهوت المعتادة كلية للعلوم الاقتصادية والاجتماعية؛ مدينةٌ كانت فيها نسبة المتحمِّسين البرجوازيين للاشتراكية والشيوعية عالية على نحو غير عادي، وشكَّل فيها عالم الصالونات والمقاهي منطقةً رماديةً لحياة برجوازية-ليبرالية كان التفريق فيها بين الحفاظ على المسافة الملزِمة وغير الملزِمة عن الطبقة الخاصة بكل فريق صعبًا جدًا؛

---

(11) بحسب فكرة لبيتر فون هازلبرغ (Peter von Haselberg).

- وزارة ثقافة يسيطر عليها الديمقراطيون الاجتماعيون، مهتمة بإصلاح الجامعات التي لا يمكن السيطرة عليها، وتريد أن تدعم ما يتفق مع تشجيع التوجُّه الاجتماعي للجامعات؛

- أستاذٌ اشتراكي يساري، راكم خبرات في معهد كيل للاقتصاد العالمي والنقل البحري الذي أُسِّس في عام 1911، وهو المعهد الأول في ألمانيا في مجال العلوم الاقتصادية والاجتماعية. آمن بإمكان بناء البحث والتعليم الاشتراكي في جامعة تمَّ إصلاحها، وأعدَّ سلفًا المشاريع الأولى لحقل الاختصاص الخاص به.

اتبع فايل وغرلاخ في تحقيق مشروعهما مقاربتين. وقبل أن يتَّصلا بجامعة فرانكفورت، تفاهما مع الوزارة البروسية للعلم والآداب وتربية الشعب في برلين. هناك وضَع فايل بصراحة - بحسب شهادته الخاصة - مخططاته، بشكل مختلف عما كان في مناقشاته مع الجامعة. في رسالة إلى الوزارة في نهاية العشرينيات، حينما حدثت خلافاتٌ بشأن خلافة مدير المعهد المريض كارل غرونبرغ (Carl Grünberg)، كتب فايل: "باستطاعة صاحب المشورة فِندِه [...] أن يؤكّد أنه سبق لي في مفاوضاتي الأولى معه أن وضَّحت، أننا (صديقي الراحل الأستاذ كورت ألبرت غرلاخ وأنا) ننوي تأسيس معهد وظيفته في المقام الأول أن يخدم دراسة الماركسية العلمية والتعمُّق فيها. [...] عندما رأينا ما هي أفضل شروط العمل التي يمكن توفيرها لمعظم العلوم، لا بل لتلك الفروع العلمية التي لم تكن تعتبر حتى الآن 'فروعًا علمية جامعية' (إدارة الأعمال وعلم الاجتماع وما شابه)، عندئذ تبادرت إلى أذهاننا فكرة أنه يجب ويمكن أن تُشجع دراسة الماركسية بطريقة ملائمة. [...] طموحاتنا التي ساندها صديقي الراحل، الوزير السابق كونراد هينيش[12] وجدت تفهُّمًا تامًّا من الوزارة. حتى أن الوزارة سرَّعت في المباحثات [...]"[13].

---

(12) كان أول من نادى بإصلاحات جذرية، وتقلد كاجتماعي ديمقراطي منصب وزير الثقافة في بروسيا لمدة قصيرة.

(13) رسالة من فايل إلى وزير العلوم والفنون والتربية الشعبية، 1 تشرين الثاني/ نوفمبر 1929.

في مذكِّرة غرلاخ التي شكَّلت الأساس للمفاوضات مع الجامعة، لم يكن الكلام عن الماركسية إلا على الهامش. جاء في المذكّرة: "يمكن الاعتقاد بأنه يندر اليوم أن يوجد بعد أحدٌ باستطاعته أن يُغمض عينيه عن مدى الأهمية العلمية والعملية لمعرفة الحياة الاجتماعية والتعرُّف إليها بكل شموليتها. الحياة الاجتماعية هي شبكة مهولة من التأثيرات المتبادلة بين الأساس الاقتصادي والعوامل السياسية-القانونية وصولًا إلى تفرّعات الحياة الروحية في الجماعة والمجتمع. يكفي التذكير فقط ببعض المسائل مثل الحياة النقابية العالمية، والإضراب، وأعمال التخريب، والثورة بوصفها حركة أجور، ومعاداة السامية كمشكلة سوسيولوجية، والبلشفية والماركسية، والحزب والجماهير، ونظام معيشة طبقات الشعب المختلفة، وإفقار ألمانيا. ومثلما يصرّ المنظِّر على مجال العلوم التجريبية أقلَّ من أي وقت مضى من دون تواصل دائم مع حياة الواقع النابضة، يصبح من المستحيل حينئذ على الخبير المتمرس من دون العناية بالفكر ومن دون استخدام النتائج والمناهج العلمية أن يحصل على نظرة شاملة على الشبكة المتداخلة لمجمل العلاقات الاقتصادية والاجتماعية. لكن بعد ذلك تتزاحم غريزة المعرفة والضرورات في كل ساعة في الحياة الاجتماعية للحاضر [...]. ينبغي للعلوم الاقتصادية والاجتماعية بعد مرور عقود طويلة من الخلاف حول المناهج أن تكون قد بلغت درجة من التطوّر، حيثما تحققت في أي حال - مهما كانت تفاهة هذه المشكلة - شروط وإمكانات هذا النظام العلمي، بحيث يغدو من الممكن الإقدام بموضوعية بعيدة المدى على البحث في الحياة الاجتماعية، خصوصًا عندما لا يكون الموجِّه صدور أي رأي أو موقف في الشأنين الاقتصادي والسياسي-الاجتماعي، بل يكون الموجّه هو موقف البحث وحده. ثمّ إن جمع المواد والوقائع اليوم مهمة يستحيل على الفرد أن يقوم بها، بل لا يمكن أن يقوم بها إلا تنظيمات بقياس أكبر؛ وتتطلّب السياقات الاجتماعية المتداخلة أيضًا العمل التعاوني الفكري المشترك. يمثِّل، إذًا، تأسيس معهد للبحث الاجتماعي مكرّس خصيصًا لهذه المهمات ضرورةً ملحّة، ويساعد في ملء فجوة لا تزال قائمة في سلسلة المعاهد الموجودة"[14].

---

(14) **مذكرة حول تأسيس معهد للبحث الاجتماعي**، ملحق لرسالة فايل إلى مجلس أمناء جامعة فرانكفورت أ. م، 22 أيلول/ سبتمبر 1922.

لم يكن تغير هذا اللون بين الماركسية العلمية والبحث الاجتماعي الشامل ليُثير على الأرجح قلق العاملين في وزارة الثقافة البروسية. إن ماركسيةً حديثةً بمعنى علم اجتماع حديث كانت تُعدُّ من بين ما كان يتمناه للجامعات الاشتراكيون الديمقراطيون الذين كانوا، إلى حدّ ما، يقررون دائمًا في العشرينيات السياسةَ في بروسيا التي كانت فرانكفورت جزءًا منها. وكان كارل هاينريش بِكر (Carl Heinrich Becker) يشاركهم الرأي بكثير أو قليل، وهو الذي كان يعمل في العشرينيات دون انقطاع كوكيل وزارة، أو بالأحرى كوزير في السياسة الثقافية البروسية والألمانية. طالبَ بِكر الذي لم يكن هو نفسه اشتراكيًا ديمقراطيًا، وكان، بحسب تصريحاته، ملكيًا جيدًا قبل عهد فايمار، لكنه كان - بصفته خبيرًا ميالًا إلى الإصلاحات - يحظى بتقدير السياسيين الاشتراكيين الديمقراطيين، طالبَ في عام 1919 بتخطي التخصُّص وإدخال موادَّ تعليمية تكوينية جديدة إلى الجامعات. وهكذا فإنه رفع من شأن علم الاجتماع، لأنه يتألف "عمومًا من التركيب حصرًا"، ولهذا السبب يشكّل وسيلة تربوية مهمة. "الكراسي التعليمية لعلم الاجتماع ضرورة ملحّة لكل الجامعات. وبذلك يتوجَّه التفكير إلى علم الاجتماع بمعناه الأوسع، وهو يشمل السياسة العلمية والتاريخ"[15]. أدّت مقاومة أساتذة الاختصاصات المثبتة الذين حاول بعضهم التشهير بعلم الاجتماع على أنه اشتراكية، أدَّت بهذا العلم المختلَف حوله، والذي لم يكن واضح المعالم بعد إلى أن يصبح، في البداية، مهمًا على وجه الخصوص في مراكز التثقيف خارج الجامعات، وفي الجامعات الشعبية والمدارس التخصصية.

إن ما رجَّح نجاح فايل وغرلاخ في أن يكون مشروعهما معهدًا متصلًا بالجامعة، لكن مستقلًا عنها وملحقًا مباشرةً بالوزارة، كان، إضافة إلى دعم الوزارة الراضية عنه، التبرُّع السخي في وقت الضيق والتقييدات المالية. كانت عائلة فايل على استعداد لتمويل بناء المعهد وتجهيزه، ولدفع مبلغ 120,000 مارك سنويًا، والتخلي عن الطابق السفلي من المبنى إلى كلية العلوم الاقتصادية والاجتماعية، وكانت على استعداد حتى لتمويل الكرسي التعليمي أيضًا الذي كان يشغله مدير المعهد في تلك الكلية. عانت كلية الاقتصاد والاجتماع، التي

(15) Carl H. Becker, *Gedanken zur Hochschulreform*, p. 9.

لم يَرُق لها إطلاقًا هذا القدْر من استقلالية المعهد، من نقص كبير في الأماكن بسبب الازدياد السريع في أعداد الطلبة، حتى أنها راحت تطالب بالإسراع في إنشاء المعهد. لم ينجح معارضو مشروع المعهد - مثل أمين مجلس الجامعة الإداري - الذين كانوا يخشون من استغلال قاعات المعهد لأغراض سياسية حزبية، إلا في فرض فقرة في العقد بين المدينة وجمعية الأبحاث الاجتماعية، تقضي بعدم السماح باستخدام المعهد لأغراض أخرى غير أغراض البحث العلمي الاجتماعي إلا بعد موافقة خطية من إدارة البلدية[16].

في بداية عام 1923 صدرت الموافقة الوزارية على "إقامة معهد للبحث الاجتماعي في جامعة فرانكفورت كمنشأة علمية، تخدم في الوقت نفسه غايات تعليمية للجامعة". في آذار/ مارس بوشر بالبناء. كان معهد فرانكفورت المعهد العلمي الاجتماعي الثاني بعد معهد أبحاث العلوم الاجتماعية في كولونيا الذي ابتدأ العمل فيه عام 1919 في قسمين من الأقسام المخطَّط لها: قسم علم الاجتماع، وقسم علم الاجتماع السياسي. مع بناء المعهد، وهو أحد منشآت مدينة كولونيا، عُهِد إلى كريستيان إكرت أن يديره، وهو الذي أصبح أول رئيس لجامعة كولونيا المؤسسة حديثًا في عام 1919، وقد نشأت، على غرار جامعة فرانكفورت، من كلية اقتصاد وتجارة، وتميزت من باقي الجامعات التقليدية بالاهتمام بالعلوم الاقتصادية والاجتماعية. إلى جانب معهد كيل للاقتصاد العالمي والنقل البحري في كيل الذي سبق أن أسَّسه قبل الحرب برنارد هارمز ومعهد كولونيا للبحث الاجتماعي، كان معهد البحث الاجتماعي [في فرانكفورت] الأهمَّ في ميدان العلوم الاقتصادية والاجتماعية. كان لهذه المعاهد الثلاثة الموجودة حتى اليوم معالم مشتركةٌ بارزةٌ (وهي مع ذلك لا تنطبق على معهد كولونيا إلا جزئيًا): وضع المؤسسات الجامعية التي لا تخضع لإدارة الجامعة، بل كانت تتبع مباشرةً لوزارة الثقافة أو بالأحرى للمدينة؛ وأولوية العمل البحثي؛ والميل نحو استخدام مزايا المؤسسة الكبيرة؛ وعلاقةٌ بين المعهد والجامعة بهذا الشكل، بحيث كان مديرو المعهد، قبل كل شيء، أساتذةً ذوي كراسٍ في الجامعة في الوقت نفسه، وكذلك أُشرِك الطلبة المتقدِّمون في دراستهم في الأعمال البحثية.

(16) يُقارن:

Migdal, p. 99.

كان هناك فارق مهم بين المعاهد في ما يتعلّق بالتمويل وبتحديد الاتجاه الأيديولوجي. جرى تأمين تمويل معهد كيل في البداية من طريق جمعية داعمة أُسِّست في عام 1913. هذه الجمعية الداعمة التي كانت تضمُّ 200 عضو في بداية الحرب العالمية الأولى، وبلغ عدد أعضائها 2500 في نهاية العشرينيات، لم يكن لها تأثيرٌ على استخدام الأموال التي كانت تحوَّل أولًا إلى صندوق الجامعة، وتوضع بعد ذلك بتصرف مدير المعهد. مع تأسيس "المعهد الملكي للنقل البحري والاقتصاد العالمي" في جامعة كريستيان ألبرخت في كيل، وبمساعدة متبرعين كبار مثل كروبّ فون بوهلن أوند هالباخ الذي مكّن في نهاية "عام 1918 المشؤوم" (هارمز) المعهد من شراء مجموعة من المباني في خليج كيل، لكن كان هناك تقليدٌ يحرص، بما يتفق مع التعاون الوثيق مع الرجال الزعماء في الاقتصاد، والإدارة والسياسة، على ألا يتخطى مجال الأيديولوجيات المقبولة الإطار المعهود للجامعات الألمانية.

موّلت المدينة معهد كيل (حيث بلغت موازنة السنة الأولى 120,000 رايخ مارك). واكتسب "نظام الزمالة" و"التعاون" المثمر [...] "بين شخصيات جدية على أرضية اتجاهات أيديولوجية متعارضة" اللذين تحدث عنهما إكرت في روايته عن المعهد[17]، كيانًا حقيقيًا بمعنى التناسب بين الأحزاب. فبصفته عالم اجتماع ذا خلفية اشتراكية ديمقراطية، أصبح وزير الدولة السابق في مقاطعة فورتمبرغ، هوغو ليندمان، مديرًا لقسم الاجتماع السياسي. وتولى إدارة قسم علم الاجتماع كلٌّ من ليوبولد فون فيزه (Leopold von Wiese)، بصفته عالم اجتماع ذا خلفية ليبرالية، وماكس شلر (Max Scheler) - نزولًا عند رغبة كونراد أديناور عمدة مدينة كولونيا - بصفته أحد أبرز المنتمين إلى الفكر الكاثوليكي.

ميّزت معهد فرانكفورت بنية مؤسساتية تضمن لهذا الطيف السياسي أن يتوسع نحو اليسار. بالتماثل مع "جمعية تشجيع معهد الاقتصاد العالمي والنقل البحري في جامعة كيل"، أوجدت مؤسسة آل فايل "جمعية الأبحاث

(17) C. Eckert, *Kölner Vierteljahreshefte für Soziologie*, h. 1 (1921), pp. 16 f.; Ludolph Brauer, Albrecht Mendelssohn-Bartholdy, Adolf Meyer (hg.), *Forschungsinstitut*, band 2: *Ihre Geschichte, Organisation und Ziele*, pp. 290 f.

الاجتماعية، جمعية مسجلة". أما أعضاء هذه الجمعية فهُم، إضافة إلى الاثنين من أسرة فايل اللذين يرأسان الجمعية، بعض الأشخاص الذين كانوا أصدقاءهم أو من معارفهم، مثل غرلاخ، زورغه، هوركهايمر وكيته فايل. وبما أن مدير المعهد يعيّنه وزير الثقافة بالاتفاق مع جمعية الأبحاث الاجتماعية، فقد كان باستطاعة فليكس فايل أن يقرر من سيكون المدير، وهكذا بما أنه كان باستطاعة المدير أن يدير المعهد بطريقة دكتاتورية إلى حد بعيد، كان يمكن فايل، مرة أخرى، أن يثبت الخط الأيديولوجي السائد في المعهد بحسب تقديره.

كان غرلاخ الرجلَ المثالي في نظر فايل: شابٌّ، من سلك جامعي متين و"شيوعي نبيل". لكن غرلاخ توفي في سنّ السادسة والثلاثين، في تشرين الأول/ أكتوبر 1922 بداء السكَّري، هذا المرض الذي كان الأطباء في ذلك الزمان يقفون عاجزين أمامه. كان رجلان من فرانكفورت على معرفة بفليكس فايل يشجعانه في مشروع المعهد، هما فريدريش بولوك (Friedrich Pollock) وماكس هوركهايمر، كانا نعم "أكبر في السنّ قليلًا [...] مما يكون الطالب عادةً، لأنهما كانا يريدان أصلًا أن يصبحا تاجرين وأن يتولّيا مصانع أبويهما"، وكانا هما "الوحيدين اللذين حصلا في ذلك العام، 1923، في كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بجامعة فرانكفورت، على شهادة الدكتوراه بأعلى درجة مع المديح"[18]؛ لكنهما لم يكونا في الحسبان البتة لقيادة المعهد. بعد وفاة غرلاخ، تفاوض فايل أولًا مع غوستاف ماير (Gustav Mayer) البالغ من العمر 51 عامًا - اشتراكي ديمقراطي يعيش في برلين، وصحافي سابق اشتهر بكتاب ضخم ظهر الجزء الأول منه في عام 1919 بعنوان **السيرة الذاتية لإنغلز**، ويهودي، وفي العشرينيات أستاذ من خارج الملاك للتاريخ في جامعة فريدريش فيلهلم في برلين - وسرعان ما تبيّن أن ماير كان يتبنّى موقفًا أيديولوجيًا وسياسيًا مخالفًا لموقف فايل. إلا أن "التعاون الودّي بين مؤسِّس المعهد ومديره "من أجل شيء مشترك" كان، في نظر فايل، الشرط لكي تحقِّق المؤسسة معناها.

(18) شريط مسجل مأخوذ من معهد البحث الاجتماعي نقلًا عن تقرير لبولوك عام 1965، في:
Ernest Herhaus, *Notizen Während der Abschafung des Denkens*, pp. 41, 48.

وُفِّق فايل أكثر مع كارل غرونبرغ.

وُلد غرونبرغ في فوكشاني في رومانيا (الواقعة على السفوح الشرقية من جبال الكاربات الشرقية) عام 1861 لأبوين يهوديين نمساويين. وفي سن العشرين ذهب إلى فيينا لدراسة الحقوق. كان من بين أهم أساتذته لورنس فون شتاين وأنطون منغر؛ الأول أستاذٌ محافظٌ في العلوم السياسية، كان يرى في المجتمع الرأسمالي الأرضية الملائمة لتحقيق الحرية الشخصية بقدر ما كانت الطبقة المالكة تسعى بلا كلل بمساعدة الدولة لأن تبقي الأوضاع المزرية ضمن حدود عبر إصلاحات اجتماعية، والثاني رجل قانون اشتراكي راديكالي انتقد في أعمال قانونية اجتماعية، انطلاقًا من موقف عقلاني مستنير، نظامَ المُلكية الخاصة. في عام 1892 غيّر غرونبرغ دينه واعتنق الكاثوليكية بغرض تثبيته محاميًا عام 1893، وبدء مسيرته الجامعية في عام 1894 مدرسًا للاقتصاد السياسي في جامعة فيينا. كتب غونتر ننينغ (Günther Nenning) في أول سيرة ذاتية مفصلة عنه: "كان غرونبرغ قد قدم من موطنه رومانيا إلى فيينا كطالب شديد العوز قصد الدراسة. قام هو نفسه بتمويل دراسته، كما دعم أيضًا أخاه الأصغر يوس (Jus) الذي قدم معه بهدف الدراسة. ويبدو أن ممارسة المحاماة لم تحسن أحواله المادية، لأنه تخلى عنها بعد أربع سنوات مفضّلًا عليها وظيفة في المحكمة بمرتّب قليل، لكن منتظم"[19].

في هذه السنوات كتب غرونبرغ رسالة التأهيل للأستذة في ألف صفحة تقريبًا عن **تحرير الفلاحين وحلّ العلاقة بين ملاكي الأرض والفلاحين في بوهيميا ومورافيا وسيليزيا**؛ رسالةٌ كان قد اقترحها غيورغ فريدريش كناب، ممثِّل المدرسة التاريخية الحديثة، وكان قد تعلَّم على يده بين عامي 1890 و1893 كطالب متقدِّم. ومن بين أعماله العلمية الأخرى التي ألفها في تلك الفترة، دراسةٌ في خمسين صفحة حول **الاشتراكية والشيوعية والفوضوية** كمساهمة في كتاب لودفيغ إلستر (Ludwig Elster) الذي نُشر في عام 1897 بعنوان **قاموس الاقتصاد القومي**.

(19) مجلد فهارس ملحق بكتاب:
Carl Grünberg, *Archiv für die Geschichte des Sozialismus und der Arbeiterbewegung*, p. 43.

وحالما أصبحت حياة غرونبرغ مؤمَّنةً بفضل اشتراكي المنبر أويغن فون فيليبوفيتش الذي شجّع تسميته أستاذًا من خارج الملاك للاقتصاد السياسي في جامعة فيينا نهاية عام 1899، تخلَّى غرونبرغ عن كل نشاط حقوقي عملي، ليكرِّس حياته كليًا للعلم. وفي عام 1910 أسَّس **أرشيف تاريخ الاشتراكية والحركة العمالية**. وكان من بين تلاميذ "الاشتراكي المنبري" غرونبرغ - بحسب نتّينغ - الماركسيون النمساويون ماكس آدلر، وكارل رِنر، ورودولف هيلفردنغ، وغوستاف إكشتاين، وفريدريش آدلر، وأوتو باور. لكن غرونبروغ ذهب في نشاطه العلمي النظري إلى أبعد من المجال الأكاديمي. فقد كان أحد ملهِمي الجامعات الشعبية في فيينا ورابطة الثقافة الاشتراكية. وتحسبًا من أن يلقى مصير زميل له، هو المؤرخ لودو موريتس هارتمان الذي لم تتم ترقيته إلى أرفع من مدرّس جامعي بسبب انتسابه إلى الحزب الاشتراكي الديمقراطي، لم يُقدِم غرونبرغ قبل عام 1919 على الانتساب إلى حزب سياسي. حصل في عام 1912، وكان في الحادية والخمسين من العمر، بعد ممانعات عديدة، على كرسي جامعي، إنما ليس لكل الاقتصاد السياسي، بل لتاريخ الاقتصاد الحديث. وحين أصبح أوتو غلوكل (Otto Glöckel) الاشتراكي الديمقراطي مدير دائرة التعليم، أُلحق بغرونبرغ أيضًا اختصاص الاقتصاد السياسي القومي، وعُهدت إليه إدارة معهد الاقتصاد السياسي.

اقترح غرونبرغ على أوتو غلوكل في عام 1919 أن يؤسِّس في فيينا "معهد دراسات وأبحاث على غرار 'المتحف الاجتماعي'" في باريس، وأن يعيّن كارل كاوتسكي مديرًا له. لكن الاشتراكيين الديمقراطيين النمساويين شعروا بأنهم أضعف من أن يستطيعوا تنفيذ هذا المشروع. رأى غرونبرغ في عرض فايل الآن الفرصة السانحة لتحقيق مشاريعه الخاصة تحت إدارته، وليفلت، في الوقت نفسه، من كثرة الواجبات الوظيفية وغير الوظيفية في فيينا. ومن جهته، وجد فليكس فايل في شخص غرونبرغ مديرَ معهد، لكونه ماركسيًا حتى النخاع وعالمًا معترَفًا به أيضًا. وافقت كلية الاقتصاد والعلوم الاجتماعية من فورها على غرونبرغ، وقررت في بداية كانون الثاني/ يناير 1923، بالإجماع، أن تقترح على الوزير استدعاء غرونبرغ إلى كرسي التعليم الجامعي لعلوم الاقتصاد القومي الذي سوف تتبرع به جمعية الأبحاث الاجتماعية.

كان من الصعب جدًا على فايل أن يجد لأهدافه مرشحًا أكثر كفاءة. لم يكن ليُسأل كورش ولوكاتش إن كانا مستعدَّين لتولّي إدارة المعهد، لأنهما كانا سيثيران، بوصفهما شيوعيَّين نشيطَين، احتجاج الجامعة بأكملها. ولم يكن اشتراكي منبر منظِّرٌ مثل فيلبراندت - سبق أن شرح ماركس والماركسية في وقت مبكر شرحًا ذكيًا جدًا، لكنه رفضهما، وكان يميل، نظرًا إلى تطوُّر جمهورية فايمار بعد شتاء الثورة، إلى الاستقالة - ليلائم كثيرًا تصوُّرات فايل الأيديولوجية والسياسية. وأقلُّ بكثير كان سيرضيه "الاشتراكيان" الآخران البارزان في ذلك الوقت اللذان شغلا كرسيي الجامعة الألمانيين: فرانتس أوبنهايمر (Franz Oppenheimer) ويوهانس بلنغه (Johannes Plenge). فأوبنهايمر - وهو أصلًا طبيبٌ عام، ثم عالم اقتصاد، ومنذ عام 1919 أستاذ كرسي لعلم الاجتماع ونظرية الاقتصاد في فرانكفورت أ. م شغل أول كرسي جامعي لعلم الاجتماع في ألمانيا، هذا الكرسي الذي كان قد تبرَّع بتمويله المواطن من فرانكفورت القنصل كارل كوتسنبرغ خصيصًا لصديقه أوبنهايمر - كان يفضّل كوسيلة شاملة لتحرير المجتمع من الاستغلال تجاوز "حاجز الأرض"، أي القضاء على الملكية الخاصة الكبيرة التي كانت سبب النزوح من الريف إلى المدينة، ومن ثم السبب في ازدياد عرض العمالة في المدينة. أما بلنغه - الذي كان منذ عام 1913 أستاذ كرسي علم الاقتصاد والسياسة في مونستر التي أسس فيها عام 1920 معهد تعليم علم الاقتصاد والسياسة، متأثرًا بما عاشه من تضامن وطني في الحرب وباقتصاد زمن الحرب - فكان يتبنى اشتراكية وطنية منظّمة، كان موضوعها المشاركة الوطنية بين رأس المال والعمل.

لمّا بدأ غرونبرغ عمله في فرانكفورت، بدا وكأن الأزمنة الثورية قد انتهت إلى حين، لكن الثورة والشيوعية بقيتا، كما كانتا، موضوع الساعة. فقد كان عام 1923، بما حصل فيه من إضرابات ومحاولات انقلاب من اليمين ومن اليسار، عام الأزمات الكبرى. فالحزب الشيوعي الألماني ارتفع تأثيره في انتخابات المقاطعات والبلديات، واستمر كذلك حتى بعد استقرار المارك في تشرين الثاني/نوفمبر 1923، والحظر المؤقت للحزب الشيوعي الألماني في شتاء 1923/ 1924. وفي انتخابات المجلس النيابي للرايخ في أيار/ مايو 1924، حصل الحزب المذكور على 3.7 ملايين صوت، أي 12.6 في

المئة (جاء في الترتيب بعد الحزب الاشتراكي الألماني بـ 20.5 في المئة، وحزب الشعب القومي الألماني بـ 19.5 في المئة، وتحالف حزب الوسط/ حزب الشعب البافاري بـ 16.6 في المئة). أن يكون الحزب الشيوعي الألماني قد حُظر بعد محاولة العصيان التي قام بها في تشرين الأول/ أكتوبر 1923 وفشلت فشلًا ذريعًا، فهذا لم يُسئ إلى صورته إلا قليلًا. من 7 إلى 10 نيسان/ أبريل 1924 عقد الحزب الشيوعي الألماني مؤتمره التاسع في فرانكفورت في جو من السرّية، لأنه على الرغم من رفع الحظر عنه في الأول من آذار/ مارس، بقيت الأوامر باعتقال كثيرين من قياديي الحزب سارية المفعول. في ذلك الوقت كان معرض فرانكفورت، فلم يلفت تجمُّع 163 مندوبًا الانتباه. لم تتبيّن الشرطة (كان يقودها آنئذٍ الاشتراكيون الديمقراطيون بتسامح) إلا في نيسان/ أبريل أن المؤتمر الشيوعي كان قد عُقد بضيافة مسيحية فرانكفورتية. لم يكن لمثل هذه الأشياء إلا أن تُثبِّت صورة حزب راديكالي ونشيط، وهي صورة حرصت، بغضِّ النظر عن عدد الأعضاء، على تأثير الحزب الشيوعي الألماني ووزنه. كانت لا تزال "مُنْية قلب فايل"، كما أوردت روزا ماير ليفينه في مذكِّراتها - وهي زوجة أويغن ليفينه الذي أُعدم رميًا بالرصاص في 5 تموز/ يوليو 1919 بناء على حكم عرفي، بسبب مشاركته في الجمهورية الشيوعية الثانية، ولاحقًا زوجة إرنست ماير الذي كان زعيم الحزب الشيوعي الألماني في أعوام 1921/ 1922 و1926/ 1927 - "أن ينشئ معهدًا على غرار معهد ماركس - إنغلز في موسكو، مجهزًا بطاقم من أساتذة وطلبة، وبمكتبات وأرشيف، وكان يأمل أن يتبرّع به يومًا ما لدولة شيوعية ألمانية منتصرة"[20].

كارل غرونبرغ، ماركسيّ المنبر، يؤسِّس معهدًا للأبحاث حول تاريخ الاشتراكية والحركة العمالية

يوم الأحد في 22 حزيران/ يونيو 1924، أقيم في الساعة الحادية عشرة قبل الظهر في القاعة الكبرى لجامعة فرانكفورت الاحتفال الأكاديمي بافتتاح معهد البحث الاجتماعي؛ والمعهد بناءٌ مكعَّبٌ صُمِّم بشكلٍ عملي من الخارج

(20) Rosa Meyer-Leviné, *Im inneren Kreis. Erinnerungen einer Kommunistin in Deutschland 1920-1933*, p. 101.

والداخل. ألقى غرونبرغ بهذه المناسبة كلمة رسمية أوجز فيها برامجه؛ كانت الكلمة بنظر **صوت الشعب** (*Volksstimme*)، صحيفة الحزب الاشتراكي الديمقراطي، "جميلة وعاطفية، واضحة وشجاعة"، وبنظر *Frankfurter Zeitung* (**صحيفة فرانكفورت**) البرجوازية الليبرالية، من "النوع الملحّ، الناقد لنفسه". لم تأتِ هذه التوصيفات كثيرًا على ذكر أن غرونبرغ قد اعتبر الجامعات مؤسسات تعليمية، ومؤسسات لتخريج كبار موظفي الدولة، ومصانع كبيرة لتعليم جماهير موظفين اجتماعيين، وأنه نوَّه في المقابل بأهمية معاهد البحث التي منها معهد البحث الاجتماعي بسبب طابعه البحثي خاصَّةً إلى حدّ بعيد (وبهذا استفاد المعهد من شطب صفة المؤسسة التعليمية من مشروع النظام الداخلي، بناء على طلب من الكلية). كما لم تأتِ تلك التوصيفات كثيرًا أيضًا على ذكر أن غرونبرغ كان يضع معهد البحث الاجتماعي في مقابل المعاهد التي لها دستور يتصف بروح الزمالة، حيث، "إن جاز التعبير، تُثبَّت دكتاتورية المدير". فَهِم كاتبو تقارير الصحف ذلك الجزء من الخطبة الذي أوضح فيه غرونبرغ مجال الاستفادة من مزايا المعهد التي أتى على ذكرها:

"ولكن، أيًا يكن: فقد تبين لي في معهدنا بالذات أن تقاسم الإدارة عمومًا أو بالتحديد في ما يتعلّق بالأيديولوجيا ومنهجيًا كان مقصيًا بالكامل لما هو مخالف، لأن المعهد يتغيا منذ البداية وحدة طرح المشكلة والتغلُّب عليها؛ وهذه الوحدة، بقدر ما يتعلق الأمر بي، ينبغي أن تُنفذ أيضًا.

ولكي تتضح المهمّات العلمية التي أقرَّها المعهد لنفسه واقعيًا، لا بدَّ من استباق ذلك ببعض الملاحظات العامة.

أنتم جميعكم أيها السيدات والسادة، تعلمون ذلك وكلٌ منا يلمسه كل يوم عن كثب، أننا نعيش في مرحلة انتقالية [...].

هناك متشائمون وقفوا أمام تلاشي وزوال كثير مما كانوا معتادين عليه، وما كان مريحًا لهم، وجلب لهم فوائد، وما تعلّقت به أفئدتهم؛ وقفوا مستائين مندهشين في وسط الأنقاض التي خلّفتها عملية التغيير. لم يروا فيها أنقاض **عالمهم** هم فحسب، بل أنقاض **العالم عمومًا**. ما رأوه لم يُظهر لهم موت شيء نشأ ضمن الشرطية التاريخية، وازدهر، ونضج، ولذلك يجب الآن أن يزول، بل رأوا الموت والفناء بذاتهما [...]. في الواقع، إن ما ينقصهم هو فهم جوهر

الحياة، ولكن إذا ما نظر المرء إلى الأساس، فإن إرادة الحياة تنقصهم هي الأخرى أيضًا. لهذا السبب هم لا يستطيعون أن يكونوا معلِّمين ومرشدين، كما هم يرغبون بشدّة [...].

على العكس من المتشائمين هناك متفائلون أيضًا. هم لا يؤمنون بزوال الحضارة الغربية ولا بزوال عالم الحضارة عمومًا، كما أنهم لا يخشون هذا الزوال، ولا يخيفون الآخرين منه [...]. إنهم يرون، مستندين إلى التجربة التاريخية، بدلًا من شكل حضاري متداع شكلًا حضاريًا آخر من نوع أسمى يقترب. هم على يقين من أنَّ: النظام العظيم للعصور يولد من جديد[21]؛ نظام جديد ينبثق من امتلاء الأزمنة. ويحثون، من جهتهم، بوعي من بقي في قيد الحياة أن يتغلَّبوا على أنفسهم من أجل ما سوف يحصل، لكي ينضج على نحو أسرع.

كثيرون هم الذين لا يؤمنون ويرغبون ويأملون فحسب، وعددهم ووزن تأثيرهم يزدادان باستمرار، بل هم مقتنعون علميًا بأن النظام الجديد الناشئ سيكون النظام الاشتراكي، وبأننا موجودون في خضم المرحلة الانتقالية من الرأسمالية إلى الاشتراكية، وأننا ندفعها بسرعة متزايدة. إنني أُجيز لنفسي افتراض أنكم تعرفون أنني أبايع أيضًا هذه الرؤية، وأنني أنتمي أيضًا إلى معسكر خصوم النظامين الاقتصادي والاجتماعي والنظام القانوني الموروثة، وإلى مناصري الماركسية. قبل جيل من الآن، كنت أعتقد أنه عليّ أن أتحفّظ عن دعامة الاشتراكية العلمية، النظرية المادية للتاريخ. أما وقد تعلمت من التطوُّر الذي حصل حتى الآن، فإنني أقلعت عن ذلك"[22].

بذلك اعتنق غرونبرغ الفهم المادي للتاريخ ذي اللون الاجتماعي الداروِيني، كما كان يبشّر به عددٌ كبيرٌ من منشورات وخطابات اشتراكية ديمقراطية منذ ثمانينيات القرن التاسع عشر. ألم يكن هذا الاعتراف العلني بالماركسية، بالمعنى المتفائل بنوع ما من فهم حتمي للتاريخ، رفضًا علنيًا أيضًا للادعاء الأكاديمي بموضوعية علمية؟

---

(21) وردت باللاتينية في النص الأصلي: Magnus ab integro saeculorum nascitur ordo. (المترجم)

(22) Carl Grünberg, *Festrede: gehalten zur Einweihung des Instituts für Sozialforschung an der Universität Frankfurt a. M. am 22. Juni 1924*, pp. 8 f.

"لا أحتاج إلى التأكيد بدايةً بأنني، حينما أتكلم هنا عن ماركسية، فأنا لا أتكلم عنها بمعنًى حزبي سياسي، بل أريد أن أفهمها بمعنًى علمي بحت: لوصف منظومة اقتصادية متماسكة في ذاتها، ورؤية أيديولوجية ومنهج بحث محدّد المعالم [...] تبيّن منذ زمن بعيد [...] أن الفهم المادي للتاريخ لا ينتهي بالبحث عن مقولات أبدية أو بإدراك الشيء في ذاته، ولا بتأسيس العلاقة يبن الروح والعالم الخارجي [...]. إن الحدث الاجتماعي الحقيقي، الحياة الاجتماعية في تقلُّباتها التي لا تتوقف والمتجددة دائمًا، هي موضوع نظرتها، والأسباب الأخيرة لعملية التقلُّبات هذه، أي القوانين التي تسير بموجبها، هي موضوع بحثها. هنا يتبيّن أنه تحت الضغط المحرِّك للمصالح المادية التي تعمل منهجيًا في الحياة الاقتصادية، وتصادمها [...] يحدث تقدُّمٌ منتظم من الأقل اكتمالًا إلى الأكمل. وكما هي الحال في وجهة نظر الفهم المادي للتاريخ، تمثل جميع مظاهر حياة المجتمع انعكاسًا للحياة الاقتصادية بمختلف صورها [...] هكذا يبدو أيضًا التاريخ برمّته - وليس التاريخ في بدئيته - كنتيجة للصراع الطبقي [...] (يعتقد الفهم المادي للتاريخ) أنه قادر فعلًا على تعرّف الاشتراكية من حيث هي هدف التطوُّر البشري في ضوء العلاقات التاريخية الواقعية وإظهارها؛ ولكن ليس أكثر من هذا. أما كيف سيتشكل بالتفصيل مجتمع المستقبل الاشتراكي وكيف سيعمل [...] فهذا يسقط منهجيًا من مجال البحث والعرض الماركسيين، وإلا كان على هذا البحث والعرض أن يخرجا من أرضية الواقع نحو تنبُّؤات وخيالات طوباوية يضيعان فيها"[23].

ولأن غرونبرغ ميّز المادية التاريخية من المادية الميتافيزيقية، وقدّمها على أنها ضربٌ من نظرة لاهوتية إلى التاريخ للمدرسة التاريخية الجديدة، فقد اعتبر أن الطابع العلمي للماركسية التي يمثِّلها أصبح مؤمَّنًا. تُضاف إلى ذلك أيضًا محاججة تعدُّدية. "إذا كانت الماركسية بوصفها منظومة اقتصادية واجتماعية تعامَل حتى الآن - في تناقض شديد مع بلدان أخرى - في الجامعات الألمانية معاملةً سيئة، بل كانت عمليًا تُحتمل على مضض في أحسن تقدير، فإنها

(23) Ibid., pp. 10 f.

ستجد، من الآن فصاعدًا، في معهد البحث الجديد موطنًا شأن المذاهب النظرية والاقتصادية-السياسية لليبرالية، وللمدرسة التاريخية ولاشتراكية الدولة"[24].

ومثلما كانت هذه المحاججة بسيطةً، كانت أيضًا الإشارة التي حاول غرونبرغ أن يشتّت بها تهمة الارتباط الدوغمائي. فكل إنسان تقوده نظرة أيديولوجية؛ والأيديولوجيا هي بالذات دافع العمل العلمي. إلا أنه لا بد من "الرقابة الذاتية المتواصلة [...] وما إذا كانت تحصل أخطاء في اختيار نقطة الانطلاق والهدف، وفي الطريق بينهما، وفي كيفية اجتيازه، أي منهجية العمل"[25]. رأى كريستيان إكرت من معهد كولونيا لأبحاث علم الاجتماع الأشياء بطريقة مشابهة غير معقدة، حينما كتب: "لا ريب في أن كل باحث ينطلق من أرضية رؤية معينة، وهو بوعي أو من دون وعي راسخ فيها، ويبقى مقيدًا بصورة العالم التي حدّدها له مسار حياته. لكنه اعتاد بالانضباط الذاتي الصارم أن يبقى حذرًا ونقديًا في أبحاثه كافة"[26].

وُضعت إشكاليةُ موضوعية المعرفة في العلوم الاجتماعية جانبًا - وهي إشكاليةٌ كان من بين من ناقشها بصورة مبدئية ماكس فيبر بمناسبة تسلُّمه نشر **أرشيف العلوم الاجتماعية والسياسية-الاجتماعية** في عام 1904. لم يطرح غرونبرغ ولا إكرت على نفسيهما سؤال إن كان يجب، عندئذٍ، أن يصل اشتراكيٌّ ديمقراطي يمارس رقابة ذاتيه وليبرالي برجوازي يحركه الانضباط الذاتي الصارم في نتائج أبحاثهما إلى توافق أو بالأحرى إلى تفاهم، حتى يمكن بذلك الحديث عن معارف علمية. ما الذي كانت تعنيه رقابة ذاتية لشخص كان - مثل غرونبرغ - يعتبر تسريع انهيار القديم وصيرورة الجديد هدفًا للبحث التاريخي المادي، أي النظر في قوانين قلب الحياة الاجتماعية؟ ما الذي كان يعنيه ضبط النفس لشخص كان يعتبر - مثل إكرت - "التحول الاشتراكي الكبير [...] بديلًا من قلب الأوضاع التقليدية بلا هوادة"، و"تحسين الموروث" هدفًا للبحث

---

(24) Ibid., p. 11.

(25) Ibid., p. 12.

(26) C. Eckert, "Das Forschungsinstitute für Sozialwissenschaften in Köln," in: Ludolph Brauer, Albrecht Mendelssohn-Bartholdy, Adolf Meyer (hg.), *Forschungsinstitut*, band 2: *Ihre Geschichte, Organisation und Ziele*, p. 291.

الاجتماعي، أي "التبصر الحقيقي في قوانين وأشكال التعايش الاجتماعي وشروطه؟".

كان الاثنان - لكي نبقى مع غرونبرغ وإكرت بوصفهما ممثِّلَين لأهم معهدَين في أبحاث علم الاجتماع - متّفقَين ضمنيًا وبوضوح على أنه حتى في دائرة العلماء المشهورين، فإن "'قيم' المصلحة العليا العملية للاتجاه الذي يتبعه النشاط المنظم للتفكير في مجال العلوم الثقافية" (فيبر)، تكون من القوة بحيث يستحيل معها القيام بعمل بحثي مشترك مثمر. في معهد الأبحاث للعلوم الاجتماعية في كولونيا كانت تعددية الأيديولوجيات تتوقف بصمت أمام ممثلي الماركسية، على الرغم من أنه كان بين هؤلاء أشخاص مثل كورت ألبرت غرلاخ أو كارل غرونبرغ، اتبعوا بأمانة في ممارستهم العلمية المبادئ التي كانوا قد تعلّموها بوصفهم طلابَ أساتذةٍ مرموقين. كان غرونبرغ، من جهته، يرحب بتبادل الأفكار بين علماء لهم أيديولوجيات ومناهج مختلفة، لكن بشرط وجود مراكز بحث يمكن أن يعمل فيها علماء اجتماع تقودهم مصالح ماركسية، ويقومون بعملهم البحثي في جوٍّ يخلو من الاضطرابات، الأمر الذي كان يُعدّ بدهيًا للقسم الأكبر من أساتذة الجامعات غير الماركسيين.

كان الأساتذة البرجوازيون، أي أولئك الذين يقفون إلى يمين الاشتراكية الديمقراطية، يستطيعون أن يشيروا علنًا إلى الفرق بين الأيديولوجيا والعلم، ويأخذون في الحسبان أن الإطار الذي تصحُّ تصريحاتهم داخله بين الزملاء على أنه علمي، كان واسعًا جدًا. بالنسبة إلى العلماء الذين يجاهرون بالانتماء إلى الاشتراكية، كان هذا الإطار في المقابل ضيقًا جدًا في أعين القسم الأكبر من الأساتذة. ما قام به غرونبرغ في هذا الوضع، لم يكن محاولةً لجعل الماركسية مقبولة في الجامعة بالسرّ، كما كان يدور في خلد فليكس فايل، ولا محاولة مناقشة المشكلات علنًا، كما كان هدف ماكس فيبر. ما فعله غرونبرغ كان بالأحرى المطالبة بوعي ذاتي لعالم ماركسي بما كان يقدّم للآخرين بداهة، أي عدم جعل الرؤية الأيديولوجية منذ البدء مقياسًا للجدية العلمية.

انبثق الوعي الذاتي لغرونبرغ من التجارب مع الاشتراكية الديمقراطية النمساوية التي كان يُفسَح فيها المجال، بخلاف الألمانية، لمواقف شيوعية، ومن انتمائه لسنوات طويلة إلى قسم أكاديمي كان فيه مجال واسع لمناقشة

آراء إصلاحية اجتماعية واشتراكية. وُجد اشتراكيو المنابر منذ منتصف القرن التاسع عشر بأعداد متزايدة، على الرغم من أنه كان عليهم أن يقاتلوا من أجل الاعتراف بهم. إلا أنه جرى تخطي عتبة حاسمة، عندما لم يعد أحد يقدّم النظم والمطالب الاشتراكية بوصفها نظريات علمية، يتوجّه بها مثقفون إلى نظرائهم، بل قدَّموها بوصفها تعاليم وبرامج تتوجّه إلى "طبقات الشعب الدنيا" بالذات. بعد الحرب العالمية الأولى، ما عاد الانتماء إلى الحزب الاشتراكي الديمقراطي يؤدي إلى فقدان الوظيفة، لكن عاقبة عضوية الحزب كانت، كما في السابق، التهميش ومعاداة الزملاء.

كان اعتراف غرونبرغ بالماركسية، إذًا، اعترافًا بالاشتراكية الديمقراطية. ما كان يخدم الاشتراكية الديمقراطية بوصفها أيديولوجيا تقف بوجهها ممارسة لا تحطّم الإطار البرجوازي - الاجتماعي الإصلاحي، هو ما خدم غرونبرغ بوصفه نوعًا من فكرة منظِّمة وقفت بوجهها ممارسة بحثية لا تحطم المنهج التاريخي. في مقدمته للعدد الأول من **أرشيف تاريخ الاشتراكية والحركة العمالية**، وصف غرونبرغ في عام 1910 الاشتراكية والحركة العمالية بأنها موضوعات مهمة، لكن المنهج التاريخي الذائع الصيت أهملها. فكان ينبغي أن يكرَّس لهما بواسطة **الأرشيف** مجلة اجتماعية علمية خاصة. في رسالةٍ إلى كاوتسكي، الوصي الاشتراكي الديمقراطي على النظرية الماركسية الذي حاول أن يكسبه للعمل في مجلته، شدّد غرونبرغ، كي لا يترك على الإطلاق مجالًا لظهور انطباع مؤسسة منافسة، على أنه لا يهتم بالنقاش النظري الحالي في رأس الحركة العمالية، بل يتركز اهتمامه على تاريخ الحركة العمالية وتاريخ نظرياتها. في الواقع، كان طابع المجلة - وهي مجلة كان فيها، بلا ريب، مكانٌ لزملاء مثل لوكاتش وكورش، ونُشر فيها في عام 1923 كتابه **الماركسية والفلسفة** - مطبوعًا إلى حدٍ بعيد بموقف المؤرخ الذي كان يسعى لاستكشاف لماذا ومتى وكيف نشأ ما نشأ. أعطى ذلك موقفًا من الموضوع موسومًا بوجدانية فلسفية. قدّم اعتراف غرونبرغ بالأيديولوجيا الاشتراكية الديمقراطية الماركسية تحيزًا مضادًا يُصحّح التحيزات البرجوازية، وهو تحيز أتاح للخبراء المتخصصين إعطاء الاهتمام ذاته للموضوعات الاشتراكية البروليتارية، ذلك الاهتمام الذي يعتبر بدهيًا في حال موضوعات أخرى.

أصبح المعهد مرآة **الأرشيف**، ومعهدًا للأبحاث حول تاريخ الاشتراكية والحركة العمالية، وحول تاريخ الاقتصاد وتاريخ الاقتصاد السياسي ونقده. وخلق الشروط لمثل هذه الأعمال، وشجعها وأنجزها هو بنفسه أيضًا.

أعدّ في بادئ الأمر شروطًا للأعمال البحثية مثيرة للإعجاب. كانت هناك مكتبة مختصة، كانت تحوي في عام 1928 نحو 37000 مجلّد و340 مجلة و37 صحيفة من داخل البلاد وخارجها. وكانت هناك قاعة قراءة، استخدمها في ذلك العام أكثر من 5000 شخص. كما كان هناك أرشيف يضمّ - كما رأى بولوك في تقديمه للمعهد الذي نُشر في عام 1930 - "اليوم مجموعة لا مثيل لها من الوثائق حول تاريخ الثورة الألمانية عام 1918 وتاريخ أحداث السنوات اللاحقة بالغة الأهمية بالنسبة إلى تاريخ الحركة العمالية"، وكانت تتوفر فيه "مناشير كثيرة، وإعلانات، ونداءات، ومنشورات دورية، وتقارير، ورسائل، وصور فوتوغرافية، وما إلى هنالك"[27]. وكان هناك 18 مكتبًا صغيرًا للعلماء وطلاب دكتوراه يساندهم المعهد جزئيًا من خلال تقديمه منحًا دراسية.

كانت دائرة الأشخاص العاملين في المعهد متوافقة مع الاهتمامات البحثية والنظرة الأيديولوجية لمديره. كان لغرونبرغ مساعدان هما فريدريش بولوك وهنريك غروسمان (Henryk Grossmann). حصل بولوك على شهادة الدكتوراه في الاقتصاد الوطني عام 1923 في فرانكفورت، وكان قد أدار المعهد بالنيابة إلى حين قدوم غرونبرغ، وأصبح حالًا بعد ذلك، بناء على طلب غرونبرغ، مساعدًا في المعهد. وجاء غروسمان في عام 1926 بدعوةٍ من غرونبرغ كمساعد آخر إلى المعهد. ولد غروسمان في عام 1881 في كراكاو لأب يهودي يملك منجم فحم، وأصبح بعد دراسة الحقوق وعلم الاقتصاد السياسي في فيينا تلميذًا لغرونبرغ، وأُرغم بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، بعد أن أصبح بقيام الدولة البولونية مواطنًا بولونيًا، على التخلي عن شهادة التأهيل للأستذة وباقي مخططاته المهنية في فيينا. كما أُرغم على الاستجابة لدعوة الإدارة المركزية للإحصاء في وارسو، وأصبح في نهاية المطاف أستاذًا

(27) Brauer, Mendelssohn-Bartholdy, Meyer (hg.), p. 352.

لتاريخ الاقتصاد، وللسياسة الاقتصادية والإحصاء[28]. فقد غروسمان منصب الأستاذية في عام 1925 بسبب موقفه الاشتراكي. كما كانت روزه فيتفوغل (Rose Wittfogel)، مديرة المكتبة، واحدة من الزملاء العاملين في المعهد منذ بدايته. عملت في البداية مع ريتشارد زورغه، المساعد السابق لغرلاخ ولاحقًا الجاسوس المعلِّم للاتحاد السوفياتي وزوجته كريستيانه زورغه، إلى أن اختفيا فجأةً في تشرين الأول/ أكتوبر 1924 ليظهرا من جديد في موسكو كعاملَين في معهد ماركس - إنغلز. في عام 1925 أصبح كارل أوغست (Karl August)، زوج روزه فيتفوغل، عاملًا دائمًا في المعهد. كان فايل وغرونبرغ قد سبق أن طلبا منه مرةً، في فترة تأسيس المعهد، العمل معهما. كارل أوغست، ابن الثلاثين عامًا - وهو الذي كان يومًا عضوًا نشطًا في فرقة الجوّال، ثم في اتحاد الحزب الاشتراكي الديمقراطي ومن عام 1921 في الحزب الشيوعي الألماني، وكان، منذ العمل المشترك كمدرّس في الجامعة الشعبية البروليتارية في قصر تينتس في [الفصل الدراسي] 1920/ 1921، على معرفة بكورش، وناشطًا في "تعليم العمال الماركسي" - راقَ لغرونبرغ توفيقه بين اهتمامه بالشؤون الصينية وعلم الاجتماع، والتزامه الثقافة الاشتراكية. من دائرة كل العاملين الذين ذُكروا تألَّف الفريق الذي أصدر قبل عام 1933 مجلدات "كتابات معهد البحث الاجتماعي": غروسمان، **قانون تراكم وانهيار النظام الرأسمالي**، 1929؛ بولوك، **تجارب الاقتصاد الموجَّه في الاتحاد السوفياتي 1917-1927**، 1929؛ وفيتفوغل، **اقتصاد الصين ومجتمعها**، 1931.

يصعب تحديد دائرة باقي الأشخاص الذين كانوا على علاقة بالمعهد؛ فهي تمتدُّ من العاملين على رسائل الدكتوراه والحاصلين على منح، ومن بينهم من أصبح يعمل لمدةٍ طويلة في المعهد، وصولًا إلى متعاطفين كانوا يكتبون بين الحين والآخر نقدًا لـ **الأرشيف**. من المذكورين أولًا، الذين كتبوا رسائل الدكتوراه في المعهد بإشراف غرونبرغ: كورت مندلباوم (Kurt Mandelbaum) وهيلده فايس (Hilde Weiss)، وقد عمل الاثنان في المعهد، وبالأحرى في المجلة حتى الثلاثينيات. حصلا على شهادة الدكتوراه ببحثين،

---

(28) يقارن:

Migdal, pp. 94 f.

أحدهما عن **التوضيحات في الاشتراكية الديمقراطية الألمانية حول مشكلة الإمبريالية 1895-1914**، والآخر عن **أبّه وفورد: طوباوياتٌ رأسمالية** (*Abbé und Ford: Kapitalistische Utopien*). في عام 1926، أو بالأحرى في عام 1927، جاء إلى المعهد باول ماسينغ (Paul Massing) ويوليان غومبرتس (Julian Gumperz) وهاينتس لانغرهانس (Heinz Langerhans) لكي يكتبوا فيه رسائلهم لنيل الدكتوراه - وكتبوا أيضًا حول موضوعات من مجال تاريخ الاشتراكية، وتاريخ الحركة العمالية والعلاقات الاقتصادية - وقد ارتبطوا أيضًا بالمعهد، ثم كانوا لاحقًا، في عهد هوركهايمر، على علاقة به بشكلٍ أو بآخر. كان جميع هؤلاء حتى الثلاثينيات أعضاء في الحزب الشيوعي أو أصدقاء له. باول ماسينغ، على سبيل المثال، الذي حصل في فرانكفورت على شهادة الدكتوراه بعمل عن **العلاقات الزراعية في فرنسا في القرن التاسع عشر والبرنامج الزراعي للأحزاب الاشتراكية الفرنسية**، أصبح في عام 1928 مراسل المعهد الدولي للزراعة في موسكو من برلين، وفي عام 1929 مساعدًا علميًا فيه. عاد في عام 1931 إلى برلين، وحارب ضد الفاشية، واستطاع أن يفرّ بعد اعتقاله في معسكر أورانينبرغ. ثم هرب إلى فرنسا وتنقّل بعد ذلك بين الولايات المتحدة الأميركية وأوروبا. وقام بعد هذا كله في 1937/ 1938 برحلة إلى موسكو، مخاطرًا بحياته، ليعلن انفصاله عن الحزب الشيوعي. عمل في الأربعينيات في الولايات المتحدة الأميركية مرةً أخرى في مشاريع لمعهد البحث الاجتماعي. يوليان غومبرتس، ابن صناعي يهودي هاجر في سنّ الثالثة عشرة إلى الولايات المتحدة، وأصبح مليونيرًا، ثم عاد بعد الحرب العالمية إلى ألمانيا، أصدر منذ عام 1919 مجلة *Der Gegner* (**الخصم**)، وكان موفد الحزب الشيوعي الألماني في المجلس الاستشاري لـ "المسرح البروليتاري". قام في ربيع 1923 برحلة إلى الاتحاد السوفياتي، وكان أحد ناشري *Roten Fahne* (**الراية الحمراء**)، حينما قَدِم إلى المعهد في عام 1927. بعد نَيله الدكتوراه بعمل عنوانه **حول نظرية الأزمة الزراعية الرأسمالية: مساهمة من أجل فهم التحولات البنيوية في الزراعة الأميركية**، بقي يعمل في المعهد على امتداد معظم فترة المعهد في المهجر إلى أن ابتعد بصورة نهائية عن الشيوعية، وأصبح سمسارًا في البورصة.

في فترة إدارة غرونبرغ، وُجد استثناءٌ واحدٌ فقط في طيف الموضوعات المتجانسة: كان ليو لوفنتال يحصل على منحة من المعهد منذ عام 1926، ويعمل على موضوع **سوسيولوجيا القصة الألمانية في القرن التاسع عشر**. كان هذا الموضوع، كما أظهر نشر العمل في أعقاب الحرب العالمية الثانية، جزءًا من سوسيولوجيا ماركسية للأدب، لم يقم أحدٌ بممارستها في ذلك الوقت. إضافة إلى ذلك، قدّم لوفنتال نفسه لمدير المعهد من خلال أنشطة اجتماعية وتربوية مختلفة كان يمارسها إلى جانب مهنته كمدرّس[29].

كان الدور الذي مارسه المعهد في الإعداد لإصدار الطبعة الأولى التاريخية النقدية للأعمال الكاملة لماركس وإنغلز بمثابة رمز لدوره بوصفه مؤسسة أكاديمية مستقلة عن الجامعة وعن الأحزاب الاشتراكية. كان إنغلز قد ترك إرثه هو وماركس لبرنشتاين (Eduard Bernstein) وبيبل (August Bebel)، أو بالأحرى للاشتراكية الديمقراطية الألمانية التي كانت قد عهدت إلى أعضاء الحزب برنشتاين ومهرينغ (Franz Mehring) وكاوتسكي بنشره. غير أنهم لم يبذلوا جهدًا في النظر فيه بإحكام أو التحقق منه بأمانة، لكنهم أخذوا على عاتقهم، على سبيل المثال، عناء إجراء حذوفات وتغييرات لا حصر لها في الطبعة غير الكاملة للرسائل. كان دافيد ريازانوف (David Rjasanoff)، الاشتراكي الديمقراطي الروسي من الساعة الأولى، قد استعمل في سياق أعمال حول مسائل سياسية معاصرة، في فترة ما قبل الحرب، إرث ماركس وإنغلز، واستطاع بفضل مساندة بيبل أن يُصدر مختارات من كتابات ماركس وإنغلز، وأن يؤسس، في النهاية، في كانون الأول/ ديسمبر 1920 معهد ماركس - إنغلز في موسكو الذي رأى أن مهمته هي البحث في "إنشاء وتطوير ونشر نظرية وممارسة الاشتراكية العلمية والشيوعية الثورية، كما أبدعها وصاغها ماركس وإنغلز"[30]. وبموجب عقد مع برنشتاين، اشترى ريازانوف حق نشر مخطوطات ماركس وإنغلز باللغة الروسية.

---

(29) يُنظر ص 99 في هذا الكتاب.

(30) Grünberg, *Archiv*, vol. 15, p. 417.

تمَّ هذا فقط بفضل دور الوساطة العملي وغير المسيَّس نوعًا ما لمعهد فرانكفورت، وبفضل العلاقة بين الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني ومعهد موسكو في الوقت نفسه. "لمّا كان من المستحيل نشر إرث ماركس وإنغلز من دون استنفاد الموجود منه في أرشيف الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني في برلين، تكون بذلك المرحلة الأولى من العمل قد أنجزت [...] جرى سحب الجزء الأكبر من الصور الفوتوغرافية في معهد البحث الاجتماعي في فرانكفورت أ. م في ظل الرقابة الدائمة للعاملين في المعهد بعناية بالغة وبفهرسة كل الخصوصيات التي لم يكن بالإمكان احتواؤها بالكامل بواسطة التصوير وترقيم الأصل"(31). لكن التعاون استمر بين الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني ومعهد موسكو عبر معهد البحث الاجتماعي. جرت في عام 1924 "مفاوضاتٌ بين معهد ماركس - إنغلز في موسكو وجمعية الأبحاث الاجتماعية ج. م. [جمعية مسجَّلة] في فرانكفورت أ. م من جهة ورئاسة الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني من جهة أخرى، تم بنتيجتها تأسيس دار نشر علمية غير ربحية في فرانكفورت أ. م، ستنشر - بعد الاستفادة من المخطوطات الموجودة في أرشيف الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني في برلين - الأعمال الكاملة لماركس وإنغلز في أربعين مجلدًا تقريبًا"(32).

عندما تقدّمت جمعية الأبحاث الاجتماعية إلى المدينة بطلب السماح بضمّ "دار نشر أرشيف ماركس - إنغلز" التي يديرها فليكس فايل وفريدريش بولوك إلى المعهد، احتجّ المدير الإداري ورئيس الجامعة ونائب الرئيس. فاسم الدار ذو الصبغة الحزبية السياسية يتناقض مع دستور الجامعة الذي ينصّ على تدريس العلوم خاليةً من الانحياز وبصورة مستقلة عن الأحزاب. اهتم البوليس السياسي بالحالة، وراجع ماضي عدد من المنتسبين إلى المعهد، واستنطق بعض الأشخاص، من بينهم غرونبرغ. لكن حتى "المعلومات" التي جمعتها

(31) Herausgegeben von Rjazanov, *Marx-Engels-Archiv*, vol. 1, pp. 462 f.

(32) ملاحظة غرونبرغ إلى ريازانوف:
"Neueste Mitteilungen über den literarischen Nachlass von Karl Marx und Friedrich Engels," in: Grünberg, *Archiv*, vol. 11, p. 400.

الشرطة حول بولوك الذي تكرر ظهور اسمه في ملفات الشرطة لم تُظهِر سوى مدى غرور وتفاهة مثل هذا النوع من التجسس بحثًا عن تهم سياسية. استنادًا إلى هذه المعلومات، أقام بولوك بالاشتراك مع فليكس فايل بصفته عضو رئاسة جمعية الأبحاث الاجتماعية "علاقات مع اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الألماني"، واشترى أرشيفًا تعود ملكيته إلى الحزب الشيوعي الألماني، وكان، بلا ريب، مثل فايل شيوعيًا، وسبق أن أدى دورًا ليس بقليل في زمن المجالس في ميونيخ"(33). أكّد غرونبرغ أثناء الاستجواب أنه لا يعرف شيئًا عن علاقة العاملين معه "بالأرشيف السري للحزب الشيوعي الألماني في برلين"، ولا حول "الأنشطة الشيوعية غير الشرعية" في معهده.

لم يشعر بتأثير الاتهامات مؤقتًا إلا الأجنبي غروسمان. فلقد تأخر حصوله على وظيفة مدرِّس في الجامعة، وأخبر عميد كلية العلوم الاقتصادية والاجتماعية التي قدّمت شهادة إيجابية بشخص غروسمان، مجلسَ الجامعة بأن رئيس شرطة فرانكفورت "من دون أي اعتراض على الدكتور غروسمان شخصيًا، هو ضد حصوله على وظيفة مدرِّس ليس لأي سبب [...] إلا لأنه يجب افتراض أن الدكتور غروسمان، على الرغم من أنه لم يلفت أي انتباه حتى الآن من الناحية السياسية، يتعاطف مع طموحات يسارية راديكالية"(34). في المقابل، استمر العمل في دار النشر عمليًا من دون مضايقات لأن وزارة الثقافة غضت الطرف عنها. سحبت جمعية الأبحاث الاجتماعية طلبها، وأعلنت عن توطين دار النشر خارج المعهد. وعندما تبيّن لاحقًا أن دار نشر أرشيف ماركس - إنغلز كانت قد أنشئت بالفعل في المعهد، بقيت الاحتجاجات ضعيفة، لأن طابع عمل الدار العلمي، موضوعيًا، كان قد أصبح في غضون ذلك واضحًا. "نستطيع أن نترك بلا حرج الماركسية من حيث هي نظرية لعملية التعفُّن؛ كما أننا أيضًا لا نحارب التومائية"، هذا ما ورد في عام 1934 في مقالة افتتاحية تحت عنوان "ضد الصراع الطبقي" في صحيفة *Frankfurter Nachrichten*

---

(33) يقارن:

Migdal, pp. 100 f.

(34) رسالة العميد غرلوف إلى مجلس الجامعة، 4 حزيران/ يونيو 1926، في:

Ibid., pp. 104 f.

(**أخبار فرانكفورت**) ذات الاتجاه الليبرالي اليميني. إن ممارسة الصراع الطبقي هي وحدها المستنكرة. ولقد فقدت هذه الممارسة في سنوات الاستقرار معناها. حتى إصدارات دار أرشيف ماركس - إنغلز اقتصرت في العشرينيات على مجلدين اثنين من **أرشيف ماركس - إنغلز** نُشر فيهما، إضافة إلى مقالات لباحثين روس، من بين أمور أخرى، جزءٌ من **الأيديولوجيا الألمانية** مع رسائل متبادلة بين كارل ماركس وفيرا ساسوليتش (Vera Sassulitsch)، ولم يتعدّ كل ما صدر من **الأعمال الكاملة لماركس وإنغلز** نصف دزينة من المجلدات.

عندما أصبح غرونبرغ عاجزًا عن العمل إثر إصابته بسكتة دماغية في كانون الثاني/ يناير 1928، كان قد عمل في فرانكفورت ثلاث سنوات ونصف السنة. وهو كان قد جاء إليها أساسًا بصحة متردية، واستثمر آخر ما تبقى من قوته في بناء المعهد وتأسيسه. بعد إصابته بالسكتة الدماغية، عاش اثني عشر عامًا إنسانًا مشلولًا جسدًا وعقلًا، إلى أن توفي في عام 1940.

أوجد لنفسه في فرانكفورت وضعًا كان، بالنسبة إلى العلاقات الأكاديمية الألمانية وليس بالنسبة إلى الألمان فحسب، فريدًا من نوعه. أصبح الآن ممكنًا دراسة وتدريس الماركسية وتاريخ الحركة العمالية في الجامعة، ومن كان يريد كان بإمكانه أن يحصل على شهادة الدكتوراه بموضوعات في هذا المجال. كان في فرانكفورت أستاذ ذو كرسي للعلوم الاقتصادية والسياسية يجهر باعترافه بالماركسية. وكان هناك معهد ملحق بالجامعة، كرَّس عمله بشكل خاص للبحث في الحركة العمالية والاشتراكية انطلاقًا من وجهة نظر ماركسية، وكان بإمكان ماركسيين مثل كارل كورش، أو ماركسيين نمساويين أمثال ماكس آدلر وفريتس آدلر وأوتو باور، أن يلقوا محاضرات فيه. كان المساعدان في المعهد، فريتس [فريدريش] بولوك وهنريك غروسمان، يلقيان، بصفتهما مدرِّسَين، محاضرات في كلية العلوم الاقتصادية والاجتماعية في الجامعة، حيث حصل غروسمان في عام 1927 وبولوك في عام 1928 على شهادة التأهيل للأستذة، ومن ثم شغل غروسمان في عام 1930 منصب أستاذ. وجرى الاعتراف فعليًا بإصدار أعمال ماركس وإنغلز، بوصفه عملًا علميًا يقع في مجال مهمات الجامعة.

وكان فريدًا من نوعه أيضًا أن معهدًا ملحقًا بالجامعة، معظم العاملين وطلاب الدكتوراه فيه شيوعيون. غير أن هؤلاء كانوا ينتمون إلى تكتلات مختلفة، لم تكن جميعها ممثّلة في الحزب الشيوعي نفسه. فقد وُجد الكورشيون، أو بالأحرى التروتسكيون الذين كانوا مع الشيوعية لكن يُنكرون على التطوُّر السوفياتي الروسي طابع الشيوعية، ومنهم هاينتس لانغرهانس وكورت مندلباوم وفالتر بيهان؛ والبراندليانيون الذين كانوا ينادون بالتحالف مع الاشتراكية الديمقراطية وبحلول انتقالية، ومنهم إرنست فروليش وكليمبت؛ وأعضاء الحزب الشيوعي الذين (بقوا) يتبعون خطَّ، أو بالأحرى تقلبات خطّ الحزب الذي أصبح في تلك الأثناء ستالينيًا، ومنهم فريتس زاور وباول ماسينغ وفيلي شترتسيليفيتش (Willy Strzelewics) وكارل أوغست فيتفوغل.

وقعت الخلافات حول خلافة غرونبرغ في [الفصل الدراسي] 1929/ 1930، في وقتٍ برزت بوضوح المزايا الخاصة لوضع فرانكفورت. عاشت جامعة فرانكفورت بين عامي 1928 و1932 عصرًا ذهبيًا. "كثيرٌ من الكراسي الجامعية كان يشغلها علماء بارزون. كما حظيت الجامعة بعدد كبير من المعاهد المجهزة تجهيزًا حديثًا، من بينها معاهد مختلفة أُنشئت أول مرة، تبعًا لروح الجامعة التقدُّمي، أو لم تُنْشَأ إلا هنا في فرانكفورت"[35]. حينما قبل باول تيليش الدعوة إلى شغل كرسي الفلسفة في جامعة فرانكفورت - لم تكن توجد هنا كلية للعلوم اللاهوتية، كما كانت العادة في الجامعات الأخرى - رأى فيها "الجامعة الأكثر حداثة وليبرالية"[36]. كان هذا بفضل الروح الاشتراكي الديمقراطي والروح البرجوازي الديمقراطي في فرانكفورت، ولكن أيضًا بفضل السياسة الثقافية لكارل هاينريش بِكر صاحب الفكر البرجوازي الليبرالي الذي كان وزيرًا للثقافة منذ عام 1925 في الحكومة البروسية التي كان يرأسها الاشتراكي الديمقراطي أوتو براون المؤلَّفة من ممثلي ما سمّي تحالف فايمار (الحزب الاشتراكي الديمقراطي وحزب الوسط وحزب الديمقراطيين) الذي لم يدم في أي مكان كما دام في بروسيا، وعمل على أن تبقى الأحوال في هذه المقاطعة أكثر استقرارًا مما كانت عليه في باقي الرايخ.

---

(35) فهرس محاضرات الفصل الدراسي الشتوي 1972/ 1973، ص 5.

(36) P. Tillich, "Autobiographische Betrachtungen," in: *Gesammelte Werke*, vol. 12, p. 69.

في نهاية العشرينيات لم تكن الماركسية والشيوعية أقلَّ قبولًا في فرانكفورت مما كانتا عليه في سنوات ما بعد ثورة نوفمبر، وكانتا تحظيان بالذات بتقدير كبير في الأوساط الشبابية من أسر ميسورة الحال. وكان عاملون قياديون في **صحيفة فرانكفورت** لا يزالون يراوحون في انتماءاتهم بين ليبراليين يساريين واشتراكيين، في حين كانت تشكو شخصيات معروفة في المدينة، مثل ريتشارد مرتون (Richard Merton)، من التغلغل الأجنبي "للاشتراكيين" و"الحمر". ولمّا نشبت خلافات حول تعيين خلف لغرونبرغ الذي أصبح كرسيه في الجامعة شاغرًا في عام 1929 بعد إحالته على التقاعد، في حين بقي بموجب العقد يرأس المعهد حتى عام 1932، دافع فليكس فايل عن موقفه بحزم أشد من الحزم الذي أبداه في زمن تأسيس المعهد. أكّد فايل في رسالة مسهبة إلى وزارة العلوم والفنون والتربية الشعبية أنه يعتبر أعمال المعهد ومشاركته فيها مهمة حياته، وإذا لم يكن قد تقدّم إلى شهادة الأستاذية بخلاف قصده الأصلي، ولم يشرف بنفسه على حلقة بحث إلا في فصل دراسي، فهذا يعود تحديدًا إلى أن مرض والده ووفاته قد أرغماه على أن يولي اهتمامه أكثر مما أراد بشؤون شركة فايل البعيدة عنه في حقيقة الأمر. أما مهمة المعهد فهي، في الدرجة الأولى، أن يخدم دراسة الماركسية العلمية والتعمق فيها. "حتى وإن لم يتمَّ الإفصاح بشكل صريح في الاسم وفي اللوائح الناظمة لعمل المعهد، إلا أن مفاوضات التأسيس، وخطبة برنامج المعهد المنشورة للأستاذ غرونبرغ، ومنشوراتنا الأخرى، وعمل المعهد البحثي والتعليمي حتى الآن، كل هذا يدلل على أن المعني هنا ليس مؤسسة مكرَّسة للاقتصاد الوطني أو لعلم الاجتماع على وجه العموم". لقد أُعلن عن مهمة المعهد بوضوح في المفاوضات الأولى مع الوزارة. "في الافتتاح الاحتفالي للمعهد الذي أُقيم في 22 حزيران/ يونيو 1924، كحفل أكاديمي للجامعة، في القاعة الكبرى بحضور ممثلين عن السيد وزير العلوم والفنون والتربية الشعبية والسيد الرئيس الأعلى، وبحضور عمدة فرانكفورت شخصيًا وآخرين من أصحاب المراكز العليا في إدارات الدولة والبلدية، قمنا أنا شخصيًا والسيد الأستاذ غرونبرغ بشكل خاص في خطبته الاحتفالية بتثبيت الطابع الماركسي للمعهد حتى علنًا وبشكل مبدئي". سوف يواصل المعهد - "الوحيد من نوعه في العالم" - من دون مراعاة سوء الفهم

والمعاداة، جهودَه في المستقبل أيضًا بحياد سياسي غير مشروط لتطبيق النظرية الماركسية ومواصلة تطويرها منطقيًا. ليست إعادة شغل الكرسي الجامعي مسألة مستعجلة بالنسبة إليه، بل ما يهمُّه في الدرجة الأولى هو إيجاد الخَلَف المؤهَّل لإدارة المعهد، إلا أن هذا الشخص لا يمكن "أن يكون على الأرجح إلا من داخل وسط المعهد". استغرب فليكس فايل من أن الوزارة، وعلى الرغم من طلبه، لم تؤجل طويلًا مسألة التعيين الجديد في الكرسي الجامعي إلى أن يستطيع "ترشيح شخصية بهذه المؤهلات من وسطنا، لا يمكن أن تُرفع ضدَّها اعتراضات من جهة الإنجازات أو سن الخدمة"[37]. وتوصَّل إلى أن الوزارة غيّرت القرار الذي يخص إدارة المعهد العائد لعام 1923 بحيث ينبغي ألا يُعيَّن المدير "وفق السلوك" فحسب، بل يجب أن يتم ذلك، بشكل لا يقبل اللّبس، "بالتوافق" مع جمعية الأبحاث الاجتماعية.

بيد أن الخصوم الأكاديميين، من ناحية أخرى، أصبحوا مجددًا أكثر وضوحًا. عندما شكا أستاذ كرسي علم الاقتصاد في فرانكفورت - فريتس شميدت - في تموز/يوليو 1930 في رسالة إلى وزارة الثقافة البروسية من أن العاملين في معهد البحث الاجتماعي يُنتَقون من جانب واحد، تجمّع في الآونة الأخيرة "عدد ضخم من طلاب ذوي ميول شيوعية وثورية، وهم في معظمهم أجانب"، وأثاروا قلاقل نشطةً. وأضاف في رسالته مهددًا: "لا يمكن أن تغفل الوزارة هذا، في حين تجري في الدولة البروسية ملاحقة الحركة الثورية الشيوعية المعادية للدولة"[38]. ربما كان يفكر بقوله هذا في مرسوم الحكومة البروسية في حزيران/يونيو 1930 الذي منع موظفي الدولة من الانتماء إلى الحزب الألماني الوطني الاشتراكي الديمقراطي وإلى الحزب الشيوعي الألماني، واتخذه في رسالته ذريعة للتهديد العام الذي ينجم عن مواصلة الخلافات الأكاديمية بوسائل سياسية.

---

(37) رسالة من فايل إلى وزير العلوم والفنون والتربية الشعبية، 1 تشرين الثاني/نوفمبر 1929.

(38) رسالة من شميدت إلى وكيل الوزارة ريشتر، 25 تموز/يوليو 1930.
ذُكرت في:
P. Kluke, *Die Stiftungsuniversität Frankfurt am Main 1914-1932*, p. 504.

الفيلسوف ماكس هوركهايمر يتولى إدارة المعهد. البرنامج الجديد: تخطّي أزمة الماركسية عبر الوصل بين الفلسفة الاجتماعية والعلوم الاجتماعية التجريبية

في تشرين الأول/ أكتوبر 1930 وقّع فريدريش بولوك، الوكيل العام لفليكس فايل منذ عام 1925 عن رئاسة جمعية الأبحاث الاجتماعية، مع ماكس هوركهايمر، صاحب كرسي جامعي للفلسفة الاجتماعية منذ شهرين، عقدًا ينص البند الثالث منه على التالي: يتولى السيد الأستاذ هوركهايمر بدءًا من اليوم إدارة المعهد. في حال تعافى السيد الأستاذ غرونبرغ من مرضه الخطير - على عكس ما هو متوقَّع - بحيث يكون قادرًا على القيام بمهام منصبه كمدير للمعهد، يحاول السيد الأستاذ هوركهايمر أن يتفاهم معه حول تقاسم شؤون الإدارة. وسيتولى السيد الأستاذ ماكس هوركهايمر في موعد أقصاه 10 شباط/ فبراير 1932[39] من جديد، في هذه الحالة أيضًا، منفردًا إدارة المعهد".

لمّا لم تستطع جمعية الأبحاث الاجتماعية وكلية العلوم الاقتصادية والاجتماعية أن تتّفقا على خلف لغرونبرغ يكون مقبولًا من كلا الطرفين على شغل الكرسي الذي يصبح شاغرًا عند إحالته على التقاعد، وتقبل به أيضًا جمعية الأبحاث الاجتماعية خلفًا لغرونبرغ في إدارة المعهد، تمَّ التوصل إلى التسوية التالية: واصلت جمعية الأبحاث الاجتماعية لكلية العلوم الاقتصادية والاجتماعية تمويل كرسي غرونبرغ الذي يشغله مرشح مقبول من جانبها، إلى حين يصبح أحد الكرسيين الجامعيين الآخرين شاغرًا (أصبح أدولف لوفه (Adolph Löwe) خلفًا لغرونبرغ في الكرسي الجامعي، وكان بين عامي 1926 و1931 خلفًا لتونيز كأستاذ للنظرية الاقتصادية وعلم الاجتماع في كيل، ومديرًا لقسم الأبحاث في معهد الاقتصاد العالمي، واشتراكي ديمقراطي ناشط واشتراكي مسيحي، وتربطه صداقة بهوركهايمر منذ أيام الطفولة في شتوتغارت). أُنشئ كرسي جامعي جديد لكلية الفلسفة مرتبط بإدارة المعهد،

(39) ضَمن العقدُ لغرونبرغ عند تعيينه تولّي إدارة المعهد حتى هذا التاريخ، أي حتى بلوغه سنَّ الحادية والسبعين.

ودُعي هوركهايمر لشغله في نهاية تموز/يوليو 1930. يعود الفضل أساسًا لباول تيليش - وهو اشتراكي مسيحي مثل لوفه - ولإصرار وزارة التربية والتعليم في الدعوة التي تلقاها هوركهايمر، بصورة غير مألوفة، على شغل كرسي في الجامعة نفسها التي حصل منها على شهادة التأهيل للأستذة. إلا أن كلية الفلسفة أصرّت على ألا يُعتبر كرسيًا للفلسفة وعلم الاجتماع، بل أن يُنشَأ في إطار أكثر تواضعًا لتدريس الفلسفة الاجتماعية.

كان تعيين هوركهايمر خلفًا لغرونبرغ في إدارة معهد البحث الاجتماعي مفاجئًا بعض الشيء، لأن هوركهايمر لم يكن ينتمي البتة إلى "العاملين المقربين" في المعهد الذين تكلم عنهم فليكس فايل في رسالته إلى وزارة التربية والتعليم في تشرين الثاني/نوفمبر 1929. كان بالأحرى بين العاملين الأقرب بولوك وغروسمان اللذان افتُتحت بمؤلَّفيهما في عام 1929 سلسلة منشورات المعهد. في المقابل، لم ينشر هوركهايمر قبل عام 1930، في ما عدا رسالة غير لافتة لنيل أهلية التدريس، سوى ثلاث أو أربع مقالات تذكارية. وتكاد مشاركته في المعهد تكون أيضًا غير جديرة بالذكر. أقام هوركهايمر كمدرّس جامعي للفلسفة حلقة بحث فلسفية اجتماعية في المعهد، وفي مذكرة فايل إلى وزارة التربية والتعليم كان الكتاب السادس من بين سلسلة المنشورات التي ستصدر عن المعهد كتاب لهوركهايمر حول **أزمة الماركسية**. وجاء لاحقًا في رسالة هوركهايمر إلى فليكس فايل[40]: "قررنا، لأسبابٍ محض تقنية، أنني ينبغي أن أكون مديرًا للمعهد، لأن إنجاز ذلك كان، ببساطة، أمر أسهل مما هو بالنسبة إلى فريتس أو إليك [...]". في الحقيقة، كان بولوك وغروسمان مثقلين بشبهة سياسية، أما هوركهايمر فلم يكن كذلك. وأهم من هذا كله أن بولوك كان مستعدًا حقًا لأن يتنازل لمصلحة صديقه، ولأن هوركهايمر - الذي ما كان يأمل في الحصول على كرسي جامعي في المدى المنظور بطريقة طبيعية - كان يُلحّ للحصول على منصب مدير المعهد الذي كان يُعلّق عليه الأمل في تسريع مسار مهني أكاديمي، وبذلك أصبح من لم يمارس حتى ذلك الحين دورًا ذا أهمية في المعهد مرشحًا. وردَ في مذكرات لوفنتال أن "أحد الأمور التي كانت تشغلنا

(40) رسالة من هوركهايمر إلى فايل، 10 آذار/ مارس 1942.

جدًا في الماضي كان إنجاز هوركهايمر لـ'بدايات فلسفة التاريخ البرجوازية' [...] كان جزءٌ كبيرٌ من العمل في المعهد في عام 1929 - كما ينبغي القول - مكرّسًا للتخطيط الاستراتيجي. لقد نجحنا، وأصبح هوركهايمر أستاذًا صاحب كرسي ومديرًا للمعهد"[41]. قبلت كلية الآداب بتسميته أستاذًا ذا كرسي للفلسفة الاجتماعية، مع الإشارة إلى "موهبته الكبيرة وعلمه الواسع، وإلى تعمُّقه في نظرية المعرفة وقدراته التربوية الاستثنائية" وإلى "نجاحه التدريسي الكبير"[42].

في 24 كانون الثاني/ يناير 1931، ألقى هوركهايمر خطبته العلنية بمناسبة تولّيه كرسي الفلسفة الاجتماعية وإدارة معهد البحث الاجتماعي؛ وقد كانت الخطبة تحفةً في بلاغة الأسلوب المتمعِّن. ويمكن إيجاز مسار أفكاره كما يلي:

بلغ تاريخ المثالية الألمانية الكلاسيكية ذروته في الفلسفة الاجتماعية الهيغلية. وبحسب هذه الفلسفة، يكمن معنى كينونة الأفراد في حياة الكل الذي ينتمون إليه. يتيح التنظير المثالي رؤية المعنى والحكمة وراء لامبالاة الكل تجاه سعادة الإنسان الفرد ومناقبيته. في خلال القرن التاسع عشر، بدأ الإنسان يلحظ في تقدّم العلم والتقانة والصناعة وسائل من شأنها أن تجعل الكل الاجتماعي، بالنسبة إلى الأفراد، دائمًا أقلَّ تعسُّفًا وظلمًا، ومن ثم أقلَّ حاجة إلى التجلّي. لقد خاب هذا الأمل؛ فالحاجة إلى التجلّي استفاقت من جديد. وتسعى مشاريع الفلسفة الاجتماعية الراهنة إلى إشباع تلك الحاجة. إلا أن هذه الحاجة تقوم على مفهوم للفلسفة ما عاد مقبولًا؛ فوضع المعرفة اليوم يتطلب تداخلًا دائمًا بين الفلسفة والعلوم التخصصية. تبلور في النقاش الاجتماعي والفلسفي حول المجتمع سؤال مركزي، هو تحديدًا السؤال حول العلاقة بين الحياة الاقتصادية للمجتمع والتطور النفسي للأفراد والتغيرات في المجال الثقافي. هذه هي، في أي حال، الصياغة التي توافق المناهج المتاحة اليوم والتي تحيل على المشكلات الراهنة للسؤال الفلسفي القديم حول علاقة العقل الخاص والعام،

---

(41) Leo Löwenthal, *Mitmachen wollte ich nie - Ein autobiographisches Gespräch mit Helmut Dubie*, p. 66.

(42) رسالة كلية الفلسفة إلى وزير العلوم والفنون والتربية الشعبية، 30 حزيران/ يونيو 1926/ الملفُّ الشخصي لهوركهايمر في كلية الفلسفة لجامعة ي. ف. غوته، فرانكفورت أ. م.

وحول علاقة الحياة والروح. ومن أجل الوصول إلى أقوال يمكن ضبطها، يجب أن ينحصر طرح السؤال أكثر بجماعات اجتماعية معينة وبفترات زمنية محددة.

إحدى هذه الجماعات المهمة على نحو خاص هي جماعة العمال والموظفين، ويجب البدء بها. وهذا لا يحصل، وقد حان الوقت لذلك، إلا عندما يظهر فيلسوف اجتماعي على علم ودراية بالفلسفة المثالية الألمانية على رأس جهاز بحث تجريبي كبير، ويبدأ في استخدامه "لكي أبني على الأقل في أضيق إطار مع معاونيّ دكتاتوريةَ عمل كامل التخطيط حول التجاور بين البناء الفلسفي والتجربة في النظرية الاجتماعية"، ويعمل بجدية في المشروع "لتنظيم دراسات على أساس التساؤلات الفلسفية الحالية، يتَّحد فيها فلاسفة وعلماء اجتماع واقتصاديون ومؤرخون وعلماء نفس في جماعة عمل دائمة"[43]. بهذا استؤنف من جديد - بحسب النتيجة التي لم تُنطق - مشروع القرن التاسع عشر لجعل الكل الاجتماعي، بمساعدة العلم والتقانة والصناعة، أقلَّ تعسُّفيةً وظلمًا للأفراد، ومن ثم أقلَّ حاجةً إلى التجلّي، يواصل تطوره بوسائل الحاضر الأكثر تطورًا نحو آفاق نجاحات أكبر.

كانت هذه نغمة جديدة اختلفت بوضوح عن شعورٍ أظهره غرونبرغ ذات يوم بأنه يعيش "في زمن تطورٍ شديد السرعة". كما أنه لم يكن ليشاطره الكآبة التي ذكرها هوركهايمر في خطبته على أنها ميزة "فلسفة الوجود الإنساني المنفرد" لهايدغر، كما عُرضت في **الكينونة والزمان**، "العمل الفلسفي الحديث الوحيد" من نوع غير تنويري. كانت النغمة الخاصة بهوركهايمر موسومة بالأحرى بالأمل الحذر بأن المعرفة الحقيقية، بخلاف الأيديولوجيا المستنيرة، يمكن أن تخدم الإنسان بوصفها وسيلة تحمل معنًى وحكمة إلى العالم. كانت هذه نغمة بين ما اعتمد عليه ماركس الشاب لتحقيق الفلسفة بواسطة فعل البروليتاريا التحرُّري، وبين ما اعتمده فرويد القديم من تقدُّم متواضع

---

(43) Max Horkheimer, *Die gegenwärtige Lage der Sozialphilosophie und die Aufgaben eines Instituts für Sozialforschung*, *Frankfurter Uinversitatsreden*, 1931,

أُعيدت طباعتها في:

Sozialphilosophische Studien, pp. 41 f.

للعلم الذي لا يزال شابًا في تاريخ البشرية؛ فرويد الذي كان قد كتب في عام 1927 في **مستقبل وهم**: "يعني الكثير للمرء أن يعرف أن عليه الاعتماد على قوّته الذاتية. إنه يتعلم عندئذٍ كيف يستخدمها على نحوٍ صحيح [...] ولأنه [الإنسان] يُسقِط توقُّعاته حول الحياة الأخرى، ويُركّز كلّ قواه المحرَّرة على الحياة الدنيوية، يمكنه، على الأرجح، أن يجعل الحياة محتمَلة للجميع، ولا تعود الحضارة ثقيلة على أحد بعد الآن"[44].

لا شك في أن المدير الجديد للمعهد الذي اتَّهم في ما بعد، باسمه المستعار في الحِكَم المنشورة في كتابه **الفجر**، الفلاسفةَ بأنهم يتجاهلون أوجاع الناس، كان في خطابه حول هذا الموضوع أكثر راديكاليةً من بعض المفكرين البرجوازيين الذين كان يحتقرهم. بدا أن هوركهايمر يتصرف منذ البداية انطلاقًا من قناعته بأنه حامل رسالة ثورية، كان إيصالها سالمة وسط كل المخاطر الكبيرة هو الأكثر أهمية؛ على الرغم من أن هذا كان في زمن أعلن غرونبرغ وفايل صراحةً عن التوجُّه الماركسي للمعهد، وكان العوز كبيرًا، والرسائل المتضاربة في انتظار من يتلقاها. لكن كانت لهذا كله ميزةٌ، هي أنه كان للمعهد مدير يؤثّر في باقي الزملاء الجامعيين بثقة أكبر من غرونبرغ. وبالنسبة إلى تطوُّر النظرية الماركسية، نشأ وضعٌ مهم: حاول هوركهايمر أن يتجاوز أزمة الماركسية بربطها بالتقدُّم الحديث في ميدان العلم "البرجوازي" والفلسفة، وربط على خلفية رفض ماكس فيبر وهايدغر لكل التنظيرات حول معنى الكون المعطى مسبقًا والجوهر فوق التاريخي للإنسان بين إنقاذ لوكاتش وكورش العناصر الفلسفية في الماركسية، وإدراج ماكس شلر لكل العلم التجريبي في الفلسفة.

لم يتغير شيءٌ بخصوص سياسة دعم المعهد طلابًا وعلماء شبابًا شيوعيين واشتراكيين في عهد إدارة هوركهايمر. فبناء على توصية من الزوجين فيتفوغل في برلين حصل، مثلًا، جوزف دونر (Joseph Dünner)، عضو "الجماعة الطلابية الحمراء" الشيوعية على منحة دراسية من المعهد - 130 رايخ مارك شهريًا - لكي يستطيع أن يُنهي كتابة رسالته الجامعية في فرانكفورت حول جوهر النقابة الدولية.

---

(44) S. Freud, *Gesammelte Werke*, vol. 14, pp. 373 f.

لم تعنِ التغييرات الحاسمة أي قطيعة مع إنجازات غرونبرغ ولا مع الزملاء الذين كانوا يعملون بروحية غرونبرغ. في الواقع، تواصل - كما أعلن هوركهايمر في خطابه - إلى جانب العمل البحثي الجماعي "النشاط البحثي المستقل لبعض الباحثين في مجالات الاقتصاد النظري، وتاريخ الاقتصاد، وتاريخ الحركة العمالية". كما أن **مجلة الأبحاث الاجتماعية** التي ظهرت في عام 1932 بدلًا من **أرشيف تاريخ الاشتراكية والحركة العمالية** الذي أسّسه غرونبرغ، وظهر آخر مرة في عام 1930 دلّلت، من ناحية دار النشر وشكل الإصدار، على الاستمرارية، وأفسحت في قسم المقالات الموسّع وقسم النقد الممنهج في المجال أمام أولئك الذين كانت أبحاثهم تدور في مروحة موضوعات عهد غرونبرغ، والذين كانوا يعملون في [مجلة] **أرشيف** غرونبرغ. لكن، مع تحويل نقطة ارتكاز عمل المعهد من تاريخ المجتمع إلى نظرية المجتمع، تحولت الموضوعات والرؤى التي كانت حكرًا على البعض من قبل، إلى مجال تداخل الاختصاصات من بين أمور أخرى، ولم يمارس العمل الجماعي الذي أُعلن عن مركزيته إلا دورًا هامشيًا؛ فكان لا بد من أن يظهر العمل لأولئك الذين لم يشتركوا في إنجازه حتى الآن في إطار أوسع بوصفه خفضًا في الدرجة وخيانة.

إن ما ظهر بمثابة خيانة لعهد غرونبرغ من نواحٍ مختلفة قد عنى، على الرغم من ذلك، من منظور آخر إعادة وصل بمرحلة تأسيس المعهد وبغرلاخ الذي سبق أن طالب في تقريره حول إصلاح الدراسات العلمية، والذي سبق مذكّرته حول المعهد، بضرورة إجراء تشكيل جديد لكل مجالات العلوم الاجتماعية، وأشار إلى التعاون بين جميع الفروع الاختصاصية في العلم "الهادفة نحو تعاون فلسفي-اجتماعي"، وشدّد على أنه لا غنى عن "وجهات النظر الكبرى" التي وحدها تستطيع أن تُعطي العالِمَ المعنى "انطلاقًا من منظور الحياة"[45].

عبر التوسع ظهر أيضًا تحويل لنقطة الارتكاز في التغييرات التي طاولت تركيب العاملين المهمّين في المعهد. في 16 شباط/فبراير 1929 كان قد افتُتح في مبنى معهد البحث الاجتماعي معهدُ فرانكفورت للتحليل النفسي

(45) في:
I. Jastrow (ed.), *Die Reform der staatswissenschaftlichen Studien*, pp. 92 f.

لجمعية علم النفس التحليلي في جنوب غرب ألمانيا الذي كان ضيفًا على معهد البحث، وكان من بين أعضائه إريك فروم، وهو صديقٌ قديمٌ لليو لوفنتال. منذ فصل الشتاء الجامعي 1930/1931، كان "د. فروم (برلين)" من بين طاقم التدريس في المعهد إلى جانب "الأستاذ د. هوركهايمر"، و"الأستاذ د. غروسمان" و"الأستاذ المساعد د. بولوك"[46].

منذ البداية، كان تيودور فيزنغروند (Theodor Wiesengrund) – الذي سمى نفسه كناقد موسيقي أيضًا باسمه المزدوج المسجَّل رسميًا فيزنغروند-أدورنو – من بين أهم العاملين في **مجلة الأبحاث الاجتماعية**. كانت تجمعه منذ زمن طويل صداقة بهوركهايمر وبولوك ولوفنتال. لم يحقق هوركهايمر وبولوك رغبته في أن يصبح عضوًا رسميًا في المعهد، ربما بسبب رفض هوركهايمر للفلسفة "الألمانية" التي يُمثلها أدورنو، هذا أولًا، وثانيًا ربما لكي يتجنَّب التزامات مالية تجاه أدورنو الذي كان ميسور الحال بفضل أسرته.

أجرى ليو لوفنتال في عام 1932 في فرانكفورت حديثًا أوليًا مع هربرت ماركوزه قاد إلى قبوله في المعهد، بعد أن كان هوركهايمر قد أظهر في عام 1931، في بادئ الأمر، رغبة فاترة في ضم "تلميذ لهايدغر أوصى به ريتسلر"[47] إلى المعهد (حاول ريتسلر (Kurt Riezler) بلا جدوى أن يأتي بصديقه هايدغر إلى فرانكفورت، مع الإشارة إلى أنه أيّد بشدة في عام 1919، بوصفه مقرِّرًا للشؤون الألمانية في القسم السياسي لوزارة الخارجية، تدخُّل الرايخ العسكري ضد الجمهورية الشيوعية في ميونيخ. وكان منذ عام 1919 أحد ناشري المجلة الشهرية *Die Deutsche Nation* **(الأمة الألمانية)**، ومنذ عام 1928 المدير التنفيذي لمجلس أمناء جامعة فرانكفورت أ. م، وفي الوقت نفسه أستاذًا فخريًا في الفلسفة، وفي عام 1930 أحد أشد المعارضين لمنح جائزة غوته لفرويد).

كان هؤلاء هم الأشخاص الذين مثّلوا، مثل هوركهايمر نفسه، جوانب أخرى من ثقافة فايمار من بين معظم أولئك الذين كانوا على علاقة بالمعهد في العشرينيات.

---

(46) *Institut fur Sozialforschung (IfS)* (1931).

(47) رسالة من هوركهايمر إلى ماركوزه، 8 كانون الأول/ ديسمبر 1963.

ماكس هوركهايمر

"ولدتُ في 14 شباط/فبراير 1895 في شتوتغارت ابنًا وحيدًا للصناعي موريتس هوركهايمر، وكان مقررًا لي منذ السنوات الأولى من حياتي أن أكون خليفة لوالدي في إدارة مصانعه". هكذا بدأت السيرة الذاتية التي أرفقها ماكس هوركهايمر في عام 1924 بطلب الاشتراك في الامتحانات لنيل شهادة التأهيل للأستذة. كان الأب، موزس - المدعو موريتس - هوركهايمر، مثل جدِّه تاجرًا، واستطاع أن يصبح مالكًا لكثير من معامل النسيج في تسوفنهاوزن قرب شتوتغارت التي كانت مقر مملكة فورتمبرغ في ذلك الوقت. كان كلا الوالدين من أتباع الدين اليهودي وقد عاشا، على الأقل إبان طفولة الابن، "بالمعنى اليهودي الصارم نوعًا ما، ولن أقول الأرثوذكسي، ولكن المحافظ"[48]. إلى جانب نجاحه في المشاريع الصناعية، وصل الأب عبر تشجيع الفنون بالمال، وتبرعات خيرية والتزام وطني خصوصًا أثناء الحرب، إلى تحقيق اعتراف اجتماعي به. في عام 1917، منحه ملك بافاريا لقب مستشار تجاري نظرًا إلى "عنايته بالشأن العام"، وأصبح في عام 1918 مواطن شرف في تسوفنهاوزن. إلى هذا الحد كان والد هوركهايمر يرى نفسه ألمانيًا، حيث إنه رفض حتى صيف 1939 أن يغادر ألمانيا؛ مع أنه أرغم في عام 1933 على بيع "شركته اليهودية"، وعلى التخلي في ما بعد عن الفيلا التي كان يملكها. وقد كتب إلى ابنه في الولايات المتحدة الأميركية أن عائلته تعيش هنا قبل عائلة السيد هتلر بوقت طويل.

وفق مخطط موريتس هوركهايمر الذي كانت سلطته راسخةً من خلال بنية الأسرة البرجوازية، ودور رجل الأعمال الناجح، ومكانة الأب القوية في التقليد اليهودي، أُخرج الابن من المدرسة الثانوية من الصف قبل الأخير، ليُعيَّن في عام 1910 متدرِّبًا في شركة الوالد. وفي العام التالي تعرّف الابن في حفل

(48) "Das Schlimme erwartet und doch das Gute versuchen. Ein Gespräch mit Professor Dr. Max Horkheimer," in: G. Rein (ed.), *Dienstgespräche mit Zeitgenossen*, p. 151.

راقص إلى فريدريش بولوك الذي يكبره بعام، وهو ابن صاحب معمل جلود، أدار ظهره لليهودية، وربّى ابنه على مثاله. هكذا كان باستطاعة بولوك أن يكون المحرّك الأول للشاب هوركهايمر على طريق تحرُّر تدريجي من بيت العائلة المحافظ على وجه الإجمال. وكانت هذه بداية علاقة حميمة بين الاثنين دامت مدى الحياة، ومُهرت بعقد صداقة. تضمّن هذا العقد قواعد دقيقة حول كيف، وإلى أي مدى، وفي أي وقت من النهار يجب أن تُناقش الخلافات والقرارات، وحدّد العقد الصداقة بأنها "تعبيرٌ عن انطلاقة نقدية إنسانية وخلق تضامن بين جميع البشر"[49]. وفي هذا يظهر الطموح نحو خلق حصن خاص يمكن أن يدار منه الصراع مع الواقع، نظرًا إلى التناقض بين المثال والواقع. ازداد الوعي بذاك التناقض من خلال القراءة المشتركة لإبسن وستريندبرغ وزولا - النقّاد الطبيعيون للمجتمع البرجوازي - ولتولستوي وكروبوتكين - داعيا الاشتراكية الثورية المناديان بالتقشف وبنمط حياة موسوم بحب يشمل الجميع - ولكتاب شوبنهاور **شذرات في حكمة الحياة**، ولكتاب سبينوزا **الأخلاق**، ولكتاب كارل كراوس **المشعل**، ولكتاب فرانتس بفمفرت **الفعل** - عملًا بالنَّفَس السياسي الراديكالي لناشره، وقد طبع هذا النَّفَس مجال المعارضة الأدبية ضد العالم البرجوازي لأوروبا ما قبل الحرب، وضد الحرب.

أمام وضع الابن الذي ابتلي بالصراعات، لجأ الأب إلى العلاج التقليدي الذي يلجأ إليه الأثرياء: أرسل خليفته المستقبلي في رحلة خارج البلاد. أقام هوركهايمر برفقة بولوك السنة ونصف السنة الأخيرين قبل الحرب، بدايةً كمتطوع في بروكسل - وتخللت هذه الإقامة زيارات إلى باريس - ثم أقام بعد ذلك متحررًا من أي التزامات في مانشستر ولندن. وحينما اندلعت الحرب العالمية الأولى، كان ماكس هوركهايمر قد أصبح للتوّ المدير الشاب لعمل والده. وهكذا أعفي مؤقتًا من المشاركة في الحرب التي رفضها منذ البداية. لكن، حتى حياته كمدير شاب، كانت تسبِّب له وخز ضمير حينما يفكر في الحياة المزرية للعمال والعاملات والجنود في الحرب هناك في الخارج. وقد حاول في مذكرات يومية وفي روايات قصيرة (نشرها هو نفسه في نهاية حياته

---

(49) ورد في:

H. Gumnior & R. Ringguth, *Max Horkheimer*, p. 16.

تحت عنوان **الخروج من المراهقة**) أن يوضح لنفسه ما كان يدفع أولاد الأغنياء الذين يعانون من الاضطرابات، وما كان يدفع آباء ناجحين وقساة القلوب، وما كان يدفع عمالًا وعاملات للعيش حدّ الكفاف تحت شروط إنسانية مهينة. أما كيف بدا جوابه، فيظهر في مشهد ختامي لقصة كتبها بداية عام 1916 بعنوان **ليونهارد شتايرر** (*Leonhard Steirer*). يفاجئ العامل ليونهارد شتايرر حبيبته وهي تخونه بين ذراعي ابن صاحب المعمل، فيقتله، ويجبر الفتاة على الهرب معه. ويخبرها بمرارة وخيبة:

"'لو كان بإمكان أناس أن يكونوا صالحين مثله، أناس تُشترى متعهم وثقافتهم وأيامهم بتعاسة الآخرين، لكان يمكن فعلي أيضًا ألا يكون سيئًا. ينحصر الفرق بين هذا الرجل وبيني في أنه كان يجب عليّ أن أفعل، وأنني امتلكت الشجاعة والقوّة، بينما هو مرتاح ويستطيع أن يتمتّع، ولم يُجرِّب ما تكلِّف المتعة وكم هي دموية. هو لم يكن أشرف مني، لقد امتلك اليومَ كل أفراحه، وكان لديه أيضًا الوعي ببراءته، لقد أخذ الحياة حقًّا له، وكان باستطاعته أن يكون سعيدًا لا تعكر صفوه أي غيوم، ومن دون أن يلوم نفسه، ومن دون التفكير في الخطيئة. لقد أخذتُ هذا كلَّه على عاتقي، كنت مشحونًا ووضيعًا، وسأكون كذلك، لم يكن بالنسبة إليّ صالحًا ما كان صالحًا بالنسبة إليه. يا يوهانا، إذا لم تكوني أنتِ لاإنسانية وقاسية إلى أبعد الحدود، فعليك أن تكون لي، مثلما كنت له! [...]'.

كان على يوهانا إستلاند أن تفكر في كلمات الميت حول الحياة، وفي عذابه وفي وعي ذنبه الغامض المليء بالأسرار، والذي لم تفهمه قط، وكانت تعتبره دائمًا بمثابة تأثير لمرضه [...]. لقد فهمتْ أن ليونهارد شتايرر كان بالفعل على حق، أن حبَّه لم يكن أقل ولا أكثر قيمة من حب ابن صاحب المعمل، وكانت ترتعش أمام هذه المعرفة [...]. نظرت يوهانا إلى العالم للحظة - بعينين كبيرتين مذعورتين - ورأت جشع كل الأحياء البشع الذي لا يشبع، ورأت قدر المخلوقات القاسي الذي لا مفرّ منه، وإدمان المتعة الذي يحرق ويعذب أبد الدهر، وهو أصل كل الشرور ولن ينطفئ أبدًا"[50].

(50) Max Horkheimer, *Aus der Pubertät: Novellen u. Tagebuchblätter*, pp. 196 f.

هذا المقطع الذي اجتمع فيه النقد الاجتماعي الجذري والتشاؤم الشوبنهاوري أظهر، في الوقت نفسه، النتائج التي استنتجها لفعله: اتِّباع سلطة الحب وإيقاظ الضمير الشقي لأصحاب الامتيازات.

عندما ارتبط في عام 1916، ضد إرادة والديه، بسكرتيرة والده الخاصة الأكبر منه سنًا بثماني سنوات روزه ريكهر (Rose Riekher)، ابنة فندقي وقع في الفقر والمسيحية، كان قراره لمصلحة رقة امرأة بسيطة، وفي الوقت نفسه، نوعًا من زواج رمزي مع عالم المهزومين والعاملين الذين اعتقد أنهم لا بد من أن يكونوا هائجين بشكل مخيف ضد رجال الأعمال المستبدين من أمثال والده، وتوقع "انتفاضة الشعب لتحقيق شروط حياة حقيقية تمنحه المدخل إلى الثقافة الحقيقية" (كما كتب هوركهايمر عام 1916 في قصته **العمل** التي أهداها إلى مايدون، أي إلى روزه ريكهر). أضاعت الصديقة وظيفتها، ونشب خلاف بين الأب والابن، دام عشر سنوات تقريبًا.

أصبح هوركهايمر في عام 1917 جنديًا. وفي فحص طبي كُتِب أنه "غير صالح للخدمة العسكرية"، وهكذا لم يرسَل إلى الجبهة البتة. عاش انهيار الرايخ وثورة تشرين الثاني/نوفمبر من مصح في مدينة ميونيخ.

تقدّم هوركهايمر بشكل جدي لنيل شهادة البكالوريا في مدينة ميونيخ، وكان لا يزال معينًا خليفة لوالده، ونال معه أيضًا بولوك شهادة البكالوريا. وفي ربيع عام 1919 بدأ بدراسة علم النفس والفلسفة والاقتصاد الوطني. وفي رسالة إلى الحبيبة في فترة جمهورية ميونيخ الشيوعية التي كان يعيشها بالأحرى عن بُعْد، كتب يقول: "لا تثقي بالأكاذيب حول ميونيخ [...] هنا **لا** يسود الجنون والظلم". بعد فصل دراسي واحد عاد مع بولوك إلى فرانكفورت أ. م، لأنه - هكذا صرّح هو نفسه في حديث مع غرهارد راين - بعد القضاء على الجمهورية الشيوعية في بافاريا، ظُنّ أنه إرنست تولر، واعتقل خطأً، وأضحت الحياة في ميونيخ، بالنسبة إليه، مصدر خطر. "[...] يواجهنا انحلال، وتقويض، وصراع حاسم؛ قبل بزوغ مجتمع جديد بكثير، كانت قد أُحرقت جميع الجسور وراءنا [...]. الفلسفة المعاصرة بالارتباط مع معرفة تاريخها الحديث المباشر سوف تكون لي مرشدًا وخارطة"، كتب هوركهايمر في صيف 1920 إلى

مايدون التي عاش بعيدًا عنها في السنوات الأولى للدراسة، إلى أن جاءت أخيرًا هي أيضًا إلى كرونبرغ، المنطقة السكنية غير البعيدة عن فرانكفورت على سفوح جبال التاونوس حيث اشترى هو وبولوك بيتًا فخمًا.

كان أهمُّ أساتذة هوركهايمر في فرانكفورت عالِمَ النفس شومان والفيلسوف هانز كورنيليوس (Hans Cornelius). كان شومان، ومعه أديمار غيلب وفولفغانغ كوهلر (في جامعة فرانكفورت حتى عام 1921) وماكس فرتهايمر (Max Wertheimer) (حتى عام 1918، ثم من جديد منذ عام 1929 في جامعة فرانكفورت)، من علماء النفس الغشتالتيين الذين كانوا يُعتبرون في ذلك الوقت الأكثر تقدمًا بين علماء النفس، وكان مركزهم الأول في فرانكفورت. كانوا يقومون بأبحاث تجريبية متعددة النواحي حول إدراك الشكل، تُعنى بإنشاء البرهان على استقلالية الشكل، أي الكل، وتأسيسه كمقابل لعناصر الإحساس المنفردة ومجموعها. كذلك كورنيليوس، المولود في عام 1863 في ميونيخ، وكان قد قدم إلى فرانكفورت في عام 1910 وشغل بمفرده طوال عقد ونصف العقد كرسي الفلسفة في جامعة فرانكفورت التي افتُتحت في عام 1914، وقد حصّل بذلك بعض الشهرة لكونه واحدًا من مؤسسي علم النفس الغشتالتي. كان ماكس فرتهايمر أهم محاوريه في النقاشات حول نظرية المعرفة في "فيلّا كورنيليوس" في أُوبرأورسل، الواقعة مثل كرونبرغ على سفوح جبال التاونوس. كان كورنيليوس يعمل فنانًا ومعلمًا للفن، وعالِمَ طبيعة وفيلسوفًا، ومثّل في الفلسفة واحدًا من الأنواع الكثيرة من الكانطية الجديدة في علم النفس المعرفي. كان يدعي أنه يمثّل "نظرية شروط إمكان التجربة المتجذرة في وحدة وعينا" والمتحررة من جميع الرواسب الدوغمائية التي كانت لا تزال باقية عند كانط (كورنيليوس). واعتقد، من خلال التركيز على دور المعرفة التجريبية، وعلى حصة الذات في صلاحيتها العامة، أنه قد نحّى جانبًا العنصر السري في نظرية هوسرل حول "الحدس" بالموضوعات العامة. ما قاله في خطبته بمناسبة الاحتفال بكانط في جامعة فرانكفورت في عام 1924 أعطى انطباعًا عن تصوراته الاجتماعية-السياسية. كان يتوقع أن الخلاص من البؤس لا يأتي إلا من وضوح المعرفة، ومن الفلسفة، ومن التوجّه نحو "أعضاء جمهورية العباقرة

الكبرى" الذين "يتمسكون على مدى قرون بالحوار بين الأرواح، غير عابئين بالأقزام الذين يزحفون على الأرض بينهم وتحتهم"[51].

في الحقيقة، لم يعنِ علم النفس الغشتالتي لشومان وغيلب، ولا نوع الكانطية الجديدة لكورنيليوس، أي شيء مشترك مع تنوير الوجود البشري، لأن مشاكل الحياة التي كانت ملحّة على نحو خاص في مرحلة ما بعد الحرب لم تجد لها صدًى ملحًّا عندهم. لهذا تأثر هوركهايمر بعمق عندما أرسله كورنيليوس إلى فرايبرغ في خريف 1920 مع كتاب تزكية إلى هوسرل لفصلين دراسيين، حيث تعرّف إلى مارتن هايدغر، مساعد هوسرل، وعايشه. بعد العام الذي أمضاه في فرايبرغ واستئناف دراسته في فرانكفورت، كتب إلى مايدون: "كلما أسَرَتني الفلسفة أكثر، كنت أبتعد بالقدر نفسه عما كان يُفهم بالفلسفة في هذه الجامعة. فما يجب أن نبحث عنه ليس قوانين المعرفة الصورية التي في حال أُخذت أساسًا كانت غير مهمة إلى حد بعيد، وإنما المقولات المادية حول حياتنا ومعناها. إنني أدرك اليوم أن هايدغر كان من أهم الشخصيات التي تكلمت إلي. لكن هل أقول إنه على حق؟ كيف يمكنني ذلك وأنا لست على يقين إلا من معرفة شيء واحد هو أن دافعه نحو التفلسف لا ينشأ من طموح عقلي أو من نظرية مسبقة الصنع، بل ينشأ كل يوم من تجربته الشخصية"[52].

بدأ هوركهايمر في فرانكفورت بكتابة رسالة عن **التغيرات الغشتالتية في منطقة عمى الألوان للبقعة العمياء في العين** لنيل شهادة الدكتوراه في اختصاصه الرئيسي علم النفس، وكان لا يزال دائمًا تحت ضغط والده ليلحق بمسيرة رجل أعمال وينفصل عن روزه ريكهر. لكن بعد أن أُحبِط هذا المشروع بسبب نشر بحث مماثل تقريبًا في كوبنهاغن، وبعد أن حثّ كورنيليوس طالبه المفضّل على نيل الدكتوراه بإشرافه ببحث فلسفي عن **تناقض مَلَكَة الحكم الغائية**، واقترح عليه حالًا بعد حصوله على الدكتوراه أن يكون مساعده الأكاديمي، كان هوركهايمر قد اتخذ القرار بالسير في مسيرة أكاديمية كفيلسوف، ومن ثم قرار التخلي عن المهنة المالية للأب.

---

(51) *Frankfurter Universitätsreden* (1924), pp. 4, 11.

(52) رسالة من هوركهايمر إلى مايدون و/أو روزه ريكهر، 30 تشرين الثاني/نوفمبر 1921.

ومثلما كان هوركهايمر متأنيًا في اتخاذ هذا القرار، كان التزامه بالنظرية الماركسية كذلك أيضًا. وبقي القرار شأنًا شخصيًا تقريبًا، لا سيما أنه لم يبرز، على عكس بولوك، بوصفه من العاملين في معهد البحث الاجتماعي. في صيف 1924، زار تلميذ آخر لكورنيليوس هوركهايمر وبولوك هو تيودور فيزنغروند-أدورنو الذي كان يعرفه هوركهايمر منذ أوائل العشرينيات، لكي يطلب مساعدتهما في التحضير للامتحان الشفهي في علم النفس الذي اختاره قبل موعده بوقت قصير. وقد كتب إلى صديقه ليو لوفنتال قائلًا: "لكي أحصل على المادة انتقلتُ إلى هنا، إلى كرونبرغ، لعشرة أيام، حيث رحّب ماكس هوركهايمر وصديقه بولوك بي أحرّ ترحيب، وكلاهما استثنائي، وقد درّباني في علم النفس الأشد صرامة لشومان. بالمناسبة، كلاهما شيوعي، وكانت لنا أحاديث طويلة وحماسية حول النظرية المادية في التاريخ، أقرّ فيها واحدنا للآخرَين بأشياء كثيرة"[53].

في عام 1925 نال هوركهايمر شهادة التأهيل للأستذة برسالة تناولت **نقد كانط لمَلَكَة الحكم بصفتها حلقة وصل بين الفلسفة النظرية والعملية.** اقتصر هوركهايمر هنا، معتمدًا على افتراضات استمدها من علم النفس الغشتالتي ومن فلسفة كورنيليوس الترانسندنتالية لجعل تلك الافتراضات مقبولة، على إظهار أن الغائية الصورية في الطبيعة وغائية الموضوعات الجمالية وغائية الموضوعات العضوية لا تشهد - كما كان يعتقد كانط - على توافق عَرَضي وعجيب بين العقل النظري والعقل العملي، بل هي "بالضرورة (وقائع) مشتقة من سياق وعينا"، لا يمكن إدراكها إلا من الناحية النظرية المعرفية، وهي لا تُظهر في نهاية الأمر أكثر من أن مملكة الأفكار ومملكة الطبيعة ليستا منفصلتين مبدئيًا[54].

بدءًا من محاضرته التي قدَّم بها نفسه كمدرّس جامعي في 2 أيار/ مايو 1925 - "كانط وهيغل" - ومن محاضرته الأولى في الفصل الدراسي الشتوي

---

(53) رسالة من فيزنغروند إلى لوفنتال، 16 تموز/ يوليو 1924، في:
Löwenthal, *Mitmachen wollte ich nie*, pp. 248 f.

(54) Max Horkheimer, *Kants Kritik der Urteilskraft Als Bindeglied Zwischen Theoretischer Und Praktischer Philosophie*, pp. 62 ff.

1925/ 1926 عن "الفلسفة المثالية الألمانية (من كانط حتى هيغل)"، بدأ هوركهايمر يتجاوز، من حيث الموضوع، الإطار المرسوم من خلال علم النفس الغشتالتي وفلسفة كورنيليوس الترانسندنتالية. في كانون الثاني/ يناير 1928 حصل هوركهايمر، الذي سرعان ما جعل علاقته بروزه ريكهر شرعيةً بعد نيله شهادة أستاذ جامعي خاص، على تكليف مأجور بالتدريس الجامعي لتاريخ الفلسفة الحديثة. لجأ بسبب الخجل الذي كان يعاني منه ويمنعه من إلقاء محاضراته من دون نص مكتوب، إلى كارل لانداور (Karl Landauer)، طبيب الأعصاب والمحلل النفسي، وأحد مؤسسي معهد فرانكفورت للتحليل النفسي. إلا أن أمنية كورنيليوس في أن يخلفه هوركهايمر في الكرسي الأكاديمي لم تتحقق؛ فقد استُدعي ماكس شلر بدلًا منه، وبعد وفاة شلر استُدعي باول تيليش. يُظهر استعراض عناوين المواد التي درّسها في تلك السنوات أن هوركهايمر كان ينتقل، بتوسيع تدريجي لمجاله في تاريخ الفلسفة الحديثة، بحذر نحو الإفصاح الفلسفي عن الموضوعات التي كانت تهمّه منذ البداية: الفصل الدراسي الصيفي 1928 **مدخل إلى فلسفة التاريخ**، الفصل الشتوي 1928/ 1929 **المادية والمثالية في تاريخ الفلسفة الحديثة**، الفصل الشتوي 1929/ 1930 **هيغل وماركس**، الفصل الشتوي 1930/ 1931 **التنوير الإنكليزي والفرنسي**.

والمذكرات التي دوّنها هوركهايمر بين عامي 1926 و1931، ونشرها تحت الاسم المستعار هاينريش ريغيوس (Heinrich Regius) في عام 1934 في المنفى في سويسرا بعنوان **الفجر**، تُظهِر كيف بدت آراؤه الأساسية وكيف فهم نفسه، هو الذي اجتاز على الرغم من كل تردده سيرة أكاديمية هادفة وميسّرة، كما لم يفعل غيره من المنظرين الذين صاروا في ما بعد ضمن الدائرة الضيقة لمدرسة فرانكفورت. كانت المذكرات تضم مشاهدات وتأملات، مثل تلك التي احتوتها قصص **الخروج من المراهقة**، وأفكار كان قد عبّر عنها هوركهايمر في أول تصريحاته العلنية المهمة - "بدايات فلسفة التاريخ البرجوازية" (1930)، و"مفهوم أيديولوجي جديد؟" (1930)، و"الوضع الراهن للفلسفة الاجتماعية ومهمات معهد البحث الاجتماعي" (1931) - مع تأملات في دور النظرية الماركسية وفي مشكلات الهوية لمواطن يساري ذي نزعة فردية، وهي تأملات لم ترد عند هوركهايمر بهذا الشكل من قبل.

كان الغضب من الظلم الاجتماعي ومن التفاوت بين الغنى والفقر، لا يزال في المقام الأول. كان بإمكان هوركهايمر أن يستند إلى تجاربه الخاصة بوصفه ابنًا لمليونير. كان هذا يحميه من تهمة الحقد والضغينة. ومثلما رأت عين رسّام الباروك في الجسد الجميل للكائن الحي ديدان العفن تعجّ فيه، كذلك رأى هوركهايمر أن "جميع هؤلاء السادة النبلاء لا يستغلون في كل لحظة بؤس الآخرين فحسب، بل يعيدون إنتاجه من جديد لكي يستطيعوا أن يعيشوا منه مرة أخرى، وهم مستعدون للدفاع عن هذا الوضع بدم الآخرين كله"، ورأى أنه "بالذات، عندما تلبس هذه المرأة للذهاب إلى مأدبة، يتحرك الناس الذين تعيش منهم نحو الوردية الليلية، وحينما نقبّل يدها الناعمة لأنها تشكو من الصداع، [...] في مستشفى الدرجة الثالثة تكون الزيارات أيضًا، حتى للمشرفين على الموت، ممنوعة بعد الساعة السادسة مساء"[55]. وفي الوقت نفسه وجد كلمات عنيفة تعبّر عن بؤس العمال والفقراء. لم يكن "قبو" المجتمع إلا "مسلخًا"[56]. "يولد معظم الناس داخل سجن"[57]. "نُتْرَكُ لمصيرنا بلا رحمة وبلا مال، وبلا ضمان اقتصادي. إنها بالتأكيد عقوبة فظيعة، أن تُطحن يوميًا وأنت مقيد بمشاغل تافهة، ولديك هموم ليلَ نهار وأنت تعتمد على أكثر الناس ضِعَةً. لسنا وحدنا من يقع تحت رحى الحياة اليومية، بل يقع معنا أيضًا كل الذين نحبهم ونتحمل المسؤولية لأجلهم. سنصبح موضوعًا للحماقة والسادية [...]"[58].

من جهة أخرى، أكد هوركهايمر الصفات المميزة لأصحاب الامتيازات والصفات المزرية للفقراء والعمال الذين يفتقدون الأمل. "يستطيع صاحب الملايين أو حتى زوجته أن يتمتعا بطبع مستقيم جدًا ونبيل، ويستطيعان أن يتدربا على كل الصفات الجديرة بالإعجاب الممكنة [...] وصاحب المصنع الصغير يكون هنا أيضًا عاثر الحظ. وتكون الصفات الاستغلالية بالنسبة إليه شخصيًا ضرورية كي ينجح. ينمو هذا الظلم 'الأخلاقي' مع تراجع الكلفة في عملية

(55) Max Horkheimer, *Dämmerung*, p. 329.

(56) Ibid., p. 288.

(57) Ibid., p. 265.

(58) Ibid., pp. 260 f.

الإنتاج"[59]. "كلما كان الوضع الحياتي ميسورًا، تفتّح الذكاء وكل نوع آخر من الشطارة بيسر أكبر [...] ولا يصح هذا على الإنجاز الاجتماعي فحسب، بل يصح أيضًا على ما تبقّى من صفات الشخص. شهوة المُتَع الرخيصة، والميل المحدود نحو المُلكية الصغيرة، والمحادثة الفارغة حول الشؤون الشخصية، والبهرجة المضحكة والحساسية، باختصار، إن كل غبطة فقر الحياة المقموعة ليست في حاجة لأن توجد هناك، حيث تعطي السلطةُ للإنسان مضمونًا وتُطوِّره"[60]. لكن هوركهايمر يعني أيضًا، بالتوافق مع ماركس وفرويد، أن اللامساواة، وإن كانت في الماضي مبررةً من خلال وظيفتها التقدمية، إلا أنه ما عاد من الممكن شرعنتها في الحاضر. فإن أمكن أن يظهر في أوقات سابقة أن بعض الإنجازات المسرِّعة للثقافة المادية لم تكن ممكنة إلا بسبب امتيازات حاسمة لأقلية وإعراض من الأكثرية، فإن الأمر بدا الآن على نحو لا تعوق معه بعض الامتيازات الإلغاء الممكن للفقر موضوعيًا. "لكي تحفِّز الإنسان الأناني إلى حد أن يتنازل ويتولى أمر جيش العمال والموظفين، يجب أن تقدم إليه سيارات ونساء لطيفات وكل أشكال التكريم، وأن يُعطى ضمانة حتى الجيل العاشر، ولكن لكي يتوجّه يوميًا إلى منجم الفحم الحجري تحت الخطر الدائم على حياته الذي يودي به جسديًا وروحيًا، يكفي إغراؤه بتقديم حساء من الماء بانتظام ووجبة لحم لمرة واحدة في الأسبوع. يا له من علم نفس غريب!"[61].

ولكن من الذي عليه أن يحكم على هذا النظام ويعمل على تطبيقه، إذا كان بمقدور من في الأعلى أن يطوّروا كل القدرات الممكنة، ولا يدركوا البؤس أو يكبتوه، وكان من في الأدنى ضامرين ومحطمين لا يُدركون، من جهتهم، حجم معاناتهم غير الضرورية، وإمكانياتهم الموضوعية ومصالحهم الجماعية أو يكبتوها، وكان أولئك الذين بيْن بيْن يحاولون بكل الوسائل شق طريقهم نحو الأعلى أو على الأقل حماية أنفسهم من الانهيار؟ لم يذكر هوركهايمر شيئًا عن ميل نحو انهيار اقتصادي، ولا عن عمليات تعليمية جماعية للبروليتاريا. "النظامُ الاشتراكي للمجتمع [...] ممكن تاريخيًا،

(59) Ibid., p. 231.

(60) Ibid., p. 265.

(61) Ibid., p. 330.

لكنه لن يتحقق من طريق منطق محايث للتاريخ، بل يحققه أناس تدربوا على النظرية وصمموا على تحقيق الأفضل، أو أنه لن يتحقق على الإطلاق"[62]. غير أن التنوير عبر النظرية والتصميم على الوصول إلى الأفضل ينقسم أحدهما عن الآخر بحسب تشخيص هوركهايمر. فقد رأى في تطور العملية الإنتاجية الرأسمالية الموسومة باستعمال متزايد للتكنولوجيا السبب وراء انقسام الطبقة العاملة المستمر إلى قسم يعمل ويكون يومه رماديًا وعليه أن يخسر أكثر من مجرد سلاسله، وقسم عاطل من العمل تكون حياته جحيمًا، ولكن تنقصه القدرة على التعلم وقابلية التنظيم[63]. لم يشدد إلا على انقسام "معرفة العالم الحقيقي" الذي ثبته من جهة، وعلى "كل التجارب اللاإنسانية (لعملية العمل الرأسمالية هذه)" وعلى "ضرورة التغيير الملحة" من جهة أخرى[64]، حينما كان يعني: "العالم الذي تنمو فيه النخبة البروليتارية ليس عالم أكاديميات، بل عالم صراعات في المصانع والنقابات، وعقوبات تأديبية، وخلافات قذرة ضمن الأحزاب وخارجها، وأحكام سجن ولاشرعية [...] المسار الثوري لا يقود عبر ألقاب شرفية وولائم، وعبر أبحاث مهمة ورواتب أساتذة، بل عبر البؤس والعار والجحود والسجن إلى المجهول الذي لا يضيئه إلا إيمان يكاد يكون فوق بشري [...] قد لا يتفق الإيمان الثوري في لحظات كتلك الحاضرة إلا بصعوبة قصوى مع الضياء الكبير للوقائع، بل إن الصفات التي لا غنى عنها بالنسبة إلى قيادة الحزب البروليتاري، قد توجد الآن بالذات عند أناس هم، تبعًا لطبعهم، ليسوا بالضبط الأكثر لياقة"[65].

لكن، حيثما التقت النظرية مع الألم، لم يكن يُتوقع، في نظر هوركهايمر، فعل ثوري والتزام جسور. أن "يسوء حال كثيرين، مع أن الحال يمكن أن يكون حسنًا للجميع [...] يُرغم على تسميم الوعي العام عبر الكذب، ويدفع بهذا النظام إلى الانهيار"[66]. ولكن، بوصفهم أشخاصًا تجرعوا هذا السم وعانوا

---

(62) Ibid., p. 255.

(63) يقارن:

Max Horkheimer, "Die Ohnmacht der deutschen Arbeiterklasse" in: *Dämmerung*, pp. 281 ff.

(64) Ibid., pp. 285 f.

(65) Ibid., p. 258.

(66) Ibid., p. 321.

منه، لم يكن يعني هوركهايمر سوى الأفراد الأدق تنظيمًا من بين أصحاب الامتيازات الذين اعتبروا أنه أمر سيئ ألا توجد علاقة عضوية بين الفرد والمجتمع، وأن فضلها لم يلقَ ما يستحق من الاحترام، وأن الخير كان يؤول، في معظم الأحيان، إلى الفاسدين. كان هوركهايمر نفسه أيضًا من بين أصحاب الامتيازات المنظّمين تنظيمًا راقيًا. فما هي المهمة التي كان يراها لنفسه؟ لقد اعتبر التعاطف علنًا مع المكافحين في زمانه تهورًا. "أخلاقياتنا البرجوازية أكثر صرامة (من أخلاقية رجال الدين الكاثوليك)؛ فحينما يُضمر أحدهم في صدره أفكارًا ثورية، يتعين عليه على الأقل أن يصرّح بها، حتى ولو كانت بلا هدف، أو بالضبط حينما تكون كذلك، لكي يستطيع المرء، لهذا السبب، أن يتبعه"[67]. من جهة أخرى، اتهم هوركهايمر بعض زملائه: "كانت ترجمة الماركسية إلى الأسلوب الأكاديمي في ألمانيا بعد الحرب خطوةً على طريق كسر إرادة العمال في صراعهم ضد الرأسمالية"[68]. إن معالجة هذا الموضوع من جانب أساتذة هم "ممثّلو البشرية العقلاء المدعوُّون"، هو الذي يجعل أسباب الخصومة بين الطبقات مشكلة عامة، ويأخذ في الاعتبار وجهات نظر معتدلةً. "هم يسندون النظام حينما يعالجون بلغة 'علمية'، إلى جانب مشكلات أخرى كثيرة في كتب ومجلات مثقَّفة، نظرية المجتمع الاشتراكي، وينتقلون بانقلاب مريب إلى جدول الأعمال"[69]. لكن أي موقف يتبقى لهم بعدئذ؟

نتج من تأملات هوركهايمر كهدف أساسي: من طريق نقد كل شكل من أشكال الميتافيزيقا يجري تحرير "عدم كفاية النظام الدنيوي" الذي كان مغطًى سابقًا دينيًا، من تغطيات جديدة، وتوجيه طاقاته إلى "النظرية العلمية للمجتمع"[70]، وتوطينها على الأقل في النظرية، وهو ما كان في الواقع منقسمًا بسبب انشقاق الطبقة العاملة: "معرفة الوقائع" و"وضوحٌ حول ما هو أساسي"، أي "كل التجربة اللاإنسانية (لعملية العمل الرأسمالية) هذه" و"ضرورة التغيير الملحة"[71].

(67) Ibid., p. 290.

(68) Ibid., p. 299.

(69) Ibid., p. 238.

(70) Ibid., p. 279.

(71) Ibid., pp. 285, 286.

هذه المهام التي أخذها هوركهايمر على عاتقه، كانت الموجّه له في نقده لزميله في فرانكفورت كارل مانهايم (Karl Mannheim) الذي كان كتابه **الأيديولوجيا والطوباوية** موضوع مقالته الأولى الموسعة التي نُشرت في عام 1930 في العدد الأخير من **أرشيف** غرونبرغ. اتهم هوركهايمر مانهايم بأنه يتمسك بضرب مخفَّف من المثالية الألمانية الكلاسيكية، أي بـ"الأنسنة" بوصفها واقعًا ميتافيزيقيًا، من المفترض أن يكون بمقدور علم اجتماع المعرفة إلقاء بعض الضوء عليها، ويصف كل الحقائق المشروطة تاريخيًا واجتماعيًا بأنها نسبية أيضًا، وبهذا المعنى أيديولوجية. إن مشروطية المعرفة ومحدوديتها - بحسب نسخة موقف واقعي ووجودي يتبناه هوركهايمر أيضًا في **بدايات فلسفة التاريخ البرجوازية** (من دون أن يكون قد سمّاه على هذا النحو) - يعطيانها أهمية لتحسين الشارط والمحدد. إن عِلمًا لا يراعي العوز والبؤس ومحدوديات زمانه سيكون من دون مصلحة عملية. من ينظر إلى المشروطية التاريخية للمضامين الروحية على أنها مؤشر يُطعَن في نسبيتها ولاإلزاميتها حصرًا، وليس بالأحرى مؤشرًا على صلتها بالمصالح البشرية الراهنة، فإنه يشهد بذلك على عدم اكتراثه بالمشكلات الحقيقية للبشر الفانين الذين يكافحون ضد عوز الحياة الخارجي.

غابت عند هوركهايمر تركيبات ماركس ولوكاتش النظرية الجريئة، القائمة في رأيهما على أن التطور التاريخي يدفع الطبقة البروليتارية لتصبح طبقة لذاتها، وتُدير بنفسها بوعي ذاتي ما كانت تفعله، في أي حال، بصورة مغتربة، أي القيام بإعادة إنتاج المجتمع. بالنسبة إليه، كان التشديد على ضمان أن يكون لمن يعيشون في البؤس حق في أنانية مادية وأنه ليس من الضعة النظر إلى "تحسين الوجود المادي عبر تشكيل أكثر نفعًا للعلاقات الإنسانية" بوصفه "الشيء الأهم في العالم"، وهو تحسينٌ "لا (يتعلق) بالهدف التالي المنشود مباشرةً لتزويد البشرية بالأشياء الأكثر ضرورةً على نحو أفضل فحسب، وإنما يتعلق، أيضًا، بتحقيق كل ما يسمى قيمًا ثقافية أو فكرية"[72]. لا يتمسك هوركهايمر هنا، خلافًا لما جاء في خطبته الافتتاحية في عام 1931، باللهجة الرهيبة النشطة

(72) Ibid., pp. 322 f.

للمثالية الألمانية، بل تمسك بالأحرى بتأمل شوبنهاور في نهائية المخلوق وجسديته وتضامنه. لقد أضحى التأمل في نهائية البشر وفنائهم يُعتبر نوعًا ما العمود الفقري التاريخي-المادي. وجرى تعديل التحول الوجودي للفلسفة الترانسندنتالية، مرةً أخرى، اجتماعيًا-تاريخيًا. فقيل في كتاب هايدغر **الكينونة والزمان**، إن تعيين ماهية الدازاين "لا يمكن أن يتم بالإخبار عن ماهية مادية، وأن ماهيته إنما تكمن على الأرجح في أن عليه في كل مرة أن يكون كينونته بوصفها الكينونة التي تخصه"[73]؛ وعند سارتر في ما بعد أنه لا توجد طبيعةٌ بشريةٌ، بل "الإنسان هو ما يحققه هو بنفسه"[74]؛ وعند هوركهايمر: "هكذا يتكلم عالم الاجتماع مانهايم عن 'جوهر' الإنسان الذي تكون صيرورته خلف التكوينات الثقافية أو فيها، وهكذا يكون من الصعب أن يُفهم [...] بقدر ما أن التاريخ الذي لا يُستمدّ من المعنى الواعي للبشر الذين يخططونه ويعيّنونه، لا يكون له معنى [...]"[75]. اعتبر هوركهايمر نفسه مدافعًا عن النظرية الماركسية؛ بمعنى أن موقفه يقع على الخط الممتد من كانط والتنوير الفرنسي، مرورًا بهيغل وماركس. لكن صورة شوبنهاور كانت معلّقة في مكتب مدير المعهد الذي كان يشغله هوركهايمر منذ عام 1930. كل من رآه جالسًا أمام هذه الصورة، وسمعه يشير في حديثه إلى شوبنهاور بوصفه أحد أهم مصادره، لم يكن بوسعه ربما إلا أن يتذكّر ذلك المقطع من كتاب كارل كورش **الماركسية والفلسفة**، حيث جاء فيه أنه يجب افتراض - مثل المنظِّرين الماركسيين للأممية الثانية - أن لا موقف محددًا في المسائل الفلسفية يخصُّ الماركسية، بحيث لا يُعتبر مثلًا أمرًا مستحيلًا أن يكون "منظِّر ماركسي قائد من أتباع فلسفة آرثر شوبنهاور في حياته الخاصة"[76]. في نظر أحد الذين حصلوا على منح من معهد البحث الاجتماعي، فيلي شترتسيليفيتش، الذي جاء إلى فرانكفورت في صيف عام 1928، ونال شهادة الدكتوراه في عام 1931 بعمل عن **حدود العلم عند ماكس فيبر**، وكان أحد المثقفين اليساريين الشباب الذين امتدت قطيعتهم

(73) M. Heidegger, *Sein und Zeit*, p. 12.

(74) Sartre, "Ist der Existentialismus ein Humanismus?," in: *Drei Essays*, p. 11.

(75) Max Horkheimer, "Ein neuer Ideologie begriff?," in: Grünberg, *Archiv*, vol. 15, pp. 40, 45.

(76) Grünberg, *Archiv*, vol. 11, p. 55.

مع الحزب الشيوعي بسبب الحماسة لكتابي لوكاتش **التاريخ والوعي الطبقي** و**لينين**، هنا تبدى هوركهايمر فيلسوفًا برجوازيًا قريبًا من الماركسية والشيوعية، ونصف كانطي جديدًا، ونصف وضعي، ومدرّسًا كان يقدِّر النقاش المفتوح، لم يذكر بلسانه اسم ماركس إلا نادرًا، ولم يكن يعطي أي اعتبار لماركسية لوكاتش ولا للفلسفة "التأويلية" لأدورنو وبنيامين.

إريك فروم

كان يجلس طوال النهار في متجره الصغير الذي كان يعتاش منه، وكان يدرس التلمود، وحينما يدخل زبون إلى متجره، كان يرفع عينيه إليه بعدم رضًى ويقول له: "ألا يوجد متجرٌ آخر؟". هكذا كان إريك فروم يروي عن جدّه الأكبر سيليغمان فروم الذي أصبح مثالًا تأثّر به إريك نفسه، وكانت العائلة تقدّره عاليًا. وُلد إريك فروم في 23 آذار/ مارس 1900 في فرانكفورت أ. م، وكان الابن الوحيد لأبوين يهوديين أرثوذكسيين، كلاهما من أسرة حاخامية. كان الأب يعمل في تجارة النبيذ، وكان يستحي من ذلك، لكنه كان يتمنّى أن يصبح حاخامَ. رافق دراسة الابن في المدرسة والجامعة - بعد فصلين دراسيين في فرانكفورت، تابع في عام 1919 دراسة علم الاجتماع وعلم النفس والفلسفة في هايدلبرغ حيث حصل على شهادة الدكتوراه بإشراف ألفرد فيبر بعمل تناول **القانون اليهودي: مساهمة في علم اجتماع يهود الشتات** - تعليم مكثَّف للتلمود. كان نحميا نوبل، وهو حاخام في أكبر كنيس في فرانكفورت، وسلمان باروخ رابينكوف الذي يتحدر من أسرة حسيدية، وهو من أتباع الحاخام اليهودي الروسي الثائر الذي هاجر إلى هايدلبرغ، قد أصبحا، بالنسبة إلى فروم، مثالين حيَّين للجمع بين اليهودية المحافظة والنزعة الإنسانوية، وبين النظرية والحياة.

في أوائل العشرينيات كان فروم أيضًا مدرّسًا في بيت التعليم اليهودي الحر الذي كان يُعرف سابقًا باسم جمعية تثقيف الشعب اليهودية التي كان قد شارك في تأسيسها. كان فرانتس روزنتسفايغ (Franz Rosenzweig) أول مدير لبيت التعليم اليهودي الحر: "حرٌّ لأنه، بصرف النظر عن أجور الدروس، لم تكن هناك أي شروط للانتساب إليه، ولم يكن لأحد، ما عدا المعلِّمين والمتعلّمين فيه، أي تأثير في برنامجه. كان روزنتسفايغ ينتمي إلى تلك الطبقة الهامشية من

اليهود المندمجين الذين راح عدد كبير منهم يدعو إلى العودة إلى جذور التقليد الخاص بهم، بسبب المساواة الشكلية لجماهير الشعب اليهودي الواسعة حتى ثورة تشرين الثاني/ نوفمبر، والوضع الاجتماعي المتأزم جدًا بعدها الذي عانى منه المثقفون اليهود بسبب معاداة السامية المتنامية. ظهرت هذه العودة بأشكال مختلفة؛ منها الصهيونية، مشاريع استيطان في فلسطين أو في الاتحاد السوفياتي، أو ممارسة أسلوب حياة يهودي مع طعام صيامي والتزام بيوم السبت والأعياد، أو تعديل مواقف فلسفية ومواقف أخرى من روح التصوف اليهودي على سبيل المثال. ما كان يأمله روزنتسفايغ من بيت التعليم اليهودي الحر هو تجديد الإنتليجنسيا اليهودية التي اهتمت بوصفها نواة جماعة بإنشاء علاقة حية للكل بالنصوص اليهودية، ومن ثم بحياة يهودية ملهمة.

أصبح هذا مشروعًا مؤثرًا. فمن عام 1920 حتى عام 1926 كان هناك تسعون محاضرة و180 فريق عمل، وحلقات بحث وتجمّعات نقاشية. شارك في ذلك 64 مدرسًا جامعيًا. كما شارك في مراحل ذروة المشروع - في مدينة كانت الجماعة اليهودية فيها تضم نحو ثلاثين ألف إنسان - ما يزيد عن ستمئة شخص مسجلين. جذب كلٌّ من الحاخام نوبل المتوفى في كانون الثاني/ يناير 1922، ومارتن بوبر (Martin Buber) الذي كان يعمل هناك منذ عام 1922، نحو 200 مستمع. في المقابل، التقى في فرق العمل عدد صغير من المشاركين من أجل دراسة معمقة. فعندما أمضى غرسهوم شولم (Gershom Scholem)، مثلًا، بضعة أشهر في فرانكفورت قبل هجرته إلى القدس في عام 1923، قرأ وشرح مع أقل من اثني عشر مستمعًا، من بينهم فروم أيضًا، نصوصًا عبرية أصلية، تصوُّفية، من النوع الذي يشير إلى نهاية العالم، ونصوصًا روائية. غير أن أمل روزنتسفايغ لم يتحقق. وحينما أخذت تتضاءل في النصف الثاني من العشرينيات جاذبية المحاضرات التي كان يُفترض أن تؤمن المال الذي تحتاجه فرق الدراسات المكثفة الصغيرة وتشكل المحطة الانتقالية للمهتمين جديًا بالحياة اليهودية، تدهور المشروع - كما جرى في عدد من المدن الأخرى - ولم ينهض، مرة أخرى، إلا في عام 1933 احتجاجًا على استيلاء النازيين على السلطة.

تعرَّف فروم التحليل النفسي في منتصف العشرينيات من خلال مؤسسة يهودية أرثوذكسية أخرى. ففي عام 1924، افتتحت عالمة النفس اليهودية فريدا رايشمان (Frieda Reichmann) في هايدلبرغ مصحًا خاصًا للتحليل النفسي. وبحسب ما يتذكر إرنست سيمون (Ernst Simon) - طالب في هايدلبرغ مثل فروم ولوفنتال، ومدرّس في بيت التعليم اليهودي الحر في فرانكفورت، و"مريض" في العيادة الخارجية لفريدا رايشمان - كان "إيقاع الحياة اليهودية [...] عنصرًا متممًا للجو الروحي لهذه الجماعة اليهودية الخالصة؛ في أثناء وجبات الطعام كانت تُقام الصلوات ويتم 'التعليم'، وذلك من الكتب اليهودية التقليدية، وكان يُحتفل بأيام السبت والأعياد. كل هذا أعطى المعهد لقب 'مقر علاج' على سبيل الفكاهة. كان هذا في ذلك الوقت مرضيًا تمامًا لقصد فروم"[(77)]. تدرَّب فروم، وأصبح محللًا نفسيًا، وتزوج فريدا رايشمان، وافتتح عيادة في عام 1927. وفي العام نفسه، نشر بحثه الأول المطوّل في علم نفس اللاشعور بعنوان **يوم السبت** (*Der Sabbat*). وصل فيه - "فرويدي مخلص طوال فترة دراستي بأكملها"[(78)] - إلى النتيجة التالية: "كان يوم السبت يخدم أصلًا ذكرى قتل الأب وكسب الأم من جديد، وتحريم العمل، في الوقت ذاته، الكفّارة عن الجرم الأساسي وتكراره بالعودة إلى المرحلة ما قبل التناسلية"[(79)]. تكفّل علم اجتماع الدين والتحليل النفسي ومعهما البوذية، إضافة إلى باخوفن وماركس، بدفع فروم خطوة إلى أبعد من مِثاليه الحاخامين الإنسانويين نوبل ورابينكوف، ليُصبح إنسانويًا اشتراكيًا منفصلًا عن اليهودية الأرثوذكسية. كان فروم في آخر العشرينيات وبداية الثلاثينيات، إلى جانب فيلهلم رايش (Wilhelm Reich) وزيغفريد بيرنفلد (Siegfried Bernfeld)، أحد الفرويديين اليساريين الذين قاموا بتجربة مذهلة للجمع بين النظرية الفرويدية حول الغرائز والنظرية الماركسية حول الطبقة. كان فروم، في الوقت نفسه، ممارسًا لعلم النفس التحليلي في برلين، ومدرسًا في معهد فرانكفورت للتحليل النفسي، وزميلًا في علم النفس الاجتماعي في معهد البحث الاجتماعي.

---

(77) Ernst Simon, "Erinnerungen an Erich Fromm," *Stadtarchiv Ffm.*

(78) مقابلة نُشرت في:

Die ZEIT, 21/3/80, p. 52

(79) Erich Fromm, *Gesamtausgabe*, vol. 6, p. 9.

بافتتاح معهد فرانكفورت للتحليل النفسي - مع المديرَين كارل لانداور وهاينريش منغ (Heinrich Meng)، والمدرّسَين فريدا فروم رايشمان وإريك فروم - يصبح المخطط الذي كانت حلقة هايدلبرغ المحيطة بفريدا رايشمان قد وضعته في عام 1926 نصب عينيها واقعًا. نجح معهد فرانكفورت للتحليل النفسي - وهو الثاني بعد معهد برلين الذي أُسّس في عام 1920 - بأن يجد له مكان إقامة في قاعات معهد البحث الاجتماعي، بسبب سلسلة من العلاقات الشخصية بين إريك فروم وفريدا رايشمان وليو لوفنتال وماكس هوركهايمر وكارل لانداور، وهو ما أدى إلى أول اتصال لعلم النفس التحليلي مع جامعة، وإن كان اتصالًا غير مباشر، وتبعه في عام 1930 منح جائزة غوته لفرويد - وكان هذا المنح موضع خلاف شديد - وكان نوعًا من التكريم العلني من مدينة فرانكفورت لمؤسس التحليل النفسي. غير أن هذا قاد أيضًا إلى تزاوج مؤسساتي بين التحليل النفسي والبحث الاجتماعي ذي الطابع التاريخي-المادي.

بمناسبة افتتاح معهد التحليل النفسي في 16 شباط/ فبراير 1929، كان من بين المتكلمين إريك فروم الذي تحدث عن **تطبيق التحليل النفسي على علم الاجتماع وعلم الدين**. اعتبر في محاضرته التوجيهية القصيرة أن علم النفس ضروري مثل علم الاجتماع لبحث المشكلات الأكثر أهمية، وأن من بين "أهم المسائل النفسية-الاجتماعية، العلاقات التي تقوم بين تطور البشرية الاجتماعي، وخصوصًا تطورها الاقتصادي-التقني، وبين تطور الجهاز النفسي، وخصوصًا تنظيم أنا الإنسان"[80]. رسم فروم مفهوم أنثروبولوجيا مضادة للميتافيزيقا وتاريخية، وأعطى هذا المفهوم تاريخية مقولات معينة في التحليل النفسي قال بها فيلهلم رايش وزيغفريد بيرنفلد شكلًا عامًا ذا طابع تاريخي-مادي، وبهذا سبق ما طوّره هوركهايمر في **بدايات فلسفة التاريخ البرجوازية**. ولكي يُشرعن مبدئيًا نصيب التحليل النفسي في بحث المسائل الاجتماعية، اقتبس في نهاية محاضرته كلمات "واحد من ألمع علماء الاجتماع": "التاريخ لا يفعل شيئًا لنا، ولا يمتلك أي ثروة ضخمة، ولا يخوض معارك، بل بالأحرى الإنسان، الإنسان

(80) *Zeitschrift für psychoanalytische Pädagogik*, vol. 3 (Oktober 1928 - Dezember 1929), p. 269.

الحي الحقيقي، هو الذي يفعل كل شيء، ويملك، ويحارب"[81]. كان هذا مقطعًا من **العائلة المقدسة** حيث يدافع إنغلز وماركس عن "الإنسانوية الحقيقية" لفيورباخ ضد أوهام المثالية التأملية التي يعيد إنتاجها برونو باور وغيره. تطابقت عودة فروم إلى ماركس الشاب مع رؤية لوكاتش وكورش التي تقول إن الحاسم في المنهج الماركسي يكمن في أن كل ظواهر الاقتصاد وعلم الاجتماع ترجع إلى علاقات البشر الاجتماعية في ما بينهم لكي تنزع غطاء موضوعيتهم الصنمية، ولكي تُفهم بوصفها الفعل الخاص للناس الذين لم يعودوا خاضعين لرقابة البشر. لكن، وفي هذا السياق أيضًا، برز موقفٌ دافع عنه اشتراكيون دينيون من أمثال باول تيليش الذين شدّدوا على ضرورة تحوُّل اشتراكي من أجل تحقيق الوجود الإنساني، وأن يستندوا في ذلك إلى ماركس الشاب الذي كان يهمه في نقد المجتمع الرأسمالي تحديد الجوهر الحقيقي للإنسان الذي تحجبه أولوية الفكر الاقتصادي. وجاء في السيرة الذاتية لهاينريش منغ، أحد مديرَي معهد فرانكفورت للتحليل النفسي: "كان للمدرّسين تواصلٌ شخصي مثمر علميًا مع اللاهوتي باول تيليش. وكان موضوع النقاش معه، على سبيل المثال: 'ماركس الشاب'. لقد بيّن في منشورات ونقاشات مدى تشديد ماركس الشاب على النزعة الإنسانية بوصفها صلب الاشتراكية"[82].

في أعمال السنوات اللاحقة، مثل أعمال هربرت ماركوزه وفيلهلم رايش، التي استقبلت بوصفها "علم نفس اجتماعي ماركسي راديكالي"[83]، جمع فروم التحليل النفسي الأرثوذكسي والماركسية الأرثوذكسية بهدف إعادة بناء سيناريو مظلم لو نُظر إليه عن كثب. اعتبر أول بحث كبير لفروم، **تطور عقيدة المسيح: دراسة تحليلية نفسية في الوظيفة النفسية الاجتماعية للدين** (1930)، مثالًا مضادًا لتأويل عقيدة المسيح تأويلًا نفسيًا تحليليًا ذا توجه تاريخي فكري، كما قدمه تيودور رايك (Theodor Reik)، أحد مدرّسي فروم في معهد التحليل النفسي في برلين، في مقالته التي تحمل عنوان "الدوغما والفكرة القهرية" في عام 1927 في مجلة *Imago* **(إيماغو)**. وعلى غرار النقد الذي وجهه ماركس

(81) Ibid, p. 270.

(82) H. Meng, *Leben als Begegnung*, p. 78.

(83) Jürgen Habermas et al., *Gespräche mit Herbert Marcuse*, p. 15.

وإنغلز إلى زملائه "الروحانيين" من الهيغليين الشباب، اتهم فروم زميله رايك بأنه "لا يحاول دراسة الجماهير التي يفترض وحدتها، في وضعها المعيشي الحقيقي [...]، بل يبقى عند الأفكار والأيديولوجيات التي تُنتجها الجماهير من دون أن يهتم أساسًا بحامليها الحقيقيين، البشر الأحياء ووضعهم النفسي في الواقع. إنه لا يسمح بفهم الأيديولوجيات بوصفها منتجات البشر، بل هو يعيد بناء البشر انطلاقًا من الأيديولوجيات"[84].

مخلصًا للمثال نفسه، وجّه هوركهايمر، في الوقت نفسه تقريبًا، النقد ذاته لعلم اجتماع المعرفة الذي اتهمه بـ "وضع تأملات فكرية تاريخية بدلًا من دراسة العلاقات الشرطية بين صراعات البشر الحقيقية وأفكارهم"[85]، وتفسير "التناقضات القائمة في تناقضات الأفكار، و'طرائق التفكير'، و'المنظومات الأيديولوجية'"[86]. كان محور النقد عند فروم وهوركهايمر يكمن في توجيه النظر نحو شروط أو حالات، مثل بؤس الطبقات الدنيا وقمعها التي تؤدي إلى إنتاج أفكار وأيديولوجيات وديانات مختلفة، وفي توضيح أن كل تأمل للمنتجات العقلية التي لا تنطلق من الدور الأساسي لطريقة الإنتاج ومن انقسام المجتمع إلى طبقات، حتى في شكلها المعدَّل بحسب علم اجتماع المعرفة أو التحليل النفسي، إنما تواصل كبت البؤس والظلم القابع في أساس تلك المنتجات.

في أي حال، كان من نتائج تطبيق فروم لأفكار فرويدية تطبيقًا ماركسيًا تفسير استقرار المجتمعات الطبقية الذي بدا أنه يعد باستمرار البؤس والظلم إلى الأبد. يتجدد في بنية السلطة في المجتمعات الطبقية - بحسب فكرة فروم المركزية التي تمنح فرويد حدَّة من منظور طبقي نظري - الوضع الطفولي للمحكومين. فهم يرون الطبقات الحاكمة بصفتها مرهوبة الجانب، قوية ومقتدرة، لا فائدة من التمرد عليها، ويبدو من الحكمة كسب حمايتها ورضاها بالخضوع والحب. تقتضي فكرة اللّٰه الاستعداد للخضوع لصورة الأب حتى من البالغين، وتحمل على النظر إلى الحكام في ضوء أكثر رفعةً وسموًا.

---

(84) Erich Fromm, *Das Christusdogma und andere Essays*, p. 83.

(85) Grünberg, *Archiv* (1930), p. 54.

(86) Ibid., p. 56.

رأى رايك في التصور المتساوي الجوهر الذي أقامه مجمع نيقيا في عام 325 الميلادي، والذي صار بموجبه الابن والأب كيانًا واحدًا، انتصارًا لنزعة العداء للأب؛ وكان يجب أن يُفهم هذا، كما في الأعراض العصابية الفردية، على أنه من نوع الفكرة القهرية. في المقابل، رأى فروم في هذا التصور إعراضًا عن الموقف المعادي للأب ونتيجةً لبنية نفسية تمتد عبر قرون، تخص "التكيف مع الوضع الاجتماعي القائم"، و"ليس كلية البنية النفسية للفرد، بل مجرد قطاع يشترك به الجميع"[87]، حيث كان كل أمل في انهيار الطبقة الحاكمة ونصر الطبقة الخاصة من المحال، إذ "سيكون من العبث ومن غير المجدي - من منظور نفسي - التمسُّك بموقف البغض"[88] الذي كان مميزًا للبروليتاريا المسيحية الأولى. كان لطريقة فروم الاجتماعية-النفسية في فهم الأفكار من مصير حياة البشر، ولتشبُّثه بأن التصورات الدينية لا يمكن أن تُخفض، مقارنة بعلم النفس الفردي التحليلي، إلى ظاهرات مرضية، بل يجب النظر إليها بوصفها أوهامًا جماعية "لأشخاص عاديين"، أي لأناس "يكون للواقع تأثير أعلى في وضعهم النفسي مختلف عن التأثير الذي له في المرضى العصابيين"[89]، كان لهذه الطريقة تأثيرٌ مدهش. ففي حين بدا أن بحثه يتميز ظاهريًا، من خلال رؤى عميقة، بالاستياء من إنكار الذات المتنامي، ومن المصادرة النفسية للجماهير، طبّق فروم، تبعًا للموضوع وعلى نحوٍ صارم، الفهم الماركسي بأن الكينونة تُحدد الوعي. ومن خلال الادعاء العامٍ الذي لا يقوم على أي مثال آخر، بأنه يجب أن يُسيطر كره الأب تارة وحبُّه تارة أخرى تبعًا للوضع المعيشي الحقيقي داخل جماعة، أكد فروم أن التصورات الدينية تتطابق تمامًا مع الأوضاع المعيشية الحقيقية، بحيث لا تصلح - وظيفيًا بالمطلق - إلا لإعادة إنتاجها نفسها. بدت العصيانات العنيفة والحقد الذي لا قدرة له على الحكام وإنكار الذات المازوشي، وكأنها أشكال متساوية لسلوك معقول نفسيًا للفقراء والمقموعين، بحسب الوضع. كان فروم يستهدي على ما يبدو بالمنطق التالي: الوضع الطفولي الحقيقي أثناء الطفولة الذي كان الأفراد العصابيون ثابتين فيه

(87) Fromm, *Das Christusdogma*, p. 91.

(88) Ibid., p. 65.

(89) Ibid., p. 15.

بشكل أو بآخر، يصل إلى نهايته في وقتٍ ما، ولهذا السبب كان التغلب الجذري على المرض ممكنًا، وكان للمساعدة في ذلك معنى. لكن المجتمع الطبقي الذي حكم على جزء كبير من أعضائه بالطفولية كان واقعًا مستمرًا وكان التمرُّد عليه مفهومًا، لكنه لم يكن في أي حال من الأحوال أكثر عقلانيةً من قبوله - مثلما كان مفهومًا تمرُّد طفل صغير على أبيه، لكنه لم يكن على الإطلاق أقرب إلى الواقع من احترام الأبوين وتقديرهما - ولهذا السبب أيضًا لم يكن التمرد جديرًا بالدعم.

بالتوازي تقريبًا مع تطبيق علم النفس الاجتماعي التحليلي على ظاهرة تحويل عقيدة المسيح التاريخية، بدأ فروم بتطبيقه على جماعة اجتماعية معاصرة هي العمال والموظفون الألمان. حصل هذا من قبل بالتعاون مع معهد البحث الاجتماعي الذي عُيّن فروم في عام 1930 مديرًا لقسم علم النفس الاجتماعي فيه مدى الحياة. وكان فليكس فايل قد عدّ في كتابه إلى وزارة العلوم والفنون والتربية الشعبية بتاريخ 1 تشرين الثاني/ نوفمبر 1929 أبحاثًا في **وضع الطبقات العاملة في الماضي والحاضر** من بين الأقسام الستة التي تكونت في المعهد مع الزمن. و"سوف يقدم" أكبر البحثين الجاري العمل عليهما والذي تتطلب مرحلته الأولى خمس سنوات على الأقل، "معلومات عن الحالة المادية والروحية لأهم شرائح العمال والموظفين. فالبحث لا يستخدم مختلف المواد المتوفرة فحسب، سواء أكانت مطبوعة أو موجودة بصورة ملفات (تأمين اجتماعي)، بل هي على أهبة الاستعداد لإجراء استطلاعاتها الخاصة. في أثناء القيام بهذا الاستطلاع، أكدت لنا منظمات عمالية رائدة وخبراء تعاونهم معنا مسبقًا". حتى عام 1929، تمّ توزيع 3300 استمارة في كل منها 271 موقّعًا. لم توجد تقارير حول أبحاث عن العمال والموظفين إلا من الفترة التي تلت الفرار من النازية المنتصرة، وبالتالي بعد البرهان الدامغ على عجز الطبقة العاملة الألمانية. لكن يمكن، على خلفية أعمال أخرى قام بها فروم قبل ذلك الزمن وبالاستناد إلى الاستمارات، أن تُجرى تخمينات صحيحة حول التوقعات التي بدأ بها بحثه وصممه.

ختم فروم دراسته حول تطور عقيدة المسيح بالجملة التي يقول فيها: تقف البروتستانتية في بداية حقبة اجتماعية تتيح موقفًا إيجابيًا للجماهير، "على عكس

الموقف السلبي الطفولي للعصور الوسطى" الذي قدّمت فيه الكاثوليكية "بعودة مستترة إلى دين الأم الكبرى" إلى الجماهير الطفولية تمامًا الإشباع الوهمي للرضيع حبيب أمّه[90]. كان يمكن أن يُستنتج من ذلك أن فروم، عندما دخل الآن في بحث العلاقة بين وضع حقيقي، وبين بنية نفسية وقناعة عمال وموظفي زمانه السياسية، رأى في الرؤيتين الماركسية والاشتراكية تطابقًا حديثًا مع التصورات الثورية الدينية للمسيحيين الأوائل التي سبق أن قال فيها كاوتسكي في كتابه **أصل المسيحية**: "لم يبلغ من قبل الكُره الطبقي للبروليتاريا الحديثة الشكل الذي بلغه الكره الطبقي للبروليتاريا المسيحية"[91]. لكن ألم يكن تشابهًا كهذا يعني أيضًا أن الرؤى الثورية كانت بديلًا عن النضالات الثورية التي لم تحدث؟ ثم ألا تعني حقيقة أن النضالات الثورية التي لم تحدث في نظر فروم أن مجرد امتلاك رؤى ثورية كان الشكل الملائم لتكيف عمال عصر الرأسمالية الاحتكارية مع الوضع الاجتماعي الفعلي؟ لأنه حتى لو لم يؤخذ في الاعتبار السؤال إن كان على تدابير التقنين في النصف الثاني من العشرينيات [من القرن الماضي] التي قضت على وظائف كثيرة واندلاع الأزمة الاقتصادية العالمية في عام 1929 أن تزيد الشعور بالعجز لدى العمال بالأجر أكثر من زيادة ثقتها بتقدم القوى المنتجة المحرِّر، فقد كان الوضع الاجتماعي الفعلي على الرغم من ذلك موسومًا، كما كان في السابق، بتركيبة من طبقات ساهمت، في نظر فروم، على نحو حاسم في إعادة إنتاج الوضع الطفولي لدى الجماهير.

ولكن في حال أمل فروم، خلافًا لما كان ينبّه إليه علم النفس الاجتماعي التحليلي الذي يمثله، أن يستطيع ببحثه تقديم الإثبات على وجهة النظر بأن أغلبية الطبقة العمالية كانت تلهث وراء الثورة، ألا يكون عندئذ الكشفُ عن المشاعر اللاواعية والبنية النفسية هو الطريق الملائم لذلك؟ هل كان يمكنه أن يعتقد أن تحليلًا نفسيًا اجتماعيًا للمشاركين في الثورة الروسية أو في الحكومة الشيوعية في ميونيخ أو هنغاريا كان سيُفضي إلى أن تقف أكثرية الناس مع تربية الأطفال دون ضرب أو تدافع عن حق المرأة المتزوجة في العمل، أو ما شابه

---

(90) Fromm, *Das Christusdogma*, p. 91.

(91) ذكر ذلك فروم في:

Fromm, *Das Christusdogma*, p. 44.

من آراء مماثلة، وأن يبرهنوا بذلك على موقف معادٍ للاستبداد في أعماقه؟ تظهر مثل هذه الأسئلة الملحّة كم كان التصور بأن يُراد من خلال بحث تجريبي، مهما كان متقنًا، الكشف عن فرص ثورية، أمرًا مخالفًا للعقل.

في مقالة نُشرت في عام 1931 بعنوان "السياسة والتحليل النفسي"، مدح فروم معلّقًا على رسالة إنغلز إلى مهرينغ بتاريخ 14 تموز/يوليو 1893 التي يشكو فيها من إهمال الاستدلال الواقعي على التصورات السياسية والحقوقية وسواها من التصورات الأيديولوجية انطلاقًا من الوقائع الاقتصادية الأساسية، ووجد أن التحليل النفسي هو في النهاية الوسيلة إلى "الطريق الذي يقود من الشرط الاقتصادي مرورًا برأس الإنسان وقلبه ووصولًا إلى النتيجة الأيديولوجية"[92]. "هكذا يُصبح التحليل النفسي قادرًا على تقديم بعض الخدمات المهمة لعلم الاجتماع، لأن تماسك مجتمع وثباته لا يتشكّلان ويُضْمَنان من عوامل آلية أو عقلية حصرًا (الإكراه من سلطة الدولة، والمصالح الأنانية المشتركة، وغيرها)، بل بواسطة سلسلة من العلاقات الليبيدونية داخل المجتمع وبخاصة بين أعضاء مختلف الطبقات (يُقارن، مثلًا، ارتباط البرجوازية الصغيرة الطفولي بالطبقة الحاكمة والذعر الثقافي المرتبط به)"[93]. تمسّك فروم بنتيجة لا تخشى التناقضات الصارخة وهي أن الاقتصاد هو قَدَر الإنسان. "فسلوك الجماهير الشبيه بالعصاب الذي هو ردة فعل ملائمة على شروط حياة حاضرة، واقعية، وإن كانت ضارة وغير هادفة، لن يكون شفاؤها ممكنًا، إذًا، بواسطة 'تحليل'، بل **بتغيير شروط الحياة تلك وإزالتها**"[94]. على هذا النحو، اختزل المفهوم المادّي للتاريخ دون إقرار في اللامعقول. تمَّ البرهان على أن اختلال كثافة عمل المجتمع لا يسمح بقلب شروط الحياة، وبالقول من بعد إن قلب شروط الحياة يمكن أن يغير سلوك الجماهير. لكن لن يفضي حتى هذا النوع من التغير في شروط الحياة إلا إلى بنية فوقية أيديولوجية جديدة، "تفرضها البنية التحتية الاقتصادية-الاجتماعية"[95]. أمام آراء كهذه كان التحول

(92) Fromm, *Gesamtausgabe*, vol. 1, p. 34.

(93) Ibid.

(94) Ibid., p. 36.

(95) Ibid., p. 36.

الحاسم نحو إنسانوية مسيحانية قدّمت مخرجًا في كل زمان من السلسلة اللانهائية للكينونة والوعي سؤال الزمان لإنسان كان على قناعة، مثل فروم، من إمكان الوصول إلى حياة ناجزة لكل شخص.

فريدريش بولوك

كان لفريدريش بولوك البالغ من العمر 32 عامًا الحماسة التي تفتقر إلى اللباقة، لكن المنفتحة والتي لا حد لها لكارل ماركس "ابن الثلاثين عامًا [...] الذي (كان) قد اشتغل على آرائه الفلسفية والاجتماعية والسياسية بوضوح كبير، بحيث لم يكن بحاجة حتى نهاية حياته إلى أن يتراجع عنها في كل نقاطها الجوهرية"، والذي "كافح من أجل البروليتاريا بلا كلل [...] غير مكترث بكل الشدائد، إلى أن وافته المنية"[96]. جاء هذا الولاء لماركس في إطار جدل حول كرّاس **الاشتراكية البروليتارية** لفرنر زومبارت (Werner Sombart) الذي كان في السابق ماركسيًا وتبادل الرسائل مع إنغلز، لكنه أصبح في العشرينيات ممثّلًا لـ"اشتراكية ألمانية" وروح معادية للسامية قريبة من أوزفالد شبنغلر (Oswald Spengler)، ويوهانس بلنغه، وأوتمار شبان (Othmar Spann). ووقف بولوك في وجه اعتماد زومبارت لرؤية الجوهر الفينومينولوجي بمطلب البحث التجريبي، وضد زعم أن ماركس وإنغلز كانا يتشبّثان بـ "القيمة الأساسية" لـ"النزعة البروليتارية"، وتمسك بطابع الاشتراكية العلمية المأخوذ من العلوم الطبيعية، وعارض اتهام الجدل المادي بأنه جزء من ميتافيزيقا التاريخ البروليتارية استنادًا إلى إنغلز قبل كل شيء في كتاب **ضد دوهرينغ**، مستعينًا بالحجج التي أقام عليها ماركس وإنغلز قناعتهما بصحة الجدل العامة.

في هذا كله تميّز بولوك، المولود في فرايبرغ في عام 1894، والذي كان مقررًا له أن يتسلم عمل والده مثل هوركهايمر، بنوع من المزاج البلغمي، بلامبالاة بارزة باليهودية وببعض التقاليد التي أثّرت بشكل دائم في هوركهايمر البالغ من العمر ستة عشر عامًا، وقد تصادقا صداقةً غريبةً مدى الحياة. أظهر القليل من الاستنكار بوجه الظلم الاجتماعي مقارنة بهوركهايمر، لكنه من ناحية

(96) Friedrich Pollock, *Sombarts 'Widerlegung' des Marxismus* (1926), pp. 53 f.

أخرى كان أقل تخوفًا منه في الالتزام العلني بالماركسية والشيوعية. بعد سحق الحكومة الشيوعية في ميونيخ في أيار/ مايو 1919، أعطى جواز سفره لروسي كان يريد الهرب إلى الخارج، ووقع في متاعب مع الشرطة بعد أن قُبض على الهارب. درس بولوك الفلسفة، إلا أن الفلسفة كانت المادة الدراسية الثانية بعد الاقتصاد الوطني. وفي عام 1923 تقدم لنيل شهادة الدكتوراه بعمل حول "نظرية ماركس في النقود"، وشكا في مقالة "حول النظرية الماركسية في النقود" نُشرت في **أرشيف** غرونبرغ في عام 1928 من "الفصل المؤسف بين العناصر الاقتصادية النظرية والعناصر الفلسفية في منظومة ماركس"[97]، غير أنه كان يزدري طوال حياته النظرية الفلسفية ويتعلق بماركسية أرثوذكسية قبل لينينية.

قام بولوك في عام 1927 برحلة إلى الاتحاد السوفياتي بدعوة من دافيد ريازانوف للاحتفال بالذكرى السنوية العاشرة لثورة أكتوبر. كانت ثمرة هذه الرحلة البحث الذي نُشر في عام 1929، بوصفه المجلد الثاني من كتابات معهد البحث الاجتماعي، عن **محاولات الاقتصاد الموجَّه في الاتحاد السوفياتي 1917-1927**، والذي تقدّم به في عام 1928 لنيل شهادة التأهيل للأستذة. كان عملًا بأسلوب "معلّم التأمل التاريخي الواقعي للحياة الاجتماعية"، وفق ما سمّى ماكس آدلر (Max Adler) في عام 1932 كارل غرونبرغ في الكتاب التذكاري بمناسبة بلوغ غرونبرغ سن السبعين؛ كذلك شكر بولوك في المقدمة "أستاذه وصديقه الأبوي الأستاذ كارل غرونبرغ". وحالًا أخبر قارئه في الجملة الأولى من المقدمة "أنه سيكون على عمله اللاحق أن يقيّم المادة نظريًا"، وهذا ما لم يحصل قط. وصف الشروط غير الملائمة للانطلاق التي كان على الثوّار الروس أن يتعاملوا معها، والصعوبات الكبيرة المتواصلة: الأخطاء الفادحة في كثير من الأحيان، وتغيير التوجُّهات الدائم وإعادة التنظيم، كي يقدّم بولوك في الفصل ما قبل الأخير والأطول من كتابه - **لجنة تخطيط الدولة (GOSPLAN) وعملها** - تقريرًا عن إنجاز مخططات، بدأ تنفيذها في ظروف قاصرة ومستحيلة ولم تجد قاعدةً لها إلا تدريجًا. بقي الوصف كما كان منذ بداية الكتاب واقعيًا في المعلومات التي ينقلها، لكنه أظهر مع ذلك بوضوح صبر بولوك

(97) Grünberg, *Archiv*, vol. 13, p. 203.

المتعاطف، وانبهاره، لا بل إعجابه بـ "أبطال الاقتصاد المخطَّط وشهدائه"(98) وجهودهم الدؤوب لتشكيل "كل متكامل" من خطط مختلفة، "يتضمن - في تطوره الكامل - التحقيق الواعي التام للعملية الاقتصادية برمّتها"(99)، ويضمن "التشكيل الواعي المتدرج للعملية الاقتصادية بأكملها ولكل أجزائها أيضًا"(100).

اعتقد بولوك بوصفه التجربة الروسية أنه قد فنّد زعم استحالة تخطيط اقتصادي اشتراكي. لكنه استخدم لهذا الغرض أسلوبًا غريبًا. ففي مقدمة كتابه أثبت بولوك، على عكس غروسمان، أن نقطة ضعف الرأسمالية ليست في ميل معدل الربح إلى الهبوط، بل في عدم توازن قطاعات الاقتصاد المختلفة، وأن "كل النظريات الاشتراكية تُجمِع على أن الاقتصاد الاشتراكي، على عكس الاقتصاد الرأسمالي 'الفوضوي'، يجب أن يكون اقتصادًا مخططًا وموجهًا، حتى وإن لم يكن من الجائز اعتبار هذا مزيته الوحيدة. ذلك أنه لا بد، في الحالة الأخيرة، من أن يُنظر إلى أشكال اقتصادية مختلفة كالاقتصاد الفرعوني، والمركنتيلية، واقتصاد الحرب الألماني، والدولة الفاشية التي جرى التفكير في أدق تفاصيلها، وكذلك الرأسمالية التي تسيطر عليها الترستات [الشركات الكبرى] بالكامل، على أنها اشتراكية"(101). لهذا السبب حدّد بولوك: "إذا كنا نتكلم في ما يلي عن تخطيط اقتصادي اشتراكي، فينبغي أن يعني هذا، إلى جانب الواقع الاقتصادي للاشتراكية، الواقع السياسي أيضًا (مجتمع لاطبقي، وبالتالي ملكية اجتماعية لوسائل الإنتاج)"(102). غير أن بولوك اختار أن "ينحّي السياسة كليًا" في كتابه(103)؛ وقد توجّه فعلًا في عرضه بشكل أساسي نحو التناقض بين السوق والتخطيط. لكن هذا كان يعني أنه اختار الاقتصاد المخطط الاشتراكي موضوعًا، وبرهن بمثال الاقتصاد السوفياتي على إمكانية قيادة مخططة للاقتصاد؛ واعتقد في النهاية أنه بذلك قد قال شيئًا حول إمكان تخطيط

---

(98) Friedrich Pollock, *Die planwirtschaftlichen Versuche in der Sowjetunion*, p. 382.

(99) Ibid., p. 288.

(100) Ibid., p. 291.

(101) Ibid., p. 2.

(102) Ibid., note, p. 4.

(103) Ibid., p. 2.

اشتراكي للاقتصاد. لكن كيف كان بإمكانه أن يستبعد أنه لم يكن، بعرضه الذي "ترك فيه جانبًا" الخاصية النوعية للاقتصاد المخطّط الاشتراكي، يبرهن أكثر أو بالقدر نفسه على إمكان اقتصاد مخطط فاشيًا أو رأسماليًا؟ وأخيرًا، استند أساسًا في تقويمه الاتحاد السوفياتي، بوصفه اشتراكيًا، على إعلانات نيات البلاشفة. هنا ذكر أقوالًا، مثل قول تروتسكي، من زمن التجربة الأولى لتنظيم اقتصاد وطني بلا سوق 1920/ 1921: "إذا أردنا أن نتكلم بجدية على اقتصاد مخطط، وإذا كان يجب أن تُقسَّم قوة العمل بالتوافق مع الخطة الاقتصادية في كل مرحلة من التنمية، في هذه الحال لا يجوز للطبقة العاملة أن تعيش حياةً بدوية، بل يجب، مثلها مثل الجنود، أن تغير مواقعها وتعيد انتشارها"(104). وقرر بولوك في النهاية: "ما كان بالإمكان قط أن تُجرى تجارب اقتصادية متهورة من هذا النوع، لو لم يحدث إنتاج المواد الغذائية أساسًا بمعزل عن غياب هذه التجارب، وما كان السكان ليرضوا بالإمداد القليل جدًا بالمنتجات الصناعية، وهي شروط تُفتقَد في بلد صناعي مكتظ بالسكان"(105). وأكد أخيرًا بوضوح: "يتفق كل المنظّرين الاشتراكيين منذ ماركس على أن من الشروط الضرورية لإقامة نظام اقتصاد اشتراكي أن يوجد اقتصادٌ رأسمالي متطوّر جدًا"(106). يُشير هذا كله إلى أن ما حصل في الاتحاد السوفياتي لم يقل بعد شيئًا على الإطلاق حول إمكان وجود شكل اقتصادٍ اشتراكي، اقتصاد مخطط متحرر من الحكم الطبقي.

على الرغم من كل شكوكه، بدا بولوك وكأنه وجد أن روسيا قد أصبحت أقرب إلى الاشتراكية من البلدان الرأسمالية البالغة التطوُّر. وقد أيّد هذا الرأي - إنما ليس علنًا - هوركهايمر أيضًا الذي كان يأمل أن الناس "بدلًا من محاربة الشركات الرأسمالية الكبرى، سيضعون اقتصادًا لاطبقيًا ومسيّرًا مركزيًا"(107)، وفي ملاحظة تعود إلى عام 1930، قال هوركهايمر: "من له عينان لتريا ظلم

(104) كلمة تروتسكي في المؤتمر التاسع للحزب الشيوعي الروسي في نيسان/ أبريل 1920، في:
Ibid., pp. 57 f.

(105) Ibid., p. 365.

(106) Ibid., p. 366.

(107) Horkheimer, *Dämmerung*, p. 269.

العالم الإمبريالي العبثي الذي لا يمكن أبدًا تفسيره من خلال عجز تقني، سوف ينظر إلى الأحداث في روسيا على أنها بمثابة المحاولة المؤلمة المتواصلة للتغلّب على هذا الظلم الاجتماعي الفظيع، أو أنه سوف يسأل بقلب يخفق بشدة إن كانت هذه المحاولة سوف تستمر. إذا بدا أن الظاهر يتكلّم خلاف ذلك، فسوف يتمسك بالأمل الخالص، مثلما يتمسك مريضُ السرطان بالأخبار المشكوك فيها التي تقول إنه تمّ على الأرجح اكتشاف دواء لمرضه"[108].

لكن ما هو الدواء الذي من المحتمل أن يكون الاتحاد السوفياتي قد اكتشفه؟ هل كانت دولةٌ يحتكرها حزب من ثوار محترفين أقرب إلى الاشتراكية من دولة تتقاسم الحكم فيها أحزاب عمالية؟ كان من بين ما ذكره بولوك في كتابه عن المشروع الأول لخطة خمسية في عام 1927 واقتبس منها أيضًا حرفيًا المقطع الذي كان فيه الحديث عن "فن المهندس الاجتماعي المدعو إلى إعادة تشكيل كل أسس المجتمع"[109]، كما أشار أيضًا إلى وجود ثلاثة عشر مهندسًا بين عاملي الجهاز المركزي الأربعة والعشرين للجنة تخطيط الدولة في الاتحاد السوفياتي[110]. كان اعتراض بولوك الوحيد على هذه الملاحظة قوله إنهم [المهندسون] يحتاجون إلى الشرعية من خلال "عمل 'المختصين والمنظّرين في غرف الدراسة' المحتقر قليلًا"[111]. لكن ألا يشكل فن المهندس الاجتماعي الذي يشرعنه مختصون ومنظّرون طريقًا إشكاليًا أيضًا إلى الاشتراكية مثل تنظيم الرأسمالية؟

على الطريق غير المباشر إلى تنظيم الاقتصاد وتوجيهه باستعمال الممارسات البلشفية - أي استغلال احتكار الدولة للعنف من جانب أقلية ناشطة - التي يعتبرها الشيوعيون بدهية ويجدها الاشتراكيون الديمقراطيون مستنكرة، توصل بولوك وهوركهايمر في النهاية إلى التصورات نفسها حول تحقيق الاشتراكية التي توصل إليها الاشتراكيون الديمقراطيون. وقال رودولف

---

(108) يُنظر تحديدًا:

Ibid., p. 296.

(109) Pollock, *Die planwirtschaftlichen Versuche*, p. 316.

(110) Ibid., p. 278, note p. 116.

(111) Ibid., p. 323.

هيلفردنغ في خطبته أمام مؤتمر الاشتراكيين الديمقراطيين في كيل عام 1927 عن "مهمات الديمقراطية الاشتراكية في الجمهورية": "الرأسمالية المنظَّمة تعني، إذًا، في الواقع البديلَ الأساسي لمبدأ المنافسة الحرة الرأسمالي بواسطة المبدأ الاشتراكي في الإنتاج المخطط. ويخضع هذا الاقتصاد المخطط، المسيَّر بوعي، بقدر أكبر بكثير لإمكان التأثير الواعي للمجتمع، وهذا لا يعني شيئًا آخر غير الخضوع للتأثير من طريق التنظيم الوحيد للمجتمع، الواعي والمجهَّز بقوة القمع، أي التدخل عبر الدولة"[112].

في مراجعة شاملة لكتب حول تقدير فرص نجاح الرأسمالية والتجربة الروسية نُشرت في عام 1930 في العدد الأخير من **أرشيف** غرونبرغ، شكا بولوك من غياب تحليلات أساسية، حتى من الجانب الماركسي أيضًا، تتناول التحولات البنيوية التي تحدث في داخل النظام الرأسمالي (تهجُّمٌ على هنريك غروسمان وعلى نظريته في انهيار الرأسمالية التي تعتمد على تفسيره للمجلدات الثلاثة من كتاب **رأس المال** لماركس). وقد يكون هذا ما قوّى لديه ولدى هوركهايمر الميل إلى متابعة المراهنة على التجربة الروسية. لكن إذا كان رضاهما عن الأحداث في الاتحاد السوفياتي قد ركّز انتباههما على الإمكانات الاقتصادية والسياسية في المرحلة الرمادية بين اقتصاد السوق والاقتصاد الاشتراكي، فإنه كان لا بد من أن تتضح لهما بالتوجُّه إلى تحليل الرأسمالية - حتى في قلب أزمتها الحالية - فسحة المناورة التي لا تزال تمتلكها على ضفة الاشتراكية.

قاد تفوُّق هوركهايمر وطموحه، وامتثال بولوك ورضاه بدور المدير والاقتصادي، إلى أن يصبح هوركهايمر مديرًا للمعهد بدلًا من بولوك الذي كان نائب غرونبرغ، وعضوًا في المعهد منذ البداية، وأمين سر فايل. أعمال بولوك وقدراته الإدارية الكبيرة، والتي لم تكن ملهمة البتة، حرصت على ألا يحدث أي احتجاج ضد تطوُّر الأمور على هذا النحو، أو على الأقل ألا يُلحظ شيء من هذا القبيل. هكذا ثُبّتَ بولوك في بداية الثلاثينيات، بشكل نهائي، في دور المدير الإداري والمالي للمعهد ورئيس جمعية البحث الاجتماعي.

---

(112) Rudolf Hilferding, *Protokoll der Verhandlungen des sozialdemokratischen Parteitages 1927 in Kiel* (Berlin, 1927), p. 168.

ليو لوفنتال

كان ليو لوفنتال فخورًا بأنه أوصل إريك فروم إلى المعهد. ولوفنتال هو الذي كانت له في العشرينيات أقرب العلاقات باليهودية بعد فروم من بين أعضاء حلقة هوركهايمر. وكان، مثل فروم، قد ولد في عام 1900 في فرانكفورت أ. م. كان والده طبيبًا من الطبقة الوسطى، وقد أصبح في ردة فعل على والده اليهودي الأصولي المتشدد من أتباع مادية ميكانيكية وفكر مؤمن بالعلم. دفع بابنه إلى قراءة داروين وهيكل وغوته وشوبنهاور. كان ليو لوفنتال يجتمع بعد الظهر مع رفاقه في المدرسة من أسر يهودية غنية لقراءة جماعية ونقاش حول دوستويفسكي وزولا وبالزاك وفرويد. في المدرسة تعرّف إلى أدورنو أيضًا، وتطورت هذه المعرفة بداية بالنظر إلى الصديق المشترك والمرشد زيغفريد كراكاور، ثم لاحقًا بالنظر إلى مساعد كورنيليوس وأخيرًا بالنظر إلى هوركهايمر، مدير معهد البحث الاجتماعي، لتُصبح علاقة صداقة - عداوة استمرت مدى الحياة.

بعد الحرب التي كان عليه في أشهرها الأخيرة، بعد نيله شهادة البكالوريا، أن يخدم في الجيش قريبًا من فرانكفورت، درس لوفنتال في فرانكفورت وغيسن وهايدلبرغ بلا هدف محدَّد [...] في حقيقة الأمر كل شيء [...] ما عدا الطب[113]. تزامنت عنده الميول الاشتراكية والعودة إلى اليهودية. أسّس في عام 1918 في فرانكفورت مع فرانتس نويمان وإرنست فرنكل وآخرين فرقة الطلاب الاشتراكية. وفي بداية العشرينيات، انضم إلى الطلاب الاشتراكيين والصهيونيين. وبدأ، في الوقت نفسه، بالمشاركة في بيت التعليم اليهودي الحر في فرانكفورت. كان أول ما نشره مساهمة في كتاب **هدية للحاخام الدكتور نوبل بمناسبة عيد ميلاده الخمسين: الشيطاني. مشروع فلسفة دين سلبية.** جلب له هذا العمل نقد "صديقه الشخصي الأقرب إليه ومرشده الفكري"[114] كراكاور، لأن بعض ما فيه ذكّر ببلوخ وبما كان ماكس شلر قد قاله يومًا حول فلسفة بلوخ بأنها في الحقيقة سباق محموم نحو الله. لكنه تلقى، على العكس،

(113) Löwenthal, p. 50.

(114) Ibid., p. 59.

مديحًا من بلوخ نفسه الذي كان لوفنتال قد تعرّف إليه في هايدلبرغ. في عام 1923 حصل لوفنتال على شهادة الدكتوراه بعمل عن **فلسفة فرانتس فون بادر الاجتماعية: مثال ومشكلة فلسفة-دينية**. كان بادر يسحره بوصفه ممثلًا للتحالف بين الكنيسة وطبقات الشعب الدنيا ضد البرجوازيين العلمانيين. كما كان هذا أيضًا يتفق تمامًا مع منهجية بلوخ الذي وضع في كتابه **روح اليوتوبيا** الصادر في عام 1918 الخطوط العامة ليوتوبيا نظام دولة طبقية كهنوتية تُبعِد "كل ما يُخلُّ بالنظام بدناءة، لكي تُسلّمه في ظل إلغاء المجال الاقتصادي الخاص إلى إنتاج سلع تعاوني، وإلى اقتصاد كلي لمجتمع إنساني؛ ولكن [...] في المقابل تجعل الألم والهموم وكل إشكالية النفس غير القابلة للإلغاء اجتماعيًا تظهر بقوة أكثر من أي وقت مضى، لكي تربطها بالنعم الكبيرة الخارقة السماوية التي تقدمها الكنيسة؛ كنيسة تأتي بالضرورة وعلى نحو مسبق في المرتبة الثانية بعد الاشتراكية"(115).

منذ عام 1929 كان لوفنتال ينتمي هو وزوجته الأولى ذات القناعة الصهيونية إلى الحلقة حول "المصحّ العلاجي" لفريدا رايشمان في هايدلبرغ. إلى جانب ذلك، كان يعمل في مركز استشاري في فرانكفورت لليهود اللاجئين من شرق أوروبا الذين كان اليهود المتأقلمون يخذلونهم عادة ويتجنّبونهم بسبب انتمائهم الواضح إلى اليهودية. أصدر لوفنتال مع إرنست سيمون في منتصف العشرينيات دورية *Jüdisches Wochenblatt* **(المجلة الأسبوعية اليهودية)**. وعلى غرار إريك فروم، اختلط لديه الاهتمام باليهودية بالاشتراكية وبالتحليل النفسي، قبل أن يصنع منه، في نهاية العشرينيات، برنامجًا نظريًا، أو بالأحرى التزامًا بأحدها.

منذ عام 1926 كان لوفنتال - وهو، في غضون ذلك، أستاذ في الثانوية، وعضو في مسرح الشعب ذي الميول الاشتراكية الديمقراطية، وذو منحة في معهد البحث الاجتماعي - وأدورنو يتسابقان للحصول على شهادة التدريس الجامعي بإشراف كورنيليوس. لم يتدخل كراكاور ولا هوركهايمر لمصلحة هذا أو ذاك. وفي النهاية لم يُشرف كورنيليوس على أي منهما. بقي مخطوطان،

---

(115) Ernst Bloch, *Geist der Utopie*, p. 410.

أحدهما لأدورنو في **مفهوم اللاوعي في علم النفس الترانسندنتالي**، والآخر للوفنتال عن **فلسفة هلفيتيوس**.

في عام 1930 أصبح لوفنتال مشاركًا بكامل العضوية في معهد البحث الاجتماعي. بعد يوم واحد من انتخابات الرايخ في 14 أيلول/ سبتمبر 1930 التي حصل فيها الحزب النازي (NSDAP) على 107 مقاعد، وجاء ثانيًا في الترتيب بعد الحزب الاشتراكي الألماني الذي حصل على معظم الأصوات، اجتمع كلٌّ من فليكس فايل وماكس هوركهايمر وفريتس بولوك وليو لوفنتال للتباحث، وفي هذا الاجتماع ناشد الأخير فليكس فايل: "يجب عليك أن تتبرع بالمال لكي يكون بمقدورنا اليوم تأسيس هذا الفرع في جنيف. لا يمكن البقاء هنا بعد الآن، يجب الإعداد للهجرة"[116]. أصبحت المهمة الرئيسية للوفنتال، الذي سبق أن جمَّع خبرات في مجالات مختلفة، إعدادَ وإصدارَ **مجلة الأبحاث الاجتماعية**، وهي لسان حال المعهد الجديد، بدلًا من **أرشيف** غرونبرغ.

تيودور فيزنغروند-أدورنو

"في الوقت الحالي، يتكوّن في جزء كبير منه من لوكاتش ومني"، كان هذا هو الحكم الذي أطلقه زيغفريد كراكاور في رسالة إلى لوفنتال على ربيبه الآخر تيودور فيزنغروند في كانون الأول/ ديسمبر 1921. بعد سنة واحدة فقط من الصف الأول في المدرسة (Prima) سُمح لأدورنو بتقديم البكالوريا، وأُعفي بذلك من الامتحانات الشفهية، وبدأ في الفصل الصيفي 1921، وقد بلغ السابعة عشرة من عمره، دراسة الفلسفة، وعلم الموسيقى، وعلم النفس وعلم الاجتماع في فرانكفورت. "ربما ينقصه حب الفلسفة الذي تمتلكه أنت. كثيرٌ جدًا ما يصدر عنه من العقل والإرادة بدلًا من أن يصدر من أعماق الطبيعة. لكنه يتميز عنا بشيء لا نظير له، بوجود مادي ممتاز وببديهية طبيعةٍ مثيرة للإعجاب. هو حقًا مثال لإنسان جميل على الرغم من أنه يساورني شك حول مستقبله، لكنني مع ذلك سعيد جدًا بحضوره"[117].

---

(116) Löwenthal, p. 67.

(117) رسالة من كراكاور إلى لوفنتال، 4 كانون الأول/ ديسمبر 1921.

ولد تيودور فيزنغروند (أو فيزنغروند-أدورنو كما سُمّي بناءً على طلب أمّه حين ولادته، وكما سمّى نفسه في عهد فايمار كناقد موسيقي، أو أدورنو، كنيته النهائية التي اعتُمدت رسميًا منذ عام 1943 في منفاه في كاليفورنيا، أما فيزنغروند فتقلّص إلى الحرف .W) في 11 أيلول/ سبتمبر 1903 في فرانكفورت أ. م. كان والده أوسكار فيزنغروند، وهو يهودي ألماني ارتدّ إلى البروتستانتية في الوقت الذي عُمِّد ولده الوحيد بروتستانتيًا، صاحب متجر كبير لبيع الخمور أُسس في عام 1822 في فرانكفورت. وكانت الأم، واسمها قبل الزواج ماريا كالفيلي-أدورنو ديلا بيانا، كاثوليكية، وهي ابنة ضابط فرنسي من نبلاء كورسيكا، ظلت إلى حين زواجها مغنية ناجحة. وكان من بين أعضاء الأسرة أيضًا أخت الأم، وهي عازفة بيانو شهيرة.

كان لأدورنو طفولة محمية للغاية، وطُبع في بداية شبابه، قبل كل شيء، من قِبَل "الوالدتين" والموسيقى. في سن السادسة عشرة، أصبح تلميذ الثانوية الموهوب جدًا في الوقت ذاته تلميذًا في كونسرفاتوار هوخ. كان برنارد سكلِس أستاذه في التأليف الموسيقي الذي تتلمذ على يده أيضًا باول هيندميت قبل الحرب العالمية الأولى. سهر على تثقيفه النظري زيغفريد كراكاور، صديقه الذي يكبره بأربعة عشر عامًا ومرشده الذي تعرّف إليه أدورنو عند نهاية الحرب العالمية الأولى. عمل أدورنو معه على دراسة **نقد العقل المحض** لكانط في بعد ظهر أيام السبت على مدى سنوات بطريقة غير تقليدية. تحت إشراف كراكاور، اختبر كتاب كانط ليس بوصفه مجرد معرفة نظرية، بل بوصفه نوعًا من كتاب مشفَّر يمكن أن يُستنتج من قراءته الشرط التاريخي للروح، وتتعارك فيه الموضوعية والذاتية، والأنطولوجيا والمثالية. في ربيع 1921 اكتشف أدورنو، وهو تلميذ في الصف النهائي من المرحلة الثانوية، **نظرية الرواية** للوكاتش. في الوقت نفسه تقريبًا، كتب كراكاور مراجعة مؤثرة نُشرت في مجلة *Blättern für Kunst und Literatur* **(أوراق للفن والأدب)** الصادرة في فرانكفورت عن هذه المحاولة "التاريخية-الفلسفية حول أشكال الملحمة الكبرى" مع التمييز بين الملاحم الكلاسيكية من جهة، بوصفها شكلًا من أشكال الكتابة الملحمية يهتم بـ "ثقافة مغلقة" لعالم مليء بالآلهة والمعنى،

والرواية من جهة أخرى بوصفها شكلًا من أشكال الكتابة الملحمية يهتم بثقافة إشكالية لعالم تخلّت عنه الآلهة والمعنى، عصر الخطيئة الكاملة. في نظر كراكاور، عرف لوكاتش ما المهم في الأمر: "إبقاء شعلة الحنين متّقدة"، الحنين "إلى المعنى المفقود" (كراكاور). في العام نفسه، قرأ أدورنو أيضًا **روح اليوتوبيا**، بعد أن سمع أن بلوخ كان وثيق الصلة بلوكاتش. وكتب لاحقًا في نظرة استعادية: "المجلد البني الغامق، المطبوع على ورق سميك والواقع في أكثر من أربعمئة صفحة، وَعَد بشيء مما كان يُؤمل من كتب العصور الوسطى، ومما كنت ألمسه أيضًا كطفل في بيت أهلي من 'كنز الأبطال' المغطى بجلد الخنزير، كتاب سحر متأخر من القرن الثامن عشر [...]. كانت فلسفةً لم يكن عليها أن تخجل أمام الأدب المتقدِّم، وغير مروَّضة على الاستسلام للمنهج. تشهد على ذلك مفاهيم مثل 'السفر نحو الداخل' على الفاصل الحدي بين التعويذات السحرية والفرضيات العلمية"[118]. تلاقى هذا كلُّه، إذًا، ليجعل من أدورنو بالغًا بشكل مبكر، محميًا من الحرب والسياسة والحياة المهنية، وليجعل منه "نبتة بيت زجاجي"، كما جاء في شذرة تحليل الذات في كتابه **أخلاق صغرى** (*Minima Moralia*).

ألَمَّ أدورنو، بفضل كراكاور، بأهم أفكار فلسفة التاريخ وأفكار عصره وبالتعامل معها عمليًا في الوقت نفسه. ولد زيغفريد كراكاور في عام 1889 في فرانكفورت لأب يهودي تاجر، وعانى منذ طفولته من عيب في النطق لافت للنظر. بعد وفاة والده المبكرة، تعهد تربيته أحد أعمامه الذي كان أستاذًا في المدرسة اليهودية في فرانكفورت، ومؤرخًا ليهود فرانكفورت. درس إلى جانب الهندسة كفرع أساسي، تحضيرًا لمساره المهني وكسب عيشه، الفلسفةَ وعلم الاجتماع كمادتين فرعيتين. لم يستجب لنصيحة جورج زيمل له بالتفرغ كليًا لدراسة الفلسفة. شكّل تخليه عن العمل كمهندس في عام 1921، وانضمامه إلى هيئة تحرير القسم الأدبي في **صحيفة فرانكفورت**، بالنسبة إليه، حلًا وسطًا أتاح له الانشغال المهني بموضوعات في الفلسفة وعلم الاجتماع.

---

(118) Theodor W. Adorno, "Henkel, Krug und frühe Erfahrung," in: *Gesammelte Schriften*, vol. 11, pp. 556 f.

كانت نسبية زيمل والعمق الميتافيزيقي الذي ينقص في فلسفة الحياة، وفصل ماكس فيبر الفظ بين نسبية القيم ومثال الموضوعية العلمية من جهة، وتمجيد ماكس شلر للكاثوليكية أو بالأحرى لفينومينولوجيا ذات توجه ديني، وتقريظ لوكاتش لأعمال دوستويفسكي وللروح الروسية بوصفها تحقيقًا للحنين إلى عالم مليء بالمعنى من جهة أخرى، هي المواقف التي توجّه بموجبها كراكاور نقديًا في سنوات ما بعد الحرب وفي النصف الأول من العشرينيات. كان يتقاسم معها كلها تشخيص العصر: نزع السحر عن العالم وعن العلاقات بين البشر؛ وعجز العلوم عن استشعار مخرج من الأزمة. في كتابه الأول الصادر في عام 1922، بعنوان **السوسيولوجيا بوصفها علمًا: بحث نقدي معرفي**، اتّبع كراكاور صراحةً كتاب لوكاتش **نظرية الرواية** مع الادعاء بإظهار مضمونه المعرفي النقدي بشكل أوضح.

"في عصر مليء بالمعنى - هكذا بدأ الفصل الأول - كانت جميع الأشياء تُحيل على المعنى الإلهي؛ إذ لم يكن فيه مكان فارغ ولا زمان فارغ على النحو الذي يشترطهما العلم مسبقًا؛ بل يشكل المكان والزمان على الأرجح الغلاف الذي لا يمكن أن تستغني عنه المضامين التي ترتبط بعلاقة ما معينة بالمعنى [...] الأنا، والأنت، وكل الموضوعات والأحداث تستمد منه أهميتها وتنظّم نفسها في كون من الأشكال [...]، حتى الحجر يشهد هو أيضًا على الجوهر الإلهي.

إذا فُقد المعنى (في الغرب منذ انطفاء الكاثوليكية)، إذا شُعر بأن الإيمان المصاغ بشكل معين قد أصبح أكثر فأكثر عقيدةً وقيدًا يُثقل على العقل، عندئذ ينهار الكون المتماسك بواسطة المعنى، وينشطر العالم إلى تنوع الكائن والذات الماثلة أمام التنوع. هذه الذات التي كانت من قبل متضمنة في مملكة الأشكال التي تملأ العالم، تنشقُّ الآن منعزلة عن الفوضى بوصفها حاملًا وحيدًا للروح، وتنفتح أمام ناظريها ممالك الواقع التي لا تقاس. وتجد الذات نفسها وقد رُمي بها في اللانهاية الباردة للمكان الفارغ والزمان الفارغ، فتجد نفسها أمام كل مادة معراةً من كل معنى يجب عليها أن تحوّله وتشكّله وفقًا للأفكار التي لديها الموجودة داخل الذات (والتي تمّ إنقاذها من عصر المعنى)"[119].

(119) S. Krakauer, "Soziologie als Wissenschaft," in: Theodor W. Adorno, *Gesammelte Schriften*, vol. 1, pp. 13 f.

بالنسبة إلى كراكاور - وكذلك أيضًا بالنسبة إلى سلسلة من المفكرين القريبين منه مثل فالتر بنيامين - اكتسب نقد كانط للمعرفة بلا شك أهمية قصوى حالما نُظِر إليه بوصفه تمهيدًا للميتافيزيقا، بدلًا من اعتباره رفضًا مشكِّكًا للميتافيزيقا، كما في معظم أنواع الكانطية الجديدة. إن قصر العقل التأملي على مجال التجربة كان له في نظر كانط نفعٌ إيجابي لمنع مقولات عالم التجربة من أن تتمدد إلى جميع المجالات الممكنة ولا يبقى هنا مكانٌ للاستعمال العملي للعقل المحض. قياسًا على ذلك، اهتم كراكاور بتعيين حدود موضوعية وضرورة علم اجتماع غير قيمي، كي لا تُنحَّى جانبًا، بإضفاء إطلاقية تلك المقولات الصالحة حصرًا على مجالات المحايثة، تلك المقولات التي كانت وحدها تلائم مجال التعالي لعالم البشر الذين أصبحوا اجتماعيين. "باعتبار أنه[120] يقوم على الافتراض الأساسي لواقع متشكّل تحت شروط متعالية جدًا، يجسد العالم والأنا بالقدر ذاته، فإن عليه أن يقدم مساهمة في نقد كل شكل من أشكال الفلسفة المحايثة، وخصوصًا التفكير المثالي، وأن يساعد ضمن حدود ضيقة على تهيئة التحول الذي بات ملموسًا هنا وهناك بصورة ضعيفة، والذي سيقود من جديد البشرية المطرودة إلى المجالات الجديدة - القديمة للواقع الممتلئ بالإلهي"[121].

بخلاف شلر ولوكاتش اللذين كان كراكاور معجبًا بـ "نزعتهما الدينية وحماستهما الميتافيزيقية"، ولكن لم يكن بمقدوره أن يشاركهما فيهما[122]، وكذلك بخلاف بلوخ الذي كان كراكاور قد لفت إليه انتباه لوفنتال بوصفه مثالًا تحذيريًا عن "الخطيئة مع الله"[123]، كان كراكاور في هذه الأجواء من المنتظرين. في مقالة بالعنوان نفسه نُشرت في عام 1922 في **صحيفة فرانكفورت**، وكان مستلهمًا زخم اللغة من نيتشه، رسم بعض الطرق التي اعتقدت النظرية الأنثروبولوجية لرودولف شتاينر، والمسيحية الخلاصية لإرنست بلوخ على سبيل المثال، والإيمان التقوي لحلقة غيورغه، والفكر المشترك الذي استيقظ من جديد في إطار الكنيستين البروتستانتية والكاثوليكية وفي إطار اليهودية، أنهم وجدوا فيها، كردة فعل في السابق

(120) أي هذا الكتاب.

(121) Ibid., p. 11.

(122) رسالة من كراكاور إلى لوفنتال، 4 كانون الأول/ ديسمبر 1921، في:
L. Löwenthal, *Mitmachen wollte ich nie - Ein autobiographisches Gespräch mit Helmut Dubie*, p. 245.

(123) وردت في النص "Unzucht miy Gott"، وتعني حرفيًا الزنا مع الله. (المترجم)

- كما رأى - ليس على "فوضى الحاضر"، بل الأرجح على "المعاناة الميتافيزيقية بسبب نقص المعنى العلوي في العالم". أكثر ما أثّر في كراكاور كان موقف الريبيين الرئيسيين، والمتهورين من المثقفين الذين كان ماكس فيبر مثالًا صارخًا لهم. لكنه هو نفسه كان ينادي بالشك الذي لا يسفر عن شك مبدئي، بل يرتبط بانتظار منفتح متردد: "أولئك الذين ينتظرون لا يصنعون من الضيق فرجًا" - كما يفعل المتهوّر - "بإنكارهم ما يتوقون إليه، وهم لا يثقون بسهولة بعاصفة الشوق التي تجرفهم، من يدري، إلى تحققات زائفة"[124]. لقد بقي غامضًا ما يجب أن يتصوره المرء تحت محاولة "نقل مركز الثقل من الأنا النظرية إلى الأنا الإنسانية بأكملها، والعودة من عالم مذرّر غير واقعي لقوى لا شكل لها، وأبعاد لا معنى لها، إلى عالم **الواقع** والمجالات المتضمنة في داخله". لقد كان واضحًا أن كراكاور رأى في عدم القفز وفي جدية الهنا والآن، وفي جدية الدنيوي والظاهري، الشرط المسبق لـ "انبثاق المطلق" ولاختبار الواقع بكليته.

بقي حتى العشرينيات يتهم الحركة الاشتراكية بأنها لن تستطيع أن تضيف الرباط الديني إلى الرباط الاقتصادي المنشود. لكنه، في منتصف العشرينيات، بدأ يرى في النظرية الماركسية موطنَ الحقيقة الراهن، بالقدر الذي كانت ترمز فيه إلى القناعة بأن المادي والدنيوي لا يكون الأخير إلا عندما يؤخذ بجدية، بادئ الأمر، بوصفه الأخير.

مع لوكاتش وكراكاور وبلوخ - لم يكن أي منهم أكاديميًا - لم يستطع أدورنو أن يحقق تقدمًا في جامعة فرانكفورت؛ إذ كان ازدراء النضج المبكر في المهن الأكاديمية كبيرًا. في عام 1924، نال أدورنو شهادة الدكتوراه بإشراف كورنيليوس برسالة عن **تعالي الشيئي والاسمي في فينومينولوجيا هوسرل**. وفي تموز/ يوليو 1924 كتب إلى ليو لوفنتال يقول: "منتصف أيار/ مايو وضعت مخطط رسالتي، وعرضت في السادس والعشرين منه على كورنيليوس سير الأفكار للمرحلة ما قبل العمل. وفي 6 حزيران/ يونيو كانت الرسالة جاهزة، وفي الحادي عشر منه أمليتها، وفي الرابع عشر منه قدّمتها"[125]. كانت المهمة

---

(124) S. Kracauer, "Die Wartenden," in: *Das Ornament der Masse*, p. 117.

(125) رسالة من أدورنو إلى لوفنتال، 16 تموز/ يوليو 1924، في:

Leo Löwenthal, *Mitmachen wollte ich nie - Ein autobiographisches Gespräch mit Helmut Dubie*, p. 247.

التي وضعها لنفسه هي حل التعارض القائم بين المكونات المتعالية-المثالية والمتعالية-الواقعية في نظرية الشيء لهوسرل. فعل ذلك بأن اعتبر التعارض مشكلة ظاهرية انطلاقًا من منظور كورنيليوس "الفلسفة محض محايثة"[126]؛ المنظور الذي يعتبر الشيء مثاليًا وتجريبيًا في آن، والفلسفة التي تفهم تحت ذلك علاقة الظواهر المركبة الحتمية عبر وحدة الوعي الشخصي، هذه العلاقة التي تخضع للتصحيح من خلال التجربة. في رسالته إلى لوفنتال قال هو نفسه عن عمله إنه "أكثر لاأصالة من أن ينتمي إليّ، أي إنه كورنيليوسي".

المجال الخاص الذي استطاع أن ينشط فيه أدورنو بوصفه تلميذًا للوكاتش وكراكاور وبلوخ توافق تقريبًا مع الوقت نفسه الذي بدأ فيه بدراسة نقد الموسيقى والجمال الموسيقي. ففي الفترة الممتدة بين عامي 1921 و1932 نُشِر له نحو 100 مقالة في مجال نقد الموسيقى والجمال الموسيقي، في حين جاء النشر الفلسفي في بداية عام 1933 مع نشر أطروحته حول كيركيغارد للحصول على شهادة التأهيل للأستذة.

ما كان بالنسبة إلى كراكاور تعبيرًا عن موقف وجودي، أصبح تسويغًا لنوع محدد من الموسيقى بالنسبة إلى أدورنو الذي كان على علاقة في فرانكفورت بمشهد موسيقي منفتح على الموسيقى الجديدة بشكل غير اعتيادي، وكان له في هرمان شرشن قائد الحفلات الموسيقية في المتحف مناضلًا رائدًا لمدرسة شونبرغ. في مراجعة أدورنو الأولى التي نُشرت في عام 1921 في مجلة *Neuen Blättern für Kunst und Literatur* (**أوراق جديدة للفن والأدب**) الصادرة في فرانكفورت، والتي تخص أوبرا لأستاذه في التأليف الموسيقي برنارد سيكلس، برز كنقطة توجيه قصوى اسم أرنولد شونبرغ (Arnold Schönberg) الذي بدأ يأخذ في تلك السنوات بالضبط شهرةً عالمية، إنما في المقام الأول بسبب مؤلفاته الانطباعية الأولى. حينما راجع أدورنو في بداية عام 1922 العرض الأول لميلودراما **بييرو في ضوء القمر** (*Pierrot Lunaire*) في فرانكفورت، قدّم أدورنو شونبرغ بوصفه مؤلفًا موسيقيًا، "وُلد في زمن اضطراب وفوضى [...] غنّى في بييرو نفسنا المشردة بالذات؛ وما كان يومًا شرطًا صوريًا للإبداع [...] أصبح

---

(126) Adorno, *Gesammelte Schriften*, vol. 1, p. 11.

المحتوى المادي"؛ وقد استطاعت موهبته الفريدة أن تُظهر "الأشكال الصارمة المفروضة من الخارج، وقد بثت الحياة في داخلها"(127). حذّر أدورنو مؤلفًا موسيقيًا آخر هو فيليب يارناخ الذي كان قد رحّب بـ "تشديده على الشكل كموقف عقلي في زمنٍ وفنِّ زمنٍ مهشمَين على نحو فوضوي"، قائلًا: "لا يمكن الوصول إلى الموضوعية من طريق حرمان ذاتيتها وتحويلها إلى أشكال غريبة مرتبطة بأشكال أخرى ميتافيزيقية، وجمالية، واجتماعية [...] لا يمكن تجاوز الأنا إلا انطلاقًا من الأنا وقرارها الذي يُحدث أثرًا أوسع. لا يمكن أي غلاف موضوعي أن يحتوينا، يجب علينا أن نبني بيتنا بأنفسنا"(128). في مراجعته لعمل شترافينسكي **تاريخ الجندي** (*Histoire du soldat*) الذي فيه "متّعت النفس الخالية من الشكل" ذاتها برؤية "حطام الأشكال القديمة المندثرة"، اتهم أدورنو شترافينسكي بممارسة الدادائية. لكنه امتدح مؤلفًا موسيقيًا آخر هو رودي شتيفان لـ "الحماسة التي لا هوادة فيها للشكل"(129).

وجّه أدورنو، إذًا، منذ البداية مطلبًا معينًا إلى الأعمال الفنية: عليها أن تقدم أعمالًا حية. القولُ بحقيقة أن واقع النفس لم يقدم وطنًا، كان أمرًا مفروغًا منه. وكان مؤكدًا، بالنسبة إليه أيضًا، أنه يمكن أن توجد في عالم كهذا في مجال الفن أشكالٌ مليئةٌ بالأنفس: فموسيقى شونبرغ برهنت على ذلك. على أثر مراجعة لعرض عمل مؤلِّف موسيقي آخر، تابع أدورنو - في عام 1923 في *Zeitschrift für Musik* (**مجلة الموسيقى**)(130) - قائلًا: "تتوالى أمام شونبرغ أغاني غيورغه التي تقع مطروقةً وكبيرةً بشكل مرعب في كل موسيقى أخرى مقدَّمة، تاركةً خلفها القصائد التي نشأت حولها، بعيدةً عن بعضها. لا يليق الكلام في سياق تقرير مضغوط عن نوعها ومعناها؛ أرى نفسي غير قادر حتى اليوم على أن أتخذ موقفًا حياديًا منها". وفي مراجعة أكثر حزمًا أيضًا، في أيار/ مايو 1928، لعمل شونبرغ "سويت لكلارينيت صغيرة" (Suite für kleine Klarinette) في مجلة **الموسيقى**، كتب: "لا يليق أي نقد بأعمال شونبرغ هذه الأيام؛ لقد

---

(127) *Neue Blätter für Kunst und Literatur*, no. 6 (1921/22), pp. 88 f.

(128) *Neue Blätter für Kunst und Literatur*, no. 1 (1922/23), 18 Sept. 1922, p. 11.

(129) *Zeitschrift für Musik* (11th Aug. 1923), pp. 315 f.

(130) Ibid., p. 316.

كُرِّست الحقيقة فيها. يجب أن يقتصر النظر على استخدام تحليل مادي يشير إلى الفهم الذي حازت عليه". جاء لمصلحة شونبرغ ما تعلمه أدورنو بادئ الأمر في سنوات ما بعد الحرب من معلّمه الأهم في المدرسة راينهولد تسيكل الذي كان نازيًا بشكل فج، ثم محاربًا نازيًا شديد المراس أيضًا، ومعلّمًا وشاعرًا، وهو أن يتخلى عن الليبرالية الثقافية التي نشأ عليها لمصلحة فكرةِ حقيقةٍ موضوعية خارج مبدأ الحرية (laisser faire)[131].

في حزيران/ يونيو 1924 - عام أزمته الكبرى، عندما اعتقد أدورنو أنه "يمكن بواسطة النظام الكاثوليكي إعادة بناء العالم المفكك العرى"، وأنه "كان على وشك الارتداد" إلى الكاثوليكية التي "كانت قريبة مني بما يكفي؛ فأنا ابن لوالدةٍ كاثوليكية جدًا"[132] - شهد أدورنو في حفل الموسيقى للاتحاد الألماني العام للموسيقى في فرانكفورت أيضًا العرض الأول لثلاثة مقاطع من أوبرا **فوتسك** (*Wozzeck*) للمؤلف الموسيقي النمساوي ألبان برغ التي غدت العمل الموسيقي الانطباعي الأكثر نجاحًا لمدرسة شونبرغ. بدت مقاطع **فوتسك** لأدورنو يومذاك "وكأنها موسيقى شونبرغ ومالر معًا، وهي الموسيقى الجديدة التي كانت تطوف في ذهني يومذاك"[133]. شونبرغ ومالر معًا، كانا يعنيان بالنسبة إلى أدورنو: الحنين المشكَّل، ويعني موسيقى الحنين إلى المعنى الغائب، الحنين نحو الانعتاق من عالم لا خلاص فيه، وهو مع ذلك عالم متجبِّر ومتكبِّر. بكل إعجاب، ترك أدورنو هرمان شرشن يُقدِّمه إلى المؤلِّف الموسيقي. اتفق مع برغ على أن يأتي إليه في فيينا كطالب، حالما يستطيع ذلك. وصل إلى هناك في بداية عام 1925، بعد نيله شهادة الدكتوراه في الفلسفة، بقصد أن يُصبح مؤلفًا موسيقيًا وعازف بيانو.

"عندما قدمتُ إلى فيينا كنت أتصوّر حلقة شونبرغ مرتبة جدًا، على غرار حلقة غيورغه. لكن الأمر لم يكن كذلك في ذلك الوقت؛ فقد كان شونبرغ يعيش، بعد زواجه الثاني، في مودلينغ، بعد أن عزَلَته - كما خُيّل، على الأقل،

---

(131) Theodor W. Adorno, "Gedichte von Reinhold Zickel," *Akzente*, vol. 3 (1958), pp. 275 f.

(132) رسالة من أدورنو إلى كرِنِك، 7 تشرين الأول/أكتوبر 1934.

(133) Theodor W. Adorno, *Alban Berg*, p. 24.

لحرسه القديم - زوجته الشابة والأنيقة عن أصدقاء الزمن البطولي. كان فيبرن يسكن بالفعل خارج فيينا في ماريا إنتسرزدورف، فلم يكن أحدنا يرى الآخر كثيرًا"[134]. كان حقًا من حظ أدورنو أنه تعرّف أيضًا إلى مجموعة كاملة من الأشخاص المهمين في حلقة شونبرغ قبل أن يتشتت شمل هذه الحلقة نهائيًا بسبب ذهاب هانز أيزلر (Hans Eisler) في عام 1925 إلى برلين وانتقال شونبرغ في كانون الثاني/ يناير 1926 إلى برلين أيضًا، حيث أصبح خلفًا للمتوفى فيروتشيو بوسوني في أكاديمية الفنون.

درس أدورنو التأليف الموسيقي على يد ألبان برغ، والعزف على البيانو على يد إدوارد شتويرمان (Eduard Steuermann)؛ وهو، إلى جانب عازف الكمان رودولف كوليش، صهر شونبرغ، أهم عازفي حلقة شونبرغ. ما أعطاه برغ، الألطف والأكثر ليبرالية في حلقة شونبرغ، لأدورنو من توجيهات "كان له طابع التعليم الذي لا لبس فيه، طابع سلطة مدرستنا"[135]. كتب أدورنو في آذار/ مارس 1925 إلى كراكاور: "كل ما هو شونبرغي مقدس، ما عداه لا يعتبر من موسيقيي أيامنا إلا مالر (Gustav Mahler)، من يقُل العكس فسوف يُحطَّم [...]"[136]. وحول شونبرغ الذي التقاه مرارًا قبل أن يتكلّم معه أول مرة، أخبر أدورنو صديقه في فرانكفورت: "وجهه وجه إنسان معتم، ربما إنسان شرير [...]، ليس فيه أي شيء 'مستنير' (ولا يبدو عليه أيضًا كبر السن)، بل هو مسكون من أعلاه حتى قدميه، إضافة إلى عينين واسعتين، جامدتين تقريبًا، وجبينٌ كبير. في هذا الرجل شيء ما غامض موحش ويبعث على الغم، وكان هذا يبدو أكثر وضوحًا عندما كان يُظهِر تسامحًا أكبر. أضف إلى ذلك الكتابة التي أعطاني إياها برغ، والتي رفضت تحليلها من دون أن أعرف كتابة من هي، لأنها تشبه كتابتي بشكل لا يصدَّق، والتي وجدت فيها مع ذلك ما كنت أطارده ووجدته متجمّعًا، وستكون له على الأرجح صحته أيضًا"[137]. قبل الجزء الذي

---

(134) يُنظر تحديدًا:

Ibid., pp. 44 f.

(135) Ibid., p. 49.

(136) رسالة من أدورنو إلى كراكاور، 8 آذار/ مارس 1925.

(137) رسالة من أدورنو إلى كراكاور، 10 نيسان/ أبريل 1925.

كان يظنُّ أنه يشعر معه نوعًا ما بهويته، بدا أدورنو حالًا عند بداية إقامته في فيينا أمام خليط من الحاجة إلى الاعتراف به، والجرأة القاسية، والابتذال المهووس والخوف من الشهرة والبؤس، من هذا الخليط نما فنٌّ كبيرٌ لم يكن يليق إلا به وحده.

عندما فقد أرنولد شونبرغ عمله كموظف صغير في مصرف، وكان قد ترك المدرسة الثانوية قبل حصوله على شهادة البكالوريا، كان مرتاحًا، وحصر كل اهتمامه في الموسيقى. وُلد شونبرغ في فيينا في عام 1874 لأب يهودي كان يملك متجرًا صغيرًا لبيع الأحذية، وقد بدأ العزف على الكمان في الثامنة من عمره، وألّف في سن التاسعة مقطوعات موسيقية صغيرة. علّمه أحد أصدقائه مبادئ علم الهارمونيا. فهم، عند بحثه تحت اسم "سوناته" في قاموس ماير للمحادثة الذي ابتاعه الاثنان بالتقسيط، كيف يجب أن يُبنى المقطع الأول من رباعية وترية. الحفلات الموسيقية الوحيدة التي حضرها كانت تلك التي تقيمها الفرق الموسيقية العسكرية في الحدائق العامة. أصبح ألكسندر فون تسملينسكي، الذي تعرّف إليه شونبرغ في فرقة الهواة الموسيقية "بوليهيمنيا" (Polyhymnia) وهو أكبر منه بسنتين، صديقَ من فقد وظيفته ومعلّمه. وقرَّب فاغنر من شونبرغ "البرامزي"، وقدّم في عام 1898 عرض أول قطعة لشونبرغ، وقد لقيت نجاحًا كبيرًا. ولمّا عُرضت في العام نفسه بعض أغاني شونبرغ حدثت الفضيحة الأولى. وقد قال شونبرغ لاحقًا لأحد تلاميذه: "من الآن فصاعدًا، لم تتوقف الفضيحة"[138].

كان العوز المادي يعوق من حين إلى آخر شونبرغ عن عمله الموسيقي. وكان على امتداد سنوات طويلة يعمل على مشاريع أوبرا لمؤلفين موسيقيين آخرين. لم يتمكَّن من إنهاء "أغاني السَّجع"، التي دُفع إلى وضع موسيقاها بسبب إعلان عن مسابقة والتي حقق بفضلها في عام 1899 نجاحه الفعلي الأول الكبير، إلا في عام 1911 بسبب الانقطاعات والإلهاءات الكثيرة. هرب ثلاث مرات من فيينا إلى برلين على أمل تحسين وضعه المادي، أو بالأحرى بحثًا عن انفتاح أكبر واعتراف بعمله الموسيقي: من عام 1901 إلى 1903، ومن 1911 إلى الحرب العالمية الأولى، ومن 1926 إلى بداية

(138) ذكره رايش في:

Willi Reich, *Arnold Schönberg*, p. 17.

الرايخ الثالث. كان أحد أصدقائه المفضلين في فيينا المهندس أدولف لوس (Adolf Loos)، الذي أصدر في عام 1903 مجلة بعنوان **الآخر: صحيفة لإدخال الثقافة الغربية إلى النمسا. كتبها أدولف لوس**. فعل شونبرغ في فيينا - على غرار الانفصاليين الفييناويين في فن الرسم - ما فعله كثيرون ممّن كانوا مستائين من الوضع الثقافي، أي تأسيس رابطة؛ فأسس في عام 1904، بالاشتراك مع تسملينسكي، "رابطة فناني اللحن"، الذي كان غوستاف مالر رئيس شرف فيها ومديرًا للأوركسترا؛ ثم أسس في عام 1918 "رابطة العروض الموسيقية الخاصة". كان على اتحاد المؤلفين - كما كتب شونبرغ في نشرة دورية - أن يحرر الفنانين والجمهور من وكالات الحفلات الموسيقية ومتعهّديها الذين كانوا يسعون لأن يستبعدوا من البرامج كل ما لم يكن يَعِد بنجاح مالي مؤكد، والذين كانوا قد "جلبوا فتورًا عامًا تجاه الاهتمام بالموسيقى عمومًا بسبب برامجهم الثابتة إلى الأبد". كان لا بد من أن تُمكِّن إعادة عروض ممتازة كثيرة من التآلف مع الموسيقى الجديدة، هذا التآلف الذي بات بسبب التعقيد المتزايد شرطًا ضروريًا لأي فهم للموسيقى الجديدة - برأي شونبرغ - أكثر مما كان في أي وقت مضى.

لمّا كانت محاضرات التدريس التي كان يُلقيها منذ عام 1904 في فيينا لا تستهوي عددًا كبيرًا من الموهوبين في التأليف الموسيقي، أعرض شونبرغ عن هذا الشكل من الدروس العامة، وأخذ الموهوبين حقيقةً كتلاميذ خصوصيين، وكان من بينهم أنطون فيبرن (Anton Webern) وألبان برغ. في البداية، درّس برغ - الذي تعلم الموسيقى ذاتيًا - بلا أجر إلى أن تحسنت أحوال عائلته المادية. كذلك درّس من عام 1919 حتى عام 1925، بلا أجر أيضًا، هانز أيزلر الفقير والأكثر موهبة من بين تلاميذه من الجيل الثاني والذي علّم نفسه بنفسه. كانت هذه الممارسة تتفق مع احترام شونبرغ للفنان الحقيقي المدفوع إلى الإبداع. "كان يشعر وكأن ما يفعله يُملى عليه؛ كما لو أنه لا يعمل إلا استجابة لإرادة قوةٍ ما فيه، لا يعرف قوانينها"[139].

هذا التصور الغني بالتقاليد والمألوف لدى فناني ذلك الزمان، خصوصًا تصوّر شوبنهاور عن الفنان بوصفه عبقريةً تُنفذ إرادة خفية فيه، كان لدى شونبرغ ممزوجًا بالإيمان بالتقدم الموسيقي وبالقناعة بأنه يجب أن يكون بالإمكان تبرير ما ينتج منه إذا كان الفنان "يستطيع المرة تلو الأخرى

---

(139) Arnold Schönberg, *Harmonielehre*, p. 497.

أن (ينزل) إلى مملكة اللاوعي المظلمة، لكي يُخرَج منه المضمون والشكل بوصفهما وحدة"[140]. في عام 1913، مع الانتصار الرائع للعرض الأول لـ "أغاني السجع" لشونبرغ في فيينا، كان الأخير قد ودع عالم الصوت للرومانسية المتأخرة، ووجد نفسه في أزمة مزمنة، لكنها لم تكن على الإطلاق غير مثمرة. استمرت المرحلة المتأزمة الخالية من اللامقامية من عام 1905 تقريبًا حتى بداية العشرينيات، عندما وجد الأفكار الجديدة التي تكفل وحدة الأعمال الواعية؛ أي أسلوب التأليف الموسيقي من خلال تركيب اثني عشر صوتًا فقط يتبع بعضها بعضًا. "حاجته إلى التعبير" جعلته يواصل العمل حيث كان غيره من الفنانين المهمين قد حاولوا من قبل كسر أسلوب التأليف الموسيقي المقامي. مع التقنية الاثني عشرية، وجد "الأشكال التي كان قد تلقاها و'كأنما في الحلم'"، وجعلها "واعيةً" والتحكم بها ممكنًا[141].

على الرغم من أن برغ هو من انجذب إليه أدورنو، إلا أنه اعتبر شونبرغ بكل سلطته المؤلف الموسيقي الحاسم الذي بدا أنه يمارس بدقة ما كان قد اعتمده هو، أي أدورنو، في إحدى أولى مقالاته النقدية الموسيقية، بمثابة مطلب: "انطلاقًا من الأنا وحدها [...] يمكن تجاوز الأنا، ولا يمكن أي غلاف موضوعي أن يحتوينا، يجب علينا أن نبني بيتنا بأنفسنا". بهذا القدر كانت خيبة أمل ابن الاثنين والعشرين عامًا المتحمس، من أنه لم يجد عند شونبرغ بالذات أي اعتراف. أدورنو الذي لم يكن فنانًا منتجًا مندفعًا نحو الإبداع، وفضلًا عن ذلك قليل الحيلة في التحليل التقني الذي كانت مدرسة شونبرغ تقدّره عاليًا، لم يبهر - وهو المثقل بـ "بضاعة فلسفية" و"جَدٍّ صارم"[142] - شونبرغ لا بوصفه مؤلفًا موسيقيًا، ولا بوصفه عالِمًا جماليًا في الموسيقى.

كان تقرير أدورنو عن لقائه بمثال آخر من مُثل شبابه، هو جورج لوكاتش، متناقضًا. قام أدورنو في حزيران/يونيو 1925 بزيارة توسطها تلميذ آخر لبرغ، هو سوما مورغنشترن، للوكاتش، المهاجر الذي كان يعيش يومذاك بالقرب من فيينا. كتب أدورنو إلى كراكاور: "كان انطباعي الأول كبيرًا وعميقًا، هو

(140) Arnold Schönberg, "Franz Liszts Werk und Wesen, 1911," in: *Stil und Gedanke*, p. 171.

(141) "Komposition mit 12 Tönen," in: Ibid., p. 75.

(142) Adorno, *Berg*, p. 45.

يهودي شرقي أشقر، صغير القامة، ناعمٌ وغير لبق، بأنفه التلمودي وعينين جميلتين لا يُسبَر غورهما، ويرتدي ثيابًا رياضية من الكتان ويبدو مثقفًا جدًا، لكنه محاطٌ بجو غير تقليدي كليًا صاف وباهت وناعم، لا ينفذ من خلاله من شخصيته إلا حياء خفيف. إنه يحقق مثال الوداعة، وبالطبع فكرة الشخص الذي لا يُمس أيضًا. شعرت حالًا بأنه خارج أي علاقة ما لم تكن علاقة إنسانية ممكنة، وتصرفت طوال الحديث الذي دام أكثر من ثلاث ساعات بموجب ما يقتضيه الجو، وكنت متحفظًا". أما مضمون الحديث، فقد وجده مخيبًا للأمل. "كذّب لوكاتش، بادئ الأمر، بشكل أساسي نظرية الرواية؛ فهي في نظره 'مثالية وأسطورية'، يتنافر معها 'تضمين' التاريخ عبر الجدل الماركسي". رفض رفضًا باتًا تفسير بلوخ لـ "نزعته اللاأدرية" - في مراجعته لكتاب لوكاتش **التاريخ والوعي الطبقي** في مجلة *Neuen Merkur* **(المركور الجديد)**، تشرين الأول/ أكتوبر 1923 - آذار/ مارس 1924، كان بلوخ قد وصف رفضَ لوكاتش للجوانية والميتافيزيقا بأنه "لاأدرية بطولية ومؤقتة وجدلية"، وتعبير عن "عسر التعالي المسؤول"، "ونفور من كل ميتافيزيقا تبني نفسها حقًا وتطلق التسميات جزافًا". "ما هو 'قشرةٌ' في نظر بلوخ، هو بالنسبة إليه [لوكاتش] كل العالم". أخيرًا هاجم لوكاتش كيركيغارد (Søren Kierkegaard) بغلاظة. "لا شك في أن نقده لهيغل يطاول هيغل الذي فهم نفسه خطأً على نحو شامل، لكنه لا يطاول هيغل في نسخته المطهّرة ماركسيًا. هو لا يعرف الموضوعي ولا التاريخ [...] إنه (وهنا غدا شامتًا كالمعتاد) ممثل أيديولوجي للبرجوازية الغارقة". صدمه لوكاتش في نقطة واحدة، حينما "أقرّ لي أن خصومه على حق في صراعه مع الأممية الثالثة، إلا أن مقاربته المطلقة للديالكتيك كانت ضرورية بصورة ملموسة وجدلية. في هذا الجنون تكمن عظمته الإنسانية ومأساة التحول"[143].

كان هذا انطباع أدورنو عن لقائه بلوكاتش الذي اتُّهم في عام 1924، في المؤتمر العالمي الخامس للأممية الشيوعية، بالانحراف اليساري، وانتُقد بعد ذلك بقليل كتابه **التاريخ والوعي الطبقي** من الجانب الشيوعي بسبب ميوله "المثالية" و"الميثولوجية"، والذي بدا أنه يندرج في الحزب الشيوعي البلشفي

(143) رسالة من أدورنو إلى كراكاور، 17 حزيران/ يونيو 1925.

مهما كان الثمن. قبل وبعد اعترافه بـ "النظرية الماركسية" التي أدت عنده، كما وعند بلوخ وبنيامين أيضًا، إلى إلغاء اللاهوت بدءًا بما هو خارجي ودنيوي، وجّه كراكاور نقدًا حادًا إلى **التاريخ والوعي الطبقي**. ففيه لا تتعالى المثالية المزهوقة، بل تستمر، ولا تصل الماركسية عبر حقائق واقعية، بل تُنتزع قوتها من طريق تغذيتها بفلسفة خاوية منتهية الصلاحية قُضِي فيها على كل الطاقات الثورية[144].

كتب مدير البنك جوزف فون لوكاتش إلى ابنه الوحيد، بعد وقت غير طويل من حصول ابنه البالغ من العمر 23 عامًا في عام 1908 على الجائزة المرموقة لجمعية كيسفالودي في بودابست على كتابه **تاريخ تطور الدراما الحديثة**: "ما أتمناه لك وأتمناه من خلال ذلك لنفسي هو أن تحافظ أيضًا إزاء أصدقائك على الموضوعية الهادئة التي تكون أحيانًا فظيعة إلى حد ما في قسوتها، تلك الموضوعية التي تستطيع أنت، وبقدر كبير، أن تُظهرها إزاء محيطك. تقول أنت بنفسك إنني أعطيتك ملء الحرية في تطورك، وفي اختيار طرقه. إنني أفعل هذا بوعي لأنني أثق بك بلا حدود، وأحبك بلا نهاية. إنني أضحي بكل شيء لكي أراك كبيرًا، معترفًا بك ومشهورًا، وسوف أبلغ أقصى سعادتي إذا قيل عني إنني والد جورج لوكاتش"[145].

استطاع والد لوكاتش، وهو ابن حرفي يهودي من الريف، أن يبلغ بقواه الذاتية، في زمن التصنيع المتسارع في بودابست، حيزًا برجوازيًا كبيرًا. وحصل، على مشارف القرن العشرين، على لقب نبيل. ترافقت هذه النجاحات مع نزعة سياسية محافظة ورعاية سخية للآداب والفنون. أما الابن الذي كان عليه أن يسير على خطى الوالد، فقد تقدم لنيل شهادة الدكتوراه بعد دراسته الحقوق والاقتصاد السياسي، وأصبح دكتورًا في علم الاقتصاد السياسي، وشغل منصبًا في وزارة التجارة الملكية الهنغارية. وبعد مدة قصيرة ترك هذا المنصب، ليتابع دراسة الأدب وتاريخ الفن والفلسفة. أضحى الوالدُ المتبرعَ السخي لابنه الذي أدار ظهره، مثل كثيرين من أبناء العائلات اليهودية البرجوازية الكبيرة التي ارتقت واندمجت بسرعة، للعالم المالي لأبيه، وأصبح منظّرًا معاديًا للرأسمالية.

---

(144) رسالة من كراكاور إلى بلوخ، 27 أيار/ مايو 1926، في:
Ernst Bloch, *Briefe*, vol. 1, pp. 274 ff.

(145) ذُكر في:
Karádi/Fekete, *Georg Lukács*, p. 33.

بتأثير من ديلتاي وزيمل، وضع لوكاتش في أثناء إقامته الدراسية في برلين في شتاء 1906/1907 الصيغة الأولى لكتابه **تاريخ تطور الدراما الحديثة**. كانت نقطة انطلاقه هي المقارنة بين المدينة اليونانية بوصفها التشكيلة الاجتماعية التاريخية التي كانت الثقافة قد بلغت فيها الواقع اليومي، والمجتمع البرجوازي الذي أدى فيه الإنتاج الفوضوي والمنافسة إلى اغتراب العمل، فجعلا الروابط أكثر تجريدًا وتعقيدًا والأفراد أكثر انعزالًا، ولم تعد الثقافة، بالمعنى الحقيقي للكلمة، ممكنة. أمام هذه الخلفية التي كانت مستوحاة من كتاب زيمل **فلسفة النقود**، ومن خلال هذا التشخيص للحداثة عبر تمييز تونيز (Ferdinand Tönnies) البراديغمي بين الجماعة والمجتمع، وصف لوكاتش الدراما الحديثة بأنها مرحلة بطولية على طريق انهيار الطبقة البرجوازية. وبوصفه ناقدًا مسرحيًا ومراسلًا لمجلات مختلفة ومشجعًا لمسرح حر في مسقط رأسه بودابست التي كان يعتبرها ريفية، حاول لوكاتش أن يقدم لها ثقافة غربية حديثة. كان مقياسه الأخير في ذلك رؤية فن كان "فن النظام الكبير، فن النصُب والتماثيل الضخمة"[146].

أصبح الابن رجلًا عظيمًا، كما تمنى الأب ذلك. وفعل ذلك مع الحفاظ تقريبًا على الموضوعية الفظيعة في قسوتها التي لا تعرف اللين. المرأة التي بدا أنها تجسد الحياة في نظره، ظن أن عليه التخلي عنها انطلاقًا من عدم القدرة على الحياة ومن الالتزام بالعمل الفذ. بعد انتحار هذا الحب الشبابي، الرسامة إيرما زايدلر، جعل في الحوار **حول الفقر في الروح** أحد المتحدثين يقول: "كان يجب أن تموت، لكي يكتمل عملي، ولكي لا يبقى لي شيءٌ آخر في العالم سوى عملي". أهدى لذكرى إيرما زايدلر كتاب **النفس والأشكال** الذي شكا في مقالاته من أنه في الحياة غير الجوهرية لم تكن ممكنة حياةٌ جوهرية ولا تواصل التواقين إلى الحياة الجوهرية. الأشياء الوحيدة التي برزت بوصفها "غامضة ويساء فهمها" من الحياة الروتينية التي لا تعاش، هي أعمال الفنانين والفلاسفة التي انطلقت من الحياة نفسها من جهة، و"الحياة المتشكلة" لأبطال الجوانية الذين لا يعتريهم الوهم بشأن حياة مغربة من جهة أخرى.

---

(146) Georg Lukács, *Entwicklungsgeschichte des modernen Dramas*, p. 359.

بعد إقامات طويلة في برلين وفلورنسا، انتهى الأمر بلوكاتش في عام 1913 إلى الاستقرار في هايدلبرغ مستجيبًا لإلحاح بلوخ الذي تعرّف إلى لوكاتش عند زيمل. ربط بين لوكاتش وبلوخ في تلك السنوات الرفض الجذري للعالم البرجوازي-الرأسمالي المغترب والعديم الثقافة، ومشروع الطوباويات الألفية المحافظة الدينية. وخلافًا لبلوخ سعى لوكاتش، في الوقت نفسه، لإيجاد توضيح فلسفي للمسائل الجمالية وتوضيح منهجي للعلاقة بين علم الاجتماع وعلم الجمال عند النظر إلى الأعمال الفنية. هذا المزج جلب له اهتمام وتعاطف ماكس فيبر الذي كان لوكاتش يتردد على حلقته.

كانت ردة فعل لوكاتش على الحرب التي رفضها منذ البداية انقطاعه عن العمل حول الجمال والبدء بعمل كبير حول دوستويفسكي، عمل كان يجب أن يحتوي، في الوقت نفسه، على أخلاقه الميتافيزيقية وعلى فلسفة التاريخ، وكان يأمل أن يُبرهن به أنه مفكر كبير يتجاوز المثالية الألمانية، ويُكمل فلسفيًا شعر دوستويفسكي كما أكملت المثالية الألمانية، بالطريقة نفسها، شعر الكلاسيكيين والرومانسيين الألمان. "كانت 'روسيا'" - وفق فيرنك فيهر (Ferenc Fehér) بخصوص مخطط كتاب لوكاتش عن دوستويفسكي وملاحظاته ورسوماته لهذا العمل - "بلد الثورة التي تقترب، وأمل 'الجماعة' وحاملها: كان هذا جواب لوكاتش الأسطوري والجذري على 'أوروبا الغربية' التي تجمدت في الروح الموضوعي والفرد الإشكالي، والتي كان موقفها في الحرب العالمية علنًا، وبوضح النهار، موقفًا لا مخرج منه. كان على 'روسيا' هذه أن تكون، بالنسبة إلى 'أوروبا الغربية'، 'النور الآتي'"[147]. لم يُنجَز إلا القسم الأول وهو عبارة عن مدخل، وقد نُشر بعنوان **نظرية الرواية**. أهدى لوكاتش الكتاب إلى زوجته الأولى يلينا غرابنكو التي كان قد تزوجها في عام 1914، وهي إرهابية روسية سابقة، سُجنت طوال سنين عديدة، وكانت، بحسب قول صديق لوكاتش بيلا بالاش، "مثالًا رائعًا لشخصيات دوستويفسكي"، وبالنسبة إلى لوكاتش، "محطة تجربة، وتحقق إنساني لمشكلاته وأوامره الأخلاقية"[148].

(147) Ferenc Fehér, "Am Scheidung der romantischen Antikapitalismus," in: Agnes Heller et al., *Die Seele und das Leben*, p. 301.

(148) ذُكر في:

Karádi/Fekete, *Georg Lukács*, p. 62.

بعد تأسيس الحزب الشيوعي الهنغاري بقليل، ظهرت في كانون الأول/ ديسمبر 1918 في مجلة *Szabadgondolat* التابعة لحلقة غاليلي للمثقفين البرجوازيين اليساريين، في عدد خاص حول البلشفية، مقالة للوكاتش بعنوان "البلشفية كمشكلة أخلاقية". في المقالة، حسم لوكاتش أمره ووقف ضد البلشفية، لأنه - هكذا حجته التي كانت مفاجئة لإنسان كان معجبًا بحكمة يوديت في مسرحية هيبل (Christian Hebbel) وأُعجب به: "إذا كان الله قد وضع الخطيئة بيني وبين الفعل المفروض عليّ، فمن أكون أنا كي أستطيع أن أتهرب منه؟" - لا يستطيع أن يتشارك الاعتقاد بأنه من الدكتاتورية والإرهاب ومن حكم طبقي أخير لا يعرف الرحمة سوف تأتي نهاية كل حكم طبقي؛ ولأنه لا يستطيع أن يتبنى "التأسيس الميتافيزيقي للبلشفية" بأن الخير يمكن أن ينشأ من الشر، أو كما يقول رازوميخين في رواية دوستويفسكي **الجريمة والعقاب**: "بإمكان المرء أن يقوى على الحقيقة بالكذب"[149]. انتمى إلى الحزب الشيوعي الهنغاري في منتصف كانون الأول/ ديسمبر بعد أن أخبرته جامعة هايدلبرغ برفض رسالته المقدمة لنيل شهادة التأهيل للأستذة لكونه أجنبيًا. بعد اعتقال اللجنة المركزية الأولى التي كان على رأسها بيلا كون في شباط/ فبراير 1919، انتُخب لوكاتش عضوًا في اللجنة المركزية وعضوًا في لجنة تحرير الصحيفة المركزية الناطقة بلسان الحزب. وعندما سلمت الحكومةُ البرجوازية في آذار/ مارس السلطةَ بإرادتها إلى تحالف الاشتراكيين الديمقراطيين والشيوعيين، أصبح لوكاتش في الحكومة الهنغارية الشيوعية القائمة من آذار/ مارس حتى آب/ أغسطس نائب مفوض الحكومة الشعبي للتربية، ثم لاحقًا المفوض السياسي للفرقة الخامسة في الجيش الأحمر الهنغاري.

أظهرت أولى مقالات لوكاتش بعد انضمامه إلى الحزب الشيوعي الهنغاري أن التحول من ناقد لثقافة المجتمع البرجوازي-الرأسمالي إلى ماركسي وشيوعي يعني استمرارًا في الأشياء المهمة، وأن لوكاتش كان يسعى إلى جعل الشيوعية قضيته، بالقدر نفسه على الأقل الذي انضم فيه إلى الشيوعية. ومن نقد ثقافة المجتمع البرجوازي-الرأسمالي، نشأ التفسير الثقافي الثوري للانقلاب الشيوعي. في ذكر سابق للبروليتاريا والاشتراكية، كما بقيت تظهر في كتابه **البلشفية كمشكلة أخلاقية**، انتقد لوكاتش إما غياب "قوة دينية تملأ كل النفس"، أو الطابع الأيديولوجي المحض لوضع هدف

(149) Georg Lukács, "*Bolschwewismus als moralisches Problem*," in: *Brecht-Jahrbuch 1979*, p. 18.

نظام العالم الاشتراكي من منظور فلسفي تاريخي-أخلاقي. وراح يُعلن الآن أن ثورة ثقافية وروحية هي جوهر صراع الطبقات البروليتاري. من خلال يقظة الوعي الذاتي للبروليتاريا، أي الوعي الطبقي، تكون - برأي لوكاتش - عملية التطور الاجتماعي برمتها قد وصلت إلى الوعي، وتمتلئ الحياة العادية بالحياة الأساسية، ويغدو البشر فاعلين في الواقع الحقيقي. أمام هذه الدكتاتورية الشيوعية، قال لوكاتش في خطبة ألقاها في حزيران/ يونيو 1919 في مؤتمر العمال الشباب إن الصراع من أجل التعليم والثقافة لم يكن إلا هدفًا من بين أهداف كثيرة. والهدف النهائي الآن هو "أن يتم القضاء على استقلالية الحياة الاقتصادية الآثمة والمشؤومة، وأن توضع الحياة الاقتصادية والإنتاج في خدمة البشرية، وفي خدمة الأفكار الإنسانية والثقافة. إذًا، إذا خرجتم أنتم من الصراع الاقتصادي، وكرّستم أنفسكم للثقافة، فإنكم تكرسون أنفسكم لذلك الجزء من إدارة المجتمع الذي سوف يشكل الفكرة السائدة لمجتمع مستقبلي"[150]. حاول لوكاتش بوصفه نائب مفوض الشعب للثقافة والتعليم أن يجعل الفنانين في منأى عن بيع أو عدم بيع أعمالهم الفنية، وبذلك يتغلب على الطابع السلعي للأعمال الفنية. هكذا وُضِع الفن في أيدي الفنانين، وجرى، على سبيل المثال، تشكيل إدارة للموسيقى مؤلفة من بيلا بارتوك وزولتان كودالي وإرنست فون دوناني. إذا ما تحرر الفن يومًا من طابعه السلعي، ووُضِع الاقتصاد في خدمة الثقافة، ونجح الدفاع العسكري عن الجمهورية الشيوعية، عندئذ، تكون الحياة الجوهرية ممكنة من جديد، كما كان يأمل لوكاتش الثوري ذو الأعوام الأربعة والثلاثين من العمر.

بعد انهيار الجمهورية الشيوعية نتيجةً للهجمات العسكرية للرومانيين المدعومين من دول الوفاق الثلاثي، هرب لوكاتش إلى فيينا. كان لوكاتش في بداية هجرته إلى فيينا عضوًا قياديًا في الحزب الشيوعي الهنغاري ورئيس تحرير مجلة *Kommunismus* **(الشيوعية)**، المجلة الرسمية النظرية للأممية الثالثة لجنوب شرق أوروبا. أوقفت المجلة من الصدور في تشرين الأول/ أكتوبر 1921 بأمر من اللجنة التنفيذية للكومنترن بسبب عدم ولائها. فقام لوكاتش في عام 1923 بنشر بعض مقالاته المنشورة في مجلة **الشيوعية**، ومعها، قبل كل شيء، مقالته "التشيؤ ووعي البروليتاريا" في كتاب بعنوان **التاريخ والوعي الطبقي: دراسات في الجدلية الماركسية**.

(150) Lukács, *Werke*, vol. 2, p. 81.

كان هذا الكتاب، بالنسبة إلى لوكاتش، بمثابة مجموع مؤقت لمحاولته فهم الشيوعية، أو بالأحرى الماركسية، كعمل يحل محل نظام المجتمع الذي أصبح بلا روح نظامًا له روح. يشير عنوان الكتاب إلى الموضوع الرئيسي لمقالاته المختلفة، وفيه يرمز "التاريخ" إلى العملية التي يبدو فيها وكأن العناصر الجامدة والطبيعية والمشيّأة في البناء الاجتماعي قد انحلت. "طبيعة التاريخ تحديدًا هي أن كل تعريف ينزلق إلى وهم؛ فالتاريخ هو بالضبط تاريخ التحول المتواصل لأشكال التشيؤ التي تشكل وجود البشر"[151]. وكان "الوعي الطبقي" يرمز إلى اكتشاف فاعل الكلية الاجتماعية الذي يجب أن يكون قادرًا على تحقيق "إعادة اكتساب العلاقات غير المشيّأة بين الإنسان والإنسان، وبين الإنسان والطبيعة"[152]. "الطبقة حصرًا (وليس 'الجنس'، لأنه ليس سوى فرد تأسطر وتشكل بروح التأمل) هي التي تستطيع عمليًا أن تحيل على كلية الواقع بطريقة ثورية. والطبقة وحدها هي التي بمقدورها أن تفعل ذلك حينما تستطيع أن ترى في الموضوعية المشيأة للعالم المعطى، العالم المكتشف، عمليةً هي قدرها الخاص في الوقت ذاته"[153]. ولتحقيق صورة التفكير الهيغلية هذه، لم تكن تصلح في نظر لوكاتش إلا طبقة واحدة هي البروليتاريا. "النفي المجرد البحت في وجود العامل ليس، إذًا، شكل ظهور التشيؤ الأكثر نمذجة موضوعيًا، المثال التركيبي لإضفاء الطابع المجتمعي الرأسمالي، فحسب، بل - ولهذا السبب بالذات - هو ذاتيًا النقطة حيث يمكن أن تُرفع هذه البنية إلى الوعي وتُخترق بهذه الطريقة عمليًا"[154]. لم يرَ لوكاتش الأمر الحاسم في عملية ثورية تقودها معرفة ويدفع إليها استياء، بل في معرفة، كانت عملية بوصفها معرفة، وفي فعل اكتساب الوعي من حيث هو فعل في ذاته. إن ربطه نظرية العقلنة لماكس فيبر ونظرية صنمية السلعة لكارل ماركس بفلسفة التاريخ المثالية حول صراع الطبقات، هو ما جعل من المقالة الطويلة عن "التشيؤ ووعي البروليتاريا" المقالةَ الأكثر تأثيرًا في المجلد بأكمله.

---

(151) Ibid., p. 372.

(152) Ibid., p. 414.

(153) Ibid., p. 380.

(154) Ibid., p. 357.

رحّب كثيرٌ من الشيوعيين - من بينهم، طبعًا، كارل كورش قبل أن يتم رسميًا تجريم لوكاتش في المؤتمر الخامس للكومنترن، ومعه فيتفوغل على سبيل المثال - بكتاب **التاريخ والوعي الطبقي** بوصفه مظهرًا لماركسية ثورية وناشطة. في السنوات اللاحقة أصبح الكتاب، بالنسبة إلى كثير من المثقفين الشباب سببًا للبقاء مدة أطول في الحزب الشيوعي الذي غدا في غضون ذلك بلشفيًا، أو سببًا للانضمام إليه أو على الأقل للتعاطف مع القضية الشيوعية. كان لوكاتش وهايدغر، بحسب ما يذكر فيلي شترتسيليفيتش - وهو أحد الدكاترة الشيوعيين المرشحين لمعهد البحث الاجتماعي قبل العام 1933 - أهم فيلسوفين بالنسبة إليه وإلى أصدقائه. والسبب في ذلك أن كليهما كان يضع الاغتراب في مركز النقاش الفلسفي، وكليهما أخذ جديًا الفلسفة من حيث هي شيء كان يقترب في صورته القديمة من نهايته، لكي يؤدي بصورة جديدة دورًا حاسمًا في تحقيق حياة أصيلة وحقيقية.

بالنسبة إلى كراكاور، لم تكن الصورة الجديدة جديدةً بما يكفي، ولم تتحول المثالية بشكل كاف. فـ "الطريق اليوم لا يمر إلا عبر المادية المخططة"، هكذا كتب كراكاور في رسالة سجالية مع بلوخ حول **التاريخ والوعي الطبقي**[155]. قاده موقفه الخاص، المترقب نوعًا ما، إلى تجريبية تجميعية تقريبًا ومتحفظة في البناء النظري. أما أدورنو فقد تعرف بواسطة لوكاتش إلى تفكير في فلسفة التاريخ ألهمه في نهاية العشرينيات في أفكاره حول فلسفة الموسيقى وحول التقدم الموسيقي من دون أن يكون المصدر الذي كان قد تعلّم أن يحتقره من خلال الحكم القاسي لمرشده كراكاور، واضحًا بالنسبة إليه. إلا أن مؤلف **التاريخ والوعي الطبقي** الذي زاره في عام 1925، لم يعد حتى مستعدًا للدفاع عن محاولته الهيغلية للدفاع عن إحياء المحتوى الفلسفي للنظرية الماركسية.

معتبرًا نفسه كفوءًا للكتابة حول الموسيقى أكثر من التأليف الموسيقي، وشاعرًا بعدم الاعتراف بما يكفي من حلقة شونبرغ، ومستاء من فيينا التي أخذ عليها تخلفها الاقتصادي وغباءها الثقافي، ومفعمًا بالحنين إلى فرانكفورت والشوق إلى الصديق كراكاور، عاد أدورنو في صيف 1925 إلى المدينة

---

(155) رسالة من كراكاور إلى بلوخ، 29 حزيران/ يونيو 1926، في:
Bloch, *Briefe*, vol. 2, p. 283.

التي وُلد فيها، ومن بعدها لم يعد إلى فيينا إلا في زيارات متقطعة نادرة. لم يكن عندئذ قد تخلى بعد بشكل نهائي عن مشروع أن يصبح موسيقيًا، لكنه تراجع عنه، أكثر فأكثر، لمصلحة الأمل بمسيرة أكاديمية كفيلسوف، وربما مع التركيز على علم الجمال. ومع هذا كله ثبّتت الإقامة في فيينا بصورة نهائية الدور المفتاحي للموسيقى الجديدة هناك بالنسبة إلى تفكير أدورنو الجمالي والفلسفي، وكان، بوصفه مشاركًا في أهم المجلات الموسيقية، مثل *Zeitschrift für Muzik* (**مجلة الموسيقى**)، و*Die Muzik* (**الموسيقى**)، و*Pult und Taktstock* (**المِنصة وعصا الإيقاع**)، و*Muzikblätter des Anbruch* (**أوراق موسيقى الفجر**)، مناضلًا في مدرسة شونبرغ. وبقي من خبراته الأساسية أنه ليس بالإمكان إلا لرجل مهتم بالفن ويعترف بالمَلَكية والنبلاء، مثل شونبرغ، أن يُحدِث ثورةً في الموسيقى.

في صيف 1927، أنهى أدورنو عملًا ضخمًا في **مفهوم اللاوعي في علم النفس الترانسندنتالي**، أراد أن يحصل به على أهلية التدريس الأكاديمي بإشراف كورنيليوس. وقف مرةً أخرى من دون تحفظ على أرضية الفلسفة الترانسندنتالية لكورنيليوس. وكان الدافع إلى نشأة هذا، غالبًا، اعتبارات استراتيجية. كان لهذه الاعتبارات سببٌ مباشر؛ ذلك أن فالتر بنيامين الذي تعرّف إليه أدورنو في عام 1923 من خلال كراكاور، والتقى به بعد ذلك مرارًا في أثناء إقاماته في فرانكفورت، كان قد أخفق في محاولته الحصول على أهلية التدريس الأكاديمي في فرانكفورت بعمل عن **أصل المسرح التراجيدي الألماني**. طُلب من كورنيليوس، بوصفه عالمًا في الفن، أن يقدم تقريرًا، فتوجّه برسالة إلى المؤلف طالبًا منه المساعدة وراجيًا منه أن يوضح له المحتوى الفني العلمي لعمله. في النهاية، وصف كورنيليوس اللطيف ومساعده هوركهايمر العمل بأنه غير مفهوم. لم ينشأ ارتباط أدورنو بفلسفة كورنيليوس الترانسندنتالية من اعتبارات استراتيجية فحسب، بل كان نابعًا أيضًا من واقع أنه - كما كتب في شباط/فبراير 1928 إلى كراكاور الذي اقترح عليه أن يتقدم لنيل شهادة التأهيل بعمل في فلسفة الموسيقى بإشراف ماكس شلر - لم يكن يثق بعد بقدرته على "استعمال عمل حقيقي كأطروحة للحصول على شهادة التأهيل للأستذة".

لكن عمل أدورنو، على الرغم من أن كتابته له كانت تفتقر إلى متعة كبيرة، جالبًا كل شيء قسرًا إلى السرير البروكروستي لنظرية كورنيليوس في المعرفة، أظهر مع ذلك بوضوح ما كان يحركه، أي الحماسة إلى "أولوية الوعي"[156]، وإلى مفهوم شامل للعقلانية. فسّر مفهوم اللاوعي كتعيّن حديّ للمعرفة[157] من جهة، وكوصف للوقائع اللاواعية التي يمكن إرجاعها إلى الوعي. واعتبر التحليل النفسي الفرويدي العلمَ التجريبي للاوعي، هذا العلم الذي ملأ الأطر المحددة بالفلسفة الترانسندنتالية. "لهذا السبب نقدر عاليًا أهمية التحليل النفسي، لأنه يخدم معرفة اللاوعي تلك من دون أن نُثقل اللاوعي بعاطفة ميتافيزيقية لا يستحقها، ولأن معرفته نفسها موجهة نحو حل الوقائع غير الواعية نفسها، وبهذا تشكل سلاحًا ماضيًا ضد كل ميتافيزيقا الغرائز وتأليه حياة غامضة ومحض عضوية"[158].

ظهر في هذه الحماسة لمفهوم عقلانية موسع، مرة أخرى، تأثيرُ كراكاور بشكل خاص. فمنذ منتصف العشرينيات رأى مرشد أدورنو - وهو ما صاغه بأكبر ما يكون من الإيجاز، في مقالة نُشرت في **صحيفة فرانكفورت** في عام 1927 بعنوان "زينة الجماهير" - أن عاهة الرأسمالية الحاسمة تكمن في أنها لا تُعقلِن بصورة كافية، وأنها تتوقف عند التفكير القادر على استغلال الطبيعة، وتستبعد "مضامين الحياة الحقيقية" من مفهوم العقلانية.

في النهاية أعطى أدورنو أطروحته انعطافة ماركسية مفاجئة. وأثبت أن نظريات اللاوعي التي انتقدها خدمت بوصفها أيديولوجيات، رفعت تارةً النظام الاقتصادي السائد، وأعرضت عنه تارة أخرى، وأن هذه العلاقات الاجتماعية التي تتسم بـ"الصراع التنافسي الاقتصادي" و"النزعات الإمبريالية" تُشكّل حدود كل تنوير. باختصار، اعتنق، من غير أن يسميها بالاسم، النظرية الماركسية التي تقول بأن الوعي تحدده الكينونة الاجتماعية.

---

(156) Adorno, *Gesammelte Schriften*, vol. 1, p. 91.

(157) Ibid., p. 222.

(158) Ibid., p. 320.

لم يقبل كورنيليوس الأطروحة. فبعد أن فرغ من قراءة الثلثين الأولين منها، تبيّن له بوضوح أن العمل لا يعدو كونه "تكرارًا بسيطًا لما كان قد تعلمه (أدورنو) من محاضراتي وكتبي، على الرغم من تزيين العمل بكلمات كثيرة"[159]. سحب أدورنو "طلبه" شهادة التأهيل للأستذة، غاضبًا بصورة خاصة من هوركهايمر الذي اتهمه بأنه لم يبذل كل ما في وسعه من أجل أطروحته، لأنها لم تكن في نظره ماركسية بما يكفي. "في عام 1927، نشأ عملٌ آخر أكبر حول نظرية المعرفة بقي غير منشور"، عملٌ وصف أدورنو مجراه في السيرة الذاتية التي أرفقها بعد سنوات قليلة بطلب لنيل شهادة التأهيل للأستذة مرة أخرى.

تابع أدورنو، في هذا الوقت، يسنده ماليًا والده السخي والمتسامح، دراساته الخاصة من جديد، وكان يأمل أن يصبح ناقدًا موسيقيًا. كان منذ عام 1927 يحضر مرارًا إلى برلين. هناك كانت تعيش صديقته غريتل كاربلوس التي كانت صديقة بنيامين أيضًا. وهناك كان يجتمع ببنيامين وبلوخ وبريخت وكورت فايل ولوته لينيا، وغيرهم. حاول هناك عبثًا أن يحصل على وظيفة ناقدٍ موسيقي في صحيفة *Bildzeitung* (**بيلدتسايتنغ**) لأولشتاين. أصبح الآن فالتر بنيامين، بالنسبة إليه، أهم من كراكاور، وكان يلتقيه إبان إقامته في فرانكفورت، كما في أثناء إقامته هو في برلين.

"فيكرزدورف ملجأ واعٍ لثقافة حقيقية"، هذا ما كتبه فالتر بنيامين البالغ من العمر سبعة عشر عامًا في رسالة إلى الصهيوني ومترجم الأدب اليهودي الشرقي لودفيغ شتراوس ذي الأعوام السبعة عشر أيضًا. أسس غوستاف فينيكن (Gustav Wyneken) مع آخرين في عام 1906 مجتمع المدرسة المجاني، وكان أحد أبرز قادة الحركة الشبابية، لكن لم يكن يسانده إلا فريق قليل من هذه الحركة. يمكن اختصار أفكاره بشعارات: فكرة الشباب، وفكرة ثقافة الشباب، وفكرة قائد الشباب. تعرف إليه فالتر بنيامين المولود في عام 1895 في برلين، عندما أمضى سنتين (1905-1907) في بيت الشباب في هاوبيندا في تورينغن، حيث كان فينيكن معلمًا لمدة طويلة. جاء بنيامين

(159) كورنيليوس موجهًا كلامه إلى زملائه في كلية الفلسفة، 1 آب/ أغسطس 1928، ملف تيودور أدورنو لدى كلية الفلسفة.

إلى هاوبيندا لأن المدرسة الثانوية كانت تسبب مشكلات للشاب المحمي الذي كان يتلقى من قبل دروسًا خصوصية في حلقة صغيرة من أطفال الأسر الرفيعة. كانت الدروس الخاصة التي تُعطى بشكل خاص في المدرسة الابتدائية المُعدة للمدرسة الثانوية تبدو للوالد لائقة بمكانتهم الطبقية، هو الذي تحدر من عائلة تجار يهود انتقلت بعد الحرب الألمانية - الفرنسية إلى العاصمة الناهضة لرايخ الإمبراطور فيلهلم، وبلغ به المطاف من دلّال ومشارك في بيت لبيع الأعمال الفنية بالمزاد العلني، إلى حياة البرجوازية الكبيرة. "في وضع الثقة بالشباب" - بحسب بنيامين الـ "فينيكني"، العضو منذ عام 1910 في هيئة تحرير مجلة الطلبة *Der Anfang* (**البداية**) التي تنشر أفكار فينيكن - "الذي عليه أن يتعلم تدريجًا العمل على أخذ نفسه على محمل الجد، وتثقيف نفسه بنفسه؛ فالبشرية بثقتها بهذه الشبيبة إنما تثق بمستقبل البشرية، باللاعقلاني الذي لا تستطيع إلا أن تحترمه، وبالشبيبة التي لا تمتلئ كثيرًا بروح المستقبل فحسب - كلا! - إنهم ممتلئون بالروح بشكل عام، الشبيبة التي تشعر في داخلها بفرح وشجاعة أن تكون حاملة الثقافة الجديدة"[160].

درس بنيامين منذ عام 1912 الفلسفة والأدب الألماني وعلم النفس بالتناوب في فرايبرغ في برايزغاو وفي برلين. وكعامل في هيئة تحرير مجلة **البداية**، وعضو مشارك في "صالون نقاش الشباب" في برلين - وهو مركز للشباب للإعلام والنقاش حول المدرسة وبيت الأهل، والفن والشهوة - وكعضو في "جمعية الطلاب الحرة" - وهي تمثل الطلاب غير المنتمين إلى هيئة الجمعية الطلابية - بهذه الصفة كان يتحرك في أوساط لم يكن اليهود ممثلين فيها بأكثر من عددهم بشكل واضح. كان هذا يعود، قبل كل شيء، إلى أنهم كانوا مبعدين عن تنظيمات أخرى، أو لم يُقبلوا فيها إلا على مضض، أو كان هذا يعود جزئيًا إلى أن تلك التنظيمات الأخرى لم تكن تكفيهم. كان بنيامين واعيًا بأنه "أينما كنت أتوجّه بأفكار نحو الخارج، في الشأنين الروحي والعملي، كنت ألتقي في معظم الأحيان يهودًا". استنتج بنيامين من ذلك أن اليهودية "ليست بأي شكل من الأشكال غاية في حد ذاتها"، وأنها "حامل الحياة الروحية الأكثر وجاهة وممثلها"[161].

(160) Walter Benjamin, "Die Schulreform, eine Kulturbewegung, 1912," in: *Gesammelte Schriften*, vol. 2, p. 891.

(161) رسالة من بنيامين إلى شتراوس، 21 تشرين الثاني/ نوفمبر 1912، في:
Walter Benjamin, *Gesammelte Schriften*, vol. 2, p. 839

من بين "الأدباء" الذين رأى فيهم حاملًا آخر للروحي، اعتقد في العام ذاته في مقالة لم تُنشر عنوانها "حوار في تديّن الحاضر"، ظهر فيه، في تشابه واضح مع نقاد آخرين للحداثة مثل لوكاتش الشاب على سبيل المثال، أساس أفكاره الذي يتمثل في الحنين إلى تجديد السلطة الموحدة للثقافة، وللحياة الروحية والدين: "يريدون أن يكونوا هم الصادقين، ويريدون عرض حماستهم للفن، و'حبهم الأبعد'، كي نقول مع نيتشه، لكن المجتمع يرفضهم؛ هم أنفسهم عليهم أن يقضوا، بنوع من تدمير الذات المَرَضي، على كل ما هو مفرط في إنسانيته، ويحتاج إليه الكائن الحي. هكذا تكون تلك القيم في الحياة عقيمةً، هذه القيم التي تريد أن تكون عملية في التقليد، وهكذا تحكم على عدم صدقيتنا بأن نكون خارج المجتمع وتحكم على حماستنا الزائدة التي تجعلها عقيمةً. ولن نستطيع أبدًا أن نُدخل الروح إلى التقاليد، إن لم نكن نريد أن نملأ أشكال الحياة الاجتماعية هذه بروحنا الشخصية. يساعدنا في ذلك الأدباء والدين الجديد. يُعطي الدين أساسًا جديدًا ونُبلًا جديدًا للحياة اليومية وللتقليد. يصبح الدين عبادة. ألا نتعطش إلى تقليد روحي تعبدي؟"[162].

اغتنم بنيامين في عام 1915 فرصة حماسة فينيكن للحرب لكي ينفصل عنه. كان السبب الحاسم هو ذاته ذاك الذي دفع بنيامين في عام 1914 إلى الابتعاد عن مجلة **البداية**: أي رأى أن التسيّس يعرّض توجّهه الروحي للخطر. وضعت الحرب والانهيار المؤقت لحركة الشباب نهاية لالتزامه بالشباب. غير أن انكبابه على ما هو روحي واحتقاره عالم الفيلستينيين[163] كانا يزدادان أكثر. ويصف الموقف الذي وصل إليه بمزج هذين العنصرين صديقُه غرسهوم شولِم الذي عاش بين عامي 1918 و1919 قريبًا من بنيامين وزوجته اللذين انتقلا قبل الحرب إلى برن، حيث أراد شولم أن يتقدم لنيل شهادة الدكتوراه. "كان ما حوله نوع من النقاء واللامشروطية، وانكباب على ما هو روحي كما هو لدى كاتب تاه في عالَم آخر وهو يبحث عن 'كتابه'. كانت أزمة بالنسبة إلي، عندما كان عليّ أن أعرف حدودهما في التعامل القريب [...]. كان موقف بنيامين من العالم البرجوازي لا يخامره أي تحفّظ، هذا ما كان يُغضبني، وكان يحمل ملامح عدمية. لم يكن يعترف

(162) Ibid., pp. 28 f.

(163) كارهو الثقافة، ذوو النزوع المادي. (المترجم)

بمقولات أخلاقية إلا في مجال الحياة الذي بناه حوله وفي العالم الروحي [...]. كان بنيامين يُعلن أن بشرًا مثلنا ليسوا ملزمين إلا بمن هم مساوون لهم، لكن ليس بقواعد مجتمع نرفضه"[164].

كان بنيامين يرى مستقبله - بحسب شولِم - أستاذًا للفلسفة. لكن بنيامين أكد، في نص منشور في عام 1915 بعنوان "حياة الطلبة"، أن "على الفلسفة الحقيقية ألا تهتم بتساؤلات الفلسفة التخصصية العلمية المحدودة، بل عليها أن تنصرف إلى الاهتمام بالمسائل الميتافيزيقية لأفلاطون وسبينوزا، وللرومانسيين ونيتشه"[165]. عرفت هذه التصورات تعيّنًا في مخطوط كتبه بنيامين في عام 1917 بعنوان "حول برنامج الفلسفة المقبلة". ما كان يدور في مخيلة بنيامين الذي سبق أن وصف الشبيبة الجديدة بـ "الرزانة والرومانسية" هو: الجمع بين حصافة كانط الذي لم يكن ينفي عن الفلسفة مطلب العمق والذي كَتب مقدمات للميتافيزيقا، وبين الرومانسية التي كانت تصر على مصالحة المشروط مع اللامشروط، والتي، من أجل الأمور العليا، ما كانت تريد الاتكال على العواطف وحدها. أسّس كانط - كما رأى بنيامين - تجربة قليلة القيمة. ما كان يجب فعله الآن "استعمال ما كان نموذجيًا في أسلوب التفكير الكانطي لتأسيس معرفي نظري لمفهوم أعلى للتجربة"، مفهوم "لا يجعل التجربة الميكانيكية وحدها ممكنة منطقيًا فحسب، بل التجربة الدينية أيضًا"[166]. ووفق واحدة من صياغات بنيامين المتطرفة في تلك الفترة نَقَلها شولم، فإن "الفلسفة التي لا تستطيع أن تشمل إمكانية التنبؤ المستقبلي من قاع فنجان القهوة ولا تستطيع أن تفسره، لا يمكن أن تكون صحيحةً".[167] هذا شاهدٌ على سلوك جسور مماثل تجاه الخفيّ والغامض، كما وضّحه بلوخ الذي تعرف إليه بنيامين في عام 1918 في برن.

شكلت رسالة بنيامين **مفهوم نقد الفن في الرومانسية الألمانية**، التي نال بها شهادة الدكتوراه في عام 1919، حجر أساس لعرض برنامجه. قدم فيها موضوع عمله بشكل بدا وكأنه نموذجٌ لتجربة عليا مفكَّر فيها بطريقة رزينة. وقد جاء في الصفحات الأولى: "حالما ادعى تاريخ الفلسفة عند كانط،

---

(164) Gershom Scholem, *Walter Benjamin*, pp. 70 f.

(165) Benjamin, *Gesammelte Schriften*, vol. 2, p. 82.

(166) Ibid., pp. 160, 164.

(167) Scholem, *Walter*, p. 77.

بوضوح وإصرار، وإن لم يكن أول مرة، إمكانية إدراك الحدس العقلي واستحالته في حقل التجربة في آن، برزت في الوقت نفسه محاولات متنوعة، ومحمومة تقريبًا، تسعى لإعادة هذا المفهوم إلى الفلسفة كضمانة لمطالبها العليا. بدأت هذه المحاولات مع فيخته وشليغل ونوفاليس وشَلينغ"[168]. لم ير الرومانسيون الأوائل في الأعمال الفنية في الأنا الوسط المطلق للتفكير، كما فعل فيخته. "تطوير التفكير [...] في لوحة"، وهذا "الارتقاء بالوعي" حددهما الرومانسيون مهمةً لنقد الفن. لم يكن على النقد أن يعمل أكثر ولا أقل "من أن يكشف البنى الخفية للعمل الفني نفسه، وأن ينجز مقاصده الخفية [...] ويجعله مطلقًا. من الواضح أن النقد، بالنسبة إلى الرومانسيين، ليس حكمًا على عمل فني بقدر ما هو طريقة لإتمامه"[169]. وختم بنيامين رسالته الجامعية بالقول: "الطريقة النقدية في إضفاء الإطلاقية على العمل الفني الإبداعي يمكن أن تدرك حسيًا في صورة بوصفها خلق الإبهار في العمل. هذا الإبهار - الضوء الراجح - يجعل كثرة الأعمال تنطفئ. هذه هي الفكرة"[170].

كان الكثير في لغة هذا العمل يعتبر أن ما كان بنيامين قد صاغه في **برنامج الفلسفة المقبلة** بوصفه النسخة الأخيرة من مطلبه، كان قد تحقق سلفًا: "خلق مفهوم معرفة على أساس المنظومة الكانطية يتطابق معه مفهوم تجربة تكون فيه المعرفة نفسها نظرية. إن فلسفة مثل هذه إما أن يوصف الجزء العام منها بكونه لاهوتًا، وإما أن يتقدم على اللاهوت بسبب اشتماله نوعًا ما على عناصر فلسفية تاريخيًا"[171]. أصبحت لغة علم اللاهوت مميزة لبنيامين. وقد سمحت له أن يعمل بطريقة مثمرة ومحرضة بأدوات كانت لديه هو نفسه شكوك في متانتها وطرق عملها. لهذا السبب وصفه أدورنو في رسالة كتبها إلى كراكاور في 14 أيلول/ سبتمبر 1929 بـ "خديعة السماء".

كان العملان الكبيران اللذان نشرهما بنيامين في العشرينيات، **الأنساب المختارة لغوته** و**أصل المسرح التراجيدي الألماني**، نصين فلسفيين بروحية كتابه عن نقد الفن. قُصد من هذين العملين ومعهما شهادة التأهيل للأستذة،

(168) Benjamin, *Der Begriff der Kunstkritik in der deutschen Romantik*, p. 15.

(169) Ibid., p. 63.

(170) Ibid., p. 113.

(171) Benjamin, *Gesammelte Schriften*, vol. 2, p. 168.

أن تكون حججًا تقنع الأب الذي ألح على ابنه التعلق بمهنة برجوازية أن يجعل بدلًا من ذلك عيشه كعالم مستقل ممكنًا على الدوام.

كان كتاب **الأنساب المختارة لغوته** محاولة من بنيامين لأن "يضيء عملًا إلى حد بعيد انطلاقًا من ذاته"(172)، أي أن يقوم بما كان يدعوه الرومانسيون "الإكمال" أو "إضفاء الإطلاقية"، وبما كان قريبًا مما سُمي في التقليد الهيغلي نقدًا محايثًا. يُضاف إلى ذلك أن بنيامين قارن شركاء الرواية الأربعة بالمحبَّين الاثنين اللذين ذُكِرا في إطار الرواية في قصة **أولاد الجيران الغريبو الأطوار**. يعيش الشركاء الأربعة في الرواية - هكذا عرض بنيامين ذلك - في عالم تحكمه القوى الأسطورية للقانون والطبيعة. الفتور تجاه زواج منهار، النور الخافت الذي يغمر المشهد بأكمله؛ ندرة إعطاء الأسماء، وكثرة الملامح المبشَّر بها من قَبْل والموازية، وعودة الشبيه، وأهمية الشيئي؛ كل هذا فسّره بنيامين بأنه مؤشرات على طبيعة مثقلة بالأساطير، لم يستقل البشر عنها في أي مكان، وعلى "شكل قَدَري من الوجود يضم طبائع حية في علاقة الجريمة والعقاب الوحيدة"(173). في المقابل، يبرز في قصة **أولاد الجيران الغريبو الأطوار**، "الضوء الساطع"(174)، "الضوء الرزين" للمحبين الحقيقيين مع وحشية حقيقية(175). مع عري المحبوبة التي أنقذها الشاب الصغير من الغرق، تُشير القصة - بحسب تفسير بنيامين المجازي الجريء، وكذلك تصوراته الخاصة اللاهوتية والفلسفية المتمركزة حول الكلمات الرئيسية: أسطورة، وطبيعة، ولغة، وخلاص، والله، مفترضةً نظريةً صالحة لا شك فيها - إلى ما هو أبعد من مجال الجمال الذي لا يُظهر في العمل الفني الفكرة، بل سرّها لا أكثر، إلى تصور الله الذي لا توجد أمامه أسرار. تشير القصة من خلال حب أولاد الجيران، الحب الذي يفجر التقاليد ويقامر بالحياة، إلى "مصالحة هي فوق العالم تمامًا، وهي لا تكاد تكون موضوعًا للعمل الفني"(176). بالنسبة إلى غوته، كان في مركز الاهتمام "جمال أوتيلي الناعم الخفي"(177). لكن، في هذا الشكل الذي لا يتألق بروح اللغة، ولا يمكن

(172) Walter Benjamin, "Drei Lebensläufe," in: S. Unseld (ed.), *Walter Benjamin zu ehren*, p. 38.

(173) Benjamin, *Gesammelte Schriften*, vol. 1, p. 138.

(174) Ibid., p. 169.

(175) Ibid., p. 186.

(176) Ibid., p. 184.

(177) Ibid., p. 186.

أن يُعزى انتحاره لهذا السبب - بحسب بنيامين - إلى قرار أخلاقي، بل "إلى غريزة فحسب، تنعكس وحدها الطبيعة الأسطورية الغامضة، الغارقة في ذاتها، والتي تسكن بقسوة صامتة في فنِّية غوته"[178]. بفضل "إطلاقية" العمل التي أضفاها بنيامين تسلمت الفلسفة، بدلًا من الأسطورة، قيادة التأمل. تُخفض "الكلية الخاطئة والمضللة" العمل إلى عمل ناقص، وتنقذه، في فرادته التي لا مثيل لها، بوصفه "قطعةً من العالم الحقيقي"[179].

في كتابه **أصل المسرح التراجيدي الألماني**، طبّق بنيامين طريقة النقد المنقذ على التراجيديا الألمانية، وعلى المجاز المميز لها؛ على التراجيديا الألمانية التي هي عادة صورة مشوّهة للتراجيديا القديمة، وعلى المجاز الذي عادة ما كان يتم التخلص منه بوصفه أداة فنية قليلة القيمة إزاء الرمز. في "المقدمة المعرفية النقدية"، حاول بنيامين أن يربط نظرية المعرفة الكانطية ولاهوت اللغة الخاص في تعيين عام للتفكير الفلسفي. ينطلق هذا التفكير دائمًا ومن جديد بطريقة معقدة، ويغرق في الفردي والمنحرف، ويفككه في تحليل مفهومي. "تجميع الظاهرات هو شأن المفاهيم، والتقسيم الذي يُنجَز فيها بفضل قوة الفاهمة المتباينة هو أكثر أهمية من حيث إنه ينتج اثنين في تنفيذ واحد بعينه: خلاص الظاهرات وعرض الأفكار"[180]. لم يكن الموضوع، إذًا، تأمين مفاهيم عامة عن العالم، مثلًا تجميع عدد من القصائد المعطاة على أساس أي مشتركات في ما بينها تحت مفهوم ما، بل إن الموضوع هو فهم المثال، حتى ولو كان منعزلًا أو مجزأً، في جوهريته، أي بوصفه تمثيلًا لفكرة. يجب أن تُعرّى المفاهيم من وظيفتها المعتادة كمفاهيم عامة، وأن تخدم تنظيم عناصر الظاهرة في حالات، "لا تجعل من الشبيه مطابقًا، وإنما يصل المتطرف إلى تركيب"[181]، و"يصبح الفردي ما لم يكن عليه من قبل، أي كلية"[182].

منح بنيامين رفض تكوين المفهوم الاستقرائي والعلاقات المفهومية الاستدلالية بشكل متفاقم تعبيرًا، حينما أقر بوجود كثرة من الأفكار متناقضة.

---

(178) Ibid., p. 147.

(179) Ibid., p. 181.

(180) Walter Benjamin, *Ursprung des deutschen Trauerspiels*, pp. 16 f.

(181) Ibid., pp. 15, 24.

(182) Ibid., p. 31.

وقد أجاب عن السؤال حول مصدر هذه الأفكار بنوع من الأنواع اللغوية الغامضة لنظرية الاستذكار الأفلاطونية. في التأمل الفلسفي، كان ينبغي للفكرة أن "تحرر نفسها من قلب الواقع بوصفها كلمة تطالب من جديد بحقوقها الملحة"[183]. كان الفيلسوف قارئًا أو بالأحرى مفسرًا لكتابة الواقع. وكان الواقع، بالنسبة إليه، مكتوبًا باللسان الآدمي الأصلي. هذه اللغة - كما اعترف بنيامين نفسه في موضع لم يُنشر، في عمله "حول اللغة عمومًا وحول لغة الإنسان" - "تُشترَط بوصفها واقعًا أخيرًا لا يُنظر إليه إلا في تطوره، وهو واقع سحري، لا يُعرف له سبب"[184].

حيثما تحررت الفكرة تحت نظر التأمل الفلسفي من قلب الواقع، هناك وُجد أصل الفكرة. "ليس للأصل وكذلك ليس للمقولة التاريخية أيضًا أي علاقة مشتركة بنشوء الفكرة. في الأصل لا توجد أي صيرورة للصادر عنه، بل المعني بالأحرى بالصيرورة وبالبقاء هو ما صدر عنهما"[185]. أظهر تحليل المأساة في النص الرئيسي أن تشابه الوضع التاريخي الفلسفي الذي أعاد التفكير الفلسفي من طريق الرومانسيين حيث عندهم "وصل المجاز [...] إلى بداية تبصر في الذات"[186]، قاد إلى المأساة في عصر الباروك، المأساة التي كانت ردة فعل على تجربة حياة أصبحت بعيدة عن الله، وعلى زمن انحطاط. وصف بنيامين محايثة ذلك الوضع الذي وصل إلى حائط مسدود والحياة التي أضحت جوفاء[187]، "العالم المُفْرَغ"[188]، فيها، كما في محيط "ميلينكوليا" لألبرخت دورر، "تقع أدوات الحياة اليومية على الأرض من دون أن تُستخدم وكأنها موضوع للتفكير"[189]، على نحوٍ يُذكّر بوصف لوكاتش للحالة التاريخية-الفلسفية للرواية، وبمقولات "الطبيعة الثانية" و"الاغتراب" و"التشيّؤ". بيّنت المأساة التاريخ بوصفه تاريخ طبيعة زوال ما هو مخلوق. كان صلب هذا النوع من التفكير المجازي فَهْم التاريخ بوصفه

(183) Ibid., p. 19.

(184) Benjamin, *Gesammelte Schriften*, vol. 2, p. 147.

(185) Ibid., p. 29.

(186) Ibid., p. 205.

(187) Ibid., p. 149.

(188) Ibid., p. 150.

(189) Ibid., p. 152.

"تاريخ معاناة العالم" الذي "لا أهمية له إلا في حالات انهياره"[190]. "وفي حين يتجلى في الرمز بتوضيح الانهيار بهاءُ الطبيعة في نور الخلاص، تقع في المجاز الأنواع الهيبوقراطية للتاريخ أمام عيني المتأمل كمشهد أصيل متجمد"[191]. "انعدام الحرية، عدم الاكتمال وتحطّم الحسي من أجل الحفاظ على الطبيعة الجميلة، بقي محرمًا بشكل أساسي على الكلاسيكية. لكن هذا هو بالذات ما يقدمه مجاز عصر الباروك مخفيًا تحت أُبهته البديعة مع تأكيد لم يسبق له مثيل من قبل"[192].

صحّح فن الباروك الطابع التصالحي ليس للفن الكلاسيكي وحده، بل للفن نفسه، بشكل أوضح مما فعلته الرومانسية والتعبيرية. ولهذا السبب بالضبط نشأت فكرة المأساة من توجّه التفكير الفلسفي نحو تراجيديا عصر الباروك الألماني في القرن السابع عشر، "حيث قوّت الرومانسية باسم اللانهاية والشكل والفكرة البناءَ المكتمل نقديًا، هناك يحوّل النظر العميق المجازي فجأة أشياء وأعمالًا إلى كتابة مثيرة"[193]. لقد جعلت منتجات الأدب الساخر الرومانسي - على سبيل المثال، مؤلفات لودفيغ تيك الدرامية الساخرة، وروايات جان بول المهلهلة - المحاولة العكسية "خلّاقة حتى من خلال الهدم: أي أن تُظهِر في العمل نفسه صلته بالفكرة"[194]. وقد جرى تجاوز هذه المنتجات حتى من تراجيديا عصر الباروك الذي أعدّ عمارته المجازية منذ البداية على أنقاض متقنة لم تكن المعرفة المهتمة بمضامين الحقيقة الفلسفية تحتاج إلا إلى أن تستقر فيها[195]. سوف يزيد التفكير الفلسفي الذي ينبغي - وهذا ما كان يأمله بنيامين من عمله - أن "يجدد الحقيقي ضد التزوير التعبيري"[196] في النهاية حدةَ الوعي الحالي بإشكالية الفن عبر إنقاذ المجاز، وبذلك يساعد في جعل إمكانية تجربة العالم الحقيقي موضوعًا راهنًا.

---

(190) Ibid., p. 183.

(191) Ibid., pp. 182 f.

(192) Ibid., p. 195.

(193) Ibid., p. 195.

(194) Benjamin, *Der Begriff*, p. 81.

(195) Benjamin, *Ursprung des deutschen Trauerspiels*, pp. 202 f.

(196) رسالة من بنيامين إلى شولم، 22 كانون الأول/ ديسمبر 1924؛
Ernst Bloch, *Briefe*, p. 366.

نجح بنيامين في مسيرته عبر تصوّر الشبيبة واليهود والأدباء بوصفهم حاملي الثقافي، وعبر تصور انفتاح الأعمال الفنية الرمزية وبروز الأعمال الفنية المجازية، نجح في بلوغ عتبة نسخة من مفهوم التاريخ المادي قريبة من تلك التي تفاهم حولها في السنوات ذاتها شريكاه في الحوار كراكاور وبلوخ. المسائل النظرية التي شغلته في أثناء عمله على **كتاب المأساة**، والعلاقة بين الأعمال الفنية والتاريخ، والنوعية الخاصة بالتفكير الفلسفي في التاريخ التي تختلف عن التفكير الفلسفي في الأعمال الفنية وفي الطبيعي[197]، جعلت من **التاريخ والوعي الطبقي** للوكاتش، بالنسبة إليه، كتابًا، قال عنه إنه كتاب "مهم جدًا، خصوصًا بالنسبة إلي"[198]. ازداد اهتمامه بالنظرية الماركسية بسبب حبه للمخرجة الشيوعية والممثلة والمربية آسيا لاسيس (Asja Lacis) التي تعرف إليها في عام 1924 في أثناء عمله على **كتاب المأساة** في جزيرة كابري. كان حبه لها أيضًا الدافع الرئيسي لزيارته موسكو في شتاء 1926/ 1927. لقد أهداها أيضًا كتاب الحِكَم الذي نُشر في عام 1928 وعنوانه **طريق ذو اتجاه واحد**، والذي جُمعت فيه تجاربه الاجتماعية المتعددة الأشكال والألوان، وهو مخطط رسالته لنيل إجازة التدريس الأكاديمي التي أخفق في نيلها، وعلى الرغم من سكنه في فيلا والديه، لم يكن يحصل من أبيه على التمويل المنشود لحياة مثقف خاص، وكان قد أصبح ناقدًا أدبيًا حرًا متعاطفًا مع الشيوعية وكاتبًا ومؤلفًا للإذاعة.

كان بنيامين يأمل إذًا أن يصبح الناقد الأدبي الأول في ألمانيا. وكان الكتّاب السرياليون هم أول من شجعوا بنيامين - هو الذي أقام منذ عام 1926 مرارًا في باريس - في تصوّره لما يجب أن يكون الأدب الحديث في زمن انهيار كزمنه. بقي طموحه في غضون ذلك في المجال الفلسفي حيًا. من خطة لكتابة مقالة حول ممرات باريس في القرن التاسع عشر تطور مشروع [كتاب] **الممرات** (*Passagenwerk*) الذي شغله بقية حياته، هذا المؤلَّف الذي كان يُوقف العمل به باستمرار تحت ضغط الحاجة إلى أعمال تُدر نقودًا ثم يعود إليه دائمًا، لكنه لم ينجح في أن يتخطى وضع القطعة

---

(197) رسالة من بنيامين إلى رانغ، 9 كانون الأول/ ديسمبر 1923؛ Ibid., p. 322.

(198) رسالة من بنيامين إلى شولم، 13 حزيران/ يونيو 1924؛ Ibid., p. 350.

أو الشذرة الأدبية. أراد بهذا "أن يدخل بكل تصميم فورتنبراس[199] الفلسفي إلى إرث **السريالية**"[200]، وأن يرى "إلى أي مدًى يمكن أن يكون المرء في العلاقات التاريخية - الفلسفية 'واقعيًا'"[201]، وإلى أي مدًى "يمكن الاستفادة من أقصى واقعيتها"[202].

تشارك كتاب **الممرات** مع المادية التاريخية سؤالَ المصلحة في معرفة الرأسمالية. لكن المفاهيم التي استخدمها بنيامين لتحديد الرأسمالية، كالطبيعة والحلم والأسطورة، كانت نابعة من وحي تفكيره الميتافيزيقي واللاهوتي[203]. وكان كتاب **الممرات** يمثل أيضًا نقطة الربط للحوارات التي أجراها بنيامين في عامي 1928 و1929 مع أدورنو في فرانكفورت وكونيغشتاين، والتي كان حاضرًا فيها أيضًا في بعض الأحيان هوركهايمر، وغريتل كاربلوس، وآسيا لاسيس. أفضت هذه الحوارات عند بنيامين إلى نهاية عصر "تفلسف قديم متعلق بالطبيعة، ولا يبالي بشيء". "كانت نهاية سذاجة مفرطة في حماستها". تم تخطي هذا الشكل الرومانسي من التفكير بطريق مختصرة للتطور، لكن، في ذلك الوقت، وعلى مدى سنوات بعد ذلك أيضًا، لم تكن لدي أي فكرة عن تطور آخر"[204]. يمكن أن يرجع أحدنا إلى هوركهايمر أو أدورنو أو إلى بريخت الذي كان صديقًا لكورش منذ عام 1928 والذي تعرف إليه بنيامين في ربيع 1929، عندما قال الأخير لشولم في عام 1930، إنه لا بد له لضمان عمله من أن يدرس أيضًا أوجهًا معينة من الفلسفة الهيغلية وبعض أجزاء **رأس المال** لماركس[205]. أصبح أدورنو

---

(199) فورتنبراس (Fortinbras) أمير دنماركي في مسرحية شكسبير **هاملت**، يمثل في تصميمه وحزمه نقيض شخصية هاملت المتردد. (المترجم)

(200) رسالة من بنيامين إلى شولم، 30 تشرين الأول/ أكتوبر 1928؛
Ibid., p. 483.

(201) رسالة من بنيامين إلى شولم، 23 نيسان/ أبريل 1928؛
Ibid., p. 470.

(202) رسالة من بنيامين إلى شولم، 15 آذار/ مارس 1929؛
Ibid., p. 491.

(203) يُقارن:
Tiedemann, *Einleitung zum Passagen-Werk*, p. 21.

(204) رسالة من بنيامين إلى أدورنو، 31 أيار/ مايو 1935؛
Bloch, *Briefe*, p. 663.

(205) رسالة من بنيامين إلى شولم، 20 كانون الثاني/ يناير 1930؛
Ibid., p. 506.

بفضل "حوارات كونيغشتاين التي لا تنسى"[206]، في وقت مبكر، متآلفًا مع موضوعات ومقولات بنيامين الجديدة، ومنها: القماش القطني، والداخل، والموضة، والدعاية، والدعارة، والمقتنون، والمتسكعون، والمقامرون، والملل والأمور الوهمية. أظهرت له الحوارات الآفاق الجديدة للعمل التي فتحتها انطلاقة فلسفة بنيامين غير التقليدية في الفن والتاريخ التي تبحث عن المادي في المدى الكلي للحياة اليومية لمجتمعٍ وتغرق في التفاصيل.

في نهاية العشرينيات بدأ أدورنو بالتطبيقات الأولى المثيرة للإعجاب لما كان قد تعلمه من كراكاور ولوكاتش وشونبرغ وبلوخ وبنيامين. وكان من بين الأعمال البارزة المقالتان اللتان نشرتا في عامي 1929 و1930 في *Anbruch* **(الفجر)**، مجلة **الموسيقى** في فيينا التي كان أدورنو أحد مديري تحريرها، وهما "في تقنية الأصوات الاثني عشرية"، و"ردة الفعل والتقدم". على هذا النحو، اتحدت نظرية لوكاتش في الوعي الطبقي من منظور فلسفة التاريخ الهيغلية، ونقد كراكاور للعقلانية الرأسمالية الذي يفتقر إلى الحماسة، والمواجهة التي أقامها بنيامين بين الطبيعة الأسطورية ونور الخلاص الصاحي، اتحدت كلها بين يدي أدورنو لتبرير ثورة شونبرغ في الموسيقى. لقد وضعها بمثابة "تحقيق عقلاني لإكراه تاريخي ينهض به الوعي الأكثر تقدمية لكي ينظف مادته من عفن العضوي المتحلل"[207]. تبدى الشرط التاريخي للمواد الموسيقية بأجلى صورة في الموسيقى اللامقامية، التي كانت بدورها نتاج الميول التاريخية نحو إتمام البناء بأكمله على أرضية الموتيفات والتنويعات ونحو غنى درجات السلم الكروماتي. في تقنية الأصوات الاثني عشرية وصل الوضع التاريخي للمادة الموسيقية إلى الوعي، أو، كما عبّر أدورنو عن ذلك بعد بضع سنوات في مقالة عن "المؤلف الموسيقي الجدلي [الديالكتيكي]" شونبرغ: في شونبرغ اكتسبت "جدلية الفنان والمادة [...] وعيَها الذاتي الهيغلي. بواسطة تقنية الأصوات الاثني عشرية أوصل شونبرغ التشكيل المسبق للمادة بطريقة مماثلة إلى الفهم،

---

(206) رسالة من أدورنو إلى بنيامين، 10 تشرين الثاني/ نوفمبر 1938؛

Ibid., p. 783.

(207) Theodor W. Adorno, "Zur Zwölftontechnik,"

طُبع في:

Theodor W. Adorno & E. Krenek, *Briefwechsel*, p. 168.

كما وصلت حالة أخرى من تطور المادة، في وقت سابق، بواسطة المقامية إلى منظومة. في المقابل، كانت تقنية الأصوات الاثني عشرية تعني، بالنسبة إلى أدورنو، تقدمًا في "عملية عقلنة الموسيقى الأوروبية"، وفي عملية "نزع الأسطرة عن الموسيقى"[208]. "قد يكون في الوضع الاجتماعي الراهن عمل عظيم لبيتهوفن أو حتى لباخ مستبعدًا جذريًا [...]: فلقد أصبحت المادة أكثر وضوحًا وحرية، ونُزعت إلى الأبد من الروابط السحرية للعدد، كما تُسيطر على الأنغام العليا والهرمونيا المقامية. يمكن صورة إنسانية محررة، منظورًا إليها بحدة كما حدث لنا، أن تُنحى فعلًا في المجتمع الحاضر الذي تعارضه أسبابه السحرية. غير أنها لا يُمكن أن تُنسى وتفنى [...]. إن ما لا يتغير في الطبيعة، قد يقوم بأود نفسه. تغييرها يتوقف علينا. لكن يَحْسن ألا يوثق بطبيعة تتمادى بغموضها وصعوبتها، وعليها أن تخشى نور الوعي المضيء الباعث على الدفء. ففي الفن الإنسانوي الحقيقي لن يكون لها أي مكان"[209].

أتاح تطبيق مفهوم السيطرة الكاملة على الطبيعة - المفهوم المتأرجح الملتبس بين التصور الماركسي الأرثوذكسي لانفلات قوى الإنتاج والتصور الذي وضعه بنيامين في الحكمة الأخيرة من **شارع ذو اتجاه واحد** للسيطرة على الطبيعة المتحكم بها - أتاح تطبيقه على الموسيقى الجديدة لأدورنو أن يجعل ممارسة التأليف الموسيقي تقوم بدورها، بحسب الظروف، إما بوصفها طليعة الممارسة الاجتماعية أو المدافِع عنها وإما بوصفها أداة أو ممثلًا لها، وأتاح له أيضًا النهوض بنظرية موسيقية تبدو ماركسية، مع أنها تقفز فوق تحليل أي توسطات اجتماعية ملموسة بين الموسيقى والمجتمع.

في صيف 1929 خلف باول تيليش ماكس شلر المتوفى في كرسي كورنيليوس للفلسفة. كان تيليش، وهو أصغر سنًا بسنة من بلوخ ولوكاتش، ينتمي - مثل "اللاهوتيين الجدليين" كارل بارت (Karl Barth) ورودولف بولتمان (Rudolf Bultmann) وفريدريش غوغارتن (Friedrich Gogarten) - إلى أولئك اللاهوتيين الإنجيليين الذين أسهموا في العشرينيات بتفكير جديد في الإيمان

(208) Theodor W. Adorno, "Reaktion und Fortschrift," in: Adorno & Krenek, *Briefwechsel*, p. 180.

(209) Ibid.

المسيحي. ولعل ما كان يميّزه هو اهتماماته التي تخطت المجال اللاهوتي؛ إذ اهتم بالمثالية الألمانية والماركسية، وبالفلسفة الاجتماعية وعلم النفس والسياسة. في عام 1919 انضم إلى "حلقة برلين" الدينية-الاجتماعية حول كارل منيكه (Carl Mennicke)، وكان لسان حال هذه الحلقة مجلة *Blättern für religiösen Sozialismus* (**أوراق لاشتراكية دينية**) التي صدرت بين عامي 1920 و1927، ووجدت في مجلة *Neuen Blättern für religiösen Sozialismus* (**أوراق جديدة لاشتراكية دينية**) استمرارًا لها بين عامي 1930 و1933. رأى تيليش في الاشتراكية قوة مهمة ضد المجتمع البرجوازي الذي كان الروح فيه في خدمة السيطرة العقلانية على الأشياء، وفَقَد العلاقة بالأبدي. كان المهم في رأيه حماية الاشتراكية من خطر البرجزة، أي من خطر الاكتفاء بتحسين الوضع المادي للبروليتاريا، وتقوية العنصر الترانسندنتالي. بهذا المعنى رحّب تيليش بالحركات الفوضوية والنقابية، وحيّا شخصيات مثل غوستاف لانداور وجورج لوكاتش وتأثيرات الحركة الشبابية التي كان قد انتمى هو نفسه إليها.

مع تيليش توفرت لأدورنو فرصة ألا يُظهِر لأصدقائه بعد الآن المادية الملهمة لاهوتيًا في نظرية الموسيقى فحسب، بل في الفلسفة أيضًا، وأن تفتح له مدخلًا إلى الجامعة. في عام 1931 حصل على شهادة التدريس الأكاديمي في الجامعة عند تيليش الذي كان أدورنو فعليًا مساعده العلمي حتى ذلك الحين؛ كانت أطروحته حول **بناء الجمالي عند كيركيغارد** التي نُشرت بعد عمله عليها مجددًا عام 1933 في كتاب عنوانه **كيركيغارد: بناء الجمالي**، أهداه "إلى صديقي زيغفريد كراكاور". ما لم ينجح فيه بنيامين في منتصف العشرينيات في كتابه **المأساة** عند أستاذ الأدب الألماني فرانتس شولتس وعند الفيلسوفين كورنيليوس وهوركهايمر، نجح فيه أدورنو الآن نجاحًا كبيرًا عند اللاهوتي والفيلسوف تيليش وعند أستاذ الفلسفة الاجتماعية هوركهايمر، ببحث كان بنيامين قد ألزم نفسه به على الأقل مثل كراكاور، وقال عنه أدورنو نفسه إنه يقع بشكل ما بين لوكاتش وبنيامين ويحاول أن يُوفق بينهما. إبان عمله على النص، نقل رأيه إلى كراكاور: "قرأ هوركهايمر الفصل الرابع بأكمله، وكان مأخوذًا به، لكنه وجده صعبًا على نحو غير مسبوق؛ لا، بل أكثر صعوبة من **كتاب الباروك**. لا أستطيع هنا أن أساعد بشيء، الأمر يتعلق بالأشياء، لقد كشفت عن الطابع

الأسطوري الشيطاني لمفهوم الوجود عند كيركيغارد، وإذا لم يكن ممكنًا ترجمة ذلك إلى الشفابية-الماركسية[210]، لا يعود بإمكاني أن أفعل شيئًا عكسه"[211].

قارب أدورنو في رسالته لنيل أهلية التدريس الأكاديمي مؤلَّف كيركيغارد، مثلما فعل بنيامين في مقاربته **الأنساب المختارة لغوته**، أي قاربه بموقف نقدي هدّام، حاول فيه أن يحافظ على ما يمكن إنقاذه. بحثَ عن فلسفة كيركيغارد التي صنفها على أنها شكلٌ متأخر من التفكير المثالي الذي حاول أن "يُكمل" أُطُر نظرية مادية-لاهوتية. رأى أدورنو في الصور داخل المنازل البرجوازية التي استخدمها كيركيغارد من دون قصد داخلًا خاليًا من أي موضوع، بوصفه الميزة المهمة لفلسفة كيركيغارد. هذا الداخل الخالي من أي موضوع فسّره أدورنو على أنه الشكل التاريخي الذي تجلى فيه لدى كيركيغارد جبروت الروح الذي أتى بكل المتعالي إلى المحايثة، وبذلك ما عاد يستطيع التخلي عن الطبيعة الأسطورية. كانت الطريقة المستخدمة من بنيامين في **الأنساب المختارة لغوته** و**كتاب المأساة**، الحاضرة أمام عينيه والمستحوذة على اهتمامه، كانت عند كيركيغارد نفسه نقطة انطلاق لتشكيل الخروج من لعنة الطبيعة الأسطورية. لقد وجدها في الجمالي الذي هو عند كيركيغارد أدنى درجة من المتعة الحسية لشكل الوجود البشري المنحط. كان "بناء الجمالي" يعني لأدورنو تنظيم العناصر المختلفة في أعماله التي لا تلقَ احترام كيركيغارد في شكل يبرز فيه الجمالي بوصفه ظاهر المصالحة. "'إذا لم يكن لديك ما تقوله سوى أنه لا يُحتمل، عندئذ عليك أن تبحث عن عالم أفضل'. إن اتهام 'الأخلاقي' باستهزاء 'ممثل الجمالي' بـ 'غطرسة العظمة' يبقى أفضل ما فيه بوصفه نواة نزعة مادية تبحث عن عالم أفضل، ولا تحلم بأن تنسى العالم الحالي، وإنما تطمح إلى تغييره انطلاقًا من قوة صورة قد تكون 'مرسومةً بالفعل ككل وفقًا لمقياس مجرد بشكل عام'، وتتمظهر ملامحها العامة ماديًا بشكل واضح في كل لحظة جدلية. إن مفهوم صور كهذه هو المجال الجمالي لكيركيغارد"[212].

---

(210) شفابيا (Schwaben) منطقة تاريخية ولغوية ألمانية تقع في جنوب غرب البلاد. (المترجم)

(211) رسالة من أدورنو إلى كراكاور، 25 تموز/يوليو 1930.

(212) Theodor W. Adorno, *Kierkegaard Construccion De Lo Estetico*, p. 234.

بعد إنهائه العمل، قال أدورنو في رسالة إلى كراكاور: "وصلت إلى مقولات لاهوتية أعمق بكثير مما كنت أرغب فيه، وأنا خائفٌ من أن أكون قد قهقهت كثيرًا جدًا في مسألة الخلاص، وقبل كل شيء، بالطبع، في المصالحة"[213]. لم تأتِ مراجعة النص بأي تغيير جذري. في إطار محاولة لإضفاء واقعية تاريخية-مادية على المحفزات اللاهوتية، ارتسم هنا أول مرة ذلك المفهوم الذي أصبح مركزيًا بالنسبة إلى أدورنو؛ أي تصور أن المجتمع قد نقل إلى داخله قسر الطبيعة الأعمى إلى حدٍ لم يعد معه بحاجة إلى أكثر من التفكر الذاتي لكي يتحرر من قسر الطبيعة.

أطرى تيليش في تقريره على العمل الصعب "المنسوج بدقة" الذي حاول فيه فيزنغروند أن "يخطف" من كيركيغارد الفلسفة الوجودية واللاهوت الجدلي أيضًا، وأن يدل بـ "إنقاذ الجمالي" عند كيركيغارد على طريق فلسفته المستقبلية؛ فلسفة "حقيقتها هي تفسير أصغر وقائع لحظة تاريخية"[214]. انضم هوركهايمر كمقيم ثان إلى تقييم تيليش، "مع وعي أن اتجاه المصلحة الفلسفية وطرائق التفكير والصيغة اللغوية للعمل المقدم لنيل شهادة التأهيل للأستذة لا تشبه طموحاتي الفلسفية. إذا كان فيزنغروند يعتقد أنه أنقذ الأمل والمصالحة في فكر كيركيغارد، فإنه بذلك عبّر عن قناعة لاهوتية أساسية تشير إلى قصد فلسفي يختلف جذريًا عن مقاصدي، وهذا القصد محسوس في كل جملة. لكنني أعلم أنه خلف هذا العمل لا توجد إرادة قوية للحقيقة الفلسفية فحسب، بل توجد هناك أيضًا القوة لتشجيع الفلسفة في مواضع مهمة"[215].

في يوم الجمعة 8 أيار/مايو 1931، بعد نحو ثلاثة أشهر من إلقاء هوركهايمر خطبته بمناسبة توليه كرسي الفلسفة الاجتماعية وإدارة معهد البحث الاجتماعي حول "الوضع الراهن للفلسفة الاجتماعية ومهمات معهد البحث الاجتماعي"، ألقى أدورنو محاضرته الافتتاحية كمدرّس جامعي للفلسفة عن

---

(213) رسالة من أدورنو إلى كراكاور، 6 آب/أغسطس 1930.

(214) P. Tillich, "Gutachten über die Arbeit von Dr. Wiesengrund: Die Konstruktion des Aesthetischen bei Kierkegaard," in: *Akte Theodor Adorno.*

(215) Max Horkheimer, "Bemerkungen in Sachen der Habilitation Dr. Wiesengrund, February 1931," in: *Akte Theodor Adorno.*

"الحالة الراهنة للفلسفة". وقد أعلن أنه سوف يصوغ النظرية في ضوء اعتراضات مختلفة، "سرتُ حتى الآن على نهجها في ممارسة تفسير الفلسفة حصرًا"[216]. ما قدمه كان نوعًا من التمهيد المعرفي النقدي الذي قدم به بنيامين **كتاب المأساة**. لكن تلك النظرية كانت قد "وُضِعت بوصفها نظرية أفكار"[217]، لتصبح بذلك نظرية أدورنو الآن مادية ومتعلقة بالعلم. "كثرة المواد وعيانية المشكلات سوف يمكّنان وحدهما من إخراج الفلسفة من الوضع الخاص بالعلوم الفردية. كما لن يحق لها أيضًا أن تتعالى من خلال ذلك على العلم الفردي، بأن تقبل 'نتائجه' بوصفها نهائية، وتتأملها من مسافة آمنة؛ بل إن هناك مشكلات فلسفية دومًا، وهي بمعنًى ما ملازمة، في أكثر أسئلة العلم الفردي تحديدًا[218]. وصف أدورنو علم الاجتماع بأنه أكثر العلوم أهمية بالنسبة إلى الفلسفة. وشدد على أن الأنطولوجيا الأساسية تناقض أكثر من الفكر العلمي البحت قناعتَه حول المهمات الحالية للفلسفة. على أن التحديد الأدق للعلاقة بين الفلسفة والعلم يُظهِر مع ذلك أن الفلسفة تقترب بـ "فانتازيا دقيقة" من نتائج العلوم التخصصية، وبنوع من الفانتازيا "تبقى بصرامة في المادة التي تقدمها العلوم، والتي تفوق العلوم حتى في أكثر جوانب تنظيمها دقةً: جوانب تنشأ فيها بالضرورة. وهي لا تقوم إلا بتنظيمها في أصغر ملامحها وتتجاوزها: ملامح عليها، طبعًا، أن تعطيها أصلًا ومن تلقاء ذاتها. إذا كانت فكرة التأويل الفلسفي التي حاولتُ أن أطوّرها أمامكم صحيحة، يمكن عندئذ التعبير عنها بوصفها مطلبًا لأن تؤخذ في الحسبان باستمرار الأسئلة الناشئة من الواقع الذي يقدم نفسه إليهم من طريق فانتازيا تعيد تشكيل عناصر السؤال، من دون أن تتخطى مجال تلك العناصر، وتغدو دقة هذه الفانتازيا قابلة للقياس عبر غياب السؤال"[219]. هذا بالذات - تشكيل عناصر تبدو ذات معنى صغير أو كبير - ما كان في نظره ماديًا. وبالنسبة إلى أدورنو، كانت نظريته جدلية، لأن التفسير الفلسفي لم يكن يجري داخل تعيينات فكرية مغلقة، بل كان يتوقف - بمعنى "جدلية متقطعة" - بفعل الواقع نفسه الذي

(216) Adorno, *Gesammelte Schriften*, vol. 1, p. 342.

(217) رسالة من بنيامين إلى شولم، 19 شباط/ فبراير 1925؛
Bloch, *Briefe*, p. 372.

(218) Adorno, *Gesammelte Schriften*, vol. 1, p. 334.

(219) Ibid., p. 342.

لا يستجيب للتفسير وباعتراض الحقيقة البينذواتية (transsubjektiver Wahrheit)، ويبدأ من جديد دائمًا.

بدت محاضرة أدورنو الأولى وكأنها خطوة في الاتجاه الهوركهايمري، لكنها بقيت مع ذلك في جوهرها برنامجًا لاهوتيًا-ماديًا بروح بنيامين وكراكاور. لم يُعجِب الخطاب أحدًا، لا هوركهايمر ولا مانهايم ولا فرتهايمر، وحتى كراكاور كتب إليه [أدورنو] من برلين، أنه لم يكن ذكاء من الناحية التكتيكية أن يقدم نفسه في خطاب يصف برنامجه بأنه جدلي-مادي، بدلًا من أن يقوم بأي بحث صغير جدلي فعليًا، ويتوقف في اللحظة التي تلح فيها الاستنتاجات الجدلية-المادية، مخترقة عقول الأساتذة بدلًا من أن تهينهم. كان أدورنو يريد نشر نص محاضرته وإهداءه إلى بنيامين. لكن النص لم يُنشَر، وبهذا لم يُنشر علنًا تكريمه لبنيامين.

بقي أدورنو أمينًا لبرنامجه. كان هذا يعني في الممارسة، بادئ الأمر، تقديم أفكار بنيامين أولًا في المجال الأكاديمي للعملية العلمية. في الفصل الدراسي الشتوي 1932/ 1933، قرأ أدورنو - كما أخبر بنيامين شولِم - "مكملًا في الفصل الثاني حلقة البحث السابقة حول **كتاب المأساة** [...]، من دون أن يُعلن عن هذا في جدول المحاضرات"[220]. في تموز/ يوليو 1932، ألقى أدورنو أمام فرع فرانكفورت لجمعية كانط محاضرةً عن "فكرة تاريخ الطبيعة". قدم لهذا المفهوم مصدرين هما **نظرية الرواية** للوكاتش و**أصل المسرح التراجيدي الألماني** لبنيامين. شكلت المحاضرة نوعًا من جواب عن محاضرة كان هايدغر قد ألقاها في كانون الثاني/ يناير 1929 في فرانكفورت عن "أنثروبولوجيا فلسفية وميتافيزيقا الدازاين"[221]، وكانت، في الوقت نفسه، امتدادًا لـ "النقاش الفرانكفورتي" (كما يسميه أدورنو) الذي كان فيه كورت ريتسلر محاميًا عن هايدغر، وكان ريتسلر، مثله مثل أدورنو، ينتمي إلى ما سُمي "الجلسة"؛ تلك الحلقة النقاشية في فرانكفورت التي كان من بين أعضائها تيليش وهوركهايمر

---

(220) رسالة من بنيامين إلى شولم، 15 كانون الثاني/ يناير 1933، في:
Briefwechsel, p. 36.

(221) يُنظر:
H. Mörchen, *Adorno und Heidegger*, p. 13.

وبولوك ومانهايم وأدولف لوفه وكارل منيكه. دافع أدورنو في محاضرته عن موقف لم يُرِد، درءًا لأي سوء فهم، أن يُسميه "أنطولوجيا تاريخية"، وإنما أراد أن يُعيّنه عبر مفهومي التاريخ والطبيعة. في حين كانت الأنطولوجيا التاريخية بالمعنى الهايدغري تحط بواسطة مقولة التاريخية من شأن التاريخ بوصفه موضعًا للجديد، كان على مفهوم تاريخ الطبيعة أن يفضح ما هو تاريخٌ حتى الآن على أنه مأسورٌ في الطبيعة، وعلى أنه مسرحٌ لـ "سجون تاريخية لجوهر الإنسان التاريخي الأول"[222] متغيرة باستمرار، وأن يُشير، في الوقت نفسه، إلى فكرة تصالح الطبيعة والتاريخ التي أصبح التاريخ فيها، بوصفه تاريخ الطبيعة، موضع الجديد النوعي. و"تاريخ الطبيعة" - كما ذكر أدورنو في محاضرته - "هو [...] تغيير المنظور"[223]. وتغيير المنظور، هو ربط بنظرة حادة ما كان قديمًا بالجديد وما كان جديدًا بالقديم. ما هو جديد حقًا سيكون تجاوز علاقة الطبيعة من طريق تعرف الروح على نفسه بوصفه طبيعةً. مثّل أدورنو بالفعل بهذا الوصف لمعرفة الذات المتحولة الموقفَ الهيغلي-الماركسي الذي كان قد طوّره لوكاتش في كتابه **التاريخ والوعي الطبقي**، لكنه فسّره على أنه مستقل عن الطبقة وتجريد مكشوف. غير أن أدورنو، في الوقت نفسه، لم يُبقِ أدنى شك في بعض أعماله النقدية للموسيقى إبان تلك السنوات، بأنه كان من أتباع نظرية الصراع الطبقي ومن حيث أحقية أعماله بأنها أعمال في الفلسفة والفن طابعها من نوع الصراع الطبقي.

هربرت ماركوزه

كان للفيلسوفين الكبيرين جورج لوكاتش ومارتن هايدغر، فيلسوفَي الاغتراب والتشيؤ واللاأصالة اللذين حققا في عشرينيات القرن العشرين شهرة واسعة، التأثير الأكبر في هربرت ماركوزه. وُلد ماركوزه في 19 تموز/ يوليو 1898 في برلين. كان والده، وهو يهودي من مقاطعة بومرن، قد جاء مع أخويه يومذاك إلى برلين، وقد عمل بجد حتى أصبح شريكًا في ملكية مصنع للنسيج، وأسس في النهاية مع مهندسٍ شركةَ بناء "فريدنتال وماركوزه". استطاع أن يوفر لزوجته

(222) Adorno, *Kierkegaard*, p. 111.

(223) Adorno, *Gesammelte Schriften*, vol. 1, p. 356.

وأولاده الثلاثة نِعَم حياة البرجوازية الكبيرة ومزاياها. في تشرين الثاني/ نوفمبر 1918، انتُخِبَ ماركوزه - الذي كان يؤدي منذ بداية العام الخدمةَ العسكرية في قسم الاحتياط للمناطيد في برلين، والذي كان عضوًا نصيرًا في الحزب الاشتراكي الديمقراطي الذي كان والداه يزدريانه بوصفه حزبًا عماليًا، والذي كان قد بدأ للتو الدراسة - انتُخِبَ في مجلس جنود برلين - راينيكندورف. كان معجبًا بنموذج السياسة الاشتراكية الذي مثّله على نحو رائع كورت أيزنر، رئيس حكومة مقاطعة دولة بافاريا الحرة. غادر ماركوزه مجلس الجنود غاضبًا من سرعة إعادة انتخاب الضباط السابقين في مجلس الجنود، وترك الحزب الاشتراكي الديمقراطي مستاءً من قيادته التي اتهمها بالمشاركة في اغتيال روزا لوكسمبورغ وكارل ليبكنخت، وكرّس نفسه للدراسة. درس أولًا في برلين، ثم في فرايبرغ في برايزغاو، تاريخ الأدب الألماني الحديث وإلى جانبه الفلسفة والاقتصاد الوطني. وفي عام 1922 حاز الدكتوراه في فرايبرغ بأطروحة عن **الرواية الألمانية للفنان**. وهو مدينٌ بهذا العمل لكتابَي لوكاتش **النفس والأشكال** و**نظرية الرواية** ولكتاب هيغل **علم الجمال**. على خلفية حضارة العصور القديمة والفايكنغ التي كان الفنان فيهما يندمج بشكل حياة الكل التي كانت فيها الحياة والروح، والحياة والفن، شأنًا واحدًا، وصف ماركوزه رواية الفنان بأنها تعبير عن زمن كانت فيه وحدة الفن والحياة ممزقة، ورأى الفنان، في "حنينه الميتافيزيقي إلى الفكرة وتحقيقها"، نفسه وحيدًا في مواجهة أشكال حياة الواقع "بكل صغرها وخوائها"[224]. ثم ختم عمله بالقول: "وحده الأدب الروسي من بين الآداب الأوروبية الكبرى لا يعرف رواية الفنان، أي حكاية حياته، بوصفها خلافًا أيديولوجيًا. هناك تكون وحدة أشكال الحياة: الوحدة العميقة بين الفنان والشعب؛ هناك يكون الفنان أخًا في المعاناة، ومعزيًا لشعبه ومبشرًا وموقظًا. بالنسبة إلى رواية الفنان الألمانية ليس التشارك شيئًا معطى، بل هو شيء جرى التخلي عنه. عبر المشكلات الأدبية-التاريخية، يغدو جزء من تاريخ البشرية جليًا: نضال الإنسان الألماني من أجل جماعة جديدة"[225].

(224) Herbert Marcuse, *Gesammelte Schriften*, vol. 1, p. 16.

(225) Ibid., p. 333.

بعد نيله شهادة الدكتوراه، عاد ماركوزه الذي كان قد تزوج في عام 1924، ليعيش ثانية في برلين. قدم له والده مسكنًا، وجعله شريكًا في دار نشر ومؤسسة مجهزة لبيع الكتب القديمة ونوع من الصالون الأدبي اليساري تُناقَش فيه النظرية الماركسية، وعلم النفس الغشتالتي، والفن التجريدي، والتيارات الحالية في الفلسفة البرجوازية[226]. عندما قرأ مع صديقه الحميم كتاب هايدغر **الكينونة والزمان** الصادر في حينه، كانا مُجمعَيْن على أن الأمر يتعلق هنا، بالضبط، بما كانا يفتقدانه في النظرية الماركسية - على الرغم من كتاب لوكاتش **التاريخ والوعي الطبقي** - أي العنصر الوجودي، واستعداد الأشكال اليومية للاغتراب، وتوضيح السؤال عن الوجود البشري الحقيقي. قرر ماركوزه العودة إلى فرايبرغ، حيث كان قد استمع من قبل إلى هوسرل من دون اهتمام خاص، وأن يتبع مساره الأكاديمي كفيلسوف. انتقل في عام 1928 مع زوجته وابنه إلى فرايبرغ، وأصبح مساعدًا لهايدغر الذي كان قد شغل هناك كرسي هوسرل الجامعي.

بدت سيرة حياة أستاذ الفلسفة الذي حج ماركوزه إليه، وكأنها معاكسة تمامًا لسِيَرِ حياة كلٍ من لوكاتش وبلوخ وبنيامين وكراكاور؛ كانت سيرته ذات طابع لاهوتي، لكنه لاهوت يفتقد أي تطلع نحو النجاة والمصالحة والخلاص، وكان ينفر من كل ما هو سياسي وماركسي، ويرتبط بعالم أكاديمي سليم.

وُلد مارتن هايدغر في عام 1889 في مِسكيرش (بادن) ابنًا لصانع براميل كاثوليكي وخادم في الكنيسة. أنهى النصف الأول من الثانوية في الكلية اليسوعية في كونستانتس. درس في جامعة فرايبرغ من عام 1909 إلى 1913؛ في البداية اللاهوت والفلسفة، ولاحقًا الفلسفة، على وجه الخصوص، وإلى جانبها الرياضيات والعلوم الطبيعية. حصل في عام 1913 على الدكتوراه بإشراف الفيلسوف الكاثوليكي أ. شنايدر برسالة في **نظرية الحكم في مذهب علم النفس**. قدم فيها نقدًا لمذهب علم النفس، كما كان يمثله معلمه الأرسطي السكولاستي الجديد، وكما مثله أيضًا المحكم الثاني لرسالته، الكانطي الجديد وفيلسوف القيمة هاينريش ريكرت (Heinrich Rickert). ما أثر أيضًا في هايدغر في السنوات الأخيرة قبل الحرب العالمية الأولى - كما صرح مستذكرًا في الخمسينيات - كان، في

(226) يُقارن:

Barry Katz, *Herbert Marcuse and the Art of Liberation*, p. 55.

المقام الأول، "الطبعة الثانية لكتاب نيتشه **إرادة القوة** الذي كان ضِعْف حجم سابقه، وترجمة مؤلفات كيركيغارد ودوستويفسكي، والاهتمام المثير بهيغل وشلينغ، وأشعار ريلكه وقصائد تراكل، والأعمال الكاملة لديلتاي"[227].

بعد إرجاء تأديته الخدمة العسكرية لكونه غير صالح صحيًا، حاز هايدغر في عام 1916 على أهلية التدريس الأكاديمي على يد ريكرت برسالة عن **مقولات نظرية دونز سكوتوس وأهميتها**. التزم في ما بعد فكرة "النحو النظري" (grammatica speculativa) للعصر الوسيط، وأقر في النهاية بالميتافيزيقا بوصفها المهمة الأصيلة للفلسفة. في عام 1919 أصبح هايدغر مدرسًا جامعيًا، وفي الوقت نفسه مساعدًا لإدموند هوسرل خليفة ريكرت، وقد أثر فيه بحث هوسرل **أفكار حول فينومينولوجيا بحتة وفلسفة فينومينولوجية** الذي نُشر في العام نفسه، كما أثر فيه أيضًا المفهوم الحديث "'الذاتية الترانسندنتالية' التي بلغت من خلال الفينومينولوجيا تعيينًا أكثر أصالة وشمولية"[228]. قول هوسرل الذي لم ينطوِ على بعد ثوري قط "تجاه الأشياء ذاتها"، والذي كان يهدف من ورائه إلى إقامة الفلسفة كعلم صارم، أصبح عند شلر، والآن عند هايدغر أيضًا، تشجيعًا لهما على الإيمان من جديد بإمكانية تفلسف مهم وأصيل وبنظرة فينومينولوجية بوصفها انفتاحَ الذات على الميتافيزيقي.

حظي هايدغر من خلال محاضراته الجامعية بشهرة فيلسوف لامع. هذه الشهرة لم يُضِرْها عدم نشره أي شيء طوال السنوات العشر بعد نيله التأهيل للأستذة. كان يؤثر في كثير من مستمعيه - ومن بينهم هوركهايمر - كما أثر بلوخ وبنيامين في أدورنو؛ كشاهد حي على أن الفلسفة يمكن أن تكون شيئًا مهمًا للحياة وللفرد. وقد قال كارل لوفيت تلميذ هوسرل في نظرة استرجاعية: "إن الشدة الملموسة والعمق الغامض لدافع هايدغر الروحي جعلا كل شيء آخر يتداعى، وأفسدا علينا إيمان هوسرل الساذج بمنهج فلسفي نهائي"[229]. وجد هايدغر نفسه، مثل بلوخ وشونبرغ، لسان حال

(227) المذكرات السنوية لأكاديمية هايدلبرغ للعلوم 1957/ 1958، هايدلبرغ، 1959، ص 20. مقتبس في:
W. Franzen, *Martin Heidegger*, p. 25.

(228) M. Heidegger, "Mein Weg in die Phenomenologie," in: *Zur Sache des Denkens*, p. 84.

(229) K. Löwith, "*Curriculum vitae*, 1959," in: Prospekt des Metzler-Verlags zu Löwith, *Sämtliche Schriften*.

ضرورة جبارة لا تقاوم. وكتب إلى كارل لوفيت في عام 1920 أن ما يهمه هو "ما أجده في الحالة الثورية التي أعيشها اليوم 'ضروريًا'، بصرف النظر إن كان ما سينتج عنه ثقافة أو تسريع للانهيار". وكتب في عام 1921: "أنا أفعل ما يجب علي فعله، وما أعتبره ضروريًا، وأقوم به قدر المستطاع. أنا لا أُثبت عملي الفلسفي على مهمات ثقافية ليوم عام [...] إنني أعمل انطلاقًا من 'أناي'، وبحسب [...] أصلي الواقعي. الوجود يعبث بهذه الواقعية"[230].

في عام 1923 تصادق هايدغر، وقد أصبح أستاذًا فوق العادة في ماربرغ التي كانت حصن الكانطية الجديدة الآخذ في التراجع، مع رودولف بولتمان، الأستاذ الجامعي للعهد الجديد الذي كان، إلى جانب كارل بارت وفريدريش غوغارتن، أحد أهم ممثلي "اللاهوت الجدلي". واجه المدافعون عن هذا الموقف "الإنسان-الإله" للاهوت الحر للبروتستانتية الجديدة بلاهوت كلمة الله، وأكدوا، بالإحالة على كيركيغارد خصوصًا، أن الإيمان المسيحي مخاطرة، وأن الإنسان والله يقف أحدهما أمام الآخر من دون اتفاق، وأن الفصل بين الدين والعلم، والإيمان واللاهوت، لا يمكن أن يكون له قوام أمام مطلب الأصالة اللاهوتية.

في ربيع 1927، ظهر في **الكتاب السنوي للفينومينولوجيا والبحث الفينومينولوجي** الذي يصدره هوسرل **الكينونة والزمان - النصف الأول**، وظهر، في الوقت نفسه، كملزمة خاصة. هذا النص جعل هايدغر مشهورًا بضربة واحدة، وأكد شهرته كفيلسوف لديه شيء جوهري يقوله بشأن الحياة. وقد عالج فيه هايدغر ما هو أكثر من تطبيق فينومينولوجيا هوسرل على التاريخ والحاضر. كان كتابًا وصف تخلي الكينونة عن الإنسان الذي كان قائمًا كليًا على الكينونة، كتابٌ أخذ بجدية الكينونة والزمان، والكينونة والدازاين على مستوًى واحد. انطلق هايدغر من "أولية مسألة الكينونة"[231]، لكنه وجد أن نقطة الانطلاق من أجل متابعة السؤال عن معنى الكينونة هي في الإنسان، في الدازاين بوصفه "ذلك الكائن الذي يتميز من ناحية أُنطيقية (ontisch)

---

(230) ذُكر في:

P. Hühnerfeld, *In Sachen Heidegger*, p. 51;

ويُنظر أيضًا في الموضع ذاته:

Franzen, *Martin Heidegger*, p. 26.

(231) Heidegger, *Sein*, p. 2.

بأن الأمر عند هذا الكائن إنما يتعلق في كينونته بهذه الكينونة ذاتها"[232]. بسبب الدور الأساسي للدازاين، وصف هايدغر تحليل بنية كينونته بأنها أيضًا "أنطولوجيا أساسية"[233]. ومسألة ما إذا كانت نقطة الانطلاق في الدازاين لا تعني - ويجب، بافتراض أن اختيارها لا يجري اعتباطًا، أن تعني - أن الكينونة لا تُفهم من الدازاين فحسب، بل تُبنى منه، وتكون معتمدة عليه، بقيت من غير بحث. لم يصدر النصف الثاني من **الكينونة والزمان** وحده، بل حتى القسم الثالث من النصف الأول - **الكينونة والزمان** - لم يظهر قط. هذا يؤكد الصعوبات التي وجدها هايدغر في محاولة التوفيق بين الوجودية التي طبعت شروحاته في الأجزاء المنشورة من **الكينونة والزمان** - "الوجودية" هنا بالمعنى الذي أصبح متعارفًا عليه لاحقًا لتحليل وجود إنساني يُقصي سؤال الكينونة - وتصوّر كينونة يحدث انطلاقًا منها كل شيء.

سمح الانطلاق من الدازاين لهايدغر بتلك الواقعية غير المألوفة للأوصاف الفينومينولوجية في حقل الفلسفة الأكاديمية، وبتلك المعالجة للمشكلات الفلسفية النموذجية التي أوحت بأنها اشتقاقية أو حتى بلا معنى. وإليهما يُعزى التأثير الذي حققه كتاب **الكينونة والزمان**. بدلًا من الوعي المحض الذي كان يُعنى به كل من كانط وهوسرل، ظهر الوجود الإنساني العياني المُلقى به في العالم الذي كان معنيًا، مثل الوعي المحض، بالأسمى، لكنه أصبح الآن محملًا بالمعنى المهم للحياة. كان الموضوع هو الحياة الأصيلة وغير الأصيلة. "يفهم الدازاين ذاته على الدوام انطلاقًا من وجوده، من إمكان ذاته، أن يكون ذاته أو لا يكونها"[234]. "ولأن الدازاين، من حيث الماهية، هو في كل مرة إمكانه، فإنه **يمكن** هذا الكائن أن 'يختار' نفسه في كينونته، وأن يكسب نفسه، ويمكنه أن يفقد نفسه، أو بالأحرى ألا يكسبها يومًا، وألا يكسب نفسه إلا 'في الظاهر'. أن يكون مفقودًا، هو أنه لا يمكنه ألا يكسب نفسه بعد، وهو أنه لا يمكنه أيضًا إلا من جهة ما أن يكون طبقًا لماهيته ممكنًا وأصيلًا، بمعنى أن يكون ملكًا لنفسه"[235].

---

(232) Ibid., p. 12.

(233) Ibid., p. 13.

(234) Ibid., p. 12.

(235) Ibid., p. 42.

كثيرٌ مما وصفه هايدغر في القسم الأول من كتابه يتطابق مع تشخيصات الزمان التاريخي-الفلسفي-الميتافيزيقي التي وضعها لوكاتش وبلوخ وكراكاور وبنيامين. كان المهم فيه تحليل عالم الحياة، وهنا أستعير مفهومًا استعمله لاحقًا هوسرل متأثرًا من جهته بهايدغر. وُضِع عالم الحياة في موضعه الصحيح في مقابل الموقف النظري وفي مقابل إضفاء الإطلاقية على صورة العالم العلمية، لكنه فُضِح، في الوقت نفسه، في لاأصالته. "الثرثرة والالتباس وأن المرء قد رأى-كل-شيء وفهم-كل-شيء هي أمور تشكل الزعم بأن الانفتاح المتوفر والسائد للدازاين على هذا النحو يستطيع أن يضمن له الأمن والجودة والامتلاء في كل إمكانات كينونته. فإذا بيقين الهُمْ (Man) بنفسه وتصميمه ينشر هالة من عدم الاحتياج أكثر فأكثر في ما يخص الفهم الوجداني الأصيل. إن زعم الهُمْ بأنه يغذي ويقود 'الحياة' التامة والصميمة إنما يحمل **طمأنة** ما في صلب الدازاين، لديها يكون كل شيء 'في أفضل نظام'، ولها تظل كل الأبواب مفتوحة. وإن الكينونة-في-العالم المنحطة التي هي في ذات نفسها مغرية هي في الوقت نفسه **مطمئنة**. بيد أن هذه الطمأنة في حضن الكينونة غير الأصيلة لا تؤدي إلى العطالة والبطالة، بل تدفع إلى حركة بلا قيود. والطمأنينة المغرية إنما تزيد من حدة الانحطاط [...]. إن الفضول المتعدد المهارات ومعرفة-كل-شيء التي لا تفتر يوهمان بفهم كلي للدازاين. غير أنه في الأساس يظل بلا تعيين ولا مساءلة ماذا يكون علينا عندئذ أن نفهم على وجه خاص؛ إنه يبقى غير مفهوم، وإن الفهم ذاته هو قدرة على الكينونة، ينبغي ألا نتحرر إلا في نطاق الدازاين الأخص لنا. ضمن هذه المقارنة المطمئنة، و'الفاهمة' كل شيء، للنفس مع كل شيء، ينساق الدازاين إلى نحو من الاغتراب، فيه تحتجب عنه القدرة الأخص على الكينونة"[236].

من هذا الانهيار - كما يقول هايدغر - سوف يعود الدازاين عبر القلق. القلق، وهو غالبًا كامنٌ فحسب، يُحدد على الدوام الكينونة-في-العالم، هو برهان أولي على وجودية الإنسان المتعلقة بالكينونة. القلق يجعل العالم اليومي المعروف يظهر كشأن "ليس-في-بيته"[237] ويحمل الدازاين "أمام كينونته الحرة إزاء [...] أصالة كينونته من حيث هي إمكان، يكونه

(236) Ibid., pp. 177 f.

(237) Ibid., p. 189.

هو دومًا"[238]. الميزة الدائمة للدازاين الذي يشعر بالنداء إلى الأصالة، هو "العناية". "الإمكان الأخص"[239] للدازاين رآه هايدغر في الموت. لا يمكن أحدًا أن يسلب من أحد موته. من هنا كان الموت هو التجربة الأخص. إنه "إمكانية استحالة الوجود الخالية من أي مقياس"[240]؛ فهو يشكل بذلك الإمكانية القصوى. ففي سياق السير نحو الموت يأخذ الدازاين نهايته على عاتقه. وقد برهن هايدغر بالنظر إلى بناء سياق ذلك السير على الحالة الأنطولوجية للوجود الأصيل: مستقبليته. فالحاضر ينبع من مستقبل الماضي. وهذا يعني أنني أكون ما حققته من إمكانياتي. الدازاين هو حَدَث نهائي، معلق بين المستقبل والماضي والحاضر الذي يُنتجه بنفسه. فنهاية زمانيَّته - هكذا انتقال هايدغر إلى "التاريخية" - يجعل الدازاين تاريخيًا.

للموت عند هايدغر، مرة أخرى، أيضًا دور مركزي في التمييز بين الوجود التاريخي الأصيل وغير الأصيل. "وحدها الكينونة الحرة إزاء الموت تمنح الدازاين هدفه بإطلاق، وتدفع بالوجود نحو تناهيه. يُمَكّن تناهي الوجود بعد أن تم إدراكه من تلقف التعدد اللانهائي لإمكانات الرضى والاستخفاف والهروب، ويُعيد الدازاين إلى بساطة **قَدَره**. هكذا نَصِفُ الحَدَث الأصلي للدازاين القابع في العزم الأصيل، والذي فيه ينقل الدازاين ذاته، حرًا إزاء الموت، إلى ذاته ضمن إمكانية موروثة، لكنها في الوقت نفسه إمكانية مختارة"[241]. كان التمييز الذي وضعه هايدغر بين الوجود التاريخي الأصيل وغير الأصيل، مبهمًا. من المقذوفية-في-العالم ومن الماضي، يتعيّن نوعا الوجود. لكن في حالة أولى كان على الماضي أن يكون إمكان وجود أصيل، أما في الحالة الثانية فكان عليه أن يكون بقية. في الحالة الأولى يتعلق الأمر بتولي الأمر بحزم، وفي الحالة الثانية، على العكس، بالمحافظة عليه حصرًا. كانت الرسالة المرسلة إلى القارئ غامضة. فلو أراد أن يُعَدّ من الموجودين على نحو أصيل، لكان على الحاضر أن يبدو له غير أصيل، ومغترِبًا، ومسيطَرًا عليه من الهَمْ الذي يجب أن يُخلع لمصلحة إمكان تشكيل دازاين لم يُدرك في الماضي، إلا أنه ظهر اليوم بوضوح. ولكن كيف

(238) Ibid., p. 188.

(239) Ibid., p. 263.

(240) Ibid., p. 262.

(241) Ibid., p. 384.

كان يمكن تشكيل دازاين أكثر أصالة - لأن الهُم كان يعتبر وجودانيًا - من الدازاين الموجود؟ وكيف أمكن انقلابًا أن يأتي بقدر أكبر من أصالة، إذا كان الأكثر أصالة هو قبول المقذوفية الخالي من الوهم للهناك الخاص به؟ ما بقي كان احتجاجًا عميقًا على الأوضاع القائمة، لم يحدد أسباب الشر وكان موسومًا بشعور بتعيين قَدَري بطولي.

في عام 1928 عاد هايدغر إلى فرايبرغ خلفًا لهوسرل. هنا ألقى في تموز/يوليو محاضرة أولى نُشرت في العام نفسه بعنوان **ما هي الميتافيزيقا؟** في هذا النص الذي صنّفه هو نفسه كمحاولة للتفكير في الكينونة من طريق العدم[242]، وصلت وجودية هايدغر في مرحلته الأولى إلى ذروتها. وضع الفلسفة في مقابل العلم والمنطق والفهم، ورأى أنها لا تستطيع أن تتحرك إلا "بواسطة قفزة خاصة للوجود الخاص في الإمكانات الأساسية للدازاين بأكمله"[243]. وكما أصبحت البروليتاريا عند لوكاتش فيلسوف (التاريخ) الحقيقي، كذلك كان الفيلسوف الحقيقي عند هايدغر هو الإنسان الموجود. "طالما وُجِد الإنسان، يحدث التفلسف بطريقة ما"[244]. إن إدراك كلية الكائن بواسطة الفهم غير ممكن. في المقابل، إن ما يحدث دائمًا هو أن كلية الكائن تتبدى بأمزجة، في الملل، على سبيل المثال. "يُقرّب الملل العميق الذي يتطوّح هنا وهناك في أعماق الدازاين، مثل ضباب صامت، الأشياءَ والبشر ومعهم الشخص نفسه نحو لامبالاة غريبة. هذا الملل يُظهِر الكائن بأكمله"[245]. وكمزاج خاص تمامًا، أبرز هايدغر القلق الذي سبق أن أشار إليه في **الكينونة والزمان**. فهو "يجعلنا نتأرجح لأنه يُخرج الكائن بكليته عن مساره". في القلق يعيش الدازاين كما لو أنه قابع في العدم الذي يبدو له فيه الكائن في اغترابه التام الخفي حتى الآن، بوصفه ببساطة شيئًا آخر"[246]. "بوصفه حارس العدم"[247] يكون الإنسان متعاليًا، ومتخطيًا الكائن[248]،

---

(242) M. Heidegger, *Was ist Metaphysik*, *Einleitung*, p. 22.

(243) Ibid., p. 42.

(244) Ibid., p. 42.

(245) Ibid., p. 31.

(246) Ibid., p. 34.

(247) Ibid., p. 30.

(248) Ibid., p. 35.

وميتافيزيقيًا بطبيعته[249]. والنفي في مجالات العلم والمنطق والفهم ليس إلا مجرد شكل مخفف للعدم. يُظهر "التصرف العدمي الضخم" نفسه في "عنف الفعل المضاد وحدة الازدراء"، وفي "ألم الفشل وقسوة المنع"، وفي "مرارة الحرمان"[250]. أكثر ما يبقى يرتجف من أنفاس القلق هو "الدازاين الجسور" الذي "لا (يحدث) إلا مما يُستَهلك لأجله، لكي يحافظ بذلك على العظمة الأخيرة للدازاين"[251].

في محاضرته الافتتاحية التي بُنيت على اللعب بالكلمات، وجد هايدغر مقاربة لسؤال العدم بدت مخْتَلَقة تارة، ومتخيَّلة تارة أخرى. هذه المحاضرة دفعت رودولف كارناب (Rudolf Carnap)، أشهر الأعضاء الوضعيين الجدد في حلقة فيينا، إلى استعمال أمثلة من نص هايدغر هذا لإنشاء برهانه على عبثية التساؤلات الميتافيزيقية. قدمت المحاضرة الإنسان على أنه نوعًا ما عرضة للاستهداف. ومتحررًا من كل ما كان يمكن أن يكون مقدسًا بالنسبة إلى العقل، كان عليه أن يكون على استعداد لأن يُضحي بنفسه من أجل شيء لم يكن معروفًا أي شيء منه سوى أنه يتطلب قسوة وحرمانًا؛ أما كيف عُرِف عنه هذا، فبقي بلا تفسير.

شغل هايدغر بهذه الفلسفة في السنوات التي تلت نشر **الكينونة والزمان** الكثير من المحاضرات المسائية والاحتفالية. شكّل ذروتها السجال الذي حصل بينه وبين إرنست كاسيرر، أحد ممثلي مدرسة ماربرغ الكانطية الجديدة، في السلسلة الثانية من الدروس العليا في دافوس في آذار/ مارس 1929. كانت مهمة الفلسفة - كما قال هايدغر في أثناء النقاش - هي أن تُظهر للإنسان "على الرغم من كل حريته عدمية دازاينه" و"من الوجه الفاسد لإنسان لا يستعمل إلا أعمال الروح الذي يرد الإنسان نوعًا ما إلى قسوة قَدَره"[252].

عندما جاء ماركوزه إلى هايدغر في فرايبرغ في عام 1928، كان لديه مشروع فلسفي وتصور معين عن أهمية هايدغر. كان مشروعه يُسمى "فلسفة واقعية". وكان تصوره عن هايدغر يتمثل في أن أعماله جسدت النقطة التي كانت تتعالى

(249) Ibid., p. 41.

(250) Ibid., p. 37.

(251) Ibid., p. 37.

(252) M. Heidegger, "Davoser Disputation," in: *Kant und das Problem der Metaphysik*, p. 263.

عندها "الفلسفة البرجوازية" من الداخل باتجاه "الفلسفة الواقعية" الجديدة[253].

"تعيين الوجود البشري، من حيث هو تاريخي في الجوهر، يجب أن يُعيد إلى الفلسفة حدة الواقعية التي افتُقِدت منذ زمن طويل والجدية الأخيرة لحَدَث بشري، يهمه فعليًا '**كل شيء**'، ما دام الأمر يتعلق بالضبط بما يُلح هنا والآن"، هذا ما كتبه ماركوزه أيضًا في عام 1933 من منفاه في سويسرا في آخر مقالة نُشرت له في ألمانيا، وهي دراسة نقدية حول كتاب كارل ياسبرز **فلسفة الإخفاق**. ما انتقده ماركوزه عند هايدغر وما كان قد انتقده، منذ البداية، في أول بحث فلسفي نشره - البحث الذي نُشر في عام 1928 في **دفاتر فلسفية** لصديقه الهوسرلياني مكسيميليان بك (Maximilian Beck) بعنوان "مساهمات في فينومينولوجيا المادية التاريخية" - هو أن هايدغر "لم يعالج الأسئلة الحاسمة فعليًا عندما أخذ في الحسبان "اليومي وحالته": "ما هو تحديدًا الوجود الأصيل؟ ما هي طبيعته؟ وهل هو في الواقع ممكن عمومًا"[254]؛ وأنه لم يعالج "الشروط التاريخية الواقعية التي يوجد في ضوئها دازاين واقعي"[255]؛ وأنه أشار إلى الدازاين المنعزل بدلًا من أن يشجع التصميم على العمل[256].

إن الغموض الذي احتفظ به هذا الفعل وأخذ اليومي وحالته في الحسبان عند ماركوزه، وحقيقة أنه هو نفسه لم ينشط سياسيًا البتة، وأنه اعتبر أن النظرية هي أعلى أشكال الممارسة، وأنه عمل في أوائل الثلاثينيات في بحث تناول **أنطولوجيا هيغل وتأسيس نظرية التاريخية** أراد أن يتقدم به لنيل أهلية التدريس الأكاديمي بإشراف هايدغر، هذا كله يجعل من المفهوم إلى حدٍ ما أن ماركوزه لم يجد عند هايدغر ما ينتقده باستثناء نقص الواقعية الذي سبق ذكره، وأنه فوجئ تمامًا باعتراف هايدغر العلني في عام 1933 بالاشتراكية القومية الوطنية. أما عدم إخلاص ماركوزه لهايدغر، فإنه لم يحدث إلا لأنه اكتشف فيلسوفين آخرين تفوقت "واقعيتهما المخيفة" على واقعية هايدغر، وهما ديلتاي وهيغل. غير أنهم وُضعوا جميعًا في الظل بسبب ماركس، عندما

---

(253) Marcuse, *Gesammelte Schriften*, vol. 1, pp. 358, 385.

(254) Ibid., p. 364.

(255) Ibid., p. 465.

(256) Ibid., p. 364.

اطّلع ماركوزه على كتاب **مخطوطات اقتصادية-فلسفية** الذي نُشر في عام 1932 في إطار الإصدار الأول للأعمال الكاملة لماركس وإنغلز. في مقالته "مصادر جديدة لتأسيس المادية التاريخية" المنشورة في عام 1932 في مجلة *Die Gesellschaft* (**المجتمع**) التي كان يصدرها رودولف هيلفردنغ، قدم ماركوزه واحدًا من أوائل التفسيرات لمخطوطات باريس. كان ما اعتقد أنه وجده فيها هو "تأسيس فلسفي [...] للاقتصاد الوطني، بمعنى نظرية للثورة"[257]، أو - كما قد يقال بالتماثل مع عنوان كتابه عن هيغل - أنطولوجيا ماركس التي بقيت، بخلاف أنطولوجيا هيغل، وفية دائمًا "لتوجهها بموجب مفهوم كينونة الحياة وتاريخيته"[258]، وكانت دائمًا أنطولوجيا الإنسان التاريخي. في الوقت نفسه، حاول ماركوزه في هذه المقالة أن يجيب عن سؤال كيف ترتبط الضرورة التاريخية والقيم العليا لأشكال محددة من الوجود بعضها ببعض، ولماذا "أن تكون حرًا لأجل الضرورة التاريخية" يخدم الحركةَ نحو "حقيقة الوجود".

"بالنسبة إلى ماركس، ليس الجوهر والواقع بالذات، وحالة تاريخ الجوهر وحالة التاريخ الواقعي، قطاعين أو مستويين منفصلين مستقلًا أحدهما عن الآخر؛ فتاريخية الإنسان **مأخوذة في تعيين جوهره** [...] مع معرفة تاريخية الجوهر الإنساني لا يُصبح مع ذلك تاريخ جوهر الإنسان متطابقًا مع تاريخه الواقعي. سبق وسمعنا أن الإنسان ليس أبدًا 'واحدًا مع ممارسته الحياتية'، بل يميز نفسه منها، وتكون له صلة بها. الجوهر والوجود يظهران عنده **متفرقين**: وجوده هو 'وسيلة' لتحقيق جوهره، أو - في الاغتراب - جوهره وسيلة لوجوده المادي المحض. فإذا كان الجوهر والوجود يفترق واحدهما عن الآخر، واتحادهما بوصفه تحقيقًا واقعيًا هو **المهمة** الحرة الحقيقية للممارسة البشرية، عندئذ يكون **الإلغاء الجذري** لهذا الواقع هو المهمة بإطلاق، حيث تكون الواقعية، وصولًا إلى **العكس الكامل** للجوهر الإنساني، متقدمةً. هذه النظرة التي لا تُخطئ إلى جوهر الإنسان تُصبح الدافع الذي لا يرحم لتأسيس الثورة الراديكالية: فالموضوع في الحالة الواقعية للرأسمالية لا يتعلق بأزمة اقتصادية أو سياسية فحسب، بل يعني كارثة للجوهر الإنساني؛ تحكم هذه الرؤية منذ

(257) Ibid., p. 509.

(258) Herbert Marcuse, *Hegels Ontologie*, p. 3.

البدء بالفشل على كل **إصلاح** اقتصادي أو سياسي بحت، وتقتضي هذه الكارثة حتمًا الإلغاء الكارثي للوضع الواقعي من خلال **الثورة الشاملة**"[259].

الكلام عن تاريخية الجوهر الإنساني والعكس الكامل له، قد جرى تكذيبه عبر اللجوء إلى النظرة التي لا تُخطئ إلى جوهر الإنسان الذي أثبت نفسه في كل عكس واقعي أيضًا، وكانت نصب عيني الأنطولوجي الوجودي الماركسي مقياسًا ثابتًا. أما الأنثروبولوجيا الوجودية، نظرية الإنسان بوصفه جوهرًا نهائيًا، غير مثبت وملقًى به في العالم، فخُفِّفت عند ماركوزه لتصبح تصورًا عن إنسان يحقق التطابق مع جوهره بطرق غير مباشرة. فبدلًا من الفلسفة التي كان يطالب بها ماركوزه، الفلسفة التي كانت "'الوعي الذاتي' للإنسان بوضعه التاريخي المتعين في العالم، هذا الوعي اليقظ دائمًا والمندفع قدمًا" - "هذا الوعي مفهومًا بوصفه وعيًا تتأسس عليه في هذه الحالة إمكانات وضرورات الكينونة والفعل والصيرورة"[260] - وصل ماركوزه إلى فلسفة تشهد للحاضر جملة وتفصيلًا بطريقة وجود رأسمالية لاإنسانية لا يمكن التغلب عليها إلا من خلال ثورة شاملة من أجل التطابق مع جوهر الإنسان الذي كان معروفًا بفضل ماركس الشاب.

بعد أن اكتشف ماركوزه - كما رأى في نظرة استعادية في حديث مع هبرماس - ماركسَ جديدًا، "كان واقعيًا فعليًا، وتجاوز في الوقت نفسه ماركسية الأحزاب الجامدة عمليًا ونظريًا"، بعد أن كان قد أصبح، بهذا المعنى، فيلسوفًا ماركسيًا، واعتقد أنه ما عاد في التأسيس الفلسفي للماركسية يحيل على هايدغر، بل رأى أن من الأفضل إنجاز التأسيس اعتمادًا على ماركس نفسه، بدا له مشروعه للتأهيل للتدريس الجامعي غير واقعي، فنشر دراسته حول هيغل بمعزل عن نية الحصول على هذا التأهيل. حصل هذا، استنادًا إلى تفسير ماركوزه، لأنه ما عاد، في عام 1932، يرى بالنسبة إلى يهودي وماركسي معنًى في التأهيل للتدريس الجامعي[261]. لكن في الواقع، أو لكن في ما خلا

(259) Marcuse, *Gesammelte Schriften*, vol. 1, p. 536.

(260) Ibid., p. 486.

(261) يُقارن:

Katz, Ibid, p. 84.

ذلك - هذا ما برز في كتاب من هوسرل إلى ريتسلر الذي بناء عليه أقرّ لاحقًا في إطار التعويض في الجمهورية الاتحادية، أن ماركوزه شخص كان ينبغي، بشكل طبيعي، أن يحصل على التأهيل للتدريس ويصبح أستاذًا جامعيًا - حالَ هايدغر دون حصوله على التأهيل للأستذة. كرّس هوسرل جهده من أجله لدى ريتسلر، وفعل ريتسلر الشيء نفسه لدى هوركهايمر. باءت هذه الجهود بادئ الأمر بالفشل. في عام 1933 انضم، بعد محادثة مع ليو لوفنتال الذي تحدث مع هوركهايمر لأجل ماركوزه، في جنيف إلى معهد البحث الاجتماعي في المنفى.

تُظهر بانوراما السير الذاتية أن أحدًا من أتباع حلقة هوركهايمر لم يكن ناشطًا سياسيًا؛ وأنه لم يأت أحد منهم من الحركة العمالية أو من الماركسية؛ وجميعهم كانوا يتحدرون من عائلات يهودية، وكانت علاقتهم باليهودية مختلفة للغاية، وتترجح بين الاندماج والأصولية اليهودية؛ وبالنسبة إليهم جميعًا، بدت الحساسية تجاه معاداة السامية نافلة بالنظر إلى نشاط فكري موجّه ضد الرأسمالية؛ عند هوركهايمر وحده، شكل الامتعاض من مصير المستغَلين والضعفاء شوكة أساسية في الفكر، وكان للنظرية الماركسية تأثيرها الجاذب في الآخرين جميعهم، لأنها بدت واعدة في تقديمها حلولًا للمشكلات النظرية المستعصية، أو بدت أنها تقدم النقد الجذري الوحيد المهم نظريًا والذي لا يتجاوز الواقع للمجتمع البرجوازي-الرأسمالي المغترب. لم يكن هذا التركيب واعدًا كثيرًا بالنظر إلى مشروع هوركهايمر المتعدد الاختصاصات. جميعهم كانوا على معرفة إلى هذا الحد أو ذاك بالفلسفة، لكن لم يكن أي منهم، باستثناء فروم وبولوك، خبيرًا في العلوم التخصصية التي يتعين لتأثيرها المشترك في معهد البحث الاجتماعي أن يدفع نظرية المجتمع قدمًا إلى الأمام. مع تقدم العمر، عندما أصبحوا قادرين على أداء دور اجتماعي نوعي بوصفهم مفكرين مستقلين، فكروا في الثورة التي كانوا شهودًا عليها في شبابهم. "لماذا، إذًا، عندما أُعيد النظر بالاسم، بقي مرة أخرى 'الفجر'؟"، جاء في المقالة الافتتاحية لهيئة التحرير في كانون الثاني/ يناير 1928 للعدد الأول الذي صدر باسم جديد لـ *Musikblätter des Anbruch* (**مجلة موسيقى الفجر**) الذي كان أدورنو رئيس تحريرها الفعلي منذ عام 1928. "نبقى أوفياء للاسم، لأننا أوفياء للقضية التي

يعنيها. نعتقد أن الموسيقى الجديدة التي ندافع عنها هنا تنتمي بأفضل ممثليها إلى حالة وعي مختلفة جذريًا، ويعني الوقوف إلى جانب الموسيقى الجديدة، في الوقت نفسه، الوقوف إلى جانب ذلك الوعي المختلف. قد لا نتمكن من رؤية هذا الوعي في الروح الموضوعي المستقر لمرحلة ما بعد الحرب. ونحن نتساءل بريبة عما إذا كانت المرحلة المطعون فيها التي تكلم المرء فيها عن الفجر والهدم لا علاقة لها بالوعي المتغير أكثر من الوضع الذي لم يعد فيه تغيير الوعي مطلبًا قائمًا، هذا بعيدًا عن خلق مطلب آخر [...] ومثل 'الفجر' نأمل تحقيق اندفاعة بداية جديدة نحو حالة موسيقية - وليس موسيقية فحسب - تكون فيها مثل هذه الاندفاعة مطلوبة للغاية إذا لم نكن نريد أن نسقط ضحايا ردة الفعل الأكثر مأساوية"[262]. كان هذا يصدق حقيقة في أوائل الثلاثينيات عندما بدأت دورة تدريس جديدة في معهد البحث الاجتماعي في فرانكفورت. كانت حلقة هوركهايمر تقارب بداية جديدة، وفي الوقت الذي كان الانحلال يصيب المجتمع البرجوازي-الرأسمالي أكثر فأكثر، كانت الفاشية تتقدم والاشتراكية تتبلد.

السياسة - السياسة العلمية - العمل العلمي

"تأملوا طرائق تصرّف الناس. سوف ترون أن جميع من أصابوا ثراء فاحشًا، أو بلغوا سلطة كبيرة، إنما حققوا ذلك عبر العنف أو الخداع. لكن ما انتزعوه بالحيلة أو من خلال فعل عنيف، يسوغونه لإخفاء دناءة مكسبهم من خلال تقلد ألقاب مزيفة وربح. من يتجنب هذه الوسيلة غباءً أو حمقًا، يجر نفسه نحو فقر وعبودية أبديين. العبيد الخلّص يبقون دائمًا عبيدًا، والناس الأوفياء يبقون دائمًا فقراء". هذا ما قيل على لسان ثوري متحمس وذي تجربة في كتاب مكيافيلي **تاريخ فلورنسا**. وقد أتى هوركهايمر إلى ذكر هذه الفقرة في كتابه **بدايات فلسفة التاريخ البرجوازية**؛ فهي تلائم نظرته الخاصة التي تمسّك بها طوال حياته. "أمام من يحرز السلطة، تتحول أكثرية الناس إلى مخلوقات لطيفة ومستعدة

(262) ذُكر اعتمادًا على المقالة الافتتاحية لهيئة التحرير في **صحيفة فرانكفورت** (*Frankfurter Zeitung*)، 25 كانون الثاني/ يناير 1929.

للمساعدة. أمام العجز المطلق، كما الحال عند الحيوانات، يكونون تجارَ مواشٍ وجزارين". على هذا النحو اختتمت حكمة "في نسبية الشخصية" في مجلةً **الفجر**. الذي يريد لنفسه حياة جيدة، يحتاج إلى سلطة. والذي يريد أن يساعد الآخرين يحتاج حقيقة إلى السلطة. والذي يبتغي الحصول على السلطة أو الحفاظ عليها، يجب عليه أن يرى الواقع بلا أوهام، وأن يجاري الغير في لعبة السلطة. قدم أدورنو شهادة لهوركهايمر في عام 1965 في "رسالته المفتوحة" بمناسبة عيد ميلاده السبعين: "أنت لم تعرف صعوبة الحياة فحسب، بل عرفت ورطتها أيضًا. أنت من رأى المحرك وراء الأشياء حتى صميم أعماقه وأراده مغايرًا، وكان مع ذلك مصممًا وقادرًا، من دون استسلام، على الاعتداد بنفسه. أن ينظر نقديًا إلى مبدأ حفظ الذات على حقيقته، ويرتأي مع ذلك فرضه بالقوة، هذه المفارقة تجسدت فيك".

ما أراده هوركهايمر وما حققه كان طريقة وجود موجهة نحو معرفة المجتمع، لكنها تتضمن في كل الظروف والأحوال أسلوب عيش كريم. شراكته الثنائية مع بولوك وَسَمها إلى حد بعيد دورُ بولوك التابع المصطبغ بقوة بلون مازوشي وتأكيد حقيقة أن الهدف الواضح للشراكة كان تحقيق حياة أفضل لكليهما. كتب هوركهايمر في عام 1935 في "مواد لإعادة صياغة المبادئ الأساسية"، وهو أحد النصوص الذي كان يصوغ فيها من جديد، في أوقات مختلفة، مبادئ شراكته مع بولوك: "يتقدم الداخل على الخارج دائمًا". كان "الداخل" هو شراكة هوركهايمر - بولوك التي كان هدفها المعرفة. "موقفنا من العالم: مرح، وشجاعة، وكبرياء"[263]. كان نقطةً مهمة في حياة هذه الشراكة الثنائية المعهدُ الذي كتب عنه هوركهايمر في مواده تحت عنوان "حياة مشتركة": "يجب أن تعبر الحياة المشتركة عن نفسها أيضًا في مشتركات الحياة اليومية من سراء وضراء، وليس في الاهتمام بالمشكلات الكبيرة فحسب. على سبيل المثال، الموقف من المعهد وأعماله والعاملين فيه. المعهد ليس 'عملًا' تجاريًا، وليس 'مؤسسةً'، بل هو مجموعة تتشاطر رؤًى وأهدافًا مشتركة. ضرورة أن نسهر معًا على أن تكون نواة المعهد متجانسة قدر الممكن، مع تركيز الاهتمام

---

(263) وردت في النص بالفرنسية: Gaîté, Courage, Fierté. (المترجم)

الأكبر على اختيار العاملين المساعدين المقربين". لكن في حالة الريبة، كان يجب حماية الذات من "تقويم للمعهد ينطوي على المبالغة والمغالاة". كان يجب أن يتشكل المعهد، قدر المستطاع، بحسب نظام القيمة للداخل، لكن كان ينبغي أن يبقى دائمًا مجرد أداة له.

كان الداخل في صراع مع العالم البرجوازي الذي كان الداخل نفسه قد أُصيب بعدواه منذ البداية. بقيت العاطفة التعبيرية المعادية للبرجوازية الأرض التي تغذي نقده للمجتمع، وهذا ما تؤكده نصوص تعود إلى الثلاثينيات متصلة بسيرة تطور فهمه لذاته. "نقص الفخر، ونقص الفرح بنفسه وبالآخر، ونقص الوعي بالذات، والخضوع، والشعور بالذنب (على الرغم من قرار اتخذ يومًا بأن يعيش حياة معينة لأسباب معينة) لها كلها جذر مشترك يتمثل في بنية غريزية برجوازية أنتجتها التربية (منع الإنسان من أن يفعل ما يفرحه). وحده الفخر الواعي الذي يضعُ مقابل عالم عدائي حق شراكتنا وقيمتها، يستطيع أن يساعد في التغلب على البنية الغريزية هذه التي تضع على الدوام مبادئ الفرح والشجاعة موضع تساؤل أيضًا.

في كتابه **مواد** استخلص هوركهايمر نتائجه من فهم هذا العالم بوصفه صراعًا على السلطة، وهذه النتائج لم تتفق إلا جزئيًا مع النتائج الماركسية، وهو فهمٌ للعالم أوحت به إليه التجارب اليهودية الجماعية ونظرة واقعية لسيرة الأب المهنية للأب والابن معًا. "ينتج الموقف الصحيح من المجتمع عندما يضع المرء نصب عينيه أن جميع العلاقات الإنسانية في مجتمع اليوم مزورة، وأن كل صداقة، وكل استحسان، وكل لطف لا تؤخذ أساسًا على محمل الجد. وهي ليست جادة إلا في الصراع التنافسي داخل الطبقة وفي الصراع بين الطبقات [...]. كل أفعال الصداقة ليست من أجل الشخص، بل من أجل مركزه في المجتمع؛ يظهر ذلك بكل وحشية عندما يفقد هذا الشخص مركزه بتغيير كبير أو صغير في هذا الصراع (سوق الأوراق المالية، التحريض ضد اليهود). لكن الأمر لا يتوقف على هذه الرؤية المجردة، بل عليك أنت أن تضع دائمًا نصب عينيك أكثر من ذلك، أنك أنت نفسك المتروك، حينما يعرف جميع الأشخاص الأصدقاء واللطفاء الذين تتعامل معهم يوميًا، أنك قد أصبحت من دون سلطة.

النتيجة: عليك ألا تكون أبدًا في مستوًى واحد مع أسياد السجون، فالتضامن يكون مع الضحايا (ملاحظة: في هذا المجتمع يوجد، إضافة إلى قياديه، أناس أيضًا، خصوصًا بين النساء. لكنهم أقل بكثير مما يعتقد المرء عمومًا)".

أمر واحد فقط جعل الشراكة بين هوركهايمر وبولوك تأتي في المرتبة الثانية، هو شراكة الحب والمصلحة بين ماكس ومايدون، وهي عاطفة وجدانية بدهية حظيت، في أي حال، بملامح خاصة من خلال اهتمام هوركهايمر، بشكل مبالغ فيه، بتأمين قاعدة مادية مميزة لهذه الشراكة الزوجية عبر تأمينات عقدية. ضمن له بولوك (جزئيًا، بوصفه النائب العام لفليكس فايل ولإرثه) إضافة إلى البنود الثابتة في عقد توظيفه من تشرين الأول/ أكتوبر 1930 جملة من الشروط (بموجبها كانت رئاسته شرفية، لكن العقد كان يضمن له أن تدفع جمعية الأبحاث الاجتماعية كل التكاليف الناتجة من "تمثيل معهد البحث، أو السفرات الدراسية أو أي تكاليف أخرى متصلة بمنصبه كمدير علمي" بقدر لا حدود له، ومن دون أن يُطْلَب منه تقديم إثباتات).

على سبيل المثال، في كانون الثاني/ يناير 1932: "إذا فقدتم لأي سبب من الأسباب مرتبكم الشهري بصفتكم أستاذًا في جامعة فرانكفورت أ. م، عندئذ نتعهد بأن ندفع لكم كل مرتباتكم بالقدر عينه وبالحقوق التقاعدية نفسها التي تستحقونها بوصفكم أستاذًا ذا كرسي في جامعة بروسية مع أغلى تكاليف المعيشة".

وثانيًا، في شباط/ فبراير 1932: "من أجل تأمين أعمالكم العلمية، أتعهد لكم باسمي وباسم وَرَثتي، أن أدفع لكم طوال حياتكم، شهريًا، مبلغ 1500 ر. م. (ألف وخمسمئة رايخ مارك) أو مبلغ 1875 ف. س. (ألف وثماني مئة وخمسة وسبعين فرنكًا سويسريًا) أو مبلغ 900 ف. هـ. (تسع مئة فلوران هولندي) أو مبلغ 9000 ف. ف. (تسعة آلاف فرنك فرنسي) أو مبلغ 375 د. أ. (ثلاثمئة وخمسة وسبعين دولارًا أميركيًا)، بحيث يعود إليكم أمر اختيار نوع العملة ومكان الدفع. تضاف إلى هذه المبالغ الدفعات التي تدفعها الدولة البروسية أو التي تتقاضونها بصفتكم مديرًا لمعهد البحث الاجتماعي".

في ما يخص "علم النفس الغريب" الذي وصفه هوركهايمر في إحدى الشذرات في كتابه **الفجر** بكلمات مرة[264]، قدم هو نفسه مثالًا صارخًا. في مقابل ذلك، حصل معهد البحث الاجتماعي بشخص هوركهايمر على مدير علمي شاب، عرف كيف يوفر في أوقات صعبة الشروط الخارجية والداخلية لأعمال علمية بارزة. وفي حين كان هوركهايمر يتهم بولوك مرارًا وتكرارًا بنقص الاهتمام بالمهمات الفكرية للمعهد والميل إلى احتكار المسائل الاجتماعية، كان هو نفسه مهتمًا بالأمرين معًا.

تزامنت جهود تأمين أمور المعهد السياسية مع أموره العلمية-السياسية. وشهدت الأعوام 1930-1932 نهاية آخر بقايا التسوية الطبقية، كما تجسدت في التعاون البرلماني بين الديمقراطيين الاشتراكيين وحزب الوسط والديمقراطيين، وتورمًا مأزومًا للشيوعية قائمًا تحديدًا على عاطلين من العمل ومثقفين، وقوةً شديدة التعاظم للنازية. وارتسمت أيضًا معالم تطور إيطالي، تمثّل في "الثورة" الفاشية التي قبلت بها الأحزاب البرجوازية بلا مقاومة، وقبلت بها أيضًا، بهذا القدر أو ذاك، الأحزاب المحافظة ومؤسسات الدولة. في عام 1928، كان زعيم الحلف الدفاعي الاشتراكي الديمقراطي في النمسا يوليوس دوْيتش (Julius Deutsch)، قد قام بتكليف من اللجنة الدولية المناهضة للفاشية بنشر رؤية عامة عن **الفاشية في أوروبا**، وكان المنظّر لسياسة الدولة هرمان هلر (Hermann Heller) الاشتراكي الديمقراطي قد طاف في أنحاء إيطاليا طوال نصف عام، ونشر في العام التالي كتاب **أوروبا والفاشية**، وهو واحد من أوائل التحليلات الشاملة لأيديولوجيا وممارسة "حركة التجديد" هذه في السياق الأوروبي الشامل. كانت الفاشية قد انتصرت في إيطاليا وحدها حتى ذلك الحين، حيث كانت تحمي الاقتصاد "الليبرالي" من المطالب البروليتارية في مقابل تدمير الثقافة البرجوازية. غير أن الفاشية كحركة كانت موجودةً في معظم البلدان الأوروبية، في كثير منها تلجمها حكومات مستبدة أكثر منها ديمقراطية.

(264) يُنظر ص 78 في هذا الكتاب.

حين أصبح النازيون في انتخابات الرايخ البرلمانية في أيلول/ سبتمبر 1930 ثاني أكبر حزب بعدد من النواب بلغ مئة وسبعة (في الأيام العشرة التي سبقت هذه الانتخابات كان قد قُتل 24 شخصًا في بروسيا وحدها وجرح 285 شخصًا، إضافة إلى عشرات من التفجيرات)، قرر المشاركون في إدارة معهد البحث الاجتماعي - هوركهايمر وبولوك وفليكس فايل وليو لوفنتال - اتخاذ إجراءات وقائية في حال أصبح انسحاب المعهد ضروريًا. كانت الخطوة الأولى من تلك الإجراءات، بناء على اقتراح هوركهايمر، هي إنشاء فرع للمعهد في جنيف، يخدم رسميًا العمل العلمي وحده، وهذا يعني استغلال الأرشيف الغني للوكالة الدولية للعمل التي تتخذ من جنيف مقرًا لها. في كانون الأول/ ديسمبر 1930 تقدم هوركهايمر بطلب إلى الرئيس الأعلى لمقاطعة هِسِن-ناساو ومفوض الدولة لجامعة فرانكفورت أ. م، أن يعفيه من واجبات الخدمة في الفصل الدراسي الحالي والتالي "لِثلاث أو أربع مرات ولأربعة أو خمسة أيام في كل مرة". "ينوي المعهد الذي أُوكلت إلي إدارته منذ أول آب/ أغسطس هذا العام، أن يقوم بأبحاث واسعة حول الحالة الاجتماعية والثقافية لشرائح العمال والموظفين الكبار. لا بد لهذه الغاية من التعاون المعمق مع الوكالة الدولية للعمل في جنيف، لأن المشاركين في العمل والمواد المتجمعة هناك هي أدوات مساعدة ضرورية لإنجاح مشروعنا العلمي. تحتاج المواد، بشكل خاص، إلى تقويم متخصص ومراقَب دومًا من علماء الاجتماع العاملين معنا. لهذا قرر معهد البحث الاجتماعي إنشاء فرع أبحاث دائم في جنيف. ولهذا الغرض سوف يكون من الضروري أن أقيم أنا، بوصفي مديرًا للمعهد، العلاقات الضرورية مع وكالة العمل، وأن أستعلم محليًا من حين إلى آخر عن سير دراسات أعضاء معهدنا"[265]. في الوقت ذاته، حصل مدير المعهد على مسكن في جنيف. نقل مديرو المعهد منذ عام 1931 ثروة مؤسسة المعهد من ألمانيا ووضعوها في هولندا. "لم نُبقِ في فرانكفورت لدى البنك الألماني إلا دفترًا ائتمانيًا يغطي تقريبًا احتياجات المعهد الشهرية"[266]. نُقلت حقوق ملكية

---

(265) مراسلات هوركهايمر مع الرئيس الأعلى لمقاطعة هسِّن-ناسّاو ومفوض الدولة لدى جامعة فرانكفورت في مدينة كاسِّل، 4 كانون الأول/ ديسمبر 1930.

(266) Löwenthal, *Mitmachen wollte ich nie*, p. 68.

مكتبة المعهد في البداية إلى جمعية الدراسات الاجتماعية العلمية في زوريخ - وهي فرعٌ من المعهد - ثم نُقلت، في نهاية عام 1932 أو بداية 1933، إلى جامعة لندن للعلوم الاقتصادية.

بدأ على هذا الأساس تطور التوجّه العلمي الجديد لعمل المعهد، وقد وقع ذلك في عصر ازدهار جامعة فرانكفورت. درّس فيها، في بداية الثلاثينيات، الفيلسوف واللاهوتي باول تيليش، وعالم الاقتصاد أدولف لوفه، وعالم التربية كارل منيكه (كان هؤلاء الثلاثة ينتمون إلى الاشتراكيين المتدينين)، وعالم الاجتماع كارل مانهايم، وعالم اجتماع القانون هوغو زينتسهايمر (Hugo Sinzheimer)، وعالم قانون الدولة وعالم الاجتماع هرمان هلر (منذ عام 1932)، وعالم المال فيلهلم غرلوف (Wilhelm Gerloff)، والفيلسوف الديني اليهودي مارتن بوبر، وعالم الآداب ماكس كومريل، والمؤرخ إرنست كانتوروفيتش (Ernst Kantorowicz) (جاء هذان الأخيران من حلقة غيورغه)، وعالم اللغات الكلاسيكية فالتر فريدريش أوتو وكارل راينهارت، وعالم النفس الغشتالتي ماكس فرتهايمر، وعالم النفس الاجتماعي هندريك دي مان. جاء في ذكريات أحد طلاب تلك المرحلة، كارل كورن، حول الجو الفكري الأكاديمي في فرانكفورت في تلك السنوات: "كنا مع هذه الأسماء والشخصيات - كما تخيّلنا يومئذ - في مستوى جامعة هايدلبرغ ومثيلاتها من الجامعات المشهورة جدًا، وكنا نتميز من المعاهد التقليدية ليس بالشهرة فحسب، بل أيضًا بالنشاطات السياسية-الفكرية المعاصرة جدًا.

عرفت فرانكفورت يومذاك اختصاصين، [...] الأدب الألماني وعلم الاجتماع يصبحان بؤرة السجالات السياسية-الفكرية [...] كان الفلاسفة وعلماء الاجتماع من جهة، وعلماء الأدب الألماني ومن ضمنهم علماء اللغات الكلاسيكية من جهة ثانية، يعرف بعضهم بعضًا، ويلتقون ويتناقشون في ما بينهم. كان لكل هذا على الجانبين صبغة الحصرية. كان لا بد لأحدنا، إن أراد المشاركة بوصفه طالبًا، أن يكون 'فيها'، كي يعرف أماكن الاجتماعات ومواعيدها. لكن ما كان مهمًا أن بين الاتجاهين المتعارضين، أتباع حلقة غيورغه وعلماء الاجتماع، اللذين كانا عمليًا أصدقاء في البداية، كانت هناك فئة كبيرة في الوسط، أبقت في يدها بقوة العمل الأكاديمي التقليدي وتابعته.

كان لهذا، من بين أمور أخرى، تأثير مُجدٍ في هؤلاء الخارجيين المتألقين الذين لديهم أحيانًا ميل إلى القنزعة، بحيث إنهم لم يسلموا أنفسهم للميوعة العلمية. سيكون من الخطأ افتراض أن الظلال اليسارية المتنوعة التي كانت توجد حينذاك حول قسم الفلسفة، والتي كانت تمارس سحرًا محددًا، لم يكن إيجابيًا دائمًا على أساتذة العلوم الإنسانية، ولا سيما أساتذة وطلاب الأدب، وكان يمكن اختزالها ببساطة بقاسم مشترك، اسمه 'الماركسية' [...] كان يلمع كثيرًا [...].

لو أريدَ إيجاد قاسم مشترك لليسار الروحي الذي تكوّن حوالى عام 1930 في كلية الفلسفة، لوجب القول إن الأيديولوجيا ونقد الأيديولوجيا أصبحتا في هذه الكلية منهجيًا لأول مرة موضوعًا؛ أي إن علاقات الأفكار غدت تُبحث بالمعنى الأوسع مع الأساس الاجتماعي"[267].

تألف اليسار الروحي من معهد علم الاجتماع الذي كان يديره كارل مانهايم، ومعهد البحث الاجتماعي بإدارة هوركهايمر، والمجموعة التي تحيط بباول تيليش. لم يكن بين قسم علم الاجتماع الذي كان مقرّه في الطابق السفلي من مبنى معهد البحث الاجتماعي وبين معهد البحث الاجتماعي أي تماس تقريبًا، وهذا ما أكده نوربرت إلياس الذي قَدِم آنذاك من هايدلبرغ إلى فرانكفورت كمساعد لمانهايم، في خطبته بمناسبة تسلمه جائزة أدورنو التي تمنحها مدينة فرانكفورت. لكن مانهايم وهوركهايمر وأدورنو كانوا جميعهم جزءًا من "الحلقة" ويتعاونون مع المجموعة التي تحيط بتيليش. تعطي نظرةٌ إلى دليل المحاضرات الجامعية في ذلك الوقت الانطباع بأن اليسار الروحي كان يشكل جناحًا مهمًا ومنغلقًا نسبيًا، وأن هوركهايمر لم يقف وحده مع برنامجه لنظرية اجتماعية متعددة الاختصاصات. كانت تُقام جلساتٌ مشتركة بين تيليش وهوركهايمر (الفصل الدراسي الصيفي 1930: حلقة دراسية إعدادية: قراءة نصوص فلسفية؛ الفصل الدراسي الشتوي 1930/1931: حلقة دراسية إعدادية: قراءاتٌ من لوك؛ الفصل الدراسي الصيفي 1931: حلقة دراسية إعدادية: قراءة كاتب فلسفي)، ومن تيليش وفيزنغروند (الفصل الدراسي

(267) K. Korn, *Lange Lehrzeit*, pp. 115 f.

الشتوي 1931/ 1932 حلقة دراسية إعدادية: قراءة نصوص مختارة من كتاب هيغل **فلسفة التاريخ**؛ الفصل الصيفي 1932 حلقة بحث إعدادية: لسينغ، تربية الجنس البشري، الفصل الشتوي 1932/ 1933 حلقة بحث إعدادية: زيمل، مشكلات الفلسفة الرئيسية)، من تيليش وريتسلر وغيلب وفرتهايمر (الفصل الصيفي 1930 حلقة دراسية؛ الفصل الدراسي الصيفي 1931: محاورة فلسفية)، ومن مانهايم ولوفه وبرغشتراسر ونواك (منذ الفصل الشتوي 1931/ 1932 حتى حل المعهد في عام 1933 كانت هناك مجموعة دراسية تركز على التاريخ الاجتماعي وتاريخ الأفكار). على أن النشاط المشترك الأول لِهوركهايمر وفيزنغروند - **تمارين في فلسفة الدولة لتوماس هوبز** - والذي أُعلن عنه للفصل الدراسي الصيفي في عام 1933 لم يحصل البتة.

في كولونيا كان علم الاجتماع بزعامة ليوبولد فون فيزه يُمارَس بوصفه نظرية علاقات عقيمة، وكانت الدراسات التجريبية مقتصرة على جولات ميدانية متباعدة؛ وفقدت هايدلبرغ التي كانت يومًا مركز علم الاجتماع الألماني بذهاب مانهايم إلى فرانكفورت عالم اجتماعها الأكثر نجاحًا وتألقًا آنذاك، لهذا تحولت فرانكفورت في بداية الثلاثينيات إلى المكان الذي تمركز فيه التفكير المهم لنظرية المجتمع بطريقة فريدة من نوعها بالنسبة إلى ألمانيا.

قام إنجاز هوركهايمر العلمي السياسي على منح عمل معهد البحث الاجتماعي طابعه الخاص به وعلى حماية العمل في الوقت نفسه من ردات الفعل الدفاعية التي يمكن أن تتهدد ممتلكات المعهد بسبب التوجّه الجديد. لعب هوركهايمر أمام المشهد الجديد في فرانكفورت على علاقة أقوى لمشروعه بالواقع وعلى استخدام "آلية ضخمة للبحث التجريبي". وبهذا ابتعد هوركهايمر، في الوقت نفسه، عن اتجاهات علوم الروح [العلوم الإنسانية] أو الاتجاهات الميتافيزيقية في علم الاجتماع الألماني. وأكد بوجه علم الاجتماع التخصصي وممثليه أنه لا يدعي تمثيل اختصاص بعينه، بل إن مشروعه "ليس إلا" مشروع معرفة العملية الاجتماعية بأكملها. اعتبر من كانوا يفكرون في إقامة اختصاص منفرد، "علم الاجتماع"، مشروع هوركهايمر مشروعًا جنونيًا، واعتبروه عودة إلى تصور علم شامل اجتماعي؛ لقد كان هؤلاء في حاجة إلى علم كهذا، وهم لا يريدون أن يقرّوا صراحة بأن علم اجتماع تخصصيًا يفترض

عملًا سابقًا. لكنهم لم يكونوا يخشون من أن علمًا كهذا سوف يُثقل طموحاتهم الشخصية. أرسل هوركهايمر[268] ليو لوفنتال بالذات بمهمة إلى ليوبولد فون فيزه - كان هذا الأخير مدير قسم علم الاجتماع في أول معهد للأبحاث الاجتماعية في ألمانيا، وكان القائم على نشر تلك المجلة العلمية المتخصصة في نشر علم الاجتماع فقط، والتي ظهرت فيها منذ عام 1923 أخبار الجمعية الألمانية لعلم الاجتماع؛ وكان يشغل، بوصفه مدير هذه الجمعية، المنصب الرئيس لتطوير علم الاجتماع الألماني في ذلك الوقت - لكي يوضح له أن **مجلة الأبحاث الاجتماعية** لا تريد أن تنافس مجلته **دفاتر كولونيا الفصلية في علم الاجتماع**. على هذا النحو، أبقى هوركهايمر المعهد بعيدًا إلى حد كبير عن السجالات الدائرة داخل علم الاجتماع وحول علم الاجتماع.

لكن عدم التدخل في السجالات ذات الطابع السياسي كان مستحيلًا، على الرغم من أن هوركهايمر لم يقف - مثل باول تيليش - إلى جانب الاشتراكية، ولم ينتمِ - مثل هوغو زينتسهايمر أو هرمان هلر - إلى الديمقراطيين الملتزمين والخصوم الذين أعلنوا معاداتهم للنازية. منذ نجاح الحزب النازي في انتخابات عام 1930، أخذت الخصومات السياسية حتى في أوساط البرجوازيين والاشتراكيين الديمقراطيين في فرانكفورت - التي سماها النازيون "أورشليم الجديدة على نهر الأردن" - أشكالًا محسوسة. بعد انتخابات أيلول/ سبتمبر، ظهر ذات يوم مئاتٌ من رجال الأمن النازيين [SA] أمام مدخل الجامعة الرئيسي، وراحوا ينشدون أغنية هورست-فيسل التي كان النازيون ينشدونها في جميع أنحاء ألمانيا. كان هذا، بالنسبة إلى أحد الذين حصلوا على منحة في معهد البحث الاجتماعي ويدعى جوزف دونر، الدافع إلى إقامة تشكيل دفاع ذاتي من أعضاء جماعة الطلبة الحمر وروابط الطلاب اليهود والكاثوليك وأكاديمية العمل والنقابات. يقول دونر في مذكراته: "كانت جامعة فرانكفورت حتى الأسابيع الأولى من عام 1933 واحدة من الجامعات الألمانية القليلة التي كان النازيون قد جلبوا إليها رؤوسًا دموية، عندما حاولوا احتلال بوابات الجامعة

---

(268) يُراجع:

M. Jay, *Dialektische Phantasie: Die Geschichte der Frankfurter Schule und des Instituts für Sozialforschung 1923-1950*, p. 46.

أو إثارة صدامات داخل أروقة الجامعة مع الطلاب اليساريين واليهود"[269].
"قام النازيون - وهم شبان شجعان بالمناسبة - مؤخرًا بزيارتنا زيارة عنيفة"، هكذا علق عضو "حلقة غيورغه" ماكس كومرل في صيف 1932 بعد هجوم شنّه نازيون بثيابهم الحزبية على مبنى الجامعة الرئيسي. "ربما أغضبهم أن تكون جامعة غوته، أقلّه في قسمي الفلسفة وعلم الاجتماع، الأرض الخصبة لميكروبات الأفكار الماركسية [...] من المؤسف أن الميزانية الروحية للنازيين كانت تفوح كثيرًا برائحة العوز المؤقت!"[270]. توقفت المناقشات الليبرالية بين اليمينيين واليساريين في تلك السنوات حتى في جامعة فرانكفورت. كانت كلمة علم الاجتماع - كما يقول كارل كورن في مذكراته[271] - أشبه بعلم يهودي.

على هذه الخلفية تابع المعهد البحث في أوضاع العمال والموظفين المؤهلين في ألمانيا الذي وضع مخططه فروم، وأعلنه هوركهايمر كخطوة أولى في إطار مشروع تجريبي ضخم للمعهد. في هذا الوضع المتأزم الذي كان ملموسًا في فرانكفورت أيضًا، ظهرت في صيف 1932 - بغض النظر عن كتاب فيتفوغل **الاقتصاد والمجتمع في الصين** الذي نشر في عام 1931 كمجلد ثالث في سلسلة "كتابات معهد البحث الاجتماعي" - مع العدد الأول من **مجلة الأبحاث الاجتماعية**، أول منشورات المعهد منذ أن تسلم إدارته هوركهايمر.

كان الهدف الأصلي من الاستطلاع حول العمال والموظفين الوقوف على حقيقة البناء النفسي للعمال والموظفين. لم يكن ممكنًا تحريض هذا الفضول إلا من خلال الأعمال السابقة التي تناولت هذه الشرائح. كان الواقع الذي انطلقت منه هذه الأعمال النمو السريع لمساهمة عدد الموظفين في العدد الإجمالي للأفراد العاملين وتراجع مساهمة العمال التي شكلت في عام 1925 أقل من 50 في المئة، حتى في مجالاتٍ كالصناعة واستخراج الفحم الحجري، حيث كان العمال يشكلون الأكثرية الكبرى من مجمل العمال، ثم تراجع عددهم.

---

(269) Joseph Dünner, *Zu Protokoll gegeben, Mein Leben als Deutscher und Jude*, pp. 65 f.

(270) رسالة من كومرل إلى هوسرل، 10 تموز/يوليو 1932، في:
Max Kommerell, *Briefe und Aufzeichnungen 1919-1944*, pp. 26 f.

(271) Korn, p. 134.

كان من بين أهم الأعمال حول هذا الموضوع مقالة إميل ليديرر بعنوان "تعديل طبقات البروليتاريا والطبقات البينية الرأسمالية قبل الأزمة" التي ظهرت في عام 1929 في مجلة *Neuen Rundschau* **(النظرة العامة الجديدة)** ودراسة زيغفريد كراكاور "الموظفون: تقرير من ألمانيا الجديدة" التي نُشرت في عام 1929 في سلسلة مقالات في الملحق الأدبي لـ **صحيفة فرانكفورت**، ثم صدرت في كتاب في عام 1930. تأرجح ليديرر بين فرضيتين أساسيتين: أولاهما، إن سقوط ظاهرة التحديد الذاتي وتجربة اكتساب قدر أكبر من السيطرة على عمليات أكثر شمولية للإنتاج سيوحّدان يومًا ما الموظفين والعمال في محاولة لإعادة تشكيل النظام الاقتصادي القائم الذي فرض عليهم التبعية. أما الفرضية الثانية، فمفادها أنه كلما ازدادت نسبة موظفي الدولة بين الأفراد الذين يعملون لجهة ما في مقابل العمال، ازداد نزوع المجتمع نحو الانقسام بين قلة مسيطرة وعدد أكبر من التابعين. هذا النزوع سيكون ردة فعل على هذا الانقسام من خلال تأييد بنية مجتمع تراتبي تتجمد فيها الفوارق الاجتماعية التي يدافع عنها بقوة في شكل أولي غير مكتمل.

كان تقرير كراكاور المتقن الذي أثبت بذكاء فهمه لنظرية مادية غارقة في الحقائق التجريبية، حجةً دامغة ضد الفرضية الأولى. حددت كل التوصيفات في تقريره مدى وشكل الإجماع على جعل حياة الموظفين مغرية؛ حياةٌ تجمع عملًا نمطيًا وبهرجة برجوازية رخيصة. "في اللحظة عينها التي كان يتم فيها تقنين المعامل، كانت تلك الأماكن[272] تقونن التسلية التي تقدمها إلى جيش الموظفين. في رد على سؤالي: لماذا كانوا يُعنون بالجماهير بوصفها جماهير، أعطاني موظف جوابًا مريرًا: 'لأن حياة الناس أُفقرت إلى حد أنهم ما عادوا يعرفون ماذا يمكنهم أن يفعلوا بحياتهم'. فالأمر سيّان، إن تصرفت بشكل أو بآخر: كانت الجماهير في الأماكن المعنية ضيفًا على نفسها؛ وذلك ليس مراعاةً للمنفعة التجارية لصاحب المعمل فحسب، بل أيضًا من أجل عجزهم غير المحدود. كانوا يدفئون بعضهم البعض، ويعزون أنفسهم لأنهم لا يستطيعون الإفلات من الكَمّ. الانتماء إليه يغدو سهلًا من خلال المحيط الأرستقراطي

(272) بيت الوطن – أي دار سينما مقر إقامة الملك – وموكا إتفي في برلين.

السامي"[273]. وإذا تبيّن أن الرأسمالية التي كان يتناقش حتى أتباعها على الأقل بشأن نهايتها في ضوء الأزمة الاقتصادية العالمية وظهور الحكومات المستبدة، إذا تبيّن أنها ما عادت قادرة على البقاء على حالها القديمة، تبيّن في المقابل أن العاملين أصحاب المراكز العليا التابعين، لم يكونوا يريدون شكلًا آخر من اقتصاد. على عكس ذلك، بدأ يظهر استعداد المستخدمين لإكمال "وجودهم العادي بفظاعته غير الملحوظة"[274] من خلال الرونق والتسلية واللهو، وإكمال مؤسسة العمل بمؤسسة التسلية، لتغدو مثالًا للعمال، عندما كان يمكن مثلًا لمرحلة العقلنة بين عامي 1925 و1928 التي كانت قد غزت بالآلات وطرق الناقلات الآلية أيضًا قاعات المستخدمين في المعامل الكبرى، أن تقرّب موقف المستخدمين من موقف البروليتاريا الواعية طبقيًا.

كانت لدى هوركهايمر أيضًا نزعتان متضاربتان في مرحلة الانتظار. أثبت من جهة أن الطبقات المسيطَر عليها التي لم تكن تكمن تبعيتها في حقيقة أن "ما كان يُعطى لها لتأكله لم يكن كافيًا، بل تكمن في الإبقاء عليها في حالة تدعو إلى الرثاء روحيًا ونفسيًا"، "إذا كانت القردة حراس سجونها، فإنها تقدس رموز سجنها، وهي على استعداد ليس لشيء من قبيل الانقضاض على حراسها، بل كانت على استعداد لتمزيق من كان يريد تحريرها منهم إربًا إربًا"[275]. واعتقد هوركهايمر من جهة أخرى أن "التطور الاجتماعي يدمر [...] إلى جانب الأسرة السليمة داخل طبقات أخرى، قبل كل شيء أسر البرجوازية الصغيرة وأُسر الموظفين، أي المكان الوحيد للعلاقات المباشرة بين الناس. وهو يقيم في المقابل ضمن مجموعات محددة من البروليتاريا بدلًا من المجموعات الطبيعية التي لا تعي ذاتها إلى حد بعيد - حيث الأسرة الصغيرة، منتج التفكك الأخير لتلك المجموعات، تتعرض اليوم للزوال - جماعات جديدةً واعيةً على أساس مصالح مشتركة معروفة [...] يعتمد نشوء هذا التضامن البروليتاري على العملية ذاتها التي تدمر الأسرة"[276].

---

(273) S. Kracauer, *Gesemmalte Schriften*, vol. 1, pp. 285 f.

(274) Ibid., p. 298.

(275) Horkheimer, *Dämmerung*, p. 316.

(276) Ibid., p. 342.

حاول ماركس نفسه أن يربط خيبة الأمل والسخط اللذين ينبثقان من لاأنسنة العمل ومن البؤس، بنمو القدرات المستقبلية الذي من المفترض أن تجلبه معها حركية العامل في كل الاتجاهات في عملية الإنتاج الرأسمالية. غير أن ذلك لم يكن يُتوقع حصوله إلا إذا كانت، بالضبط، الأنشطة التي لم تنل اهتمامًا كافيًا داخل شكل الاقتصاد القديم استباقًا لشكل جديد ومتفوق من الاقتصاد. إلا أن ذلك لا يمكن أن يُقال عن أعمال العمال ولا عن أعمال الموظفين. مثلما أنه لا يمكن جعل ذلك معقولًا لمجالات مثل الحياة العائلية والحياة الثقافية، وغيرها من المجالات. لم يقدّم ليديرر أو كراكاور، ولا حتى هوركهايمر أو فروم، حالات واقعية بإمكانها أن تكون برهانًا في أي ميدان على أن التابعين هم السباقون إلى شكل اقتصادي ومعيشي أعلى. ولهذا السبب لم يتبق إلا اللجوء إلى التمييز بين جماهير العمال والموظفين المتماهية مع العلاقات السائدة وبعض الفئات المتقدمة. من هنا لم يعد بالإمكان الافتراض أن هؤلاء يتمتعون بمزايا ثورية مقارنة بمجموعات برجوازية تقدمية. فالاعتقاد بوجود الجدلية بين قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج، وبأن قوى الإنتاج هزت قيود علاقات الإنتاج الرأسمالية، كان بالنسبة إلى إيمان هوركهايمر بمثابة انقلاب ثوري أكثر جذرية من إقرار الاتجاهات الثورية الخاصة بالطبقات. لكن، إذا لم تكن الجماهير ثورية، فهل تتيح، على الأقل، للجماعات التقدمية أن تجرّها معها؟ يبدو أن هوركهايمر لم يكن على استعداد للمجازفة بإعطاء جواب ولو مؤقت عن هذا السؤال؛ إذ إن "العلاقات متشابكة جدًا. يحقق نظام مجتمع قديم أصبح سيئًا، الوظائف للمحافظة على حياة البشر في مستوًى معين وتجديدها، حتى لو ترافق ذلك بآلام لا ضرورة لها"[277].

وصلت نهاية عام 1931 آخر استمارات الاستبيان المرسَلة وعددها 1100. لم تكن معاناة هوركهايمر وفروم من المرض ولا نقص الخبرة في البحث الاجتماعي التجريبي هما اللذان أدّيا إلى عدم مواصلة العمل على تقويم الاستطلاع بالزخم المطلوب، بل كان للنتائج التي ارتسمت باكرًا دور في ذلك أيضًا. اختلف الاستبيان حول العمال والموظفين عن أشكال أخرى

(277) Ibid., p. 243.

اتُّبعت في الأبحاث الاجتماعية النفسية حول الطبقة العاملة – مثل تلك التي قدمها مثلًا تيودور غايغر في مقالة له بعنوان "حول نقد البحث النفسي للعمال"، نُشرت في مجلة *Die Gesellschaft* **(المجتمع)** الشهرية ذات الميول الاشتراكية الديمقراطية – اختلف قبل كل شيء في أمر واحد: سيئته أنه لم يرغب في الاكتفاء، بسبب التمثيل، بدائرة ضيقة من المستبيَنين يعرفهم المُستبْيِن شخصيًا، لكنه لأسباب مالية أيضًا لم يتمكن من إجرائه بأسلوب المقابلات الشخصية على نطاق واسع على غرار مثال التحليل النفسي، وقد حاول أن يعوض هذا العيب جزئيًا من خلال إدخال مثل هذه الأسئلة البريئة من بين أسئلة أخرى في دفتر الاستبيان الشامل على نحو غير عادي بمواضعه المئتين والواحد والسبعين، تُتيح استنتاجات تتعلق بملامح شخصية ومواقف قلّما نراها في هذه الأيام. كان يمكن هذه الاستنتاجات أن تُخْضَع لرقابة معينة يُقاس بموجبها الانطباع العام عن إجابات شخص ما.

تبيّن، على سبيل المثال – وهذا لم يكن مفاجئًا لقارئ كتاب فروم **تطور عقيدة المسيح** – أن نظرية سياسية يسارية قد تؤكد ذاتها بوصفها إشباعًا بديلًا لعامل أو موظف تكيّف نفسيًا مع المجتمع الطبقي. أما الملاحظة العامة التي ثبتت علميًا والتي تفيد بأن أغلبية العمال اليساريين سياسيًا يشبهون في الطباع باقي أعضاء المجتمع الرأسمالي البرجوازي، فلم تجعل اليساريين أكثر تيقظًا وتوحدًا، بل جعلت اليمينيين أكثر ثقة بالنصر. ازداد الأمر صعوبة بظهور شكوك مهمة بخصوص أخطاء منهجية، أو لنقل مريبة. بالنظر إلى هذا الوضع، نشأ لدى هوركهايمر، في وقت مبكر جدًا، الميل إلى رؤية معنى هذا المسح الأول الذي قام به المعهد خصوصًا في تطوير الآلية المنهجية، وألا تُنشر نتائج البحث إلا بعد إجراء أبحاث جديدة وبعد توسيع القاعدة التجريبية.

غدت **مجلة الأبحاث الاجتماعية** أداة النشر الأولى التي تُظهر اتجاه المعهد وقدرته على الإنجاز تحت إشراف مديره الجديد. والمجلة، كما برنامج البحث المتعدد الاختصاصات، فكرة هوركهايمر أيضًا. كان لوفنتال رئيس التحرير المسؤول عن المجلة التي تصدر ثلاث مرات في السنة. كرّس لوفنتال، الذي كان قد تنازل بعد تعيينه في المعهد بدوام كامل عن وظيفته كمدير لمدرسة ثانوية وكان متحررًا من أي التزامات جامعية، كرّس كل قوة عمله في خدمة

المعهد، وخصوصًا في خدمة **مجلة الأبحاث الاجتماعية** التي صدرت بانتظام على مدى عقد من الزمن تقريبًا. وفي ما عدا أنها كانت تصدر عن دار النشر ذاتها (هيرشفلد في لايبزيغ) التي كانت تُصدِر يومًا [مجلة] **أرشيف** غرونبرغ وبرونق مشابه، كانت **مجلة الأبحاث الاجتماعية** مختلفة بشكل واضح عن سابقتها. فقد صدرت في قسم المقالات، منذ الهجرة على وجه استثنائي تقريبًا، أبحاث العاملين في المعهد حصرًا، وهذا ما جعلها "لسان حال" المعهد (كما قدمها لاحقًا، في عام 1938، المعهد بشكل واضح في عرض ذاتي). سجلت الأبحاث الاجتماعية التاريخية والاقتصادية التاريخية انكفاءً (وهي التي كانت تُخصَّص لها في **الأرشيف** حصةٌ خاصة دائمة) في حين هيمنت مقالات تُعنى بفهم الوضع الراهن للبلدان الرأسمالية المتقدمة. أما القسم النقدي في المجلة الذي يقدم مراجعات نقدية مقسمةً على مجالات الفلسفة، وعلم الاجتماع العام، وعلم النفس، والتاريخ، والحركة الاجتماعية والسياسة الاجتماعية وعلم الاجتماع المتخصص والاقتصاد (ألغي الأدب ثانيةً بعد ظهوره مرتين)، فتولى جديًا "المراقبة المتواصلة للعمل في مختلف العلوم" (تكلم هوركهايمر عن ذلك في عام 1937 في مقدمته بمناسبة السنة السادسة لظهور المجلة).

كان للطريقة التي نُظّم فيها قسم المقالات في العدد الأول - وكان عددًا مزدوجًا - دلالة كبيرة من أوجه مختلفة. فقد تضمّن، إضافة إلى نص عام لهوركهايمر، نصَّين في الاقتصاد، ونصَّين في علم النفس ونصَّين في البنية الفوقية الثقافية. لكن هذه النصوص لم تُنشر بهذا التسلسل الموضوعي، بل نُشرت بحيث يأتي بعد المدير، هوركهايمر، ومعاونه المقرب ونائبه الفعلي، أي بولوك، فروم الذي ملأ بأبحاثه في علم النفس الاجتماعي التحليلي برنامجَ الأبحاث المتعدد الاختصاصات بمادة، ومن بعده غروسمان، الذي كان، بوصفه المساعد المنظِّم للمعهد منذ سنوات طويلة، وأكبر المساعدين سنًا، والاقتصادي الماركسي المختص يجسد تقليدًا راسخًا في المعهد لا يمكن ولا يجب تجاهله؛ وقد قال هوركهايمر عن عمله إنه "يتطابق إلى حد ما مع وجهات نظرنا"[278]. ثم يليه في الترتيب لوفنتال الذي كان يرى هوركهايمر

(278) رسالة من هوركهايمر إلى بولوك، 12 آب/ أغسطس 1934.

فيه، بوصفه مساعدًا متعدد المواهب ومستعدًا لتقديم التضحيات ورئيس تحرير المجلة، شخصًا لا يمكن الاستغناء عنه. أخيرًا يأتي فيزنغروند-أدورنو الذي لم يكن عضوًا في المعهد، وكانت الموسيقى موضوعه الخاص، موضوعًا تفرّد به أدورنو بطريقة غريبة عن اهتمامات مجلة للبحث الاجتماعي. لكن عبقريته أعجبت هوركهايمر من قبل إعجابًا شديدًا، وهو ما جعله يوافق على نشر مقالة له طويلة ومسهبة، بحيث صدر جزؤها الثاني في العدد التالي.

شخص واحد غاب عن هذا الترتيب الذي يعكس بأمانة التوجّه الجديد للمعهد الذي قلل من شأنه في وقت ما التقليد الذي أرساه غرونبرغ؛ هذا الشخص هو فيتفوغل. عرضت إدارة المعهد على فيتفوغل منحة شهرية يُفترض أنها كانت كافية لتمول رحلته إلى الصين لمتابعة مراجعته لكتابه **اقتصاد الصين ومجتمعها** الذي لاقى إعجابًا كبيرًا لدى القراء. إلا أن فيتفوغل كان يفضّل، نظرًا إلى الوضع الحرج في ألمانيا، أن ينخرط في الصراع السياسي. وافقت إدارة المعهد على ذلك، فدعمته "بدخل شهري قليل، لكن منتظم"[279]. هكذا اجتمعت الظروف الملائمة لاستراتيجية هوركهايمر، بحيث استطاع فيتفوغل، مدعومًا من المعهد، أن يتحدث ويكتب خارج إطار المعهد عن معاداة السامية وعن الأسباب الاجتماعية والاقتصادية لظهور النازية ونجاحاتها بين الجماهير، في حين لم يكن يُذكر شيء من هذا القبيل في **مجلة الأبحاث الاجتماعية**، ولم تحضر الأحداث الكارثية الاقتصادية والسياسية لتلك الفترة إلا في بضع مقالات في شكل مفاهيم باهتة مثل "أزمة" أو "رأسمالية احتكارية".

نُشرت في العدد الأول من المجلة مقالات تناول القليل منها تحليل الوضع الراهن، لكن الكثير منها كان دفاعًا عن المفهوم المادي أو الاقتصادي للتاريخ (وهي مفاهيم نموذجية كانت منتشرة يومذاك، ولم تكن حكرًا على أعضاء المعهد الشديدي الحذر) ودعوة إلى تطبيقها في مختلف المجالات. وباستثناء مساعدي غرونبرغ السابقين، بولوك وغروسمان، ضمّن كل واحد من المؤلفين بحثَه لمحةً قصيرةً عن المادية التاريخية. وخلافًا للاقتصاديَّين بولوك وغروسمان اللذين كان من المسلّم به أن تكون لديهما بحكم

(279) K. Wittfogel, in: M. Greffrath, *Die Zerstörung einer Zukunft*, p. 316.

اختصاصهما، على الأقل، معرفة تاريخية عقائدية بالموقف الماركسي، كان هوركهايمر وفروم ولوفنتال وأدورنو يشعرون جدًا بأنهم رواد النزعة المادية في اختصاصاتهم.

يعني المفهوم المادي للتاريخ في أعين هؤلاء: رؤية البنية الطبقية والاستبدادية للمجتمع القائم وتعيين الوعي من خلال الكينونة الاجتماعية، والوقوف إلى جانب تحرير القوى المنتجة المستعبَدة لمصلحة الطبقة السائدة - تحرير العلم بوصفه قوة إنتاج - كما ذكر هوركهايمر في [كتابه] **ملاحظات في العلم والأزمة**[280]؛ وتحرير قوى الإنتاج من خلال تنظيم جديد يعتمد على التخطيط الاقتصادي، كما يقول بولوك في مقالته عن "وضع الرأسمالية الراهن وآفاق تنظيم جديد للتخطيط المركزي"[281]؛ وتحرير نمو تنظيم الأنا والقدرة على الارتقاء أو تحرير خصائص الطابع الجنسي، برأي فروم في مساهمته "حول منهج ومهمة علم نفس اجتماعي تحليلي"[282]؛ وتحرير القوى المنتجة الموسيقية، بحسب أدورنو كما جاء في مقالته "عن الوضع الاجتماعي للموسيقى"[283]. بدا وكأن المؤلفين يشعرون بأنهم على متن قطار التاريخ الضخم، تمامًا كما شعر يومًا غرونبرغ في أول خطبة له بمناسبة افتتاح المعهد في عام 1924. وكما بدا لغرونبرغ، بدا لهم أيضًا أن طابع النظرية غير الدوغمائي الافتراضي والخاضع لرقابة إمبيريقية الذي شدد عليه هوركهايمر ولوفنتال لا يمكن أن يُغيّر شيئًا في قناعاتهم الأساسية بسبب تباطؤ التقدم حصرًا.

في الواقع، كان الأمر أكثر تعقيدًا. فقد رأى بولوك أن "الشروط الاقتصادية لتنظيم الاقتصاد برمّته تنظيمًا يعتمد على تخطيط اقتصادي تطور إلى حد بعيد في كنف النظام الاقتصادي الحالي"[284]: كان مركز ثقل الإنتاج الصناعي في معامل الإنتاج الضخم، ووصلت عملية المركزة إلى درجة عالية، وكانت الوسائل التقنية والتنظيمية للتغلب على مهمات إدارة اقتصادية مركزية معروفة،

---

(280) *Zeitschrift für Sozialforschung* (*ZFS*) (1932), p. 1.

(281) Ibid., p. 19.

(282) Ibid., pp. 47, 276.

(283) Ibid., p. 123.

(284) Ibid., p. 21.

وكانت هناك احتياطيات إنتاجية ضخمة[285]. غير أن بولوك لم يشك في أنه يمكن، من منظور اقتصادي خالص، التغلب على "هذه الأزمة" - الأزمة الاقتصادية العالمية - بوسائل رأسمالية، وأن الرأسمالية الاحتكارية قد تصمد لمدة لا يمكن التنبؤ بها"[286]. وفي نظره كان التخطيط الاقتصادي الرأسمالي ممكنًا، مثل التخطيط الاقتصادي الاشتراكي. لكن الاعتبارات السياسية وحدها هي التي كانت تعوق - برأيه - النوع الأول. ولن يسمح مالكو وسائل الإنتاج باختزالهم إلى مجرد متلقين للمعاشات التقاعدية[287]. أما آفاق النوع الثاني، فلم تبدُ لبولوك أكبر في المدى المنظور؛ إذ كانت المصلحة الذاتية للطبقات التي لها مصلحة به موضوعيًا ضئيلة جدًا[288]. بعد عام أقرّ بولوك للتخطيط الاقتصادي الرأسمالي بحظوظ سياسية كبيرة أيضًا: "إن رأينا السابق القائل بأن اختزال ملكية رأس المال إلى لقب تقاعد محض، يجعل تخطيطًا اقتصاديًا رأسماليًا غير مقبول، لم نعد نستطيع، بالنظر إلى إمكانات سيادة الجماهير التي أصبحت جلية، اعتباره من بين الاعتراضات الوازنة جدًا"[289]. أما أن "لا تعمل علاقات الإنتاج التي أصبحت من جديد قيدًا وغير قابلة للتعديل على مقاومة قوى الإنتاج"[290]، فبدت هذه النبوءة وكأنها تمرينٌ لا بد منه. ذلك أن بولوك لم يكن يشاطر، كما فعل غروسمان، الرأي بأن في الميل إلى رفع "التركيب العضوي" لرأس المال وإلى إسقاط مستوى الربح، يكمن خطأ بنيوي قاتل في النظام الرأسمالي. رأى الإشكالية الرئيسية في فوضى الإنتاج الذي ما عاد تنظيمه في عصر المصنع الكبير غير المرن والمحمي من الدولة ممكنًا عبر إواليات التوجيه الذاتي للسوق. إلا أن بولوك لم يحاول إثبات، ولو حتى بخطوط أولية، أن برنامج التخطيط الاقتصادي للنظام الرأسمالي لن يكفي للسيطرة على فوضى الإنتاج وعلى عدم التناسب الناتج منها بين الفروع الاقتصادية.

---

(285) Ibid., p. 20.

(286) Ibid., p. 16.

(287) Ibid., p. 27.

(288) Ibid., pp. 27, 17.

(289) Friedrich Pollock, "Bemerkungen zur Wirtschaftskrise," *Zeitschrift für Sozialforschung*, vol. 2, no. 3 (1933), p. 349.

(290) Ibid.

تضمنت مساهمات فروم في مجلد السنة الأولى من **مجلة الأبحاث الاجتماعية** إشارات خجولًا إلى مفهوم تطور طابع "القوة المنتجة"[291]. تحدث في مساهمته الأولى عن أن التبادل الاستقلابي بين عالم الغريزة والمحيط يؤدي إلى أن يغير الإنسان نفسه باتجاه يقع، قبل كل شيء، في نمو تنظيم الأنا وفي نمو قدرة الإنسان على التسامي المرتبطة بذلك. وفي مساهمته في العدد الثالث، وعنوانها "علم الطباع النفسي التحليلي وأهميته لعلم النفس الاجتماعي"، أشار إلى المشكلة الصعبة التي تتمثل في المدى الذي يمكن فيه عند البروليتاريا وعند فئات البرجوازية المتقدمة موضوعيًا الكلام عن نمو ملامح الطبع التناسلية، على خلاف مراحل التطور المبكرة الملائمة لملامح الطبع الفموي والطبع الشرجي[292]. لكن لم يقوَ على الظهور ذلك التفكير الجريء القائل إن طبع البروليتاري وطبع المواطن الأكثر تقدمًا يتلاءم، استنادًا إلى نموذج تطور نشوئي محدد، مع عناصر شكل مجتمع أرقى تتوفر بعد تحرر القوى المنتجة الضاغطة أو الموجودة سلفًا في حضن الشكل القديم للمجتمع، لكي تعزز التفاؤل الماركسي بالتقدم في مواجهة التصور الوظيفي المهيمن عند فروم بأن علاقات الإنتاج التي لا تزال سائدة هي أقدار الحياة الفعلية التي تتكيف معها البنية الليبيدوية لكل الطبقات الاجتماعية. وتبقى حقيقة أنه مع نمو التناقضات الموضوعية داخل المجتمع لا تؤثر القوى الليبيدوية بوصفها رباطًا، بل بوصفها مادة ناسفة، تفضي إلى بناء تشكيلات اجتماعية جديدة[293]، تبقى مجرد تأكيد دوغمائي لا أساس له.

طالب هوركهايمر في كتابه **ملاحظات في العلم والأزمة** بإظهار "الحدود التي تحدد العلم من خلال التضييق الطبقي" وكسرها في النهاية[294] لإعطاء مسار حر للعناصر العقلانية المحايثة للعلم. لتحقيق هذا الغرض، كان من الضروري فهم أزمة العلم من طريق توضيح العملية الحياتية الاجتماعية الكلية،

---

(291) Ibid., p. 275.

(292) Ibid., p. 276.

(293) Ibid., p. 53.

(294) Ibid., pp. 4 f.

ومن طريق "النظرية الصائبة للوضع الاجتماعي الراهن"[295]. لكن لا يمكن التغلب على تقييد العلم المشروط اجتماعيًا "إلا عبر تغيير شروطه الحقيقية في الممارسة التاريخية"[296]. إن حقيقة أن العلماء كانوا ينتظرون بلا جدوى هذا التغيير في زمن كانت البشرية أكثر غنى بوسائل الإنتاج والقوى العاملة ذات الكفاءة العالية من أي وقت مضى، إنما تشير إلى الحاجة إلى علم نفس جديد - كما بيّن هوركهايمر في مساهمته الثانية في عدد المجلة الأول التي تحمل عنوان "التاريخ وعلم النفس" - يبحث "في نشأة الإواليات النفسية التي يمكن بواسطتها إبقاء التوترات بين الطبقات الاجتماعية كامنة، تلك التوترات التي يمكن أن تتطور بسبب الحالة الاقتصادية إلى صراعات"[297]. أكد هوركهايمر أن الرأي القائل إن "الجدل بين مختلف القوى البشرية المتنامية في إطار الصراع مع الطبيعة وبين أشكال المجتمع المتقادمة" يشكل "محرك التاريخ"[298]، يجب ألا يصبح نموذج بناء شامل يحل محل الأبحاث الواقعية، بل أن يشكل مجرد "صياغة للتجربة التاريخية تلائم المعرفة الراهنة"[299]. لكن هوركهايمر لم يهتم ببحث "الأسباب الحقيقية وراء ظهور أشكال متميزة للدولة والمجتمع محل الأشكال غير المتطورة"[300]. لا، بل حصر اهتمامه بالتقدم والعقلانية على الصعيد النظري. وكتب معبّرًا عن قناعته بدور ناظم الخطى الذي يجب أن تضطلع به النظرية: "تتطلب التغطية على الأزمة الراهنة أن تتحمل المسؤولية عنها تلك القوى بالذات التي تدفع باتجاه تشكيل علاقات إنسانية أفضل، وقبل كل شيء التفكير العقلاني العلمي نفسه"[301]. أما الإشارة إلى تحرير القوة الإنتاجية للعلم والذي لا يتحقق إلا من خلال تغيير ثوري حقيقي، فلا يشكل أكثر من موسيقى نمطية مرافقة.

---

(295) Ibid., p. 7.
(296) Ibid., p. 6.
(297) Ibid., p. 136.
(298) Ibid., pp. 131 f.
(299) Ibid., p. 133.
(300) Ibid., p. 131.
(301) Ibid., p. 2.

ترافق امتلاك الفهم المادي للتاريخ عند أدورنو منذ البداية مع انتقال الإيمان بالتقدم والعقلانية إلى أبعاد البنية الفوقية. كتب في مساهمته في المجلة التي عالج فيها موسيقى شونبرغ: "إذا كان الإنتاج الأكثر تقدمًا في الموسيقى اليوم يُعطل، بسبب ضغط التطور الكامن لمشكلاته حصرًا، المقولات البرجوازية الأساسية، والشخصية الإبداعية وتعبيرها النفسي، وعالم المشاعر الخاصة، والداخل المتنوّر، ويُحِلّ محلها مبادئ البناء العقلانية والشفافة جدًا، فإن هذه الموسيقى المقيدة بعملية الإنتاج البرجوازي لا يمكن النظر إليها بكل تأكيد بوصفها موسيقى مستقبل 'لاطبقية' وحقيقية، لكن بالتأكيد بوصفها الموسيقى التي تحقق على أكمل وجه الوظيفة المعرفية الجدلية"[302]. أوصل شونبرغ "الموسيقى التعبيرية للفرد البرجوازي الخاص إلى نهايتها ملاحقًا في الحقيقة نتائجها الخاصة بها، ووضع مكانها موسيقى أخرى ليس لها في الحقيقة وظائف اجتماعية مباشرة، وقد قطعت حقًا آخر تواصل مع جمهور المستمعين، إلا أنها تترك وراءها، في ما يتعلق أولًا بالنوعية الموسيقية الكامنة فيها وثانيًا بالتنوير الجدلي للمادة، كل ضروب موسيقى العصر الأخرى، وتقدم بناء عقلانيًا مكتملًا بحيث لا يمكنها على الإطلاق أن تتوافق مع النظرة الاجتماعية الراهنة، والتي تدافع عن نفسها عندئذ بلاوعي بكل ممثليها النقديين أيضًا، وتستنجد بالطبيعة ضد هجوم الوعي الذي عرفته عند شونبرغ. مع شونبرغ، وربما لأول مرة في تاريخ الموسيقى، فهم الوعي المادة الموسيقية في الطبيعة وسيطر عليها"[303]. ولم يغب عن أدورنو أيضًا تأكيد أنه "يصعب جدًا إدراك أن الغربة الاجتماعية للموسيقى وكل ما تستخدمه لأجل ذلك نزعة موسيقية إصلاحية متعجلة وغامضة عقلانيًا من مفردات الشتيمة، مثل فردية، ومملكة فنية، وغرابة تقنية، هو نفسه واقع اجتماعي أُنتج اجتماعيًا. وهو لهذا السبب قابل للإصلاح ليس موسيقيًا، بل اجتماعيًا حصرًا، أي من طريق تغيير المجتمع"[304]. أما بأي لامبالاة بميول واقعية من هذا النوع رأى شونبرغ

(302) Ibid., p. 106.

(303) Ibid., p. 109 f.

(304) Ibid., p. 104.

"العقلنة" الأخرى[305] في مجال الموسيقى، كالنظرية، فهذا ما أظهره تأكيده الموضوعي غياب أي أمل في تغيير المجتمع. "إن الوعي التجريبي للمجتمع الحاضر الذي جُرّ إلى الضيق والغموض، وصولًا إلى الحماقة العصابية، بتشجيع من الهيمنة الطبقية للمحافظة عليها، لا يمكن "أن يعتبر مقياسًا إيجابيًا لموسيقى لم تعد مغتربة، بل مقياسًا لموسيقى الإنسان الحر. فكما لا يحق للسياسة أن تتجرد من حالة الوعي هذه التي يجب على الجدل الاجتماعي أن يحسب لها حسابًا مركزيًا، كذلك من غير الجائز أن تقبل المعرفة بأن يضع لها حدودًا الوعيُ الذي أنتجته الهيمنة الطبقية والذي لا يزال يحمل، بوصفه الوعي الطبقي للبروليتاريا، آثار التشويه التي سبّبتها آلية عمل الطبقات"[306]. ولكن، ألا يكون بذلك قد تم التخلي بشكل نهائي عن جزء جوهري من الفهم المادي للتاريخ، ولم يتبقَّ إلا تصور آلية عمل [إوالية] تطور للقوى المنتجة وعلاقات الإنتاج؟ لم يرد ذكر تعبير "الرأسمالية الاحتكارية" في أي مقالة من المقالات بالكثرة التي ذُكر بها في مقالات أدورنو. كذلك رأى أدورنو، مخلصًا للعقيدة الشيوعية في ذلك الحين، أن "الفاشية" - وكان هو الوحيد الذي أتى على ذكرها - مُوجَّهةٌ من الرأسماليين الاحتكاريين[307]. وولّد هذا انطباعًا كما لو أن أدورنو أراد باعترافه بالمفاهيم الأساسية وبالطرق الفكرية لماركسية دوغمائية، خَلْق أرضية ملائمة لتأويلاته للموسيقى الحديثة - لنفسه وفي نظر اليساريين - الذين كان يأمل منهم قبل غيرهم تعاطفًا مع الموسيقى الجديدة.

تبنّى لوفنتال في مساهمته "حول الوضع الاجتماعي للأدب" قبل غيره الفهم المادي للتاريخ، كقضية ناجزة. ساعده هذا الفهم على طرح مطلب علم أدب مادّي يقوم على المناهج الوضعية والتاريخية للقرن التاسع عشر في مواجهة علم الأدب في زمنه، الموجّه بهذا القدر أو ذاك ميتافيزيقيًا. لكن "يتعيّن على تاريخ أدب حقيقي ومفسِّر أن يكون ماديًا. وهذا يعني أن عليه أن يبحث في البِنى الاقتصادية الأساسية، كما يظهر ذلك في الشعر، وفي التأثيرات التي يمارسها العمل الفني الذي يجري تأويله ماديًا داخل المجتمع

(305) Ibid., p. 104.

(306) Ibid., p. 106.

(307) Ibid., p. 116.

المشروط بالاقتصاد"[308]. أعطى لوفنتال بعض الأمثلة على النتائج التي توصّل إليها عبر طريقة البحث الجديدة. "ففي حين ينعكس في حوار غوتسكوف الواقعي التلمُّسُ الاقتصادي لبرجوازية ليبرالية لا تزال في بداياتها في ألمانيا، يتجلى في تقنية شبيلهاغن نصرها الاقتصادي، وتحجب في النزعة الانطباعية أزمتها أيديولوجيًا أو تُقرّ ببعض الحيرة والارتباك"[309]. و"حيث تتباكى النفس البرجوازية الصغيرة، يندفع ماير بقوة إلى خارج عالم أشكاله التي تستطيع أن تشبع أحلام اليقظة الإقطاعية للبرجوازية المهيمنة نحو عام 1870"[310]. "حينما كان ستندال روائي البرجوازية الأرستقراطية في زمن نابليون، هكذا غنى غوستاف فريتاغ البرجوازية الليبرالية في ألمانيا حوالى منتصف القرن نشيد إنشاده"[311]. اعتبر لوفنتال الأدب مجرد ملحق للتطور الاقتصادي-الاجتماعي. ولم يناقش أي تقدم في ميدان الأدب مثلما حاول أدورنو أن يُظهره في الموسيقى، التقدم الذي يمكن أن يكون في توتر مع التطور الاجتماعي، ولا ناقش التقدم في مجال المجتمع، التقدم الذي، كما أشار فروم بحذر، يستطيع أن يعتمد على البروليتاريا أو بالأحرى على الفئات الأكثر تقدمًا من البرجوازية. كان الجانب الوحيد الذي استرعى اهتمام لوفنتال، كما بدا، هو التقدم العلمي نحو تطبيق الفهم المادي للتاريخ في علم الأدب.

أظهرت مقالات المؤلفين الذين ينتمون إلى حلقة هوركهايمر المنشورة في السنة الأولى للمجلة، إذا أُخذت ككل، بعض الملامح المشتركة اللافتة. فقد أقرّ هؤلاء المؤلفون بحماسة شديدة بالفهم المادي للتاريخ، بمعنى النتائج العامة كما لخصها ماركس في مقدمة كتابه الشهير **في نقد الاقتصاد السياسي** وفي الجزء المخصص لفيورباخ في **الأيديولوجيا الألمانية**. ولم يعلق أي منهم الآمال على الطبقة العاملة؛ إذ أكد بولوك تقريبًا غياب المصلحة الذاتية في ثورة اشتراكية. وذكر هوركهايمر في معرض كلامه عن "الطبقات الاجتماعية الدنيا" مجرد اعتمادها على الإشباعات التعويضية. ونفى أدورنو بوضوح أن يكون

(308) Ibid., p. 93.
(309) Ibid., p. 97.
(310) Ibid., p. 98.
(311) Ibid., p. 99.

للطبقة العاملة أي دور تقدمي. أما فروم فأبرز في أولى مقالاته أنه لا شك في "قيمة الرجل القائد لطبقته، ولكن، بسبب تماهي هذا الرجل مع طبقته ومع التمنيات البروليتارية التي تخدمها، يصبح، كونه قويًا وأبا العائلة المعظم، القائد الآمر الذي يقف في وجه التمنيات البروليتارية"[312]. رأى بولوك في مقالته الثانية أن "البروليتاريا تُظهر أيضًا[313]، إنما ليس بالقدر نفسه، ملامح الطبع الشرجي، مثل البرجوازية الصغيرة"[314]، من دون أن يتعرض بإسهاب لأفكار حول دينامية مظاهر كهذه. لم يولِ أحدٌ الاهتمام بموضوعات مثل دولة القانون الاجتماعية وديمقراطية فايمار والفاشية الإيطالية. مع ذلك لم يشكّ أحدٌ أيضًا من كل هؤلاء في أن المستقبل هو للاشتراكية.

هذا التفاؤل بدّدته التحليلات المتصلة بالمرحلة الراهنة التي تناول بها اقتصاديو المعهد (بولوك، وكورت مندلباوم واسمه المستعار كورت باومان، وغرهارد ماير) تأثيرات الأزمة الاقتصادية العالمية وموضوع سياسة الأزمات الرأسمالية والاقتصاد المخطط. أوضح هوركهايمر في مقدمته للعدد الأول من المجلة أن معرفة المجتمع الحاضر مستحيلة "من دون دراسة الاتجاهات القائمة في المجتمع والتي تدفع نحو تنظيم مخطط للاقتصاد. وسيكون من الواجب الاهتمام بالمشكلات المتعلقة بها والتي تؤدي اليوم دورًا مهمًا في الأدبيات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التاريخية". حتى أن توماس مان (Thomas Mann) وضع آماله يومذاك في الاقتصاد المخطط. وتكلم هوركهايمر في آذار/ مارس 1932 في الكلمة التي ألقاها في الذكرى المئوية لوفاة غوته أمام الأكاديمية البروسية للفنون في برلين حول "غوته كممثل للمرحلة البرجوازية" عن أن "العالم الجديد، العالم الاجتماعي، عالم الوحدة المنظمة وعالم التخطيط المنظم الذي سوف تتحرر فيه البشرية من الآلامِ غير الضرورية التي لا تليق بالبشر وتجرح كرامة العقل، سيأتي، وسيكون عملَ تلك الصحوة الكبرى التي سيَعترف بها اليوم كل المعنيين، وكل الأرواح التي رفضت التكلف العاطفي البرجوازي الصغير العفن والغث. سيأتي هذا العالم، لأن

(312) *Zeitschrift für Sozialforschung* (1932), p. 52.

(313) مثل أصحاب المعامل الكبار.

(314) Ibid., p. 276.

نظامًا خارجيًا وعقلانيًا يلائم الدرجة التي وصل إليها روح الإنسان لا بد من أن يكون قد خُلق أو، في أسوأ الأحوال، أُقيم من خلال تغيير ثوري، لكي تستطيع العاطفة الصادقة استعادة حق الحياة وضميرًا إنسانيًا حيًا"[315]. أما ما عرضه بولوك وماير ومندلباوم في مساهماتهم حتى عام 1935، فقد قلص على نحو متزايد فسحة الآمال باتجاهات تأخذ المجتمع الراهن نحو اقتصاد اشتراكي مخطط. رأى بولوك بمزيد من الوضوح إمكانية تحقيق تخطيط مركزي رأسمالي فاسد، في حين أن ماير ومندلباوم اللذين احتفظا بمفهوم الاقتصاد المخطط لنظام اقتصادي اشتراكي، وبرهنا على إمكانيته الاقتصادية الأساسية، لم يستطيعا أن يريا في البلدان الرأسمالية إلا تدابير الأزمة السياسية، لكنهما لم يريا إطلاقًا اتجاهات تدفع نحو التنظيم المخطط للاقتصاد. أما ما أبقى على الأمل في الاشتراكية حيًا مؤقتًا عند كتاب حلقة هوركهايمر فكان، إلى جانب ردة فعل يائسة على تقدم الفاشية المتزايد، ربط تصور نمو الإمكانات الموضوعية مع تصور الوظيفة الرائدة لبعض مجالات البنية الفوقية المتحالفة مع قوى الإنتاج الناشئة، لكن الواعية لعدم استقلاليتها. التفّ هذا الربط، كما حركة الكماشة، حول موضوعات البروليتاريا، والاشتراكية الروسية السوفياتية واتجاه تطور النظم الاقتصادية الغربية.

كانت مساهمة فرانتس بوركيناو (Franz Borkenau) التي حملت عنوان "حول علم اجتماع صورة العالم الميكانيكية" الأهم من بين المقالات الأخرى التي نشرتها **مجلة الأبحاث الاجتماعية** في عامها الأول، وكانت خلاصة بحث بعنوان **الانتقال من صورة العالم الإقطاعية إلى صورة العالم البرجوازية: دراسات في تاريخ الفلسفة في فترة المشاغل [المانيفاكتورة]**، كان قد اشتغل عليه في إطار حصوله على منحة من المعهد. ولد بوركيناو لأسرة "نصف يهودية"، تنتمي إلى البرجوازية الكبرى في فيينا، وكان عضوًا في الحزب الشيوعي الألماني منذ عام 1921، وقائدًا للرابطة الطلابية الحمراء في الرايخ في منتصف العشرينيات. في عام 1929 فُصل بسبب خلافات مع الحزب، من بينها الخلاف حول استراتيجية "الفاشية الاشتراكية" التي أعلنت الحزب الاشتراكي الديمقراطي

(315) *Neue Rundschau* (April 1932); Thomas Mann, *Schriften und Reden zur Literatur, Kunst und Philosophie*, vol. 2, pp. 88 f.

الألماني خصمًا رئيسيًّا للحزب الشيوعي. حاول بوركيناو، وقد دفعته بشكل رئيسي دراسة لوكاتش "العميقة حول التشيؤ"[316]، أن يفسر من خلال تغير الكينونة الاجتماعية نشأةَ شكل تفكير جديد، أي نشأة صورة جديدة للعالم في القرن السابع عشر، يترافق فيها التغيير في نظرية المعرفة مع بناء فهم جديد للطبيعة وللمجتمع البشري. كما أعطى بوركيناو للمشاغل [المانيفاكتورة] دور مثال للتجريد الشامل من كل الكيفيات[317]. استند في توضيحاته لما تبقى على "الصراعات الطبقية التي ترتبط بصعود أسلوب الإنتاج الجديد"[318]. كانت فرضية بحثه: "لا يمكن مفكرًا أن يُعتبر مفكرًا حقيقيًا، إلا إذا فُهم في سياق الصراعات التي كان طرفًا فيها"[319]. اعتبر بوركيناو، على سبيل المثال، ديكارت وجبريته العقلانية أيديولوجيَّ طبقة النبلاء الفرنسية، وهوبز أيديولوجيَّ الفئات التقدمية من النبلاء ملاكي الأرض"[320]. نشأت طريقة شبيهة بطريقة تعامل لوفنتال مع الأدب، تقوم على ترتيب النتاج العقلي في طبقات أو بالأحرى في فئات طبقية كانت صاعدة أو هابطة، متفائلة أو متشائمة، تنظر إلى الأمام أو إلى الوراء أو متأرجحة. وكان الجانب المحير في مثل هذه التوضيحات - كما كان الأمر مع لوفنتال وفروم - يكمن في سلاسة وظيفيّتها التي لا تتخللها ثغرات. إلا أن بوركيناو، وقد انحرف هنا عن مبدأ بحثه، وأدرك بدقة في بعض النصوص المذكورة جوهر العصر موضوع البحث، رأى، خصوصًا في باسكال الذي عبّر عن "الحاجة المجردة إلى الخلاص في قلب عالم غريب كليًا عن الخلاص"[321]، أنه لا يمثل بوصفه "فيلسوفًا برجوازيًا" جوهر عصره فحسب، بل جوهر الإنسان عمومًا.

تفسير بوركيناو "معارف" علماء الطبيعة تاريخيًا واجتماعيًا، جعل من بحثه جزءًا مهمًا من الماركسية الغربية التي لم تؤلّه العلوم الطبيعية عبر الماركسية

---

(316) F. Borkenau, *Der Übergang vom feudalen zum bürgerlichen Weltbild*, p. iii.

(317) *Zeitschrift für Sozialforschung* (1932) p. 312.

(318) Ibid., p. 313.

(319) Borkenau, *Der Übergang vom feudalen*, p. 21.

(320) *Zeitschrift für Sozialforschung* (1932), p. 323.

(321) Ibid., p. 355.

الأرثوذكسية ذات الطابع الاشتراكي الديمقراطي والسوفياتي، ومثالًا مبكرًا لكتابة نقدية لتاريخ العلوم. لكن عندما ظهرت هذه الدراسة الرائدة في سلسلة كتب المعهد لم يزوّدها هوركهايمر، وقد أربكته اعتراضات غروسمان على تقدير بوركيناو لدور المشاغل، يضاف إلى ذلك ربما موقف بوركيناو النقدي المتزايد تجاه الشيوعية، إلا بمقدمة للناشر شديدة الحذر، لم تذهب في صياغة المشكلات الموضوعية التي ساهم البحث في حلها إلى الصميم، ولم تبدِ رأيًا فيها.

تشهد المجموعات الكبيرة من المراجعات النقدية في المجلة والتي عُنيت بالموضوعات المتعلقة بوضع العمال والعاملات والموظفين، والعائلة، والبطالة، ووقت الفراغ، على الاهتمام الكبير الذي حظيت به النتائج الأخيرة للبحث العلمي الداعم لدراسات المعهد التجريبية الخاصة. شكل جزءًا مكملًا لمشروع العمال والموظفين أيضًا الاستطلاعُ الثاني الذي أجراه المعهد: بحث خبرة ميداني في موضوع الأخلاق الجنسية. أُرسلت في عام 1932 إلى 360 طبيبًا ألمانيًا في اختصاصات الأمراض الجلدية والتناسلية وأمراض النساء والاضطرابات العصبية استمارات استبيان تضمنت خمسة أسئلة حول وقائع (على سبيل المثال: "هل يعيش معظم الشباب، فتياتٍ وفتيانًا، من دون إقامة علاقات جنسية قبل الزواج أم لا؟ أ) هل لاحظتَ في هذا الخصوص تحولًا في مرحلة ما بعد الحرب مقارنة بفترة ما قبل الحرب؟ ب) هل لاحظتَ في هذا الخصوص تحولًا في السنوات الأخيرة (منذ عام 1930)؟"). وتضمن الاستبيان ثلاثة أسئلة حول رأي الطبيب (مثلًا: "إلى أي سن ينبغي أن يبقى الشاب ممتنعًا عن إقامة علاقة جنسية؟")؛ طُرحت هذه الأسئلة الإضافية خصوصًا من أجل رصد العامل الذاتي في أجوبة الخبراء وكي يمكن أخذها في الاعتبار بوصفها مصدرًا للخطأ. طُلب من الأطباء أن يحددوا الطبقة الاجتماعية التي تحيل إليها المعطيات التي يقدمونها. كان على هذا البحث أن يقدم توضيحًا حول التغيرات المحتملة في الأخلاق الجنسية، التي عزا إليها فروم دورًا خاصًا في تكييف البنية الليبيدوية مع البنية الاجتماعية الملائمة لها[322]. اتضح أن المطلوب هو إكمال

(322) *Zeitschrift für Sozialforschung* (1932), p. 267.

معطيات المعنيين التي يُقدمها استبيان رأي العمال والموظفين بملاحظات من طرف ثالث، تحيل إلى مجال مهم على نحو خاص في الحكم على البنية النفسية.

لكن قبل أن يتمكن المعهد من تعميم بحث العمال والموظفين، وفقًا للبرنامج، على "بلدان أوروبية أخرى عالية التطور"[323]، كان عليه أن يلوذ بالهرب من عدو كان قد أخذه بجدية في ممارسته الإدارية في وقت مبكر، غير أن هذا العدو لم يكن قد وجد لنفسه بعد المكان اللائق به في برنامج أبحاث المعهد.

---

(323) Horkheimer, *Die gegenwärtige Lage*, p. 44.

الفصل الثاني

على دروب الهرب

في يوم الاثنين 30 كانون الثاني/يناير 1933، عيّن هندنبرغ، رئيس الرايخ، هتلر مستشارًا للرايخ، الأمر الذي كان هندنبرغ يرفضه حتى هذا التاريخ مشيرًا صراحة إلى خطر دكتاتورية الحزب الاشتراكي القومي (النازي). في اليوم نفسه، احتلّ رجال الأمن النازيون [SA] بيت هوركهايمر وبولوك في كرونبرغ، وجرى تحويله إلى مكان حراسة(1). كان هوركهايمر وزوجته قد حُذّرا من قبل، وكانا يقيمان في ذلك الحين في فندق قريب من محطة القطارات الرئيسية في فرانكفورت. في ما تبقى من الفصل الدراسي، كان هوركهايمر يسافر من منزله في جنيف إلى فرانكفورت لإلقاء محاضراته في الجامعة. في محاضرته عن المدخل إلى الفلسفة، لم يتحدث هوركهايمر في الأسبوعين أو الثلاثة الأخيرة إلا عن مفهوم الحرية. في الأيام الأخيرة من شهر شباط/فبراير في ألمانيا كتب مقدمة كتابه **الفجر** الذي نُشر في سويسرا في عام 1934: "هذا الكتاب أصبح قديمًا. والأفكار التي تضمّنها هي ملاحظات دُوّنت بين حين وآخر حول ما حدث في ألمانيا بين عامي 1926 و1931 [...]، وهي تحيل نقديًا مرارًا وتكرارًا إلى مفاهيم الميتافيزيقا والطبع والأخلاق والشخصية، وإلى قيمة الإنسان، بالطريقة التي كانت فيها هذه المفاهيم صالحة في هذه الفترة الرأسمالية.

ولأن هذه المفاهيم تنتمي إلى الزمن الذي سبق الانتصار النهائي للاشتراكية القومية [النازية]، فهي تخص عالمًا تم تخطيه اليوم. أنتجت مشكلاتٌ، مثل مشكلة السياسة الثقافية الاشتراكية الديمقراطية ومشكلة الأدب البرجوازي المتعاطف مع الثورة ومشكلة الإعداد الأكاديمي للماركسية، جوًا

---

(1) المحامي فيلهلم غرلوف، محكمة الدرجة الثانية فرانكفورت أ. م، محكمة التعويضات، 21 حزيران/يونيو 1949.

فكريًا تقلص الآن. لكن الأفكار التي جالت في خاطر مؤلفها الذي يتسم أسلوب حياته بالفردية، قد لا تكون لاحقًا عديمة الأهمية كليًا".

في الوقت الذي سُمّي هتلر مستشارًا للرايخ، كان فيتفوغل في جولة في سويسرا ألقى فيها عددًا من المحاضرات. وقد عاد إلى برلين مرةً أخرى في شباط/ فبراير، على الرغم من تحذيرات بولوك الذي كان قد انتقل إلى هناك. في 2 آذار/ مارس ترك لوفنتال المعهد حيث كان هو آخر عضو دائم فيه، وغادر فرانكفورت. في حين بقي أدورنو الذي لم يكن منتميًا إلى "جماعة قلعة ماركس" السيئة الصيت، ولم يكن قد نشط سياسيًا بعد، بل كان "مجرد نصف يهودي"، شكا لاحقًا في رسالة إلى هوركهايمر أنه لم يُعلَم مسبقًا بانتقال المعهد بشكل نهائي إلى جنيف، و"أنه لم يتلقّ أي توجيه من المعهد بصدد ماذا عليه أن يفعل وإلى أين يذهب"[2].

في انتخابات 5 آذار/ مارس لبرلمان الرايخ الثامن لم يحصل الائتلاف الحكومي المؤلف من الاشتراكيين القوميين وحزب الشعب الألماني الوطني، على الرغم من الرعب والتعسف الذي سمحت به الدولة، إلا على 51.8 في المئة من الأصوات. لكن هذه النسبة كانت كافيةً ليجعل منها هتلر منصةً إعلانية لإكمال بناء السيطرة الاشتراكية القومية، برضى أحزاب الوسط البرجوازية التي شرّعت مع قانون التوكيل الصادر في 24 آذار/ مارس حل برلمان الرايخ لنفسه.

في 13 آذار/ مارس، فتشت الشرطة المعهد وأغلقته. وفي أيار/ مايو أغلقت الشرطة قاعات المعهد في الطابق الأرضي، ووضعته تحت تصرف اتحاد الطلبة النازي. وبتاريخ 14 تموز/ يوليو 1933 بعثت شرطة الدولة السرية (الغستابو) في شارع الأمير ألبرخت في وسط برلين الرسالة الآتية:

إلى معهد البحث الاجتماعي

في فرانكفورت أ. م

بموجب الفقرتين الأولى والثالثة من قانون استملاك الممتلكات الشيوعية، الصادر في 26 أيار/ مايو 1933 (RGBl.I S. 293) يُحجز على معهد البحث

(2) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، أكسفورد، 2 تشرين الثاني/ نوفمبر 1934.

الاجتماعي الموجود في فرانكفورت أ. م ويُنقل لمصلحة دولة بروسيا الحرة، لأن المعهد المذكور شجّع أطماعًا معادية للدولة.

بالنيابة

د. ريختر-بروم

لم يقع في شباك الاشتراكية القومية من العاملين في المعهد سوى فيتفوغل. فقد أُلقي القبض عليه عندما كان يريد في منتصف آذار/ مارس عبور الحدود الألمانية قرب مدينة زينغن. ونُقل إلى العديد من معسكرات الاعتقال، ثم أُطلق سراحه في تشرين الثاني/ نوفمبر 1933، واستطاع أن يهاجر إلى الولايات المتحدة الأميركية من طريق إنكلترا.

ذكرت جريدة *Deutsche Allgemeine Zeitung* **(الجريدة الألمانية العامة)** في عددها الصادر في 14 نيسان/ أبريل عن تدابير أولى مؤقتة في بروسيا لتنفيذ القانون الذي تمت الموافقة عليه في 7 نيسان/ أبريل حول "إعادة الموظفين المهنيين"، القانون الذي يُفترض أن يُنظم، قبل كل شيء، إنهاء خدمة الموظفين اليهود والشيوعيين والإشتراكيين الديمقراطيين وفصلهم. كان من بين ضحايا "الدفعة الأولى ممن أُعطوا إجازة" - تلى ذلك إعفاؤهم من خدمة الدولة وإيقاف رواتبهم في غضون عام - أساتذة فرانكفورت: هلر، وهوركهايمر، ولوفه، ومانهايم، وزينتسهايمر، وتيليش. وورد في الجريدة: "يقصد وزير الثقافة الدكتور روست أن يُمسك عبر هذا الطريق بـ '**مسألة اليهود**' فورًا (الفقرة الثالثة من قانون الخدمة المدنية). كان لا بد من أن يُطبَّق أكبر جزء من هذه التعديلات **قبل 1 أيار/ مايو**، بحيث يتم تجنب اضطرابات بداية الفصل الدراسي". وكما حصل في كل مكان في ألمانيا، لم تؤازر الجامعة للحظة واحدة الزملاء الملاحقين الذين لا يحميهم القانون، بل حصل العكس. فقد أقرّ مجلس الجامعة في 3 نيسان/ أبريل أن يرفع طلبًا إلى وزير الثقافة البروسي "بإلغاء العلاقة التي كانت لا تزال قائمة بين 'معهد البحث الاجتماعي' وجامعتنا، علمًا بأن هذه العلاقة كانت أيضًا واهية". رئيس الجامعة فيلهلم غرلوف الذي كان في هذا المنصب منذ تشرين الأول/ أكتوبر 1932، والذي كان قد حذر في خطبة تنصيبه رئيسًا للجامعة من "الاشتراكية القومية الشوفينية"، و"تخلّى في أيار/

مايو 1933، عند عزله مبكرًا من منصبه وإحلال إرنست كريك النازي المقتنع بالاشتراكية القومية مكانه، عن الفترة المتبقية من رئاسته للجامعة"[3]، برر طلب مجلس الجامعة بالقول: "إن التطور الواقعي الذي عرفه المعهد في أوساط زواره قد اتخذ مسارات لم تكن في الاتجاه الذي أرادته الجامعة، وقد حدث ذلك من دون أن تتمكن الجامعة من ممارسة أي تأثير في هذا الأمر"[4].

في طور البداية "الثوري" لنظام الحكم الجديد، جرى على مستوى الرايخ إبعاد 14 في المئة من الهيئة التعليمية الأكاديمية و11 في المئة من الأساتذة الجامعيين ذوي الكراسي التعليمية. في وزارة الثقافة على مستوى الرايخ، يُقدَّر أن 45 في المئة من جميع المناصب الوظيفية العلمية تم إشغالها من جديد في السنوات الخمس الأولى لاستلام هتلر السلطة[5]. كان لجامعة فرانكفورت، بعد جامعة برلين، النصيب الأكبر من عدد المبعَدين. وفَقدَ أكثر من ثلث الأساتذة الجامعيين في فرانكفورت كراسيهم التعليمية. أن تُخضَع على وجه التحديد مؤسسة محافِظة وطنية، مثل الجامعة الألمانية على وجه الخصوص، لعمليات التطهير الواسعة جدًا، أمر لا يمكن تفسيره إلا بسبب بغض هتلر والاشتراكيين القوميين لكل ما هو عقلي ولكل نشاط علمي لا يخدم مباشرة أيديولوجيا الاشتراكية القومية واستراتيجيتها. حتى أن رجلًا مثل كورت ريتسلر أُبعد من وظيفته في عام 1933 بسبب عدم إخلاصه الوطني في ما يتعلق بسياسته في تعيين الأساتذة؛ لم يكتفِ ريتسلر باستدعاء "غيورغيين" [من أعضاء حلقة غيورغه] مثل كومرل وكانتوروفيتش، بل استدعى إلى فرانكفورت أيضًا عالم الاجتماع مانهايم والاشتراكي الديمقراطي لوفه. كان لريتسلر مع ذلك ماضٍ وطني مهم؛ إذ أعلن بشدة في عام 1930 وقوفه ضد منح مدينة فرانكفورت جائزة غوته لفرويد، وكانت حجته: "يكمن غير الغوتي [نسبة إلى غوته]، لا بل

(3) يُقارن:

Gerda Stuchlik, *Goethe im Braunhemd: Universität Frankfurt, 1933-1945*, pp. 88 f.

(4) ذُكر في:

Wolfgang Schivelbusch, *Intellektuellendämmerung: Zur Lage der Frankfurter Intelligenz in den zwanziger Jahren*, p. 94.

(5) Karl Dietrich Erdmann, *Deutschland unter der Herrschaft des Nationalsozialismus, 1933-1939*, p. 171.

النقيض للغوتي، في عالم فرويد القائم مبدئيًا على طبيعة سببية ميكانيكية، وفي البناء المفرط في عقلانيته، وفي البناء بدلًا من التصوّر الملموس بشكل حي، وفي مركزة الإنسان انطلاقًا مما هو مرضي محرج، انطلاقًا مما هو متصنّع الحشمة [...] بغض النظر تمامًا إن كان التحليل النفسي على حق أم لا: خلط الأسماء في جائزة غوته لا بد من أن يظهر للرأي العام الذي لديه صورةٌ دقيقةٌ عن الموقفين الروحيين لكل من الطرفين، بوصفه وصاية عديمة الذوق"[6]. لقد كان باستطاعة ريتسلر في صراعه حول حقوقه كموظف دولة أن يُشير إلى أنه وضع كل ثقله عند رئيس موظفي الجامعة لاستدعاء هايدغر وشميت ونويمان وبويملر "الناطقين البارزين المدافعين عن الاشتراكية القومية"[7].

توجّه هوركهايمر في 18 آذار/ مارس من جنيف بدايةً إلى رئيس الجامعة، غرلوف، وإلى عميد كلية الفلسفة لوماتش، متبعًا مسار "تطبيع صارم" (لوفنتال) بعد متابعته الأخبار الصحفية حول تفتيش المعهد وإغلاقه. جاء في رسالتيه المتماثلتين: "بدا لي أنه لا مجال للشك في وجود أسباب للتفتيش. قام سلفي في إدارة المعهد بجمع الكتب المعروفة في العالم كله التي تتناول تاريخ الحركة العمالية [...]، وبما أنه ترتب على ذلك أن تضم المكتبة عددًا كبيرًا من كتب الأدبيات الاشتراكية، فقد يكون هذا ما أيقظ الانطباع بوجود توجّه سياسي للمعهد لدى من هم بعيدون. يُضاف إلى ذلك، خصوصًا في السنوات الأولى، أن الطلبة القريبين من الاتجاهات الاشتراكية المختلفة كانوا أكثر اهتمامًا بمشكلات الحركة العمالية من نظرائهم ذوي التوجّه اليميني سياسيًا؛ لكن من المؤكد أن هذه الحالة تغيرت مؤخرًا. حينما تسلمت أنا إدارة المعهد، كنت أعي أن التاريخ السابق للمعهد يُلزم إدارته بالسهر على ألا تُثار الشكوك حول حياد المعهد السياسي". كانت ردة الفعل على طلبه من زملائه أن ينصحوه حول سُبل تبديد التهمة الخاطئة بالانحياز غير العلمي التي يمكن بموجبها "الهيئات الدنيا أن تؤخر أو تعوق بالمطلق إلقاء الضوء على هذا الأمر من خلال الحكومة"، وكانت

---

(6) ذُكر في:

Schivelbusch, p. 88.

(7) يُنظر:

Kurt Riezler, *Tagebücher, Aufsätze, Dokumente*, p. 144.

ردة فعل الزملاء الذين كانوا يتطلعون أيضًا إلى "تطبيع" الحالة أنهم لم يكونوا في هذه اللحظة، للأسف، في وضع يمكّنهم من تقديم أي نصح أو مشورة.

بعد الأخبار التي تناقلتها الصحف حول "التسريح المؤقت"، بعث هوركهايمر في 21 نيسان/ أبريل إلى وزير العلوم والفنون والتربية الشعبية في برلين، برسالة من ثلاث صفحات متراصة السطور. في هذه الرسالة - رسالة مواطن ليبرالي فخور، كما تشي لهجتها - برهن هوركهايمر باختصار وإلحاح أهمية كورنيليوس وكانط وهيغل في أنشطته التعليمية. وأقرّ بوضوح أنه أولى اهتمامًا للفهم الاقتصادي للتاريخ إلى جانب نظريات المجتمع الحديثة: "طبيعي أنني قدمت هذه النظرية بصورة إيجابية بقدر ما بدت لي مثمرة علميًا، وأشرت إلى قيمتها المعرفية. اعتبرت أنه من واجب الجامعة أن تعرّف الطلاب، على عكس الجماهير الواسعة، النظريات المختلفة، لكي يستطيعوا أن يتخذوا في حياتهم موقفًا منها بحماسة، سلبًا أو إيجابًا". وختم هوركهايمر رسالته بالقول:

"بعد أن أنهيت إلقاء محاضراتي في الفصل الدراسي الشتوي هذا، سافرت، كما هي العادة في السنوات الأخيرة، إلى جنيف. هنا يُجري بعض الزملاء من المعهد، بالتعاون مع مؤسسات بحثية أخرى محلية، أبحاثًا حول تأثير البطالة في حياة الأسر وحول مسائل أخرى تخص الأسرة. سبق للسيد مفوض الحكومة أن أذن لي مرارًا بالسفر في أثناء الفصل السابق إلى هنا. أنا لم أبتعد عن ألمانيا على الإطلاق بسبب الأحداث السياسية. في غضون ذلك، أُغلق المعهد الذي كنت مسؤولًا عنه، وتم الاستيلاء على منصبي، وطُبّق أخيرًا علي إجراء التسريح المؤقت، من دون حتى أن يُعلمني أحد بوجود تهمة جدية ضدي. أعتبر أن هذا السلوك بحق منصب عالٍ لأستاذ جامعي أمر لا يُحتمل. مع الشعور الغامض بأن كل إنسان يُمكن أن يتعرض اليوم للاتهام، رأيت أن من الواجب، سيدي الوزير، أن أقدم لكم هذا التقرير.

لم أنتمِ إلى أي حزب سياسي قبل استدعائي لشغل كرسي التعليم الجامعي، ولا بعده. حاولت أن أدير وظيفتي بطريقة تكون مثمرة للفلسفة والعلم. يؤلمني أن أرى أنه يجب عليّ أن أُخلي منصبي، لأنني كنت أشعر على الدوام أن سلوكي مع المستمعين إليّ الذي لم يعكّره يومًا أي حادث سياسي، هو بمثابة

سعادة كبيرة. يُعتبر الطلاب الألمان، طوال تاريخهم، من أكثر طلاب العالم يقظة وموهبة. وأنا لا أعرف إن كانت الإجراءات التي اتُخذت بحقي تعود أكثر إلى قناعاتي، أم إلى يهوديتي. في أي حال، يتناقض السببان كلاهما مع تقاليد الفلسفة الألمانية. كانت هذه الفلسفة تدعي دائمًا أن الحكم على تعاليمها وعلى الروحية الملائمة لهذه التعاليم لا يكمن خارج ذاتها، ولا يخضع أيضًا لتقدير السلطات. لا يوجد انسجام ضروري بين الحقيقة وبين برنامج حكومة مهما كانت إرادة هذه الحكومة قوية ومهما بلغ تجذرها في الشعب. قيصر ليس فوق قانون اللغة[8]. ولم يعبّر هيغل إلا عن فكرة فلسفية عامة، حينما قال إن اليهود أيضًا هم 'قبل كل شيء بشر، وأن هذا ليس مجرد صفة سطحية ومجردة'. اعتَبرتْ الفلسفة الألمانية الكلاسيكية في ذرى تطورها استقلاليةَ مطلب المعرفة العلمية وكذلك النظرة إلى كرامة الإنسان تراثًا ثقافيًا، تعني التضحية به إضرارًا بالحياة الروحية. إن انتهاكه - حتى لو لم يُحكم عليه كذلك من القانون الساري المفعول وفق منظومة القيم السائدة اليوم - لا بد من أن يصبح في نهاية الأمر قيدًا على تطور التفكير العلمي.

مع فائق الاحترام
توقيع د. ماكس هوركهايمر
أستاذ جامعي"

بَدَت مثل هذه الرسائل عبثًا، شأنها شأن الوضع الذي اختلط فيه آنذاك التعسف بالشرعية على نحو لا يمكن التكهن به. كانت الخلافات التي أُثيرت بين المعهد المهاجر وجامعة فرانكفورت أكثر غرابة، لأن جمعية الأبحاث الاجتماعية في الجامعة أرادت الاستمرار بدفع الراتب التقاعدي لغرونبرغ، وليس رواتب كرسيي التعليم اللذين كانت قد أنشأتهما، وطُرد هوركهايمر ولوفه منهما[9]. ومع أن استراتيجية هوركهايمر لم تكن بطولية ولم تنطوِ حتى على دهاء بأي شكل من الأشكال، إلا أنها كانت مع ذلك ناجحة، وألحقت بالخصم أذى على طريقتها، حين أمسكت به من مواقعه المتحضرة، ولم تُقدّم له شيئًا. لم يحصل هوركهايمر،

---

(8) وردت في النص باللاتينية: Caesar non est supra grammaticos. (المترجم)

(9) يُراجع:

Schivelbusch, pp. 95 ff.

بصفته هاربًا، على أي شيء من ملكيته التي بقيت في ألمانيا. وانطبق الأمر نفسه على المعهد. وبما أنه لم يفعل شيئًا غير كتابة تلكما الرسالتين المذكورتين، لهذا السبب وكّل لنفسه "حالًا رجلًا ممتازًا جدًا وصاحب علاقات كثيرة محاميًا [...]، حصل ليس على إعلان صريح من السلطات بأن لا توجّه إلى إدارة المعهد أي اتهام فحسب، بل حصل أيضًا على تحرير كل ممتلكاتي واستصدر السماح بإخراج أجزاء كبيرة منها إلى خارج ألمانيا"(10).

حلت منذ شباط/ فبراير 1933 "الجمعية الدولية للأبحاث الاجتماعية"، ومقرها جنيف، محل "جمعية الأبحاث الاجتماعية". هكذا أصبح فرع جنيف المركز الرئيسي للإدارة. أما من حيث العمل العلمي، فلم يكن هذا الفرع قادرًا على أن يخدم بوصفه مركزًا إلا بصورة مؤقتة؛ ليس بسبب القرب المهدد من رايخ ألماني اشتراكي قومي ومن إيطاليا فاشية فحسب، بل أيضًا بسبب موقف سويسرا من المهاجرين. وذكر لوفنتال في مقابلته مع دوبيل: "وحده هوركهايمر كان لديه تصريح بالإقامة الدائمة استطاع بموجبه أن يملك مسكنًا، وأن ينقل أثاثه من ألمانيا. لم يُسمح لي ولا لبولوك أو ماركوزه أن نفعل ذلك، فأبقينا أثاثنا ومكتبتنا في مستودع في جنيف. بقينا - إذا جاز القول - زوارًا دائمًا؛ لم يكن لدينا إلا نوع من تأشيرة دخول سياحية، وكان علينا أن نسافر عابرين الحدود إلى بلغارد [في فرنسا] كل أسبوعين، لكي نستطيع الدخول ثانيةً إلى سويسرا بتأشيرة دخول جديدة. وكانت ثمة أمور أخرى أيضًا. لقد عايشنا مرارًا كيف كان المهاجرون اليهود بالذات يتعرضون للاضطهاد بشكل خاص جدًا، هذا الاضطهاد الذي كان يتمثل في تطبيق التشريع الخاص بالأجانب عليهم بصرامة. كان هذا في نظرنا مؤشرًا على أن الفاشية سوف تُطبّق في النهاية على أوروبا بأسرها"(11).

لهذا كان مديرو المعهد يرحبون بتلقي عروض المساعدة من باريس ولندن، حتى ولو لم ترتبط بها آفاق ببناء مقر رئيس للمعهد. أُسِّس في باريس فرع للمعهد في مركز التوثيق في المدرسة العليا الذي كان سيليستان بوغليه، تلميذ دوركهايم، مديره. أدار مكتب باريس حتى عام 1936 باول هونيغزهايم الذي

---

(10) رسالة من هوركهايمر إلى أدورنو، 16 تشرين الثاني/ نوفمبر 1934.

(11) Leo Löwenthal, *Mitmachen wollte ich nie - Ein autobiographisches Gespräch mit Helmut Dubie*, p. 71.

كان والداه من أصول ألمانية-فرنسية، وكان المساعد الأول لليوبولد فون فيزه، وكان حتى هجرته من ألمانيا، مديرًا لمدرسة الشعب العليا في كولونيا. وفي لندن حصل المعهد على مكتب صغير في "Le Play House" التابع لمعهد علم الاجتماع في لندن.

اكتسب فرع باريس أهمية بوصفه مقرًا رئيسًا للمعهد في المدينة التي كان فيها مقر دار النشر الجديدة لـ **مجلة الأبحاث الاجتماعية**، ومعقلًا للمشاريع التجريبية الممتدة دوليًا، وأخيرًا بوصفه مركزًا أماميًا أوروبيًا للمعهد. أخيرًا قامت دار النشر القديمة بتوزيع العدد الأول من السنة الثانية للمجلة في أيار/ مايو مع بعض التأخير. غير أن هيرشفلد أبلغ بعد ذلك هوركهايمر أنه ما عاد بمقدوره أن يأخذ المخاطرة على عاتقه. في ما بعد تسلم طباعة المجلة وتوزيعها مكتبة فليكس ألكان الشهيرة بالذات في مجال العلوم الاجتماعية. ضَمَن المعهد لدار النشر 300 مشترك، وتعهدت الدار بدورها بطباعة 800 نسخة، فضلًا عن 50 نسخة مخصصة للدعاية[12]. وفّرت مكتبة فليكس ألكان للمجلة العلمية إمكانية الصدور باللغة الألمانية، هذا ما كتبه هوركهايمر في أيلول/ سبتمبر في المقدمة للعدد الثاني من السنة الثانية. "سوف يواصل المعهد جهده لتشجيع نظرية للمجتمع برمته، وتشجيع العلوم المساعدة لها أيضًا. ترى مجموعة الزملاء العاملين فيه التي تضم علماء شبانًا ذوي اختصاصات مختلفة أن في النظرية عنصرًا لتحسين الواقع. ليس للتفكير المدرِك، بالنسبة إلى القوى الاجتماعية، الأهمية ذاتها على الإطلاق؛ فالبعض منها يعتبره، وهو محق، عبئًا ضارًا؛ غير أنه لن يكون بمقدور قوى البشرية التي تسعى إلى التقدم الاستغناء عنه".

لم يوفر هوركهايمر، حتى بعد أكثر من نصف عام في المنفى، تقديم أي إشارة مباشرة إلى المعاناة القائمة وإلى الأحداث السياسية على نحو جذري أكثر مما كان عليه في خطبة تنصيبه مديرًا للمعهد. فعَلَ موقفه فعْل الممارسة الاجتماعية العلمية التي صاغها أدورنو في مساهمته في العدد الأول من المجلة بالنظر إلى الموسيقى، حيث كتب: "لا يُفيدكم شيئًا أن تحدقوا في المجتمع وأنتم في ذعر وحيرة من أمركم: تقوم الموسيقى بوظيفتها الاجتماعية بدقة

(12) رسالة من ألكان إلى هوركهايمر، 20 حزيران/ يونيو 1933.

أكبر حينما تُظهر في المادة الخاصة بها، وبحسب قوانين شكلها الخاصة بها، المشكلات الاجتماعية التي تتضمنها في ذاتها حتى في صميم خلايا تقنيتها". بقي أيضًا الامتناع عن كل نشاط سياسي حتى ولو كان جزئيًا، بل حتى عن أي تدابير جماعية أو منظمة للإضاءة على الوضع في ألمانيا أو في مساعدة المهاجرين، السياسةَ المتبعة من المعهد تحت إدارة هوركهايمر. سأل هبرماس في السبعينيات هربرت ماركوزه: "هل حدد المعهد يومًا، لنقل، مكانه من جماعات الهجرة المنظمة سياسيًا بقوة؟ أجابه ماركوزه: كان هذا ممنوعًا منعًا باتًا. لقد أصرّ هوركهايمر منذ البداية على أننا ضيوف في جامعة كولومبيا، فلاسفة وعلماء"[13].

حتى بالنسبة إلى أولئك الذين أصابهم حظ كبير في قلب المصيبة، كما الحال بالنسبة إلى أعضاء حلقة هوركهايمر، جدد الفرار من الحكم النازي الكابوس من عدم ضمانة الوجود اليهودي. إلا أنه بالنسبة إلى حلقة هوركهايمر بالذات، فقد كانت الاستمرارية ممكنة بقدر كبير أيضًا، إذ كثّف أفرادها نشاطهم الممارس في الأوقات "العادية" مع تركيزهم على نيل الاعتراف داخل المؤسسة الاجتماعية والعلمية، بوصفهم غرباء لهم أهداف اجتماعية غير مقبولة من ذلك المجتمع. وضع مديرو المعهد كل إمكانياتهم كي يتمكنوا من مواصلة العمل العلمي من دون اضطراب قدر المستطاع. وقد تم ذلك على نحو مثير للإعجاب، على الرغم من عديد الظروف المعوّقة.

من بين أولئك الذين شكلوا نواة المعهد الأساسية كان، على الأقل، هوركهايمر وبولوك ولوفنتال في جنيف. فقد اضطر فروم إلى الذهاب لمدة طويلة إلى مصح لمرض السل الرئوي في دافوس، لكنه كان يشارك من هناك في عمل المعهد. أما ماركوزه، الذي شهد أدورنو في مراجعة كتابه حول هيغل بأنه كان "يتجه من 'معنى الكينونة' نحو تفسير الكائن، ومن الأنطولوجيا الأساسية نحو فلسفة التاريخ، ومن التاريخية نحو التاريخ"[14]، فشارك في العمل في المجلة منذ العدد الأول الذي صدر في الخارج، كمراجع رئيس للأبحاث

---

(13) Jürgen Habermas et al., *Gespräche mit Herbert Marcuse*, p. 19.

(14) *Zeitschrift fur Sozialforschung* (*ZfS*) (1932), p. 410.

الفلسفية. وهكذا حل ماركوزه محل أدورنو الذي كان يقوم فعليًا بأعباء قسم مراجعة الفلسفة منفردًا مع تلميذه دولف شتيرنبرغر (Dolf Sternberger) (باستيلاء النازيين على السلطة وهجرة المعهد، كان أمل أدورنو - وكان قد صرح بذلك لكراكاور في كانون الثاني/ يناير 1933 - في إعادة تشكيل المجلة التي يدير رسميًا، بالاشتراك مع هوركهايمر، قسمها الفلسفي "إلى أداة لنا"، قد تحطم. كتب أدورنو داعيًا كراكاور للمشاركة في العمل: "سيكون محيطنا محترمًا. بنيامين ولوكاتش يعملان معنا أيضًا، وأضطلع بنفسي بالجزء الأكبر من المراجعات الفلسفية، وقمت بطرد كل من ليس مؤهلًا، لأضمّ في المقابل إلينا أشخاصًا موهوبين مثل شتيرنبرغر وهربرت ماركوزه"). لم يتغير شيء جوهري في شكل مشاركة فيتفوغل وغروسمان اللذين يعملان بوصفهما باحثَين مستقلَّين. إن حقيقة أن فيتفوغل لم يتمكن من استئناف عمله إلا بعد وصوله إلى لندن في مطلع عام 1934، لم يكن له أي تأثير في العمل الجاري في المعهد. ويصح الأمر نفسه على غروسمان الذي كان منشغلًا في باريس بإعادة النظر في كتابه عن **قانون تراكم النظام الرأسمالي وانهياره** من أجل طبعة باللغة الفرنسية، لكن هذه الطبعة لم تصدر البتة. لم تبدأ مشاركة فالتر بنيامين التي كان أدورنو قد مهد لها في عام 1932 إلا في فترة هجرة المعهد إلى سويسرا، وذلك ببعض مراجعات نقدية منفردة وبمقالة بعنوان "حول الوضع الاجتماعي الراهن للكاتب الفرنسي" نُشرت في عام 1934. بالنسبة إلى بنيامين الذي كان يعتمد بوصفه كاتبًا حرًا على حرية الصحافة، فقد أصبحت أداةٌ، مثل **مجلة الأبحاث الاجتماعية**، بعد هربه، أكثر فأكثر، أهمَّ إمكانية للنشر. وبمناسبة مقالته الأولى للمجلة التي كتبها في ظروف غير ملائمة في أثناء إقامته في جزيرة إيبيزا، رأى، في أي حال، في حزيران/ يونيو 1933 في رسالة إلى شولم: "تتقدم الفاشية تقدمًا جارفًا خارج ألمانيا أيضًا. أما ما هي الحال في سويسرا، فإنني أتعرف إليها، مع الأسف [...]، أيضًا في بعض التصحيحات التحريرية التي تقترح عليّ **مجلة الأبحاث الاجتماعية** أن أقوم بها في مقالتي حول 'الوضع الاجتماعي الراهن للكاتب الفرنسي'"[15].

(15) رسالة من بنيامين إلى شولم، 29 حزيران/ يونيو 1933، في:
Walter Benjamin & Gershom Scholem, *Briefwechsel*, p. 83.

نشر هوركهايمر في العدد الأول من المجلة المخصص للخارج، مقالته الثانية الطويلة "المادية والأخلاق" بعد أن نشر في العدد السابق مقالته "المادية والميتافيزيقا". في مقالته الثانية تلك، حاول هوركهايمر أن يجدل أفكاره المختلفة، ويدفع بها نحو تقليد فلسفي. عبّرت عن ذلك بوضوح العلامة المميزة التي وسمت لبضع سنوات على نحو ملزم موقفه الخاص، بوصفه "نزعة مادية" أو بالأحرى "نظرية مادية"، وإقامة رابط بين تقليد معين من التفكير المادي، وشكل معين من المعرفة الاجتماعية النظرية الراهنة. "إذا كان لا ينتج، انطلاقًا من مطلب السعادة الذي لم تفِ به الحياةُ الحقيقية حتى الموت، في النهاية إلا الأمل وحده وليس تحققه، عندئذ يمكن أن يُصبح تغييرُ العلاقات التي تحكم بالبؤس هدفَ التفكير المادي. اكتسب هذا الهدف شكلًا آخر، بحسب الوضع التاريخي. أما بالنظر إلى تطور قوى الإنتاج في العصور القديمة، فلم يكن أمام الفلاسفة الماديين أيضًا في مواجهة المعاناة سوى الاعتماد على خلق ممارسات داخلية؛ هدوء النفس هو الجواب في حال الضيق الذي تعجز أمامه الوسائل الخارجية. في المقابل، وضعت النزعة المادية للبرجوازية المبكرة هدفًا لها هو زيادة المعرفة بالطبيعة، مع كسب قوًى جديدة للسيطرة على الطبيعة والبشر. لكن بؤس الحاضر يرتبط بالبنية الاجتماعية، لذلك تشكل نظرية المجتمع مضمون النزعة المادية الحالية"(16).

اتفقت مختلف الآراء المميزة لفكر هوركهايمر - افتراض مطلب سعادة لا يحتاج إلى أي تبرير نظرًا إلى أن هذا المطلب يتأسس على تضامن الناس في ما بينهم، بوصفهم كائنات فانية في عالم يفتقر إلى أي حياة أخروية؛ والتشديد على المعيار الاجتماعي-التاريخي لبنية الغرائز ومعرفة البشر؛ والقناعة بأن مطلب البشر للسعادة يهدف، بالنظر إلى سيطرة عالية التطور على الطبيعة، إلى التوحيد الحقيقي للمصلحة الخاصة والعامة على أرضية اقتصاد مخطط - اتفقت جميعها مع تصوّر نظرية للمجتمع واعية لأسسها الفلسفية، تحصل البشرية فيها - بحسب هوركهايمر - على صوت ووعي. من أجل التأكيد الذاتي الفلسفي-التاريخي، قد يخدم أيضًا مشروعُ كتاب مدرسي مادي يضم

(16) Max Horkheimer, "Materialismus und Metaphysik," *Zeitschrift für Sozialforschung*, vol. 2, no. 1 (1933), p. 14.

نصوصًا من تاريخ الفلسفة الغربية من العصر القديم وصولًا إلى نهاية القرن التاسع عشر. وهنا يجب أن يكون مقياس المادي معالجة مجموعات من المشاكل، مثل "الألم والبؤس في التاريخ، وعبثية العالم، والظلم والقمع، ونقد الدين والأخلاق، وربط النظرية بالممارسة التاريخية، والمطالبة بتنظيم أفضل للمجتمع، وما إلى هنالك"[17].

هدفت الإرادة البشرية - وكان هذا أمرًا ثابتًا عند هوركهايمر - دائمًا إلى بسط سيطرة كاملة على الطبيعة، إلى "السيطرة على الطبيعة في داخلنا وخارجنا من خلال قرار عقلاني"[18]. وصف هوركهايمر، مستندًا إلى هيغل وماركس، مفهوم السيطرة الكاملة على الطبيعة بواسطة عقل لا حدود له بأنه مفهوم جدلي، ودافع عنه على جبهتين - ضد العقلانية وضد اللاعقلانية - وقد فعل ذلك لأول مرة تفصيليًا في مقالة كتبها وهو لا يزال في المهجر في سويسرا، بعنوان "في السجال حول العقلانية في فلسفة الزمن الحاضر". كانت العقلانية التي رأى هوركهايمر أنها تتجسد، قبل كل شيء، في الوضعية، تعتبر العلومَ التخصصية، في بنيتها القائمة، شكلَ المعرفة الوحيد الذي له أساس، وتعتبر التفكير غير مسؤول عن مشكلات المجتمع برمته. ولهذا مثلت العقلانية في نظر هوركهايمر عقلانية غير مكتملة ومتعثرة وفقيرة. اللاعقلانية التي رأى هوركهايمر أنها تتمثل في فلسفة الحياة وفي الفلسفة الوجودية وغيرها، تنكر التفكير بوصفه قوة مدمرة وتعلن أن النفس أو الحَدْس هما المرجع المختص لحل مشكلات الحياة الحاسمة. وبذلك يطلب هذا الاتجاه عقلانية أقل بدلًا من عقلانية أكثر. فهم هوركهايمر العقلانية بوصفها التعبير الملائم للمغالاة في التقويم الذاتي للفرد الذي لن يتمكن أبدًا من الإحاطة بالكل، هذا الفرد الذي عرف عصره الذهبي في المرحلة الليبرالية من المجتمع البرجوازي-الرأسمالي. وقد رأى في اللاعقلانية التعبير عن العجز المتزايد نفسه الذي ساد معظم أتباع الطبقات البرجوازية في مرحلة الرأسمالية الاحتكارية، ورأى فيها أيضًا تجلي

---

(17) رسالة من ماركوزه وهوركهايمر إلى بلوخ، 6 أيار/ مايو 1936، في:
Ernst Bloch, *Briefe 1903-1975*, *band 2*, pp. 674 f.

(18) Max Horkheimer, "Zum Problem der Voraussage in den Sozialwissenschaften," *Zeitschrift für Sozialforschung*, vol. 2, no. 3 (1933), p. 412.

خضوع الفرد للكل الغامض، بالنسبة إليه، أكثر من أي وقت مضى. وفقًا لهوركهايمر، "تثبت اللاعقلانية بوجه حق إفلاس العقلانية، لكنها تستخلص من هذا الإفلاس النتيجة الخطأ. وهو لم ينتقد التفكير الأحادي الاتجاه والمصلحة الأنانية لمصلحة أمر من قبيل إنشاء عالم يلائم القوى البشرية المتوفرة موضوعيًا. لا، بل هو يُبقي على القوانين الاقتصادية التي أوصلت إلى العلاقات القائمة الآن، في خصائصها الجوهرية دون المساس بها، ويحرص على أهداف الأقوى اقتصاديًا الذين هم مجرد منفذين لتلك القوى الاقتصادية، وذلك بدفعه اعترافها الأعمى بواسطة أمر الخضوع للكل والعام المزعومين"[19].

إلا أن هوركهايمر لم يترك لموضوعاته التي عالجها في مقالاته أن تتطور إلى فرضيات يمكن أن تصبح موضوعًا أو مدخلًا لأبحاث تجريبية. لم يُعزَ تحول النبرة في العمل التجريبي لمعهد البحث الاجتماعي الذي سُجّل إبان فترة المنفى في سويسرا إلى دوافع من الفلسفة، بطريقة كان يمكن معها أن تتطابق مع التوفيق بين الفلسفة والعلوم التخصصية والأبحاث التجريبية التي طالب بها هوركهايمر في خطبة تنصيبه مديرًا للمعهد، بل تحقق على ما يبدو بطريقة طبيعية ومن دون تفاهم بين المشاركين في المشروع الجماعي. دخل البحث في التغييرات داخل بنية الأسرة في زمن أزمة اقتصادية صعبة، رأى فيها البعض بداية النهاية للرأسمالية، دخل محل بحث التوسطات الاجتماعية النفسية بين الثقافتين المادية والروحية لدى جماعة اجتماعية محددة، أي جماعة العمال المؤهلين والموظفين. جاء في الحاشية في تقرير حول "الأدب الجديد عن البطالة والأسرة" الذي نُشر في العدد الثالث من **مجلة الأبحاث الاجتماعية** لعام 1933 وكتبه أندريز شتيرنهايم (Andries Sternheim) – وهو اشتراكي هولندي الأصل، ورجل "مستقيم ومجتهد" (هوركهايمر)، أوصى به هوركهايمر أحد العاملين في دائرة العمل الدولية في جنيف، وأصبح في عام 1934، بعد أن غادر بولوك إلى الولايات المتحدة الأميركية، مديرًا لفرع المعهد في جنيف – جاء في الحاشية: "يتقصى، في الوقت الحاضر، معهد البحث الاجتماعي مشكلة مدى التغييرات الجذرية، على الصعيدين الروحي والنفسي خصوصًا،

(19) *Zeitschrift für Sozialforschung* (1934), pp. 50 f.

التي تحملها البطالة الطويلة الأمد إلى العلاقات بين أفراد الأسرة الواحدة، بإجرائه استطلاعًا للرأي في عدد من البلدان المختلفة حول كل ما يتعلق بهذا السؤال"[20].

كان هذا، بمعنًى ما، تضييقًا لموضوع البحث (من الطبقة إلى الأسرة)، وبمعنًى آخر توسيعًا له (مما هو مميزٌ للطبقات إلى ما هو ليس ميزة الطبقات). عنى هذا، في الوقت نفسه، بالنسبة إلى فروم وهوركهايمر، كسبًا لأمل تركز من جديد على أهمية موضوع البحث. في مساهمته الأولى التي نُشرت في **مجلة الأبحاث الاجتماعية**، كان فروم قد تكهن مسبقًا بحالة الأزمة العنيفة في المجتمع "السلطوي" القائم، حين قال على الهامش: "كلما [...] تدهور مجتمع اقتصاديًا واجتماعيًا ونفسيًا أكثر، وكلما تضاءلت أكثر القوة الرابطة والمكيفة للمجتمع بأكمله، أو بالأحرى للطبقة المسيطرة فيه، غدت تباينات البنية النفسية للطبقات المختلفة أكبر"[21]. وكان قد أشار أيضًا إلى اتجاه تطور المجتمع بكليته - بحسب رأيه - الذي يمكن أن يرتبط به تنامي الاختلافات الطبقية النوعية في بنية الأسرة. "تختلف العلاقات العاطفية، كتلك التي بين الأب وابنه، كليًا في عائلة من مجتمع برجوازي وأبوي عن مثيلاتها في 'عائلة' من مجتمع أمومي"[22]. وحينما تكلم فروم في مساهمته الثانية في **مجلة الأبحاث الاجتماعية** بحذر عن الأفق "لنمو صفات الشخصية التناسلية" لدى البروليتاريا ولدى فئات البرجوازية المتقدمة موضوعيًا، ذكر، في الوقت نفسه، "تراجع السلطة الأبوية في المجال النفسي" و"ظهور الملامح التي تدل على التوجّه نحو الأم". وحتى قبل أن تتقدم هذه الأفكار لتصبح في صلب تفكير فروم في بحث نُشر في عام 1934 بعنوان "في الأهمية الاجتماعية - النفسية لنظرية الأم"، بيّنت مساهمة لروبير بريفو (Robert Briffault) بعنوان "مشاعر أسرة"، قدمها فروم ونُشرت في **مجلة الأبحاث الاجتماعية**، ما كان فروم وهوركهايمر يأملانه من الأبحاث حول الأسرة.

---

(20) *Zeitschrift für Sozialforschung* (1933), p. 413.

(21) *Zeitschrift für Sozialforschung* (1932), p. 36, note 1.

(22) Ibid., p. 35.

كان بريفو - المولود في بريطانيا، قد هاجر في سن الثامنة عشرة إلى نيوزيلندا، وعاش لاحقًا في الولايات المتحدة الأميركية، وبعدئذ في باريس فيلسوفًا وعالمَ نفس وأنثروبولوجيًا - قد نشر في عام 1927 كتابًا في ثلاثة مجلدات بعنوان: **الأمهات: دراسةٌ في أصل المشاعر والحدوس**، حاول أن يُبرهن فيه على أن صلة الأمهات بالذرية كانت تقود إلى بناء مجتمعات بدئية متمركزة حول الأمهات؛ وأن الأسرة التي يسيطر عليها الأب كانت منتَج التغيرات الاقتصادية التي ظهرت لاحقًا، والتي أيقظت المصلحة في وراثة الممتلكات الفردية. بهذا أَمِل بريفو أن يُسقط الحجة من يد المدافعين عن الأسرة البطريركية بأنهم لم يُدافعوا إلا عن الأساس القائم للمجتمع البشري الذي وُجِد في كل زمان. كرر بريفو في مقالته "مشاعر الأسرة" هذه الأفكار التي فاقمها إلى حدٍ جعل منها ادعاء بأن "الأسرة الأبوية السلطوية" التي تقدس الرباط الأسري تطالب الأبناء والبنات أن يضحوا بتطورهم المستقل. وختم بريفو بتوقع أن انهيار الأسرة البطريركية سوف يتابع تقدمه بسبب الأزمة الكبيرة للاقتصاد التنافسي الفردي، وسوف يُمكن في نهاية الأمر مجتمعًا ما عاد يتميز بالتنافس من تحرير المشاعر الاجتماعية متجاوزة الحلقة الضيقة والمشوّهة للأسرة.

يبدو أن هذا المنظور - أي ما إذا كانت قد وُجِدت تغيرات في الأسرة يمكن أن تهدد دورها، بوصفها موقع إعادة إنتاج الطابع الأبوي، من دون أن يُربط به حالًا توقع تحرر التضامن البروليتاري، كما كان هوركهايمر قد فعل في بعض فقرات كتابه **الفجر**[23] - لم يوضَّح للمشاركين مباشرة في الاستطلاعات التجريبية، خصوصًا أندريز شتيرنهايم بصفته منسق هذه الاستطلاعات، لكن أيضًا لبولوك ولوفنتال. حتى منتصف عام 1934، حينما كانت تدوَّن المخططات الأولى في جنيف لنشر نتائج العمل الجماعي، لاحظ هوركهايمر وفروم اللذان كانا في الولايات المتحدة الأميركية آنئذٍ، بانزعاج، أن الزملاء في جنيف قد انطلقوا من أن الأمر هنا يتعلق بالأسرة بشكل عام وليس بالسلطة في الأسرة[24]. يسمح هذا باستنتاج تقسيم وظيفي سيئ للعمل، كما يُستنتج

(23) يُنظر ص 168 وما بعدها في هذا الكتاب.

(24) رسالة من هوركهايمر إلى لوفنتال، 6 تموز/يوليو 1934؛ رسالة من فروم إلى هوركهايمر، 15 تموز/يوليو 1934.

منه أيضًا أن وضع موضوع السلطة في الدينامية الاجتماعية وفي التوسط بين النظرية والتجربة، بدأ يتضح للرؤوس المنظّرة شيئًا فشيئًا على نحو صحيح. جاء في نص لهوركهايمر، وُزّع في أثناء غداء أقامه المعهد لكلية العلوم الاجتماعية في جامعة كولومبيا مطلع عام 1937: "العامان الأولان من نشاطي في المعهد كانا مكرّسَين لتجارب في هذا النوع من العمل التشاركي[25]. ولقد تبيّن أن الموضوع الذي أجمع عليه كل المشاركين، في نهاية الأمر، بوصفه الموضوع الأكثر جدوى لنوع عملنا في البحث التشاركي الذي اخترناه، كان علاقة الظاهرة الثقافية للسلطة بتغير الحياة الاقتصادية العادية، ودورات الكساد الاقتصادي. إلا أن مجال مشكلة السلطة واسع إلى حد أنه لا يمكن البحث فيه بأكمله. لهذا السبب اخترنا واحدة من المؤسسات الاجتماعية حيث تكون الذبذبات في علاقات السلطة وارتباطاتها بأحداث في الحياة الاقتصادية قابلة لأن تُرصد بأعلى درجة من الجاهزية. هذه المؤسسة هي الأسرة [...]، ومع ذلك بدأنا بدراسة الأسرة من وجهة النظر هذه عبر مختلف المناهج، وفي بلدان أوروبية مختلفة".

في فترة الإقامة في المنفى في سويسرا، بُدِئ بثلاثة استطلاعات منفصلة:

1. في عام 1933 بدأ في فرنسا استطلاع في أسر مدينية، كان الرجل فيها ينتمي إلى فئة الموظفين أو العاملين المتدربين، وكان عاطلًا من العمل منذ ستة أشهر على الأقل. سُئِل إضافة إلى الوضع الوظيفي، ووضع الدخل والسكن، عن كيفية صرف أوقات الفراغ، وعن التغييرات في العلاقات بين أعضاء الأسرة المتعلقة بالبطالة، وعن نتائج البطالة الإيجابية والسلبية بالنسبة إلى كل فرد من أعضاء الأسرة، وأخيرًا عن تصوراتهم حول عدد من الأسئلة الفردية (مثلًا: "ما هي أسباب الأزمة؟" أو "من هم أعظم رجالات الوقت الحاضر؟"). وُضعت استمارة الاستبيان بحيث لم تكن تُملأ من المستبيَن نفسه، بل من أشخاص ذوي خبرة يُجرون المقابلة. في البداية تعثر هذا العمل بسبب صعوبة إيجاد قوًى كافية وملائمة للقيام بهذا العمل، لكن أُدخل لاحقًا كـ "استطلاع اختباري" بين العاطلين من العمل، حول السلطة والأسرة في **دراسات في السلطة والأسرة**.

(25) بين مختلف فروع العلوم، والعلوم النظرية والتجريبية.

2. في نهاية عام 1933، بدأ، انطلاقًا من فرع المعهد في جنيف، استطلاع خبراء في كل من سويسرا والنمسا وفرنسا وبلجيكا وهولندا، دخل كـ "استطلاع خبراء حول السلطة والأسرة" في الـ **دراسات**. أرسلت 589 استمارة استبيان إلى أساتذة جامعيين في علم النفس وعلم التربية، وإلى قضاة في محاكم الأحداث وموظفي الدولة للشؤون الاجتماعية، وإلى كهنة وقادة منظمات الشباب، وإلى معلمي المدارس ومديري بيوت الرعاية. تناولت المواضع الستة عشر في استمارة الاستبيان: سلطة الأب أو الأم أو الإخوة الكبار، والتغيرات في علاقات السلطة، والعلاقة بين دخل الأسرة والسلطة (وهنا يقول أحد الأسئلة: "هل لهيبة الأب في الأسرة علاقة بكونه معيلها الرئيسي؟")، وتأثير أسلوب التربية في طبع الأطفال. بناءً على معطيات الخبراء بشأن الطبقة الاجتماعية وحجم مكان الإقامة الذي تعلقت به بياناتهم، جرى في سياق التقويم تصنيف 99 استمارة للعمال و27 للطبقة الوسطى و24 للفلاحين.

بوسعنا هنا أن نستبق نتائج التقرير الذي نَشره في الـ **دراسات** أندريز شتيرنهايم وإرنست شاختل (Ernst Schachtel) – والأخير كان صديقًا لفروم منذ أيام الدراسة في هايدلبرغ، وعمل لبضع سنوات في معهد البحث الاجتماعي – فنقول إنه بالنظر إلى الفوارق المميزة للطبقة، لم يتبين من 251 استمارة تمت الإجابة عنها سوى "أن الأسرة الفلاحية تمثل نوعًا متطرفًا من الأسرة البطريركية أكثر من الأسرة العمالية"[26]. فضلًا عن ذلك، رأى الخبراء تراجعًا عامًا لسلطة الأبوين، أو بالأحرى زيادة استقلالية الأولاد. ولاحظوا أن أسباب ذلك تكمن في معظم الأحيان في البطالة، وفي الحرب، وفي طريقة استخدام أوقات الفراغ، وفي تراجع الأخلاق، وفي اللاتديُّن.

يبدو أن مشروع إرسال استمارات مكملة يُسأَل فيها، مثلًا، عن تبعات البطالة على الارتباط الأسري أو عن آراء الشباب حول الأخلاق الجنسية، قد تعثر.

3. في عامي 1933/ 1934، بدأت انطلاقًا من فروع المعهد في جنيف وباريس ولندن، استطلاعات رأي في أوساط الشباب حول السلطة والأسرة. كان

(26) Max Horkheimer et al., *Studien über Autorität und Familie*, p. 317.

استطلاع الشباب السويسري أفضل الاستطلاعات التي أجريت، وقد استفيد منه لاحقًا إلى حد بعيد في **دراسات في السلطة والأسرة**. عُهد إلى كيته لايشتر (Käthe Leichter) بإعداد مخطط استمارة الاستبيان وإنجازه. تتحدر لايشتر، وهي اشتراكية ديمقراطية نمساوية، من عائلة يهودية برجوازية-ليبرالية من فيينا، درست على يد كارل غرونبرغ، وكانت على علاقة صداقة معه، وعملت معه في لجنة التحويل الاشتراكي النمساوية، لكنها بسبب التزامات أخرى لم تستطع أن تلحق به إلى فرانكفورت لتكون مساعدته في معهد البحث الاجتماعي. بعد أن تم سحق التمرد الذي أثاره نظام حكم دولفوس (Dollfuß) في شباط/ فبراير 1934، كانت لايشتر قد التحقت بالعمل السري، وهاجرت إلى سويسرا حيث عملت بين عامي 1934 و1936 لمصلحة معهد البحث الاجتماعي (في عام 1938، وقعت في فيينا في أيدي الغستابو. وفي شباط/ فبراير 1942 قُتلت في أثناء النقل من معتقل رافنزبروك قرب ماغديبرغ على أيدي فريق مرافق من الإس إس في أثناء "تجربة قتل بالغاز" لألف وخمسمئة امرأة يهودية في إحدى عربات القطار المخصصة لنقل الماشية).

تضمنت استمارات الاستبيان التي أجاب عن أسئلتها ألف شاب وشابة سويسريين، إضافة إلى أسئلة متعلقة بالشباب أنفسهم، وحول الأم والأب والإخوة والأخوات وأشخاص آخرين، تضمنت 13 سؤالًا حول حياة الأسرة (من بينها على سبيل المثال: "هل تلجأ بما لديك من هموم إلى أمك أم إلى أبيك؟ ولماذا؟"، "هل كنتَ تُعاقَب جسديًا عندما كنتَ طفلًا؟"، والأسئلة المأخوذة من استمارة استبيان آراء العمال والموظفين: "حينما سيكون لك أنت نفسك في المستقبل أولادٌ، هل ستعاقبهم جسديًا؟ وهل ستعمل على تربيتهم بصرامة أم بلطف؟"، و"من هم الرجال العظام الذين تحترمهم أكثر من غيرهم في الزمن الحاضر؟"). أجاب عن أسئلة الاستطلاع عدد مماثل تقريبًا من شباب الفئات الاجتماعية المتوسطة والبروليتارية. أما حول إشكالية تمييز بنية الأسرة بحسب الطبقات الاجتماعية، فقد جاء، في أي حال، في تقويم **دراسات في السلطة والأسرة**: "ففي حين يجب، من ناحية اقتصادية، رسم خط واضح بين الطبقة الوسطى والطبقة العمالية، لم يكن الحال كذلك من ناحية اجتماعية-نفسية. سبق وأظهر استبيان العمال والموظفين إلى أي حد توجد بنى الشخصية البرجوازية الصغيرة لدى العمال. غير أن هذا هو واقع الحال في سويسرا، لكن في نطاق

أوسع بكثير. كما يجب إلحاق جزء كبير من العمال حقيقةً بالطبقة الوسطى من الناحية النفسية. ويعود السبب إلى حد بعيد إلى مستوًى معيشي أعلى. لكن هذا يعني أنه يجب علينا بالأحرى أن نُنشئ في هذا الخصوص الفارق بين طبقة وسطى أحسن حالًا وأخرى أقل حظًا. نحن نُعرض عن ذلك، كي لا نخلط بين الفئات الاقتصادية الواضحة، لكننا نُشير إلى أنه لا بد من أخذ وجهة النظر هذه في الاعتبار عند تمييز بنى السلطة بحسب الطبقات الاجتماعية"[27].

بما أن البطالة لم تصبح في سويسرا مشكلةً ملحة إلا منذ عام 1933، كان لا بد، لهذا السبب، من أن يكون استطلاع الآراء حول السؤال عن التغيرات في بنية الأسرة في أوقات الأزمات أقل جدوى. كذلك لم يقدم التحليل الذي قام به لاحقًا بول لازارسفلد (Paul Lazarsfeld) لنصف استمارات الاستطلاع الكاملة في الولايات المتحدة الأميركية شيئًا يستحق الذكر حول فروق مميزة للشريحة الاجتماعية أو تغيرات في بنية الأسرة.

كذلك بقي بلا جدوى استطلاع الشباب في فرنسا، وقد رجع منه 1651 استمارة استبيان. لم يوفر حتى التقرير الأولي لـ **دراسات في السلطة والأسرة** إلا انطباعًا عامًا عن البنية البطريركية للأسرة التي تبدو راسخة في فرنسا، وعن تقسيم للأدوار، كان الأب، وفقًا له، الشخص المحترم والأم الشخص الموثوق به[28]. أما الاستمارات التي أُرسلت منذ أيلول/ سبتمبر 1934 من لندن إلى تنظيمات أوعزت إلى أعضائها بملئها، فلم يجرِ على ما يبدو تحليلها البتة[29].

في الوقت الذي أخذت الاستطلاعات مجراها، وهي التي افتقرت إلى منهجية واسعة خاصة بالعمال والموظفين الألمان، والتي لم تقم على إمكان تأويل نفسي-تحليلي، ولم تتضمن جديدًا إلا أسئلة عن العلاقات بين الشباب والآباء والأمهات وعن تغييرات محتملة في هذه العلاقات، في هذا الوقت، جاءت مقالات العدد الصيفي من **مجلة الأبحاث الاجتماعية** في عام 1934 أشبه بتعبير عن ردة الفعل الأولى المتعددة الاختصاصات لحلقة هوركهايمر على انتصار النازية. فقد جاءت مقالة ماركوزه "**الصراع ضد الليبرالية في الرؤية**

(27) Ibid., p. 364.

(28) Ibid., p. 449.

(29) Ibid., p. 455.

الشمولية للدولة"، ومقالة فروم "**الأهمية الاجتماعية النفسية لنظرية حق الأم**"، ومقالة مندلباوم وماير "**في نظرية الاقتصاد المخطط**"، مع مقدمة هوركهايمر، ليكمل بعضها بعضَها الآخر في وضع خط فاصل بين النظام البرجوازي الذي ظهرت جوانبه السلبية معراةً في الدولة الشمولية وبين قضية الاشتراكية. جاء في بحث ماركوزه: "يتم التحول من الدولة الليبرالية إلى الدولة السلطوية الشمولية على أرضية نظام المجتمع نفسه. تحمل الدولة السلطوية الشمولية معها تنظيم المجتمع ونظريته الملائمين لمرحلة الرأسمالية الاحتكارية"[30]. ورأى فروم أن "التناقضات الاجتماعية التي تفضي إلى تقليص ضعف قوى الإنتاج تعمل بمعنى تطور نفسي انتكاسي، بمعنى تقوية المركب المتمحور حول الأب، كما يوجد لدى الحركات الناشئة في الصراع ضد الماركسية. فبدلًا من مطلب السعادة التي هي حق لكل البشر، يضع ممثلوه الأيديولوجيون مرة أخرى الواجبَ في صلب منظومة القيم، بحيث لم يعد لهذا الواجب، في أي حال، من خلال مشروطية الوضع الاقتصادي، أي مضمون اقتصادي في المقام الأول، بل له مضمون الفعل البطولي ومضمون المعاناة من أجل كلية المجتمع"[31]. وكتب هوركهايمر: "لم يبق في الوقت الحاضر للبشر من خيار على الإطلاق بين اقتصاد ليبرالي وبين نظام الدولة الشمولية، لأن إحداها تؤدي بالضرورة إلى الأخرى، وذلك بالضبط لأن الأخيرة تحقق على أكمل وجه المطلب الليبرالي في الإبقاء على الملكية الخاصة للقوى الاجتماعية المساعدة الأكثر أهمية"[32]. "من هنا، إن من يعمل على تحقيق الاشتراكية بالطبقات الوسطى - يقول مندلباوم وماير - ويعترف لها بحقها في أن تحصل على تنازلات قوية ومبدئية، لن يصل في أحسن الأحوال، حتى لو حالفه الحظ، إلا إلى بعض التحولات الاشتراكية دون اشتراكية؛ أي اشتراكية شكلية. لكن هذه الاشتراكية ليست في المرحلة الحالية، في الواقع، إلا رأسمالية احتكارية منظمة سياسيًا واقتصاديًا بشكل تعاوني مع تركيبات لها طابع رأسمالية الدولة"[33].

---

(30) *Zeitschrift für Sozialforschung* (1934), pp. 174 f.

(31) Ibid., p. 226.

(32) Ibid., p. 230.

(33) Ibid., p. 261.

كان، إذًا، ناقد الأيديولوجيا ماركوزه، وعالم النفس الاجتماعي فروم، والاقتصاديان مندلباوم وماير، والفيلسوف الاجتماعي هوركهايمر، مجمعين في توافقهم مع التفسير الشيوعي السائد يومذاك الذي رأى أن الفاشية كانت نتاج الليبرالية ونتاج شكل السيطرة السياسية للرأسمالية الاحتكارية. برز التجانس بكل وضوح في التشخيص الأساسي. أما ما كان يُتوقع من نهج متعدد الاختصاصات - محفزات تنبثق من التنوع المادي ومن المنظورات المختلفة لمواصلة تطوير النظرية أو تمايزها ولخدمة عمل تجريبي دقيق أو توجيهه باتجاه جديد - فقد غاب إلى حد بعيد. في المقابل، تبيّن أن فروم، بهذا الخصوص، لا يزال هو الشريك الأكثر فائدة وأهمية.

بقي المنفى السويسري حالة مؤقتة. كان لا بد عند إنشاء فرع في باريس أو لندن ليصبح مركزًا رئيسيًا لمعهد البحث الاجتماعي، من أن يُحسب حساب معارضة ما، إن استثنينا حلقةً صغيرةً من المتعاطفين. إلا أنه، في ما يتعلق بالحلقة المحيطة بهوركهايمر، ساد الانطباع لدى أفرادها بأن الفاشية تزحف للسيطرة على أوروبا كلها. أما حول الولايات المتحدة الأميركية، فقد قدم تقريرًا مليئًا بالأمل كلٌ من يوليان غومبرتس، مساعد بولوك - وهو من مواليد الولايات المتحدة الأميركية، وقد أرسله المعهد في عام 1933 إلى الولايات المتحدة الأميركية في رحلة استطلاعية - وفروم أيضًا الذي سبق وكان هناك، وقَبِل في نهاية عام 1933، حينما كان مستقبل المعهد لا يزال مجهول المصير، دعوةً من معهد التحليل النفسي في شيكاغو. هكذا بدأ مديرو المعهد، على الرغم من جميع تحفظاتهم تجاه العالم الجديد، ينظرون جديًا إلى إمكان الهجرة إلى الولايات المتحدة الأميركية. أراد هوركهايمر أن يرى بنفسه الوضع على الطبيعة، ثم يتخذ قرارًا نهائيًا. وقبل أن يبدأ هو وزوجته الرحلة الكبيرة، زار مرة أخرى فرعي باريس ولندن، وقد كتب من باريس إلى لوفنتال في جنيف في 10 شباط/ فبراير 1934: "غدًا نسافر نحو أولد إنغلند. العالم بارد. إلى اللقاء [...]". في 26 نيسان/ أبريل صعد مع زوجته مايدون في لوهافر على متن الباخرة إس إس جورج واشنطن. في سن التاسعة والثلاثين، انطلق مسافرًا إلى أميركا الشمالية، لكي يقرر إن كان ينبغي للمعهد أن يستقر هناك في مكان ما.

بعد أسبوع، في 3 أيار/ مايو، وصل الاثنان إلى نيويورك، وكان يوليان غومبرتس في استقبالهما في المرفأ. كتب هوركهايمر بعد وصوله بوقت قصير إلى بولوك: "أنا منهار جسديًا جدًا، لكن، إن استطعت بشكل عام أن أتحمل الحياة هنا، فمن المؤكد أنها أفضل من أوروبا، لأن الأمور هناك ستصبح أكثر ظلمة على ما يبدو". وأخبرت زوجته بولوك بحماسة: "نيويورك مدينة ضخمة للغاية، لا يمكن إطلاقًا من لم يرَها أن يكوّن أي فكرة عنها؛ إنها ببساطة مدينة تفوق كل وصف، رائعة جدًا؛ إن باريس ولندن وكل أوروبا هي قرية زنوج".

بعد بضعة أسابيع - وقد كان هوركهايمر لا يزال مريضًا، وزوجته هي الأخرى مريضة أيضًا، سكن الاثنان في فندق غال يقع بالقرب من سنترال بارك، حيث الجو هناك أكثر برودة وهدوءًا ويمكنهما أن يتحملاه أكثر من أي مكان آخر في نيويورك - ارتسمت معالم التطور المستقبلي، من دون أن يكون على هوركهايمر أن يُقرر كثيرًا. كتب إلى بولوك في 27 أيار/ مايو: "لدي، عمومًا، انطباع بأن هذا الجزء من الكرة الأرضية مكان ملائم أكثر من أوروبا للعمل العلمي الهادئ في السنوات القادمة. الأخبار التي تنقلها الصحف من هناك تُرعبني كل يوم. لا شك في أن الوضعين الاقتصادي والسياسي في الولايات المتحدة ليسا ورديين على الإطلاق أيضًا؛ لا بل إن الأوضاع هنا أسوأ بكثير مما كنت أعتقد. علينا أن نحسب حساب تطورات سريعة في تفاقم الوضع الاقتصادي. لهذا السبب، أريد أن أتعرف الوضعَ في كندا أيضًا. من جهة أخرى، أعتقد أنه يجب أن يُتاح هنا إمكان عمل علمي منعزل، في حين لن يكون عما قريب الكلام عن ذلك ممكنًا في أوروبا.

لكن إن كنا سنعمل هنا فعلًا كعلماء مستقلين، أو إن كان علينا أن نؤسس جمعيةً ما للبحث الاجتماعي، فهذا موضع تساؤل. أكد ج.[34] أن الجميع نصحوه بالأخير، ويبدو فعليًا أن الحاجة إلى تسمية رسمية كان أمرًا لا بد منه".

أصبح أمرًا ضروريًا أن يأتي الفريق الأساسي إلى أميركا الشمالية. وتأكد لهوركهايمر أيضًا أن نيويورك هي المكان الأنسب في الولايات المتحدة الأميركية (إلا أنه كان يحلم، في أي حال، بأن يكتشف في وقت لاحق مدينة

(34) أي يوليان غومبرتس.

أصغر وأكثر هدوءًا في كندا، حيث تستطيع الحلقة أن تقيم فيها على الدوام). لكنه في ما يخص جامعة كولومبيا، لم يكن مطمئنًا كثيرًا.

كانت جامعة كولومبيا تنتمي إلى عصبة أيفي (Ivy League)، المجموعة التي تضم الجامعات المرموقة في الولايات المتحدة الأميركية. كان فرانكلين هنري غيدنغز (1855-1931) أحد مؤسسي علم الاجتماع في الولايات المتحدة الأميركية الذي شغل في جامعة كولومبيا عام 1894 أول كرسي لعلم الاجتماع في جامعة أميركية، وأسس ثاني أهم قسم علم اجتماع في الولايات المتحدة الأميركية (بعد القسم الذي أُسس في شيكاغو). كان أهم ممثليه في الولايات المتحدة الأميركية في منتصف الثلاثينيات روبرت ليند (Robert S. Lynd) وروبرت ماكيفر (Robert MacIver). كانت لطافة ليند أمرًا مهمًا لنجاح العلاقات التي مهّد لها غومبرتس. كان ليند، وهو منذ عام 1931 أستاذ علم الاجتماع في جامعة كولومبيا - قياسًا بالليبرالية اليسارية للصفقة الجديدة - راديكاليًا يساريًا ورائدَ علم اجتماع البلديات، وكان قد نشر مع زوجته في عام 1929 كتابًا بعنوان **ميدلتاون** سرعان ما أصبح من كلاسيكيات علم الاجتماع، وهو دراسة تجريبية لمدينة صناعية في ولاية إنديانا تُدعى مونسي. أظهرت الدراسة، بكل ما احتوته من رسومات صغيرة مفعمة بالحب، أن سكان المدينة كانوا مقسَّمين إلى طبقة عاملة وطبقة رجال الأعمال، وأن المدينة هي مدينة "أولئك الموجودين هناك في الأعلى"[35] (تُقدِّم أدلةً أوضح لقرب الزوجين ليند من علم اجتماع نقدي الدراسةُ التي نُشرت في عام 1937 بعنوان **ميدلتاون في تغير** والتي بحثت في تفاقم التناقضات الطبقية وفي إمكان فاشية قادمة، وأيضًا المجلد الذي صدر في عام 1938 بعنوان **ولماذا المعرفة؟** الذي دافع عن رؤية نشطة لعلم الاجتماع). بدا واضحًا أن ليند لم يرَ في العلماء القادمين من فرانكفورت منافسين، بل رأى فيهم بالأحرى تعزيزًا لشكل البحث الاجتماعي الذي يمثله. بذل كل ما في وسعه لدى زميله روبرت ماكيفر، رئيس قسم علم الاجتماع، لدعم مجموعة فرانكفورت. تلقف روبرت ماكيفر - أستاذ العلوم السياسية في جامعة كولومبيا منذ عام 1927 - الاقتراح، وأوصى صديقه نيكولاس موري بتلر

---

(35) يقارَن:

Ralf Dahrendorf, *Die angewandte Aufklärung*, p. 52.

(Nicholas Murray Butler) – وهو ليبرالي محافظ، كان منذ عام 1902 رئيس جامعة كولومبيا، وصار في عام 1912 مرشح الحزب الجمهوري لمنصب نائب رئيس الولايات المتحدة الأميركية – أن يساعد العلماء القادمين من فرانكفورت.

كتب ماكيفر إلى بتلر في 4 حزيران/يونيو 1934: "عزيزي السيد الرئيس، تناهى إلى علمي أن جماعةً من العلماء الذين كانوا يقيمون من قبل في فرانكفورت أ. م، يعملون الآن على إيجاد مكان لهم في هذا البلد. و**مجلة الأبحاث الاجتماعية** التي يصدرونها، هي مجلةٌ معترفٌ بها، وأداة قيمة للدراسات في مجال العلوم الاجتماعية. لقد حالفهم الحظ، لأن المال المخصص لهم كان خارج ألمانيا؛ أقول إنهم محظوظون، بالنظر إلى حقيقة أنه لم يعد بإمكانهم أن يتابعوا أبحاثهم في فرانكفورت. وهم قلقون بشأن الحصول على شيء من الاعتراف بهم من جامعة أميركية ما. تلقوا، كما عرفتُ، عروضًا من جامعتَي شيكاغو وبرنستون، غير أنهم سيرحّبون، أكثر من أي شيء آخر، بعلاقة مع جامعة كولومبيا.

في هذا الوقت المتأخر من الفصل الدراسي، لن يكون ممكنًا على الأرجح، أن توضع خطة لإلحاق هؤلاء بالجامعة، ولا شك في أن هناك مسائل كثيرة سيكون من الضروري النظر فيها قبل اتخاذ خطوات محددة في هذا الاتجاه. لكنني أود أن أقترح أن جامعة كولومبيا يمكن أن تُقدم في هذه الأثناء خدمة جيدة جدًا، وتؤسس لبداية علاقة وطيدة بهم، في ما لو قَدمت تسهيلات سكنية لهذه المجموعة من العلماء"[36].

اتخذ بتلر قرارًا بهذا المعنى. فأربك العرض بسرعته وسخائه وغياب الشكليات عنه هوركهايمر. في لقاء مع ليند رتّبه غومبرتس، سأل هوركهايمر إن كانت الشخصيات صاحبة القرار، وفي مقدمتهم الرئيس، قد اطلعوا على منشورات المعهد، فأجاب ليند بالإيجاب[37]. وأكد غومبرتس لهوركهايمر،

---

(36) ورد في:
Lewis S. Feuer, "*The Frankfurt Marxists and the Columbia Liberals*," *Survey* (Summer 1980), p. 157.

(37) رسالة من هوركهايمر إلى بولوك، 21 حزيران/يونيو 1934.

بعد الحديث، أن ليند قد أمر بتوزيع منشورات المعهد قبل جلسة اتخاذ القرار الحاسم. اقتصر الاطلاع، إذًا، في أقصى الحالات على تصفح سريع لمواد كتبت باللغة الألمانية ولبعض الملخصات. وهكذا كان لا بد من أن تبرهن استراتيجية هوركهايمر في تجنب الأسماء الماركسية والألفاظ الاستفزازية على نجاعتها.

ولكن، عندما سأل سكرتير الجامعة ليند عن ضمانات خطية بأن أنشطة المعهد، عندما يُكلف بمهمات تدريسية ويحصل على وضع كلية جامعية، سوف تندرج ضمن المسارات المطلوبة، قال ليند: "الورطة الوحيدة الممكنة في هذه المشكلة تكمن في حقيقة انحياز المعهد إلى الجانب الليبرالي الراديكالي. لقد وضعت هذا الأمر تحت عناية ماكيفر، وأعتقد أنه على دراية بالأمر على نحو جيد نوعًا ما. وبحدود القليل الذي رأيته من أعمالهم ومن حديثي مع غومبرتس، أعتقد أنه يصح الاستنتاج بأنهم وكالة للبحث بمقاييس عالية، وأنهم لا يهتمون بالدعاية". لا توجد رسائل من جانب غومبرتس. "نقل إلي شخص آخر أن غومبرتس كان حريصًا جدًا على ألا يظهر بمظهر من يتقدم بطلب إلى جامعة كولومبيا كان من الممكن أن يُرفض، بل كان يرغب في أن تأتي المبادرة من جامعة كولومبيا. أعتقد أن هذا معقول جدًا؛ فحقيقة فحوى هذه المحادثات برمّته كان يدور حول علاقة غير ثابتة مع الجامعة مع إمكان تعيين عضو أو اثنين من كليتنا، كلية العلوم السياسية، عضوين في هيئة إدارة معهدهم ومنحهم استقلالية تامة"[38].

بذلك كان الوجه الراهن للمسألة - إخلاء أمكنة لـ "فريق غومبرتس" لمدة ثلاث أو أربع سنوات - واضحًا لجانب الجامعة. كان هوركهايمر لا يزال مترددًا، فأوكل المسألة إلى محام لفحص النتائج المترتبة عنها. ولم يقبل على نحو نهائي عرض جامعة كولومبيا إلا في منتصف تموز/يوليو بتسلم المبنى رقم 429 الواقع في الشارع 117 غربًا لمدة ثلاث أو أربع سنوات في بادئ الأمر، وترميمه من المال الخاص إذا دعت الحاجة.

(38) رسالة من ليند إلى فاكنتال، 25 حزيران/يونيو 1934، في:
Feuer, p. 163.

لم يكن سبب تردد هوركهايمر حذره الشديد ونقص إقدامه على اتخاذ القرار فحسب، بل كان أيضًا تأرجحه بين الداخل والخارج، وبين الحاجة إلى المعرفة والحاجة إلى نشاط علمي منظم وإلى ممارسة السلطة، وبين التوق إلى الاستقلالية والتوق إلى أمان مؤسساتي واعتراف رسمي. آل هذا التأرجح في الممارسة العملية، هذه المرة أيضًا، إلى بناء جيب في حضن المجتمع البرجوازي، اجتماعي نقدي مبني بطريركيًا. كان موقع هوركهايمر السيادي، في ضوء شروط المنفى، أقوى مما كان عليه في أي وقت مضى، وكانت تبعية العاملين معه أكبر من أي زمن سابق، كما كانت قوة جاذبية المعهد بوصفه جماعة مثقفين مستقلين يساريين بلا أي منافس على الإطلاق.

قدم فروم في نهاية أيار/ مايو لمدة شهر إلى نيويورك. "أفكر كثيرًا في هذه الأسابيع الأربعة، وتُسعدني فكرة أن لدينا أملًا في متابعتها"، كتب فروم إلى هوركهايمر في 4 تموز/ يوليو 1934، وهو في طريقه إلى نيومكسيكو، حيث كان يريد أن يفعل شيئًا يفيد صحته في مصح بالقرب من مدينة سانتا فه. بعد عودته إلى نيويورك، نقل فروم عيادته إلى نيويورك، واستلم وظيفة أستاذ زائر في جامعة كولومبيا، وأصبح بذلك، مرةً أخرى، قريبًا من المعهد مكانيًا. وعلى الرغم من أنه كان عند زعمه متفردًا، وأن عيادة التحليل النفسي التي افتتحها كانت تؤمن له في أي وقت حياةً مستقلة عن المعهد في الولايات المتحدة الأميركية لأن سكانها يقصدون بسرور عيادات التحليل النفسي، على الرغم من ذلك كان فروم يولي قيمة كبيرة للعمل المشترك مع هوركهايمر الذي كان يعلم أن فروم مستقل عنه، وكان يعامله بسبب أهميته في عمل المعهد النظري والتجريبي على حد سواء بوصفه شخصًا مكافئًا له ثقافيًا من ناحية القيمة والحقوق.

كان أول ما قام به هوركهايمر أنه طلب، في بداية تموز/ يوليو، من ماركوزه أن يأتي من جنيف؛ إذ لم يعد وجوده هناك مفيدًا، وكان ينبغي أن يكون شريك هوركهايمر في مناقشات فلسفية، أَمِل أن يحصل منها على اقتراحات لمشروع كتاب عن المنطق المادي كان قد خطط له منذ بدايات الثلاثينيات؛ مشروع كان يُفترض أن ينضم إليه بمرور السنين مرةً أدورنو، ومرةً ماركوزه، وفي مرة ثالثة كورش. كان ماركوزه في نظر مديري المعهد مختصًا بالأدبيات الفلسفية ولو بمؤهلات محدودة. لا، بل تكلم بولوك حتى عن "وظيفة

مساعد قليلة الشأن ووظيفة عامل مساعد"، وإن كان يقصد بكلامه أكثر من أي شيء آخر الرد على ادعاء أدورنو بأن ماركوزه يجب أن يُطرد، وأن يُوظف هو، أي أدورنو، مكانه[39]. غير أن ماركوزه اعتُبِر، بسبب ماضيه الهايدغري، شخصًا لا بد له من أن يبرهن أولًا، وعلى مدًى طويل، على تملكه للنظرية الصحيحة. وقد نظر ماركوزه نفسه إلى الأمر على هذا النحو أيضًا. كتب ماركوزه في نهاية عام 1935، بينما كان يُعيد كتابة مقالته الفلسفية الأولى - "في مفهوم الجوهر" - لـ **مجلة الأبحاث الاجتماعية**: "بودّي أن أنقل إليكم، في نهاية السنة الأولى التي أمضيتها في أميركا، مدى الغبطة التي أشعر بها هنا في شراكة إنسانية وعلمية. أعتقد أنني تعلمت بعض الأشياء، وها أنا أشكركم على ذلك"[40].

بعد شهر، في بداية آب/ أغسطس، طلب هوركهايمر من لوفنتال أن يأتي إلى نيويورك. كان بحاجة إليه، قبل كل شيء، ليُعد نشرةً عن المعهد، كان ينبغي أن تكون جاهزة قبل إعادة افتتاح العمل الأكاديمي. وجد هوركهايمر في لوفنتال زميلًا في العمل سلّم نفسه إليه كليًا؛ فعلى سبيل المثال، استطاع هوركهايمر أن يقرأ في واحدة من رسائل لوفنتال التي بعث بها إليه في تموز/ يوليو 1934 أنه [لوفنتال] كان يراقب بحسرة قطار باريس الذي خطف ماركوزه وهو يغادر المحطة، وكان يتمنى لو أنه رافقه لكي يقلص أخيرًا زمن الفراق. إنه لمثيرٌ للإعجاب حقًا كيف تمكن هوركهايمر، على الرغم من أسابيع من الإزعاجات، من أن يستجمع القوة، لا لأن يعطي موافقته المبدئية على الولايات المتحدة الأميركية فحسب، بل لكي يؤسس، فوق هذا كله، شبكة واسعة ومعقدة من العلاقات. أما في ما يخص المعهد الذي بيّن له بولوك، قبل بعض الوقت، مشروعه، فكان له وجهة النظر ذاتها، كما هي الحال في الجمعية الفرنسية الدولية للأبحاث الاجتماعية، أي إشغال شديد الصرامة لجميع الوظائف من الدائرة الضيقة جدًا. لما استطاع لوفنتال أخيرًا أن يتبع هوركهايمر، كان عليه أن يُبقي كتاباته عن الثورة الألمانية مكانها. كان هوركهايمر يخشى إن فُتحت صناديق كتب لوفنتال في الجمارك الأميركية، أن يصدر في الحال أمرٌ بترحيلهم جميعًا[41].

---

(39) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 13 أيار/ مايو 1935.

(40) رسالة من ماركوزه إلى هوركهايمر، 13 كانون الأول/ ديسمبر 1935.

(41) Löwenthal, p. 57.

التقى أخيرًا، في نهاية آب/ أغسطس، بولوك مع هوركهايمر مرةً ثانيةً في كيبيك، حيث توقف هوركهايمر لفترة في أثناء سفرة قصيرة قام بها إلى كندا. كان بولوك قد تردد أكثر من هوركهايمر نفسه في الموافقة على مشروع كولومبيا، بدافع القلق حيال معنى تكتلهم. كتب لوفنتال إلى هوركهايمر: "هذا يعني، بالنسبة إلى الخارج، نجاحًا كبيرًا. إلا أنه لا بد من أن نتخذ من مثل هذه النجاحات، بحكم وجهة نظرنا، موقف الريبة. سوف يهتف ليكس[42] بعبارات النصر لو كتبتَ له أنت عن تلك الإنجازات [...]، لكن الأمر يتوقف، بالنسبة إلي، على ظهور أعمالك قبل كل شيء، أنها أهم من كل أعمال الآخرين معًا"[43].

بوصول فيتفوغل أيضًا إلى نيويورك في أيلول/ سبتمبر 1934، التأم شمل جميع العاملين المثبتين في المعهد من جديد، ما عدا غروسمان، الذي لم ينضم إليهم إلا في عام 1938. وهكذا صار بالإمكان اعتبار عملية الهجرة منتهية. وفي حين بقيت جنيف المركز الرئيس للجمعية الدولية للأبحاث الاجتماعية، أصبح فرع نيويورك هو المركز العلمي للمعهد الذي أطلق على نفسه اسم "المعهد الدولي للأبحاث الاجتماعية"، إلى أن حذفَ ذات يوم، إبان الحرب العالمية الثانية، كلمة "الدولي".

(42) أي فليكس فايل.

(43) رسالة من بولوك إلى هوركهايمر، 21 تموز/ يوليو 1934.

الفصل الثالث

في العالم الجديد 1 :
معهد للبحث التجريبي تقريبًا لمنظّرين للمجتمع ماركسيين ذوي كفاءة في العلوم التخصصية

"دراسات في السلطة والأسرة" - جزء من عمل جماعي في تقدُّم

قَدِم هوركهايمر والعاملون معه إلى الولايات المتحدة الأميركية في وقتٍ تبيّن بعد سنة منه أن حكومة روزفلت قد تجاوزت أسوأ أزمة. ففي مطلع عام 1933 كان في الولايات المتحدة الأميركية أكثر من 14 مليون عاطل من العمل. وفي عامي 1932/1933 تجاوز عدد المهاجرين من الولايات المتحدة الأميركية عدد المهاجرين إليها بسبعة وخمسين ألف مهاجر، وهي ظاهرة لم تحدث في تاريخ هذا البلد من قبل على الإطلاق. وصلت حلقة هوركهايمر إلى هناك في عهد حكومة متعاطفة مع المثقفين، وتثق بتكليفهم بمهمات على قدر من الأهمية؛ حكومة كانت، بمقاييس الولايات المتحدة الأميركية، منحازة إلى اليسار، وفي الوقت نفسه ناجحة جدًا وشعبية. قَدِمت الحلقة وبحوزتها مال كثير، وكان ذلك في مرحلة لم يكن عدد المهاجرين إلى هناك هربًا من النازية كبيرًا بعد. شهد غومبرتس لنظام الأحزاب في الولايات المتحدة الأميركية في مقالته المنشورة في عام 1932 في **مجلة الأبحاث الاجتماعية** بعنوان "في سوسيولوجيا نظام الأحزاب الأميركية" بأنه النظام الأكثر تقدمية في ممارسة السياسة بوصفها فنًّا، "يُنتج الموافقة على الإجراءات السياسية لنظام ما"[1]. كتب بولوك أيضًا في عام 1932 كيف استطاعت حكومة روزفلت تحتً عنوان "الصفقة الجديدة" أن تُخفف الأزمة بوسائل غير تقليدية في السنة الأولى عينها على نحو مؤثر جدًا، في نسق واحد مع إيطاليا وألمانيا، كمثال على تدخلات نظام رأسمالية الدولة وعلى الدكتاتوريات الشعبية. ما عادت حلقة هوركهايمر تحرك مواضيع كهذه، بل كثفت جهودها في متابعة الأعمال الجارية.

---

(1) *Zeitschrift für Sozialforschung* (*ZfS*) (1932), p. 300.

في العام الأولى للمعهد في المنفى الأميركي، نُشر - إلى جانب مواصلة إصدار المجلة - تقريرا المعهد الأول والأخير على امتداد عقدين، حول الأبحاث الجماعية. تبيّن من خلال **دراسات في السلطة والأسرة** على سبيل المثال ما الذي كان يعنيه في الممارسة، وما كان يردده هوركهايمر مرارًا وتكرارًا - كما فعل أيضًا في مقدمة **الدراسات** - عن "التعاون المستمر بين ممثلي مختلف الاختصاصات، ودمج المناهج البناءة والتجريبية".

"بدا لي أن المشاريع التي أتى بها ماركوزه غير قابلة للاستخدام"، هكذا كتب هوركهايمر إلى لوفنتال في جنيف، في بداية تموز/ يوليو 1934، بعد وصول ماركوزه إلى أميركا. كان لوفنتال يريد، بعد إنهاء مقالة له عن "فهم دوستويفسكي في ألمانيا قبل الحرب"، أن يبدأ بتأليف مقالة عن الإستيطيقا المادية، إلا أن بولوك كلّفَهُ العملَ على وضع اقتراح لتنسيق مواد الاستطلاع والتقارير، واتخاذ التدابير لوضع المجلد الجامع المخطط له. كان بولوك الذي أضاع، من دون الرجوع إلى هوركهايمر وفروم، تكليفات بالبحث في موضوعات خاصة، يفكر في إجراء بحث دولي حول التغيرات في بنية الأسرة. يقول هوركهايمر: "أعتقد أنني قد اكتشفت، في آخر لحظة، أن مخطط النشر هناك[2] قد وُضِع خطأً من أجل البحث حول الأسرة بشكل عام، بدلًا من البحث عن السلطة داخل الأسرة. إن مثل هذا النشر، استنادًا إلى موادنا من أي نوع، سوف يكون أكثر من لاعلمي. وبحسب ما أرى حتى الآن، لن يصدر أكثر من مجلد واحد بمئتين وخمسين صفحة تقريبًا، يقدم فيه ماركوزه وصفًا لواقع حال المشكلة في المراجع (على أساس تقرير شتيرنهايم ومحتويات المكتبات الموجودة هنا). وسوف يقدم بولوك، أو اقتصادي يعيّنه هو، القسمَ الاقتصادي، وفروم القسمَ المعني بعلم النفس، وتقدم أنتَ، في اتصال دائم معي، القسمَ النظري ('السوسيولوجي') العام. وسيكون على كل مقالة من هذه المقالات التي يجب أن تحدد توجيهاتها في حوارات جماعية أن تطور في هذه المجالات المختلفة النظرية المادية للأسرة بصيغة فرضيات"[3]. كانت هذه الفرضيات ترى في سلطة الأسرة عامل رباط اجتماعي، على أن تضاف إليها

(2) في جنيف.

(3) رسالة من هوركهايمر إلى لوفنتال، 6 تموز/ يوليو 1934.

جميع المواد الأخرى، ومن بينها الاستطلاعات، كملاحق كانت تُظهر - كما يقول هوركهايمر في رسالة لاحقة - "أن أفكارنا ليست مجرد حدوس، بل إنها نشأت بالارتباط مع عمل بحثي متشعب في هذا الفرع من المعرفة"(4).

لم يكن هوركهايمر يريد أن يظهر هو نفسه كمؤلف في الكتاب الجماعي. فقد رأى لنفسه عملًا أكثر أهمية، هو العمل على كتاب **المنطق الجدلي**. لكنه بعدئذ كتب بنفسه المقالة النظرية العامة، لأن أهمية التقرير البحثي الأول للمعهد، وصورة المعهد في العالم الجديد، كانا واضحين بالنسبة إليه. كتب هوركهايمر المقالة، وعالج فيها بالطبع "بعض المقولات التي تخص، في الواقع، المنطق"(5).

كانت النتيجة أن صدر في نهاية الأمر مجلد واحد يحتوي على ما يقارب الألف صفحة. حَلّت ثلاث مقالات على رأس المقالات الأخرى (لم تُنجَز المقالة الاقتصادية التي كانت ملحوظة في البرنامج). وُضِع قسمان آخران بدلًا من الملاحق المقررة سابقًا، يتضمن أحدهما الاستطلاعات، والآخر تقارير البحث والأدبيات، وكان كل منهما على حِدَة أكثر شمولًا من الجزء النظري. إن حقيقة أن المخططات النظرية لا تستند في أي مكان من الكتاب إلى تقارير الاستطلاع والبحث والمراجع تُظهر بالدليل القاطع كيف يمكن أن يكون الكلام عن "دمج المناهج البناءة والتجريبية" ضحلًا. وتبيّن رسائل هوركهايمر وفروم، في الوقت نفسه، أن البحث التجريبي والمعلومات التي تقدمها العلوم الاختصاصية تخدم المنظّرَين الرئيسيَين للمعهد بوصفها نوعًا من مظلة حامية تعمل في ظلها نظرية أرادت أن تميّز نفسها من الفلسفة الخالصة، لكنها تقف أيضًا مشككة تجاه العلوم الاختصاصية والبحث التجريبي، ولم تكن أكيدة من وضعها.

تطورت "المخططات النظرية" - وهي، بحسب القصد وتاريخ الفعالية، النقطة المركزية للمجلد - إلى ثلاث مقالات مترابطة، كان بالإمكان أن تصدر في عدد واحد من **مجلة الأبحاث الاجتماعية**. لم تتضمن مقالة هوركهايمر

---

(4) رسالة من هوركهايمر إلى بولوك، 3 آب/أغسطس 1934.

(5) رسالة من هوركهايمر إلى أدورنو، 15 آذار/مارس 1935.

جديدًا مقارنة بأعماله حتى الآن. وحيثما أمكنه، كان يكتفي باستعمال تعبيري "سلطوي" و"سلطة". هكذا تكلم هوركهايمر، مثلًا، بالنظر إلى التأثيرات غير المحددة للعملية الاقتصادية غير المخطط لها، عن "السلطة المشيّئة للاقتصاد" أو عن "سلطة الوقائع الاقتصادية"[6]. تميّزت مقالة ماركوزه الفكرية التاريخية التي نُشرت في الجزء الثالث من المجلد قبل التقارير عن الأدبيات، بأنها دعمت، على مستوى أيديولوجي نقدي، المفهومَ المركزي لبنية السلطة البرجوازية في المقالتين النظريتَيْن الأخريين. أما مقالة فروم، فكانت أفضل ما كتبه في حياته، حتى وإن كانت أهمية هذا العمل أقل بكثير في ما يخص تطوير أفكار جديدة، منها في بلاغة الصياغة.

كان أكبر إنجاز جاءت به مقالة فروم هو صياغة مفهوم السادية-المازوشية، أو مفهوم الطبع السلطوي الذي مثّل نهاية سلسلة بناء مفاهيم كان فروم قد استخدمها في مقالات سابقة. ففي "علم الطباع النفسي التحليلي وأهميته لعلم النفس الاجتماعي"، كان فروم قد ألحق "الروح البرجوازي-الرأسمالي"، كما فهمه علماء اجتماع مثل فرنر زومبارت وماكس فيبر، بـ "الطبع الشرجي" الذي استعاره من فرويد وكارل أبراهام (Karl Abraham)[7]، وفي مقالته "الأهمية الاجتماعية النفسية لنظرية حق الأم" ربط المجتمع الأبوي البروتستانتي-البرجوازي بـ "النموذج الأبوي"[8]، أما في مساهمته في **دراسات في السلطة والأسرة** فأقام صلة بين "الأشكال الاجتماعية السلطوية" و"الطبع السلطوي"[9]. وكمقابل إيجابي تبع الطبعَ التناسلي والنموذج الأمومي في مقالة "دراسات" "النموذجُ 'الثوري'"[10]، لكنه لم يُذكر إلا في موضع واحد من البحث؛ من دون توضيح ومن دون أن يقوم فروم بأي محاولة ولو تلميحًا لتقديم تصنيف اجتماعي. لكن لم يعد هناك من حديث حول وجهات النظر التي رآها فروم تنفتح في نهاية بحثه حول تحولات عقيدة المسيح عبر البروتستانتية.

(6) Ibid., pp. 35, 39.

(7) *Zeitschrift für Sozialforschung* (1932), p. 274.

(8) *Zeitschrift für Sozialforschung* (1934), p. 222.

(9) Max Horkheimer et al., *Studien über Autorität und Familie*, p. 117.

(10) Ibid., p. 131.

يقول فروم: "إن درجة الخوف والرعب التي يخبرها الطفل الصغير تتوقف إلى حد بعيد على درجة الخوف الذي سيعرفه لاحقًا تجاه المجتمع. فليس، إذًا، العجز البيولوجي للطفل الصغير هو ما يُنتج في المقام الأول الحاجة الشديدة إلى أنا أعلى وسلطة صارمة؛ فالحاجات التي تنتج من العجز البيولوجي يمكن أن تُشبع من سلطة عطوف تتجه نحو الطفل وليس من سلطة مرعبة. إنه على الأكثر العجز الاجتماعي للبالغ الذي يطبع بطابعه العجز البيولوجي للطفل، وهو الذي يعطي الأنا الأعلى والسلطة تلك الأهمية في التطوّر الطفلي"[11]. غير أن العجز الاجتماعي وضرورة قمع الغرائز والخوف، هي "أكبر، بحكم الطبيعة، لدى الفئات الدنيا مما هي عليه لدى تلك الفئات التي تتحكم بأدوات السلطة الاجتماعية"[12]؛ لهذا السبب يكون احتمال أن تحصل تلك الفئات، بواسطة التنشئة الاجتماعية في الأسرة، على ثقة بالنفس وقوة-أنا، أقلَّ ما يمكن، ويكبر في المقابل احتمال أن تدخل في أوضاع تشبه أوضاع الطفولة العاجزة، أو تشبه ردة فعلها ردة فعل الأطفال القصّر، في حال عرف أحدهم كيف يولّد لديهم الانطباع بمثل هذه المواقف. "ويُظهِر شخص آخر أنه خطير وعلى قدر من القوة، بحيث يكون النضال ضده بلا أمل ويبقى الرضوخ أفضل وسيلة لحماية النفس، أو أنه على درجة عالية من المحبة والحماية، بحيث تبدو الفاعلية الخاصة غير ضرورية، أي بكلمات أخرى، ينشأ وضع تصبح فيه ممارسة وظائف الأنا غير ممكنة أو نافلة، عندئذ تختفي الأنا من فورها طالما لم تكن ممارسة الوظائف التي يرتبط نشوؤه بممارستها ممكنة بالنسبة إليه أو يجب عليه القيام بها"[13]. فمجتمع على شاكلة المجتمع الرأسمالي الاحتكاري "تواجه فيه شريحة صغيرة مسيطرة اقتصاديًا، أكثر فأكثر، الأكثرية الضخمة من الجماهير الخاضعة لها وغير المستقلة عنها اقتصاديًا"[14] - وتمارس، كان ينبغي أن يُضاف، سلطتها بصورة مجهولة نوعًا ما - يُنتِج مشاعر العجز الجماهيرية التي تجعل الأشخاص والحركات عرضة لأن يعطوا انطباعًا

(11) Ibid., p. 100.

(12) Ibid., pp. 103, 101.

(13) Ibid., p. 107.

(14) Ibid., p. 133.

بأن لدى هؤلاء "السلطة المتفوقة بوجهيها: الخطورة والرعاية"، وهي تعرف كيف تُثيرها.

توصل فروم إلى التسمية الجديدة لبنية الغرائز الناشئة في ظل مثل هذه الشروط الاجتماعية-الاقتصادية عندما ربطها، في الوقت نفسه، بالطبع المازوشي الذي قام بعض علماء التحليل النفسي بالبحث فيه (فرويد ورايش وهورني)، وبأشكال العلاقات الموجودة في المجتمعات السلطوية. كانت نقطة الانطلاق ملاحظته أن "الطبع المازوشي - في أشكال ظهوره غير المرَضية تلك - هو، إلى حد بعيد، طبع الأكثرية في مجتمعنا، حيث لا يغدو هذا الطبع، بالنسبة إلى الباحثين الذين يعتبرون أن طبع البرجوازيين هو 'العادي' والطبيعي، بسبب المسافة الناقصة مشكلة علمية على الإطلاق. يُضاف إلى ذلك أن الانحراف المازوشي بوصفه شذوذًا يبهر علماء النفس، قد جذب الانتباه إليه إلى حدٍ غطى على ظاهرة الطبع المازوشي الأكثر أهمية"[15]. أطلق فروم الآن تسمية الطبع - مستندًا إلى فرويد وقبل كل شيء إلى **تحليل الطباع** لفيلهلم رايش - على ما كان يصفه من قبل بنية ليبيدوية: منتج تكيف البنية الغريزية مع شروط اجتماعية محددة من طريق التسامي والاستجابة. كانت ملامحُ الطبع دوافعَ غريزية متحولة، وكانت أنماط من السلوك تمثل غالبًا، وفقًا للطبع، إشباعات غريزية غير واعية ومغطاة بإضفاء العقلانية عليها. تنتمي السادية - كما يقول فروم بناءً على معطيات التحليل النفسي - بالضرورة إلى بنية الطبع التي تتضمن المازوشية. كان يمكن تطبيق مفهوم الطبع السادي-المازوشي الذي كان يستجيب للأقوى بخضوع وللأضعف بازدراء، بخلاف الطبع الشرجي الذي تبرز فيه متعة الادخار والجمع والتملك هدفًا في حد ذاته، والتي هي على القدر نفسه من الأهمية مع قطع العلاقات بلا رحمة مع الآخرين، على حالات لا تؤدي فيها حيازة الملكية دورًا مهمًا أو حاسمًا، وإنما علاقات القوة.

كانت أشكال المجتمع السلطوي - كما أطلق عليها فروم استنادًا إلى النقاش الواسع الذي دار في أواخر العشرينيات حول الدولة السلطوية

---

(15) Ibid., p. 113.

والشمولية - تتميز بأن كل فرد كان مندرجًا فيها في نظام من التبعيات نحو الأعلى والأدنى[16]. وبذلك يكون، بالنسبة إلى فروم، شرط التداخل الوظيفي بين الطبع السادي-المازوشي وشكل المجتمع السلطوي معطًى. "حاولنا أن نُظهِر - هكذا لخص فروم الموضوع - أن بنية المجتمع السلطوي تخلق تلك الحاجات التي تنمو على أرضية النزعة السادية-المازوشية وتشبعها"[17]. بهذا أصبح مصطلحا سادي-مازوشي وسلطوي، بالنسبة إليه، مترادفين. لكن العلاقة ببنية الغريزة وبالتطور النفسي الجنسي، وبالتالي ببعد كان تطوره الاجتماعي الموافق يتطلب التوضيح في كل مرة، ما عادت واضحة في مصطلح "سلطوي" الذي بات يرتبط بدلًا من ذلك بنموذج محدد من المجتمع والدولة.

أعطى تعداد فروم المؤثر للإشباعات التي أنتجتها العلاقة السلطوية[18]، بالتوافق مع قناعته وقناعة هوركهايمر بأنه قد برز بوضوح كبير في المرحلة الحاضرة واقعٌ له تأثيرٌ حاسمٌ في التاريخ بأسره حتى الآن، منظورًا قاتمًا؛ فبسبب أزمة الأسرة الصغيرة البطريركية، لن يتجرد المجتمع الطبقي من وكالة نفسية ضرورية، بل ستغدو قبضة مجتمع أصبح سلطويًا أكثرَ مباشرةً بعد تنامي عدد أعضائه. كان بمقدور استطلاعات المعهد التي كانت محددة بحسب مقدمة هوركهايمر لوصف "المواقف من السلطة في الدولة وفي المجتمع ذات الصلة بالطباع، وأشكال تدمير السلطة الأسرية من خلال الأزمات، وشروط سلطة أكثر أو أقل قسوة في البيت وعواقبها، والرؤى السائدة لدى العموم حول معنى التربية، وغيرها الكثير" وصفًا أنموذجيًا، كان بمقدورها أن تُظهِر "في الحالة المثلى انهيار السلطة الأبوية البطريركية وتقوية سلطة الأم داخل الأسرة الأمومية. لكنها أظهرت، كما فعلت أبحاث أخرى حول الأسرة أيضًا نوقشت في **مجلة الأبحاث الاجتماعية**، أن تراجع مكانة الأب يتفق في كثير من الأحيان مع تنامي مكانة الأم، غير أن هذا ظل، بسبب غياب الأسس الاقتصادية لبنية الأسرة الأمومية وازدياد سلطة الدولة، بلا نتائج إيجابية.

(16) Ibid., p. 117.

(17) Ibid., p. 122.

(18) Ibid., pp. 123 ff.

مخلصًا لنظرته الجدلية، أبرز هوركهايمر تلك العناصر في الأسرة التي كانت تناقض المجتمع البرجوازي، وتحديدًا الطريقة التي "تمثل فيها الأسرة على أساس العلاقات الإنسانية التي تحددها المرأة مخزونًا من القوى المقاومة لفقدان النفس الكامل في العالم، وتتضمن في داخلها لحظة مضادة للسلطة"[19]. غير أن هذه اللحظات قد برهنت عن نفسها أنها، في ضوء العلاقات المعطاة، مجرد عوامل مثبتة كانت ممتزجة بملامح المرأة التي كانت تقوّي التأقلم مع علاقات السلطة القائمة[20]. ولم يذكر هوركهايمر الآمال التي وضعها ذات يوم في الأسرة البروليتارية إلا كي يتابع القول، من منظور الأزمة، إن "هذا النوع من الأسرة الذي يشير إلى المستقبل قد أصبح نادرًا؛ كما يؤثر انهيار الروح المعنوي الكامل والخضوع لأي سيد نتيجة اليأس المطلق في الأسر أيضًا"[21]. لأول مرة ظهر عند هوركهايمر الميل نحو التمويه على البرجوازية الليبرالية السابقة؛ وهو ميلٌ مثّل القاعدة التجريبية للقناعة التي كان لا يزال يعبّر عنها، بأن النظام السلطوي سوف ينهار. "وفي حين نشأت في المرحلة التي ازدهرت البرجوازية علاقة متبادلة مثمرة بين الأسرة والمجتمع، تستند فيها سلطة الأب إلى دوره في المجتمع ويتَجدّد المجتمع بمساعدة التربية البطريركية التي تركز على تمرين السلطة، فإن الأسرة التي لا غنى عنها بالطبع تصبح منذ الآن مشكلة تقنية إدارية محض"[22]. "وإذا كان أيضًا شكل الأسرة بالذات يتخذ صورته النهائية من خلال التدابير الجديدة، إلا أن هذه الأسرة تفقد مع تناقص أهمية وضع البرجوازية الوسطى بأكملها، قوتها الذاتية التي تُعزى إلى العمل المهني الحر للرجل"[23]. اختار هوركهايمر أمثلة أقل حدة في النبرة وتتسم بشكلٍ برجوازي من رومانسية مضادة للبرجوازية، ليصف الطابع الثوري من دون أن يذكره بالاسم: روميو وجولييت ودون جوان، شخصيات رمزية لمنطقة خلافية ستبقى في نظره أيضًا في المجتمعات السلطوية ذات أهمية كبرى دائمًا، أي منطقة الصدام بين حقوق الأشخاص الأفراد في السعادة والحب، وحقوق المجتمع.

---

(19) Ibid., p. 67.

(20) Ibid., pp. 68 f.

(21) Ibid., pp. 72 f.

(22) Ibid., p. 75.

(23) Ibid.

من دون إعادة إنتاج سلطات "حية"[24]، سلطات عينية - هذه القناعة النهائية التي يمكن استنتاجها من آراء هوركهايمر المتناقضة كثيرًا - لا يمكن مجتمعًا سلطويًا أن يستمر طويلًا. لكن، من أين يمكن أن تأتي السلطات "الحية" التي لا يمكن المجتمعات السلطوية أن تعيد إنتاجها، أو حتى علاقات السلطة العقلانية المبنية على التضامن القائم على المصلحة التي ذكرها فروم؟ هو السؤال الذي جعل مؤلفي "البرامج النظرية" في حيرة من أمرهم.

في منتصف عام 1935 كان "العمل الجماعي" حول السلطة والأسرة، أو بدقة أكبر: المجلد الجماعي الأول في هذا الموضوع، قد انتهى. كتب هوركهايمر في نهاية مقدمته التي يعود تاريخها إلى نيسان/ أبريل 1935: "يُعتبر المجلد رسالة أولى، ويُفترض أن تتبعه في مرحلة لاحقة من البحث مجلدات أخرى؛ لهذا السبب أيضًا، فإن المادة البيبلوغرافية التي جمعها المعهد لم تُضمَّن في الوقت الحاضر كملحق في هذا المجلد. ولما كان الأمر يتوقف هنا على إظهار المشكلة في كل أبعادها، يبقى على المعهد مستقبلًا أن يقوم بشكل رئيسي بجمع وتقويم مادة تجريبية وافرة قدر الإمكان. مع ذلك، يبدو لنا مستقبلًا أيضًا أن طريق التعاون المستمر بين ممثلي مختلف الاختصاصات ودمج المناهج البناءة والتجريبية الذي انتهجناه، يجب أن يتأسس في الوضع العلمي الراهن"[25]. وكما أظهر التطور اللاحق، جرى مع **الدراسات** فعلًا تخطي ذروة العمل المشترك بين الاختصاصات والنظرية والتجريبية. ومع تواصُل العمل التجريبي، لكن من دون أن ينتج منه مرةً أخرى ولو عملٌ مشترك خفيف مثل **دراسات في السلطة والأسرة**، فإنه سار على نحوٍ طبيعي ومن دون محاولات أخرى لـ "دمج المناهج البناءة والتجريبية".

استئناف التعاون في العمل بين هوركهايمر وأدورنو

بالتزامن مع انتهاء العمل، في نيويورك، على المجلد المشترك **السلطة والأسرة**، أرسل فروم من مكان إجازته على بحيرة لويز في كندا، إلى هوركهايمر واحدة من رسائله المكتوبة بأسلوب حواري غني بالأفكار. يقول فروم في هذه الرسالة

---

(24) Ibid., p. 75.

(25) Horkheimer et al., p. xii.

إنه فكر مليًا بأمور كثيرة: في المازوشية والمادية والدين. فكما تتعلق المادية بأمنية تحقيق السعادة، كذلك يتعلق الدين بالمازوشية. "يبدو لي أن تحليل الإنسان المتديّن بلا وعي إنما يشكل واحدة من المشكلات الجوهرية النفسية، وهو نتاج نقد الدين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر واستمرار له [...] وأرى أنه لسوف يكون من المثمر جدًا إن استطعنا العمل سوية على هذا الموضوع في الشتاء. يظهر دائمًا بوضوح أكبر أننا، مهما اختلفت المشكلات التي انطلقنا منها، نصل أكثر فأكثر إلى الآراء المركزية نفسها [...] والآن بالذات، في الهدوء الذي أنا فيه، أشعر بقوة كم كانت هذه السنة المشتركة مثمرةً ومشجعة لي"[26].

في هذا الوقت، كان فروم - وهو بالنسبة إلى هوركهايمر الزميل الوحيد من بين الزملاء المهاجرين الذي يحرّضه نظريًا - قد حصل على منافس جدي. في تشرين الأول/ أكتوبر 1934، بادر هوركهايمر إلى إعادة التواصل المقطوع بينه وبين أدورنو. أنحى هوركهايمر على أدورنو باللائمة، لأنه لم يتواصل معه منذ آذار/ مارس 1933. "إذا كان هناك في الوقت الحاضر، عمومًا، علاقات بين أشخاص يعملون على الصعيد النظري، يمكن أن يكون عملهم مثمرًا، عندئذ يُعَدّ العمل المشترك والمنتظم بينكم وبين المعهد من هذا النوع أيضًا. كان عليكم، ببساطة، واجب أن تبقوا على علاقة معنا. نحن، من جهتنا، لم يكن باستطاعتنا، بل كان من المستحيل، أن نقترح عليكم أن تغادروا ألمانيا وتأتوا إلينا، لأن هذا أمر كان عليكم أنتم أن تُخاطروا فيه بأنفسكم. هذا كان سيخلق عندئذ طريقة حياة جديدة"[27]. في المقابل، أخذ أدورنو على المعهد أنه تركه من دون أن يُطلعه على شيء، ومن دون تعليمات. "وما دمت، بالضبط، لم أُضم إلى المعهد ظاهريًا أو إداريًا (وأنتم تعلمون أنني كنت أُلحّ دائمًا على مدى سنوات لكي أصبح عضوًا، مثل صديقة اعتادت أن تُلحّ على الزواج)، فالأمر لم يكن بالتالي متعلقًا بي، بل بالمعهد الذي كان عليه أن يقوم بالخطوة الحاسمة [...]. نعم، لم أكن شخصًا من خارج المعهد يجب أن يُساعَد، بل كنت - وهذا يحق لي أن أقوله فعلًا، وأنا أستنتجه أيضًا من رسالتكم - جزءًا من المعهد

(26) رسالة من فروم إلى هوركهايمر، 17 تموز/ يوليو 1935.

(27) رسالة من هوركهايمر إلى أدورنو، 25 تشرين الأول/ أكتوبر 1934.

نفسه، مثلك، ومثل بولوك ولوفنتال. لكنك ما كنتَ لترى في الأمر خيانة بحق الأصدقاء" - كان هوركهايمر قد تكلم سابقًا عن "أصدقاء جائعين"، كان لهم، قبل أدورنو، حقٌّ في مساعدة المعهد لهم - "عندما أقرّ المعهد تقديم المساعدة المادية لهؤلاء الثلاثة أولًا، بوصفهم قواه المنتجة العميقة. هكذا [...] لم تكن حالتي أنا مختلفة"[28]. لم يتلقّ تيليش، الذي استفاد منه أدورنو في تلك الفترة كمرسال بينه وبين جنيف، من هذا الأخير ما يفيد باستعداد المعهد لضمّه إليه.

كتب أدورنو هذه الرسالة من أكسفورد. في نيسان/ أبريل 1933، ألغى أدورنو ما كان أعلن عنه من محاضرات في جامعة أكسفورد للفصل الدراسي الصيفي، "لأنني أرغب في إنهاء عمل علمي أكبر"[29]. وفي تموز/ يوليو أُبلغ من عميد الكلية أن "أولئك الذين كانوا في إجازة في الفصل الدراسي الصيفي، أو بالأحرى الذين استخدموا حقهم في ألا يقدموا محاضرات، لن تُدرج أسماؤهم في جدول المحاضرات"[30]، وذلك بناءً على قرار وزاري. وفي أيلول/ سبتمبر ألغت الوزارة السماح لأدورنو بالتدريس. كان أدورنو يأمل الحصول على وظيفة ناقد موسيقي في صحيفة *Vossischen Zeitung* **(فوسيشن تسايتنغ)** في برلين، مقتنعًا بأن اللعبة ستنتهي قريبًا. لكن هذه الجريدة توقفت في نيسان/ أبريل 1934 عن الصدور. في إحدى مقالاته النادرة في النقد الموسيقي، قدم أدورنو، وكان لا يزال مؤمنًا بإمكانية الصمود، مثالًا على الانتهازية السياسية. ففي نقده لعمل هربرت مونتسل (Herbert Müntzel) "راية المضطهدين: مجموعة لكورس الرجال بحسب كتاب **قصائد** بالعنوان نفسه لبالدور فون شيراخ" الذي نُشر في مجلة *Die Musik* **(الموسيقى)** الشهيرة التي لم تكن قد سارت بعد على نهج النظام الجديد، أبرز أدورنو في معرض المديح أن هذه المجموعة "باختيارها قصائد شيراخ تكون قد طُبِعت بوعي بطابع النازية"، وتسعى وراء "صورة رومانسية جديدة"، ربما من "النوع الذي كان غوبلز قد أطلق عليه تسمية 'واقعية رومانسية'". ربط أدورنو هذا المديح بالإشارة إلى أنه يمكن، "مع تزايد فورة التأليف الموسيقي، أن تنفجر الهارمونيا الرومانسية بالذات: هذا، بالطبع،

(28) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 2 تشرين الثاني/ نوفمبر 1934.

(29) رسالة من فيزنغروند إلى عميد كلية الفلسفة لوماتش، 5 نيسان/ أبريل 1933.

(30) رسالة من العميد لوماتش إلى فيزنغروند، 19 تموز/ يوليو 1933.

لن يكون بقصد إفساح المجال أمام شكل قديم من الهارمونيا، بل أمام شكل جديد يتضمن في ذاته طاقات لها علاقة بالطباق الموسيقي"[31]. ومتذكرًا هذه الوساطة المموهة، رأى أدورنو في رسالة إلى هوركهايمر في تشرين الثاني/ نوفمبر 1934 بفخر أنه "نشر مقالته جزئيًا في ألمانيا حتى من دون تقديم أي تنازلات". بدأ في صيف 1934، في الوقت نفسه، يوجّه آماله إلى مواصلة مسيرته الأكاديمية في إنكلترا. كان الأمر أصعب مما تصوّره أدورنو، وكان عليه أن يفرح، عندما انتبه في نهاية الأمر مجلس المساعدة الأكاديمية إلى حالة أدورنو، بواسطة جون مينارد كينز الذي كان يعرف والده المحب لكل ما هو إنكليزي، إذ تم قبوله في حزيران/ يونيو كطالب في صف متقدم في كلية مرتون في أكسفورد. نُصح أن يحصل على الدكتوراه في الفلسفة في أكسفورد. وكان لا بد من أن يدرس هناك مدة سنتين لهذا الغرض. لكن كان من غير المؤكد أن تكون حظوظه أكبر في الحصول على كرسي أكاديمي من خلال ذلك. أراد أن يستخدم موضوعًا لرسالة الدكتوراه جزءًا من كتاب كبير في نظرية المعرفة، كان قد بدأ بالعمل عليه، وكان عنوانه **النقائض الفينومينولوجية: مقدمات للمنطق الجدلي**[32]. كان "المشرف" على أدورنو أستاذ كرسي فلسفة اللغة جيلبرت رايل. شعر أدورنو بوصفه ابنًا لأسرة ثرية أن مجلس المساعدة الأكاديمية الذي تأسس لحالات العوز قد أهمله طويلًا، وكان مثقلًا بالخشية من أن يجري تفضيل الأكاديميين الألمان الفقراء عليه في شغل مناصب أكاديمية. أمضى معظم أيام السنة في ألمانيا، ولم يُقِم في أكسفورد إلا في أثناء الفصل الدراسي. كان يرى وضعه هناك أشبه - بهذا ختم رسالته الأولى إلى هوركهايمر - "بوضع طالب من العصور الوسطى، يسكنه بطريقة ما هاجس أن عليه أن يعود إلى المدرسة من جديد؛ باختصار كان في خوف دائم من استمرار الرايخ الثالث".

واصل هوركهايمر بمهارة كبيرة في رسالته التالية سعيه لكسب عبقرية أدورنو، من جديد، له شخصيًا وللمعهد من دون أن يضطر إلى دفع الكثير من أجل ذلك. ألقى، مرة أخرى، على أدورنو باللائمة في قطع العمل المشترك. أن يكون بإمكان أدورنو أن يخشى التعاون مع المعهد ومجلته، لأنه كان يخاف من

(31) *Die Musik* (Juni 1934), p. 71.

(32) رسالة من أدورنو إلى كراكاور، 5 تموز/ يوليو 1935.

صعوبات، هذا ما لم يكن باستطاعة هوركهايمر أن يستشعره؛ فجميع الاتهامات الموجهة إلى المعهد قد سُحبت؛ لا، بل كتب أحد العاملين، في أثناء اعتقاله في ألمانيا، إلى المجلة من دون أن يلاحقه أحد. بعد ذلك استحثّ هوركهايمر رغبة أدورنو في الانضمام إلى حلقة صغيرة واعية لرسالتها: "إذا لم تكونوا قد تغيرتم كثيرًا، عندئذ تكونون من القلة الذين ينتظر منهم المعهدُ، والمهمةُ النظرية على وجه الخصوص التي يسعى لتحقيقها، شيئًا على الصعيد الفكري. لهذه الأسباب نفسها وبالقدر نفسه الذي يتضاءل فيه عدد هؤلاء الأشخاص والإدراك الذي باستطاعتهم أن يحسبوا حسابه في اللحظة الحاضرة، ستكون الواجبات أكبر للبقاء على مبادئهم، ومواصلة تطوير مواقفهم الخاصة. نحن الفريق الوحيد الذي لا يعتمد وجوده على اندماج تدريجي، بل يستطيع أن يحافظ على الحالة المتقدمة نسبيًا للنظرية التي وصل إليها في ألمانيا، وبمقدوره أن يتابع تطويرها إلى مرحلة أعلى"[33]. رفع هوركهايمر استعداده للتضحية وحذقه، ووصف وضع المعهد بأنه في عزلة رائعة ("لقينا هنا في أميركا استعدادًا كبيرًا لمساعدتنا غير متوقع. وعلى أساس معرفة عميقة وواسعة الانتشار بشكل مدهش بسلسلة منشوراتنا، وبالمجلة، وبأبحاثنا المرتبطة بالاستطلاعات التي قمنا بها، وُضِع تحت تصرفنا بيت صغير يمكن العمل فيه جيدًا"). أخيرًا وبعد هذا كله: "ليس لدينا الآن حرفيًا الوسائل التي تتيح لنا أن نَعِد بدفع أجر يستحق الذكر يفوق المصاريف الجارية [...] الأمر الذي ربما يسمح بأن نحمّل أكبر الاتهامات لإدارة الممتلكات، أعني بولوك [...] ربما تكون الأمور في العام المقبل أفضل [...]". كان على أدورنو أولًا أن يقوم برحلة إلى أميركا. ومن ثم قد يرى بنفسه فرصه - بغض النظر أيضًا عن المساعدة المادية الخالصة التي يقدمها المعهد - ويُقوّمها على نحو أفضل مما لو قام به من إنكلترا.

أعلن أدورنو في جوابه انضمامه غير المشروط إلى هوركهايمر وإلى القضية المشتركة. لا شك في أن تيليش هو الذي يتحمل، بحسب رأيه، مسؤولية سوء التفاهم الذي حصل بعد آذار/ مارس 1933. ولم تكن أسباب انطباعه عن سياسة تكتم اتّبعها المعهد تجاهه قبل آذار/ مارس 1933 تعود على

(33) رسالة من هوركهايمر إلى أدورنو، 16 تشرين الثاني/ نوفمبر 1934.

ما يبدو إلى هوركهايمر، بل كانت تعود إلى صديقه بولوك الذي كان يميل نفسيًا إلى التكتم، وإلى لوفنتال الذي كان يوظف هذا الميل ضده، أي ضد أدورنو، على صعيد سياسي سلطوي، إن جاز التعبير. وعندما شرع أدورنو بالمشاركة في المجلة، اقترح أن يجعل من العملين اللذين كان يعمل عليهما (تعليقٌ نقدي على مخطوطة غير منشورة لمانهايم حول **أزمة الثقافة وديمقراطية الجماهير**، وبحث حول هوسرل) مساهمتين في المجلة، وارتأى أن نقد باريتو قد "يجعل كورش منظمًا جدًا"؛ وحذّر من بوركيناو؛ وقدّم مساهمته التي تحمل عنوان "بعض المسائل المبدئية" حول عقدة التحليل النفسي ("عندي هنا تحفظ على تقسيم عملٍ خاطئ وخارجي")، حيث أراد في هذا الخصوص أن ينطلق من رايش، لأنً هذا الأخير، على عكس فروم، يؤكد أن علم النفس الفردي لا يمكن أن يُنقَل بسهولة على النظرية الاجتماعية.

كان هذا تمامًا ما أراده هوركهايمر الذي كتب إلى بولوك في نهاية عام 1935 من باريس، حيث اجتمع بأدورنو: "على الرغم من سلسلة من الجوانب المزعجة في شخصيته، يبدو لي ضروريًا أن أعمل معه؛ إنه الشخص الوحيد، إذا استثنينا ماركوزه، الذي يستطيع أن يعمل معي في إنجاز كتاب **المنطق**. وبما أنه لا بد له من أن يصل إلى نهاية في أكسفورد، وهذا سوف يستغرق بالفعل بين عام وعام ونصف، لهذا السبب لن يكون تنظيم هذا التعاون ملحًّا. ليست نيويورك، برأيي، ولأسباب مختلفة هي المكان الملائم. يمكن تصور أن أذهب إلى أوروبا في الوقت الملائم بعد أن أكون قد دفعت في غضون ذلك بالتعاون مع ماركوزه الأعمال التحضيرية. في هذه الأثناء يتعين على ت.[34] أن يوثق ارتباطه بالمعهد، وذلك بأن يُنهي مخططه عن كيفية إمكان تحسين قسم المراجعات في المجلة. كما أن عليه أن يقوم أيضًا ببعض الأشياء لقسم المقالات".

تدل رسائل أدورنو الطويلة وإجابات هوركهايمر القصيرة على أن أدورنو الذي انتقل إلى نيويورك في شباط/ فبراير 1938، على خلطة غريبة من غربة متبادلة باقية في مواضيع مركزية وتعايش نفسي ونظري، ومن تفاعل مستمر بين ألعاب أدورنو النارية الممتلئة بالومضات الفكرية والاقتراحات، واستخدام

(34) تيدي، أي أدورنو.

هوركهايمر الانتقائي والمتأني لهذه الألعاب النارية. لم يُبدِ هوركهايمر أي ردة فعل على حماسة أدورنو نحو الموضوع الأساسي لـ "خلاص اليائس" المأخوذ من عمل بنيامين **الأنساب المختارة لغوته**[35]، كما لم يستجب كثيرًا لحماسة أدورنو الكبيرة للمهمة التي تدور في خلده بخصوص عمل هوسرل "انطلاقًا من الفلسفة بالضبط، حيث تظهر له تلك الفلسفة أكثر تجريدًا، كونها تدمر شعلة الواقع التاريخي"[36]، ولجعلِ "الفلسفة الأقل جدلية بين كل الفلسفات (وهي مع ذلك نظرية المعرفة البرجوازية الأكثر تقدمًا اليوم) جدليةً"[37]، ولإنجاز "تصفية حساب المثالية"[38]. بدت لهوركهايمر أعمال أدورنو حول هوسرل ومانهايم "بالتأمل الأولي بأنها ليست مشكلة مفتاحية تخص الوضع الراهن"[39]. ومع أن أعمال أدورنو عن هوسرل ومانهايم قد تم العمل عليها مرارًا على مر السنين، إلا أنها لم تُنشر قط في **مجلة الأبحاث الاجتماعية**. لكن المجلة نشرت له مساهمة في صيف 1936، أول مرة بعد عام 1933، تحت اسم مستعار هو هكتور روتفايلر، وكانت دراسة "في موسيقى الجاز". وقد بقيت هذه الدراسة المقالة الوحيدة المنشورة لأدورنو في المجلة حتى خريف 1938.

مع هذا كله، أن تكون لهوركهايمر مصلحةٌ كبيرةٌ بأدورنو، أمرٌ لا يعود قط إلى قناعته بأنه سيكون لأدورنو فائدة من نوع خاص في إنجاز كتاب **المنطق**. فضلًا عن ذلك، كان أدورنو يلائم بامتياز البنية النفسية لحلقة هوركهايمر. وكان حريصًا على هوركهايمر، ويغار من الآخرين جميعهم. كان يتحمس، مرارًا وتكرارًا - هكذا جاء، على سبيل المثال، في رسالة إلى هوركهايمر في 25 شباط/ فبراير 1935 - لِـ "مهمتنا النظرية الحقيقية والمشتركة، أي للمنطق الجدلي"، وكان يحلم بأن يكتبها هو وحده مع هوركهايمر في مكانٍ ما في جنوب فرنسا. كان يؤكد لهوركهايمر "أنه، لو كنت أنا مكانكم وأنتم مكاني، ما كنت لأتردد حول من يجب أن يُطرد لكي تؤكد لي [...] من البدهي أن المعني

(35) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 25 شباط/ فبراير 1935.

(36) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 24 تشرين الثاني/ نوفمبر 1934.

(37) 25 شباط/ فبراير 1935.

(38) 25 حزيران/ يونيو 1936.

(39) رسالة من هوركهايمر إلى أدورنو، 2 كانون الثاني/ يناير 1935.

هنا بوضوح هو وظيفة ماركوزه [...]"[40]. لكنه لم ير في ماركوزه إلا النقطة الأضعف. كرهه كان ينسحب أيضًا على لوفنتال وفروم وبولوك.

فضلًا عن ذلك، كان أدورنو مستعدًا لأن يتماهى بالكامل مع قضية المعهد الكبيرة وأن يقيس كل شيء بها. فكتاب **الممرات** لبنيامين الذي كان قد اعتبره في فرصة سابقة غريبًا على برنامج عمل المعهد لكونه مثقلًا بالميتافيزيقا، أوصى بدعمه بعد قراءة عرْض بنيامين المقتضب في حزيران/ يونيو 1935، مرفقًا تبريره بالقول: "توصلتُ إلى قناعة بأن هذا العمل لن يتضمن **شيئًا** لا يمكن تحمل المسؤولية عنه انطلاقًا من وجهة نظر المادية الجدلية؛ لقد فقد كليًا طابع الارتجال المجازي الذي كان يُنسب إليه سابقًا. إنني لا أريد حتى أن أقول إن هذا في النهاية أمر إيجابي (قاد هذا إلى النقاش الذي يجب أن يحصل بيننا)؛ في أي حال، إنه أمر إيجابي بالنظر إلى قابلية استعمال العمل في برنامج عمل المعهد الذي كان العمل قد **تأقلم** معه"[41]. ورأى في مقالة فروم عن "المشروطية الاجتماعية لنظرية التحليل النفسي" - بسبب الحكم الأحادي الجانب على السلطة (التي من دونها "لا يمكن التفكير في نهاية الأمر بطليعة لينين ولا بالدكتاتورية")، وبسبب البحث الفردي البرجوازي نحو المزيد من الجودة - "تهديدًا حقيقيًا لخط المجلة"[42]. في بداية تقريره عن عمل كراكاور "الدعاية الشمولية في ألمانيا وإيطاليا"، كتب أدورنو في آذار/ مارس 1938 الجملة التالية: "بخصوص تقويم نص كراكاور [...] يبدو لي أنه لا يكفي أن نواجهه بمقولاتنا، وأن نفحص إلى أي مدى يتوافق هو معها، بل يجب أن ننطلق منذ البداية من أن كراكاور لا يُصنف، من حيث موقفه النظري، كواحد منا، ولا يُدرج عمومًا، من حيث طريقة عمله، كمؤلف علمي، وعلينا أن نسأل عما إذا كان عمله يقدم، في ضوء الشروط المعروفة لنا مسبقًا، شيئًا نستطيع أن نستخدمه، سواء أكان للنشر أم لبناء نظرية خاصة"، ثم خلص أدورنو إلى أن مقالة كراكاور يمكن أن تُنشر بعد أن يُعيد هو، أي أدورنو، صياغتها، "من غير أن نثقل أنفسنا كثيرًا من الناحية السياسية" (خطة لم تتحقق، لأن كراكاور رفض أن تُنشر مقالته

(40) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 13 أيار/ مايو 1935.

(41) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 8 حزيران/ يونيو 1935.

(42) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 21 آذار/ مارس 1936.

باسمه بعد إجراء أدورنو التعديل عليها). وعندما علم أدورنو في كانون الثاني/ يناير 1938 أن عمله حول مانهايم قد كُتب بصيغة قَبِل بها حتى هوركهايمر ومع ذلك لن يُنشر، قال في رسالة إلى هوركهايمر: "لا شك في أن لديك على الأرجح أسبابًا تكتيكية لهذا الأمر، لا أستطيع أن أُقدّرها من هنا. أرجوك ألا تفهم تشنّف هذا الغزال الجريح الذي هو أنا في هذه الحالة تعبيرًا شخصيًا عن التكبر. لكنني أعتقد أنه من السهل [...] والمفهوم مع ذلك أن تظهر أعراض شلل على شخص مستنير ومضبوط فعليًا"[43]. كان هذا هو الجانب المازوشي لدعوة هوركهايمر التي كررها دائمًا، بوصفها مهمة نظرية خاصة بالمعهد.

حينما اعتبر أدورنو أن هتلر هو حجر شطرنج في توجّه القوى الغربية الرأسمالية الاحتكارية المعادي للشرق، وخشي في عام 1936 من أن "ألمانيا، في غضون عامين على أبعد تقدير، سوف تجتاح روسيا، وأن فرنسا وإنكلترا ستبقيان، بموجب المعاهدات التي عُقدت، حتى ذلك التاريخ خارجًا"[44]، وجد من جهة أخرى أن المحاكمات والسياسة الثقافية في الاتحاد السوفياتي مخيبة للآمال. وعلى هذا الأساس، اعتبر أدورنو أن روسيا "تشهد في اللحظة الحالية الموقف الأكثر موالاةً، حينما يصمت الجميع"[45]، وأكد هذا بطريقة رهيبة مشددًا كما يبدو له، بغض النظر عن كل شيء، على "أنه يجب في الوضع الحالي، اليائس حقًا، أن نحافظ على النظام، ولو كان بأصعب ثمن (لا أحد يعرف الثمن أفضل مني)، وألا ننشر شيئًا يمكن أن يلحق الضرر بروسيا"[46]. عندئذ تماشى هذا تمامًا مع خط هوركهايمر.

ما كان يهم هوركهايمر في نهاية الأمر هو "نظرة أدورنو إلى الوضع القائم المشبعة بالكراهية"[47] وعدوانيته. هذا ما كان يفتقده عند فروم، هذا ما كان قصده بالنسبة إلى هذا الأخير عندما اجتمع ببولوك في لقائه الأول به في نيويورك في حزيران/ يونيو 1934. "هو لم يعجبني كثيرًا. لديه أفكار خلاقة،

(43) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 28 كانون الثاني/ يناير 1938.

(44) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 21 آذار/ مارس 1936.

(45) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 26 تشرين الأول/ أكتوبر 1936.

(46) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 28 تشرين الثاني/ نوفمبر 1936.

(47) رسالة من هوركهايمر إلى أدورنو، 8 كانون الأول/ ديسمبر 1936.

لكنه يريدني أن أكون على علاقة طيبة مع أشخاص كثيرين، وهو لا يريد أن يفوته شيء. لا شك في أن رفقته مريحة، وكذلك الحديث معه، لكن لدي انطباع أن هذا يروق لأناس كثيرين"[48]. عندما أوصى أدورنو في نهاية عام 1936، بعد زيارته لألفرد زون ريتل (Alfred Sohn-Rethel) في أكسفورد، هوركهايمر بحرارة بمساعدة هذا الرجل الذي يعمل منزويًا، والذي يتابع بوسائل أخرى الهدف ذاته الذي يسعى إليه هو، أي أدورنو، وهو نسف المثالية من الداخل، أقرّ هوركهايمر بفتور بعد أن قرأ جزئيًا مع ماركوزه كتاب زون ريتل **مخطط من أجل نظرية اجتماعية للمعرفة**، بوجود قوة تفكير كبيرة "وراء هذا السياق الموحش من الجمل المؤلفة من كلمات غنية بمعناها"، لكنها في موقفها "من التاريخ ذاته، كما هو، لا تختلف كثيرًا [...] عن أي واحد مثل ياسبرز أو أي أستاذ آخر"؛ لا يوجد أي مكان آخر "تكون فيه سخرية المقولات الماركسية فعالة"؛ لقد نجح زون ريتل "في أن يُعرّي بصورة تامة "مفهوم الاستغلال من كل مضمون عدواني"، على نحوٍ لم يستطع حتى مانهايم أن يقوم به؛ ما فعله المؤلف بالمعارف المتضلع منها منذ زمن طويل هو "تلميعها مثاليًا، بدلًا من تسليط الضوء عليها"[49]. أعطت حماسة أدورنو بالذات بخصوص زون ريتل فرصةً لهوركهايمر كي يُبرز "الفرق الهائل بين طريقة تفكيرك وطريقته". "قد يكون عملك حول كيركيغارد ما زال يحمل آثار طريقة التفكير المثالية التي تخلصت منها في هذا الكتاب، لكن تظهر مع ذلك في مواقع كثيرة نظرتك إلى ما هو قائم التي يزيدها البغض حدة. في الحقيقة، لاحظت عدم توافق أفكارك مع الروح الموضوعي الموجود، وشكّكت في صوابية ودقة تلك الأفكار".

كان ما انتقده لوفنتال في أدورنو مرةً أمام هوركهايمر، أنه، على عكس هوركهايمر، يُظهر حماسةً قريبةً من الحقد والضغينة، وهذا ما كان يروق لهوركهايمر، ولم يكن ما يُهم هذا الأخير إلا هذه العدوانية الحماسية التي اكتشفها في أعمال لوفنتال وماركوزه وفروم، وفي غيرها من التنازلات الأخرى المقدَّمة للنظام العلمي البرجوازي، لتوجيهها في المسارات الصحيحة، أي نحو نتائج نظرية اجتماعية.

---

(48) رسالة من هوركهايمر إلى بولوك، 4 حزيران/ يونيو 1934.

(49) رسالة من هوركهايمر إلى أدورنو، 8 كانون الأول/ ديسمبر 1936.

أما ما كان يهم أدورنو فهو أن تنفتح "الشفابية-الماركسية"[50] لهوركهايمر على شكل من نظرية مادية طموح. بيّنت جهوده لجعل بنيامين وكراكاور وزون ريتل وبلوخ زملاء عاملين في المعهد أو المجلة، مهما بدت غريبة، وهو لم يكن وحده مسؤولًا عن إخفاقها، بيّنت أن حلمًا قديمًا كان لا يزال يعيش في داخله يتمثل في إظهار النظرية التي كان يمثلها هو وأصدقاؤه اللاهوتيون-الماديون في المعهد والمجلة. في أي حال، أضعفَ انتصار النازية والهجرة كثيرًا الوضعَ الاجتماعي لهؤلاء الأصدقاء وقدرتهم على النشر، وعزز جدًا وضع هوركهايمر، بحيث كان أدورنو يميل إلى تصنيف محطات مزعجة عند هوركهايمر بأنها لم تكن دائمًا استراتيجيات لمصلحة المعهد، لكنه كان يصنف محطات مماثلة عند كراكاور وباقي رفاق تفكيره بأنها محطات جنون. كتب أدورنو إلى هوركهايمر في كانون الثاني/ يناير 1937: "من الصعب جدًا أن تجد أناسًا نستطيع أن نعمل معهم فعلًا، والتجارب التي قمتُ بها في نصف السنة الماضية في هذا الاتجاه، تحملني أكثر وأكثر على القبول برأيكم، وهو أن نقوم بأعمالنا معتمدين، إذا صح التعبير، على أنفسنا". وبعد أيام قليلة، كتب أدورنو: "كان همّي أن آتي بمثقفين أكفاء، هذا إن لم نكن نريد، في نهاية الأمر، أن نحوّل المعهد إلى بيت مجانين"[51]. أما بنيامين فقد شكّل حالة استثنائية، وفي هذا كان أدورنو وهوركهايمر متفقَيْن. بعد نشر مقالة "إدوارد فوكس، الجامع والمؤرخ" لبنيامين في **مجلة الأبحاث الاجتماعية**، كتب أدورنو إلى هوركهايمر: "إنني أعتبر بنيامين واحدًا من أهم القوى التي لدينا، بعد التجارب المحبطة جدًا التي عرفناها من جراء محاولتنا أن نكسب قوى جديدة، وواحدًا من بين القلة منهم؛ ففي حال أحسنّا استخدامه، نتوقع منه الكثير. وأعتبرُ لهذا أن ذلك مسوّغٌ جدًا في إطار المصلحة الموضوعية، عندما يُعبر عن ذلك أيضًا بوضوح في موقفنا العام"[52]. ورأى هوركهايمر الذي التقى بنيامين ثانيةً في إحدى جولاته الأوروبية في باريس في أيلول/ سبتمبر 1937، في ما بعد في رسالة إلى أدورنو، أن "من أجمل اللحظات كانت تلك الساعات القليلة مع بنيامين.

---

(50) يُنظر ص 137-138 في هذا الكتاب.

(51) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 21 كانون الثاني/ يناير 1937؛ 25 كانون الثاني/ يناير 1937.

(52) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 23 نيسان/ أبريل 1937.

إنه الأقرب إلينا بين كل الآخرين"[53]. في وقت متأخر من خريف 1937 أصبح بنيامين عضوًا ثابتًا في المعهد بعد أن اختير مؤلَّفُه **الممرات** في عام 1935 من بين الأبحاث التي يدعمها المعهد، وبعد أن اتفق مع هوركهايمر في أثناء زيارة الأخير إلى باريس في شباط/ فبراير 1936 على تقاضي راتب مرتفع بانتظام. وقد كتب بعد هذا اللقاء إلى أدورنو: "بما أنكم أنتم أيضًا قد أصبحتم أقرب إلى عمل المعهد، أستطيع أن أعد نفسي بالكثير في ما خص رؤانا النظرية المستقبلية وموقفنا العملي أيضًا، على ما آمل من دون تفاؤل متهور"[54].

إجمالًا، تواصلَت على هذا النحو منذ [الفصل الدراسي] 1934/ 1935 تلك العملية المذهلة التي كانت قد بدأت في أوائل الثلاثينيات في فرانكفورت؛ أي العمل المشترك بين هوركهايمر، المنظّر الاجتماعي المادي الذي أراد أن يخدم بواسطة تحليل فلسفي متعدد الاختصاصات للمجتمع بكليته مطلب السعادة للإنسان الفاني الذي يتطلع إلى الدنيا، وبين أدورنو المادي التأويلي الذي أراد أن يحرر جدليًا، بواسطة "تأويل بنّاء" (أدورنو) وكشف الصغير والشذري والعرضي والغارق في المثالية، العناصر التي ستكون قادرة على إنقاذ هذه الظواهر وإنتاج شكل أفضل من العقلانية. التقى مقصدهما على نقد المواقف المثالية وعلى المصلحة في جدل "غير مكتمل" (هوركهايمر) أو بالأحرى في جدل "متقطع" (أدورنو)، وعلى منطق للشيء الحي لا يُعطى من أي نسق أو روح مستقل. بدا وكأن من العسير تصور تعاون وثيق بينهما من دون تقريب المواقف. أما في أي اتجاه يمكن أن يحصل هذا التقريب، فهذا ما أظهرته، حتى قبل أن يوافق هوركهايمر على مديح أدورنو لبنيامين، ردة فعل المنظّر الاجتماعي المادي (هوركهايمر) على مقالة الجاز للمادي التأويلي (أدورنو). كتب هوركهايمر إلى أدورنو: "يبدو لي أن 'بحث الجاز' دراسة ممتازة بشكل خاص. أنت تُوضح في التحليل الصارم لهذه الظاهرة التي لا أهمية لها ظاهريًا المجتمعَ بأسره وبكل تناقضاته. سيكون هذا العمل أيضًا، في كل مكان يُنشر فيه، قطعةً متألقة. وهو يقوم في هذا العدد أيضًا بتدارك مفهوم خاطئ يقول

---

(53) رسالة من هوركهايمر إلى أدورنو، 13 تشرين الأول/ أكتوبر 1937.

(54) رسالة من بنيامين إلى أدورنو، 7 شباط/ فبراير 1936، ذُكرت في:

Walter Benjamin, *Passagenwerk*, p. 1152.

بأن منهجنا لا يطبَّق إلا على ما يُدعى إشكالات كبيرة وعلى حقبات التاريخ الواسعة؛ كما تُظهِر هذه المقالة عبر العرض نفسه أن طرح المشكلة الصحيح ليس له أي علاقة بهذا الذي يُعتبر في البحث العلمي - كما يُقال على علّاته - أنه مهم وملحّ"[55]. وسط الحماسة لطريقة عمل أدورنو التي ظهرت في المنشور التالي الذي قدمه المعهد عن نفسه، برزت مقالة أدورنو بوصفها بحثًا مركزيًا حتى بالنسبة إلى المعهد، ظهر استعداد هوركهايمر لفهم مشروعه الأصلي الذي يطمح إلى المزج بين الفلسفة والعلوم التخصصية الأخرى، وبين النظرية والتجربة، وبين العلوم التجريدية والواقعية (هوركهايمر) بمعنًى واسع يُفسح مجالًا لتنويعات شديدة التباين.

الأبحاث التجريبية الأخرى للمعهد في الثلاثينيات

أربعة مشاريع عمل ميدانية كانت في برنامج المعهد بين عامي 1935 و1938:

- بحث حول موقف السلطة من الطالبات (استنادًا إلى مجموعة من طالبات كلية ساره لورنس في نيويورك)؛

- بحث حول تأثير البطالة في بنية السلطة في العائلة (استنادًا إلى مجموعة من العائلات في نيوآرك، نيو جرسي، يُفترض أن تجرى من أجلها أبحاث موازية في فيينا وباريس)؛

- التقويم الكامل للاستبيانات التي تم تحليلها لـ **دراسات في السلطة والأسرة** عن التحولات في علاقات السلطة بين الشباب وآبائهم في بلدان أوروبية مختلفة؛

- التقويم الكامل للاستطلاع الأول الذي أجراه المعهد على العمال والمستخدمين الألمان المؤهلين.

كان هدف البحث حول موقف السلطة من طالبات كلية ساره لورنس في نيويورك إثبات الموقف الذي اتخذته الطالبات تجاه سلطة الأساتذة أو بالأحرى

(55) رسالة من هوركهايمر إلى أدورنو، 23 تشرين الأول/ أكتوبر 1936.

تجاه سلطة الكلية ككل ومناقشة المواقف النموذجية وفحص علاقتها بأوضاع الطالبات الاجتماعي والثقافي والعائلي من ناحية، وببنى شخصية محددة من ناحية أخرى. كان هذا إذًا هو البرنامج القديم مطبقًا على الشبيبة في واحدة من المؤسسات. تأخر البحث الذي بدأ في وقت متأخر من خريف 1935 بإشراف فروم، من دون أن يتمكن من تخطي طور البداية أبدًا.

كُلف بالبحث حول تأثير البطالة في بنية السلطة في عائلات الولايات المتحدة الأميركية لازارسفلد، الذي حافظ هوركهايمر والمعهد على علاقة وطيدة به إبان الإقامة في الولايات المتحدة.

جسّد بول ف. لازارسفلد مقارنة بهوركهايمر نوعًا من عالِم إداري في علم الاجتماع، براغماتي بقوة، ومنهجي التوجّه، لكن من دون أن يغيّب تمامًا الجانب الاجتماعي النقدي. إذا لم تبنِ مؤسسةٌ تخدم بناء نظرية ماركسية في الفضاء الأكاديمي القاعدةَ، لا يمكنُ أن ينجح بناء مركز تجريبي للبحث الاجتماعي العلمي إلا عندما تترافق الرغبة الكبيرة في إنشاء مشروع وسعادة الارتجال مع الاستعداد الواسع للتكيف.

وُلد لازارسفلد في عام 1901 في فيينا لأبوين يهوديين، وكان من بين من يتردد إلى بيت العائلة فيكتور آدلر ورودولف هيلفردنغ وأوتو باور. كانت والدته صوفي لازارسفلد تلميذة ألفرد آدلر، محللة ممارسة ومؤلفة سلسلة من الكتب الكفاحية عن تحرر النساء[56]. هكذا اطلع مبكرًا على الماركسية النمساوية وعلى النوع الآدلري من التحليل النفسي الذي ثمنه الاشتراكيون الديمقراطيون النمساويون تثمينًا عاليًا. تعرّف في العشرينيات، في أثناء نشاطه في حركة الشبيبة الاشتراكية الديمقراطية، إلى زيغفريد بيرنفلد - تلميذ فرويد ومدير مأوًى للأطفال تأسس عام 1919 لأيتام الحرب - واستلهم نموذجه في الإدارة الذاتية للأطفال عند تنظيم معسكرات خلال فترات العطل لأطفال وشباب الحركة العمالية الاشتراكية الديمقراطية. بناء على اقتراح بيرنفلد، حضر لازارسفلد الذي كان قد أصبح في غضون ذلك أستاذ رياضيات، محاضرات الزوجين شارلوته وكارل بولر (Charlotte & Karl Bühler)

---

(56) يُقارن:

Reinhold Knoll et al., "Der österreichische Beitrag zur Soziologie von der Jahrhundertwende bis 1938," *Kölner Zeitschrift für Soziologie und Sozial psychologie*, special issue 23, pp. 90 ff.

اللذين أسسا في عام 1922/ 1923 المعهد النفسي في جامعة فيينا. كان المعهد مركزًا جذبَ إليه الطلاب الاشتراكيين الذين أملوا من التربية الصحيحة الكثير من أجل ارتقاء "الإنسان الجديد". شارك كارل بولر في الإصلاح المدرسي لوزير التعليم الاشتراكي الديمقراطي غلوكل، بينما كرست شارلوته بولر اهتمامها الرئيسي لعلم نفس تطور الأطفال والشباب. هنا كان العمل النظري والبحث التجريبي مرتبطًا أحدهما بالآخر. عيّنت شارلوته بولر التي استخدمت، على سبيل المثال، لكتابها عن **الحياة النفسية للشاب** المعالجة الإحصائية للمذكرات اليومية، أستاذ الرياضيات الشاب مساعدًا لها.

في عام 1927 أسس لازارسفلد مركز البحث الاقتصادي-النفسي الذي أُلحق بالمعهد النفسي. ولتأمين قاعدته المادية، قَبِل المركز وأنجز تكليفات بحثية، من بينها أولى تحليلات السوق النمساوية واستطلاع واسع حول رغبات المستمعين إلى الإذاعة النمساوية.

جميع هذه المشاريع بدت للازارسفلد، ذي الاهتمام المنهجي، مفيدة. أَمِل في التحليل الإحصائي لخيارات المستهلكين مثلًا، أن يتعلم شيئًا يمكن أن يفيد في التحليل الإحصائي لخيارات الناس المهنية[57]. عمل مركز البحث، إذًا، للاقتصاد الرأسمالي وللمؤسسات ذات التوجّه الاشتراكي الديمقراطي ولأهداف بحثية خاصة.

هناك جملة في أحد كتب لازارسفلد الأولى - **الشباب والمهنة**[58] - كانت مميزة لمقاربته في البحث التجريبي الاجتماعي-النفسي، كما تطورت في جو "فيينا الحمراء"، فيينا التي كانت حمراء وصولًا إلى أعضاء حلقة فيينا، أمثال أوتو نويرات (Otto Neurath) ورودولف كارناب وهانز هان وإدغار تسيلزل. كانت هذه الجملة في المبحث عن "العامل الشاب" الذي أكسب التشديدُ القوي عليه الدراسةَ صبغتها الماركسية: "وحده الباحث عمومًا يحوز القرب الحي من المشكلة، بحيث يستطيع أن يكتسب عدّته المفاهيمية والمنهجية بالضبط من خلال الاستبطان، والذي على الرغم من ارتباطه الشخصي هذا يمتلك القسوة العلمية لتحويل معايشته إلى بيانات وصيغ قابلة للاختبار، أو على الأقل إلى أقوال عن علاقات محتملة يمكن

(57) Paul F. Lazarsfeld, *Eine Episode in der Geschichte der empirischen Sozialforschung*, p. 155.

(58) Paul F. Lazarsfeld, *Jugend und Beruf: Kritik Und Material* (Jena, 1931).

أن تكون متاحة مبدئيًا لمثل هذا الغرض ذات يوم. يساعد في ذلك فقط أن مشكلات أشكال المراهقة المختلفة تتكشف بوضوح أكبر مما هي عليه حتى الآن"[59]. لم يرقَ إلى مستوى هذه الرؤية أي بحث من أبحاث الزمن السابق، مثل البحث الذي بدأ في عام 1930 وتناول **العاطلين من العمل في ماريِنتال**، والذي كان الموقف الذي التزم به - بحسب التصدير السابق للازارسفلد - بأنه لا يجوز لأي من العاملين معنا أن يكون في دور مراسل صحافي أو مراقب في مارينتال، بل "أن يندرج كل واحد من خلال وظيفة ما مفيدة للناس أيضًا في الحياة برمتها بصورة طبيعية"[60]. وفّرت غرفةُ العمال في فيينا وتبرعات روكفلر التي يديرها الزوجان كارل وشارلوته بولر الوسائلَ المادية المتواضعة التي وضعت بالتصرف لإجراء البحث.

بناء على دراسة مارينتال، قامت مؤسسة روكفلر بتمويل رحلة لازارسفلد إلى الولايات المتحدة التي بدأت في أيلول 1933. بعد تعطيل العمل بالدستور في النمسا في شباط 1934، وحظر الحزب الاشتراكي، وفرض فاشية على الطراز الإيطالي، وإلقاء معظم العاملين مع لازارسفلد الذين يتحدرون من عائلات يهودية في السجن، تقدم لازارسفلد بنجاح بطلب تمديد منحته الدراسية في أميركا. حصل بعد انتهائها في خريف 1935 عبر وساطة روبرت ليند على وظيفة في الدولة في مصلحة إدارة الشبيبة التي اتخذت مركزًا لها في جامعة نيوآرك. كان عليه أن يحلل 10,000 استمارة استبيان للشباب بين 14 و25 عامًا، وأن يلقي بعض المحاضرات في الجامعة. في خريف 1936، استُحْدِث بناءً على اقتراحه مركز أبحاث في جامعة نيوآرك، وتسلم إدارته.

كانت الجامعة صغيرة وفقيرة. وكان على مدير المعهد أن يهتم بنفسه بتأمين نصف راتبه الشهري. كان لازارسفلد يعتمد في تأمين معيشته على عقود بحثية كما كان الأمر يومًا في فيينا في مركز البحوث. في هذا الوضع تقدم معهد هوركهايمر لمساعدته بأن يُنجَز جزء من عمله في مركز البحوث في نيوآرك، ويدفع لطاقم لازارسفلد الصغير مقابل إشرافه. كان هذا التعاون فترة عمل مشترك طويلة الأمد. بدأ ذلك عندما كلف معهدُ البحث الاجتماعي مركزَ الأبحاث الاقتصادية-النفسية في فيينا سؤال العمال الشبان في النمسا،

---

(59) Ibid., p. 6.

(60) Hans Zeisel, Marie Jahodan & Paul F. Lazarsfeld, *Die Arbeitslosen von Marienthal*, p. 28.

وتواصل عندما ساعد لازارسفلد في عام 1935 في تقويم الاستطلاع الذي قامت به كيته لايشتر في أوساط الشبيبة في سويسرا لـ[كتاب] **دراسات في السلطة والأسرة**. كتب هوركهايمر إلى لازارسفلد في وقت انتهاء العمل على **الدراسات**: "لقد قدمتم للمعهد مساعدة ضخمة، ليس من خلال عملكم[61] الدقيق والمهم فحسب، بل أيضًا من خلال السرعة التي نجحتم فيها حقيقةً في إنجاز الموضوع.

في الأهمية الخاصة التي تحوزها تجربتكم الفريدة في ما يخص قطاع عمل المعهد، عكرتْ صفوَ السعادة بالاهتمام الذي قوبلتم به في جامعة بيتسبرغ فكرةُ غيابكم عن جامعة نيويورك في العام التالي [...] جاء من صديقنا المشترك الذي نُكِنّ له الاحترام، الأستاذ ليند، الحافزُ لأن يَقترح معهدُنا عليكم المجيء من بيتسبرغ إلى نيويورك أقلّه لأيام عدة كل شهر. بهذا تتوفر الإمكانية لمشاركتكم في أعمالنا في المستقبل أيضًا"[62]. وأجاب لازارسفلد: "بالتأكيد، لا يساوركم شك في مبلغ سعادتي بعرضكم. إنه يلائم مخططاتي بطرق عديدة؛ فأولًا، أنا أرغب جدًا في البقاء على تواصل معكم ومع المعهد، فهذا يمنحني الفرصة للمجيء إلى نيويورك [...] على أن تحسين الميزانية أمر مرحب به جدًا"[63].

كان التعاون وثيقًا على نحو خاص طوال مدة وجود لازارسفلد في نيوآرك. قدم هو ومساعدوه أو مساعداته - مثلًا، هرتا هرتسوغ (Herta Herzog) التي عملت معه في فيينا سابقًا، وأصبحت زوجته الثانية - للمعهد، الذي كان يذكر في منشوراته أن لازارسفلد واحد من زملائه الباحثين، المشورةَ في المسائل المنهجية والمساعدة في تقنية البيانات. في عام 1938، أعلن لازارسفلد الذي كلفَته في العام السابق مؤسسة روكفلر بمشروع بحث ضخم عن الإذاعة، أعلن إزاء هوركهايمر اهتمامه بعرض إدارة القسم الموسيقي من المشروع على أدورنو. وبذلك أفسح هوركهايمر في المجال أمام جلب أدورنو إلى نيويورك. استمرت المساعدة المتبادلة حتى الأربعينيات، عندما توصل هوركهايمر ولازارسفلد الذي أصبح في عام 1940 أستاذًا في جامعة كولومبيا، ونقل مركز أبحاثه إلى هناك أيضًا، إلى اتفاقيات استراتيجية

---

(61) أي استطلاع الشبيبة.

(62) رسالة من هوركهايمر إلى لازارسفلد، 16 أيار/ مايو 1935.

(63) رسالة من لازارسفلد إلى هوركهايمر، 27 أيار/ مايو 1935.

لسلوكهما تجاه الممولين. خدم لازارسفلد المعهد في مرحلة المنفى في الولايات المتحدة الأميركية كوسيط مع المؤسسة العلمية هناك؛ فالعمل المشترك مع معهد فرانكفورت للمنظّرين النقديين أعطى للازارسفلد شعورًا بأنه لم يخن تمامًا ماضيه الماركسي النمساوي كشخص منضوٍ في المؤسسة العلمية الأميركية.

فكّر معهد هوركهايمر في البحث عن تأثير البطالة في بنية السلطة في العائلات الأميركية بصورة رئيسية كدليل على اهتمامه المعرفي بالبلد الذي يستضيفه. تكمن الصعوبة المبدئية - كما ذكر فروم، في بداية عام 1936، في رسالة بعث بها إلى هوركهايمر - "في كوننا نقوم بالبحث لأسباب تكتيكية أساسًا مع الرغبة في ترك لازارسفلد يقوم بمعظم العمل؛ وأننا نريد، من ناحية أخرى، أن تتمثل الدراسة من خلالنا. ولأن لازارسفلد وحده لا يسيطر بصورة كافية على وجهات نظرنا النظرية، فإنه لا يمكن أن نتجنب اهتمامنا نحن أيضًا بالدراسة، لكن، من ناحية أخرى، سيكون من الخطأ جدًا استعمال قوة كبيرة للغاية في هذا البحث"[64]. أجرى البحث منذ عام 1935 تحت إشراف لازارسفلد عالمةُ اجتماع معروفة بالنسبة إليه، تدعى ميرا كوماروفسكي. شمل الاستطلاع 59 عائلة تعيش في نيوآرك في شروط متشابهة، كانت أسماؤها قد توفرت بفضل إدارة إغاثة الطوارئ، وهي نوع من مؤسسة تعمل للمصلحة العامة. من بين طرق الدراسة كانت هناك سلسلة من المقابلات مع أفراد من العائلات. استخدمت في معالجة المسائل وفي التقويم تصنيفات نوعية، كما ناقشها لازارسفلد في مقالته المنشورة في عام 1937 في **مجلة الأبحاث الاجتماعية** بعنوان "بعض الملاحظات عن الإجراءات المتصلة بالتصنيف النوعي في البحث الاجتماعي". أكدت النتائج مرة أخرى ما أثبته شتيرنهايم في عام 1933 في مراجعته الشاملة لـ [كتاب] **أدب جديد في البطالة والأسرة** وما أظهره [كتاب] **دراسات في السلطة والأسرة** من أن سلطة الأب تتضاءل غالبًا من خلال البطالة؛ وتتضاءل سلطته أكثر كلما كان الأطفال أكبر، وربطًا ببنية السلطة في الأسرة في الفترة التي سبقت البطالة. ظهر التقرير عن بحث نيوآرك في عام 1940 باللغة الإنكليزية مع تصدير من لازارسفلد بوصفه منشور المعهد الدولي للأبحاث الاجتماعية.

---

(64) رسالة من فروم إلى هوركهايمر، 10 كانون الثاني/ يناير 1936.

في الدراسات الموازية في فيينا وباريس، كان من المفترض أن تتعاون الفروع الأوروبية للمعهد مع معهدَي ماري ياهودا (Marie Jahoda) وأوتو نويرات. ياهودا – مساعدة لازارسفلد في فيينا وزوجته الأولى، المؤلفة الرئيسية لـ**البطالة في مارينتال**، واشتراكية ديمقراطية ناشطة – هي من تولّت بعد ذهاب لازارسفلد إدارة مركز البحث الاقتصادي-النفسي في فيينا. أراد هوركهايمر من خلال التعاون المخطط ومن دون إنفاق مبالغ كبيرة المحافظة على الطابع الدولي لعمل المعهد. لكن للأسف لم تحصل الدراسات الأوروبية الموازية. في عام 1936 اعتُقلت ماري ياهودا بسبب أعمال غير شرعية لمصلحة الاشتراكيين، وطُردت في عام 1937 من النمسا.

جرى أيضًا بمشاركة أساسية من لازارسفلد التقويم الآخر للاستطلاعات التي أجريت عن موقف الشباب من السلطة والأسرة. وقد أنجزت العمل المؤقت للمواد النمساوية كيته لايشتر التي أثبتت نفسها في استطلاع سويسرا، والتي اقترحها لازارسفلد أيضًا للعمل على المواد الفرنسية. في النهاية يجب الوصول إلى عرض مقارن لنتائج الأبحاث السويسرية والنمساوية والفرنسية. كان لازارسفلد يأمل أن يكون بمقدوره القيام بتقويم إحصائي للنصف الثاني من استمارات استبيان سويسرا التي لم تكن بعد تحت تصرفه للمساهمة في **دراسات في السلطة والأسرة**، لكن هذا المشروع لم يُستكمل.

جرى التعاون الأوثق مع مركز أبحاث لازارسفلد في نيوآرك في تقويم استطلاع العمال والموظفين. اشترك في هذا الاستطلاع جميع من أتى المعهد إلى ذكرهم تقريبًا في العرض الذاتي في آذار/ مارس 1938، بوصفهم العاملين في قسم "علم النفس الاجتماعي والدراسات الميدانية"، وهم: إريك فروم، وبول لازارسفلد، وإرنست شاختل واثنتان من المساعدات الثلاث، أي هرتا هرتسوغ وآنا هارتوخ (Anna Hartoch). غير أن لازارسفلد والسيدتين ينتمون في المقام الأول إلى مركز الأبحاث في نيوآرك. توقع فروم مساعدة ملموسة في العمل من آنا هارتوخ التي كانت لها "معرفة ممتازة في علم النفس وخبرات واسعة في الثقافة السياسية مع العمال". كان يُفترض أن يدفع فروم راتبها الشهري الذي يعادل 50 دولارًا باستخدامه "الدخل الزائد الذي أحصل عليه اليوم وبالتأكيد في الفترة القادمة، من طريق استبدال ساعات التحليل النفسي

في العيادة المدفوعة جيدًا بساعات قليلة الأجر" لدفع مستحقاتها مباشرة، "بدلًا من أن يعيد هذا المبلغ إلى صندوق المعهد"[65]. لم يجد لدى بول لازارسفلد وهرتا هرتسوغ "كبيرَ تفهم" لـ "المشكلات النفسية الدقيقة المهمة تمامًا في جعل هذا العمل مثمرًا". لكن كان هناك الكثير للقيام به، بحيث سيكون عمل الاثنين مفيدًا للغاية.

انتظر فروم ثلاثة أمور في مطلع عام 1936 من تحليل استطلاع العمال والموظفين:

"1. أن يقدم صورة مؤكدة عن الرؤى السياسية والاجتماعية والثقافية التي كان يمتلكها العمال والموظفون الألمان في عامي 1929/ 1930. كانت الإجابات متوافقة جزئيًا، بحيث تسمح بتعميمات محددة أيضًا من المادة التي تقدمها 700 استمارة استبيان.

2. هدفًا أطمح إليه، ولا أستطيع الحديث بعد عما يمكن تحقيقه منه، وهو وَضْعُ نماذج اجتماعية-نفسية؛ أي مثلًا التمييز بين نموذج الشخصية 'المتمردة' البرجوازية الصغيرة والنموذج الثوري. ينبغي فحص مدى وجود نماذج مختلفة في مجموعات حزبية فردية؛ مثلًا إلى أي حد يوجد لدى الشيوعيين النموذج 'المتمرد' والثوري، ولدى النازيين النموذج الفردي البرجوازي الصغير ونموذج أكثر اجتماعية وذو توجّه جمعي، وهلمّ جرّا. يتعين بالتأكيد تمييز البنى الشخصية أكثر مما هو حاصل في تقسيمي الثلاثي المقترح في الكتاب[66].

3. نتيجة ثالثة يمكن تحقيقها بالتأكيد، تتمثل في أن المرء يمكن، بناءً على استمارة الاستبيان المميزة تمامًا، أن يُظهِر بشكل منهجي فعليًا ما يمكن تحقيقه بطريقة الاستمارة وما لا يمكن تحقيقه. سوف تطبق في معالجة الاستمارات سلسلةٌ من الحيل المنهجية الجديدة التي يمكن أن تجعل النشر مفيدًا من وجهة النظر هذه"[67].

---

(65) رسالة من فروم إلى هوركهايمر، 10 كانون الثاني/ يناير 1936.

(66) أي **دراسات في السلطة والأسرة**.

(67) رسالة من فروم إلى هوركهايمر، 10 كانون الثاني/ يناير 1936.

في تصديره للجزء من استطلاع **دراسات في السلطة والأسرة** الذي كان مسؤولًا عنه، ميّز فروم بإيجاز أهم ملامح تصوراته المنهجية من دون أن تجد انعكاسها الجلي بعدئذ في تقارير الاستطلاع التفصيلية. هذه الملامح كانت: محاولة "استنتاج البنية الشخصية للشخص الذي أجاب عن الأسئلة انطلاقًا من مجموع الإجابات في كل استمارة استبيان على حدة"[68]؛ وضم مثل هذه الأسئلة نسقيًا في الاستمارات التي تُمكّن من "توقع الإجابات التي تسمح باستنتاج الرغبات اللاواعية في الشخص المُسْتبيَن، وتسمح من ثم باستنتاج بنيته الغريزية"[69]؛ و"تأويل المعنى، وغالبًا تأويل المعنى اللاواعي للشخص المُسْتبيَن، لجواب" في علاقته بالأجوبة الأخرى، أي في علاقته بالبنية الكلية للشخص المستبيَن[70]. تَصوّرَ فروم وضع بنى شخصية نموذجية، تتأسس من خلال "نظرية نفسية متخصصة"، و"تتأثر بالمادة التجريبية للدراسة نفسها، وتتمايز باستمرار"[71]. كل هذا كان محاولات لتطوير منهجية يُفترض أن تخدم في المقام الأول في مهمة علم النفس الاجتماعي التحليلي التي صاغها فروم في مقالته الأولى في **مجلة الأبحاث الاجتماعية**: لكشف البنى الليبيدوية وفهمها، بوصفها نتاج تأثير الشروط الاجتماعية-الاقتصادية في الميول الغريزية من ناحية، وبوصفها لحظة محددة لتشكيل الشعور في داخل شرائح المجتمع المختلفة وإنتاج البنية الفوقية الأيديولوجية من ناحية أخرى[72].

استمرت معالجة نتائج الاستطلاع حتى عام 1938، وتقدمت إلى حد أنه، بعد أربعة عقود، استطاع عالم الاجتماع فولفغانغ بونص أن يعيد، بموافقة فروم، تركيب نص قابل للنشر من الصياغتين غير المكتملتين عمومًا، المتوفرتين باللغة الإنكليزية، واللتين قام فروم بصياغتهما غالبًا. وقد نشر النص الجديد بالألمانية في عام 1980. في صلب النصوص التحليلية التي كُتبت عامي 1937/ 1938، كان القسم الأخير من المهمة التي صاغها فروم لعلم

(68) Horkheimer et al., p. 235.

(69) Ibid., p. 237.

(70) Ibid., p. 236.

(71) Ibid., p. 235.

(72) يُقارن:

Zeitschrift für Sozialforschung (1932), pp. 53, 40.

نفس اجتماعي تحليلي. جاء في الفصل الأول عن أهداف البحث وطرائقه: "ركز تحليل الإجابات على إبراز العلاقة بين الغرائز العاطفية لفردٍ وبين آرائه السياسية"[73]. نظرًا إلى عروض فروم المبدئية والمنهجية، كان يمكن توقع أنه كان بالإمكان، بدايةً، استنادًا إلى مركبات الإجابات تلك التي كانت تسمح للمتدرب على التأويل النفسي باستنتاجات تخص ملامح شخصية عميقة، إبراز البنى الليبيدوية للأفراد المعنيين لتصنيفهم وفق نماذج تقوم على أسس نفسية وتُوجَّه تجريبيًا، ومن ثم توضيح أهمية الرؤى السياسية والرؤى الأخرى الواعية للنماذج الشخصية المختلفة ودراسة دور الشروط الاجتماعية والاقتصادية المختلفة في نشوء تلك النماذج الشخصية.

على نحو مفاجئ، اتُّبِعَ نهجٌ مختلف تمامًا في تحليل النصوص. قُدم بداية عرض شامل حول التركيب الشخصي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي لعينة البحث (كان لا يزال هناك 584 استمارة استبيان متوفرة). بالنسبة إلى الوضع المهني جرى التفريق بين عمال متعلمين، وعمال غير متعلمين، ومستخدمين وغيرهم، مع إغفال أي تمايزات أخرى، لأن المجموعات كانت ستغدو صغيرة جدًا. أما بالنظر إلى التوجّه السياسي، فجرى التمييز بين الشيوعيين والاشتراكيين اليساريين (داخل الاشتراكية الديمقراطية)، والاشتراكيين الديمقراطيين، والبرجوازيين، والنازيين (شكل هؤلاء أصغر مجموعة، وكانت مؤلفة من 17 شخصًا)، وغير المنتخبين؛ كما جرى في إطار المجموعتين الكبيرتين، الشيوعيين (150) والاشتراكيين الديمقراطيين (262)، التمييز أيضًا بين قياديين وناخبين ومن لم يتخذوا قرارًا.

بعد ذلك صُنفت، بصرف النظر عن علاقة الاستمارات الإفرادية، الإجابات عن أسئلة الحقول الإشكالية: الرأي السياسي، والأيديولوجيا العامة، والموقف الثقافي والجمالي، والموقف من المرأة والأطفال، والموقف من الناس ومن الذات وصفيًا وتأويليًا بصورة جزئية أيضًا (أي إنها صُنفت وفُسرت بناءً على شهاداتها حول الملامح الشخصية العميقة؛ تلك الشهادات غير

---

(73) Erich Fromm, *Arbeiter und Angestellte am Vorabend des Dritten Reiches*, p. 52.

القابلة للاستجواب)، ودُرِس توزيع فئات الأجوبة المختلفة على المجموعات السياسية والقسم الأعظم أيضًا على المجموعات الاقتصادية لعينة الدراسة.

أخيرًا، أُخِذت كل استمارة استبيان بوصفها كلية، فلم تأتِ بصورة عامة للشخصية المعنية، بل بصورة عامة لسمات شخصية وازنة. اعتُبِرت أربعة أسئلة للرؤى السياسية (الأيديولوجيا)، وستة للمواقف من السلطة ومن الناس مهمة في تحديد بنية الشخصية العميقة. وجرت دراسة مدى التطابق بين الرؤى السياسية وبنية الشخصية وفي أي وجهة، ثم أُلحق معظم المُسْتبيَنين بنموذج من النماذج الشخصية الرئيسية الثلاثة، ودُرس في النهاية توزيع هذه النماذج على المجموعات السياسية والمهنية لعينة الدراسة.

لم تكن طريقة اكتساب نماذج الشخصية الثلاثة الرئيسية مفاجئة على نحو أقل من بناء التحليل هذا. فهي لم تقم على أساس نفسي بتاتًا، ولم تُشتق على الإطلاق في شكل من التحليل النفسي - على سبيل المثال، من مراحل التطور النفسي الجنسي - بل من فروق مصاغة على نحو نموذجي في رؤى اجتماعية وسياسية، كما تُمثلها أحزاب "الأيديولوجيات" الألمانية. وكصورة نموذجية لموقف نفسي محدد يدعو إليه المعتقد السياسي، اشتق من "الفلسفة الاشتراكية-الشيوعية" "الموقف الراديكالي"، ومن "الفلسفة الليبرالية-الإصلاحية" "الموقف الإصلاحي ذي التوجه التسووي"، ومن "الفلسفة السلطوية المناوئة للاشتراكية" "الموقف السلطوي"[74]. شُدِّد صراحة على أنه جرى تركيب هذه المواقف النموذجية مباشرة من الرؤية السياسية الإجمالية، ولم تشتق من البنية النفسية للناس الذين يؤمنون بالمذهب المعني[75]. أُنشئت العلاقة بالبنى النفسية للأشخاص الخاضعين للدراسة من خلال تكوين الفئات الأوسع "ذات المركزية الراديكالية R" (Radikal-zentriert) و"ذات المركزية السلطوية A" (Autoritär-zentriert).

بدا أن مغزى الدراسة هو تأكيد أن أقلية فقط من بين أنصار الأحزاب اليسارية أظهرت الموقف الراديكالي النموذجي، وأن ثمة تباينًا كبيرًا نوعًا ما لدى

(74) Ibid., pp. 228 f., 230 f.

(75) Ibid., p. 229.

الأغلبية بين الرؤى السياسية والبنية الشخصية. "غير أن النتيجة الأهم، بلا ريب، هي بدايةً النسبة المئوية الضئيلة من اليسار[76] التي تتطابق في الخط الاشتراكي في الفكر والشعور على حد سواء. فقط من هذه المجموعة الصغيرة المؤلفة من 15 في المئة، يمكن في الأوقات الحرجة حقيقةً توقع أن تقدم الشجاعة والاستعداد للتضحية والتلقائية الضرورية لقيادة العناصر الأقل فاعلية وللتغلب على الخصوم. في الحقيقة، كانت الأحزاب اليسارية تمتلك الإخلاص السياسي وتملك أصوات الأغلبية الكبرى من العمال، لكنها لم تفلح إجمالًا في تغيير البنية الشخصية لأعضائها، بحيث يكون هؤلاء في الأوضاع الحرجة موثوقين. من ناحية أخرى، أظهرت 25 في المئة أخرى من الاشتراكيين الديمقراطيين والشيوعيين تطابقًا واسعًا - وإن يكن أقل رسوخًا - مع أحزابها السياسية، ولم تسمح بتمييز أي ملامح شخصية كان يمكن أن تتناقض مع منطلقاتها اليسارية. لهذا أمكن اعتبارهم أنصارًا موثوقين، لا أنصارًا أشداء.

على هذه الخلفية تنتج صورة متناقضة إلى حد بعيد: فمن ناحية تبدو القوة الموضوعية للأحزاب اليسارية أقل بكثير مما يمكن تخمينه عدديًا من النظرة الأولى. إلا أن هناك، من ناحية أخرى، نواة صلبة من مكافحين موثوقين إلى أقصى حد، وكانت كبيرة بما يكفي لتجذب في ضوء شروط محددة العناصر الأقل كفاحية؛ أي تحديدًا عندما تكون ثمة قيادة قادرة وتقدير صحيح للوضع السياسي.

مع ذلك، ينبغي عدم نسيان أن 20 في المئة من أنصار الأحزاب العمالية يكشفون في آرائهم ومشاعرهم عن نزوع سلطوي صريح. يتأهل هنا 5 في المئة فقط بوصفهم سلطويين ثابتين، في حين يظهر هذا الموقف مهمّشًا أكثر لدى 15 في المئة. ويميل 19 في المئة من الاشتراكيين الديمقراطيين والشيوعيين فضلًا عن ذلك إلى نموذج سلطوي-متمرد مع تناقضات جلية بين الإجابات الراديكالية R والإجابات السلطوية A. في المقابل، كان لدى 5 في المئة من اليساريين موقف تسوَوي التوجُّه، واندرج 16 في المئة إجمالًا في فئة المتلازمة الحيادية"[77].

---

(76) من مجموع المجموعات الثلاث: الاشتراكيين الديمقراطيين، والاشتراكيين اليساريين، والشيوعيين.
(77) Ibid., pp. 250, 252.

بالمقارنة بين المجموعتين الأكثر أهمية لليساريين - الشيوعيين والاشتراكيين الديمقراطيين (من دون الاشتراكيين اليساريين) - ينفصل الشيوعيون بوضوح على نحو أفضل: على سبيل المثال، كان 40 في المئة من القياديين الشيوعيين راديكاليين، مقابل 12 في المئة فقط من القادة الاشتراكيين الديمقراطيين. بين القادة الشيوعيين كان صفر في المئة سلطويين بوضوح، وبين الاشتراكيين الديمقراطيين 5 في المئة[78]. إذا نُظر بدقة أكبر إلى النتيجة التفصيلية التي ذُكرت أخيرًا، يغدو واضحًا موطن الضعف في بناء التحليل برمته. مَن أجاب عن الأسئلة الأربعة عن الرؤية السياسية بإخلاص للعقيدة الماركسية - مثلًا، عن سؤال "كيف يمكن برأيكم تحسين العالم؟" بـ"الاشتراكية"، وعن سؤال "من كان المسؤول برأيكم عن التضخم؟" بـ"الرأسماليين/ الرأسمالية" (هكذا هي تصنيفات الإجابات عن الأسئلة غير المبنية مسبقًا) - أمكن ألا يُدرج أبدًا بوصفه سلطويًا واضحًا. لكن في حال تبين أنه "سلطوي" في موقفه من السلطة، أو تبين أنه "فردي" في موقفه من الناس، أو الاثنان معًا، يُدرج عندئذ بوصفه "خلطة متناقضة" أو "نموذج سلطوي-متمرد". ورد حول هذا النموذج: "هؤلاء الناس كانوا مشبعين بالكراهية والسخط ضد الجميع، وامتلكوا المال، وبدا أنهم يستمتعون بالحياة. خاطبوا بقوة ذلك الجزء من القاعدة الاشتراكية الذي كان يهدف إلى إسقاط الطبقات المالكة. ومن ناحية أخرى لم تمارس نقاط البرنامج، كالحرية والمساواة، عليهم أي قوة جاذبة ولو كانت ضئيلة، لأنهم خضعوا برضًى لكل سلطة قوية أعجبتهم، وأحبوا السيطرة على الآخرين طالما امتلكوا هم أنفسهم السلطة لذلك. وفي النهاية، ظهر للعيان انعدام الموثوقية في اللحظة التي قُدم إليهم فيها برنامج كبرنامج النازيين. هذا البرنامج لم يخاطب فيهم مشاعرهم فحسب، تلك المشاعر التي بدا لها البرنامج الاشتراكي جاذبًا، بل خاطب أيضًا ذلك الجانب من طبيعتها الذي لم تشبعه الاشتراكية أو عارضته بلاوعي. في هذه الحالات تحولوا من يسار غير موثوق به إلى نازيين راسخي القناعة"[79]. وهكذا، استُبعد إمكان أن يبقى شخص وفيًا ومخلصًا للحزب الشيوعي أو لبرنامجه، ويكون مع ذلك سلطويًا.

(78) Ibid., p. 251.

(79) Ibid., p. 53 f.

وكذلك استُبعد أيضًا إمكان أن يكون شخص لا ينتمي إلى الحزب الشيوعي أو يعتنق برنامجه راديكاليًا.

هذا البرنامج الذي يكتسب من خلال تحليل علاقة الانتماء الحزبي والبنية الشخصية "صورة عن أهمية وثبات الرأي السياسي لدى الأفراد"[80]، أفضى إلى نتيجة تبدت في توجيه الاتهام إلى أنصار الأحزاب العمالية بأنهم لم يضعوا أنفسهم بشكل حاسم خلف قواهم الأكثر تقدمًا والمتمثلة في صفوف القيادات على وجه الخصوص. وهي نتيجة غير منطقية بالنظر إلى حقيقة أن كثيرًا من العمال كانوا على استعداد للدفاع بفاعلية وقوة، لكن القيادات أخفقت في تنظيم إرادة الدفاع هذه، ورأت القيادات الشيوعية والاشتراكية الديمقراطية كل منها في الأخرى الخصم الأكبر، وتعامل أحدها مع الآخر على هذا الأساس.

كانت الدراسة، بالتأكيد، ذات أهمية كبيرة بوصفها وثيقة تاريخية عن وضع العمال والموظفين وعقليتهم عشية الرايخ الثالث، وبحثًا تجريبيًا رائدًا لعلم نفس اجتماعي تحليلي، وكان المعهد قد دأب حتى الأربعينيات مرارًا وتكرارًا أيضًا على الإعلان عن نشر مشروع إريك فروم **العمال الألمان في جمهورية فايمار**. كان التخلي عن إعداد ونشر هذه الدراسة بالذات مثار استغراب، لأن التحليل كان قد اكتمل إلى حد بعيد جدًا؛ ولأن أيًا من الاستطلاعات اللاحقة لم يوفق إلى الإيفاء بالمطالب التي بيّنها فروم لعلم نفس اجتماعي تحليلي في **مجلة الأبحاث الاجتماعية** بالقدر الذي فعله هذا الاستطلاع؛ فضلًا عن أن علماء أمثال فروم ولازارسفلد عملوا عليه بصورة مكثفة؛ وأخيرًا، لأن نتائج ملموسة من البحث التجريبي كانت مهمة لصورة المعهد. من المحتمل أن الدراسة التي كان من المفترض أن تصدر بالإنكليزية كانت بالنسبة إلى هوركهايمر - كما أخبر فروم في ما بعد فولفغانغ بونص - ماركسية أكثر من اللازم بالفعل. وبالنسبة إلى دراسة ماركسية لم تكن، مرة أخرى، "مصقولة" بصورة كافية. فضلًا عن ذلك، شجع انتقال وظيفة التحفيز الفكري من فروم إلى أدورنو هوركهايمر على رفض نشر ذلك العمل الذي برز فيه إنجاز فروم المنهجي في ميدان البحث الاجتماعي التجريبي بأكثر الصور تأثيرًا.

(80) Ibid., p. 73.

شكلت، أخيرًا، رحلة البحث التي قام بها كارل أوغست فيتفوغل وزوجته السابقة، أولغا، إلى الصين جزءًا من العمل الميداني للمعهد بمعنًى ما. استمرت من ربيع 1935 (عندما كان الجيش الأحمر بقيادة ماو تسي تونغ وتشو ته منذ بضعة أشهر في المسير الطويل الذي تجنبوا بواسطته الهلاك على يد قوات الكومنتانغ بقيادة تشانغ كاي شيك) وحتى صيف 1937 (عندما بدأ الجيش الياباني بغزو شمال الصين، وأعلن الجيش الأحمر وحكومة الكومنتانغ رسميًا جبهة وطنية موحدة ضد اليابان). تقاسم المعهد تكاليف الرحلة البحثية مع معهد نيويورك لعلاقات المحيط الهادئ. انتظر المعهد كنتيجة لذلك مجلدًا آخر يضاف إلى دراسة فيتفوغل عن **اقتصاد الصين ومجتمعها** التي نشرت في سلسلة كتابات معهد البحث الاجتماعي، ومادة استطلاعية حول بنية السلطة في العائلة الصينية، يمكن مقارنتها بدراسات المعهد الأوروبية والأميركية. عاد الزوجان فيتفوغل، وفي جعبتيهما تسجيلات لمقابلات مع "عمال صناعة حديثين" وعائلات-قبائل تقليدية واستبيانات أجاب عنها 1725 تلميذًا وطالبًا (كان قد سئل فيها أيضًا، على سبيل المثال، عن الشخصيات التي تعتبر "مرموقة"، وعن الكتب والأفلام والصحف المحببة)، فضلًا عن مادة ضخمة عن التاريخين الاقتصادي والاجتماعي للصين.

أقام المعهد في تشرين الثاني/ نوفمبر 1937 حفل غداء لأعضاء كلية العلوم الاجتماعية في جامعة كولومبيا، قدم خلاله فيتفوغل تقريره عن الدراسات التي أُنجزت وخُطط للاستفادة منها. أُعلن في نشرة المعهد الصادرة في عام 1938 عن مجلد حول **العائلة والمجتمع في الصين**، وعن كتاب في ثلاثة أجزاء بعنوان **الصين: تطور مجتمعها**، وعن 8-10 كتب مع مصادر عن تاريخ الصين باللغة الصينية وبترجمة إنكليزية، في حال توفر التمويل الكافي. لم يُنشر في إطار منشورات المعهد بعدئذ إلا في مجلة المعهد عام 1938 تقرير فيتفوغل الذي قدمه في حفل الغداء ومقالة "نظرية المجتمع الشرقي"، وبعد ذلك في عام 1939 مقالة "مجتمع الصين قبل التاريخ" كطبعة مسبقة للفصل الأول من كتاب لم ينشر قط عن **التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للصين القديمة**. في المقالة عن "نظرية المجتمع الشرقي"، تبنى فيتفوغل من جديد الرأي بأن وحده التحليل الذي ينطلق من بنية قوى الإنتاج يمكن أن يوضح قوانين الحركة النوعية للشرق، ويشرح من

منظور تاريخي كوني ركود العالم الشرقي وصعود الغرب نحو النظام الصناعي الحديث[81]. وجد تفسير الدور المتفوق للسلطة الإدارية البيروقراطية المركزية في كونها ملائمة للمتطلبات "الشرقية" لعملية الإنتاج الزراعي؛ تلك المتطلبات التي لم تظهر في الشرق فحسب، بل برزت هناك بأقوى صورة بسبب ضرورة أنظمة الري الكبرى. وربطًا بماركس، تحدث، بالنظر إلى تشكيل المجتمع في الصين الذي يقدِّم مثالًا، عن "أسلوب الإنتاج الآسيوي" الذي يلائم على مستوى علاقات الإنتاج "المجتمع الشرقي"، وعلى المستوى السياسي "الاستبداد الشرقي"[82]. أثارت هذه المقالة الريبة وتوقعات عالية بالمقياس نفسه، لكن لم تتبعها قط أي من المنشورات التي أعلن عنها.

بذلك لم تكن **دراسات في السلطة والأسرة** المنتَج "الجماعي" الوحيد للبحث التجريبي بالمعنى الضيق للكلمة، بل كان النشر الوحيد لنتائج البحوث التجريبية للمعهد في الثلاثينيات على العموم. لا يمكن تفسير ذلك بالإشارة إلى المشكلات المالية، لأن بحوزة مديري المعهد المال الكافي لذلك، لو كان نشر تلك الدراسات مهمًا فعلًا لهم. كما أن الإشارة إلى تخلف المعهد من الناحية المنهجية بالقياس إلى مستوى البحث في الولايات المتحدة الأميركية ليست مقنعة أيضًا. فمن ناحية، رأت حلقة هوركهايمر بوضوح - وقد أكد ذلك تشارلز بيرد، وهو أحد المؤرخين البارزين في الولايات المتحدة الأميركية، مرة أخرى في مقالة له لـ **مجلة الأبحاث الاجتماعية** - أن العلوم الاجتماعية الأميركية كانت مهددة باستمرار بالاكتفاء بتراكم مجرد للمادة التجريبية الضخمة، وأن كل شيء كان يتوقف على نجاح تنظيم الدراسات الفردية الواسعة الوفيرة بمادتها في نظرية اجتماعية حقيقية[83]. من ناحية أخرى، امتلك المعهد مع فروم ولازارسفلد فريقًا قادرًا على صعيد البحث المنهجي أن يكون إلى حد بعيد في مستوى العصر وفوق المعدل الوسطي. واعتُبرت بصورة خاصة البحوث التجريبية التي قام المعهد نفسه بإنجازها موضوعًا جديرًا بالتأملات المنهجية.

---

(81) *Zeitschrift für Sozialforschung* (1938), pp. 91, 120.

(82) Ibid., p. 102.

(83) يُقارن:

Zeitschrift für Sozialforschung (1935), p. 65.

ثمة أمر آخر حاسم كان يكمن وراء غياب الرغبة في نشر نتائج البحوث التجريبية. فقد طالب هوركهايمر في خطبته الافتتاحية بتطبيق "المناهج العلمية الأكثر تشذيبًا" وبتطبيق تعدد المناهج، وأجرى فروم ولازارسفلد - وكلاهما يلهمه التحليل النفسي - على سبيل المثال من خلال التمييز بين التصنيفات الوصفية والتأويلية والبنى الظاهرة والكامنة، تشذيبًا مهمًا للمنهج. إلا أن الفارق مع المؤسسة العلمية البرجوازية في نظر هوركهايمر يقوم على مستوى النظرية لو تعلق الأمر بدمج نتائج الاستطلاعات التجريبية والأبحاث العلمية التخصصية في نظرية المسار المجتمعي برمته[84]. يضاف إلى ذلك أن الاستطلاعات لا يمكن إجراؤها إلا في الوقت الحاضر، ولهذا يتعين أن تبقى إجراءً انتقائيًا جدًا لنظرية تُعنى بالمجتمع بأكمله في حقبة بأكملها. لذلك يجب الحفاظ على علاقة مرنة جدًا بين النظرية والبحث التجريبي، كي لا تتقيد النظرية، أو تبدو تأملية اعتباطية، حيث عليها أن تقوم بعملها من دون نتائج الاستطلاعات. لكن إذا كان الأمر كذلك، يبقى إنجاز المعهد الفعلي مركزًا على مستوى النظرية. وفي المجال التجريبي وفي مجال العلوم التخصصية يمكن أن يتعلق الأمر في أقصى تقدير بإنجاز أعمال بحثية كان يمكن آخرين القيام بها بالجودة ذاتها، لكنهم يعزفون عن ذلك بسبب اهتماماتهم بموضوعات أخرى.

مشروع الجدل

وضع هوركهايمر نفسه جميع أعماله في الثلاثينيات تحت عنوان "المنطق الجدلي". فقد كتب في شباط/ فبراير 1939 إلى السيدة فافتس، سكرتيرة مكتب المعهد في جنيف: "جميع مشاريعي تُركز في الوقت الحاضر على العمل في السنوات القادمة على الكتاب الذي لم تكن جميع الدراسات التي قمت بها، ما نشر منها وما لم يُنشر، سوى أعمال تحضيرية له". ولم يكن يعني بذلك سوى الكتاب حول الجدل أو بالأحرى المنطق الجدلي الذي كان يريد أن يكتبه في

---

(84) يُقارن:

Wolfgang Bonß, *Die Einübung des Tatsachenblicks: zur Struktur und Veränderung empirischer Sozialforschung*, esp. p.182; Wolfgang Bonß & N. Schindler, "Kritische Theorie als interdisziplinärer Materialismus," in: Wolfgang Bonß & Axel Honneth (eds.), *Sozialforschung als Kritik: zum sozialwissenschaftlichen Potential der Kritischen Theorie*, p. 57.

أوروبا، ومن أجله حمل ماركوزه في عام 1934 على المجيء من جنيف إلى الولايات المتحدة. وقد كتب فروم في تموز/ يوليو 1934 في رده على رسالة هوركهايمر التي ضمّنها هذا الأخير بالتفصيل أفكاره بصدد الفرق بين الجدل المثالي والمادي، يقول: "آمل كثيرًا أن تأتي كل هذه الأشياء في كتاب 'المنطق'؛ فكرة أنك سوف تكتبه هي واحدة من التصورات الجميلة القليلة التي لا يزال المرء يأمل تحقيقها عمليًا". فكرَ بعد ذلك أنه لا يستطيع كتابته إلا بمساعدة أدورنو. ولذلك أراد في عام 1938 أن يأتي بكارل كورش لينجز أعمالًا متنوعة مرتبطة بهذا الكتاب. كتب كورش في تشرين الأول/ أكتوبر 1938 إلى صديقه باول ماتيك: "يتحدث سلفًا كل واحد تقريبًا (في الأوساط المقربة المعنية) عن **الخطة**"[85].

كان كارل كورش قد وصف في عام 1923 بحثه حول **الماركسية والفلسفة** بأنه القسم الأول من كتاب أكبر بعنوان **دراسات تاريخية-منطقية في سؤال الجدل المادي**. وأعطى لوكاتش مجموعة مقالاته **التاريخ والوعي الطبقي** التي صدرت في العام نفسه تحت العنوان الفرعي "دراسات في الجدل الماركسي". وكان قد أحال في مقدمته على رسالة لماركس تعود إلى عام 1868 موجهة إلى جوزف ديتسغن، جاء فيها: "عندما أنفضُ الثقل الاقتصادي، سأكتب 'جدلًا'. القوانين الصحيحة للجدل متضمنة في هيغل، لكن في شكل غامض. يجب توضيحها"[86].

وفي حين لم يأتِ ماركس في أعماله حول نقد الاقتصاد السياسي أو نظرية المجتمع إلى عرض المنهج الجدلي إلا بصورة مؤقتة، سارت الأمور مع هوركهايمر على نحو معاكس، كما أظهرت نتائج أعماله في الثلاثينيات. دافع مشروع "الديالكتيك" عند هوركهايمر عن استمرار عمله على الأساس الفلسفي لنظرية المجتمع. وهذا كان جوابه عن تقييد عقلانية العلوم الذي شخّصه هوركهايمر في "ملاحظات في العلوم والأزمة" في العدد الأول من **مجلة الأبحاث الاجتماعية**، كما كان رده على إضفاء الجوهرانية على هذه العقلانية المقيدة من خلال "العلموية". في الوقت نفسه، يجب أن يمثلُ الجدلُ إزاء

(85) Karl Korsch, *Jahrbuch Arbeiterbewegung*, vol. 2, p. 188.

(86) Karl Marx & Friedrich Engels, *Werke*, 32, p. 547.

الرفض اللاعقلاني للعلم من خلال الأنواع المختلفة للميتافيزيقا البديلَ عن نقد مستمر للعلم الذي يستطيع دمج الجهود التي تصحح الميتافيزيقا. في المقابل، تراجع إلى الخلف العمل على نظرية المجتمع التي كان يجري الحديث عنها في مقالات هوركهايمر وأقرب مساعديه، والتي بدا أن حلقة هوركهايمر تتحكم بها، حتى عندما كان الكلام عن "النظرية الصحيحة" التي توصف من ناحية أخرى بأنها شيء مستقبلي، حيث جاء مثلًا في مقدمة **دراسات في السلطة والأسرة** أن دائرة الأسئلة التي تعنيها الدراسات يمكن "الاستدلال على أهميتها الحقيقية، بادئ الأمر، في النظرية الشاملة للحياة الاجتماعية التي تتداخل فيها".

صاغ هوركهايمر في خطبته الافتتاحية كمطلب عام وبرنامج للمعهد مبدأً يقضي بوجوب أن يتحد الفلاسفة وعلماء الاجتماع والاقتصاديون والمؤرخون وعلماء النفس في جماعة عمل دائمة، وأن يحرصوا في حقل نظرية المجتمع على الدمج الجدلي المستمر للنظرية الفلسفية والممارسة العلمية التخصصية، الأمر الذي لم يعد بمقدور شخص بمفرده القيام به. وبذلك لم يكن المطلوب التعاون بين الفلاسفة وحدهم والعلماء المتخصصين وحدهم، بل التعاون بين المنظّرين الذين كان كل واحد منهم متضلعًا من واحد من العلوم التخصصية التي تنتمي إليها الفلسفة بوصفها اختصاصًا أكاديميًا يُمكّن تقليده المعرفي والعلمي النظري أو بالأحرى شكله الحاضر، بصورة خاصة، من توضيح الطابع النوعي لاتجاه البحث الخاص. هذا الجمع بين النظرية والعلم التخصصي في شخص كل المشاركين الأساسيين جنّب، بداية على الأقل، التفكيرَ الدقيق تحديد ما يفترض أن يعنيه "الجمع الجدلي المتواصل بين النظرية الفلسفية والممارسة العلمية". لكن ما الذي يعنيه أن لا تطبَّق مناهج العلوم التخصصية ونتائجها - بحسب نشرة لـ **مجلة الأبحاث الاجتماعية** - بصورة آلية، بل وفقًا للبنية النوعية لنظرية شاملة للمجتمع والاستهداء بالحالة الراهنة لتلك النظرية والحرص تمامًا على تعديلها وتوسيعها مع مراعاة التقدم المنجز في التخصصات المعنية. أمام هذا السؤال اكتفى هوركهايمر بتطبيق أفكار هيغل في العلاقة بين الفاهمة والعقل على العلاقة بين العلوم التخصصية ونظرية للمجتمع. في مقالته عن "مشكلة الحقيقة" المنشورة في عام 1935 في **مجلة الأبحاث الاجتماعية**، أعدّ قائمة كاملة عدّد فيها "خاصيات الفكر الجدلي":

"يجعل [الفكر الجدلي] كل حكم تعيينًا متعدد الأوجه، لكن منعزل، في وعي تغير الذات والموضوع وعلاقاتهما أيضًا نسبيًا (ما ينتج في المثالية من مُطلَق مُفترَض، يحصل في المادية على أساس تجربة متقدمة). فبدلًا من ترتيب الخصائص جنبًا إلى جنب، يسعى إلى أن يُظهر، من طريق تحليل كل خاصية عامة بالنظر إلى الموضوع المحدد، أن هذا التعميم يُعارض في الوقت نفسه الموضوع، وأنه لكي يُفهم على نحو صحيح، ينبغي أن يُربط بالخاصية المعاكسة، وفي النهاية بالنسق الكلي للمعرفة. يقضي المبدأ الذي ينتج من ذلك بألا تُعتبر أي رؤية حقيقةً إلا في علاقتها بالمعرفة النظرية الكلية، وأن تُدرك لهذا السبب مفهوميًا بطريقة تصون صياغتُها الصلةَ بالمبادئ البنيوية والنزعات العملية التي تحكم النظرية. وتتمثل القاعدة المرتبطة بذلك في أنه يجب، بكل الإصرار والحزم في الأفكار والأهداف القطعية والتمسك بالمهمات التاريخية للعصر، أن يتميز أسلوب العرض بـ'كذا وكذا' أكثر منه بـ 'إما وإما'. إن إظهار عدم قابلية الفصل بين عوامل التخلف والتقدم، وبين الأوجه الباقية والمنحلّة والجيدة والسيئة في الحالات المحددة في الطبيعة والتاريخ البشري، هو مبدأ أساسي. وبدلًا من قبول استخدام الفكر الجدلي في التفريق والتجريد المحقَّقين في العلوم التخصصية أثناء الالتفات إلى الميتافيزيقا والدين لفهم الواقع الملموس، يسعى إلى ربط المفاهيم المكتسبة تحليليًا واحدها بالآخر، وإعادة تركيب الواقع من خلالها. تتطابق هذه وسواها من خصائص العقل الجدلي مع شكل الواقع المعقد الذي تتغير جميع تفاصيله باستمرار"[87].

هكذا رسم هوركهايمر صورة فكر في كُليات مركبة، غير منتهية بعد؛ وهي صورة لا تتميز عن مشروع أدورنو لفلسفة تأويلية من حيث جدية العلوم التخصصية، بقدر ما تميزت من خلال الطابع غير اللاهوتي كليًا والاجتماعي-التاريخي للواقع المعني بالفهم. وخلافًا للنظرة الميتافيزيقية، لم تهمل نظرية المجتمع نتائج البحث العلمي التخصصي. لكن ما كان حاسمًا أكثر من امتلاك أو عدم امتلاك المعرفة التخصصية الواسعة هو رؤى أساسية محددة في جوهر المجتمع. "يجب على الحدود التي يمكن المرء اليوم أن يرسمها بين الناس

(87) *Zeitschrift für Sozialforschung* (1935), pp. 350 f.

تبعًا لوزن المعرفة التي يمتلكونها، أن تركز على علامات محددة في سلوكهم توضح موقفهم من الصراعات الاجتماعية أكثر من تركيزها على مدى ثقافتهم الأكاديمية. فمن يملك الرؤى الحاسمة تؤول إليه، عند الضرورة، المعرفة في المجالات الأخرى [...]"[88].

نُشر في عام 1936 ما كان على الأرجح أهم مقالة لهوركهايمر: "الأنوية وحركة التحرر: في أنثروبولوجيا العصر البرجوازي". تُعتبر المقالة من بين أعماله القليلة التي لا تُعنى بنقد الاتجاهات الأخرى أو بنظرية المعرفة المادية وبرنامجها، بل كان مساهمة في نظرية مادية للمجتمع. ما الذي يمكن استخلاصه من هذا المثال حول منهج نظرية جدلية للمجتمع؟ وكم هي معقولة ومجدية؟

كانت المقالة جدليةً لو لم يبقَ تيارا الأنثروبولوجيا البرجوازية المتشائم والمتفائل - في نظر هوركهايمر النقدي - واحدهما يعارض الآخر، بل أظهرا تحول أحدهما إلى الآخر، وأنهما متطابقان في الأمور الحاسمة. "يشكل الرفض المطلق لكل غريزة أنوية الشرط البدهي، سواء في الإعلان الساخر بأن الطبيعة الإنسانية شريرة وخطرة ويجب أن يُكبح جماحها عبر جهاز سيطرة قوي ومن خلال النظرية الطهرانية الملائمة لها عن الفرد الخطّاء الذي ينبغي أن يكبت غرائزه بانضباط حديدي في خضوع مطلق لقانون الواجب، أو في البراءة المضادة بأن الطبيعة الإنسانية نقية ومنسجمة أصلًا، ولا تضطرب إلا من خلال شروط الحاضر الخانقة والفاسدة"[89].

اكتسب هذا التأكيد صلابة من طريق إظهار هوركهايمر الوظيفة الاجتماعية التي حققها أيضًا كلا التيارين الأنثروبولوجيين المختلفين بالقدْر نفسه عبر استنكارهما المشترك للأنوية. كلما أكد مبدأ المنافسة السائد في المجتمع البرجوازي نفسه، وجد كل أولئك المعنيين في هذا العالم أنفسهم مدفوعين إلى بناء الجوانب الأنوية والعدائية في طبيعتهم، لكي يحافظوا على أنفسهم في هذا الواقع القاسي. ولعل البغض الشديد للأنوية قادر على حماية أولئك الناجحين

(88) Max Horkheimer, "Zum Realismusstreit," *Zeitschrift für Sozialforschung* (1934), p. 49.

(89) *Zeitschrift für Sozialforschung* (1936), pp. 146 f.

من أي شكوك قد تثار بشأن نجاحهم في ما لو أراد أولئك الأقل نجاحًا منافستهم من دون قيود. "لا يؤثر اتهام الأنوية التي تعارضها الأنثروبولوجيا، إما من خلال ادعاء طبيعة إنسانية أكثر نبالة وإما بوسمها ببساطة بعلامة الوحشية، أساسًا على رغبة الأقوياء بالسلطة، ولا على وجود الرفاه إلى جانب البؤس، أو على الحفاظ على أشكال المجتمع الصامدة والظالمة. لقد وظفت الأخلاق الفلسفية، بعد انتصار البرجوازية، فطنتها أكثر فأكثر كي تكون حيادية في هذه النقطة. لا، بل كان على القسم الأكبر من البشرية أن يتعلم التحكم في مطلبه الخاص بالسعادة وعلى كبت رغبة العيش في المستوى السعيد نفسه الذي تعيشه تلك الأقلية من البشر التي أعجبها، إذا توخينا الدقة، أن يحكم وجودها هذا الحكم الأخلاقي المجدي [...]. يتأثر الفرد الذي يمثل حقيقة الطبقة العليا البرجوازية بالدعاية الأخلاقية التي تروجها طبقته إزاء بقية المجتمع، بطريقة لا يقدم إليه استغلالُ الناس والأشياء وحرية التصرف بهم السعادةَ، طبقًا لأيديولوجيته، بل يجب أن يظهر بوصفه خدمةً عامة وواجبًا اجتماعيًا وتحقيقًا لمسار حياة مرسومة مسبقًا، بحيث يعبّر عن قناعته به ويحوز على رضاه"[90].

إن إبراز القاسم المشترك الحاسم بين تيارَي التشاؤم والتفاؤل في الأنثروبولوجيا البرجوازية التي قايسَت البشرية مقارنة بكاريكاتور ما فعله الواقع حقيقة بها[91]، قاد هوركهايمر إلى افتراض نقيض المشترك الذي يجمع بين التيارَين الأنثروبولوجيين: "الرغبة اللاعقلانية، الرغبة الحرة التي لا تحتاج إلى مسوغات"[92]، و"التوق غير المشروط إلى السعادة"[93]، والأنوية الصالحة نوعًا ما. لم يخدم البغض الشديد للأنوية الحقيقية التوزيع غير المتساوي للاستغناء والتعويض؛ فهي تصح أيضًا على الأفضل المتضمن في الأنوية. "في النموذج البرجوازي، ليس الأمر كما لو أن السعادة التي تشع من اللحظات السارة على الحياة برمتها، وتلوّن بالبهاء كل قطعة فيها، لا تكون في حد ذاتها سعيدة. لا، بل تضعف القدرة على الفرح المباشر من خلال العظة المثالية عن

(90) Ibid., pp. 168, 170 f.

(91) Ibid., p. 167.

(92) Ibid., p. 171.

(93) Ibid., p. 170.

تعظيم الذات ونكرانها، وتقسو وتضيع كليًا في حالات كثيرة. إبقاء ضربات القدر وصراعات الضمير، أي التحرر النسبي من الآلام والمخاوف الخارجية والداخلية، ووضع حيادي معكرٌ غالبًا اعتادت النفس أن تتأرجح فيه بين النشاط والخمول، كل هذا قد يشكل مصدر سعادة واهمة. لقد أصابت فكرة كراهية السعادة 'المشتركة' من النجاح ما جعل المواطن العادي، إذا ما توفرت له، وضيعًا وليس حرًا، فظًا وليس ممتنًا، أحمق وليس ذكيًا".

فضلًا عن ذلك، لا يكاد المرء يعلم شيئًا من هوركهايمر حول كيف تطورت المذاهب الأنثروبولوجية الكارهة للأنوية، بالاعتماد على الجدل بين القدرات الإنسانية والبنى الاجتماعية، ومن أين جاءت جوانب الأنوية الأفضل الكامنة، وكيف نتج التغير فيها، وما هي الاتجاهات الاقتصادية والاجتماعية التي تقوم عليها وتدعمها. فلقد أشار حصرًا إلى قطيعة قام بها ممثلو مصالح تاريخية مشابهة مع "التسامح الكاثوليكي حيال أنماط ردات فعل إنسانية محددة تُضر بالشروع بنظام اقتصادي جديد"، وإلى التقدم الحقيقي لمبدأ التنافس الحر، وإلى غموض عملية حضارية كانت قد بدأت قبل عصر البرجوازية بكثير، حررت البشر وحولتهم، في الوقت نفسه، داخليًا إلى عبيد[94].

جاء في القسم الأخير من المقالة التي تناولت تغير الأنثروبولوجيا البرجوازية: "في الحقبة الراهنة أصبحت الأنوية مدمرة واقعيًا، سواء أنوية الجماهير المقيدة أو المتحولة، مثل مبدأ الاقتصاد الأنوي المتقادم الذي لم يُظهِر سوى جانبه الأكثر وحشية. وإذ يتم التغلب على هذا المبدأ، يمكن ذاك أن يصبح، بمعنًى جديد، منتجًا [...]. يجب ألا تُرفض الأخلاق المثالية التي تعوق النظرة، بل يتعين تحقيقها تاريخيًا، ولهذا السبب يجب ألا تُنحّى اليوم. أما كيف سيتشكل في واقع أكثر عقلانية قدرُ الأنوية المحرومة من حماية القانون عمومًا، قدر 'غريزة التدمير والموت'، فهو سؤال لا يوجد له جواب محدد. مع ذلك نقع حديثًا على بوادر تشير إلى حل في الاتجاه نفسه. لا يخفي بعض المفكرين، على العكس من الروح المسيطر، الأنوية ولا يُصغر من شأنها أو يتهمها، بل يتبناها بالذات. فهي لا تبدو رواية خيالية بائسة لدى بعض الاقتصاديين ولدى

(94) Ibid., p. 172.

جيرمي بنثام، بل تبدو متعةً، مقياسًا أعظميًا للسعادة يتضمن في داخله إشباع الغرائز الوحشية. لم يسبغ هؤلاء المفكرون الطابع المثالي على أي غريزة أعطيت، بل رفضوا لَيّ الغرائز التي سببتها الأيديولوجيا الرسمية [...]. من خلال وجودهم الخاص، بدا أن علماء النفس هؤلاء[95] يشيرون إلى أن التحرر من الأخلاق الرواقية بعواقبها العدمية قد يؤدي إلى تحول إنساني بالمعنى المعكوس، مثل الاستبطان. هذه العملية التي تلغي التحول لا ترمي الإنسان إلى المرحلة النفسية السابقة، كما لو أن العملية الأولى تلك لم تحصل، بل ترتقي به إلى شكل جديد وأعلى من الوجود. لم يسهم أولئك المفكرون كثيرًا في جعل هذا الوجود واقعًا عامًا. هذه مهمة الأشخاص التاريخيين خصوصًا، الذين توحدت فيهم النظرية والممارسة التاريخية. بالنسبة إليهم، تتراجع إواليات علم النفس البرجوازي من حيث هي سلطات حاسمة في حياتهم، ومن حيث هي موضوع نظري، وراء رسالتهم التاريخية للعالم [...]، ذلك لأن الأخلاق الكئيبة القاتمة لحقبة متداعية ترفض السعادة، لا تملك سلطة عليهم"[96].

كانت هذه مرافعة تسعى إلى أن تُطوِّر جدليًا من الأخلاق المثالية ومن الرغبات الأنوية التي تكرهها، ومن التعارض بين الأيديولوجيا والواقع في المجتمع البرجوازي، عناصرَ أنوية [لا يمكن تطويعها] غير منحنية، أنوية تتطابق مع أخلاق مثالية لا تسمو بالواقع بل تقبض عليه، وترتبط بإشارة مادية ملزمة لا يمكن إنجازها إلا عبر تقدم المجتمع نفسه، وبإشارة أخرى إلى أن منظّرين وممثلين تقدميين للبروليتاريا هم في الطريق نحو ذلك سلفًا. لم يكن هذا دليلًا على سخاء الجدل المادي، لكنه كان دليلًا على القيمة الاستدلالية للمنهج الجدلي عمومًا الذي أسبغ عليه هوركهايمر مزية مادية بربطه التغير في معنى المفاهيم بالتغير في الوظيفة الاجتماعية لهذه المفاهيم. فالتطور الجدلي الذي افترض هوركهايمر وجوده كان يقوم على افتراض أن هناك عملية فعالة في شتى الميادين، تثبط أو تطلق القوى التي كانت تسعى لبلوغ أفضل حالة ممكنة للبشر. لم يختلف هذا في شيء تقريبًا عن التحديد المسبق للجدل المثالي الهيغلي.

---

(95) أتباع مبدأ اللذة: أريستيبوس القوريني، وأبيقور، وماندفيل، وهلفيتيوس، ودو ساد، ونيتشه.

(96) Ibid., pp. 229 ff.

ما كان قد قاله هوركهايمر، قاله استنادًا إلى معرفته بكتّاب الحقبة البرجوازية السوداويين الذين كان يُجِلّهم كثيرًا، وبمعزل تقريبًا عن الأبحاث العلمية التخصصية. ومثل مساهمته العامة في **دراسات في السلطة والأسرة** ودراسته المنشورة في عام 1938 حول تحول وظيفة الشك - **مونتاين ووظيفة الريبية** - أظهر هذا المثال أيضًا مدى الثقة التي وضعها في رؤيته الجدلية لما يقع خلف الوقائع من غير أن يهدر كثيرًا من الوقت في البحث في الوقائع ذاتها.

ارتبطت في مقالتين طويلتين نُشِرتا في عام 1937 - "الهجوم الأخير على الميتافيزيقا" و"النظرية التقليدية والنظرية النقدية" - دراسات هوركهايمر الأيديولوجية النقدية ذات التوجّه النفسي-الاجتماعي في موضوع تحول وظيفة الأفكار والمواقف بالدراسات العلمية النظرية عن الموقع الأنثروبولوجي-الاجتماعي لنظريته الجدلية. كانت مقالته "الهجوم الأخير على الميتافيزيقا" بمثابة الهجوم الكبير للمعهد على النزعة الوضعية. كتب هوركهايمر إلى غروسمان في تشرين الثاني/نوفمبر 1936: "في المعهد نفسه، كان لنا، كما في الصيف المنصرم، بضعة نقاشات بعد الظهيرة أو في الأمسيات، تناولنا فيها مشكلات اقتصادية تارة، ومسائل فلسفية تارة أخرى. في الأخيرة استحوذت ما تسمى التجريبية المنطقية على الاهتمام. وهي، كما هو معروف، التيار الفلسفي المحبب في الوقت الحاضر في الدوائر الأكاديمية [...]، ولا يمكن المرء أن يبالغ في تصوّراته حول انتصارات هذا الاتجاه في الأوساط العلمية، وخصوصًا في العالم الأنكلو-أميركي"[97].

لم يكن نقد هوركهايمر شديدًا. فقد وصف الوضعيين بأنهم الممثلون المعاصرون للتيار الاسمي الذي تحولت وظيفته من وظيفة تقدمية إلى رجعية. وقال إن سمو العلوم التخصصية بمُثلها في الموضوعية والدقة قد خان العناصر التقدمية في الليبرالية من خلال رفض الإحالة على الذات العارفة وعبر القوة التركيبية للعقل التي تهدف إلى السيطرة الكاملة على الطبيعة والمجتمع، ويعني الصمتَ على البؤس الذي أتى به إلى العالم الإرث الشمولي للعناصر الرجعية في الليبرالية. بيّن هوركهايمر في روحية النقد العنيف في **الفجر** المعنى الذي

(97) رسالة من هوركهايمر إلى غروسمان، 27 تشرين الثاني/نوفمبر 1936.

حصلت عليه الجمل المركزية في نظرية المعرفة الوضعية، عندما ينظر المرء إلى أهميتها في الممارسة الحياتية. "'فَهْمُ أننا نملك في الفكر وسيلة نعرف بواسطتها عن العالم أكثر مما لاحظنا [...] يبدو لنا غامضًا إلى حد بعيد'، كما ذُكِر في واحد من منشورات حلقة فيينا[98]. يتبدى الاهتمام بهذا المبدأ خصوصًا في عالم تعكس واجهته المزدانة في جميع أجزائها الوحدةَ والنظام، في حين يقيم في داخلها الرعب. الحكام المستبدون وحكام المناطق المستعمَرة القساة وآمرو السجون الساديون تمنوا جميعهم زوارًا من هذا النوع من العقول. لكن إذا اتخذ العلم برمته طابعًا كهذا، يفقد الفكر عمومًا عناده وإصراره على النفاذ إلى غابة من الملاحظات وعلى أن 'يعرف عن العالم أكثر' مما تعرفه الصحافة اليومية الحسنة النية، وبهذا يشاركون على نحو منفعل في الظلم العام"[99]. وعلى الرغم من أن الاحتجاج، ضد الدول الشمولية مثلًا، لم يكن مستبعدًا من الوضعيين، فإنه كان يُعامَل بحزم بوصفه تقويمًا خارج حدود العقل واللاعقل. وبذلك كان الوضعيون يخصصون القيمة الأدبية والتأثير الكاشف للفكر والعقل لطرق تخدم في ضبط العمليات التي تحكمها القوانين الطبيعية. إلا أنهم آثروا الابتعاد عن توضيح ما هو عقلي للمجتمع وإنجازه.

كانت هناك حجة أخرى مهمة لم يستعملها هوركهايمر، وهي أن الفكر الحسابي الذي أسبغ عليه الوضعيون الإطلاقية لم يكن خاليًا من القيمة على الإطلاق، بل انبثق أيضًا من المصلحة في السيطرة على الطبيعة، مثلما انبثق الفكر النظري-الاجتماعي الذي دافع عنه هوركهايمر من المصلحة بمجتمع عقلاني. هكذا أثرت، بالتالي، حجة الوضعيين الأساسية لتقييد الفكر، على الفكر الذي يمثلونه هم أيضًا. لهذا كان مفهوم السيطرة على الطبيعة بالنسبة إلى هوركهايمر بدهيًا جدًا، بحيث أراد أن يراه - أيًا كان فهمه له - متسعًا حتى يشمل الطبيعة الداخلية أيضًا. لكنه استعمل بدلًا من ذلك تصنيفًا يستند إلى فكرة صعود الطبقات وانهيارها - "تتأسس الميتافيزيقا الرومانسية الجديدة والنزعة الوضعية الجذرية في الحالة الحزينة لقسم كبير من البرجوازية التي تخلت كليًا عن الطمأنينة والثقة لإحداث تحسُّن في العلاقات من خلال كفاءة

(98) Hans Hahn, *Logik, Mathematik und Naturerkennen* (Wien, 1933), p. 9.

(99) *Zeitschrift für Sozialforschung* (1937), p. 21.

خاصة، وتخضع قسرًا بسبب الخوف من تغيّر حاسم في نظام المجتمع لسيطرة مجموعاته الأقوى رأسماليًا"[100] - إلى نوع من نظير أنثروبولوجي-اجتماعي للفقرة الشهيرة في كتاب فيخته **المدخل الأول إلى نظرية العلم** الذي يميّز بين نوعين أساسيين من الناس أو بالأحرى بين مرحلتين من الإنسانية. "ينتمي التفكير الحسابي، فكر 'العقل'، إلى نموذج من البشر لا يزال قاصرًا نسبيًا. وهو، على الرغم من كل طبيعته النشطة، سلبي في الأمور الحاسمة. كما لا يزال لوظيفتي وضع النظم والتنظيم اللتين تغدوان، في كل الأحوال، امتياز أصحاب النفوذ، طابع التوافق والدهاء أكثر بكثير من العقل في هذا العالم المقسم. ولأن تطوير تلقائية أعلى يتوقف على تكوين ذات جماعية، لذلك لا يمكن الفرد بكل بساطة أن يؤسسها بقرار منه. أحد الطرق التي تقود إلى هناك [...] هو ألا يبقى الفرد عالقًا بتسجيل الوقائع والتكهن بها، وألا يتشبث بالعملية الحسابية فحسب، بل أن يتعلم النظر إلى ما وراء الوقائع والتمييز بين السطوح والجوهر (طبعًا من غير إهمال السطوح)، وتشكيل المفاهيم التي ليست ببساطة تصنيفات للوقائع وتركيب تجربته الكلية باستمرار تبعًا لأهداف محددة من دون أن يزيفها، أي باختصار أن يتعلم التفكير جدليًا"[101]. "من يعمل باستقلالية يرَ الوحدة والتبعية، حيث يبدو للوعي الخاضع أن كل شيء مختلف، والعكس بالعكس"[102].

في العدد الثاني لعام 1937 ظهرت المقالة التي أصبحت في ما بعد الأشهر بسبب عنوانها المنقسم وبنائها وطابعها العام، وهي "النظرية التقليدية والنظرية النقدية" (في عدد المجلة الثالث من العام نفسه أُكملت المقالة بمساهمتي هوركهايمر وماركوزه حول "الفلسفة والنظرية النقدية"). "أنهيت مقالةً عن مفهوم النظرية، وهي في الحقيقة مقالة تذكارية أيضًا"، هذا ما كتبه هوركهايمر في تموز/ يوليو 1937 بعد إنهائه مقالة "النظرية التقليدية والنظرية النقدية" إلى هنريك غروسمان الذي اقترح في العام الذي سبق، بمناسبة الذكرى السبعين لظهور المجلد الأول من **رأس المال** لكارل ماركس، إصدار

---

(100) Ibid., p. 11.

(101) Ibid., pp. 46 f.

(102) Ibid., p. 31.

عدد خاص عن ماركس أو عدد اقتصادي. استطاع هوركهايمر أن يرى في مساهمته مقالةً تذكاريةً تحتفي بـ **رأس المال،** لأنه قدم فيها، من غير أن يذكر المناسبة الاحتفالية، المنطق الجدلي بوضوح بوصفه البنية المنطقية لنقد الاقتصاد السياسي، حيث لا يؤشر التوصيف الجديد للمادية النظرية- الاجتماعية من حيث هي "نظرية نقدية" أو بالأحرى "نظرية نقدية للمجتمع" إلا بدرجة ضئيلة إلى القرب من الماركسية، مقارنة بالتوصيف القديم "النظرية المادية". في هذه المقالة التي ارتبط فيها ثانية، على نحو رائع، "يأس العقل" الهيغلي الشاب (هبرماس) مع حدة العقل الماركسية النوعية في فكر يتدخل في العالم على نحو نشط، لكن اتضح أيضًا، على نحو كبير، الطابع المباشر، الوجودي تقريبًا، للموقف النقدي المقابل، عندما بدأ بعد تقديم "النظرية التقليدية" عرض "النظرية النقدية" بالكلمات: "ثمة اليوم سلوك إنساني يكون المجتمع نفسه موضوعه". وورد في الملاحظة على هذه الجملة: "هذا السلوك يوصف في ما يلي بأنه السلوك النقدي [...]". ثم يواصل هوركهايمر بعدئذ في النص الرئيسي: "إنه لا يتوجّه حصرًا إلى إلغاء أي أحوال سيئة، فهذه تبدو له أكثر من ضرورية بارتباطها مع التأسيس الكامل لبناء المجتمع"[103].

لم تحاول حلقة هوركهايمر قط أن تنقذ العلوم التخصصية من قبضة النزعة الوضعية ومن المؤسسة العلمية البرجوازية. وبدلًا من ذلك لقيت العلوم التخصصية مع النظرية العلمية الوضعية ازدراءً متزايدًا. تيسر ذلك لأن التحليل النفسي الفرويدي، كما قدم نفسه في مرحلته البطولية، لم يصنف بوصفه علمًا تخصصيًا. كان التحليل النفسي لفرويد الذي يعود إليه الفضل في كثير من الأفكار المثمرة لفروم وهوركهايمر وأدورنو أيضًا، أقرب إلى أن يكون نوعًا من استمرارية تقليد كتّاب الحقبة البرجوازية الظلاميين ذوي التوجه النفسي أو الأنثروبولوجي. لقد أسهم جوهريًا في منح انطباع لهوركهايمر ولأهم مساعديه من المنظرين العاملين معه بأنهم يستطيعون الوصول، وبصورة أفضل، إلى معارف أساسية بالقفز فوق العلوم التخصصية. على هذا النحو، استطاع فروم الذي لا يعتبر نفسه على الإطلاق فيلسوفًا متخصصًا أن يكتب، من دون أن

(103) *Zeitschrift für Sozialforschung* (1937), p. 261.

يقلل من شأن نفسه، إلى هوركهايمر في آذار/ مارس 1938: "قرأت للتو جملة جميلة أريد أن أنقلها إليكم، مع أنكم قد تعرفونها: 'من يشغل نفسه بالعلوم التخصصية، ولا يمارس أي فلسفة، فإنه يشبه خاطبي بنيلوبي الذين تعاطوا مع الإماء لأنهم لم يستطيعوا خطب ودّ سيداتهن'". أصبحت العلاقة بالعلوم التخصصية وبالبحث التجريبي إبان أعوام الثلاثينيات أكثر خداعًا نوعًا ما، من دون أن يتغير الكثير في المشهد الكلي لأنشطة المعهد.

بالنسبة إلى أدورنو، كان الوضع منذ البداية مختلفًا عما هو بالنسبة إلى هوركهايمر. لم ينصب اهتمامه المركزي على نظرية المجتمع، بل على تقديم حساب حول الفن وإمكانه في المجتمع الحاضر[104]. هذا الاهتمام جعل الطريقة التي تلتف على التحليل التقني للأعمال الفنية باستخدام تصورات محددة من فلسفة التاريخ، جعلها تبدو طريقة مجدية. في قلب هذه التصورات كانت، منذ كتاب أدورنو حول كيركيغارد، فكرة تجلي الطبيعة من خلال تصالح الروح معها قائمة إلى حد بعيد. رمزت هذه الفكرة إلى القناعة بأن الطبيعة الغامضة المكتفية بذاتها والروح الغامض المكتفي بذاته لا يحتاجان إلى الإنقاذ من خارجهما، وأن التسامي كان ملازمًا للمحايثة. أما كيف كان يمكن تفسير الاجتماعي والتاريخي، فهذا بقي بلا نقاش. اكتفى أدورنو بأن توجد في الموسيقى عمليات تلائم تصوره عن الخلاص. وكما جاء في [مقالة] "هوامش حول مالر" المنشورة في عام 1936 في مجلة فيينا للموسيقى المسماة 23، فإن "نقده [أي مالر] تشيؤ الموسيقى ليس من النوع الذي ينسى واقعيته، ولا هو ذاهب إلى الميدان متنكرًا موسيقيًا بزي دون كيشوت. فهو كان مهتمًا بصرامة بالموسيقى المشيّأة، بهذه الصرامة التي تنفجر عبرها إلى شظايا. حطامها وحطام المشاعر المرافقة هي مادته، يتربع فوقها العقل السيمفوني بشكل منهجي قوي". أما كيف يعيد العقل، بوصفه مستقلًا وذاتيًا، إنتاج علاقة المحايثة باستمرار، ويتحول إلى عقل جيد وأن يريد هذا الجيد السيطرة بحيث يتطور الروح والطبيعة بحرية مكملًا أحدهما الآخر، فهذا ما لم يحاول تقديمه في صور قط. كان المفصل الوحيد هو غموض الظواهر الذي يخفي وراءه الغروب

---

(104) يُقارن:
Theodor W. Adorno, "Offener Brief an Max Horkheimer," *Die Zeit* (12 February 1965).

والشروق، النهاية والبداية، الانهيار والولادة من جديد. "يترك مالر (ما هو قائم) في مكانه، لكنه يحرقه من الداخل؛ وتقف الآن حواجز الشكل بوصفها مجازًا، ليس لما كان، لكن لما سيأتي [...] في موسيقى مالر [...] قد يكون كلاهما موجودًا؛ بحيث تعني إيماءة العناد الشيطاني الأخيرة مجازًا متكسرًا امتد إلى ما وراء حدود المصالحة؛ وبحيث يشع لهيب الدمار الذي يتأجج في القرب بوصفه نور الخلاص البعيد. على هذا النحو، تكون ندف الثلج الناعمة في نهاية 'أنشودة الأرض' غامضة. فكما يمكن أن يقضي الشخص الوحيد فيها من البرد ويذوب في رعب الوجود المحض، كذلك يمكن أن تكون البياضَ المبارك للنشوة وثلجَ البقية الأخيرة الصالحة من الكينونة التي تربط من أُنقِذ بما هو كائن، وتحثّ من تبقّى مثل نجمة الأمل ساحبة إياهم نحو النافذة"[105]. كان من المنطقي، بالنظر إلى مثل هذه الفلسفة المجازية، أن يرى أدورنو نفسه مفكرًا ملهمًا لاهوتيًا[106].

أعطى أدورنو الدفعة الضرورية لهذا التصور، كي يُقْدِم على كل شيء "مفجرًا" و"منقذًا". وفي الرسائل التي كتبها إلى هوركهايمر حتى انتقاله إلى نيويورك، بدت تحولاته المحايثة إلى حد بعيد أشبه بلعبة رأس الحصان. فهو بعمله حول هوسرل - كما أكد مرارًا وتكرارًا - يتابع برنامج نسْف المثالية من الداخل. اقترح في أيار/ مايو 1936 أن يكتب هوركهايمر بحثًا مطولًا "عن الفلسفة النازية"، "بطريقة جدلية قصوى، عليها أن تنتج الانحلال المحايث لهذا النوع من الفلسفة، هذا الدوار المتقدم على نحو مهول، بمعنى أنه ما عاد يكفي للتغطية على الحقيقة". عرض على هوركهايمر بعض الاقتراحات للمقالة حول الوضعية التي نُشرت بعدئذ في **مجلة الأبحاث الاجتماعية** في عام 1937 تحت عنوان "الهجوم الأخير على الميتافيزيقا"، ختمها بالملاحظة: "بودّي أن أضع التشديد الأكبر على التفنيد المحايث للفقرتين المشار إليهما: منطق طاولة الروليت وتجربة تفتقر إلى فاعل، أي إلى إنسان؛ لأنهما معًا مع تحطيم التصوّر الكلي، هاتان هما الفقرتان القاتلتان [!] حقيقةً". أخبر هوركهايمر في عام

(105) يُنظر مجلة 23، في 8 حزيران/ يونيو 1936.

(106) يُقارن أعلاه ص 139 في هذا الكتاب، وأيضًا على سبيل المثال رسالة أدورنو إلى كراكاور، 14 آذار/ مارس 1933؛ رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 4 أيلول/ سبتمبر 1941.

1936 أنه أشار على زون ريتل أن "يضفي الطابع الجدلي على كلاغز، بحيث يجب ألا يظهر كرجعي رومانسي فحسب، وهو أمر واضح، بل أن يبدو أيضًا بوصفه ناقدًا جذريًا لأيديولوجيا العمل البرجوازي". في آذار/ مارس 1937 لم يكن له إلا اعتراض فعلي وحيد على فقرة في مخطوطة مقالة هوركهايمر عن النزعة الوضعية، أي إلى ما جرى الحديث عنه من "استحالة التجاوز المحايث للوضعية المنطقية"، وهو ما يُضعِف تكتيكيًا جدًا، ويُعارض عناصر النقد المحايث التي تتضمنها المقالة؛ وهو اعتراض دفع، في أي حال، هوركهايمر إلى حذف هذه الجملة. في نيسان/ أبريل 1937، نصح بـ"الحذر الشديد من الحالة الصعبة جدًا لكنوت هامسون (Knut Hamsun)" التي أراد لوفنتال أن يكتب مقالةً عنها؛ إذ من "اليسير جدًا إثبات أن هامسون فاشي، لكن من الصعوبة بمكان جعل هذه الرؤية مثمرة، والأصعب من ذلك كله إنقاذ هامسون من نفسه"، وهذه هي المهمة الرئيسية بالتأكيد (تحذير لم يمنعه من أن يكتب إلى لوفنتال مقالة هامسون "الجدلية"، وحاشيةً "جدلية" حول جان سيبليوس. في تشرين الأول/ أكتوبر 1937 دافع يائسًا، لكن من دون جدوى، عن مخطوطه لمقالة عن هوسرل ضد اعتراض هوركهايمر، كان قد فكر في نشره في **مجلة الأبحاث الاجتماعية**، إلا أنه بذلك لم ينجز تفنيدًا محايثًا للمثالية في أكثر صيغها المنطقية؛ فالتفنيد لم يكن محايثًا، والفلسفة الهوسرلية لم تكن الشكل الأكثر منطقية للمثالية، فضلًا عن أن العلاقة بين فلسفة هوسرل والوضع التاريخي الحالي غير واضحة لغير المطلعين.

كان الديالكتيك يعني إذًا لأدورنو - كما قدمه هيغل في كتاب **المنطق** - الدخول في قوة الخصم وتحريك موقفه، في حركة ذاتية، نحو النقيض عبر شحذ التباينات المتعددة بين الأشياء المختلفة. وتُعد من بين أكثر الجمل إلهامًا لأدورنو الصياغة التي أوردها ماركس، الهيغلي اليساري، في مقدمة كتابه **مساهمة في نقد فلسفة الحق عند هيغل**، وهي أن على المرء أن "يجبر هذه العلاقات المتحجرة على الرقص، بأن يغني لها لحنها الخاص".

وَحّدَ القرب من الجدل الهيغلي أدورنو وهوركهايمر، حتى وإن تصدرت، بالنسبة إلى كليهما، الجوانب المختلفة لهذا الجدل وتطبيقاته المفيدة. كان الجدل يعني في المقام الأول، بالنسبة إلى هوركهايمر، فكرًا في شموليات

نسبية، وهو يخدم نظرية العلم النقدية بوصفها دليلًا على وجود بديل عن محدودية أفق العلوم التخصصية والميتافيزيقا. أما بالنسبة إلى أدورنو، فكان الجدل يعني إمكان نزع الأسطرة ونزع السحر عن طيف واسع من ظواهر الوقت الحاضر؛ وهذا ما جمع بينه وبين بلوخ وبنيامين. كانت مقولة التعالي، بالنسبة إليهم، ذات صبغة لاهوتية، بمعنى نسف علاقة المحايثة وإنقاذ عناصر الانفجار المتضمنة فيها. كما جمعت بينه وبينهما أيضًا القناعة بأن الفلسفة تنتظر من الفن، وبالتحديد من الفن الحديث، أكثر مما تنتظر من العلوم التخصصية. التقى الأربعة في المصلحة في تجربة وعقلانية غير محدودتين؛ كما التقوا، فضلًا عن ذلك، في القناعة بأن هذا المطلب يمكن أن تحققه وحدها نظرية مادية وتاريخية متحررة من سلسلة من التقييدات، وفي القناعة بأن الأمر يتعلق بصراع عميق على أوسع الجبهات.

وضع بلوخ في كتابه **إرث هذا العصر** الذي نشر في عام 1935 في زوريخ بانوراما شاملة لميدان المعركة (ذَكَر فيه مرة "هوركهايمر الماركسي"، ومرات عديدة فيزنغروند، وذكر بإسهاب بنيامين، الفيلسوف صاحب التفكير السريالي). كانت الفكرة المركزية للكتاب: ضد الاستغلال الفاشي للفرحة من جهة، والاستنكار الواضح لها باعتبار أن ما كان يهم هو الفرحة الأساسية. "[...] ليس في الانتفاضة الثورية لطبقة أو في فترة ازدهارها فحسب، بل أيضًا في انهيارها وفي المضامين المختلفة التي يطلقها الانهيار، يمكن أن يوجد 'إرث' مفيد جدليًا. منظورًا إليه في ذاته، حالًا، لا يخدم وميض الفاشية أو انتصارها المزيف سوى الرأسمال الكبير الذي يستخدم ذلك الوميض ليشتت تكتل الطبقات البائسة أو يدفعها إلى الظلام. لكن يتبدى على نحو غير مباشر [...] في النشوة اللاعقلانية بخار يتصاعد من القيعان التي لا تكون مفيدة للرأسمالية وحدها. بعيدًا عن الخسّة والوحشية الصامتة، وبعيدًا عن الغباء والخداع المخيف، كما تظهر في كل لحظة وفي كل كلمة في ألمانيا الرعب، هناك شيء من تعارض رومانسي أقدم مع الرأسمالية، يفتقد شيئًا ما في الحياة الراهنة ويتوق إلى حياة أخرى غامضة. يمتلك الموقف الهش للمزارعين والموظفين هنا منعكسه المختلف؛ وهو ليس مجرد منعكس التخلف، بل هو أحيانًا منعكس تباين زمني حقيقي، أي تحديدًا بقايا اقتصادية-أيديولوجية من أزمنة سابقة. واليوم تخدم

التعارضات في هذا التباين الزماني حصريًا ردة الفعل؛ لكن ثمة مشكلة ماركسية خاصة تكمن في الوقت نفسه في هذا الاستغلال الهادئ تقريبًا. فقد عُزلت علاقة 'اللاعقل' في داخل 'العقل' الرأسمالي القاصر بتجرد مبالغ فيه، بدلًا من أن تُدرس في كل حالة ويوضع التعارض الخاص بهذه العلاقة إذا اقتضى الأمر بوضوح"(107).

كانت القواسم المشتركة بين بلوخ وبنيامين كبيرة، وكانت مقولات مثل الحلم والأسطورة، المتأخر والمبكر، الصور العتيقة والجدلية، مركزية عند الاثنين. كذلك رأى بنيامين أزمنة الانهيار إيجابية(108). وفي نظره أيضًا أن ما كان مطلوبًا في الكفاح الثوري ضد الفاشية كان نوعًا من سلطة "انبثقت من صميم التاريخ، من موقع لا يقل عمقًا عن سلطة الفاشيين"(109). لقد رأى في السريالية خطوة مهمة على الطريق نحو "اجتذاب قوى النشوة للثورة"(110). كما أكد ضرورة الذهاب إلى ما وراء "الحدس السريالي غير الجدلي لجوهر النشوة". جاء في الملاحظات الأولى على كتاب **الممرات**: "وبينما يبقي أراغون (Louis Aragon) في عوالم الحلم، يكون الوضع هنا وضع اليقظة. وفي حين يبقى عند أراغون عنصر انطباعي - 'الميثولوجيا' - [...] يتعلق الأمر هنا بانحلال 'الميثولوجيا' في فضاء التاريخ"(111). إلا أن النبرة والمنظور الكلي كانا لدى بلوخ وبنيامين مختلفين جدًا: "فرح ومرح عند بلوخ، ومرارة عند بنيامين. وثق بلوخ بطابع 'الحياة' التمردي الذي لا يمكن تحطيمه، والذي لم يتحقق بعد في أي زمن"(112)، بينما رصد بنيامين يائسًا ما سمّاه كراكاور "اللعبة الخطرة" للعملية التاريخية، والتي كان يجب فيها أن يُنقذ أكثر فأكثر بقدرات تنقص باستمرار.

في عام 1937 طلب أدورنو من بلوخ، بعد الاتفاق مع هوركهايمر، أن يرسل إليه عينة غير ملزمة من مخطوطة كتابه عن مشكلة المادية. ما كان

---

(107) Ernest Bloch, *Erbschaft dieser Zeit*, p. 12.

(108) Benjamin, *Passagenwerk*, p. 1032.

(109) Walter Benjamin & Rolf Tiedemann, *Versuche über Brecht*, p. 170.

(110) Walter Benjamin, "Der Surrealismus," in: *Gesammelte Schriften*, vol. 2, p. 307.

(111) Benjamin, *Passagenwerk*, p. 1014.

(112) Bloch, *Erbschaft dieser*, p. 121.

يدور في ذهنيهما، هو وهوركهايمر، نوع من المبادلة: طبع نص لبلوخ في المجلة مقابل ذكر النظرية المادية لحلقة هوركهايمر في كتاب بلوخ. بعد قراءة أدورنو للمخطوطة تأكدت مخاوفه، وهي مخاوف لا تكترث كثيرًا بـ "النزعة اليوتوبية" لبلوخ أو بـ "الإخلاص لخطه"، بل تهتم بـ "نوع من لامسؤولية الارتجال الفلسفي"[113]. لم ينشر المعهد لبلوخ شيئًا على الإطلاق، ولم يسمح بمناقشة أي كتاب له في المجلة، لكنه قدم له، على سبيل المساعدة، في أوائل الأربعينيات ولأمد طويل منحة مقدارها خمسون دولارًا شهريًا[114].

ما لم يتوقعه أدورنو من بلوخ وكراكاور - كتاب هذا الأخير **جاك أوفنباخ وباريس زمانه** الذي كتبه في المنفى الفرنسي، وجّه له أدورنو في رسالة إلى مرشده السابق نقدًا ساحقًا، بوصفه عملًا يهدف إلى تحقيق نجاح في مبيعاته - انتظره من بنيامين: فلسفة جسّدت الانبثاق من إرباك حلم المحايثة البرجوازية، وذلك بأن تكون، في الوقت عينه، واقعية وشفافة، وتربط كثافة التجربة بقوة الفكر. مارس أدورنو في الثلاثينيات دور سلطة رقابة حاولت أن تلزم بنيامين بمواجهة اللاهوت بالمادية التاريخية، مواجهة كان هوركهايمر - برأي أدورنو - يتفهمها أكثر فأكثر، ويُكِنّ لها التقدير.

دلّل هوركهايمر، كما فعل مرةً عند انضمام فروم إلى المعهد، على الحيطة والانفتاح، عندما أقرّ بأن مشروع بنيامين يمثل غنًى للنظرية المادية، وحثّ المعهد على تمويله، حتى وإن فعل هذا بطريقة مترددة لا يمكن توقعها، فهي سمة تطبع مديري المعهد (أن تتبدّى هذه الطريقة في رسائل بنيامين إلى شولم، إنما يعود بجزء جيد منه إلى شخصية بنيامين الصعبة الذي كان لا يزال مقتنعًا بأن العالم يجب أن يعتني به ويرعاه، كي يستطيع تكريس نفسه لعمله الفكري). في شخص بنيامين كان هوركهايمر يدعم واحدًا برهن، عندما أصبح مشروع الجدل واقعًا، أنه أشبه ما يكون بنجمه المرشد.

---

(113) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 22 أيلول/ سبتمبر 1937.

(114) لتوضيح حكاية غاسل الأواني، يُقارن:

Ernst Bloch, *Briefe*, p. 443 ff.

بعد أن أصبح بنيامين عضوًا غير ثابت في هيئة تحرير **مجلة الأبحاث الاجتماعية**، حصل على 500 فرنك شهريًا، وهو مبلغٌ تحت الحد الأدنى من كلفة المعيشة، ولا يغنيه عن مساعدات متنوعة من زوجته السابقة، ومن أدورنو وعمته وصديقة لعائلة فيزنغروند، ومن غريتل كاربلوس، صديقة مشتركة له ولأدورنو كانت لا تزال أحد مالكي معمل للجلود في برلين، ومن بريخت(115)، كان بنيامين يوجّه كل آماله نحو المعهد ليدفع له راتبًا يمكّنه من العيش عيشة لائقة، فيدفع له المعهد لكي يُنجز مشروع [كتاب] **الممرات**. عاد بنيامين إلى العمل على هذا المشروع من جديد في عام 1934؛ وقد شجّعه جزئيًا على ذلك تكليفه بكتابة مقالة عن محافظ باريس هاوسمان، لكن هذه المقالة لم تنجز، لأنه وجد ملاذًا في كتاب **الممرات** من دون أن يكون مكلفًا بمهمات قصيرة الأمد تعود عليه بتعويض مادي.

تعود أول شهادة لنشاط أدورنو بوصفه "مشرفًا" على بنيامين إلى هذه الفترة. وقد أثارت مساهمة بنيامين في **مجلة الأبحاث الاجتماعية** حول الموقع الاجتماعي للكاتب الفرنسي - إضافة إلى مراجعته كتاب ماكس كومرل حول جان بول - استياء أدورنو إلى حد أنه توقف لمدة طويلة عن الكتابة إلى بنيامين. وكان سبب استيائه واضحًا: وصف بنيامين لدور المثقف المهتم بالثورة. كان أدورنو قد أكد في مساهمة بعنوان "عن واقع الموسيقى الاجتماعي"، نُشرت في العدد الأول من المجلة، أن الموسيقى تحقق وظيفتها الاجتماعية على أحسن وجه حينما تمضي قدمًا في التطور المحايث لمشاكلها، من غير أن تسمّر نظرها خارجًا نحو المجتمع، أو تسمح لوعي البروليتاريا الذي شوّهته سلطة الطبقة أن يعوقها. هكذا تمسك بما تعلمه ذات يوم من بنيامين نفسه الذي تحدث أيضًا في كتاب **شارع ذو اتجاه واحد** الذي نشره في عام 1928، وأهداه إلى آسيا لاسيس، الشيوعية والمخرجة التي كانت تعمل من وقت إلى آخر مع الفريق المسرحي

---

(115) يُقارن:

Tiedemann, in: Benjamin, *Passagenwerk*, p. 1097; Scholem, in: Walter Benjamin & Gershom Scholem, *Briefwechsel*, p. 301, note 1.

الثوري النقابي ذي التوجهات الدعائية السياسية، تحدث عن راهنية "ما اكتشفه مالارميه على نحو أحادي في حجرته المحكمة الإقفال، بانسجام قائم مسبقًا مع كل الأحداث المهمة هذه الأيام في الاقتصاد والتكنولوجيا والحياة العامة"[116].
ثم زعم بنيامين في ختام مقالته بعكس ما سبق. لم يكن لأعمال الطليعة، الأكثر تقدمًا وجرأة، في مختلف الفنون من يشاهدها إلا جمهور البرجوازية الكبيرة. لكن المهم - وهذا ما كان يجب أن يأخذه السرياليون على محمل الجد - هو أن يوضع المثقف بوصفه تقنيًا في مكانه الملائم، عبر وضع التقنية التي امتلكها في خدمة البروليتاريا؛ ذلك أن البروليتاريا وحدها كانت تعتمد على الحالة الأكثر تقدمًا للتقانة. بدا لأدورنو، في رؤًى كهذه، تأثير بريخت، تأثير هذا "المتوحش" (كما وصفه أدورنو في رسالة إلى هوركهايمر بعد أن قرأ مخطوطة بنيامين "العمل الفني في عصر إعادة إنتاجه التقني"). أمضى بنيامين أشهر صيف 1934 مع بريخت في منفاه الدنماركي في سفندبورغ، كما أقام معه مرارًا في السنوات اللاحقة لفترات طويلة.

فرح أدورنو عندما سمع، في أثناء إقامته في أكسفورد، أن بنيامين قد استأنف العمل في كتاب **الممرات**. "ما تقوله عن ختام مرحلة المقالات، وخصوصًا عن شروعك أخيرًا بالعمل على كتاب **الممرات**، هو في الواقع أسعد بُشرى تصلني منك منذ سنوات كثيرة. أنت تعلم أنني أرى في هذا العمل حقًا الجزء المفروض علينا من الفلسفة الأولى، ولست أتمنى شيئًا أكثر من أن أراك تقوم الآن بإنجازه، بعد انقطاع طويل ومؤلم، بالقوة التي يتطلبها هذا الموضوع الهائل. وإذا كان يحق لي أن أقدم لهذا العمل شيئًا مما آمله له في مسيرته، من دون أن تعتبر أنت ذلك تكبرًا مني، فهو أن يحقق العمل ما وُضع فيه، من دون أي اعتبار لأي مضمون لاهوتي و'حَرْفية' في الأطروحات الأكثر تطرفًا (أي من دون مراعاة اعتراضات ذلك الإلحاد البريختي الذي قد يكون علينا ذات يوم إنقاذه بوصفه لاهوتًا عكسيًا، لكن ليس علينا استيعابه وقبوله!)؛ يُضاف إلى ذلك أنه يجب أن يتجنب كثيرًا التواصل الظاهري مع النظرية الاجتماعية لمصلحة رهانها. ذلك أنه سيبدو لي أنه يجب هنا، حيث يتعلق الأمر بأكثر الأشياء أهمية

(116) Fromm, *Einbahnstrasse*, p. 41.

وجدية، الإفصاح بالكامل، ولو لمرة واحدة، والوصول إلى العمق القطعي بالتمام من دون أن يُترك مكان للاهوت. غير أنني أعتقد أيضًا أننا نستطيع أن نساعد أكثر في هذا القطاع المهم من النظرية الماركسية، كلما امتلكناها ظاهريًا بخضوع أقل؛ وأن 'الجمالي' هنا سوف يدخل، على نحو غير مسبوق، ثوريًا إلى الواقع أعمق بكثير من نظرية الطبقات بوصفها مَدَدًا إلهيًا"[117].

حرّك حديثٌ أجراه بولوك مع بنيامين إبان جولة له في ربيع 1935 في باريس، أشياء عدة. كان بنيامين يعمل على إعداد عرض لكتابه **الممرات**. ضاعف المعهد المبلغ الذي كان يدفعه له، فأصبح 1000 فرنك، بصفة مؤقتة في البداية، ومن ثم بصفة دائمة. لكن أدورنو الذي التقى بولوك أثناء زيارة هذا الأخير إلى باريس، حذّر من أن كتاب بنيامين، مثله مثل كتابه، أي كتاب أدورنو حول كيركيغارد، سوف يكون مثقلًا جدًا بالميتافيزيقا، وهذا ما لا ينسجم مع خطة عمل المعهد. وقد كتبت غريتل كاربلوس إلى الصديق المشترك: "يُدهشني رؤية فريتس[118] يميل إلى مصلحة المذكرات. ألا تُفكّر، إذًا، في مقالة للمجلة؟ إنني أرى في ذلك خطرًا رهيبًا، فالإطار ضيق نسبيًا؛ وأنت لن تستطيع أبدًا أن تكتب ما ينتظره منك أصدقاؤك الحقيقيون منذ سنوات، فالعمل الفلسفي الكبير الذي لا يوجد إلا من أجل ذاته، ولا تُقدم فيه أي تنازلات، العمل الذي يتعين أن يُعوّض لك، من خلال أهميته، عن الأضرار الكثيرة التي لحقت بك في السنوات الأخيرة"[119]. لا شك في أن أدورنو كان لا يزال يأمل في أن يتمكن في المجلة من توضيح الموقف اللاهوتي-المادي الذي يمثّله هو ولفيف من أصدقائه؛ لكنه، كما يبدو، كان يشك في أن الإنجاز الحاسم لهذا الموقف سيكون ممكنًا في إطار العمل في المعهد، كما أنه لم يكن يريد، من ناحية أخرى، أن يتحمل المسؤولية عن أي شيء قد يُثير الشك حول ولائه الكامل تجاه هوركهايمر وتجاه المعهد.

---

(117) رسالة من أدورنو إلى بنيامين، 6 تشرين الثاني/ نوفمبر 1934، ذُكرت في:
Benjamin, *Passagenwerk*, p. 1106.

(118) أي بولوك.

(119) رسالة من كاربلوس إلى بنيامين، برلين، 28 أيار/ مايو 1935؛ وينظر:
Benjamin, *Passagenwerk*, p. 1115.

حاول بنيامين أن يُبدد قلق الاثنين في رسالة أرفقها بالعرض "باريس، عاصمة القرن التاسع عشر" الذي أرسله إلى أدورنو في نهاية أيار/ مايو. "تظهر مطابقات الكتاب مع **كتاب الباروك** بوضوح أكبر بكثير من أي مرحلة سابقة من المخطط (نعم! وهذا على نحو فاجأني)؛ ولتسمحا لي أن أرى في هذا الوضع إثباتًا مهمًّا لعملية الدمج التي كانت تحرك في الأصل ميتافيزيقيًا كتلةَ الأفكار بأكملها نحو حالة تجميع يكون فيها عالم الصور الجدلية مؤمنًا ضد كل الادعاءات التي تتحدى الميتافيزيقا.

أستطيع في هذه المرحلة من سير الأمور (وبالطبع لأول مرة في هذه المرحلة) أن أتوقع بكل تأكيد ما يمكن أن تُحرّكه الماركسية الأرثوذكسية ضد طريقة العمل. أنا أعتقد أنه، على العكس، سيكون لها على المدى الطويل موقع راسخ في النقاش الماركسي معها، حتى وإن كان السبب وراء ذلك يعود فقط إلى أن السؤال الحاسم عن الصورة التاريخية سوف يُعالَج هنا بكل اتساعه أول مرة. ولما كانت فلسفة عمل لا ترتبط بمصطلح ولا بموقعه، لذلك أعتقد أن هذا العرض هو عرض 'العمل الفلسفي الكبير' الذي تتكلم عنه فيليتسيتاز[120]، حتى وإن لم يكن هذا الوصف بالنسبة إلي الأكثر جدًّا واجتهادًا. ما يعنيني قبل أي شيء آخر - كما تعلم - 'التاريخ الأصلي للقرن التاسع عشر'"[121].

أقنع العرض والرسالة المرافقة أدورنو، على ما يبدو، بأن الموضوع ليس خيانة لمشروع بنيامين الأصلي، وأنه يناسب مع ذلك إطار عمل المعهد، أي وعد بصورة أساسية أن يقوم بما يشبه التحويل المادي للموضوعات اللاهوتية. بعد وصول العرض المختصر بأسبوع، كتب أدورنو إلى هوركهايمر على وجه السرعة مزكيًا بنيامين بحزم. قال أدورنو إنه وصل إلى قناعة "بأن هذا العمل **لن** يتضمن أي شيء لا يمكن تحمل مسؤوليته من منظور المادية الجدلية. لقد فقد هذا العمل بالكامل طابع الارتجال الميتافيزيقي الذي كان له في السابق. لن أقول مرةً إن هذا العمل هو في نهاية الأمر شيء إيجابي (وهذا أفضى إلى النقاش المتأخر بيني وبينك): في أي حال، إنه شيء إيجابي بالنظر إلى قابلية استخدام

---

(120) أي غريتل كاربلوس.

(121) رسالة من بنيامين إلى أدورنو، 31 أيار/ مايو 1935؛
Benjamin, *Passagenwerk*, pp. 1117 f.; Bloch, *Briefe*, p. 664.

هذا العمل في مخطط عمل المعهد الذي **يتناسب** هذا العمل معه. وجديد صيغة السؤال واختلافه الحاد عما هو معهودٌ في المؤسسة العلمية يعني [...] مزيةً. إنه يهتم بمحاولة رؤية القرن التاسع عشر كـ'طراز' بواسطة مقولة السلعة، بوصفها صورة جدلية". اعتبر هوركهايمر هو نفسه في ذلك "الحديث الشهير في فندق كارلتون" في نهاية العشرينيات، الصورة التاريخية للسلعة أمرًا مركزيًا، وهذا ما حرّك تفكير بنيامين وأدورنو في اتجاه جديد. "ربما تتذكرون أنني كتبت إليكم في رسالة، قبل بضعة أشهر، أنني أعتبر الطابع السلعي، وليس العائلة، مقولة التوسيط الحاسمة بين المجتمع وعلم النفس [...] من دون أن أعرف أن بنيامين يتحرك في الاتجاه ذاته، فإن مشروعه بالنسبة إلي إثبات كبير. أَخِذَ الطابع الصنمي للسلعة مفتاحًا للوعي وبخاصة للاوعي برجوازية القرن التاسع عشر. كما يتضمن فصلٌ عن المعارض الدولية، وآخر رائع عن بودلير مادةً في غاية الأهمية حول هذا الموضوع". أوصى أدورنو بإرجاء الأعمال حول مؤرخ الثقافة الاشتراكي الديمقراطي إدوارد فوكس (Eduard Fuchs) وحول الرؤية الثقافية لمجلة *Die Neue Zeit* **(الزمان الجديد)** الاشتراكية الديمقراطية الصادرة بين عامي 1883 و1922، تلك الأعمال التي كان متفقًا عليها بين بنيامين وهوركهايمر منذ زمن طويل، والتي لم يُثر أيٌّ منها حماسة بنيامين على وجه التحديد، أوصى بإرجائها إلى وقت لاحق، "إلى حين نصادف في يوم من الأيام طاقة منتِجة بهذه القوة، طاقة لا يجوز، في نهاية الأمر، لنا نحن أيضًا أن نلجمها بسبب علاقات الإنتاج عندنا"[122].

نشأ استحسان أدورنو، إذًا، من انبهاره بنوع الربط الجديد بتلك الفقرة من كتاب ماركس **رأس المال** التي كانت على الدوام أهم فقرة بالنسبة إلى المثقفين اليساريين في حقبة فايمار، أي الفقرة التي تتحدث عن الطابع الصنمي للسلعة. بالنظرة المتفحصة التي ينظر بها عالم اللغة إلى عالم السلع، النظرة التي تلتقي مع بودلير بوصفه الممثل النموذجي الأول للحداثة الجمالية، تَوافق هذا في نظر أدورنو مع تفسير للرأسمالية، ترجمَ المقولة اللاهوتية للعالم المشيأ المنحرف إلى المقولة الماركسية حول صنمية السلعة، وهو تفسيرٌ لم يكن يناقض المادية

(122) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، أكسفورد، 8 حزيران/ يونيو 1935.

الجدلية، بل كان يُجذّرها عبر استخراج عالم السلع بوصفه منظرًا طبيعيًا أسطوريًا أصيلًا وصورة جهنمية مقابلة للعالم الحقيقي.

أثار العرض المختصر رضى هوركهايمر، فكتب إلى بنيامين في أيلول/ سبتمبر 1935 يقول: "يَعِد عملكم بأن يكون ممتازًا للغاية. يبدو أن طريقة القبض على الحقبة انطلاقًا من مظاهر سطحية صغيرة، يبدو أنها تثبت هذه المرة كامل قوتها. أنتم تقومون بخطوة واسعة تتخطى كل التفسيرات المادية التي قُدمت حتى الآن لتفسير الظواهر الجمالية". يُوضح العمل "أنه لا توجد نظرية مجردة في علم الجمال، بل تتطابق هذه النظرية في كل مرة مع تاريخ حقبة معينة". وحينما يأتي بنيامين في الشتاء إلى أوروبا، سيكون من الضروري التحدث معه، قبل أي شيء آخر، حول المسؤولية الخاصة التي تنتج من طبيعة منهج بنيامين ومزيته. "أنتم لا تضعون العنصر الاقتصادي في مقدمة صورة عملية الإنتاج بأكملها وفي مقدمة توجهاتها، بل تضعونه في تفاصيل محددة. ولهذا يجب أن يكون لهذه التفاصيل عندئذ أهمية استنتاجية خاصة"[123].

قُبِل مشروع [كتاب] **الممرات** ضمن الأعمال التي تولى المعهد تمويلها. وفي التقرير السنوي عن أعمال الجمعية الدولية للأبحاث الاجتماعية لعام 1936، ذكَر بولوك تحت بند "مشاركات بحثية"، من بين دراسات أخرى، **دراسات في تاريخ الثقافة الفرنسية**. في النشرة الثانية للمعهد الصادرة في عام 1938، ذُكِر بنيامين بين أسماء الباحثين التابعين للمعهد، وقُدِّم كاختصاصي في "علم الجمال". وتحت عنوان "مساعدة لعلماء أوروبيين ألمان"، جاء، تحت أكثر من دزينتين من المخطوطات التي دعمها المعهد في مجموعة "ميادين خاصة في علم الاجتماع"، ذكر "التاريخ الاجتماعي لمدينة باريس في القرن التاسع عشر" أولًا في الترتيب.

ترك هوركهايمر لأدورنو مهمة متابعة الخلاف حول العرض المختصر لبنيامين. ولم يكن هذا الخلاف سوى محطة في النقاش الذي دام بين الاثنين حتى وفاة بنيامين. دار هذا النقاش شفهيًا (حصل هذا في اللقاء الذي موّله المعهد، وكان النقاش الأول في بداية عام 1936 في باريس، والأخير بين نهاية عام 1937

(123) رسالة من هوركهايمر إلى بنيامين، نيويورك، 18 أيلول/ سبتمبر 1935.

وبداية عام 1938 في سان ريمو)، وعبر الرسائل، وفي مقالات. ظهرت جميع أعمال بنيامين الكبيرة التي تعود إلى النصف الثاني من الثلاثينيات في **مجلة الأبحاث الاجتماعية**، وهي في معظمها جزء من كتاب **الممرات**. فقد حدد في [مقالة] "العمل الفني في عصر إعادة إنتاجه التقني" (عام 1936)، المكان الدقيق في الحاضر الذي شكّل نقطة الانطلاق لبنيامين في البناء التاريخي للقرن التاسع عشر[124]. وفي "إدوارد فوكس، الجامِع والمؤرخ" (عام 1937)، انتهز بنيامين فرصة إنهائه أخيرًا لدراسة فوكس التي كان قد أرجأها طويلًا ليضع رؤيته الخاصة حول كتابة التاريخ من منظور مادي-تاريخي في مقابل رؤية لتاريخ الثقافة كان يمثلها فوكس بقوة وانتقدها بنيامين. كان نص "في بعض موتيفات بودلير" (عام 1939)، النسخة الثانية لبنيامين لفصل من كتاب **الممرات** (بعد أن وجد أدورنو أن النسخة الأولى - "باريس الإمبراطورية الثانية عند بودلير" - بسيطة جدًا). لم يُنشر هذا العمل في المجلة، لكن المعهد نشر أطروحات **في مفهوم التاريخ** في عام 1942 في المجلد الذي حمل عنوان **في ذكرى بنيامين**، وهو تأملاتٌ من طبيعة تأسيسية من أجل إكمال العمل حول بودلير الذي أراد بنيامين أن يرسله إلى المعهد لأغراض المناقشة، والذي أضحى بعد وفاته وصية. أصبح بنيامين بمساهماته في **مجلة الأبحاث الاجتماعية** مركز تبلور حالة واجه فيها هو وأدورنو - بتضامن يشوبه التوتر بينهما - في مواجهة ناقدَي الأيديولوجيا ماركوزه ولوفنتال. كانت مواجهة بين فلسفة التاريخ تُعينها تجارب الحداثة الجمالية من جهة، وتطبيق مادي-تاريخي لمفاهيم كلاسيكية-مثالية في الفن من جهة أخرى.

إذا تفحصنا ملاحظات بنيامين الغنية في كتاب **الممرات** الذي كان بالنسبة إليه بمثابة مقلع ومستودع لأعماله الصغيرة الجارية، بهدف معرفة ما كان يريده من بحثه حول القرن التاسع عشر، لصادفتنا وفرةٌ من معطيات تبدو غير منسجمة في ما بينها، منها على سبيل المثال:

- كل ما يمكن الوصول إليه من عالم الطفولة (طفولة جيله وعصره عمومًا)[125]؛

---

(124) رسالة من بنيامين إلى هوركهايمر، باريس، 16 تشرين الأول/ أكتوبر 1935؛
Bloch, *Briefe*, p. 690.

(125) Benjamin, *Passagenwerk*, p. 490.

- إيصال الرخيص والمبتذل (الكيتش) في القرن التاسع عشر إلى الانتشار بكثرة[126]؛

- إيجاد حالة النهضة أو الانبعاث من القرن التاسع عشر[127]؛

- البحث في الخاصية التعبيرية لأقدم منتجات الصناعة، وأقدم أبنية المصانع، وأقدم الآلات، وكذلك أيضًا أقدم المتاجر الكبيرة، ولوحات الإعلانات، وما إلى هنالك[128]؛

- فهم العملية الاقتصادية بوصفها ظاهرة أصلية منظورة، تخرج منها جميع مظاهر حياة الممرات (وخصوصًا في القرن التاسع عشر)[129]؛

- إظهار الوجه الأصيل المُغري والمهدد في بدايات التكنولوجيا، وفي فن الديكور في القرن التاسع عشر[130]؛

- عرض القرن التاسع عشر بوصفه شكلًا أصيلًا للتاريخ الأولي[131]؛

- إظهار بودلير بطريقة يكون فيها مُدْمجًا في القرن التاسع عشر[132]؛

- مقارنة الصورة التاريخية لقدَر الفن في القرن التاسع عشر بالعصر الراهن الذي حانت فيه الساعة الأخيرة للفن[133]؛

- ربط الوضوح المتزايد بتطبيق المنهج الماركسي[134].

---

(126) Ibid., p. 500.

(127) Ibid., pp. 571, 580.

(128) Ibid., p. 574.

(129) Ibid., p. 574.

(130) Ibid., p. 496.

(131) Ibid., p. 579.

(132) Ibid., p. 405.

(133) رسالة من بنيامين إلى هوركهايمر، 16 تشرين الأول/ أكتوبر 1935؛
Bloch, *Briefe*, p. 690.

(134) Benjamin, *Passagenwerk*, p. 578.

هكذا يُمكن أن تُركز كل هذه المعطيات المبدئية وغيرها على نقطة انطلاق مشتركة: إظهار كيف تومض الصورة التاريخية للقرن التاسع عشر في لحظة الأزمة أمام الفاعل التاريخي في ذكريات تلقائية؛ وإنقاذ هذا الماضي بهذه الطريقة من التشيؤ بفعل التقليد؛ وضم القوى التي تتقدم في الحاضر لجعل التكنولوجيا مخدع الزوجية للتواصل بين البشر والكون.

قام هذا على تصورَين مركزيين عند بنيامين، أحدهما يخص المنهج. حاول بنيامين أن يستخلص من التجارب النموذجية للحلم والنشوة مبادئ طريقة للإدراك تنسف الطرائق المعهودة في العمل الأكاديمي، أي مبادئ حصيفة لتوسع الوعي؛ وقد وجد لها رؤى مهمة خصوصًا عند كلاغز وبروست (Marcel Proust)، وعند السرياليين.

سأل بنيامين في عام 1920 لودفيغ كلاغز عن تتمة مقالته "في وعي الحلم" المنشورة في عام 1914، وحصل على نسخة منه بسرعة. لم يهتم كلاغز في هذه السلسلة من المقالات التي لم تكتمل بتفسير مضامين الحلم، بل ركز على شكل الحلم وعلى الفارق المميز بين فضاء الحلم وفضاء اليقظة، وبين زمان الحلم وزمان اليقظة. ينبغي ألا يصح تحليل هذا الشكل على الأحلام بالمعنى الضيق فحسب، بل على أمزجة الأحلام عمومًا، كما تظهر في المناسبات الأكثر تنوعًا؛ "كما، على سبيل المثال، حينما نسمع صوت عربة تمر في سكون الليل، ونسمع صدى الصوت يتبدد تدريجًا؛ أو عند مشاهدة ألعاب نارية في مكان بعيد أو برق غير مسموع؛ أو عند العودة إلى الوطن بعد غياب دام سنوات طويلة وحياة صاخبة ربما؛ أو من ناحية أخرى، في أمكنة الغرائب غير المألوفة [...]؛ [...] وليس من النادر في أثناء السفر بالقطار، شرط أن يكون المسافر قد استأجر مقصورةً له وحده؛ أو بصورة استثنائية في لحظات إعياء تام وإحباط يائس ومعاناة شديدة، أو ببساطة بعد تناول مخدر ما"[135]. أبرز كلاغز ثلاث سمات لمزاج الحلم: السلبية المؤثرة، أي حالة الاستسلام الممكنة للانطباعات التي لا تحدث إلا بمسح أشكال الإدراك المعتادة أو نسفها؛ الشعور بالبُعد، أي الشعور الذي يلازم أيضًا الأشياء القريبة، وذلك لأن

(135) Ludwig Klages, "Vom Traumbewusstsein," in: *Sämtliche Werke*, vol. 3, p. 162.

ما هو حاسم ليس البُعد نفسه، بل انطباع البُعد؛ الشعور بالابتعاد، أي ابتعاد صور المناظر الطبيعية التي تمر من خلال نافذة في عربة القطار مثلًا أو ابتعاد عربة في الليل لم تكد تقترب منا حتى تجاوزتنا، أو الشُعور بالابتعاد الذاتي أو بالأحرى بالفناء في ورقة تتلاعب بها الرياح، وفي الدخان المتطاير في الهواء، وفي الزبد المضمحل، وفي النجم الساقط من السماء أو أمام صور لكائنات لا تتغير أو تتحول مثل الأشجار المعمرة لمئات السنين، والأهرام القائمة منذ آلاف السنين، ومثل الجبال الشامخة منذ القدم.

في كتابه حول **الإيروس الكوني** الذي صدر في طبعة أولى عام 1922، بمناسبة دراسة جوهر النشوة، تابع كلاغز تعيين سمات ما سبق أن سماه "الحالة المحسوسة للوعي"، كمرادف تقريبي لمفهوم "مزاج الحلم". "يتعاطى المراقب الذي يسعى للتمييز حتى مع البعيد وكأنه في متناول اليد، ويُضحي بالصورة المحسوسة لمصلحة سلسلة من المواقع التي يمكن أن يقيسها واحدًا بعد الآخر، ومن ثم كلًا على حدة، في حين أن تحديق شخص ما منغمس في تأمل شيء ما، حتى ولو كان قريبًا، يكون متحررًا من أي غاية نهائية، ومن ثم خاضعًا لصورة الموضوع، وهذا يعني على الأقل شكلًا لا يتم حصره ضمن حدود، بل ضمن كلٍّ تؤطره الصور المجاورة. لا شك في أن نوعية المراقبة، وليس مسافة البعد عن الموضوع، هي ما يحدد إن كان الموضوع يمتلك خواصه من البعد أو القرب؛ ولا أحد يُنكر شيئية طابع القرب وجلاء طابع البُعد"[136]. سمّى كلاغز هذا البُعد في الأشياء التي نُظر إليها كنماذج "هالتها" أو "قدسيتها". لكن البُعد الذي قصده كلاغز بذلك كان بُعد روح العالم الذي ظهر خصوصًا في البُعد الزمني للعالم البدئي. تتقدم "حالة التأمل إلى داخل 'ما لا يسمح بالدخول إليه'، إلى العالم الأم لما كان أو [...] **تستحضر مرة أخرى** 'الأرواح' التي أصبحت منذ زمن طويل شيئًا مختلفًا"[137]. "يَمْثل قَدَر العالم في لحظة تألق كحاضر هنا؛ يستمد كل شيء حدث يومًا، ويحدث الآن، نوره ومعناه من الصورة مهما كانت السرعة التي تنطلق بها إلى أقصى أبعاد المكان والزمان"[138].

(136) Ludwig Klages, *Vom kosmogonischen Eros*, vol. 2, extended ed. (1926), pp. 128 f.

(137) Ibid., pp. 142 f.

(138) Ibid., p. 126.

كان تجاهلُ الصور يعني تجاهل روح العالم والدفع إلى هلاك الإنسانية. "عداوة العصر الوسيط للصور" - كما جاء في نص كلاغز الأكثر انتشارًا على الأرجح: مقالة "الإنسان والأرض" التي كتبها في عام 1913 لكتاب تذكاري بمناسبة الاحتفال بمرور مئة عام على تأسيس الشبيبة الألمانية الحرة الذي أُقيم في أعالي مَيسنر - "الذي غذاه العصر الوسيط داخل الإنسان، بنوع من جَلْد الذات، كان يجب أن يظهر إلى الخارج حالما يبلغ هدفه الذي يتمثل في إلغاء العلاقة بين الإنسان وروح الأرض. لا يُكمل الإنسان في احتكاكه الدموي مع باقي المخلوقات، إلا ما قام به بنفسه من قبل: تضحيته بعلاقة لا تنفصم مع تعددية تنتج الصورة، وثروة لا تنضب من الحياة، في مقابل تعالٍ بلا جذور لروحانية تعزله عن العالم [...]. كنا نقول إن الشعوب القديمة لم تكن تهتم باستكشاف الطبيعة من خلال التجارب، أو باستعبادها بالآلات، والتغلب عليها بالحيلة باستخدام قواها ضدها بالذات. ونضيف الآن إلى ما سبق أن الشعوب القديمة كانت تنظر إلى ذلك بازدراء ἀσέβεια بوصفه عملًا بغيضًا. فقد كانت الغابة والنبع، والصخور والمغر، والوادي والعريشة، بالنسبة إليهم، مملوءة حقًا بحياة مقدسة؛ من قمم الجبال الشامخة كانت تعصف أمطار الآلهة الغزيرة (لهذا السبب لم يكونوا يتسلقونها، وليس بسبب نقص 'الإحساس بالطبيعة')، كان البرق والرعد والعاصفة الثلجية تتدخل مهددةً أو واعدةً في لعبة المعارك. حينما كان اليونانيون يجتازون بسلام نهرًا، كانوا يطلبون الغفران من إله النهر بسبب استبداد الإنسان، ويقدمون المشروبات قربانًا؛ ومن يرتكب جرمًا بحق الشجر في جرمانيا القديمة كان عليه أن يكفّر بالدم عن ذنبه؛ وإنسان اليوم، وقد غدا غريبًا عن مجريات الكوكب، لا يرى في هذا كله إلا خرافةً صبيانية. هو ينسى أن الأوهام المفسرة كانت أزهارًا متراكمة على شجرة حياة داخلية تُخبئ معرفة أكثر عمقًا من كل علمه: معرفة بالقوة الناسجة خالقة العالم، وقوة الحب الجامع بين الأشياء كلها. لن تبدأ الجراح التي أنزلها بها الروحُ قاتل الأم بالالتئام إلا عندما تنمو من جديد قوة الحب هذه في البشرية"[139].

---

(139) Ludwig Klages, *Mensch und Erde*, pp. 22 f.

في مراجعة لكتاب عن باخوفن (Johann Jakob Bachofen) في عام 1926، عبّر بنيامين عن احترامه لنبوءة الدمار الهائل التي قدمها كلاغز، "هذا الفيلسوف والأنثروبولوجي الكبير"، في **الإيروس الكوني**. لكنه انتقد "رفضه الذي لا مخرج منه لوضع العالم 'التقني'، 'الميكانيكي'"[140]، وأكد لشولم ضرورة فتح سجال صارم مع المركز اللاهوتي الذي نشأ منه، بحسب رأيه، ذلك الرفض. بدا له ولأدورنو أن إجراء سجال كبير مع كلاغز ومفهومه للصورة كان لا يزال في الثلاثينيات عملًا ملحًا لتوضيح موقفهما الخاص ومفهومهما للصورة الجدلية.

لا بد من أن يكون لوي أراغون قد بدا لبنيامين الطرف المقابل الإيجابي والحديث لنبوءة الدمار التي قال بها كلاغز. في كتابه **فلاح باريس** الذي نُشر في عام 1926، طالب أراغون بخلق ميثولوجيا حديثة. كتب بنيامين عن هذا الكتاب إلى أدورنو في أيار/ مايو 1935 يقول فيه إن كتاب أراغون كان موجودًا في بداية كتاب **الممرات**، وأنه، أي بنيامين، لم يكن بإمكانه أن يقرأ منه "مساءً في سريره أكثر من صفحتين أو ثلاث صفحات، لأن دقات قلبي كانت ترتفع بقوة إلى حد أنه كان عليّ أن أُلقي بالكتاب جانبًا"[141]. وفي النصَّين الأساسيين من كتابه - "ممر الأوبرا" و"شعور الطبيعة في بوت شومون" - أظهر أراغون كيف أن ساكن المدينة يهيم على وجهه بلا هدف، لا يلفت اهتمامه أي هدف أو مصلحة في متاجر مزرية بشكل أو بآخر، وحانات، وبيوت دعارة، ومرافق ممر الأوبرا المهددة بالانهيار، أو كيف اكتشف ثلاثة كتّاب سرياليين يشعرون بالإنهاك في مساء ربيع معتم وضبابي بعيدًا عن الأحياء السياحية المشهورة في متنزه بوت شومون بجسوره التي يرمي المنتحرون أنفسهم منها، والتي تفضي عبر بحيرة اصطناعية إلى صخرة طبيعية، و"ضفة المجهول والمخيف"، و"أبواب تؤدي إلى اللانهائي، ولا تنغلق جيدًا"، و"وجه اللانهائي"[142]. "المجهول"، و"اللانهائي"، و"المخيف"، و"الميثولوجيا"، كانت كلمات مدهشة لأوصاف تميزت بأنها وصفت بحب غامر ومؤثر تفاصيل الحياة اليومية التي كان يُنظر

---

(140) Walter Benjamin, *Gesammelte Werke*, vol. 3, p. 44.

(141) رسالة من بنيامين إلى أدورنو، باريس، 31 أيار/ مايو 1935؛
Bloch, *Briefe*, p. 663.

(142) Louis Aragon, *Pariser Landleben*, pp. 17, 18, 138.

إليها عادة على أنها كئيبة وحزينة والتي تنقلب مرارًا وتكرارًا لتمجيد البؤس واستهجان الروح. كان نوعًا من الحفاظ على الظواهر في شكل صور، نصح به أراغون كوصفة عامة، على الرغم من معرفته بأنها زائفة وستنهار أمام الواقع، وكأنه منادٍ أمام كشك في مهرجان شعبي: "سرعان ما تولد لنا آفةٌ جديدة، دُوارٌ إضافي أعطي للإنسان: **السريالية**، ابنة الجنون والظلام. قوموا بجولة في الداخل، هنا ستنفتح حالًا ممالك جديدة.

كم سيحسدكم المستيقظون من نوم ألف ليلة وليلة والمستنيرون والمفتونون، كم سيحسدكم مدخّنو الحشيشة العصريون حينما تعيشون، بلا مساعدة، الطيفَ الكامل لملذاتهم التي لم تكتمل حتى الآن، وتنعمون بسلطة خيالية على العالم [...]، بحيث لن يعرف العقل بعد الآن، ولا غريزة البقاء، على الرغم من أيديهما الجميلة والنظيفة، كيف يمنعانكم من استخدامها بلا حدود [...]. هذه الآفة المسماة **سريالية** تقوم على الاستخدام المفرط والشهواني لـ **صورة** المخدر أو تقوم بالأحرى على الاستحضار غير المنضبط للصورة من أجل الصورة فقط [...] يا للخراب الرائع: سيصبح مبدأ المنفعة غريبًا في أعين كل الذين يسلمون أنفسهم لهذه الآفة العليا. سيصبح الروح عندهم، شيئًا فشيئًا، خارج الاستعمال. وسيرَون كيف تتسع حدودهم، وسيُشركون كل المتحمسين وكل المتذمرين على وجه الأرض في نشوتهم. وسيقع الشباب كليًا في فخ هذه اللعبة الجادة، العديمة الجدوى. سوف تتغير حياتهم"[143].

حاول بنيامين أن يضع الإشارات المنهجية إلى الوعي الموسع المعادية للروح التي أطلقها كلاغز وأراغون والتي لا تكترث بالواقع التاريخي-الاجتماعي، والذاكرة اللاإرادية في أدب بروست وتجاربه مع المخدرات، حاول أن يضعها في خدمة معالجة مشكلات الحاضر الملحّة. رأى بنيامين صلب هذه المشكلات - وكان هذا تصوره المركزي الآخر الذي أسهب في صوغه في ختام كتابه **شارع ذو اتجاه واحد** - في ما يلي: إما أن تكون التقانة قد أصبحت أداةً واقعيةً في أيدي الجماهير لتجربة كونية مخدرة، وإما أن تكون قد حدثت كوارث أكثر هولًا من الحرب العالمية الأولى. كان هذا بالذات الجهد المبذول

(143) Ibid., pp. 78 ff.

لربط الجديد الرديء بالتقانة، وهو ما يشحذ - بحسب قناعة بنيامين - النظر، أكان برعشة ما قبل تاريخية واصلة إلى الحاضر، أو بتلك الميول البناءة في الماضي الأقرب؛ لتقديم الوسائل لتصفية القوى السحرية. إما أن تكون التقانة قد أصبحت أداة للخلاص، أو ليس ثمة خلاص. إما أنه كان بإمكانها أن توضع في خدمة تصفية القوى السحرية، أو أنه لا توجد وسيلة تحرر من هذه القوى.

تكمن أزمة الحاضر، في نظر بنيامين، في التبعات المدمرة "لاستيعاب التقانة الكارثي" الذي وسم القرن التاسع عشر حين جرى تجاهل "أن التقانة لم تخدم هذا المجتمع إلا بإنتاج السلع". تمكنت النزعة الوضعية من أن "ترى في تطور التقانة تقدمَ العلوم الطبيعية فحسب، ولم ترَ تخلُّف المجتمع [...] وغاب عن الوضعيين من منظّري الاشتراكية الديمقراطية أيضًا أن هذا التطور الذي تتأكد ضرورته يومًا بعد يوم، والذي من المفترض أن تمتلك به البروليتاريا هذه التقانة، سيؤدي إلى حالة تأزم دائم"[144]. كانت صورة التقانة بين البرجوازيين والوضعيين الذين كانوا يشكلون أغلبية الاشتراكيين الديمقراطيين تقع من "عريشة". وقد "يتساءل المرء في هذه المناسبة عما إذا لم يكن 'الارتياح' الذي نعمت به برجوازية القرن ناجمًا عن رضًى عميق بأن عليها ألا تَخْبر أبدًا كيف سيكون على قوى الإنتاج أن تتطور بفعل تلك البرجوازية. بالفعل، بقيت هذه الخبرة حقًا للقرن الذي يلي. لقد عايش كيف فاقت سرعة وسائل النقل، وقدرة الأجهزة التي تضاعف بواسطتها نسخ الكلمات المنطوقة والمكتوبة، حاجات الإنسان. وإن القوى التي تطور التقانة إلى ما وراء هذه العتبة هي قوى مدمرة، وتشجع في المقام الأول تقانة الحرب وانتشارها الدعائي"[145].

في ضوء هذه الشروط، بدت منتجات التقانة حتى أيامنا الحاضرة للناظر إليها المتأثر بمزاج الحلم وللمشاهد النموذجي الأول، حدثًا ميثولوجيًا: "في اليونان القديمة كان يُشار إلى مواقع النزول إلى العالم السفلي. كذلك فإن وجودنا اليقظ أرضٌ يوجد فيها، في مواقع خفية، مداخل تقود إلى العالم السفلي، أرضٌ مليئة بأماكن لا تلفت الانتباه أبدًا، تصب فيها الأحلام. نمرّ بها

(144) Walter Benjamin, "Eduard Fuchs," *Zeitschrift für Sozialforschung* (1937), p. 353.

(145) Ibid., p. 354.

في كل الأيام من دون أن نشعر بها، لكن النوم يستعصي، وعلى هذا النحو ترانا نعود إليها نتلمسها بقبضات سريعة، ونضيع في الممرات المظلمة. متاهة المباني في المدن تُشبه في النهار الساطع الوعيَ؛ وتصب الممرات (وهي الأروقة التي تقود إلى وجودها الماضي) نهارًا في الشوارع من دون أن تُلاحَظ. لكن، من بين كتل المباني المعتمة يظهر في الليل ظلامها الكثيف، ويجتازها المارّ بها في وقت متأخر مسرعًا، ما لم نكن قد شجعناه نحن على التجول في أزقتها الضيقة.

لكن ثمة نظامًا آخر من الأروقة التي تمتد تحت الأرض عبر باريس: المترو، حيث تضيء في المساء الأنوار الحمراء التي تدل على الطرق في جحيم الأسماء. كومبا - إليزيه - جورج الخامس - إتيان مارسيل - سولفيرينو - إنفاليد - فوجيرار أزالت كلها السلاسل المهينة للشارع والساحة، وألقتها عنها جانبًا لتتحول هنا إلى ظلمة يخترقها لمعان البرق وأضواء بيوت المتعة فتبدو كآلهة المجاري وجنيات قبور تحت الأرض. لا يؤوي هذا التيه في داخله نورًا واحدًا، بل عشرات من الثيران العمياء الثائرة التي لا تُمسِك بين فكَّيها سنويًا بعذراء تيبتية واحدة فحسب، بل يُرمى إليها كل صباح بآلاف من مساعدات بائعات قبعات النساء وبآلاف من مساعدي التاجر المتعبين من النعاس"[146].

كان هذا نقدًا للرأسمالية بنظرة مجازية، أظهرت أن عملية نزع السحر التي أُنجزت في ظل شروط رأسمالية لم تقلل من الهول المظلم المحيط بكل ما هو إنساني، بل قامت بكبته وتأجيله لا أكثر. فقدت الأساطير قوتها الرابطة علنًا، لكنها صاغت، بنزوحها بشكل هدام إلى البنية التحتية للحياة اليومية، بقسوة سلوك البشر والعالم المحيط بهم. في اللحظة الحرجة التي تقدمت فيها علاقة التقانة بدمار الإنسان والأرض أمام عينيه، أصبحت تلك اللحظات من الماضي، أو بدقة أكثر من القرن التاسع عشر، جلية، تلك اللحظات التي بدت فيها التقانة ملائمة لتحطيم هدوء المحرومين وراحتهم، والتي ظهرت فيها أشكال الفن التي لم تغض الطرف عما يتم في خلفية القرن التاسع عشر من تطور (مدمّر) للتقانة، بل خرجت منه لتجعل من الجهاز التقني المهول لزمانها العصب الأساس للبشرية.

(146) Benjamin, *Passagenwerk*, p. 136.

كان كتاب زيغفريد غيديون (Sigfried Giedion) الذي صدر في عام 1928 بعنوان **البناء في فرنسا، البناء بالحديد، البناء بالأسمنت المسلح**، مصدر إلهام مهمًّا، استطاع بنيامين أن يأخذ عنه الكثير حول التاريخ الأصلي للقرن التاسع عشر. كان غيديون الذي بدأ بدراسة الهندسة، ثم درس تاريخ الفن على يد هاينريش فولفلين، قد حصل على الدكتوراه بإشرافه. وكان لزمن طويل السكرتير العام للمؤتمر الدولي للهندسة الحديثة الذي شارك هو أيضًا في تأسيسه في عام 1928، وكان من أعضاء هذا المؤتمر البارزين غروبيوس ولوكوربوزييه وألفار آلتو. كان غيديون شديد الحماسة للبناء الجديد. وقد جسّد ممثلوه، كما لم يفعل أي تجمع آخر في جمهورية فايمار، الحماسة التي تقاسمها بنيامين معهم في ما يخص البساطة والشفافية والعقلانية البناءة. وجاء في الصفحات الأولى من كتاب غيديون: "يبدو لنا اليوم أن مهمة المؤرخ هي [...] أن يستأصل من المركب الفظيع للزمن الماضي تلك العناصر التي ستشكل نقطة انطلاق للمستقبل".

زيّن القرن التاسع عشر كل إبداعاته الجديدة بـ **أقنعة تاريخية** في أي مجال كان، سواء في مجال الهندسة العمرانية أو في مجال الصناعة أو المجتمع. خُلقت إمكانيات بناء جديدة، لكن في الوقت نفسه كان يُخشى منها، فأُثقلت بكواليس من حجر ومن دون سند [...] لكن، من جهة أخرى، لا يجوز أن ننسى **قوة الدفع إلى الأمام** التي امتلأ بها القرن التاسع عشر. فإذا نفضنا الغبار عن المجلات، الغبار الذي رسا عليها لعقود، للاحظنا عندئذ أن الأسئلة التي تهمنا اليوم كانت قيد النقاش لأكثر من قرن، وبقيت غير محسومة.

نعرف في الوقت نفسه [...] أن البناء الذي يوصف اليوم بـ "الجديد" هو جزءٌ مشروع من ذلك التطور الذي يستمر على امتداد القرن بأكمله [...] **أصل البناء "الجديد" يكمن في لحظة بناء الصناعة حوالى عام 1830**، في لحظة تحوُّل عملية الإنتاج من العمل اليدوي إلى الإنتاج الصناعي. نحن لا نملك الحق، في ما يخص جسارة التقدم والأعمال، بمقارنة أنفسنا بالقرن التاسع عشر. مهمة هذه الأجيال هي أن تحول إلى شكل سكني ما لم يستطع القرن التاسع عشر التعبير عنه إلا بأبنية مجردة، متجانسة داخليًا، بالنسبة إلينا.

فكر بنيامين في مزج مناظر القرن التاسع عشر هذه مع ما كشف عنه سرياليون وكتّاب، مثل جوليان غرين، من رعب سحري في شهادات القرن التاسع عشر، وركّب من هذا المزيج صورةً أظهرت التاريخ الأصلي لهذا القرن على النحو التالي: لم تُتوَّج الإبداعات الجديدة وأشكال الحياة الجديدة المشروطة قبل أي شيء آخر بإنتاج السلع، بنظام اجتماعي جديد ولم تصل إلى تطور حر للإنسان، بل إنها لم تصل إلا إلى تطور محصور بتصور متشيئ للثقافة، يسير على طريق خاطئ مصحوبًا بتهويمات[147].

إن الإبداعات الجديدة الجسور للقرن التاسع عشر التي قدمت نفسها صورًا خيالية المظهر هي ما جعل هذه الحقبة أسطورية. لا يعني الكلام عن التاريخ الأصلي للقرن التاسع عشر مجرد نقل مفهوم غوته للظاهرة الأصلية "من سياقه الوثني في الطبيعة إلى السياقات اليهودية للتاريخ[148]"، بل يُشير أيضًا إلى ظلامية هذه الحقبة، وإلى طابعها الشيطاني غير الشفاف وغير الخلاصي. والتاريخ الأصيل للقرن التاسع عشر قد أشار مع ذلك إلى إمكانية أن نكسب منه عناصره الأسطورية والتي تعود إليها وحدها إمكانية كسب مضامين استنارة دنيوية، مضامين هندسات مشبعة بالضوء، على سبيل المثال، تبدو بها أولًا الروعة اليومية الشفافة التي تجعل تلك الهندسات مشبعة بالضوء فعلًا. جاء في حاشية فقرة من كتاب **الممرات**: "في الصورة الجدلية، يجب إيجاد مكان 'للحلم بشيء'، من دون المساس بتصفية الأسطورة في الصورة الجدلية"[149].

ظهر في الصورة الجدلية للتاريخ الأصيل لحقبة معينة الانقطاع الحاضر للتاريخ المستمر بالنسبة إلى ماضٍ، وظهرت لحظة راهنة للإعلان عن جديد فعليًا مقارنةً بماض. عندما تحدثً بنيامين عن "جدلية في حالة الركود"، إنما كان يقصد العلاقة التي تحدث بفعل ركود كهذا بين ما هو حاضرٌ وما هو ماض. لم يكن التعبير يعني ركود الجدل ذاك، بل كان يعني جدلًا لا يقوم بوظيفته إلا في حالة ركود. الجدلي كان بالنسبة إلى بنيامين ظهور "الآن" في الأشياء[150]؛ فهو

(147) Walter Benjamin, "Zweite Exposé von 1939," in: *Passagenwerk*, p. 1256.

(148) Benjamin, *Passagenwerk*, p. 577.

(149) Ibid., p. 1174.

(150) Ibid., p. 1034.

إذًا ليس انتقالًا أو تحولًا، كما عند أدورنو أو هيغل، بل هو خروجٌ من الزمان المتجانس إلى الزمان المتحقق؛ إنه نسفٌ للاستمرارية التاريخية، ونسفٌ للتقدم الذي يجري بقسوة أسطورية لاختصار أبعاد حاسمة. وصف بنيامين بـ"جدلية" الصورَ التي كانت في نظره استحضارًا لماضٍ، لأنها لم تكن بلا زمن ولم تكن لحظات سيل متواصل ومتجانس من الأحداث، بل كانت مجموعات لحظية من الحاضر والماضي[151]. ظهرت قطعة من ماض منسيّ أو مهمَل في حاضر يتسع لاستقباله. وبذلك أُنقذ ماضٍ من حاضر تحرر من حدوده.

توقع بنيامين أن يتيح حلف بين فن انْتُزِعت هالته وجمهور ينزع هالة الأعمال الفنية من خلال شكل تقبّله لها، صورًا جدلية وعلاقةً ناجحة بالتقانة. سبق أن أعلن بنيامين عن الحدث المفتاحي لنظريته عن الفن في مقالة نُشرت في عام 1930 في مجلة *Literarischen Welt* **(العالم الأدبي)** بعنوان "يوميات باريسية". ناقضت السيدة أدريين مونييه - وهي صاحبة مكتبة، وتربطها علاقة وثيقة بأدباء طليعيين فرنسيين مهمين - طريقة بنيامين الغريبة في الفن القديمة والعنيفة ضد الصُور الفوتوغرافية لأعمال تصويرية. "[...] عندما استرسلتُ ووصفتُ هذا النمط من التعامل مع الفن بأنه بائس ويبعث على الحنق، أصبحتْ عنيدة، وتمسكتْ برأيها، وقالت إنه 'لا يمكن النظر إلى الإبداعات الكبرى بوصفها أعمالًا فردية. إنها تكوينات جماعية ذات قدرة كبيرة على التأثير، بحيث يرتبط الاستمتاع بها بشرط تصغيرها. إن أساليب إعادة الإنتاج الآلي هي في حقيقة الأمر تقنية تصغير، تساعد الناس في امتلاك تلك الدرجة من السيطرة على الأعمال التي من دونها لا يستطيعون الوصول إلى المتعة'. ثم طلبت مني أن أبادل صورة سيدة ستراسبورغ التي كانت قد وعدتني بها عند بداية لقائنا، بنظرية إعادة الإنتاج التي قد تكون بالنسبة إلي أكثر قيمة"[152].

في مقالة "موجز تاريخ التصوير" التي كانت قد نُشرت في عام 1931 في مجلة **العالم الأدبي**، عمّم بنيامين هذه الأفكار حول تصغير الإبداعات الكبيرة وحول نزع الهالة عن الصور والأعمال المعمارية خدمةً لفكرة تحرير الموضوع

---

(151) يُقارن:

Ibid., pp. 576, 578.

(152) Benjamin, *Gesammelte Schriften*, vol. 4, p. 582.

من الهالة. وضّح بنيامين في هذه المقالة أكثر مما فعل لاحقًا في مقالة العمل الفني، حيث قارن في المقالة السابقة، "موجز تاريخ التصوير"، تعريف الهالة المليء بالحنين بتأكيد مشبع بالأمل للنزعة التي لا تقاوم من أجل تدميره. "ما هي الهالة [الأورا] حقيقةً؟ هل هي نسيج غريب من المكان والزمان: ظاهرة المسافة الفريدة، مهما كانت قريبة؟ حينما نتتبع باسترخاء في ظهيرة يوم صيفي امتداد سلسلة جبلية في الأفق أو في فرع غصن ينشر ظله على المتأمل، إلى أن تغدو اللحظة أو الساعة جزءًا من ظهورها، فإن هذا ما يعنيه تنفس هالة تلك الجبال وذلك الغصن"[153]. حينما تكلم بنيامين بعد ذلك عن الميل الحماسي المعاصر، أي عن طموحه نحو امتلاك الشيء بأقرب مسافة في إعادة الإنتاج الكمي الضخم، رأى بنيامين في هذا، بكل تأكيد، عملية خفض العظيم إلى شيء وضيع؛ أما ما ساعد على تطهير الجو الخانق لهالة لا يمكن الحفاظ عليها إلا بطريقة مصطنعة فهو شيءٌ واحد. هنا يكمن افتراض جريء أو بالأحرى رؤية يوتوبية بأن هناك علاقة بين فعل التصغير الذي تقوم به تقنيات إعادة الإنتاج والاغتراب الشافي والصحوة، بين نظرة الفنانين الطليعيين ونظرة الجماهير.

جاء في مقالة بنيامين "التجربة والفقر" التي نُشرت في نهاية عام 1933 في مجلة *Die Welt im Wort* **(العالم في كلمة)** التي أصدرها فيلي هاس في منفاه في براغ، جاء في هذه المقالة: "سيان إن أقر الشاعر بِرت بريخت أن الشيوعية ليست التوزيع العادل للثروة، بل للفقر، أو أوضح سلف المهندس العصري أدولف لوس: 'أنا لا أكتب إلا لأناس يملكون حسًا عصريًا [...]. أنا لا أكتب لأناس يحرق قلوبَهم الحنينُ إلى عصر النهضة أو إلى الروكوكو'[154]. إن فنانًا غلب عليه التركيب المعقد مثل الرسام باول كلي، وفنانًا مبدئيًا مثل لوس، كلاهما ينفر من صورة الإنسان الحاضرة، الاحتفالية، النبيلة، المزينة بكل قرابين الماضي، لكي يتوجه كلاهما نحو الإنسان المعاصر العاري الذي يرقد صارخًا مثل مولود جديد في أقمطة هذا العصر القذرة"[155]. أما كيف تصور بنيامين هذا الإنسان المعاصر العاري، فهذا ما أظهرته مقالته "العمل الفني في عصر

---

(153) Ibid., vol. 2, p. 378.

(154) الروكوكو (Rokoko) هو عصر الباروك المتأخر في العمارة والفن. (المترجم)

(155) Ibid., p. 216.

إعادة إنتاجه التقني" وملاحظاتٌ مختلفة حول كتاب **الممرات**. وصف علاقة الجماهير بالواقع وبالأعمال الفنية المبنية على قابلية إعادة الإنتاج بطريقة برزت معها عناصر شكل حلم الإحساس. أما الإحساس المتنامي تجاه المماثل الذي أبرزه بنيامين في مقالته عن العمل الفني لدى الجماهير، فقد نسبه في أمكنة أخرى إلى نشوة الحشيش. واعتبر في مقالته الأولى عن بودلير أن عبور المدينة في حالة ضياع، مستغرقًا في أفكاره الخاصة وهمومه، كان شرطًا لعروض ناجحة للمدينة الكبيرة (كما هي عند ديكنز مثلًا). إذا لم تقدم الجماهير عروضًا مثل هذه عن المدينة الكبيرة، وإذا بدا أنه ليس بمقدورها أن تُقدمها يومًا، فإن هذا لن يكون كافيًا لدحض الاعتقاد بأن "الصور المُظهرة في الغرفة المظلمة للحظة المعيشة" تقيم فيها من غير أن تُرى إلى أن تتذكرها من جديد[156]. عندما تكلم بنيامين عن وعي الحلم الجماعي[157]، كان قوله ينطوي على تكريم للجماهير يتم على نحو غير ملحوظ، ويغدو جزءٌ منه عند الفنانين والفلاسفة والمنظّرين واعيًا إلى هذه الدرجة أو تلك. عندما تكلم عن الشوارع بوصفها مسكن الجماعي[158]، كان يعترف للجماهير بممارسة غير معقلنة لما رحّب به عند مهندسي العمارة الجدد بوصفه نوعًا من الوصل بين الشارع والمسكن[159]. وحينما اعتبر أن سلوك الجماهير يتحول من السلوك الأكثر رجعية، تجاه بيكاسو مثلًا، إلى السلوك الأكثر تقدمية، حيال أفلام تشابلن على سبيل المثال[160]، أقر لها عندئذ بذلك التقدير العالي للبائس والبهلواني بوجه الأنيق، والكلاسيكي، والرزين والرفيع. يمكن اتهام جمهور بهذه المواصفات بمعرفة غير واعية بعد للماضي[161]، وهي في الحقيقة معرفة غير معنية بالاستمرارية، لكنها احتوت صور الذاكرة اللاإرادية التي سُجلت فيها لحظات الماضي الحاسمة.

---

(156) يُقارن ملاحظات حول بروست وبودلير، في:
Walter Benjamin, "Zum Bilde Prousts," in: Ibid., vol. 2, p. 63.

(157) Benjamin, *Passagenwerk*, p. 467.

(158) Ibid., p. 533.

(159) Ibid., p. 534.

(160) Benjamin, *Gesammelte Schriften*, vol. 1, p. 459.

(161) Benjamin, *Passagenwerk*, p. 572.

ما كان بنيامين يأمله من الجماهير هو أن تستبدل بفن له هالة، أي فن بعيد ومقدس يتم تقبله في مزاج حلم فردي نوعًا ما، فنًّا منزوع الهالة، أي فنًّا قريبًا وقابلًا للمس، ويتم تقبله كنوع من التسلية، وأن تُستبدل بعلاقة "عريشة" بالتقانة نوعًا من وعي حلم امتلك التقانة، أي تقنية أولئك الطلائعيين الذين استعدت البشرية في أبنيتهم ولوحاتهم وقصصهم "لتبقى وتصمد أمام الثقافة، إذا اقتضى الأمر" لمصلحة الإنسانية[162].

لكن، ألم يُطأطئ بنيامين الرأس بغير موجب أمام بديل سيئ، هو من قماش القطيفة أو من فولاذ، من داخل مشبع بالمعالم أو من شفافية بلا معالم، من "أمتعة جامع أو تاجر تُحف أثرية" أو من "مفهوم إيجابي جديد للبربرية"[163]؟ هل اتحدت أعمال مثل "التجربة والفقر"، و"العمل الفني في عصر إعادة إنتاجه التقني" مع أعمال مثل "حول صورة بروست" أو "فرانتس كافكا" أو "الراوي" لتشكل نصًا واحدًا، لتُظهِر كيف ترمي البشرية عن كتفيها الكنوز التي أصبحت عبئًا وتأخذها بيدها؟ هل تحالف فعلًا ما هو من دون بدايات جديدة مع التملك المجدد للماضي؛ وهل تحالف انفصال ما أُعيد إنتاجه من مجال التقليد[164]، مع الوفاء للأشياء التي تقاطعت مع حياتنا[165]، مع نُزهة على متن دابة عكس العاصفة التي تهب من المنسي[166]؟ تكلم بنيامين على "الجماهير" أو "الكثرة" بدلًا من "الشعب" الذي تكلم عليه كلاغز؛ وتكلم على "صورة جدلية" بدلًا من "صورة"، وعلى "التاريخ الأصلي للقرن التاسع عشر" على سبيل المثال بدلًا من "التاريخ الأصلي". وإذا كان الأقصى سوف يهب عند كلاغز ممّا قبل التاريخ، فإنه سيهب، بالنسبة إلى بنيامين، من الفجر القادم. وجاء في ملاحظة على كتاب **الممرات**: "في كل عمل فني حقيقي هناك نقطة محددة يستطيع من يضع نفسه فيها أن يشعر بالبرد مثل النسيم العليل لصباح قادم. يَنتج من ذلك أن الفن الذي غالبًا ما نُظر إليه على أنه انكسارٌ إزاء كل علاقة بالتقدم، يمكن أن يخدم تعيينه

(162) Walter Benjamin, "Erfahrung und Armut," in: *Gesammelte Schriften*, vol. 2, p. 219.

(163) Benjamin, *Gesammelte Schriften*, vol. 2, pp. 961, 215.

(164) Ibid., vol. 1, p. 438.

(165) Ibid., vol. 4, p. 579.

(166) Benjamin, *Passagenwerk*, p. 593.

الأصيل. ليس التقدم في استمرار سير الزمن، بل هو في تداخلاته في البيت، وحيثما يجعل جديد حقيقي نفسه لأول مرة مع صحوة الفجر"[167]. لكن هل كان ثمة في العلاقات الاجتماعية، كما تصورها بنيامين ضرورية لعلاقة ناجحة بالتقانة، متسع لأعمال فنية حقيقية، يُمكن من خلالها لنسمة فجر قادم أن تهب داخل استمرارية التاريخ؟ هل يستطيع أحدٌ أن يتصور علاقةً مقبولةً بين الفقر والفن الخالي من الهالة وامتلاك التقانة؟ كان بنيامين مدركًا أن المشكلة تكمن في إيجاد علاقة مقنعة تربط أقطاب تفكيره اللاهوتي-الميتافيزيقي والتاريخي-المادي والأسطوري والسياسي. على مستوى أكثر مادية، كانت هناك مشكلة صحة ثلاثة تفصيلات أساسية والعلاقة في ما بينها: أولها أن بنيامين حوّل الأعمال الفنية الحقيقية التي غدت مألوفة عبر التقنية وبقيت أيضًا غير متاحة للجماهير، إلى مكان للفقر الإبداعي؛ وثانيها أن برنامج "إستيطيقا موظفة سياسيًا" (بيرند فيته) سعى إلى مصالحة بين كتابة العمال والطليعة الجمالية، وفتح استمرارية التاريخ أمام ريح الفجر القادم؛ وثالثها، أنه جعل من افتتان الجماهير عبر وسائل التواصل الجديدة مؤشرًا على استعداد الناس لاستخدام المعدات التقنية.

جعل مسار الأحداث في أوروبا تصور "عنق الزجاجة" التي كان على البشرية أن تعبره بأمتعة قليلة سوء تقدير بصورة غير ملائمة أكثر فأكثر، بحيث تبدو أخيرًا المشكلة برمتها التي نتجت من التفكير المشترك بالموضوعات المركزية المختلفة لبنيامين وكأنها قديمة.

تضمّن عرض بنيامين لكتاب **الممرات** فصولًا ستة: فورييه أو الممرات، داجير أو البانورامات، غرانفيل أو المعارض العالمية، لوي فيليب أو الداخل، بودلير أو شوارع باريس، هاوسمان أو المتاريس. وقفت الشوارع والحواجز بوصفها أمكنة اليقظة في الفضاء المفتوح للتاريخ ولوعي حلم قادر على إنتاج الصور الجدلية مقابل الممرات والبانورامات والمعارض العالمية والداخل بوصفها بقايا هندسية مندثرة لعالم الحلم الجماعي. لم يكن على بنيامين أن يُعدّ بعناية إلا قسم بودلير، بناء على إلحاح المعهد لإنجاز شيء للنشر في مدى

(167) Benjamin, *Passagenwerk*, p. 593.

منظور في **مجلة الأبحاث الاجتماعية.** كتب بنيامين مقالة بودلير الأولى في صيف وخريف 1938 حينما كان عند بريخت في سفندبورغ، وكتب المقالة الثانية في ربيع 1939 في باريس. **تألفت** المقالة الأولى "باريس الإمبراطورية الثانية عند بودلير" من ثلاثة أجزاء – البوهيميون، المتسكع، الحداثة – لتكون الجزء المركزي من كتاب عن بودلير، والذي فكّر من ناحيته من جديد في أن تكون نموذجًا مصغرًا من كتاب **الممرات.** واعتبر المقالة الثانية "في بعض موتيفات بودلير" نسخةً جديدة للجزء الثاني من مقالته الأولى. في أي حال، ما حدث في الواقع هو "أن هذا العرض الذي فُكّر فيه **أصلًا** كإعادة معالجة لفصل المتسكع كان يجب أن يستبعد بالذات التسكع من دائرة موضوعاته"، وأن يبقي من بين الموضوعات المعالجة في فقرة المتسكع في المقالة الأولى على موضوع الكثرة متحدًا مع الموضوعات المهمة لمقالة العمل الفني ومقالة "الراوي". لم يبق محسوسًا في المقالة الأولى إلا النذر اليسير مما وسم مقالة العمل الفني، أي العاطفة الحماسية للبناء الجديد، في حين خلت المقالة الثانية من أي أثر تمامًا. ما كان بنيامين قد استخلصه قبل عامين من ذلك من ملاحظاته لجمهور السينما، لم يظهر في "باريس الإمبراطورية الثانية عند بودلير" إلا بوصفه رسمًا كاريكاتوريًا استعاديًا. المتأنقون [متتبعو الموضة]، كما كتب فيه، "ربطوا ردة الفعل السريعة الخاطفة بتصرف مسترخ، لا بل ومتهدل، وبتعبير وجهي"(168). رأى بنيامين هذا السلوك معكوسًا عند بودلير في شكل تقلصات على معالم الوجه. لكن بودلير، بوصفه شاعرًا، كان بطل الحداثة، لكن في أي حال في عزلة عن الجمهور الذي ترك نفسه يتخدر به، في الوقت الذي طالبت لكماته الألف وعيَه باليقظة القصوى.

عبّر بودلير، شاعر الحداثة الذي نحت بنفسه هذا المصطلح في عام 1859، بحدة لم يسبقه إليها أحد عن مشكلة الشاعر الحداثي: كيف يكون الشعر ممكنًا في المجتمع التقني والرأسمالي؟ قدمت أشعاره وتصريحاته الشعرية النظرية الجواب عن ذلك: يجب على الشعر الحديث "أن يكون رشيقًا وهشًا بما يكفي لكي يلائم الدفقات الغنائية للروح والحركات الموجية لعملية

(168) Walter Benjamin, *Charles Baudelaire: Ein Lyriker im Zeitalter des Hochkapitalismus*, p. 96.

الحلم وصدمات الوعي"[169]. عندما تمتع بودلير بالتقدير الخاص الذي حمله إلى الحياة الحديثة التصنيعُ والتقدمُ اللذان يصب جام غضبه عليهما، وعندما لم يدرك في الوحشية الفاسدة للمدينة الكبيرة سقوط البشر فحسب، بل أدرك فيها أيضًا جمالًا مشبعًا بالأسرار لم يُكْتَشف بعد، كان هذا دليلًا على محاولة إيجاد أثر لكرامة حقيقية في عصر بلا كرامة.

في [مقالة] "في بعض موتيفات بودلير"، لم يتبقَّ شيء البتة من الفرح بالبناء الجديد أو تقديم الإنسانية إلى الجماهير. لقد عالج هذا العمل، وهو إلى حد ما أكثر تركيزًا ووضوحًا من العمل الأول، في معظمه كلفة الحداثة. وصاغ بنيامين السؤال الحاسم: "كيف يمكن أن يتأسس الشعر الغنائي في تجربة، غدت تجربة الصدمة معيارها السائد؟"[170]. بات الآن يُنظر إلى شكل الصدمة أكثر في صلة داخلية بتماس بودلير مع جماهير المدن الكبيرة[171] التي لا تتميز الآن إلا انعكاسيًا، بوصفها مادة لا شكل محددًا لها للانضباط الجماهيري الفاشي القادم. لم يعد يُنظر إلى الفوتوغرافيا، كما في مقالة العمل الفني، كضرورة يمكن أن يصنع منها شيء صالح أو فرصة ما، بل بوصفها إفقارًا لا أكثر: "للنظرة التي لا يمكن أن تشبع من لوحة، تعني الفوتوغرافيا أكثر مما يعنيه الطعام للجائع أو الشراب للظمآن"[172]. وهناك حيث كان يرحّب يومًا بحضور الروح، لا يذكر بنيامين الآن إلا فقدًا واحدًا: "النظرة الواثقة تُغْنِي عن الضياع الحالم في البُعْد، ويمكنها أن تجعل الواحد يشعر بشيء يشبه اللذة بمهانتها"[173]. "وثبة النمر في الماضي" انتهت بالظلمة: "بالنسبة إليه[174]، انتهى ظاهر جمهور يتحرك في داخله، ويقيم فيه، ظاهرٌ كان المتسكع غارقًا فيه إلى أذنيه [...] وقد خانه آخر حلفائه، يمضي بودلير ضد الجمهور؛ وهو يفعل هذا بالغضب القاصر لمن يمضي ضد المطر أو الريح. هكذا خُلق الحدث

---

(169) كما قال بودلير في إهداء كتابه *Le Spleen de Paris*، ذكره بنيامين في:

Ibid., p. 67.

(170) Ibid., p. 110.

(171) Ibid., p. 114.

(172) Ibid., p. 141.

(173) Ibid., p. 146.

(174) أي إلى بودلير.

الذي أعطاه بودلير وزن تجربة وأهميتها. لقد وصف الثمن الذي يتطلبه تملك إحساس الحداثة: تحطيم الهالة في حدث الصدمة. دفع غاليًا ثمن الموافقة على هذا التحطيم، لكنه قانون شعريته".

في هذه المرارة الكالحة التي بدا فيها أن بنيامين قد غيّر اتجاهه إلى موقف أدورنو، انعكست قناعته: إما أنه كانت هناك استنارة ظاهرة أو لم يكن، أو أنه كانت هناك ثقافة جماهير أو لا شيء من ذلك على الإطلاق.

كان هوركهايمر هو من حذف الفقرة الافتتاحية في مقالة العمل الفني التي سمّى فيها بنيامين، في ضوء الإحالة الصريحة على منهج ماركس التحليلي الرؤيوي، كهدف لدراسته وَضْعَ أطروحات حول اتجاهات تطور الفن في ظل شروط الإنتاج الحاضرة، وكان السبب وراء اختزال القسم التمهيدي لمقالة فوكس بأفكاره العامة حول مفهوم المادية التاريخية أو استحسانه. كان سبب هذه الحذوفات، وسبب استبدال مصطلحات مثل "الفاشية" أو "الشيوعية" بتعابير مثل "العقائد التوتاليتارية" و"القوى البناءة للبشرية" هو نفسه، وكذلك تنبيه هوركهايمر لأدورنو في محاضرة في معهد لندن لعلم الاجتماع مطلع عام 1938 إلى "أن يتكلم بصورة علمية جدًا"، و"ألا يقول كلمة واحدة يمكن أن تفسَّر سياسيًا"، و"أن يتجنب أيضًا بالمطلق استخدام مصطلحات مثل مادية"[175]. يتعين حماية المجلة والمعهد "كأداة علمية" أو بالأحرى كمؤسسة علمية من "الانجرار إلى مناقشات سياسية في الصحافة"[176]. تحفّظ هوركهايمر بنفسه عن تصريحات أساسية حول موقف المعهد النظري والسياسي، لكي يتمكن من إعطائها الشكل الذي يبدو ملائمًا له.

لكن ما الذي كان على أدورنو، حليف بنيامين، أن ينتقده في أعماله؟ وما الذي عليه أن يقدمه إزاءها؟ تقدم الإجابة عن ذلك "الرسائل الطويلة" لأدورنو (بنيامين) حول أعمال بنيامين منذ مقالته عن كافكا ومقالات أدورنو التي نشرت في المجلة في النصف الثاني من الثلاثينيات، وهي مقالات ارتبطت بعلاقة

(175) رسالة من هوركهايمر إلى أدورنو، 24 كانون الأول/ ديسمبر 1937.

(176) رسالة من هوركهايمر إلى بنيامين، 18 آذار/ مارس 1936.

وردت في:

Benjamin, *Gesammelte Schriften*, vol. 1, p. 997.

حوارية مع مقالات بنيامين. شكلت مقالتا أدورنو "في موسيقى الجاز" و"عن الطابع الصنمي في الموسيقى وتراجع الاستماع" القطب النقدي المقابل لمقالة العمل الفني لبنيامين. مقالة أدورنو "شذرات حول فاغنر" يمكن قراءتها بوصفها نموذجًا مضادًا لمقالة بنيامين الأولى عن بودلير، والتي ظهرت إلى جانبه كبديل جديد مقالةُ بودلير الثانية المنشورة في المجلة.

تظهر "الرسائل الطويلة" لأدورنو[177] بصورة إجمالية الأكثر أهمية. رأى أدورنو تطابقًا بينه وبين بنيامين "في النقاط الفلسفية المركزية" التي تتمثل بنظره في حقيقة أنهما قاما في ضوء لاهوت "عكسي"، رأى الحياة الدنيوية من منظور الخلاصي، وفكّك عناصر الحياة الخاطئة، بوصفها شيفرة الأمل، بممارسة الحل الذاتي الجدلي للأسطورة من خلال البناء الجدلي للعلاقة بين الأسطورة والتاريخ.

أصاب نقد أدورنو الموجَّه إلى بنيامين جوهريًا ثلاثة مركّبات: 1) كان يرى بنيامين في أمور مهمة قديمًا جدًا، أو منغمسًا للغاية في الأسطورة، أو بالأحرى لم يكن شافًا على نحو كاف من الناحية الجدلية، أو لم يكن جدليًا عمومًا. 2) بالنظر إلى نزع الأسطرة عن الفن كحالة خاصة من الحل الذاتي للأسطورة جدليًا، اتهم أدورنو بنيامين، من ناحية، بالتقليل من شأن العقلانية التقنية للفن المستقل، ومن ثم بتدمير هالته، ومن ناحية أخرى بالتقليل من شأن اللاعقلانية المحايثة للفن الاستهلاكي وللطابع "التأملي" لجمهوره، وللجماهير، ومن ضمنها البروليتاريا. 3) إضافة إلى ذلك، اعتبر أن من الخطأ القاتل أن ينظر بنيامين إلى سلسلة من الحقائق، ليس بوصفها ذات طبيعة "فلسفية-تاريخية موضوعيًا"، بل اعتبرها كما هي دائمًا ظواهر ذاتية جماعية. وبذلك لم يكن بنيامين، بنظر أدورنو، محقًا خصوصًا في ما يتعلق بالقوة الموضوعية لصنمية السلعة، وكان يمارس شكلًا غير ماركسي من التحويل النفسي الذي كان قريبًا على نحو خطر من نظيره عند كارل غوستاف يونغ (Carl Gustav Jung)، وهو

(177) أي رسائله بتاريخ 17 كانون الأول/ديسمبر 1934 حول مقالة "كافكا" لبنيامين؛ وبتاريخ 2 آب/أغسطس 1935 حول العرض الأول لكتاب **الممرات**؛ وبتاريخ 18 آذار/مارس 1936 حول مقالة العمل الفني؛ وبتاريخ 10 تشرين الثاني/نوفمبر 1938 و1 شباط/فبراير 1939 حول مقالة بودلير الأولى؛ وبتاريخ 29 شباط/فبراير 1940 حول مقالة بودلير الثانية، وقد جُمِعت في كتاب لأدورنو:
Theodor W. Adorno, *Über Walter Benjamin*.

ما منع من إضفاء الجدل الصحيح على صنمية السلعة، وأعاق الفهم الملائم للتوسط الاجتماعي للعمل الفني.

عندما شكر بنيامين أدورنو لاهتمامه الحي، وشدد على أن أدورنو فهم مقاصده بدقة متناهية، لم يكن هذا أكثر من مجاملة تجاه شخص اعتمد على دعمه. وعلى الرغم من أن أدورنو لم يقبض على جميع جوانب أفكار بنيامين، فقد رأى أكثر من شولِم أو حتى من بريخت أو غيره، وكان هو من ذهب إلى أفكار بنيامين بأكثر الطرق التي تعبّر عن الحرص والاهتمام، واستحوذه أكثر من أي شخص آخر. بدا بنيامين مجاملًا عندما أبرز، بما انفرد به، التوافقات العميقة في رؤيتهما، قبل أن يأتي على ذكر الاختلافات في ما بينهما. كانت النقاط التي أصر على وجود تباينات فيها، والتي سعى لتأجيلها إلى محادثات شخصية قدر المستطاع، غنية جدًا بالنتائج. لقد بيّنت عمومًا أنه عمل بجد أكثر من أدورنو على معالجة مشكلات مركزية. انطبق هذا على مشكلة الفن الجماهيري وعلاقته بالفن المستقل، وعلى العلاقة بين الفن والمجتمع؛ كما انطبق على العلاقة بين اللاهوت والمادية التاريخية؛ وعلى السؤال عن حدود القدرة التفسيرية للنظرية الماركسية أو بالأحرى صحتها.

حول العلاقة بين مقالته حول العمل الفني ومقالتي أدورنو "في موسيقى الجاز" (لعام 1936) و"عن الطابع الصنمي في الموسيقى وتراجع الاستماع" (لعام 1938)، حاول بنيامين في عمله الإفصاح بوضوح عن الأوجه الإيجابية مثلما حاول أدورنو الإفصاح عن الأوجه السلبية. قد لا يتعلق الأمر أبدًا - كما يقول - باختلافات نظرية، بل بتباينات في الموضوع فحسب. "لم يُقَل حقيقةً إن الإدراكات السمعية والبصرية لتحول ثوري متاحة بالتساوي. ربما يرتبط ذلك بحقيقة أن منظور مقالاتك[178] حول تحويل فعل السماع غير واضح على الأقل لمن لم يكن مالر بالنسبة إليه تجربة متألقة بكل تفاصيلها"[179]. وبذلك قدم بنيامين الكثير بأسلوب مؤدب. عندما أعلن أدورنو، وهو الذي كان معنيًا بإضفاء الطابع الجدلي المحكم على ما هو مشيَّأ إلى أقصى الحدود وإنقاذه،

---

(178) أي مقالة "عن الطابع الصنمي في الموسيقى وتراجع الاستماع".

(179) رسالة من بنيامين إلى أدورنو، 9 كانون الأول/ ديسمبر 1938؛ Bloch, *Briefe*, pp. 797 f.

أن موسيقى الجاز والفن الجماهيري بالذات غير قابلين للإنقاذ عمومًا، بدا هذا تعسفًا، وانبثق بوضوح من رؤية لم تكن من الناحية السلبية أقل أحادية من رؤية بنيامين الإيجابية للفيلم. عندما رأى أدورنو، من ناحية أخرى، في نهاية مقالته عن الطابع الصنمي أن تراجع الاستماع يمكن "أن يتحول عكسًا على حين غرة إذا ما قُدّر للفن يومًا مع المجتمع أن يترك المسار الذي لا يتغير أبدًا"، وتابع: "لأجل هذه الإمكانية لم تقدم الموسيقى الشعبية نموذجًا، بل الموسيقى الفنية"، ثم بعدئذ ذكر اسم غوستاف مالر. بدا هذا أيضًا شديد التعسف، وانبثق بوضوح من وجهة نظر لم تكن تنتظر - على الرغم من أن أدورنو طالب بالجدل في الظواهر الدنيا والعليا على السواء - إلا الشيء القليل من الفن المستقل، لكنها لم تكن تتوقع شيئًا من الفن الجماهيري.

عبّر بنيامين بإلحاح شديد للغاية عن رؤيته للمشكلة في ملاحظاته حول كتاب **الممرات**: "لن نكسب الجماهير في أي لحظة، مهما كانت طوباوية، لفن أرقى، بل لن نكسبها دومًا إلا لفن أقرب إليها. والصعوبة التي تكمن في ذلك يمكن صوغها بأن المرء قد يزعم بسريرة نقية أنها شكل أرقى من الفن. يمكن هذا أن ينجح بلا أي شيء تقريبًا مما تدعو إليه الطليعة البرجوازية [...]. في المقابل، فإن ما يصح على الأشكال الحية الناشئة هو أن فيها شيئًا دافئًا ومفيدًا ومفرحًا في النهاية، وأنها تستوعب، جدليًا، 'المبتذل' في داخلها، لتستطيع بذلك تقريب الجماهير منها والتغلب عليه. ربما يكون الفيلم وحده قد ارتقى اليوم إلى هذه المهمة، إلا أنها بالنسبة إليه هي المهمة التالية"[180]. دفعته هذه الرؤية، في جميع الأحوال، إلى ألا يبحث عن الحل حيث لا يوجد على الإطلاق، أي في الفن المستقل. على العكس، رأى أدورنو في الفجوة بين الجماهير الانفعالية والفن المستقل تحديًا لهذا الأخير، للحفاظ على الفجوة ما دامت الجماهير انفعالية، وتباشر اليوم في الفن بما يمكن أن يقوم به لاحقًا مجتمع حق على نحو روتيني. لم تكن المشكلة بالنسبة إليه كيف يمكن الجمع بين الفن والجماهير، بل كيف يمكن جعل الفن المستقل مسرحًا تظهر فيه المشكلات الأساسية للمجتمع ويكون فيه ممكنًا إنتاج نموذج للخلاص؟

---

(180) Benjamin, *Passagenwerk*, pp. 499 f.

أنتج اهتمام أدورنو بمناقشة تفصيلية للمشكلة خطته لكتاب يضم مقالات وعنوانه **الفن لاستهلاك الجماهير**. هذا الكتاب كان من المفترض أن يجمع مقالة بنيامين عن العمل الفني، ومقالته هو (أدورنو) عن موسيقى الجاز مع مقالةٍ اجتماعيةٍ-نظريةٍ لكراكاور عن الروايات البوليسية وأعمال لبلوخ ولأشخاص آخرين، حول، على سبيل المثال، الهندسة والمجلات المصورة ومقالة افتتاحية رئيسية لهوركهايمر، وأن يقدم "أول تطبيق محسوس (غير بيانيّ على طريقة المنظّرين الروس) للنظرية على الشكل **الراهن** لما يسمى 'الثقافة'"[181]. وكما هو حال كثير من المخططات، لم يجد هذا المخطط طريقه نحو التحقق قط. ومثلما كان الأمر في كثير من الحالات أيضًا، كان وعي المشكلة والحاجة إلى مناقشتها في هذه الحالة أكبر مما تسمح المنشورات بتخمينه.

كان نقد أدورنو لمقالة بنيامين الأولى عن بودلير موجهًا، من بين أمور أخرى، إلى منهج "إحالة المضامين النفعية لبودلير مباشرة على الجوانب المتعلقة بالتاريخ الاجتماعي لعصره، وخصوصًا على تلك الجوانب المتصلة بالطبيعة الاقتصادية"[182]. ولهذا تفرض مقالاته أن يُنظر إليها بوصفها نماذج تُدلل على الكيفية التي يتصور فيها "التحديد المادي للخصائص الثقافية" "من طريق الاتجاه الاجتماعي والاقتصادي العام للعصر"[183].

في المقالة عن موسيقى الجاز اتبع أدورنو النهج التالي. أبرز في تحليل وُصِف بالتقني مزايا موسيقى الجاز المختلفة، وخصوصًا منها خلخلة الإيقاع الذي يراعى فيه بدقة متناهية حساب زمن الإيقاع الأساسي. وفيه وقفة خادعة، واهتزاز الجامد في ذاته، وقادم قبل أوانه. وبذلك رأى أدورنو الدلالة الاجتماعية لموسيقى الجاز وقد فُككت شيفرتها. لقد وسّع تلك المزايا إلى قدوم باكر جدًا، بمعنى التحليل النفسي للرعشة الجنسية المبكرة الناجمة عن القلق، وإلى تأكيد أولوية الجماعي بواسطة الوقفة الخادعة المتعثرة لاشعوريًا للفرد المشوَّه، كما وسّعها لتشمل الطابع السلعي القياسي للمسة الفردية الخادعة والمجتمع

---

(181) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 23 تشرين الثاني/ نوفمبر 1936.

(182) Adorno, *Über Walter*, p. 138.

(183) Ibid., p. 139.

الذي كان عليه أن يطور قوى الإنتاج ويقيدها في الوقت عينه. كانت موسيقى الجاز - كما توضح الخلاصة - الشعيرة الجامدة التي تكشف عن خضوع الأنا للجماعي[184]. وبهذا - تقول خاتمة أدورنو في إشارتها إلى خاصية أخرى لموسيقى الجاز - "تفرض موسيقى الجاز في الوقت نفسه المعنى التاريخي الأصلي للعلاقة بين الكوبليه واللازمة من جديد لتعيدها إلى أصالتها؛ لأن المغني أو الراقص ليس أكثر من قربان بشري أو بديل عنه".

في عمله حول فاغنر (لم يُنشر من قبل في **مجلة الأبحاث الاجتماعية** إلا بضعة فصول منه بعنوان "شذرات حول فاغنر")، رأى أدورنو أنه يمكن إيجاد مفتاح لفك الشيفرة الاجتماعية لموسيقى فاغنر بوصفها خيانة الثورة للمتمردين بالمعنى الذي يقصده فروم للعصيان الخاضع للسلطة[185]. وخلافًا لما رآه في موسيقى الجاز، رأى أدورنو في موسيقى فاغنر في لحظات التراجع شيئًا أيضًا، هو أكثر من مجرد تضحية مازوشية بالأنا: رأى ملامح تضحية بالذات تشير إلى ما هو أكثر من الحياة المشيأة[186]. وهو إذ نظر إلى قانون الشكل الذي يحكم موسيقى فاغنر في تغطية الإنتاج عبر ظهور المنتَج[187]، رأى هذه الموسيقى وقد اكتست من جديد الطابع السلعي الذي يُعدّ في جزء منه تغطية العمل الذي أنتج السلعة أكثر مما هو تحقيق لرغبة المستهلك[188].

لم يتضمن منهج أدورنو نموذج توسط للخصائص الثقافية من خلال العملية الاجتماعية-الاقتصادية برمتها، بل وضع في أوجه العمل الفني المختلفة من فوره كل ما يمكن أن يقال كونيًا عن المجتمع كما رآه. كانت التحليلات التقنية مختصرة جدًا، لأن تفسيرات أخرى ذات مضمون اجتماعي-نظري قائمة على تحليل المضمون والتأثير التاريخي، والبيوغرافيا، وعلم النفس الاجتماعي فرضت نفسها على أدورنو إلى أن امتلأت كل لائحة مقولاته وموضوعاته.

---

(184) *Zeitschrift für Sozialforschung* (1936), p. 256.

(185) Theodor W. Adorno, *Versuch über Wagner*, pp. 34 f.

يُنظر أيضًا: رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 19 تشرين الأول/ أكتوبر 1937.

(186) *Zeitschrift für Sozialforschung* (1939), p. 46.

(187) Ibid., p. 17.

(188) Ibid., pp. 21, 22.

وكما انتهت التحليلات بسرعة، على الجانب السلبي، إلى التشيؤ والاغتراب والطابع السلعي والفرد الانفعالي، انتهت، على الجانب الإيجابي، في تصور روح يتخلى عن السلطة. في تحليله الأعمال الفنية، كان أدورنو مستعدًا لمنحها جميعًا الطابعين الصنمي والسلعي، متيقنًا من قدرته على إثبات أن بعضها - المستقلة منها بالطبع - قد أضفت الطابع الجدلي على تشيؤها. وهكذا، على الرغم من تشخيصه للَعنة اجتماعية شاملة، استطاع أدورنو تقديم الأعمال الفنية على أنها نجت من تلك اللعنة.

على نحو مشابه بقيت وظيفة اللاهوت والمادية التاريخية وإمكاناتهما موضع جدل ومبهمة، شأنها شأن الوظيفة الاجتماعية للفن المستقل والفن الجماهيري وإمكاناتهما. كتب أدورنو إلى بنيامين بمناسبة مقالة بودلير الأولى يقول: "إن تضامنكم مع المعهد الذي لا يمكن أحدًا أن يكون أسعد مني به، دفع بكم إلى الإشادة بالماركسية، تلك الإشادة التي لم تمدح الماركسية ولم تمدحكم. ليس هناك، وأمري إلى الله، إلا حقيقة واحدة، وإذا استطاعت قوة تفكيركم أن تستحوذ على هذه الحقيقة في مقولات يمكن أن تجعلكم تظنون، وفق تصوركم للمادية، أنه مشكوك في صحتها، فإنكم بلا ريب سوف تستطيعون أن تصنعوا من هذه الحقيقة الواحدة مع تلك المقولات أكثر مما تفعلون عندما تستعملون عدة فكرية تمتنع يدكم باستمرار عن ملامستها. أخيرًا، يوجد في أصل الأخلاق وفصلها لنيتشه من الحقيقة أكثر مما في كتاب بوخارين **ألف باء**[189]. أعتقد أن هذه الأطروحة التي أقولها هي خارج شبهة الميوعة أو شبهة التوفيقية. **الأنساب المختارة** وكتاب **الباروك** هما ماركسية أفضل من ضريبة الخمر ومن استنباط الاستيهامات من سلوك الكتاب في الملحقات الأدبية. تستطيعون أن تضعوا هنا ثقتكم بأننا مستعدون أن نجعل أكثر تجارب نظريتكم تطرفًا تجاربنا"[190]. كان هذا تحديًا أظهر تحولًا مثيرًا للإعجاب في توقعات المعهد من بنيامين.

---

(189) أي كتاب **ألف باء الشيوعية**، تأليف نيكولاي بوخارين ويفغيني بريوبراجنسكي.
E. A. Preobrazhenskiĭ & N. Bukharin, *Das ABC des Kommunismus*.

(190) رسالة من أدورنو إلى بنيامين، 10 تشرين الثاني/ نوفمبر 1938؛
Adorno, *Über Walter*, pp. 141 f.

وقف أدورنو بادئ الأمر ضد دعم مشروع [كتاب] **الممرات** بسبب طابعه الميتافيزيقي الموهوم. بعد ذلك أوصى بحرارة بتقديم الدعم للمشروع بوصفه مشروعًا خاليًا من الميتافيزيقا وجديدًا تمامًا في التساؤلات التي يثيرها وفي المنهج الذي يستعمله. وأخيرًا، أكد لهوركهايمر أن أحد أكثر النتائج القطعية لمحادثات باريس مع بنيامين كانت "أنه أصبح واضحًا لكلينا ضرورة تجنب أي استعمال صريح للمقولات اللاهوتية"[191]. لكن أدورنو كان يصرّ في مراسلاته مع هوركهايمر دائمًا وأبدًا على تسويغ الموضوعات اللاهوتية، وحاول أن يقدم استعمالًا ضمنيًا لهذه المقولات عند هوركهايمر نفسه في مقالته "عن تيودور هيكر: المسيحي والتاريخ" من غير أن يواجه أي احتجاج شديد. هل أراد أدورنو في عام 1938 - وقد كان في تلك الأثناء عضوًا دائمًا في المعهد في الولايات المتحدة، وقادرًا على إعطاء حكم مؤكد عن حدود تسامح هوركهايمر المادي والشوبنهاوري - ربما أن يُجدد الدعوة لبنيامين الذي كان يتلقى هذه المرة الدعم المالي من المعهد لتحقيق "جميع المضامين اللاهوتية والحرفية في الأطروحات الأكثر تطرفًا"، بمعزل عن أي "تواصل خارجي" مع النظرية الماركسية[192]؟ لقد رأى في بنيامين بوضوح شخصًا يستطيع، كما فعل شونبرغ في الموسيقى، أن يدير ظهره للمجتمع، ويعمل على مادته الخاصة - مادة لاهوتية ضمنيًا وباطنية - لإنتاج ثورة، ويا للمفارقة، ثورة في النظرية الاجتماعية.

من الواضح أن أدورنو كان يثق بنفسه إلى حد ما أكثر من بنيامين. كان أكثر وعيًا في التوسط بين النظرية الماركسية والموضوعات اللاهوتية، وأقل جذرية في تفكيره اللاهوتي المتقوقع على نفسه. لكن بنيامين قاوم الدور الذي كان أدورنو يريد له أن يؤديه. "لو رفضتُ آنئذ[193] باسم اهتماماتي الإنتاجية أن أتبنى تطوير فكر متقوقع لنفسي، وأن أقفز، من ثم، فوق مصالح المادية الجدلية وفوق مصالح المعهد منتقلًا إلى جدول الأعمال، لم يكن ليؤدي دورًا في نهاية الأمر

---

(191) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 21 كانون الثاني/يناير 1937.

(192) يُقارن مع ص 274 في هذا الكتاب.

(193) أي في سان ريمو، في اللقاء الأخير مع أدورنو وغريتل كاربلوس، قبل أن يهاجر الاثنان إلى الولايات المتحدة الأميركية.

التضامن مع المعهد ولا حتى مجرد الأمانة للمادية الجدلية، بل كان التضامن مع التجارب التي قمنا بها نحن جميعًا في السنوات الخمس عشرة الماضية. المعني هنا، إذًا، هو أيضًا الاهتمامات الإنتاجية الخاصة بي جدًا. لن أُنكر أن هذه الاهتمامات يمكن أن تحاول أحيانًا الاعتداء على اهتماماتي الأصلية. ثمة تناقضٌ هنا لن أتمنى، حتى في أحلامي، التخلص منه. ويشكل التغلب عليه معضلة العمل، وهذه المعضلة هي واحدة من بنيتها"[194].

في الواقع، كان لا بد من أن يكون لبنيامين علاقة وطيدة بالنظرية الماركسية أكثر من أدورنو، بالنظر إلى تجاربه وعمله الملتزم بوصفه كاتبًا مثقفًا يساريًا. لكن هل برهن فعليًا عن كفاءة أكبر في تطبيق ما كتبه في أطروحاته **في مفهوم التاريخ**؛ أي إن المادية التاريخية، ببساطة، ملائمة لأي شخص إذا ضمت إليها اللاهوت الذي أصبح اليوم محجمًا وذميمًا - كما هو معروف - وعليه أن يبقى بعيدًا عن النظر؟ في نقده المقالة الأولى عن بودلير، طلب أدورنو من بنيامين - نظرًا إلى ادعاء بنيامين نفسه - بحق أن يُعيد مرة أخرى قراءة الفقرة حول السلعة والمتسكع، وأن "يكرس مجددًا انتباهه بدقة فائقة، وأن يواجه قراءته بما جاء في الفصل عن صنمية السلعة في المجلد الأول[195]"؛ ذلك أن "المجلة تفترض محقةً أن الكفاءة الاختصاصية بالماركسية في هذا المجال أمر مطلق"، وأنه كان عليه هو نفسه أن يعيد صياغة فقرته حول تعويض القيمة التبادلية في مقالة الطابع الصنمي في الموسيقى "مقابل نسختها الأكثر جسارة في المشروع الأول بالاشتراك مع ماكس ولو تطلب جهدًا لا نهاية له"[196].

تنازل بنيامين في عمله الثاني عن ادعاء الاختصاص المطلق في الماركسية. إذا كان يمكن أن يكون رجوعه في مقالته الثانية عن بودلير إلى مقالته "الراوي"، من بين مقالات أخرى، رجوعًا أيضًا إلى سلسلة الأفكار التي اعترف بها أدورنو

---

(194) رسالة من بنيامين إلى أدورنو، 9 كانون الأول/ ديسمبر 1938؛
Benjamin, *Gesammelte Schriften*, vol. 1, p. 1103.

(195) من كتاب **رأس المال** (*Des Kapital*).

(196) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 1 شباط/ فبراير 1939؛
Adorno, *Über Walter*, p. 154.

وإلى مقولات بنيامين الخاصة، يتبين إجمالًا أن التوفيق بين اللاهوت والنظرية الماركسية لم يكن شغل بنيامين الشاغل، وأنه أعاق التطور العنيد لموضوعات تفكيره المركزية أكثر من تحفيزه لها. "حضرت في ذاكرتي بوضوح تلك الفقرة من الفصل الخامس من كتاب فاغنر[197] التي تشيرون إليها"، كتب بنيامين في رده على رسالة أدورنو بتاريخ 29 شباط/فبراير 1940، مدح فيه كثيرًا مقالة بنيامين الثانية عن بودلير، وقدم بعض الملاحظات النقدية عليها. "لكن، في حال كان المعني فعلًا بالهالة 'شيئًا إنسانيًا منسيًا'، فالأمر لا يتعلق بالضرورة بما يظهر في عملي. الشجرة والشجيرة اللتان يمكن استعارة صورتيهما ليستا من صنع الإنسان. إذًا، يجب أن يكون في الأشياء ما هو إنساني؛ لكنه **ليس** نتاج العمل. وإنني أريد أن أتوقف هنا"[198]. حيثما رأى أدورنو واحدة من مشكلات بنيامين وقد حُلّت باستعمال تفكير ماركسي، كان بنيامين يرى اختزال مشكلة بقيت لغزًا بشكلها غير المختزل.

كان أدورنو يسهّل على نفسه أمورًا أكثر مما كان يفعل بنيامين. حينما اتهم بنيامين بأن لديه تحيزًا قديمًا، انطبق عليه هو نفسه أنه كان متهورًا في استخدامه التعالي الجدلي. كان يوزع كلمات: أسطوري، وصنمي، ومُشيّأ، ومغرَّب بسخاء كبير، واضعًا نصب عينيه نموذج موسيقى حلقة شونبرغ لكي "يخترق جدليًا" هذا النموذج هنا أو هناك واضعًا ثقته في قوة الوعي، باعث النور وناشر الدفء. على عكس بنيامين الذي بقي ما كتبه في عام 1912 في "حوار حول تدين الحاضر" مطبوعًا بطابعه: "نحن مدينون للرومانسية بالرؤية في الجانب المظلم للطبيعي. إنه ليس جيدًا في الأساس؛ هو غريبٌ ورهيب ومخيف، وهو في النهاية سافلٌ [...]. اكتشاف الرومانسية هو تفهُّم كل ما هو رهيب، وغير مفهوم ومنحط، مما نُسجت منه حياتنا"[199]. كان بنيامين أكثر ريبة من أدورنو في ما خص سلطة الوعي وتقدمه، وفي الوقت نفسه أكثر حذرًا في تقويم الأسطورة وفي التغلب عليها بواسطة مزيد من العقلانية.

---

(197) وهو مخطوط لأدورنو.

(198) رسالة من بنيامين إلى أدورنو، 7 أيار/ مايو 1940؛ Benjamin, *Briefe*, p. 849.

(199) Benjamin, *Gesammelte Schriften*, vol. 2, pp. 22, 24.

ربما تبدو تصورات بنيامين مغامرة: تصورات عن تقانة تقترن البشرية بواسطتها بالكون؛ تصورات عن وسائل الاتصال الجماهيرية التي علّمت البشرية السيطرة على التقانة التي استبدت بها؛ تصورات عن وعي تاريخي استخرج المستقبل من الماضي. إلا أن الإشكاليات الحاسمة كانت موجودة في هذه الأبعاد بالذات، وأقل بكثير في الهواء الخفيف الموجود في التقدم في "العقلانية الحسنة" الموجودة في الأعمال الفنية المستقلة "المسؤولة"، في المصالحة بين الطبيعة والروح في السيطرة على الطبيعة الذي تمتلكه الموسيقى الراقية. عندما فرح أدورنو بأن بنيامين في مقالته الثانية عن بودلير قد كتب نوعًا ما "التاريخ الأصيل للطابع التأملي" الذي تمركزت حوله - منذ وصوله إلى أميركا - كل اعتباراته الخاصة بالأنثروبولوجيا المادية[200]، أغفل أن هذا ما كان ليقبله بنيامين بهذه السهولة، لكنه، أي بنيامين، لم يؤمن كما آمن أدورنو بالعقلانية الحسنة للأعمال الفنية المستقلة، بل رأى في نهاية مقالة أدورنو عن الطابع الصنمي تحفظًا ضد مفهوم التقدم يروقه جدًا. وكتب حوله إلى هذا الأخير: "أنتم تعلّلون هذا التحفظ عرضًا في البداية وبالنظر إلى تاريخ المصطلح. أما أنا فبودّي أن أتلافاه في جذره وفي أصوله"[201].

بصرف النظر عن بعض الاختلافات، كان بنيامين وأدورنو متفقَين بأن نزع السحر كان أمرًا لا محيد عنه، وكان جيدًا، وكان من المهم جدًا ألا يُغطى ثانيةً بسحر جديد وفاسد. ففرص الحاضر تكمن حصرًا في التدهور التدريجي للفن الموروث، أما ما لا يمكن كسبه في التدهور وفي نزع السحر فيمكن كسبه من الماضي بوصفه شيئًا غير منزوع السحر، شيئًا متناغمًا أبدًا، أو بوصفه شيئًا كلاسيكيًا إلزاميًا، أو أن لا يكسب الحاضر شيئًا منه على الإطلاق. "أرى، في واقع الأمر (في تحول الموسيقى إلى مهزلة)، وفي 'تدهور التآخي المقدس'، شيئًا إيجابيًا جدًا، ولا يتصل بعملي في أي موضع بشكل أكثر إلحاحًا

(200) رسالة من أدورنو إلى بنيامين، 29 شباط/ فبراير 1940؛
Adorno, *Über Walter*, p. 158.

(201) رسالة من بنيامين إلى أدورنو، 9 شباط/ فبراير 1938؛
Benjamin, *Briefe*, p. 798.

من اتصاله هنا بعملكم في إعادة الإنتاج. عندما يبقي هذا في النص[202] ملتبسًا، لا بد من أن أشعر بأن هذا عيبٌ جسيم فيه"[203].

ناقدا الأيديولوجيا هربرت ماركوزه وليو لوفنتال حول الفن

في الوقت الذي كان بنيامين وأدورنو يتناقشان في أوروبا في موضوع التقويم الصحيح لأشكال الفن المعاصر والثقافة ووظائفهما، كانت حلقة هوركهايمر في نيويورك لا تكل ولا تمل هي الأخرى أيضًا من النقاش في ميدان علم الجمال المادي. ظهرت في المجلة في عام 1937 مقالة ماركوزه وعنوانها "عن الطابع الإيجابي للثقافة"، ومساهمة لوفنتال "كنوت هامسون: عن التاريخ السابق للأيديولوجيا السلطوية" (بعد مساهماته التي تناولت كونراد فرديناند ماير ودوستويفسكي وإبسن، لم تكن هذه آخر مقالة له في سلسلة مقالاته حول كلاسيكيي الأدب البرجوازي فحسب، بل كانت مقالته الأخيرة على الإطلاق في **مجلة الأبحاث الاجتماعية**. بدت هاتان المقالتان كأنهما من وحي أفكار بنيامين وأدورنو، من مقالات نُشرت في **مجلة الأبحاث الاجتماعية**، مثل "عن الوضع الاجتماعي للموسيقى" و"العمل الفني في عصر إعادة إنتاجه التقني"، من دون المس كليًا بمطالبة معالجة الأعمال الفنية نفسها ومناهجها وطبقات معانيها، ومن دون أن يمسّ أيضًا واقع أن هناك حداثة فنية منذ منتصف القرن التاسع عشر، من بين مميزاتها هدم الوظيفة التنويرية للفن.

اتبع لوفنتال في آخر مساهمة له في **مجلة الأبحاث الاجتماعية** نهج النقد الأيديولوجي وسوسيولوجيا الطبقات، وكان السبب في كتابتها نزاعٌ نشب بينه وبين ماركوزه الذي كان يقدّر هامسون؛ وقد ثبت فيها وجود شعور طبيعي برجوازي قديم وجديد. كان الشعور القديم نشطًا، ومطبوعًا بالثقة بالتقدم في السيطرة على الطبيعة، وقد انبثق من الموقف المتفائل بصعود مادي وواسع

(202) أي في مقالة "عن الطابع الصنمي في الموسيقى وتراجع الاستماع".

(203) رسالة من أدورنو إلى بنيامين، 1 شباط/ فبراير 1939.

لشرائح برجوازية ليبرالية مؤيدة؛ أما الشعور الجديد فكان سلبيًا، مطبوعًا بالاستسلام الصامت تجاه طبيعة بدت خارجة عن السيطرة وعصية عليها، وقد نبع من الموقف المازوشي للبرجوازيين الصغار الذين لم يعودوا يدركون ما يجري بفعل الرأسمالية الاحتكارية، فاستسلموا وعبدوا السلطة. "يكشف عمل هامسون" - أي البرجوازي الصغير - "عن أيديولوجيته"، هكذا بدأ بعد تلك المقارنة التي استهلت تحليل لوفنتال لروايات هامسون. كان وقع هذا التحليل مضحكًا، عندما اتهم لوفنتال هامسون بغياب الوضوح النظري-الاجتماعي، ومن ثم تشجيع اللاعقلانية الاجتماعية؛ كانت هذه اللاعقلانية منهجيًا موضع تساؤل حينما أنكر على روايات هامسون من دون سبب طابع الشعر، وقُلِّصت إلى - وقد أُلبست أحيانًا ثوب التورية - بيانات أيديولوجي ما قبل سلطوي، واستنتجت وظيفتها الاجتماعية من نتائج تأويل قائم على تحليل مضمونها.

لم يعد بعدئذ بالإمكان تصور قبول أعمال هامسون إلا في مقولات رفض الأيديولوجيا ما بعد الليبرالية أو الاعتراف بها، وليس بوصفها عملية ظهرت فيها طبقات المعنى المختلفة لعمل فني ملتبس أساسًا، أو عبّر فيها النقاد عن ضيق أفق فهمهم للفن. حتى حينما قال إدوارد برنشتاين عن **أسرار** هامسون، "[...] لو لم يكن الوضع الرث للكلام، ولو لم يكن الوضع الرث للمشاهد والوضع الرث حتى لأحداث الرواية - هذا إذا أمكن الحديث عمومًا عن أحداث - متجذرًا في مكابرة المؤلف أو عصبيته، فهي تصلح جدًا في أي حال لجعل القارئ مكابرًا وعصبيًا"، هكذا عنى هذا للوفنتال الذي تكلم عن "موقف واضح" لـ "إدوارد برنشتاين الذي كان لا يزال حاسمًا"[204]: هنا رُفضت أيضًا أيديولوجية هامسون البرجوازية الصغيرة، ما قبل السلطوية، في حين كانت مجلة *Neuen Zeit* **(الزمان الجديد)** تُشيد بهامسون إلى عنان السماء منذ الحرب العالمية الأولى. لكن ما الذي يعنيه حكم برنشتاين غير أن هامسون كان يفضل رواية سردية كلاسيكية مع ميل اجتماعي على أي شيء آخر، ويرى هامسون عصريًا جدًا؟ وما الذي يعنيه ألا يُنقَد لاحقًا في مجلة **الزمان الجديد** "مزاج

(204) *Zeitschrift für Sozialforschung* (1937), p. 340.

فارغ" و"مجرد إثارة للأعصاب"، بل أن تثير الإعجاب صور "آسرة للحياة والنفس"، لو لم يعلم أحدٌ إن كانت الأحكام اللاحقة تصح على هذه الكتب مثلما كانت الأحكام الأولى؟ ومن أين استخلص من ذلك أن أيديولوجية هامسون ما بعد الليبرالية قد لاقت ردات فعل متباينة، وأنها لم تُفهم بالأحرى كطبقات مختلفة الأهمية لعمل فني؟

سأل بنيامين لوفنتال بعد قراءة مقالته عن دوستويفسكي: "إلى أي حد كان هذا الاستقبال الألماني ملائمًا لأعمال دوستويفسكي؟ هل يمكن تصور جواب آخر من جانبه؟ [...] تبقى هذه الأسئلة بالنسبة إلي أنا الذي مضى علي وقت طويل من دون أن أفتح كتابًا لدوستويفسكي، أكثر انفتاحًا مما يبدو لي أنني منفتح عليها. يمكنني أن أتصور أن في ثنايا العمل بالضبط الذي تقود إليها رؤيتكم النفسية التحليلية توجد أنزيمات لم يكن من الممكن أن تدمج في طبيعة الفكر البرجوازي الصغير. باختصار، إن استقبال الشاعر لا ينتهي بالضرورة مع هذه الطبقة التي تموت"[205]. تنطبق الاعتراضات ذاتها أيضًا على تعامل لوفنتال مع أعمال هامسون.

لم يكن ماركوزه في مقالته غير مكترث بالفن نفسه وبتاريخه، هذه المقالة التي وجدها هوركهايمر "ناجحةً بشكل مميز"[206] وأبرزها في مقدمته التي كتبها بمناسبة السنة السادسة للمجلة، بوصفها مثالًا يُحتذى به في عمل المعهد. يُظهر "تحليل 'مفهوم الثقافة الإيجابي'"، إضافة إلى "العمل حول الوضعية" - أي مقالة هوركهايمر "الهجوم الأخير على الميتافيزيقا"، والذي جاء "نتيجة نقاشات مشتركة" - على نحو إيجابي، كيف يجب أن تواجه فعليًا الأحلام الميتافيزيقية في المجال النظري: من خلال نقد المقولات الميتافيزيقية في سياق نظرية للتاريخ متصلة بالممارسة. "تعرض هذه المقالة شكلًا من التفكير في العمل تهدد الوضعية بتوجيه الأنظار عنه كليًا"[207].

---

(205) رسالة من بنيامين إلى لوفنتال، 1 تموز/ يوليو 1934؛
Benjamin, *Gesammelte Schriften*, vol. 2, pp. 978 f.

(206) رسالة من هوركهايمر إلى أدورنو، 22 شباط/ فبراير 1937.

(207) *Zeitschrift für Sozialforschung* (1937), pp. 1 f.

أخذ ماركوزه بتعريف الثقافة، كما حددته الثقافة البرجوازية الكلاسيكية، بأنها الخير والجمال والحقيقة[208]، وعرّف الثقافة الإيجابية بأنها تلك التي تنتمي إلى تلك الحقبة البرجوازية في الغرب الذي كان فيه الخير والجمال والحقيقة عالمًا ساميًا مشتركًا بين الجميع له طبيعة روحية - نفسية أو بالأحرى داخلية. وبذلك حصل الخير والجمال والحقيقة - وهنا كرر ماركوزه مقولة نقد الدين التي كان ماركس قد صاغها في مقدمة كتاب **مساهمة في نقد فلسفة الحق عند هيغل** - على الوظيفة التي تُساهم بها التكملة الاحتفالية للعالم السيئ، بحيث يغدو هذا العالم محتملًا بصبر. لكن الخير والجمال والحقيقة كان يمكن، في ظل ظروف محددة - في مقابل المقولة التي صاغها ماركس أيضًا بكلام بارز الوضوح حول إلغاء الفلسفة عبر تحقيقها - أن تخدم، بدلًا من الاطمئنان إلى ما كان، الاستياء أيضًا مما هو قائم، وتوقظ الحاجة إلى تقريبه من الخير والجمال والحقيقة. هكذا كانت هذه المُثُل ملتبسة؛ فقد كان بإمكانها أن تُطمئن، كما كان باستطاعتها أيضًا أن تُقلِق، وبإمكانها أن تعين على الرضى بالواقع، مثلما باستطاعتها أيضًا أن تُذكّر بما يمكن أن يكون.

في الجزء الأخير من مقالته، وضع ماركوزه في مقابل التعالي الفاشي الظاهر للثقافة الإيجابية التي كانت في حقيقة الأمر المكون المبرر الذي تنامى وصولًا إلى البطولة وازدراء البشر، التعالي الحقيقي في ثقافة غير إيجابية، كان يعني فيها الجمالُ الفرحَ بالواقع[209]. لم يوجد، إذًا، عند ماركوزه سوى البدائل: ثقافةٌ إيجابيةٌ بصيغتها المثالية-البرجوازية، أو البطولية-الفاشية، أو التعالي الحقيقي للثقافة في صيغة واقع كان "رقصًا فوق البركان، وضحكًا في قلب الأحزان ولعبًا مع الموت"[210]. حالةٌ أعطيت فيها الثقافة بوعي وظيفةً نقدية، لم تجد لها مكانًا بين هذين البديلين. ولأن الثقافة الإيجابية - بصيغة الحقيقة والخير والجمال، وبصيغة أفكار النفس والجمال والشخصية، حيث لا تجد لها إلا شكلًا هزيلًا جدًا لا يكاد يُدرك - توضع دائمًا وأبدًا على قدم المساواة مع "الفن البرجوازي الراقي" الذي اتسم بكونه تصعيدًا للألم والحزن،

(208) Ibid., p. 56.

(209) Ibid., p. 90.

(210) Ibid., p. 91.

وللضيق والوحشة باتجاه قوًى ميتافيزيقية، وبكونه صورة لسعادة سماوية تلونت بألوان هذا العالم المشرقة[211]، لم يجد أيضًا في كل ما كان موجودًا في الفن الحديث، وفي الاعتراض النشاز ضد مجتمع معاد، أي مكان له. مستشهدًا بمثال الفن البرجوازي الكلاسيكي الراقي، لم يجد ماركوزه بديلًا عن الفن والثقافة الفاشيين إلا في محاولة تحقيق مُثُل ذلك الفن عمليًا.

لهذا أثار عمل ماركوزه احتجاج أدورنو أيضًا. فكتب إلى هوركهايمر بعد قراءته عدد المجلة: "لقد أدركتم، في ما يخص مقالة ماركوزه، ردة فعلي إدراكًا صحيحًا – كما تفعلون دائمًا – لأنني وبقدر ما أفرح بأن ماركوزه بالذات الذي عليه أن يحمل أكثر منا نحن إرث 'تاريخ الفكر' الأكاديمي، قدم بهذا العمل دفعةً نشطة، فإن تحفظاتي كبيرة للغاية [...] ما يميّز أنكم تتكلمون عن **مفهوم** الثقافة الإيجابي، أما ماركوزه فيتكلم عن **الطابع** الإيجابي للثقافة، أي إنه يأخذ في الاعتبار **مضمون** الثقافة، وقبل أي شيء آخر الفن بكليته. أعتقد أنه كان يُمكن ماركوزه أن يتقدم أكثر بكثير، وأعتقد أنه كان من الملائم له أكثر أيضًا لو أنه تمسك بـ **مفهوم** الثقافة، ونشأته ووظيفته، وتمسك بعدئذ بتحليل تحول الوظيفة إلى ما يُسمى 'نقد الثقافة'، وبكلام آخر لو أنه بحث بطريقة مادية مفهومًا فكريًا تاريخيًا محددًا بدقة. لكن ماركوزه وصل بالطريقة التي اتبعها إلى ميادين لا يجوز اقتحامها إلا بأقصى درجة من الحذر، ومن ثم طبعًا بأقصى درجة من الدقة أيضًا. تبدو صورة الفن هنا في جوهرها صورة العصر الكلاسيكي في فايمار؛ فبودّي أن أعرف بدقة كيف كان ماركوزه سيقبل العلاقات الخطرة[212]، أو بودلير أو حتى شونبرغ أو كافكا. يبدو لي أن للفن طبقة بأكملها – هي الحاسمة – لم يُعرها ماركوزه أي انتباه: أعني طبقة **المعرفة**، بمعنى المعرفة التي لا يستطيع العلم البرجوازي إنجازها. فالورود المنثورة في الحياة لا تصلح في واقع الأمر إلا لطلاب المرحلة الثانوية؛ كما أن الفكرة الجدلية المضادة بأن فن الواقع الرديء يتعارض مع المثال هي ضئيلة جدًا، بحيث لا تقوى على الوصول إلى النتائج الحاسمة للفن. تتفق مع ذلك أيضًا السذاجة الكبرى التي تُقبَل بها بطريقة إيجابية لحظاتٌ حسية معينة للفن الجماهيري المعاصر". حالما يتعلق

---

(211) Ibid., p. 63.

(212) وردت في النص بالفرنسية: Les Liaisons dangereuses. (المترجم)

الموضوع بأمور واقعية مثل موقف النازيين من الأيديولوجيا الثقافية، يكون العمل ممتازًا، ويُنظر إلى التلازم بين دمار الثقافة وتصنيمها نظرةً جيدة. "وفي ما عدا ذلك، يكون الأمر حقيقةً 'كبيرًا أكثر مما يجب' - كما سبق وكتبتم - وهو في هذا 'مثاليٌّ' تمامًا. يُستنتَج من ذلك مثلًا أن علم الجمال الكلاسيكي مُفترَض تلقائيًا من دون حتى طرح سؤال ما إذا كانت ممارسة ممثّليه الكبار - وأنا أفكّر هنا في غوته أو بيتهوفن [...] - تتفق مع تأملات هردر حول **فلسفة التاريخ الإنساني**، ومع **نقد ملكة الحكم** لكانط، ومع **التربية الجمالية للإنسان** لشِلِر، وما إذا لم تكن القطيعة البرجوازية بين النظرية والممارسة على قدر كبير من الأهمية في الفن بالذات، أي، إن لم ينكر علم الجمال الكلاسيكي ما يحدث في **الأنساب المختارة** وفي الجزء الثاني من **فاوست**. إن ماركوزه، هنا، بقبوله الهوية، إنما يقع تمامًا ضحية خيال مثالي، ومن السهل عليه أن ينزع عنه الطابع السحري"[213].

مع أن الموقف الأيديولوجي النقدي لماركوزه ولوفنتال كان يروق كثيرًا لهوركهايمر - إذ كانت الأعمال تُنجز في نهاية الأمر بالتعاون الوثيق معه - لم تظهر لاحقًا مقالات لأي منهما في **مجلة الأبحاث الاجتماعية** في موضوع الفن أو علم الجمال المادي، إذ أصبح هذا الموضوع حكرًا لبنيامين وأدورنو. أما "الفرع الآخر من الدراسات الاجتماعية" - كما ورد في نشرة قدم فيها المعهد نفسه في عام 1938 - "فتم تكريسه لمختلف الميادين الثقافية. ينطلق المعهد من فرضية أن تحليل عمل فردي واحد في العلوم أو في الفن متأسس على نظرية اجتماعية ملائمة يمكن أن يوفر غالبًا نظرة عميقة في البنية القائمة للمجتمع، نظرة لا تختلف عما توفره دراسات ميدانية كثيرة يقوم بها طاقم عمل متطور وتستند إلى مراجع كثيرة. ركز عملنا في علم اجتماع الفن والأدب حول تلك الكتابات والإنتاجات الفنية التي تميز على وجه الخصوص انتشار أيديولوجيا سلطوية في أوروبا". عندما كُتبت هذه الجمل التي تنطبق على أعمال لوفنتال وأدورنو، كان لا يزال في المعهد مكان لكلا النوعين من تأويل الفن تأويلًا نظريًا اجتماعيًا، يستهدي بالحداثة الجمالية وبالمفهوم البرجوازي للفن.

(213) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 12 أيار/ مايو 1937.

لكن بهذا تمكّن موقف بنيامين وأدورنو من ترسيخ الحداثة الجمالية لتُصبح الأساس الاختباري للفكر الاجتماعي النقدي الذي أصبح الموقف النهائي لمعهد البحث الاجتماعي.

فرانتس نويمان وأوتو كيرشهايمر - فرصٌ ضائعة لعمل بحثي عميق الأثر ومتعدد الاختصاصات

قَدِم أُوتو كيرشهايمر وفرانتس نويمان إلى نيويورك قبل أدورنو، وكانا قد بدآ العمل كمهاجرين في أوروبا لمصلحة المعهد. كان موقف مديري المعهد إزاء هذين الاثنين خير مثال على سياسة توظيف الأشخاص الاستثنائية في ضوء توجهات برنامج نظرية اجتماعية متعددة الاختصاصات. وكما لم يسعَ مديرو المعهد جهدهم لإشراك مؤرخ معهم في العمل (نشر المؤرخ المتخصص سيسيل موريس باورا غير الماركسي في عام 1937، لمرة واحدة وبتوصية من أدورنو، مقالةً بعنوان "ملاحظات سوسيولوجية في الشعر الإغريقي" في **مجلة الأبحاث الاجتماعية**)، كذلك لم يحرصوا على تعيين نويمان أو كيرشهايمر بوصفهما عالمين ذوَي توجُّه نقدي اجتماعي مختصين في الحقوق، وفي علوم الدولة والسياسة.

أنهى فرانتس نويمان في أثناء هجرته إلى لندن، دراسةً ثانيةً في العلوم السياسية في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية في لندن بإشراف هارولد لاسكي (Harold Laski) وكارل مانهايم الذي "سُرِّح" مع هوركهايمر. كلّف المعهد نويمان - ربما بوساطة من لاسكي أو مانهايم - القيام بمصالح مكتبة المعهد التي وُضِعت في عهدة كلية الاقتصاد في لندن، بأمل أن يتم إخراجها من ألمانيا بهذه الطريقة الالتفافية.

> لم يستطع نويمان الذي أَوْكَل إليه المعهد مهمة أن يكون محاميه أن يتجاوب مع تصور هوركهايمر لحلقة متجانسة من المساعدين إلا بصعوبة، وهو الذي كان حتى عام 1933 محاميًا ملتزمًا الدفاع عن قضايا النقابات وقضايا الحزب الاشتراكي الديمقراطي، ولم يصبح عالمًا إلا في المنفى، وكان مقربًا جدًا من لاسكي، المنظّر الرئيسي لحزب العمال الإصلاحي.

"أنا، فرانتس ليوبولد نويمان، المولود في 23 أيار/مايو 1900 في كاتوفيتس. أنا يهودي"[214]. هكذا بدأ نويمان في عام 1923 سيرته الذاتية الملحقة بأطروحة الدكتوراه في الحقوق. وُلد نويمان في كاتوفيتس في شليزين التي كانت تابعة لألمانيا آنئذ ابنًا لحرفي وتاجر يهودي صغير. درس في برلين ولايبزيغ - حيث شارك في عام 1918 في حرب المتاريس بين الجنود والعمال - وفي روستوك وفرانكفورت - حيث كان، إلى جانب ليو لوفنتال، أحد مؤسسي جماعة الطلبة الاشتراكيين - الحقوق والفلسفة والاقتصاد. أثناء عمله كمحامٍ متدرب في فرانكفورت كان مساعدًا لهوغو زينتسهايمر الاشتراكي الديمقراطي، مؤسس قانون العمل الألماني، وأحد آباء دستور فايمار. تبنى نويمان الذي تأثر بزينتسهايمر وبالماركسيَّيْن النمساويَّيْن كارل رنر وأوتو باور، الاشتراكيةَ الديمقراطية الإصلاحية، ونشر مقالات عن موضوعات تخص قوانين العمل، ودرس في أكاديمية العمل في فرانكفورت، وألقى محاضرات في الدورات النقابية. كان نويمان في جميع هذه الأنشطة ناجحًا إلى حد بعيد، ومحبًا جدًا للعمل، ولا يقبل الرشوة، ومفكرًا حاد المنطق، ويفتقر إلى الظرافة والعاطفة الحماسية، يسعى وراء اعتراف المجتمع به، بالقدر الذي يمكن أن يتحقق من خلال الإنجاز، وليس من خلال نكران الذات.

ذهب نويمان إلى برلين في عام 1928، وهناك افتتح مكتب محاماة بالاشتراك مع إرنست فرينكل (Ernst Fraenkel)، وهو مثله تلميذ زينتسهايمر، ويهودي، وعضو في الحزب الاشتراكي الديمقراطي، ولاحقًا مؤلف كتاب مهم عن النازية بعنوان **الدولة المزدوجة**. أصبح نويمان الوكيل القانوني لنقابة عمال البناء في البداية، ولنقابات أخرى في وقت لاحق. دافع عن نحو 500 حالة أمام محكمة الرايخ للعمل في لايبزيغ وأمام محكمة النقض للدعاوى المتعلقة بالعمل؛ ونشر أعمالًا حول قانون العمل وقانون الاقتصاد وقانون الصحافة، وحول تشريعات الكارتلات والاحتكارات، نُشر معظمها في مجلات نقابية، وفي مجلة **المجتمع**، المجلة العلمية للحزب الاشتراكي الديمقراطي، وفي صحف أخرى متفاوتة الانتماء إلى اليسار، ودرس بصفة

---

(214) مقتبس في:
Söllner, in: Rainer Erd (ed.), *Reform und Resignation, Gespräche über Franz L. Neumann*, p. 30;
وبخصوص ما يأتي يقارن خصوصًا، إضافة إلى إرد، مقدمة سولنر لكتاب:
Franz Neumann, *Wirtschaft, Staat, Demokratie: Aufsätze 1930-1954.*

مدرّس جامعي لقانون العمل في المدرسة العليا للعلوم السياسية؛ كما شارك بوصفه مستمعًا في الحلقات البحثية لكل من هرمان هلر وكارل شميت (Carl Schmitt).

كان نويمان واحدًا من أكثر المحامين الشباب نشاطًا من بين محامي النقابات والحزب الاشتراكي الديمقراطي الذين كرسوا، تسندهم حركة سياسية-اجتماعية قوية، وتحرضهم أزمة جمهورية فايمار التي كانت تتفاقم أكثر فأكثر، كل كفاءتهم الاختصاصية لإظهار الحل الوسط الذي يتضمنه دستور فايمار بين الموقف البرجوازي والموقف الاشتراكي حرصًا على العناصر الاشتراكية. كان موقف نويمان موقفَ إصلاحيٍّ ورجلِ قانون. وجاء في نهاية مقالة بعنوان "الأهمية الاجتماعية للحقوق الأساسية في دستور فايمار" نُشِر في أيلول/ سبتمبر 1930 في مجلة النقابة *Die Arbeit* (**العمل**): "إن المهمة الأساسية لنظرية الدولة الاشتراكية هي تطوير المضمون الإيجابي الاشتراكي في القسم الثاني من دستور فايمار وتقديمه بصيغة واقعية [...] والمهمة الأساسية للتشريع الاشتراكي [...] هي وضع الفهم الاشتراكي للحقوق الأساسية في مواجهة نهضة فكرة الدولة الدستورية البرجوازية [...] ومهمة السياسة الاشتراكية هي تحقيق هذه الحقوق الأساسية. عندما سأل كيرشهايمر في عنوان بحثه الذي يقترب فيه بقوة من تسلسل الأفكار الشيوعية، 'فايمار [...] وماذا بعد؟' لا يمكن أن يكون الجواب إلا: مرة أخرى فايمار!"[215].

في صيف عام 1932 عيّنت قيادة الحزب الاشتراكي الديمقراطي نويمان وكيلًا قانونيًا للحزب. قال إرنست فرينكل في عام 1955 في كلمته التأبينية لنويمان: "بهذه الصفة ناضل فرانتس نويمان، محامي الدستور، بشجاعة يائسة ضد حظر الصحافة، وفض التجمعات بالقوة، والاعتقالات، وطرد موظفي الدولة من الخدمة وكل الأعمال التعسفية التي قامت بها حكومات بابن وشلايشر وهتلر. ومع أنه كان معرضًا للخطر سياسيًا ومهددًا بوصفه يهوديًا، بقي نويمان مع ذلك في منصبه حتى 2 أيار/ مايو 1933"، وهو اليوم الذي اقتحمت فيه عناصر أمن الدولة (SA) مقار النقابات، بعد أن أعلنت النقابات بشكل مهين ولاءها للنازيين، في اليوم الذي أعلنت حكومة هتلر الأول من أيار/ مايو، يوم العيد الوطني، في هذا اليوم احتلت عناصر أمن الدولة مكتب

(215) Neumann, *Wirtschaft, Staat*, p. 74.

المحاماة الواقع في مبنى عمال الحديد والصلب في شارع ياكوب القديم. أصبح كل نشاط في ألمانيا عبثيًا. "حاجتي إلى تاريخ العالم تمت تلبيتها"، بهذه الكلمات ودع نويمان شركاءه في مكتب المحاماة ورفاق دربه الذين ساروا معه على طريق السعي والجهد طوال أربعة عشر عامًا. "تحطم مسار مهني رائع، وضاع الكفاح من أجل قانون عمل اشتراكي، ودُمّرت الدولة الدستورية، وقُضي على الديمقراطية [...] في ذلك الوقت هاجر فرانتس نويمان إلى إنكلترا فقيرًا معوزًا [...]"[216].

حصل نويمان، على الأرجح بفضل لاسكي - وهو آنذاك منظّر قيادي ذو توجُّه ماركسي في حزب العمال - على منحة من مدرسة لندن للاقتصاد، وعلى مساعدات من منظمات يهودية. جاء إلى إنكلترا بصفته مصلحًا ورجل قانون فاشلًا. في أول مقالة نشرها في المهجر نهاية عام 1933 في مجلة *The Political Quarterly* (**الفصلية السياسية**) بعنوان "انحطاط الديمقراطية الألمانية"، شخص نويمان الوضع بالقول: "هذا النظام الذي كان بين الاشتراكية والرأسمالية، كان باستطاعته أن يدوم طويلًا لو لم تحدث أزمة اقتصادية". حينما وقعت الأزمة، "ركزت جهود جميع الأحزاب الرجعية على تحقيق هدف واحد: تدمير الديمقراطية البرلمانية كأساس دستوري لتحرير العمال. نجحت تلك الجهود لأن إطار الدستور والممارسة التي طُبق بها سهلت ذلك على تلك الأحزاب، ولأن الضعف تملّك الحزب الاشتراكي الديمقراطي والنقابات، المدافعين الوحيدين عن نظام فايمار"[217]. كانت هزيمة الحركة الإصلاحية، برأيه، حتمية بقدر ما كانت هي نفسها مسؤولة عنها.

حاول نويمان في إنكلترا أن يُشجع في البداية المقاومة الداخلية في ألمانيا عبر مقالات نشرها تحت اسم مستعار في منشورات اشتراكية ديمقراطية. لكنه سرعان ما أعرض عن النشاطات السياسية، إذ اعتبرها عديمة الفائدة عندما تحدث في فراغ. انتقل من محامٍ للحركة العمالية وعالِم في الحقوق إلى عالِم في العلوم السياسية والاجتماعية يسعى جهده لاستيعاب ما يحدث، ولا يقلل من دور القانون والدستور، لكنه كان ينظر إليهما الآن في إطار ماركسي للتطور السياسي-الاقتصادي للمجتمع البرجوازي.

(216) Ernest Fraenkel, *Reformismus und Pluralismus*, p. 175.

(217) Neumann, *Wirtschaft, Staat*, pp. 109 f.

أنهى نويمان دراسة العلوم السياسية في إنكلترا عام 1936 بنيله درجة دكتور في الفلسفة، وكانت رسالته بعنوان **حَوكمة سلطة القانون: بحث في العلاقة بين النظريات السياسية، والنظام القانوني والخلفية الاجتماعية في المجتمع التنافسي**. يتألف كتاب نويمان - وهو كتاب يدين منهجيًا لكارل مانهايم، وماكس فيبر وماركس على وجه الخصوص، ومن حيث مضمونه لهارولد لاسكي خصوصًا - في جوهره من قسمين كبيرين. عالج نويمان في القسم الأول المتعلق بتاريخ الأفكار نظريات سياسية، بدءًا من توما الأكويني وصولًا إلى هيغل، وذلك في ضوء رؤية هذه النظريات للعلاقة بين سلطة الدولة وحرية الفرد. وفي القسم الثاني أعاد على مثالي إنكلترا وألمانيا بناء الكيفية التي كانت تبدو فيها، في القرنين التاسع عشر والعشرين، العلاقة بين النظام الاقتصادي والنظام السياسي والنظام القانوني، مستهديًا بالأسئلة إلى ما يمكن تعلمه منها لتقدير دور القانون ولفرص تصالح يُقرّب بين سيادة الدولة والحرية الفردية. كانت النتيجة، من جهة، فكرًا قانونيًا وظيفيًا؛ ففي نظرية القانون أو في ممارسة القانون، كان المهم هو أيٌّ منهما، النظرية أم التفسير، قد حقّق في ضوء الوقائع الاقتصادية والسياسية وظائفَ اجتماعية تقدُّمية[218]. رأى نويمان، من جهة أخرى، أن دولة القانون الليبرالية تطوّر بعض العناصر التقدمية التي عليها أن تبني العناصر التي لا يمكن الاستغناء عنها لأي دولة تأخذ حرية الفرد على محمل الجد: "عمومية القانون، واستقلالية القاضي، والفصل بين السلطات، وهي مبادئ تتخطى احتياجات الرأسمالية التنافسية، لأنها تؤمن الحرية الشخصية. إنها مبادئ تخفي بلا شك السلطة الحقيقية لطبقة اجتماعية معينة، وتجعل عمليات التبادل قابلة للحساب، لكنها تمنح الفقراء أيضًا حرية شخصية وأمانًا. جميع هذه الوظائف الثلاث مهمة، وليس إحداها، أعني قابلية حساب العملية الاقتصادية، فحسب؛ كما يزعم نقاد الليبرالية. نكرر مرة أخرى أن الوظائف الثلاث معًا قد تحققت في عصر الرأسمالية التنافسية. إلا أن من المهم أيضًا التفريق بين هذه الوظائف. فإذا لم يُفرَّق بينها، وإذا لم يُرَ في عمومية القانون سوى ضرورة للاقتصاد الرأسمالي، عندئذ يكون من الطبيعي أن نستنتج مع كارل شميت أن المبادئ الثلاثة، شمولية القانون واستقلالية القضاء والفصل بين السلطات، يجب أن يُقضى عليها إذا ما قُضي على الرأسمالية"[219].

---

(218) يُراجع:

Franz Neumann, *Die Herrschaft des Gesetzes*, p. 339.

(219) Ibid., p. 303.

كانت هذه نتيجة متواضعة. لأننا إذا نظرنا، كما فعل نويمان، إلى التطور من الليبرالية مرورًا بالرأسمالية الاحتكارية وصولًا إلى الفاشية، بوصفه شكل تحول منطقي وفعال يخدم الحفاظ على سيطرة المُلكية الخاصة على وسائل الإنتاج، كيف يمكننا أن نتصور عندئذ إعادة العناصر القديمة الجيدة لدولة القانون الليبرالية التي تلائم الرأسمالية التنافسية، وكيف كان يمكن عندئذ تخيل النظريات الحقوقية والتفسيرات القانونية التي يمكن الدفاع عنها بوصفها تقدمية اجتماعيًا ضد غيرها؟ لقد بدا وكأن كتاب نويمان أراد أن يقول: لا يوجد أملٌ إلا في حال تحقق نوع من دولة قانون ليبرالية مع طبقة سائدة تتخوف من حل فاشي. بقي نويمان مثل معلمه لاسكي، على الرغم من كونه الآن ماركسي التفكير في مستوى التحليل النظري الاجتماعي، إصلاحيًّا في مجال السياسة، وكان يضع كل أمله في سياسة أفضل تَتبعها تنظيمات الحركة العمالية في ضوء أسس جديدة قانونية للدولة.

لم يكن نويمان قد أنهى بعد دراسة العلوم السياسية، عندما التقى في بداية عام 1936 بهوركهايمر الذي كان يقوم بجولة في أوروبا زار في أثنائها مكتب المعهد في لندن والمحامي المكلف تأمين مصالح المعهد المتعلقة بالمكتبة. كان نويمان لا يزال يتذكر هوركهايمر من أيام فرانكفورت، أما هوركهايمر فلم يلاحظ من قبل وجود نويمان قط. بعد هذا اللقاء، أصبح المحامي المكلف شؤون المكتبة، في الوقت نفسه، مروجًا للمعهد في إنكلترا، مهتمًا بنشر **مجلة الأبحاث الاجتماعية**، وقد حرص على أن تُقام، على سبيل المثال، أمسية تلقى فيها محاضرات حول [كتاب] **دراسات في السلطة والأسرة**. كتب نويمان إلى هوركهايمر بعد وقت قصير من لقائهما: "أنا على موعد غدًا مع لاسكي لتناول الشاي. أعتقد أنني سأجد عند هذا الشخص دعمًا كاملًا للمعهد ولـ **مجلة الأبحاث الاجتماعية**. سأرسل إليكم تقريرًا عن هذا اللقاء. لقد سُررتُ جدًا بالتعرف إلى حضرتكم ثانية بعد سنين طويلة (أو لنقل: الآن بشكل خاص)، وأسمح لنفسي أن أعبّر لكم مرة أخرى عن أمنيتي بأن تعملوا على نشر مقالاتكم قريبًا باللغة الإنكليزية، فتوجِّهوا في الاتجاه الصحيح الفوضى الأيديولوجية القائمة حول الماركسية"[220]. وبعد أيام قليلة، كتب إلى هوركهايمر مرة أخرى: "أبدى لاسكي استعداده للعمل في

(220) رسالة من نويمان إلى هوركهايمر، 15 كانون الثاني/يناير 1936.

المجلة أيضًا، سواء في شكل مراجعات أو مقالات. وقد وعد بتقديم كل الدعم الممكن للمعهد، شرط أن 'يبقى المعهد ماركسيًا'"[221].

ساعد المعهد في العام نفسه نويمان للقدوم إلى الولايات المتحدة الأميركية بموجب عقد توظيف من خارج نظام الحصص، حيث أراد لاسكي أن يقدمه، في أثناء إحدى رحلاته، إلى أصدقاء له في جامعات عدة مشهورة، من بينهم فليكس فرانكفورتر، وهو أستاذ في كلية الحقوق في جامعة هارفرد، وأحد مستشاري روزفلت، وأصبح في عام 1939 قاضيًا في المحكمة الاتحادية العليا. أول الانطباعات التي اعتبرها نويمان في عام 1952، في نظرة استعادية، حاسمة بالنسبة إليه، نَمّت عن منظور كان أبعد بكثير من منظور حلقة هوركهايمر. "تبقى - في اعتقادي - ثلاثة انطباعات: تجربة روزفلت، وطَبْع الناس ودور الجامعات [...]. بيّنت تجربة روزفلت للمشكك الألماني أن الوِلسونية التي كان يُبشَّر بها منذ عام 1917 لم تكن نتاج دعاية فحسب، بل كانت واقعًا؛ لقد برهنت أن ديمقراطية مكافحة يمكن أن تحل تلك المشكلات التي تحطمت بسببها الجمهورية الألمانية"[222].

لم تُتح لنويمان فرص في جامعة أميركية. فكان عليه، بدلًا من ذلك، أن يقوم بإنجاز مهام للمعهد، معظمها حقوقية وإدارية. وما إن وصل إلى الولايات المتحدة الأميركية حتى أرسله مديرو المعهد لنصف عام إلى بوينس آيرس ليرفع دعوى هناك لفليكس فايل. وقد كتب إلى هوركهايمر في تشرين الأول/ أكتوبر 1936 من بوينس آيرس: "أمضيتُ ثلاث سنوات وأنا آمل في أن أستطيع العمل 'بشكل عادي'. ما إن سنحت الفرصة حتى اضطرني الأمر إلى العمل على هذه القضية التي أخافت كل من شارك فيها. أنا سعيد جدًا بإلقاء محاضرات، لكنني لم أقف محاضرًا يومًا أمام طلبة جامعيين، بل كنت أقف دومًا أمام عمال على وجه الحصر. يساورني الشك كثيرًا في أن يروق طالب المرحلة الجامعية الأولى لي، كموضوع لمحاضراتي، كما يروق لي العامل الألماني"[223]. كان المقصود

---

(221) رسالة من نويمان إلى هوركهايمر، 19 كانون الثاني/ يناير 1936.

(222) Neumann, *Wirtschaft, Staat*, p. 415.

(223) رسالة من نويمان إلى هوركهايمر، 5 تشرين الأول/ أكتوبر 1936.

المحاضرات عن الدولة الشمولية التي كان عليه أن يلقيها في إطار محاضرات المعهد في الفرع الخارجي من جامعة كولومبيا في شتاء 1936/ 1937، والتي ألقاها حقيقة بعد أن ربح الدعوى لمصلحة فليكس فايل في بوينس آيرس.

كان نويمان يشارك دائمًا وبانتظام في إلقاء المحاضرات في المعهد، ونجح كثيرًا مع الطلاب. إلى جانب ذلك، تابع عمله مستشارًا قانونيًا للمعهد، لكنه فشل أخيرًا في حل الخلاف حول المكتبة، وفضلًا عن ذلك، فشل، على سبيل المثال، في حالة التشهير أو في الخلاف مع غيورغ روشه (Georg Rusche) الذي أُعطي يومًا منحة من المعهد[224]. لم يتمكن نويمان من نشر أعمال علمية إلا نادرًا. وباستثناء سلسلة من المراجعات النقدية، لم تُنشر له سوى مقالتين في **مجلة الأبحاث الاجتماعية** (وفي مكان آخر، ذُكر أنه لم يُنشر له بين عامي 1936 و1942 شيء البتة). كانت مساهمته الأولى التي نُشرت في عام 1937 - "تحوُّل وظيفة القانون في النظام القانوني للمجتمع البرجوازي" - مجرد تكثيف للقسم الثاني الرئيسي من رسالة الدكتوراه التي كتبها نويمان باللغة الإنكليزية؛ وكانت المساهمة الثانية التي نُشرت في عام 1940 في مجلة *Studies in Philosophy and Social Sciences* (**دراسات في الفلسفة والعلوم الاجتماعية**) - المجلة التي خلفت **مجلة الأبحاث الاجتماعية** لأمد قصير - بعنوان "أنماط القانون الطبيعي"، وكانت تكثيفًا للقسم الرئيسي الأول من رسالته (لم تُنشر النسخة الإنكليزية من الرسالة التي كانت من بين المشاريع الواردة في قائمة مشاريع الأعمال العلمية البحثية لعام 1938. ولم يترجم عمل نويمان إلى أصله الألماني إلا في عام 1980، ونشره أول مرة ألفونس سولنر. وفي ما عدا ذلك، كتب نويمان أيضًا مقدمة للبحث حول العمال والموظفين، اعتبرها بمثابة تاريخ اجتماعي للعامل الألماني بين عامي 1918-1933 واهتم بكتابة أعمال تمهيدية لمشاريع مختلفة. أما كتاب نويمان **البهيموت** الذي أصبح التحليل الكبير لبنية الاشتراكية القومية [النازية][225]، فلم يبدأ العمل عليه إلا بعد صيف 1939.

---

(224) يُنظر ص 329 في هذا الكتاب.

(225) يُنظر أدناه ص 403 وما بعدها في هذا الكتاب.

صحيحٌ أن المعهد حصل لنويمان في عام 1936 من لجنة الطوارئ على هِبَة قيمتها 2000 دولار بعد أن وُعِد بتعيينه موظفًا دائمًا في المعهد - ولهذا السبب ذُكر اسمه أيضًا في منشور للمعهد عام 1938 - لكن المعهد، كعادته، لم يُبرم معه، شأن معظم الموظفين، عقد توظيف رسمي. كان مديرو المعهد يولون أهمية أكبر للفائدة التي لنويمان كدبلوماسي في حقل العلم، وحقوقي ومستشار عملي للمعهد، أكثر من أهميته بوصفه منظرًا للمجتمع عمل طويلًا بكفاءة علمية في ميداني الحقوق والعلوم السياسية. شعر نويمان في صيف 1939 أن هوركهايمر وبولوك كانا مهتمين جديًا بتخفيض عدد "القادمين من الخارج". وفي بداية أيلول/ سبتمبر تلقى خبرًا بأن عليه أن يغادر المعهد في 1 تشرين الأول/ أكتوبر 1940.

كتب نويمان إلى هوركهايمر بعد بعض الوقت: "وضعني الخبر في حالة إرباك شديد جدًا، لأنني تماهيت مع العمل في المعهد ومع أساسه النظري، بحيث كان وَقْع فصلي من المعهد شديد الوطأة علي. يبدو لي أن الحصول على عمل دائم في مؤسسة أميركية، بالنظر إلى موقفي النظري-السياسي، لا يُبشر بالنجاح، خصوصًا وأن الفاشية المتعاظمة، وهو ما كنتم أنتم تؤكدونه بوجه حق، تقلل أكثر من أي وقت مضى من فرص النجاح لأشخاص مثلنا.

لم أهتم من قبل بالحصول على أي وظيفة أخرى، لأنكما، بولوك وأنت، أخبرتماني وأخبرتما آخرين، مرارًا وتكرارًا، بأنني عضوٌ دائم في المعهد. لا أزال أذكر حديثًا مع بولوك في وودلاند في الصيف الماضي، حينما أعلمني بتخفيض راتبي. آنذاك، في هذا الوضع الحرج الذي يمر به المعهد، قال لي إن التضامن هو الشيء الأهم في المعهد، وإن المعهد لن يتخلى عن عضو دائم فيه مهما كانت الأحوال.

إن فرصي في إيجاد عمل في أي معهد أميركي صعبة جدًا، لأنني كُلفت عمومًا بأعمال إدارية طوال الثلاث سنوات ونصف السنة التي عملت أثناءها في المعهد. هذا الوضع لم يرضِ نياتكم أنتم ولا ميولي أنا. لقد وعدتموني عند توظيفي بأن استخدامي سوف يكون لأغراض علمية. أنا لا أتهم أحدًا لأن الأمور جرت على نحو مختلف، لكن إنتاجي العلمي كان قليلًا جدًا نتيجةً

لتلك الأسباب. لا يكاد يكون لدي ما أقدمه إلى المؤسسات الأميركية من إنتاج في مجال العلم إبان السنوات الثلاث والنصف الماضية. وكما أخبرتكم سابقًا، سوف أسعى للحصول على مبلغ من طرف ثالث يكفي لتمويل وظيفتي في المعهد. كنت قد تقدمت بطلب إلى مؤسسة سبِلمان (Spelman Fund) لتمويل مشروع كتابي عن الأسس النظرية لقانون العملِ، وسوف أتقدم مجددًا إلى مؤسسة غوغنهايم بطلب الحصول على منحة لأنهي عملًا حول انبعاث القانون الطبيعي. اخترتُ هذين الموضوعين آخذًا في الحسبان اهتمامات المؤسستين المعنيتين. أعمالي التمهيدية لعمل حول الأسس النظرية والتاريخية للفاشية تَقدّم العمل عليها في الأشهر الأخيرة، وكلي أمل في أن أجد ناشرًا لهذا الكتاب.

يُضاف إلى كل ما سبق، أنني خطوت سلفًا خطوات للحصول على وظيفة في جامعة أميركية. ومهما كان الأمر صعبًا علي، فإنني سوف أستغل جميع علاقاتي لأحصل على تعيين كأستاذ جامعي، بحيث يتخفف المعهد من الأعباء المالية. وفي حال حتمت علي الأوضاع، سوف أُمضي، عملًا باقتراح بولوك، جزءًا من السنة سواء في واشنطن أو في أي جامعة أخرى.

لكن إذا أخفقت جميع مساعيّ، سأكون شاكرًا لكم لو أعدتم النظر في قراركم، آخذين في الحسبان الوضع الذي عرضته ووضعي الشخصي"[226].

حصلت بالفعل عملية تأجيل، لكنها انتهت في عام 1942. أكمل نويمان في هذه الأثناء كتابه **البهيموت** الذي أصبح بطاقة دخوله في مسار مهني رائع خارج المعهد.

اتبع مديرو المعهد تجاه أوتو كيرشهايمر سياسة مشابهة أيضًا لسياستهم تجاه نويمان، لكن كيرشهايمر كان نموذجًا مختلفًا كليًا عن نويمان. فالمهاجر الذي فرّ إلى باريس، قُبِل في منتصف الثلاثينيات في الحلقة المتجددة لأولئك المثقفين الشباب الذين تدعمهم الجمعية الدولية للأبحاث الاجتماعية تبعًا للائحتها الداخلية من خلال تكليفهم مهمات بحثية تتفاوت مددها، وتخدم جزئيًا في إتمام تعليمهم، وجزئيًا في إنجاز أعمال علمية مستقلة.

---

(226) رسالة من نويمان إلى هوركهايمر، 24 أيلول/ سبتمبر 1939.

"كان كيرشهايمر مثقفًا وشابًا لامعًا، لكنه، في النهاية، لم يول السياسة العملية اهتمامه". كان نقيض فرانتس نويمان تمامًا؛ هذا ما قالته السيدة أوتو سور عن كيرشهايمر وهي تستعيد ذكريات آخر سنوات جمهورية فايمار، عندما كان يتردد كثيرًا إلى منزلها الزوجي فرانتس نويمان وأوتو كيرشهايمر وإرنست فرينكل وآخرون من رجال القانون اليساريين(227).

ولد أوتو كيرشهايمر في 11 تشرين الثاني/نوفمبر 1905 في هايلبرون، ابنًا لعائلة يهودية. درس بين عامي 1924 و1928، بدايةً، الفلسفة والتاريخ في مونستر، ثم الحقوق وعلم الاجتماع في كولونيا وبرلين وبون. ومن بين من درس على أيديهم ماكس شلر وكارل شميت وهرمان هلر ورودولف سمِند. في عام 1928 حصل في بون على شهادة الدكتوراه تحت إشراف شميت، وكان موضوع رسالته **في نظرية الدولة الاشتراكية والبلشفية**. مثلت هذه الرسالة نوعًا من النقيض اليساري الراديكالي لنقد شميت للديمقراطية البرلمانية في فايمار. وقد رأى كيرشهايمر في هذه الديمقراطية مثالًا عن الديمقراطية الشكلية الحديثة، وصلت فيها الطبقات المتصارعة، بناء على توازن القوى المتقاربة، إلى اتفاق ضمني، بأن "هذا التوازن طالما بقي، يمكن الانتخابات والأكثريات العرضية التي تتمخض عنها أن تقرر من ينبغي أن يشكل الحكومة"؛ حكومة وُضِعت لسلطتها حدودٌ ضيقة، بحيث "يظن كل من يتولى مقادير الدولة [...] أنه يملك في يده ماكينة حقوقية"(228). أظهرت الرسالة بوضوح أن كيرشهايمر - وكان، مثل نويمان، عضوًا في الحزب الاشتراكي الديمقراطي، إلا أنه كان ينتمي إلى جناح الاشتراكيين الشباب، في حين كان نويمان محسوبًا على يمين الوسط - كان يزدري التبجيل الاشتراكي الديمقراطي للديمقراطية البرلمانية وللدستور، ويعجب بموقف البلاشفة الذي وصفه معتمدًا على مقولات شميت عن السيادة وعن صورة العدو الواضحة. آمن الاشتراكيون الديمقراطيون - في رأي كيرشهايمر - بـ"التقدم المزدوج"، واعتقدوا بأن تقدمًا في تربية البشرية نحو الإنسانية ينسجم مع التقدم في التطور الاقتصادي الرأسمالي، في حين أن لينين استبدل بهذه النظرية النضال الشامل الذي لا هوادة فيه. أضفى

(227) ورد ذكر هذا الكلام على لسان سولنر في:
Erd (ed.), *Reform und Resignation*, p. 42.

(228) Otto Kirchheimer, *Zur Staatslehre des Soziaismus und Bolschewismus*;

خلاصة من هذا الكتاب، في:
Otto Kirchheimer & Wolfgang Luthardt, *Von der Weimarer Republik zum Faschismus*, pp. 35, 37.

الاشتراكيون الديمقراطيون طابعًا صنميًا على دولة كانت أقل من دولة ذات سيادة مع عدو واضح، أي مجرد دولة قانون. أما روسيا البلشفية فكانت أكثر من دولة؛ فقد أعلنت أن الطبقة هي ذات السيادة، ودعمت أسطورة الثورة العالمية الفاعلة على نحو مباشر بديلًا عن يوتوبيا عقلانية، وكان لها مفهوم سيادي عن الدكتاتورية، وامتلكت صورة قطعية عن العدو.

بعد دراسته كان كيرشهايمر في إرفورت وبرلين موظفًا تحت التدريب في مؤسسة العدل البروسية. وكان، إلى جانب ذلك، يُدرّس في مدارس النقابات، وعبّر في مقالات وكتب مهمة عن رأيه في القانون الدستوري والواقع الدستوري لجمهورية فايمار. وفي حين كان يجب، في نظر نويمان وزملائه من الاشتراكيين الديمقراطيين في برلين إرنست فرينكل وأوتو كان فرويند ومارتن درات، استنفاد إمكانات دستور فايمار، كان الأمر في نظر كيرشهايمر يتوقف على رؤية أن هذا الدستور لم يكن فرصة، بل كان فخًا، لأنه أخفى عن الوعي أولوية **الملكية البرجوازية** المكفولة دستوريًا على **مطالب** الطبقة العاملة المكفولة دستوريًا أيضًا، وأضعف إرادة العمال لتحقيق مطالبهم، وحثهم على المشاركه الهادئة في عملية استعادة التفوق من خلال الطبقات الحاكمة.

كانت [مقالة] "فايمار، وماذا بعد؟" (1930) إنذارًا أخيرًا للاشتراكية الديمقراطية: ففي حين كانت تتمسك بالدستور وبالبرلمانية، وتجمع كل القوى حولهما، لم تعد الطبقات المسيطرة تتقيد بهما منذ زمن طويل، واستفادت خصوصًا من استقلالية البيروقراطية التي ساعد عليها تناقض الدستور وتوازن القوى الطبقية المتقارب مؤقتًا. اعتبر كيرشهايمر أن الأمل في إمكان وقف تدهور مستمر من خلال إصلاح دستوري، أي من خلال وضع معايير وقوانين للواقع المتردي، أمر خاطئ كليًا. سأل كيرشهايمر في عام 1929: لماذا ترفض، في الواقع، فئاتٌ كثيرةٌ من البرجوازية الألمانية الوضع الدستوري القائم اليوم، وتطالب بالدكتاتورية البرجوازية، في الوقت الذي تُريهم كل نتيجة للانتخابات مجددًا أن تغيير الأوضاع الملائمة لهم لا تريده بجدية الأغلبية العظمى من السكان؟ وقد أجاب بقوله: "لكنهم يريدون الثورة فعلًا، لأن ما ينقصهم هو الشعور بالأمان والموثوقية النهائيّين للحظة الأخيرة الحاسمة". هم يريدون "تجمعًا يُركن إليه بشكل مطلق، ويريدون سيطرة على كل القوى في البلاد لمصلحة السياسة البرجوازية"[229].

(229) Otto Kirchheimer, "Verfassungswirklichkeit und politische Zukunft der Arbeiterklasse," in: Kirchheimer & Luthardt, *Von der Weimarer*, p. 75.

في كتابه **حدود نزع الملكية** (1930) أظهر كيرشهايمر، بطريقة نموذجية، كيف أُفرغت تدريجًا الحقوق الاجتماعية الأساسية لدستور فايمار من محتواها عبر أحكام القضاء وعلم القانون، وكيف أقصت المضامين البرجوازية القديمة كل ما عداها. حوّلت محكمة الرايخ مبدأ المساواة والمادة المتعلقة بنزع الملكية في دستور فايمار التي أراد كثير من الاشتراكيين أن يقلبوا بها الدولة البرجوازية شرعيًا رأسًا على عقب، إلى حصن للدفاع عن الرأسمالية الخاصة. حلل كيرشهايمر، على خلفية ترسيمة تاريخية-اجتماعية لتحول وظائف المؤسسات الحقوقية، نهضةَ دولة القانون البرجوازية المضادة لما هو اجتماعي بحدة نقدية اجتماعية، لم تكن تقل قط عن حدة هوركهايمر في حكم وأمثال **الفجر**. "الأمر لا يتفق مع دستور فايمار، إذا ما رُفضت الآن باسم العدالة قوانين تشكل على ما يبدو عبئًا لطبقة أقوى اقتصاديًا، بوصفها تعسفًا. يحقق هذا الظلم الظاهر بالذات مطلبَ العدالة في النظام الاجتماعي لدستور فايمار. إن ما يجب معرفته، عندما يكون علينا فهم المساواة بوصفها مفهوم قيمة ماديًا، يتمثل في أن مبدأ المساواة أمام القانون سيكون مجرد حق على الورق، طالما لم تَخلق المساواة الاجتماعية قبل ذلك الشروط التي تجعل من الممكن تطبيق قانون على الجميع بالتساوي [...]. تستطيع دولة القانون أن توجد بعض الأشكال الخارجية، وأن تضعها تحت تصرف أفراد أو طبقات منفردة لما فيه الخير أو الشر، وهي لا تستطيع أن تفعل أكثر من ذلك. إن بمقدورها، مثلًا، أن تسحب رخصة القيادة من ابن الرجل الغني في حال تنازع مع الشرطة وخالف قانون السير العام ثلاث مرات، تمامًا كما تفعل مع سائق أجرة هو أب لأربعة أطفال. إن حقيقة أن أحدهما يخسر متعته والآخر لقمة عيشه أمرٌ لا أهمية له إزاء القانون. تنتهي دولة القانون هناك، وتبقى، كما يفترض، غير مكتملة إلى الأبد هناك، حيث يجب أن تبدأ المساواة الاجتماعية. في الوقت الذي يُسترجع مبدأ المساواة إلى عالم النظام الدستوري-البرجوازي الأسبق، تُمنع المساواة باسم المساواة نفسها"[230].

لم تغب عن ذهن كيرشهايمر، في أي حال، المفارقة اليائسة المتمثلة في الإصرار على "معنى" أو "إرادة" دستور، قال عنه هو نفسه في موضع آخر إنه لن يكون له، من جانب آخر، أي قيمة إلا بمقدار ما له من سلطة طبقية

(230) Otto Kirchheimer, "Die Grenzen der Enteignung," in: *Funktionen des Staats und der Verfassung*, pp. 257 f.

تقف وراءه. غير أنه أثبت ضعف طبقة العمال المستمر منذ عشر سنوات، وفي الوقت نفسه إعادة تقوية وتعزيز الطبقات المسيطرة التي تجمعت جزئيًا من جديد.

بعد نجاحه في مباراة قاض مساعد، استقر كيرشهايمر في عام 1932 في برلين، وعمل فيها محاميًا. كان يتردد أحيانًا، كغيره من الحقوقيين الشباب الاشتراكيين الديمقراطيين، إلى حلقات البحث التي يقيمها هرمان هلر وكارل شميت. قبل استيلاء النازيين على السلطة، قام كيرشهايمر وزميله ناثان لايتس بنشر نقد موسع لكتاب كارل شميت **الشرعية والمشروعية**. في هذا النقد، أظهر كيرشهايمر بوضوح أنه لا يُشاطر شميت القناعة بأن الديمقراطية لا يمكن أن تقوم بوظيفتها في مجتمع غير متجانس على الإطلاق، ولهذا السبب يجب أن تُرفض. تُرى، هل تخلى [كيرشهايمر] هنا عن ازدرائهما المشترك ذات يوم لدولة القانون الفاقدة للسيادة؟ هل اتضح له أن شميت لم يكن يشكو إلا من المثل الأعلى الذي وضعه روسو للديمقراطية الراديكالية، ومن الطوباوية العقلانية للمناقشات البرلمانية، كي يتمكن من إيصالها إلى العدمية عبر مواجهتها بواقع يستهين بتلك المناقشات، ومن ثم من كل أشكال الديمقراطية ومن التوضيح العقلاني للتباينات السياسية؟ لم يكن موقف كيرشهايمر هنا واضح المعالم. وقد ختم نقده بإشارة تهرّب، وقال: يتوقف الأمر على أخذ "كثرة إمكانات التطور الدستوري التي لا تنبع من الميدان الدستوري نفسه، بل من مجالات أخرى" في الحسبان. "يبدو أن النظرية الدستورية لن تستطيع تقديم الحل لمثل هذه المشكلات إلا بالتعاون الوثيق مع جميع الاختصاصات الأخرى تقريبًا ذات الصلة بالبحث في المجال الاجتماعي، وهذا الحل لا يمكن تطبيقه على المدى البعيد إلا بمقولات عامة"[231].

هاجر كيرشهايمر في صيف 1933 إلى باريس، حيث انشغل هناك بدراسات في مجال قانون العقوبات على وجه الخصوص، مدعومًا بداية الأمر من مدرسة لندن للاقتصاد والعلوم السياسية. كتب في عام 1935 كراسًا بعنوان "تركيبة الدولة وقانون الرايخ الثالث"، نُشر تحت اسم مستعار: د. هرمان زايتس، وهُرّب إلى ألمانيا على أنه العدد الثاني عشر من سلسلة

(231) Otto Kirchheimer & Nathan Leites, "Bemerkungen zu Carl Schmitts Legalität und Legitimität," in: Kirchheimer & Luthardt.

"الدولة الألمانية المعاصرة". كان المشرف على إصدار تلك السلسلة هو كارل شميت الذي رُفّع مع انتصار النازية إلى منصب "عضو مجلس الدولة البروسية"، وإلى "عضو أكاديمية الحقوق الألمانية"، ثم رُفّع إلى منصب "مدير فرق الرايخ للأساتذة الجامعيين، وهي جمعية حماة القانون النازية". أثار الكراس ردة فعل مستنكِرة في **جريدة الحقوقيين الألمان** التي كان يُصدرها شميت أيضًا. هذه "الكتابة التحريضية" التي تقوّض الجهد الألماني من أجل التفاهم بين الشعوب، تدور من دون جدوى في حلقة مفرغة، "لكي تقدم حججًا دستورية، سواء أكانت هذه الحجج شيوعية-ماركسية أم ليبرالية-برجوازية، ضد بناء النظام القانوني النازي"[232].

في البحث الذي قام به كيرشهايمر بدعم مالي من المعهد، ركز على قانون العقوبات وعلى القانون الدستوري الفرنسي. وراجعَ لـ **مجلة الأبحاث الاجتماعية** سلسلة من الكتب الفرنسية. بذل في عام 1937 جهدًا للهجرة إلى الولايات المتحدة الأميركية. وقد جاء في إحدى رسائل هوركهايمر الذي كان من المفترض أن يساعده، كما كان الحال في السنة التي سبقت عقد التوظيف لنويمان، في القدوم إلى الولايات المتحدة الأميركية من خارج نظام الحصص المعمول به في الولايات المتحدة: "أخبرنا د. نويمان الذي عاد من أوروبا بأنكم مستعدون للانضمام إلى فريق العمل في نيويورك في وقت قريب. نحن سعداء بسماع قراركم، وكلنا أمل في أن يكون بمقدورنا أن نرحب بكم هنا في القريب العاجل.

كان د. نويمان قد أخبرك بأننا، في الوقت الحالي، لسنا في وضع يمكّننا من توظيفك بدوام كامل، لكننا سنأخذ في الاعتبار تعيينك في عمل بدوام كامل بعد العطلة الصيفية للجامعة. نؤكد تاليًا أننا سنوظفك كمساعد باحث لمدة عام على الأقل بدوام جزئي براتب مئة دولار شهريًا، بدءًا من لحظة وصولك"[233].

كان كيرشهايمر منشغلًا من شتاء 1937 حتى صيف 1938 بتنقيح مخطوط كتاب غيورغ روشه القوي المؤلف من 477 صفحة بعنوان **سوق**

---

(232) *Deutsche Juristen-Zeitung* (15 September 1935), p. 1004.

(233) رسالة من هوركهايمر إلى كيرشهايمر، 16 شباط/ فبراير 1937.

العمل وتنفيذ العقوبة. كان هذا المخطوط نتاج عمل بحثي لروشه قام المعهد بتمويله منذ بداية الثلاثينيات، والذي انتبه إليه هوركهايمر وبولوك كما يظهر من خلال مقالة في **صحيفة فرانكفورت** حول "انتفاضات السجون أو السياسة الاجتماعية" (صدرت في عام 1930). وكانت مقالة "سوق العمل وتنفيذ العقوبة" قد نشرت كنتيجة أولية في عام 1933 في **مجلة الأبحاث الاجتماعية**. التغييرات التي كان قد نصح بها اثنان من المتخصصين الأميركيين في علم الجنايات ممن استعان بهما المعهد، خصوصًا في الفقرات النقدية حول نظام تنفيذ العقوبة في الولايات المتحدة الأميركية، كان قد وعد بإجرائها بسرعة روشه الذي هاجر في تلك الفترة إلى فلسطين، ولم يسمع أحدٌ شيئًا عنه حتى صيف 1937. والتحول المديد الذي اعتبره كيرشهايمر ضروريًا أفضى إلى خلاف حول حقوق المالك الأصلي التي مثّل فيها نويمان مصالح المعهد.

في عام 1939، ظهر **العقاب والبنية الاجتماعية** لروشه وكيرشهايمر، بوصفه الكتاب الأول الذي ينشره المعهد منذ **دراسات في السلطة والأسرة**، وبوصفه أول كتاب يُصدره المعهد باللغة الإنكليزية على العموم. قدم هوركهايمر الكتاب بأنه "بداية لسلسلة من الكتب الأميركية الجديدة" يصدرها المعهد. كانت حقيقة أنه لم يأتِ في الفصول حول القرن العشرين التي كتبها مع المدخل كيرشهايمر وحده - بحسب المقدمة - ذكر الدولة المضيفة، الولايات المتحدة، بمثابة إجراء تحذيري عنيف. وفي ما عدا ذلك، كان يُفترض أن يسبغ كيرشهايمر على النص من خلال الاستفاضة الحقوقية والسياسية إجمالًا طابعًا يسوغ العنوان الجديد **العقاب والبنية الاجتماعية** الذي كان أكثر شمولية من العنوان الأصلي. أظهر العمل في صيغته النهائية، خصوصًا في الفصول الأخيرة التي استند فيها كيرشهايمر نسبيًا كثيرًا على مادة إحصائية، بأنه ليس للسياسة العقابية من تأثير في معدلات الجريمة، وأنه لا السياسة العقابية الحادة التي هدفها الردع ولا مثيلتها المخففة التي تسعى إلى الإقناع يمكن أن تفضي إلى التكيف مع الحالات غير المحتملة. لا، بل يعتمد نوع الجريمة ومداها ومجال السياسة العقابية على نظام المجتمع المضاد والمتغير حصرًا في أشكاله الاقتصادية والسياسية.

اختتم الكتاب بالقول: "طالما أن الوعي الاجتماعي ليس في وضع يفهم معه الصلة الضرورية بين تنفيذ للعقاب متقدم وبين التقدم العام، ويتصرف بمقتضى ذلك أيضًا، فإن كل محاولة للشروع بإصلاح التنفيذ العقابي سيتاح لها نجاح ملتبس؛ وكل محاولة تبوء بالفشل سوف تُنسب إلى السوء الخلقي للطبيعة الإنسانية، وليس لنظام المجتمع. النتيجة الحتمية التي تترتب على ذلك هي العودة إلى المذهب المتشائم القائل بأن الطبيعة الشريرة للإنسان لا يمكن ترويضها إلا بضغط الشروط في السجون تحت المقياس المعيشي للطبقة الدنيا الحرة. يمكن البرهان ألف مرة على عبثية العقوبة الصعبة والمعاملة القاسية، لكن ما دام المجتمع غير قادر على حل مشكلاته الاجتماعية، يُقْبل القمع على الدوام بوصفه مخرجًا"[234].

لم يستطع الكتاب التأثير في هوركهايمر، خصوصًا أنه كان في مطلبه النظري أقرب إلى التواضع وتخلى، على سبيل المثال، تمامًا عن التأملات النفسية التحليلية. وتشهد على ذلك مقدمته الجافة. لم يمنح كيرشهايمر المهمة غير المحمودة أي فرصة للتطور. بقي يعمل في المعهد بدوام جزئي، وكان بولوك يكلفه بأعمال ذات طبيعة اقتصادية إحصائية، أو بوضع بطاقات الفهرسة، أو يساعد فليكس فايل في الأعمال التي كان له فيها دور بضع مرات في محاضرات المعهد في القسم الموسع من جامعة كولومبيا، أو يشارك في حلقات البحث الداخلية للمعهد. كتب هوركهايمر في آب/ أغسطس 1939 إلى نويمان يطلب منه أن يُخبر كيرشهايمر الذي لم يكن لديه عنوانه - الوقت كان عطلة - "بأنني أدعم بسرور كل خطوة يمكن أن تدفعه إلى البقاء معنا. كنت قادرًا في أثناء فترة وجوده هنا على تشكيل رأي ممتاز حول كفاءته الأكاديمية"[235]. بدت نتائج مثل هذا الموقف المتناقض، شبيهة بما بدت عند نويمان: كان كيرشهايمر بتصرف المعهد مقابل قليل من المال، ومن دون عقد وظيفي ملزم، وحصل من هوركهايمر على تقديره وعلى تزكيته له المستمرة في الوقت نفسه في الطلبات التي كان يقدمها للحصول على منح دراسية ووظائف، والتي أخفقت على مدى سنوات.

---

(234) G. Rusche & Otto Kirchheimer, *Sozialstruktur und Strafvollzug*, p. 288.

(235) رسالة من هوركهايمر إلى نويمان، 10 آب/ أغسطس 1939.

عندما نُشرت ثلاث مقالات لكيرشهايمر بين عامي 1940 و1941 في مجلة **دراسات في الفلسفة والعلوم الاجتماعية**، حصل هذا في مجلة - بعد توقفها عن الصدور قرابة عام بسبب نشوب الحرب - صدرت باللغة الإنكليزية في الولايات المتحدة الأميركية، والتي لم يرَ هوركهايمر فيها تقريبًا إلا تنازلًا أمام العمل العلمي يجب الإعراض عنه في أسرع وقت ممكن. أيّدت هوركهايمر في رأيه مقالاتٌ مثل مقالات كيرشهايمر الذي لم ينتبه هوركهايمر إلى تألّقه في عصر فايمار، والذي لم يلقَ شهرة في الولايات المتحدة الأميركية، خصوصًا أنه لم يرَ فيها ما يشير إلى أن النظرية تتقدم، الأمر الذي كان يمثل بالنسبة إليه قضية ملحة للغاية.

بيّنت مقالة كيرشهايمر "القانون الجنائي في ألمانيا الاشتراكية القومية" التي نُشرت في صيف 1940 أن أهم تغيير طرأ على القضاء الجنائي في ألمانيا منذ عام 1933 هو تحوله من أداة حكم مستقلة إلى "بيروقراطية إدارية"[236]، قُيّد مجال صلاحيتها من خلال الزيادة المستمرة في عدد المحاكم الإدارية المزودة بسلطة جزائية خاصة بها.

في العدد الثاني من المجلة للعام 1941 نُشرت مقالة كيرشهايمر: "تغيراتٌ في بنية التسوية السياسية"، وهي مقالةٌ حاول أدورنو في نيويورك، بداية، أن يخرجها بشكل مكتمل صالح للنشر، ثم هوركهايمر الذي شكره كيرشهايمر في تشرين الأول/ أكتوبر 1941 بهذه الكلمات: "أود أن أغتنم الفرصة لأشكركم بحرارة على الجهود الكبيرة التي بذلتموها بإخضاعكم مقالتي للمراجعة. تُظهر مراجعتكم النقاط الأساسية بشكل أوضح بكثير مما كانت عليه؛ وكلي أملٌ بأن تشمل عنايتكم كل ما سأنتجه في المستقبل"[237]. بعد الليبرالية - الموسومة بالوسيط الشامل، أي المال والتسوية بين البرلمانيين أنفسهم وبين البرلمانيين والحكومة - وبعد الديمقراطية الجماهيرية - الموسومة بالبنوك المركزية التي تتنافس مع الحكومات، وبعقود حرة تُبرم بين مجموعات رأس المال والعمل القائدة والمنظمات التابعة لها - فرض نفسه، في نظر كيرشهايمر، في

(236) *Studies in Philosophy and Social Sciences* (*SPSS*) (1940), p. 462.

(237) رسالة من كيرشهايمر إلى هوركهايمر، 15 تشرين الأول/أكتوبر 1941.

الفاشية نظام كان يتميز بأن امتصاص الحقوق الفردية عبر حقوق الجماعات وموافقة الدولة بلغ شكله الأقصى[238]. فاستأثرت الحكومة باحتكار العمل، بينما زوّد الاحتكار الخاص الصناعةَ بسلطة حكومية. "وبذلك وجدت عملية تأليف الكارتلات في الاندماج النهائي بين السلطة الخاصة ومنظمة الدولة خاتمتها المنطقية"[239]. في أي حال، لم يكن التوفيق بين مصالح مختلف أطراف التسوية - الاحتكارات، والجيش، والصناعة والزراعة، وتُضاف إليها مختلف شرائح البيروقراطية الحزبية - ممكنًا إلا بفضل البرنامج التَوسعي الفاشي[240]. صدرت مقالة كيرشهايمر عن التسوية في العدد الذي صدرت فيه مقالة بولوك "رأسمالية الدولة"، وهذا لم يحصل إلا لأنه "أغنى عدد المجلة بالمواد" [هوركهايمر]، ولأنه لم يكن ملائمًا للنشر في العدد القادم، وليس لأن هوركهايمر اعتبره "رئيسيًا" في العدد المخصص لـ "رأسمالية الدولة"، أو لأنه اعتبره عملًا ممثلًا لموقف المعهد.

أخيرًا، صدرت مقالة كيرشهايمر الثالثة "النظام القانوني للاشتراكية القومية" في عام 1942 في العدد الأخير من مجلة **دراسات في الفلسفة والعلوم الاجتماعية**، وهي نسخة عن محاضرة أكاديمية ألقاها قبل عيد الميلاد عام 1941 في إطار محاضرات المعهد التي ألقيت في القسم الموسع من جامعة كولومبيا. وقد بلغت الأفكار المركزية - سوف تشْغل الجماعاتُ الاجتماعية والحكومة الأفرادَ، وتنمو سلطة بيروقرطية الجماعات مع عدد المهمات التنفيذية التي تنقلها إليها بيروقراطية الدولة - ذروتها في تأكيد أن هناك عقلانية تقنية تسود في كل مكان، لكنها ليست عقلانية إلا بالنسبة إلى الأقوياء.

لم يكن هوركهايمر يتصور أيضًا أن مواصلة تطوير نظرية للمجتمع أمر ممكن من دون أبحاث غنية بمادتها، وتتمحور، في الوقت نفسه، حول أفكار ومفاهيم مشتركة مثل أبحاث كيرشهايمر. لكن رغبته وقدرته لم تكونا، في الوقت ذاته، كافيتين للتعاون مع منظّري المجتمع ذوي الكفاءة من جميع

(238) *Studies in Philosophy and Social Sciences* (1941), p. 280.

(239) Kirchheimer & Luthardt, p. 229.

(240) *Studies in Philosophy and Social Sciences* (1941), p. 288.

الاختصاصات ودمج الأبحاث التجريبية والعلمية المختصة كي يقاوم إغواء التنصل من هذا الرأي من خلال التمسك بالازدراء الذي كان له الغلبة في النهاية تجاه المعالجة النسقية للمواد العيانية، بدلًا من المعالجة النموذجية المحض. وبقيت علاقته بكيرشهايمر تدبيرًا مؤقتًا ينطوي على الابتعاد والتهذيب في الوقت نفسه.

أدورنو ولازارسفلد ومشروع برنستون للبحث في الإذاعة

طلب شتيفان تسفايغ في تشرين الأول/ أكتوبر 1937 من أدورنو أن يكتب كتابًا عن شونبرغ لدار النشر التي كانت قد نشرت قبل مدة وجيزة كتاب برغ الذي لاقى نجاحًا غير متوقع، والذي كان فيه أدورنو مشاركًا أساسيًا. في 19 تشرين الأول/ أكتوبر سأل أدورنو خطيًا مدير المعهد العلمي: "مارأيكم؟"؛ إذ يدور في ذهنه منذ سنوات أمر تأليف كتاب حول شونبرغ. كتب مساهمته في كتاب برغ أثناء إجازة امتدت من شباط/ فبراير إلى نيسان/ أبريل 1936، إضافة إلى عمله الرئيسي: مقالة عن موسيقى الجاز وأجزاء كبيرة من كتابه عن هوسرل. كان يظن أن كتابًا عن شونبرغ يمكن أن يُنجَز في غضون عامين من العمل في أوقاته الحرة، وذلك بفضل الدراسات التمهيدية الدقيقة التي أعدّها. "أخيرًا، تأكد لي أن كتابًا عن شونبرغ، في حال قمت أنا بكتابته، سيكون موضوعيًا[241] ذا أهمية بالغة. تعلمون أنني أميل إلى وضع إنجاز شونبرغ في المكانة ذاتها التي أضع فيها إنجاز فرويد وكارل كراوس، وإلى اعتبار قضيته بالمعنى نفسه وبالتقييد ذاته قضيتنا. ستكون مهمة هذا الكتاب الرئيسية إظهار ذلك بوضوح"[242]. كتب أدورنو هذه الرسالة، فيما كان منشغلًا بالعمل على تأليف كتابي فاغنر وهوسرل، وبالتحضيرات لنيل شهادة الدكتوراه في أكسفورد.

في اليوم التالي، 20 تشرين الأول/ أكتوبر، وصلت برقية من هوركهايمر يقول فيها: "إمكانية هجرتكم إلى أميركا تقترب. في حال وافقتم على عمل جزئي، ووضعتم نفسكم تحت تصرف مشروع برنستون حول الإذاعة،

---

(241) وذلك ليس بسبب الشهرة التي ستكون لمصلحة المعهد فحسب.

(242) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 19 تشرين الأول/ أكتوبر 1937.

فستؤمنون لمدة عامين دخلًا شهريًا مقداره الإجمالي 400 دولار. أرسلوا قراركم المبدئي برقيًا. أخبروني بأقرب موعد ممكن لقدومكم [...] مع خالص تحياتي. هوركهايمر". وجاء في البرقية الجوابية لأدورنو (في شهر حزيران/ يونيو قدم أدورنو إلى الولايات الأميركية أول مرة بدعوة من هوركهايمر لتمضية بضعة أسابيع) بعد يومين: "سعيدٌ وموافقٌ من حيث المبدأ على المشاركة في مشروع جامعة برنستون، سآتي بكل سرور إليكم في الحال. صعوبات متعلقة بعقد إيجار مدته عام ونصف العام [...] وإمكانية نقل أثاث البيت من ألمانيا. أكون شاكرًا لو تفضلتم بالجواب التفصيلي برقيًا وبأسرع وقت. مع خالص تحياتي. تيدي". يبدو أن أدورنو ما عاد يُعطي أي أهمية لحصوله على لقب دكتور في الفلسفة، ويبدو أيضًا أنه ما عاد يجد أي معنًى لهذا الموضوع. لم يتنكر أدورنو كليًا لقراره عدم الانتقال من إنكلترا إلى الولايات المتحدة إلا على أساس عرض وظيفي من المعهد بدوام كامل، أو على أساس عرض لشغل منصب أكاديمي. ساوره أيضًا القلق من أن تُقطع عنه تمامًا ذات يوم النقود التي تأتيه من والديه، كما ساوره قلقٌ حول إمكان اندلاع الحرب، إذ كان هو وهوركهايمر متفقين على أن الديمقراطيات الغربية وألمانيا النازية - وهي الحارس الأمين للرأسمالية - لن تصلا أبدًا إلى شن حرب بعضها ضد بعض.

شجع هوركهايمر أدورنو بقوله إن "المشاركة في العمل في مشروع البحث مع لازارسفلد لا يقدم بعض الضمانات المالية فحسب، بل هو وسيلةٌ تربطكم بأوساط أكاديمية وبأوساط أخرى مهمة بالنسبة إليكم. لست بحاجة إلى القول إنه أحب إلى قلوبنا أن تكونوا لنا وحدنا، ولكن، من جهة أخرى، لن تتحقق القاعدة المادية الضرورية لحياتكم، والتي ترغبون فيها بحق إلا في حال عدم اعتمادكم على المعهد وحده. وكما أعتقد جازمًا، هناك في أميركا إمكانات تمكنكم أنتم وغريتل من أن تعيشوا فعلًا حياة البرجوازية الكبيرة"[243].

لم يُرد لازارسفلد من وراء عرضه وظيفة لأدورنو أن ينتقم لنفسه من معهد هوركهايمر فحسب، بعد أن عرف منه أنه يريد إحضار أدورنو إلى الولايات المتحدة الأميركية، بل أراد أيضًا أن يكسب في مؤلف مقالة "عن

(243) رسالة من هوركهايمر إلى أدورنو، 24 كانون الأول/ ديسمبر 1937.

الوضع الاجتماعي للموسيقى" التي نُشرت في **مجلة الأبحاث الاجتماعية** عاملًا مساعدًا غنيًا بالأفكار. بعد أن وافق أدورنو، نفد صبر لازارسفلد وهو ينتظره ليبدآ العمل معًا. "عزيزي الدكتور فيزنغروند، ناقشت في الأيام الأخيرة مع شركائي ما نتوقعه من عملكم المستقبلي معنا. دعني أعطِكم فكرة موجزة، لكي نستطيع أن نبدأ بعض المراسلات حولها قبل قدومكم إلى هذه البلاد [...] إنني أعتزم أن أجعل القسم الموسيقي، إن جاز القول، ميدان الصيد 'للتقارب الأوروبي'. أقصد بذلك شيئين: موقف نظري أكثر تجاه مشكلة البحث، وموقف أكثر تشاؤمًا تجاه أداة التقدم التقني.

أود أن ألفت انتباهكم إلى النقطة الأولى على نحو خاص. يهدف مشروعنا على وجه التحديد إلى إنجاز بحث تجريبي. لكنني على قناعة، مثلكم أيضًا، أن تعرّف الحقائق يمكن أن يتحسن إلى أقصى حد بتفكير نظري تمهيدي موسع. لنأخذ مثلًا بحثكم المنشور في مجلة المعهد، هنا أستطيع فهم الوضع على النحو التالي: هذا بالضبط ما سنتوقعه منكم، ولكن يجب أن يُدفَع خطوتين إلى الأمام:

1) باتجاه مشكلة بحث تجريبي.

2) باتجاه إنجاز فعلي للعمل الميداني".

قد يُرسل أدورنو لائحةً بالمشكلات التي تبدو له أكثر أهمية. "أمتنع عمدًا عن إعطائكم أي مشكلات وأفكار ملموسة مما أملكه أنا نفسي في ميدان الإذاعة والموسيقى، لأنني أعتقد أنه من المفيد لنا أكثر أن نحصل على أفكاركم طازجة تمامًا وغير متأثرة بنا"[244].

أكد أدورنو، من جهته، أن "موقفي النظري لا ينطوي على أي نفور من البحث التجريبي، بل على العكس: يتقدم مفهوم 'التجربة' بمعناه المحدد جدًا، أكثر فأكثر، نحو مركز تفكيري [...] هناك علاقة متبادلة بين النظرية والبحث التجريبي ندعوها المنهج الجدلي [...] أرى أن الموسيقى في الإذاعة تتعرض

(244) رسالة من لازارسفلد إلى أدورنو، 29 تشرين الثاني/ نوفمبر 1937.

لتغيرات نوعية معينة يقوم إدراكها على قاعدة جديدة كليًا"[245]. يجب - برأيه - أن يحتل تحليل الإنتاج المكان الأول، ويجب "التوضيح والتحقق من أن **الطبيعة التقنية للظواهر الموسيقية في الإذاعة تُشكل المفتاح لأهميتها الاجتماعية**". حينما يتم إدراك "طابع الصورة للموسيقى التي تذاع في الراديو"، وملامح أخرى مفترَضة له في التحليل التقني للإنتاج، "عندئذ يُمكن، ربما، تطوير طرائق تُساعد في تحليل 'ارتباطاتها' بالمستمعين". هذا ما كتبه أدورنو إلى لازارسفلد في رسالة من ست صفحات غنية بالأفكار، أرفق بها ست عشرة صفحة مليئة بالأفكار، على شكل "أسئلة وقضايا". في الخمس عشرة نقطة من هذه "الأسئلة والقضايا" وضع أدورنو منطلقات "نظرية جدلية للإذاعة" ومنطلقات "نظرية اجتماعية للإذاعة"، وانتقد الشكل الراهن للإذاعة واصفًا إياه بأنه معوِّق للاتجاهات التقدمية الموجودة فيها.

أكد لازارسفلد في جوابه بشيء من الدهشة: "أوافقكم الرأي أيضًا بأن مقاربة كهذه تحتاج في المقام الأول إلى تحليل نظري، والأحسن أن نبدأ تحديدًا بتحليل إنتاج الموسيقى. سيكون هذا بالضبط حُصْن التحليل النظري الذي يسبق أي بحث. أتطلع إلى قدومكم لكي نحقق ذلك. من جانب آخر، علينا أن نفهم أيضًا أنه يجب عليكم أن تنهوا البحث الحالي الذي تقومون به بين المستمعين، على الرغم من أننا في كثير من الحالات قد نُرغم على التوقف عن صياغة المسألة النظرية، ومناقشة التقنيات للإجابة عنها، لأسباب تتعلق، ببساطة، بضيق الوقت"[246].

بعد أن أمضى الزوجان أدورنو العطلة في سان ريمو للمرة الثانية، حيث التقيا هناك ببنيامين الذي كان يمضي بضعة أسابيع مجانًا في نزل لزوجته السابقة، رحلا في 16 شباط/ فبراير 1938 على متن الباخرة "تشامبلين" إلى نيويورك. وفي 26 شباط/ فبراير أجرى أدورنو ولازارسفلد أول لقاء عمل، عُيّن أدورنو بعده مديرًا للقسم الموسيقي في مشروع جامعة برنستون للبحث في الإذاعة الذي كان اسمه على وجه الدقة: "القيمة الجوهرية للإذاعة لكل نماذج المستمعين".

(245) رسالة من أدورنو إلى لازارسفلد، 24 كانون الثاني/ يناير 1938.

(246) رسالة من لازارسفلد إلى أدورنو، 3 شباط/ فبراير 1938.

كان المديران المشرفان على المشروع هما عالم النفس هادلي كانتريل (Hadley Cantril) الذي نشر قبل ذلك بسنوات بالاشتراك مع زميله المعروف غوردون آلبورت كتابًا عن علم نفس الإذاعة، وفرانك ستانتون (Frank Stanton) الذي كان سابقًا مدير شبكة CBS (Colombia Broadcasting System). قدم الاثنان المخطط الأصلي للمشروع الذي حصلت بموجبه جامعة برنستون في عام 1937 على منحة قدرها 67000 دولار وضعتها مؤسسة روكفلر تحت تصرف الجامعة لمدة عامين، وهو مبلغٌ ضخمٌ بمقاييس تلك الأيام. كتب كانتريل في الرسالة التي عرض فيها على لازارسفلد في صيف عام 1937، بناء على وساطة حماسية من الزوجين ليند، منصبَ مدير الأبحاث (بمعاش سنوي خيالي بالنسبة إليه في ذلك الوقت: ستة آلاف دولار)، يقول: "نريد أن نصل في نهاية المطاف إلى تحديد دور الإذاعة في حياة النماذج المختلفة من المستمعين، وتحديد المكانة النفسية للإذاعة والأسباب المختلفة التي تدفع الناس إلى الاستماع بسرور إلى الراديو"[247]. توقع كانتريل وستانتون أن يتطلب تطوير منهجية البحث عامين، وتوقعا أن يحتاجا إلى عامين آخرين للوصول إلى إجابات نهائية، آخذين في الحسبان أن تواصل مؤسسة روكفلر تمويل المشروع، وكانا محقين في ذلك، كما تبيّن لاحقًا.

نجح لازارسفلد في إقرار أن تكون الإدارة الفعلية للمشروع في معهد البحث الذي يديره هو في نيوآرك؛ وقعت على هذا المعهد الصغير مهمة كبيرة، علمًا بأن كل ميزانيته كانت أقل من ثلث ميزانية مشروع البحث حول الإذاعة. كتب لازارسفلد في مذكرة خاصة قدمها إلى كانتريل وستانتون: "نعتبر أنفسنا في الحقيقة منظمة خدمية، ليس عليها أن تضع أهدافًا، لكنها ترغب في أن تساعد في عملية اختيارها وتحقيقها. من هنا نرى أنه يجب على برنامج أبحاثنا أن يكون من النوع الذي تسمح نتائجه بالتلاؤم مع مختلف السياسات الحالية". لم تتضمن المذكرة - حتى ولو بشكل خفي - أي كلام نقدي. جاء إلى ذكر الفرق بين الإذاعات التجارية والإذاعات غير التجارية، وأبرز أن "المثقف" - بعيدًا عن إشكالية "مؤثر البيع"، إن كان الناس يقرأون ما يوصي به في الراديو أو إن كانوا

---

(247) مقتبس في:

Lazarsfeld, *Eine Episode*, p. 181.

يزورون المتحف الذي يروّج له - "يأمل في أن يؤثر في حياة مستمعيه الثقافية والاجتماعية لمدة أطول وأعم أكثر مما يظن الممول التجاري". اهتمت المذكرة بالعمل على عدد كبير من الأسئلة بواسطة كثير من تقنيات البحث، تلك الأسئلة التي يتكرر ظهورها في خضم المناقشات الجارية حول الراديو، وسيلة الاتصال الجديدة نسبيًّا والمثيرة للجدل، أو يمكن استنتاجها: كيف يؤثر سماع الأخبار وقراءة الصحف أحدهما في الآخر؟ هل يُسهم الراديو في تحضير المناطق الريفية؟ هل تُسهم التأثيرات السمعية الجديدة التي تُبَث عبر الإذاعة في تطوير الموسيقى؟ وما إلى ذلك. يجب أن يركز المشروع على أربع مجالات رئيسية في البرامج الإذاعية: الموسيقى، وقراءة الكتب، والأخبار، والسياسة. لكن سرعان ما فكر لازارسفلد في أن يولي مجال الموسيقى دورًا خاصًا. ويجب أن يُنظر أيضًا إلى الإذاعة في علاقتها الكلية بالثقافة في الولايات المتحدة الأميركية وبالمجتمع. واعتبر لازارسفلد أن النتائج المتناقضة التي يمكن توقعها في مثل هذا التحليل ستكون أيسر قبولًا في ما لو طُوّرت على مثال الموسيقى(248).

استذكر أدورنو في ما بعد انطباعاته الأولى في مركز الأبحاث في نيوآرك الذي كان مقرّه في معمل معطل لصنع البيرة: "انتقلت بناء على اقتراح لازارسفلد من غرفة إلى أخرى، وتحدثت إلى العاملين معنا، وسمعت كلامًا من قبيل 'أحب الدراسة ولا أحبها'، 'نجاح برنامج أو فشله'، وما شابه من كلام لم يكن بإمكاني، في البدء، أن أتصور المقصود منه. مع ذلك، استطعت أن أفهم أن الأمر كان يتعلق بجمع بيانات، وبالمواقع المخططة في مجال وسائل الاتصال الجماهيري، سواءً أكان يجب أن تكون لمصلحة الصناعة مباشرة أم لمصلحة مجالس ثقافية وهيئات أخرى مماثلة. وجدتُ نفسي، لأول مرة، أمام أبحاث إدارية: لست أذكر اليوم إن كان لازارسفلد هو من نحتَ هذا المفهوم أم أنا عندما تملكتني الدهشة من نوع من العلم ذي توجُّه عملي مباشر، لا عهد لي به من قبل على الإطلاق"(249). لم يتطابق هذا الانطباع مع الحقيقة إلا في

---

(248) يُراجع:

D. E. Morrison, "Kultur and Culture: the Case of Theodor W. Adorno and Paul F. Lazarsfeld," *Social Research*, vol. 45, no. 2 (1978), pp. 339 f., 342.

(249) Theodor W. Adorno, "Wissenschaftliche Erfahrungen in Amerika," in: *Stichworte*, pp. 117 f.

القليل منه، لأن ما كان يميز لازارسفلد في الواقع أن متعة الوظيفة - المتعة في العمل الجماعي على أبحاث اجتماعية-نفسية، يتم فيها البحث بمناهج متعددة عن إجابات عن أسئلة تفكك إلى عناصر يمكن دراستها - سهلت له التوفيق بين اهتماماته العلمية الخاصة به، على الرغم من خروجها عن المألوف، وبين توقعات من كلّفه بالعمل والمؤسسة العلمية.

أخبر لازارسفلد، بدوره، المديرين الآخرين كانتريل وستانتون بعد أسبوع من العمل مع أدورنو، في مذكرة: "يبدو تمامًا كما يتصور المرء أستاذًا ألمانيًا شارد الفكر، ويتصرف بشكل غريب جدًا إلى حد أنني خلت نفسي عضوًا في مجتمع ميفلاور (Mayflower-Gesellschaft). لكن، في أي حال، عندما تتحدث معه، تجد أن لديه كمية كبيرة من الأفكار المهمة"[250]. قصد لازارسفلد أن يقول كلامًا طيبًا عن أدورنو، وبدا ماهرًا دبلوماسيًا. بعد بضع سنوات، عندما تعلق الأمر بتعيين لازارسفلد أستاذًا في جامعة كولومبيا، كتب صديقه صامويل ستوفر إلى لجنة اختيار الأساتذة: "بغض النظر عن أنه يعيش في هذا البلد منذ أكثر من سبع سنوات، إلا أنه لا يزال يبدو أجنبيًا في الظاهر، ويتكلم بلكنة قوية جدًا. هذا ما يُبرِز مميزات آخرين مقارنةً به، وأعتقد أن تحفظاتهم عليه ستكون أكبر، لأنهم يشعرون أنه متعجرفٌ أحيانًا. في الواقع، ليس هناك من هو أكثر تواضعًا من باول، لكن صحيحٌ أيضًا أن لديه نوعًا من التكلف المبالغ فيه عند الألمان، حينما يُبدي رأيه في موضوع ما؛ ولهذا السبب يفترض كثيرًا أن الصعوبات ليست في موضوع ما بقدر ما هي في الاستماع. أستطيع أن أتصور أن مثل هؤلاء النقاد هم على حق أحيانًا، لكن يمكنني التأكيد انطلاقًا من تجربتي أيضًا، أن لدى هذا الشاب كثيرًا من العروق الذهبية التي بإمكانه أن يظهرها"[251]. فعل لازارسفلد كل ما في وسعه لكي يدمج المنظّر الأوروبي أدورنو في نظام البحث الأميركي، النظام الذي عرف هو نفسه أن يأخذه تمامًا كما هو، تزعجه قليلًا ذكريات تذكره ببداياته الثورية الاشتراكية في فيينا.

---

(250) Lazarsfeld, *Eine Episode*, p. 176.

(251) ذُكر في:

Ibid.

أنهى أدورنو، في أثناء عمله كباحث في المعهد الدولي للأبحاث الاجتماعية، دراسته حول فاغنر التي كان قد بدأ بها في إنكلترا، وكتب مقالةً بعنوان "عن الطابع الصنمي في الموسيقى وتراجع الاستماع". ودرس في أثناء عمله في مشروع برنستون لدراسة الإذاعة بريد المستمع في محطات إذاعية، وأجرى مقابلات ("ما زلت أذكر مقدار فرحتي ومقدار ما تعلمته، عندما أجريت بنفسي، لتوجهي الشخصي، سلسلة من المقابلات العشوائية التي افتقرت إلى المنهجية"[252])، كما تكلم مع عاملين في الإذاعة ("أدت مقابلاته مع العاملين في صناعة الإذاعة إلى شكاوى، اتهمته بأسئلة أحادية الجانب وبتشويه الإجابات"[253]) وموسيقيين (اعتقدوا أن بإمكانهم أن يعلموا الثقافة لطلاب الثانوية، وأفهمهم أدورنو - كما قال لازارسفلد - أنهم حمقى[254])، وكتبَ مذكرات ("مثلًا، مذكرته عن حفل استعراضي مسائي لآلات موسيقى إلكترونية أقيم في رابطة مؤلفي الموسيقى في أيار/ مايو 1938، طوّر فيها أدورنو فكرة توحيد آلات الموسيقى الإلكترونية مع الإذاعة، بحيث لا يعود المرء "يبثّ عبر الراديو"، بل "يعزف الراديو". إلغاء الفارق بين الصوتين الطبيعي والإذاعي يتفق مع مطلبي في تصفية صوت منسوخ"). غير أنه كتب في ربيع وصيف 1938، بطلب من لازارسفلد، مذكرةً ضخمة تقع في مئة وستين صفحة، عن "الموسيقى في الإذاعة". أراد لازارسفلد أن تنتشر هذه المذكرة في أوساط مختلف الاختصاصيين في ردة فعل على النقد الصارخ الذي ووجه به أدورنو من جهات مختلفة، بهدف حشد تأييد واسع لعمله. دفع نص أدورنو لازارسفلد إلى أن يبعث برسالة نقدية طويلة إلى أدورنو في أيلول/ سبتمبر 1938، جاء فيها: "عليك أن تكون حذرًا جدًا، لأنك تعبّر عن أفكار جديدة وهجومية تجعلك هدفًا لهجمات مبررة؛ ويؤسفني القول إن أجزاء كثيرة من مذكرتك هي قطعًا دون مستوى التشدد الفكري والانضباط والمسؤولية المطلوبة من كل شخص ناشط في العمل الأكاديمي. أرجو أن تعتبر صراحتي جهدًا جادًا، يهدف إلى أن يكون عملك على درجة من النجاح التي يجب أن يكون عليها.

(252) Adorno, "Wissenschaftliche Erfahrungen," p. 118.

(253) Lazarsfeld, *Ein Episode*, p. 200.

(254) Morrison, p. 348.

يمكن تصنيف اعتراضاتي في مجموعات تدور حول القضايا الثلاث التالية:

1) أنت لا تستنفد البدائل المنطقية لقضاياك الخاصة، ولذلك فإن الكثير مما تقوله يكون إما خطأً أو لا أساس له، أو منحازًا.

2) أنت لا عِلْم لك بالعمل البحثي التجريبي، لكنك تكتب حوله بلغة سلطوية، بحيث يُجبر القارئ على التشكيك في سلطتك حتى في ميدان اختصاصك الموسيقي.

3) أنت تهاجم الآخرين بأنهم عبدة أصنام، وعصابيون واستعراضيون، لكنك تُظهر بكل وضوح أن هذه الأوصاف تنطبق عليك أيضًا".

ويختم لازارسفلد بعد أن شرح اعتراضاته بأمثلة كثيرة وردت في مذكرة أدورنو: "الأمر كما لو أنك تريد أن تعطينا هدية أفكارك بيدك اليمنى، ثم تريد أن تستردها بيدك اليسرى، بغياب أي انضباط في ما تعرضه".

أصاب لازارسفلد بنقده نقاط ضعف فارقةً عند أدورنو من دون أن يجرح مشاعره. رد أدورنو على هذا النقد، وكان عمره آنئذ 35 عامًا، وأصغر بسنتين من لازارسفلد، مدافعًا عن نفسه في بعض القضايا بوجه حق، ولم تكن لهجة الرد مكابرةً، لكن لم يكن مستعدًا، أو بالأحرى لم يكن قادرًا على إدراك أن الفرصة التي حظي بها، ولم يحظَ بها شخص آخر، يمكنه أن يتعلم منها بعض الأشياء المهمة. كتب أدورنو إلى لازارسفلد: "أرى أنك يجب أن تتمعن قليلًا في قطعة من منشوراتي النثرية، مثل الدراسة التي أعددتها حول موسيقى الجاز لتجد، عندئذ، أن الوقائع التي جرمتها لا تعزى إلى ما هو في داخلي، بل إلى الفوضى القائمة عمليًا"[255]. في نظر أدورنو، كانت مقالته عن موسيقى الجاز عملًا تجريبيًا نشأ من مخطوطة تضمنت أيضًا ما سماه أدورنو "قضايا تحققية". على هذا النحو، نشأ وضع غريب؛ إذ قبل أدورنو مطالب لازارسفلد، لكنه رأى أنها تحققت مبدئيًا من تلقاء ذاتها. بعدما اتفق مع لازارسفلد على أن يضع تصنيفًا نوعيًا من المستمعين، يسمح بناءً على استبيانات بالتأكد من التوزيع

(255) رسالة من أدورنو إلى لازارسفلد، 6 أيلول/ سبتمبر 1938.

العددي لهذه النماذج، قدم أدورنو وصفًا، وأعطى عليه مثلًا هو نموذج المستمع العاطفي، جاء فيه أن البكاء هو أحد أهم الموضوعات لتحليل مختلف الأوجه العاطفية للموسيقى. لكن لازارسفلد اعتبر أن هذا أدى إلى رفض الاشتراك في أبحاث واقعية عن المستمعين كان قد أكدها في رسائله الأولى إلى أدورنو.

اختلط السؤال عن قيمة الأبحاث التجريبية بالسؤال عن الإصلاح أو الثورة. بدا لأدورنو التساؤل 'كيف يمكن أن نقرب الموسيقى الجيدة إلى أكبر عدد ممكن من الناس؟' لا معنى له في ضوء شروط اجتماعية وتنظيمية لمحطات الإذاعة. وقد وضّحت ذلك بجلاء نصوصه التي كتبها لدراسة الموسيقى. وفي مذكرة داخلية في كانون الثاني/ يناير 1940، رأى جون مارشال الذي كان مسؤولًا لدى مؤسسة روكفلر عن مشروع برنستون للبحث في الإذاعة، أن أدورنو "يبدو الآن منهمكًا نفسيًا بقدرته على تعرّف أوجه النقص في إذاعة الموسيقى إلى حدٍّ يُثير التساؤل حول الطريقة الخاصة به للوصول إلى طرق تداويها"[256]. لا يُنتظر من أدورنو شيء مفيد إلا "إذا تأمنت له مشاركة أحد يمثل النظام الحالي، شريطة أن يكون متساهلًا بما يكفي مع موقف أدورنو ليرى ما كان مفيدًا في هذا الموقف ويفسره لبعض الناس من غير المتساهلين"[257]. لكن تأكيد لازارسفلد بأن هذا بالضبط ما يجب أن يحدث، وزيارة لازارسفلد وأدورنو شخصيًا لمارشال في حزيران/ يونيو 1940، لم يستطيعا تغيير شيء في قراره القاضي بوقف تمويل دراسة الموسيقى، لأنه لا فائدة ترتجى منها للتغلب على النقص الراهن في موسيقى الإذاعة. وهكذا انتهت، في صيف 1940، مشاركة أدورنو في مشروع برنستون للبحث في الإذاعة.

اعتبر لازارسفلد أن مقالة واحدة فقط من بين مقالات أدورنو الأربع التي كتبها في إطار بحثه حول الموسيقى يصلح للنشر في منشورات المشروع، وهي "سيمفونية الراديو". صدر هذا البحث في عام 1941 في المجلد الذي أصدره لازارسفلد وستانتون تحت عنوان **بحث في الإذاعة** (عام 1941). دافع أدورنو في هذه الدراسة - وهي متابعةٌ للسجال مع مقالة بنيامين حول العمل

---

(256) Morrison, p. 347.

(257) ذُكر في:

Ibid., p. 348.

الفني - عن أطروحة أن السيمفونية التي تُبث عبر الراديو ليست سوى مجرد صورة للعرض الحي، تمامًا كما يقدم تحويل عمل مسرحي إلى فيلم صورة عن العرض الحي لا أكثر. لذلك فإن ادعاء صناعة الإذاعة أنها تقرب الجماهير من الموسيقى الجادة، هو في صلبه موضع شك. "ويبقى من السيمفونية سيمفونية الحجرة [...]، لكن كلما كان ما يعرفه المستمعون - خصوصًا أولئك الذين يُدْعَون بألفاظ رنانة من الراديو إلى الثقافة الموسيقية - عن العمل المشوَّه أقل، وكلما كانوا مأخوذين أكثر بصوت الراديو حصرًا، كانوا في خضوعهم للتأثير الحيادي أقل وعيًا وأكثر عجزًا [...]. الوحيدون الذين قد يستطيعون فعل شيء من ذلك كله هم الخبراء الذين تقترب منهم سيمفونية كهذه، متطهرةً من قدسية قاعة الموسيقى المجاملة، مثلما يقترب نص جرى تكبيره بعدسة منظار. فهم يستطيعون، محصنين بالنص الموسيقي والمترونوم، أن يُتابعوا العرض، كي لا يدركوا بشكل محتم زيفها، غير أن هذا لم يكن في نهاية الأمر الهدف من هذا كله"[258].

وجهت مقالات أدورنو الثلاث الأخرى - "نقد اجتماعي لموسيقى الراديو"، وهي نص محاضرة أُلقيت في عام 1939 أمام المشاركين في مشروع البحث حول الإذاعة، وتحتوي كل أفكار أدورنو الأساسية، ونُشرت في عام 1945 في *Kenyon Review* (**مجلة كنيون**)؛ و"عن الموسيقى الشعبية"، نُشرت في عام 1941 في مجلة **دراسات في الفلسفة والعلوم الاجتماعية**؛ ثم دراسته حول برنامج "ساعة لتقويم الموسيقى" في إذاعة NBC التي لم تنشر، لكنها أُدخلت في ما بعد جزئيًا في النسخة الألمانية من مقالة "الموسيقى الموقرة" - نقدًا ساحقًا مباشرًا لنظام الإذاعة والمجتمع في الولايات المتحدة الأميركية. كانت مقالة "عن الموسيقى الشعبية" أكثر مقالات أدورنو بساطة ووضوحًا، لا بل قدمتها صحيفة **نيويورك هيرالد تريبيون** بكثير من المديح. كُتبت هذه المقالة، شأن المقالات الأخرى، بالتعاون مع جورج سيمبسون "مساعد التحرير" الذي قال عنه أدورنو، وهو يستعيد ذكرياته، إنه كان يحرص في البدايات على دمج تطلعاته الخاصة بالمناهج الأميركية[259]. وصل أدورنو بمساعدة المقولات التي

---

(258) Adorno, *Gesammelte Schriften*, vol. 15, pp. 378 ff.

(259) Adorno, "Wissenschaftliche Erfahrungen," p. 126.

تعد جزءًا من موضوعات نقاشه مع بنيامين، سواء الجديدة منها أو الباقية على حالها، إلى تحليلات دقيقة للموسيقى الشعبية (مفهوم استخدمه أدورنو مرادفًا لموسيقى التسلية من دون أن يفصح عن ذلك)، ولأوجه نجاحها الاستراتيجية الأساسية. "يريد الناشرون قطعة موسيقية تكون مساوية في أساسها لكل الأغاني الشائعة الأخرى، وتختلف عنها، في الوقت نفسه، اختلافًا جذريًا. فهي لن تحظى بفرصة بيعها تلقائيًا إلا إذا كانت مطابقةً للأغاني الشائعة، من دون أن تتطلب أي جهد من الزبون، ومن دون أن تقدم نفسها بوصفها مؤسسة موسيقية. وهي ما لم تكن مختلفة، لا يمكن تمييزها من سواها من الأغاني الأخرى؛ وهذا شرط لتذكرها ومن ثم نجاحها"[260]. "يُبقي التوحيدُ القياسي للأغاني الشائعة الزبائنَ في انسجام، من طريق استماعهم إليها على النحو الذي كان. أما التفرد الزائف فيبقيهم، بدوره، في انسجام من طريق جعلهم ينسون أن ما يستمعون إليه قد تم الاستماع إليه سلفًا لأجلهم أو 'سبق هضمه'"[261].

بناءً على تحليل الجانب الموضوعي، وعلى إنتاج الموسيقى الشعبية وتسويقها وبنيتها، قام أدورنو في الجزء الثاني من عمله بتطوير "نظرية عن المستمع". تضمن هذا العمل سلسلة من "القضايا" المركزية. منها، على سبيل المثال، أن تَعَرّف قطعة من الموسيقى الشعبية من جديد هو ذروة الفهم، بينما يتخطى الفهمُ التَعرّفَ مرة أخرى عند سماع "موسيقى جيدة وجادة"، وصولًا إلى إدراك شيء جديد أساسيًا"[262]؛ أو أن "الإجهاد والملل المرافق للعمل الحالي يقودان إلى تجنب الجهد في وقت المتعة الذي يقدم الفرصة الوحيدة لاكتساب تجربة جديدة حقًا. وهي تحتاج إلى حافز بديل تقدمه الموسيقى الشعبية. هنا تلتقي حوافزها مع العجز عن بذل جهد كبير في ما يبقى على حاله دائمًا [...]. لحظة التعرف هي لحظة الشعور الذي لا يتطلب جهدًا. يحرق الانتباه المفاجئ المرافق لهذه اللحظة نفسه فوريًا ويَنزل بالمستمع إلى عالم الإهمال والتشتت. فمن جهة، يفترض مجال الإنتاج والوصل التشتتَ، وهو،

(260) *Studies in Philosophy and Social Sciences* (1941), pp. 27 f.

(261) Ibid., p. 25.

(262) Ibid., p. 33.

من جهة أخرى، يُنتجه"[263]. وصل أدورنو في النهاية إلى التمييز بين نموذجين اجتماعيين-نفسيين لموقف الجماهير من الموسيقى بوجه عام ومن الموسيقى الشعبية بوجه خاص. يتمسك "النوع الممتثل إيقاعيًا" المنتشر بين الشبيبة خصوصًا وفق قناعة أدورنو من دون التأثر بخلخلة الإيقاع بوحدات الوقع الموسيقي المتتابعة، مظهرًا بذلك متعته في الامتثال. يتطابق ذلك مع الامتثال المازوشي المزعوم في المقالة عن موسيقى الجاز للمغرمين بموسيقى الجاز امتثالًا للجماعة السلطوية. استخدم "النوعُ العاطفي" الموسيقى الوجدانية لنقل المشاعر، ولا سيما الشعور الخاص بالتعاسة. رأى أدورنو أن كلا النموذجين رضي ببؤسه الاجتماعي: أحدهما مراعٍ والآخر باكٍ.

على العموم، قدم أدورنو في أعماله موقفًا أصدر بكل الحدة الاجتماعية النقدية أحكامًا على ضحايا بنية المجتمع التي تنتقدها، وأطلق مثل هذه الأحكام من دون أن يتكلم في الوقت ذاته أو بأسرع وقت ممكن مع الضحايا. لم يترك التفسير السلبي لكل تصريحات هؤلاء الضحايا ثغرات، لكنه عرّض نفسه للتهمة التي وجّهها لازارسفلد إلى أدورنو: بأنه حين يعفي نفسه من تقديم تفسير للإمكانيات المنطقية للإشكالية، يتمكن من الاحتفاظ بالأحكام المسبقة. فأن يدندن، مثلًا، بالصفير أناس كثر لحنًا مألوفًا لديهم بطريقة مشوهة، أمرٌ يُشبّهه أدورنو بالأطفال حين يجرّون كلبًا من ذنبه. أما الإمكانية الأقرب، على الأقل، أي أن يكون الموضوع على علاقة هنا بتنويع المعروف، وباستخدام وقح للمألوف، بهدف الوصول إلى تغييرات خاصة بمن يُحدثها، فلم يجد أدورنو أنه جدير بالذكر إطلاقًا. وهكذا لم يكن ممكنًا أيضًا أن تظهر أولًا فكرة التحقق التجريبي للافتراض الخاص. مثل هذه الأمثلة تملأ نصوص أدورنو.

يصل أدورنو برتابة إلى نهاية مجرى أفكاره. هنا تظهر صورة التصدع من الداخل، صورة التقلب وصورة بعض الجنون. كذلك ختم نظرية المستمع في مقالته "عن الموسيقى الشعبية" بالجملة التالية: "لكي يتم التحوّل إلى حشرة، يحتاج المرء إلى تلك الطاقة التي من الممكن أن تنجز تحوله إلى إنسان"[264].

---

(263) Ibid., pp. 38 f.

(264) Ibid., p. 48.

لا شك في أن موقفًا كهذا، بعيدًا كل البعد عن الموضوعات البحثية المعنية، لم يكن خاليًا من تفاهات، شأنه شأن موقف لا يبدي خجلًا على الإطلاق. أغرى هذا الكم من تجاهل الذات أدورنو، إلا أن هذا التجاهل لم يكن مقيّدًا بشكوك كتلك التي رافقت الموضوعات الأخرى التي لم تُظهِر أي نفور من تمرير هذه الموضوعات أمام مصفاة وُضعت قبلها من دون أيِ خلفية نقدية-اجتماعية، ومن دون أوراق الاستطلاع المعدّة ومن دون المواقف التجريبية، بل إن تجاهل الذات هذا هو الذي جعل الأوراق والمواقف تتكلم عن نفسها.

توازنات وحيرة

في الوقت الذي حاول لازارسفلد أن يربط، في إطار مشروع برنستون للبحث في الإذاعة، أفكار أدورنو الأوروبي بالبحث التجريبي في الولايات المتحدة الأميركية (وهو بحث تبناه لازارسفلد بكثير من الادعاء، وكان في الوقت نفسه تكليفًا)، كان المعهد الدولي للأبحاث الاجتماعية قد أوقف تمامًا عمله التجريبي. وكانت الأبحاث المتنوعة حول الأسرة والسلطة والبطالة التي كان قد خطط لها كامتدادات لـ **دراسات في السلطة والأسرة** قد جُمدت، وجُمد معها بالتالي جمع وتقويم مادة تجريبية غنية جدًا بمحتواها كان هوركهايمر قد أعلن عنها في عام 1935 في مقدمة **دراسات في السلطة والأسرة**. ليس هناك ما يُشير إلى إمكانية إنجاز مخطط لمواصلة العمل البحثي الجماعي الذي كان هوركهايمر قد أعلن عنه في مقدمة **الدراسات**. بدا وكأن "تداخل طرق العمل البحثي البنّاء والتجريبي" قد جرى التخلي عنه بشكل كامل في الممارسة، وكأن "العمل المشترك العابر لممثلي الاختصاصات المختلفة" (هوركهايمر في مقدمته لكتاب **دراسات**) قد تُرك للارتجال، ليشد إلى الوراء التشابه المضمون بين الموضوعات ووجهات النظر من خلال الاتصالات المتكررة وجلسات التحرير غير الرسمية. وقد كتبت أليس ماير (Alice Maier)، سكرتيرة هوركهايمر وسكرتيرة المعهد لسنوات طويلة في نيويورك: "البيت رقم 429 غربًا في الشارع 117 في نيويورك الذي كنا نعمل فيه كان في الماضي منزلًا خاصًا، وكان في كل طابق غرفتان. في الطابق الأرضي لم يكن هناك أي غرفة، بل مجرد مطبخ ومكان كانت تسكنه السيدة مردوخ، المرأة التي كانت تحافظ على نظافة البيت

وتهتم بكل شيء فيه. احتل ماركوزه الغرفة الأمامية في الطابق الأول، ونويمان الغرفة الخلفية فيه. وفي الطابق الثاني كان بولوك يجلس في الغرفة الأمامية، في حين شغل لوفنتال ومعه هيئة تحرير المجلة الغرفة الخلفية. كان السيد هوركهايمر يعمل في الطابق الرابع في الغرفة الأمامية، وكنا نحن السكرتيرات نعمل أيضًا في الطابق الرابع في الغرفة الأخرى. وكان في الطابق الأعلى، تحت سقف البناء، ثلاث أو أربع غرف أصغر من غرف الطوابق الأخرى. سكن في إحدى هذه الغرف زوجي[265]، وسكن في غرفة أخرى أوتو كيرشهايمر"[266]. كان فروم يعمل دائمًا في بيته، حينما لم يكن في عيادته. وقد أقام مدة طويلة في سويسرا عامي 1938 و1939 لأسباب صحية. لم يكن "للشيوعيَّين" فيتفوغل وغروسمان أي غرفة في المعهد. فقد كان لفيتفوغل مكان في مكتبة بتلر في جامعة كولومبيا، وكان قد ثبّت قدمًا أخرى في معهد علاقات المحيط الهادئ. أما غروسمان فعاش في بيته بصفة عالم مستقل يُموّله المعهد، وهو لم يستطع، بسبب مخطوطاته الطويلة والثقيلة، أن يُلبي تطلعات مديري المعهد بأي شكل، وكان طبعه قد أصبح صعبًا بسبب حياته التعيسة نوعًا ما. يبقى أدورنو الذي كان يعمل إما في نيوآرك وإما في البيت. على هذا النحو بدا المشهد المكاني تقريبًا. كيف تأتى ألا يكون من الممكن الكلام في النصف الثاني من الثلاثينيات عن مشاركة متواصلة في العمل بين ممثلي الاختصاصات المختلفة كما كانت سابقًا إلا مع كثير من التحفظات، وأن يكون الحديث عن تداخل طرائق العمل البنائية والتجريبية أقل بكثير مما كان عليه من قبل؟ ما الذي كان وراء كل ذلك؟ أكان هناك شك في معنى وجدوى أعمال جماعية كبيرة؟ هل كان السبب هو فقدان المهاجرين حس التوجُّه في بلد المنفى؟ هل كان وقفةً تخدم التوجّه الجديد؟

الظاهر أنه بدأت حالًا، بعد إتمام **دراسات في السلطة والأسرة** التي اعتُبرت مجرد تقرير أولي، مرحلةٌ طويلة من الشك والتردد، والتوجه الجديد لمدير المعهد العلمي، ومن ثم للمعهد الذي يديره. كانت وجهة النظر التي انطلق منها البحث الجماعي هي القناعة بعملية انهيار للسلطة، على الأقل في

---

(265) أي جوزف ماير (Joseph Maier).

(266) A. Maier, in: Rainer Erd (ed.), *Reform und Resignation, Gespräche über Franz L. Neumann*, p. 99.

أمد طويل. في النصف الثاني من الثلاثينيات، حينما لم يكن هناك أي شك في قدرة النازية على الحياة، وحينما لم يعد يمكن الشك في تقويض الأسرة وفي التغلب المتنامي على البطالة، وقد بدا هذا وكأنه ينسجم مع ضرورة تكيف الطبع مع العلاقات الاجتماعية السلطوية؛ أمام هذا كله، لم يعد بالإمكان التمسك بالنظرة الأولية تلك. في الوقت ذاته، برهن عهد روزفلت في الولايات المتحدة الأميركية أنه لم يحدث، حتى في الدول غير الفاشية، تناقص في التفكير والسلوك السلطويين أو الخاضعين للسلطة، حتى في الأمد الطويل، بل حصل ازدياد فيهما. وقد تحدث رزوفلت نفسه عن "تجربة سلطوية". ورأى توماس مان، مثلًا، في تشرين الثاني/ نوفمبر 1940 في إحدى خطبه التي بثتها هيئة الإذاعة البريطانية (BBC) إلى المستعمين الألمان: "يرى مدمرو أوروبا ومنتهكو حقوق الشعوب، بحق، في روزفلت الخصم الأقوى لهم [...]. في عصرنا، عصر الجماهير الذي تنتمي إليه بالذات فكرة الزعيم (Führer)، احتُفِظ لأميركا بإنتاج الظاهرة السعيدة لزعيم جماهيري عصري يريد الخير والروحي، والمستقبلي الحقيقي، والسلام والحرية [...]"[267]. كانت هذه رؤية رزوفلت، وهي رؤية كانت منتشرة منذ زمن طويل في أوساط المهاجرين الألمان، وقد رافقتها في معظم الأحيان موافقةٌ أو حتى حماسة[268].

زادت الصفقة الجديدة التي أعلنها روزفلت النقابات قوةً، وشجعت الأعمال الكبيرة تارةً، وحاربتها تارةً أخرى؛ وشرّعت، لأول مرة، الأبواب أمام اليهود واليساريين لشغل مواقع سياسية وإدارية مهمة، وجعلت ما سمي العقد الأحمر، الثلاثينيات الثائرة، ممكنًا؛ إلا أنها لم تتضمن في مقاصدها ولا في نتائجها تغييرًا في البنى الاقتصادية. عندما ازداد، في الكساد الاقتصادي عام 1938، عدد العاطلين من العمل مجددًا، ووصل إلى عشرة ملايين، وأقرّ روزفلت في تصريح علني أن المخرج الوحيد من الانهيار الاقتصادي هو تشجيع صناعات التسليح، غدا جليًا أن التطور في الولايات المتحدة الأميركية ما هو إلا الشر الأصغر مقارنةً بالأوضاع الأوروبية، لكنه ليس، على الإطلاق،

---

(267) Thomas Mann, *Politische Schriften und Reden*, vol. 3, p. 189.

(268) يقدم يواخيم رادكاو (Joachim Radkau) أدلة مقنعة على ذلك في بحثه الغني بكل جوانبه حول **الهجرة الألمانية إلى الولايات المتحدة الأميركية** (*Die deutsche Emigration in den USA*).

بديلًا يبشر بالديمقرطية الاشتراكية. كانت النقابات التي ازدادت قوةً منظمات لوبي ضخمة للغاية وتراتبية. كان من بين تدابير الصفقة الجديدة المميزة خلق مؤسسات من لا شيء قامت بعمل إداري واسع النطاق. ظهرت صورة تنوع دائم التغير لأدوات راعية ومتدخلة؛ طلائع مرتجلة لدولة سلطوية تعمل للمصلحة العامة، رافقتها أحاديث روزفلت قرب المدفأة التي نقلتها الإذاعة والتي كانت بمثابة الخلفية الموسيقية الناعمة.

لم يكن من السهل تقويم كل ذلك تقويمًا صحيحًا أمام أفق مظلم لفاشية تتقدم في أوروبا من نجاح إلى آخر. لم يكن بالإمكان إجراء أبحاث تجريبية متزامنة في أوروبا وفي الولايات المتحدة الأميركية في الثلث الأخير من الثلاثينيات، فكان لا بد من أن ينحصر إجراؤها في أميركا. كان إيجاد إشكالية نقدية-اجتماعية مفصلة على قياس الولايات المتحدة الأميركية، وتقديمها، في الوقت ذاته، في صيغة تتفق مع سياسة المعهد الحذرة، يحتاج إلى وقت. وهذا يقتضي، تماشيًا مع نقد هوركهايمر الذي غدا أقل تسامحًا تجاه العلوم التخصصية، ومع وسمه الذي كان يزداد حدة لكل التيارات النظرية أو الفلسفية غير النقدية-الاجتماعية والناجحة في الولايات المتحدة الأميركية من حيث هي اعتراف وقبول بما هو قائم، يقتضي توضيح، ولو جزئيًا، لماذا توقف البحث التجريبي والجماعي بشكل كامل؟ لماذا سلّم المعهد في منتصف الثلاثينيات عرض مناهج البحث التي اتبعها في أبحاثه حتى ذلك التاريخ إلى لازارسفلد؟ وهو الذي اعتبره هوركهايمر وأدورنو من الوضعيين. ولماذا تابع المعهد حصرًا نشر المجلة، وباللغة الألمانية. في هذا المستوى يمكن مواصلة العمل مع التوجه نحو أوروبا بادئ ذي بدء.

أُضيفَ إلى كل ذلك عامل آخر. كتب هوركهايمر في تشرين الأول/ أكتوبر 1938 إلى السيدة فافتس التي كانت تدير مكتب المعهد في جنيف: "في الأول من تشرين الثاني/نوفمبر سننتقل إلى مكان آخر. سننتقل إلى ضاحية اسمها سكارسديل. إنه بيت صغير [...] يقع في منطقة خضراء، وأعتقد أنني أستطيع العمل هناك بشكل جيد. أخيرًا، سأبدأ العمل على كتاب في الفلسفة الجدلية. لن أجيء إلى المعهد إلا مرةً واحدة في الأسبوع، وذلك في اليوم الذي يكون لدينا محاضرة. في هذا اليوم سأعقد حلقة بحث صغيرة في المعهد

حول سبينوزا"[269]. كان في ذهن هوركهايمر تصورات بعيدة المدى حول إنجاز الكتاب. وإذا لم يعد ممكنًا تحقيق مشروعه في إنجاز كتاب **الجدل** مع أدورنو في مكان ما في جنوب فرنسا بسبب سوء الأحوال في أوروبا عام 1939، فهو يريد أن يُنهي كتابته في كاليفورنيا. سافر إلى هناك مع زوجته في صيف 1938، وكتب بحماسة إلى لوفنتال من سانتا مونيكا القريبة من هوليوود: "حقًا، إن المنظر الطبيعي، وحتى العمارة الهندسية أحيانًا، جميلة جدًا. والمناخ، ببساطة، دواء، فإذا بقي معنا في خريف 1939 سنتٌ واحد، ولم تكن فرنسا متاحة، فيجب أن ننتقل إلى هنا [...] الحياة هنا ليست مكلفة، وأنت تعرف هذا [...] من الغباء جدًا أن يعيش المرء في الولايات الشرقية ما لم تكن لديه أسباب قاهرة"[270].

حرضت هوركهايمر اعتبارات مالية على المضي في تصميمه على البدء جديًا في تنفيذ ما اعتبره واجبه الكبير وفرصته السانحة، أي مواصلة تطوير النظرية وإنجاز كتابه حول **الجدل**. كان للمعهد جهاز ضخم: كان أعضاء المعهد الدائمون في عام 1938 من دون هوركهايمر وبولوك هم: فروم، وغروسمان، وغومبرتس، ولوفنتال، وماركوزه، ونويمان، وأدورنو، وفيتفوغل. كانت تشكيلة المشاركين في الأبحاث تتغير من عام إلى آخر. انضم إلى المعهد لمدة طويلة أوتو كيرشهايمر وفريتس كارسن، وكان يعمل في المعهد لأجل قصير ستة إلى ثمانية أشخاص في كل مرة. يضاف إلى كل هؤلاء أربع إلى ست سكرتيرات. عمل في المعهد لبعض الوقت مؤرخان شابان، كمترجمَين ومحررَين، هما موزس فينكلشتاين (Moses Finkelstein) (سمي لاحقًا فينلي) وبنيامين نلسون. من أجل الأبحاث التجريبية كانت تُشغَّل قوًى إضافية على أساس عقود عمل جزئية قصيرة الأجل. تُظهر نظرةٌ شاملةٌ على مصاريف المعهد ما يلي: أنفق المعهد لمساعدة العلماء المهاجرين، وفقًا لجدول أعدّه بولوك في العقد الممتد بين عامي 1933 و1942، ما يقرب من 200,000 دولار، استفاد منها 130

(269) رسالة من هوركهايمر إلى فافيز، 13 تشرين الأول/أكتوبر 1938.

(270) رسالة من هوركهايمر إلى لوفنتال، 21 حزيران/يونيو 1938.

شخصًا تقريبًا[271]. هذا الجهاز الذي كان يَنظر إليه مديرا المعهد دائمًا بمشاعر مختلطة بوصفه "خارجيًا"، بدا على حين غرة خَطرًا يهدد مشروع الجدل. كيف؟

صحيح أن أموال الجمعية الدولية للأبحاث الاجتماعية قد تقلصت، على سبيل المثال، في عام 1937 من 3.9 إلى 3.5 ملايين فرنك سويسري، لذلك كان لا بد من أن يُقتطع، لأول مرة، من رأس مال الجمعية[272]، الأمر الذي لم يشكل، مع أنه لم يكن سارًا، خرقًا لمعنى مؤسسة فايل التي كانت ترى أن المال ينبغي ألا يعتبر رأس مال، وأنه يجب أن يُنفق على مدى مدة زمنية أطول. زد على ذلك أن عام الكساد الاقتصادي، 1938، لم يحمل معه أي تحسن، بل زادت الأمور سوءًا على نحو دراماتيكي، وكان بولوك على وجه خاص قد أسهم، باعترافه شخصيًا، في تفاقم الوضع، وهو الذي خصص في مكتبه جدارًا لتدوين أسعار البورصة، لكنه لم يكن محظوظًا في توظيف الأموال. مع ذلك، فإن تقليص الأموال الضخمة المخصصة للمعهد لم يكن وحده السبب وراء تجميد الأبحاث التجريبية بشكل كامل، ولا حتى للبدء ببحث جماعي جديد، إذ يمكن أن يكتفى بأبحاث تجريبية أكثر تواضعًا من تلك التي تطلبتها الدراسات حول السلطة والأسرة.

إن ما جعل طاقم العمل في المعهد يبدو خطرًا على مشروع الجدل، وعزز الميل إلى استقلالية هذا المشروع بمواجهة برنامج استخدام المعهد لإنجاز مشروع جماعي لنظرية للمجتمع تدمج البحث العلمي التخصصي والتجريبي، كان خوف هوركهايمر وزوجته من أن لا يكون بحوزتهما المال الكافي، وهو خوفٌ مكّن هوركهايمر من كتابة بعض الحكم والأقوال المأثورة في **الفجر**، تضمنت أعنف نقد وجّهه إلى البرجوازية، ودفعه إلى إبرام العقود التي سبق ذكرها مع "جمعية الأبحاث الاجتماعية"، والتي انطوت على نوع من المغامرة. كتب هوركهايمر إلى لوفنتال، مثلًا، في صيف 1940، وهو في طريقه إلى لوس أنجلس ليقيم هناك: "طوال الرحلة تمر أمام عيني مرارًا وتكرارًا فكرة أن المال

---

(271) Friedrich Pollock, *Memorandum for P. T. [Paul Tillich] on Certain Questions Regarding the Institute of Social Research*, Max Horkheimer Archiv (1943).

(272) Pollock, *Rapport Annual* vom 9/4/1938.

هو أفضل حماية، المال هو أفضل حماية، المال هو [...]"[273]. حمل هذا الخوف الذي كان بولوك ذو النظرة السوداء يزيد من وطأته، هوركهايمر على إعطاء الأولوية لكتاب **الجدل** نظرًا إلى الوضع المالي الذي كان يزداد سوءًا.

لكن هذا الخوف كان أيضًا دافعًا له وزنه في الحفاظ على عمل معهد مؤثر؛ لأن المعهد الذي كان يحتمي بمظلة جامعة كولومبيا شكّل ملاذًا مهمًا، من دونه كان على هوركهايمر أن يشعر بنفسه فردًا أعزل يعيش منفيًا في مجتمع لا تقدم فيه الحمايةَ - برأيه - إلا منظماتٌ قوية، ولأن الفرد وملكيته معرضان لكل عرضيات عصر الرأسمالية الاحتكارية الموجهة من أعلى. فضلًا عن ذلك، لم تكن حاجته إلى إنجاز في النطاق النظري أقل حدة من حاجته إلى تأكيد الذات الذي يضمنه له دور الأكاديمي الإداري، ودور مدير مشروع علمي. على هذا النحو، توصّل مؤقتًا إلى تسوية استمرّ بموجبها المعهد في العمل، لكن من دون هدف. كما حاول - من دون حماسة - منذ شتاء 1938/ 1939 إيقاظ اهتمام مؤسسات وشخصيات لمصلحة المعهد عمومًا ولمصلحة مشاريع بحثية معينة (كالمشاريع التي عُرضت بصيغة مؤثرة وموجزة في قائمة مشاريع المعهد الصادرة في عام 1938) بأمل الحصول على تبرعات مالية (كتب هوركهايمر إلى بنيامين في كانون الأول/ ديسمبر 1938: "باستطاعتكم أن تتخيلوا أن هذا النشاط ليس سهلًا بالنسبة إليّ، نظرًا إلى خصوصية طبيعة عملنا الذي يُنظَر إليه هنا أكثر من أي مكان آخر بوصفه ترفًا على الأقل، وفي وسط هذه اللغة أيضًا"). وقع كثير من العاملين في المعهد في بلبلة وشعور بعدم الأمان من خلال ما سُرِّب من إشارات خفية نوعًا ما إلى تدهور المعهد ماليًا، ومن خلال تخفيضات غامضة في رواتبهم. وكان هوركهايمر يستعد لإنجاز كتابه عن **الجدل** بشكل نهائي، من غير أن يفعل ذلك أبدًا. كما كان ينظر شزرًا وباستخفاف إلى التزامات المعهد في جامعة كولومبيا، لكنه كان يفكر، في الوقت نفسه، كيف يمكنه أن يوضح لجامعة كولومبيا أنها لم تقدّر المعهد حق قدره.

صعّب غياب توجّه للمعهد في نهاية الثلاثينيات إقامة توازنات كان يسعى إليها دائمًا، كما على سبيل المثال في العلاقة بالمحيط الأكاديمي.

---

(273) رسالة من هوركهايمر إلى لوفنتال، 25 تموز/ يوليو 1940.

كانت حلقات البحث عمليًا حلقات حوار بين العاملين في المعهد، لم يشارك فيها سوى عدد قليل من الطلاب الأميركيين. لو بقي العاملون في المعهد في جلساتهم التي ظهرت في منشور المعهد - كما على سبيل المثال، في حلقة البحث لهوركهايمر حول "مشكلاتٌ مختارةٌ من تاريخ المنطق، بالإشارة إلى المفاهيم الأساسية للتاريخ الاجتماعي" (1936-1938)، وحلقة البحث لـ غومبرتس/ وبولوك حول "نظريات دورة الأعمال" (1936-1937)، وحلقة البحث لفايل حول "مستويات الحياة في ألمانيا الاشتراكية القومية"، وحلقة البحث لأدورنو حول "الموقع الاجتماعي لموسيقى ريتشارد فاغنر" (1938) - لو بقوا في ما بينهم لشعروا بأنهم أكثر أمانًا. لكنهم كانوا وحدهم إلى حد بعيد أيضًا، عندما "كان الدكتور ماكس هوركهايمر وأعضاء آخرون من طاقم العمل في المعهد الدولي للأبحاث الاجتماعية" يلقون في القسم الملحق بجامعة كولومبيا منذ عام 1936 محاضرات، كانت تعالج، تحت عناوين متنوعة قليلًا، الفكر السلطوي والمؤسسات السلطوية في أوروبا. قدم هوركهايمر في دورة 1937/ 1938، على سبيل المثال، المدخل الفلسفي، ثم تكلم ماركوزه على تاريخ أفكار السيطرة والخضوع، وفي وقت لاحق تكلم لوفنتال على إشكالية السلطة في الأدب، ونويمان على الدول السلطوية، وفروم على البنية المميزة للإنسان الحديث. بالنسبة إلى هوركهايمر نفسه على الأقل، كان ذلك إلهاءً مزعجًا عن العمل الحقيقي لم يُرد أن يكرس له كثيرًا من الوقت والجهد، ولم يعط فيه اهتمامًا كبيرًا لمصالح الطلبة. من جهة أخرى، لم يكن مشرّفًا له بما يكفي أن يقتصر في الأمد الطويل على إلقاء محاضرات في القسم الملحق بجامعة كولومبيا لا يرتادها عدد كبير من الطلبة وغير مدرجة في المادة الامتحانية. شعر هو ولوفنتال وأدورنو بإهانة المعهد، عندما تقرر ألا يحصل هوركهايمر في عام 1939/ 1940، بل نويمان - وهو، إلى حد بعيد، الأكثر نجاحًا كأستاذ جامعي - على منصب أستاذ في جامعة كولومبيا (الأمر الذي لم يتحقق إلا بعد نهاية الحرب). كان هذا عارضًا يشير إلى مأزق، رأى هوركهايمر ومرؤوسوه أنفسهم في مواجهته: فهم أرادوا البقاء بعيدًا عن النظام الأكاديمي، لكنهم يريدون، في الوقت نفسه، أن يُعامَلوا كما لو أنهم يشاركون فيه بمواقع مهمة.

ظهر فعل توازن آخر، تجلى في سعيهم لئلا يخونوا قضية اليسار، وأن يُبعدوا، في الوقت ذاته، عن أنفسهم شبهات مماثلة؛ كما تجلى في سعيهم لتجنب ما اتهم به أدورنو وهوركهايمر مثقفينَ آخرين. لما دارت المفاوضات مع دار غاليمار في باريس حول نشر مجموعة مقالات لهوركهايمر بالفرنسية، أبدى أدورنو وهوركهايمر نوعين من المخاوف تجاه برنارد غروتهايسن، وهو أحد معارف بنيامين ويقيم في باريس منذ زمن طويل: "الخوف أولًا من أصدقائه الماركسيين الذين قد يكون كتابكم أكاديميًا جدًا بالنسبة إليهم. أضيف أيضًا الخوف من الأشخاص الرسميين الذين قد يكون الكتاب، بالنسبة إليهم، ماركسيًا جدًا"(274). ثم وسّع هوركهايمر الفكرة: "النفور منا من الجانب الرسمي لا بد من أن يُعزى دومًا إلى تصور أن هناك قوة ما تقف وراء النظرية الماركسية، في الوقت الذي يعتري هذه القوة الوهن على نحو مثير للشفقة، لأنها بالضبط تخلت عن تلك النظرية. ينبع النفور من كل ما هو 'أكاديمي' [...] حصرًا من ذاك الرعب المخيف من النقد الذي يبدو له أن التفكير في حد ذاته مشبوه [...]. كان علينا أن نحسب منذ سنوات أن القوى التي يشبه بعضها بعضًا سوف توحد قواها ذات يوم أيضًا. سيكون العدو المشترك، بقدر متزايد، الفكر عمومًا [...]. كان باستطاعتنا، نحن الاثنين، حقًا أن نتتبع بداية هذه العملية في فرانكفورت. لقد أصبحت الآن عامة، ووحدت الجماعات المتعارضة"(275). أدت استراتيجية هوركهايمر إلى وصف موقفه من "الأصدقاء الماركسيين" بأنه تفكير راديكالي، وموقفه من "الأشخاص الرسميين" بأنه أمين لتقليد العلوم الإنسانية-الفلسفية الأوروبية.

لم يكن الاستناد إلى تراث الروح الأوروبي بالذات، في أي حال من الأحوال، ملائمًا لإبعاد معهد للبحث الاجتماعي عن الشبهات في بلد كان فيه البحث الاجتماعي متطابقًا مع البحث التجريبي تقريبًا، وكان التعاون الوثيق مع ممولي الأبحاث مألوفًا، والنشر المستمر لنتائج الأبحاث متوقعًا. في تصريح لهوركهايمر في عام 1943 - ربما لم يسبق له مثيلٌ - دافع فيه، وليس لأول مرة، عن المعهد مفندًا كل الشبهات: "خطأ آخر أعتبر نفسي مسؤولًا عنه جزئيًا،

(274) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، أكسفورد، 12 تشرين الأول/ أكتوبر 1936.

(275) رسالة من هوركهايمر إلى أدورنو، نيويورك، 22 تشرين الأول/ أكتوبر 1936.

لكن يُمكن أن تفسّره خلفيتي، هو أننا سمينا أنفسنا معهدًا بدلًا من مؤسسة أو وَقْف. حينما جئنا إلى هذا البلد، كانت فكرتنا أن نكرس مدخراتنا التي أتينا بها إلى هنا لمساعدة الأكاديميين الأوروبيين الذي فقدوا مراكز عملهم بسبب صعود الدكتاتورية، على مواصلة عملهم. وعندما أدركنا أن بعض أصدقائنا الأميركيين كانوا يتوقعون من معهد للعلوم الاجتماعية أن يكون ملتزمًا بدراسات حول مشكلات اجتماعية ملحة، وبعمل ميداني وبأبحاث تجريبية أخرى، حاولنا أن نُلبّي هذه الطلبات بقدر ما استطعنا، لكن قلْبَنا كان متعلقًا بالدراسات الفردية، بمعنى العلوم الإنسانية والتحليل الفلسفي للثقافة.

لما كان علينا ألا نعتمد على إيرادات تأتينا من الخارج، اعتبرنا أنه واجبنا وامتيازٌ لنا أن ننمي كل أنواع الدراسات الخاصة بالعلوم الإنسانية الأوروبية الأقدم، لا سيما أن هذه الدراسات قد فقدت موطنها هناك، ولم تستطع تأسيس نفسها في بلدان أخرى. ينطبق هذا على المضامين والمناهج، وعلى تنظيم العمل أيضًا. وهذا كان السبب أيضًا وراء استمرارنا مدة طويلة في نشر كتاباتنا باللغتين الألمانية والفرنسية، وحتى في كوننا لم نُظهر أي اهتمام على الإطلاق بالنشر"[276].

إن حقيقة أن **مجلة الأبحاث الاجتماعية** التي بقيت لمدة طويلة بطاقة التعريف العلنية الوحيدة لإنجازات المعهد، والتي بقيت تنشر حتى عام 1939، وعلى صفحة كاملة، دعاية لـ **دراسات في السلطة والأسرة**، وتابعت الظهور، من الناحية المبدئية، باللغة الألمانية، برّره هوركهايمر في ورقة تم توزيعها في أثناء مأدبة غداء أقامها المعهد على شرف كلية العلوم الاجتماعية التابعة لجامعة كولومبيا، بأن نقاش قضايا نظرية أساسية، وأن مواصلة تقليد الفلسفة الألمانية وعلم الاجتماع الألماني سيكون من الأفضل أن يُقدَّما باللغة الأم، أي باللغة الألمانية - بحسب رأي "أصدقائنا في الخارج" - من أن يُقدما بلغة إنكليزية أو فرنسية قاصرة. "نحن نعتقد أنه في كل ترجمة من لغة إلى أخرى، من الألمانية إلى الإنكليزية والعكس، لا بد من أن تحصل بعض التغيرات الطفيفة في المعاني. تنطوي عملية الترجمة دائمًا على خطر التبسيط والشعبية ولا سيما

(276) تصريح للأستاذ د. ماكس هوركهايمر، في 9 حزيران/ يونيو 1943.

في الفلسفة، وفي علم الاجتماع، وفي التاريخ. لقد تفادينا الوقوع في هذا الفخ حتى الآن. اليوم، **المجلة**، هي المجلة الوحيدة المستقلة استقلالًا كاملًا في مجال عملنا العلمي التي تُنشر باللغة الألمانية".

من فم هوركهايمر الذي كان يدافع عن طريقة تعبير واضحة وبسيطة، وبالنظر إلى الأعمال البسيطة لغويًا لمعظم المشاركين في **مجلة الأبحاث الاجتماعية** باستثناء بنيامين وأدورنو، لم تبد الظرافة اللغوية مُقنعة. كانت هناك أيضًا اعتبارات استراتيجية حاسمة. "إصدار المجلة بالألمانية - وفي هذا كان هوركهايمر وأدورنو ولوفنتال متفقين - سوف يفسح المجال أمام الآخرين، على الأقل، للتدخل أو للمراقبة"[277]. ثمة تأثير مرحب به مرافق لإصدار المجلة باللغة الألمانية، تمثل في حقيقة أن المعهد أسهم قليلًا في المقاومة الفكرية بين الألمان. عندما سألَت السيدة فافتس، سكرتيرة مكتب جنيف، هوركهايمر في عام 1938 إن كان بمقدورها أن تقدم أعداد سنوات من المجلة بسعر مخفَّض لمجموعة من الطلبة الألمان الذين فرّوا إلى بازل، وأرادوا الانشغال بأعمال معهد البحث الاجتماعي التي يقدرونها منذ وقت طويل، أبدى هوركهايمر فرحه الكبير "بأن عملنا لم يذهب هباءً حتى في هذه الأيام"[278]، واستشهد برسالة أستاذ جامعي ألماني هاجر إلى النرويج، جاء فيها أن المجلة بدت له ولأصدقائه في ألمانيا وكأنها "واحة وسط الذل والخواء الفكريين اللذين يسودان الآن الحياة الفلسفية والروحية في ألمانيا".

مهما بدت المخاوف والإجراءات الوقائية التي اتخذها هوركهايمر وأقرب المقربين منه، مبالغًا فيها ومضحكة، إلا أن لها أسبابًا واقعية. عاش هؤلاء في نهاية الثلاثينيات في المنفى وضعًا أعاد إلى ذاكرة البعض منهم السنوات الأخيرة من جمهورية فايمار. في نهاية الثلاثينيات، عندما تعطلت الصفقة الجديدة، كان العقد الأحمر قد وصل أيضًا إلى نهايته، وتبدت كردة فعل على بروز شخصيات يسارية، أو على الأقل شخصيات يسارية سيئة السمعة سيطرت على المشهد لسنوات طويلة في السياسة والإدارة والإعلام، نزعةٌ جلية معادية

---

(277) رسالة من فروم إلى هوركهايمر، 19 كانون الأول/ ديسمبر 1935.

(278) رسالة من هوركهايمر إلى فافيز، 13 تشرين الأول/ أكتوبر 1938.

للشيوعية، ازدادت أكثر نتيجة للمعاهدة بين ستالين وهتلر. وفي الثلاثينيات أيضًا كان هناك تسامحٌ مع المواقف اليسارية، خصوصًا لأولئك المقيمين في أميركا، لكن الأمر لم ينطبق على المهاجرين قط. وقد استطاع أيضًا المهاجرون اليساريون أن يشعروا بأقصى درجة من الأمان في كنف جامعة كولومبيا التي كانت من بين الجامعات التي يتمثل فيها بقوة نسبيًا أساتذة ليبراليون يساريون، متعاطفون مع الصفقة الجديدة ومع روزفلت، أو على الأقل مع واحد منهما. كان رئيس جامعة كولومبيا نيكولاس موري بتلر، وهو جمهوري محافظ، فخورًا بأن كثيرين من زملائه يعملون في إدارة روزفلت.

في الجو السياسي الذي تزداد حدّته منذ نهاية الثلاثينيات، كان لا بد للمعهد من أن يعاني ثانية من فقدان ثقة يصعب فهمه، أشاعه بوضوح مهاجرون لهم قناعات مختلفة. كانت العلاقات متوترة بشكل خاص بين المعهد والمدرسة الجديدة للبحث الاجتماعي. أسس هذه المدرسة[279] بعد الحرب العالمية الأولى ليبراليون، وكانت لبضع سنوات مركزًا للمثقفين الأكاديميين التقدميين في الولايات المتحدة الأميركية، حيث درس فيها ثورستين فيبلن (Thorstein Veblen) حتى عام 1927. في العشرينيات، أصبح هذا المركز تحت إدارة ألفين جونسون (Alvin Johnson) محافظًا، وتطور إلى مدرسة نظامية لتعليم البالغين خاضعة للممولين. وفي الثلاثينيات غدت عديًا من خلال "الجامعة في المنفى" التي انضمت إليها كجامعة حقيقية، أهم نقطة تجمع للعلماء الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة الأميركية. وافقت مؤسسة روكفلر في الحال لجونسون على التمويل لمئة أستاذ جامعي، وهو عددٌ لم تصل الجامعة إلى تحقيقه، ولا حتى الاقتراب منه. أسس جونسون في عام 1934 مجلة **البحث الاجتماعي** لتكون أداة نشر للأساتذة المهاجرين. واجه في المدرسة الجديدة معهدَ هوركهايمر عددٌ من الأصدقاء من أيام فرانكفورت، بينهم أدولف لوفه المعادي للماركسية وماكس فرتهايمر المعادي للفرويدية؛ لكن من بين المعادين للفرويدية أيضًا كان هانز شباير الذي راجع في عام 1936 في مجلة

(279) يراجع بخصوص ما يلي مبحث "الجامعة في المنفى" في المدرسة الجديدة للبحث الاجتماعي في:

Joachim Radkau, *Die deutsche Emigration in den USA.*

البحث الاجتماعي كتاب **دراسات في السلطة والأسرة**، باستخفاف واستعلاء. وكان، مثلًا، من بين المعادين للماركسية وخصمًا أيضًا للصفقة الجديدة، إميل ليديرر الذي كان جونسون يخصه بتعاطف ومودة مميزَين، وأدى حتى وفاته في عام 1939 دورًا قياديًا بين المهاجرين في المدرسة الجديدة. وقد أعاد ليديرر مخطوطة "الإمبريالية" المرسلة إليه من فولفغانغ هالغارتن الذي كان يعتبر ماركسيًا إلى فرنسا من دون أن يفتحها. تكفلت المعرفة الشخصية بين لوفه وهوركهايمر، وصلة تيليش بالمؤسستين، وحقيقة إمكان حتى شيوعي مثل هانز أيزلر أن يدرس في المدرسة الجديدة، بخلق خصومة استراتيجية غير منظورة.

لكن كان على مديري المعهد أن يتوقعوا أن تثار شُبهات حول وجود شيوعيين بين العاملين في المعهد، سواء أكانوا ماركسيين أم مجرد أصحاب اتجاه تمويهي، ليس من جانب المدرسة الجديدة المنافسة للمعهد فحسب، بل أيضًا من كل صنوف المهاجرين الآخرين الذين أرادوا أن يُستبعد المعهد بسبب نقص كفاءته من الحصول على دعم الممولين في الولايات المتحدة الأميركية، أو أن ينفّسوا عن غضبهم منه. في 30 تموز/ يوليو 1940، في أثناء عطلة الجامعة، قام شرطيان بزيارة المعهد حيث لم توجد إلا سكرتيرة واحدة ولوفنتال. وقد أخبر لوفنتال هوركهايمر أنهما "استفسرا في أثناء الحديث الطويل بدقة عن جميع أعضاء المعهد، ودوّنا ملاحظات تتعلق بمنذ متى هم هنا، ومن منهم أميركي، وبعناوينهم الدائمة والمؤقتة في أثناء العطل. تأثر الشرطيان بشكل واضح بأوراق المراسلة، وبنشرتنا[280]، وبكتاب روشه وكيرشهايمر، وتأثرا أيضًا بعناوين المجلة الجديدة ومحتوياتها[281]، وتركيب الدراسات الاجتماعية"[282]. يُقال إن هذه الزيارة كانت تساعد السلطات على تكوين نظرة عامة عن المؤسسات الأجنبية. وكما أكد لوفنتال، لم يجرِ إزعاج أي شخص آخر من الأوساط الأكاديمية.

---

(280) أي كراس المعهد لعام 1938.

(281) أي **مجلة الأبحاث الاجتماعية** (*ZFS*) بنسختها الإنكليزية: مجلة **دراسات في الفلسفة والعلوم الاجتماعية** (*Studies in Philosophy and Social Sciences*).

(282) رسالة من لوفنتال إلى هوركهايمر، 4 آب/ أغسطس 1940.

قلما كانت تهمة الماركسية سببًا في الصعوبات التي عانى منها المعهد. عندما سعى المعهد جاهدًا في بداية الأربعينيات للحصول على تمويل لمشروعي بحث، كان لنويمان لقاء مع كارل يواخيم فريدريش، أستاذ العلوم السياسية في جامعة هارفرد في كامبردج، وهو أستاذ شهير جدًا، ومشغول بأمور كثيرة، هاجر في عام 1921 إلى الولايات المتحدة الأميركية. "سألت فريدريش عن رأيه في مشروعنا حول الأوجه الثقافية للاشتراكية القومية" - هذا ما أخبر به نويمان هوركهايمر في آب/ أغسطس 1941 - "أجاب بأن المشروع ممتاز جدًا شريطة أن يقوم به علماء مؤهلون، وغير متكبرين، وغير دوغمائيين. بعد هذا التوضيح، تبين لي في الحال أن فريدريش يعتبر المعهد شأنًا ماركسيًا خالصًا، ومن ثم فهو لم يكن يثق بأننا قادرون على تنفيذ المشروع من دون تحيز. كان السؤال الذي كان علي أن أتخذ فيه قرارًا في تلك اللحظة هو: أي تكتيك أتبع؟ كان بمقدوري أن أرفض بغضب واستنكار التهمة المخفية الموجّهة إلينا، أو كان بمقدوري أن ألعب، على الأقل، بأوراق نصف مكشوفة. قررت اتباع التكتيك الأخير. سألته بصراحة تامة، إن كان يعني بذلك أن المعهد ماركسي بالخالص، وأنه بسبب ارتباطه العقائدي لا يستطيع أن يقدم أي ضمانة لإنجاز المشروع بموضوعية. كان جوابه: نعم. وعليه أوضحت له، بادئ الأمر، أن هناك فارقًا بين ماركسي وماركسي؛ وثانيًا، أن من غير الصحيح أن المعهد يتألف من ماركسيين. فبعضهم ماركسي وبعضهم الآخر ليس ماركسيًا. وليس أي منهم، سواء مباشرة أو بصورة غير مباشرة، عضوًا في الحزب الشيوعي. وبذلك خفّت حدة التوتر في حديثنا الذي استمر نصف ساعة تقريبًا، والذي شرحت له فيه الأُسس النظرية للمعهد والمهمات التي نعتقد أن علينا القيام بها. بعد هذا الحديث، طرحت عليه مرة أخرى سؤال إن كان لا يزال على ظنه الأصلي، كان الجواب: كلا"[283].

أحبط هذه النجاحات الصغيرة التي حققتها محاولات توضيح مثل هذه المسائل التي كان استمرارها موضع شك، واقعُ أن معهد هوركهايمر أصبح بلا مساعدة خاصة نسبيًا أكثر يسارية من دون أن يفعل شيئًا بمفرده، لأن المعهد،

---

(283) رسالة من نويمان إلى هوركهايمر، نيويورك، 13 آب/ أغسطس 1941.

ببساطة، كان ينسحب من الرؤى القديمة بإيقاع أبطأ من معظم المهاجرين الآخرين، ما لم يكونوا، في أي حال، محافظين سلفًا. كانت عبارة هوركهايمر في الصفحة الأولى من مقالته "اليهود وأوروبا"(284)، في سياق آراء المهاجرين الألمان يومذاك، اعترافًا جريئًا بأنه كان يصعب عليه أن يجازف بكتابته بهذا الوضوح باللغة الإنكليزية: "لا أحد يستطيع أن يطلب من المهاجرين أن يضعوا المرآة أمام العالم الذي أنتج الفاشية، خصوصًا في البلدان التي منحتهم اللجوء. لكن من لا يريد أن يتكلم عن الرأسمالية، يجب عليه أن يصمت عن الفاشية".

عندما نطق بهذا الكلام، رأى هوركهايمر نفسه كمن استغل استقلالية المعهد كي يقول الحقيقة التي لم يجرؤ المهاجرون الآخرون على قولها، إن لم يكونوا عميانًا عنها في أي حال. في الواقع(285)، تبنى باول تيليش وإدوارد هايمان، الاشتراكيان المسيحيان سابقًا، وجهة النظر التي ترى أنه لا يمكن الكلام على طابع طبقي للفاشية وعلاقة حاسمة بين الفاشية والرأسمالية. ورأى ليوبولد شفارتسشيلد ناشر *Neuen Tagebuchs* (**يوميات جديدة**) أن أنصار هتلر هم من العمال أكثر منهم من البرجوازية. أما آرثر فايلر – وهو من المدرسة الجديدة للبحث الاجتماعي، وكان قد نشر بالاشتراك مع زميله المهاجر الإيطالي ماكس أسكولي في عام 1938 كتاب **فاشية لمن؟** – فرأى في الاشتراكية القومية نسخة ألمانية عن البلشفية الروسية. وكتبَ فرانتس بوركيناو، الشيوعي القديم الحاصل الوحيد على منحة من معهد البحث الاجتماعي، في كتابه **العدو التوتاليتاري** الصادر في عام 1939: "النازية هي بلشفية بنية اللون، كما يمكن أن توصف البلشفية بأنها 'فاشية حمراء اللون'". في حين أن كتاب إميل ليديرر الذي نُشر بعد وفاته في عام 1940، وعنوانه **دولة الجماهير**، بدأ بعبارة: "ليست الدكتاتورية الحديثة خندق الدفاع الأخير (للرأسمالية) [...] ولا ثورة الطبقة الوسطى ضد انحطاطها". لقد رأى ليديرر في الدكتاتورية التوتاليتارية "إلغاءً للتاريخ". وكانت هذه رؤية قيامية رومانسية كتلك التي نادى بها هرمان راوشنينغ بأسلوب مؤثر

---

(284) *Zeitschrift für Sozialforschung* (1939).

(285) يُراجع حول ما يلي:

Radkau, pp. 232, 234, 241 f.

جدًا. رأى هذا الأخير الذي كان حتى عام 1936، حينما وقع الخلاف بينه وبين هتلر، قائدًا نازيًا "محافظًا" ورئيس دانتسيغ، أن الاشتراكية القومية [النازية] هي "ثورة العدمية". وكتابه الذي يحمل العنوان نفسه نُشِر في زوريخ عام 1938 باللغة الألمانية، وبعد عام في نيويورك باللغة الإنكليزية، أصبح مع كتابه الذي نُشر في عام 1940 بعنوان **أحاديث مع هتلر** (عنوان النسخة الإنكليزية: **صوت الدمار**)، أصبحا التفسير الأكثر نجاحًا وتأثيرًا في الولايات المتحدة الأميركية الذي يشرح رؤية المهاجرين للنازية.

جاء إلى الولايات المتحدة الأميركية أولًا وقبل غيرهم(286) مهاجرون محافظون، في حين تمركزت الهجرة الشيوعية في المكسيك. كان اليهود الذين يشكلون أكثر من 90 في المئة من الهجرة الناطقة بالألمانية إلى الولايات المتحدة الأميركية، في معظمهم مجرد لاجئين سياسيين، بمعنى أنهم كانوا ضحايا السياسة النازية من دون أن يتخذوا، هم أنفسهم، مواقف معارضة. كان بإمكان كثيرين ممن دفعتهم، بهذه الدرجة أو تلك، القوانين المعادية للسامية إلى اليسار، أن يتخذوا في الولايات المتحدة الأميركية موقفًا أكثر اعتدالًا ويمينية. لقد جاء معظم المهاجرين إلى الولايات المتحدة الأميركية في وقت متأخر، وكانت من بين هؤلاء الطبقة العليا اليهودية التي واصلت أنشطتها لمدة طويلة تحت السيطرة النازية، ولم يكن إلا عددٌ قليلٌ جدًا من أفرادها معاديًا للفاشية.

لا بد من أن يُنظر على أساس هذه الخلفية إلى الدوي الذي أحدثته مقالة هوركهايمر "اليهود وأوروبا". كانت هذه أول مقالة خصصها هوركهايمر لموضوع الفاشية، وهي أول مقالة مكرسة لهذا الموضوع في حلقة هوركهايمر على الإطلاق منذ أعمال بولوك وماركوزه في عامي 1933 و1934، وهي، فضلًا عن ذلك، البيان السياسي الشامل الفريد من نوعه الذي أصدره المعهد في عهد هوركهايمر. تردد هوركهايمر في نشر مقالته مدة أطول من أي وقت سابق. كان النص جاهزًا إلى حد بعيد في عام 1938، لكن لم يُدفع به إلى

(286) يُراجع بهذا الخصوص أيضًا:

Radkau, p. 287.

الطبع إلا في الأيام الأخيرة من شهر أيلول/ سبتمبر 1939، أي بعد معاهدة هتلر - ستالين بمدة وجيزة، وبعد الهجوم الألماني على بولونيا الذي وقع بعد ذلك بأسبوع. نُشرت المقالة في آخر عدد من **مجلة الأبحاث الاجتماعية** التي يصدرها المعهد باللغة الألمانية. وسمح هوركهايمر، لأول مرة، بنشر مساهمة طويلة له لا تتصدر مقالات المجلة. وقد خضع النص أكثر من مرة لرقابة دقيقة، قام بها أقرب المقربين من أعضاء المعهد. فخُففت، على سبيل المثال، الجمل المتعلقة بروسيا مرارًا، وحُذِفت في النهاية تمامًا جملة حول صائد المواريث. مع ذلك كان على هوركهايمر أن يحسب ألف حساب، كي لا يضيع الفرص.

كان محور المقالة يتلخص في فهم الفاشية بوصفها الشكل السياسي من مرحلة الرأسمالية الاحتكارية، وهو بذلك بقي وفيًا للنظرية الشيوعية عن الفاشية من حيث هي عميل لرأس المال الكبير. في الواقع، تجاوز العمل مرارًا وتكرارًا في اتجاه تفسير الفاشية على أنها دولة سلطوية لم تظهر كنتيجة للرأسمالية فحسب، بل كان يجب تشخيصها حيثما وُجِدت "سيطرة أقلية على أساس الملكية الفعلية لأدوات الإنتاج المادية"[287]؛ وحيثما كان التركيز في الممارسة يترافق بالعنف المنظم الذي كان يحاول معالجة التناقضات الاجتماعية مباشرة[288]؛ وحيثما كانت البيروقراطية تحكم في أمر الحياة والموت[289] (في عام 1938، عندما صدرت مقالة فيتفوغل "نظرية المجتمع الشرقي" في **مجلة الأبحاث الاجتماعية** عام 1938، جاء في نص محاضرة ألقاها هوركهايمر عن المعهد وعمله: كان البحث حول أشكال المجتمع غير البرجوازي يُعنى على نحو خاص بالبحث حول الصين بالتحديد؛ فالصين "تُظهِر منذ قرون عدة بنية طبقية اجتماعية بيروقراطية، تكتسب أكثر فأكثر أهمية نظرية، بالنظر إلى تطور أوروبا برمّتها، خصوصًا في ألمانيا وفي روسيا. ويتبيّن هنا أن التقسيم التاريخي البسيط من الاقتصاد العبودي القديم إلى الإقطاعية ثم إلى الرأسمالية، كما يجري العمل به إلى الآن في فلسفة

(287) *Zeitschrift für Sozialforschung* (1939), p. 121.

(288) Ibid., p. 122.

(289) Ibid., p. 128.

التاريخ"[290]، يجب تمييزه جوهريًا على أساس أبحاث الدراسات النظرية حول الصين"). بعبارات مفعمة بالتفاؤل، مثل عبارة أن فكرة الأمة والعرق تنطوي على مغالاة لم يعد الألمان في حقيقة الأمر يؤمنون بها أبدًا، بدا لهوركهايمر أنها تعطي الحق للنظرية الشيوعية عن الفاشية بوصفها آخر تمرد للرأسمالية المحكوم عليها بالانهيار. في الواقع، كذّب هوركهايمر تلك الآمال المعقودة من خلال أطروحة تحول أنثروبولوجي أساسي قائم في نتيجة النزعة الوظيفية الاجتماعية-النفسية لفروم، ذلك التحول الذي يجعل البشر، من دون أكاذيب ثقافية، ومن دون إيمان بأي أيديولوجيات، مطيعين وجادين تجاه الحكام. "سوف يخضع الأفراد لشكل جديد من التربية[291] يمس بأساس الطباع الاجتماعية. فلقد تحول الباحث عن العمل في القرن التاسع عشر إلى عضو مطيع في التنظيم الفاشي يُذكّر في أهميته التاريخية بتحول معلّمي الحرف اليدوية القروسطية إلى برجوازيين بروتستانت بفعل الإصلاح البروتستانتي، أو بتحول مزارعي القرى الإنكليز إلى عمال في الصناعة الحديثة"[292]. هكذا أُقِرَّ للفاشية بما هو أبعد من التأكيد الواضح "للفرص الاقتصادية البعيدة المدى"، أي أُقرّ لها ضمنًا أيضًا بفرص اجتماعية نفسية وسياسية على الأمد الطويل.

أهانت هذه الأفكار حتمًا الديمقراطيين الذين يدعمون الرأسمالية، وأهانت أيضًا الماركسيين المتمسكين بالاتحاد السوفياتي وبالمركزية والاقتصاد المخطط، وفي النهاية كل أولئك المعادين للفاشية والمهاجرين الذين كانوا يخشون من أن تُقوّي التوقعات المشجعة للفاشية التياراتِ الانعزالية في الولايات المتحدة الأميركية. في نيسان/ أبريل 1940 كتبت إلى هوركهايمر أولغا لانغ، زوجة فيتفوغل الثانية التي عملت في المعهد بين الحين والآخر، والتي صدر كتابها **الأسرة الصينية والمجتمع** في عام 1946 بمساهمة من المعهد: "آمل أن يفهمها كثيرون[293]، خصوصًا أن الهجوم لم يكن موجهًا

---

(290) هي، هنا، اسم مستعار للنظرية الماركسية.

(291) حينما يستتب حكم المصلحة الخاصة للسيادة التوتاليتارية على الشعب بأكمله.

(292) *Zeitschrift für Sozialforschung* (1939), p. 118.

(293) أي مقالة هوركهايمر.

ضد اليهود وحدهم، بل ضد جناح المهاجرين بأكمله الذي يقف على أرضية الرأسمالية ويأمل في عودة الليبرالية [...]، غير أنني آمل ألا يفهم الجميع المقالة، وأن يكتفي جماعة كولومبيا بالعَرض"[294].

لكن هوركهايمر حاسب أيضًا مجموعات عديدةً من الأشخاص حسابًا شديدًا. فقد انتقد "المثقفين المنفيين" الذين بدا أنهم لم يفقدوا حقوقهم كمواطنين فحسب، بل فقدوا عقولهم أيضًا في اللحظة التي تكشّف فيها الانسجام وإمكان التقدم في مجتمع رأسمالي عن كونه الوهم الذي كان يردده، كسابق عهده، نقدُ اقتصاد السوق الحر، لأن الأزمة، على الرغم من التقدم التقني وبسببه، كما تم التنبؤ مسبقًا، أصبحت مستمرة، ولأن ورثة العمل الحر لا يستطيعون ادعاء مكانتهم إلا من خلال إلغاء الحرية البرجوازية، وتخلصوا، وقد تنفسوا الصعداء، من "الرطانة اليهودية - الهيغلية التي تسللت يومًا ما من لندن إلى اليسار الألماني" (وصفٌ غني الوقع للنظرية الماركسية)، وعادوا إلى "نزعة الأنسنة الجديدة، وإلى شخصية غوته، وإلى ألمانيا الحقيقية والإرث الثقافي الآخر"[295]. انتقد هوركهايمر المهاجرين اليهود الذين كانوا يعتبرون، أو كانوا لا يزالون يعتبرون، أن "عقلانيةً تخالف شروط الاستفادة الخاصة في كل مرحلة وصلوا إليها [...] هي عقلانية مبالغ فيها وهدامة"[296]، و"أن اليهود الأصليين الذين لم يدركوا أن مفهوم البيت في واقع فظيع [...]، وقد اختبره كل يهودي منذ آلاف السنين، هو بالضرورة رمزًا للكذب والسخرية"[297]. بالنسبة إلى هوركهايمر، كان "الأكثر تقدمًا" من أولئك الذين انتقدهم، هم الفاشيون الذين كانوا "يرون دومًا هشاشة" الأوضاع التي كان اليهود يتوقون إلى العودة إليها، وأن "الشعب الألماني يُظهِر بشدة إيمانه بالقائد"، و"يراه اليوم أفضل من أولئك الذين كانوا يسمّون هتلر مجنونًا وبسمارك عبقريًا"[298].

---

(294) رسالة من لانغ إلى هوركهايمر، 15 نيسان/أبريل 1940.

(295) *Zeitschrift für Sozialforschung* (1939) p. 115.

(296) Ibid., p. 130.

(297) Ibid., p. 131.

(298) Ibid., p. 135.

نصح هوركهايمر اليهود بالعودة إلى "التوحيد المجرَّد، ورفض الإيمان بالأيقونات، والامتناع عن جعل النهائي لانهائيًا"[299]. إن عدم تبجيل كائن بسط جناحيه فصار إلهًا هو "دين أولئك الذين ما زالوا يكرسون حياتهم في أوروبا العقب الحديدية للتحضير لعالم أفضل"[300]. كان هوركهايمر، إذًا، يدعو اليهود إلى موقف لاهوتي مادي. وما لاح في الأفق، عندئذ، كان: "القفز إلى الحرية"[301]. بهذا أصبح مفهوم التخطيط مبهمًا، بالنظر إلى العناصر الفاشية في الاقتصاد المخطط وفي نزعة التوجيه الدولتية، وبذلك طار من يد هوركهايمر المفهوم الوحيد الذي اعتاد أن يستعمله في وصف مجتمع أفضل. هكذا لجأ إلى استخدام مفهوم الحرية الذي كان، من وجهة نظره، مثقلًا بـ "الليبرالية".

في ختام مقالته كتب هوركهايمر باستهزاء: "أن تكون القوى التقدمية قد سقطت، وأن تستطيع الفاشية الاستمرار إلى ما لانهاية، قد قلبا أفكار المثقفين وجعلاهم في حيرة من أمرهم. فهم يرون أن كل ما يقوم بعمله يجب أن يكون بالضرورة جيدًا، ولهذا برهنوا أن الفاشية لا يمكن أن تقوم بعملها. ولكن، هناك فترات يغدو فيها ما هو قائمٌ بقوة وبراعة سيئًا". لكن أي أفكار هذه هي التي **لم يتمكّن** من قلبها؟ في كانون الأول/ ديسمبر 1938، كتب هوركهايمر إلى السيدة فافتس: "العزاء الوحيد للإنسانية الذي يمكن المرء أن يفكر فيه هو في أن تزرع في اضطراب هذا الزمان المخيف الذي سيدوم فعلًا بعض القرون، كما في أفول العصور القديمة، بذور ثقافة جديدة أكثر نقاء. هناك بذور قليلة حقيقةً، وكثيرةٌ هي التي تهلك كل يوم. لكن في النهاية لا يمكن هذه التجربة أن تمر على البشرية من دون أن تترك أثرًا. لقد خرجت من الطغيان والعبودية في العصور القديمة مفاهيم القيمة اللانهائية للنفس الواحدة والنعمة والجماعة الأخوية. على أن جنون الجماهير التوتاليتاري سوف يفسح المكان لإدراك

---

(299) Ibid., p. 136.

(300) **العقب الحديدية** عنوان رواية نُشرت أول مرّة في عام 1908، ألَّفها جاك لندن (Jack London)، وفيها يُقدِّم عضو مجتمع اشتراكي، انتصر بعد قرون من الزمن، وثائق للتَّذكير ببدايات قرون سبقت، دام فيها حكم العقب الحديدية، حكم العنف الشامل العاري الذي استخدمه رأس المال؛ وهي رواية خيالية عرَّضت لندن من جانب أصدقائه الاشتراكيين لتهمة الانهزامية والعجز.

(301) Ibid., p. 135.

الحرية على نحو أكثر واقعية مما كان الحال عليه بشكل عام [...]؛ فحقيقة أن الليل لن يدوم إلى الأبد، لا تزال تبعث العزاء في أولئك الذين ذهبوا ضحيته"[302].

ساعد المعهد كثيرين للفرار من العالم القديم إلى العالم الجديد بإفادات (تقدم إلى سلطات الهجرة) ووساطات وبالمال أيضًا. كارل كورش، على سبيل المثال، لحق بزوجته إلى نيويورك في عام 1936، وحصل في البداية على مئة دولار شهريًا من المعهد. لودفيغ ماركوزه الذي طلب منه مديرو المعهد أن يكتب عرضًا موجزًا عن عمل حول تيرنفاتر يان[303] ثم رُفض العرض، حصل من المعهد في ربيع عام 1938 على إفادة من دون حتى أن يطلبها. لما وصل إلى نيويورك نهار أحد الفصح عام 1939 كان ينتظره "على رصيف الميناء صديق من 'معهد البحث الاجتماعي'، وقد حجز لي غرفةً"[304]. أما فالتر بنيامين فكانت غريتل وتيودور أدورنو يلحّان عليه منذ عام 1938، مرارًا وتكرارًا، للمجيء إلى الولايات المتحدة الأميركية. تردّد بنيامين طويلًا، وكان يخاف من العالم الجديد أكثر من لودفيغ ماركوزه الذي كان يفضّل أن يُهاجر إلى أي مكان في العالم، ولكن ليس إلى العالم الجديد الذي بدا له مخيفًا أكثر من كونه جديدًا. هكذا أصبح هروب بنيامين أكثر صعوبة. وأن يكون قد مات فأمر لا علاقة له بعدم استعداد المعهد لمساعدته. انتقل والدا هوركهايمر إلى سويسرا في عام 1938، بعد أن فقدا الجزء الأكبر من ممتلكاتهما، ولكن بقي لديهما ما يقوم بأودهما. كذلك هرب والدا أدورنو ووالدا لوفنتال، وكانوا مسنّين، إلى كوبا ومنها إلى الولايات المتحدة الأميركية.

(302) رسالة من هوركهايمر إلى فافيز، 6 كانون الأول/ ديسمبر 1938.

(303) هو فريدريش لودفيغ يان (Friedrich Ludwig Jahn)، 1778-1852، عُرف بتيرنفاتر، أي أبا الجمباز. (المترجم)

(304) Ludwig Marcuse, *Mein zwanzigstes Jahrhundert: Auf dem Weg zu einer Autobiographie*, p. 253.

الفصل الرابع

في العالم الجديد 2:
انهيارٌ منتِج

"ليس عمل المعهد ضروريًا في أي حال، بحسب اللائحة الداخلية للمؤسسة"

طالت أزمة المعهد. وكان من بين الأسباب التي أدّت إلى هذه الأزمة وزادت من حدتها، الطريقة الأبوية الخاصة التي تصرّف فيها مديرو المعهد بموارده، الأمر الذي هزئ بالادعاء بأن المعهد يُمثّل جماعة متضامنة من المنظّرين النقديين للمجتمع.

عندما تقلص رأس مال المؤسسة منذ أواخر الثلاثينيات، اهتم هوركهايمر في وقت مبكر بالاحتفاظ بقسم كبير كافٍ من أموال المعهد لتأمين عمله العلمي لمدة طويلة. هكذا كان على لوفنتال - بحكم كونه أحد أمناء المؤسسة الذين كانت تُوزَّع عليهم أموال المؤسسة - تحويل خمسين ألف دولار إلى حساب لا يحق إلا لهوركهايمر أن يتصرّف به - وهي عمليةٌ كان للوفنتال اعتراض عليها لأسباب شكلية، واقترح بديلًا عنها إعادة العمل بإجراء تحويل سابق. اعتقد هوركهايمر أنه يمكن فعل ذلك من دون مخالفة اللائحة الداخلية للمعهد. وكإجراء ملح جدًا تصور هوركهايمر أن بالإمكان تحويل المعهد إلى "مؤسسة تمنح أربع إلى خمس مهمات بحث خاصة [...]، إذ ليس عمل المعهد ضروريًا عمومًا، بحسب اللائحة الداخلية للمؤسسة. فالأمر الوحيد المهم هو تشجيع نظرية للمجتمع"[1].

ولأن هوركهايمر اعتبر في نهاية الأمر أن مؤسسة فايل هي القاعدة المادية لتطوير نظرية للمجتمع تتجسد فيه، كان استعمال المؤسسة استعمالًا تضامنيًا أمرًا مستبعدًا. لم يُعرَض الوضع المالي البتة على حلقة العاملين الدائمين في

---

(1) رسالة من هوركهايمر إلى أدورنو، 14 أيلول/ سبتمبر 1941.

المعهد، حتى ولا بوضوح جزئي، أو بصيغة قابلة للمراقبة. ولم يُفتَح الموضوع إلا أمام من هم "في الداخل"، أي هوركهايمر وبولوك. وقد اطلع لوفنتال جزئيًا على الموضوع لكونه، نوعًا ما، سكرتيرًا عامًا. كان تكتيك هوركهايمر – ولوفنتال أيضًا، حيثما اقتضت الضرورة – أن تكون الترتيبات والأرقام المرتبطة بالجانب المالي مجالًا يختص به بولوك الذي كان يتصرّف مثل تاجر برجوازي، والذي كان يدفع السائلين، من خلال طبيعة سلوكه الذي يتّصف بسذاجة ولاعقلانية، بعضها مزعوم وبعضها حقيقي، إلى التخلي عن استفساراتهم أو يُفرغ أسئلتهم من مضمونها، لكي يدفع أي شخص يضع الأسئلة إلى التخلي عن هذه المحاولة، أو أن تكون أسئلته سطحية. وكان بولوك هو المكلف رسميًا بتحديد المرتّبات أو ما يُقتطعُ منها. كانت إجراءاته تطبَّق على أعضاء المعهد على أسس فردية، وهم بدورهم قبلوا أن يكونوا بعيدين عن هذه المسائل، ولم يتذمّروا إلا من حين إلى آخر منتقدين ما كانوا يرونه إجحافًا بحقهم. كان المرتّب – كما يتذكر لوفنتال – "يحدده هوركهايمر وبولوك في أحاديث بينهما، ثم نُخْبَر به. كنا نجد أحيانًا صعوبات، لكن لم يكن هناك أي تفاوض. عليكم أن تتصوّروا الوضع، هذان الشخصان كانا محظوظين [...] لو قلنا، ماركوزه أو أنا، في عام 1938: 'هذا لا يروق لي، أنا لا أريد 350 دولارًا، بل أريد 500 دولار شهريًا وإلا أغادر'، فالجواب 'اذهب رجاءً'، ولكن إلى أين أذهب فعلًا؟"[2]. وإذا ما أبدى أحدهم تذمرًا أو امتعاضًا، الأمر الذي كان العاملون في المعهد يُعبّرون عنه عادةً أمام لوفنتال الذي كان بدوره يُطلِع هوركهايمر عليه، كما كان يفعل في سائر الأمور الأخرى، كان يُمكن أن تُتَّخذ، عند الحاجة، ترتيبات ترضي الشخص المعني. كان الجميع يركز على هوركهايمر الذي كان يشجع حالات كهذه عبر إظهار علاقات خاصة بأفراد من العاملين معه، وعبر نقل أخبار متناقضة إلى مختلف العاملين، هذا إن لم يكن نقل الأخبار المتناقضة مقصودًا في بعض الأحيان. بالتزامن مع هذا الوضع، ظهر نموذجٌ كلاسيكي لتطبيق قاعدة: "فرّق تسد". في ظل هذه الظروف، لم يكن بالإمكان التغلّب

(2) Leo Löwenthal, in: Rainer Erd (ed.), *Reform und Resignation, Gespräche über Franz L. Neumann*: p. 98.

على الأزمة على نحو عقلاني وتضامني، بل تحديدًا بتكاليف نفسية عالية لا ضرورة لها، وفي النهاية، وفق المبدأ القائل إن على البعض أن يتنازلوا، لكي يتمكن الآخرون من إنقاذ أنفسهم، أو إنقاذ قدرتهم على تحقيق المهمة النظرية. كانت تُتَكتِك، ومنذ عام 1939، كانت تُسمع تكتكة قنابل موقوتة في المعهد الذي كان، من نواح عديدة، واحة المنفى.

تسبّبت مشكلات المنفيين، وصعوبات مالية - حقيقيةٌ أو مزعومةٌ - والسلوك البطريركي وتردُّد مديري المعهد وحاجة هوركهايمر إلى الأمان والاطمئنان، تسبّب كل هذا في مزيج لا يُسبَر غوره من عدم الأمان الذي لم يسلم منه أحدٌ من طاقم العاملين في المعهد. أخبر هوركهايمر بنيامين في شباط/ فبراير 1939 أنه "في زمن ليس ببعيد، سيأتي يومٌ يكون علينا أن نُخبركم بأنه، مع كل ما بذلناه من جهود، لن يكون بإمكاننا أن نمدّد عقد البحث الذي أبرمناه معكم، على الرغم من رغبتنا في ذلك"[3]. في ربيع 1939، أوضح بولوك لفروم أن المعهد لن يكون بإمكانه أن يدفع له مرتّبه اعتبارًا من شهر تشرين الأول/ أكتوبر (كان المرتب 330 دولارًا شهريًا). أوضح بولوك الأمر نفسه أيضًا ليوليان غومبرتس، وفقًا لما ورد في رسالة بعث بها فروم إلى هوركهايمر. في مطلع أيلول/ سبتمبر 1939، أوضح بولوك لنويمان أن عليه أن يغادر المعهد في أول تشرين الأول/ أكتوبر 1940. نصح لوفنتال هوركهايمر في شهر آب/ أغسطس 1940، وكان هذا الأخير في زيارة إلى الساحل الغربي من الولايات المتحدة الأميركية تدوم أسابيع عدة يبحث فيها عن مكان مناسب لعمله، أن يُبقي عمل المعهد في نيويورك سنةً أخرى. يعرف هوركهايمر حق المعرفة "إلى أين نحن ذاهبون". وسيتخلّص من نويمان، ما دام بالإمكان مراقبة هذا الانفكاك، ويستطيع أن يضع ماركوزه تحت ضغط مالي وأخلاقي بحيث يذهب إلى كلية ما، في ما لو عرض عليه 1200 دولار أخرى ابتداءً من خريف 1941. ربما لم يكن ممكنًا أن يبقي موقف لوفنتال خفيًا على ماركوزه؛ إذ كان لوفنتال ينقل إلى هوركهايمر بانتظام الملاحظات التي تخلو من الاحترام التي كان يُبديها الصديقان نويمان وماركوزه، وقد أمل، بمناسبة نشر كتاب ماركوزه

(3) رسالة من هوركهايمر إلى بنيامين، 23 شباط/ فبراير 1939.

حول هيغل وإنشاء نظرية للمجتمع - **العقل والثورة** - أن يُساعد ذلك المعهد وماركوزه، أي إنه سوف يساعد هذا الأخير على الانفصال عن المعهد. عرف ماركوزه من نويمان أن هوركهايمر، قبل أن ينتقل بشكل نهائي في نيسان/ أبريل 1940 إلى الساحل الغربي، قال لنويمان، من ناحية، إنه يجب على ماركوزه أن يُساعده [أي هوركهايمر] في العمل على كتاب حول **الجدل**؛ ومن ناحية أخرى، يجب أن يسعى ماركوزه لإلقاء محاضرات، وأن يبحث لنفسه عن وظيفة. كان هوركهايمر نفسه قد قال لماركوزه إنه يريد أن يكتب الكتاب معه. أما أدورنو فيروي أن هوركهايمر قال له إنه يريد أن يؤلف الكتاب معه. كان ماركوزه أول من لحق بهوركهايمر إلى الساحل الغربي، وقد أُخبر هناك من فوره بخفض عاجل لمرتّبه. وقبل أن يبدأ العمل على الكتاب عمومًا، عاد إلى نيويورك للتفاوض مع جامعة كولومبيا، وبدأ مفاوضات مع الجامعة حول محاضرات مدفوعة الأجر يلقيها بانتظام أعضاء المعهد[4]. في رسالة كتب هوركهايمر: "كلما أمعنت في التفكير، أتوصّل أكثر فأكثر إلى القناعة بأنني أصنع أخيرًا منّا نحن الثلاثة[5] فريقًا جيدًا"[6]. في الوقت نفسه، اقترح أدورنو على هوركهايمر أن يضع ماركوزه ولوفنتال تحت تصرّف جامعة كولومبيا لسنة أو سنتين بصفة أستاذين متطوّعين، لكي يخف العبء على المعهد من جهة، ومن أجل تأمين رضى جامعة كولومبيا من جهة أخرى.

في أي حال، عندما كان الأمر يتعلق بمن يفترض أن يلتحق بهوركهايمر على الساحل الغربي ومتى وبأي شروط، لم يكن لوفنتال وأدورنو يستطيعان، على الرغم من ولائهما لهوركهايمر، دائمًا تفادي الشعور في بعض اللحظات بأن هوركهايمر يغدر بهما ويبيعهما. لا بد من أن لوفنتال بكى بعد حديث مع بولوك في أيلول/ سبتمبر 1941، عندما أعلمه بولوك بقسوة بالمستقبل البارد الذي ينتظره، وكان أدورنو في حالة قلق شديد، لأن كل شيء كان معلقًا تمامًا منذ أشهر.

---

(4) يُنظر ص 416 في هذا الكتاب.

(5) أي هوركهايمر وأدورنو وماركوزه.

(6) رسالة من هوركهايمر إلى ماركوزه، 14 تشرين الأول/ أكتوبر 1941.

كتب بولوك إلى هوركهايمر: "من المثير للاهتمام ملاحظة الطريقة التي يتصرف بها العاملون في المعهد. انتاب ماركوزه خوف مريع من أن ينتهي الأمر به بعد خمس سنوات إلى غونتر شتيرن الثاني[7]، وهو لهذا السبب يريد الحفاظ على الصلة بكولومبيا بأي ثمن. أما تيدي [أدورنو] فلم يكن لديه سوى هم واحد، وهو أن يُصبح، بأسرع وقت ممكن، متقاعدًا صغيرًا في كاليفورنيا، أما ما يحل بمصير الآخرين، فلا يُهمه إطلاقًا. يشعر نويمان نوعًا ما بالأمان أيًا كان القرار الذي يُتَّخذ، إلا أنه يُشدّد طبعًا على أهمية الصلة بجامعة كولومبيا. لوفنتال وحده يتصرف بوفاء تام - يؤسفني أن أقول ذلك - لأنه مقتنع بأننا، مهما حدث، لن نتخلى عنه"[8].

بالنظر إلى الظروف غير الملائمة أبدًا في تلك السنوات لتحقيق العاملين في المعهد نجاحات في مسيرتهم الأكاديمية، غدا التمسك بالمعهد وبهوركهايمر، تحت أنظار مديرين مثل هؤلاء، أمرًا ميؤوسًا منه أكثر فأكثر. بقي المعهد جذابًا حتى للعاملين فيه ممن تعرضوا للإذلال والمهانة. ولم يكن مرجعًا يقدم حماية ومساعدة مهما كانت تعسفية وعرضة للإلغاء فحسب - إذ كان بمقدوره أن يقدم مالًا، وفرصًا للنشر، وتوصيات، وشهادات مصدقة وكثيرًا غيرها - بل كان أيضًا الملجأ الوحيد لعمل نظري ذي معنى. تواصل هذا العمل النظري، على الرغم من أن الجو كان غريبًا، وكانت هناك احتكاكات شخصية كبيرة.

كان من بين الدوافع التي اكتسبت أهمية بالنسبة إليهم - وليس لنويمان وحده - تطلعُهم إلى تحقيق الربح من خلال النشر في السوق الأكاديمي والعلمي، كي يتمكنوا، إن اقتضى الأمر، من مواصلة العمل حتى من دون المعهد. وقد نُشرت في عامي 1941 و1942 أعمال مهمة، وباللغة الإنكليزية، لأعضاء بارزين في المعهد كانوا قد أُجبروا على مغادرته بسبب الضغوط الواضحة نسبيًا؛ إذ صدر في عام 1941 كتاب فروم **الهروب من الحرية** وكتاب ماركوزه **العقل والثورة**، وفي ربيع 1942 كتاب نويمان **البهيموت**، في حين لم يُنشر لهوركهايمر

---

(7) أي غونتر أندرز (Günter Anders).

(8) رسالة من بولوك إلى هوركهايمر، 1 تشرين الأول/ أكتوبر 1941.

الذي لم تكن به حاجة إلى الكفاح من أجل وجوده، إلا في عام 1944، كتاب **شذرات فلسفية** الذي ألفه بالتعاون مع أدورنو؛ وهو نص نظري صعبٌ، صدر بالألمانية بعدد صغير جدًا (منسوخًا على آلة ناسخة) وفي دار نشره، وكان من ثم كتابًا موجهًا إلى حلقة ضيقة من القراء. أنهى أدورنو في عام 1941 مخطوطًا مطولًا بعنوان **عن فلسفة الموسيقى الجديدة،** كان قد ألفه بهدف التفاهم الذاتي بين أعضاء المعهد من دون أن يُفكر في نشره، لكنه أرسله إلى توماس مان أو إلى داغوبرت د. رونس من خارج المعهد، كما أرسله أيضًا إلى ناشر **مجلة الجماليات** الذي كان على وشك أن ينشر العمل باللغة الإنكليزية. أصبح هذا المخطوط في ما بعد عملًا تحضيريًا سبق كتاب **شذرات فلسفية،** ثم ضُم في ما بعد إلى الثروة الهائلة من المواد التي نسج منها أدورنو لاحقًا النصوص الكثيرة التي نُشرت في ألمانيا الاتحادية. أما كيرشهايمر الذي يعمل بدوام جزئي في المعهد براتب شهري قدره 125 دولارًا - "بحد أدنى من الدخل، تمكنتُ بفضل عمل زوجتي ومداخيل جانبية أن أشق طريقي داخل إطار متواضع جدًا"[9] - فلم يستطع أن يحقق مشروع "نظرية دستورية لعصر الاحتكارات".

على الرغم من كل التقلبات، بقي التوجّه الأساسي لمديري المعهد واضحًا: "كانت الوظيفة المزدوجة، كمثقف ومدير لمعهد البحث الاجتماعي"[10]، بالنسبة إلى هوركهايمر، كبيرةً جدًا، وهو الذي عمل، كما شكا في [مقالة] "ملاحظات من بيتش بلاف"، "من دون تمييز وبالليبيدو نفسه"، وكلّفه "إملاء رسالة [...] الجهد نفسه الذي يبذله لتأليف عمل علمي". "كان السيد هوركهايمر" - كما تستذكر السيدة أليس ماير، سكرتيرته لسنوات طويلة في نيويورك - "يفكر كثيرًا وبدقة في كل كلمة، وكان يمضي أحيانًا ساعتين من دون أن يُملي كلمة واحدة [...]. كان هوركهايمر يملي بكتابة الاختزال، ثم بعد ذلك كان يغيّر ما أملاه عشر مرات"[11]. ومن الآن فصاعدًا، كان يجب أن تُعطى الأولية للعمل العلمي. من أجل ذلك كان بحاجة إلى مساعدة هذا أو ذاك من العاملين من أعضاء المعهد أو المنتسبين إليه مؤقتًا. كان المهم أن يُقلَّص حجم

---

(9) رسالة من كيرشهايمر إلى هوركهايمر، 16 تموز/ يوليو 1942.

(10) هوركهايمر، تقرير إلى أمناء مؤسسة كورت غرلاخ التذكارية.

(11) Erd (ed.), p. 100.

المعهد بحيث يبقى ظاهريًا موجودًا، أما داخليًا، فكان المهم ألا يكلف كثيرًا من الجهد والمال.

أفضى هذا - مهما كان متقلبًا ومتناقضًا - في الممارسة العملية إلى الاستراتيجية التالية: حاول جميع مديري المعهد منذ عام 1939 أن يرفعوا الأثقال عن كاهل المعهد، وأن يحصلوا في الوقت نفسه على أموال للمشاريع. استعدّوا لتوفير شروط ملائمة لعمل هوركهايمر النظري بتأمين انتقاله إلى الساحل الغربي حيث كان بإمكانه أن يعيش بعيدًا عن مشاغل العملية الأكاديمية، وفي الوقت نفسه سعوا للحفاظ على استمرار عمل المعهد لمدة طويلة وبمظهر عادي؛ خصوصًا عندما لاحت في أفق عام 1941 فرصة إلقاء محاضرات مدفوعة الأجر وفي نطاق الكلية بالكامل، إضافة إلى إمكانية حصول المعهد على كرسي بمرتبة أستاذ. ربما نجح من جهة في الإبقاء على سير عمل ما تبقّى من المعهد بوتيرة منخفضة من طريق أموال المؤسسة للمشاريع، ومن جهة أخرى في تمكين هوركهايمر والعاملين معه من الحصول عاجلًا أو آجلًا على مدخل عظيم إلى العالم الجامعي، وعندئذ سيكون بإمكانهم ذات يوم أن يتابعوا العمل على نظرية حتى من دون أن تكون تحت تصرّفهم أموال خاصة.

أتاح توقف **مجلة الأبحاث الاجتماعية** عمليًا عن الصدور لمدة عام كامل بسبب اندلاع الحرب وانتقال مكان إصدارها من باريس إلى نيويورك، قبل أن تجد المجلة استمراريتها في مجلة **دراسات في الفلسفة والعلوم الاجتماعية**، أتاح فسحة للعمل على كتب ومخططات مشاريع.

انفصال إريك فروم

حصل انفصال فروم أولًا، وكان الأكثر مأساوية. ولهذا الانفصال حكاية طويلة. ففي حزيران/ يونيو 1934، حين كان فروم في طريقه من شيكاغو إلى سانتا فيه (Santa Fe)، مكان استجمامه ونقاهته، توقف في نيويورك لمدة شهر في زيارة لهوركهايمر، وكان هذا الأخير قد كتب إلى بولوك أن فروم لديه حقيقةً أفكار خلاقة، لكنه لا يعجبه كثيرًا، لأنه يسعى لأن تكون علاقته طيبة مع كثير من الناس. في هذا الأمر ظهرت تهمة وجهها هوركهايمر لاحقًا إلى زون

ريتل بشكل صريح في رسائل متبادلة مع أدورنو: يفتقر إلى النظرة المشبعة بالكراهية الشديدة لما هو قائم. في الاتجاه نفسه، انصب نقد أدورنو الذي كان ينظر شزرًا إلى العلاقة بين فروم الذي كان يصفه بـ "اليهودي المهني"، وبين هوركهايمر[12]؛ إذ انتقد مساهمة فروم في [مقالة] "المشروطية الاجتماعية للعلاج النفسي التحليلي" المنشورة في مجلة المعهد. وفيها اتهم فروم فرويد بأن "التسامح" الذي يطلبه من المحلل "الحيادي" و"البارد المشاعر" يُخفي وراءه احترام المحظورات الاجتماعية للطبقة البرجوازية التي يمكن أن تُسبب للمريض مكبوتاته؛ وأنه يخفي بلاوعي، بهذا القدر أو ذاك، موقفًا سلطويًا بطريركيًا. ولكي يحقق الوضع التحليلي هدفه، تكون الموافقة المشروطة على مطالب سعادة المريض ضرورية أكثر من "الحيادية". الحتمي، بالنسبة إلى المحلل النفسي، هي الخصائص الإيجابية التي وصفها شاندور فرنتسي (Sandor Ferenczi) بـ"الكياسة" و"الطيبة". أبرز تأكيد فرنتسي بأن التحليل لا يمكن أن ينتهي بنجاح، إلا عندما يفقد المريض خوفه من المحلل، ويحصل إزاءه على "مشاعر الحقوق المتساوية". كتب أدورنو إلى هوركهايمر بعد قراءته المقالة في آذار/ مارس 1936 أن فروم "أدخله بدفاعه عن فرويد في وضع متناقض؛ انفعالي وخاطئ على نحو مباشر، وخليط من الاشتراكية الديمقراطية والفوضوية، وقبل كل هذا نقص محسوس في الفهم الجدلي. لقد استسهل جدًا مفهوم السلطوية من غير أن يفكر في نهاية الأمر بطلائع لينين أو بالدكتاتورية. أنصحه بإلحاح أن يقرأ لينين. ومن أي نوع هم البابوات الذين يقفون في وجه فرويد[13]. لا، بالذات حينما يُنتقد شخصٌ مثل فرويد من اليسار، ليس من الجائز أن تحصل أشياء مثل الحجة السخيفة عن 'النقص في الطيبة'. هذه هي الحيلة التي يمتلكها ذوو النزعة الفردانية البرجوازيون ضد ماركس. لا أخفيكم أنني أرى في هذا العمل تهديدًا حقيقيًا لخط المجلة، وسأكون ممتنًا لكم لو تكرمتم بإبلاغ فروم اعتراضاتي التي لا أحتاج إلا إلى طباعتها بالصيغة التي ترونها ملائمة لكم"[14].

---

(12) يراجع:

Haselberg, *Wiesengrund-Adorno*, in: Heinz Ludwig Arnold, *Text und Kritik, Sonderband*, p. 12.

(13) ذكر فروم غيورغ غروديك وشاندور فرنتسي، بوصفهما مطوّرَين معاديين للتحليل النفسي الفرويدي.

(14) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 21 آذار/ مارس 1936.

بقيت هذه النقطة الحاسمة من النقد الأدورني لفروم التي أعاد تكرارها في منتصف الأربعينيات في واحدة من شذرات كتابه **أخلاق صغرى**. اتهم أدورنو فرويد - متفقًا في ذلك مع فروم - بأنه يتبنّى وجهة النظر العامة بأن الأهداف الاجتماعية كانت أهم من الأهداف الجنسية أو من مطالب الفرد في السعادة. لكنه رفض أن يرى في موقف فرويد نقصًا في الطيبة، يمكن أن يُزال من خلال الطيبة. الأمر يتعلق، على الأرجح، بموقف قمعي لا يَترك في أي حال مكانًا للوهم بأنه يمكن هنا من خلال الطيبة أن يُحسِّن شيئًا، أو أن يساعد من خلالها على إشباع الغريزة. هذه الفكرة لا يمكن أن تخطر إلا لمن يخفّف مطالب الغريزة، أو لمن يكون مستعدًا للتعامي عن صعوبة الحرمان الذي يفرضه المجتمع على الأفراد. "إذا كان ما يعوزه فرويد هو طيبةٌ كهذه، فإنه سيكون هنا على الأقل في مجتمع نقّاد الاقتصاد السياسي، وهو أفضل من مجتمع رابندرانات طاغور وفرانتس فيرفل". تصوّر أدورنو - مخلصًا لنمط تفكيره الذي ينبثق من الداخل - نقدًا يساريًا لفرويد على النحو التالي: "طريقة تطهيرية لا تجد معيارها في التكيّف الناجح وفي النجاعة الاقتصادية، وتعمل أو (يجب) أن تعمل على حمل الناس على وعي التعاسة، التعاسة العامة وتلك الخاصة التي لا تنفصل عنها، وتأخذ منهم الإشباعات الوهمية التي يُبقي النظام البغيض على قوتها فيهم مرة أخرى [...]. لن تتحقق فكرة ما يمكن أن يجرّبه المرء إلا في السأم من المتعة الزائفة، وفي النفور مما يُعرَض عليه، وفي إحساسه المبهم بنقص السعادة، فضلًا عن الحالات التي لا يُشترى فيها تعويض وضعي مقابل التخلي عن المقاومة المريضة الموهومة"[15].

لا تترك المريض يشعر بشيء مما ينبغي أن يكون، كما يعتقد فروم؛ ولا تقاربه أيضًا بوصفه ممثلًا متسامحًا لمبدأ الواقع، كما يأمر فرويد؛ بل قابله كمن يدفع مبدأ الواقع إلى أقصاه، ويدخِل المريض إلى الظلمة التي يبدأ فيها نور الأمل بالضياء؛ هكذا تصوّر أدورنو العلاجَ النفسي التحليلي الصحيح، هو الذي يُعدّ، إلى جانب بولوك وماركوزه، واحدًا من الأعضاء الثلاثة في حلقة هوركهايمر الذين لم يخضعوا للتحليل، يقابلهم ثلاثة خضعوا للتحليل،

(15) الشذرتان 37 و38 من كتاب أدورنو **أخلاق صغرى** (*Minima Moralia*).

أي فروم ولوفنتال وهوركهايمر. لم يسأل أدورنو نفسه إن كان ما يَصدُق على مستوى النظرية الجمالية ونظرية النضال الطبقي يمكن أن يُنقَل، مهما كانت الظروف، إلى علاج الفرد. كان الخطر من أن تفضي الطيبة إلى خضوع ساذج كبيرًا، على الأقل مثل الخطر من أن يؤدي نزع الأوهام القاسي إما إلى تثبيت المرض وإما إلى جعل المريض متهكّمًا.

يمكن تخمين ما فكر به آنذاك هوركهايمر الذي نشر في النهاية مقالة فروم بعد أن تفحّصها كسائر المقالات الأخرى بوصفها مقالةً "رئيسية"، ولم يُعلّق - في الرسالة على الأقل - بكلمة واحدة على نقد أدورنو. هل بمقدور من كتب ذات يوم: "لا تثق بمن يزعم أن المرء يستطيع أن يساعد الجميع في وقت واحد أو لا يساعد أحدًا بالمطلق. إنها كذبة يعيشها من لا يريدون المساعدة في الواقع، ومن يتعللون بالنظرية الكبرى أمام الواجب في حالة بعينها. إنهم يعقلنون لاإنسانيتهم"[16]. أيستطيع من قدم ذات يوم الشفقة على أنها الشكل الملائم الراهن للأخلاق إلى جانب السياسة[17]؛ ومن كان مؤيدًا لشوبنهاور الذي كان بالنسبة إليه الشفاء من أوهام المايا وممارسة أعمال الحب الشيء نفسه[18]؛ أيستطيع شخص كهذا أن يكون لديه اعتراض ضد تأييد الطيبة، إذا تمت الموافقة في الوقت نفسه على مطلب السعادة وعلى ما هو غريزي في البشر، وانتُقِد المجتمع البرجوازي-الرأسمالي بحدة؟ ألا يجب أن تكون تصوّرات فروم قريبة منه، بوصفها نموذجًا للكيفية التي يمكن فيها تعديل فكر ماركسي-فرويدي يستلهم شوبنهاور وبوذا؟

كان هوركهايمر قد انتقد في واحدة من حِكَم **الفجر**، وفي إحدى مقالاته عام 1938 حول **مونتاين**[19] **ووظيفة الشك**، التحليل النفسي من حيث هو أداة للتكيّف تكشف بعتب الميول العدوانية للعصابيين وغير المتكيفين والمعارضين

(16) Max Horkheimer, *Dämmerung*, p. 251.

(17) Max Horkheimer, "Materialismus und Moral," *Zeitschrift für Sozialforschung* (1933), p. 183.

(18) يراجع:

Schopenhauer, *Die Welt als Wille und Vorstellung*, vol. 1, p. 441.

(19) هو ميشيل دو مونتاين (Michel de Montaigne)، 1533-1592، أحد أكثر كتّاب عصر النهضة الفرنسي تأثيرًا، ورائد المقالة الحديثة في أوروبا. (المترجم)

وتسعى إلى أن تجعل منهم أناسًا يعرفون كيف يتصرفون على نحو طبيعي بلا رادع في عالم فظيع مليء بالظلم، كما لو أن كل شيء على ما يرام[20]. وتحدث في رسالة إلى بنيامين في عام 1935 عن أن في كتابات فرويد الذي يفتقر إلى التوجُّه التاريخي الصحيح، "يظهر اليأس في الواقع القائم من حيث هو قلق أستاذ جامعي"[21]. إذًا، لم يكن نقد فرويد للواقع القائم، بالنسبة إليه، شديدًا ولا هجوميًا بما يكفي. أما نقد أدورنو لفروم فكان، من غير أن يهتم بالعلاقة بين نظرية التحليل النفسي والعلاج النفسي التحليلي، نداءً إلى هوركهايمر أن يتبع مع مقولات مثل الطيبة والشفقة، نهجًا مشابهًا للنهج الذي اتّبعه أدورنو مع الموضوعات اللاهوتية، أي تعليقها، وتركها تأتي ضمنًا.

وجد هوركهايمر نفسه مع بولوك (ومايدون) في عالم معادٍ، كانت فيه جميع العلاقات كاذبة، ولم تكن جميع الصداقات جدية، كذلك وجد أدورنو نفسه أيضًا مع هوركهايمر (وغريتل) في الوضع ذاته. إلا أن أدورنو فاق في انعدام الثقة هوركهايمر، وهو الأقوى بين الاثنين. اختلطت رؤيته للعالم وتأملاته النظرية في حقد معقّد على الدنيا. "إذا كان أحدهم يهتم بأن يفعل ما يمكن فعله مع الناس، فلا يمكن المرء أن يبقى جيدًا مع الناس الحقيقيين إلا بصعوبة. لقد بلغ الأمر حدًا تكون معه صداقة الناس مشعرًا للخسة والدناءة [...]. قد تكمن دناءة صداقة الناس في أن تُقدّم الطيبة ذريعة، ينبغي للناس أن يوافقوا على ما من خلاله يثبت الناس أنهم ليسوا مجرد ضحايا، بل جلادون مفترضون أيضًا"[22]. دلّ شكل التفكير الذي ينبثق من الداخل، الشكل الذي يحمل البرودة ببرودة إلى أقصاها، والذي يدافع عنه أدورنو بحماسة، دلّ وأظهر لهوركهايمر كيف يمكن "إلغاء" العناصر الشوبنهاورية-البوذية في تفكيره، تلك العناصر التي كانت تبرز بقوة أكثر لدى فروم.

شكّل فروم منذ منتصف الثلاثينيات مع المحللة النفسية المهاجرة القادمة من ألمانيا أيضًا، كارِن هورني (Karen Horney) والطبيب النفسي الأميركي ذي

---

(20) Horkheimer, *Dämmerung*, p. 310; *Zeitschrift für Sozialforschung* (1938), p. 19.

(21) رسالة من هوركهايمر إلى بنيامين، 28 كانون الثاني/ يناير 1935.

(22) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 2 حزيران/ يونيو 1941.

التوجُّه السلوكي هاري ستاك سوليفان (Harry Stack Sullivan) مجموعة خارجية بين المحللين النفسيين في نيويورك. اهتمت المجموعة بالتعاون بين الطب النفسي والتحليل النفسي وعلم الاجتماع وعلم الإناسة [الأنثروبولوجيا]، وانضم إليها أنثروبولوجيون أمثال إدوارد سابير وروث بنديكت (استطاع فروم، بفضل هذا التعامل، أن يتوسط لمجلة المعهد للحصول على مقالة مارغريت ميد (Margaret Mead)، المقالة التي تعتبرها حلقة هوركهايمر إثباتًا موفقًا يدلّل على تعاون المعهد مع علماء بارزين أو عالمات مرموقات في الولايات المتحدة). أكد كتابا هورني الصادران في عامي 1937 و1939 - **الشخصية العصابية في عصرنا**، و**طرق جديدة في التحليل النفسي** - واللذان توجّها إلى قطاع واسع من الجمهور وكانا ناجحَين إلى حد بعيد (وقد تضمّن الكتاب الثاني في المقدمة شكرًا لهوركهايمر)، أكّدا، في نظر أدورنو، صوابية نقده لفروم[23]. لكن في **مجلة الأبحاث الاجتماعية** أسبغ إرنست شاختل الذي يُعَدّ هو نفسه من بين المحللين الجدد، المديحَ كثيرًا على كتابَي هورني اللذَين ركزا على دور الثقافة والعلاقات بين الناس. يرى في ما يخص كتاب **طرق جديدة في التحليل النفسي** أن "الفقرات الأكثر أهمية مبدئيًا في الكتاب تعطي رأيًا ضد توجّه فرويد البيولوجي والغريزي (نظرية الليبيدو، وعقدة أوديب، وغريزة الموت، وردّ سيكولوجيا المرأة إلى تمايزات تشريحية)، وضد نظريته في التطور الآلي (قسر التكرار، وردّ الميول النفسية مباشرة إلى أحداث في الطفولة المبكرة) [...]. عندما تتضح طبيعة الإنسان وسلوكه مبدئيًا انطلاقًا من العلاقات الإنسانية العينية التي ينمو الإنسان في ضوئها ويعيش، وعندما يجري التخلي نهائيًا عن افتراض مرحلة ليبيدوية معطاة من التطور الإنساني، يعطي هذا الكتاب الذي كُتب بوضوح كبير أيضًا علم النفس الاجتماعي مرتكزات كثيرة ومثمرة لفهم أفضل وأدق لطرق التأثير النفسي للوقائع الاجتماعية"[24]. بهذا أُنصفت الموتيفات النقدية التي ترددت أصداؤها في كتابَي هورني، وجرى إغفال نزع حدة نظرية التحليل النفسي إجمالًا.

---

(23) يُنظر:
Theodor W. Adorno, "Die revidierte Psychoanalyse," in: *Gesammelte Schriften*, vol. 8.

(24) *Zeitschrift für Sozialforschung* (1939), p. 246.

نشرت كارِن هورني - ولدت في عام 1885، وتخصصت في معهد التحليل النفسي في برلين، وتأثرت بكارل أبراهام وهانز زاكس على وجه الخصوص، وكلاهما يُعَدّ من حلقة أصدقاء فرويد - قبل عام 1933 سلسلة من المقالات في سيكولوجيا المرأة، انحرفت فيها، مع كل الإخلاص لفرويد، نقديًا عنه. حاول فرويد أن يفهم التطور الأنثوي والطباع الأنثوية من حيث هي نتيجة نفسية للاختلافات التشريحية بين الجنسين. في حين أبرزت هورني، على العكس، الدور الرئيس للطابع البطريركي الذي يسِم المؤسسات والمعايير الثقافية والتربية والمجتمع إجمالًا الذي تعيش فيه النساء، والذي اعتقد فرويد أن بمقدوره أن يُسقط عليهن أحكامه البيولوجية-الأنثروبولوجية. إن وضْعَ أهمية الاجتماعي وأهمية أحداث ما بعد الطفولة جنبًا إلى جنب مع أهمية الاعتبارات البيولوجية وأهمية أحداث الطفولة المبكرة، يعني منح النساء عمومًا الفرصة لفهم أنفسهن بعيدًا عن قيود التحديدات البطريركية[25].

عند فروم، قاد افتراض طبع بنية الغريزة من خلال شروط الحياة إلى عرض استمرار شروط الحياة المعطاة عبر ترسيخها في بنية الغريزة. عند هورني، أصبح الاطلاع على الطابع الواسم للوقائع والمعايير الاجتماعية منصة الانطلاق لنظرية تطلق ترسيخ أشكال السلوك والإدراك والتفكير في بنية الغريزة، وترى بالاشتراك مع أولوية الحتمية التي تفرضها عوامل اجتماعية بأنها تتيح المجال لإعادة تحديد سلوك النساء وتشكيله من جديد على سبيل المثال. لكن، انطلاقًا من فضح افتراض الحتميات البيولوجية من حيث هي أيديولوجيا، نشأ مفهوم أهمل التأثيرات المشوّهة للظروف الاجتماعية في مجال بنية الغريزة، وافترض من تربية أفضل وعلاج تحليلي أفضل حلًا بسيطًا نسبيًا للتغلب على صعوبات الثقافة المعنية. على أن التناقضات بين المنافسة والحب الأخوي، بين إثارة الاحتياجات وإحباط إشباعها، بين حرية الفرد الموهومة والحدود الموضوعية، أي هذه المشكلات التي لم تكن إلا على سطح الصراعات الاجتماعية وعلى سطح الصراعات بين الفرد والمجتمع كانت - بحسب كتابي هورني اللذين حققا نسبة كبيرة من المبيعات - التناقضات الحاسمة في الثقافة الأوروبية التي

---

(25) يُراجع:

M. Mitscherlich, "Freud erste Rebellin," *Emma*, vol. 12 (1978), pp. 34 f.

يعيشها العُصابي بحدة أكثر من الشخص العادي، ويجب مساعدته من أجل التغلب عليها.

كان موقف فروم - الأمر الذي تجاهله أدورنو - بوضوح نقديًا أكثر من موقف هورني وسواها من "أنصار المراجعة" الآخرين. فقد تمسك بالاتهام القديم ضد المجتمع البرجوازي-الرأسمالي وبالقناعة بالحاجة إلى انقلاب، ومثّل الرأي القائل بأن الإنسان الطبيعي المتكيّف جيدًا الذي لم يكن قط حزينًا جدًا أو غاضبًا جدًا، كثيرًا ما يكون أقل صحة من الشخص العُصابي. ما كان يميز فروم من أدورنو وهوركهايمر أيضًا هو الصياغة المثالية-التقليدية للمشكلة والطريقة التي بقي فيها مقياس نقده موضعيًا. هناك - كما يرى فروم في **الهروب من الحرية** - إمكانات إنسانية تشكلت في سياق التطور، وتريد الظهور، أي الفكر الخلاق والنقدي، ومعايشة تجارب عاطفية وحسيّة متميزة، والسعي نحو العدالة والحقيقة. وفي حين رأى أدورنو وهوركهايمر جميع أشكال العفوية تتدمر أكثر فأكثر، ويتنبأ هوركهايمر حتى أكثر من أدورنو بأفول الفرد، كان فروم يرى في العفوية النادرة، الموجودة بالتأكيد في الثقافة الغربية، المرتكز الروحي لحل المشكلات المركزية.

في أي حال، لم يكن موقف أدورنو وهوركهايمر أقل تعرضًا للهجوم من موقف فروم. ذلك أنهما حين واجها في الأربعينيات أنصار المراجعة بـ "النزعة المادية البيولوجية" لفرويد بوصفها الأساس النظري للتحليل النفسي[26]، انحازا إلى تأسيس نقد بيولوجي-أنثروبولوجي للمجتمع، وإلى افتراض قوة طوباوية في البنية الغريزية التي لم تكن أقل إشكالية من إيمان فروم بالعفوية. إذا كان موقف أدورنو وهوركهايمر أيضًا أقل تقليدية من موقف فروم، إلا أنه كان، في الوقت نفسه، أيضًا أقل تعرضًا للنقد، لأنهما التزما الصمت عن أشكال تعبير القوة الطوباوية. وبخلاف أدورنو، أزعج "ضعف الصياغات الإيجابية" هوركهايمر[27].

---

(26) Max Horkheimer & Theodor W. Adorno, "Ernst Simmel und die Freudsche Philosophie," in: Bernard Görlich & Alfred Lorenzer, *Der Stachel Freud.*

(27) رسالة من هوركهايمر إلى أدورنو، 21 حزيران/ يونيو 1941.

لم تكن هناك أي محاولة لإيجاد حل لهذه المواقف معًا، وبذلك لم يحدث أيضًا تطور كان من شأنه ربما أن يُعزز الأوجه النقدية الاجتماعية لدى فروم في مواجهة الآراء الموالية للمحللين الجدد. عندما حصلت في نهاية عام 1939 سلسلة من المحادثات الجدية بين فروم وهوركهايمر، كانت القطيعة قد تمت سلفًا، ولم يتبقّ إلا الاهتمام بكيفيات الانفصال. أهانت فروم الصيغة التي أوضحها له بولوك في ربيع 1939، والتي تفيد بأن المعهد لا يستطيع أن يدفع له راتبه اعتبارًا من تشرين الأول/ أكتوبر. بحسب روايته، لم يتوجّه إليه بولوك بالرجاء للتنازل عن راتبه، بل بيّن له بصريح العبارة أن المعهد ما عاد قادرًا على مواصلة دفع راتب له بعد الأول من تشرين الأول/ أكتوبر ولن يدفع له أي راتب. "بحسب رأيي الصريح يعني هذا، إذًا، الطرد، أجاب هو: 'إذا أردت أن تسمي ذلك هكذا، نعم!'"[28]. تخلى فروم، مقابل تعويض قدره 20,000 دولار، عن عقده الوظيفي مدى الحياة.

هكذا انفصل المعهد عن أحد العاملين فيه الذي كان لزمن طويل الأهم على الصعيد النظري؛ ولم يُنشَر له، في أي حال، في **مجلة الأبحاث الاجتماعية** بعد عام 1935 إلا مادة واحدة ("مقالة عن المبادئ" كتبها فروم في صيف 1937، وأراد أن يعيد النظر بها في ضوء نقد هوركهايمر المُقْنِع، لكنها لم تُنشَر، وهي، في أي حال، لم تُنشَر في **مجلة الأبحاث الاجتماعية**). أما دراسة فروم عن العمال والموظفين فلم تصل قط إلى صيغة جاهزة للنشر في نظر هوركهايمر. وكان هو على الدوام إما مريضًا أو في نقاهة. وبدا قريبًا من حلقة محللين نفسيين وحلقة علماء اجتماع لم تكن لهما البتة علاقة بنظرية للمجتمع لا تعرف المهادنة، أكثر من قربه من حلقة هوركهايمر[29]. وقد وجّه إلى أدورنو نقدًا لاذعًا منذ لحظة وصول الأخير إلى نيويورك، طاول تحديدًا تلك المناطق التي كان قد برع فيها، في نظر هوركهايمر، بوضوح أكثر فأكثر في الإنتاجية النظرية في النصف الثاني من الثلاثينيات. لكن ما كان يأمله هوركهايمر ربما - وهو أن يتخلى فروم عن عقده الوظيفي أو عن مرتّبه، ويبقى

---

(28) رسالة من فروم إلى هوركهايمر، 16 تشرين الثاني/ نوفمبر 1939.

(29) يراجع بهذا الخصوص:
Rainer Funk, *Erich Fromm*, pp. 99 ff.

مرتبطًا بالمعهد ويكون تحت تصرفه - لم يتحقق. من جانب فروم جاءت، مرة أخرى، استفسارات تخص دراسة العمال والموظفين، كانت قد أُرسلت إليه نسخة منها. من جانب هوركهايمر، وصلته رسالة قصيرة في تشرين الأول/ أكتوبر 1946 بمناسبة تنفيذ أحكام الإعدام التي أصدرتها محكمة نورنبرغ: في ذكرى احتفاله هو وفروم ذات يوم في نيويورك بسماعهما الخبر حول أحداث 30 حزيران/ يونيو 1934 والمتعلق بسقوط الشخصيات الرمزية للرايخ النازي، أرسل إلى فروم ليل الثلاثاء الماضي نخبًا بمناسبة موت شترايشر ورفاقه(30).

في عام 1941 صدر كتاب **الهروب من الحرية**. كان موضوعه الدراسة النفسية لكتاب **الإنسان في الدولة السلطوية** التي وردت في نشرة المعهد لعام 1938 بوصفها جزءًا من برنامج أبحاثه. مثّل الكتاب الذي اشتغل عليه فروم بين عامي 1936 و1940 واحدة من حالات التحقق القليلة لبرنامج النشر الشامل للمعهد، لكن نشره جرى خارج نطاق المعهد، ولم يتضمن - باستثناء حاشية في الهامش ذُكِرت فيها مقالة لهوركهايمر - أي إشارة إلى العمل المشترك السابق مع معهد البحث الاجتماعي. عوضًا عن ذلك، تصدّرت الكتاب ثلاثة شعارات تعرض بالذات كل عقيدة فروم الإنسانية.

على خلفية مخطط تاريخي للعملية المتناقضة التي يتحرر الفرد بموجبها من شروطه القروسطية، جمع الكتاب النزعة الوظيفية الاجتماعية-النفسية التي احتوتها مساهمة فروم في **دراسات في السلطة والأسرة** مع تصوّره لحل للخروج من الحلقة المفرغة الموهومة. كان هناك، قبل كل شيء، ثلاث إواليات للهروب شخّصها فروم: النزعة السلطوية، والنزعة التدميرية، وتطابق الإنسان الآلي. لخّص فروم وجهة نظره على النحو التالي: "لقد أخذنا في هذا الكتاب بأطروحة أن للحرية، بالنسبة إلى الإنسان الحديث، معنًى مزدوجًا: لقد تحرر من السلطات التقليدية، وأصبح 'فردًا'، لكنه أصبح في الوقت ذاته منعزلًا، وبلا حول ولا قوة، وغدا أداة لأغراض خارج ذاته، ومغتربًا عن نفسه وعن الآخرين. ورأينا فضلًا عن ذلك أن هذه الحالة تُقوّض الذات وتُضعفها وتملأها بالخوف،

(30) رسالة من هوركهايمر إلى فروم، 18 تشرين الأول/أكتوبر 1946.

وأنها تجعل الإنسان مستعدًا للخضوع إلى نوع جديد من العبودية [...]. لن يكون بمقدور الإنسان التغلب على عزلته وعلى شعور العجز الذي يدفعه اليوم نحو اليأس إلا عندما يضع المجتمع في قبضته، ويستطيع أن يضع الآلة الاقتصادية في خدمة السعادة الإنسانية، ويشارك كل فرد بفاعلية في العملية الاجتماعية [...]. لن تنتصر (الديمقراطية) على قوى العدمية إلا عندما تستطيع أن تبث في الناس أقوى أنواع الإيمان الذي يقدر عليه الروح الإنساني: الإيمان بالحياة والحقيقة والحرية، بوصفها التحقق الفعال والتلقائي للذات الفردية"[31].

لكن لا شيء في رفض نظرية الغريزة الفرويدية لمصلحة القناعة بأن المشكلة المفتاحية لعلم النفس قائمة في العلاقة النوعية للفرد بالعالم، ولا شيء في تعويض بنية الغريزة من خلال مفهوم بنية الطابع، لا شيء في موقف فروم من النقاش 'الثقافي والشخصي' حول العلاقة بين الثقافة والمجتمع والشخصية، يُبرر وقوفه مع التلقائية والإيمان بالحياة؛ إذ ما عاد ممكنًا، على سبيل المثال، تفسير الحاجة إلى مراكمة المال أو سواه من الأشياء، كما هو حال المحللين النفسيين الأصوليين، من خلال أن الرغبة اللاواعية ترتقي بذلك لتحتفظ بالبراز، بل من خلال أن خبرات معينة بين الناس تحصل بالارتباط مع طرح البراز، ففي هذه الحالة ليس معروفًا لماذا يجب أن يكون هناك سبب للتفاؤل في مجتمع تتشوّه فيه العلاقات بين الناس أكثر فأكثر. كانت التلقائية التي يعوّل عليها فروم، بالنظر إلى أقسام الكتاب التشخيصية-التحليلية، بناءً غيبيًا (ex machina-Konstruktion)، تعتمد ببساطة على حقيقة أن خصائص معينة تكون - بتعبير جفرسون الذي اقتبسه في مطلع الكتاب - "موروثة" في الإنسان أو أصبحت موروثة من خلال التطور التاريخي، أعني تحديدًا "التطلع نحو الحياة، وتطوير الذات وإظهار الإمكانات الموضوعة فيها"[32].

ومثل كتابَي هورني، تَوجَّه كتاب فروم أيضًا إلى جمهور واسع، وقد أُطري كثيرًا، ولاقى نجاحًا كبيرًا في الأوساط العلمية أيضًا. لا بل نُشرت في مجلة المعهد في عام 1941 مراجعة تقرّظ الكتاب كتبها شاختل صديق فروم.

(31) E. Fromm, *Die Furcht vor der Freiheit*, pp. 214, 219.

(32) Ibid., p. 230.

لا بد من أن يكون هذا قد أرضى فروم الذي وجد فيه هوركهايمر الآن خصمًا للمعهد، يهدد بتشكيل جبهة بالاشتراك مع غروسمان وغومبرتس وفيتفوغل، وربما مع آخرين أيضًا أصابهم الإحباط من المعهد.

مشاريع

بدأ المعهد في عام 1938 بالسعي ليس للحصول على المال من مؤسسات أميركية في الولايات المتحدة من أجل مشاريع لعاملين أو محسوبين بعينهم فحسب، بل أيضًا من أجل أبحاث علمية للمعهد نفسه. جرت أولى المحاولات في عام 1939، من بينها واحدة لمشروع كان يقوم به أدورنو وهوركهايمر حول معاداة السامية لإثارة الاهتمام لدى المؤسسات المسيحية واليهودية على حد سواء، ولدى الأفراد أيضًا. لكن هذه المحاولات بقيت بلا جدوى. في نيسان/ أبريل 1940، طرح هوركهايمر في اجتماع الهيئة الاستشارية للمعهد (كان ماكيفر وليند من أعضائها) مشروعين للنقاش، طمعًا منهما في معرفة أي من المشروعين له أفق أكثر في الولايات المتحدة الأميركية، وما هو السبيل الأفضل للحصول على المال اللازم لذلك. كان الأمر يتعلق، مرة أخرى، بمشروع معاداة السامية، المشروع الذي يفترض أن يجيب عن سؤال كيف استطاعت معاداة السامية أن تُحرز مثل هذه الأهمية الفائقة، وبمشروع حول "الثقافة الألمانية الحديثة"، يعيد بناء التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والفلسفي والأدبي في ألمانيا في ما بين عامي 1900 و1933، والإجابة من ثم عن سؤال كيف أمكن أن تجيء النازية. نصح المستشارون بالمشروع الثاني، لكن المعهد واصل عمله على كلا المشروعين. في 10 تموز/ يوليو، وقبل يوم واحد من سفره برفقة زوجته نحو الساحل الغربي كي يستطلعا مكانًا ملائمًا لإنجاز كتاب **الجدل**، كتب هوركهايمر إلى نويمان: نظرًا إلى الظرف الذي حدا باللجنة اليهودية الأميركية في حينه إلى تأجيل مشروع معاداة السامية، إذ لم يتوفر المال إلا للمراقبة والكفاح المباشَرين، أُوكل إلى أدورنو أن يضع مخطط مشروع يجعل من السياسة المعادية لليهود التي تنتهجها النازية ومن تأثيراتها في داخل البلاد وخارجها موضوعًا له. "خلافًا لمشاريعنا الأخرى، ينبغي التحضير لهذا المشروع باهتمام فعلي [...]. في ظني، ينبغي ألا نترك هذه العطلة التي تُحضَّر فيها بعض

الأشياء تنقضي من دون أن نبذل قصارى جهدنا في القيام بكل ما يمكن أن يؤدي في الخريف إلى نجاح مالي"[33].

في الأسابيع التالية، عمل أدورنو ونويمان على وجه الخصوص على صياغات جديدة لكلا المشروعين. حصل مشروع معاداة السامية الذي اهتمّ به خصوصًا أدورنو وزوجته على طابعه الشامل الأصلي مرة أخرى، لكنه أكّد الجانب العملي للدفاع، أي مواجهة معاداة السامية. في آب/ أغسطس، كتب هوركهايمر من الساحل الغربي إلى لوفنتال، يقول: يتعيّن علينا أن نستغل أيضًا أدورنو من أجل مشروع ألمانيا الجديد. "سيكون بمقدوره الاهتمام، بحيث يحصل المشروع على 'مستوى'".

تمثلت مساهمة أدورنو الأكثر أهمية في الصياغة الجديدة لمشروع ألمانيا بفقرتين، إحداهما حول "الثقافة"، والأخرى حول "الأزمة الثقافية". وجاء بعد بضعة أسابيع في مسودة رسالة بعث بها مدير المعهد إلى روبرت م. هتشينز، رئيس جامعة شيكاغو، الذي توقع هوركهايمر أن يجد لديه تفهّمًا للطموحات النظرية لحلقته، وانتظر منه دعم مشاريع المعهد: "قمنا بمحاولة أن نفهم نظريًا نمو النازية ليس على أساس القوى الاقتصادية والاجتماعية الموضوعية التي أنتجتها فحسب، بل أيضًا على أساس الرجال أو لنقل على أساس الجو الإنساني، أو بالأحرى اللاإنساني الذي جعلها ممكنة. لا أقصد أن يكون ذلك 'سيكولوجيًا'؛ فلست أنا بعالِم نفس اجتماعي ولا أعضاء معهدنا الذين أُعِد معهم هذا المشروع. يبدو لي أن الناس يخضعون في عصرنا لتغيرات أعمق بكثير من أن يُعبَّر عنها سيكولوجيًا. الأمر كما لو أن جوهر الإنسان نفسه قد تغير مع أسس مجتمعنا [...]. اليوم يتبدى التحرر الديني للطبقة الوسطى بكل مظاهر 'تقدّمه' قوة تنزع الصفات الإنسانية، مهما أحبّت أو تُحب أن تُظهِر نفسها بلبوس نزعة إنسانية. نحن نشهد تغيرًا يحوّل الناس إلى مجرد مراكز ردة فعل سلبية وإلى ذوات 'منعكسات شرطية'، إذ لم يُترَك لهم مراكز للتلقائية ولا معايير ملزمة للسلوك، ولا أي شيء يُعلي مطالبهم وحاجاتهم ورغباتهم الأكثر آنية. وما يجري في الوقت الحاضر قد لا يُفهم ربما إلا على خلفية التطور الكلي لما

---

(33) رسالة من هوركهايمر إلى نويمان، 10 تموز/ يوليو 1940.

قام الإنسان باختزاله أو تعظيمه إلى ما يبدو عليه الآن. سوف تجد تلميحات في هذا الاتجاه في القسم حول 'الأزمة الثقافية' [...]". بين إبراز الصلة الوثيقة بين تحييد الدين والثقافة وبين التحوّل الأنثروبولوجي، كم كان أدورنو وهوركهايمر قريبَيْن من فروم، وكم كانا بعيدَيْن عن نويمان. لم يريا في قانونية الحركة العمالية ومنظّماتها وفي أسلوب الإنتاج العناصر الحاسمة التي يتوقف عليها المجتمع الراهن، بل رأياها في الدين والثقافة وبالإعلاء الصحيح من شأنهما وفي قوة عقل الفرد التي تعتمد عليهما. في النهاية، أُعطيَ مشروع ألمانيا، بناء على نصيحة مستشار من الولايات المتحدة الأميركية هو عالم السياسة ذو التوجُّه النفسي هارولد لاسويل (Harold D. Lasswell)، عنوان: "الأوجه الثقافية للاشتراكية القومية". قُدّم هذا المشروع في مطلع عام 1941 إلى مؤسسة روكفلر، مرفقًا بطلب المساعدة المالية.

أراد هوركهايمر وأدورنو، كما قررا في خريف 1940، أن يستمرا في متابعة موضوع معاداة السامية مهما كانت الظروف، سواء بدعم مؤسسات أو من دونه. وقد أعطى أدورنو الحافز لذلك. فوقّع في أثناء عمله على مخططات مشروع معاداة السامية على كتاب للاهوتي هرمان شتاينهاوزن. وكتب أدورنو إلى هوركهايمر يقول: "لكن هذا الرجل، بكل الأدب، يؤمن أيضًا بآخرية اليهود المليئة بالأسرار. بدأتُ تدريجيًا أشعرُ، تحت تأثير آخر الأخبار الواردة من ألمانيا أيضًا، أنني لا أستطيع التوقف عن التفكير في مصير اليهود عمومًا. كثيرًا ما يُخيَّل إلي كما لو أن كل ما اعتدنا على رؤيته في ضوء البروليتاريا قد انتقل اليوم بتكثيف مريع إلى اليهود. إنني أتساءل إن لم يكن علينا، بصرف النظر تمامًا عما يمكن أن يحدث للمشروع، أن نقول الأشياء التي نريد قولها فعليًا، بالارتباط مع اليهود الذين يمثلون القطب المقابل لتركيز السلطة"[34]. هنا تلفّظ أدورنو بواحدة من خواطره واقتراحاته بصلب ما دفعه هو وهوركهايمر في ما بعد إلى العمل المشترك، أي تصوّر اليهود بوصفهم بروليتاريا عملية التنوير التاريخية العالمية التي جُرّدت منها كل القوة. نُشِر في ربيع 1941 "مشروع البحث حول معاداة السامية" في مجلة **دراسات في الفلسفة والعلوم الاجتماعية**

(34) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 5 آب/ أغسطس 1940.

كمثال على مفهوم "البحث الاجتماعي النقدي" الذي تقدم لأجله لازارسفلد في المقالة الأولى من عدد المجلة، "ملاحظات حول البحث في الإدارة والتواصل النقدي"، لخطب ودّ الجمهور الأميركي. كان هدف المشروع أن "يُظهر أن معاداة السامية هي واحدة من الأخطار الثاوية في كل الثقافات الحديثة". كان على الدراسات التاريخية حول الحركات الجماهيرية منذ الحملات الصليبية إلى الأرض المقدسة وحول المدافعين عن النزعة الإنسانية الحديثة، مثل فولتير وكانط، أن تبيّن، من بين أشياء أخرى، كم كانت معاداة السامية عميقة الجذور حتى هناك حيث لم تكن متوقعة على الإطلاق. كما كان على التجارب - عرض الأفلام مثلًا - أن تخدم في الكشف أيضًا عن الميول الكامنة المعادية للسامية، وتساعد في وضع تصنيف يمتلك به المرء في النهاية أداة للإحاطة بقوة الميول المعادية للسامية ونوعيتها حتى في داخل المناطق اللاواعية، ويتمكن، تاليًا، من النضال ضدها باكرًا.

أغفل أدورنو أي أفكار حول نظرية معاداة السامية، واضعًا نصب عينيه اللجنة اليهودية الأميركية والمصلحة المتوقعة من المنظمات اليهودية عمومًا في الاستخدام العملي للمشروع. لكنه أرسل عينة إلى هوركهايمر في أيلول/ سبتمبر 1940، أفكار مغامرة - كما رأى هو نفسه - تهدف إلى توضيح معاداة السامية توضيحًا تاريخيًا فلسفيًا. تألفت العينة من صفحتين ونصف من صفحات أدورنو النموذجية، ربطت بالملاحظة الصغيرة تفسيرًا تأمليًا كبيرًا يفيد بأن "الفتاة القادمة من بعيد" في الفولكلور الألماني، ذات المظهر الحسن، لا يمكن أن تكون يهودية أبدًا، وأن صورة اليهودي في هذا الفولكلور، من ناحية أخرى، تحمل سمات تتجاوز سمات الغريب، أقصد سمات التجوال والقِدَم والطفيلي. "في طور مبكر جدًا من تاريخ الإنسانية، إما أن اليهود أعرضوا عن الانتقال من البداوة إلى الاستقرار، وإما أنهم تشبثوا بشكل البداوة، أو أنهم لم ينجزوا الانتقال إلا على نحو قاصر وظاهري، أي بنوع من الشكل الزائف. بناء عليه، وجب أن يخضع التاريخ التوراتي للتحليل الدقيق؛ إذ يبدو لي أنه غني بالإشارات والتلميحات حول ذلك. ولعل الأهم هو الخروج من مصر وتاريخها، والمرتبط بأرض الميعاد، حيث ينساب اللبن والعسل، والفترة القصيرة من المملكة اليهودية وضعفها المحايث [...]. لكن بقاء البداوة بين اليهود لا يقدم

تفسيرًا لطبيعة اليهودي نفسها فحسب، بل يقدم علاوة على ذلك تفسيرًا لمعاداة السامية. يبدو أن التخلي عن البداوة كان إحدى التضحيات الأقسى التي تطلّبها التاريخ الإنساني. فالمفهوم الغربي للعمل مع التخلي الكلي عن الغريزة المرتبط بالعمل يتوافق مع الاستقرار تمامًا. تُمثّل صورة اليهودي صورة الوضع الإنساني الذي لم يعرف العمل، وأن كل الاعتداءات على الطابع الطفيلي والجشع لليهود ليست إلا محض حالات عقلانية. اليهود هم أولئك الذين لم 'يتحضّروا' والذين خضعوا لأولوية العمل. وهذا ما لن يُغفر لهم، وهم لهذا السبب صخرة الاصطدام بالمجتمع الطبقي. لم يسمحوا، يمكن القول، بأن يُطردوا من الجنة أو أنهم طُردوا رغمًا عنهم. ولا يزال الوصف الذي أعطاه موسى للأرض التي يجري فيها اللبن والعسل هو وصف الجنة. هذا التمسك بأقدم صورة للسعادة هو اليوتوبيا اليهودية. ولا يهم في الأمر إن كان وضع البداوة، في الواقع، وضعًا سعيدًا. ومن المحتمل أنه لم يكن كذلك. لكن كلما أنتج عالم الاستقرار، بوصفه عالم العمل، القمع، كان لا بد من أن يظهر الوضع الأقدم بوصفه سعادة، تلك السعادة التي لا يُسمَح بحظر فكرتها. هذا الحظر هو أصل معاداة السامية، وحالات طرد اليهود هي محاولات لإتمام الطرد من الجنة أو تقليده".

حرصًا منه على المشاريع، وعلى الأشخاص الكثيرين الذين كانوا قد تحركوا ليزيدوا من فرص نجاح المشروع، قرر هوركهايمر في عام 1940 العزوف عن البقاء في الغرب. في آب/ أغسطس دارت في خلده، وهو في هوليوود، فكرة أنه عندما يعود في أيلول/ سبتمبر، بعد اتفاقهم المشترك حول الإجراء التالي في المشاريع، "يستطيع الأزواج ل. وم. وهـ.[35] أن يسافروا، في مطلع تشرين الأول/ أكتوبر في سيارتين باتجاه الغرب"[36]. لكن بسبب الشائعات التي انتشرت في مقر كولومبيا بأن المعهد يخطط للانتقال، ومن أجل انتظار ظروف أفضل عمومًا تجعل المغادرة أقل لفتًا للنظر، بقي هوركهايمر في نيويورك ستة أشهر أخرى. وحين سافر بعدئذ في نيسان/ أبريل 1941 نهائيًا نحو الغرب، سافر بداية برفقة زوجته، كي لا يثير الانتباه قدر الإمكان وكي لا يبدو الرحيل نهائيًا.

---

(35) أي لوفنتال وماركوزه وهوركهايمر.

(36) رسالة من هوركهايمر إلى لوفنتال، 10 آب/ أغسطس 1940.

في نهاية نيسان/ أبريل، أبرق إليه لوفنتال يخبره بأن مؤسسة روكفلر رفضت المشروع حول "الأوجه الثقافية للاشتراكية القومية". العمل على المشروعين الذي امتد شهورًا طويلة، وحشد الناس من مختلف الأنواع والألوان، والاستمرار بأعمال المعهد "العادية"، وتأجيل البدء النهائي للعمل على كتاب **الجدل**، كل هذا بدا عبثًا. "أعتقد أننا قمنا بكل ما في وسعنا في هذا الشأن"، هذا ما كتبه هوركهايمر إلى نويمان بعد أن تلقى برقية لوفنتال من لوس أنجلس. "ليس بمقدوري معرفة الخطأ الحاسم الذي يمكن أن نكون قد ارتكبناه. لقد بدت لي هذه المذكرة مؤثرة على نحو خاص، ولا سيما من خلال الببليوغرافيا. من المحتمل أننا بهذا الإجراء الذي يرجع إلى مشورة تيليش الملحة قد ارتكبنا خطأً دبلوماسيًا. السرعة التي جاء الرفض بها بعد وصول المذكرة، تدفع إلى افتراض هذه النتيجة. لكن كيفما كان الأمر، فقد بذلنا كل ما في وسعنا. أود أن أشكركم أنتم على نحو خاص، لأن المشروع من دونكم ما كان ليحصل على الشكل الذي اتخذه، وهو في حدِّ ذاته شكل مثالي. منذ الوقت الذي كسبتم أندرسون إلى صفنا، وصولًا إلى المذكرة الأخيرة واعتراف إيرل، كان العبء الأكبر يقع عليكم"[37]. نويمان بالذات لم يعتبر الرفض نهائيًا على الإطلاق. عندما قصد هو وبولوك اثنين من العاملين في مؤسسة روكفلر كي يعرفوا تفاصيل أكثر، تبيّن أن المؤسسة لا تريد أن تدعم المعهد في عمل مستقل، بل أن تدعمه، في أحسن تقدير، في عمل مدمج في هذا المشروع لمؤسسة أخرى.

كان نويمان الذي ارتبط مستقبله في المعهد بنجاح أحد المشاريع، يفضل أن يجرّب لدى مؤسسات أخرى، فاهتم من فوره بإجراء محاولة مع مؤسسة نيويورك. أما هوركهايمر الذي كان يخشى اتهامه بأنه لم يكرّس نفسه كفاية لاستنفاد جميع الإمكانات فعليًا، ويخشى من نهاية بلا بريق للعلاقة بجامعة كولومبيا، فآثر اليوم، أكثر من أي وقت مضى، أن يواصل تقديم الطلبات، وألا يقرّ في الظاهر بأنه وزملاءه يريدون المغادرة دائمًا. عززت نيّةَ المضيّ في سياسة التطبيع أكثر حقيقةُ أن ماكيفر، رئيس قسم علم الاجتماع، زرع الأمل بإمكان

(37) رسالة من هوركهايمر إلى نويمان، غرب لوس أنجلس، 30 نيسان/ أبريل 1941.

إشراك العاملين في المعهد في محاضرات القسم، الأمر الذي أيقظ الآمال على الأقل بإمكان الحصول على منصب أستاذ لحلقة هوركهايمر. كل هذا كان يتوقف - كما كتب هوركهايمر إلى بولوك - على التأكد من أن لا تثار أبدًا أدنى شبهة بأنه كان هناك شعور بالحقد والضغينة. يجب على موظفي المؤسسة ألا تكون لديهم عوائق تمنعهم من الرجوع إلى المعهد في المستقبل. كان ينبغي على زملاء مثل لاسويل أو ماكيفر أن يفكروا في أن "هؤلاء الناس يبذلون جهدهم بإخلاص للانخراط في الحياة الأميركية، وتقديم مساهمات فعلية. بالتأكيد، سوف تأتي في القريب العاجل الفرصة المواتية لتحقيق ذلك"[38].

كانت هذه هي الاستراتيجية التي فرض هوركهايمر على نفسه التكيف معها، والتي لم يكن من السهل الاستمرار فيها. رُفضت في منتصف حزيران/ يونيو 1941 منحة إفرادية لأدورنو، وفي نهاية حزيران منحتان إفراديتان لماركوزه ونويمان. لا عجب أن تَرِد إلى ذهن هوركهايمر فكرة أن أشخاصًا يظهرون في الجلسات الحاسمة للجان تُحرّضهم التقارير الواردة من خصوم قدامى للمعهد من أيام فرانكفورت، يُلمحون إلى الطابع الغامض لحلقة المعهد: ليس هناك ما يدل على أنهم يقومون فعليًا ببحث اجتماعي؛ وليس هناك ما يشير إلى أنهم يسعون إلى الاندماج في الحياة هنا؛ لا تكيف مع الشكليات المتعارف عليها هنا التي تقضي بأن يكون المدير وجميع العاملين في كل مؤسسة علمية تابعين، في الواقع وليس اسميًا فحسب، لهيئة من رجال أعمال معروفين. ما كان يخفى وراء ذلك، وما جعل وضع المعهد يبدو بلا أفق وحتى من دون الشائعات التي كان ينشرها الخصوم القدامى، كان - كما كتب هوركهايمر إلى أدورنو بعد الرفض - "القانون الشامل للمجتمع الاحتكاري. في هذا المجتمع يخضع حتى البحث الأكاديمي لرقابة الوكلاء الذين يشكلون مع السلطات الاقتصادية النخبة ذاتها. كل ما لا يخضع للاحتكار كليًا - بلا تحفظ - هو مشروع 'متمرد'، وسوف يُقضى عليه بهذه الطريقة أو تلك، ولو تطلب التضحيات. إن تقويم القادم الجديد على أنه لاأخلاقي يجد مبرره في الظروف، لأنه عندما يحقق الانتقال شكل واحد من العلاقات الإنسانية

(38) رسالة من هوركهايمر إلى بولوك، 30 أيار/ مايو 1941.

كان يُنظر إليه يومًا بازدراء ليصبح الشكل المميز لمجتمع، فإن خصائص هذا الشكل هي التي تضع المعيارَ الأخلاقي. إننا نضحك بحق على الأيديولوجي الذي يواصل الكلام هناك، [...] عندما يتعلق الأمر بـ 'حماية' البلدان الأخرى، أو بالرقابة على أوروبا، أو على الصناعات والدولة. اتساع هذه الأمور يغير بالتأكيد نوعيتها. ألا يجب أن يكون العلم راضيًا بما ترضى به صناعة الراديو وسواها من عوامل الروح الموضوعي الأخرى؟ نريد أن نتخلص من الرقابة، ونريد أن نبقى مستقلين، وأن نحدد مضمون إنتاجنا ومداه! نحن فاسدون. من يتقرب ينبغِ، في أي حال، في أوقات على الأقل، أن يقوم أيضًا بمبالغات، حتى سياسية [...]. لكن الدمج في هذه الحالة أو غيرها - كما يقولون - يعني أولًا إعطاء، وإعطاء الكثير، وتقديم الضمانات، بأن يكون الخضوع صادقًا ومستمرًا ولا رجعة فيه. الدمج يعني الرضى بالنعمة والنقمة. لهذا تبقى جهودُنا بلا أفق، بما فيها أيضًا جهودُنا لدى مؤسسات أخرى. الاختلاف في الحقيقة ظاهري لا أكثر، وعلينا أن نحذر من جذب الانتباه إلينا في أي مكان آخر"[39].

ازداد الوضع تعقيدًا بالنسبة إلى هوركهايمر وأولئك الأكثر خضوعًا من بين العاملين معه، عندما أعلن ماكيفر أنه سيعمل أيضًا على ضم المعهد إلى جامعة كولومبيا؛ إذ لم يعد الآن من المهم فقط سؤال ضم المعهد وسؤال محاضرات القسم من دون أن تثار فكرة الفصل بينهما، ومعالجة السؤال الأول بتوسع، ومعالجة الثاني بتحفيز، بل كانت هناك نقطة ثانية تباعدت عندها تطلعات هوركهايمر وبولوك وأدورنو ولوفنتال من جانب، وماركوزه ونويمان من جانب آخر. ذلك أنه تزداد بالضم الوثيق للمعهد الفرص الأكاديمية لنويمان وماركوزه، بينما هوركهايمر ومن يبنون على الإمداد المادي للمعهد لا يريدون أن تُحَدّ استقلالية المعهد على الإطلاق. وهو اختلاف يتطابق مع النفور من "بريد الزجاجة" (وهو تعبير استخدمه أدورنو خصوصًا للنظرية النقدية والموسيقى الجديدة اللتين توجدان في نظره هناك بلا عنوان وحكم عليهما بـ "البقاء والصمود" لزمن غير منظور) عند الطرف الأول، ومع ميل نحوه عند الطرف الثاني.

(39) رسالة من هوركهايمر إلى أدورنو، 21 حزيران/ يونيو 1941.

خلافات حول نظرية الاشتراكية القومية

حصلت في جو المعهد الغريب حالةٌ عجيبة من تضارب الآراء حول التفسير الصحيح للاشتراكية القومية، وحول خلاف لافت يتعلق بتصوّر بولوك لـ "رأسمالية الدولة".

وصف بولوك في مقالته لعام 1933 "ملاحظات حول الأزمة الاقتصادية" بخطوط عريضة الأحداث في كلٍّ من إيطاليا وألمانيا والولايات المتحدة الأميركية، بأنها "مرحلة جديدة من مراحل تدخلات 'رأسمالية الدولة'"[40]، وأقرّ لاقتصاد رأسمالي مخطط بحظوظ كبيرة. رأى هوركهايمر في نص محاضرة عن المعهد تعود إلى عام 1938 - من الواضح أن النص كُتِب تحت تأثير أفكار فيتفوغل حول المجتمع الشرقي - أن "الدولة السلطوية ليست شيئًا جديدًا في المرحلة البرجوازية أيضًا، بل إن الجديد هو العودة من طريق الليبرالية إلى أشكال سلطوية لها تاريخ سابق في الاستبداد [...]. لا شك في أن حق التصرف بوسائل الإنتاج الضخمة في القرن العشرين يتطلب إزاء الجماهير جهازًا سلطويًا آخر يختلف عما كان عليه الحال بين القرنين السادس عشر والثامن عشر". تحدث هوركهايمر في مقالة كتبها في العام نفسه بعنوان "اليهود وأوروبا" عن نظام جديد يعمل بموجبه جنرالات الصناعة، وجنرالات الجيش والإدارة، وعن الحكم السلطوي للجهاز الإداري والجهازين الحقوقي والسياسي[41]. جمعت هذه المقالة إجمالًا بين عناصر رأيين: يرى أحدهما أنه يجب فهم حقبة الرأسمالية الليبرالية بوصفها سياقًا استطاع من خلال تذرير البشر، ونشوء المشاريع الكبيرة والتنظيمات الضخمة، أن يُقيم استبدادًا دائمًا على درجات سلّم موسع؛ أما الرأي الآخر فيقول إن ما يهم الفاشية هو سيادة اللصوص الذين حكموا من طريق القوة وتقاسم الغنائم؛ لكنهم حرصوا عبر تدمير جميع الأوهام وكل أكاذيب الثقافة التي يرمون بها بعيدًا حالما يتوقف تحالفهم عن القيام بعمله ضد الجماهير. طوّر هوركهايمر هذه الأفكار في مقالة

(40) *Zeitschrift für Sozialforschung* (1933), p. 347.

(41) *Zeitschrift für Sozialforschung* (1939), pp. 121, 128.

ثانية صدرت في عام 1940، وكانت بادئ الأمر بعنوان "رأسمالية الدولة"، وحملت لاحقًا عنوان "الدولة السلطوية". تكلم بوضوح عن رأسمالية الدولة من حيث هي مرحلة تأتي بعد الرأسمالية الاحتكارية، ينشأ فيها نظام جديد، "تضع فيه البيروقراطية يدها من جديد على الآلية الاقتصادية التي أفلتت من تحكّم مبدأ الربحية البحت للبرجوازية"[42].

بيد أن هوركهايمر اعتبر أن "النوع الأكثر منطقية للدولة السلطوية التي تحررت من كل تبعية لرأس المال الخاص هو الدولة التكاملية أو اشتراكية الدولة"[43]؛ هكذا وَصفَ الاتحاد السوفياتي الذي لم يذكره يومًا بالاسم. في المقابل، قدمت الدول الفاشية "صيغة مختلطة" تم فيها تحصيل القيمة المضافة تحت مراقبة الدولة وتوزيعها، لكنها كانت تصب تحت العنوان القديم للربح بكميات كبيرة في مصلحة كبار مالكي الصناعة والملاك الزراعيين. و"تحت تأثير هؤلاء اختل التنظيم وانحرف"[44]. إذا كانت الفاشية صيغة مختلطة، فإن رأسمالية الدولة هي بدورها صيغة مختلطة بإطلاق، إذ وُجِدت، بالنسبة إلى هوركهايمر - وهو الذي ينظر إلى الحركة الإصلاحية، وإلى البلشفية والفاشية أيضًا بوصفها أشكالًا من الدولة السلطوية - هذه الصيغة في نوع فاشي ونوع إصلاحي. إذا وجد إنغلز والاشتراكيون الديمقراطيون الألمان في رأسمالية الدولة باب العبور إلى الاشتراكية، فإن هذا الباب، في رأي هوركهايمر، نظام ينحو نحو الدولة التكاملية التي استطاعت أن تبقى طويلًا، بل مثلت نظامًا جديدًا يأتي بعد الرأسمالية بدلًا من الاشتراكية. لم يرَ هوركهايمر في هذا النظام تراجعًا، بل "تصعيدًا للقوى، يمكن أن يكون مقبولًا من دون إثارة أحقاد عرقية"[45].

ركّب هوركهايمر في هذا التحليل المظلم - على نحو لافت أكثر مما هو الحال في المقالة عن "اليهود وأوروبا" - عناصر مفاجئة تدعو إلى الأمل؛ فاتّهم

---

(42) Max Horkheimer, "Autoritärer Staat," in: *Gesellschaft im Übergang*, p. 27.

(43) Ibid., p. 19.

(44) Ibid.

(45) Ibid., p. 19.

المنظمات الكبرى للحركة العمالية بأنها تطالب بفكرة إضفاء الطابع المجتمعي التي لا تكاد تختلف عن إضفاء الطابع الاشتراكي على رأسمالية الدولة[46]. وشهد، في المقابل، "للفرد المنعزل" أنه، وهو الذي لم تُعيّنه ولم ترعَه أي سلطة، يشكل أيضًا سلطةً، لأن الجميع أفراد؛ هو لا يملك سلاحًا سوى الكلمة، لكن "التعبير القاصر في الدولة الشمولية أكثر تهديدًا من أكثر مؤتمر حزبي مؤثر في عهد فيلهلم الثاني"[47]. تُطابقُ وجهة نظر هوركهايمر القائلة بأن رأسمالية الدولة تبدو أحيانًا محاكاة ساخرة لمجتمع لاطبقي الفكرةَ الفلسفية التي تقارب الحقيقة في صورة معكوسة[48]، وكذلك تطابق عبارته: "لكي يدبر البشر شؤونهم بأنفسهم على نحو تضامني، يجب عليهم أن يتغيروا أقل بكثير مما تغيروا بفعل الفاشية"[49]. بالتوافق أخيرًا مع أطروحات بنيامين التي سبق أن قدمها جزئيًا في مقالته عن إدوارد فوكس "في مفهوم التاريخ"، كتب هوركهايمر: "لم تعد نهاية الاستغلال تسريعًا للتقدم، بل هي قفزة نوعية انطلاقًا من التقدم"[50]. كانت هذه هي عناصر الأمل المثيرة للدهشة جزئيًا، كالتركيز على الفرد المنعزل من جهة، والتي بدت تعسفية في سياق المقالة وفي سياق أعمال هوركهايمر من جهة ثانية، مع العلم بأن الدوافع اللاهوتية-المسيحانية لم تكن حتى ذلك الحين موضوع اهتمامه. شعر بعدم الارتياح تجاه أوجه الأمل التي قدمها. وتحدث عن ذلك في رسالة إلى أدورنو: "من واجبنا أن نُكثف البحث عن الصيغ الإيجابية وعن مواطن الضعف في النتائج التي وصلنا إليها في موضوع الدولة السلطوية"[51].

نظرًا إلى الوضع السياسي الشديد الانفجار، ونظرًا إلى خطورة مقالته النظرية، آثر هوركهايمر أن ينشرها في عام 1942 في كتاب تذكاري عن بنيامين باللغة الألمانية، مطبوعًا على الآلة الناسخة، لم يوزع إلا على عدد

---

(46) Ibid., p. 15.

(47) Ibid., p. 30.

(48) Ibid., p. 31.

(49) Ibid., p. 33.

(50) Ibid., p. 25.

(51) رسالة من هوركهايمر إلى أدورنو، 21 حزيران/ يونيو 1941.

من الأشخاص المختارين، ونخبة خاصة من الأشخاص من دون حذف تعبير **الدولة السلطوية**، آثر أن يخبئه أكثر من أن ينشره. أصبحت مقالة بولوك "إمكانيات رأسمالية الدولة وحدودها" التي خُصصت لعدد المجلة حول موضوع رأسمالية الدولة الذي كان ينبغي أن يصدر في صيف 1941، والذي كان يتعين أن تفتتح موضوعاته مقالة هوركهايمر، أكثر أهمية (بعد صدور العدد الثاني من المجلة باللغة الإنكليزية، وكان عددًا مخصصًا للحديث عن وسائل التواصل الجماهيري، اتفِق على إصدار أعداد أخرى حول موضوعات محددة. خُطط لإصدار عدد عن البيروقراطية في خريف 1941، يليه عددٌ عن المناهج في ربيع 1942، ثم عدد عن الرأي العام في صيف 1942). أما المقالات والأبحاث الأخرى التي خُطط لنشرها أصلًا، إضافة إلى مقالتَي هوركهايمر وبولوك، في العدد الخاص عن رأسمالية الدولة، فكانت: نويمان، "الحركة العمالية في رأسمالية الدولة"؛ كيرشهايمر، "الإطار الدستوري لرأسمالية الدولة"؛ غورلاند، "التغير البنيوي الاقتصادي"، أوتو لايشتر، "دور البيروقراطية في الاشتراكية القومية"، تضاف إليها مقالةٌ لفليكس فايل بعنوان "تشكيل رأس المال في ضوء رأسمالية الدولة".

كان عمل بولوك موضع خلاف منذ البداية. لم يكن نويمان الوحيد الذي وجّه له نقدًا مباشرًا وصريحًا، كعادته، بل انتقده - وبطريقة مهذبة - جميع من كانوا إلى جانب بولوك من أعضاء "الحلقة الداخلية"، أي هوركهايمر ولوفنتال وأدورنو. كتب هوركهايمر إلى بولوك بعد أن قرأ ملخصًا لمقالته "رأسمالية الدولة": "ستكون مسألة صعبة تجنُّب خطأ الانحياز إلى 'جواب شمولي'"[52]. أخبر أدورنو - الذي كان قد أعطى بولوك الصفحات الست والثلاثين الأولى من مقالته لقراءتها - هوركهايمر في الشهر التالي عن قلقه: "أستطيع أن أُجمل رأيي حول هذه المقالة بأفضل القول: إنها تُمثل انقلابًا على كافكا. فقد وَصف كافكا التراتبية البيروقراطية بأنها جحيم. وفي هذه المقالة انقلب الجحيم إلى تراتبية بيروقراطية. أضف إلى ذلك أن كل شيء تمت صياغته بشكل أطروحات، و'نزولًا من الأعلى' بالمعنى الهوسرلي، بحيث يكون في غنًى عن الاستعجال كليًا،

---

(52) رسالة من هوركهايمر إلى بولوك، 30 أيار/ مايو 1941.

بصرف النظر عن الافتراض غير الجدلي القائل بإمكان وجود اقتصاد غير تنافسي في مجتمع تنازعي"[53]. لا يمكن المقالة إلا أن تضر بسمعة المعهد وبسمعة بولوك نفسه. ولا يستطيع مثل هذا العدد أن يحتمل مقالته عن شبنغلر. أما ما يُنتظر من مقالة لنويمان عن إمكان رأسمالية دولة ديمقراطية أوحى به إليه ليند، فلا ضرورة للكلام عنه. لهذا اقترح أنه يجب أن يعيد هوركهايمر كتابة مقالة بولوك التي أُخذت موضوعاتها من **الدولة السلطوية**، لكن بعد تبسيطها ونزع الجدل منها، بحيث تنقلب إلى العكس، ثم ينشرها باسميهما في عدد رأسمالية الدولة.

لم يكن هوركهايمر يُريد ذلك. إلا أنه كان سعيدًا، عندما وجد أن صديقه الأقرب إليه يعود ويقدم بعد سنوات دليلًا علنيًا على مشاركته في العمل الفكري في المعهد. صحيح - ولهذا أصرّ أدورنو على نقده - لكن بدا لهوركهايمر أن فكرة بولوك صحيحة في تشاؤمها، أي إدراك أن فرص بقاء السلطة في صيغتها السياسية المباشرة أكبر من فرص خروجها. في أي حال، كان الخطأ في مقالة بولوك - كما يرى أدورنو - هو "التفاؤل، وحتى التفاؤل في ما يخص الآخرين: يبدو لي أن ما يدوم ليس وضعًا ثابتًا نسبيًا أو حتى عقلانيًا بمعنًى ما، وليس نتيجة حتمية للكوارث والفوضى والهول لمدة طويلة غير منظورة، وهو من ثم فرصة للانفجار لم تحصل على حقها في النظرة المصرية"[54]. في الوقت نفسه، كرّر هوركهايمر بعد اطلاعه على مخطوطة بولوك حرصه المشابه تمامًا لما كان يحرص عليه في السابق. مدح النظرية البالغة، القائلة إن التطور الاقتصادي يُظهِر في كل مكان ميلًا نحو رأسمالية الدولة التي هي الصيغة الأكثر فعالية وملاءمة للعصر من الناحية الاقتصادية في مواجهة الرأسمالية الخاصة، والتي يمكن أن تكون أيضًا في صيغة غير سُلطوية. أصر هوركهايمر مرةً أخرى على "ألا يُساء فهم التعاطف الكبير جدًا مع رأسمالية الدولة". "إذا كان لي أن أعبر عن رغبة عامة، فهي ألا يبقى ظاهرًا إلى العيان تشابك الظواهر وغموضها، [...] وأن يبدو كل شيء أقل تصلبًا إداريًا"[55].

---

(53) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 8 حزيران/ يونيو 1941.

(54) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 2 تموز/ يوليو 1941.

[الرؤية المصرية: كناية عن الرؤية في الظلام الدامس، وهو تعبير مستوحى من سفر الخروج في التوراة]. (المترجم)

(55) رسالة من هوركهايمر إلى بولوك، باسيفيك باليسيدز، 1 تموز/ يوليو 1941.

بعد أسبوع من وصول بولوك إلى الساحل الغربي، حيث عمل على مقالته بحضور هوركهايمر، كتب الأخير إلى نويمان: "بما أنه ليس لدينا متسعٌ من الوقت، فإننا لن نستطيع إلا الاقتصار على تغييرات بسيطة في بعض تفاصيل هذا النص، من هنا أجد بعض الصعوبة في معالجة موضوع بهذه الأهمية في عمل جرى إنجازه منذ البداية في ظروف صعبة للغاية، إلى جانب وظيفة أخرى. أنا أعمل الآن على كتابة نوع من المقدمة، وأطلب إليك بإلحاح أن تخبرني بموافقتك على النشر بعد إلقائك نظرةً على نص المقالة وعلى المقدمة"[56].

كان نص مخطوطة بولوك الذي وصل إلى نويمان لقراءته يتطابق، في ما عدا بعض التفاصيل، مع نص المقالة التي نُشرت لاحقًا. على الرغم من أن عنوان البحث كان **رأسمالية الدولة: إمكانياتها وحدودها**، قُدمت رأسمالية الدولة بوصفها نظامًا لم يكن متفوقًا على المجتمعات الرأسمالية القديمة فحسب، بل بوصفه نظامًا لم يعرف له إطلاقًا حدودًا خاصة به وملازمة له. وجد بولوك أن السبب الرئيسي للأزمات الرأسمالية يكمن دومًا في استقلالية السوق الذي يتراجع دوره على نحو متزايد تحت ضغط الاحتكار من حيث هو أداة الاقتصاد في توجيه نفسه، ويستدعي بقدر أكبر فوضى وحالات انعدام تنسيق؛ إذ بتعطيل استقلالية السوق في رأسمالية الدولة، جرى التغلب، في نظر بولوك، على الأسباب المهمة للأزمات. كذلك أكد بولوك تفوق رأسمالية الدولة على المجتمعات الرأسمالية الخاصة القديمة، وشدد في نهاية مقالته على وجوب أن نختار بين رأسمالية الدولة الشمولية ورأسمالية الدولة الديمقراطية. خفف بولوك، بتأثير من أدورنو، من مديحه للدولة الديمقراطية، حيث ألبسها صيغة أسئلة وإشكالات لأبحاثه المستقبلية.

حاول هوركهايمر في مقدمته المتطابقة، ما خلا التفاصيل، مع الصيغة المنشورة لاحقًا، أن يضع مسبقًا النبرة الصحيحة من دون أن يمس بمشاعر بولوك. مستندًا إلى مقياس مجتمع افترض أنه بدهي وأنه قد تشكل "طبقًا للحاجات والقدرات الإنسانية"[57]، وصف هوركهايمر، متجنبًا مفهوم رأسمالية

(56) رسالة من هوركهايمر إلى نويمان، 20 تموز/يوليو 1941.

(57) Max Horkheimer, *Studies in Philosophy and Social Science* (1941), p. 197.

الدولة، "المجتمع السلطوي" بأنه نظام مستهجن ومتناقض، تكون فيه "الصناعةُ الكبيرة في ظل تركيبة شمولية في وضع لا تفرض فيه خطتها على منافسيها القدامى فحسب، بل تأمر الجماهير بالعمل بدلًا من أن تضطر إلى مساومتهم بوصفهم أطرافًا أحرارًا في تعاقد"[58]، و"يتلو الضياعُ المخطط للعقل والسعادة والحياة الضياعَ غير الهادف الذي تسببه مناكفات نظام السوق وأزماته"[59]، و"تُصبح العقلانية اللاعقلانية" للمرحلة المنصرمة "جنونًا ممنهجًا"[60]، وتغدو ازدواجية تأثيرات التقدم إقصاءً لوظيفته التدميرية. ترك بولوك جانبًا اقتراح أدورنو بأن يُترك على الأقل مجالٌ للتنويه بأن "من المحتمل ألا ينمو في الفاشية الاغترابُ وحده، بل نقيضه أيضًا"[61]. لم يقل شيئًا يمكن أن يبدو اعترافًا بالفاشية، مهما كان قاسيًا و"جدليًا". اكتفى بوصفها في نهاية بحثه بأنها "المنافس حتى الموت على المستوى الدولي" الذي يجب على القوى العالمية الآن أن تتخلص منه. وختامًا، وصف بحث بولوك بأنه تحذيرٌ من تصور رغبوي بأن الفاشية سوف تنهار قريبًا تحت وطأة صعوبات اقتصادية، وأنه حافز يلمح إلى إمكان أن تكون إجراءات رأسمالية الدولة في إطار ديمقراطي أكثر فعاليةً مما هي في إطار فاشي.

وافق نويمان على مقدمة هوركهايمر، لكنه انتقد تغطية الفرق القائم بين آراء مديري المعهد وبين التقويم الإيجابي للديمقراطية الأميركية - مع مراعاة الوضع السياسي الذي لا بد من القبول به - وبقي متشبثًا بنقده الذي عبّر عنه لبولوك بالذات حول تصوّره عن رأسمالية الدولة. توجّه هذا النقد في المقام الأول إلى نقطتين، أولاهما أن رأسمالية الدولة - كما صوّرها له بولوك - يمكن أن تدوم ألف عام، وحكم بأنها مخيبة للأمل تمامًا. كان هذا النقد اعتراضًا استراتيجيًا لم تكن له أهمية إلا في الجواب عن صوابية أو خطأ تحليل بولوك، حينما أمكن إثبات أن فكرته عمياء تجاه تناقضات تشكيلة المجتمع الذي حلله والتي تعرّض النظام للخطر. ذهب طموح نويمان في **البهيموت** للكشف عن

(58) Ibid., p. 196.

(59) Ibid., pp. 196 f.

(60) Ibid., p. 197.

(61) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 18 آب/ أغسطس 1941.

مفهوم رأسمالية الدولة، من حيث هو تناقضٌ في حد ذاته، بهذا الاتجاه، حينما تغيا إثبات لاعقلانية نوع من أنواع الرأسمالية الخالية من الأزمات. على أن من الغريب أن نويمان لم يقْدِم على تصور تشكيلة مجتمع سُلطوي لارأسمالي، أي "دولة تكاملية"؛ ربما لأن فكرة وجود شيء ثالث يكون بديلًا للاشتراكية-الرأسمالية في العلاقات الأوروبية بدت له فكرة غير معقولة وبعيدة عن الواقع.

كان الاعتراض الرئيسي الثاني لنويمان على بولوك أنه لم يمتلك نظرية للانتقال من الرأسمالية الاحتكارية إلى رأسمالية الدولة، ولم يقدم، بناء على تحليل مادي، الدليل بأن ألمانيا مثلًا تتسم جوهريًا بملامح رأسمالية الدولة. في الواقع، عندما تكلم إنغلز وبوخارين ولينين عن "رأسمالية الدولة"، لم يكن في ذهن أي منهم نظام غير اشتراكي يحل محل الرأسمالية. لم يذكر بوخارين إمكانية كهذه إلا في موضع واحد من كتابه **الإمبريالية والاقتصاد العالمي** الصادر في عام 1915. يستشهد دوايت ماكدونالد بالموضع المذكور في مقالته "نهاية الرأسمالية في ألمانيا" المنشور في عام 1941 في *Partisan Review* (**مجلة بارتيزان**)، وهي من أهم المنابر في الولايات المتحدة الأميركية للنقاش حول تفسير الفاشية. "حيثما يتعيّن أن يزول الطابع السلعي للإنتاج - على سبيل المثال، من خلال تنظيم الاقتصاد العالمي كله في احتكار [تراست] دولة ضخم، وهي الاستحالة التي حاولنا تقديم البرهان عليها في الفصل الذي يتناول الإمبريالية في طورها النهائي - يجب أن نمتلك شكلًا اقتصاديًا جديدًا تمامًا. لن يكون هذا الاقتصاد الرأسماليةَ على الإطلاق، لأن إنتاج السلع سوف يختفي؛ ولن يكون الاشتراكيةَ أيضًا، لأن سلطة طبقة على طبقة أخرى سوف تبقى (لا بل سوف تنمو أكثر فأكثر). سوف تشبه هذه البنية الاقتصادية، في الأغلب، اقتصاد مالكي العبيد الذي يغيب فيه سوق العبيد"[62]. وقد أظهرت سياسة الاكتفاء الذاتي الإمبريالية في ألمانيا النازية أن إمكانية نقلها - وهذا بعيد عما عناه بوخارين - إلى بلد واحد، أو بالأحرى إلى نظام حكم واحد، معقولة جدًا.

---

(62) من كتاب Nikolai Bukharin, *Imperialism and World Economy*، ذكره MacDonald في ص 210.

لذلك بقي القسم الثاني من اعتراض نويمان الاعتراض الحاسم، ومن أجله كان كتابه كله: "لا أفعل منذ عام كامل شيئًا سوى دراسة العمليات الاقتصادية في ألمانيا؛ لم أجد حتى الآن موقفًا، مهما صغر شأنه، يؤشر ولو على وجه التقريب باتجاه وجود رأسمالية دولة في ألمانيا"[63]. ورأى هوركهايمر في رسالته الجوابية: "بما أن ثقتي بدراستكم للعملية الاقتصادية في ألمانيا لا حدود لها، فإنني أصدق ما جاء في رسالتكم من أن ألمانيا ليست أيضًا، ولو على وجه التقريب، في حالة رأسمالية دولة. لكنني، من جهة أخرى، لا أستطيع أن أتحرر من رأي إنغلز القائل بأن المجتمع يتجه تمامًا في هذا الاتجاه. لهذا السبب علي أن أفترض أن هذه المرحلة لا تزال في أغلب الظن تهددنا، وهذا ما يُعطي - كما يبدو لي - القيمة لبناء بولوك، على الرغم من عيوبه الكثيرة، كأساس لمناقشة المشكلة الحالية"[64]. حول هذه النقطة لم يتفاهم منظّر الدولة التكاملية الماركسي المادي-التاريخي ومنظر رأسمالية الدولة الشمولية الماركسي الإصلاحي. بالنسبة إلى نويمان، كان ذا أهمية وجودية ما كتبه في **البهيموت** في ختام نقده مفهوم رأسمالية الدولة، إذ قال: "لا يشاطر المؤلف هذا الرأي المفرط في التشاؤم. فهو يعتقد أن تناقضات الرأسمالية في ألمانيا فعالة على مستوى أعلى، وهي بالتالي أشد خطورة حتى ولو اتخذت هذه التناقضات من الجهاز البيروقراطي وأيديولوجيا جماعة الشعب غطاء لها"[65]. هذا الالتزام الوجودي قد يفسّر أيضًا الحدَّة التي طبعت رسالة نويمان إلى هوركهايمر، والتي قال فيها إن مقالة بولوك تناقض "من الصفحة الأولى حتى الصفحة الأخيرة نظرية المعهد"، فهي تتضمن "وداع الماركسية بوضوح"؛ إنها "في الواقع ليست أكثر من صيغة جديدة لعلم اجتماع مانهايم، خصوصًا الواردة في كتاب مانهايم الأخير **الإنسان والمجتمع في عصر الثورة**"، وهي اتهامات رفضها هوركهايمر بشدة.

أنهى نويمان لاحقًا مخطوط كتابه **البهيموت: بنية الاشتراكية القومية (النازية) وممارستها** بعد أسابيع قليلة، وهو مخطوط من ألف صفحة طُبع على

(63) رسالة من نويمان إلى هوركهايمر، 23 تموز/ يوليو 1941.

(64) رسالة من هوركهايمر إلى نويمان، 2 آب/ أغسطس 1941.

(65) Franz Neumann, *Behemoth: The Structure and Practice of National Socialism*, p. 278.

الآلة الكاتبة، مختصرًا المقدمة حول انهيار ديمقراطية فايمار من 300 صفحة إلى 60. كتب إلى هوركهايمر: "علي أن أحذف من الصفحات الباقية قسمًا كبيرًا من التحليلات النظرية ليكون الكتاب واقعيًا قدر الإمكان"[66]. فكتب إليه هوركهايمر مهنئًا: "مع أنني لا أعرف من محتوى الكتاب إلا ما فهمته من محاضراتكم في أمسيات ديترله (Dieterle) ومن ملاحظات عابرة، إلا أنني أعتقد أنني استطعت أن أكوّن تصورًا عن أهمية هذا العمل؛ وإذا لم تخني الذاكرة، كنت أنا من أوائل من ألحّ عليكم في كتابة كتاب كهذا. إنني لا أستطيع الآن، طبعًا، أن أتصوّر مدى الطاقة التي وظفتموها في كتابته. سوف يشكل هذا الكتاب وثيقة يمكن أن تخدم نظريتنا التي لا تزال أفضل مدخل إلى تشابك العلاقات الاجتماعية الحالية. وسوف يشد أزر كثيرين ممن اعتقدوا بنهاية النظرية بسبب الانحدار الفكري، المفهوم، لبعض أصدقائنا"[67].

هذا الكتاب الذي أسهم أركادي غورلاند (Arkadij Gurland) في الجزء الاقتصادي منه، واقتبس نويمان، من باب التأكيد، من مقالة غورلاند "الاتجاهات التقنية والبنية الاقتصادية في ظل الاشتراكية القومية" في عدد المجلة الذي خُصّص لرأسمالية الدولة[68]، جاء بناؤه أقرب إلى كتاب ماركسي تقليدي. بدأ بالبنية الفوقية السياسية (القسم الأول: النمط السياسي للاشتراكية القومية)، ثم انتقل إلى الأساس الاقتصادي (القسم الثاني: الاقتصاد الاحتكاري التوتاليتاري)، ثم ختم بعرض للبنية الطبقية (القسم الثالث: المجتمع الجديد). كان منظور التحليل ماركسيًا شاملًا للمجتمع، ممزوجًا منذ البداية بتحليل حقوقي شكلي. أطلق نويمان على بحثه في بنية الاشتراكية القومية وممارستها اسم **البهيموت** بالاستناد إلى هوبز الذي وصف الحرب الأهلية الإنكليزية في القرن السابع عشر في كتابه **البهيموت أو البرلمان الطويل**، بأنها حالة الفوضى وحالة اللادولة، وهذا ما ميّز هذا الكتاب من كتاب **اللوياثان** في موضوع سلطة الدولة، لأنه تم الحفاظ في هذه الدولة على بقايا من القانون والحقوق.

(66) رسالة من نويمان إلى هوركهايمر، 28 آب/ أغسطس 1941.
(67) رسالة من هوركهايمر إلى نويمان، 30 آب/ أغسطس 1941.
(68) يُقارَن:
Erd (ed.), p. 113.

وبذلك أشار العنوان إلى أن قضية الكتاب الرئيسية هي "أن الاشتراكية القومية هي لادولة، أو أنها تتطور نحو اللادولة"[69]؛ وإلى "أننا نتعامل هنا مع شكل للمجتمع تراقب فيه المجموعات المسيطرة بقية السكان مراقبةً مباشرة، من دون توسُّط جهاز قمع عقلاني على الأقل، يُعرف حتى اليوم بوصفه دولة"[70].

كان أكثر من استفاد من هذا التطور هم الشركات الكبرى التي تجاوب الحكم النازي مع احتياجاتها حال استيلائه على السلطة من خلال ممارسة سياسة متعاطفة مع الكارتلات على حساب أصحاب الأعمال الصغيرة والمتوسطة. كذلك عمل التداخل المميز للاقتصاد الخاص و"اقتصاد الأوامر" باستمرار لمصلحة الشركات الكبرى الرائدة. عرفت منظمات الإدارة "الذاتية" وغيرها التي تسيطر عليها تلك الشركات الكبرى، بسبب التشابك المتنامي مع الإدارة الاقتصادية التابعة للدولة، نموًا ملحوظًا لسلطتها، وهذا ما سمح لاقتصادي نازي، على سبيل المثال، أن يقول بعد أن صدر في حزيران/ يونيو 1933 قانونٌ يأمر بتشكيل اتحاد الشركات: "تضمن الإجراءات القسرية للاتحاد[71]، بفعل الرهان على أموال الدولة، وضع قوة لا يمكنه تحقيقها على قاعدة الحرية"[72]. وأفضى اقتصاد الحرب إلى تعزيز إضافي في وضع الشركات الكبرى التي كانت تقود، على سبيل المثال، تلك المنظمات التي كانت تكلف بالقيام بأهم نشاط سياسي واقتصادي في ألمانيا آنذاك: توزيع المواد الخام. جاء في المختصر الذي وثّقه وأسس له نويمان تأسيسًا جيدًا: "لو لم تُلغ السلطة السياسية التوتاليتارية حريةَ التعاقد، لانهار نظام الكارتلات؛ ولو لم يكن سوق العمل مراقبًا بوسائل سُلطوية، لكان النظام الاحتكاري في خطر؛ ولو كانت المواد الخام، والاستيراد، والرقابة على الأسعار وهيئات الترشيد، ونظام الائتمان، وسلطات الرقابة على التجارة الخارجية، لو كان هذا كله في أيدي القوى المعادية للاحتكارات، لانهار نظام الربح بكامله. لقد طاولت عملية

(69) Ibid., p. 16.

(70) Ibid., p. 543.

(71) اتحاد الصناعة الألمانية.

(72) ذكره نويمان في:

Neumann, *Behemoth*, p. 319.

الاحتكار النظام بأكمله، بحيث يجب عليه، بحكم طبيعته، أن يستجيب لتقلبات دورية بحساسية مفرطة. اضطرابات كهذه يتعيّن إزالتها. ولتحقيق ذلك كله، كان لا بد للسلطة السياسية من أن تحتكر المال والاعتمادات والعمل والأسعار. أما الديمقراطية فتغدو تهديدًا حقيقيًا للنظام الاحتكاري. يكمن جوهر التوتاليتارية في دعم هذا النظام وتثبيته. لا شك في أن هذا ليس الوظيفة الوحيدة للنظام. فالوصول إلى سيطرة الحزب لألف سنة هو الشغل الشاغل والوحيد للحزب النازي. ولكي يحقق الحزب هذا الهدف، كان عليه أن يحمي نظام الاحتكار الذي أمدّه بالقاعدة الاقتصادية لتوسُّعه السياسي"[73].

كان الشريكان الآخران في تحالف الطبقة المسيطرة هما الجيش والبيروقراطية (والأخيرة تقلصت أهميتها بحسب نويمان). جمع المجموعات الأربع الخوفُ من أن يكون انهيار نظام الحكم انهيارًا ودمارًا لهم جميعًا، في حين وقفت "الطبقات المُسيطَر عليها" في وجه تلك المجموعات. بحث نويمان في وضع تلك الطبقات مستعينًا بمثال الطبقة العاملة.

كانت الطبقة العاملة قد أصبحت فريسة سهلة للنازيين بعد أن سُلبت عفويتها، إلى حد بعيد، بفعل تنظيماتها البيرقراطية وبفعل ثقافة جماهيرية مؤطرة فرضتها الاحتكارات الخاصة. عرف النازيون كيف يتلاعبون بطريقة فعالة بالجماهير التي لا يمكن ببساطة تجاهلها بعد أن اجتازت مرحلة ديمقراطية. ضُرِبت التنظيمات العمالية، وقُيّدَت حريةُ اختيار مكان الإقامة وما شابه، أو أُلغيت، واستُعمل الإرهاب واستخدمت الدعاية. وفي الوقت نفسه، رُفِع الوعي الذاتي الألماني من خلال التغلب بنجاح على تبعات مؤتمر فرساي، والتشكيل المنظم لأوقات الفراغ (القوة عبر "الفرح"، وغيرها)، وتشغيل الجميع ولو كان مستوى الأجر متدنيًا. "تعتمد النازية على التشغيل الشامل والكامل. هذه هي الهدية الوحيدة التي تقدمها للجماهير، ولا يجوز التقليل من أهميتها. بالطبع لم يعنِ هذا التغلب على الدورة الاقتصادية ولا تحرير النظام الاقتصادي من أطوار الانكماش. لكن رقابة الدولة على المال والاعتمادات وسوق العمل تمنع من أن تتخذ حالات الركود الاقتصادي شكل بطالة جماهيرية. وحتى

(73) Ibid., p. 414 f.

عندما ينخفض الإنتاج بعد الحرب، وتَحظر التناقضاتُ الكامنة في الرأسمالية الاحتكارية توجيهَ تيار رأس المال نحو العودة إلى الصناعة الاستهلاكية، لن يكون هناك، على الأرجح، أي تسريح يطاول الجماهير. عندئذ ترسَل النساء إلى المطابخ، والعاجزون عن العمل إلى حياة التقاعد [...]. وعند الضرورة يُقسّم العمل، وتُخفَّض ساعاته، ويتوقف التقدم أو حتى يتراجع، وتُخفَّض الأجور وترتفع الأسعار. في نظام حكم سلطوي توجد عشرات الوسائل لاتخاذ تدابير كهذه [...].

يرتبط التشغيل الكامل بنظام تأمين اجتماعي قوي. وقد استُكمل هذا النظام الذي طورته ديمقراطية فايمار، ووُضِع تحت رقابة سلطوية. دعم العاطلين من العمل، والضمان الصحي والتأمين ضد الحوادث، ورعاية العجزة والمسنين، هذه هي الوسائل التي كسبت بها النازية في ذلك الوقت صبر الجماهير السلبي. كان الضمان الاجتماعي قولها الدعائي الوحيد الذي يُعزى إلى الحقيقة، وربما السلاح الوحيد الفعال في كل ترسانتها الدعائية"[74].

لا شيء في المادة التي ينشرها نويمان أمام القارئ يسمح بالشك في قدرة النازية على القيام بوظيفتها بنجاح في دمج الجماهير في "النظام الجديد" على المدى الطويل. وما نجح به عند الطبقة العاملة لا بد من أن يصل إليه عند "الطبقات المُسَيطَر عليها" الأخرى.

جعل تحليل نويمان لعلاقة الحزب والدولة والجيش والاقتصاد الخلافَ بين بولوك وبينه يبدو في جزئه الجوهري نوعًا من السجال حول كلمات. وأشار التطور الذي عالجه نويمان بجلاء إلى الاتجاه الذي اختار له بولوك مصطلح "رأسمالية الدولة" غير الموفق. "سوف يصبح ممارسو العنف أكثر فأكثر رجال أعمال، ورجال الأعمال ممارسي عنف. وسيصبح كثير من كبار الصناعيين قادة كبار في الإس إس [...] وسوف يتسلم كثير من الإرهابيين مناصب صناعية ذات سلطة [...]، وبذلك يتأسس صعود ممارسي العنف في إضفاء الطابع الاحتكاري الأقوى الذي لم يبلغه أي مجتمع حديث من قبل. مجموعة صغيرة من احتكاريين أقوياء في الصناعة والمال والزراعة تمتزج على نحو متزايد مع

(74) Ibid., p. 499.

مجموعة من تراتبيات حزبية في تكتل واحد يمتلك وسائل الإنتاج ووسائل العنف"(75). هذا ما كان بولوك يستطيع أن يقوله تمامًا بمجرد أن يعكس تسلسل مفهومي "الإنتاج" و"العنف".

عندما رأى نويمان بعد ست سنوات - في مقالته المنشورة في عام 1950 بعنوان "مقاربات في دراسة السلطة السياسية" - أن السياسة تكسب في المجتمع الصناعي المتطور استقلالية أكبر مقارنة بالسلطة الاقتصادية، ويمكن هذه الاستقلالية أن تزداد في شروط محددة وصولًا إلى "سيادة السياسة"، بدا هذا وكأنه موافقة صريحة على الموقف الذي يدافع عنه بولوك بقوة ويختلف معه فيه هوركهايمر. "يمثل الاتحاد السوفياتي حالة حدية تُبين بوضوح أن السلطة السياسية لم تؤسس نفسها بوصفها سلطة عليا فحسب، بل أصبحت أيضًا أصل كل سلطة اقتصادية. من جانب آخر، هناك حالة خاصة تمثلها ألمانيا النازية. صحيح أن الحزب النازي وصل إلى السلطة عبر المساعدة السياسية والاقتصادية لكبار الصناعيين، إذ أمل هؤلاء في استخدام الحزب مطية لتحقيق مصالحهم الخاصة، غير أن الحزب فك نفسه بعد الاستيلاء على السلطة من الرقابة على الاقتصاد وغدا سلطة سياسية مستقلة [...]. بالتأكيد يمكن المرء أن [...] يفترض أنه كان يمكن النموذج السوفياتي أن يفرض نفسه لو لم يكن هناك حرب أو لو بقي النازيون منتصرين"(76).

لم يكن سوء فهم عندما لاحظ نويمان، في قراءته لمقدّمة هوركهايمر للعدد حول رأسمالية الدولة، أن الصياغات ممتازة، وتشبه كثيرًا الصياغات التي قدّمها هو نفسه في كتابه. أظهر كل منهما بالطريقة نفسها تشابك الظواهر وغموضها، والطابع المفارق للنظام الاشتراكي القومي [النازي]. وحاول كل منهما أن يفهم العقلانية اللاعقلانية، والدولة التي سُلبت منها الدولة، والشمولية الفوضوية للنظام. وضّح كلاهما - خلافًا لبولوك - هول هذا النظام، غير أن الفارق الأساسي كان في إصرار نويمان على الطابع الرأسمالي أساسًا للنظام

---

(75) Ibid., pp. 660 f.

(76) ذكر في مقدمة هلغه بروس (Helge Pross) لكتاب نويمان:
Franz Neumann, *Demokratischer und autoritärer Staat*, p. 25.

الاشتراكي القومي، واعتقد بذلك أنه دحض التصور بأن تشكيلة للمجتمع جديدة غير متوقعة وتحولًا أنثروبولوجيًا أساسيًا يتسللان أمام الاشتراكية، ثبت بموجبهما أنه جرى تجاوز كل آمال العقود الأخيرة. على العكس، دافع هوركهايمر عن نظرية الدولة التكاملية - سُمّيت لاحقًا: المجتمع المسيَّر - وعن "أنثروبولوجيا نقدية جديدة: نظرية اللاإنساني"[77]. بعد صدور كتاب **البهيموت**، رأى هوركهايمر في رسالة إلى نويمان ضمّنها ملاحظات نقديةً على الكتاب أنه "إذا كان هناك خلاف نظري حقيقي بيننا، فهو يخص التفاؤلية التي لا تبديها بالنظر إلى سؤال إدارة أفضل، بل أيضًا بالنظر إلى بعض القضايا الأعمق للمجتمع نفسه، مثل تضاد رأسمالية الدولة الكامن والعصي على الحل، تُضاف إليها موضوعات أنثروبولوجية، من بينها الموضوع المذكور في 'مذكرتكم المفتوحة'، أي استحالة الوجود الطويل الأمد لـ 'الشخصية المنفصمة'. إنني أفترض أن الفكرة المتفائلة عن تحطم الشخصية المنفصمة بوصفها نتاج آليات عمل الاشتراكية القومية لا تعكس تمامًا ما تفكر فيه حقيقة. إن انفصام الأنا في واقع الأمر - كما تعلم - هو إحدى الأطروحات الرئيسية في المقالة عن نهاية العقل[78]. إن ما يجري اليوم ليس سوى استهلاك لتوجّه انتشر في كل الحقبة الحديثة. لقد فُهم على أنه ليس داخل التراصف القديم الذي يجمع الحقيقة اللاهوتية والعلمية جنبًا إلى جنب فحسب، بل هو توجّهٌ شديد الأثر موجودٌ داخل التقسيم بين العمل وأوقات الفراغ، بين الأخلاق الشخصية ومبادئ العمل، بين الحياة الخاصة والعامة، وفي عدد لا يُحصى من الأوجه الأخرى للنظام القائم. ما تفعله الفاشية في ما يتعلق بالشخصية هو أنها تدير بوعي ومهارة انقطاعًا كان مبنيًا على أكثر الإواليات الأساسية في هذا المجتمع"[79]. يُستشف من هذا النقد موقف هوركهايمر الحقيقي من كتاب نويمان: كان غنيًا في مادته، وأفضل من كل ما نُشر حول هذا الموضوع، لكنه أخفق على المستوى النظري، لأنه أخطأ في اختيار الإشكالية "الثقافية-الأنثروبولوجية" الحاسمة.

(77) هوركهايمر، مسوّدة رسالة إلى لاسكي، آذار/ مارس 1941.

(78) مقالة هوركهايمر في العدد الأخير من مجلة **دراسات في الفلسفة والعلوم الاجتماعية**.

(79) رسالة من هوركهايمر إلى نويمان، 2 حزيران/ يونيو 1942.

اتهم نويمان منظّري رأسمالية الدولة بأنهم لم يستطيعوا اكتشاف الأسباب التي أدت إلى انهيار النظام الذي شخصوه، وزعم، من جهته، أن تناقضات الرأسمالية في ألمانيا تقع على مستوًى أعلى، ولهذا السبب فهي أكثر خطورةً مما هي عليه في أي مكان آخر. أما الحجج التي ساقها نويمان فكانت التناقضات المألوفة في النظرية الماركسية، وبالأحرى في النظرية النقدية. "يوجد تناقض أساسي بين إنتاجية الصناعة الألمانية وقدرتها على تحسين رفاه الناس وجهودهم الحقيقية؛ وهذا التناقض تزداد حدته باستمرار. وُضعت في الأعوام الثمانية الماضية آلة صناعية ضخمة متنامية باستمرار لأغراض تدميرية حصرًا. وكانت وعود النظام للجماهير معسولة حقًا، لكن نُكث بكثير منها، وتم التخلي عن جميع النقاط المهمة فعليًا من برنامج الحزب. يجب أن يشعر الجماهير بهذا التناقض، لأنهم ليسوا أطفالًا بلا خبرة، بل ينظرون بعقل مشبع إلى إرث طويل خلفهم، إرث حققته بعقل نقدي، وأوضح لهم أن الواقع الفاصل للحضارة الحديثة ما هو إلا هذا التناقض لاقتصاد بإمكانه أن يُنتج فائضًا لمصلحة الجميع. غير أنه لم يستخدم هذه القدرة إلا لأغراض التدمير"[80]. لم تكن هذه فكرة غريبةً على هوركهايمر ولا على بولوك؛ لكن الأمل المؤسَّس على هذه الفكرة بدا في غضون ذلك موضع تساؤل، ولم يُعززه تحليل نويمان في أي موضع. ينطبق هذا أيضًا على التناقضات الأخرى التي ذكرها نويمان، كالتناقض بين الطابع السحري للدعاية والعقلانية الكاملة، وبين نزع شخصنة المجتمع وافتراضه الذي يستند إلى مراقب الأحداث في ألمانيا النازية بأن الأمر وصل هناك إلى مرحلة "بات يُنظر فيها إلى تقديس القائد والجماعة على أنه في الواقع هراء"[81]. قيام ذلك التجاور بوظيفته بدا من السمات البارزة في نظام الحكم النازي.

لاحظ جميع أعضاء حلقة هوركهايمر الفجوات "بين ما هو ممكن وما هو واقعي"[82]. من هنا كان السؤال: هل أُشبعت الجماهير إلى حد جعلها لا تقبل لمدة طويلة ما هو واقعي؟ يُضاف إلى ذلك أن نويمان لم يستطع إلا أن

(80) Ibid., p. 536 f.

(81) Ibid., p. 545.

(82) Ibid., p. 546.

يقول: "لو كنا نظن أن الإنسان سيئ بطبيعته، وأن الأنوية هي غريزته الوحيدة، لبدا الأمر عندئذ مظلمًا نوعًا ما. لكن الإنسان ليس شريرًا وليس صالحًا، بل إنه مطبوع بتجربته الثقافية والسياسية"[83]. غير أن هذه التجربة الثقافية والسياسية هي التي مكّنت الاشتراكية القومية، في رأي نويمان الخاص، من الاستيلاء على السلطة من دون مقاومة عمليًا. ومنذ ذلك الوقت، كانت الفاشية هي "التجربة الثقافية والسياسية" الموسومة.

مكّن فهمٌ ماركسي أرثوذكسي نويمان من القيام بتحليل مادي غير مسبوق للاشتراكية القومية، لم يترك مجالًا لآمال اشتراكية، ولم يساعد موظفي الحكومة الأميركية على فهم طريقة عمل النظام الاشتراكي القومي، ولا على تقدير مدى الأهمية والمسؤولية التي تقع على عاتق مختلف حملة الأدوار.

متابعة الطريق نحو شعبة علماء مستقلين في لوس أنجلس ونحو ما تبقى من المعهد في نيويورك - فراق نويمان وماركوزه معًا

مضى بعض الوقت على وصول هوركهايمر إلى لوس أنجلس في الغرب في نيسان/ أبريل 1941، وكان قد بلغ السادسة والأربعين من عمره، قبل أن يبدأ العمل على كتابه الفلسفي النظري الأول. نزل هو وزوجته في منزل من طبقة واحدة بُني وفقًا لطلبه، وكان فيه مكان لبولوك أيضًا. باسيفيك باليسيدز (Pacific Palisades) هي منطقة تظللها الخضرة وفيها فيلات ومنازل من طبقة واحدة، غير بعيدة من هوليوود، بين لوس أنجلس والبحر. وكان يسكن في جوار هوركهايمر مهاجران ثريان هما توماس مان وليون فوْيشتفانغر. تشكلت في هوليوود ومحيطها جاليةٌ من المهاجرين الألمان، جاء معظمهم بسبب هوليوود، من بينهم ممثلون وكتاب وموسيقيون، كانوا يأملون العمل في صناعة السينما أو في أعمال مشابهة. ساعدت شركات الإنتاج السينمائي، مثل إم جي إم (MGM) وشركة الإخوة وارنر (Warner Brothers)، من خلال توقيعها عقودًا وهمية مع مجموعة كاملة من الكتاب - مثل هاينريش مان - في حصولهم على تأشيرات

---

(83) Ibid., p. 547.

دخول، وأسهمت في تأمين دخول تضمن لهم العيش، على الأقل في المرحلة الأولى. وصدق القول على كثيرين منهم: "التشرد إلى الفردوس". كتب لودفيغ ماركوزه مستعيدًا ذكرياته: "هنا جلست في قلب جمهورية فايمار مع راينهارت ويسنر وكورتنر ودويتش، ومع توماس مان وبرتهولد فيرتل وبرونو فرانك [...]. وفي كل عام كان يصل المزيد من الأدب والأدباء، بحيث أصبحنا بالعدد الكامل الذي كنا فيه في ساناري قبل مدة قصيرة. لا يشعر المرء بالغربة كثيرًا مع الغرباء الأصدقاء الذين من حولنا. وحتى حين لم يكن بعضهم أصدقاء، فهم، على الأقل، لم يكونوا خصومًا. نادرًا ما فكرت بأن هناك أميركيين أيضًا في هذا المكان؛ كما أنني لم أجد الفقير في لوس أنجلس فقيرًا تمامًا مثلما هو في نيويورك"[84]. جاء بريخت أيضًا إلى لوس أنجلس في تموز/ يوليو، قادمًا عبر موسكو وسيبيريا ومانيلا. نصحه فويشتفانغر بالمكوث هنا، لأن بإمكان المرء أن يعيش في لوس أنجلس بتكلفة أقل مقارنة بنيويورك. بقي بريخت، وأقام في البيت الذي استأجره له بعض الأصدقاء. كانت التجارب التي عاشها بريخت مع صناعة الأفلام السينمائية في هوليوود محبطة لآماله وآمال كثير من المهاجرين. في ربيع 1942، جاء أيضًا أيزلر إلى لوس أنجلس قادمًا من نيويورك، بسبب هوليوود. كان شونبرغ يعيش هناك منذ عام 1934، كان مؤلفًا موسيقيًا بلا جمهور، وأستاذًا ذا كرسي في جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلس، يَدْرس طلبتُه الموسيقى غالبًا كمادة إضافية لا أكثر. وكان هوركهايمر أيضًا، مع كل تحفظه وعزلته في منزله العائلي، جزءًا من هذه الجالية المهاجرة[85].

أحدث البلبلةَ والاضطراب وصولُ ماركوزه وعائلته في أيار/ مايو وحزيران/ يونيو وإقامتهما هناك، وكذلك مجيء بولوك وعائلته في تموز/ يوليو، إضافة إلى أمور أخرى، منها العمل على إنجاز المساهمات للعدد الخاص عن رأسمالية الدولة من مجلة **دراسات في الفلسفة والعلوم الاجتماعية**. اقتصر العمل على مشروع كتاب **الجدل**، كالسابق، على أعمال تحضيرية، كالمخطط

(84) Ludwig Marcuse, *Mein Zwanzigstes Jahrhundert*, p. 267.

(85) يُراجع بخصوص حلقات البحث التي أقيمت في صيف 1942، والتي جُمعت في بعض المرات أعضاء حلقتي هوركهايمر وبريخت، محاضر النقاش والملاحظة التمهيدية في:
Horkheimer, *Gesammelte Schriften*, vol. 12, pp. 559 ff.

والملاحظات. على هذا النحو سارت الأمور مؤقتًا. في شهر آب/ أغسطس، كتب هوركهايمر إلى لوفنتال: "للأسف، ألهتني في الأسابيع الماضية أمورٌ كثيرة. أتوقع أن يتغير هذا الوضع في النصف الأول من شهر أيلول/ سبتمبر. إجمالًا، أنا سعيد للغاية وأكرس حياتي للعمل حصرًا، ولا أشغل نفسي بأي شيء آخر. لا، بل تتراجع الظروف الخارجية، سواء ظروفنا الخاصة أو الظروف العامة، إزاء الإشكاليات الخاصة التي تتعلق بالدراسات التمهيدية وبالملاحظات الأولى [...]. لا أريد أن أسترسل في الكلام عن أي شيء بالمراسلة، لأن هذا يبدو لي على الدوام عابرًا ومشوّهًا جدًا، لكني أعتقد أنني أسير على الطريق الصحيح. في حال بقي عندي وقت في السنوات القادمة أكرّسه للعمل العلمي، فسأعتبر أن قدومي إلى الساحل الغربي كان الحل الصائب بالتأكيد. أشعر بأنني في أوج الفرح حينما أفكر بذلك. ملاحظة إضافية: الطبيعة في جنوب كاليفورنيا أجمل، والمناخ ملائمٌ أكثر مما يستطيع المرء تخيّله"(86).

بعد ثلاثة أيام هنَّأَ هوركهايمر نويمان بمناسبة إنهائه كتاب **البهيموت** بعبارات تشهد، فضلًا عن إطراء قدرته والإشارة إلى وعيه رسالتَه، على جهوده للحصول من المعهد على رضى الذين يراد التحرر من مطالبهم المالية. كثيرًا ما أوهمت له حلقته الداخلية بوجود مؤامرة يدبّرها فروم وفيتفوغل وغروسمان وآخرون ممن أصيبوا بخيبة أمل من المعهد، ومنهم من لم ينجح في عملية تحرير نفسه من المطالب المالية من دون أن يُثير خلافًا؛ انضم إلى هؤلاء نويمان وكيرشهايمر وغورلاند. أتاح إنهاء نويمان لمخطوط كتابه فرصةً سانحة لتنظيم هذه العلاقة على نحو نهائي. إلا أن نويمان كان يمثّل دائمًا مسألة حساسة بالنسبة إلى مديري المعهد. فقد أكد هوركهايمر في تشرين الأول/ أكتوبر 1941 في رسالة بعث بها إلى لوفنتال، أن نويمان يتحمل في الوقت الحالي العبء الأكبر من الأعمال العلمية في نيويورك ومن الجهود المبذولة لتأمين فرص جديدة في جامعة كولومبيا ولدى المؤسسات المانحة. لو نجح أي جهد من هذه الجهود، على عكس كل التوقعات، لأصبح نويمان من دون أدنى شك مدير فرع المعهد في نيويورك. لكن أُجّل البت في أمر هذه العلاقة مرةً أخرى خوفًا من المساومة.

---

(86) رسالة من هوركهايمر إلى لوفنتال، 27 آب/ أغسطس 1941.

في كانون الثاني/يناير 1942 - بعد أن قطعت الحلقة الأقرب إلى هوركهايمر الأمل نهائيًا في الحصول على منح، وبعد أن تأكد أيضًا أن قسم علم الاجتماع في جامعة كولومبيا لن يُدرِج من اقتراحات المعهد لمحاضرات الكلية سوى محاضرة نويمان - طلب بولوك من نويمان أن يوقع على تصريح يفيد أنه لن تكون له أي حقوق يطالب بها المعهد بعد 30 أيلول/ سبتمبر 1942. احتج نويمان لدى هوركهايمر؛ فهو لم يكن يدري (كان يعرف القليل عن طريقة عمل إدارة المعهد) أن هوركهايمر نفسه هو الذي كان قد ألحّ في تشرين الأول/ أكتوبر 1941 على تنفيذ تلك الاتفاقية. غير أن هوركهايمر نصحه بأن يوقع التصريح. "أعلم جيدًا أن السنوات الأخيرة التي تدهور فيها وضع المعهد المالي من سيئ إلى أسوأ شهدت بعض التباين في الآراء، وكنا نحن في ما عدا ذلك في وضع منهك للأعصاب. كنتُ دائمَ الامتنان للطريقة المخلصة التي كنتم تستجيبون فيها في ظل ظروف كهذه. كان وقع انتقالنا إلى هنا حادًا، وأنتم لم تكونوا موافقين عليه في أي وقت. وأنا عندما تجاهلت التحفظات المحقة، أطلب منكم الآن أن تصدقوا أنه كان لدي بضع وجهات نظر في هذا الخصوص، يمكن أن تصمد فعلًا بوجه النقد. أما من كان على حق، فهذا ما سوف يتضح في المستقبل.

ظن بولوك، على ما يبدو، أنه ملزم أمام المعهد وأمام نفسه أن يوضح في لحظة كان يُفترض بكم أن تكونوا رسميًا ممثلنا في الكلية، وأن خدمات المعهد المالية يجب أن تقوم في السنة المقبلة على أساس طوعي [...]. في كل سنة، كانت مسألة تمويلكم من مصدر آخر موضع نقاش بيننا، يقينًا ليس لأنكم أقل أهمية بالنسبة إلى المعهد من الآخرين، بل لأننا كنا نشعر بمسؤولية أكبر تجاه هذه المسألة. وكنا بعدئذ نبذل على الدوام كل ما في وسعنا لتأمين دخول جديدة، ووقفنا إلى جانبكم على الرغم من غيابكم. أعتقد أنه يجب فهم مطلب بولوك بأن تمديد المواعيد لم يأت من أي إلزام، بل من احترام خدماتكم، ومما يربط بعضنا ببعض نظريًا، ومن فهم الصعوبات الراهنة في أميركا". لو حاول نويمان الحصول على حقوقه، لما أضر ذلك بالمعهد فحسب، بل لما أتى بالنفع عليه هو إلا من حيث بعض الفائدة من المحاضرات ومما كان على المعهد أن يقدمه له. "أعرف أنه بإمكاننا أن نحصل معًا على أكثر مما تستطيعون الحصول

عليه بمفردكم في حال عمل أحدنا ضد الآخر [...]، ويصعب علي أن أتصور جماعةً تستطيعون أنتم أن تكونوا عضوًا فيها في المستقبل، وتكون تجاهكم أكثر إيجابية منا، وهذا ما أسمح لنفسي بقوله نيابةً عن الجميع وباسمي آخرًا وليس أخيرًا"[87].

بعد نحو ثلاثة أشهر، تقدم نويمان الذي كان لفترة وجيزة قد فقد الأمل بوظيفة جامعية يستطيع العيش منها، بطلب إلى الهيئة الاقتصادية للعمليات الحربية، ونجح في الحصول على وظيفة. في وقت متأخر من صيف 1941، توجّه نحو المعهد وليام جوزف دونافان، المعروف باسم "بيل البري"، الذي أنشأ مكتب منسق المعلومات الذي تطور لاحقًا إلى مكتب الخدمات الاستراتيجية، بهدف توظيف نويمان وهوركهايمر فيه، بوصفهما أفضل العارفين بأدبيات الصحف الاشتراكية القومية. بعد هجوم اليابانيين على بيرل هاربر في كانون الأول/ ديسمبر 1941، وبعد إعلان اليابان وألمانيا وإيطاليا الحرب على الولايات المتحدة، أصبحت الولايات المتحدة قائدة الحرب، وانتُظِر من الأكاديميين والمثقفين المساهمة في الجهود الحربية، وتوفرت في ذلك الوقت في مقر الحكومة وظائف كثيرة لأناس مؤهلين علميًا. سُمّي نويمان رئيسًا لمستشاري الهيئة الاقتصادية للعمليات الحربية، فكان بذلك أول من خفف عن المعهد الأعباء المالية بحصوله على وظيفة في واشنطن من بين أعضاء المعهد، وكان عمله، في الوقت ذاته، أول مجهود حربي يقدمه المعهد. في تموز/ يوليو 1942، هنأ هوركهايمر نويمان على وظيفة كبير اقتصاديي قسم المعلومات في مكتب رئيس الأركان: "أكثر ما يُسعدني هو أن الوظيفة تمنحني الشعور بأن المعرفة، كما نفهمها، تستطيع أن تنافس في الميدان العملي، وهذا هو ما يجب أن تقدمه المدرسة الجديدة"[88].

تواصل تعاون نويمان مع المعهد مؤقتًا. وهكذا أسهم نشاطه في خريف 1942 بصورة أساسية في التأثير في قرار اللجنة اليهودية الأميركية التي وافقت على دعم مشروع المعهد، أي مشروع معاداة السامية. لكن عندما اقترح نويمان

---

(87) رسالة من هوركهايمر إلى نويمان، 1 شباط/ فبراير 1942.

(88) رسالة من هوركهايمر إلى نويمان، 8 تموز/ يوليو 1942.

أن يتابع العمل في المعهد في إطار المشروع - إما بأجر 1200 دولار سنويًا في مقابل استشارات يُقدمها في نهاية الأسبوع، أو بأجر 2400 دولار في السنة لقاء مشاركة نصف أسبوعية - تحفّظ هوركهايمر على ذلك، لأن المشروع لا يشكل في رأيه أرضية مضمونة للمستقبل، ولم يكن من المؤكد إن كان هذا المشروع سيوسَّع أم ستطول مدة العمل عليه. كان هوركهايمر سيتصرف بعدم مسؤولية تجاه نويمان وتجاه المعهد في ما لو شجعه على التخلي عن الحل الأمثل من الناحية المالية، أي عن الوظيفة بدوام كامل في واشنطن. منذئذ قلّ التواصل بين الرجلين، لكن لم ينقطع تمامًا. كتب نويمان إلى هوركهايمر في آذار/ مارس 1946، بعد لقاء ببولوك، أنه يفضل العودة إلى المعهد لكي يستطيع أن يعمل لنفسه مرة أخرى.

وما الذي حصل لماركوزه الذي عمل مع هوركهايمر عن قرب أكثر بكثير من نويمان، وكان أيضًا مخلصًا له شخصيًا أكثر، وفضلًا عن ذلك كان أول من لحق به مع عائلته إلى الساحل الغربي في أيار/ مايو 1941؟ كان وصول ماركوزه إلى لوس أنجلس هو ما حدا بهوركهايمر للكتابة إلى بولوك بأن مرتبه يجب أن يقلص بأسرع ما يمكن من 330 دولارًا إلى 280 دولارًا، وأنه وضّح لماركوزه أن مرتبه سيكون 300 دولار في الشهر القادم، وأن ما سيحدث لاحقًا، يتعلق بالوضع العام وباتفاقه، أي هوركهايمر، مع بولوك.

انتقل ماركوزه إلى بيت مستأجر في سانتا مونيكا، بالقرب من باسيفيك باليسيدز. نصحه هوركهايمر بشراء بيت، لكن الالتزامات المالية التي تترتب أثنته عن ذلك، ولا سيما بعد أن علم بتخفيض مرتبه، وبعد القلق الذي ساوره بصدد وضع دخله في المستقبل. وجد هوركهايمر، أن المنزل في ناحية الأساتذة في سانتا مونيكا الذي قرر ماركوزه أن يسكن فيه ملائم جدًا لأغراض المعهد. كتب إلى بولوك: "في هذا المنزل، يستطيع ماركوزه أن يُعِدّ مكتبًا حسب الأصول، ويضع مكتبةً، ويعقد حلقات بحث. لا بل بإمكان غروسمان أن يسكن فيه [...]. نستطيع أن نعلّق على الباب لافتةً نكتب عليها: معهد البحث الاجتماعي، مكتب لوس أنجلس، مع أن المعهد في سانتا مونيكا"[89]. توقّع هوركهايمر أن يصل إلى لوس

(89) رسالة من هوركهايمر إلى بولوك، 22 حزيران/ يونيو 1941.

أنجلس، إضافة إلى أدورنو وبولوك وماركوزه ولوفنتال وربما كيرشهايمر أيضًا، كمساعدين يتلقون من المعهد أجورًا دنيا، وليست لهم مطالب ثابتة، كما كان الحال حتى الآن. وتوقع هوركهايمر، فضلًا عن ذلك، إقامة صلة مع الجامعات في كاليفورنيا تمهد الأرضية لوظائف أكاديمية. لكن كل شيء بدا وهمًا، وكان الأمر يتبدى على الدوام بصورة مختلفة في الرسائل المتبادلة واللقاءات.

لم يبدأ هوركهايمر وماركوزه العمل المشترك على كتاب **الجدل** مباشرة. في تلك الأثناء، قرر هوركهايمر تكريس العدد الثالث من مجلة **دراسات في الفلسفة والعلوم الاجتماعية** في عام 1941 للفلسفة بدلًا من الرأي العام، لأن هذا كان أقل خطرًا بالنظر إلى الظروف آنذاك. لذلك اتفق هوركهايمر وماركوزه أن يكتب كل منهما مقالةً حول التقدم مع التنسيق بينهما. وأكد هوركهايمر لأدورنو: "سوف أحرص على الاحتفاظ بالقضايا الحاسمة المتقطعة في أطروحات بنيامين[90]. وكما أرى الآن، يجب أن تُعالِج مقالة ماركوزه أولًا موضوع أيديولوجية التقدم وعلاقتها بتطور الفرد، في حين تركز مقالتي على التقانة وعلم النفس التجريبي"[91]. يجب على ماركوزه، إخلاصًا لتقسيم العمل الذي أصبح في غضون ذلك تقليدًا، أن يأخذ القسم المتعلق بتاريخ الأفكار. لكن في سياق حديثه مع ماركوزه، ظهر لدى هوركهايمر الاهتمام بتحليل مبدئي نظري للعلاقة بين العقل والتقدم. أخذ هوركهايمر مهمة كتابة مقالة عن "العقل"، وأوكل إلى ماركوزه معالجة موضوع التقانة.

وجد كلاهما صعوبات جمّة في كتابة مقالته، في حين نجحت استراتيجية وضع ماركوزه تحت ضغط مالي يحثّه على أن يبحث عن عمل يسمح له بالعمل للمعهد من دون مطالب مالية تستحق الذكر. لم يلح هوركهايمر وحده، بل ألحّ ماركوزه أيضًا، على السفر إلى نيويورك، ليكونا هناك في المباحثات تحت تصرف ماكيفر الذي كان يكنّ لماركوزه تقديرًا استثنائيًا، وكي يسهما في انطلاقة جيدة للجهود التي تُبذل بهدف الحصول على محاضرات لأعضاء المعهد في القسم الذي يرأسه. إذا كان لماركوزه أن يحصل على فرص أكاديمية عمومًا، فلن

(90) **في مفهوم التاريخ.**

(91) رسالة من هوركهايمر إلى أدورنو، 4 آب/ أغسطس 1941.

يحظى بها في جامعات كاليفورنيا الرجعية إلى حد بعيد، بل في جامعة كولومبيا، حيث كان هو الأكثر تقديرًا بين الأعضاء العاملين في المعهد بعد نويمان. على الرغم من أن معهد البحث الاجتماعي لم يسعَ جهده قط لتحقيق تعاون جدي مع أساتذة جامعة كولومبيا، وبقي كتابًا مستغلقًا حتى لذوي النيات الحسنة منهم، فإن ماركوزه كعضو في المعهد لم يكن يقترب منهم إلا بوصفه فردًا. من وجهة نظره، كان هذا يؤكد الحاجة الملحة إلى نجاح مبكر في المفاوضات عندما كتب هوركهايمر من باسيفيك باليسيدز إليه وإلى بولوك ولوفنتال: "يجب أن نظهر أيضًا لهؤلاء الناس[92] من نحن: أشخاص يتابع كل واحد منهم البحث في الأفكار النظرية التي تشغله، وإننا أشخاص من الطبيعي أن يؤثر بعضهم في بعض، ونعمل معًا أيضًا، كما يمكن أن يحصل الآن، على سبيل المثال، في مسألة معاداة السامية. مفهوم المعهد هنا - كما نرى - يتطابق مع مفهوم الوَقْف أو المؤسسة أكثر بكثير منه مع مفهوم المعهد؛ ولأننا شجعنا سوء الفهم هذا بسبب التهذيب حينًا، وبسبب المصلحة حينًا آخر، لذلك يجب علينا الآن، في حال فشلت مختلف المباحثات الجارية، أن نوضح موقفنا بما لا يدع مجالًا للشك وبوضوح كاف لنتجنّب أي خلاف مستقبلي في هذا الاتجاه"[93].

تقدمت مسألة جامعة كولومبيا ببطء. واشتغل ماركوزه على مقالته بصورة متقطعة؛ إذ تكيّف مع إقامة قصيرة في نيويورك، فكان يمضي الليل أحيانًا على أريكة في المعهد، تتجاذبه بتأثير هوركهايمر المتأرجح تارة فكرة العودة، وتارة أخرى فكرة البقاء. شارك ماركوزه بطلب من بولوك بمحاضرة عنوانها "الدولة والفرد تحت حكم الاشتراكية القومية"، في إطار سلسلة محاضرات المعهد في القسم التابع لجامعة كولومبيا. بعد محاضرة ماركوزه الافتتاحية، ألقى غورلاند محاضرة عن "الملكية الخاصة في ظل الاشتراكية القومية"، ثم ألقى نويمان محاضرة "الحكام الجدد في ألمانيا"، وتبعه كيرشهايمر بمحاضرة "القانون والعدالة تحت حكم الاشتراكية القومية"، وألقى بعد ذلك بولوك محاضرة بعنوان "هل الاشتراكية القومية نظام اجتماعي واقتصادي جديد؟".

---

(92) في جامعة كولومبيا.

(93) رسالة من هوركهايمر إلى ماركوزه، 17 تشرين الأول/ أكتوبر 1941؛ يُقارَن ص 354 وما بعدها من هذا الكتاب.

لم يتحقق مشروع نشر هذه المحاضرات في كتاب يُمثل مساهمة المعهد في المجهود الحربي. ونُشر بدلًا منه العدد "الفلسفي" الذي أُعد حول الاشتراكية القومية، وضم إلى جانب مقالة هوركهايمر عن العقل ومقالة أدورنو "هجوم فيبلن على الثقافة" الصياغات المعمقة للمحاضرات الثلاث لماركوزه وكيرشهايمر وبولوك. كتب هوركهايمر إلى ماركوزه يقول: "لن يكون صعبًا على الإطلاق وضع مقالتي عن العقل في إطار الاشتراكية القومية، أنا أعالج هذا الموضوع فعلًا على أنه انتصار للعقل الذي تطهّر بالشك"[94]. وكتب إليه مجددًا بعد مدة وجيزة: "تسلسل أفكاري بسيط للغاية: يبدو أن العقل قد تعرض لتشويه سمعته في الفاشية. هذا ليس صحيحًا. فهو أزال بالكامل المقولات الميتافيزيقية التي كانت مرتبطةً بالعقلانية. لقد كان العقل دائمًا أداة الحفاظ على الذات، وعليه تأسست الفاشية بالمعنى الوحشي للكلمة. لكن في الفاشية سقط آخر وهم عقلاني، وسقطت الأنا المنظمة على امتداد الحياة والوحدة التركيبية للشخص. الأنا تتقلص. وتتطابق النزعة نحو التقلص مع عملية نزع ملكية الطبقة البرجوازية الوسطى. النهاية المنطقية هي انهيار الثقافة، كما تنبأ بها ساد ونيتشه من قبل. تعقب تلك النهاية لحظةُ تفكير في إمكانيات وقف الانهيار من خلال الإرهاب، وانتظار تحول الحفاظ الفردي على الذات إلى تضامن شامل"[95].

عندما عاد ماركوزه إلى لوس أنجلس في كانون الثاني/ يناير 1942 ليُقيم بشكل دائم، بدا وكأن الآمال التي عُقدت على محاضرات في جامعة كولومبيا قد تبخّرت، وتبخّرت معها أيضًا فرص الحصول على منح للمشاريع. تقلصت، بدخول الولايات المتحدة الأميركية الحرب ومن خلال التغيرات في حياة الجامعات، فرص الحصول على وظائف أكاديمية ثابتة أكثر من أي وقت مضى، حتى للأجانب الحاصلين على الجنسية الأميركية. لكن هوركهايمر الذي عاد إليه ماركوزه كان منشغلًا مع أدورنو آنئذ بإعداد مخطوط من ثلاثين صفحة من مشروع مقالته حول العقل، ذلك "المشروع الفوضوي الذي لا يمكن فهمه"[96]،

(94) رسالة من هوركهايمر إلى ماركوزه، 26 تشرين الثاني/ نوفمبر 1941.

(95) رسالة من هوركهايمر إلى ماركوزه، 6 كانون الأول/ ديسمبر 1941.

(96) رسالة من هوركهايمر إلى لوفنتال، 11 شباط/ فبراير 1942.

والذي تبلغ صفحاته المئة. وكان هوركهايمر قد افتتن قبل أشهر عدة بمخطوط أدورنو **عن فلسفة الموسيقى الجديدة**، إلى حد أنه كتب إليه: "لو شعرت في أي يوم من حياتي بالحماسة، فسيكون يوم قرأتُ هذه المخطوطة [...]. سوف يكون هذا العمل أساس جهودنا المشتركة وإلى أبعد الحدود"[97]. كان العمل المشترك مع أدورنو وثيق الصلة في هذه المقالة، إلى حد أن هوركهايمر كان ينوي نشرها باسميهما. غير أن المقالة نُشرت في نهاية الأمر باسم هوركهايمر وحده في ترجمة إنكليزية في مجلة **دراسات في الفلسفة والعلوم الاجتماعية** بعنوان "نهاية العقل"، ثم نُشرت لاحقًا بالألمانية بصياغة جريئة تحت عنوان "العقل والحفاظ على الذات" في المجلد الذي كُرّس لذكرى بنيامين. بدت المقالة وكأنها نوع من عرض لـ "كتاب **الجدل**" للاثنين معًا.

بقيت مقالة ماركوزه "بعض النتائج الاجتماعية للتقانة الحديثة" في المسارات المعروفة والخصبة التي ميّزت في الثلاثينيات مقالات **مجلة الأبحاث الاجتماعية**، وختمت بنظرية الفوضى المثالية المألوفة في اليوتوبيا الماركوزية. قام ماركوزه بتقويم إحلال "العقلانية التقنية" - مصطلح استخدمه كلٌ من كيرشهايمر ونويمان - لعصر سلطة اقتصادية عالية التركيز وتقانة عالية التطور محل "العقلانية الفردية" للعصر الليبرالي؛ أي من خلال تكيُّف الفرد مع الآلة والكفاءة والتجهيزات. وقد بدا له أن التقدم والعقلنة ليسا ما تُخشى عواقبهما، بل "الشكل الخاص [...] الذي تُنظَّم فيه العملية التقنية"[98]. أفسد الاندماج بمصالح السلطة التقدم التقني. قد تحمي بيروقراطية عامة، مراقبة ديمقراطيًا، على العكس من البيروقراطية الخاصة، من سوء استخدام التقانة، وتبرهن على أن المكننة والنمذجة المعيارية وسيلتان للتحرر من الهموم المتعلقة بالضرورات المادية. عندئذ، قد تنشأ صيغ جديدة من الفردية، نوع من الفردية "الطبيعية".

في المقابل، بدت مقالة هوركهايمر عن العقل غير مألوفة إلى حد بعيد، وأكثر إلحاحًا وراديكالية؛ فقد تصوَّر هوركهايمر أن العقل يدمّر نفسه وعنده

---

(97) رسالة من هوركهايمر إلى أدورنو، 28 آب/ أغسطس 1941.

(98) *Studies in Philosophy and Social Sciences* (1941), p. 430.

أن هذا التدمير لا يرحم، بل يقضي على العقل، معتبرًا هذه المقالة نوعًا من خاتمة لأعماله السابقة، وتمهيدًا لطرح تساؤلات أساسية جديدة[99]. وقد شارك ماركوزه بادئ الأمر في إعداد تلك التساؤلات. "يعمل أدورنو على ثقافة الجماهير، وماركوزه على اللغة، وأنا أعمل على فكرة التنوير"، هذا ما ورد في رسالة هوركهايمر إلى كيرشهايمر في آب/ أغسطس 1942. "القطاعات الثلاثة وثيقة الارتباط في ما بينها طبعًا"[100].

كان يُفترض، بحسب الخطة، أن تُنشر النتائج الأولى لهذه الأعمال في كتاب سنوي. توقفت مجلة **دراسات في الفلسفة والعلوم الاجتماعية** عن الظهور تحديدًا بعد الإصدار المتأخر لعدد المجلة الخاص حول الاشتراكية القومية. وكان دخول الولايات المتحدة الأميركية الحرب والاعتبارات المالية مجرد أسباب إضافية لذلك. كان السبب الأساسي يكمن في أن هوركهايمر اقتنع بأن المجلة في صيغتها الحالية تنازل، وما عادت متفِقة مع مقاصده منها. كان من المفترض بحسب الإعلان في العدد الأخير من مجلة **دراسات في الفلسفة والعلوم الاجتماعية** أن يصدر كتاب سنوي عن فترة الحرب. اتُّبعت هذه الخطة بجدية، وكان هوركهايمر يلح على كيرشهايمر ونويمان المرة بعد الأخرى كي يسلم كل منهما مساهمته في نظرية عصابات المجتمع[101] التي اقترحها هوركهايمر موضوعًا، وقد أعاق تحقيق ذلك أيضًا اضطرار مساعدين مهمين في المعهد للذهاب إلى واشنطن لشغل وظائف بدوام كامل، لم تترك لهما الوقت الكافي لإنجاز مساهمتيهما المنتظرتين في أوانه، بعد أن فُرضت عليهما قيود إضافة إلى قيد ضيق الوقت. كان يُفترض أن يُنشر لماركوزه في الكتاب السنوي مقالة يتابع فيها أفكاره الواردة في آخر مساهمة له في مجلة **دراسات في الفلسفة والعلوم الاجتماعية** حول "التفكير الإجرائي والسيطرة الاجتماعية". إلا أنه لم يستطع أن يُنهي هذه المقالة، التي هي تمهيد لكتابه **الإنسان ذو البعد الواحد**. وفشلُ مشروع الكتاب السنوي أيضًا سبَّب عدم ذكر ماركوزه كمساعد في مشروع الجدل.

---

(99) رسالة من هوركهايمر إلى ماركوزه، 6 كانون الأول/ ديسمبر 1941.

(100) رسالة من هوركهايمر إلى كيرشهايمر، 16 آب/ أغسطس 1942.

(101) يُنظر ص 446 وما بعدها في هذا الكتاب.

في خريف 1942 كانت استراتيجية التجويع المالية التي اتبعها مديرو المعهد قاسية إلى حد حملت ماركوزه على البحث بكل الوسائل عن مصدر مالي إضافي. ولأن نويمان وجد فرص عمل مضمونة في مواقع حكومية في واشنطن له ولعاملين آخرين في المعهد، انتاب الخوف ماركوزه من أن يُساق إلى الخدمة الحربية لعدم انشغاله بأمور حربية مهمة، فسافر إلى واشنطن على أمل أن يجد عملًا في سانتا مونيكا يوفر له لقمة عيشه، ويسمح له بمواصلة العمل مع هوركهايمر. لكنه ما كاد يصل إلى الشرق، حتى تحفز من فوره للعمل المعمق على مشروع معاداة السامية في نيويورك الذي كانت اللجنة اليهودية الأميركية قد وافقت مبدئيًا، في غضون ذلك، على دعمه.

في 10 تشرين الثاني/نوفمبر 1942، وصلت إلى هوركهايمر في لوس أنجلس برقية من ماركوزه جاء فيها: "يعرض مكتب أخبار الحرب منصبًا في واشنطن براتب 4600 دولار. سأُعلمهم بقراري في مدة أقصاها يوم الأربعاء القادم. موقفي لم يتغير. من القلب [...] ماركوزه 4600 دولار". وفي اليوم التالي أرسل ماركوزه رسالةً إلى هوركهايمر يقول فيها إن عمله سيكون حكمًا في واشنطن، لأن من أدوات عمله: أشرطة مصورة [ميكروفيلم] عن الصحف الأوروبية، وبث إذاعي على الموجة القصيرة وتقارير قنصليات، وهذه لا تتوفر إلا داخل المراكز الحكومية. وستكون مهمته تقديم مقترحات عن صورة العدو في الصحافة والأفلام والدعاية، وما إلى هنالك. "وافق جميع الرؤساء على التعيين، ومع ذلك لا بد من أن يمر التعيين عبر روتين مكتب شؤون الموظفين، ومن خلال مكتب التحقيقات الفدرالي (FBI). ويبدو، لسوء الحظ، أن الموضوع سيمرّ هناك بلا أدنى شك، وسوف تتم الموافقة على تعييني [...]. وكما أخبرتك سابقًا، لن أقبل عرض العمل هناك. أعتقد أنني أستطيع أن أرفض هذا العرض من دون أن يلحق بي أذى، ومن دون أن أُعطي انطباعًا سيئًا (يُفهم منه أنني أرفض المساهمة في المجهود الحربي). يكفي أن أقول: أريد أولًا أن أُكمل دراساتي في لوس أنجلس التي هي مجموعة دراسات لا تقل إلحاحًا من حيث الأهمية عن المجهود الحربي. وبما أنهم يريدونني أن أباشر العمل بأسرع وقت ممكن (حتى قبل استكمال الإجراءات الشكلية)، فإن هذا سوف ينهي المفاوضات". لكن بولوك حذّره من قرارات متعجلة؛ إذ إن ميزانية

المعهد لا تكفي لأكثر من سنتين إلى ثلاث سنوات في أقصى تقدير. يمكن أن يكون مستقبله، أي مستقبل ماركوزه، مهددًا[102].

عندما كتب رسالته، كان رد هوركهايمر على البرقية في الطريق. "قُمتَ بهذه الرحلة، لأنك تعرف جيدًا أنك إن لم تكن ملتزمًا، ستكون في الحال عاجزًا عن القيام بعملك معي هنا. وإذا بقيت الأمور على ما هي، يبدو لي أن المنصب هو الطريق الوحيد الذي يُنقذك مما كنت تخشاه"[103]. لا يسمح وضع المعهد المالي في أوقات كهذه برفض منصب مقبول فعليًا، ولا سيما أن هذه الفرصة تُساعد في اكتساب معارف وقدرات يمكن أن تكون مفيدةً للمعهد ذات يوم. بالطبع، خيّب قرار ماركوزه أمله في إنهاء عمله في لوس أنجلس، أو على الأقل في إيقافه لمدة غير محددة. "الفلسفة عملية بطيئة جدًا، ولا أرى أحدًا، باستثنائنا أنت وأنا، لديه التقليد الصحيح والتجربة والحب التي يمكنها أن تبرر المخاطر العملية الكبيرة المتصلة بما أقوم به في هذه الأيام. عندما عدت من رحلتي، كان لدي بشكل خاص شعور طيب بشأن التقدم النظري الذي يمكننا تحقيقه في المستقبل القريب، وكان هذا الشعور يتأكد بما قمتَ به في هذه الأثناء. أتعرف في هذه المسودة الجديدة، مرة أخرى، على الروح المشترك بيننا، وشعرت بأننا نستطيع، الآن، أن نجمع نتائج جهود السنة الماضية". لكن في حال عُرض عليه، أي على ماركوزه، منصب مقبول فعلًا، وكان قادرًا على القيام به، أيكون الرفض عندئذ غير مسؤول؟ "قد يأتي يوم قريب أكثر مما نظن، قد يكون حضورك فيه إلى واشنطن بلا قيمة بالنسبة إلي. لا أستطيع، لأسباب موضوعية وشخصية، أن أجيبك بالنفي في حال سألتني إن كان عليك أن تقبل هذا المنصب؟ ما الذي يمكنني قوله لو توقف عملك، بعد شهرين أو ثلاثة أشهر، في ضوء شروط تعيسة أكثر!"[104].

أجاب ماركوزه راضيًا بتلبية حاجته إلى الأمان، مصرًا في الوقت نفسه على حماسته للنظرية، ومؤكدًا احترامه لمعهد هوركهايمر من حيث هو ملجأ

(102) رسالة من ماركوزه إلى هوركهايمر، 11 تشرين الثاني/ نوفمبر 1942.
(103) رسالة من هوركهايمر إلى ماركوزه، 10 تشرين الثاني/ نوفمبر 1942.
(104) رسالة من هوركهايمر إلى ماركوزه، 10 تشرين الثاني/ نوفمبر 1942.

لمواصلة العمل على النظرية: "أعرف أن كل محاججة 'عقلانية' تشجع، لسوء الحظ، قبول المنصب في واشنطن؛ ولكن يبدو لي أنك تُقلّل من قدْر رغبتي في متابعة العمل النظري الذي كنا نقوم به [...]. وعلى الرغم من اعتراضي على بعض تصوّراتكم، لم أخفِ يومًا، أينما كنت، اقتناعي بأنني لا أعرف جهدًا فكريًا يُبذل اليوم أقرب إلى الحقيقة، ولا أعرف مكانًا آخر في العالم، مثل هذا المكان، لا يزال يفسح المجال للتفكير ويشجع عليه. قد يكون من الحسن قول هذا في هذه اللحظة، وأخبرك بأنني لن أنسى ما تعلمته معك [...] فقط إذا قلت أنت أن هذه العلاقة، بسبب الوضع المالي للمعهد، يجب أن تتوقف في أي حال وفي غضون وقت قصير جدًا، وأن وظيفتي في واشنطن سوف تمكّننا من متابعة العمل معًا بعد انقطاع قصير نسبيًا [...]، عندئذ فقط ستكون محاججتك العقلانية منسجمة مع رغبتي 'اللاعقلانية' لمواصلة دراساتنا النظرية معًا"[105].

هكذا حُسم الأمر عمليًا، ولم يكن لمكتب التحقيقات الفدرالي أي اعتراض. أصبح ماركوزه في البداية كبير محللي مكتب معلومات استخبارات الحرب؛ ثم انتقل لاحقًا إلى مكتب الخدمات الاستراتيجية الأكثر تأثيرًا الذي كان نويمان قد سبقه في الانتقال إليه.

إن ماركوزه الذي كان أقل ثقة بنفسه من نويمان وأكثر خضوعًا بكثير تجاه هوركهايمر، بقي أكثر التصاقًا بالمعهد من صديقه. وقد وجد مديرو المعهد في ماركوزه ما كان هوركهايمر قد تأمله عبثًا من نويمان: شخصًا لم يعد عبئًا ماليًا على المعهد، لكنه ظل "يشعر أنه واحد من جماعتنا"[106].

بحلول عام 1943، كان ستة من أعضاء المعهد الأصليين يعملون بوظائف في الدولة بدوام كامل أو جزئي، وساهموا بهذه الطريقة، كما يبدو، في المجهود الحربي: نويمان بوصفه نائبًا لرئيس القسم الأوروبي المركزي في دائرة الخدمات الاستراتيجية ومستشارًا لهيئة الحرب الاقتصادية، وماركوزه بوصفه كبير محللي مكتب الخدمات الاستراتيجية، وكيرشهايمر وغورلاند أيضًا بوصفهما عضوين في طاقم عمل هذا المكتب، لوفنتال كمستشار لدائرة

---

(105) رسالة من ماركوزه إلى هوركهايمر، 15 تشرين الثاني/ نوفمبر 1942.

(106) يُراجع رسالة من هوركهايمر إلى نويمان، 2 حزيران/ يونيو 1942.

معلومات الحرب، وبولوك بوصفه مستشارًا في قسم مكافحة الشركات الاحتكارية [الترستات] التابع لوزارة العدل. ونجا من ذلك هوركهايمر وأدورنو، المنظّرَان الرئيسيَّان.

أما لوفنتال الذي كان هوركهايمر يعده مرارًا وتكرارًا بالانتقال إلى الساحل الغربي وبالعمل المشترك في المجال النظري، فكان عليه أن يبقى في نيويورك. لقد سمح له في مناسبة واحدة بالمجيء إلى الساحل الغربي، والبقاء بضعة أسابيع، والمشاركة هناك في مشروع معاداة السامية. وفي ما عدا ذلك، كان عليه أن يحافظ في نيويورك على ما تبقى من المعهد. لم يكلف هذا كثيرًا، لكنه كان يكفي في الواقع لإثبات استمرار وجود المعهد رسميًا، والحفاظ على العلاقة بجامعة كولومبيا، في حين يتجنب معظم التزاماته السابقة إلى حد بعيد.

العمل على مشروع الجدل

"لو شعرت في أي يوم من حياتي بالحماسة، فسيكون يوم قرأتُ هذه المخطوطة"، هذا ما كتبه هوركهايمر إلى أدورنو بعد شهرين من انتقاله إلى منزله المؤلف من طابق واحد في باسيفيك باليسيدز، بعد أن كان قد قرأ مخطوطة كتابه **عن فلسفة الموسيقى الجديدة** (نشر موضوع أدورنو في عام 1949 بعنوان "شونبرغ والتقدم" كجزء أول من **فلسفة الموسيقى الجديدة**، من دون تغيير في أقسامه الأساسية، لكن اختصرت فقراته السياسية، مقابل التوسع في فقراته الموسيقية). لقد شعر بالغبطة، وبات عليه بعد ذلك توجيه قوة السلبية التي خبر بها أدورنو الموسيقى "نحو المجتمع نفسه"، و"مواجهة مقولاته بالواقع"، وألا يكتفي، بعد الآن، بالتوصيف النقدي للرد المضاد الذي تمارسه الموسيقى تجاه ما هو قائم في الظواهر الثقافية نقديًا، بل في توجيه ذلك الرد بنفسه[107]. ووافق أدورنو على ذلك بحماسة: "يتقارب نقدكم وتأملاتي الخاصة، كما يبدو لي، الآن في نقطة: أي إن كان يجب علينا فعليًا – كما كنا ننوي – أن نركز عملنا المشترك على الفن، أو إن لم يكن علينا أخيرًا أن نتكلم، وأمرنا إلى الله، عن المجتمع نفسه [...]. تملّكني، على نحو متزايد في أثناء الكتابة عن الموسيقى، انطباعٌ بأنها تضمنت

(107) رسالة من هوركهايمر إلى أدورنو، 28 آب/أغسطس 1941.

وداعًا لنظرية الفن على الأقل لبعض الوقت [...] وأريد أن أقول لكم اليوم سلفًا إنني لست موافقًا على نقل مركز اهتمامنا إلى أسئلة المجتمع بالذات فحسب، بل يبدو أيضًا أن معرفة الفن تحديدًا تجعل هذه النقلة ضرورية"[108].

بدا، في الواقع، أن نص أدورنو يركز على كل موضوعات تفكيره المهمة، لكن إمكانية هذا لا تتم إلا على حساب الاندماج المباشر بين العمليات الموسيقية والاجتماعية. وجاء في الأجزاء النقدية من ملاحظات هوركهايمر على مخطوطة أدورنو: "والحق يقال، لا تبدو لي دائمًا معالجة المجالين[109]، من حيث هما مجالان متطابقان، أمرًا محقًا. إن خطر فلسفة الهوية، ومن ثم خطر المثالية الذي كان واضحًا بالنسبة إليك في أثناء الكتابة مثلما كان واضحًا لي في أثناء القراءة، لم يبدُ لي أن التغلب عليه قد تم على نحوٍ نهائي بعد"[110]. كان يتوقع من الموتيفات الأدورنية أن تَختبر، على خلفية نقدٍ سيطرة المجتمع على الطبيعة، دورَ الموسيقى خصوصًا في التعامل مع الطبيعة الداخلية للذات البشرية، وأن تختبر على هذا الأساس التفاعل بين علاقة المجتمع بالطبيعة الخارجية وعلاقة الذوات بطبيعتها الداخلية. لكن ما فعله أدورنو في الواقع كان قسر جميع الموتيفات معًا في تفسير للإنتاج الموسيقي لشونبرغ وطلبته المقربين، بوصفه التفسير الوحيد الذي أنصف، بحسب قناعته، الإمكانات الموضوعية الراهنة للمادة الموسيقية، بطريقة مبالغة في الأطروحة التي تقول بأن العام متضمن داخل الخاص.

ركّز نص أدورنو على تقنية الاثنتي عشرة نغمة. كان تفسيرها الفلسفي يرتبط بتصور تطور الجنس البشري في مسارات الحضارة الغربية. وكان هذا التصور ذا طبيعة رومانسية-ماركسية، ويمكن إعادة رسمه على النحو التالي: وجد الناس أنفسهم في البداية في مواجهة طبيعة عاتية. وتعلموا مع مرور الزمن أن يصبحوا، بدورهم، أكثر قوة من الطبيعة، وأن يسيطروا عليها. بدا الأمر كما لو أنه بات يُنظر إلى الطبيعة بوصفها شيئًا توجّهه أقل فأقل قوى عليا، ذاتية الإرادة ولا يمكن التكهن بها، وأكثر فأكثر بوصفها شيئًا يخضع للقوانين، ويمكن أن

---

(108) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، نيويورك، 4 أيلول/ سبتمبر 1941.

(109) أي البنيتَين الفوقية والتحتية.

(110) رسالة من هوركهايمر إلى أدورنو، 28 آب/أغسطس 1941.

تكون مفيدة من خلال الاستغلال الماكر لهذه القوانين. ومثل من أخضعه الخوف القديم من الطبيعة القاسية للتنويم المغناطيسي، جعل الناسُ إخضاعَ الطبيعة هدفهم الأعلى. وبدلًا من أن ينجحوا في كسر تفوّق الطبيعة، حافظت الطبيعة في داخلهم على تفوقها. لم ينجحوا، على أرضية طبيعة انتُزعت منها شراستها، في أن يحترموا بلا خوف، حتى بعد أن أخضعوها بوعي: احترام شيء أنتج على الأرجح وسيلة لتلطيف قسوتها في الشكل الإنساني نفسه.

توافق هذا التصوّر على نحو انتقائي حصرًا مع رؤية أدورنو لتطور الموسيقى التي كانت تتوجه نحو بيتهوفن وبرامز وشونبرغ بوصفهم نقاط تحول. كان الارتباط أقرب ما يمكن هناك حيث أصبح أدورنو طوباويًا. "مثلما يصل هدف الموسيقى إلى ما وراء عالم القصديات، عالم المعنى والذاتية، كذلك يفعل أصل الموسيقى أيضًا. فأصلها له طبيعة حركية، ويشبه كثيرًا طبيعة البكاء. إنها إيماءة الانشراح والتعبير التي تطلق توتر عضلات الوجه، ذلك التوتر الذي يُوجّه الوجه نحو فعل على المحيط، ويعزله في الوقت نفسه عنه. تفتح الموسيقى والبكاء الشفاه وتعتق الإنسان المكبل [...]؛ فالإنسان الذي ينهمر في بكاء وفي موسيقى لا تشبهه في شيء على الإطلاق، يدع في الوقت ذاته سيلها يرتد فيه، هو الذي لم يعد نفسه، ولم يعد ما كان محقونًا وراء جدار عالم الأشياء. إنه يدخل، سواء أكان باكيًا أو مغنيًا، في الواقع الغريب [...]. تصف إيماءة العائد، وليس شعور المنتظر، تعبير الموسيقى كلها، حتى في العالم الذي يستحق الموت"[111]. هنا مثلت الموسيقى نهاية السيطرة على الطبيعة، وتصالح الروح والطبيعة اللذين مهدا الطريق إلى وحدة الطبيعة الداخلية والطبيعة الخارجية.

في فقرات أخرى، لم تكن الصلة إلا ظاهريةً. وجرى ذلك على وجه الخصوص حيث وُضِعَ مفهوم "المادة" على قدم المساواة مع الطبيعة وجرى تقديم المؤلفين الموسيقيين بأنهم نوعًا ما الأدوات المسؤولة عن عالم الصوت ضمن مجموع العمال في المجتمع، مساهمين بقسطهم في السيطرة على الطبيعة الخارجية.

---

(111) يُنظر:

Theodor W. Adorno, *Philosophie der neuen Musik*

(ص 88 من النسخة المطبوعة على الآلة الكاتبة، تطابق ص 122 وما بعدها في الكتاب المطبوع).

وفي ما عدا ذلك، عولج تاريخ الإنسانية الذي تم تصوره في ضوء السيطرة على الطبيعة كما لو أنه نوع من دورة اقتصادية طويلة الأمد، تراكبت عليها في النهاية دورة أقصر لتطور الموسيقى الغربية في القرون الأخيرة. نُظر إلى هذه الدورة الختامية بعد ذلك في مقولات التقليد والحرية، والمألوف والعفوية، والنظام الموضوعي والوضع الذاتي، ونزع الأسطرة والعقلانية. وبذلك أمسك أدورنو، مرة أخرى، بإشكالية أعماله الموسيقية الباكرة: كيف وصل المؤلف الموسيقي الحديث إلى أشكال محددة؟ وهذا السؤال ليس سوى حالة خاصة من حالة أعم: كيف يكون بإمكان البشرية اليوم الوصول إلى نظام محدد، في الوقت الذي بدأت جميع المقاييس والمعايير الموروثة بالتفسخ؟ في مثل هذه السياقات، كان يقصد من مفهوم "المادة" عند أدورنو شيء يشبه "طبيعة ثانية"، أي تقاليد استحالت قيودًا.

في مخطط يثير الإعجاب عن تحول طاول وظائف وأشكال الإنجاز الموسيقي منذ بيتهوفن، سعى أدورنو إلى تسويغ عقلنة الموسيقى ونقدها. "تحققت عند بيتهوفن، وعلى نحو كامل عند برامز، وحدة استكشاف الموتيفات والتيمات بنوع من توازن بين الحركية الذاتية واللغة - 'المقامية' - التقليدية. يفرض التنظيم الذاتي على اللغة التقليدية أن تتكلم مرة أخرى من دون أن يتدخل لتغييرها بوصفها لغة. يتم تغيير اللغة على الخط الرومانسي-الفاغنري على حساب موضوعية الموسيقى ونهائيتها نفسها. لقد فك هذا التغيير وحدة الموتيف-التيمة في الأغاني، واستبدل بها بعدئذ الموتيف المتكرر الرئيس والبرنامج. كان شونبرغ أول من اكتشف مبادئ الوحدة والاقتصاد الشاملين في المادة الجديدة الذاتية المتحررة فاغنريًا. قدمت أعماله البرهان على حقيقة أنه كلما كانت النزعة الاسمية للغة الموسيقية التي أطلقها فاغنر أكثر تجانسًا، أمكن السيطرة، على نحو أكمل، على هذه اللغة عقلانيًا"[112]. كما تعني هذه السيطرة العقلانية كثيرًا تحطيم التقاليد وتحرير المادة، ومعها الذاتية المؤلفة للموسيقى؛ ولهذا السبب يرحب بها أدورنو. لكنها تعني أيضًا سيطرة

(112) المرجع نفسه، ص 25 من النسخة المطبوعة على الآلة الكاتبة/ ص 58 وما بعدها من الكتاب المطبوع.

مطلقة العنان لذاتية ظنت نفسها مستقلة، على مادة تبدو في حد ذاتها بلا معنى، ولهذا انهال عليها بالنقد. "تقنية الاثنتي عشرة نغمة هي نظام سيطرة على الطبيعة في الموسيقى. إنها تلائم حنينًا من الزمن الأول إلى البرجوازية؛ أي إلى إدراك ما يحدث صوتًا على نحو متناسق، وحل الجوهر السحري للموسيقى في العقل الإنساني [...]. إن التصرف الواعي بالمادة التي تقدمها الطبيعة له جانبان: تحرير الإنسان من قسر الطبيعة الموسيقي، وامتثال الطبيعة لأغراض إنسانية [...]. لكن اللحظة القمعية للسيطرة على الطبيعة تعكس ذاتها وتنقلب ضد الاستقلال الذاتي والحرية التي تُنجز باسميهما السيطرة على الطبيعة"[113].

في أي حال، بدا أن يوتوبيا شكل من الموسيقى متحرر من الأعراف والتقاليد ومنفتح على ما هو مغاير بالنسبة إلى الإنسان، قد أصبحت واقعًا. في ختام عملية تنقية الموسيقى من التقاليد ظهرت بدايةً "اللامقامية الحرة"، "التأليف الموسيقي الحر"، "تلقائية الأذن النقدية"[114]. "ليس ثمة قاعدة واحدة، على الأرجح، في تقنية الاثنتي عشرة نغمة لا تنتج بالضرورة من الخبرة التأليفية، ومن الاستجلاء المتقدم لمادة الطبيعة الموسيقية. لكن لتلك الخبرة مزية الدفاع[115]: بحيث يجب ألا تكرر أي نغمة نفسها قبل أن تقبض الموسيقى على كل النغمات الأخرى؛ وبحيث لا تظهر أي نغمة لا تحقق في تركيب الكل وظيفتها الموتيفية؛ وبحيث لا تستعمل أي هارمونيا لا تبرر ذاتها بوضوح في ذلك الموقع. تكمن حقيقة كل هذه التمنيات في مواجهتها المستمرة مع الشكل المحدد للموسيقى الذي تطبق عليه. إنها تقول، مما يجب على المرء أن يحمي نفسه، ولا تقول كيف يجب التعامل معها"[116]. في هذا السياق، أعطى أدورنو مفهوم "المادة" معنًى جديدًا. فإذا كان المفهوم يعني في السابق الطبيعة الخالصة، أو السيطرة العمياء لمادة النغمات المقامية أو الطبيعة الثانية لحالات

(113) المرجع نفسه، ص 32 وما بعدها من النسخة المطبوعة على الآلة الكاتبة/ ص 65 وما بعدها من الكتاب المطبوع.
(114) المرجع نفسه، ص 74 من النسخة المطبوعة على الآلة الكاتبة/ ص 110 من الكتاب المطبوع.
(115) يضيف نص الكتاب: بحكم حساسيتها الذاتية.
(116) المرجع نفسه، ص 35 من النسخة المطبوعة على الآلة الكاتبة/ ص 68 من الكتاب المطبوع.

القسر التقليدية أو المادة غير المؤهلة والتي لا جدوى منها، فإن المقصود بذلك كان "ما لا يمكن إدراكه"، "الإيقاعات غير المروضة"[117]. كان مؤلف "الثورة الموسيقية" هو المعني بإيقاعات من هذا النوع[118]؛ هو يُقْبِل عليها، وهي تستسلم له[119].

تتوجّه "الآلية الفولاذية لتقنية الاثنتي عشرة نغمة" ضد "ما كان ينهض فجأة أكثر حرية وضرورة في آن واحد من انهيار المقامية"[120]. شرح أدورنو هذا التطور بالقول إن "أغلبية المؤلفين الموسيقيين يدركون أساسًا بأنفسهم" أن عليهم أن يمنعوا أنفسهم من سعادة ما لا يمكن أن يُدرَك؛ وأنهم كانوا أضعف من أن يقحموا أنفسهم في الممنوع[121]. "لهذا السبب كان كثير من الموسيقيين الشباب - وبالذات في أميركا، حيث تغيب التجارب الأساسية لتقنية الاثنتي عشرة نغمة - على استعداد للتأليف بـ 'نظام الاثنتي عشرة نغمة'، ومن هنا كان أيضًا الاحتفال بإيجاد بديل عن المقامية، كما لو كان من المستحيل تحمل الحرية حتى جماليًا، بحيث كان لا بد من استعمال شكل جديد من الانصياع خفيةً لإنتاج بديل يُعوِّض عنها"[122]. أخذ أدورنو مقاييسه النقدية من التوافق المغري بين الروح والطبيعة في الموسيقى اللامقامية، ولم يحاول بادئ الأمر على الإطلاق تفسير نشوئها وفقًا لنظرية اجتماعية. أدى أدورنو ضريبة الشكل الواقعي "للتقدم"، عندما أتاح لمرحلة الموسيقى اللامقامية، بوصفها بروتوكولًا تعبيريًا، أن تتحول "بالضرورة" إلى موضوعية، وشرعن تقنية الاثنتي عشرة

---

(117) المرجع نفسه، ص 65 و66 من النسخة المطبوعة على الآلة الكاتبة/ ص 102 و103 من الكتاب المطبوع.

(118) المرجع نفسه، ص 66 من النسخة المطبوعة على الآلة الكاتبة/ ص 103 من الكتاب المطبوع.

(119) المرجع نفسه، ص 66 من النسخة المطبوعة على الآلة الكاتبة/ ص 102 وما بعدها من الكتاب المطبوع.

(120) المرجع نفسه، ص 100.

(121) المرجع نفسه، ص 65 وما بعدها من النسخة المطبوعة على الآلة الكاتبة/ ص 102 من الكتاب المطبوع.

(122) المرجع نفسه، ص 35 وما بعدها من النسخة المطبوعة على الآلة الكاتبة/ ص 68 وما بعدها من الكتاب المطبوع.

نغمة بوصفها "نظامًا ضيقًا يجب أن تمر من خلاله كل الموسيقى التي لا تريد أن تسقط في لعنة المصادفة"[123]. أما وقد بدا الآن أن التأليف الحر قد أُنجز، ورُفضت تقنية الاثنتي عشرة نغمة كنظام لسيطرة الموسيقى على الطبيعة وكعرض يدل على هروب من الحرية، فقد فسّره على أنه الشرط المسبق لشكل من التأليف الموسيقي الحر فعليًا، لأن الروح الموضوعي قد تقدم باتجاهه. كانت هذه رؤية جدلية في تقدم موسيقى أثارت الشبهة بأنها هنا تسبغ على تطور مدرسة ما في الموسيقى قدسية الضرورة الجدلية.

كان أدورنو، من جهة أخرى، مدفوعًا من خلال اعترافه بالتأليف الموسيقي الذي يعتمد تقنية الاثنتي عشرة نغمة إلى أن يقدم بدقة ما يمكن أن يسمى إخلاصًا لمثال التأليف الموسيقي الحر في ظل الشروط الاجتماعية التي تنعدم فيها الحرية. كتب عن عمل فني من هذا النوع يقول: "يُلحّ تارة، وينسى تارة أخرى. يلين ويتصلب. يحفظ ذاته أو يضحي بها، لكي يتحايل على مصيره"[124]. قصد بهذا المعنى أعمال شونبرغ المتأخرة التي حققت لحظاتها الكبرى من خلال تقنية الاثنتي عشرة نغمة وبالتضاد معها: "من خلالها، لأن الموسيقى قادرة على التصرف ببرود وصرامة، كما يُنسب إليها في هذا الواقع [في نص عن **فلسفة الموسيقى الجديدة** وردت عبارة "بعد الأفول"]؛ وبالتضاد معها، لأن الروح الذي ابتكرها يبقى متمالكًا نفسه بصورة كافية، لكي يعبر عمارتها: دعاماتها وبراغيها ومغاليقها، لينيرها، كما لو أنه كان مستعدًا في النهاية لتحطيم العمل الفني على نحو كارثي"[125]. لكن ما هو ذلك الشيء الذي جعل الروح قادرًا على تمالك نفسه؟ "إن تلقائية الرؤية الموسيقية تنحي جانبًا كل التنازلات، وترمي بعيدًا بكل ما كان قد تعلمه المرء، ولا تعطي الاهتمام إلا لضرورة التخيل. وحدها قوة النسيان هذه، وهذه اللحظة البربرية من كراهية الفن تضع من خلال مباشرية الاستجابة في كل لحظة توسطات الثقافة

(123) المرجع نفسه، ص 74 من النسخة المطبوعة على الآلة الكاتبة/ ص 111 من الكتاب المطبوع.

(124) المرجع نفسه، ص 90 من النسخة المطبوعة على الآلة الكاتبة/ ص 125 وما بعدها من الكتاب المطبوع.

(125) المرجع نفسه، ص 36 من النسخة المطبوعة على الآلة الكاتبة/ ص 69 من الكتاب المطبوع.

الموسيقية موضع تساؤل. هذا حصرًا ما يوازن التحكم المتقن بالتقنية، ويحفظ التقليد لها"[126]. رأى أدورنو أن العنصر البربري يجعل الروح متحكمًا بنفسه في مواجهة موضوعيات أفعاله الخاصة المغربة عنه. بهذه الطريقة استطاع الروح أن يظهر أمام مجتمع متصلب مسلحًا بآلات فولاذية، وأن يكون منفتحًا في الوقت نفسه على الطبيعة في ذاتها. في الحقيقة، كل جانب منهما يشترط الآخر: فكما أن تحالف الروح مع ما لا يمكن إدراكه هو الذي حماه من الانبهار بحالاته الموضوعية الصارمة، كذلك لا يستطيع الروح إلا أن يبقى وفيًا لما لا يمكن إدراكه من خلال الحفاظ على صلابته في مجتمع متصلب[127].

كانت هناك أصداء في هذه الفكرة تقول مثلًا إن تصوّر شونبرغ للفنان بوصفه عارفًا بالتقاليد يتبع غريزته، وتصوّر توماس مثلًا للفن بوصفه نتاج حلف بين البربرية والنزعة العقلية وكذلك مطلب بلوخ وبنيامين وضع قوى البربرية والنشوة في خدمة "الثورة". كانت هذه الفكرة إشكالية من ناحيتين على الأقل: كان إشكاليًا الكلام عما لا يمكن إدراكه من دون توضيح ما يمكن فهمه منه خصوصًا عندما يستخدم المرء، بمعنى سلبي أو إيجابي، مفهومين، مثل "بربري" أو "طبيعة" اللذين يظهران وكأنهما مترادفان، حيث كان المعنى السلبي واضحًا نسبيًا، في حين يبقى المعنى الإيجابي مبهمًا. وكان إشكاليًا أيضًا وضع الثقة في المبالغة النفعية لعملية التصليب؛ بالطريقة ذاتها التي تقوم فيها فيلولوجيا بنيامين القائمة على التأويل المجازي بدعم البناء من طريق التهديم، إذا اعتبرت، في الوقت عينه، أن الوسيلة الوحيدة للحفاظ على الروح من تمجيد ذاته، تكمن في إعادة ربطه بشيء لا يمكن إدراكه.

في النهاية، بدت التناقضات التي تتحدى أدورنو بلا جدوى في ما يخص الاعتماد المتكرر على وجود شكل مثقف من الطبيعة، أي على "الأذن المميزة"[128]،

(126) المرجع نفسه، ص 83 من النسخة المطبوعة على الآلة الكاتبة/ ص 117 من الكتاب المطبوع.

(127) يقارَن: المرجع نفسه، ص 79 من النسخة المطبوعة على الآلة الكاتبة/ ص 114 من الكتاب المطبوع.

(128) المرجع نفسه، ص 6 من النسخة المطبوعة على الآلة الكاتبة/ ص 40 من الكتاب المطبوع.

"الأذن المطيعة"[129]، "الأذن المجرّبة"[130]، "الأذن النقدية"[131]، و"الأذن الحديثة"[132] وما إلى هنالك. ألم تكن، إزاء مثل هذه الأشكال من الطبيعة المثقفة، رؤية الإنسان الذي يبكي ويغني في عالم غريب نوعًا من عاطفة لا معنى لها؟

إذا قبلنا بتفسير أدورنو للموسيقى الجديدة بوصفها شكلًا من السيطرة على الطبيعة أو بوصفها طريقة للهروب من شكل للسيطرة على الطبيعة مغترب، عندئذ يطرح نفسه بإلحاح فوريًا السؤال: هل ينتج من هذا مقاربات مفيدة لنقد وتصحيح سيطرة أشكال غير موسيقية على الطبيعة؟ وبشيء من التفصيل أكثر: أكان يمكن التخلي تمامًا عن السيطرة على الطبيعة والتعامل الثقافي معها، بمعنى الذات المنطلقة بكاءً وغناءً؟ أو هل يمكن أجهزة السيطرة على الطبيعة أن تقود، من طريق العناصر "البربرية" و"التلقائية"، الإنسان الذي يتحكم بها إلى التألق؟ أو هل كان التفكير بشكل من التعامل الثقافي مع طبيعة مثقفة نوعًا ما ممكنًا، يُعالَج به - بحسب نموذج اللامقامية الحرة - ما لم يكن مروّضًا من حيث المبدأ مع إحساس دقيق بتوافق الخصائص الداخلية للشيء وفائدته في كل مرة؟ لم يكن في مخطوط أدورنو مكان إلا للبدائل: عزلة الذوات التي تتصلب أو انحلالها الذاتي في الطبيعة. قد يكون لهذا معنى في مجال الموسيقى. أما في مجالات أخرى، فكان السؤال يطرح نفسه عن الإمكانات التي وجدت للتعامل مع الطبيعة الخارجية والطبيعة الداخلية، وعن الإمكانات التي وجدت لتعامل الذوات في ما بينهم، وعما إن لم يكن واجبًا تمييز تلك الإمكانات في كل حالة عن التعامل مع عناصر الطبيعة غير الإنسانية.

رأى هوركهايمر في الفقرة الأكثر تعرضًا للنقد في مقالة أدورنو - المقالة التي تكلم فيها على الإنسان الذي يغرق في البكاء وفي الموسيقى - الدليل الأقوى على حقيقة أن تفكيره وتفكير أدورنو كانا يتقاربان أيضًا إبان انفصالهما بطريقة غامضة. اتخذ من تلك الفقرة فرصة كي يقدم من جانبه أفضل أفكاره

(129) المرجع نفسه، ص 35 من النسخة المطبوعة على الآلة الكاتبة/ ص 68 من الكتاب المطبوع.
(130) المرجع نفسه، ص 43 من النسخة المطبوعة على الآلة الكاتبة/ ص 80 من الكتاب المطبوع.
(131) المرجع نفسه، ص 74 من النسخة المطبوعة على الآلة الكاتبة/ ص 110 من الكتاب المطبوع.
(132) المرجع نفسه، ص 75 من النسخة المطبوعة على الآلة الكاتبة/ ص 111 من الكتاب المطبوع.

التي تخص نظرية معاداة السامية. فاقتبس من رسالة كان قد كتبها إلى نسيب أدورنو إيغون فيسينغ: "إخلاص اليهود المضحك لإله واحد جعلهم - في صورة المعادين للسامية، وليس في الواقع - في حيرة من أمرهم وخطرين في آن. في قتل المجانين يكمن مفتاح اضطهاد اليهود.

بالطبع، يكمن في تقويم الوعي بالوحدانية بوصفه حماقة وغباء إجلالٌ عميق في الوقت نفسه؛ أو على الأرجح خوف خرافي من أن تكون الأفعال الخاصة خاطئة وفاسدة. إن حقيقة أن هذه الأفعال هي الأخرى ليست ممنوعة أيضًا من الغايات والأهداف التي تسير في خدمتها حياة الناس اليوم، مثل الأفعال الصالحة، تجعل الحمقى شهودًا مخيفين يجب التخلص منهم. فالفعل الشرير لن يحصل، إذا قُتِل الشهود.

في هذا السياق يؤدي الألم دورًا خاصًا. يبدو المجنون وكأنه منفصل وخارجي، يعيش في عالم آخر، ويبتعد عن إكراهات الحاضر. الألم يعيد إلى الحاضر (فكروا في الإجراءات المختلفة للاستيقاظ من النوم)، ويُخفض الإنسان إلى ردة فعله الدفاعية، إلى الغاية الوحيدة التي تتمثل في الخلاص من الألم؛ الألم يربط الإنسان بالهدف تمامًا. إن حقيقة أن على الهراطقة أن يرتدوا لم تكن إلا نوعًا من إضفاء العقلانية على التعذيب؛ إن عليهم، بمعنى أعمق جدًا، أن يتساووا مع معذبيهم، أي أن يختبروا بأنفسهم تفوق الهدف العملي. يجب التأكيد المرة تلو الأخرى أن الحرية مستحيلة.

تعيدنا دراسة معاداة السامية إلى الأسطورة وفي النهاية إلى الفيزيولوجيا"[133].

إن الإنسان الذي ترك نفسه يغرق في البكاء وفي الموسيقى، والمجنون واليهودي اللذين كانا يبدوان منفصلَين وخارجيَّين، كان هؤلاء هم شخصيات الثورة. بالنسبة إلى هوركهايمر وأدورنو - شكلت أفكار هوركهايمر محور توقعه حول اضطهاد اليهود بوصفهم ممثلي البداوة التي كانت سعيدة ذات

---

(133) رسالة من هوركهايمر إلى أدورنو، 28 آب/أغسطس 1941؛ وينظر أيضًا:
Max Horkheimer & Theodor Adorno, *Walter Benjamin zum* "Vernunft und Selbsterhaltung", in: *Gedächtnis*, pp. 54 ff.

يوم - كان اليهود رمزًا لعدم القدرة على الاندماج التام بنظام مجتمع تحدّده حماية الذات الجذرية وعقلانية الهدف الكلية؛ وكانت ترمز - ولو في الخيال - إلى السعادة التي تخلّصت من كفاح الحياة ومن العمل والتفكير الهادف. بدا لكليهما أن نظرية المجتمع و"النقاش اللاهوتي" ونظرية معاداة السامية مرتبط بعضها ببعض ارتباطًا وثيقًا. لكن بأسلوب جدي جميل وأحيانًا احتفالي - حذر المادي السوداوي المدافع عن الاستعمال الذي ينطوي على مقولات لاهوتية - تظهر علاقة لا يتوسطها النفي بالإيجابي واللاهوتي. ليست هذه بعد اللغة الصحيحة. كذلك فقد دُفِع "بجزء من فلسفة الهوية والنزعة التفاؤلية" ثمن تجاوز النزعة النفسانية[134] في الفن من خلال النظرية القائلة بأن الأعمال الفنية هي التي تعرف وليس المؤلفين. "يقود هذا مباشرة إلى النقاش اللاهوتي الذي ينتظرنا. عملنا يرتبط إلى حد بعيد بقدرتنا على إيجاد صياغات مشتركة هنا"[135].

بعد ذلك، كرر أدورنو حالًا - وكان ينتظر في نيويورك على أحر من الجمر، وقد نفد صبره، انتقالَه إلى الساحل الغربي - الاقتراح الذي كان قد قدمه قبل ذلك بعام. "ما رأيك لو بلوَرنا كتابنا [...] حول معاداة السامية؟ سيكون هذا نوعًا من إضفاء الواقعية والتحديد اللذين كنا نسعى إليهما. يضاف إلى ذلك أنه يُمكّن من تنشيط قسم كبير من العاملين في المعهد، في حين لو كتبنا شيئًا مثل نقد الراهن مقارنة بمقولة الفرد، يسبب لي تصور أن يثبت ماركوزه أن مقولة الفرد تضمنت منذ فجر البرجوازية ملامح تقدمية ورجعية، كابوسًا. عندئذ تصف معاداة السامية اليوم فعليًا مركز ثقل الظلم، ويجب أن تتطلع نوعية ملامح وجهنا إلى العالم هناك، حيث يُظهر العالم وجهه الأكثر رعبًا. لكن في النهاية تكون مسألة معاداة السامية هي المسألة التي لا يزال من الممكن أن تدخل، في ما نكتبه، في علاقة تأثير من دون أن نفشي شيئًا عنها. وبمقدوري حتى أن أتصور، من دون تفاؤل واهم، أن يكون عمل كهذا مقنعًا ظاهريًا أيضًا،

(134) النزعة النفسانية (Psychologismus) هي نزعة تعتقد بأن علم النفس ضروري لفهم الحوادث والظواهر الطبيعية والعلمية. (المترجم)

(135) رسالة من هوركهايمر إلى أدورنو، 28 آب/أغسطس 1941.

وأن يساعدنا في المضي قدمًا أكثر. أنا، في أي حال، لن أتردد في بذل سنوات في هذا العمل لتحقيقه"[136]. لاقى هذا الاقتراح في الحال موافقة هوركهايمر الذي كان قد ارتأى من جانبه، في رسالة بعث بها من قبل إلى لاسكي مشيرًا إلى مخطط مشروع معاداة السامية المنشور في مجلة **دراسات في الفلسفة والعلوم الاجتماعية**، أنه "مثلما أن من الصحيح أن المرء لا يستطيع أن يفهم معاداة السامية إلا من مجتمعنا، كذلك يبدو لي أنه قد أصبح صحيحًا أيضًا أن المجتمع ذاته لا يمكن أن يُفهم اليوم إلا من خلال معاداة السامية. إنها تتضح في مثال الأقلية التي هي، في واقع الحال، قدَر الأكثرية أيضًا: تلك الأكثرية التي تتحول إلى كائنات إدارية"[137].

في الأيام التي سبقت كتابة أدورنو رسالته، كان قد أُمِر جميع اليهود في ألمانيا من عمر ستة عشر عامًا فصاعدًا بحمل نجمة اليهود، ثم مُنع المواطنون اليهود من الهجرة. في 22 حزيران/ يونيو 1941 غزا الجيش الألماني الاتحاد السوفياتي، وبدأت من فورها عمليات القتل الجماعي في المناطق المحتلة. يمكن العثور على أخبار عن هذه العمليات مثلًا في قسم "تأريخ الوقائع والأحداث" الموسع في مجلة *Contemporary Jewish Record* (**السجل اليهودي المعاصر**) التي تصدرها اللجنة اليهودية الأميركية. كذلك أيضًا، كان يمكن المرء في الولايات المتحدة الأميركية أن يستعلم من الصحف الكبرى عن الأحداث المروّعة التي تشهدها أوروبا. وقد كتبت صحيفة **نيويورك تايمز** أن "حذف اليهود كليًا من الحياة الأوروبية يبدو الآن سياسة ألمانية ثابتة". ففي مقطورات البضائع كان يجري ترحيل اليهود باتجاه الشرق. فضلًا عن ذلك، أُخبرت جهاتٌ رسمية عن الترحيل وعن إشارات أخرى بهذا الخصوص من طريق سفراء ودبلوماسيين، وعن أن القضاء على العرق اليهودي في أوروبا الذي تنبأ به هتلر في 30 كانون الثاني/ يناير 1939 قد نُفّذ. لكن شيئًا لم يتغير في القيود الموضوعة على سياسة الهجرة التي تنتهجها الولايات المتحدة الأميركية.

---

(136) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 2 تشرين الأول/ أكتوبر 1941.

(137) رسالة من هوركهايمر إلى لاسكي، نيويورك، 10 آذار/ مارس 1941.

انتقل اهتمام هوركهايمر بصورة نهائية من نظرية الثورة الغائبة إلى نظرية الحضارة الغائبة في ضوء انطباع معاداة السامية التي تشتد وتتفاقم والإجراءات غير المعقولة التي تزداد في واقع الأمر، والتي كانت لمدة طويلة عصية على التصديق، وفي ضوء غياب الاحتجاجات المهمة وحملات المساعدة الضخمة من الديمقراطيات الغربية؛ هذا إذا صمتنا كليًا عن الاتحاد السوفياتي الذي كان قبل اجتياحه في تحالف مع هتلر.

في تشرين الثاني/ نوفمبر 1941 - وقد كان جميع العاملين في المعهد باستثناء هوركهايمر لا يزالون في نيويورك أو عادوا إليها - كان الأوان قد حان أخيرًا بالنسبة إلى أدورنو. فكتب في الرسالة الأخيرة قبيل مغادرته: "بالمناسبة، حصل حفل وداعي في المعهد من دون أن أكون حاضرًا، والفضل في ذلك يعود إلى مرضي [...]. إذا سار الآن هنا أي شيء[138] على نحو خاطئ، سنقول عندئذ بثبات: أنتم من أراد ذلك. ألتمس العذر منكم على هذه اللهجة المغرورة. إلا أنني أعرف فعليًا أن السرور كاد يخرجني عن طوري". بعدئذ، ظهرت في موقع لاحق من الرسالة الصياغة التي سوف تصبح في ما بعد عنوان كتابهما المشترك: "قرأت أيضًا مؤخرًا كتاب **ساد** لـ[مؤلفه] غورِر وخطرت في ذهني أمور كثيرة أعتقد أننا يمكن أن نحتاجها. إنها ترتبط أساسًا بـ**جدل التنوير** أو جدل الثقافة والبربرية"[139].

علاوة على ذلك، بيّنت هذه الفقرة مرة أخرى تحت أي نجم هادٍ سيغدو اجتماع هوركهايمر وأدورنو في عمل مشترك واقعًا. لم يكن ذلك النجم الهادي سوى بنيامين الذي كان قد امتنع لمدة طويلة عن الهروب من العالم القديم بثقافته التي تعشّش فيها البربرية، إلى العالم الجديد الذي يفتقر إلى الثقافة والتقاليد، وحينما بدا له أن الهروب عبر جبال البيرينيه قد أخفق، أقدم على الانتحار في 26 أيلول/ سبتمبر 1940 في بورتبو، البلدة الحدودية في إسبانيا. في حزيران/ يونيو 1941 تسلّم أدورنو - الذي كان بنيامين قد عيّنه وصيًا منفذًا على تركته الأدبية من حنة أرندت التي كانت قد اجتازت بعد بنيامين ببضعة

(138) بخصوص محاضرات القسم وتمويل المشروع.

(139) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، نيويورك، 10 تشرين الثاني/ نوفمبر 1941.

أشهر الحدود الفرنسية - الإسبانية عند بورتبو - نسخةً من أطروحات بنيامين **في مفهوم التاريخ**. عندما أرسل أدورنو نسخة إلى هوركهايمر، رأى في رسالته المرفقة أنه على الرغم من أن بنيامين نفسه كان قد رفض في رسالة إلى غريتل فكرة النشر ("فالنشر سيفتح الأبواب الموصدة لسوء الفهم الحماسي"، هذا ما كتبه بنيامين في نيسان/ أبريل 1940 إلى غريتل أدورنو)، إلا أن المخطوط يجب أن يُنشر. "إنه يتضمن تصوّر بنيامين الأخير، موته يجعل التحفظات لاغية بسبب وقتيتها. لا يمكن أن يكون ثمة شك حول النطاق الواسع الذي يتمتع به بوصفه كلًا. يضاف إلى ذلك أن هذا العمل يظهر بنيامين أقرب إلى مقاصدنا من أي عمل آخر. وهذا يرجع في المقام الأول إلى تصور التاريخ بوصفه كارثة متواصلة، وإلى نقد التقدم والسيطرة على الطبيعة، وإلى الموقف من الثقافة"[140]. ووافق هوركهايمر بلا تحفظ: "أشاطركم السعادة بامتلاكنا أطروحات بنيامين عن التاريخ. سوف تشغلنا بعض الوقت في الآتي من الأيام، وهو سيكون بيننا. لقد شكّل تطابق البربرية والثقافة [...]، بالمناسبة، موضوع واحد من أحاديثي الأخيرة معه في مقهى قريب من محطة مونبارناس [...]. إن تصوّر الصراع الطبقي بوصفه القمع الشامل، وفضح التاريخ بوصفه تعاطفًا مع الحكام، هي رؤًى كنا ننظر إليها بوصفها مسلّمات نظرية"[141].

(أراد المعهد أن يصدر في إطار تكريم بنيامين عددًا مطبوعًا على الآلة الناسخة من المفترض أن يحتوي أطروحات **في مفهوم التاريخ** ومساهمات لهوركهايمر وأدورنو وبريخت. لكن جرى التخلي في ما بعد عن بريخت. لم يشأ هوركهايمر لأسباب تكتيكية وَضْعَ أطروحات بنيامين في مطلع المجلد استجابةً لاقتراح أدورنو ولوفنتال. "الاصطلاحات التي لا يكاد يحق لنا تغييرها سافرة جدًا". ويرجع تخمين ذلك إلى الاصطلاحات الماركسية واللاهوتية. يضم المجلد التذكاري الذي صدر في عام 1942، في نهاية المطاف، إضافةً إلى أطروحات بنيامين التي ظهرت جزئيًا في المقالة عن إدوارد فوكس، مقالة لأدورنو بعنوان "غيورغه وهوفمانستال" كتبها في عام 1939/ 1940 ومقالتين لهوركهايمر: "الدولة السلطوية" و"العقل والحفاظ على الذات". العبارتان

---

(140) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، نيويورك، 12 حزيران/ يونيو 1941.

(141) رسالة من هوركهايمر إلى أدورنو، باسيفيك باليسيدز، 21 حزيران/ يونيو 1941.

اللتان تصدّرتا المساهمات وحملتا توقيع هوركهايمر وأدورنو - "الذكرى بنيامين نهدي هذه المساهمات. أطروحات فلسفة التاريخ التي تتصدر هي آخر ما كتبه بنيامين" - تبيّن أنهما عبارتان غامضتان. ورأى جميع من قدم لهم هوركمهايمر المجلد أن المقالتين عن "العقل والحفاظ على الذات" و"غيورغه وهوفمانستال" هما الأفضل بين كل ما سبق وكتبه بنيامين؛ أفضل من أطروحات **في مفهوم التاريخ**. فالمرء يستطيع أن يجد فيها مؤشرًا إلى المدى الذي تبنّى فيه أدورنو وهوركهايمر الأساس اللاهوتي لنقد التقدم ونقد المواقف المحافظة التي تتخفى وراء مقولات الثورة واللاجدوى والاستسلام الذاتي).

وصل أدورنو في نهاية تشرين الثاني/ نوفمبر 1941 إلى لوس أنجلس في الغرب، فأقام وزوجته في بيت مستأجر يبعد بضع دقائق في السيارة عن منزل هوركهايمر، وضع فيه مكتبته الصغيرة وبيانو كبيرًا رائعًا. كان قد أوشك على إنهاء مقالته "هجوم فيبلن على الثقافة" للعدد الأخير من المجلة. هذه المقالة والمقالة التي نُشرت في العدد السابق عن "شبنغلر اليوم" كانتا نوعًا من التنويع في موضوع جدل الثقافة والبربرية. حاول أدورنو أن ينقذ شبنغلر السيئ السمعة بوصفه شريكًا في البربرية الجديدة، بجعل البربرية حافزًا فكريًا موجهًا ضد الثقافة. في المقابل، احتضن في مواجهة فيبلن "الماركسي التكنوقراطي" (كما يصفه دارندورف) الذي يضع الطبقة المترفة مقابل المهندسين، عناصر الثقافة التي لم تعالج بالتفصيل والتي وجد فيها كسرًا لقسر الطبيعة وتحررًا من مملكة الغايات ومن "ضغوط التكيف والانسجام مع الواقع بلا أحلام"[142]. يكفي مثال واحد لتوضيح أن اعتراضات أدورنو على نقد فيبلن للثقافة لا تتضمن أكثر من حقيقة أن نقده اقتضى وجوب تأجيل التحرر من التقليدي. حافظ فيبلن على "عدم التوافق الزمني بين الحصن ومحطة القطار، لكنه لم يدافع عن عدم التوافق الزمني هذا بوصفه قانونًا فلسفيًا تاريخيًا. تتقنع محطة القطار بالحصن، لكن القناع هو حقيقتها. عالم الأشياء التقني لا يستطيع خلع تلك الأقنعة إلا عندما يخدم مباشرة السيطرة؛ فهو لا يشبه نفسه إلا في دولة الرعب الشمولية"[143].

---

(142) *Studies in Philosophy and Social Science* (1941), p. 404.

(143) مذكور بالصيغة الألمانية في:

Theodor W. Adorno, "Veblens Angriff auf die Kultur," in *Prismen*, p. 81.

لكن، وكما في رؤية أدورنو لموسيقى شونبرغ، كيف يمكن تصور جعل البربرية في خدمة التقدم الحقيقي للثقافة في مجال نظرية المجتمع؟ هذا ما لم يوضحه أدورنو.

بما أن كل نقد أدورنو كان يفضي إلى إثبات "المحايثة"، فلا يمكن أن يسمى هدف النقد إلا التعالي، أو بالألمانية: الانطلاق إلى المتعالي، واللاقصدي، والجديد، واللامحدود، والمنفتح، واللامطابق. تتمحور "كل المادية الجدلية" من أجل إمكان الجديد، كما ذُكِر في مقالة شبنغلر. استخدم أدورنو مفهوم "اللامطابق" أول مرة، عندما اقترح على مترجم هذه المقالة إلى الإنكليزية لتوضيح معنى جملة أن الحرية نفسها، من ناحية إطلاقية، تسقط أمام الدازاين الخالص، أن يُدْخِل إلى الجملة: "الحرية تسلّم بوجود شيء غير مطابق"، حيث أضاف في الرسالة موضحًا: "ليس العنصر اللامطابق هو بالضرورة الطبيعة وحدها، بل قد يكون الإنسان أيضًا"[144].

اختتمت مقالات أدورنو بانتظام بالنظرة إلى الخلاص. فقد رأى تارة علاقة المحايثة تتداعى نتيجة صيرورتها كلية ومن ثم نتيجة التدمير التام لأساسها الراسخ في اللاهوية [اللامطابق]، ورآها تارة أخرى في استحالة الإيفاء بمطلبها في الكلية. فما الوظيفة التي نتجت من آفاق هذا الخلاص بالنسبة إلى الفكر؟ ألم تنطوِ على تناقض في ذاتها؟ ألم يتعلق الأمر بالنسبة إليها بصيغ تفكير بقيت علَى الرغم من ذلك بلا ارتباط بالتحليلات الاجتماعية النظرية، لأنها كانت تأملية؟ لقد بدا اختبار موضوعات أفكار أدورنو في إطار أبحاث مادية غنية مستحقًا، سواءً في ما يخص مقالة فلسفة الموسيقى أو مقالة جدل الثقافة والبربرية.

لم يكن الحال مختلفًا مع هوركهايمر أيضًا. فقد شكلت مقالة العقل نوعًا من خلطة متنوعة من أجزاء الفكر، كان يمكن تمييز موضوعين رئيسيين فيها: الأول اجتماعي، ويتمثل في تشخيص الميل إلى تنحية جميع التوسطات بين الفرد والمجتمع، والثاني يتعلق بفلسفة التاريخ، ويتمثل في تشخيص الميل إلى التطهير الذاتي للعقل من الفكر.

---

(144) رسالة من أدورنو إلى ديفيد، نيويورك، 3 تموز/يوليو 1941.

تمت معالجة الموضوع الاجتماعي في السنوات التالية بعنوان نظرية طور عصابات المجتمع[145]. كان المقصود بذلك نوع من الرأسمالية الاحتكارية الشاملة، ومجتمع لا يتمكن فيه الفرد الذي لا أهمية له من البقاء في قيد الحياة إلا بوصفه جزءًا من منظمة أو رابطة أو فريق؛ يستطيع فيه، إن أراد الحفاظ على نفسه، أن "يستعد في كل مكان، وأن يعمل في كل فريق، وأن يكون لائقًا لكل شيء"، ويجب أن يكون "دائم اليقظة وجاهزًا"، وأن يكون "باستمرار وفي كل مكان متوجهًا نحو العملي مباشرة"[146].

أما معالجة موضوع فلسفة التاريخ، فتمت تحت عنوان نظرية التدمير الذاتي للعقل عبر تحول العقل إلى أداة. ما كان أدورنو ينبذه بوصفه التمجيد الذاتي للروح الذي يسيطر على الطبيعة، أطلق عليه هوركهايمر التطهير الذاتي للعقل من الفكر والأخلاق. لكن ما معنى هذا؟ هل افترض هوركهايمر أن العقل المفكر والأخلاقي هو نفسه يطرد منه الفكر والأخلاق؟ لِمَ عليه أن يفعل ذلك؟ من الواضح أن هوركهايمر اشتغل بمفهومين للعقل. في الأول وُضِع العقل على قدم المساواة مع الفكر، حيث انطبق هذا على مفهوم هوركهايمر اللاحق لـ "العقل الموضوعي" في **كسوف العقل**؛ وفي الثاني مع أداة في خدمة الحفاظ على الذات، حيث سمّي بعدئذ "العقل الذاتي" في **كسوف العقل**. إذًا، هل كان العقل الأداتي في صراع مع العقل المفكر؟ أكان العقل الأداتي هو الذي رمى الإنساني والعقلاني في العقل، أي العقل المفكر والأخلاقي، بوصفهما بقايا إحيائية. لكن كيف يمكن عندئذ الكلام على تدمير ذاتي للعقل؟ وكيف يُمكن الحفاظ على لبّ الموضوع - كما جاء في **العقل والحفاظ على الذات** - بحيث لا تغيب الذات عن الحفاظ على الذات ولا تقضي الحضارة العقلانية بسبب العقل الذي تم تطهيره؟

حيثما جعل أدورنو اللامحدود واللامطابق معيارًا للنقد، استند هوركهايمر إلى الأفكار التي تشير إلى ما هو أبعد من الواقع المعطى، إلى التأمل الذي يرتقي فوق المصلحة الخاصة أو المنفعة، إلى الحب الذي مثّله روميو وجولييت، إلى

---

(145) يُنظر أدناه ص 446 وما بعدها في هذا الكتاب.

(146) "Vernunft und Selbsterhaltung", in: Horkheimer & Adorno, *Walter Benjamin zum Gedächtnis*, p. 40.

التصوّر الذي يومض بين تخيّل وتذكّر المواطن المستقل اقتصاديًا والواعي لمسؤوليته والمتأمل. ألم يكن هنا، عند هوركهايمر، بقية من نزعة مثالية أيضًا، كان قد انتقدها هو في مقالة أدورنو عن فلسفة الموسيقى؟ أخيرًا يُطرح سؤال كبير: كيف يرتبط - على افتراض صوابيتهما - التشخيص الاجتماعي وتشخيص فلسفة التاريخ؟ ما هي العلاقة بين الاستقلال الذاتي الاقتصادي الذي كان هوركهايمر لا يزال يتكلم عنه، وعملية التدمير الذاتي للعقل؟

ظلت هذه أسئلة مفتوحة. وهكذا وجدها هوركهايمر نفسه أيضًا. فكتب في شباط/ فبراير 1942 إلى لوفنتال أن "معظم النقاط المذكورة في المقالة الجديدة سوف تُبحث في ذلك الكتاب". بعد ثلاثة أشهر ظهرت حدود واضحة في الأعمال الأولية. "الفصل الأول (هذا طبعًا سرّي للغاية) سوف يبحث في المفهوم الفلسفي للتنوير. فالتنوير هنا يتطابق مع فكر برجوازي، لا بل مع فكر عام، لأنه قد لا يكون هناك فكر آخر يتكلم إلا في المدن. الموضوعات الرئيسية هي التنوير والأسطورة، التنوير والسيطرة، التنوير والممارسة العملية، الجذور الاجتماعية للتنوير، التنوير واللاهوت، الوقائع والنظام، التنوير وعلاقته بالنزعة الإنسانية والنزعة البربرية. أما الفصل الثاني فسوف يحلل العلوم الوضعية والظواهر المختلفة لثقافة الجماهير. قد يكون هذا الفصل وثيق الارتباط بأبحاثك. سيكون مجموع الفصول خمسة، بيد أن الفصول الثلاثة الأخيرة لم تُحدَّد على نحو نهائي بعد"[147].

يمكن معرفة البرنامج العام الذي كان يقود هوركهايمر وأدورنو ومعهما ماركوزه أيضًا الذي كان، بادئ الأمر، لا يزال مشاركًا في المرحلة الأولى من العمل على مشروع الجدل، من "مذكرة حول أجزاء برنامج العمل في لوس أنجلس والتي لا يمكن الفلاسفة إنجازها"، كانت قد كتبت في منتصف العام. جاء فيها أن "الخطة الإجمالية للعمل تقوم على نقد شامل للأيديولوجيا الراهنة. لا تعني الأيديولوجيا هنا الوعي فحسب، بل أيضًا حالة البشر في المرحلة الراهنة، أي أنثروبولوجيا بالمعنى الذي يستعمل فيه المفهوم في 'الأنوية وحركة التحرر'. تُعطى قيمة خاصة للعلاقة بين الروح العملي 'الموجَّه نحو الواقع' -

---

(147) رسالة من هوركهايمر إلى لوفنتال، باسيفيك باليسيدز، 23 أيار/ مايو 1942.

كما وجد انعكاسه الفلسفي في البراغماتية - والفاشية، وهذا الأمر لا يحتاج إلى إثبات. وينبغي إظهار الملامح المحررة للتنوير والبراغماتية، وكذلك الملامح القمعية. ويتعيّن إيراد هجوم على الأيديولوجيا المسيطرة في تحليل نقدي لمناطق روحية مهمة ولثقافة الجماهير. يعتمد نجاح مثل هذه التحليلات أساسًا على توجهها نحو الرؤى الملموسة في التطور الاقتصادي الأخير، لأن الكل يهدف إلى التغلب على الركود السياسي".

ما انتظره الفلاسفة من العاملين في الساحل الشرقي، لم يكن عرضًا شاملًا للحالة الاقتصادية ونظريتها، "بل كان يجب أن تركز الأقسام الاقتصادية أكثر على أسئلة إفرادية محددة ومهمة، تستند جميعها إلى نظرية الطبقات". كانت الأسئلة الإفرادية التي تهم الفلاسفة على نحو خاص، على سبيل المثال: ما الذي صارت إليه البروليتاريا في المرحلة الفاشية-الاحتكارية؟ هل تشكل البيروقراطية طبقة؟ ما هو اليوم وضع النقاش في الوسط الأكاديمي وخارجه حول النظرية الماركسية؟ كيف تُضبَط ثقافة الجماهير من خلال الاحتكار؟

بيّنت المذكرة بوضوح أن هوركهايمر كان لا يزال مقتنعًا بضرورة التعاون المنضبط بين الاختصاصات المختلفة، وأنه كان لا يزال يعلق أهمية مركزية على التحليل الاقتصادي، وأن "كتابه" يجب أن يكون نظرية مادية-تاريخية للاتجاه الكلي للعصر. لكن المقصود بالتعاون بين الاختصاصات المختلفة بقي مبهمًا؛ فما القيمة التي ينبغي أن تكون للتحليل الاقتصادي؛ وما الذي كان يراد تبيانه من خلال وصف العمل لنفسه بأنه نقد أيديولوجي يتضمن اعترافًا بالنموذج الماركسي لنقد الاقتصاد السياسي الذي كان، في الوقت عينه، نقدًا للأوهام التي يقدمها أسلوب الإنتاج الرأسمالي ووصفًا للجوهر المتناقض لهذا الأسلوب.

اهتم هوركهايمر - طبقًا للبرنامج الذي قدّمه في خطبته الافتتاحية، وفي **مجلة الأبحاث الاجتماعية**، وفي **دراسات في السلطة والأسرة** - بالعمل التشاركي بين مجموعة من منظّرين اجتماعيين مؤهلين في اختصاصات علمية متنوعة، ويتمتعون بكفاءة فلسفية متقاربة نوعًا ما. كان هذا حلمه. كتب في آذار/ مارس 1942، قبل أسابيع من تحرير الصفحات الأولى من الكتاب، إلى فليكس فايل: "فعليًا، يجب أن يكون فريتس[148] وأنت هنا نهاية الشهر القادم

(148) أي بولوك.

لتعملا على الأجزاء الاقتصادية والسياسية، ولا يجوز أن ننشغل بأي شيء آخر في الأشهر الستة القادمة. لا تظن للحظة واحدة أننا نستطيع أن نرجئ المسائل التي تخص الأهمية الاقتصادية لما هو قادم، أو المسائل المتصلة بأشكال المقاومة السياسية لمجرد أن فريتس وغروسمان وغورلاند لا يستطيعون الاتفاق، أو لأن عوائق من كل نوع تعترض النقاش الحر لمسائل من هذا النوع. بالنظر إلى غياب أشخاص آخرين يستطيعون تحمل الأعباء عنا، ليس نقص الموهبة الذي تعقلنون به استسلامكم أحيانًا حجةً مقبولة [...]. لقد قامت فكرتي على أنه ينبغي أن يعمل هنا فريتس وأنت في المستقبل مدة أربعة أو خمسة أشهر على الأقل كل سنة، وتعملان باقي السنة في نيويورك، بحيث تُستخدم المدة الكبرى المتبقية من السنة لإنجاز البرنامج النظري. هنا يتعيّن عليكم المشاركة في وضع الأجزاء الأساسية وتشكيلها، وهناك عليكم العمل على الأجزاء الاقتصادية بالتفصيل، بحيث يكون تفسيرنا للمرحلة الراهنة جاهزًا بعد بضع سنوات. في الحقيقة، من غير المفيد أن أحاول إعطاء العمل، حتى ولو بالتعاون مع تيدي، الدقة والواقعية الضروريتين. يجب أن يُملأ العمل بمادة تاريخية واقتصادية حتى ينفجر، وإلا بدا ضربًا من التخمين"[149].

كانت هذه رؤية عن تعاون حقيقي بين منظّرين من مختلف الاختصاصات العلمية، تضم التحليل الاقتصادي والسياسي والنظرية المادية الملموسة. بالنسبة إلى بولوك وفايل، كان يجب أن تبقى رؤية. فكلاهما أثبت أنه غير ملائم لهذه المهمات. لم تظهر المقالة الاقتصادية لـ **دراسات في السلطة والأسرة**، ولا العدد الاقتصادي لعام 1937 لمناسبة ذكرى [يوبيل] صدور **رأس المال** لكارل ماركس، ولا المقالة الاقتصادية الرئيسية لـ **مجلة الأبحاث الاجتماعية**. كما أن إشكالات شخصيتي بولوك وفايل ووجودهما لم تعط سببًا لتوقع أن يتغير الوضع. عندما سافر بولوك في تشرين الأول/ أكتوبر 1942، بعد إقامة طويلة في باسيفيك باليسيدز، مرة أخرى إلى الساحل الشرقي كي يكرس نفسه "للخارج"، اشتكى هوركهايمر من ضرورة العمل المشترك الوثيق لمدة عام أو عامين لإنجاز المهمة النظرية، وأن مصير مخطوطين تركهما بولوك غير مؤكد، ما دمنا "لا نستطيع أن نناقشهما بدقة وندمجهما في نظرية هذا الزمن التي أسعى

(149) رسالة من هوركهايمر إلى فايل، باسيفيك باليسيدز، 10 آذار/ مارس 1942.

إلى تطويرها"[150]. لكن، في نهاية المطاف، لم يكن لديه - هو الذي كان ممزقًا بين الحاجة إلى الاستناد إلى السلطة والحاجة إلى العزلة بعد الانسحاب - كثير من الاعتراضات ضد مسوغات بولوك لقطع إقامته في لوس أنجلس وبذل الجهد للحصول على وظيفة أخرى في موقع حكومي في واشنطن. أجاب بولوك الذي أراد أن يرى هوركهايمر على الدوام بمنأى عن الإلهاء عن المهمة النظرية الكبرى: "حتى لو كان علينا أن ننجح في خلق قاعدة مادية في لوس أنجلس، أخشى أنني لا أستطيع البقاء هناك الفترة كلها. إذا لم تكن في نيويورك و/أو واشنطن سوف تخسر كل الصلات بمراكز السلطة (قد تكون علاقاتنا غير ملائمة وضعيفة)، وتنتهي إلى عزلة مطبقة. لست متأكدًا إن كان سيؤثر في عملكم تأثيرًا سيئًا إن عرفتم أن لكم كلب حراسة جيدًا نسبيًا في الساحل الشرقي"[151]. في الواقع، كان هوركهايمر مغلوبًا على أمره مثلًا عندما دعت إليانور روزفلت بولوك مع مجموعة من الأشخاص الآخرين لتناول الغداء في البيت الأبيض. فكتب ردًا على تقرير بولوك: "أود أن أخبرك أن الدعوة التي كُرّمتم بها كانت مدعاة رضًى لمايدون ولي. أنت تعلم أنني لا أغالي في شأن النجاحات خصوصًا عندما لا يكون هناك إلا فرصة ضئيلة في أن تكون لها أي نتائج ملموسة. غير أنني في هذه الحالة أفكر جديًا في أننا يجب أن نكون ممتنّين جدًا. كانت تجربة عظيمة، وسواء أأثمرت أم لم تثمر، يجب أن تكون فخورًا بها. فهي تخبرك أكثر من مرة كم سأعطي في ما لو عُرِضت علي الفرصة للاستماع إلى مناقشات الأهمية التاريخية. بدعوتك تحقق بعض من تلك الأمنية"[152].

كان وَقْعُ غياب بولوك وفايل على هوركهايمر أكثر قسوة، لأنه ربط التعاون بين المنظّرين في الاختصاصات المختلفة بوجود حلقة صغيرة متماسكة. كان يدافع في مناسبات أخرى عن نقيض ما كان قد خطط له في رسالته إلى فايل، وهذا يعود في جزء منه على الأرجح إلى الشعور بالمرارة من استحالة تحقيق هذا الحلم، وفي جزء آخر بسبب تغيّر تصوّره عنه.

---

(150) رسالة من هوركهايمر إلى بولوك، باسيفيك باليسيدز، 12 تشرين الأول/أكتوبر 1942.

(151) رسالة من بولوك إلى هوركهايمر، 5 تشرين الثاني/نوفمبر 1942.

(152) رسالة من هوركهايمر إلى بولوك، 10 شباط/فبراير 1943.

في تحليل مستفيض لكتاب هوركهايمر **العقل والحفاظ على الذات** لم يكن مفكرًا في نشره، اقترح تيليش لعمل هوركهايمر في المستقبل "كتابًا حجاجيًا غنيًا بمادته". لكن هذا بالذات ما ينبغي - كما كتب إليه هوركهايمر - ألّا يصدر في العمل المشترك. إن هذا بالتأكيد الاقتراح المعقول الأكثر إنسانية، سواء بسبب القارئ الذي سوف يُعامَل في ذلك على نحو "ديمقراطي"، أو بسبب القدر الخارجي للمؤلفين. "إلا أنك أنت بالذات لن تفترض أن مثل هذا النشر يمكن أن يميز نفسه من العناصر الأدبية التي تلقي الضوء على تلك الفظاعة بصورة تختلف عما هي من خلال أطروحات غريبة. لكن ما هي الأطروحات! أطروحاتنا، من حيث هي مبادئ نشر ناجح، سوف تضيف إلى باقة الألعاب النارية في أحسن الأحوال ظلًا لونيًا جديدًا. أعرف بالتأكيد حُسن نيّاتك اللامحدود في هذا الأمر. لكن ألا يجب أن يكون هناك تفكير آخر لا يهتم إلا بالسعي وراء النجاح؟"[153]. ما كان يدور في خلده بدلًا من ذلك، أشار إليه هوركهايمر من خلال مقبوس له من "مقالة صغيرة عن العلاقات الأوروبية". جاء في هذه المقالة: "سيصبح أسلوب النظرية أكثر بساطة، لكن هذا لن يكون إلا لأن الأسلوب سيكشف البساطة، بحيث يجعلها تعي من خلالها أنها تعكس العملية البربرية. إنه يماثل نفسه بالعصابات في شدة الكراهية، ليصبح من خلال ذلك نقيضها. ويغدو منْطِقه مختصرًا مثل عدالتها، وشنيعًا مثل كذبها، وبلا ضمير مثل وكلائها، فيصبح في هذا التناقض مع البربرية محددًا ودقيقًا وذا ضمير [...]. عندما تحذف [الفلسفة] الجملة الإضافية التي تجعل تشويه الإنسانية نسبيًا، فإنها تنسب إلى الهول الإطلاقيةَ التي تنتج منه. ما هو مقدس في منظور الفلسفة هو تظليل الرغبة الدقيق. إلا أن في غياب وصف شامل للجهاز، وفي غياب الروابط التركيبية لـ'لماذا' و'لأن' و'متى' المتعلقة بهذه الويلات، يجري الحديث في الفلسفة عن ليل اليأس الذي تتساوى فيه ضحية مع الأخرى. يلجأ العلم إلى الإحصاء؛ فالمعرفة يكفيها معسكر اعتقال **واحد**"[154].

---

(153) رسالة من هوركهايمر إلى تيليش، 12 آب/ أغسطس 1942.

(154) رسالة من هوركهايمر إلى تيليش، 12 آب/ أغسطس 1942.

بهذا تم تحديد تصوّر قام على خط كتّاب عصر البرجوازية السوداويين الذين يُعجَب بهم هوركهايمر. وهو تصور يتطابق أيضًا مع حلم هوركهايمر، إلا أنه استبعد التعاون الفعلي بين الاختصاصات المتعددة وتحقيق نظرية مادية للاتجاه الاجتماعي الكلي للعصر، وعنى قطيعة علنية بين العمل الفلسفي الخاص والعمل الذي يقوم به معهدٌ للأبحاث الاجتماعية. أمام ذلك تراجع هوركهايمر. ولهذا السبب مضى نحو طريقة عمل ثالثة في الممارسة العملية، تعزى تارة إلى عمل إضافي للخبراء من حين إلى آخر، وتارة أخرى إلى الفلاسفة الذين يجعلون من أنفسهم خبراء أحيانًا. كان الموضوعان اللذان بُدِئ العمل عليهما بالاستعانة بطريقة العمل الثالثة هذه هما نظرية العصابات ومشكلة معاداة السامية.

كانت نظرية العصابات هي إجابة هوركهايمر، بصيغة أطروحات، على الأسئلة التي طرحتها المذكرة عما صارت في المرحلة الفاشية الاحتكارية الطبقة العاملة والطبقة الرأسمالية. كان ينبغي للكتاب السنوي الذي كان مخططًا أن يكون استمرارًا للمجلة أن يحوي مساهمات في نظرية العصابات لكل من كيرشهايمر ونويمان وغورلاند ولهوركهايمر/ أدورنو/ ماركوزه. كتب هوركهايمر إلى ماركوزه: "كلما كانت المادة الواقعية التي نستطيع جمعها أكبر، اكتسبت جوانبنا النظرية خصائص مادية أكثر. يجب أن يكون بمقدورنا تقديم مخطط حول هذا الموضوع في مطلع العام الجديد. لعل الأمر غريب جدًا، لكن لدي الشعور بأن تحقيق هذا المخطط سيكون الخطوة الأولى نحو تقديم جزء من النظرية النقدية التي لن تكون محض نظرية فلسفية"[155].

قام أدورنو بأعمال تحضيرية جادة لتوضيح نظرية العصابات التي فكّر فيها كقوام اقتصادي-سياسي لمشروع الجدل. جمع بناءً على قائمة "تصنيفات العصابات" مادةً من تاريخ الثقافة الإغريقية معتمدًا في المقام الأول على كتاب **تاريخ ثقافة اليونان** لياكوب بوركهارت، وصاغ إبان زيارة إلى نيويورك كتاب هوركهايمر **تأملات في نظرية الطبقات**، وقد استند الكتابان جزئيًا إلى مناقشاتهما في هذا الموضوع. "لا شيء قاد قوانين التبادل إلى أحدث أشكال

(155) رسالة من هوركهايمر إلى ماركوزه، نيويورك، 17 آب/ أغسطس 1942.

الحكم مثل الشكل المناسب تاريخيًا لإعادة إنتاج المجتمع برمته في المرحلة الراهنة" - كما جاء هناك بالارتباط مع الأطروحة المتعلقة بالسجال حول "رأسمالية الدولة" التي يمثلها هوركهايمر وبولوك وهو نفسه، والتي تقضي بالأولوية الفاشية للسياسة على الاقتصاد - "بل كان الحكم القديم قد دخل في الجهاز الاقتصادي أحيانًا، كي يفككه بالسيطرة الكاملة عليه ويسهل الحياة لنفسه. في هذا الإلغاء للطبقات تعود السيطرة الطبقية إلى ذاتها. فالتاريخ، بحسب صورة المرحلة الاقتصادية الأخيرة، هو تاريخ الاحتكارات. ووفق صورة اغتصاب السلطة الواضح الذي يقوم به اليوم قادة رأس المال والعمل المسالمون، فإن الاغتصاب هو تاريخ صراع المجموعات والعصابات والجماعات الإجرامية"[156].

كتب هوركهايمر لاحقًا بالاشتراك مع أدورنو مخططًا لـ **سوسيولوجيا علاقات الطبقة** يتلاءم في الجوهر مع **التأملات**. وقد ضم إليه تعليقات كل من كيرشهايمر وماركوزه ونويمان. طرح كيرشهايمر مثلًا أن طبقة العمال تحولت إلى "كلية براغماتية"، بحيث أصبحت عملية الإنتاج الأساس الذي تقوم عليه شرعية المجتمع، وبحيث أمكن اعتبار مجتمعات ما قبل الرأسمالية أنظمة عصابات، أو أنظمة حكم مباشر، تفتقر إلى أنظمة تسويغ أيديولوجية مهمة فعليًا.

كان كيرشهايمر - الذي كان آخر من ذهب إلى واشنطن من العاملين الذين ساهموا في إطار وظيفة بدوام كامل في المجهود الحربي للمعهد - هو الوحيد الذي أنجز في عام 1943 مقالة "سؤال السيادة" التي تطرّق فيها باختصار إلى مفهوم العصابة، لكن من غير أن يتمكن من جعل أهميته المركزية ممكنة. صدرت مقالة كيرشهايمر في عام 1944 في *Journal of Politics* (**مجلة السياسة**). وقد أُدخلت أجزاء من مقالة هوركهايمر لاحقًا في **كسوف العقل**[157]. بقيت نظرية العصابة عملًا غير مكتمل لهوركهايمر وأدورنو. ثم

(156) نشر بعد وفاته في:

Adorno, *Gesemmalte Schriften*, vol. 8, p. 381.

(157) يُنظر:

Horkheimer, *Gesemmalte Schriften*, vol. 12, pp. 75 ff.

أُدخلت أفكاره الأكثر أهمية في **جدل التنوير** من غير أن يتم التوصل، بالتعاون الوثيق مع نويمان وكيرشهايمر وآخرين، إلى اختبار الفرضيات النيّرة البعيدة المدى على المادة الاقتصادية-السياسية-القانونية العملية، ولا إلى معالجة مادية ملموسة للموضوع.

لم يبق في النهاية إلا التركيز على معاداة السامية من حيث هي نقطة تبلُّر واعدة للتعاون بين اختصاصات متعددة في نطاق مشروع الجدل. في أي حال، لم يكن ليلاحَظ في الأشهر الأولى من العمل على كتاب **الجدل** الكثير مما يشير إلى التركيز على معاداة السامية. كما لم تأت **المذكرة** إلى ذكر أي شيء من هذا القبيل. وبدا كما لو أن هوركهايمر وأدورنو قد فزعا من هذا الموضوع أو أنهما تركاه يقوم بتأثيره بوصفه مركزًا خفيًا. غير أن الاعتبارات التي جعلته بعدئذ الموضوع المركزي لبرنامج البحث كانت مثيرة للدهشة. فبعد ضمان الدعم المالي من اللجنة اليهودية الأميركية لمشروع بحث المعهد حول معاداة السامية لمدة عام على الأقل[158]، أخبر هوركهايمر ماركوزه المندهش، وهو الذي لم يستطع أن يرى في مشاركة هوركهايمر في المشروع إلا إلهاءً لا ينطوي على مسؤولية عن عمله الحقيقي على كتاب الفلسفة، في ربيع 1943: "صحيح أن عليّ، في أثناء الأشهر الأولى على الأقل، أن أقطع عملي لمدة ساعة أو ساعتين يوميًا، وفي معظم الأحيان من أجل لا شيء، لكنك سوف تتذكر أننا في مطلع إقامتنا هنا حاولنا أنت وأنا أن نجد موضوعًا يمكن أن يحقق المطلبين؛ أولًا مواجهة مصلحة أوسع نوعًا ما من أفكارنا في شكلها المجرّد، وثانيًا عرض فرصة لتطوير بعض تلك الأفكار في مادة أكثر تجسيدًا. كنت أريد أن تتاح لنا مناسبة للتعبير عن أفكارنا النظرية وتقديم أنفسنا في الوقت عينه بوصفنا خبراء في مشكلات اجتماعية محددة. في ذلك الوقت اقترحت أنت الديمقراطية كموضوع مرغوب فيه، لكننا رفضنا تلك الإمكانية لأسباب محددة. في أي حال، كانت رغبتي في ألا أبقى بعيدًا جدًا من تلك الأسئلة قوية للغاية، بحيث أعددنا، تيدي وأنا، كمًّا كبيرًا من المواد، وحتى كتبنا جزءًا من المذكرة الجديدة حول الشوفينية الألمانية التي كنا قد فكرنا بأنها يجب أن تتحول إلى كتاب. وعوضًا عن الكتاب حول ألمانيا، سوف نكتب الآن حول معاداة السامية؛ وعوضًا عن تخصيص نصف

---

(158) يُنظر ص 494-495 في هذا الكتاب.

وقتنا، سوف نكرس معظمه لهذا الغرض. أشكّ كثيرًا في ما إذا كانت اللجنة سوف تحب الجزء الذي نقوم به في لوس أنجلس. لكنني أعرف أن جهودنا لن تثبت بأنها بلا قيمة تمامًا بالنسبة إلى تطوّرنا النظري المشترك"[159].

بدا وكأن التركيز على موضوع معاداة السامية كان يتطلب بالضرورة دافعًا خارجيًا؛ وهو تفويض يجب أن يصنع منه المرء أفضل ما يمكن، لا بل ويستطيع أيضًا. لكن، قبل كل شيء، بدا لهوركهايمر أن مشروع الجدل ومشروع معاداة السامية أمران مختلفان. إنهما أشبه بنظرية مجردة وتطبيقها على موضوع عياني، أو بالمنطق الهيغلي بالنسبة إلى فلسفة التاريخ أو فلسفة الحق أو فلسفة الفن الهيغلية. ألا يكون ذلك تحويلًا للفارق ضمن سيرورة العمل النظرية-التجريبية إلى تفريق ينسب إلى النظرية بصمت وجاهة التأمل ويجعله مستقلًا عن المعرفة التجريبية الملائمة علميًا، وينكر في المقابل على البحث التجريبي أهميته كبعد لتجربة تأملية، ويخفضه إلى وسيط لإيضاح النظرية؟ على أن استعداد هوركهايمر وأدورنو لتكريس نفسيهما لمشروع معاداة السامية بالشدة ذاتها التي أظهراها في مشروع الجدل وحقيقة أن كليهما كانا يشددان كثيرًا على الدور المركزي لمشكلة معاداة السامية تحديدًا بالنسبة إلى النظرية في عصرهما، أبقيا الباب مفتوحًا في ما يتعلق بالكيفية التي يمكن أن تتشكل فيها، في النهاية، العلاقة بين مشروعي الجدل ومعاداة السامية والعلاقة بين العمل الفلسفي والبحث الذي تشترك فيه العلوم التخصصية المختلفة، وما إذا كانت الحماسة للنظرية والكلام الذي يزدري البحث العلمي التخصصي والتجريبي لا ينتج حصريًا من التقديرات والأمزجة الشخصية التي تبقى بلا تأثير جوهري في ممارسة العمل العلمي ونتائجه، خصوصًا عندما تجبر التأثيرات الخارجية على التعامل بجدية مع بُعْدَي العمل.

لم تكتفِ **المذكرة** بإظهار أن العمل على كتاب **الجدل** يجب أن يستند إلى تعاون العلوم التخصصية المختلفة، بل أظهرت أيضًا أن التأكيد في الفصل الأول يجب أن يكون مختلفًا عما حصل فعليًا بعد ذلك، وأنه يجب أيضًا معالجة الخصائص المحررة للتنوير والبراغماتية، مثلما تعالج الخصائص القامعة.

(159) رسالة من هوركهايمر إلى ماركوزه، 3 نيسان/أبريل 1943.

لكن عندما أُنجز في نهاية عام 1942 الفصل الأول من مشروع الكتاب، رأى هوركهايمر في رسالة إلى ماركوزه: "في أثناء الأيام الأخيرة كرست كل دقيقة لتلك الصفحات حول الميثولوجيا والتنوير، والتي من المحتمل أن تنتهي في هذا الأسبوع. أخشى أن يكون أصعب نص كتبته في حياتي. وبعيدًا عن ذلك يبدو سلبيًا إلى حد ما، وأنا أحاول الآن التغلب على هذا الأمر. يجب ألا نبدو مثل أولئك الذين يتحسَّرون للتو على آثار البراغماتية. في أي حال، أرفض أن أضيف ببساطة فقرة أكثر إيجابية مع لحن: 'لكن بعد هذا كله ليست العقلانية والبراغماتية على هذا الحد من السوء'. يبدو التحليل العدائي بالشكل الذي أُنجز فيه في الفصل الأول هذا تأكيدًا أفضل للوظيفة الإيجابية للذكاء العقلاني من أي شيء آخر يمكن قوله بهدف التقليل من أهمية الهجوم على المنطق التقليدي والفلسفة المرتبطة به"[160].

حصل الأمر ذاته مع الأسطورة، الموضوع الذي شكّل القطب المقابل للتنوير، على الرغم من أن **المذكرة** لم تأت على ذكرها. أدت في نظر هوركهايمر وأدورنو فكرة الارتقاء ببقايا الإرث الأسطوري، العناصر اليوتوبية في الأساطير، دورًا مهمًا في تحديد تصور عقل مفكر ومفهوم إيجابي للتنوير. كان هوركهايمر قد أكد حيال ماركوزه في تحضيراته لمقالة العقل أن "أبَوَينا الروحيَّين[161] لم يكونا غبيَّين عندما اهتمّا بثبات بالتاريخ الأوّلي. ربما نظرا إلى بعض الكتب المفيدة حول الإثنولوجيا والميثولوجيا. ليس لدينا هنا إلا باخوفن ورايناخ وفريزر وبالطبع روده وليفي-برول؛ ومن الأدب الحديث مالينوفسكي والأنثروبولوجيا الثقافية للوفه. تنقصنا 'الإنسانية القديمة' لمورغان [...]"[162]. انشغل هوركهايمر في الأعمال التحضيرية المباشرة للكتاب بالأدبَين الإثنولوجي والميثولوجي حول مفهوم العمل والتصورات المتصلة به. كان هدفه - كما أظهرت رسالة بعث بها إلى نويمان في 18 حزيران/ يونيو 1942 - أن يقابل "تطهير" مفاهيم مركزية لـ "بقايا الإحيائية"، كما ثبّتها نقديًا في [مقالة] "أفول العقل"، بسموّ تأملي للعناصر القديمة المتضمنة حتى اليوم في مثل هذه

(160) رسالة من هوركهايمر إلى ماركوزه، 19 كانون الأول/ ديسمبر 1942.

(161) أي ماركس وإنغلز.

(162) رسالة من هوركهايمر إلى ماركوزه، باسيفيك باليسيدز، 14 تشرين الأول/ أكتوبر 1941.

المفاهيم. لم تحصل هذه التأملات على أهمية متميزة إلا في كتاب هوركهايمر **كسوف العقل**. في كتابهما المشترك **جدل التنوير**، وضع هوركهايمر وأدورنو تصور السلبية المحددة في المقدمة، أي سلبية محددة تعزى إلى التنوير الذي انطلق وليس إلى استمرار الأساطير.

أخيرًا حصل الشيء نفسه أيضًا لموضوع الفصل الثاني: الثقافة الجماهيرية. "الفقرة حول صناعة الثقافة جزئية أكثر بكثير من الفقرات الأخرى"، هذا ما أكده لاحقًا هوركهايمر وأدورنو في مقدمة **جدل التنوير**. وورد في ما بعد في جملة محذوفة في إصدار الكتاب في الطبعة المنسوخة على الآلة الناسخة عام 1944: "أجزاء كبيرة كانت قد أنجزت منذ مدة طويلة، لا تحتاج إلا إلى التحرير الأخير. تحضر فيها إلى الكلام أيضًا الجوانب الإيجابية للثقافة الجماهيرية" (كانت الجوانب الإيجابية للثقافة الجماهيرية أو تطور الأشكال الإيجابية للثقافة الجماهيرية في [كتاب] **التأليف الموسيقي للأفلام** الذي ألّفه أدورنو بين عامي 1942 و1945 بالاشتراك مع هانز أيزلر الذي كان قد تلقى في مطلع الأربعينيات بوصفه أستاذًا محاضرًا في المدرسة الجديدة للبحث الاجتماعي التابعة لمؤسسة روكفلر تمويلًا لمشروع موسيقى الأفلام).

هذا كله أدى إلى صراحة ونقص في التكوين، بحيث يمكن تصوّر أنه صعب على القارئ اللاحق لـ **جدل التنوير** من خلال المقدمة السوداء التقريرية، خصوصًا وقد أُسقط في مقدمة إصدار الكتاب في عام 1947 مقطع طويل من مقدمة الإصدار المطبوع على الآلة الناسخة، يلخص تعقيد الأعمال التي انتُخبت منها **الشذرات الفلسفية** المنشورة والتي قدمت "معقولية علاقتها الداخلية ووحدة اللغة" مبدأً أساسيًا لانتخاب الشذرات.

وصف هوركهايمر في رسالة إلى تيليش كيف كان يبدو مسار يومه في أشهر العمل المكثف على كتاب **الجدل**. كتب الرسالة في وقت كان ماركوزه لا يزال يعمل في لوس أنجلس، وكان بولوك وفليكس فايل موجودين هناك إبان واحدة من إقاماتهما المتقطعة. "تسير حياتي بانتظام تمامًا. أقوم في الصباح بنزهة صغيرة مع بولوك، ثم أكتب بعد دراسة منهجية نوعًا من ملاحظات ومخططات، وبعد الظهيرة ألتقي غالبًا تيدي لأحدد معه النص الأخير. أحيانًا أناقش أيضًا مع ماركوزه الأقسام التي أنيط إنجازها به. أما المساء فأخصصه لبولوك وأحيانًا

لفايل أيضًا. يتخلل ذلك حلقات بحث وانشغال بالمسائل العملية للمعهد. بعد أقل من شهرين، بات بمقدوري القول إننا نعمل على النص الفعلي [...]. هناك مجموعة ضخمة للغاية من التدوينات المؤقتة، إلا أن الصياغة النهائية لا تزال تتطلب سنوات. وهذا يعود بعضه إلى الصعوبة الموضوعية لمهمة تقديم صياغة للفلسفة الجدلية تُنصِف تجارب العقود الأخيرة، ويعود بعضه الآخر إلى روتيننا الذي يعتوره النقص، وإلى ثقل التفكير وغياب الوضوح في نقاط مهمة لا نزال مربكين حيالها"[163].

تطابقت بيئة توماس مان البرجوازية الكبيرة التي وصفها هوركهايمر هنا مع المزاعم الكلاسيكية التي ربطها بعمله. وكتب هوركهايمر في رسالة إلى بولوك: "لا يوجد شك في أن الدراسات التي أجريها الآن والتي هي، في الحقيقة، تحقيق لما حلمنا أن يكون سبب وجودنا[164] عندما كنا في ريعان الشباب، لا يمكن أن تنجز في عام واحد أو عامين. أنا لا أكافح من أجل صنع كتاب كما فعل نويمان وكل الآخرين ممن يفرغون، تحت ضغط الضرورة والمنافسة، بهذه الدرجة أو تلك أدبَ اليوم المفيد. لقد احتاج هوسرل إلى عشر سنوات ليكتب مباحثه المنطقية، وإلى ثلاث عشرة سنة لينشر مدخله إلى فينومينولوجيا خالصة، هذا إن لم نتكلم على أعمال أكثر شهرة في الفلسفة ومواد ذات صلة، وإذا أخذتَ قواي الضعيفة وثقافتي وروتيني في الاعتبار، سوف تقدّر ما أنا في صدده"[165].

في أوقات أخرى، عانى من أنه على الرغم من العمل القاسي، لم يقدم بعد أي شيء مطبوع أو مؤثر. "على الرغم من الفصول والصفحات الجاهزة، ليس في مقدور أحد ممن ليس متآلفًا عن قرب مع الموضوع أن يرى من خلال هذه الوثائق التقدم النظري الذي حققته إبان هذه المدة. فكر كيف ستكون ردة فعل ليكس[166] إذا ما واجه ما قمنا به. سوف تنكشف له الحقيقة تمامًا"[167].

(163) رسالة من هوركهايمر إلى تيليش، 12 كانون الأول/ ديسمبر 1942.
(164) وردت بالفرنسية في النص: raison d'être. (المترجم)
(165) رسالة من هوركهايمر إلى بولوك، 27 تشرين الثاني/ نوفمبر 1942.
(166) أي فليكس فايل.
(167) رسالة من هوركهايمر إلى بولوك، 11 نيسان/ أبريل 1943.

في نهاية عام 1942، غدا الفصل الأول جاهزًا. وفي وقت متأخر من صيف 1942 - في أثناء سفر هوركهايمر إلى نيويورك - كتب أدورنو، إضافة إلى **تأملات في نظرية الطبقات**، مخططًا أول لفصل ثقافة الجماهير. علاوة على ذلك، استعرضا معًا عرض هوركهايمر للفصل الأول الذي عالج نتائج مفهوم كانط للتنوير على الفلسفة العملية. وأكثر من ذلك، أنجز أدورنو عرضًا حول تفسير **أوديسة** هوميروس. وكما كتب هوركهايمر إلى بولوك معلقًا: "قررنا أن هذا العمل يجب أن يتم، لأن الأوديسة هي أول وثيقة عن أنثروبولوجيا الإنسان بالمعنى الحديث، أي بمعنى الكائن المتنور عقلانيًا. ما تعلمناه من هذه الدراسة سوف يكون أيضًا ذا قيمة للمشروع[168]. ذلك أن فكرة التضحية الطقسية التي حاول أوديسيوس التغلب عليها قد تؤدي دورًا مهيمنًا في سيكولوجيا معاداة السامية"[169]. في النهاية، كانت هناك أقسام لفصل أنثروبولوجي في المخطط، وعمل هوركهايمر وأدورنو باستمرار على أمثال وحكم نُشرت بوصفها أمثلة لأشكال تفكير، والتي يتعيّن في ما بعد دمجها في فصول الكتاب الأخرى. ما غاب عما سيتشكل منه لاحقًا **جدل التنوير** كان وحده فصل معاداة السامية الذي لم يكن موجودًا في صيغة مشروع على الأقل. لكن لم يكن يُفكَّر فيه، بادئ الأمر، كقسم من الكتاب الأول ونتاج لمشروع الجدل، بل لعمل نظري لمشروع معاداة السامية.

فكر هوركهايمر في غضون ذلك في أن ينشر بشكل منفصل الفصل حول ثقافة الجماهير الذي كان قد خُطط له أن يكون عملًا مستقلًا. على هذا النحو، كان شديد الإصرار على تمكّنه من أن يظهر أخيرًا النتائج الأولى لدراستهما المشتركة الضخمة، لا بل كان ينوي توظيف مترجم يتيح لهما نشاطه الاستشاري والرقابي المستمر تأليف هذا الفصل باللغة الإنكليزية فوريًا؛ إلا أن هذه الرغبة لم تتحقق أيضًا، لكنها بيّنت بوضوح كم كان يحلم هوركهايمر وأدورنو بتقديم نفسيهما إلى الجمهور في الولايات المتحدة الأميركية. تأخر إنجاز فصل ثقافة الجماهير، وتركزت مقاصد هوركهايمر على أن ينتج في نهاية السنة كتابًا مطبوعًا على الآلة الناسخة بالأعمال المتوفرة المتصلة بكتاب **الجدل**.

---

(168) أي مشروع معاداة السامية.

(169) رسالة من هوركهايمر إلى بولوك، 20 آذار/ مارس 1943.

وقد أخبر بولوك في منتصف عام 1943: "جميع هذه الأجزاء مجتمعة تشكل صلب الوثائق التي في رأيي ستجعل من الممكن أخذ فكرة عن الكتاب كما أُريد له أن يبقى. في اعتقادي أن هذه الأجزاء تضم مبادئ الفلسفة التي يمكننا الوقوف معها، والتي هي مبادئ أصيلة"[170].

إلى جانب تنقيح هذه الأجزاء وإتمامها، أخذ العمل على أطروحات حول سيكولوجيا معاداة السامية مساحة أكبر على الدوام منذ منتصف عام 1943، وهي الأطروحات التي كان يفكر فيها للقسم النظري من مشروع معاداة السامية. شارك في الأطروحات الثلاث الأولى التي نُشرت في ما بعد في **جدل التنوير** لوفنتال الذي أقام في صيف 1943 لبضعة أشهر في الساحل الغربي، تعويضًا نوعًا ما عن انتقاله الذي كان هوركهايمر يأمل فيه مرارًا وتكرارًا. وفي ما عدا ذلك، حصلت أطروحات معاداة السامية على شكلها النهائي بالطريقة نفسها التي حصل عليها القسم الأكبر من شذرات **جدل التنوير**، وذلك بإملاء هوركهايمر وأدورنو معًا على غريتل أدورنو.

كتب لوفنتال مرة إلى هوركهايمر أن شدة إنتاج أدورنو الشفهي والكتابي وكميته تسببان له في بعض الأحيان الاضطراب والخوف، وأفهم بولوك - وقد جعل أدورنو عند وضع خطة مشروع معاداة السامية قوة عمل بدوام كامل، مع أنه كان عليه أن يستمر في العمل على مشروع الجدل - هوركهايمر، أن ما يعنيه العمل بدوام كامل وفق المعايير المألوفة، لا يساوي إلا جزءًا ضئيلًا من قدرة عمل أدورنو. إنتاجية أدورنو وحقيقة أن زوجته ساعدت تقريبًا كسكرتيرة بدوام كامل في مشروعي الجدل ومعاداة السامية، دفعتا هوركهايمر إلى أن يستجيب في النهاية إلى رجاء أدورنو شهورًا طويلة زيادة راتبه الشهري ورفعه في مطلع عام 1944 إلى 400 دولار.

كان على هوركهايمر في شباط/ فبراير 1944 - من أجل إرضائه - أن يلقي محاضرات في جامعة كولومبيا في نيويورك، أراد فيها - تحت عنوان "المجتمع والعقل" - أن يقدم في صيغة شعبية نتائج عملهما المشترك. من هذه المحاضرات تطور كتاب **كسوف العقل** الذي نُشر في عام 1947. كل ما يجب

---

(170) رسالة من هوركهايمر إلى بولوك، 17 حزيران/ يونيو 1943.

أن يُضَمَّن في الكتاب المطبوع على الآلة الناسخة كان ينبغي أن يكون جاهزًا بحلول موعد المحاضرات. ولأنه لم يكن متوقعًا أن تنشر نتائج السنة الأولى من مشروع معاداة السامية، ولأنه كانت هناك، فضلًا عن ذلك، آمال في أن يستمر ذلك المشروع في نطاق موسع، ضُمّت الأطروحات حول معاداة السامية إلى مجموع الدراسات في كتاب **الجدل** المطبوع نسخًا. في المقابل، كان من بين الأجزاء التي أُغفلت أجزاءٌ حول المنطق الجدلي، أي حول ذلك التصور الذي يراه هوركهايمر على الدوام النقطة المركزية للكتاب الذي كان يزمع تأليفه. في أيار/ مايو 1944 استطاع هوركهايمر وأدورنو أن يسلما بولوك في عيد ميلاده الخمسين المخطوط الجاهز. وفي نهاية العام صدر الكتاب مطبوعًا على الآلة الناسخة - نسخة بغلاف مقوى، مطبوعة على الآلة الكاتبة بطريقة الهكتوغرافي - في طبعة من 500 نسخة كإصدار لمعهد البحث الاجتماعي. وكان عنوانه البسيط الذي ينم عن وعي ذاتي هو **شذرات فلسفية**.

لم تتحقق خطة هوركهايمر لإصدار نسخة باللغة الإنكليزية، والتي كان قد وضعها نصب عينيه عند شروعه بالعمل على الكتاب. بعد ثلاث سنوات صدر كتاب **شذرات فلسفية** - لم يضف إليه إلا أطروحة أخيرة عن معاداة السامية، وخُفّفت في مواقع كثيرة نبرة اللغة المعادية للرأسمالية - في دار نشر كويريدو (Querido) في المنفى في أمستردام بشكل كتاب نظامي بعنوان رئيس **جدل التنوير** (كان هذا عنوان الفصل الأول من النسخة المطبوعة على الآلة الناسخة). وجاء في نهاية المقدمة عام 1944: "إذا استمر الحظ السعيد أيضًا، نأمل أن ننهي كل شيء في وقت ليس ببعيد جدًا". هذه العبارة أبقى عليها هوركهايمر وأدورنو في طبعة الكتاب لعام 1947. في الواقع، كانا لا يزالان يأملان مواصلة العمل، حتى في ما بعد عندما عادا إلى جمهورية ألمانيا الاتحادية. إلا أن النقاشات التي حاولا فيها أن يوضحا في تشرين الأول/ أكتوبر 1946 كيفية إنقاذ التنوير وكيفية تطوير مفهوم العقل الصحيح، أفضت إلى حيرة وارتباك كبيرين[171]. فحَذْف المقطع من المقدمة المذكورة أعلاه والحقيقة المتمثلة في عدم ظهور التتمّة الموضوعية للدراسة جعلا الكتاب يبدو مختلفًا عما كان يدل عليه شكل

(171) يُنظر محاضر المناقشات في:
Horkheimer, *Gesemmalte Schriften*, vol. 12, pp. 594 ff.

ظهوره الأصلي: أي غدا جزءًا كاملًا يُدوَّن فيه الجوهري الذي أراد المؤلفان قوله. كان هذا تأثير استطاع أن يرضي كليهما. في الحقيقة، شدّد هوركهايمر وأدورنو في إعلان ذاتي عن الكتاب في نسختة المطبوعة على الآلة الناسخة بأن الكتاب يتألف من أجزاء من عمل فلسفي قيد الإعداد، سوف يستغرق إنجازه النهائي بضع سنوات. لكنهما أصرّا أيضًا على استقلالية ما كانا يقدمانه: استعانا بصيغة المقالة في شرح تصوّراتهما، عملًا بتقليد مونتاين ونيتشه، لأن هذه الصيغة بدت لهما ملائمة لدراسات "في مناطق من الفكر لم تُستكشَف حتى الآن".

"جدل التنوير"، و"شذرات فلسفية"

يمثّل العمل على كتاب **الجدل** بالنسبة إلى أدورنو - وهذا ما يمكن قوله على خلفية التطور النظري للمؤلفَين - اللحظة التي استطاع فيها أن يكتب مقابل مشروع بنيامين عن التاريخ الأصلي للقرن التاسع عشر التاريخَ الأصلي للمثالية والمحايثة والروح المتعالي والذاتية المسيطِرة. في هذا التاريخ، أُلقي الضوء على أشكال الأسطورة والحداثة، والطبيعة والتاريخ، والقديم والجديد، والمماثل والمختلف، والانهيار والإنقاذ، وكان يتعيّن على أفكار نصَّيه في جدل التقدم الموسيقي - "شذرات حول فاغنر"[172]، ومقالة شونبرغ "حول فلسفة الموسيقى الجديدة" (عام 1940/ 1941) - إثبات أهميتهما بالنسبة إلى نظرية المجتمع وفلسفة التاريخ. اهتم هوركهايمر بوضع نقده للوضعية ونقده للأنثروبولوجيا البرجوازية في إطار أوسع وباستخلاص نتائج نظرية من نقده كبت الأسئلة الدينية ومن اعترافه بنقد بنيامين للتقدم الذي لا يعرف الرحمة. أكّد هوركهايمر، مرارًا وتكرارًا، أن اللاعقلانية والميتافيزيقا أثبتتا على نحو صحيح إفلاس العقلانية، لكنهما استخلصتا منها النتائج الخاطئة. بالنسبة إليه، كان يجب أن ترسم النتائج الصحيحة بوضوح أكبر، وبعلاقة أوثق مع التجارب الأحدث على نحو مناسب أكثر مما كان ممكنًا من خلال برنامج يواصل نقد ماركس للاقتصاد السياسي عبر نوع من السمو المادي للجدل الهيغلي.

(172) Adorno, "Fragmente über Wagner", *Zeitschrift für Sozialforschung* (1939).

"معرفة لماذا تغرق البشرية في نوع جديد من البربرية، بدلًا من أن تدخل في حالة إنسانية حقة"، هو ما يصف المؤلفان به في هذه المقدمة هدف عملهما المشترك. لقد كانا ذات يوم نصيرَين متحمسَين للتنوير: هوركهايمر كان نصيرًا للتنوير الفرنسي بوصفه فضحًا للنفاق والظلم الاجتماعيين، أما أدورنو فكان نصيرًا للتنوير والإضاءة على كل ما هو غريزي ومظلم ووحشي ولاواع؛ وكان كلاهما مع الاكتشاف الماركسي للشروط الاجتماعية الاقتصادية للتحررً الإنساني. جاء في عرض "مشروع البحث حول معاداة السامية" في مجلة **دراسات في الفلسفة والعلوم الاجتماعية** في عام 1941 أن "التسوية التي تنتج من التفكير المجرد هي شرط أساسي لتطور العالم، بمعنى إنساني حقيقي، لأن هذا النموذج من التفكير يجرد العلاقات الإنسانية والأشياء من محرماتها، ويأتي بها إلى مملكة العقل. من هنا، كان اليهود يقفون دائمًا في الصفوف الأمامية في الكفاح من أجل الديمقراطية والحرية"[173]. تشير صياغة **جدل التنوير** إلى أن هوركهايمر وأدورنو لم يتقصدا المبالغة في الحكم على التنوير بإيجابياته وسلبياته، بل أرادا إظهار غموض فكرة التنوير فحسب. في أي حال، بدا أن الجملة المأخوذة من الأطروحة الثامنة لبنيامين **في مفهوم التاريخ** أصبحت شعارًا لبحثهم: "الدهشة بأن الأمور التي نعيشها 'لا تزال' ممكنة في القرن العشرين **ليست** فلسفية. هذه الدهشة ليست بداية المعرفة، اللهم إلا إذا كانت المعرفة بأن تصور التاريخ الذي تأتي منه لا يمكن الدفاع عنه".

على خلفية تعميم نقد هيغل للتنوير الذي انطلق في **فينومينولوجيا الروح**، شكّل أساس **جدل التنوير** موضوعان متداخلان إلى حد بعيد. كان ممثلا هذين الموضوعين الأكثر وضوحًا، من دون أن يذكر الكتاب اسميهما، هما ماكس فيبر عالم اجتماع العقلانية الحديثة في حالة، ولودفيغ كلاغز الناقد الفلسفي للسيطرة الحديثة على الطبيعة في الحالة الأخرى. كان أحد الموضوعين فهم عملية الحضارة الغربية بوصفها عملية عقلنة، كان ماكس فيبر قد وصف تناقضها محقًا من خلال مفهوم نزع السحر - أي تدمير السحر الجيد والسيئ على حد سواء - أما الآخر فكان يتصل بإعادة حالة العالم، في كل مرحلة من مراحل تطوره، إلى علاقة متناظرة متجانسة أو عدائية بين الطبيعة والبشرية.

---

(173) *Studies in Philosophy and Social Science* (1941), p. 139.

اعتقد هوركهايمر وأدورنو أنهما بتشبيك هذين الموضوعين يستطيعان قول ما يجب في شأن العواقب الكارثية لشكل من الرأسمالية انتهى إلى الفاشية أكثر مما يستطيعان ذلك من طريق الاستمرار بالنقد الماركسي للرأسمالية. وكما في قصة ضمن القصة، كانت نواة تصورهما أوضح ما تكون في "رسومات ومخططات" في نهاية الكتاب بعنوان **في نقد فلسفة التاريخ**. "على البناء الفلسفي لتاريخ العالم أن يُظهِر كيف تؤكد نفسها السيطرة المنطقية على الطبيعة رغم كل الالتفافات والمقاومات، وكيف يندمج كل ما هو بين الناس. من وجهة نظر كهذه يمكن أن تُستنتج أيضًا أشكال الاقتصاد والسيطرة والثقافة"[174].

بدأ البحث الأول الأساسي، "مفهوم التنوير"، من فوره ضربة واحدة بالموضوع الرئيس الأول، وكان الثاني متضمنًا فيه. "كان التنوير منذ قديم الزمن، وبالمعنى الأكثر شمولًا للفكر المتقدم، يهدف إلى تحرير الإنسان من الخوف وجعله سيدًا. أما الأرض التي تنوّرت كليًا، فهي تشع في ظل الكارثة المنتصرة"[175]. التنوير في حد ذاته - بحسب الأطروحة - أدى إلى الكارثة. وكانت الكارثة بالنسبة إلى المؤلفَيْن، طبقًا لتقليد الاصطلاح البنياميني- الأدورني، تعادل سيطرة الأسطوري. ولهذا السبب وضعوا أطروحتهم أيضًا "التنوير قد يتحول إلى الميثولوجيا"[176]. لكنهما كانا مهتمَّين بأن يبيّنوا أن الأسطورة، على العكس، هي تنوير أيضًا. كان معنى هذه الأطروحة أن التنوير لم يحطم الأسطورة من الخارج، بل مهدت الأسطورة، بوصفها الخطوة الأولى المخفقة نحو التحرر من الطبيعة، الطريقَ لتنوير مدمّر لذاته.

تقول الصياغة الكاملة للأطروحة: كانت الحضارة حتى الآن تسير في تنوير علق في فخ المحايثة الأسطورية، وقَتَل في المهد كل محاولة للإفلات من المحايثة الأسطورية نفسها. فـ "الميثولوجيا ذاتها هي التي أطلقت عملية التنوير التي لا نهاية لها، والتي تقع فيها بالضرورة كل رؤية نظرية محددة تحت وطأة النقد الهدام باعتبار أنها مجرد اعتقاد، إلى أن تصبح مفاهيم الروح والحقيقة

(174) M. Horkheimer & T. W. Adorno, *Dialektik der Aufklärung*, p. 265.

(175) Ibid., p. 13.

(176) Ibid., p. 10.

والتنوير نفسه سحرًا إحيائيًا. إن مبدأ الضرورة القدري الذي يذهب ضحيته أبطال الأسطورة، والذي هو بمثابة نتيجة منطقية لحكم الغيب، هو مبدأ لا يسود - وقد تدرّج ليتّخذ شكل المنطق الصوري - في كل النظام العقلاني في الفلسفة الغربية فحسب، بل يسيطر على سلسلة المنظومات التي تبدأ مع تراتبية الآلهة، وتستمر تقليديًا مع غسق الأصنام عبر مضمون مطابق: الغضب تجاه انعدام الشرف. وكما تنجز الأساطير التنوير، يتورط التنوير أكثر فأكثر مع كل خطوة في الميثولوجيا، إذ يستقي كلِ مادته من الأساطير من أجل القضاء عليها، وهو إذ يؤدي دور المرشد أو الحَكَم، يقع أسير سحرها الأسطوري"(177). كان هذا معنى تاريخ العالم الذي أعطاه هوركهايمر وأدورنو لمفهوم حركة الفكر التي لا يمكن إيقافها، والذي قدّمه هيغل إلى تنوير القرن الثامن عشر. وفي لعب واضح على الإشكاليات السياسية الراهنة لعصرهما صاغا: "التنوير مبدأ كليّاني"(178). لقد حددا ما يشكل قوة هذه الحركة التي لا تتوقف، على الشكل الآتي: "وكل محاولة تهدف إلى كسر قسر الطبيعة، وتُكسَر فيها الطبيعة، تنتهي بخضوع أكبر لقسر الطبيعة. وهكذا كان مسار الحضارة الأوروبية"(179). في أي حال، في الفصل الأول لم يعد باستطاعتهما الادعاء بأنهما قدّما عرضًا للأطروحات. كان على النصوص اللاحقة، إذًا، أن تقوم بوظيفة الأدلة والبراهين.

حاول هوركهايمر وأدورنو أن يمنحا المعقولية لأطروحات أن الأساطير تنجز التنوير، وأن التنوير مع كل خطوة من خطواته يتورّط في الميثولوجيا عميقًا أكثر فأكثر، ليس عبر نقد النظريات التخصصية أو مواصلتها (في مقدمتهما اعتبرا النظريات طريقًا مغلقًا)، وليس عبر التأويل الجديد لحقائق تاريخ الغرب أو الإنسانية، بل من خلال تأويل قليل من الأعمال الأدبية على وجه الخصوص، اعتمادًا على مكونات تطور الحضارة التي يعتبرانها، هوركهايمر وأدورنو، حاسمةً. طريقة التفسير التاريخية الفلسفية للأعمال الفنية، كما قدمها لوكاتش في **نظرية الرواية**، جُعلت مثمرة هنا لتأكيد التحول في موقف الناس وسلوكهم من الطبيعة الخارجية ومن الطبيعة الداخلية ومن الجسد ومن بعضهم

(177) Ibid., pp. 22, 16.

(178) Ibid., p. 16.

(179) Ibid., p. 24.

بعضًا. كانت الأعمال التي ركز عليها هوركهايمر وأدورنو هي أعمال الانهيار والانحلال، تفتيت الأساطير في **الأوديسة**، وتقادم الدين والميتافيزيقا والأخلاق في مؤلَّفي [المركيز] دو ساد: **تاريخ جولييت أو ازدهار الرذيلة**، و**جوستين أو شرور الفضيلة**.

أُريدَ من الاستطراد الأول "أوديسيوس أو الأسطورة والتنوير" - تبعًا للمقدمة - تقديم الدليل على أطروحة أن الأسطورة هي التنوير. لكن هذا لم يكن وصفًا دقيقًا لمضمونه. كان معظمه معنيًا بإظهار أن التنوير، حتى في مرحلته الأولى، يحيل إلى الميثولوجيا. كان من الصعب تفسير نص **الأوديسة** على نحو آخر. فلقد أتاح مؤلف **الأوديسة** لأبطاله أن يأخذوا الأساطير مأخذ الجد. أما هو بالذات، فكانت علاقته بها تهكمية وتنويرية، وكان بطله يمضي إلى علاقة مشابهة بها. دعا هوركهايمر **الأوديسة** الوثيقة الأولى عن أنثروبولوجيا الإنسان، بوصفه كائنًا متنورًا عقليًا بالمعنى الحديث للكلمة. لكن البراعة التي راح أدورنو يكتشف بها أوجهًا جديدة في هذا النص الكلاسيكي الذي أُوّل كثيرًا، تجلّت في أوضح صورها في الطريقة التي اعتاد أن يشير فيها إلى الكلفة التي تطلبها إنجاز التنوير.

سعى أوديسيوس إلى إثبات نفسه في مواجهة القوى الأسطورية من خلال الحرمان الذي أنزله بنفسه بالتخلي عن تفانيه وتصليب نفسه. "لا يصمد صاحب الحيلة إلا على حساب حلمه الخاص الذي لا يكتسبه إلا بفك السحر عن نفسه، كما يفك السحر عن القوى الخارجية. هو لا يستطيع أبدًا الحصول على كل شيء؛ بل عليه أن يكون قادرًا على الانتظار دائمًا، وأن يتحلى بالصبر، وأن يتنازل؛ وهو لا يحق له أن يتذوّق اللوتس أو يأكل من أبقار إله الشمس هيبريون، وحين يبحر بين الصخور يجب أن يأخذ في الحسبان فقدان الرفاق الذين تنتزعهم سكيلا من المركب. لكنه يمضي، فلا نجاة له إلا في الكفاح، وكل المجد الذي يناله ورفاقه في العملية لن ينفع إلا في تأكيد أنه لا يمكن الفوز بلقب البطل إلا على حساب إذلال الشهوة وإماتتها وتحويلها إلى سعادة كاملة وشاملة لا تتجزأ"[180]. لقد ضحى بالعنصر الحي فيه، لكي ينقذ نفسه

(180) Ibid., p. 74.

بوصفه ذاتًا صلبة. جرى التحايل على القوى الأسطورية، غير أن الضحايا قُدمت الآن كقرابين إلى الذات المطابقة في شكل متحول، أي صارت جزءًا منها في ما يشبه نكران الذات.

حاول أدورنو بناء على نظرية الضحية، متبعًا طريق تأويل دشّنه كارل كيرينيي (Karl Kerényi) وكارل يونغ، أن يبيّن أن الأسطورة كانت تنويرًا. "كل القرابين البشرية عندما تُقدَّم بانتظام، تخدع الإله الذي تقدَّم إليه: فهي تجعل الأولوية له على الأغراض البشرية، وتحلّ سلطته، وينتقل خداع الإله كاملًا إلى ما يمارسه الكهنة على جماعة المؤمنين [...]. من خلال أوديسيوس تُرفع حصرًا لحظة الخداع الأضحية، السبب الأعمق ربما للسمة الوهمية للأسطورة، إلى مستوى وعي الذات. لا بد من أن اكتشاف زيف التواصل الرمزي مع الآلهة عبر الأضحية تجربة قديمة قدم الدهر. لا يمكن فصل التمثيل القرباني للاعقلانية معاصرة يتم تمجيدها عن خدعة العقلنة الكهنوتية للموت عبر تقديس الأضحية المحتومة. ثمة شيء في هذه الخدعة يتيح للفرد الضعيف أن يستفيد من وضعية ورعاية الجوهر الإلهي، وقد كان ذلك واضحًا في الأنا الذي يدين بوجوده لفعل تضحية للحاضر من أجل المستقبل"[181]. أنكر أدورنو على الضحية وعلى الأسطورة عمومًا التعالي الحقيقي. وتؤكد الطقوس التي تُقام في عالم فانٍ للضحية أن الوجود الفاني مليءٌ بالتضحيات، بدلًا من التشكيك واستنكار مثل هذا العالم والمطالبة بعالم آخر خال من التضحيات.

أما الاستطراد الثاني - "جولييت أو التنوير والأخلاق" - فمن المفترض أن يعرض على مثال الحق والأخلاق، كما تقول المقدمة، انتكاسة التنوير إلى الميثولوجيا عند كانط وساد ونيتشه، بوصفهم متممي التنوير والمدافعين عنه بشدة. كان الحديث عن انتكاسة التنوير إلى الميثولوجيا مضللًا إلى حد ما، عندما حاول هوركهايمر وأدورنو البرهنة على عملية نزع أسطرة ما عادت تعزى منذ عصور الأسطورة - بل وتعمل حقيقةً منذ عصور ما قبل الأسطورة - إلى الأسطورة القديمة الخاضعة للطبيعة، بل أدت إلى توافق لاأسطوري مع الطبيعة كفعل أسطوري بلا أسطورة.

---

(181) Ibid., p. 66.

"وفي حين [...] أحلّت كل التحولات الماضية، ممّا قبل الإحيائية حتى السحر، ومن الحضارة الأمومية إلى الحضارة الأبوية، ومن تعدد آلهة مالكي العبيد إلى التراتبية الكاثوليكية، محل الميثولوجيات القديمة ميثولوجيات جديدة متنورة وضعت إله الأعداد الغفيرة مكان الأم الكبرى وتقديس الحمل بدلًا من الطوطم، كان يضمحل أمام نور العقل المتنور أي إخلاص ميثولوجي يزعم لنفسه الموضوعية والتجذر في الواقع"[182]. امتدح هوركهايمر في ساد ونيتشه حقيقة أنهما لم يخفيا استحالة تقديم حجة مبدئية ضد القتل نابعة من العقل، بل راحا يصرخان في كل أرجاء العالم. وبهذا حل القتلُ المبتذل، أي القتل المعقلن، القتل الآلي، محل الضحية الأسطورية، أي القتل الطقسي؛ كما ظهر تحديدًا الوقت الحر والعطل والتسلية محل المتعة الأسطورية، أي الإذعان الطقسي لطبيعة المتعة المملة، المتعة العقلانية. "ذلك أن الحوليات التي نجدها في جوستين وجولييت بأساليب إنتاجها واستشرافها بأسلوب القرن الثامن عشر المسرحيات المثيرة للقرن التاسع عشر والأدب الجماهيري في القرن العشرين، هي الملحمة الهوميرية بعد أن أُزيل عنها آخر غطاء ميثولوجي: تاريخ الفكر بوصفه أداة سيطرة"[183].

كان هذا في غضون ذلك أحد خطوط العرض. غير أن مغزى الفصل الأول يقول: التدمير الذاتي للتنوير. لكن ما الذي يمكن أن يعنيه هذا، إذا بقي كل تنوير خاضعًا للطبيعة منذ البداية، وإذا كانت صياغة "التشابه الدوري للتاريخ في تقدمه"[184] مقصودة بجدية؟ ألا يشترط الحديث عن التدمير الذاتي للتنوير مسبقًا، أنه كان هناك بدايةً تقدمًا حقيقيًا، وخطوة خروج من مطاوعة الطبيعة، تلك الخطوة التي قُضي عليها مرة أخرى؛ مثلًا من خلال التمسك بثبات في ظل شروط متغيرة بشيء ما عاد منذ زمن طويل تقدُّميًا؟ أم كان على المرء أن يتصور التاريخ بوصفه تفويتًا مستمرًا لفرصة أو كشفًا متواصلًا للفرص. في تلك الحالة سيكون هناك إلى حد ما، إلى جانب التاريخ الظاهر، نوع من تاريخ خفي، تاريخ المقموع والممنوع. ويمكن تصوُّر ذلك حتى بوصفه شيئًا

(182) Ibid., p. 113.

(183) Ibid., p. 141.

(184) Ibid., p. 49.

يساوي الزيادة في القيمة المحققة من طريق التبادل، على الرغم من أن المعنى الإجمالي للتاريخ سوف يتوقف عندئذ على ما إذا كان قد استفيد يومًا ما من مثل هذا التبادل أم لا.

ورد التصوران لدى هوركهايمر وأدورنو. فبالنسبة إليهما، كان هناك "يوتوبيا مضمرة في مفهوم العقل"(185). وبالنسبة إلى تلك المراحل المحددة من التاريخ التي لا تتفق مع تصور عملية نزع أسطرة حتمية، نتج التوضيح بأن ميل التنوير المناوئ للسلطة الذي يجري في التاريخ الجلي "يتواصل [...] مع تلك اليوتوبيا المضمرة في مفهوم العقل"(186). رأى هوركهايمر وأدورنو أشكالًا واضحة للتنوير الحقيقي، أي للتنوير الذي يعي ذاته، في الدين اليهودي وفي الليبرالية ولديهما بالذات. لكن كيف يمكن تفسير نشوء هذه الأشكال؟ عندما تعطى شروط مادية-تاريخية، كما في حالة العائلة البرجوازية في الحقبة الرأسمالية الليبرالية، يَسِم في ضوئها التواصلُ المقموع عادة مع اليوتوبيا المضمرة في مفهوم العقل التاريخَ الظاهر مؤقتًا، يبقى السؤال مطروحًا: كيف أمكن اليوتوبيا المضمرة أن تنشأ على العموم؟ وما الذي يبقيها في قيد الحياة في عملية نزع الأسطرة الحتمية التي كان هوركهايمر وأدورنو يعيدان تركيبها؟

لم يتناول **جدل التنوير** هذه الأسئلة. وما كان يمكن جوابًا بسيطًا أن يبدو، تظهره، على سبيل المثال، رسالة كتبها هوركهايمر بينما كان فيه منشغلًا بالعمل على شذرات **جدل التنوير** وإكمالها. كانت الرسالة ردًا على مذكرة بولوك حول نقاش في نيويورك بينه وبين باول تيليش وأدولف لوفه وتناول كتاب جوليان بندا **خيانة المثقفين**: "علينا أن نفهم هذا التطور(187)، ونحن لن نستطيع فهمه إلا إذا كان هناك شيء ما فينا لا يخضع له. نجد مثل هذا الموقف ظاهرًا في كل ملاحظاتك على النقاش، خصوصًا عندما تكون في موقف دفاعي يائس، لكنه لا يتبدى في أي كلمة عند المحاورَين الآخرَين"(188). وعندما أعطى أدورنو في

---

(185) Ibid., p. 103.

(186) Ibid., p. 113.

(187) أي عملية التنوير الحتمية.

(188) رسالة من هوركهايمر إلى بولوك، باسيفيك باليسيدز، 7 أيار/ مايو 1943.

عام 1945 لوفنتال تعليمات لتعديل محاضرة هوركهايمر "المجتمع والعقل" التي ألقيت في نيويورك وإتمامها، والتي نتج منها كتاب **كسوف العقل**، وجد مشكلة أساسية لا يمكن المرء معها أن يقطع في مرحلة مبكرة جدًا: "يصف النص، خصوصًا الفصل الأول منه، عملية شكلنة العقل وأَدوَتته بأنها ضرورية وحتمية بالمعنى الذي عالج هيغل به التنوير في الفينومينولوجيا. لكن بعد ذلك، لم يتضمّن الكتاب إلا نقدًا لهذا الشكل من العقل. فلم تتضح نظريًا علاقة الموقف النقدي بالموقف المنتقَد. يبدو الأمر كما لو أننا نتنازل إلى حد ما 'دوغمائيًا' عن العقل الموضوعي، بعد أن نكون قد حددنا قبل ذلك العقل الذاتي في حدوده التي لا مهرب منها. هناك في الواقع أمران يجب أن يكونا واضحين: أولهما أنه لا يوجد 'حل' إيجابي، بمعنى العقل الذاتي إزاء الفلسفة الظاهرة، وأن نقد العقل الذاتي ممكن جدليًا فحسب، أي بإظهار التناقضات في مسار تطوره الخاص وبتعاليه من خلال نفيه القاطع. أقول هذا هنا بكلمات عمومية جدًا: يجب العمل على إبراز هذه العملية بشكل ملموس، على الأقل وفق أنموذج، كي تكون أكثر من وعد لم يتحقق. وبإجمال القول، يتعيّن أن يجيب الفصل الأخير بوضوح عن أسئلة الفصل الأول، ويمكنه أن يوضح أيضًا استحالة الإجابة عنها. بخلاف ذلك، تقف وجهتا نظر الفلسفة - وجهة نظر العقل الذاتي الحتمي والمعاند، ووجهة نظر حقيقته الثابتة - إحداهما أمام الأخرى من دون توسط وعلى نحو غير مرضٍ نظريًا"[189].

لم يكن الأمر، كما لو أن أدورنو وهوركهايمر وجدا حلًا لهذه المشكلة في **جدل التنوير**، ثم نسياه بعدئذ مرة أخرى. كان من الممكن ببساطة تأجيله هناك، بتقديم الشذرات الأولى المنشورة من العمل الذي كانا ينجزانه توطئةً لمفهوم إيجابي للتنوير[190]؛ ثم إن هوركهايمر وأدورنو بدلًا من أن يُميّزا اصطلاحيًا بين العقل الذاتي والعقل الموضوعي، استعملا مفهوم التنوير بمعنًى مزدوج، حينًا بمعنى سلبي وحينًا آخر بمعنى إيجابي، مرة بمعنى العقل الذاتي ومرة أخرى بمعنى العقل الموضوعي.

---

(189) رسالة من أدورنو إلى لوفنتال، 3 حزيران/يونيو 1945.

(190) Ibid., p. 10.

ظهر في **جدل التنوير** مفهومان للتنوير: تنوير كان يهدف منذ القدم إلى فرض الناس أسيادًا، وقد بلغ هذا الشكل من التنوير هدفه، وجعل الأرض التي اكتمل تنويرها تشع في ظل الكارثة المنتصرة؛ وتنوير كان هدفه إضعاف مطلب السيطرة، وكان إنجازه يعني الاستغناء عن السلطة. وقد بدا أن هذين المفهومين قد جُمِعا معًا قسرًا، بحيث تبيّن من النظرة الأولى أن التنوير يدمر ذاته، ويستطيع أن ينقذ ذاته، لكن في قراءة ثانية يدرك المرء خلف ذلك الزعم الذي لا يُقرّ به، بأن التنوير الزائف كان يعوق انتصار التنوير الحقيقي الذي يستطيع وحده أن ينقذ من العواقب الوخيمة للتنوير الزائف. وقد ورد في الإعلان الذاتي للكتاب المطبوع نسخًا على الآلة الكاتبة: "يمكن تحديد الهدف العام للكتاب بأنه دفاع عن النزعة العقلانية عبر الكشف عن تطبيقاتها الخبيثة الكامنة، وإظهار أن عناصر نقدية بعينها، وقد كانت في السابق موجهةً ضد المثُل الإنسانية للتنوير، يمكن أن تتجسد فيها على نحو مفيد". وفي الكتاب أثنى على ساد، لأنه لم يدع للخصوم أن يتركوا التنوير يجزع من نفسه، وهو ما يجعل عمله حافزًا لإنقاذ التنوير[191]. لم يقدم هذا أملًا كبيرًا في أن التنوير الزائف والمخفق الذي أثبت عماه يمكن أن يعالج نفسه؛ إنه لم يظهِر سوى تبصر التنوير الصحيح إلى أخطاء التنوير الزائف. أراد هوركهايمر وأدورنو الحفاظ على مغزى أن التنوير نفسه هو الذي سبب الكارثة، وأنه لا يمكنهما بالتأكيد التخلي عن فكرة أن هناك شيئًا آخر، أي السيطرة التي رمت بالتزوير الحقيقي خارج مساره الصحيح أو عوّقت تحققه. لقد أرادا أن يحمّلا التنوير مسؤولية الكارثة، لكنهما حملا المسؤولية مرارًا وتكرارًا لتنوير أثبت جدارته برجوازيًا أو لجهة السيطرة على الطبيعة وما شابه. أرادا تفسير الكارثة من خلال أن التنوير كان في أعماقه سيطرة، وفسرا على الدوام بأن التنوير يتمدد في السيطرة، ومرتبط بالسيطرة وما إلى ذلك. كانت صياغة التدمير الذاتي للتنوير، عندما يجري تفكيك شيفرتها، نقطةً مضللة. إنها لم تعنِ ما وعدت به، بل كان مضمونها أكبر بكثير: لم يكن كل التنوير حتى الآن تنويرًا حقيقيًا، بل كان عرقلة تنوير حقيقي.

---

(191) Ibid., p. 141.

وكي يكون بإمكاننا أن نتحدث أكثر عن هذه المشكلة، من الضروري أن نعرّج على الموضوع الرئيسي الآخر الذي أعطى للموضوع الأول مضمونه، أي علاقة التنوير، أو بالأحرى حامله، بالطبيعة. جاء في الإعلان الذاتي أن "الهدف الأساسي للمؤلفَين هو تحليل نقدي للحضارة في مرحلة اتحادات الصناعة الكبيرة، والسيطرة الاستغلالية، والتقدم التقني والنمذجة. إنهما يتطلعان إلى جذور الأزمة الظاهرة للثقافة الحديثة في التاريخ وفي العمليات التي أَسس من خلالها النوعُ الإنساني حكمه على الطبيعة. وبؤرتا أبحاثهما وتقصياتهما هما الميثولوجيا والعقلانية". وبذلك رُفع مطلب كبير، أي مطلب أن يكون قادرًا على إظهار أزمة الحضارة الراهنة بوصفها أزمة المبدأ الأساس للحضارة الإنسانية بكليتها حتى الآن، وبوصف هذا المبدأ مبدأ السيطرة على الطبيعة. في هذا المطلب تكمن أطروحة أن العملية الحاسمة في تاريخ الحضارة الإنسانية ليست نشوء الحداثة والرأسمالية، بل انتقال البشر إلى السيطرة على الطبيعة. وقد أدت نقطة التحول هذه إلى تكوين سمات جوهرية تشكل الإرث القديم للحضارة الراهنة. وبات بقاء هذا الإرث بلا انقطاع عنصر تهديد في أزمة الحاضر، وأظهر بوضوح ضرورة وجود نقطة تحول جديدة.

لم يتطرق هوركهايمر وأدورنو على الإطلاق إلى أسئلة الصلاحية الشاملة لأفكارهما عن الحضارة، أو إلى الفروق بين نمط الإنتاج الغربي والآسيوي، أو بين العقلانية الغربية والتجربة التأملية الشرقية، بل أقرّا بصمت واضح أن شفاء الإنسانية يتحقق على سكة "تاريخ الفكر، بوصفه أداة السيطرة"[192]، وعلى سكة "الروح المسيطر بدءًا من هوميروس وصولًا إلى الحداثة"[193]، أو لا يتحقق أبدًا.

إذا حاولنا إعادة تركيب موضوع السيطرة على الطبيعة انطلاقًا من نصوص **جدل التنوير** (آخذين في الاعتبار أيضًا الأعمال الأخرى لتلك السنوات)، يتبيّن ما يلي:

---

(192) Ibid., p. 141.

(193) Ibid., p. 45.

كان العالم البدئي طبيعة خالصة. وكذلك كان الناس، بمقدار ما وجدوا سابقًا، طبيعيين، مأسورين بالطبيعة، تسيطر عليهم غرائز غامضة. لم تحصل خطوة مهمة إلا عندما بدأ الناس في التفكير. التفكير يعني: قطع السياق المباشر للطبيعة في موقع ما، وإنشاء سد يفصل بدءًا من ذلك الطبيعة الخارجية عن الطبيعة الداخلية.

في اللحظة التي بدأ الناس الخروج من العالم البدئي، بدأ هذا العالم سعادة كانت قوة جاذبيتها أكبر من السعادة الجديدة للفردانية. لم يكن ممكنًا مقاومة قوة امتصاص العالم البدئي إلا عبر قوى مضادة ضخمة. وكان الفكر مصدر هذه القوى المضادة. حاول أن يؤكد ذاته في مواجهة الطبيعة، حين أضعف الطبيعة الداخلية والطبيعة الخارجية: أضعف الطبيعة الداخلية حين أجبرها على الخضوع والتنازل عن تحقيق رغبة مباشرة، إن لم يكن التنازل عن تحقيق كثير من الرغبات عمومًا، وعلى أن تغدو صغيرة؛ أما الطبيعة الخارجية فأضعفها بنزع السحر عنها، أو بدقة أكبر حين بدأ من فوره بتقويض فكرة أن الطبيعة تتضمن مزيدًا من الغبطة الغامرة والرعب، وهي فكرة كانت قد ظهرت بالتزامن مع انبثاق الإنسانية من العالم البدئي.

هكذا أُطلقت – في ردة فعل على وعد السعادة وعلى تفوق الطبيعة وغلبتها – عملية أنكرت الطبيعة وشوهتها. ما أُنكر وشُوّه كان استعداد الطبيعة الداخلية للإذعان وإغراء الطبيعة الخارجية، وكذلك استعداد الطبيعة الداخلية للخوف ورعب الطبيعة الخارجية. من المفترض أن يتيح خفضُ الرغبة والخوف، في حضور الروح المستمر، انتزاعَ الوجود من الطبيعة التي كان يُنظر إليها إما بلا مبالاة، وإما بوصفها عدوًا. لقد كان الخوف مكروهًا: "في التحولات الكبرى للحضارة الغربية، منذ الانتقال إلى الديانة الأولمبية وصولًا إلى النهضة والإصلاح والإلحاد البرجوازي، في كل مرة تكبت فيها شعوب وطبقات اجتماعية جديدة الأسطورة بحزم أكبر، ينخفض الخوف من الطبيعة المهدِّدة غير المدرَكة، نتيجة لتحولها المادي وتشيؤها، إلى مستوى الخرافة الإحيائية، وتُجعَل السيطرة على الطبيعة داخليًا وخارجيًا هدف الحياة المطلق"[194].

(194) Ibid., p. 45.

وكانت الرغبة مكروهة أيضًا: "كان على الإنسانية أن تصاب بأمور رهيبة قبل أن تتشكل الذات، طبيعة الإنسان المتطابقة والغرضية والرجولية؛ شيء من هذا القبيل يتكرر في كل طفولة. والجهد الذي يبذل من أجل تماسك الأنا، يلازم هذه الأنا في كل مراحلها؛ وكان إغراء خسارتها يترافق دومًا مع الإصرار الأعمى على الحفاظ عليها [...]. تربط أواصر أخوّة حميمة الخوف من خسارة الذات وإلغاء الحدود بينها وبين الحياة الأخرى، والخوف من الموت والفناء، مع وعد السعادة الذي كان يهدد الحضارة في كل لحظة"(195).

لم تقف عملية نزع السحر والعقلانية والتنوير والحضارة تحت علامة تحقيق تلك السعادة التي بدا، بنظرة راجعة، أن العالم البدئي يتألف منها؛ بل سارت العملية كما لو أن كل سعادة مستنكَرة، لأنها ترتد إلى حالة الطبيعة القديمة. بدت الطبيعة على العموم تهديدًا، وليس فقط الجوانب الخطرة للطبيعة التي لا تظهر غالبًا إلا حين يسعى المرء إليها. وهكذا فإن الفكر لا يقوي إلا جوانب الطبيعة المناوئة للرغبة، وليس جوانب الطبيعة ذات الرغبة الدائمة. لقد تطوّر الانبثاق من العالم البدئي إلى صراع دائم ضد الطبيعة عمومًا. لهذا السبب تكلم هوركهايمر وأدورنو عن استمرار الطبيعة المحض، حيث جعلا هذا المفهوم مفهومًا جامعًا للعالم كما كان قبل بدء التفكير العقلاني فعليًا، وللعالم الذي يسيطر فيه الفكر على الطبيعة.

كانت رائعةً جدًا الفقرات الكثيرة التي تشكو من عالَم يسيطر فيه الفكر على الطبيعة: طريق الحضارة "كان طريق طاعة وعمل، لا يضيئه الإنجاز دومًا إلا بوصفه مظهرًا خادعًا وجمالًا منهَكًا. ولا تجهل ذلك فكرة أوديسيوس المعارضة لموته ولسعادته في آن. وهو لا يعرف سوى إمكانيتين للإفلات من هذه الثنائية، إحداهما فرضها على مرافقيه. لقد سد آذانهم بالشمع، وكان عليهم التجديف بكل قواهم. فمن يريد البقاء حيًا، عليه ألا يصغي لإغراءٍ ما لا يمكن تعويضه، وهو لا يستطيع البقاء حيًا إلا إذا استطاع ألا يصغي إليه. واهتم المجتمع بأن يكون الأمر على هذا النحو دائمًا: يجب على العاملين التطلع إلى الأمام بتركيز وانتباه وتجاهل ما يجري إلى جانبهم، وعليهم أن يكبحوا الغريزة التي

(195) Ibid., p. 47.

تلح على إلهائهم، والسمو بها في جهد إضافي، وبذلك يصبحون عمليين. أما أوديسيوس نفسه، السيد المالك الذي يدع الآخرين يعملون لحسابه، فقد اختار الإمكانية الأخرى. إنه يصغي، لكنه مربوط بالساري بلا حول ولا قوة، وكلما كان الإغراء أكبر، أمر بتقييده بقوة أكبر، تمامًا كالبرجوازيين في ما بعد يرفضون السعادة بعناد أكبر، كلما اقتربت منهم أكثر وصارت في متناول يدهم مع تعاظم سلطتهم. ما يُستمَع إليه يبقى، بالنسبة إلى أوديسيوس، بلا نتيجة؛ بمقدوره الخلاص بمجرد إشارة بالرأس، لكن كان الوقت قد تأخر؛ فالرفاق الذين لا يسمعون شيئًا، لا يعرفون إلا خطر النشيد، لا جماله، ويتركونه مربوطًا بالساري لكي ينقذوه وينقذوا أنفسهم. إنهم يعيدون إنتاج حياتهم وحياة قامعهم الذي لا يستطيع الخروج من دوره الاجتماعي. والقيود التي قيّد بها نفسه عن الفعل على نحو لا يمكن التراجع عنه، تُبقي في الوقت نفسه الحوريات بعيدًا عن الفعل. سحرهن يغدو حياديًا ومجرد موضوع للتأمل؛ لقد صار فنًا. السجين يحضر حفلًا موسيقيًا، ينصت بلا حراك، تمامًا كما يفعل المستمعون في ما بعد في صالة الموسيقي، وتتلاشى دعوته الحية نحو الحرية، كما يتلاشى التصفيق في القاعة. هكذا تنفصل متعة الفن عن العمل اليدوي في نهاية العالم البدئي [...]، والإرث الثقافي يرتبط بالعمل المنجز في علاقة دقيقة؛ فكلاهما يتأسس في قسر السيطرة الاجتماعية على الطبيعة الذي لا يمكن الإفلات منه"[196].

لكن هل كان يمكن المرء أن يحصل على السعادة غير المنقوصة من دون الرعب الكامل؟ أثنى أدورنو على "إنقاذ السادية" في بحث هوركهايمر "الأنوية وحركة التحرر". ثمة أمثلة في **جدل التنوير** تضمنت مرافعة خفية لتصعيد الغرائز. كما أشارت إلى هذا الاتجاه أيضًا فكرة استذكار الطبيعة في الإنسان التي تتكرر في فقرات كثيرة من **جدل التنوير**، بوصفها حلًا. لكن هنا كان أيضًا ثمة اهتزاز جلي. ألم تكن في الشكوى من الروح المسيطر على الطبيعة صورةُ السعادة الكلية غير المجزأة حيةً أكثر منها في الرضى بالسعادة التي صُعِّدت؟ هل كان تصور أنا متحررة من قيودها ومحافظة على نفسها في الوقت ذاته أكثر من مطلب يفتقر إلى المعقولية، ويتجاهل ما كان معقولًا؟

---

(196) Ibid., pp. 47 f.

بقيت هناك فكرة تقدم معركة التنوير المعقولة ضد كل ما يُذكّر بالعالم البدئي وبالتصورات عن السعادة واللاانضباط المرتبطة به. هذه الفكرة هي التي ربطت المقالة الأولى والاستطرادين بالبحثين الآخرين وبالملاحظات والمخططات. وكما كان الأمر في الاستطرادين، فقد تعلق في النصوص الأخرى قبل كل شيء بسيطرة الطبيعة على الإنسان، في حين أن مسألتَي السيطرة على الطبيعة الخارجية والارتباط بين العلاقة بالطبيعة الخارجية والعلاقة بالطبيعة الداخلية لم تُقاربا إلا بصورة متقطعة ومجردة جدًا.

أفضى البحث حول صناعة الثقافة إلى النقطة التالية: "يمكن مقارنة الهروب من اليومي الذي تعد به صناعة الثقافة في كل فروعها بحالة اختطاف فتاة، كما جاء في صحيفة أميركية ساخرة: الأب هو من يمسك بالسلّم في الظلام. وصناعة الثقافة تقدم مرة أخرى اليومي نفسه على أنه الفردوس. الهروب والفرار مع العشيق مصممان منذ البداية للعودة إلى نقطة الانطلاق. واللذة تعزز الاستسلام الذي لا بد من نسيانه". تجعل صناعة الثقافة الانبثاق من العالم المحدد بمبدأ عجز الواقع جزءًا من العالم. إنها تعرف كيف تحول الفن الخالي من الحلم إلى تحقيق الأحلام والتنازل الضاحك أو الظريف إلى تعويض عن حالات التنازل. تعني صناعة الثقافة - على خلفية المقالة الأولى والاستطرادين - خفض وعد السعادة الذي يقدمه الفن، هذا الوعد المحايد تجاه التأمل، إلى "الحمام الفولاذي للتسلية"[197].

في مقالة في **مجلة الأبحاث الاجتماعية** عام 1936، وصف أدورنو، وقد ألهمه مفهوم الشخصية السادية-المازوشية، سخرية الذات المبتسمة من نفسها بأنها نواة ظاهرة موسيقى الجاز. عُمّم الآن هذا التفسير إلى تفسير صناعة الثقافة عمومًا التي تشتمل على الفن "الوضيع" و"الرفيع"، ثم أثبت التفسير نفسه بالصلة مع **جدل التنوير** من حيث هو عَرَض للذروة العابرة لسيرورة العالم التاريخية تلك، والتي كانت فيها الذات المثبتة على السيطرة على الطبيعة لا تزال تضع ملامح لطيفة للتهكم الذي صنعته بنفسها.

---

(197) Ibid., p. 167.

كانت "نظرية اللاسامية الأنثروبولوجية" هي التتمة لنظرية السيطرة على الطبيعة التي سقطت ضحية الطبيعة (أدورنو). في معاداة السامية رأى هوركهايمر وأدورنو نمط سلوك جلي يؤكد تحليلهما للحضارة التي أخفقت. "إلا أن شكل الروح الاجتماعي والفردي الذي ينعكس في معاداة السامية - والروابط ما قبل التاريخية والتاريخية الذي يبقى أسيرها - يظل غامضًا تمامًا. وإذا كان هناك خلل ما قد ترسخ كليًا في الحضارة ولا يجد تسويغًا له في المعرفة، فإن الفرد لن ينجح في عقلنته، حتى ولو كان حَسَن النية مثل الضحايا أنفسهم. فجميع الشروحات والرفض العقلاني الدقيق الاقتصادي والسياسي، مهما كانت صحيحة، لن تقدم تسويغًا، لأن العقلانية المترافقة مع السيطرة هي في أساس هذا الخلل [...]. معاداة السامية هي نموذج مصقول، وطقس الحضارة واضطهاد اليهود هي أفعال القتل الطقسية الحقيقية. فيها يتمثل عجز من بمقدورهم كبحها بالتفكير وبالدلالة وأخيرًا بالحقيقة. في تزجية الوقت الصبيانية للقتل تتأكد الحياة الرعناء التي ينقاد إليها المرء.

وحده عمى معاداة السامية، أي غياب غائيتها، يعطي تفسيرها كمُتَنفس قدرًا من الحقيقة. فالحقد ينصبّ على الضحايا دونما دفاع. ولأن الضحايا يمكن التبديل في ما بينهم تبعًا للظروف - غجر، يهود، بروتستانت، كاثوليك - فإن أيًا منهم يمكن أن يحل محل القتلة، باللذة الدموية العمياء نفسها، حالما يشعر بالقوة كقاعدة"[198]. تمثل معاداة السامية كراهية "المتحضرين" لكل أولئك الذين يذكّرونهم بإخفاق الحضارة. في الأطروحة الأخيرة، الأطروحة السادسة حول معاداة السامية، كان حتى الكلام عن تشبيك العقلانية والسلطة، وتحرير الفكرة من السيطرة، "يمكن أن يكون الخطوة للخروج من المجتمع المعادي للسامية" التي تتأكد معها، بمعنى آخر يختلف عما يعنيه النازيون، "المسألة اليهودية [...] بوصفها نقطة التحول في التاريخ"[199].

استعمل هوركهايمر وأدورنو بطريقة رائعة أفكار ساد ونيتشه وفرويد وفروم حول السادية والمازوشية، وحول الإواليات النفسية، مثل التماهي

(198) Ibid., p. 202.

(199) Ibid., p. 235.

بالقوة وتكوين ردة الفعل، كي يُحللا بهذه الطريقة أنماط السلوك التي يعتبرانها "معادية للسامية"، بحيث تتعزز أيضًا، إن تأكدت هذه التحليلات، نظرية السيطرة على الطبيعة التي سقطت ضحية الطبيعة، من حيث هي، على الأقل، نواة التنوير المخفق.

ومثلما رأى هوركهايمر وأدورنو في عملية التنوير التدمير التدريجي لما كان يذكّر بالعالم البدئي وبما ليس حضاريًا بوصفه سعادة أو خوفًا، رأيا كذلك معاداة السامية تعمل هناك حيث يتوجّه الغضب والفظاعة ضد الضعف والخوف أو السعادة والحنين. "لكن المرأة تتسم بالضعف، وهي تعد بسبب الضعف أقلية، حتى عندما تتفوق عدديًا على الرجل. وكما في حال السكان الأصليين في التشكيلات الأولى للدولة، أو كما عند شعوب المستعمرات الأصيلة الذين كانوا بدئيين على صعيد التنظيم والسلاح مقارنة بأولئك الذين غزوهم، أو كاليهود بين الآريين، يمثّل عجز المرأة عن الدفاع عن نفسها العنوان الشرعي لقمعها [...]. إن علامات العجز، والحركات غير المتناسقة السريعة، ورهاب الحيوان، والحشد، تستفز الرغبة في القتل. إن إعلان الكراهية ضد المرأة باعتبارها الأضعف روحًا وجسدًا، وتحمل على جبينها ختم السيطرة، لهو في الوقت ذاته إعلان بكراهية اليهود. ويلاحظ المرء أن النساء واليهود لم يحكموا منذ آلاف السنين. إنهم يعيشون، مع أنه يمكن القضاء عليهم؛ فخوفهم وضعفهم وصلتهم الوثيقة بالطبيعة من خلال القمع الذي تعرّضوا له، هو العنصر الذي يهبهم الحياة. يستثير هذا الغضبَ الأعمى في الرجل القوي الذي عليه أن يدفع ثمن القوة بالاغتراب عن الطبيعة وعليه أن يقمع قلقه؛ فهو يتطابق مع الطبيعة مضاعفًا إلى الألف الصرخات التي ينتزعها من ضحاياه، والتي لا يملك هو حق إطلاقها"[200].

وورد في فقرة أخرى بالاستعمال النقدي نفسه لنيتشه أن "ما يسقط، يجب أن يدفعه المرء؛ ففي أسلوب الإنتاج البرجوازي أصبحت الوراثة المحاكية التي يصعب محوها عن كل تجربة عملية وراثة محكومة بالنسيان [...]. والناس الذين أعمتهم الحضارة لا يخبرون سماتهم المحاكية الخاصة المحرمة إلا

(200) Ibid., pp. 133, 135.

في بعض الحركات والسلوكيات التي تصادفهم عند الآخرين، والتي تضرب بوصفها بقايا منعزلة ومخلفات مخزية في المحيط المعقلن. وما يُنفِّر بوصفه غريبًا ليس إلا أمرًا مألوفًا جدًا. إنها الإيماءات المعدية للتماس المباشر التي قمعتها الحضارة: اللمس، والتعلق، والتهدئة والإقناع. ما يثير اليوم هو أن تلك المثيرات لا تلائم العصر، بل تعيد موقَعة العلاقات الإنسانية المتشيّئة منذ زمن طويل ضمن علاقات القوة الشخصية عند الذين يحاولون التأثير في المشتري بالتملق، وفي المدين عبر التهديد وفي الدائن من خلال التوسل [...]. لكن الإيماء التعبيري غير المنضبط هو العلامة المميزة للسيطرة القديمة في الجوهر الحي للشخص الخاضع للسيطرة، والتي تنتقل من جيل إلى جيل بفضل عملية لاواعية من التقليد المكتسب من الطفولة المبكرة، من اليهودي البائع الثياب المستعملة حتى المصرفي. مثل هذه المحاكاة تستثير الغضب، لأنها تعيد في ظل شروط الإنتاج الجديدة إحياء القلق القديم الذي كان يجب على المرء أن ينساه، لكي يبقى في قيد الحياة في ظل تلك الشروط"[201].

كانت كراهية ما يذكّر بما افتُقد في ظل هذه السيطرة وثيق الصلة بكراهية ما يذكّر بعذاب السيطرة:

"كفلت الليبرالية لليهود حق التملك، لكن من دون سلطة. كان هذا هو معنى حقوق الإنسان الذي يَعِد بالسعادة أيضًا أولئك الذين لا يتمتعون بالسلطة. ولأن الجماهير المخدوعة تحدس أن هذا الوعد يبقى عمومًا كذبة، ما دام هناك طبقات، فإنه يثير غضبها؛ هم يشعرون بالإهانة. وكان عليهم أن يكبتوا دائمًا وأبدًا التفكير في تلك السعادة حتى من حيث هي إمكان أو فكرة، كلما أصبحت أكثر أهمية. وحيثما يبدُ أنها تحققت على الرغم من رفضها الأساسي، كان عليهم أن يكرروا قمع تطلعاتهم الخاصة. كل ما يمنح الفرصة لمثل هذا التكرار، وإن كانت أيضًا تعيسة في حد ذاتها، الشفاء واليهودي التائه والحقيقة الغريبة التي تذكر بالجنس الموعود والجمال الذي يشير إلى الجنس والحيوان المرفوض لدلالته على البغاء، كل ذلك يثير إرادة الهدم عند أناس متحضرين لم يعرفوا إيصال السيرورة التحضرية الأليمة إلى نهايتها. أما أولئك الذين

(201) Ibid., pp. 214 f.

يسيطرون على الطبيعة بشدة، فيرون في طبيعة معذبة صورة استفزازية لسعادة عاجزة. إن فكرة سعادة دون سلطة هي فكرة غير مقبولة، لأنها ستكون عندئذ سعادة حقة. والمؤامرة الموهومة للمصرفيين اليهود الفاسدين الذين قاموا بتمويل البلشفية هي إشارة إلى العجز الوراثي، تمامًا مثل كون الحياة الهانئة علامة سعادة. يضاف إلى ذلك صورة المثقف، فهو يبدو أنه يفكر - وهذا ترف لا يستطيع الآخرون تقديمه - بدل بذل الدماء والجهد الجسدي. المصرفي والمثقف، والمال والروح، يشكلون المثال لأولئك الذين أصابتهم السيطرة بالعطب، صورة أحلام مكبوتة تستخدمها السيطرة لتُخَلّد نفسها"[202].

لم يجد هوركهايمر وأدورنو محاولات تفسير - بما في ذلك محاولاتهما في فقرات مختلفة من **عناصر معاداة السامية** - لِمَا لَمْ يُمثّل اليهود، ببساطة، أقلية بين أقليات أخرى، مقنعة. لقد رأيا أن خصوصية اليهود بين الأقليات لا تتمثل إلا في حقيقة أن الفاشية أعلنت أنهم العرق المضاد. "فاليهود اليوم هم الجماعة التي تستجر على نفسها، نظريًا وعمليًا، إرادة الفناء التي تولد من رحم النظام الاجتماعي الزائف. وهم سوف يوسمون بالشر المطلق ممن هم شر مطلق. وهم الآن، في الواقع، الشعب المختار"[203]. في الحقيقة، إن ما أبقى اليهودية حيةً، كان أساسًا عداء المحيط غير اليهودي، وقد لاحظ إسحق دويتشر في ستينيات القرن [الماضي] أنه لأمر فظيع، لكنه حقيقي، أن يكون هتلر قد قام بالمساهمة الكبرى في إحياء الهوية اليهودية.

في أي حال، كان هناك ما يميّز اليهود من غيرهم من أقليات أخرى، في ما يخص عملية الحضارة بالذات. وعلى خلاف النساء والزنوج والسكان الأصليين والغجر وما إلى هنالك، تعارض اليهود مع الحضارة ليس باتجاه الأسفل فحسب، نحو الطبيعة التي لم يُسيطَر عليها، بل أيضًا باتجاه الأعلى، نحو الروح الذي يسمو على الطبيعة. في الحقيقة، لم يفقد إله اليهودية كليًا مزايا روح الطبيعة في انتقاله من الهينوثية[204] إلى الشكل الكوني. فـ "الرعب

(202) Ibid., pp. 203 f.

(203) Ibid., p. 199.

(204) الهينوثية (Henotheism) وتعني الإيمان بإله واحد مع قبول وجود إله آخر. صاغ هذا المصطلح فريدريش شلينغ (1775-1845) لوصف المراحل الأولى من الديانات التوحيدية. (المترجم)

الذي يأتي من الماضي ما قبل الإحيائي ينتقل من الطبيعة إلى مفهوم الذات المطلقة التي تخضع الطبيعة لها كليًا، لأنها خالقتها والمسيطرة عليها. وعلى الرغم من سلطتها وعظمتها اللتين لا حدود لهما، واللتين تفرضان عليها هذا الاغتراب، تبقى الذات المطلقة قابلة للتصور بفضل الصلة الكونية الجامعة بكائن أسمى ومتعال. والله من حيث هو روح، هو مبدأ يمثّل القطب المناقض للطبيعة. فهو لا يمثل دورتها العمياء مثل كل الآلهة الأسطورية فحسب، بل هو قادر على تحريرنا من هذه الدورة. لكن في تجرّده وبُعْده تعزز في الوقت نفسه هول ما لا يمكن قياسه فيه. وهذه 'الأنا أكون' الحازمة التي لا تقبل وجود شيء إلى جانبها تتجاوز في قوتها التي لا مفر منها الحد الأكثر عمى، ومن ثم الأكثر غموضًا للقدر المجهول"[205]. لكن بخلاف المسيحية التي جعلت النهائي مطلقًا في عقيدة المسيح، بوصفه روحًا تجسد، وأعطت في الحياة العملية لقيصر ما لقيصر ولله ما لله، بقي الإله اليهودي هو الآخر المختلف تمامًا إزاء النهائي. "ما يثير استياء خصوم اليهود المسيحيين هو الحقيقة التي تقاوم الكارثة من دون أن تعقلنها، وتحتفظ بفكرة الغبطة غير المستحقة ضد مسيرة العالم ونظام الخلاص اللذين يفترض بهما تأمين هذه الغبطة"[206]. لكن لو خاض هوركهايمر وأدورنو في مجال اليومي، لاستطاعا أن يَذْكرا أيضًا لمصلحة المتديّنين الروحيين دور الحاخامات، ودور التقدير العالي للانشغال الثاقب بالنصوص المقدسة وبالمشكلات الدينية والأخلاقية والمعنوية، وإهمال العمل وضروريات الحياة التي تتنافس مع موهبة الممارسة الرأسمالية. إجمالًا، ظهر اليهود عند هوركهايمر وأدورنو بوصفهم ذواتًا اجتمعت فيهم طبيعة غير ملائمة وروح غير ملائمة. من خلال ذلك، لم يمثّل اليهود أقلية، بل الصورة المقابلة للحضارة المخفقة؛ أي علاقة بين روح وطبيعة، كان فيها الروح حقيقةً آخَر الطبيعة، وكانت الطبيعة حقيقةً آخَرَ الروح.

يمكن أن يُفضي تطوير رؤية هوركهايمر وأدورنو لنفسيهما بوصفهما مفكرَين لذّويَّين [من أتباع مذهب اللذة] يركزان على الخلاص والإعلاء من شأن الغرائز إلى تطابق حذر مع يهودية فُسرت بأنها شكل تاريخي لنفي محدد.

(205) Ibid., pp. 208 f.

(206) Ibid., p. 211.

حمل العمل على مشروع الجدل، في الواقع، وحدةً في صوغ الموضوعات اللاهوتية. ما نصح به هوركهايمر اليهودَ في نهاية مقالته "اليهود وأوروبا" - أن يتذكروا التوحيد اليهودي المجرد، ورفض الإيمان بالصور، والامتناع عن تحويل النهائي إلى لانهائي - وهو ما شخّصه في "الأنوية وحركة التحرر" وفي **العقل والحفاظ على الذات** - رفض الغرائز والفكر بالتساوي عبر الحكام والمجتمع - وما فكر فيه أدورنو حول المحايثة الأسطورية للرأسمالية والفن والفلسفة "الرجعيين"؛ وما فكر فيه أدورنو حول الجمع بين التركيب والتعبير، والوعي والحسية؛ كل هذا جُمع الآن بصورة شذرية وموجزة في فلسفة تاريخ وتشخيص عصر، مؤسَّسَيْن ضمنًا في اللاهوت.

وضع المؤلفان الصياغة الأكثر تفصيلًا لموقفهما المضاد في فصل "عناصر معاداة السامية"، حين جعلا أشد التشوهات فظاعة مرآة لما قد شُوّه. كانت الأطروحتان المركزيتان هنا الخامسة حول معاداة السامية بوصفها خاصية شاذة، والسادسة حول معاداة السامية من حيث هي إسقاط زائف. كتبا في الأطروحة السادسة: "بين الموضوع الفعلي والمعطيات الحسية التي لا مجال إلى نكرانها، بين الداخل والخارج، ثمة هوّة يتعين على الذات أن تتخطاها لتواجه الخطر على مسؤوليتها. ولكي تعكس الشيء كما هو، يجب على الذات أن ترد إليه أكثر مما تتلقى منه. تخلق الذات العالم خارجها مرة أخرى من البقايا التي يتركها في أحاسيسها: وحدة الشيء في خصائصه وحالاته المتنوعة؛ وهي تشكل بالتالي الأنا بشكل راجع من طريق تعلم منح وحدة تركيبية، ليس للانطباعات الخارجية فحسب، بل أيضًا للانطباعات الداخلية التي تنفصل تدريجيًا عنها. الأنا المطابقة هي منتج الإسقاط الثابت الأكثر حداثة. وفي عملية لا يمكن أن تكتمل تاريخيًا إلا مع القوى المتطورة للتكوين الفيزيولوجي الإنساني، تطورت الأنا بوصفها وظيفة موحدة ومغايرة في آن. وحتى بوصفها أنا أضفيت الموضوعية عليها بصورة مستقلة، فهي ليست إلا ما هو عالم الأشياء بالنسبة إليها. لا يوجد العمق الداخلي للذات في أي شيء آخر إلا في سلاسة عالم الإدراك الخارجي وثرائه. عندما ينقطع التشابك، يجمد الأنا. فإذا توقف الأنا وضعيًا في تسجيل المعطيات من دون أن يعطي هو نفسه شيئًا، يتقلص إلى نقطة، وإذا خلق مثاليًا العالمَ انطلاقًا من أساسه الذي لا أصل له، فهو يستنفد

ذاته في تكرار رتيب، وفي الحالتين يضحّي بالعقل. في التوسُّط وحده الذي يحمل فيه الإحساس الباطل الفكر إلى إنتاجيته الكاملة القادر عليها، ويقدّم، من ناحية أخرى، الفكر بلا تحفظ للانطباع المهيمن، يتم التغلب على العزلة المرضية التي تنحبس فيها الطبيعة بكليتها. لا تتبدى إمكانية التصالح في اليقين غير المتأثر بالفكر ولا في الوحدة قبل المفهومية للإدراك والموضوع، بل في تعارضهما. يحصل التمييز في الذات التي تمتلك العالم الخارجي في وعيها الخاص، لكنها مع ذلك تعرفه بوصفه شيئًا مختلفًا. لهذا يتم ذلك التفكر، أي حياة العقل، بوصفه إسقاطًا واعيًا"[207].

كان هذا في الوقت ذاته الجواب الأكثر تفصيلًا لهوركهايمر وأدورنو عن سؤال كيف يمكن تصور استذكار الطبيعة داخل الإنسان الذي أتينا على ذكره مرارًا وتكرارًا، بوصفه مخرجًا وحيدًا من الخطر: كانت الطبيعة روحية وحية كما جعلتها نظرة الإنسان وسلوكه. لكن ما صارت إليه الطبيعة بفعل نظرة الإنسان وسلوكه لم يكن مجرد هلوسة جمعية، بل كان ما كانته الطبيعة في الواقع. في الطبيعة خبر البشر ما كانوه بالنسبة إلى الطبيعة. وحده القرب من الطبيعة الذي أنتجه الوعي عن بُعد كان بمقدوره أن يحقق في شكل متعال السعادة الضائعة المتخيّلة بنظرة استعادية، أي "السلوك المحاكي الأصلي"، و"التكيف العضوي مع الآخر"[208]. "أنتم ستلتقون بي، عندما تلتقون بي"، استخدم هوركهايمر وأدورنو وجهة النظر الفلسفية-الدينية التي صاغها مارتن بوبر على نحو ثاقب، في الأنثروبولوجيا المادية.

على هذا النحو بدت الصورة المقابلة التي قدمها هوركهايمر وأدورنو لتاريخ كان، وفق تصورهما، نتاج صراعات قامت بها، بهذا القدر أو ذاك، عصابات ابتزاز واستغلال منظمة فعالة طمعًا في نتائج استغلال متهور للطبيعة.

عندما صدر الكتاب المطبوع على الآلة الناسخة في عام 1944، كانت الحرب لا تزال مستمرة، وانتصار الحلفاء كان شبه مؤكد. صلاحية ما حققه هوركهايمر وأدورنو من عملهما المشترك حتى ذلك الحين، لم تتعلق في

---

(207) Ibid., pp. 222 f.

(208) Ibid., p. 213.

نظرهما، لا في كثير أو قليل، بوجود النازية. التقى فيه تقويم الوضع إلى حد بعيد مع تقويم جورج أورويل (George Orwell) الذي كتب يوتوبياه المضادة [رواية] 1984 بعد الحرب العالمية الثانية، بين عامي 1946 و1948، وجعل أوسينيا وعاصمتها لندن مسرحًا لأحداثها، والذي لم يرَ الرعب الحقيقي في التوتاليتارية في الويلات التي تسببها، بل في الطريقة التي تهاجم فيها مفهوم الحقيقة الموضوعية.

كان هوركهايمر نفسه قد غالى جدًا في الطموح الذي رتّبه على كتاب **الجدل**. وقد كتب إلى لوفنتال في تشرين الثاني/نوفمبر 1941: "مهمتنا في الحياة العمل النظري. حان الوقت الذي يجب على تجارب ونقاشات العقد الأخير أن تؤتي ثمارها [...]. انطلاقًا مما يحصل هنا، يجب أن تتضح بنظرة استرجاعية أهمية عملنا الباكر، بل أهمية وجودنا. ونظرًا إلى الفظاعة التي توجد في الخارج والتي تقترب من الداخل[209]، ونظرًا إلى كوننا لا نرى أحدًا في محيط واسع، فإن مسؤوليتنا كبيرة للغاية"[210]. عندما نقل إليه بولوك في بداية حزيران/يونيو 1943 بأن هناك شبهات جديدة تدور حول المعهد، وضع هوركهايمر لنفسه، في رسالة مطولة إلى صديقه، جردة حساب مفصلة حول ما إذا كان قد بذل قصارى جهده لصون المعهد من مثل هذه الاتهامات. ومن ضمن ما كتب إليه: "عندما أدركنا أن بعض أصدقائنا الأميركيين ينتظرون من معهد للعلوم الاجتماعية أن يلتزم بدراسات حول مشكلات اجتماعية ذات صلة، وبأعمال ميدانية وأبحاث تجريبية أخرى، حاولنا أن نلبي هذه الطلبات بأحسن ما نستطيع، بيد أننا كنا نتطلع إلى دراسات فردية بمعنى علوم الروح والتحليل الفلسفي للثقافة [...]. ربما هناك كثيرون لا يشاطروننا مواقفنا الفلسفية، ويزعمون أن اليوم ليس وقت الدراسات التي تبدو بعيدة تمامًا (في رأيي الشخصي أن هذا النوع من العمل الفكري تحديدًا، إذا استثنينا كل شيء ضروري لكسب الحرب، هو ما يحتاجه عصرنا أكثر من أي شيء آخر. البراغماتية والتجريبية وغياب الفلسفة الحقيقية هي بعض أكثر الأسباب المسؤولة عن الأزمة التي كانت ستواجه الحضارة حتى لو لم تحصل

---

(209) من داخل الولايات المتحدة الأميركية.

(210) رسالة من هوركهايمر إلى لوفنتال، 29 تشرين الثاني/نوفمبر 1941.

الحرب)"[211]. إلا أن هوركهايمر تشبّث في النهاية بأهمية عمله الخاص، على الرغم من يأسه أحيانًا من ضآلة تأثير نتائج العمل المضني في معظم الناس. وكتب إلى ماركوزه في أيلول/ سبتمبر 1944: "كلما تطورت الحالة السياسية العامة إلى ما كنا نتوقعه على الدوام، شعرتُ أكثر بأن ما يهم هو عملنا الفلسفي"[212].

عندما تسلّم ماركوزه وكيرشهايمر في كانون الأول/ ديسمبر 1944 كتاب **شذرات فلسفية** من طريق البريد، كانت الحيرةُ ردَّة فعل كل منهما بمعزل عن الآخر، ولم يكن بوسعهما إلا التعبير عن الشكر والامتنان. كما لم يعرفا في ما بعد ما يجب عليهما قوله في حق الكتاب. لقد تبيّن أن هذا يميز تاريخ تأثير هذه النصوص في المدى الطويل.

"جدل تنوير" هوركهايمر: "كسوف العقل"

إذا كان أدورنو قد قدم بمخطوطة **فلسفة الموسيقى الجديدة** نموذجًا متطورًا في مجال الموسيقى من **جدل التنوير** (اكتمل كتاب **فلسفة الموسيقى الجديدة** بعد إضافة جزء ثان عن "شترافينسكي والتجديد" وصفه أدورنو في المقدمة بأنه "عرض مفصل لـ **جدل التنوير**")، فإن هوركهايمر بمحاضراته العامة الخمس حول "المجتمع والعقل" التي ألقاها استجابة لدعوة قسم الفلسفة في شباط/ فبراير - آذار/ مارس 1944 في جامعة كولومبيا، قدم موجزًا عن **جدل التنوير** يصطبغ بطابع هوركهايمري. فكتب إلى بولوك في تشرين الثاني/ نوفمبر 1943 يقول: "ربما أُعِدُّ في كانون الثاني/ يناير المحاضرة مع تيدي. أنوي أن أجعلها نوعًا من نسخة شعبية عن فلسفة التنوير بالقدر الذي أخذت شكلًا في فصول الكتاب الذي أنجزناه تقريبًا"[213]. في أي حال، إن الصيغة المنشورة في عام 1943 لكتاب المحاضرات، والتي شارك في إعدادها لوفنتال وغورلاند وأدورنو بصورة رئيسية، لم تحمل في الحقيقة سوى اسم هوركهايمر كمؤلف.

---

(211) رسالة من هوركهايمر إلى بولوك، 9 حزيران/ يونيو 1943.

(212) رسالة من هوركهايمر إلى ماركوزه، 11 أيلول/ سبتمبر 1943.

(213) رسالة من هوركهايمر إلى بولوك، 19 تشرين الثاني/ نوفمبر 1943.

جاء في مقدمة الكتاب: "صُممت هذه المحاضرات لتقدم في خلاصةٍ بعضَ أوجه نظرية فلسفية شاملة كان الكاتب قد طوّرها إبان السنوات الأخيرة بالاشتراك مع تيودور ف. أدورنو. سيكون من الصعب تحديد أي الأفكار جاءت منه وأيها جاءت مني؛ ففلسفتنا واحدة. كما أن تعاون صديقي ليو لوفنتال الذي لم يضنّ علينا بأي جهد ومشورة باعتباره عالم اجتماع قد مثّل مساهمة لا تقدر بثمن".

ارتبط عنوان الكتاب **كسوف العقل** (نُشر النص، بادئ الأمر، في عام 1967 مع تغييرات طفيفة بعنوان **في نقد العقل الأداتي**) بصورة جلية بمقالة هوركهايمر "أفول العقل"، وهي المقالة الأخيرة التي نشرتها له مجلة **دراسات في الفلسفة والعلوم الاجتماعية**، كما ارتبط أيضًا بعنوان كتاب **الفجر** الذي جمع فيه شذراته الأولى.

في هذا الوجيز من **جدل التنوير**، قدم هوركهايمر الأفكار بصورة يسهل فهمها وتتبعها؛ كما كان أيضًا الطبعة الجديدة لترسيم حدود الجبهتين القديمتين مقابل الوضعية والميتافيزيقا التي أُنجزت اليوم تحديدًا إزاء براغماتية الولايات المتحدة الأميركية والتوماوية الجديدة، وإن يكن، كما هي الحال دومًا، في ظل تقدير للخصم الميتافيزيقي يفوق بكثير تقدير الخصم الوضعي. تمثل جانب هوركهايمري أخير في حقيقة أن دافع أدورنو في انبثاق الأفكار من الداخل من طريق إيصالها إلى الذروة لم يؤدِّ دورًا فيه، في حين جرى، على العكس، التشديد بقوة على ما كان جيدًا في الماضي، وبمباشرية غير جدلية، بحيث بدا مطلب إحياء القديم الجيد هو ما تبقّى كخلاصة أساسية للكتاب بأكمله، ولم يعلن هوركهايمر إزاء التوماوية الجديدة أنه لا جدوى من هذا المطلب فحسب، بل أعلن أيضًا أنه ضار، لأن محاولات الإحياء هذه لا تقوم إلا بتسريع تداعي البقية الباقية من القديم الجيد.

عمل **جدل التنوير** ضمنًا بمفهومين للتنوير. وقد ظهر هذان المفهومان عند هوركهايمر في صيغة عقل ذاتي وموضوعي. "تاريخيًا، وُجِد منذ البدء وجها العقل، الذاتي والموضوعي، وحدثت سيطرة الأول على الثاني في سياق سيرورة طويلة"[214]. لم يكن العقل، وفق فهم البراغماتيين على سبيل المثال،

(214) Max Horkheimer, *Zur Kritik der instrumentalen Vernunft*, p. 18.

أو النيتشويين أو الفيبريين أو "الناس العاديين"، موجودًا لكي يوجد عبر أهداف، بل ليكون أداة في خدمة أهداف أخرى ثابتة. وصف هوركهايمر العقل المسيطر في المجتمع الحديث بأنه ذاتي وأداتي في آن، لأنه يقوم بإيجاد الوسائل الملائمة لأهداف تتعلق، في نهاية المطاف دومًا، بالحفاظ على الذات. رأى هوركهايمر أن العقل الموضوعي والمستقل في آن يتميز بكونه يعرف أهدافًا أكثر شمولًا من الحفاظ على الذات، ويعتبر نفسه مؤهلًا لتقويم رزانة هذه الأهداف الشاملة. "تأسّست الأنساق الفلسفية الكبرى، كنسقَي أفلاطون وأرسطو، والسكولائية والمثالية الألمانية، على نظرية موضوعية للعقل. كانت تهدف إلى تطوير نسق شامل أو تطوير تراتبية تضم كل ما هو كائن، بما فيه الإنسان وأهدافه. يمكن تحديد درجة اتزان حياة إنسان وفق تناغمه وانسجامه مع هذه الكلية. وينبغي أن تكون البنية الموضوعية لهذه الكلية، وليس الإنسان وأهدافه وحدها، مقياسًا للأفكار والسلوكيات الفردية. مفهوم العقل هذا لا يستبعد العقل الذاتي أبدًا، بل يعتبره تعبيرًا جزئيًا محدودًا عن اتزان شامل، تُشتق منها المعايير لكل الأشياء والكائنات الحية. كان التشديد منصبًا على الأهداف أكثر منه على الوسائل. وكان أقصى ما يسعى إليه هذا النوع من التفكير هو تحقيق المصالحة بين النظام الموضوعي 'للمعقولات' - كما تفهمه الفلسفة - والوجود الإنساني بما فيه المصلحة الذاتية والحفاظ على الذات"[215].

لم يتضمن **جدل التنوير** مثل هذا التقويم لأنساق فلسفية كبيرة تؤكد وجود معنًى موضوعي للعالم وللحياة الإنسانية. ولم يظهر فيه التنوير الحقيقي بصورة إيجابية إلا في بعض مظاهر هائمة حول التاريخ المتأثر بالمحايثة: الدين اليهودي، ومُثل البرجوازية الليبرالية، وإخلاص المنظّرين النقديين للنفي المحدد. كانت الحقيقة في **جدل التنوير** معيارًا في متناول اليد لتقويم إضفاء الموضوعية الروحية، لم يرد ذكره بتفصيل أكبر في أي موقع آخر. أُرجعت الحقيقة في **نقد العقل الأداتي** إلى ما كان في **جدل التنوير** جوهر سيطرة الطبيعة؛ أي إلى الأسطورة. كانت الفلسفة والدين والأسطورة وسائط يمكن من خلالها تتبع الأفكار التي تضمن المصالحة بين الإنسان والإنسان وبين الإنسان والطبيعة،

(215) Ibid., p. 16.

وصولًا إلى جذورها ما قبل التاريخية. والمحرمات القديمة والأساطير التي تتأرجح تحت سطح الحضارة الحديثة هي التي "كانت [تقدم] في حالات كثيرة الدفء الذي يقيم في كل خلجة من خلجات المرء ويوجد في كل حب لشيء ما، لأجل الحب نفسه أكثر مما يوجد لأجل شيء آخر. إن متعةِ العناية بحديقة ترجع إلى عصور قديمة كانت فيها الحدائق ملكًا للآلهة، وأُنشئت لأجلها. ترتبط أهمية الجمال في الطبيعة، وفي الفن أيضًا، مع هذه التصورات الخرافية بألف خيط ناعم. وحين يقطع الإنسان الحديث الخيوط معها، سواء حين يهزأ بها أو يفاخر، يمكن أن تستمر المتعة مدة من الزمن، لكن حياتها الجوانية تنطفئ.

ليس بمقدورنا أن نعزو سعادتنا بوردة أو بجو غرفة إلى غريزة جمالية مستقلة؛ فلقد ارتبط تاريخ التلقي الجمالي للإنسان بأشكال مختلفة من عبادة الأوثان. وإيمانه بخير شيء أو قدسيّته يسبق سعادته بجماله. ينطبق هذا أيضًا على مفاهيم مثل الحرية والإنسانية [...]. لا بد من أن تصون هذه الأفكار العنصر السلبي بوصفه نفيًا للمرحلة القديمة من الظلم أو عدم المساواة، وتحافظ، في الوقت ذاته، على المعنى المطلق الأصلي المتجذر في أصله الرهيب. بخلاف ذلك، لن تصبح حيادية فحسب، بل غير حقيقية"[216].

لكن ما كان يقرر أي تحول لأي عناصر من التراث يجب النظر إليه باعتباره التحول العقلاني الحقيقي. ألا يجب أن يكون للعقل مصدر مستقل عن الأسطورة والخرافة والدين؟ ألم يكن في ذهن هوركهايمر مصدر كهذا عندما تكلم عن "المفكرين المستقلين"[217] الذين لم يطمسوا، شأن الميتافيزيقيين ذوي النيات الحسنة، الأثر الأخير للمعنى من التقاليد عبر محاولات إحيائها اصطناعيًا؟ بيد أن الكتّاب السوداويين للبرجوازية - ساد ونيتشه على وجه الخصوص - نطقوا، برأي هوركهايمر، بالحقيقة حول الثقافة البرجوازية. لم يبقَ لنقد الأيديولوجيا شيء، كما يبدو، يمكنه أن يتوجّه إليه. فما الذي يستطيع أن يفعله "تفكير مستقل" بـ "بالأثر الأخير للمعنى" غير ما يفعله، على سبيل المثال،

---

(216) Ibid., pp. 43 f.

(217) Ibid., pp. 66, 83.

التوماويون الجدد وسواهم من المنقذين المزيفين الذين يرفضهم هوركهايمر بوصفهم براغماتيي الدين؟ ما الذي كان يعنيه الحديث عن "الأثر الأخير للمعنى"، أو ما الذي يمكن أن تعنيه "هذه الأفكار[218] لمفكرين مستقلين يحاولون معارضة السلطات القائمة"[219]؟

"إن عبارات مثل 'كرامة الإنسان' إما أن تتضمن تقدمًا جدليًا تُصان به فكرة الحق الإلهي وتسمو، وإما أن تصبح شعارات مبتذلة يتبدى خواؤها ما إن يسأل أحدهم عن أهميتها الخاصة. تعتمد حياتها - إن جاز التعبير - على ذكريات لاواعية. وحتى لو تأهبت مجموعة من الأشخاص المتنورين للكفاح ضد أكبر الشرور التي يمكن تصوّرها، فسيكون من المستحيل على العقل الذاتي تقريبًا أن يحيل ببساطة على طبيعة الشر وطبيعة الإنسانية التي تأمر بالكفاح. سوف يسأل كثيرون في الحال عن الدوافع الحقيقية. يجب التأكيد أن الأسباب واقعية، أي تنسجم مع المصالح الشخصية، مع أن هذه الأسباب يمكن أن تكون عصية على فهم جماهير الشعب أكثر من النداء الأخرس للحالة نفسها"[220]. كان هذا الموضوع هو الذي ظهر لدى هوركهايمر مرارًا وتكرارًا على مر السنوات في فقرات منعزلة، وهو نوع من وجودية أخلاقية. كان سعي الناس نحو السعادة، بالنسبة إلى الماديين، حقيقة لا تتطلب تسويغًا[221]. وكانت الظلال الناعمة للرغبة مقدسة بالنسبة إلى الفلسفة[222]. والآن: تتضمن طبيعة البشر والنداء الأخرس للحالة مطالب آمرة، يمكن أن تغدو مسموعة، عندما يصمت العقل الذاتي. بناء عليه، كان رأي هوركهايمر، الذي عبّر عنه تلميحًا أكثر منه تصريحًا، أن التفكير المستقل أنقذَ "الأثر الأخير للمعنى" من خلال كونه لم يسعَ لإحياء شيء، بل وضع حدًا لشيء مُدَمَّر ومُشَتَّت. لم يكن يريد تجديد المُثُل المبتذلة على مستوى روحي، بل حاول أن يربط نفسه بمكافئاتها في الطبيعة الإنسانية.

---

(218) الحق، والخير، والجمال.

(219) Ibid., p. 66.

(220) Ibid., p. 40.

(221) Max Horkheimer, "Materialismus und Metaphysik," *Zeitschrift für Sozialforschung* (1933), p. 31.

(222) رسالة من هوركهايمر إلى تيليش، 12 آب/أغسطس 1942؛ يُنظر ص 445 في هذا الكتاب.

كان هذا، بالنسبة إلى هوركهايمر، المعنى الملموس لاستحضار "ذكرى الطبيعة في الإنسان": اتحاد التأمل والغرائز. في اللحظة الأخيرة تلمّس الفكر طريق تغلّب العقل الموضوعي من خلال العقل الذاتي - طريق تذويت العقل، وجعله شكلًا وأداة، ونزع جوهرانيته - وقدم نفسه أداة الطبيعة أمام أداة الروح المتعجرف. "مهما تشوّهت الأفكار الكبيرة للحضارة - العدالة، المساواة، الحرية - فهي احتجاجات الطبيعة في مواجهة وضعها القسري، وهي الشهادات المصاغة الوحيدة التي نملكها. وعلى الفلسفة أن تتخذ إزاءها موقفًا مضاعفًا. فأولًا، يجب أن تنفي حقها في أن تعتبر حقيقة عليا ولانهائية. وعندما يقدم نسق ميتافيزيقي تلك الشهادة بوصفها مبادئ مطلقة أو أبدية، فهو يكشف دائمًا نسبيتها التاريخية. ترفض الفلسفة تبجيل النهائي، ليس الأوثان السياسية والاقتصادية الأولية، مثل الأمة، أو الزعيم، أو النجاح، أو المال، فحسب، بل أيضًا القيم الأخلاقية والجمالية، مثل الشخصية والسعادة والجمال، وحتى الحرية، بمقدار ما تدعي أنها وقائع عليا مستقلة. وثانيًا، يجب الاعتراف بأن في الأفكار الثقافية الأساسية محتوى حقيقة، وعلى الفلسفة أن تقيسها على الخلفية الاجتماعية التي نشأت منها. فالفلسفة تحارب القطيعة بين الأفكار والواقع، وتواجه القائم في سياقه التاريخي مع مطلب مبادئه المفهومية، لكي تنقذ العلاقة بينهما، وتتخطاها على هذا النحو. فالفلسفة تتمتع بخاصيتها الإيجابية تمامًا في اللعبة المتبادلة بين هاتين الطريقتين السلبيتين"[223].

هنا يتبدى بوضوح المغزى المتناقض لفلسفة هوركهايمر التي لم تتغير في جوهرها قط، بل طاول التغيير السطح منها فحسب: نقد الأيديولوجيا الذي استمد مقاييسه من المُثل البرجوازية، وسعى فقط لأخذها حرفيًا، ما عاد ممكنًا بالنظر إلى تدمير العقل لذاته، وبالنظر إلى سيطرة أسطورة العقلانية الغائية. مع ذلك، كان مثل هذا النقد ممكنًا، عندما امتلأت الأفكار البرجوازية الخالية من الجوهر التي غدت مجرد شعارات من أسفل، باحتجاج الطبيعة. لقد جعل "جهاز مقتدر من البحث المنظَّم"[224] تحت رعاية الفلسفة الحديثة مثل هذا

(223) Ibid., pp. 169 f.

(224) Ibid., p. 55.

الامتلاء مستحيلًا، في حين استطاع بحث "عفوي"[225] وجّهه تأمل فلسفي أن يواجه الانهيار الثقافي عندما منح صوتًا لاحتجاج الطبيعة[226].

شكلت محورَ كتاب **كسوف العقل** أيضًا المحاضرة الوسطى: "تمرد الطبيعة". "في الحقيقة، خسرت الطبيعة في هذه العملية[227] رعبَها، لكن حرمت خاصياتها الخفية (qualitates occultae) تمامًا من إمكانية أن تتكلم من خلال وعي الإنسان، حتى في اللغة المشوّهة لهذه المجموعة المتميزة[228]، كما لو أن الطبيعة تنتقم"[229]. رأى هوركهايمر الحضارة منذ البداية مترافقة بممانعة واعتراض على قمع الطبيعة في شكل تمردات اجتماعية وجرائم فردية واضطرابات روحية. ولم يعتبر - كما يمكن القول استنادًا إلى وصفه لأدباء برجوازيين محددين - حالات التمرد "الساطعة"، الثورات، وحدها في عداد التمرد الاجتماعي، بل أيضًا حالات التمرد "المظلمة" و"السوداء" (حالات التمرد بالمعنى الاصطلاحي لـ **دراسات في السلطة والأسرة**). لقد سمّى "العبث العرقي المدبر الماكر لوقتنا"[230] "تمرد الطبيعة النازي ضد الحضارة" الذي أُطلق فيه العنان للغرائز المحظورة في خدمة قوى القمع[231] (على نحو مشابه قام، على سبيل المثال، فرويد وبنيامين، وأكثر منهما إرنست يونغر وجورج باتاي، بتفسير الحرب العالمية الأولى بوصفها تظاهرة سريعة للتيارات المناوئة لمبدأ ريعية العقلانية الرأسمالية).

وبشكل أقرب إلى اليومي مما هو الحال في **جدل التنوير**، لكنه في الجوهر يكرر أفكاره، رأى هوركهايمر أن الانتقام الحقيقي للطبيعة يكمن في حقيقة أن عدم القدرة على فهم الطبيعة في ذاتها يتوافق مع عدم القدرة على الفرح والسعادة والشعور بالذات ومتعة التحقق. "عملية التلاؤم الآن متعمدة، وهي

---

(225) Ibid., p. 61.

(226) Ibid., pp. 100 f.

(227) عملية قمع التأمل عبر الفكر البراغماتي.

(228) أي المفكرين التأمليين.

(229) Ibid., p. 103.

(230) Ibid., p. 95.

(231) Ibid., pp. 119, 114.

لهذا السبب أصبحت كلية [...]. يشترط حفاظ الفرد على ذاته مسبقًا تلاؤمه مع ضرورات الحفاظ على النظام [...]. كلما اخترعنا أجهزة أكثر للسيطرة على الطبيعة، كان علينا أن نخدمها أكثر إذا كان علينا أن نبقى أحياء [...]؛ فالفرد، وقد تطهر من كل بقايا الميثولوجيات، بما فيها ميثولوجيا العقل الموضوعي، يستجيب ذاتيًا وفق نماذج التكيف العامة [...]. الأمر كما لو أن القوانين والأوامر والتعليمات التي لا حصر لها التي يجب علينا الامتثال لها هي التي تقود العربة، وليس نحن [...]. فبدلًا من عفويتنا، حلّ الإدراك العقلي الذي يجبرنا على التخلص من أي إحساس أو فكرة يمكن أن تضرّ بانتباهنا للمطالب الموضوعية التي تنهال علينا [...]. يكمن الفرق[232] في التهوّر الذي ينصاع المرء معه، وفي المدى الذي اخترق فيه هذا الموقف كينونة الإنسان الكلية وغيّر طبيعة الحرية التي تم بلوغها"[233].

وكما يأمل هوركهايمر، فإن "انتصار الحضارة بلغ درجة كبيرة من الكمال جعلته لا يبدو حقيقيًا. لهذا السبب ينطوي التلاؤم في عصرنا على عنصر الضغينة والغضب المكبوت"[234]. ما انتظره ماركس ولوكاتش، وحتى هوركهايمر نفسه في الفترات الأولى، من البروليتاريا - أن يشحن بؤسها ثوريًا، وأن تكون وثبة لبوة ذليلة - ينتظره هوركهايمر اليوم من كل الخاضعين للحضارة، وخصوصًا من الحمقى والمجرمين ومن المتمردين "السود". القيام "بثقة في البشر" بـ "التشهير بما يسمى في الوقت الحاضر العقل"[235]، كان هذا هو التصور الذي عارض فيه هوركهايمر "الأفظاظ" الفاشيين الذين بدا أنهم "يصفعون الحضارة في الوجه، ويعززون تمرد الطبيعة"[236].

أفضى الطابع الإشكالي لتصوّر إحياء جديد لأفكار برجوازية من أسفل إلى غياب الحديث في النصوص اللاحقة عن التحالف مع التمرد الأسود. ما تبقى كان الشكوى من ضياع العقل الموضوعي ومن الاستخفاف بالتأمل النظري

(232) قياسًا بأزمنة أسبق كان على المرء فيها أن يتلاءم أيضًا.

(233) Ibid., pp. 96 ff.

(234) Ibid., p. 100.

(235) Ibid., p. 174.

(236) Ibid., p. 116.

والتفكير، مع الدعوة، في الوقت ذاته، إلى "الحقيقة الموضوعية". منذ الآن فصاعدًا، كانت هذه الدعوة إلى مبدأ ميتافيزيقي أكثر اتساقًا لدى هوركهايمر مما هي عليه الدعوة إلى الموضوعات اللاهوتية للأمل والخلاص لدى أدورنو. كان يُخشى من أن يكون هذا قد بدّد المخاوف المتعلقة بانطلاقة التنوير، وأزال معوّقات الاهتمام بتحليل التجربة التي أُسِّست على مفهوم أَدْوَتة [التحويل إلى أداة] العقل. كتب ماركوزه إلى هوركهايمر بعد قراءة **كسوف العقل**: "لو تستطيع فقط أن تبدأ العمل الكلي على جميع مسارات الفكر التي لم تستطع الإشارة إليها في الكتاب إلا تلميحًا، خصوصًا أن أكثر ما يقلقني أن شكل العقل الذي يتغير فجأة إلى التلاعب والسيطرة الكاملين يبقى مع ذلك عقلًا، بحيث يكمن الرعب الحقيقي للنظام في عقلانيته أكثر مما يكمن في لاعقلانيته. لقد **قيل** ذلك بصورة طبيعية - لكن ما زال عليك أن تقدم التطور للقارئ الحقيقي - لا أحد غيرك يستطيع أو يريد أن يفعل ذلك"[237].

مشروع معاداة السامية

أن تطلب مؤسسة كارنيغي في عام 1937 من السويدي غونار ميردال (Gunnar Myrdal) إجراء بحث حول "مشكلة السود" في الولايات المتحدة الأميركية، وتوفر له لأجل ذلك الحرية والمال في إطار غير محدد عمليًا، كان مبادرة مستقلة وشجاعة وغير مألوفة أيضًا، حتى بالنسبة إلى الولايات المتحدة التي تُعتبر دولة غير تقليدية. أخيرًا، كان التمييز العنصري ضد السود - إضافة إلى القضاء الشامل على الهنود الذين كان العالم قد نسيهم تقريبًا وسياسة الولايات المتحدة الأميركية الإمبريالية تجاه أميركا اللاتينية التي لم تستنكرها السلطات الأوروبية التي تفكر هي الأخرى بمقاييس إمبريالية - أكبر وصمة عار للولايات المتحدة الأميركية التي ترى نفسها الممثل النموذجي للديمقراطية. تُدين فكرة المشروع والدعم السخي له بالفضل إلى فردريك ب. كيبل، الرئيس السابق لمجلس أمناء مؤسسة كارنيغي في نيويورك. وكان أيضًا في الأربعينيات الوحيد من بين أعضاء هيئة الاستئناف - السلطة العليا صاحبة القرار في ما خص طلبات الفيزا لحلفاء

(237) رسالة من ماركوزه إلى هوركهايمر، 18 تموز/يوليو 1947.

"العدو" - الذي عارض بعد غزو ألمانيا للاتحاد السوفياتي الإجراءات المشددة للهجرة، مساعدًا بذلك في تأمين تأشيرات دخول إلى الولايات المتحدة الأميركية لكثير من اللاجئين الذين كانوا سيُرفضون من دون مساعدته.

في الوقت الذي أنهى ميردال عمله تقريبًا، اتخذت اللجنة اليهودية الأميركية - الوكالة الأقدم والأكثر نفوذًا بين وكالات الدفاع اليهودية الكبرى التي يعدّ من بينها أيضًا المؤتمر اليهودي الأميركي والمنظمة المناهضة للتشهير ولجنة العمل اليهودية - قرار مساعدة معهد البحث الاجتماعي في تمويل مشروع معاداة السامية، وهو حدث لم يكن أقل أهمية من فعل هيئة كارنيغي. كان ثمة دراسات عديدة في المسألة العرقية وفي مشكلة معاداة السامية؛ ففي الموضوع الأخير، مثلًا، الكتاب الذي صدر في عام 1942 بعنوان **اليهود في عالم غير يهودي: مشكلة معاداة السامية** تضمن مساهمات علماء اجتماع وأنثروبولوجيين وعلماء نفس وسواهم، من بينهم تالكوت بارسونز (Talcott Parsons) وكارل فريدريش (Carl J. Friedrich). لكن مشاريع كبيرة من هذا النوع لم تكن بالحجم الكافي لإنصاف الأهمية الاجتماعية لتلك المشكلات بطريقة توافق مقياس الولايات المتحدة.

بعد خمسة أيام على ما يدعى "ليلة الكريستال" [ليلة الزجاج المكسور] في 9 و10 تشرين الثاني/ نوفمبر 1938، عندما أُضرمت النيران في الكنس اليهودية في ألمانيا ودُمرت، واعتُقل 30,000 يهودي وسيقوا إلى معسكرات الاعتقال، سئل روزفلت في مؤتمر صحافي في البيت الأبيض: "هل تنصح بتخفيف قيود الهجرة إلى الولايات المتحدة، بحيث يمكن استقبال اليهود اللاجئين في هذا البلد؟"، فأجاب الرئيس: "ليس هذا في وارد تفكيرنا. لدينا نظام الحصص"[238]. سمح هذا النظام سنويًا بقدوم 27,230 مهاجرًا من ألمانيا والنمسا، وهو عدد، على الرغم من ضآلته، لم يتم بلوغه، بسبب قيود إدارية، إلا في عامي 1939 و1940. وقد جرى تشديد هذا الإجراء بُعيد الاجتياح الألماني للاتحاد السوفياتي. من الآن فصاعدًا، كانت هناك ضرورة لحصنَين أميركيين: واحد للاستقلالية المالية للمهاجر المحتمل، وآخر لدمجه أخلاقيًا.

(238) Arthur D. Morse, *While Six Million Died*, p. 149.

تشكل لدى اليهود الأوروبيين الانطباع بأن هناك ائتلافًا بين الأغلبيات الصامتة والقادة السياسيين الذين بدوا متفقين على أمر تركهم لمصيرهم، لا بل وجعل هروبهم أكثر صعوبة. لم ينجح التكتم على "الحل النهائي". لكن الأخبار حوله لم تُصدَّق في معظم الأحيان، لا في الخارج، ولا حتى بين اليهود المعنيين أنفسهم. كان ثمة تحفظات في وزارة الإعلام في إنكلترا حول نشر مثل هذه الأخبار؛ فقد أظهرت التجارب المتصلة بالدعاية حول ويلات الحرب العالمية الأولى أن هذا النوع من الأخبار عادة ما يتم رفضه باعتباره قصص رعب لا صحة لها في الواقع. وثمة خشية أخرى تمثلت في أن تقديم تقارير حول إبادة اليهود في البلدان التي احتلها الألمان من شأنه أن يستنهض معاداة السامية في البلد المعني.

لفتت بشدة الأحداث في القسم من العالم الذي يحكمه النازيون وردّات الفعل عليهم في بلدان الحلفاء نظر بعض المراقبين إلى النسخة الأنكلوسكسونية للحركة التي كان لها عواقب وخيمة في القارة الأوروبية، حيث أكد هؤلاء المراقبون وجود شكل من معاداة السامية مغطى، بهذا القدر أو ذاك، بالاعتراف بالديمقراطية. اقترب هذا من شبهة أن معاداة السامية أكثر انتشارًا بكثير مما يُعتقَد. وقد لخص جورج أورويل تجاربه في مقالة "معاداة السامية في بريطانيا"، التي نُشرت في نيسان/أبريل 1945 في مجلة **السجل اليهودي المعاصر** التي تصدرها اللجنة اليهودية الأميركية، بما يلي: "إدراك واسع لتفشي الشعور المعادي للسامية والنفور من المشاركة فيه. هذا الشعور بأن معاداة السامية شيء آثم ومخز، شيء لا يعاني منه إنسان حضاري، هو شعور غير مستحب للمقاربة العلمية، وفي الحقيقة سوف يقر كثير من الناس بأنهم يخافون من السبر العميق جدًا داخل الذات؛ فهم خائفون - يمكن القول - من اكتشاف ليس فقط أن معاداة السامية تنتشر، بل من كونهم هم أنفسهم قد أصيبوا بعدواها".

تحدث عالم النفس الأميركي آلن ل. إدواردز عن "مواقف فاشية غير واضحة المعالم" في مقالة بالعنوان نفسه نُشرت في عام 1941 في *Journal of Abnormal and Social Psychology* (**مجلة علم نفس الشذوذ وعلم النفس الاجتماعي**). كانت مقالته واحدةً من بين عدد متنام من الأبحاث التي تهتم

بظواهر مثل ظاهرة أن الناس الذين يمثلون المبادئ والأنماط المتكررة الفاشية، يرفضون وصفهم بالفاشيين. وجّهت مشاهدات، مثل سحب الطلاب موافقتهم على الأقوال حالما توسم هذه الأقوال بالفاشية، انتباه الباحثين إلى مشكلة التقويم المخفي للمواقف التي لا يحب الأشخاص المعنيون الإقرار بطابعها الحقيقي ويفزعون غالبًا منه فعليًا، بل حتى أنه لا يبدو واضحًا بالنسبة إليهم في بعض الحالات.

كان اليهود في الولايات المتحدة الأميركية (أكثر من أربعة ملايين على وجه التحديد، أي ما يقارب 3.5 في المئة من سكان الولايات المتحدة، ومثل هذا العدد من اليهود لم يوجد في أي مكان آخر) هم الذين اتُّهموا في ما بعد بأنهم لم يقوموا بواجبهم على نحو مُرضٍ، وكانوا في مسعاهم لتقديم العون والمساعدة ليهود أوروبا المضطهدين والملاحقين في الواقع محافظين في بعض النواحي. لقد أدركوا نزعة الانعزال المسيطِرة على السياسة الدولية في الولايات المتحدة الأميركية، والتي لم يتم تجاوزها إلا بعد هجوم اليابانيين في 7 كانون الأول/ ديسمبر 1941 على بيرل هاربر، المقر الرئيسي للأسطول البحري الأميركي في المحيط الهادئ، وبعد إعلان ألمانيا وإيطاليا الحرب على الولايات المتحدة في 11 كانون الأول/ ديسمبر. وقد انتابتهم الخشية من أن تؤدي المطالبة الشديدة الأهمية بتخفيف قيود الهجرة وقدوم سيل جارف من المهاجرين اليهود إلى ازدياد معاداة السامية الذي كان ملاحظًا بوضوح، ومن ثم التأثير سلبًا في المجهود الحربي للحلفاء.

بعد دخول الولايات المتحدة الأميركية الحرب، شددت المنظمات اليهودية، مثل اللجنة اليهودية الأميركية، على مشاركة اليهود في المجهود الحربي. في القسم التاريخي من مجلة **السجل اليهودي المعاصر**، ذُكرت قوائم - احتلّت صفحات كثيرة من المجلة - بأسماء اليهود الذين شاركوا في الحرب في مواقع عليا ومراتبهم، وذُكرت لاحقًا قوائم بأسماء من سقطوا فيها. كان هذا الإجراء جزءًا من إجراءات الدفاع ضد الحكم المسبق الذي كان يصعب تقدير درجة انتشاره، بأن اليهود كانوا يتهربون من الخدمة الحربية، وكانوا، في الوقت نفسه، أكبر المستفيدين من الحرب.

كتب نويمان من نيويورك إلى هوركهايمر في لوس أنجلس، بعد بضعة أيام على دخول الولايات المتحدة الحرب مجبرةً، ما يلي: "كنت منشغلًا جدًا بمشروع معاداة السامية. بالطبع، ليست الآمال جيدة جدًا في الوقت الحاضر. فأولًا، تراجع معاداة السامية بشكل قطعي إلى الخلف. وثانيًا، سوف تستعمل كثير من المؤسسات أموالها وإمكاناتها للمجهود الحربي حصرًا (وكانت مؤسسة كارنيغي قد أعلنت عن ذلك سلفًا). وجهة النظر هذه قصيرة المدى طبعًا، لأن ليس هناك أدنى شك بأن معاداة السامية سوف يصبح، إبان الحرب أو بالتأكيد بعدها، أقوى بكثير مما كان في أي وقت مضى، لأنه سوف يتحد مع حركة فاشية قطعًا. لا يزال هناك عدد لا بأس به من الناس الذين يرون وجوب استغلال التأثير الضاغط الذي أعطته فترة الحرب الأولى لليهود [...]. سوف تنمو معاداة السامية، وسوف يستيقظ اليهود، ويرون في الحال أن أكثر البيانات الوطنية حماسة لن يكون لها نفع. والنتيجة أن علينا أن نستغل المال القليل الذي يمكن أن نحصل عليه لدفع مشروعنا حول معاداة السامية قدمًا والعمل عليه بالسرعة الممكنة، كي نستطيع في غضون بضعة أشهر إظهار قدرتنا على القبض على المشكلة برمتها"[239].

يعود الفضل أولًا إلى صلابة نويمان في أن تنتعش الآمال دفعة واحدة في حصول المعهد على دعم مالي لمشروع معاداة السامية في صيف 1942، وذلك بعد أن شغل منصب مدير قسم الأبحاث في اللجنة اليهودية الأميركية. كتب هوركهايمر، المرتاب إلى أقصى الحدود، من باسيفيك باليسيدز حيث كان مستغرقًا مع أدورنو في العمل على مؤلفهما النظري الرئيسي، إلى لوفنتال في نيويورك: "أعتقد أنني سأقرر القدوم إلى نيويورك. ثمة رجاء أطلبه منك بجدية كبيرة، وأرجو ألا تنساه ولو لدقيقة واحدة إبان إقامتي هناك، حتى ولو كان علي أن أتردد: لا تدعني أبقَ يومًا واحدًا أكثر مما هو ضروري بالمطلق. كل يوم، بل كل ساعة، تبقى لي يجب أن تُكرَّس لعملنا. حياتنا المشتركة ستكون غير مسؤولة إذا كان علينا أن نضيّع ساعةً أستطيع العمل بها لغرض آخر غير ذلك التي يتعلق باستمرار وجودنا الحياتي وحده. أنا لا أعتبر

(239) رسالة من نويمان إلى هوركهايمر، 20 كانون الأول/ ديسمبر 1941.

المفاوضات مع اللجنة اليهودية الأميركية بالذات سببًا كافيًا لإيقاف عملنا. بعد تجاربنا مع غريبر[240] وبعد كل المؤشرات في هذا الموضوع، أنا متأكد نوعًا ما أننا قد نُخذل هذه المرة، كما حصل لنا من قبل. في أي حال، قبل وصول رسالة نويمان كان لدي شعور بأنني لن أستطيع تجنب رحلة في هذا الخريف أو في الشتاء القادم. وبما أننا لا نستطيع تحمل إغلاق المعهد بشكل كامل، فإنه كان عليّ أن أظهر وأقدم برهانًا حيًا لأصدقائنا الآخرين بأنني لا أهمل الأمور، وأنني أبقيهم على اطلاع على مستجدات عملي، وأن الركود الراهن في أنشطة المعهد يمكن تجاوزه في أي لحظة عندما نراها مناسبة. وبما أنني لن أترك أي شك بأن عملي سوف يبقيني في لوس أنجلس في السنتين القادمتين (شرط ألا تتدخل قوة قاهرة)، يتعين على هذا أن يمنحنا الطمأنينة في المستقبل القريب. وبأخذ هذا الوضع في الاعتبار، فإن رسالة نويمان لا تقرر الرحلة، بل تقرر تاريخها. فإذا كان علي أن أذهب في أي طريق، فلِمَ لا أذهب الآن، ولا سيما أنني عامل رديء على نحو مرعب، عندما يكون في مخططي رحلة من هذا النوع"[241].

بعد مدة وجيزة، سافر فعلًا إلى نيويورك. في أحاديثه مع ممثلي اللجنة اليهودية الأميركية، حصل على تأكيد لتقرير نويمان، لكنه بقي مرتابًا، لأن جلسة اللجنة الحاسمة كان من المفترض أن تنعقد بعد أسبوعين، وإلى ذلك الحين "سوف تنجح المعارضة في سد طريق الوصول إلى تفاهم"[242]. عززت شكوكَه أيضًا انطباعاتُه عن زيارة إلى وزارة الخارجية في واشنطن التي ذهب إليها هو ونويمان في محاولة للحصول، من بين أشياء أخرى، على نوع من كتاب توصية لمشروع حول "تقويض الشوفينية الألمانية"، يشير إلى أن لهذا البحث أهمية معترفًا بها بصورة شبه رسمية في المجهود الحربي. وهكذا افترضوا أنهم فتحوا بذلك فرصًا كبيرة لدعم مالي من طريق مؤسسة روكفلر أو مؤسسة كارنيغي.

---

(240) كان إسحق غريبر (Isacque Graeber)، وهو أحد ناشري [كتاب] **يهود في عالم غير يهودي** (*Jews in a Gentile World*)، قد وُظّف عام 1941 في المعهد كمحصّل للمال.

(241) رسالة من هوركهايمر إلى لوفنتال، 27 آب/ أغسطس 1942.

(242) رسالة من هوركهايمر إلى أدورنو، 17 أيلول/ سبتمبر 1942.

تطلب الأمر فعليًا أشهرًا عدة حتى توصلت اللجنة اليهودية الأميركية إلى قرار نهائي بهذا الشأن. قاد المفاوضات في بادئ الأمر - بعد أن كان هوركهايمر قد عاد من فوره إلى باسيفيك باليسيدز - نويمان على وجه الخصوص. اتفق هو وديفيد روزنبلوم (David Rosenblum)، المدير الجديد لقسم الأبحاث في اللجنة اليهودية الأميركية، على أن يكون روبرت ليند منسِّقَ الولايات المتحدة الأميركية، وهذا الأخير يُعدّ، مثل ثورستين فيبلن من قبله وتشارلز رايت ميلز أو ديفيد ريزمان من بعده، من ممثلي تيار أقلّوي في علم الاجتماع الأميركي ناقدًا للمجتمع، وساهم إلى حد بعيد في النجاح العام لعلم الاجتماع. كان من بين تحفظات نويمان - وفق ما يرى روزنبلوم - أن ليند سوف يُجابَه بالرفض داخل اللجنة بسبب وجهات نظره السياسية، "طالما لم يكن المرء شيوعيًا، كان على وفاق معه أكثر، لأن وجهة نظره من مشكلة معاداة السامية، في رأيه، لا يمكن أن يهاجمها إلا شخص له وجهات نظر يسارية، ويريد أن يصل إلى جذور المشكلة"[243]. عندما سمّى نويمان، إضافة إليه هو، أدورنو وماركوزه ولوفنتال وبولوك كعاملين في المعهد، وذكر تعاون أدورنو مع لازارسفلد في مشروع بحث الإذاعة في برنستون، قال روزنبلوم عن عمل لازارسفلد: "لم ينجز الجهاز الضخم أي نتائج كائنًا ما كانت". كان هذا دليلًا على أن هناك أشخاصًا في مواقع مهمة قوّموا المعهد بدقة على حساب ما كان هوركهايمر وأقرب مساعديه يحاولون إلغاءه أكثر مما يدافعون عنه بثقة.

في اجتماع جديد للجنة اليهودية الأميركية، حصل المشروع مرة أخرى على الموافقة. لكن، بدلًا من الموافقة الخطية التي كان ينتظرها مديرو المعهد، تلقوا طلبًا يسألهم تقديم ميزانية ومشروع مفصل آخر. في الصياغة الجديدة للمشروع التي أُعدّت على عجل في مكتب المعهد في نيويورك، عمل نويمان وماركوزه مرة أخرى بقوة، قبل أن يتسلما في النهاية، بضغط من هوركهايمر وبولوك، وظائف في واشنطن بدوام عمل كامل. عُيّن بولوك، بناء على رغبة هوركهايمر، مديرًا للمشروع ومديرًا تنفيذيًا لمكتب المعهد في نيويورك. فكتب هوركهايمر إلى صديقه: "لأنك اقتصادي، يمكنك نقل المعهد نحو منحى أكثر

(243) رسالة من نويمان إلى هوركهايمر، 17 تشرين الأول/ أكتوبر 1942.

تجريبية، واعدًا بنتائج عملية أكثر من دون تعريض فكرنا النظري للخطر"[244].
كان الاثنان متفقين على اتباع نموذج **دراسات في السلطة والأسرة**، وعلى إكمال الأساس النظري للدراسة بقسم تجريبي مؤثر. أراد هوركهايمر، قدر المستطاع، إلغاء المشروع الفرعي المتفق عليه مع نويمان، والذي يدور حول معاداة السامية بين العمال. فقد رأى في ذلك إضافة على خطة المشروع المطبوع في مجلة **دراسات في الفلسفة والعلوم الاجتماعية** قام بها نويمان بمفرده، وقال لبولوك: "بالمناسبة، فكرة المسح هذه حول الحركة العمالية بأكملها لمجرد الكشف عن ردات فعل معادية للسامية، هي في رأيي فكرة سخيفة من الناحية العلمية"[245].

في كانون الثاني/ يناير 1943، لم يكن قد اتُّخذ بعد قرار نهائي على أساس الميزانية والمخطط الجديد للمشروع، وكان هناك انتخاب الرئاسة الجديدة للجنة اليهودية الأميركية. عندما انتُخب، في نهاية الشهر، جوزف بروسكاور (Joseph M. Proskauer)، رأى بولوك أن جميع الآمال قد تبخرت. كان بروسكاور جمهوريًا لامعًا ينتمي إلى أولئك اليهود الذين كانوا ضد النشر المتعلق بأحداث أوروبا، وكان ينتظر منهم بالتالي التزام الصمت أيضًا في موضوع معاداة السامية في الولايات المتحدة. في ظل إدارة بروسكاور، بدا أيضًا خط اللجنة اليهودية الأميركية الذي كان معتدلًا على العموم، ودافع عن الاستيعاب، كما لو أن المرء يريد أن يحارب معاداة السامية في الولايات المتحدة من خلال فضحها - كما جاء في بيان اللجنة في تشرين الأول/ أكتوبر 1943 - "بوصفها ظاهرة لاديمقراطية بائسة وغير أميركية"[246].

في النصف الثاني من شباط/ فبراير، اتصل روزنبلوم هاتفيًا ينقل خبر أن اللجنة وافقت فعلًا بصورة نهائية على المشروع. وفي 2 آذار/ مارس 1943، أبرق بولوك إلى هوركهايمر: "وصلنا إلى اتفاق كامل حول المشروع. روزنبلوم يبدو متحمسًا، وهو يعتقد أن المشروع سوف يتطور إلى هيئة أكبر وإلى منحة

(244) رسالة من هوركهايمر إلى بولوك، 9 تشرين الثاني/ نوفمبر 1942.
(245) رسالة من هوركهايمر إلى بولوك، 9 تشرين الثاني/ نوفمبر 1942.
(246) *Contemporary Jewish Record* (Dez. 1943), p. 657.

أكبر. وينصح بشدة أن يبدأ مساعدو نيويورك في 15 آذار/ مارس، ويبدأ الطاقم بأكمله في 1 نيسان/ أبريل [...]"[247].

في المحادثات بين بولوك ولوفنتال من جهة وروزنبلوم من جهة أخرى، كان من بين ما اتُّفق عليه:

- في المشروع الذي حُددت مدته بادئ الأمر بسنة، من نيسان/ أبريل 1943 إلى آذار/ مارس 1944، كان على كل طرف أن يساهم بـ 10,000 دولار؛

- يتعين أن تؤخذ التجارب الأوروبية في الاعتبار؛

- يجب أن تركز الأبحاث، بالمعنى الضيق للكلمة، على مجالين رئيسيين:

– "النموذج الشمولي ووظائفه السياسية": هذا الجزء يجب إنجازه في نيويورك مع بولوك مديرًا، وروبرت ماكيفر (حل محل ليند الذي تخلى عن ذلك بسبب انشغالاته الكثيرة) منسقًا، وليو لوفنتال، وباول ماسينغ، وأركادي غورلاند، وأشخاص آخرين كمساعدين؛

– "البحث النفسي": هذه الدراسات كان من المفترض أن تجري على الساحل الغربي بإشراف هوركهايمر الذي يساعده أدورنو وآخرون؛

- أما تجربة الفيلم التي كانت في مخطط المشروع الذي نشرته مجلة **دراسات في الفلسفة والعلوم الاجتماعية** في صلب القسم التجريبي، فبقيت معلقة مؤقتًا لأسباب مالية. وكان يُراد أن تكون أصلًا مثالًا على الطرائق الجديدة المستترة في رصد معاداة السامية[248].

من الآن فصاعدًا، بات العمل على مشروع الجدل والعمل على مشروع معاداة السامية في الساحل الشرقي متشابكين. وقد سار هذا التشابك بحيث

---

(247) رسالة من بولوك إلى هوركهايمر، 2 آذار/ مارس 1943.

(248) Friedrich Pollock, *Memorandum for P. T. [Paul Tillich] on Certain Questions Regarding the Institute of Social Research*, no. 18, 24/2/1943

(جزء من رسائل متبادلة بين هوركهايمر وبولوك).

ما عاد ممكنًا في النهاية القول إن كانت **الشذرات الفلسفية** قد شكلت منصة الانطلاق النظرية لمشروع معاداة السامية، أو إن كان هذا الأخير يشكل نوعًا من "عرض" تجريبي ضخم يناقض في كثير أو قليل **الشذرات الفلسفية**. كان المشروعان ذروة العمل التشاركي بين هوركهايمر وأدورنو. لكن المشروع الثاني لم يكن، منذ البدء، عملهما إلا جزئيًا، وكان يفلت من أيديهما أكثر فأكثر. لكن كان من المشكوك فيه، إن كان يمكن إنجاز المشروع عمومًا من دون مساعدة مالية خارجية أو إن كان يمكن حقًا، من دون دفعة من خلال الاتفاق مع اللجنة اليهودية الأميركية، إنجاز **عناصر معاداة السامية** وحده. إن حقيقة أن الموضوع جذب هوركهايمر وأفزعه أيضًا، كان أمرًا مفهومًا. في دراسة مكثفة عن معاداة السامية واليهودية، كان من الصعب الحفاظ على الصورة الذاتية لمجموعة صغيرة من منظّرين تعيش في عزلة رائعة، مجموعة صغيرة من غرباء تقف فوق الثقافات التي رأت ارتباطهم باليهودية حصرًا في علاقتهم بموضوعات محددة في الفكر اليهودي. كان على تلك الصورة الذاتية أن تفسح المجال لصورة أكثر اتزانًا وواقعيةً: الاعتراف بالانتماء إلى أقلية يهودية فُرضت عليها هويتها اليهودية من الخارج بغض النظر عن الفروق الداخلية والدرجات المتفاوتة من الاندماج والاستعداد للاندماج. على هذا النحو، جاء ربما عقد البحث مع اللجنة اليهودية الأميركية، الأمر الذي أفضى فعليًا إلى صيرورة معاداة السامية موضوعًا بحثيًا معلنًا. ومع الوقت، أصبحت التأملات النظرية جزءًا من **الشذرات الفلسفية** ومن مشروع معاداة السامية. لقد كان ازدراء الفلاسفة داخل المجموعة للأقسام التجريبية من مشروع معاداة السامية على قدر حماسة من كانوا خارجها.

عندما باشر هوركهايمر عمله على مشروع معاداة السامية، كتب رسالة إلى ماركوزه جاء فيها: "ما دمنا قد قررنا أن الجزء النفسي يجب أن يُعالَج هنا في لوس أنجلس، فقد درست الأدب في ضوء ذلك. لا أجد نفسي مضطرًا إلى إخبارك بأنني لا أؤمن بعلم النفس وسيلةً لحل مشكلة بهذه الجدية. لم تتغير شكوكي بهذا العلم قيد أنملة. كذلك، فإن مصطلح علم النفس، كما أستعمله في المشروع، إنما يمثل الأنثروبولوجيا، في حين تمثل الأنثروبولوجيا نظرية الإنسان كما تطور تحت شروط المجتمع المتناقض. أنوي دراسة وجود نموذج السيطرة

في ما يسمى الحياة النفسية، إضافة إلى غرائز الإنسان وأفكاره. وإن ميول البشر التي تجعلهم عرضة لبروباغندا الرعب هي ذاتها نتاج الرعب، والقمع الجسدي والروحي، والواقعي والمحتمل. إذا نجحنا في وصف النماذج التي بموجبها تعمل السيطرة، حتى في أقصى مجالات العقل، نكون قد قمنا بعمل يستحق منا الجهد والوقت. لكن لإنجاز هذا العمل يجب أن يُدرس كمٌّ كبير من الأدب المتخصص في علم النفس السخيف، وإذا أتيح لك الاطلاع على ملاحظاتي حول تقدم دراستنا هنا، بما فيها تلك التي بعثت بها إلى بولوك، فمن المحتمل أن تظن أنني أصبحت أحمق. لكن يمكنني أن أوكد لك أنني لا أفقد عقلي في كل هذه الفرضيات النفسية والأنثروبولوجية التي يجب أن تُفحص إذا ما أريد الوصول إلى نظرية على مستوى المعرفة في هذه الأيام"[249].

بما أن هوركهايمر وأدورنو كانا مرتابَين في ما يخص تقويم اللجنة اليهودية الأميركية لنظرية جلية، فقد تم بعض العمل النظري لمشروع معاداة السامية في منطقة رمادية بين مشروع الجدل ومشروع معاداة السامية، في حين جرى بعضه الآخر تحت عنوان "سيكولوجيا معاداة السامية"، كي يتمكنا قدر المستطاع، مستترين بالتعابير الاصطلاحية التقليدية، من تقديم كثير من مصطلحاتهما. انشغل الاثنان في هذا الأمر إلى حد بعيد بالنظريات الاختصاصية التي اعتُبرت في مقدمة **جدل التنوير** نظريات عقيمة، وبقيا باستمرار على اطلاع على أحدث التطورات فيها، والتي تمثلت في العلوم الاجتماعية من خلال الأنثروبولوجيا الثقافية على وجه الخصوص، والتي كان أشهر من يمثلها مارغريت ميد، التي كانت معروفة منذ الثلاثينيات للمعهد من خلال فروم، وقام هوركهايمر لاحقًا، في إطار مواصلة مشروع معاداة السامية، بضمها إلى الهيئة الاستشارية. اختار هوركهايمر وأدورنو صراحةً نقطة انطلاق لدراستهما مناقشة الفرضيات التي وضعها العلم الحديث عن الميول التدميرية التي كانت أساس معاداة السامية. في أي حال، إن الفكرة التي تقول إن هذا كان تنازلًا للمعنيين بالدراسة، هي التي أزاحت عمليًا إحساسهما بتبني الحالة الراهنة للبحث والعمل على توسيع نطاقه النقدي.

---

(249) رسالة من هوركهايمر إلى ماركوزه، 17 تموز/ يوليو 1943.

شكّل تحليلُ مضمون أحاديث ومقالات المحرّضين على معاداة السامية الذين كثر ظهورهم منذ الثلاثينيات في جنوب غرب الولايات المتحدة، المركّب الثاني من أعمال مجموعة لوس أنجلس المتعلقة بسيكولوجيا الميول التدميرية في المجتمع المتحضر. وفيه يتعيّن أن تُكتشف المثيرات الحاسمة التي استجابت لها الميول التدميرية لدى الجماهير. كان من المفترض أن يقوم أدورنو بهذه الدراسة؛ وقد ساعده فيها لوفنتال، عندما حضر في صيف 1943 لبضعة أشهر إلى لوس أنجلس. أسفرت النتيجة الأولية للدراسة الثانية عن ثلاثة تحليلات: تحليل لوفنتال حول جورج أليسون فلبس (George Allison Phelps)، وآخر لماسينغ حول جوزف ماكويليامز (Joseph E. McWilliams)، والثالث لأدورنو حول مارتن لوثر توماس (Martin Luther Thomas). كان رأي هوركهايمر فيها أنها "لم تنجز بالطريقة الأميركية التقليدية الصارمة"، لكن كان من الأفضل "أن نحاول أشياء بمثل هذه الطرائق التي نستطيع بواسطتها إنجازها على نحو أفضل من وضع أنفسنا في قالب جاهز"[250]. لم يتحقق اقتراح أدورنو "بإرسال باحثين ميدانيين إلى تجمّعات، وجعلهم يلتقطون بدقة متى يكون هناك تصفيق ومتى لا يكون، وكيف تكون درجات الحماسة (من المحتمل أن تكون متناسبة مع تهديدات عنفية)"[251]. كذلك لم يتحقق أيضًا مشروع أدورنو القائم على التحليل الشامل لمضمون خطب مارتن لوثر توماس الإذاعية، أي نشر كتيب شعبي مع رسومات، كان من المفترض أن يساهم، عبر كشف ألاعيب المحرّضين الفاشيين، في نزع سلاحهم وفي تحصين الجمهور. من المفترض أن تقدم معرفة كهذه شعورًا بالقوة للقراء اليهود خصوصًا. وكان يؤمَل من هذا الكتيب إضعاف ما رأى فيه هوركهايمر وأدورنو مع يهود صهاينة كثر أخطر إوالية معادية للسامية، أي أن يؤكد اليهود بضعفهم التصور عن اليهودي الضعيف، ويعرّضوا أنفسهم من جديد دائمًا للاعتداء والعنف.

أصبح نص علمي من الكتيب الشعبي المخطط له في ما بعد واقعًا في إنتاج لوفنتال وغوترمان الذي حمل عنوان **أنبياء الخديعة**. المعالجة النظرية للتحليلات الثلاثة عن المحرضين عبّرت عنها محاضرة "معاداة السامية والدعاية

(250) رسالة من هوركهايمر إلى بولوك، 26 تشرين الأول/ أكتوبر 1943.

(251) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 3 شباط/ فبراير 1944.

الفاشية" التي ألقاها أدورنو في ندوة للطب النفسي حول معاداة السامية انعقدت في حزيران/ يونيو 1944 في سان فرنسيسكو، ورتبها إرنست زيمل، وهو محلل نفسي مهاجر من ألمانيا يمارس عمله منذ عام 1934 في لوس أنجلس. نُشرت محاضرة أدورنو "عناصر معاداة السامية" في عام 1946 في كتاب **معاداة السامية: مرض اجتماعي** الذي نشره زيمل، وضمّنه محاضرات مشاركين آخرين، من بينها محاضرة لهوركهايمر وواحدة لأُوتو فينيشل - وهو محلل نفسي آخر فرّ من ألمانيا في عام 1933 - عنوانها "عناصر نظرية في التحليل النفسي لمعاداة السامية"، توازي محاضرة هوركهايمر وأدورنو "عناصر معاداة السامية"، وتشبهها من نواح عديدة. كما ظهرت لاحقًا معالجة شاملة لأدورنو في الموضوع نفسه: "النظرية الفرويدية ونموذج الدعاية الفاشية"، نُشرت في مجلد **التحليل النفسي والعلوم الاجتماعية**، الجزء الثالث، الذي أصدره محلل نفسي مهاجر آخر هو غيزا روهايم.

شكلت الدراسات النفسية التجريبية المركّب الثالث من مشاركة مجموعة لوس أنجلس في مشروع معاداة السامية. ففي مشروع الأبحاث المنشور في مجلة **دراسات في الفلسفة والعلوم الاجتماعية**، قُدمت تجربة فيلم مثالًا على المقاربة الفريدة في نوعها، بنظر مديري المعهد، لظاهرة معاداة السامية من خلال "سلسلة من الحالات التجريبية التي تقارب، قدر المستطاع، الشروط العيانية للحياة اليومية في الوقت الحاضر"، كي "تُظهر بأم العين آلية عمل ردات الفعل المعادية للسامية بصورة واقعية"[252]. بقيت هذه الفكرة - الأثيرة على قلب هوركهايمر - مبرمجة في الوقت الحالي.

نشأ بديل أقل تكلفة من خلال العمل المشترك مع ر. نفيت سانفورد (R. Nevitt Sanford) وإلزه فرنكل-برونزفيك (Else Frenkel-Brunswik) ودانييل ليفينسون (Daniel J. Levinson). لفت سانفورد انتباه هوركهايمر من خلال قراءة المجلات المختصة بعلم النفس. كان سانفورد آنذاك أستاذًا مساعدًا في علم النفس في جامعة كاليفورنيا في بيركلي وباحثًا مشاركًا في معهد رعاية الطفولة في الجامعة نفسها. نشر، على سبيل المثال، مقالات في علم نمذجة

(252) *Studies in Philosophy and Social Science* (1941), p. 142.

المجرمين، ومقالات تضع مقاييس تقيس تفاؤل الحرب أو معنويات الدفاع الوطنية، يُفترض أن تبيّن في الوقت عينه الجذور النفسية والاجتماعية لمواقف الأشخاص الذين سبرت مواقفهم. تحققت العلاقة مع سانفورد من طريق إلزه فرنكل-برونزفيك التي كان هوركهايمر على معرفة بها والتي سمع منها أن سانفورد منفتح على "الأفكار الأوروبية". كانت فرنكل-برونزفيك آنذاك، مثل سانفورد، باحثة مشاركة في معهد رعاية الطفولة، وكانت قد لاذت بالفرار من النمسا في عام 1938. كانت هي وزوجها في ما بعد، إي. برونزفيك، أول مساعدَين في معهد كارل وشارلوته بولر للتحليل النفسي في فيينا، أي في المعهد ذاته الذي كان قد عمل فيه أيضًا بول لازارسفلد وماري ياهودا وهِرتا هرتسوغ، وحيث تعلم اليساريون الشبان - الذي كان معظمهم متحمسًا في الوقت ذاته للتحليل النفسي الفرويدي - البحثَ التجريبي الدقيق.

في أيار/ مايو 1943 زار هوركهايمر سانفورد في بيركلي. وكتب في ما بعد إلى بولوك: "سيكون عمَلُ سانفورد تحت إشرافي المقاربةَ العلمية الأولى لعلم النفس، وللنماذج، ولردة الفعل على المعاداة الأميركية للسامية. في اعتقادي أن التجاهل اليهودي لسيكولوجيا معاداة السامية ليس السبب الوحيد، لكنه بالتأكيد واحد من الأسباب الرئيسية القليلة لقصور الدفاع الأوروبي في مواجهته"[253].

التوجّه النفسي التحليلي لسانفورد وفرنكل-برونزفيك وليفينسون - والثلاثة خضعوا للتحليل النفسي - وتصورهم المطابق للشخصية الذي يضم سلوكيات وقناعات واعية، فضلًا عن ميول عميقة، لاواعية غالبًا، تؤثر في السلوك وفي القناعات، والتفريق بين معاداة السامية الصريحة والمقنعة، والجمع بين استمارة الاستبيان والمقابلة والفحوص النفسية الإسقاطية، كل هذا بدا منسجمًا مع تصوّرات المعهد. عندما كان على هوركهايمر وبولوك أن يقررا في كانون الأول/ ديسمبر 1943 في شأن تجاوز الميزانية في لوس أنجلس وفي نيويورك أيضًا لدفع مبلغ 500 دولار إضافي لمجموعة بيركلي، أكد هوركهايمر لبولوك أهمية المجموعة بالنسبة إلى مستقبل المشروع وطموحات المعهد. "فريق العمل في بيركلي فريد في نوعه بكل تأكيد. يرأس المجموعة أستاذ في

(253) رسالة من هوركهايمر إلى بولوك، 19 أيار/ مايو 1943.

علم النفس غير يهودي، وتضم اثنين من المساعدين المختصين في علم النفس، نالا تدريبًا جيدًا على نحو استثنائي، ويتمتعان بمعرفة جيدة بمناهج الإحصاء وعلم الاجتماع. إذا ذهبتُ في أي وقت إلى سان فرنسيسكو لكي أُنظم مع هؤلاء الأصدقاء سلسلة تجريبية على نطاق واسع، سوف نكون قادرين على نشر كتاب حول تحليل معاداة السامية وقياسها. سيكون مثل هذا الكتاب مقاربة جديدة، ليس بالنظر إلى مشكلتنا النوعية فحسب، بل بالنظر إلى دراسة الظواهر الاجتماعية عمومًا. سوف يكون ما أعلنّا عنه في الكراس الأول بعد وصولنا إلى هذا البلد: جمع مفاهيم أوروبية محددة مع طرائق بحث أميركية"[254]. لقد أصبح سانفورد، بالنسبة إلى هوركهايمر، لازارسفلد مشروع بيركلي.

كان في قلب مساهمة مجموعة بيركلي التي أطلقت على نفسها في سياق العمل اللاحق اسم مجموعة دراسة الرأي العام، إنشاء مقياس لقياس الآراء والمواقف المعادية للسامية واكتشاف العلاقات بين معاداة السامية وبنية الشخصية. انطلقت المجموعة من إدراكها لضرورة تفسير معاداة السامية من خلال تضافر تأثير عوامل خارجية وداخلية. واعتبرت تركيزها على دور البنية الشخصية مجرد قرار بحثي استراتيجي، ورأت أن البنية الشخصية أقل بحثًا من العوامل الخارجية، وانطوت دراستها على صعوبة أكبر. وقد وجد أفرادها أنفسهم مؤهلين على نحو خاص لإجراء الدراسة الصعبة حول معاداة السامية "تحت المجهر".

جاء في تقرير أولي لمجموعة بيركلي في كانون الأول/ ديسمبر 1943، أن "تقنيات الإنتاج الكمي تعطينا معلومات بشأن تواتر علاقات محددة (بين معاداة السامية وعضوية مجموعة أو نموذج شخصية أو ما شابه) في المجتمع عمومًا، وكذلك موضوعات لدراسة سريرية إضافية؛ في حين تقوم الطرائق السريرية لدراسة الحالة بتوسيع وتعميق فهمنا للقوى التي تؤيد أو تعارض معاداة السامية في الفرد، هذا فضلًا عن تزويدنا بفرضيات لاستعمال أسئلة جديدة في الاستبيانات وطرق الإنتاج الضخم"[255].

---

(254) رسالة من هوركهايمر إلى بولوك، 17 كانون الأول/ ديسمبر 1943.

(255) *Approach and Techniques of the Berkeley Group* (Dez. 1943), p. 4

استُخدمت تقنيات الإنتاج الكمي في إعداد استبيانات تألفت بصورة رئيسية من عبارات معادية للسامية. اشتمل الاستبيان الأكبر حجمًا على اثنتين وخمسين عبارة، من بينها: "يبدو أن اليهودي يفضل طريقة العيش الأكثر رفاهية وإسرافًا وحسية"؛ "يجب على اليهود أن يقوموا بجهود مخلصة لتخليص أنفسهم من عيوبهم اللافتة والمضللة، إن أرادوا حقًا وَضْع حد لاضطهادهم"؛ "من أجل المحافظة على حي سكني جميل، من الأفضل منع اليهود من العيش فيه"، ويسمح للمستبيِن في كل عبارة بدرجات ثلاث من القبول أو الرفض. من المفترض أن يتم عبر ذلك تحديد الدرجات المختلفة من معاداة السامية أو من مناهضة معاداة السامية لدى الأشخاص المستبيَنين. وُضِع في الاستبيان أيضًا بعض الأسئلة الإسقاطية، مشابهة لتلك الأسئلة التي تضمنتها استبيانات المعهد السابقة؛ أسئلة مفتوحة مثل "من هم أكثر من تعجب بهم من الناس العظام، أحياءً أو أمواتًا؟"، والتي تسمح الإجابة عنها بالاستنتاجات الأولى المتعلقة ببنية الشخصية. واشتملت الطرائق السريرية لدراسة الحالة على إجراء مقابلات مدتها 1-3 ساعات وتطبيق اختبار إدراك مختلف حول الموضوع، وهو نوع من اختبار رورشاخ قام بتطويره موري (H. A. Murray)، واستخدم فيه صورًا مع الناس بدلًا من بقع الحبر للفت انتباه الشخص المفحوص إلى الناس وإلى العلاقات الإنسانية. كان النموذج يتألف، في المرحلة الأولى من مشروع بيركلي الفرعي، من 77 طالبة، خضعت عشرٌ منهن لاختبارات سريرية.

عقد هوركهايمر آمالًا كبيرة على المشروع الفرعي الذي كان يُنظر إليه باحتقار تارة وبحماسة تارة أخرى. ما فكر أن يقدمه بذلك إلى اللجنة اليهودية الأميركية لم يكن أقل من "البرهان العلمي على أن معاداة السامية هي عَرَض الخصومة العميقة تجاه الديمقراطية (استقصاء بيركلي على نطاق واسع مع النتائج التي لا نستطيع أن نقيس بها معاداة السامية فحسب، بل أن نثير الإدارة وجميع القوى الليبرالية في البلاد، وخصوصًا مثقفي هذه الأمة)[256].

---

(256) رسالة من هوركهايمر إلى بولوك، 25 آذار/ مارس 1944.

في نيويورك، حيث من المفترض أن ينجَز الجزء الرئيسي من العمل الذي يُعنى بالأسباب الاقتصادية والاجتماعية لمعاداة السامية[257]، تركز الاهتمام بدايةً على تحليل التجارب الأوروبية وعلى دراسات في المشهد الأميركي. ولكي يظهر للجنة اليهودية الأميركية بسرعة أنه جرى تجميع مادة قيّمة، نُفّذ، بناء على اقتراح هوركهايمر، استطلاع رأي بين المهاجرين الألمان كانت غايته معرفة خبراتهم بردات فعل الألمان على إجراءات النازيين وأنشطتهم المعادية للسامية. قام بإنجاز عمل مكتب نيويورك ماسينغ وغورلاند بصورة رئيسية، بإشراف بولوك إلى حد ما، بينما دعمه لوفنتال، ولمدة طويلة كيرشهايمر.

عندما سافر هوركهايمر في شباط/ فبراير 1944 إلى نيويورك لكي يلقي هناك محاضراته الخمس عن "المجتمع والعقل"، لم يكن قد أُنجز بعد نصف المشاريع الفرعية. لم يكن هذا مستغربًا، لأن مسودات التقارير حول أبحاث السنة الأولى من المشروع تضمنت خططًا للبحث في الجوهر المعاصر لمعاداة السامية، وفي دروس التاريخ الأوروبي الحديث، وفي المشهد في الولايات المتحدة الأميركية، وفي تطوير إجراءات لمكافحة معاداة السامية؛ كل هذا حتى قبل أن يكون المعهد قد بدأ، على الرغم من خفض عديد طاقم عمله، بالتعاون مع علماء من الخارج بمعزل عن مجموعة بيركلي.

عاودت المجموعة من جديد حالة من الريبة والشك ولكن هذه المرة حيال إمكانية تمديد المشروع المنتظر. وازدادت حالة الشك عندما رحل، في ذلك الوقت، الخبير الأكاديمي للجنة اليهودية الأميركية ديفيد روزنبلوم. "ينتابني بعض القلق بشأن التقرير إلى اللجنة اليهودية الأميركية"، هذا ما كتبه هوركهايمر في آذار/ مارس، بعد عودته إلى لوس أنجلس، إلى بولوك الذي كان يشرف في نيويورك على إعداد التقرير البحثي للجنة اليهودية الأميركية، مع دعم لوس أنجلس وتحفيزها. "إذا لم ينجَز هذا الجزء مع بعض التفوق والحماسة، سوف يتكوّن لدى القارئ مرة أخرى الانطباع بأن مجموعتنا إنما هي عصابة من الأكاديميين الأوروبيين المثقلين بحكمة أكاديمية تسعى إلى إخافة الجمهور

(257) يُنظر خطبة د. هوركهايمر في 16 نيسان/أبريل 1943 المطبوعة في:
Horkheimer, *Gesammelte Schriften*, vol. 12, p. 168.

الأميركي كي يشتري الطاقم المربَك ذا المستوى النظري الرفيع لكونه مفيدًا وملائمًا على نحو خاص"[258]. ولكي ينقل بولوك الذي لطالما كان متخاذلًا وعديم الحساسية إلى المزاج الصحيح للعمل على التقرير، أشار إلى مدى أهمية أن يضع نفسه محل الناس الذين كان النص موجهًا إليهم، كي يجد النبرة الصحيحة. "يجب إسقاط فكرة أن المرء كان سينجز أفضل بكثير في موقعه، إضافة إلى الرأي الخاطئ الذي يعتبر عادة أن الشخص الآخر غافلٌ تمامًا عن الأخطار التي عليه أن يواجهها، وراغب عن القيام بفعل ما حيالها، وغير مستعد وغير قادر على التعلم من تجارب الماضي، أي باختصار غبي على نحو فائق وسيئ الطوية. في المقابل، من الصحيح عمومًا أنه يعي جيدًا الأخطار وحريص جدًا على فعل شيء بخصوصها. ولعل أسباب تصرفه على شاكلة الذين قضوا، وكبت مخاوفه، خصوصًا في الحالة اليهودية، تعود إلى رؤيته المستترة إلى مخاطر هذه العملية، والقوى الطاغية المعنية، ومعرفة أن في وضع كهذا كل إجراء مضاد هو سلاح ذو حدين. بالنظر إلى العلوم تكون الأقليات صحيحة تمامًا عندما تكون مريبة. حتى الآن لم يخدم العلم الأقليات على نحو جيد، ومثل هذه السلطات العظيمة - كما كان فرويد يكرر ضمنًا وصراحةً - تقول بعجزها عن حل المشكلات المتصلة بالمجتمع"[259].

لكن المعهد - يتابع هوركهايمر - قام مقابل المنحة الأولى، نوعًا ما، بمساهمة جادة في الكفاح الكبير ضد معاداة السامية، من حيث تطوير الأدوات للبرهان العلمي على الجذور اللاديمقراطية لمعاداة السامية؛ ومشروع كرّاس لنزع سحر التحريض الفاشي؛ وتطوير منهجية "مقابلات المشاركين"، أي إعداد أسئلة غير مباشرة لمجموعات اجتماعية بالاستناد إلى جميع الحالات اليومية، ويقوم بإجراء هذه المقابلات أشخاص من هذه المجموعات تلقوا تدريبهم على يد خبراء متخصصين. ما شدد عليه هوركهايمر لم يكن الأهمية العملية لما قام به المعهد لمكافحة معاداة السامية فحسب - تحدي تضامن الديمقراطيين، وتعزيز الوعي الذاتي للديمقراطيين واليهود، والجمع بين البحث والتنوير - بل أكد أيضًا القدرة التنافسية العلمية للمعهد على مستوى منهجي وتقني. عارض تحفظ

(258) رسالة من هوركهايمر إلى بولوك، 25 آذار/ مارس 1944.

(259) رسالة من هوركهايمر إلى بولوك، 25 آذار/ مارس 1944.

بولوك، بأنهم ليسوا خبراء في اختبار تأثير إجراءات الدفاع ضد معاداة السامية المطلوب من اللجنة اليهودية الأميركية، بالقول: لكي يتعرفوا الطرق المألوفة لفحص تأثير إعلان إذاعي وما شابه، يمكن استشارة لازارسفلد. أما في ما عدا ذلك، فإنهم أنفسهم "أفضل خبراء في هذا الميدان في أميركا. لقد قمنا بتطوير أداة القياس، وصممنا صورة الحركة التجريبية التي أعتقد أنها الأداة العلمية الوحيدة لفحص حجم معاداة السامية بدقة في مجموعة بعينها في أي وقت [...]. لو أن اللجنة ساندت جهودي للحصول على الصورة من أحد الاستديوات الكبيرة أو أنفقت 10,000 أو 15,000 دولار، لكانت أُنتجت قبل نصف عام، ولكان بين يديها الآن أداة علمية دقيقة يمكن بها فحص زيادة أو نقصان معاداة السامية الواعية أو غير الواعية بالدقة التي نستعملها في العلوم الطبيعية".

انعقد في نيويورك في أيار/ مايو 1944 مؤتمر تناول مشكلات البحث في معاداة السامية نظّمته اللجنة اليهودية الأميركية واستمر يومين، دُعيت إليه مجموعة من علماء الولايات المتحدة الأميركية، وشارك فيه هوركهايمر أيضًا. في هذا المؤتمر وضع نصب العين تأسيس قسم علمي للجنة اليهودية الأميركية. لكن التقرير النهائي للمعهد عن سنة البحث الأولى وقرار اللجنة اليهودية الأميركية المتعلق بمواصلة المشروع وتوسيعه لم يرَيا النور إلا في الصيف. تتألف المجلدات الأربعة التي تحمل عنوان **دراسات في معاداة السامية: تقرير إلى اللجنة اليهودية الأميركية** (وقد كُتبت على الآلة الكاتبة) من تقرير من نحو 150 صفحة ودراسات إفرادية كثيرة، من بينها - وهي الأكثر تأثيرًا، بالتأكيد، في نظر الداعمين والعالِم المتخصص - دراسة سانفورد وليفينسون "مقياس لقياس معاداة السامية" التي كان قد نشرها غوردون آلبورت (Gordon W. Allport) - وهو واحد من أشهر علماء النفس في الولايات المتحدة الأميركية، ومن أشهر المتخصصين في سيكولوجيا الشخصية - في **مجلة علم النفس**.

يُعدّ مبحث "العوامل الاقتصادية في الاستهداف اليهودي" إحدى ذُرى التقرير. ففيه جرى تطوير بعض الأفكار التي سبق أن تضمّنتها مسودة المشروع المنشورة في مجلة **دراسات في الفلسفة والعلوم الاجتماعية** عام 1941، ولا يتضمّن بالتالي أفكارًا جديدة على الإطلاق. وقد اهتم بفحص محتوى الواقعي لبعض الاتهامات المعادية للسامية التي تبدو متناقضة.

كان اليهود، بحسب السياق المنطقي، مستهدفين من خلال مهنهم كمقرضي أموال وباعة وتجار، وهي مهن كانت متاحة لهم أكثر من غيرهم، وفيها أخذوا على عاتقهم، لأنهم مكرهون على التمتع بالمخاطرة، أخطارًا أكبر من غير اليهود وكانوا أكثر نجاحًا منهم. لقد بدوا، بالنسبة إلى الجماهير المستغَلة، السبب المباشر لبؤسها، والوجه التوسعي غير المحبب للرأسمالية. "في الوقت نفسه، حصل يهود الطبقة الوسطى بسبب كل نجاحاتهم الاقتصادية على سمات مميزة محددة من عدم التوافق تجعلهم مختلفين عن غيرهم من الأعضاء الآخرين في الطبقة الوسطى نفسها. ومن أزمنة الغيتو فصاعدًا، كانوا إذا أرادوا استعمال كل وسيلة لتحقيق إنجاز فردي على سلم النجاح الاقتصادي والاجتماعي، استمروا على احترام القيم الأخلاقية والدينية اليهودية الخاصة - كالتعليم، والإنجاز الفكري، والإصلاح الاجتماعي، و'أمور الروح' - ولم يقبلوا بتاتًا، بالتالي، نماذج مستقرة من الأنشطة الاقتصادية أو مقاييس السلوك الاجتماعي المألوف لمكانتهم الاجتماعية"[260]. ما أكده هوركهايمر قبل نصف عقد من الزمن في "اليهود وأوروبا" بنبرة شامتة ولائمة - بقاء الرأسماليين اليهود الأفراد وراء اقتصاد بيروقراطي واحتكاري متنام - غدا الآن عنصرًا لحالة ميؤوس منها تستثير التعاطف. "هكذا أصبح اليهود محط هجوم متناقض ذي شعبتين؛ فقد هوجموا من الطبقة الوسطى بوصفهم رموزًا لكل 'ما هو متعفن' في الرأسمالية القديمة العهد المتداعية: شدة الحرص على الكسب، والموقف المضاد للمجتمع، والتنافس الوحشي [...]، وهوجموا في الوقت ذاته من أنصار الفاشية الجديدة، لكونهم يجسدون تلك القيم الليبرالية التي تهدف 'الحركة' إلى تقويضها [...]، كعدم الامتثال وتقرير المصير وحقوق الأقليات"[261].

أن يكون التقرير - بصرف النظر كليًا عن خيبة أمل اللجنة اليهودية الأميركية لغياب نتائج استطلاع مهمة - مبدئيًا إلى حد بعيد وغير منسجم، لم يكن مستغربًا، نظرًا إلى سوء التناسب بين فترة البحث والإطار الموسع للبرنامج. لكن ما كان لافتًا هو غياب موضوعين مهمّين جدًا.

---

(260) ISR [Institute of Social Research], *Studies in Anti-Semitism: A Report on the Cooperative Project for the Study of Anti-Semitism for the Year Ending March 15*, 1944 (1944), p. 29.

(261) Ibid., pp. 30 f.

في المبحث حول معاداة السامية في الولايات المتحدة الأميركية، كان الحديث عن طرق المحرضين الفاشيين، وذُكِرت شواهد عن التصريحات المعادية للسامية في "مقابلات المشاركين" من ممثلي الشريحة العليا، وعمال الصناعة والأطفال. لكن بقي، في أي حال، السؤال عن نوع "المعاداة الاجتماعية للسامية" الذي يميز الولايات المتحدة الأميركية وأسبابه وأهميته: ترتيبات تنظيمية غير رسمية، لكنها صالحة بلا أدنى شك وغير قابلة للنقض، مثل إبعاد اليهود من أندية خاصة وفنادق ومنظمات طلابية؛ أو نسب قبول لليهود في معظم الجامعات المرموقة أو في سلسلة من المهن. وفي موقع آخر من محاضرته في ندوة الطب النفسي حول معاداة السامية في سان فرنسيسكو، زعمَ هوركهايمر أن "المعاداة الاجتماعية للسامية" أشد سوءًا في أميركا مما هو عليه الحال في أوروبا، وهو ما يدفع - بغض النظر عن الفروق الجلية بين الولايات المتحدة والرايخ الثالث - إلى افتراض أن الفرق بينهما في الأساس النفسي صغير على نحو خطير.

لم يجرؤ هوركهايمر على الإفصاح عن نتائج هذا الزعم وعن الأفكار النظرية التي طوّرها هو وأدورنو. فإذا لم يكن بين الألمان - كما يؤكد التقرير أيضًا - إلا أقلية معادية للسامية، وإذا كانت المعاداة الخفية والمتقدة للسامية جزءًا مكونًا للحضارة الغربية، وإذا كانت الأقلية المعادية للسامية في ألمانيا في سنوات قليلة قد دفعت إلى الأمام معاداة السامية الصريحة وصولًا إلى القتل الجماعي الممنهج، أليس من الواجب أن يُخشى في الولايات المتحدة الأميركية ببناها الرأسمالية الأكثر تقدمًا إلى حد بعيد، والتي لم تكن موضع شك من أي حركة عمالية اشتراكية، وبصناعتها الثقافية المؤثرة والمحبطة، وبمركزيتها الإثنية الأكثر قوة، وبتاريخها المتسم بالعنف السافر، أن يُخشى من أن ينقلب احتمال معاداة للسامية منتشرة ومتفجرة نوعًا ما في ضوء شروط سياسية واقتصادية أقل نقدًا مما هي عليه في ألمانيا، إلى معاداة للسامية مفتوحة وعنيفة؟ وكيف كان يمكن، على خلفية هذه الأفكار، تفسير فشل المحرضين في الساحل الغربي؟ وكيف كان يُنظر إلى أهمية معاداة السامية مقارنة بنزعة التمييز العنصري ضد السود وبسياسة الاستئصال والتحفظ المتبعة إزاء الهنود؟ ما هي الخصوصيات التي يُظهرها النوع الأميركي من الحضارة الغربية "المتخفف"

نسبيًا من أعباء التقليد الأوروبي؟ كانت جميع هذه الأسئلة مُلحة عند عرض المشهد في الولايات المتحدة الأميركية، وقد جرى تجاهلها على الأرجح بسبب الحرص على البلد المضيف وعلى مصالح الداعمين من جهة، وبسبب الطابع المؤقت للتقرير من جهة أخرى.

كانت الثغرة اللافتة الأخرى هي إغفال موضوع "سيكولوجيا اليهود"، أي السؤال عن السمات اليهودية التي كانت تُلاحَظ في الواقع - وإن تكن مفسرة ومبررة بالأدوار التي قُسِر عليها اليهود بسبب الاضطهاد والشتات - والسؤال الخاص أيضًا عن الإواليات النفسية التي استثيرت في اليهود من خلال سيكولوجية المعادين للسامية.

حال شروعه في العمل على مشروع معاداة السامية، طلب هوركهايمر من بولوك قائمةً بجميع الاستقصاءات النفسية التي توفرت عن سيكولوجية اليهودي وسيكولوجية المعادي للسامية. وعندما جرى الدفاع في مقالة لماسينغ عن وجهة النظر القائلة بغياب أي علاقة بين المعاداة الشمولية للسامية واليهود، في حين ذُكرت في مقالة لغورلاند مجموعة من سمات الفكر والسلوك اليهوديين التي كان يمكن أن تكون لها عواقب كارثية، تعززت قناعة هوركهايمر بأن الأمر يحتاج إلى تقصي "تفاعل السيكولوجيا اليهودية ومعاداة السامية مع الرأسمالية بكليتها"[262]. برز لدى أدورنو جانب جزئي من هذا الموضوع مرة أخرى، عندما رأى بمناسبة مراجعة مقابلات مشروع العامل[263]، أن الاتهامات الموجهة لليهود ليست جميعها وهمية، بل يعزى بعضها أيضًا إلى سمات يهودية محددة، إما أن تكون موجودة فعلًا، وإما ملائمة على الأقل لإثارة ردات فعل عدائية. اقترح في مقابل الكتيب حول تقنيات المحرّضين الفاشيين إعداد كتيب آخر "يُجَدوِل هذه السمات ويشرحها، ويتضمن اقتراحات حول كيفية التغلب عليها"[264].

---

(262) رسالة من هوركهايمر إلى بولوك، 19 أيار/ مايو 1943.

(263) يُنظر ص 510 وما بعدها في هذا الكتاب.

(264) Theodor W. Adorno to Max Horkheimer, "Memorandum re: Manual for distribution among Jews", 30/10/1944.

بيد أن هذا الموضوع لم يكن قط جزءًا من البرنامج. ويرجع بعض ذلك ربما إلى الحرص على حساسية معظم اليهود تجاه هذا الموضوع، وبعضه إلى الخشية من اتهام المعهد بأنه كان يحول عكسيًا مشكلة معاداة السامية إلى مشكلة يهود. كما أن جانب "سيكولوجية اليهود" - وقد لمح أدورنو إلى ذلك في ملاحظاته على صياغة التقرير - لم يكن هو الآخر بندًا في البرنامج: "إدراك اليهود النمطي للوضع الذي يتهددهم صعّب عليهم ردات الفعل الملائمة أو منعهم من القيام بها".

استمرت، كما كانت من قبل، الممارسة المألوفة في المعهد، لجهة الرقابة الذاتية بوصفها مسألة استراتيجية. وهكذا اقترح هوركهايمر وأدورنو في نموذج الورقة المحدد للجنة اليهودية الأميركية استبدال مصطلحات مثل "الاشتراكية"، و"التأميم"، و"الجهاز الصناعي" بـ "الماركسية"، و"إضفاء الطابع الاجتماعي"، و"وسائل الإنتاج". كان هذا نوعًا من تلطيف فقرة كان مكتب نيويورك قد اقترح شطبها كليًا، ويُفترض أن تبيّن أن الدعاية الفاشية لا تحارب على الإطلاق النظرية الماركسية الحقيقية، بل تحارب شبحًا مختلقًا. "لكن إذا كان لا يزال لدى السادة تحفظات بعد إنجاز هذه التغييرات" - رأى أدورنو أثر اقتراحات التغيير في رسالة إلى سكرتيرة مكتب نيويورك - "فبإمكانهم أن يحركوا القلم: لا نريد أن نتحمل المسؤولية"[265].

بعد أن أقرّت اللجنة اليهودية الأميركية، في نهاية المطاف، تمويل متابعة المشروع على نطاق أوسع وتأسيس قسم علمي مع هوركهايمر مديرًا، سافر هذا الأخير في نهاية تشرين الأول/ أكتوبر 1944 إلى نيويورك للإقامة فيها أشهرًا عدة. هناك استقر في مبنى اللجنة اليهودية الأميركية الذي يطل على مبنى "إمباير ستيت"، وأنشأ القسم العلمي الذي كانت مهمته "تحري مدى معاداة السامية وأسبابها في الولايات المتحدة، وتطوير طرائق اختبار يمكن بموجبها تقويم فعالية التقنيات الراهنة لمحاربة معاداة السامية ودمج بحثها النظري بالبرنامج العملي للجنة اليهودية الأميركية"[266].

---

(265) رسالة من أدورنو إلى مندلسون، 18 كانون الأول/ ديسمبر 1943.

(266) American Jewish Committee [AJC], *Progress Report of the Scientific Department*, 22/6/1945.

يسّرَت جَسْرَ الفترة البينية ومواصلة العمل، بما في ذلك عمل مجموعة بيركلي، منحةٌ لمشروع ثان استمر من ربيع 1944 حتى أيار/ مايو 1945، وأصبح فيه مكتب نيويورك مركز العمل التجريبي. أما موضوع "العمل ومعاداة السامية" الذي اختُزل، بطلب من هوركهايمر، إلى جزء من فحص مجموعات اجتماعية، فقد وُجِد له ممول إضافي هو تحديدًا لجنة العمل اليهودية. أقام غورلاند، الذي كان له صديق في تلك المنظمة، العلاقة لهذا الغرض في كانون الأول/ ديسمبر 1943. ونقل أن السيد شيرمان، وهو مدير ميداني في اللجنة اليهودية الأميركية، مهتم جدًا بمشروع المعهد، ومقتنع بأن معاداة السامية تزداد في صفوف العمال باستمرار، وأنه، بسبب النقص في كوادر العمل الملائمة، لم تتحقق حتى الآن خطة "على غرار برنامج 'مقابلات العمال' الخاص بنا"[267].

نمت اهتمامات شيرمان حتى قبل أن يوضح له بولوك في لقاء جمعهما بـ"أننا لن نهتم بمسح إحصائي أو بنوع من استفتاء كبير، بل سنهتم حصرًا بدراسة تستعمل الطرائق الكمية والكيفية التي طُوّرت في مختبرنا في الساحل الغربي تحت إشراف هوركهايمر"[268]. بدا أن شيرمان كان بالغ التأثر بإصرارنا على وجوب أن يُجري المقابلات أناس يعرفون الأشخاص الذين يقابلونهم، ويثق هؤلاء بهم، لا أن يجريها باحثون ميدانيون لا يعرفونهم. ستكون وظائف اثنين أو ثلاثة من العاملين الميدانيين لدينا هي تنظيم من يجرون المقابلات وإرشادهم إلى قوة الاتصالات المتاحة من خلال اللجنة اليهودية الأميركية ومجموعات عمل أخرى.

استمرت الأبحاث في "مشروع معاداة السامية والعمل" من حزيران/ يونيو 1944 حتى تشرين الثاني/ نوفمبر 1944، وأُنجزت في مراكز صناعية مختلفة في الولايات المتحدة الأميركية (نيويورك، فيلادلفيا، ديترويت، بيتسبرغ، لوس أنجلس، وسان فرنسيسكو)، وتمت وفق تقنية "مقابلة المشارك" التي ذكرها بولوك. قام 270 عاملًا ترسخت في أذهانهم قائمة من 14 سؤالًا مفتوحًا (على سبيل المثال "هل تذكر أي تجارب خاصة لك مع يهود؟"؛ "كيف تميّز يهوديًا

(267) تقرير غورلاند، مقتبس من مذكرة بولوك إلى لجنة العمل اليهودية، 23 كانون الأول/ ديسمبر 1943، جزء من مراسلات هوركهايمر - بولوك.

(268) المرجع نفسه.

من شخص آخر؟"؛ "ما هي فكرتك عن اضطرابات ديترويت؟"؛ "هل تذهب إلى الكنيسة؟")، قاموا باستكشاف مواقف زملائهم في الأوضاع اليومية من اليهود ومن معاداة السامية، وثبتوا النتائج في محاضر لاحقة. من المفترض أن يتيح الجمع بين الأسئلة المحفوظة والصراحة في المواقف الحوارية اليومية الجمعَ بين تقويم المادة الكمي والنوعي. ورد في استمارة التعليمات لمن يجرون المقابلات مع العمال أن "هذه تجربة رائدة في مجال البحث الاجتماعي. إننا نريد أن نعرف ما يفكر فيه الناس العاملون بصراحة حيال 'المسألة اليهودية' برمّتها، ولماذا يشعرون هكذا. فالصناديق لن تخبرنا بذلك، ولن تفعل المقابلات ذلك أيضًا. الأحاديث الودية ستفعل ذلك".

تجمّع على هذا النحو 566 محضرًا. وكان للتقويم طابع نوعي. قام غورلاند وماسينغ ولوفنتال وبولوك مع مراعاة إشارات كثيرة ومذكرة شاملة من أدورنو بتوليف الأقسام المختلفة من التقرير النهائي المتماسك الذي ضم في أربعة أجزاء نحو 1500 صفحة مطبوعة على الآلة الكاتبة، وحمل عنوان "معاداة السامية بين العمال الأميركيين". "لدي شعور بأن لمشروع العمل معنًى فقط عندما لا نحاول ببساطة جعل هذا المشروع يشبه المشاريع المألوفة من هذا النوع، بل عندما نُظهِر فيه موقفنا تمامًا من خلال غنًى في وجهات النظر، وألا ترهبنا كثيرًا أيضًا الخشية من النظرية التي تسيطر على الآخرين"[269]، هذا ما كتبه أدورنو إلى هوركهايمر مشيرًا إلى المادة الغنية جدًا التي تلحق بها اعتبارات نظرية عمومًا. أما في التحليل الكمي، فساعد بأسلوب قديم أثبت نجاعته مكتبُ لازارسفلد للبحث الاجتماعي التطبيقي وهرتا هرتسوغ.

كان موضوع الدراسة، على العكس من توقعات اللجنة التي أمرت بإجرائها - كما أكدت المقدمة - "طبيعة معاداة السامية، وليس مدى تمددها في أوساط جماهير العمال الأميركيين". لكن إذا كان المرء مستعدًا لاعتبار النتائج تمثيلية، فإن هذا يؤكد طبيعة الدافع الذي كان في خلفية طلب اللجنة إجراء الدراسة، ألا وهو أن معاداة السامية كانت واسعة الانتشار بين العمال، وأن على المرء أن يأخذ في الحسبان ازديادها.

(269) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 2 كانون الأول/ ديسمبر 1944.

صُنّف 30.8 في المئة ممن أجريت المقابلات معهم "معادين نشطين لليهود"، و38.5 في المئة "رافضين"، لكن من دون أن يؤيدوا تمييزًا منطقيًا، و30.5 في المئة "ودودين مع اليهود". وكما أوجز بولوك في محاضرة عنوانها "التحيز والطبقات الاجتماعية" ألقاها في آذار/ مارس 1945 في إطار سلسلة من محاضرات المعهد حول "ما بعد الاشتراكية القومية" في جامعة كولومبيا: "تبدو صورة اليهودي وكأنها من حيث الجوهر هي نفسها بين الأغلبية العظمى لعيّنتنا. وفي حين أنهم يسلكون سلوكًا متباينًا، فإن نقدهم واستياءهم وعداءهم وكراهيتهم كانت موجَّهة إلى يهودي شبح. يبدو أن أغلبية العمال تنظر إلى اليهودي بوصفه صاحب متجر مخادعًا، أو ملّاكًا لا يعرف الرحمة، أو وكيل تأجير أو مُسترهنًا عديم الضمير، أو بائعًا بالتقسيط، أو جابي تأمين يأخذ البضاعة أو الملك أو يعجّل في انتهاء صلاحية التأمين عند أول إهمال أو تقصير. يُضاف إلى ذلك فكرة أن اليهود يملكون جميع الأعمال أو أن معظم اليهود على الأقل في نطاق العمل. كل هذا لأن اليهود مهووسون بالمال، وأنانيون، وجشعون، ويقنصون منافع الغير، ويغشّون، ويحتالون، ويكذبون، وهم بلا رحمة، وعديمو الضمير، وما إلى ذلك. ترفض أغلبية العمال صراحةً الاعتراف بوجود مجموعة كبيرة من العمال اليهود. فهم إما ليسوا عمالًا يهودًا، وإما أنهم لا يعملون، ويدعون فقط أنهم عمال. فضلًا عن ذلك، يُتّهم العمال اليهود بالهروب من الأعمال القاسية، وبالتهرب من المسؤوليات، وتملق المديرين، وفعل أي شيء يخدم تقدمهم الفردي، ولا يفعلون شيئًا لزملائهم العمال. ختامًا، يُعاب عليهم إظهار التعالي على الآخرين، وسوء الخلق، وبأنهم يعرفون كل شيء أفضل من غيرهم، وطموحون ومتعجرفون. كل اتهامات فترة الحرب [...] كانت موجودة في عيّنتنا [...]. الاستثناء الذي يثير الفضول أن أشخاصنا الذين أجروا المقابلات لم يصادفوا عمليًا أي عامل يتهم اليهود بكونهم راديكاليين أو شيوعيين".

لتقويم هذه النتائج والإجراءات المضادة الممكنة تقويمًا صحيحًا، بدا أن من الضروري - كما شدد خصوصًا أدورنو في مقترحاته بشأن التقرير حول مشروع العامل - التمييز بين لاسامية العامل ولاسامية البرجوازي. ألم تجرِ الأمور على نحو أدّت فيه تجارب حقيقية دورًا أكبر من حيث الأساس في

موقف العمال الرافض لليهود أكثر من الشرائح العليا، ثم ألا يجب أن يؤخذ في الاعتبار أن العمال يخضعون في أقوالهم وسلوكياتهم لحواجز ديمقراطية كاذبة بدرجة أقل ممن ينتمون إلى الشرائح المتوسطة والعليا؟ هذا يحمل على الظن أن معاداة السامية المستترة أقل وجودًا في أوساط العمال منها في أوساط الشرائح الأعلى، وأن المواقف المعادية للسامية لديهم أقل لاعقلانية، وتسهل محاربتها أكثر من خلال تبيان الحقائق الاقتصادية والسياسية مما هو الحال لدى الشرائح الأخرى.

في أي حال، لم تتعدَّ هذه الأفكار طور الفرضيات. اقتصرت مواصلة العمل في مشروع العمال في السنوات اللاحقة على تفويض مديري المعهد لازارسفلد أن يهتم بوضع صيغة للتقرير جاهزة للنشر، وأن يسعى أدورنو على وجه الخصوص من خلال مذكرات مفصلة لتأمين انطلاقة جيدة لهذا المشروع. لكن أدورنو وماركوزه وممثلين آخرين للمعهد كانوا متفقين على أن الصياغات التي ستخرج بإشراف لازارسفلد لن ترقى إلى مستوى متطلبات المعهد، بسبب إبراز الأجزاء الكمية وفي الوقت نفسه إهمال الأجزاء النوعية، وبسبب الدمج القاصر للتقويمين الكمي والنوعي. لهذا السبب لم يحظَ التقرير بفرصة النشر، شأنه شأن دراسة العمال والموظفين.

باستلامه مشروع العمال حمل المعهد نفسه، أو لنقل ما تبقى من المعهد، ما لا طاقة له به. ولأن غورلاند وماسينغ وبولوك ولوفنتال كانوا منشغلين في ما تبقى لهم من وقت، إلى جانب أعمالهم الجزئية في واشنطن، بدراسة عن العمال، جلس هوركهايمر بداية بلا حول أو قوة في مكتبه في مبنى اللجنة اليهودية الأميركية في نيويورك، وقد أذهله ازدحامها، يجمع بجهد طاقمًا من المساعدين، يفكر يائسًا في برنامج عمل يُرضي التوقع بأن ثمة نشاطًا ملموسًا ونتائج في الأمد القصير، ويرضي أيضًا حاجته الخاصة إلى عمل نظري في الأمد الطويل. كان قد وصل في نهاية تشرين الأول/ أكتوبر 1944، وأمل أن يتمكن بحلول الصيف المقبل من تحقيق تقدم في المشروع، بحيث يستطيع بعد ذلك، هو وأدورنو، تكريس نفسيهما بوجه خاص من جديد لاستئناف العمل النظري الرئيس. كتب إلى أدورنو في الشهر الثاني من إقامته في نيويورك: "وضعي، من الناحية الصحية، لا بأس به. لكن عليّ بالتأكيد أن أقدّم اليوم كل طاقتي لكي

أتحمّل الأيام والليالي الصاخبة التي لم أستطع فيها أن أصوغ فكرة معقولة وحيدة [...]. ستكون خطتي [...] على النحو الآتي. أحتاج بعض المساعدين الذين يمكنهم الشروع بأسرع ما يمكن بالبحث وفق الأسلوب الحالي: فحص مكثف لبرامج الإذاعة التي دعت إليها اللجنة بصورة مباشرة أو غير مباشرة، فحص وسائل الدعاية العنيفة التي تستخدمها منظمات أخرى وترى اللجنة أنها غير عملية. فضلًا عن ذلك، مقابلات في مجموعات مناطقية واجتماعية، قبل النظر فيها وبعده، عبر طرق دعاية مشتركة أو إفرادية تروّج لها اللجنة. ما إن ينطلق هذا النوع من البحث، سوف يتوفر - كما آمل - الجو للتهيئة لأبحاثنا الأساسية في الأمد البعيد. وثمة سبب آخر لهذه النية شكّلته حقيقةُ أن طاقم عمل المعهد برمته هنا منشغل بكل طاقته بدراسة العمال، أقله حتى نهاية كانون الثاني/ يناير. إذًا، لا معنى على الإطلاق للبدء بعمل يتكلف به المعهد قبل ذلك. ولأن جماعة ليفين[270] تقوم بنشاط محموم، لا أريد أن أقف، في غضون ذلك، أمام اللجنة ويداي فارغتان. كان الوضع صعبًا ومربكًا، لأن المرء لا يجد في السوق، بيسر، خبراء في الاختبار أكفاء. وعليه فإن خطتي لا تنجز بسهولة"[271].

حصل هوركهايمر من أدورنو في هذه الأمور كلها على تشجيع حماسي لا يعرف الكلل أو الملل. بعث أدورنو إليه من الساحل الغربي رسائل ومذكرات وملاحظات تتضمن الكثير من الأفكار والمقترحات وتعابير التعاطف الودي. كتب إلى هوركهايمر ردًا على تقرير الحالة أنه يفهمه جيدًا، "خصوصًا وأن تجاربي تظهر بعض التشابهات مع تجارب لازارسفلد. الأسوأ هو أن المرء في مثل هذا النوع من العمل لا يعرف مطلقًا ما ينبغي أن يفعله أو ما ينتظر منه. هذا إلى حد ما التعبير العملي للقضاء نظريًا على المعنى بأكمله؛ فالمؤسسة التي لا يمكننا نحن أنفسنا أن نتصورها في النهاية في سياق 'المشاريع' إلا بوصفها وسيلة غرضها الاكتشاف العلمي، هي في الحقيقة غاية في حد ذاتها إلى حد بعيد عند هؤلاء الناس؛ ونحن لن نستطيع فهم أولئك تمامًا، كما أنهم لن

(270) المقصود هو عالم النفس كورت ليفين (Kurt Lewin).

(271) رسالة من هوركهايمر إلى أدورنو، 9 كانون الأول/ ديسمبر 1944.

يستطيعوا فهمنا"[272]. اقترح على هوركهايمر أشخاصًا لفحص برامج الإذاعة؛ ورأى: "لدي شعور أن بحث بيركلي قد انطلق بصورة جيدة، وأننا نحوز شيئًا منه. لكن البحث يحتاج، شأن كل شيء هنا، إلى فترة محددة. لا تكتئب أيضًا إن لم ينتج في نيويورك إبان الأشهر الأولى الشيء الكثير؛ فالأمر يعود إلى النظام ولن يلبث أن يتبلور كل شيء"؛ وسأل إن وصلت مذكرته الضخمة للصيغة النهائية لمشروع العمال؛ وشكر من أجل كتاب كارن هورني "الشنيع" الذي يصف القصص التعليمية المركزية للتحليل النفسي ونظرية تحقق الرغبات بوصفها "فرضية عمل"؛ واقترح استمرار المجلة عند ألكان، ونشر كتاب **شذرات فلسفية** فيها (في آب/ أغسطس احتل الحلفاء فرنسا، وفي نهاية أيلول/ سبتمبر وصل الإنكليز والأميركيون إلى حدود الرايخ الألماني)؛ وغيرها.

وفي شباط/ فبراير 1945 قام بالحركة نفسها إزاء هوركهايمر، تلك الحركة التي قاما بها معًا من قبل إزاء بولوك: سلّم هوركهايمر بمناسبة عيد ميلاده الخمسين نصًا مهدًى إليه، كان بكليته "نصه"، هو **أخلاق صغرى** مع كتابة بخط يده: "خمسون شذرة لعيد ميلاد ماكس هوركهايمر الخمسين، لوس أنجلس - نيويورك، 14 شباط/ فبراير 1945". شكلت هذه الشذرات الجزء الأول من **أخلاق صغرى: أفكار ملتقطة من الحياة المشوّهة**، وتسلم هوركهايمر جزءه الثاني في أعياد الميلاد عام 1945 مع إهداء: "إلى ماكس. بمناسبة العودة"، وقد أُلّف جزؤه الثالث في عامي 1946 و1947.

في نهاية تشرين الأول/ أكتوبر - لم يكن هوركهايمر قد وصل بعد إلى نيويورك - كان على أدورنو أن يخبره بموضوع جديد خاص: "كما قد تتذكر ربما، كنت قد حدثتك عن فكرة جديدة، أطلت التفكير فيها. الأمر يتعلق بتحري معادين للسامية محتملين أو راهنين من خلال مؤشرات **غير مباشرة**، أي من دون أسئلة حول اليهود أو حول موضوعات ترتبط بعلاقة صريحة مباشرة بمعاداة السامية، مثل معاداة الزنوج أو الفاشية السياسية أو ما شابه ذلك. كانت 'البنود الإسقاطية' في قائمة أسئلة بيركلي المنطلق نحو هذا الاتجاه؛ لكنني أريد أن أتجاوز ذلك كثيرًا، وأن أضع لائحة بأسئلة 'خالية مما هو يهودي' لتحقيق

(272) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 14 كانون الأول/ ديسمبر 1944.

في معاداة السامية موثوق إحصائيًا. لا أحتاج إلى أن أردد على مسامعك المزايا الإيجابية. المشكلة تكمن في إيجاد المؤشرات غير المباشرة التي ليست شروطًا ضرورية لمعاداة السامية فحسب، بل هي شروط كافية؛ أي تلك المؤشرات التي يوجد فيها ارتباط عال بمعاداة السامية الراهنة، بحيث يكون بالإمكان إهمال التباينات المحتملة. أتخيّل الطريق على النحو الآتي: يوزع المرء في جلسة لائحتي أسئلة الواحدة بعد الأخرى، الأولى تخلو مما هو يهودي، والثانية تتضمن أسئلة تحيل على اليهود، والمركزية الإثنية، وغير ذلك، لكن مع أسئلة أخرى بحيث لا تظهر هنا مباشرة مصلحة البحث الخاصة. تقارَن بعد ذلك أجوبة كل مشارك بمفرده على قائمتي الأسئلة، وتُختار تلك الأسئلة غير المباشرة التي يتبيّن فيها الارتباط الأقصى بمعاداة السامية أو بالأحرى بلامعاداة السامية، من أجل تقديم أداة غير مباشرة عالية الموثوقية"[273]. كانت مجموعة بيركلي مهتمة بالأمر جدًا، وأعلنت - "وهي علامة جيدة دائمًا" - أنها كانت قد بدأت العمل وفق هذا التوجّه من تلقاء ذاتها.

كان هوركهايمر متحمسًا وراغبًا في أن يرى بسرعة مخططات استمارات الأسئلة، وكان يتطلع إلى بناء مجموعات مشابهة لمجموعة بيركلي في نيويورك وشيكاغو، والتي يُفترَض أن تعمل باستمارات الاستبيان الجديدة وبطرق الفحص الفردية المجربة في بيركلي، والتي يتعيّن أن تنجز بأسلوب ضخم بالتوازي مع الدراسات الاستقصائية لمجموعة بيركلي.

تسلم من أدورنو في منتصف كانون الأول/ديسمبر رزمة من الأوراق بعنوان "مقياس الفاشية" (F-Scale) مرفقة بوثائق من بيركلي تخص الاستمارة الجديدة، وهي عبارة عن مادة أولية لاستمارة الأسئلة. كانت اقتراحات الأسئلة تتطلب جزئيًا إعادة صياغة، لكي تأخذ صيغة مفهومة وملائمة نفسيًا بالنسبة إلى المستبيَنين. أعدّ أدورنو بنفسه 80 إلى 100 سؤال، انتخب منها مجموعة "من طريق نوع من عمل الترجمة من 'عناصر معاداة السامية'"[274]. ثبّطت المادة الشاملة غير الجاهزة همة هوركهايمر. إنه يخشى - كما كتب إلى أدورنو - "أن

(273) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 26 تشرين الأول/أكتوبر 1944.

(274) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 9 تشرين الثاني/نوفمبر 1944.

تصبح الاستمارة التي نريد أن تكون موجزة وبسيطة تمامًا، مرة أخرى معقدة ومتميزة للغاية، كي يمكن استخدامها في كل أنواع المجموعات. يعتمد تطور الأمور هنا في اللجنة إلى حد بعيد على نجاحنا في أن ننجز في مدن مختلفة، في وقت قصير نسبيًا، الاستمارة نفسها في عيّنات من مجموعات مهمة اجتماعيًا. وهذا، في الحقيقة، أحد مشاريعنا الرئيسية مؤقتًا، وقد حصلنا من أجله، في أي حال، على موافقة على ميزانية معتبرة"[275].

سعى أدورنو لطمأنته حول العدد الكبير من الأسئلة. في الاستمارات النهائية لن يؤخذ، في الحقيقة، إلا جزء من الأسئلة. أما أي الأسئلة يمكن تطبيقها عمومًا، وأيّها لا يستعمل إلا انتقائيًا في مجموعات نوعية، فهذا ما يتعيّن فحصه. لكن، بالمناسبة، "في التحليل غير المباشر ذاته الذي تبدّى، في الحقيقة، بوصفه فكرة جديدة تمامًا، **لن** يكون من الممكن القيام به باستمارة استبيان قصير جدًا، كما في دراسة العمال". وإلا لن يكون هناك تحديدًا مادة كافية لتقديم "استنتاج مبني إحصائيًا"، وهو الأمر الذي كان جوهريًا بالنسبة إليهم. "أتفق معك كليًا، أن هذا البحث بالضبط يجب حالما ينجز على نطاق أوسع في مواقع أخرى أن يمثل ضربتنا المضادة ضد أشياء ليفين. بيد أن هذا ليس ممكنًا إلا عندما يتبيّن أن فكرة القياس غير المباشر مقنعة فعليًا وجوهرية، بحيث تؤكد ذاتها، ولا يُنظر إليها، وفق العرف المحلي، بوصفها تكوينًا فرضيًا"[276].

في الصياغة النهائية للأسئلة، اختارت مجموعة بيركلي عبارات تظهر يوميًا في البث الإذاعي، وفي الصحف أو في الأحاديث. كتب أدورنو في ما بعد مستعيدًا تجاربه العلمية في أميركا: "في بيركلي قمنا بتطوير مقياس الفاشية بحرية تختلف كثيرًا عن تصورات علم متحذلق عليه أن يقدم جردة حساب عن كل خطوة من خطواته. كان السبب في ذلك هو ما يحلو للمرء أن يدعوه عندنا في الجانب الآخر، نحن مديري الدراسة الأربعة، 'الخلفية النفسية التحليلية'، خصوصًا التضلع من طريقة التداعي الحر. أؤكد هذا، لأن عملًا مثل **الشخصية**

(275) رسالة من هوركهايمر إلى أدورنو، 19 كانون الأول/ ديسمبر 1944.

(276) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 30 كانون الأول/ ديسمبر 1944.

السلطوية[277] الذي وُجّهت إليه اتهامات كثيرة، لكن لم تنكر عليه معرفته بالمادة الأميركية وبالإجراءات الأميركية، أُنتج بطريقة لا تتفق على الإطلاق مع الصورة المألوفة للنزعة الوضعية في العلوم الاجتماعية [...]. أنفقنا في ذلك ساعات ننتظر أن تخطر على بالنا أفكار لا تتعلق بأبعاد كلية، ومتحولات، وتناذرات فحسب، بل تتعلق أيضًا ببنود خاصة للاستبيان. كنا فخورين بها أكثر كلما كانت علاقتها بالموضوع الرئيسي أقل وضوحًا، بينما انتظرنا لأسباب نظرية إيجاد روابط بين المركزية الإثنية ومعاداة السامية ورؤًى رجعية في المجالين السياسي والاقتصادي. بعد ذلك اختبرنا هذه البنود في استطلاعات أولية مستمرة، واستعملناها لتحديد الاستبيان المطلوب في نطاق معقول تقنيًا، ولاستبعاد تلك البنود التي ثبت أنها غير واضحة بما يكفي"[278].

شدد أدورنو عند إعداد مقياس الفاشية، منذ البداية، على التناقض بين النزعة المحافِظة والنزعة التمردية، آخذًا في الاعتبار الفكرة التي كان هوركهايمر يذكّر بها مرارًا وتكرارًا بأن "القيمة المباشرة [لمشروع بيركلي] بالنسبة إلى اللجنة تكمن في إثبات الرابط بين معاداة السامية والفاشية والشخصية التدميرية"، وفي "الدليل التجريبي على خطر معاداة السامية الذي يهدد الحضارة الديمقراطية"[279]. وكتب إلى هوركهايمر يقول: "لترجمة هذا السؤال إلى 'اصطلاحات عملياتية'، أنشأتُ التمييز بين تحفيزات لاواعية وعقلانية أو بالأحرى ما قبل واعية. تتمثل أطروحتي البربرية إلى حد ما في أن 'الخلجات التدميرية' التمردية هي فعليًا اللاواعية، وأن النزعة المحافظة والتقليدية هي العقلانية. منهجيًا يبدو لي أن من الأفضل أن يفكر المرء في أزواج من الأسئلة، يحيل كل منها على المركّب نفسه، لكن في صيغتيه اللاواعية والعقلانية؛ على سبيل المثال أسئلة تتعلق، من جانب، بالاعتراف بسلطات مستبدة، كالدستور والعائلة، وأسئلة، من جانب آخر، حول 'المساعدة الذاتية' وما شابه. في تخميني أن الأجوبة ستكون متناقضة حقيقة؛ وهذا يعني أن الناس الذين يقدمون على المستوى 'العقلاني' إجابات محافظة، سوف يقدمون على المستوى غير المباشر

---

(277) عنوان الكتاب الذي نَشرت فيه مجموعة بيركلي لاحقًا نتائج عملها.

(278) Theodor W. Adorno, "Wissenschaftliche Erfahrungen in Amerika," in: *Stichworte*, pp. 136 f.

(279) رسالة من هوركهايمر إلى أدورنو، 9 كانون الأول/ ديسمبر 1944.

إجابات عدوانية وتدميرية. رجوت السيدة ب.[280] أن تقسّم الأسئلة إلى أسئلة 'لاعقلانية' و'عقلانية' وتنظّمها قدر المستطاع في ثنائيات. بالطبع، لن تظهر في الاستبيان الثنائيات التي ينتمي بعضها إلى بعض بشكل متتال"[281].

أصر أدورنو على وجوب التمييز بين "محافظ" و"شبه محافظ" إزاء مجموعة بيركلي التي تنزع - بحسب رأيه - إلى المطابقة ببساطة بين المعادي للسامية والمحافظ - "وخصوصًا ليفينسون الذي لديه أفكار تقدمية قاطعة لا توسُّط فيها"[282] - وهو بذلك، بالتأكيد، قرع أبوابًا مفتوحة لدى مجموعة بيركلي. ذلك أنهم لم يفهموا حقيقة تحت مصطلح محافظين أشخاصًا من نوع أعضاء الطبقة الحاكمة في إنكلترا الذين يحتضنهم أدورنو برعايته، بل فهموا محافظين بالمعنى الأميركي: هؤلاء الذين يقفون أيضًا، في ما يخص حالات الرأسمالية الاحتكارية، مع التنافس الحر غير المقيد، ولا يعزون الفقر والإخفاق إلا إلى قصور شخصي، وهؤلاء الذين يؤيدون دولة تتدخل فقط لمصلحة الناجحين. تكمن أهمية تمييز أدورنو بين النزعتين المحافظة وشبه المحافظة في أنه سعى بذلك إلى إعطاء المفهوم السياسي-الاقتصادي للنزعة المحافظة حدودًا نفسية عميقة.

في أفكار أدورنو المتعلقة بمقياس الفاشية ظهرت من جديد مقولة التمرد التي تنتمي إلى تقليد مؤلفات المعهد. وكما ميّز فروم في مساهمته النفسية في القسم النظري من **دراسات** بين المتمرد والثوري - أي بين الثوري الزائف والثوري الحقيقي - كذلك ميّز أدورنو الآن بين المحافظ الزائف والمحافظ الحقيقي.

على العموم، فإن أفكار المعهد القديمة التي كانت مركزية في **دراسات في السلطة والأسرة** وفي بحث العمال والموظفين، والتي كان يمكن توقُّع أخذها وتطويرها في مشروع معاداة السامية، بدا أنها تكتسب من جديد أهميتها تدريجيًا. في الدراسة الاستقصائية للعمال والموظفين، ضمّ الاستبيان أسئلة

---

(280) إلزه فرنكل-برونزفيك.

(281) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 18 كانون الأول/ ديسمبر 1944.

(282) المرجع نفسه.

كان يتوقع أن تعكس الإجابات عنها، بالنظر إلى عينة لها روابط حزبية قوية، وجهات نظر الحزب والتعليقات الراهنة للصحافة الحزبية أكثر مما تعكس رأي الأشخاص المستبيَنين، كما ضمّ أسئلة لا تنطوي على رابط سياسي صريح، ولا تخص سلوكيات تطبعها الروابط الحزبية، ولهذا انتظرت إجابات وعدت بتقديم إيضاح حول البنى الشخصية الفردية. في تقديم فروم لقسم البحث **دراسات في السلطة والأسرة** حُدِّد الهدف المنهجي للأبحاث، وهو "وضع أسئلة وصوغها بالاعتماد على نظرية نفسية، وتدفعها التجارب قدمًا إلى الأمام وتسمح بإجابات تتيح استنتاج الرغبات اللاواعية في الشخص المستبيَن، ومن ثم بنيته الغريزية"[283].

أثبتت دراسة المعهد حول العمال والموظفين بنظرة استرجاعية أنها كانت محاولة للإجابة عن سؤال: كم كانت الرؤى الاشتراكية للطبقة العاملة راسخة في البنية الغريزية؟ وإلى أي مدى كان يمكن في الأزمات الوثوق بوقوف العمال إلى جانب رؤاهم اليسارية؟ انتهى بحث مجموعة بيركلي على نحو أكثر وضوحًا - بل ويمكن القول أيضًا: أكثر تواضعًا - إلى نسخة معتدلة عن تلك المشكلة، وتحديدًا عن السؤال: كم كانت الرؤى الديمقراطية للناس في الولايات المتحدة راسخة في البنية الشخصية للأفراد، وكم كان يمكن الوثوق بهم في الوقوف إلى جانب الرؤى الديمقراطية في أوضاع الأزمة؟

أما مدى إغراء الرجوع إلى التحيزات الاجتماعية، عندما يتعلق الأمر بتأثيرات الدعاية، فيظهره إخبار أدورنو الحماسي الذي تلقاه هوركهايمر بحماسة هو الآخر أيضًا: "أما المجموعات، فهي عدد كبير، وأكبر بكثير مما كان قد خُطط له أصلًا. يعتقد سانفورد أن هذا ممكن من دون أي صعوبات في إطار الميزانية المخصصة. تستند الخطة، إلى جانب أشياء أخرى، [...] إلى منظمات عمل وإلى الشريحة التقنية والبيروقراطية التي تمثل الجماعة المفتاحية الحقيقية للفاشية. فضلًا عن ذلك، اقترح سانفورد القيام بدراسة عن المجرمين والسجانين، وهي في اعتقادي فكرة رائعة. هنا يمكن أن يتحول البحث **مباشرة** إلى دعاية؛ أي إذا استطاع المرء أن يثبت بثقة أن نسبة عالية جدًا من

(283) Max Horkheimer et al., *Studien über Autorität und Familie*, p. 237.

المجرمين معادون للسامية متطرفون، عندئذ تُعتبر النتيجة بالذات دعاية سلفًا. كما أود محاولة فحص السيكوباتيين في المشافي العقلية"[284]. كانت هذه آمالًا قصيرة النظر، خصوصًا عندما يُفكر المرء في ملاحظة هوركهايمر "حول نظرية الجريمة" في **جدل التنوير**، حيث كان الحديث عن "الذات الأضعف والأكثر تقلبًا" للمجرمين، وعندما يُفكر في الدور المتناقض الذي تمارسه الذات في **جدل التنوير**، بوصفها شكل ظهور للتحرر من الطبيعة وللتصلب السلبي تجاه الطبيعة. علاوة على ذلك يمكن معاداة السامية، لو تم الوصول إلى الدليل المأمول، أن تنتهي بيسر لكونها لم تكن مشكلة للمواطن العادي، أو "للشخص غير الاجتماعي الذي يسير مع التيار"، لكنها ظلت، في أي حال، مشكلة للناس المكروهين وغير الاجتماعيين المخالفين (من المجموعات الخاصة جرى لاحقًا فحص مجموعتين فقط: سجناء ومرضى نفسيين. كانت المركزية الإثنية ونزعة المحافظة السياسية والاقتصادية أيضًا، وليس معاداة السامية على نحو خاص - كما تبيّن بدراسة عينة من 110 سجناء في سجن سان كوينتن في كاليفورنيا - أقوى منها في مجموعات أخرى، وكان غير المنحازين فيها أقل مما هم في مجموعات أخرى. على أن هذه النتيجة لم تُبْرَز على نحو خاص، أو تُستغَل لأغراض دعائية).

من ناحية أخرى، وفي تعليق نقدي على مقالة فرنكل-برونزفيك "الشخصية المعادية للسامية" التي تعود إلى محاضرة ألقيت في ندوة الطب النفسي في سان فرنسيسكو[285]، أكد أدورنو: "إنه وَهْمٌ نقع في شباكه بيُسر، يتمثل في أن الناس في المجتمع متحررون من معاداة السامية بسبب سلوكهم الحميد. غير أن هذا ليس صحيحًا جدًا حتى في أوروبا، وهو أيضًا أقل صحة هنا. لدينا أقوى سبب للاعتقاد بأن الطبقة العليا معادية للسامية بعنف. لقد صادف أن وجدت هذا التأكيد إبان آخر رحلة إلى الساحل الشرقي"[286]. إذا أخذت هذه الملاحظات

(284) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 26 تشرين الأول/ أكتوبر 1944.
(285) يُنظر أعلاه ص 499 في هذا الكتاب.
(286) ملاحظات أدورنو حول مقالة السيدة فرنكل-برونزفيك حول الشخصية المعادية للسامية، ص 3.

حول الطبقة العليا من المجتمع، وحول الشريحة التقنية البيروقراطية، وحول المجرمين والسيكوباتيين معًا، يمكن رؤية أنهم يمثلون شبكة توقعات معقدة يلاحظ فيها كم هي قليلة التخمينات والفرضيات ذات الصلة المشتقة من نظرية وكم كان متوقعًا من الأبحاث التجريبية الخاصة.

بالطبع، كانت حساسيتهم الداخلية للمشاكل أكبر بكثير مما ظهر في منشوراتهم اللاحقة، وكان من الممكن بالنسبة إليهم أن يروا صعوبات أساسية من دون أن يكونوا قادرين على أخذها في الحسبان باستمرار عندما يكون من الواجب إنجاز نتائج ملموسة. وقد أظهرت هذا بجلاء كبير تحفظاتٌ لأدورنو على مقالة فرنكل-برونزفيك حول الشخصية المعادية للسامية، حيث أعلن شكّه في تحليلات فرنكل-برونزفيك لكل من الشخصية المعادية للسامية والشخصية غير المعادية للسامية. يفضي التحليل النفسي إلى استنكار موضوع الدراسة على نحو أو آخر؛ "فالعدوانية ليست وحدها سيئة، بل أيضًا اللطف، بوصفه عرضًا للعدوانية المعاوضة، وغير ذلك. يجب أن أنصح بانتباه كبير إلى هذا الخطر، لأنه قد يؤثر في النشر بطريقة قد تكون معارضة لأهدافنا سياسيًا"[287]. وأظهر الشك نفسه أيضًا في ما يخص تقويم الشخصية غير المعادية للسامية. "يبدو لي وصف الفتيات المعاديات للسامية والفتيات غير المعاديات للسامية وصفًا نمطيًا في حد ذاته [...]. بما أن التفكير في نمطيات - طبقًا لنظريتنا - هو إحدى الخصائص الرئيسية للعقلية الفاشية، يجب أن نتجنب كل ما يُذكّرنا بطريقة التفكير هذه، حتى ولو أن اللهجات هي الضد من اللهجات المعادية للسامية. على نحو مطابق، يبدو لي مثال 'الإنجاز' الذي يؤدي بسرعة دورًا في الأسرة النفسية للفتيات غير المعاديات للسامية، مؤشرًا على الخضوع الخطر مثل أي من الخصائص التي أشرت إليها في ما يخص المعادين للسامية الكبار. بكلمات أخرى، أشك إن كان يمكن ترجمة التباين في الرأي إلى تباينات نهائية في البنى الشخصية. هذا، في أي حال، بيان هرطقي يعنينا فقط، وهو قطعيًا ليس للنشر"[288].

---

(287) المرجع نفسه، ص 1.

(288) المرجع نفسه، ص 7.

شكّل مشروع بيركلي حلقة الارتباط الوحيدة المستمرة بين المرحلتين الأولى والثانية من مشروع معاداة السامية، وكان الدراسة الوحيدة على المدى الطويل التي تَواصل العمل فيها. كتب هوركهايمر إلى أدورنو في كانون الأول/ ديسمبر 1944، عندما كان ما تبقى من المعهد منشغلًا بتقويم دراسة العمال، ولم تكن معالم مواصلة مشروع معاداة السامية واضحة بعد: "في ما يخص المعهد، أُحبذ الحصول على تفويض من اللجنة لإعداد المخطوط الكبير للمشروع الأول[289] في كتاب معاداة السامية بحجم كتاب ميردال عن الزنوج، وبذلك تُحل مشاكل مادية وتكتيكية كثيرة جدًا"[290]. ففيه تبدّت الحاجة إلى تفاهم يمكن تقديمه عن العلاقة الكلية للمشاريع الفرعية والأفكار المختلفة، الحاجة إلى نص يُراعي نوعًا ما تصور هوركهايمر وأدورنو عن صورة المعهد المتمحورة نظريًا، وينتج في الوقت ذاته من خلال الطابع التربوي-التنويري صلة المعهد بالمجهودات الحربية أو بالتغلب على مهمات بلد يقارع الفاشية ما بعد الحرب. لكن العمل النظري الفعلي لن يُستأنف إلا بعد ذلك. "ولأننا لا نملك إلا عددًا قليلًا من العاملين، لن يكون ممكنًا تمامًا تجنب حصول بعض الأمور التي لا تتفق مع ذائقتك وذائقتي. لكن في النهاية هذا كله ليس في الحقيقة عملنا الرئيسي، ويتعيّن في مدة أقصاها الصيف المقبل أن تنتهي، إن أمكن، مرحلة المشروع برمتها. هنا يجب علينا الإسراع، إن كان للمشروع أن يثمر (بكل معنًى)، عن شيء ملموس"[291].

لم يحدد إلا في ربيع 1945، عندما أوشكت دراسة العمال تقريبًا على الانتهاء، البرنامجُ النهائي للاستمرار في مشروع معاداة السامية. جاءت التحفيزات لذلك، في ما جاءت، من أدورنو وأعضاء الهيئة الاستشارية التي تضم على سبيل المثال مارغريت ميد وبول ف. لازارسفلد وروبرت مرتون (Robert K. Merton) ورودولف لوفنشتاين (Rudolph M. Loewenstein). قدِم أدورنو في زيارة قصيرة إلى نيويورك، وساعد هوركهايمر في هذه المسألة المهمة.

(289) أي تقرير **دراسات في معاداة السامية** ذي الأجزاء الأربعة، حول السنة الأولى من المشروع.

(290) رسالة من هوركهايمر إلى أدورنو، 19 كانون الأول/ ديسمبر 1944.

(291) المرجع نفسه.

تضمن البرنامج تسعة مشاريع فرعية واستبيانات واختبارات مستمرة تمليها مناسبات راهنة:

1. **مشروع بيركلي عن طبيعة معاداة السامية ومداها،**

ومهمته: (أ) كشف البنية الشخصية للأفراد الذين لديهم استعداد لمعاداة السامية؛ (ب) تطوير أداة يمكن بواسطتها التثبت من الاستعداد لمعاداة السامية.

2. **دراسة معاداة السامية بين الأطفال،**

ومهمته: معرفة خبرات الطفولة الخاصة ومراحل التطور التي لها أهمية في ظهور معاداة السامية لاحقًا.

3. **مسح حالات نفسية تتضمن كراهية عرقية،**

ومهمته: كشف الإواليات النفسية-الحركية التي تؤدي دورًا في مشاعر معاداة السامية تجاه اليهود وغير اليهود (والإواليات النفسية-الحركية الموافقة التي تظهر في مشاعر معاداة الزنوج والبيض).

4. **دراسة الخوف والعدوانية الاجتماعية بين المحاربين القدامى،**

ومهمته: تحري الخوف والعدوانية الاجتماعية في مجموعات مختلفة من المحاربين القدامى، والتثبت بعد ذلك من التأثير الممكن لمادة التنوير للجنة اليهودية الأميركية في المحاربين القدامى.

5. **تحليل الكاريكاتور المعادي للسامية،**

ومهمته: تحديد أي الغرائز والعواطف التي يحاول رسامو الكاريكاتور المعادون للسامية إشباعها.

6. **مشروع فن لتطوير رسم لمحرّض فاشي،**

ومهمته: وضع مسودة صورة واسمة للمحرّض الفاشي، يمكن استخدامها في الصحف واللوحات الإعلانية والأفلام وما شابه.

7. **تحضير كرّاس عن الدعاية المعادية للسامية،**

ومهمته: إنتاج منشورات تفضح بفاعلية طرق الدعاية المعادية للسامية.

8. بحث دقيق حول معاداة السامية،

ومهمته: تأليف عمل علمي نموذجي عن معاداة السامية.

9. فيلم تجريبي لقياس التحيز العرقي،

ومهمته: (أ) إنتاج أداة جديدة تسمح بالتثبت من استقبال الدعاية العرقية؛ (ب) قياس التحيزات القائمة؛ (ج) الحصول على رؤية في إواليات الإسقاط.

10. تجارب في المسح والاختبار،

ومهمته: اختبار الموقف من اليهود ومن المادة التنويرية التي أنجزتها اللجنة اليهودية الأميركية من طريق مناهج مؤسسة[292].

تألف طاقم العمل من هوركهايمر (مديرًا)، ماري ياهودا (زميلة مساعدة في الساحل الشرقي)، ت. ف. أدورنو (زميلًا مساعدًا في الساحل الغربي)، غنيفيف كنوبفر وصامويل فلاورمان (Samuel H. Flowerman) كأعضاء في الطاقم المهني للقسم العلمي في اللجنة اليهودية الأميركية، وإلى جانبهم اثنا عشر من المساعدين الآخرين. واحد من بينهم فقط كان مساعدًا مقربًا في المعهد هو ليو لوفنتال، وآخر كان عاملًا غير ثابت هو باول ماسينغ. أما زيغفريد كراكاور الذي طُرح اسمه ليكون مستشارًا للفيلم التجريبي، فكان في الحقيقة أحد المعارف القدامى للمعهد، لكن كان يُنظر إليه بازدراء، ولم يُعتبر حليفًا.

أما الشخص الأهم بين العاملين الإضافيين، فهو برونو بيتلهايم (Bruno Bettelheim) الذي كان سابقًا مدير مدرسة سونيا شانكمان التقويمية لتربية وعلاج الأطفال المصابين باضطرابات عاطفية شديدة، وأستاذًا مساعدًا في التربية في جامعة شيكاغو. كانت ثمة نية لتعيينه مديرًا للدراسة حول كاريكاتور معاداة السامية ومديرًا للدراسة حول المحاربين القدامى، بالاشتراك مع إدوارد شيلز (Edward Shils) الذي أصبح في السنوات اللاحقة شريك تالكوت بارسونز في بناء النظرية البنيوية-الوظيفية. اعتُقل بيتلهايم - وهو عالم نفس من فيينا وفي

(292) American Jewish Committee [AJC], *Progress Report of the Scientific Department, 22/6/1945. List of Scientific Projects.*

سِن أدورنو نفسه - في ربيع 1938، مباشرة بعد الاجتياح الألماني للنمسا، وأرسل بعد ذلك إلى معسكري الاعتقال في داخاو وبوخنفالد، وهما أكبر معسكري اعتقال للسجناء السياسيين آنذاك. ثم أطلق سراحه فجأة في عام 1939، وهاجر إلى الولايات المتحدة الأميركية. كتب مذكراته في الحال، ثم انغمس - بعد أسابيع طويلة من التردد، لأنه خشي ألا يكون بسبب استيائه موضوعيًا بما يكفي - في تحليل تجاربه، وقرر في النهاية، عندما ارتسمت هزيمة النازية وما عاد يُخشى من سوء استعمال معارفه من خلال الغستابو، أن ينشر دراسته "السلوك الفردي والجماهيري في الحالات المتطرفة". تكمن قوة المقالة في أنها تُظهِر تغيير شخصية السجين التي يستهدفها الإس إس (SS) من خلال التعذيب والإذلال وصولًا إلى التكيّف النهائي مع الحياة في معسكر الاعتقال وإلى التماهي بالإس إس - وهذا بالضبط ما كان يحصل مع السجناء السياسيين.

جاء في كتاب بيتلهايم **التربية من أجل البقاء**: "من دواعي الأسف أن تَرفض جميع مجلات الطب النفسي والتحليل النفسي لنحو عام كامل نشر هذا البحث، مع أنني انطلقت من أنها بالذات ستكون مستعدة تمامًا لطباعة عملي. كانت أسباب الرفض مختلفة؛ إذ تمثل اعتراض بعض الناشرين في كوني لم أدوّن في أثناء وجودي في معسكر الاعتقال أي ملاحظات كتابية، وهذا الكلام يُضمِر أنهم لا يصدقون أي كلمة مما كتبت حول شروط الحياة في معسكرات الاعتقال. في حين رفض آخرون عملي لأن المعلومات الواردة فيه لا يمكن التحقق منها، أو لأن ما وجدته لا يمكن الرد عليه. وصارحني آخرون، بلا لف أو دوران، أنهم يعتبرون الوقائع التي أتيت على ذكرها وما استخلصته منها هي المبالغة في أعلى صورها. وأضاف بعضهم أن هذه المقالة أكبر من طاقة قرائهم، وقد يكونون - وهذا ما تؤكده أحاديثي الشخصية مع متخصصين - محقين في ذلك. كان غوردون آلبورت أول من قام بنشر البحث في تشرين الأول/ أكتوبر 1943 كمقالة رئيسية في **مجلة علم نفس الشذوذ وعلم النفس الاجتماعي**. ثم أعيد طبعه في مجلة **السياسة**، وظهر إضافة إلى ذلك على شكل كراس، وكان محط اهتمام عالمي. بعد الحرب جعله الجنرال أيزنهاور قراءة إلزامية لجميع ضباط حكومة الولايات المتحدة العسكرية في ألمانيا.

بعد بضع سنوات نشر بيتلهايم أيضًا مقالةً بعنوان "صورة الضحية لدى الشخص المعادي للسامية"، مستندًا إلى تجاربه مع السجناء اليهود في معسكرات الاعتقال، تناول فيها المشكلة القابلة للانفجار الناتجة من الطريقة التي كان اليهود يردّون بها على الإواليات النفسية الفاعلة لدى المعادين للسامية بتطوير إواليات نفسية لديهم مشوّهة للواقع، معرّضين بذلك أنفسهم للمخاطر من خلال تنميط الخصم بوصفه جبارًا ووضيعًا في آن واحد، لأنهم لم يعرفوا أين كانت تكمن فرصهم.

لم يستدعِ هوركهايمر وأدورنو بيتلهايم إلى نيويورك من أجل عمل مشترك مكثف، لأن عَلماء الاجتماع وعلماء النفس الجيدون الذين كانوا مستعدين للعمل في بداية المشروع الموسع كانوا بسبب الحرب قلة فحسب، بل لأنهما كانا يكنان له تقديرًا خاصًا. لكن العمل المشترك بينهم اقتصر على دراسة شيكاغو للمحاربين القدامى.

كانت النية أن يُعيَّن من بين العاملين الإضافيين لوفنتال وماسينغ كمساعدين في [كتاب] **بحث في معاداة السامية** الذي كان يتعيّن أن يكون هوركهايمر ناشره الرئيسي، يساعده ماكيفر وغوردون آلبورت كناشرَين مساعدَين. كان هذا **البحث** والكراس حول الدعاية المعادية للسامية هما المشروعان الفرعيان اللذان عُهد بهما إلى معهد البحث الاجتماعي.

بدا أن ما تبقى من المعهد قد تأمن على نحو جيد بعمل يلائمه، وجرى ترتيب العاملين في معظم المشاريع الفرعية المهمة؛ وهكذا كان على ناتان أكرمان (Nathan Ackerman)، وهو معالج نفسي مقرّب من اللجنة اليهودية الأميركية، أن ينضمّ إلى ماري ياهودا في دراسة حول حالات من المرضى النفسيين الذين أدت معاداة السامية دورًا بالنسبة إليهم. بدا الأمر كما لو أن بإمكان هوركهايمر وأدورنو المحافظة على المشروع برمته، وقيادته وتقديم المحفزات في المقام الأول، وأنهما يستطيعان تكريس نفسيهما مرة أخرى لاستئناف العمل على مؤلَّفهما النظري المشترك.

الفصل الخامس

عَوْدٌ بطيء

طموحٌ في مشروع معاداة السامية - حنينٌ إلى عمل فلسفي - غيابُ الرغبة في إنشاء جماعة المنظّرين - زياراتٌ إلى مستعمرة

عندما دخلت قوات التحالف الغربية إلى ألمانيا في نيسان/ أبريل 1945، واستسلمت ألمانيا في أيار/ مايو، كان هوركهايمر وأدورنو، وقد حصلا على الجنسية الأميركية منذ زمن طويل، يعملان على نحو كامل في المشروع الكبير حول معاداة السامية. كان هذا المشروع موجهًا بكامله إلى الرأي العام الأميركي؛ إذ قامت بتمويله منظمة كان يهمّها تحسين وضع اليهود المقيمين في الولايات المتحدة الأميركية. أتاح المشروع الفرصة لحلقة هوركهايمر لتقديم صورتهم عبر المشاركة بين "أفكار أوروبية" وطرائق البحث في الولايات المتحدة الأميركية في إطار العلوم الاجتماعية في هذا البلد.

أصيب أدورنو بالذعر، عندما تيقّن أن سقوط النازيين الذي انتظره طويلًا بلا جدوى لا يمكن أن يفرحه بعد. واعترف لهوركهايمر أن الليبيدو الخاص به في الوقت الحاضر أصبح "أكثر ارتباطًا بمشاغلنا من ارتباطه بتاريخ العالم الذي يُفترَض بمشاغلنا أن تقف في وجهه"[1]. وجد أدورنو أن هناك ما يدعو إلى الفرح في جميع الأحوال، على الرغم من الأفق الأسود "الذي كنا دائمًا متفقَين حوله": "أولًا، لأنه في عالم يبدو أنه يسير من كارثة إلى أخرى، يمثل أي مُتَنفّس سعادةً؛ وثانيًا، لأن الرعب الشديد كان اسمه هتلر وهملر، وهو على الرغم من أنه ممكن الحدوث في أي مكان آخر، إلا أنه لم يظهر هناك في الواقع بعد. لقد سارت الأمور هذه المرة على نحو أفضل مما تصورتم أنتم، وربما ستكون أيضًا أفضل مما تصورنا نحن الاثنين"[2].

---

(1) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 2 أيار/ مايو 1945.

(2) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 9 أيار/ مايو 1945.

صنّف هوركهايمر من جانبه قبل ذلك بأشهر تمييز المهاجرين اليساريين على وجه الخصوص بين ألمان نازيين وألمان بوصفه عرض الانتقال المفتوح "من طور الطبقات إلى طور عصابات المجتمع". ثم أضاف: "ليس لهذا الكلام سوى معنًى واحد: أن الشعوب هي، ببساطة، قطعانٌ تركض وراء كل كبش يتقدمها، أو بتعبير حديث، إنه يمكن استخدامها، بناء على التجربة في مناهج علم نفس الإدارة، لأي غرض يراد منها [...]. من يريد إذًا أن يجعل الألمان مسؤولين عن النازية: إننا نعلم علم اليقين أن الألمان يتحولون بالحماسة ذاتها إلى ستالين أو إلى جنرال موتورز!"[3]. فهل يعنى هذا أن هوركهايمر وأعضاء حلقته لم يؤمنوا بإمكان قيام ألمانيا جديدة؟ وهل أرادوا الإعراض عن أي محاولة للتأثير في تطور الأوضاع فيها؟ هل أعاق اهتمامهم بهذا الموضوع عدم تمكنهم من إيجاد مصدر لتمويل مخططات مشاريع المعهد المتنوعة المتعلقة بألمانيا؟ هل "النظرية" التي أراد هوركهايمر وأدورنو مواصلة العمل عليها في **جدل التنوير**، والتي أدركا أنها "نقد جدلي للاتجاه الاجتماعي العام للعصر"، جعلت الولايات المتحدة الأميركية بلدًا أكثر أهمية من ألمانيا بالنسبة إليهما؟ هل ترسخ لديهما الشعور بأنهما، بعد انتصار النازية، لن يكونا بعد الآن هناك، في أوروبا المطهرة من اليهود، في وطنهما أكثر مما هما في الولايات المتحدة الأميركية؟

هذه أسئلةٌ تصعب جدًا الإجابة عنها. فقد بدا مع نهاية الحرب، نظرًا إلى تطور التعاون الملائم بين المعهد والمؤتمر اليهودي الأميركي، وكأن نهاية الفترة الانتقالية قد اقتربت، وأن السؤال حول تجديد جماعة المنظّرين القديمة قد أصبح الآن راهنًا. غير أن هذا السؤال لم يُطرح للتداول بين المعنيين.

كان نويمان وماركوزه وكيرشهايمر في أثناء الحرب مُدرَجين بوصفهم أعضاء في المعهد يعملون في خدمة الحكومة، كدليل على مساهمة المعهد في الجهود الحربية للولايات المتحدة. وبقي الثلاثة على تواصل مع المعهد عند نهاية الحرب. في شباط/ فبراير 1945، أرسل "مندوبو" واشنطن برقية إلى هوركهايمر بمناسبة عيد ميلاده الخمسين، يعبّرون فيها عن أسفهم لعدم تمكّنهم من القدوم إلى نيويورك. فمما لا شك فيه أن هؤلاء الثلاثة كانوا يريدون أن

(3) رسالة من هوركهايمر إلى أدورنو، 24 تشرين الثاني/ نوفمبر 1944.

يعودوا مرة أخرى أعضاء في المعهد. لقد كان الفراق بالنسبة إلى نويمان وماركوزه مريرًا بما يكفي. أما في حالة كيرشهايمر، فلم يكن الأمر لافتًا، لأنه لم يصل قط إلى وضعية مماثلة في المعهد لتلك التي يتمتع بها كلٌ من ماركوزه ونويمان، بل ارتضى لنفسه مؤقتًا أجرًا أقل مما يتقاضاه الآخرون. غير أن تأثير الخوف بقي على نحو جلي؛ إذ غابت عن الأعضاء القدامى الثلاثة حقيقة أن فليكس فايل كان قد تعهد في ربيع 1945 أن يقدم مرةً أخرى مبلغ مئة ألف دولار إلى مؤسستهم. وتحاشى مديرو المعهد من جانبهم أن يطلبوا منهم المشاركة في العمل من تلقاء ذاتهم؛ فمشروع معاداة السامية كان محددًا زمنيًا، والتبرع الجديد جرى بحسب هوركهايمر بالنظر إلى أنه "يجب ألا يباشر المعهد بعمل كبير في المستقبل، بل عليه أن يركز على الأعمال الحاسمة"، لأنها - كما يرى فليكس فايل أيضًا - وحدها التي يمكن القيام بها في الوقت الراهن، "إن توفرت أسباب العيش نسبيًا للعدد القليل من الأشخاص الذين يتشكل المعهد منهم لبعض السنوات"[4]. كان لا بد في وقت من الأوقات من إغلاق مكتب المعهد في نيويورك بشكل نهائي، كما وجب بالضرورة أن يتجنب المعهد ترتيب أي التزامات مالية جديدة عليه.

في منتصف الأربعينيات، كانت "حلقة هوركهايمر" تعني أربعة أشخاص، لكل منهم علاقة خاصة بهوركهايمر: بولوك بوصفه شريكًا وفيًا "من الداخل"، ومديرًا مشاركًا في إدارة المعهد؛ وأدورنو بوصفه شريكًا مخلصًا في العمل على النظرية؛ ولوفنتال بوصفه مساعدًا مشاركًا ويمكن استخدامه لأغراض عدة؛ وفايل بوصفه المؤسس الوفي. أصبح الانفصال أو الابتعاد عن الأعضاء الآخرين عملية غير عكوسة [لا رجعة فيها].

بقي فروم موسومًا كإصلاحي، ونُشرت أعماله مع أعمال هوركهايمر أو أدورنو في مجلد جماعي نشره شخصٌ ثالث. بقي ماركوزه على تواصل مع هوركهايمر، لكن من على مسافة. أما نويمان فكانت تُطلب منه أحيانًا استشارات قانونية؛ بينما بقي كيرشهايمر محاورًا من حين إلى آخر. بقي هؤلاء الثلاثة بعد نهاية الحرب على مدى سنوات في الوظائف الحكومية، ثم عُيّنوا

(4) رسالة من هوركهايمر إلى أدورنو، 6 نيسان/ أبريل 1945.

في الخمسينيات في جامعات أميركية. حصل غروسمان على معاش تقاعدي زهيد من المعهد. وتقلصت العلاقة بفيتفوغل شيئًا فشيئًا في الأربعينيات، لتنتهي شكليًا عندما تعهّدت في عام 1947 جامعة واشنطن في سياتل وجامعة كولومبيا مشروع فيتفوغل عن تاريخ الصين عوضًا عن معهد البحث الاجتماعي ومعهد علاقات المحيط الهادئ. في ذلك الوقت كانت النيران الحامية المناهضة للشيوعية تصلي معهد علاقات المحيط الهادئ. ففي عام 1951، وفي سياق محاولة لإثبات أن زملاء من العاملين الشيوعيين في معهد علاقات المحيط الهادئ قد ساهموا في إسقاط تشانغ كاي شيك وانتصار الشيوعيين الصينيين، استُدعي فيتفوغل للشهادة أيضًا أمام لجنة مكارثي، وهي لجنة متفرعة عن اللجنة الفرعية للأمن الداخلي في مجلس الشيوخ. وضع الشيوعي المرتد نفسه في وضع مزرٍ حين ورَّط زميلًا سابقًا في معهد البحث الاجتماعي هو موزس فينكلشتاين، عندما شهد بأنه كان شيوعيًا.

حافظت حلقة هوركهايمر، كما كانت في السابق، على اهتمامها بألمانيا؛ غير أن هوركهايمر، وهو صاحب القرار، كان شديد التحفظ في اهتمامه. في حين كانت أيادي أولئك الذين كانوا أقل حذرًا منه مكبّلة في ظل الأوضاع السائدة. كانت ألمانيا بلدًا مدمرًا، ومقسمًا إلى مناطق محتلة. وكان النشاط السياسي ممنوعًا، والمنشورات خاضعة للرقابة. لم يكن بالإمكان التنقل بحرية، كما لم يكن يسمح حتى بالسفر داخل ألمانيا من دون إذن رسمي. لا، بل لم يكن السفر إلى خارج الولايات المتحدة الأميركية ممكنًا إلا بقيود وشروط. في بادئ الأمر، لم تُعطَ جوازات سفر للمدنيين، ولم يُسمح بالسفر إلى أوروبا إلا لمن أوكلت إليه الحكومة الأميركية مهمة رسمية. يُضاف إلى ذلك أنه لم يكن معروفًا ما سيفعله الحلفاء بألمانيا. فقد كانت التوجيهات باجتثاث النازية هي السياسة التي اعتمدها الحلفاء الغربيون. وكانت هذه التوجيهات محكومة باعتبارات أمنية في المقام الأول، ولم تتضمن إلا في ما ندر إشارات عن السمات التي يجب أن تتصف بها. وغالبًا ما كان ممثلو الحكومات العسكرية يختارون أيسر الطرق للسيطرة على الوضع. فقد أبقوا على المنظمات العاملة من دون مضايقات، وثبّتوا موظفي الدولة الفاعلين في مواقعهم. وحيث حصل استبدالٌ حقيقي، كان يُعيَّن، في معظم الأحيان، بدل النازيين البارزين نازيون

أقل شهرة أو أتباع للنازيين[5]. كتب ماركوزه متذكرًا فترة عمله في مكتب الخدمات الاستراتيجية: "أولئك الذين كانوا عندنا، مثلًا، على رأس لائحة 'المجرمين الاقتصاديين'، وجدناهم من جديد وبسرعة في مواقع مسؤولة وحاسمة في الاقتصاد الألماني"[6].

كان حظر النشاط السياسي كارثيًا؛ فقد شُلّت اللجان المناهضة للفاشية التي تشكلت بعد دخول الحلفاء إلى مدن كثيرة، بسبب تضييق الخناق المتزايد على مساحة عملها. وساعد على ذلك آليًا استمرار تأثير النازيين والمحافظين في المجالات غير السياسية، خصوصًا في الاقتصاد وفي أقسام واسعة من الإدارة. يُضاف إلى ذلك أن الحلفاء لم يشجعوا، بل لم تكن لديهم طبعًا نية - حتى على الأمد الطويل - أن يشجعوا عودة المهاجرين المناهضين للنازية. لا، بل كان المطلوب عكس ذلك. وما يدل على ذلك الطريقة التي اتُّبعت في إطلاق سراح سجناء الحرب، إذ كان البريطانيون هم آخر من أطلق سراح المناهضين للفاشية. لم تتبنَّ إلا أقلية من المحتلين النافذين موقفًا ديمقراطيًا جذريًا. لكن سرعان ما تضاءلت أهمية هذه الأقلية. بعد عامين، استطاع أخيرًا أولئك المديرون الألمان أن يثبتوا أنفسهم بعد أن اطمأنوا تمامًا منذ دخول الأميركيين إلى أن رأس المال الأميركي سوف يلتزم بلا تردد بإعادة إعمار ألمانيا. وقد تبيّن أن أدورنو كان على حق في أمور جوهرية، عندما كتب إلى هوركهايمر في 9 أيار/ مايو 1945 مباشرة بعد انتشار خبر استسلام ألمانيا: "كما كان الحال في معظم خلافاتنا الموضوعية، تبيّن أننا كنا على حق. لقد تأكدت صدقية أطروحتي البرجوازية، بأن هتلر لن يتمكن من البقاء، حتى لو تحققت متأخرة وجعل التأخير منها مهزلة، أي بكلام آخر، أثبتت قوى الإنتاج في البلدان المتقدمة اقتصاديًا أنها أقوى من قمة التقدم التكنولوجي وقمة الإرهاب للقادم المتأخر: الصناعة ربحت الحرب ضد العسكر، وهو ما يتفق مع معنى الاتجاه التاريخي بأكمله. لكن، في المقابل، فإن أطروحتكم عن عنف الفاشية التاريخي هي الحقيقة، مع فارق جوهره أن هذا العنف قد غيّر

(5) يُقارن:
Ulrich Borsdorf & Lutz Niethammer (eds.), *Zwischen Befreiung und Besatzung*, pp. 175 ff.

(6) Jürgen Habermas et al, *Gespräche mit Herbert Marcuse*, p. 21.

مقر إقامته، مثل التحول البرجوازي الذي عرفته أوروبا بعد سقوط نابليون [...] حيث أحال الشاب الطموح المفلس أعماله إلى شركة قوية"[7].

وبمعزل عن الأوضاع الخارجية، لم يكن أمام الشخصيات غير الرسمية، أمثال هوركهايمر ومن تبقى حوله من الزملاء في حلقته، خيار آخر غير التريث والانتظار، ولم يكن هناك، في ما يخص التشخيص العام لحلقة هوركهايمر، ما يصب في مصلحة عودة سريعة إلى ألمانيا. أقام المعهد في شهر آذار/ مارس 1945 سلسلة محاضرات في قسم علم الاجتماع في جامعة كولومبيا عنوانها: "ما بعد الاشتراكية القومية: في الأوجه الثقافية لانهيار الاشتراكية القومية". تكلم هوركهايمر فيها عن "الشمولية وأزمة الثقافة الأوروبية"، وأدورنو عن "مصير الفن"، في حين تكلم بولوك عن "التحيز والطبقات الاجتماعية"، ولوفنتال عن "ما بعد الإرهاب الاستبدادي". نمّت هذه المحاضرات عن مواصلة المعهد انشغاله العلمي بألمانيا وأوروبا. لكنها أظهرت أيضًا بوضوح أن المشكلات الحاسمة في ألمانيا وفي أوروبا يمكن أن تُدرس على أكمل وجه في الولايات المتحدة الأميركية. كانت أطروحة أدورنو المركزية، على سبيل المثال، أن هتلر كان مجرد منفذ لاتجاه ترسخ قبله بمدة طويلة، وواصل تأثيره من بعده بلا انقطاع، بمعنى أنه قد جرى اجتثاث حضارة الشرائح الوسطى من جذورها، وتحييد الثقافة عمومًا، والفنون على وجه خاص، وإحلال صناعة الثقافة محلها. "هذا الافتقار إلى الخبرة في تصور الفن الحقيقي الذي استُبدل جزئيًا بأنماط صناعة التسلية الجاهزة وبمحاكاة ساخرة كانت على الأقل أحد العناصر التشكيلية لتلك الكلبية (cynicism) هو ما حوّل في نهاية المطاف الألمان، شعب بيتهوفن، إلى شعب هتلر"[8].

إذا كان بالفعل أفضل ما يستطيع المثقف فعله يكمن في إظهار السلبي وتسمية الكارثة بالاسم - كما أكد أدورنو في هذه المحاضرة أيضًا - ألا تكون الولايات المتحدة الأميركية عندئذ هي ميدان البحث المعطى لناقد صناعة الثقافة؟

---

(7) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 9 أيار/ مايو 1945.

(8) Theodor W. Adorno, "What National Socialism has done to the Arts" (1945), p. 10.

لكن من ناحية أخرى، كانت الثقافة الأوروبية هي التي حذّر أدورنو من نمذجتها والمحافظة المصطنعة عليها. في هذا الشكل من التفكير توقف تحول الاغتراب الذي بلغ حدوده القصوى على وجود بقية لم يستوعبها بعد، الأمر الذي كان هنا حاسمًا في تفكير أدورنو الفلسفي. في بلد الفاشية الأكثر شراسة، رأى أدورنو أيضًا أن الأمل في التحول نحو الأفضل في الحقبة التي تلت هتلر كان أكبر مما هو في الولايات المتحدة الأميركية. "الأشخاص ذاتهم الذين عابوا على عصابات المثقفين الحداثة في الفنون، بقوا هم أنفسهم عصابة برهنت أفكارهم عن الشعب أنها بعيدة عن حياة الناس أكثر من معظم المنتجات الباطنية للمدرستين التعبيرية والسريالية. وما يثير الاستغراب، أن الألمان كانوا أكثر استعدادًا لخوض معارك هتلر من استعدادهم للاستماع إلى مسرحيات وأوبرات أذنابه. حينما وضعت كارثة الحرب نهاية لما تبقى من الحياة الموسيقية للجمهور الألماني، لم تنفّذ إلا حكمًا نُطق بصمت منذ أن أقامت عصابة هتلر دكتاتوريتها على الثقافة"[9]. ألم يكن واجب أدورنو، عملًا بما قيل، أن يسعى بعد نهاية الحرب في ألمانيا، بأسرع ما يمكن، إلى المساهمة في مواصلة إحياء الثقافة الأوروبية، على الأقل في مجال الموسيقى؟

في الواقع، كان أدورنو أول أعضاء حلقة هوركهايمر الذين طالبوا بنشر المجلة من جديد. فلقد تعرف في كانون الثاني/يناير 1945 إلى ناشر يدعى غوغنهايمر، سبق أن أسّس فرعًا لداره في السويد بأمل أن يكون هناك بعد الحرب مباشرة اهتمام استثنائي بنشر مؤلفات أعداء النازية باللغة الألمانية. تحمس أدورنو لهذا التصور، واقترح على صاحب تلك الدار نشر كتابه حول فاغنر، وطبعة ألمانية من كتاب **التأليف الموسيقي للأفلام** الذي شاركه أيزلر في تأليفه، واقترح عليه أيضًا استئناف نشر مجلة المعهد، وطلب من هوركهايمر أن يأذن له بالسماح لهذا الناشر بطباعة كتابه **شذرات فلسفية**.

آلت هذه الآمال إلى الفشل. فقد بدا وكأنه يعبّر عن موقف هوركهايمر الذي يميل بقوة أكبر نحو التريّث، عندما أخبر أدورنو بهذه المناسبة أنه سبق أن أوكل إلى ناشرة أميركية وإلى عنصر غير دائم في المعهد - هو نوربرت

(9) Ibid, p. 18.

غوترمان (Norbert Guterman) - إعداد كتاب باللغة الإنكليزية يجمع فيه نصوص محاضراته التي ألقاها في جامعة كولومبيا في شباط/ فبراير وآذار/ مارس حول "المجتمع والعقل" إضافة إلى نصوص من محاضرات أخرى.

كان ماركوزه هو الآخر يلح أيضًا باتجاه إصدار جديد للمجلة. ففي نيسان/ أبريل 1946، استعلم بحذر عن مشاريع هوركهايمر. وفي أيلول/ سبتمبر 1945 حُلّت وكالة الأنباء المناهضة للفاشية (مكتب الخدمات الاستراتيجية) وأُلحقت ببساطة أهم أقسامها بسلطات إدارية أخرى؛ هكذا أُلحق، مثلًا، القسم الذي عمل فيه ماركوزه بوزارة الخارجية. ووقع الآن قسم الأبحاث والاستخبارات في الوزارة في مرمى نيران شديدة بسبب الميول الشيوعية المزعومة، ورُفض مؤقتًا تخصيصه بأموال جديدة. فكتب ماركوزه إلى هوركهايمر: في حال جرى حل هذا القسم، فهو، أي ماركوزه، لن يأسف على ذلك. "أعتبر ما كتبته وجمعته في السنوات الأخيرة 'خارج سياق العمل الرسمي' عملًا تحضيريًا لكتاب جديد [...]. يركّز الكتاب طبعًا على مشكلة الثورة التي لم تحدث. ولعلكم تتذكرون المشاريع التي كتبتها في سانتا مونيكا حول تحوُّل اللغة، وحول وظيفة الإدارة العلمية للأعمال، وحول بنية التجربة داخل نظام الحكم. هذه المشاريع سوف يجري العمل على توسيعها لتكون جزءًا من الكتاب الجديد.

فكيف يمكن أن ينسجم كل ما ذُكِر مع مخططاتكم؟ هل تعتقدون أنه سيكون لدينا لاحقًا متسعٌ من الوقت للعمل على مشاريع أخرى بعد الانتهاء من المشاريع حول معاداة السامية، أو بموازاتها؟ هل تفكرون في متابعة إصدار المجلة؟ (سوف أكون متحمسًا جدًا لإصدارها)"[10].

عن سؤال ماركوزه غير المباشر، إن كان يستطيع بعد نهاية عمله في الاستخبارات أن يعود إلى المشاركة في العمل النظري في المعهد أو مع هوركهايمر، وعما إذا لم يكن بإمكانه مواصلة ترتيب العمل الذي توقف في عام 1942 بسبب ظروف غير ملائمة، أجاب هوركهايمر برفض غير مباشر: في الساحل الغربي يجري العمل على قدم وساق، وقد كرّس هو وأدورنو اليوم كله

(10) رسالة من ماركوزه إلى هوركهايمر، واشنطن، 6 نيسان/ أبريل 1946.

تقريبًا للعمل على مشروع معاداة السامية، واستعانا بين الحين والآخر ببولوك وفليكس فايل. كان هذا يعني أنه ليس هناك مؤقتًا أي مجال للعمل النظري، أي لعمل نظري مشترك في إطار أوسع. أما في ما يخص المجلة، فلم ينطوِ جواب هوركهايمر هنا أيضًا على حماسة تُذكَر. أجرى لوفنتال محادثات حول إصدار المجلة الجديد، وبُحثت التكاليف؛ فإذا أمكن تحمّلها، تصدر المجلة في هولندا قريبًا. تبقى أمامهم صعوبة تتمثل في حظر تصدير المطبوعات إلى ألمانيا. بكلمات أخرى، نحن نقوم بما يمكننا فعله. كان هذا الجانب الظاهر المؤدب لإخفاء الطريقة المتلكئة التي كانت تعالَج بها المسألة.

في المقابل، أظهر هوركهايمر بدوره اهتمامًا بمعرفة الوضع في فرانكفورت. وعندما سمع أن ماركوزه سوف يسافر إلى لندن في زيارة خاصة لوالدته، بعدما لم يتم تحديد موعد لزيارة رسمية له إلى أوروبا، كلّفه – وقد فاجأته خطة ماركوزه الجريئة – باستكشاف جدوى أن يقوم برحلة استطلاعية إلى فرانكفورت، وأن يفتتح هناك في فترة غير بعيدة مركز تنصت على أقل تقدير[11].

لم يستطع ماركوزه للمرة الثانية أن يلبي رغبة هوركهايمر. في المقابل، أصرّ ماركوزه بعد عودته من رحلته إلى لندن وباريس أكثر من ذي قبل على استئناف إصدار المجلة. فأخبر هوركهايمر بأنه اجتمع في لندن بكارل مانهايم وريتشارد لوفنتال، وتحدث في باريس مع ريمون آرون وجان وال، ومع ممثلين عن الوجوديين الشباب والسرياليين. "توجَّه الجميع إلي بالسؤال: لماذا، بحق السماء، لم تصدر المجلة ثانيةً؟ كانت المجلة – كما قالوا – المنشور الوحيد والأخير الذي ناقش المشكلات الحقيقية على مستوًى 'طليعي' حقيقي. إن فقدان التوجّه العام والعزلة الآن هما من الضخامة بحيث يجعلان الحاجة إلى إعادة إصدار المجلة أكثر إلحاحًا من أي وقت مضى. حتى لو لم يكن بالإمكان إدخالها رسميًا إلى ألمانيا، فإن الجمهور خارج ألمانيا كبير ومهم جدًا، ويُعدّ مبررًا كافيًا لإصدار المجلة"[12]. ويُفضَّل أن تحتوي المجلة، كما

---

(11) رسالة من هوركهايمر إلى ماركوزه، 30 آب/أغسطس 1946.

(12) رسالة من ماركوزه إلى هوركهايمر، 18 تشرين الأول/أكتوبر 1946.

كانت في الثلاثينيات، على مقالات بالإنكليزية والفرنسية والألمانية. وقد اقترح ماركوزه إصدار عدد خاص عن ألمانيا، يبدأ بتحليلات تتناول ما يتم تداوله في هذا البلد من برامج سياسية واقتصادية وثقافية متنوعة، فضلًا عن الخطوط التوجيهية لأهم الأحزاب الألمانية، مبديًا استعداده لوضع مواد العدد تحت التصرف.

اتفق ماركوزه وهوركهايمر في لقائهما على وجوب أن يكتب كلٌ منهما مشروعًا عن التوجّه النظري للمجلة؛ لكن ماركوزه وحده وضع في الحقيقة في بداية عام 1947 نصًا مكتوبًا على الآلة الكاتبة في أربع وعشرين صفحة، شرح فيه تصوراته المنطلقة من وضع ما بعد الحرب عن نظرية حول الوضع الراهن.

بعد عامين تقريبًا، كتب هوركهايمر إلى ماركوزه يخبره بأنه قرر بالاشتراك مع أدورنو أن يطرحا أخيرًا مشروعًا يكون على نسق "أطروحات" ماركوزه، فهناك مادة ضخمة تكفي لذلك. "تكمن الصعوبة في كوننا لا نريد أن نحصر أنفسنا في الإطار السياسي. يجب أن يكون المشروع، في الوقت نفسه، نوعًا من برنامج فلسفي"[13]. لم يتحقق هذا البرنامج الفلسفي ولا إعادة إصدار المجلة التي لم يجرِ ذكرها في غضون ذلك إلا في ما ندر.

كان هناك سببان أساسيان للطريقة المتلكئة التي عولجت بها مسألة إعادة إصدار المجلة: الخوف من قلة توزيعها، والخوف من تعذر توفير أبحاث بقدر كاف لملء المجلة تتوافق مع رؤى هوركهايمر وأعضاء حلقته المقرّبين. عندما توقفت حينئذ مجلة المعهد عن الظهور، لم يكن السبب في ذلك هو المال، بل لأن هوركهايمر وأدورنو لم يكونا راضيين عن المساهمات. لا بد من أن مشروع ماركوزه في ورقة شباط/ فبراير 1947 قد أخاف هوركهايمر في المقام الأول، لكنه أخاف أيضًا أدورنو. صحيح أن المشروع كان ورقة عمل داخلية من أجل التفاهم الذاتي، لكن الورقة تحدثت بصورة مباشرة عن أمور سياسية، بحيث بدا بالضرورة لقرّاء مثل هوركهايمر وأدورنو أن إمكانية ترجمتها إلى أفكار قابلة للنشر مستحيلة تقريبًا.

---

(13) رسالة من هوركهايمر إلى ماركوزه، 29 كانون الأول/ ديسمبر 1948.

جاء في الأطروحة الأولى التي افتتح بها ماركوزه مشروعه: "انقسم العالم، بعد الهزيمة العسكرية لفاشية هتلر (كانت شكلًا مبكرًا ومعزولًا من إعادة تنظيم الرأسمالية)، إلى معسكر فاشي جديد ومعسكر سوفياتي [...]. الدول التي صمدت فيها الطبقةُ المسيطرة القديمة في الحرب اقتصاديًا وسياسيًا، سوف تصبح في المدى المنظور فاشية، في حين ستنتقل الدول الأخرى إلى المعسكر السوفياتي.

يُعادي المجتمع الفاشي الجديد والمجتمع السوفياتي أحدهما الآخر اقتصاديًا وطبقيًا، ونشوب حرب بينهما أمر محتمل. لكن كلاهما في أشكال السيطرة الأساسية معاد للثورة ويقف بوجه تطور اشتراكي [...]. في ضوء هذه الأوضاع، لا يوجد أمام النظرية الثورية إلا طريق واحد: اتخاذ موقف بلا هوادة ومن دون أي قناع في مواجهة النظامين مع التمسك بالنظرية الماركسية الأرثوذكسية إزاء كليهما من دون مساومة [...]"[14].

تطابق التشخيص السياسي الشامل مع رأي هوركهايمر وأدورنو. لكن مطالبة ماركوزه بالدفاع عن "النظرية الماركسية الأرثوذكسية"، واستخدامه للمفاهيم: اشتراكية، شيوعية، رأسمالية بلا تحيّز، كان لا بد من أن تثير استنكار مؤلفَي **شذرات فلسفية** مرتين. أولًا، لأن اعترافًا بالماركسية الأرثوذكسية لا يعرف المساومة يعني في نظر أدورنو المازوشية. وثانيًا، لأن مراكز ثقل نقد المجتمع - وفق قناعتيهما - غدت في غضون ذلك مختلفة عما هي عليه في العقيدة الماركسية.

تحاشى هوركهايمر منذ مدة طويلة حتى تعبير "نظرية نقدية للمجتمع". من أراد أن يتجنب الصعوبات، وجد بعض الأسباب لذلك في بلد أصبح فيه، على نحو متزايد، تمييز التفكير "غير الأميركي" منذ نهاية الحرب سلاحًا في التنافس بين الساسة في الولايات المتحدة الأميركية للوصول إلى السلطة. ففي عام 1945، حصلت لجنة المجلس المكلفة بالأنشطة غير الأميركية على وضعية لجنة دائمة، بعد أن كان مجلس النواب قد شكّل هذه اللجنة في الثلاثينيات بوصفها لجنةً مؤقتة، لكشف الأنشطة الفاشية وغيرها من الأنشطة الهدامة؛

(14) Herbert Marcuse, Paper vom Februar 1947, pp. 1 f.

وكان من بين أوائل رؤسائها الجمهوري مارتن دايز، لكنها كانت منذ البداية أداةً ضد حكومة روزفلت وضد ديمقراطيي "الصفقة الجديدة". حاول ترومان، الذي أصبح في 12 نيسان/ أبريل 1945 رئيسًا للولايات المتحدة الأميركية بعد وفاة روزفلت، أن يقطع الطريق على الجمهوريين بتعيينه لجنة مؤقتة مهمتها تقصي ولاء الموظفين واتخاذ إجراءات أخرى في هذا المجال. وفي آذار/ مارس 1947، طوّر ترومان أول مرة العقيدة التي سميت في ما بعد عقيدة ترومان، عندما وصف المساعدات الاقتصادية والعسكرية المقدمة من الولايات المتحدة الأميركية إلى اليونان وتركيا بأنها تدابير من أجل مقاومة الشيوعية الطامحة إلى السيطرة على العالم، فانتصر الملكيون على الشيوعية في الحرب الأهلية اليونانية بفضل مساعدة الإنكليز والأميركيين. ما رفعه ترومان إلى مقام عقيدة لم يكن إلا استمرارًا لسياسة الديمقراطيين الغربيين التي اتبعوها قبل الحرب العالمية الثانية: التسامح وتقديم الدعم لأنظمة سلطوية بوصفها الحصن المنيع في وجه الشيوعية؛ هكذا تمتعت دكتاتورية سالازار في البرتغال ودكتاتورية فرانكو في إسبانيا، باستمرار، بذينك التسامح والدعم.

أجمع المحافظون في الحزبين على كراهية أنصار الصفقة الجديدة والراديكاليين في داخل الولايات المتحدة الذين جرى التشهير بهم بنجاح كبير، بوصفهم الطابور الخامس الذي يعمل لمصلحة الاتحاد السوفياتي، والذين حاول المرء أن يثبت بمفعول رجعي أنهم لم يُظهِروا في عهد روزفلت عدمَ الثقة الكافي تجاه الشيوعية. كان أنصار الصفقة العادلة (كانت الصفقة العادلة شعار برنامج ترومان الذي كان يدعو إلى تفكيك مكتسبات الصفقة الجديدة في المجالين السياسي والاجتماعي بشكل خاص) يبغضون الاتحاد السوفياتي الذي يشكك في نشر مبادئ "الديمقراطية الأكبر في العالم" (هذا كلام الليبرالي روبرت إ. كوشمان في عام 1948)، ويظهرون استعدادهم لمحاربة هذا العدو بقيامهم، نيابةً عنه، بالتشهير بمن انتقد طريقة الحياة الأميركية داخل البلاد متهمين إياهم بأنهم شيوعيون. اتحد هذان الشكلان من البغضاء في حملة متصاعدة ضد المعارضين، لكن تلك الحملة لم تصل إلى حد الاعتقال ولا إلى التعذيب والقتل، لكنها بلغت حد القذف، ووصلت إلى التسريح من العمل، وإلى أزمات وجود وأجواء سياسية واجتماعية مسمومة.

في عام 1947، وقع شخصان من حلقة معارف هوركهايمر وأدورنو فريسة لهذه المطاردة، هما هانز أيزلر وبرتولت بريخت. كان كل منهما ضحية لمبدأ نموذجي في المطاردة: تهمة الاتصال. استدعيَ هانز أيزلر للمثول أمام "لجنة مجلس النواب للأنشطة غير الأميركية"، لأنه شقيق غرهارت أيزلر (Gerhart Eisler) الذي أوشى به اثنان من الشيوعيين المرتدين، هما لويس بودنز الناشر السابق لصحيفة *The Daily Worker* **(العامل اليومية)** والقائد الحقيقي للحزب الشيوعي في الولايات المتحدة الأميركية وشقيقته روث فيشر. قال هانز أيزلر في الاستجواب الرئيسي العلني الذي امتد من 24 إلى 26 أيلول/ سبتمبر في واشنطن أنه لم يكن يومًا عضوًا في الحزب الشيوعي، ويعتبر نفسه مؤلفًا للموسيقى وموسيقارًا، لكنه كان، في أي حال، متضامنًا مع أخيه. لم يُسمَح له بمغادرة الولايات المتحدة في آذار/ مارس 1948 إلا بفضل تضامن فنانين ومثقفين مشهورين، لكن بشرط ألا يدخل مجددًا أراضي الولايات المتحدة [...]. أما بريخت، وهو صديقٌ مقرّبٌ لهانز أيزلر، فكان، منذ أن وَشى به مهاجرٌ ألماني، تحت مراقبة مكتب التحقيقات الفدرالي، وواحدًا من تسعة عشر كاتبًا ومخرجًا وممثلًا جرى استدعاؤهم إلى واشنطن حيث استُنطقوا في "جلسة استماع" أمام "لجنة مجلس النواب للأنشطة غير الأميركية" بتهمة "تسلل الحركة الشيوعية إلى صناعة الصورة". في استجوابه في 30 تشرين الأول/ أكتوبر 1947، كرر بريخت إجابةً عن السؤال الشهير: "هل أنت الآن عضو في الحزب الشيوعي أو هل كنت كذلك؟" - مثلما أجاب أيزلر، وخلافًا لكثيرين ممن أدلوا بشهاداتهم من الأميركيين الذين كانوا يستندون إلى البندين الأول والخامس من القسم الملحق بدستور الولايات المتحدة الأميركية؛ أي إلى الحق في حرية التعبير والرأي الذي كان يفضي إلى الاتهام باحتقار الكونغرس، أو كانوا يستندون إلى حق رفض الإدلاء بالشهادة في ظل خطر الإدانة الذاتية - أنه لم ينتمِ في حياته إلى الحزب الشيوعي، ويعتبر نفسه شاعرًا (على الغرار نفسه اعتبرَ هوركهايمر وأدورنو نفسيهما فيلسوفين، الأمر الذي كان بريخت يسخر منه دائمًا). انتهى استجواب بريخت من دون أن يُوجَّه إليه الاتهام. في مساء ذلك اليوم استطاع بريخت أن يسمع أجزاءً من استجوابه في الإذاعة. كان الهدف من الاستجوابات جمع ما يكفي من "الشهادات غير المتعاطفة" للتشهير

بصاحبها بوصفه شيوعيًا أو متعاطفًا مع الشيوعيين لتسليمه إلى الرأي العام؛ وهي استراتيجية مارسها مكارثي، الذي أصبح اسمه رمزًا لتلك الحقبة، ببطش وفاعلية سياسية وعرف كيف يستفيد منها في مسيرته السياسية. بعد الاستنطاق بيوم واحد، استقل بريخت الطائرة مغادرًا إلى سويسرا، لكن رُفِض منحه تأشيرة دخول إلى المنطقة الواقعة تحت الاحتلال الأميركي في ألمانيا.

لم يشعر هوركهايمر وأدورنو اللذان يحملان الجنسية الأميركية، بخلاف أيزلر وبريخت، فعلًا بخطر الترحيل أو الاعتقال. لكنهما ازدادا حذرًا بسبب مثل هذه الحوادث. أسس توماس مان لجنة لمساعدة هانز أيزلر. في المقابل، تراجع أدورنو عن الإقرار بمشاركته في تأليف كتاب **التأليف الموسيقي للأفلام** الذي صدر أولًا باللغة الإنكليزية في الولايات المتحدة الأميركية عام 1947، لأنه - كما كتب في عام 1969 في خاتمة الطبعة الألمانية لهذا الكتاب - لم يجد سببًا يدفعه كي يصبح شهيد قضية لم تكن قضيته، ولأنه هو وأيزلر صديقان فقط لأنهما موسيقيان، وتجنبًا للنقاش السياسي.

لم يجد هوركهايمر وأدورنو السياسة التي رسمها ماركوزه لإعادة نشر المجلة جسورًا فحسب، بل وتقليدية جدًا. وعلى الرغم من المضمون اللاأرثوذكسي لملاحظات ماركوزه، إلا أنها كانت أرثوذكسية في الحقيقة في نتائجها. فلقد تكلم عن أن ظاهرة تعرّف الهوية الثقافية تتطلب النقاش حول رزمة من المشكلات - في أوساط الطبقة العمالية خصوصًا - في إطار موسع[15]، وأكد أن العبء الكامل للاستغلال يقع دائمًا على عاتق الجماعات الهامشية والغريبة، وعلى عاتق "الخارجيين" داخل القسم المنظم من الطبقة العاملة، وعلى "'غير المنتظمين'، و'العمال غير المهرة'، والعمال الزراعيين، والعمال الرحل، وعلى الأقليات، وعلى المستعمرات وشبه المستعمرات، وعلى السجناء، وغير ذلك"[16]. تطابق هذا الكلام تطابقًا كاملًا مع تصريحات هوركهايمر وأدورنو غير المباشرة، مثل قوله إن النظرية لا تتحالف مع أي جماعة مناهضة للشيوعية، ليؤكد بعد ذلك: "إن الأحزاب الشيوعية هي القوة

(15) Ibid., p. 10.

(16) Ibid., p. 8.

الوحيدة المناهضة للفاشية وسوف تبقى، وإن التنديد بها يجب أن يكون نظريًا فحسب. إنها تعرف أن تحقيق النظرية لا يمكن أن ينجز إلا بواسطة الأحزاب الشيوعية، وتحتاج إلى مساعدة الاتحاد السوفياتي ودعمه. وهذا الوعي يجب أن يتضمنه كل مفهوم من مفاهيمها. وأكثر من هذا كله، يجب أن يتغلب في كل مفهوم من مفاهيمها التنديد بالفاشية الجديدة وبالديمقراطية الاشتراكية على التنديد بالسياسة الشيوعية. إن الحرية البرجوازية للديمقراطية أفضل من التنظيم الاستبدادي؛ غير أنها اشتُريت حرفيًا عبر استغلال دام عقودًا من الزمن وعبر الحرية الاشتراكية المعوّقة"[17].

ما عاد هوركهايمر وأدورنو يتبنيان تصورات كهذه على الإطلاق. ولم تعنِ في نظرهما الاستراحة في التطور التاريخي في المقام الأول إطالة الاستغلال وترددًا في تطبيق الاشتراكية، بل اعتبراها قبل كل شيء إمكانًا للوعي والعمل على النظرية، إمكانٌ لم يعد بوسعهما تصوره في مدًى غير منظور إمكانًا نحو الأمام، بل تصوَّراه في حده الأقصى قوة دافعة باتجاه الوعي.

انتقد ماركوزه نظرية المرحلتين التي ميّزت الاشتراكية بوصفها المرحلة الأولى، من الشيوعية بوصفها المرحلة النهائية؛ فقد أثار هذا التميز الشكوك في أن التوجّه نحو ضرورة التقدم التقاني يغفل أن الرأسمالية هي التي تملك فعلًا التقانة الأفضل وأن الفرصة الوحيدة للبلدان الاشتراكية تكمن في تجربة القضاء على السيطرة، وفي الانتقال إلى الاشتراكية للمطالبة بعدئذ بالجمهورية الشيوعية والترحيب بالفوضى والتفكك والكارثة، بوصفها الطريق الوحيد للوصول بفعل حرية ثورية إلى تغيير جهاز الإنتاج المبني على السيطرة وإلى تغيير الحاجات الإنسانية. لا بد من أن يكون قد أثار رعب هوركهايمر وأدورنو هذا الدمج بالتحديد لنموذج تفكير عن تحوّل أنثروبولوجي إلى الأفضل يتفق مع تصوُّراتهما، مع المفاهيم السياسية للجمهورية الشيوعية والفوضى، والذي نشأت من خلاله صلة واضحة بين الشيوعية والفوضى، كانا يريدان فقط أن لا تُستَبعد. وفي مقابل أولئك الذين استنتجوا استحالة وجود أوضاع أفضل انطلاقًا من الأوضاع البائسة في ظل أساس صريح أو مضمر لأنثروبولوجيا متشائمة،

---

(17) Ibid., pp. 14 f.

أصرّ هوركهايمر وأدورنو على إمكان وجود أوضاع أفضل. لكنهما لم يكونا على استعداد لتسمية أي تنظيم أو تجمُّع سياسي أو اجتماعي بوصفه تجسيدًا لإمكان الأفضل، أو الاعتراف به، بل اعتمدا في البناء على أفراد.

كان من الصعب التمييز بين ما ينشأ من رؤية الواقع وما ينشأ من الحاجة إلى نقل المناقشة إلى أبعاد غير مباشرة وحادة، لأن مطلب توسيع دائرة الرؤية وتحديثها كان ملائمًا لإخفاء حقيقة التخلي عن موضوع كان ولا يزال مركزيًا، لكنه صادم ومليء بالنزاعات على نحو خاص. لم يعالج هذه الصعوبة حتى كتاب **أخلاق صغرى** الذي تضمن أيضًا وفرة من التأملات حول ضروب ضعفه الذاتي والمآزق التي بدت بلا مخرج. كان ماركوزه في لوس أنجلس في تشرين الأول/ أكتوبر 1947. لكن في النقاش حول مشروعه ظلت نقاط كثيرة من دون معالجة. ما عاد التصور المشترك لنظرية نقدية يجمع بين المنظّر "الماركسي الأرثوذكسي" للثورة التي لم تحدث وبين مؤلفي **شذرات فلسفية**. فهذا الكتاب جعل ماركوزه في حيرة من أمره إلى حد أنه لم يجد نفسه قادرًا على التعليق عليه، حتى بعد أن أرسل إليه نسخة الكتاب المنشورة في صيف 1948.

حمل دفاع ماركوزه السافر عن النظرية الماركسية هوركهايمر إلى اتخاذ موقف متحفظ ومتأرجح. وعلى نحو مشابه، كانت ردة فعل هوركهايمر على سلوك أحد رواد النظرية النقدية في ألمانيا. عُقد في فرانكفورت بين 19 و21 أيلول/ سبتمبر 1946 المؤتمر الثامن لعلماء الاجتماع الألمان، وكان أول مؤتمر يُعقد بعد عصر فايمار. وفي رسالة إلى هوركهايمر، وصف ماركوزه ما حدث في ألمانيا منذ نهاية الحرب بأنه "سوناتا الأشباح"، في إشارة منه إلى دراما أوغست ستريندبرغ. في هذا المؤتمر قدّم أيضًا علماء الاجتماع عرضًا مسرحيًا لـ"سوناتا أشباح". في اجتماع عقد في نيسان/ أبريل 1946 وقام بترتيبه ليوبولد فُون فيزه، عميد علم الاجتماع في عصر فايمار، في داره في باد غودسبرغ، أُسست من جديد الجمعية الألمانية لعلم الاجتماع، وانتُخب فون فيزه رئيسًا لها. واتفق المجتمعون على أن يكون الموضوع الرئيسي لمؤتمر علماء الاجتماع هو "مهمات علم الاجتماع في الوقت الحاضر". شهّر فون فيزه في المحاضرة الافتتاحية في فرانكفورت بالأنوية الجماعية وحب السلطة بوصفهما حماقة العصر الكبرى، ورأى أن المستقبل المثالي لعلم الاجتماع

هو في "فاتيكان عالمي": في مركز ترتبط فيه بوضوح ممارسة الإدارة العامة ونظريتها إحداهما بالأخرى، لا بد من أن تظهر "في وسط قاعة [...] على منصة عاليةٍ الألواحُ الغرانيتية للنظام العام للعمليات الاجتماعية التي ستُصحَّح تفاصيلها من حين إلى آخر"(18). لا بد من أن تحلّ هذه الرؤية، في نظره، محل النظريات التي تم تجاوزها، ومن بينها النظرية الماركسية على وجه الخصوص. شكّل برنامج فيزه الوحيد الذي لا يزال فعالًا في هذه المرحلة القطبَ التكنوقراطي الاشتراكي المقابل لواحد من أكثر البرامج التي تدور حوله المناقشات، والمتداول في ألمانيا في عامي 1945 و1946: أي برنامج **الكارثة الألمانية** لفريدريش ماينكه الذي اقترح فيه في المقام الأول تأسيس مجموعات محلية في كل مكان تكون تابعةً لجمعية غوته الثقافية.

شخصٌ واحد فقط انتقد بعنف محاضرة فون فيزه، وكان ينوي، في الحقيقة، إعداد رسالة التأهيل للأستذة حول موضوع **الماركسية وعلم الاجتماع** بإشراف فيزه: هذا الشخص هو هاينتس ماوس (Heinz Maus). هو ليس من المهاجرين، وقد درس في عام 1932 على يد هوركهايمر ومانهايم، وأصبح واحدًا من مريدي هوركهايمر المتحمسين، ثم أرسل في عام 1939 إلى هوركهايمر دراسة أولية لمشروع أطروحته حول شوبنهاور، نُشرت بعنوان **جحيم حلم الوسط الذهبي** (*Die Traumhölle des Justemilieu*) في كتاب تذكاري لمناسبة مرور 150 عامًا على ولادة شوبنهاور، وبقي على تواصل مع هوركهايمر من خلال تبادل الرسائل. دافع ماوس في فرانكفورت بوضوح عن نظرية ماركس التي تسعى جهدها لإلقاء الضوء على العملية التي "اعتدنا وصفها خطأً بأنها تصنيع"، وهذا ما فعله أيضًا هوركهايمر ومساعدوه؛ فالمرء يحيا في صراع الطبقات أكثر من أي وقت مضى. استند ماوس في ما بعد إلى هوركهايمر الذي كتب إليه يقول: إن من بين مهمات علم الاجتماع الألماني الأكثر إلحاحًا "'سوسيولوجيا الإرهاب' ابتداءً من انتقال تربية الطفل [...] وصولًا إلى مرحلة تحول الفتى اليافع إلى مجرد عضو في روابط معطاة يكون من دون حمايتها عاطلًا من العمل وبلا حقوق"(19).

(18) *Verhandlungen des Deutschen Soziologentages*, p. 35.

(19) Ibid., p. 44.

لم يعرف هوركهايمر كيف ربط ماوس اسمه باسم ماركس وصراع الطبقات؛ إذ لم يخبره ماوس إلا عن مخاوفه، أي مخاوف هوركهايمر حيال مؤتمر علماء الاجتماع التي كانت صدقيتها ستتأكد. لم تلقَ مساعي ماوس المتواصلة نجاحًا يذكر لنشر أعمال حلقة هوركهايمر التي كان هو بالذات قد ترجم مجموعة كاملة منها، من بينها، على سبيل المثال، كتاب **كسوف العقل**. لكنه استطاع أن ينشر في مجلة *Umschau. Internationale Revue* **(أومشاو، مجلة دولية)** التي صدرت بين عامي 1944 و1948 وكان ماوس يعمل محررًا فيها، مقتطفات صغيرة من **جدل التنوير**، ومقالة لبولوك بعنوان "رأسمالية الدولة"، ومقالة هوركهايمر "الفن وثقافة الجماهير". لم يكن للأمر علاقة بنفور دار النشر من النصوص النقدية أكثر من علاقته بتقسيم العمل الغريب بين ماوس الشديد الحماسة للأدب وهوركهايمر المتردد. اعتمد الناشر مور (C. B. Mohr)، الذي أصدر في عام 1933 كتاب أدورنو **كيركيغارد**، كتاب **فلسفة الموسيقى الجديدة** لينشره من دون أن يطلع مسبقًا على المخطوطة. وكان أدورنو سعيدًا بذلك. في المقابل، أخبر هوركهايمر أدورنو في رسالة بعث بها إليه في بداية عام 1949: "تكتب إليّ دار نشر روتن ولونينغ رسائل باستمرار تعرض فيها استعدادها لنشر كتب المعهد في طبعة جديدة، لكنني لم أرسل إليهم جوابًا حتى الآن، لأنني لا أريد في الوقت الحاضر أن أخوض هذا المشروع"[20].

لم يحرز هوركهايمر إلا بعض التقدم في العمل النظري الخاص به. وكما كان يتكلم سابقًا في كل مناسبة عن كتابه حول الجدل، يتكلم الآن، بعد إنهاء **شذرات فلسفية**، باستمرار عن مواصلة العمل الفلسفي. لكن عمله في هذا المجال لم يمضِ أبعد من مرحلة الملاحظات. وفي ما عدا ذلك، لم ينتِج إبان الأربعينيات، بعد **جدل التنوير**، إلا بعض الأعمال التي نشرها في مناسبات عدة، والتي لم تكن ملائمة لتُنشر مقالةً في مجلة المعهد. كان من بين هذه الأعمال، على سبيل المثال، محاضرة بعنوان "الخلفية السوسيولوجية للمقاربة التحليلية النفسية"، أُلقيت في عام 1944 في ندوة للطب النفسي حول معاداة السامية عُقدت في سان فرنسيسكو، ورثاء لـ "إرنست زيمل والفلسفة الفرويدية"،

(20) رسالة من هوركهايمر إلى أدورنو، 3 كانون الثاني/ يناير 1950.

ومقالة عن "السلطوية والأسرة اليوم" نُشرت في كتاب أشرفت على إعداده روث ناندا أنشن عنوانه **الأسرة: وظيفتها ومصيرها**، وهو نوع من مقدمة في نظرية العصابات لكتاب **دراسات في السلطة والأسرة**، توصل فيه هوركهايمر إلى نتيجة مفادها أن تفكك الأسرة يقود إلى استبدال الجماعة بالأب وإلى استعداد شمولي، ومحاضرة عن "دروس الفاشية"، ألقاها هوركهايمر في مؤتمر علمي لليونسكو عُقد في باريس في عام 1948 حول "التوترات التي تسبب الحروب".

شارك أدورنو في معظم تلك الأعمال الفلسفية، وأخذ على عاتقه متابعة العمل الفلسفي، في كتابه **أخلاق صغرى**. جاء في إهداء الكتاب، وفي الطبعة الأولى التي صدرت في ألمانيا عام 1951: "حدث هذا في مرحلة كان علينا أن نوقف عملنا المشترك بسبب الأوضاع الخارجية. يهدف هذا الكتاب إلى التعبير عن الشكر والوفاء برفض الاعتراف بالانقطاع. إنه شهادةٌ على حوار داخلي: ليس فيه موضوع لم يكن هوركهايمر طرفًا فيه، وهو شهادةٌ بأن هوركهايمر قد وجد الوقت لمتابعة الحوار".

عرض كتاب **أخلاق صغرى** حكمًا موجزةً على علاقة بكتاب **جدل التنوير** أو استمرارًا لجزء منه. لا يصح اعتبار ما جاء فيه تغييرًا في الرؤية التي تنطلق من توقع لألمانيا جديدة ومن إعادة إحياء آمال قديمة. في **أخلاق صغرى** - وهو كتاب يشبه الورقة التي أعدّها ماركوزه في شباط/ فبراير 1947 كمساهمة لأجل هوركهايمر بهدف التفاهم الذاتي حول الوضع السابق - بات جليًا مرة أخرى لماذا أراد هوركهايمر وأدورنو أن يبتعدا عن ماركوزه لا لأسباب مالية فحسب، بل ابتعدا موضوعيًا لأسباب نظرية أيضًا. تحدث ماركوزه عن التحرر من الاستغلال والاستعباد، وكان يقصد بكلامه تحرر المستَغَلين والمستعبَدين. في حين أن أدورنو عندما يتحدث عن التحرر، إنما كان يعني أولًا وقبل أي شيء آخر تحررًا من خلال رؤيته الوضع الخاص به، أي التحرر من الخوف، ومن العنف ومن مهانة التكيّف. وصف أدورنو "الوضع الأفضل" بأنه الوضع الذي "يمكن الإنسان أن يشعر فيه بلا خوف بأنه مختلفٌ عن الآخرين"[21].

---

(21) Theodor W. Adorno, *Minima Moralia*, p. 131.

حاول ماركوزه أن يُنقذ الماركسية الأرثوذكسية بوسائل طوباوية. أما أدورنو، فحاول أن يبرر لناقد المجتمع المبتعد والمنعزل. وفي حين جعل ماركوزه "الوجودي" نفسه لسان حال الاستياء ضد الظلم الاجتماعي، أراد أدورنو أن يجعل من شخصه محامي "الحياة الفلسفية" للمثقفين غير التقليديين.

يبيّن تنوع موضوعات الحِكَم أن لا شيء صغير جدًا أو مفرط، ولا شيء كبير جدًا أو يصعب فهمه، لا يمكن مثقفًا أن يُفكّر فيه، أو لا يجب عليه ذلك. فهو يؤدي دائمًا وأبدًا إلى تأملات حول المثقفين الحداثيين الراديكاليين (كي نستعمل صيغة مشابهة لتأملات أدورنو حول "الموسيقى الحديثة الجذرية"). قال أدورنو في **فلسفة الموسيقى الجديدة**، إن على مؤلف الموسيقى الطليعي أن يخلق دائمًا لغته، وأن ينجز في الوقت ذاته، بلا كلل، فنونًا بهلوانية، أي أن يقر بعدم تماسك هذه اللغة وهشاشتها في أثناء فعل التأليف الموسيقي، كي يلطف من ادعاءات لغته التي خلقها بنفسه، ويجعل منها ادعاءات مقبولة. على نحو مشابه، رأى أدورنو الوضع المفارق للمفكر الطليعي. وهذا ما جاء في الحكمة الخامسة من كتاب **أخلاق صغرى**: "تنطوي المعاشرة نفسها على ظلم بادعائها أنه ما زال بوسعنا في هذا العالم البارد أن نتكلم مع الآخرين. والكلمة الليّنة والحسنة للمخاطَب تحمل على مواصلة الصمت من حيث إن التنازلات المقدمة للمخاطَب تُقلِّل مرة أخرى من شأن المتكلم [...]. بالنسبة إلى المثقف، العزلة المقدسة هي الشكل الوحيد الآن الذي يمكن من خلاله إظهار شيء من التضامن. ليست كل مشاركة وتعاطف مع الإنسانية في المعاشرة والاشتراك إلا قناعًا يُخفي القبول الصامت باللاإنساني". وجاء في نقيضة الحكمة السادسة: "هناك خطرٌ يواجه من لا يشارك في اللعبة، وهو أن يحسب نفسه أفضل من الآخرين ويسيء استعمال نقده للمجتمع كأيديولوجيا تخدم مصلحته الخاصة [...]. إن المسافة التي نتخذها من النسق القائم هي ترف ينتجه النسق نفسه؛ لهذا السبب فإن كل حركة انسحاب تحمل ملامح ما تنفيه. البرودة التي ينبغي لها تطويرها لا يُمكن التمييز بينها وبين البرودة البرجوازية [...]، والوجود الخاص في سعيه إلى الاقتراب من الوجود الذي يليق بالإنسان، يخون هذا الأخير، لأن ذلك الاقتراب يتنافر مع التحقق الكلي الذي يحتاج الآن أكثر من ذي قبل إلى التأمل المستقل". رأى أدورنو أن السلوك

الوحيد المسؤول في هذا الوضع هو "الامتناع عن سوء الاستعمال الأيديولوجي للوجود الخاص، وفي ما عدا ذلك أن يتصرف بتواضع من دون أن يلفت النظر ودونما تكلف، ليس بالنشأة الحسنة التي ما عادت موجودة، بل بالحياء من أنه لا يزال يوجد هواء للتنفس في هذا الجحيم"، ومحاولة إيجاد طريقة للعرض تعبّر عن الورطة الخاصة "من خلال السرعة، والزحام والكثافة، وعدم الالتزام أيضًا".

أكد **أخلاق صغرى**، كتاب أدورنو الذي يقابل كتاب **الفجر** لهوركهايمر، أن من بقوا في حلقة هوركهايمر رأوا أنفسهم مجموعة مثقفين غير تقليديين، وأشخاصًا غير تقليديين اجتماعيًا[22]، ووقفوا في وجه من كانوا لااجتماعيين تقليديين، وتوجهوا إلى أفراد "مهذبين"، كي نستفيد من تعبير كان هوركهايمر وأدورنو يستعملانه بسرور في سياق غير نظري. لم يترتب على ذلك تخلٍّ مبدئي عن تحليل اجتماعي شامل متعدد الاختصاصات؛ إذ كان معنى مشروع كهذا مستقلًا عما إذا كان المرء يشعر بالوقوف إلى جانب طبقة ثورية أو لا يشعر.

أما مشروع معاداة السامية الذي كان قد فُكّر فيه ذات يوم لإنقاذ المعهد، ثم أصبح الموضوع الرئيسي الذي دفع بكل شيء آخر إلى الخلف، وتجاوز تحقيقه طاقة من تبقى في المعهد بمن فيهم هوركهايمر وأدورنو، فقد تطور الآن إلى نوع من الخيبات والنجاحات التي نظر إليها الاثنان بمشاعر متقلبة دائمًا. في منتصف عام 1945، كان هوركهايمر قد اجتاز شوطًا في تنفيذ المشاريع الفرعية المختلفة، حيث اعتقد أن بإمكانه أن يعود إلى لوس أنجلس وألا يسافر بعد ذلك إلا بين الحين والآخر لإقامات قصيرة في نيويورك. في ما عدا ذلك، كان يأمل أن يستطيع في لوس أنجلس مواصلة العمل الفلسفي مع أدورنو، إلى جانب عمله في مشروع معاداة السامية.

رافق نشاط هوركهايمر التنظيمي العلمي، في غضون ذلك، صعوبات جمة. ففي خريف 1945، انضم صامويل فلاورمان - وقد كان سابقًا عالم نفس وأستاذًا جامعيًا، وأصبح في ما بعد مديرًا تنفيذيًا للجنة العلاقات لدى الجماعة

(22) Ibid., p. 121.

اليهودية في نيوآرك - إلى قسم البحث العلمي التابع للجنة اليهودية الأميركية. بعد أن أخلى هوركهايمر منصب رئاسة قسم البحث العلمي لفلاورمان، نشبت بين الاثنين نزاعات ترتبط بحدود الاختصاصات.

وجد هوركهايمر في شخص السيدة ماري ياهودا التي كانت تعمل مع فلاورمان حليفًا سوف يصون بحرص - كما عبّر في رسالته إليها - "في وظيفة ضابط ارتباط" ما حاول هو أن يستدعيه إلى الحياة. غير أن ياهودا سرعان ما وجدت نفسها وقد وقعت في أزمة ولاء. وأخبرت هوركهايمر في رسالة شخصية بعثت بها إليه، أنها تقدّره بوصفه فيلسوفًا، وأنها لا تعرف أحدًا قدّم أفكارًا جديدة وثاقبة حول إشكالية معاداة السامية مثل الأفكار التي قدمها هو. لكنها، في حال طَلب منها في الأيام المقبلة جون سلاوسون مثلًا، نائب رئيس اللجنة اليهودية الأميركية، أن تبدي رأيها في مشروع الفيلم الذي يريد هوركهايمر أن يعمل عليه، فهي ستشهد بأمانة "أن تجربة من هذا النوع بما تتطلبه من إحاطة واسعة بهذا الموضوع ليست مجال عمله"[23].

أصاب كلام ياهودا هوركهايمر في موقعَين حسّاسَين: أولهما في ادعائه أنه، بوصفه منظّرًا، معلم أيضًا في البحث التجريبي بطريقة غير تقليدية؛ وثانيهما في ادعائه أنه، على الرغم من تسليم إدارة قسم البحث العلمي إلى فلاورمان، لم يُخفَّض منصبه إلى وظيفة كبير مستشاري الأبحاث، يقدم مجرد أفكار واقتراحات غير ملزمة حول المشاريع التي تهمّه. فأجاب هوركهايمر على رسالة ماري ياهودا بحدة:

"الاختلاف بيننا في مسائل أكاديمية بدهي مثل الاختلاف بين المنطق الهيغلي و'زيّ عمل مرتّب نُظِّفت قذارته الفلسفية'. في مجال ما يُسمى 'البحث'، قد يكون مثل هذا التناقض مثمرًا، بقدر ما تمثلين أنتِ موقف البحث بذكاء واستقامة، في حين أسعى أنا جاهدًا، ربما ليس بذكاء واستقامة، كي أضفي عليه معنًى. لكن هذا كله مستحيل إذا كنتِ تُلْقين عليّ محاضرة وتتخذين في الوقت نفسه وضعية المساعد في علم الاجتماع الحديث - تلك الوضعية التي يشكو منها منذ زمن طويل ذوو النظرة البعيدة - الذي يجب عليه أن يقيّد نفسه بأدواته

---

(23) رسالة من ياهودا إلى هوركهايمر، نيويورك، 21 تشرين الثاني/ نوفمبر 1945.

الدقيقة-الزائفة إذا كان لا يريد أن يطرده زبائنه، ولا يريد استيعابها بحرص فحسب [...] بل يريد أن يرفع من شأنها لكِ بالذات ولي لأنها تمثل نزاهة فكرية ومسؤولية واستقامة"[24].

لم يصل هوركهايمر إلى حل فعلي للخلاف بين لوس أنجلس ونيويورك، بين المصلحة بدراسات ضخمة طويلة الأمد وذات توجه نظري والمصلحة بدراسات نتائجها سريعة وموثوقة منهجيًا. أصبح فلاورمان، بفضل وساطة لازارسفلد، لاحقًا مسؤولًا عن البحث القصير الأمد وهوركهايمر مسؤولًا عن البحث الطويل الأمد. لكن العلاقة المتوترة بين هوركهايمر وفلاورمان، بين لوس أنجلس ونيويورك استمرت حتى النهاية، لأن تنسيق المشاريع الطويلة الأمد كان يتم أيضًا في نيويورك التي لم يكن هوركهايمر يزورها إلا نادرًا، ولأن مقر دار النشر التي تُنشَر فيها نتائج الدراسات الفرعية المكتملة يقع في نيويورك أيضًا.

قُسّم مشروع معاداة السامية إلى أقسام مستقل بعض عن بعضها إلى حد بعيد، وجرى العمل عليها بوصفها دراسات. أُهمل تمامًا المخطط لإنجاز عمل شامل حول معاداة السامية الذي توقع هوركهايمر منه فائدة كبيرة للمعهد، وكان يجب أن يجمع المرحلتين الأولى والثانية من المشروع مع مختلف المشاريع الجزئية. وحلّت بديلًا عنه فكرة سلسلة دراسات فردية. انتهى دور هوركهايمر ككبير مستشاري الأبحاث في اللجنة اليهودية الأميركية في عام 1947، لينصبّ اهتمامه بعد ذلك في المقام الأول على نشر النتائج وتأكيد أن دور المعهد والباحثين المشاركين فيه قد نال الاعتراف الذي يستحق.

في نيسان/ أبريل 1948 أبحرت السفينة "كوين ماري" من نيويورك باتجاه أوروبا، وعلى متنها هوركهايمر الذي أراد أن يقيم هناك بضعة أشهر. فلقد حصل على منحة للعمل كأستاذ زائر في جامعة فرانكفورت من مؤسسة روكفلر، أي من تلك المؤسسة التي كانت توظف، بحسب معاييرها، جزءًا من فائض أقدم الاحتكارات الرأسمالية في الولايات المتحدة الأميركية وأكبرها لإفساد الروحَ والثقافة. رسميًا سافر هوركهايمر إلى أوروبا بصفته مواطنًا أميركيًا، وكان هدفه

(24) رسالة من هوركهايمر إلى ياهودا، 28 تشرين الثاني/ نوفمبر 1945.

المساهمة في التنوير الديمقراطي للشعب الألماني وفي إعادة تثقيف الشباب الألمان ومعلميهم، التثقيف الذي ما عاد يجري عبر الرقابة والإدارة، لكنه يعطي الأسبقية لأنشطة المواطنين الأميركيين في ألمانيا، كما كان الحال سابقًا. وكما تعرّف هوركهايمر الوضع في الولايات المتحدة الأميركية في عام 1934، أراد الآن أن يتعرّف الوضع في أوروبا، وفي فرانكفورت على وجه التحديد. أراد أن يثبت حقوق ملكية المعهد في ألمانيا وسويسرا (حيث لجأ والداه قبل العهد النازي، وتوفيا هناك). أراد - كما كتب إلى ماركوزه الذي سعى طويلًا مع نويمان لمساعدة هوركهايمر في القدوم إلى ألمانيا بتسويغ رسمي - أن يرى إن كان "يوجد في أوروبا بعض الطلبة والمثقفين الذين يمكن أن يمارَس عليهم تأثير دائم بالمعنى الذي نريده"[25]. وأخيرًا، البحث عن مكان "يستطيع المرء أن يباشر فيه، بدخل متواضع للغاية، حياةً ميسّرةً"[26]، مثلًا في شمال إيطاليا أو في جنوب فرنسا، لمتابعة العمل الفلسفي بتركيز هناك.

وكتب هوركهايمر إلى أدورنو المقيم في لوس أنجلس قبل إقلاع الباخرة من نيويورك: "سوف يقوم فلاورمان بكل ما في وسعه كي يسلب من المعهد ثمار عمله، وعليك أن تعمل كل ما بوسعك لمنع حدوث ذلك ودفع المشروع قدمًا إلى الأمام"، وختم هذا الأمر في رسالته بعبارة تميّز كليهما: "إن لم تنجح، فسوف أعرف عندئذ أن الحظ لم يحالفك، وأننا سوف ننصرف عندئذ إلى أشياء أكثر أهمية"[27]. وقد سافر هو أيضًا إلى ألمانيا واعيًا، قبل أي شيء آخر، أهمية أن لا يدع فرصةً إلا ويستغلها لتوفير الشروط المثالية لعملهما الفلسفي وتحرير ذاته من الشعور بأنه فوّت فرصة ولم يستفد منها. كانت هذه هي اللعبة القديمة: أن يضع نصب عينيه تصوُّر أن يستطيع العمل، إن لزم الأمر، حتى من دون معهد، ومن دون تواصل مع طلبة أو جمهور أو مؤسسة، في عزلة حياة المثقفين المتواضعة؛ وأن يتمكن بهذا التصور، قدر المستطاع، من إنشاء مؤسسة علمية، والحصول على الضمانة والتأثير والاعتراف.

---

(25) رسالة من هوركهايمر إلى ماركوزه، 28 شباط/ فبراير 1948.

(26) المرجع نفسه.

(27) رسالة من هوركهايمر إلى أدورنو، 25 نيسان/ أبريل 1948.

بعث هوركهايمر برسالة من زوريخ إلى أدورنو وزوجته في أيار/ مايو يخبرهما بأنه قام حتى الآن بزيارة بلدين، فرنسا وسويسرا. وجاء في الرسالة: "لا يزال بإمكان المرء أن يفكر بأنه يستطيع العيش بفقر هنا من دون أن يهلك. حتى لو لم يمضِ شيء مما حدث هنا من دون أن يترك آثاره، وحتى لو بقي التهديد برعب جديد قائمًا بصورة دائمة أيضًا، فسيتم تجاوز تصوراتنا عن الإنسانية التي غرقت في الموضوعي من خلال ما نختبره مباشرة"[28].

بعد بضعة أيام، قام هوركهايمر بزيارته الأولى إلى جامعة فرانكفورت، فأخبر زوجته: "رحّب بي رئيس الجامعة والعميدان وآخرون ترحيبًا معسولًا ومراوغًا ومرتبكًا، وأبدوا لي كل احترام. لم يعرفوا بدقة بعد إن كان عليهم أن يروا فيّ زائرًا ذا نفوذ نسبي قادمًا من أميركا أم أخًا لضحاياهم الذين يعني التفكير فيهم امتلاك ذاكرة. عليهم أن يختاروا الاحتمال الثاني"[29].

كان انطباع هوركهايمر صائبًا. ففي تشرين الأول/ أكتوبر 1946، دعا القائم بأعمال مجلس إدارة جامعة فرانكفورت ومستشار وزارة التعليم العالي كلينغلهوفر، باسم الجامعة، رسميًا معهد البحث الاجتماعي إلى العودة إلى فرانكفورت. وأُرفقت الرسالة بدعوة أخرى من عمدة مدينة فرانكفورت، الاشتراكي الديمقراطي فالتر كولب (Walter Kolb). استعلم فليكس فايل في رسالته الجوابية إن كانت جمعية الأبحاث الاجتماعية قد سُجِّلت تلقائيًا في سجل الجمعيات، وإن أعاد المالك تسجيل قطعة الأرض العائدة إلى المعهد القديم تلقائيًا إلى الجمعية، كما سأل إن كان ما تبقى من مكتبة المعهد سيُردّ إليه. كانت هذه أمور يمكن توقعها بصورة طبيعية، وكان فايل يريد لو استطاع أن يضيف - بوجه حق - المزيد إلى القائمة. في النهاية، كانت جميع تلك العمليات، ابتداءً من شطب اسم الجمعية من سجل الجمعيات وصولًا إلى إلغاء جنسية أعضاء المعهد، غير قانونية، وأن المسار الطبيعي يقضي بوجوب إعادة كل شيء إلى ما كان عليه تلقائيًا ما دام الأمر بيد سلطة الإدارات والمؤسسات الأخرى الألمانية. لكن في تلك الأثناء لم يحدث شيء من هذا القبيل. في أي

(28) رسالة من هوركهايمر إلى أدورنو، 21 أيار/ مايو 1948.

(29) رسالة من هوركهايمر إلى مايدون هوركهايمر، 26 أيار/ مايو 1948.

حال، لم تكن دعوة الجامعة صادقة؛ إذ إن كلينغلهوفر الذي وقّعها كان هو نفسه الذي وقّع في آذار/ مارس 1938 المرسوم الذي بموجبه أمرت وزارة الثقافة بتوزيع كتب معهد البحث الاجتماعي. جاءت التوصية بعودة المعهد إلى جامعة فرانكفورت من الأستاذ فيلهلم غرلوف، وذكر فيها "إمكانات كبيرة جدًا" كانت تحت تصرف جمعية الأبحاث الاجتماعية. علمًا أن غرلوف كان قد وقّع في عام 1933، بوصفه رئيس جامعة فرانكفورت، الإعلان عن فصل المعهد عن الجامعة.

ألحّ هوركهايمر نفسه، في أثناء إقامته الأولى في فرانكفورت، بجدية على إعادة تأسيس جمعية الأبحاث الاجتماعية، وعلى تجديد حقوق المعهد. كما حرّض على تشكيل لجنة لإعادة تأسيس معهد فرانكفورت. لم يقصد التباهي بما يفعله، بل أراد أن يكون ما يعمله مخجلًا - أو هكذا يجب أن يكون في أي حال - لأولئك الذين كانوا يعبّرون ظاهريًا عن أسفهم بأن مهاجرين كثرًا لم يعودوا إلى الأذرع المفتوحة التي كانوا يزعمون أن ألمانيا تمدّها نحوهم، في حين أن هؤلاء المهاجرين كانوا يحتاجون بالفعل إلى عروض مقبولة تحفزهم على العودة.

في أيار/ مايو 1948، كتب هوركهايمر رسالةً إلى زوجته جاء فيها: "يجب أن يتخذوا القرار الأخير"، أي تحديدًا أن يأتي بوصفه أخًا لضحاياهم، وتكون أفكارُه ذاكرَته. بعد أقل من شهر، عاد وكتب إليها: "تجري الآن عملية التطهير من النازية بحق رئيس الجامعة السيد بلاتسهوف. وقد كتب إليّ رئيس المحكمة أنه سمع بوجودي هنا، وهو يرجوني أن أمر به لأساعده في هذه القضية. سأتريّث وأفكر مليًا في ما إذا كان يجب عليّ، بوصفي الشاهد الوحيد الحقيقي، أن أعادي الجامعة بشهادتي هذه. قد ينال المرء تكريمًا من جراء أمور كهذه، لكنه لا يحصل على أي منفعة. من المؤكد أن هناك خنازير كثرًا تمامًا مثل السيد بلاتسهوف، ويعملون ثانيةً منذ زمن في تربية الشبيبة الألمان"[30].

---

(30) رسالة من هوركهايمر إلى مايدون هوركهايمر، فرانكفورت، فندق كارلتون، 20 حزيران/ يونيو 1948.

ألقى هوركهايمر دروسًا وعقد حلقات بحث في كلٍ من فرانكفورت وميونيخ وشتوتغارت وماربورغ ودارمشتات؛ لم يرفض يومًا دعوة إلى إلقاء محاضرات أو إلى مشاركة في اجتماعات. وقد وصف ملخص عمله المؤقت بما يلي: "حينما يعمل المرء قصارى جهده ولا تضلله أيضًا الخيبات الكبيرة، سيكون بمقدوره أن يتشارك مع بعض الأشخاص في ألمانيا اليوم ما ينبغي الحفاظ عليه على مدى الليل التاريخي الذي مرّ على ألمانيا. إن المخاطر هنا أكبر مما هي عليه في أي مكان آخر على وجه المعمورة. لأجل ذلك، لا يكاد يوجد مكان أكثر أهمية في هذه اللحظة من ألمانيا. عندما تنطفئ فيها البقايا الأخيرة للحياة الروحية بالكامل، يضيع ما كان يجب أن يبقى في العالم. أعتبرُ ألمانيا، في ما يتعلق بماهية عملي، ميدانًا ستُتخذ فيه أهم القرارات. إذا لم تنجح الجهود في إجهاض ردة الفعل المرعبة التي بدأت تترسخ في ألمانيا، سواء بمساعدة العناصر الواعية، أو على الأقل بمساعدة العناصر التي لا تزال مترددة، عندئذ سوف تعتمد الدول الغربية سياسة معادية لروسيا في أوروبا، مع ما يرافقها من اندفاع شعبي قوي ومعاد للسامية"[31].

في باريس شارك هوركهايمر في مؤتمر عنوانه "التوترات المؤثرة في التفاهم الدولي". استمر المؤتمر مدة أسبوعين، ودعت إليه اليونسكو ثمانية علماء اجتماع (كان من بينهم غوردون آلبورت وجورج غورفيتش وهاري ستاك سوليفان). تضمنت مساهمته التي حملت عنوان "دروس من الفاشية" مقاطع تعبّر بكلام وجيز عن مرارة نصوصه الألمانية في العشرينيات والثلاثينيات. "على الرغم من أن المحاكم قد أصدرت أحكامها في حق كبار المجرمين، وأُعدم البعض منهم، فإن أغلبية الألمان الذين تعاطفوا مع النازية هم اليوم في وضع أفضل بكثير من وضع أولئك الذين أبقوا أنفسهم بعيدين عن الفاشية. يصح هذا الكلام إلى حدٍ يمكن معه القول بوجه حق إن مأساة حملة التطهير من النازية قد حققت عكس ما كان يتعيّن أن تحققه (تمامًا مثل 'قانون حماية الجمهورية' في عهد فايمار). مَن تعاونَ مع النازيين بات بمقدوره أن يسرّع إجراءات التطهير من النازية، وأن يدفع غرامة مقدارها بضعة آلاف

(31) رسالة من هوركهايمر إلى ياهودا، باريس، 5 تموز/ يوليو 1948.

من الماركات التي لا قيمة لها، ويعود فورًا إلى الموقع الوظيفي القديم الذي كان يشغله. قلةٌ منهم فقط، ممن تمتعوا بقوة أخلاقية كافية وخاطروا بحياتهم عندما وقفوا بوجه الحزب، يشغلون اليوم مناصب حكومية أو وظائف أكاديمية.

ما الذي تعلّمه الأوروبي العادي للمستقبل من العلاقات السائدة بعد الحرب في ألمانيا المحتلة؟ كان عليه أن يتوصل إلى قناعة أنه ليس من الذكاء الوقوف في القمة في المراحل التي تسود فيها التوتاليتارية، وأنه من الحكمة ومن الأفضل أيضًا أن يكون من المتعاطفين معها، وأن المشاركة في أشد الفظائع قد تكون خطرة، لكن لا خطر البتة من ارتكاب جرائم صغيرة"[32].

اشتكى هوركهايمر بحذر أكبر، متجنبًا مفاهيم مثل الرأسمالية والشيوعية، مما اعتبره الخطر الداهم، الذي كان توماس مان قد انتقده في أوقات الحرب مرارًا وتكرارًا بوصفه الحماقة الرئيسية للعصر، ألا وهو خداع العالم البرجوازي من خلال الخوف من الشيوعية. "التناقض بين الشرق والغرب الذي سمح لمعتدي الأمس أن يكبر ويدمر، هو اليوم مرة أخرى إغراء قوي لرجالات الدولة يحملهم على النظر إلى الأمور من هذا المنظور وحده، ويجعلهم يُغمِضون أعينهم عن أمور أخرى تهدد السلم في العالم"[33].

جمع وصف هوركهايمر لهذا الخطر الآخر الموضوعات الرئيسية للنظرية النقدية الجديدة التي كانت فكرتها المركزية القبضة المباشرة للجماعي على الأفراد الذين لم يعودوا أفرادًا البتة. إلا أن دفاع الفرد ضد الجماعة، على الرغم من أنه كان يستهدف جدًا الدول الرأسمالية، خصوصًا في نقد الصناعة الثقافية، تطابق على نحو ممتاز مع الصورة التي رسمتها الولايات المتحدة الأميركية عن نفسها. وفق هذا، كانت الديمقراطية الأميركية تعني التطوير الفعال للفرد على عكس النزعة الجماعية المسيطرة في الفاشية والشيوعية.

---

(32) ورد في الترجمة الألمانية لمقالة "دروس من الفاشية" ("Lehren aus dem Faschismus")، في كتاب: *Gesellschaft im Übergang*, p. 56.

(33) Ibid, p. 57.

الذي لا يريد أن يتكلم على الرأسمالية، عليه أيضًا أن يسكت عن الكلام على الفاشية. هذا ما كتبه هوركهايمر في عام 1939 في مقالته "اليهود وأوروبا". هو نفسه ما عاد يتكلم الآن على الرأسمالية، ويعود ذلك في الدرجة الأولى إلى اعتبارات تكتيكية. يقول: إذا انتقد أحد الرأسمالية، لن يكون لديه فرصة للحصول على رضى مراكز الإدارة الأميركية وتشجيعها اللذين كانا ضروريين كي يستطيع بوصفه مواطنًا أميركيًا العمل في ألمانيا أو تأسيس معهد إن اقتضى الأمر (كان مصير مجلة *Der Ruf* (**النداء**) التي أسّسها هانز فرنر ريختر وألفرد أندِرش، وحظرت حكومة الاحتلال الأميركي صدورها في عام 1947 بسبب تصوراتها "العدمية" عن الديمقراطية، مجرد مثال من بين أمثلة كثيرة تُظهِر مدى ضيق الحدود التي وضعتها السلطات الأميركية، لا بل كانت تشجعها أيضًا. كذلك مُنعت روايات وليام فوكنر (William Faulkner) التي وصفت سقوط العائلات الأرستقراطية القديمة في دول الجنوب وصعود ذوي الضمائر الحية الذي نجحوا في الوصول إلى السلطة، عند عرضها قبل النشر على لجنة في واشنطن مختصة بشؤون ألمانيا، لأنها تقدم - كما قيل - صورةً سلبية جدًا عن المجتمع الأميركي). أجريت على كتاب **شذرات فلسفية** الذي أصدرته دار نشر كويريدو في أمستردام، وبات متوفرًا في الأسواق في عام 1948 بعنوان **جدل التنوير**، تعديلات "صغيرة" كثيرة مقارنةً بالطبعة المنسوخة على الآلة الناسخة الصادرة في عام 1944. استبدل أدورنو عبارة "النظام الرأسمالي" بعبارة "ما هو قائم" (الطبعة المنسوخة ص 209/ طبعة كويريدو ص 200) وعبارة "رأس المال" بعبارة "النظام الاقتصادي" (214/ 205)؛ وعبارة "المصاصين الرأسماليين" بـ "فرسان الصناعة" (216/ 207)، وأحل محل "مجتمع طبقي" كلمة "حكم" أو "نظام" (209/ 201؛ 213/ 205) ومحل "الطبقات المسيطرة" كلمة "الحكام" (213/ 205). كما أسقط جملة "هذا يمكن أن يكون مجتمعًا لاطبقيًا" (208/ 200). لم يكن هذا النوع من الرقابة الذاتية غريبًا على الإطلاق، بل جزءًا من تقليد المعهد. لكنه كان عملية متقدمة. وهنا يتساءل المرء إن كان التفكير في وقتٍ ما يُدفَع في اتجاه خاطئ أو تُحرَف وجهته من تحليل معمق لعناصر ورؤى كانت تعتبر مركزية وهي لا تزال في الواقع مركزية. وقد ضخّم هذا الخطر وزاد منه التخلي الدائم عن زملاء يعملون

في المجالين السياسي والاقتصادي. كان نشر أجزاء من فصل صناعة الثقافة من كتاب **جدل التنوير** في مجلة *Umschau* **(أومشاو)** في عامي 1947 و1948 ظاهريًا السبب الذي دفع أدورنو لأن يكتب إلى هوركهايمر المقيم في أوروبا: "أعتقد أن مادّتنا حول صناعة الثقافة تمارس تأثيرًا قويًا بصورة خاصة، وقد أمعنت التفكير كثيرًا في الثغرة التي يجب سدها بحيث يتعين علينا أن نقدم فعليًا نظرية اجتماعية ملزمة وقطعية للمركّب الكلي. أشعر أننا جاهزون اليوم"[34].

لمّا عاد هوركهايمر إلى الولايات المتحدة الأميركية، كان يفكر في إمكان أن يبني "المركز الألماني" من دون أن يتخلى عن "المركز الأميركي". وجد ماركوزه في توليفة تجمع بين منصب أستاذ كرسي في ألمانيا مع المحافظة على الجنسية الأميركية الإمكانية لتأسيس فرع في فرانكفورت لمنظمة أميركية. لكن بدا ذلك صعبًا، لأن الحكومة العسكرية كانت قد كُلّفت في غضون ذلك ببرنامج إعادة التثقيف والتوجيه. تحققت عبر الإصلاح النقدي في حزيران/ يونيو 1948 خطوة مهمة لإرساء الرأسمالية في ألمانيا الغربية. وفي الخريف وصلت إلى ألمانيا أولى دفعات خطة مارشال، تلك الدفعات التي لم تكن لها أهمية على الصعيد الاقتصادي، لكنها كانت تمثل رمزًا آخر لإحلال معاداة الشيوعية محل معاداة الفاشية ولربط ألمانيا الغربية بالمعسكر الغربي. وكان تصدير الفكر الأميركي - تحت عنوان الشراكة الاقتصادية والعسكرية - لا يزال شأنًا قوميًا يستحق التشجيع. منذئذٍ اتبع هوركهايمر استراتيجية بناء مركز في ألمانيا يكون بمثابة مركز أمامي لمعهد أميركي، يشكل جسرًا بين الولايات المتحدة الأميركية وألمانيا المعتمدة في شتى المجالات على المساعدات الأميركية.

في ربيع وصيف 1949 سافر هوركهايمر مجددًا إلى فرانكفورت، هذه المرة برفقة بولوك. ثم سافر مع عمدة فرانكفورت الاشتراكي الديمقراطي فالتر كولب لإجراء مباحثات مع الوزارة في فيزبادن، أسفرت عن تعيينه مجددًا في كرسي الفلسفة الاجتماعية. إلى مائدة العشاء في نادي التجارة والصناعة والعلوم، ناقش هوركهايمر وبولوك مع كولب خطتهما لتأسيس فرع

(34) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 1 تموز/ يوليو 1948.

لمعهد نيويورك في فرانكفورت. وفرعٌ كهذا لمعهد أميركي سوف يجعل من فرانكفورت مركزًا للبحث الاجتماعي الحديث ويربط علوم الاجتماع الألمانية بأكثر الأبحاث والتقنيات تقدمًا في هذا المجال.

قطع المعهد في عام 1946 العلاقة بجامعة كولومبيا، في الوقت الذي كانت الجامعة تسعى إلى تعزيز هذه العلاقة بعد انتهاء الحرب، وقد أشير إلى المشكلات الصحية التي كان يعاني منها هوركهايمر كسبب لذلك. في وقت مبكر من عام 1944، سلَّم من بقي من أفراد المعهد المبنى الواقع في شارع 117 الذي كان قد وضع تحت تصرُّفه في عام 1934 للأسطول الأميركي، وانتقل إلى بضعة مكاتب في مبنى في حي مورنينغ سايد. كان من المفترض أن يُمكّن فك الارتباط بجامعة كولومبيا المعهدَ، في النهاية، من ألا يدفع إلا أقل النفقات لمكتب في نيويورك (هذا المكتب الذي كان يقوم بعد ذلك، بحسب الحاجة، بوظيفة المقر الرئيسي للمعهد مع ارتباط بجامعة كولومبيا)، ويمكّنه في لوس أنجلس أيضًا من إيجاد علاقة بواحدة من جامعات كاليفورنيا. لكن لم تقم قط أكثر من علاقات هشة بقسم أو بآخر. بدلًا من ذلك، نجح مديرو المعهد في عام 1949 في جمع أسماء أكاديمية لامعة، علماء اجتماع على وجه الخصوص، للتوقيع على نداء يدعو إلى إعادة تأسيس معهد البحث الاجتماعي في جامعة فرانكفورت، كمعهد شقيق للمعهد الرئيسي في نيويورك. في تشرين الأول/ أكتوبر، نُشر هذا النداء في *American Sociological Review* (**المجلة الأميركية لعلم الاجتماع**)، وهي المجلة الرسمية لجمعية علم الاجتماع في الولايات المتحدة الأميركية. وبذلك أُتيحت إعادة إنتاج الحالة القديمة في فرانكفورت - التوفيق بين منصب أستاذ ذي كرسي ومعهد ملحق بالجامعة - من دون التخلي عن المركز في الولايات المتحدة الأميركية.

حاز نشر الأقسام الكاملة لمشروع معاداة السامية، التي انتهى العمل عليها تحت العنوان العام "دراسات في التحيز"، أهميةً استراتيجية راهنة. كان هذا النشر ملائمًا ليخدم في ألمانيا كدليل على إنجازات المعهد وعلى مركزه القوي في الولايات المتحدة. كان أدورنو وهوركهايمر يودّان رؤية اسم المعهد مذكورًا على صفحة العنوان لدراسة بيركلي، بحيث يمكن تقديم هذه الدراسة

بوصفها عملًا جماعيًا للمعهد (تمّ بالتعاون مع مجموعة بيركلي لدراسة الرأي العام). لكن لا بد من أنهما كانا راضيَين؛ إذ ظهر اسم أدورنو على رأس قائمة المؤلفين، بينما كتب هوركهايمر بوصفه مدير المعهد مقدمة المجلد الرئيسي من "دراسات في التحيز". يضاف إلى ذلك أنه إلى جانب مسألة إنتاج نسخة مبسطة ومكثفة من السلسلة الكاملة أو على الأقل من دراسة بيركلي، اكتسبت فكرة إصدار طبعة ألمانية للسلسلة أهمية خاصة في الوضع الحالي.

عندما حل الفصل الدراسي الشتوي، أرسل هوركهايمر أدورنو ممثلًا له إلى فرانكفورت لأنه شعر بعدم القدرة على السفر. أثّر اللقاء الأول بأوروبا في أدورنو أكثر بكثير من هوركهايمر، فكتب إليه من باريس: "العودة إلى أوروبا أثّرت فيّ بعنف، ولا تسعفني الكلمات في وصفها. جمال باريس يضيء من خلال الفقر الذي يلامسني أكثر من أي وقت مضى [...]. ما تبقّى هنا قد يكون مدانًا تاريخيًا، ويحمل آثار هذه الإدانة بوضوح كافٍ، لكن **حقيقة** أن يكون لا يزال موجودًا، أي التفاوت الزمني نفسه، هو جزء من الصورة التاريخية ويخفي أملًا ضعيفًا في أن شيئًا إنسانيًا بقي وصمد على الرغم من كل شيء"[35].

عندما وصل أدورنو إلى فرانكفورت في مطلع تشرين الثاني/نوفمبر 1949، كان قد بلغ السادسة والأربعين من العمر. لم يتبقَّ من أبويه بعد فرارهما إلى الولايات المتحدة الأميركية في أوائل الأربعينيات على ظهر سفينة عبر كوبا، إلا والدته التي تعيش وحدها في نيويورك. جاء أدورنو بوصفه ممثل هوركهايمر، وبوصفه شخصًا لم يحصل على منصب أستاذ في بلد الهجرة، ولا يستطيع الوقوف على قدميه، بل وضع نفسه وموهبته كليًا في خدمة هوركهايمر والمعهد.

عندما اقترحه هانز غيورغ غادامر (Hans-Georg Gadamer) الذي كان قد قَبِل الأستاذية في هايدلبرغ، ليكون خلفه في الكرسي الوحيد للفلسفة، كان أدورنو متأثرًا من إمكان أن يرأس التعليم الفلسفي في فرانكفورت إلى جانب هوركهايمر. كتب إليه هوركهايمر بعد سماعه الخبر: "أهنئكم وأهنئ أنفسنا بالنجاح الذي سجلتموه في إطلالتكم الأولى، وأنا على يقين تام بأن الأمور

(35) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 28 تشرين الأول/أكتوبر 1949.

ستسير نحو الأفضل أيضًا. إذا تمكنّا من الحصول على منصب الأستاذية هذا، فهذا يعني تحقق الحلم الذي كنا نعتبره قبل بضع سنوات ضربًا من الوهم. وهذا سوف يخلق الوضع الفريد الذي يحصل بموجبه شخصان مثلنا مضيا في اتجاه معاكس للواقع، ولهذا السبب ظهرا في حال من العجز كما لو أنه قدرهما، على مجال تأثير لا يمكن التكهن بمدى أهميته. إذا امتلكنا تحديدًا منصبي أستاذ بدلًا من منصب واحد، ينقلب الكم حقيقة إلى نوع؛ إننا نحصل في الواقع على مركز سلطة. أنا لا أعني، كما يفعل الحمقى دائمًا، أن بمقدورنا أن نغير اتجاه الحركة كله. وإذا قُدّر لفاشية جديدة أن تظهر، فستظهر؛ وإذا جاء الطوفان الكبير، فلن نشكل سدًّا منيعًا في مواجهته أيضًا. لكن الرؤية التي يكتسبها ارتباطنا في ترتيب كهذا لن تبقى بلا أهمية بالنسبة إلى كلينا كأفراد. إنها سوف تشدد على أهمية عملنا النظري، وإنني على يقين اليوم أكثر من أي وقت مضى بأننا سوف ننجز، إذا كانت الشروط ملائمة نوعًا ما، هذا العمل هناك. وأخيرًا، ليست فرنسا بعيدةً أيضًا ونستطيع، إن اقتضت الضرورة، أن نمضي وقتًا أطول هناك"[36].

تطلب الأمر سبع سنوات أخرى ليصبح أدورنو أخيرًا في عام 1956 أستاذًا ذا كرسي، بعد أن كان قد مرّ بمراحل أستاذ مساعد (عام 1949)، وأستاذ منتدب من خارج الهيئة التدريسية (عام 1950)، وأستاذ مساعد من خارج الهيئة التدريسية (عام 1953). يُعزى السبب في ذلك إلى الجامعة وإلى وزارة الثقافة اللتين لم تجدا فيه مثلما وجدتا في المعهد ومديره زينة للجامعة، يمكن التزيّن بها. كما يُعزى أيضًا إلى هوركهايمر الذي كان أدورنو نائبًا له، والذي لم يشأ المغامرة بمسيرته المهنية لأجله، حتى ولو خدم هذا في نهاية الأمر أهدافه الخاصة. وفي النهاية كان المذنب في ذلك أدورنو نفسه، الذي فضّل أن يبقى في ظل هوركهايمر، وصعّب مستقبله المهني حين أعطى بعض ممثلي الكليات الحجة بأن من غير المستحب أن يكون هناك أستاذان متشابهان (كان مجرد تصوّر رؤية كرسيي التعليم يشغلهما مهاجران مبعثَ نفور واشمئزاز لكثير من الزملاء)، واقترح أن يكون خلَف غادامر ممثلًا لاتجاه آخر، هذا بدلًا من أن يتلافى تأكيد تشابهه مع هوركهايمر.

---

(36) رسالة من هوركهايمر إلى أدورنو، 9 تشرين الثاني/ نوفمبر 1949.

قام أدورنو بخطوات مريبة لمساعدة المعهد ومساعدة التكافلية الثنائية بينه وبين هوركهايمر، كما فعل يومًا للموسيقى الجديدة في ألمانيا النازية. كان يحظى عادة بدعم هوركهايمر، لكن هوركهايمر الحذر غالبًا ما كان يضغط على الفرامل في اللحظة الأخيرة. وعلى هذا النحو، قام مثلًا بمحاولة لعرقلة نشر مقالة ماكس بنزه "هيغل واليسار في كاليفورنيا" في مجلة *Merkur* (**مركور**)، فكتب إلى هانز بيشكه محرر **مركور**: "نحن في مفاوضات لتأسيس فرع لمعهدنا في فرانكفورت، ونقد بنزه وإن كان تأثيره في انطلاقة المفاوضات قليلًا، فهو قد يخلق بعض الصعوبات الخارجية [...]. لكنني أعتقد أن بمقدوري أن أتوجّه بالنداء إلى تفهمكم، ولا سيما أن المقالة تجعلنا في سلة واحدة مع بعض المنظّرين الآخرين الذين نحن على تناقض حاد معهم: نحن نعمل للجزء الثاني من كتاب **الجدل** على تحليل نقدي للوكاتش، وأنا مع صديقي السابق إرنست بلوخ منذ سنوات كثيرة، ولأسباب موضوعية، منقسمين. لقد جرى نَشْرُ هوميروس[37] من حيث المضمون والشكل[38] من دون معرفتنا وموافقتنا. في ضوء هذه الظروف، ولما كانت كتبنا - وهي حقيقة تجاهلها بنزه - تقصي نفسها عن الروس بأكثر الصور وضوحًا، فإنه يكون مفهومًا إن كررتُ رجائي"[39]. ثم عرض خطةً توضح مسؤوليتهما المشتركة، هو وهوركهايمر، عن جميع المنشورات الفلسفية والاجتماعية والنفسية الاجتماعية، وحتى عن تلك المنشورات التي تحمل توقيع واحد منهما، فضلًا عن تصريح يتعلق بموقفهما من روسيا: "تجاربنا في النشر تدفعنا إلى توضيح أن فلسفتنا، بوصفها نقدًا جدليًا للاتجاه الكلي للمجتمع في هذا العصر، تتعارض بحدة قصوى مع السياسة والعقيدة التي يتبعها الاتحاد السوفياتي [...]؛ فالخوف من أن يأتي الرفض القاطع للسياسة التي يمارسها النظام الروسي ومن يدور في فلكه في مصلحة ردة الفعل العالمية، فقد أي مبرر في وضع نجح فيه الرجال الذين يؤلهون الدولة، والذين تكون 'النزعة الكوزموبوليتية' الشتيمة الأكبر بالنسبة إليهم، نجحوا في إيصال حكمة محدودي الأفق إلى الحقيقة المعيبة

---

(37) الاستطراد الأول من **جدل التنوير**.

(38) لمجلة أدبية في ألمانيا الشرقية.

(39) رسالة من أدورنو إلى بيشكه، 12 كانون الأول/ ديسمبر 1949.

التي تقول إن الفاشية والشيوعية هما الشيء ذاته. إننا نرفض بشدة كل تأويل لعملنا بأنه دفاع عن روسيا، إذ نعتقد بإمكانية الحفاظ على مجتمع أفضل حيثما يُسمح بتحليل الأوضاع القائمة أكثر مما يمكن الحفاظ على فكرة مجتمع أفضل أُفسدت من أجل الدفاع عن الأوضاع القائمة. إن إعادة طبع أعمالنا في المنطقة الشرقية تتم من دون موافقتنا".

نُشرت مقالة بنزه، وتبيّن أنها غير خطرة. في المقابل، تردد هوركهايمر في نشر التوضيحين اللذين وضع أدورنو مسودتيهما؛ إذ بدت مجلة *Der Monat* (**در مونات**)، التي فكّر أدورنو فيها كموقع محتمل لنشرهما، ملتبسة بالنسبة إلى هوركهايمر، مثل مجلة **مركور** التي "تحتفي، في الوقت ذاته، بالتجريبية المنطقية وهايدغر"[40]. ولقد صدق إحساسه؛ فقد كانت مجلة **در مونات** التي أسسها في عام 1948 "المؤتمر الأميركي من أجل حرية الثقافة"، شريك وكالة الاستخبارات المركزية (CIA)، أي شريك المنظمة المناهضة للشيوعية التي خلفت منظمة OSS المعادية للفاشية. وقد موّلت وكالة الاستخبارات المركزية أيضًا "المؤتمر من أجل حرية الثقافة" الذي عقد في برلين بين 26 و30 حزيران/ يونيو 1950. "مؤتمر أناس أحرار في مدينة حرة"، كما جاء في كلمة الافتتاح التي ألقاها ملفين لاسكي رئيس تحرير مجلة **در مونات** الذي كرس العددين التاليين من مجلته حصريًا للمؤتمر. لم يتحسس أدورنو كثيرًا ضد رطانة الحرية المناهضة للشيوعية، حتى أنه نشر مقالات في مجلة **در مونات**، تمامًا كما نشر في غيرها.

منذ البداية، لم يستطع هوركهايمر وأدورنو أن يشتكيا من نقص اهتمام وسائل الإعلام فيهما. فقد أرادت إذاعة هِسِن إجراء مقابلة معهما حول [كتاب] **الشخصية السلطوية.** كما طلب ناشر مجلة *Frankfurter Hefte* (**فرانكفورتر هفته**)، وهي مجلة كاثوليكية يسارية بالتحديد يصدرها أويغن كوغون وفالتر ديركز، الحصول على حقوق الترجمة. ونشرت مجلات **مركور** و**در مونات** و**فرانكفورتر هفته** و**نويه روندشاو** و**أرشيف الفلسفة** طواعية مقالات لهما. بدا الأمل في مركز سلطة فلسفي في الجامعة وكأنه يتلاشى، في حين لم تحرز

(40) رسالة من هوركهايمر إلى أدورنو، 6 كانون الأول/ ديسمبر 1949.

مسألة تأسيس المعهد تقدمًا واضحًا. كان الاثنان، هوركهايمر بشكل أساسي، وأدورنو جزئيًا، مترددَين، يتنازعهما خيار أميركا وخيار فرانكفورت.

رأى أدورنو الآن بوضوح بعض الجوانب السلبية التي كان، في أوج حماسته، يغض الطرف عنها أو يكبتها. أدركَ قبل كل شيء الظاهر الذي لا يرتبط بالديمقراطية الألمانية والسياسة الألمانية فحسب، بل يرتبط بكل شيء في ألمانيا، وأيضًا لا يرتبط بألمانيا فحسب، بل بأوروبا كلها، لأنها ما عادت مستقلة سياسيًا. لقد أحس في ألمانيا بما كان قد شخّصه هو وهوركهايمر منذ نهاية الحرب، أي بـ "الصراع بين اللائحتين الكليتين الذي لا مفر منه بعد الآن"[41]. عبّر أدورنو عن نفسه بحماسة أكبر مما جاء في مقالته "هل هو انبعاث للثقافة في ألمانيا؟" التي نُشرت في **فرانكفورتر هفته**، وأخبر هوركهايمر أن في معاناة الطلبة الروحية الجاذبة أيضًا شيء من الإشباع التعويضي، وشيء من مدرسة التلمود. يعمي المناخ الروحي المغري عن حقيقة أن الناس كانوا يستجيبون للجوانب الجديدة التي كانا يقدمانها، أي هوركهايمر وأدورنو، أكثر من استجابتهم للأهداف والأغراض الخاصة. وفي ما خلا "الحصول على الأمن المهم جدًا بلا ريب لإنتاجنا"، لا يمكننا توقع الكثير في ألمانيا. "ظل الفكر هنا، ببساطة، متخلفًا كثيرًا عن فكرنا، ولم يتخطَّ نقد الأنطولوجيا. ويصح إلى حد بعيد ما أعلنتم عنه مرة بأن هناك[42] المكان الأفضل لتحليل المجتمع، وليس هنا في هذه المستعمرة"[43].

أخيرًا ذهب هوركهايمر في شباط/فبراير 1950 أيضًا إلى فرانكفورت أملًا في أمن أكبر، وللتعجيل في أعمال بناء المعهد الذي بدا مهمًا في أي حال، سيان أَوَقَعَ الاختيار في نهاية المطاف على أوروبا أم أميركا مقرًا لإقامتهما. بقيت العودة مترددة ومتحفظة على الرغم من أن كليهما سافر في ما بعد في مناسبات عدة إلى الولايات المتحدة الأميركية بهدف الحفاظ على الجنسية الأميركية. التصرف على نحو استراتيجي وعدم اتخاذ قرار على الصعيد

(41) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 9 أيار/مايو 1945.

(42) في الولايات المتحدة الأميركية.

(43) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 27 كانون الأول/ديسمبر 1949.

الداخلي، كان هذا ما يميز هوركهايمر؛ وكانت هذه طريقته في الاستجابة للوضع اليهودي (تعبيرٌ يُفهم قياسًا إلى مفهوم "وضع العامل" (condition ouvrière) الذي استخدمته سيمون فايل)، وهو وضع كان يتطلب فيه تحقيق إحساس بالأمن - هذا الإحساس الذي بقي على الدوام هشًا - مهارةً مكيافيلية. في جامعة فرانكفورت، واجَهَ من بقي هناك - بعضهم صنع مسارًا مهنيًا في عهد الرايخ الثالث، وبعضهم الآخر عانى صعوبات في المسار المهني من غير أن يستطيع المطالبة بالتعويض لاحقًا - المهاجرين الذين كانوا يصرّون على حقوقهم القديمة في فرانكفورت. لم يكن لدى أي طرف منهما ما يقدمه للآخر، أو كان لديه القليل؛ فأولئك الذين مثّلوا الجامعة تصرفوا بشكل محسوب، ومن أرادوا الاستقرار في فرانكفورت من جديد تصرفوا هم أيضًا على نحو محسوب. كان المسلك الصحيح الوحيد في رأي هوركهايمر هو التالي: يجب أن نتبع سياسة الانعزال، وأن نُظهِر كما لو أننا نتمتع بوضع قوي في الولايات المتحدة الأميركية، وأن نشاطنا في فرانكفورت يُعدّ تنازلًا كبيرًا بسبب التزاماتنا الكثيرة هناك. كذلك علينا أن نتجنب كل ما يمكن أن يوحي بأننا نبحث هنا عن منصب الأستاذية الذي لم نحصل عليه في الولايات المتحدة الأميركية.

رأى أدورنو أن ألمانيا كانت مستعمرة، وأن الروح كان هنا شيئًا غير حقيقي، ونوعًا من تعويض. لكنه كان في أي حال تعويضًا مقدرًا وليس شيئًا محتقرًا لا فائدة منه، كما الحال في الولايات المتحدة الأميركية. ورأى هوركهايمر الوضع على نحو مشابه، مشاطرًا أدورنو رأيه في الوضع الألماني. غير أن المرء إذا ما حقق نجاحًا في المستعمرة، فإنه يُحْسَب لصالحه وقد يستطيع أن يمارس نفوذًا في نطاق ضيق. في الولايات المتحدة الأميركية كان المثقفون والمفكرون، حتى في أفضل الأحوال، مغمورين تقريبًا (وقد كتب هوركهايمر إلى أدورنو في عام 1957 في أثناء واحدة من فترات إقامته في الولايات المتحدة: "عندي حنين لا يوصف إلى البيت. نادرًا ما خبرت وحدتنا بالوضوح الذي أخبرها اليوم [...] اللجنة اليهودية الأميركية! بالمناسبة، هم ينشئون معهد أبحاث ضخمًا، وإذا كنا طموحين، قد ننجح ربما في الدخول إليه كمساعدين فرعيين.

لقد التقيت لازارسفلد أيضًا. يا إلهي! كنتَ محقًا دائمًا"[44]). لكن في الآمال التي يَعِدُ بها الوضع الألماني، بمعزل أيضًا عن مسألة الأمن، امتزج خوف تبيّن أنه كان صحيحًا. رأى أدورنو الخطر في أن يغدو هوركهايمر شخصًا مقدَّرًا ومرغوبًا فيه، الأمر الذي يصرفه عن الانخراط في العمل الفلسفي المشترك. "لدينا في حقيقة الأمر الوقت الكافي، على الرغم من الواجب التعليمي. لكن هناك مشكلات داخلية لكل منا؛ فأنت سوف يصعب عليك الابتعاد عن أفواج الناس الملتفة حولك وإنقاذ عصرنا بإرادة حديدية، وستكون مجبرًا بالضرورة على أخذ وضعية القسّ المثقف لتقديم العون لمن أصيبوا بالخيبة [...]، أما أنا، فأشعر أن الصعوبة الرئيسية هي في التواصل المستمر. أرى نفسي أحيانًا مثل أسطوانة مشروخة، وكأنني تقدمتُ خطأً؛ أشعر أكثر من أي وقت مضى بأن المرء لا يستطيع أن يمثل هموم البشر إلا بعيدًا عنهم. سيلس ماريا (Sils-Maria) هي بالفعل مكان للتأمل. وترتبط بهذا حقيقة أنني أشعر هنا بأن ما نكتبه أهم بكثير من الواقع المباشر، وهذا يعود بداية إلى سبب بسيط تمامًا هو أن هذا الواقع محكوم فعليًا بكونه مسألة أولية، ولا يكاد يستطيع أن يقارب ما هو مهم حقيقةً بالنسبة إلينا [...]. أنت تعرف أنني أؤمن بأنه ليس من المفيد للحقيقة أن يعيش المرء من رأس المال"[45].

"دراسات في التحيّز"

عندما وصل هوركهايمر في شباط/ فبراير 1950 إلى فرانكفورت، كانت قد صدرت أخيرًا مجلدات سلسلة "دراسات في التحيز" التي تمثل مساهمة المعهد. بعد ذلك سرعان ما صدر باقي المجلدات.

لم تقدِّم سلسلة "دراسات في التحيز" - أصدرها ماكس هوركهايمر وصامويل هـ. فلاورمان برعاية اللجنة اليهودية الأميركية - بوصفها جزءًا من المشروع الكلي الذي وضع مخططه معهد البحث الاجتماعي، بل بوصفها النتائج الأولى لعمل قسم البحث العلمي التابع للجنة اليهودية الأميركية الذي

(44) رسالة من هوركهايمر إلى أدورنو، 28 كانون الثاني/ يناير 1957.

(45) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 27 كانون الأول/ ديسمبر 1949.

تعاقب على رئاسته هوركهايمر وفلاورمان. تتألف السلسلة من أربع دراسات عن أربعة مشاريع جزئية من المرحلة الثانية من المشروع، ومن دراسة عن جزء من مشروع جزئي يخص المرحلة الأولى من المشروع، اشتغل عليها عدد من المؤلفين:

الشخصية السلطوية - تيودور ف. أدورنو، وإلزه فرنكل-برونزفيك، ودانييل ج. ليفينسون، ور. نفيت سانفورد؛

ديناميات في التحيّز: دراسة نفسية واجتماعية للمحاربين القدامى - برونو بيتلهايم وموريس يانوفيتس؛

معاداة السامية والاضطراب العاطفي: تفسير تحليلي-نفسي - ناتان ف. أكرمان وماري ياهودا؛

أنبياء الخديعة: دراسة تقنيات المحرض الأميركي - ليو لوفنتال ونوربرت غوترمان؛

بروفة لأجل التدمير: دراسة معاداة السامية في ألمانيا الإمبريالية - باول ف. ماسينغ.

كان من المفترض أن تتلو هذه المجلدات مجلدات أخرى؛ ولا يُقصد بالمجلدات الأخرى نتائج باقي المشروعات الجزئية التي يتضمنها البرنامج الأقصى الذي قدّمه هوركهايمر في ربيع 1945، والتي كان من بينها خصوصًا دراسة **معاداة السامية بين الأطفال** التي عملت عليها إلزه فرنكل-برونزفيك في مرحلة متقدمة مع دعم في البداية من أدورنو، بل كان المقصود، قبل كل شيء، دراسات المجموعة (Gruppenstudien) ودراسات الجماعات المحلية التي يحبّذها فلاورمان والتي تنسجم مع اتجاه واسع في علم الاجتماع في الولايات المتحدة الأميركية.

إن اختيار "دراسات في التحيّز" كعنوان إجمالي، وليس "دراسات في معاداة السامية"، جاء من خشية منظمة يهودية تحرص على الاندماج وليس من الافتراض بأن مفهوم التحيّز الذي يبدو بريئًا، بعد جريمة القتل ذات الطابع الصناعي البيروقراطي بحق الملايين من اليهود والأقليات الأخرى، كان

مشحونًا بالرعب، بحيث كان يمكن استعماله من دون المخاطرة بالتعبير الملطف. لقد كان المفهوم ملطفًا، واستُعمل بحذر وبأمل أن يشعر الديمقراطيون بأنهم مدعوون إلى محاربة التحيّز والتمييز الاجتماعي عمومًا أكثر من كونهم مدعوّين إلى محاربة معاداة السامية.

في مقدمتهما التي تصدرت المجلدات الخمسة، حاول هوركهايمر وفلاورمان أن يتغلبا على الإرباك الذي يسم الأبحاث الاجتماعية الأكاديمية الطويلة الأمد، بعدما بدا أن الموضوع الذي شرعا بالعمل عليه بسبب آنيته، ما عاد موضوعًا راهنًا وقت صدور نتائج البحث؛ إذ كان ينبغي الاستفادة من فترة الاستراحة من اضطهاد اليهود وملاحقتهم لإيجاد طرائق مبنية على تحليلات علمية تمنع موجة جديدة من الاضطهاد والملاحقة أو تضعفها، والتي يجب أن تؤخذ في الحسبان في إطار خصائص الحضارة الغربية الخطرة، حتى في الولايات المتحدة الأميركية التي بدا أن اليهود فيها أقل عرضة للتهديد من ذي قبل. وأوضحا عبر الاهتمام بالمساعدة العملية حقيقة أن الثقل يقع على الجانب الذاتي النفسي. تعني مكافحة التحيز - بحسب رأيهما - "إعادة تثقيف"، وتبدأ في الأفراد وفي سيكولوجيتهم. كان هذا انحناءً أمام عقيدة أميركية نموذجية.

حمل مطلب الوحدة التكاملية للكتب، وعلى وجه الخصوص الكتابان اللذان يفترض بهما دراسة المثيرات الموضوعية، عبئًا يفوق قدرتها؛ ذلك أنها لا تتضمن الأقرب والأكثر أهمية، أي تحليلات البنى الاقتصادية والسياسية والاجتماعية للولايات المتحدة الأميركية أو للبلدان الصناعية.

يدور كتاب ماسينغ الذي كُتِب بأسلوب التأريخ التقليدي حول تاريخ معاداة السامية السياسي في الإمبراطورية الألمانية. كانت الفجوة كبيرة جدًا بين الدراسات الثلاث الأولى التي استندت إلى أبحاث تجريبية حول عقلية الأميركيين في الولايات المتحدة، وعرض حقبة من التاريخ الألماني قاد فيها عجز البرجوازية الألمانية واستياؤها من تحقيق دولة وفق النموذج الغربي الليبرالي إلى حالات أصبحت فيها معاداة السامية أداة سياسية لتوجيه الاحتجاج الاجتماعي.

قدّم كتاب لوفنتال وغوترمان تحليلًا ذا توجّه نفسي-تحليلي لمضمون الأحاديث الإذاعية والمنشورات للمحرضين الأميركيين المعادين للسامية، أنصار الفاشية، الذين كانوا يظهرون في أواخر الثلاثينيات في الساحل الغربي للولايات المتحدة الأميركية، من دون أن يحققوا أي نجاح يذكر. واقترب الكتاب في طابعه من الكُتيب الذي كان قد خطط لإصداره بهدف نزع سحر المحرض الفاشي. إلا أن الكتاب استند حصرًا إلى تحليلٍ للنصوص، وليس إلى دراسات عن استجابات الجمهور الواقعية. ولم تحصلْ قط المشاركة التي اقترحها أدورنو في احتفالات المحرضين وتجمعاتهم.

وبدلًا من الاستفادة من الوضع القائم رغم سوئه، ساهم رفض الناشر في وضع برنامج موجَّه منهجيًا إلى حدِّه الأقصى، وتقديم المجلدين على مثل هذه الخلفية كجزءين، في عدم نيل العمل التقدير المناسب، لا بل أصبح المجلد الأول حول المشروع الجزئي الأكثر إنفاقًا وشمولية في السلسلة، وتضمن على صعيد الموضوع فقرات تمهيدية وختامية واسعة، وتصدرته مقدمة هوركهايمر المتطلبة، أصبح ممثلًا للكل.

لم يكن هوركهايمر وزملاؤه منزعجين من ذلك. فقد كانت دراسة بيركلي هي القسم الوحيد من المشروع الذي استمر عبر مرحلتي المشروع، وجسّد الدور الرئيسي للمعهد. وكانت تلك الدراسة هي التي عقد عليها هوركهايمر آماله في عام 1943 لتحقيق حلم المعهد: أي مشاركة أفكار أوروبية مع مناهج أميركية. وكتب لازارسفلد عنها في تموز/يوليو 1947 بعد أن فرغ من قراءة الفصل الذي يتناول مقياس معاداة السامية ومقياس الفاشية: "أعتقد أنها أول مرة يُعثر فيها على حلٍّ لجمع أفكار مجموعتكم مع تقاليد البحث التجريبي [...]. المفاهيم الأساسية مقدمة بوضوح شديد، وعلى نحو يمكن معه أن تخضع للاختبارات التجريبية. وقد دللت الاختبارات نفسها على صوابية افتراضاتكم، والنتيجة أنكم ربحتم نقطتين مهمتين في الوقت عينه: فالدراسة تقدم اكتشافات واقعية حقيقية، وتُظهر في الوقت ذاته قيمة الفكر النظري للبحث التجريبي"[46].

(46) رسالة من لازارسفلد إلى هوركهايمر، نيويورك، 19 تموز/يوليو 1947.

كانت دراسة بيركلي هي الدراسة التي تضمنت معظم نظرية هوركهايمر وأدورنو، وهذا يرجع في جزء منه إلى الفصل الذي كتبه أدورنو للتقويم النوعي للمقابلات، وفي جزء آخر إلى حقيقة أن أدورنو حرص على أن يجمع سانفورد وليفينسون أثناء التصحيح "في وقت لاحق قدر ما يستطيعان من أفكارنا في فصلهما الكمي"[47]، وفي جزء ثالث إلى التصحيحات الكبيرة التي حاول أدورنو من خلالها أن ينجز أخيرًا دمج الكتاب الذي استُبدلت فكرته في سياق العمل بتصور سلسلة من الأبحاث الفردية، والذي كان مؤلفًا من فصول تقاسم كتابتها مساعدون أفراد (كما أن الفصل عن مقياس الفاشية لم يكتبه المؤلفون الأربعة، كما قد تدفع إلى الظن معطيات الفهرس، بل كتبه سانفورد. ولم ترضَ إلزه فرنكل-برونزفيك بالتسمية المتساوية للمؤلفين الأربعة على الغلاف وأصرت، مهتمة بإظهار إنجازها في قسم المقابلات من الدراسة، على أن يُذكر إضافة إلى ذلك اسم كل منهم إلى جانب الفصل الذي كتبه. ويكون أدورنو بذلك قد وصله حقه في ما يخص مقياس الفاشية الذي تولى عرضه سانفورد. غير أن أدورنو رأى في مقياس الفاشية - كما أوضح في مذكرة إلى هوركهايمر في تموز/يوليو 1947 - مساهمته الرئيسية و"نواة الكل"، وهو، إلى جانب نموذج تقويم المقابلات الذي وضعته فرنكل-برونزفيك، "الأداة الأكثر فعالية في مواجهة الأميركيين". وأخيرًا توصل الأربعة إلى تسوية يسجّل بمقتضاها كل واحد اسمه إزاء فصله، وتُذكَر أسماء المؤلفين الأربعة في الفصل الذي يتناول مقياس الفاشية).

كان كتاب **الشخصية السلطوية** نتاج مشروع انطلق في زمن كانت فيه الولايات المتحدة الأميركية تخوض حربًا ضد الفاشية ومتحالفة مع الاتحاد السوفياتي. لكن عندما كُتب، والأصح عندما صدر، كانت الفاشية قد هزمت، وانتهت مرحلة ما بعد الحرب القصيرة للأمل الأميركي في صفقة جديدة (New Deal) تعم العالم، وترسخ الوعي برسالة الديمقراطية ليصبح وعيًا بمهمة سلطة عالمية غيور مناهضة للشيوعية. لم ينعكس كل هذا في الكتاب، بل في عنوانه. كان يجب أن يسمى أصلًا "الشخصية الفاشية". في عام 1947، عبّر

(47) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 10 حزيران/يونيو 1949.

أدورنو لهوركهايمر عن مخاوفه من محاولة العاملين في بيركلي أن يستبدلوا هذا العنوان بعنوان آخر وديع، مثل "الشخصية والتحيُّز"[48]. لكن اقتُرِح له في العام التالي عنوان "الفاشية المحتملة"، وقد عَكسَ العنوان الذي صدر به هذا الكتاب في كانون الثاني/يناير 1950، بصورة ملحوظة، نوعًا من التسوية تم التوصل إليها في مرحلة متأخرة، إذ لم يُستعمَل هذا المفهوم إلا في مقدمة هوركهايمر. كان الحديث في الكتاب ذاته عن الشخصية الفاشية، أو الشخصية الفاشية الممكنة، أو الشخصية المتحيّزة جدًا، وعن مقياس الفاشية. لكن تمويه العنوان الذي فرضته ظروف المرحلة، قدم الربط مع مصطلح كان فروم قد طوّره وصاغه العمل الجماعي الأول للمعهد، **دراسات في السلطة والأسرة**، عندما لم تكن الفاشية ومعاداة السامية رسميًا بعد في برنامج أبحاث المعهد.

أما موضوع الكتاب فقد حددته، على نحو صحيح، المهمتان اللتان وضعتا لمشروع بيركلي: أولًا الكشف عن البنية الشخصية للأشخاص الذين لديهم استعداد لمعاداة السامية، وثانيًا تطوير أداة يمكن بواسطتها إثبات القابلية لمعاداة السامية. في الحقيقة، كان يجب أن يكون العنوان: "الشخصية الفاشية وقياس الميول الفاشية". وقد ترافق الاثنان معًا: تأكيد الشخصية الفاشية وتحديدها عبر استبيانات، ومقابلات استمرت ساعات عدة، واختبارات إسقاطية، واكتساب أداة موثوقة يمكن استعمالها إلى مدى بعيد لتحديدها وقياسها. لاحظ أدورنو برضًى بعد إنهائه التصويبات: "عندما ينتهي المرء من قراءة الكتاب يعرف من هو المعادي للسامية"[49]. فلقد أظهرت نتائج الاستبيانات والمقابلات واختبارات الإسقاط لعينة محدودة أن النموذج المعادي للسامية أو الفاشي موجود، ولم يكن، في الحقيقة، نادرًا. وكان مقياس الفاشية أداة يمكن بواسطتها، عند الضرورة، ملاحظة انتشار الميول الفاشية وشدتها، من دون ذكر التحيز الأيديولوجي. هكذا رأى الأمر، على الأقل، أدورنو والمشاركون الآخرون.

---

(48) Adorno, "Memorandum zur Berkeley-Situation," (21 Juli 1947).

(49) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 2 تموز/يوليو 1949.

أما في ما يخص قياس الميول الفاشية، فيمكن، بلا ريب، الاعتراض نقديًا بأن المقاييس المعمول بها لم تجتز بعد اختبار الصلاحية النقدية الحاسم، أي اختبار قابلية تطبيقها على مجموعات اجتماعية مختلفة تحت شروط سياسية واقتصادية مختلفة في ظل غياب رقابة مستمرة عبر مقابلات واختبارات إسقاط.

بين كانون الثاني/ يناير 1945 وحزيران/ يونيو 1946، أجابت مجموعات مؤلفة من أشخاص مختلفين - معظمهم طلاب وممثلو الطبقة الوسطى - عن 2099 استمارة استبيان. جُرّب على التوالي في كل مرة عند مجموعات مختلفة ثلاث صيغ من الاستبيانات، سُميت، بحسب العدد الكلي للبنود التي احتوتها، الصيغة 78 والصيغة 60 والصيغة 45 أو بالأحرى الصيغة 40. في كل صيغة استبيان جديدة، سعى القائمون على الدراسة إلى بلوغ نتائج أفضل بأقل البنود. فتألف كلٌ من الاستبيانات الثلاثة من ثلاثة مقاييس كانت بنودها ممزوجة بالاستبيان، كي يبقى الانطباع باستطلاع رأي عام مصانًا: مقياس المركزية الإثنية (E-Skala) الذي يحتوي إلى جانب بنود معادية للسامية، بنودًا موجهة ضد أقليات أخرى وبنودًا وطنية، ومقياس النزعة المحافظة السياسية والاقتصادية (PEC-Skala)، ومقياس الفاشية (F-Skala) ويحتوي على بنود "نفسية" حصرًا.

لم يطبَّق مقياس الفاشية منفردًا ولا مرة، بل طُبّق دائمًا في إطار الاستبيانات الكلية (احتوى الاستبيان الأخير، على سبيل المثال، في الصيغة 45 على عشرة بنود ذات صلة بالمركزية الإثنية، وثلاثين بندًا ذي صلة بالفاشية؛ وفي الصيغة 40 أسقط من البنود العشرة ذات الصلة بالمركزية الإثنية خمسة بنود مرتبطة بمعاداة السامية). إذن لم يُختبَر مقياس الفاشية قط في حالة الضرورة. لكن كيف يجب أن يبدو الأمر، حين لا يطبَّق في استبيانات الجمهور إلا مقياس الفاشية وحده، ويتم اعتمادًا على تقويمه وحده تقدير إمكان النزوع الفاشي لمجموعات سكانية مختلفة؟ ألا يعني التخلي عن مقياس المركزية الإثنية التخلي عن معلومات مهمة جدًا حول درجة التمظهر التي حققتها الإمكانات المضادة للديمقراطية، والأشكال التي اتخذتها هذه التمظهرات، والمجموعات التي توجهت ضدها في المقام الأول؟ "يجب، بالتأكيد، ألا يُبالَغ في التمييز بين الإمكان والتمظهر"، كما يقول المؤلفون أنفسهم. "إذا كانت الميول المضادة للديمقراطية المشروطة عاطفيًا موجودة في الفرد، فإنه يجب، **على العموم**،

أن تحرضها العبارات A وS وE التي وُضِعت لهذا الهدف ومقياس الفاشية وطرق أخرى غير مباشرة. الشخص الذي تُجرى عليه التجربة، ويحصل على أرقام عالية عند F وليس عند A-E أو E، سوف يشكل الاستثناء ويستدعي تعبيره عن روادعه وأحكامه المسبقة إزاء الأقليات إلى توضيح خاص"[50]. يجب أن ترى أهمية مقياس الفاشية بصورة خاصة في أنه بيّن في إطار طرائق الاستبيان المستعملة جماهيريًا مدى قوة تجذر مواقف المركزية الإثنية في البنية الشخصية وأي قيمة تُنسب إلى الإدراك السياسي-الاقتصادي.

يفتح مقياس الفاشية ببنوده "النفسية" الخالصة، غير الأيديولوجية، في أعين مجموعة بيركلي مدخلًا مباشرًا تقريبًا إلى البنية الشخصية. لهذا السبب بالذات اكتسبت فيه الخصائص الإشكالية للمقاييس أهمية خاصة. في التغيير الثاني الذي اختصر مقياس الفاشية، اختارت مجموعة بيركلي بضعة بنود تنطوي على كثير من الحقيقة أو الإمكانية العقلية، وافق عليها المتحيزون بقوة وإلى حد بعيد أيضًا من كانوا غير متحيزين، أو صيغت على نحو عنيف أو عدواني، بحيث أعرض عنها إلى حد بعيد من كانوا بلا أي أحكام مسبقة ومن كانوا منحازين بقوة. لكن بقي هناك، مثلًا، كثير من البنود، كما في العبارات التي جاءت في الصيغة الأخيرة لمقياس الفاشية؛ مثل "الشخص الذي يتمتع بسلوك وعادات وتربية سيئة لا يمكن بيسر توقع أن يتعامل مع ذوي الأخلاق الحسنة"، "رجل الأعمال والصناعي أهم للمجتمع بكثير جدًا من الفنان والأستاذ الجامعي"، "للعلم مكانه، لكن ثمة أشياء كثيرة لا يمكن فهمها أبدًا بالعقل الإنساني". كان الرفض القوي لمثل هذه العبارات يسجل رفضها إيجابيًا بصورة تلقائية، على الرغم من أن عنصر الحقيقة الكبير فيها يوحي في حده الأقصى برفض هش أو موافقة هشة على الأقل.

من ناحية أخرى، لم تدع نمطية معظم العبارات فسحة للتعبير عن أوضاع متعددة النواحي ومتناقضة. فمن وافق على عبارتين يمكن أن تخدما معًا إثبات وضع معقد، كانت نقاطه أسوأ من شخص رفض العبارتين ببساطة، لأن كلًا

---

(50) Theodor W. Adorno, *The Authoritarian Personality*, p. 224.

مقتبس من الترجمة الألمانية في:

Adorno, *Studien zum autoritären Charakter*, p. 40.

منهما بمفردها لم تكن صحيحة تمامًا. علاوة على ذلك، قد تُفسَّر الموافقة على العبارتين بأنها تناقض لاعقلاني، يشهد على ميل إلى الأحكام الإجمالية. في المقابل، يكافأ إلى حد ما من آثر الرفض خوفًا من أن يُساء فهمه أو يبدو محرضًا.

لم تغير هذه الاعتراضات النقدية شيئًا في المعقولية الأساسية للأفكار التي كانت الأساس الذي قام عليه مقياس الفاشية خصوصًا. "على سبيل المثال، إثبات أن المعادي للسامية يرفض اليهود لأنهم يحتقرون قوانين الأخلاق المتعارف عليها، حاولنا تفسيره بكونه متشبثًا بالقيم التقليدية بشدة وعلى نحو جامد بحيث يقوم عداؤه للسامية على هذا الاستعداد الشخصي العام الذي يتضح في الوقت نفسه في ميله العام إلى النظر بازدراء إلى مخالفي المعايير التقليدية وإنزال العقوبة بهم. تعزز هذا التفسير من خلال نتائج مقياسَي المركزية الإثنية ونزعة المحافظة السياسية والاقتصادية؛ إذ ظهر فيهما ارتباط بين عبارات المقياسين التي عبّرت عن النزعة المحافظة وأشكال التحيز البيّنة، حيث نُظِر إلى **الخضوع للقيم التقليدية** على أنه خضوع للقيم المتغيرة في الفرد، والتي أمكن الإحاطة بها بعبارات كتلك التي تضمّنها مقياس الفاشية، والبرهنة على علاقتها الوظيفية قابلة للإثبات بتجليات مختلفة للتحيز"[51]. أظهرت الحسابات الإحصائية علاقة كبيرة بين نتائج قياس التحيزات ذات الصلة بالمركزية الإثنية ونتائج قياس الميول النفسية الفاشية. وأظهرت المقابلات واختبارات الإسقاط لعيّنة مختارة من 80 شخصًا، جاء ترتيبهم على المقاييس إما مرتفعًا جدًا وإما منخفضًا للغاية، أن هذه العلاقات كانت تقوم في الواقع على عمليات نفسية تشبه في طبيعتها تلك العمليات التي قادت - في تفاعل متبادل بين إعداد الأسئلة والمقابلات - إلى وضع المقاييس.

لخّصت المتغيرات التي قام عليها إعداد المقاييس نتائج المقابلات واختبارات الإسقاط في آن. بناء عليه، كانت الخصائص الأساسية للشخصية الفاشية: التزام متصلب بالقيم السائدة، وتأتي في المقام الأول قيم الشرائح

---

(51) Adorno, *The Authoritarian Personality*, pp. 225 f.; Adorno, *Studien zum autoritären Charakter*, pp. 44 f.

الوسطى التقليدية، وظاهريًا السلوك والمظهر الصحيح وغير اللافت، والبراعة، والنظافة، والنجاح المترافق في الوقت نفسه بأنثروبولوجيا متشائمة تزدري البشر، وبالاستعداد للإيمان بأحداث وعمليات وحشية وخطرة في العالم وبأن الفجور الجنسي يمكن تبيّنه في كل مكان؛ تفكير وإحساس تراتبيين قويين مع خضوع للسلطات المتخذة كمثال في الجماعة الخاصة وازدراء الجماعات الأخرى وكل ما هو منحرف وعنصري وهش؛ عجز تأمل الذات[52]، أي رفض التفكير الذاتي والحساسية والفانتازيا، وميل في الوقت نفسه نحو الخرافات ونحو إدراك للواقع نمطي وخاطئ.

يمكن القول إن الصيغة النفسية التحليلية التي كانت تُقترح تارة من خلال الموجودات السابقة، وتسترشد تارة بتفسيرها وبنيتها تبدو على النحو التالي: كانت الشخصية الفاشية تتميز من خلال "أنا" ضعيفة، و"أنا أعلى" أصبحت خارجية، و"هو" غريب عن الأنا. وقد سارت الأنا الفاشية على عكازات النمطية، والشخصنة، والتحيّز القائم على التمييز؛ وتماهت مع السلطة، ولم تعتمد على الديمقراطية والأخلاق والعقلانية إلا من أجل تدميرها؛ وأشبعت غرائزها في الوقت الذي تكبتها أخلاقيًا في المجموعات والأفراد الذين لا ينتمون إلى الفاشية.

تكمل الأقسام السريرية من المقابلات التي تتضمن أسئلة عن الخلفية العائلية والطفولة والجنسانية والعلاقات الاجتماعية والمدرسة الصورةَ من خلال رؤى في عمليات إضفاء المجتمعية التي أثّرت في تشكيل البنى النفسية ووجهات النظر الاجتماعية والسياسية. فعلى سبيل المثال، الأبوان اللذان تربط أحدهما بالآخر علاقة سيطرة وخضوع، ويتمتعان بأدوار وحقوق وواجبات محددة، ويطالبان الطفل بالطاعة العمياء، ويأملان في ارتقاء اجتماعي من خلال سلوك مناسب، ويجعلان من الصعب على أطفالهما، إن لم يكن من المستحيل،

---

(52) وهي الترجمة الوحيدة التي عثرتُ عليها لمصطلح "Anti-Intrazeption"، كما وردت في **المعجم النفساني في العلوم والطب** الصادر عن مؤسسة العلوم النفسية العربية (2019)، لكنها برأيي ليست المكافئ الدقيق في العربية. فالمصطلح يصف سلوكًا يرفض الذاتية (العواطف والمشاعر) والخيال ويقارب العالم من خلال الوقائع والحقائق. ويعتبر أدورنو هذا المسلك سمة من سمات الشخصية السلطوية. (المترجم)

تطوير احترام الذات وتطوير القدرة على الرد على اعتداءات من تسببوا بها، وتطوير القدرة على نسج علاقات شخصية حميمة (كان يمكن الدراسة غير المكتملة عن معاداة السامية بين الأطفال أن توضح معلومات أخرى تُصحح ذكريات المستبيَنين حول أهمية مثل هذه العمليات الاجتماعية في نشوء البنى النفسية الفاشية والأيديولوجيات الفاشية، وتكملها).

من خلال نموذج مقابلات مفصل يعتمد على التحليل النفسي، ومن خلال قائمة من 56 نوعًا مقسمة إلى أنواع عليا ودنيا ذات توجه نفسي-تحليلي لتحليل مادة المقابلات، صبّت معطيات التحليل النوعي، بالقدر الذي كان تعني موضوعات سريرية، في شكل كمي. من خلال هذا الجهد لتقديم قياسات كمية، ضاعت النقاط الواضحة في المقابلات المكثفة التي استُكملت باختبارات الإسقاط، أي تقديم سلسلة من دراسات لحالات بعينها يمكن أن تُعرض فيها، مثلًا، العلاقة بين البنية الشخصية والرؤى الأيديولوجية. لم تقدم إلزه فرنكل-برونزفيك تحليلًا لحالات، بل قدمت "نماذج أُخذت من دراسة المجموعات"[53] التي جُمعت في النهاية معًا في "صورة مركّبة"، واضعةً بصورة مثالية من يحصل على العلامة الأعلى، صاحب عدد النقاط المرتفعة على المقاييس، ومن يحصل على العلامة الدنيا، صاحب عدد النقاط المنخفضة على المقاييس، أحدهما في مقابل الآخر. لكن أدورنو توقّع من تقويم المقابلات بالذات - بوصفه قوة مضادة للقياس الكمي في أقسام الدراسة التي كُرست لقياس الميول الأيديولوجية والنفسية - "**عددًا أكبر** من دراسات الشخصية، أي تحليلات مفصلة لأشخاص التجربة بناء على المادة الكاملة، أي بناء على استبيانات ومقابلات واختبارات موري وورورشاخ"[54]. لم تكن هناك طريقة أكثر إقناعًا لمقاربة الموضوع ذي الصلة هنا، أي إثبات أن معاداة السامية لم تظهر عند أشخاص لديهم في ما عدا ذلك وجهات نظر أو بنى نفسية لا علاقة لها بالأمر، ولم تظهر كذلك عند جميع الأشخاص المحتملين الذين كانوا معرّضين للموقف الموضوعي نفسه وللتأثيرات الخارجية ذاتها. لقد كانت معاداة السامية جزءًا من موقف كلي لا يخص اليهود وحدهم،

---

(53) Adorno, *The Authoritarian Personality*, p. 473.

(54) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 23 أيار/ مايو 1945.

ولا الأقليات وحدها، بل يخص الناس عمومًا والتاريخ والمجتمع والطبيعة. وهذا الموقف الكلي متجذر في بنية نفسية محددة، هي التي تقرر في النهاية إن كان لأحد ما شخصية فاشية، وكان من ثم معاديًا للسامية أم لا، وتكشف عن ذلك.

في أي حال، فإن أدورنو نفسه لم يقدم أيضًا، في أبحاثه النوعية الصارمة، أي تحليل دقيق لعدد أكبر من الحالات الفردية. فقد اهتم في الحقيقة بأن يضع في النهاية علاقة بين الأيديولوجيا وبنية الشخصية في مركز بحثه، متسائلًا: "ما معنى الآراء والمواقف الصريحة للذات في المناطق المغطاة بمقاييس A - S، وE [المركزية الإثنية] وPEC [النزعة المحافظة السياسية والاقتصادية]، إذا ما نُظر إليها في ضوء موجوداتنا النفسية، خصوصًا تلك التي تشتق من مقياس الفاشية ومن القسم السريري من المقابلات؟". رأى نقطة الانطلاق للإجابة عن تلك الأسئلة في الأقسام الأيديولوجية من المقابلات. لكن المنهج الذي استعمله أدورنو كان "فينومينولوجيا قائمة على صياغات نظرية توضحها مقبوسات من المقابلات"[55]. وقد أتاح هذا المنهج "استغلال غنى المقابلات 'المباشرة' ودقتها إلى حد يتعذر حصوله بغير ذلك. وما يضيع بسبب الرغبة في الانضباط الصارم في التفسير يمكن تعويضه بالمرونة والاقتراب من الظواهر. عبارات نادرة أو حتى فريدة يمكن أن تتضح بالمناقشة؛ فقد تلقي هذه العبارات، وهي غالبًا ذات طبيعة قصوى، ضوءًا ساطعًا على إمكانيات ثاوية داخل مناطق 'طبيعية' مفترضة، تمامًا كما يساعدنا المرض في فهم الصحة. في الوقت عينه، يوفّر الانتباه إلى انسجام تفسير هذه العبارات مع الصورة الكلية حماية ضد الاعتباط والعسف. يحتل العنصر الذاتي أو ما يمكن أن يدعى العنصر التأملي مكانًا في هذا المنهج، تمامًا كما يفعل في التحليل النفسي الذي استُمدّ منه كثير من مقولاتنا. فإذا بدا التحليل وكأنه يقفز في أمكنة إلى خلاصات، وجب النظر إلى التفسيرات على أنها فرضيات لمزيد من البحث، ووجب استعادة التفاعل المستمر بين مناهج البحث المتنوعة: بعض المتغيرات المقاسة التي نوقشت في فصول سابقة كانت تقوم على تأملات موضوعة في هذا القسم"[56].

(55) Adorno, *The Authoritarian Personality*, p. 603.

(56) Ibid., pp. 603 f.

على أن أدورنو الذي حاول من خلال المنهج الفينومينولوجي أن يستفيد من غنى "المقابلات 'المباشرة'" ووضوحها، لم يكن هو نفسه مشاركًا في إجرائها. فالأشخاص الذين أراد من خلالهم أن يوضح إلى حد ما تحت المجهر العلاقة بين الأيديولوجيا والبنية الشخصية، كانوا والمحيط الذي يعيشون فيه غرباء بالنسبة إليه. لقد جرى هنا أيضًا، كما الحال في البحث حول المحرض الفاشي والأبحاث التجريبية السابقة للمعهد، الحفاظ على مسافة من "موضوع" البحث، وتطبيق أشكال قاسية من تقسيم العمل، الأمر الذي لم يحصل مثلًا عند ميردال الذي قام مرارًا وتكرارًا بسفرات طويلة عبر الولايات المتحدة من أجل بحثه حول "مشكلة السود" في الولايات المتحدة، كي يكوّن "على الأرض" انطباعاته عن الأشخاص والظروف التي أراد أن يُخبر عنها. في هذا الخصوص، وبصورة تقليدية جدًا، تخلّى أدورنو الذي كان يتذمر من فقدان "التجربة الحية" طواعية عن تجربة ما هو أكثر من ضروري.

أسفرت تحليلات أدورنو النوعية عن وفرة من التأملات لم تقدمها مادة المقابلات ولم تُشتق من نظرية. كان واضحًا لمن يعرف أعمال أدورنو والمعهد أن السبب يكمن في الموضوعات المركزية لنظرية المجتمع النقدية التنويرية: تجربة عجز الأفراد بالنظر إلى المجتمع الجماعي الحديث والقلَق في الثقافة. لم يعطِ التعامل مع مادة المقابلات تأملات أدورنو أساسًا أكثر صلابة من الأساس الذي بُنيت عليه تأملات سارتر الذي كان قد سأل - كما ذكر في كتابه **تأملات في المسألة اليهودية** - المئات من المعادين للسامية عن أسباب عدائهم لها، غير أنه قام بذلك من دون ثوابت منهجية وأبحاث تجريبية مستفيضة، وتفوّق في رؤاه أحيانًا على دراسة بيركلي. كان على أدورنو أن يقوم بالتجربة المحيّرة التي مفادها أن أوروبيًا بطرائق "أوروبية" لم يبلغ أقل مما بلغه في تعاون طويل الأمد مع جماعة تستخدم طرائق "أميركية". وجاء في حاشية في الفصل الختامي من **الشخصية السلطوية**: "ثمة تشابه ملحوظ بين التناذر الذي وسمناه بالشخصية السلطوية و'بورتريه المعادي للسامية' لجان بول سارتر[57]". لقد أصبحت ورقة سارتر الرائعة متاحة لنا بعد أن جُمعت جميع

---

(57) كان هذا هو عنوان الجزء الأول من **تأملات في المسألة اليهودية** الذي صدر بالإنكليزية في عام 1946 في مجلة *Partisan Review*.

بياناتنا وحُللت. أن يكون على 'بورتريه' سارتر الفينومينولوجي أن يشبه جدًا، في البنية العامة والتفاصيل الكثيرة معًا، التناذر الذي ظهر تدريجيًا من ملاحظاتنا التجريبية وتحليلنا الكمي، فذلك يبدو بالنسبة إلينا أمرًا ملحوظًا"[58]. في أي حال، ليس على أدورنو أن يخجل من تحليلاته النوعية، خصوصًا إذا نُظر إليها بالارتباط مع "أفكاره الأوروبية" (التي يشاطره فيها هوركهايمر) الأخرى في موضوع، على سبيل المثال، في **عناصر معاداة السامية** أو في "ملاحظات حول 'الشخصية السلطوية'" التي اعتُبرت جزءًا من كتاب **الشخصية السلطوية**، لكن أدورنو لم يعمل على نشرها. اهتمت هذه الملاحظات بموقف مشروع بيركلي قياسًا بنظريات وأبحاث أخرى.

وجد أدورنو نفسه في مواجهة المشكلة التالية: فَهِم هو وهوركهايمر معاداة السامية بأنها تمظهُرٌ للطبيعة العمياء، المشوّهة والمتمردة، التي رافقت حضارة مخفقة وغير مكتملة كظلها تمامًا. لا بل استُخدِمت للحفاظ على حالة ممارسة سلطة عقلانية، وفي بعض الأحيان لإعادة إنتاجها؛ سلطة كانت تتميز من خلال الجمع التنازعي بين الديمقراطية والرأسمالية. لقد أرادا عبر مشروع معاداة السامية، بالقدر الذي اعتبراه شأنهما الخاص، أن يصلا إلى أولئك الذين كانوا أصحاب المصلحة في الديمقراطية غير المكتملة، وإلى أولئك الذين كانوا يريدون الديمقراطية الحقة، لكنهم أيضًا لا يستطيعون تصورها في عصر الأعمال الضخمة إلا مرتبطة بنظام اقتصادي رأسمالي، وأن تُدرك كلتا المجموعتين أن ما عوّق في نظر أدورنو وهوركهايمر إتمام الديمقراطية وأسهم مع خسائر فادحة في الحفاظ على ديمقراطية غير مكتملة كان خطرًا على مواقفهم ومساعيهم. هذا ما كان يعنيه الأمل الذي يعقده هوركهايمر على إمكان تقديمهما "الدليل التجريبي على التهديد الذي تشكّله معاداة السامية للحضارة الديمقراطية"[59].

كان أملًا يائسًا. فما قاله سارتر عن اليهود كان ينطبق على الديمقراطية: "لها أعداء متعصبون ومدافعون متهاونون". فقد ذكر في القسم الثالث من كتاب **تأملات في المسألة اليهودية** الذي خُصّص لسيكولوجية اليهود: "في اللحظة التي

(58) Adorno, *The Authoritarian Personality*, p. 971.

(59) يُقارَن مع ص 518 في هذا الكتاب.

يتسلّق اليهودي قمة المجتمع القانوني، يتكشف له على نحو مباغت مجتمع آخر، غير متشكّل وشامل وموجود في كل مكان، يرفض أن يضمَّه إليه"[60]. كان هذا المجتمع الآخر، في الواقع، في كل مكان تقريبًا، وهو يتبع ما كان أدورنو قد أطلق عليه اسم "المناخ الثقافي". لم يكن المعادي للسامية إلا المدافع عن غموض مجتمع تعرضت معاييرُه العقلانية الرسمية لإساءة الاستخدام في مناخ الأحكام المسبقة والصور النمطية التي أقرّها المجتمع بوصفها إضفاء للعقلانية. "في صراع المعادي للسامية تكوّنت، من منظور أيديولوجي، كليشيهات الأحكام المسبقة 'المتداولة'، المجازَة ثقافيًا، في تنازع مع معايير الديمقراطية السائدة ومع المبدأ الذي يقضي بتساوي البشر؛ ومن الناحية النفسية، ثمة ميول أو دوافع 'هو' لاشعورية أو مكبوتة من ناحية، وأنا أعلى أو بديلها التقليدي الذي أصبح خارجيًا من ناحية أخرى"[61]. قدّمت معاداة السامية التي تُعدّ جزءًا من المناخ الثقافي لأولئك الذين لم تسنح الفرصة لتمكينهم، في أثناء إضفاء الطابع الاجتماعي عليهم، من تطوير أنا قوية، وكانوا مهددين بأن يصبحوا حمقى في تلك الصراعات، قدمت لهم "نوعًا من منطقة حرة لتشوّهات نفسية معترف بها"[62]. كانت محاولة مهمة، تشرح "طبيعية" تصورات ذُهانية جمعية محددة من خلال كونها ذات وظيفة بالنسبة إلى الثقافة القائمة. وقد بقيت طبيعية، لأنها كانت تؤكد الكليشيهات الثقافية السائدة للأحكام المسبقة بوضوح، على عكس معايير الديمقراطية السائدة رسميًا، لكن من غير التخلي عن الأخيرة بوصفها عقلانيات.

وصف أدورنو في إطار تحليله النوعي إساءة استعمال العقلانية بوصفها عقلنة التطلعات التدميرية، آخذًا مثال "محاكمات كاذبة للعقلانيات". "ضرب آخر من الدفاع الظاهري الذي واجهناه في المقابلات هو التأكيد بأن اليهود أذكياء جدًا، وأنهم 'أكثر حذقًا' من غير اليهود، ولهذا السبب يجب الإعجاب بهم. تشتمل الآلية هنا على منظومتين للقيمة تؤكدان نفسيهما، جنبًا إلى جنب، في ثقافة اليوم. تقف في ناحية 'مُثُل' السماحة والتفاني والعدالة والحب التي

(60) Jean-Paul Sartre, "Betrachtungen zur Judenfrage," in: *Drei Essays*, p. 149.

(61) Adorno, *Studien*, p. 139.

(62) Ibid., p. 122.

يجب الإقرار بأنها مجرد كلام؛ وفي الناحية الأخرى تقف معايير النجاح والإنجاز والشهرة الاجتماعية التي يجب الامتثال لها في الحياة الواقعية. تُطبَّق منظومتا القيمة هاتان على اليهود، إذا جاز التعبير، بصورة معكوسة: فهم يُمْتَدحون لأنهم يعيشون، واقعيًا أو كما يُزعم، وفق المعايير التي يسير بمقتضاها الشخص المعادي للسامية في الواقع، وهم يُلعنون، في الوقت نفسه، لانتهاكهم القانون الأخلاقي الذي كان هذا الشخص قد تخلص منه بنجاح. تستعمل اللغة المميزة للضمير لإعادة تحفيز الرصيد الأخلاقي الذي يصان 'للعدو المنتخب' لإضعاف الضمير الشخصي. وحتى المديح الذي يُغدَق لليهود، يُستعمل كدليل على ذنبهم المقرر مسبقًا"[63].

قدّم أدورنو بعبارة "عقدة الغاصب" مثالًا ساطعًا على الغريزة الصحيحة التي تدفع الشخصية الفاشية إلى الانضمام إلى الجماعة التي تتمرد ضد الحضارة الديمقراطية، وإلى تماهيه مع الأقوى. وحاول أن يفسر حقيقة أن أولئك الذين يتمحور تفكيرهم حول السلطة والقوة ويرون في سياسة روزفلت دكتاتورية قوية، لا يدعمونه بسرور، حاول أن يفسرها بأن حكومة روزفلت لم تكن في نظرهم قوية فعلًا على نحو كافٍ البتة. "لدى المحافظين الدعيّين [الزائفين] إحساس محدد 'بالشرعية'؛ يحق لمن يملك فعلًا آلة الإنتاج أن يحكم، لكن ليس من تعزى سلطته العابرة إلى عمليات سياسية شكلية. هذا الدافع الأخير الذي أدى أيضًا دورًا كبيرًا في تاريخ الفاشية الألمانية يجب أن يؤخذ بجدية أكبر، ولا سيما أنه لا يعارض الواقع الاجتماعي البتة. وما دامت الديمقراطية تصف موضوعيًا نظامًا سياسيًا شكليًا، قام تحت حكم روزفلت ببعض التدخلات في المجال الاقتصادي لكنه لم يمس قط الأسس الاقتصادية، فإن حياة الشعب تعتمد على النظام الاقتصادي للبلد، أي تعتمد، في نهاية الأمر، على من يضبط الصناعة الأميركية أكثر من اعتمادها على نواب الشعب المنتخبين. يشعر المحافظون الدعيّون باللاحقيقي في فكرة الحكومة الديمقراطية 'عبر الشعب'، ويعرفون أنهم لا يحددون مصيرهم كأفراد اجتماعيين حقيقةً من خلال مسار صناديق الاقتراع. لكن مرارتهم في هذا

---

(63) Ibid., p. 145.

الخصوص لا تتوجّه ضد التناقض الخطير بين التفاوت الاقتصادي والمساواة السياسية الشكلية، بل تتوجّه ضد شكل الدولة الديمقراطي نفسه. وبدلًا من أن يحاولوا إعطاء هذا الشكل المضمون الذي يلائمهم، يريدون تحطيمه والإتيان بالحكم المباشر لأولئك الذين يعتبرونهم، ببساطة، الأقوياء"[64].

ما قاله هنا أدورنو عن المحافظين الدعيّين ينطبق عمومًا على أدعياء الديمقراطية. فهُم يستندون إلى القيم الأميركية التقليدية والمؤسسات، لكنهم يتوقون، بوعي أو بلا وعي، إلى التقريب بين تصورات الأغلبية الصامتة، "الأغلبية الأخلاقية".

في أي حال، كان ثمة "محافظون دعيون" بين الديمقراطيين في الولايات المتحدة الأميركية، حيث كانت كلمة "محافظ" تشير إلى موقف يختلف عما هو عليه الحال سابقًا في أوروبا التي كان يحكمها الأرستقراطيون؛ موقف كان ينتمي دائمًا إلى طيف المعسكر الديمقراطي-البرجوازي-الرأسمالي، تحت مظاهر أيديولوجية محافظة أكثر منه تحت مظاهر ليبرالية أو حتى اجتماعية. وعلى الرغم من أن أدورنو غالبًا ما استعمل مفاهيم أدعياء النزعة المحافظة وأدعياء الليبرالية وأدعياء الديمقراطية وحتى أدعياء المجتمع كمترادفات، فإنه أدخل على نحو خاص مفهوم "نزعة المحافظة الكاذبة" كي يستطيع تفسير الأهمية السياسية والاقتصادية لإدراكات المستبيَنين الذين أجريت المقابلات معهم. لدى "أدعياء المحافظة" كان هناك تطابق فاشل مع القيم والمؤسسات التقليدية، ولم تشكل النزعتان المحافظة والتقليدية سوى السطح العقلاني للمثيرات التمردية التدميرية. أما لدى "المحافظين الحقيقيين" فكان ذلك التطابق ناجحًا، وترافق التعلق بالأشكال الليبرالية والفردية للرأسمالية مع المواقف والسلوكيات الديمقراطية.

لكن لا يكاد يوجد بعد محافظون حقيقيون في الولايات المتحدة الأميركية؛ هذا ما كان يظنّه أدورنو. لقد دُفعوا نحو المعسكر الليبرالي - في رأيه - بسبب الظروف المتحوّلة التي بمقتضاها كان يعني أن تكون محافظًا مزيدًا من التحريض ضد العمال وضد الأقليات؛ أي بالنسبة إلى الولايات

(64) Ibid., pp. 220 f.

المتحدة الأميركية، دُفعوا إلى معسكر أولئك الذين يقفون في صف التصورات الإصلاحية الاشتراكية للصفقة الجديدة ويفضلون تدخل الدولة لمصلحة الأكثر ضعفًا. وعليه فإن معظم المستبيَنين ممن لهم آراء سياسية واقتصادية محافظة كانوا محافظين أدعياء. كان لهذا الأمر نتائج على تفسير موضوع كان يتعارض مع توقعات مجموعة بيركلي التي أخذت في الحسبان أن المركزية الإثنية ونزعة المحافظة السياسية-الاقتصادية ترتبط إحداهما بالأخرى ارتباطًا قويًا. فقد كان السود واليهود مثلًا وكذلك العمال ضحايا التمييز وطرائق التفكير والعلاقات التراتبية. بيد أن الارتباط بين المقياسين E وPEC، أي بين المركزية الإثنية ونزعة المحافظة السياسية-الاقتصادية، كان بوضوح أقل من الارتباط بين مقياسَي E وF، أي بين المركزية الإثنية والميول الفاشية النفسية. كانت الرؤى المحافظة السياسية-الاقتصادية منتشرة على نطاق واسع جدًا، وقد تبناها في غضون ذلك كثيرٌ ممن لم يحصلوا على قيم مرتفعة على مقياس E.

لم يبدُ هذا نتيجة مفاجئة على نحو خاص. فالاشتراكية لم تحظَ في البلد الذي اعتُبر بلد الفرص غير المحدودة على الإطلاق، ولو على وجه التقريب، بالأهمية التي حققتها في بلدان أوروبية؛ فلقد تمتعت الرأسمالية هنا بجاذبية مستمرة إلى حد بعيد. كذلك لم تحتج الرأسمالية إلى المركزية الأوروبية كصمام ضد الخيبات والأحقاد والضغائن. ألم يكن الأمر محض أحكام مسبقة للأكاديميين اليساريين الذين أرادوا تفنيد النزعة المحافظة السياسية-الاقتصادية من طريق إظهار علاقة بين المركزية الأوروبية وبنى الشخصية الفاشية التي تم اكتشافها؟

لكن أدورنو رأى الأمر على نحو مختلف. فلقد دفعه الجهل العام والبلبلة في المجال السياسي-الاقتصادي، والاتجاه العام نحو التنميط والشخصنة - والذي كان عند المنحازين أقوى عمومًا مما هو عند غير المنحازين، لكنه لم يغب عند هؤلاء تمامًا - دفعه إلى التأكيد: "عندما تميز سمةً إحصائيًا بين أشخاص بنقاط عليا وأشخاص بنقاط دنيا على مقياس E - وذلك بحيث يأتي ترتيب 'ذوي النقاط العليا' أعلى - تصح عمومًا على جميع أفراد الدراسة، يجب أن نستنتج عندئذ أن الأمر يتعلق بسمة في ثقافتنا بالذات [...]. إن حقيقة

أن الأمر يتعلق من حيث الإمكان بملامح فاشية، تثبته واقعة أنها 'تتوافق'، من الناحيتين الإحصائية والنفسية ومن كل النواحي، مع قيم عليا على المقياس؛ فإذا ظهرت مرارًا بصورة كافية في مقابلات أشخاص أحرزوا نقاطًا منخفضة، علينا أن نستنتج أننا نعيش في أزمنة فاشية من حيث الإمكان"[65]. من وجهة نظر أدورنو كانت، إذًا، نزعة المحافظة السياسية-الاقتصادية مؤشرًا أكثر أهمية على الميول النفسية الفاشية من القيم المسجلة على مقياسي المركزية الإثنية E والفاشية F. وقد عمد من خلال إنقاذه نزعة محافظة حقيقية يقع المرء عليها في أوروبا أكثر من الولايات المتحدة الأميركية، إلى تصنيف نزعة المحافظة عند المستبيَنين عمومًا بأنها نزعة محافظة كاذبة، ولأن المحافظين في الولايات المتحدة الأميركية كانوا يُعتبرون ديمقراطيين وأميركيين جيدين تمامًا كما كان الليبراليون، لا بل أكثر من الليبراليين بعد عام 1945، فإن تمييز أدورنو المفهومي كان يخفي نقدًا يساريًا أوروبيًا جدًا لطريقة الحياة الأميركية وللحضارة الأميركية، وهو، بوصفه ناقدًا للرأسمالية الاحتكارية ولصناعة الثقافة، كان مضطرًا، في الواقع، أن يتوقع شكل تمرد حديث جدًا ضد الحضارة المخفقة، أي شكل فاشية حديثة.

خلص التصنيف النمطي (Typologie) الذي وضعه أدورنو، والذي اختتم به النص الرئيسي لدراسة بيركلي، إلى نتائج مماثلة. كان من المفترض أن تمكّن الدراسة من إجراءات دفاع هادفة تمثل، في نهاية المطاف، هدف مشروع معاداة السامية. وكان من المفترض أيضًا منح معالم لحزمة المتغيرات في "الشخصية الفاشية" عبر إبراز أشكالها المختلفة التي ارتسمت من خلال القُرب الكبير من التجربة اليومية ومن خلال مراعاة الحالات النفسية-الحركية. أُكمل هذا التصنيف بتصنيف نمطي لأنواع الشخصية المتحررة من التحيّز. وكان مبدأ أدورنو الرئيسي في التبويب هو معرفة إلى أي مدى كان الأشخاص أنفسهم طبيعيين وفكروا في نماذج نمطية، أو كانوا أفرادًا "حقيقيين"، وكانوا قادرين على تجربة حية، ويقاومون النمذجة في مجال التجربة الإنسانية.

---

(65) Ibid., p. 178.

اعتبر أدورنو "المضاربين" النموذج الأخطر من حيث الإمكان، لا بل أخطر من "الحقد السطحي"، ومن "التقليدية"، ومن "السلطوية"، ومن "المصابين باعتلال الشخصية"، ومن "غريبي الأطوار". بهذا حاول أن ينصف تجارب الماضي الحديث، وأن يظهر المفاهيم المركزية في **جدل التنوير وكسوف العقل** التي وصل فيها نقد وضعية حلقة هوركهايمر إلى ذروته. "كل ما هو تقني، وكل الأشياء التي يمكن أن تُستعمل كـ'أدوات'، مشحونة بالليبيدو. المهم أن 'يُفعل شيء ما'. ثمة أمثلة كثيرة على هذه البنية بين رجال الأعمال، وبمقدار متزايد أيضًا في شريحة المديرين والتقنيين الطموحين الذين يتخذون في العملية الإنتاجية موقعًا وسطًا بين النموذج القديم للمتعهد والنموذج القديم للعامل الأرستقراطي. ولعل هملر كان رمزًا لممثلين كثيرين لهذا التناذر بين السياسيين المعادين للسامية والفاشيين في ألمانيا؛ فذكاؤهم البارد والغياب الكلي تقريبًا للانفعالات يجعلهم، بالتأكيد، في عداد أولئك الذين لا يعرفون الرحمة. ولأنهم يرون كل شيء بعيون المنظّم، فهم مستعدون للحلول الشاملة. هدفهم تركيب غرف الغاز أكثر من اضطهاد اليهود. بل إنهم لا يحتاجون إلى كره اليهود، فهم 'يقضون' على ضحاياهم بطريق إداري من دون الاتصال بهم شخصيًا"[66].

لم يكن موقف معاداة السامية في النهاية الأمر الحاسم، بل مواقف وسلوك أولئك الذين يفتقرون إلى أي احترام للكائن الحي، للإنسان، ولضحايا التمييز. لم تكن معاداة السامية مهمة، بل غياب نزعة حقيقية معادية للسامية. لا بل إن غيابها جعل ممن لم يعرف عنهم، حتى بين الأصدقاء الموثوقين أو في المحيط القريب، أي معاداة للسامية، "أشباه لاساميين" (هوركهايمر).

لهذا السبب لم يحمل تراجع معاداة السامية في الولايات المتحدة الأميركية لمجموعة بيركلي ولأدورنو ما يطمئن، كذلك الحال عندما وجد منذ زمن طويل مكافئًا: معاداة الشيوعية. من ناحية كان أدورنو خائفًا للغاية؛ ففي تصحيحه نص دراسة بيركلي المطبوع، مضى بعيدًا في مطالبته وليام ر. موريس الذي كتب الفصل حول سجناء سان كوينتن، أن يتدارك بالتصحيح التعابير

(66) Ibid., p. 335.

الصادمة في أقوال السجناء التي يستشهد بها. لكنه، من ناحية أخرى، عبّر في تفسيره مادة المقابلات عن وجهة نظره من دون مواربة بقوله: "في السنوات الماضية، كانت آلة الدعاية الراهنة مكرسة بأكملها لتقوية العواطف المعادية للشيوعية بهدف إثارة 'هلع' لاعقلاني، ومن المحتمل ألا يكون هناك أناس كثيرون، باستثناء 'المخلصين للخط'، يمكنهم مقاومة الضغط الأيديولوجي المستمر على الأمد الطويل. وفي الوقت عينه، ينظر على نحو متزايد، في السنتين أو الثلاث سنوات الأخيرة، إلى معارضة معاداة السامية العلنية على أنها 'نغمة طيبة'، إذا جاز اعتبار العدد الكبير من مقالات الصحف والكتب والأفلام السينمائية بنسخ كبيرة عرضًا لهذا التوجه. هذه التقلبات لا يمكن أن تعزى إلى تغير بنية الشخصية. فإذا أمكن تحديدها بدقة، يمكن أن تظهر الأهمية القصوى للدعاية [البروباغندا] السياسية. فالدعاية تحدد، إذا ما توجهت نحو القوة المعادية للديمقراطية في الشعب، إلى حد بعيد اختيار الموضوعات الاجتماعية للعدوانية النفسية"[67].

وإذ استمرت بنية الشخصية التي تقوم عليها معاداة السامية - بنية شخصية لم يذكر مؤلفا **الشخصية السلطوية** حول انتشارها وآفاقها المستقبلية شيئًا واضحًا، لكن هوركهايمر رأى في مقدمته أنها تهدد بالظهور مكان النموذج الفرداني والديمقراطي - توصلت مجموعة بيركلي في قرارها إلى الخلاصة التالية: أفضى إثبات أن الجوانب المختلفة لفرد تشكل بنية كلية إلى نتيجة مفادها أن إجراءات دفاع البنية الكلية تنطبق على الشخصية المنحازة. "يجب أن ينصب التأكيد الرئيسي، كما يبدو، ليس على التمييز ضد مجموعات أقلوية خاصة، بل على ظواهر مثل النمطية، والبرود العاطفي، والتماهي بالسلطة، والتدمير العام"[68].

ما العمل إذًا؟ تغيير المجتمع، كما ترى مجموعة بيركلي (وضع هذه المهمة برسم اجتهاد جميع علماء المجتمع الذين يتعيّن أن يكون لعالم النفس صوت بينهم، كي يُعنى باعتبار هذه الأشكال الاجتماعية التي تغير بنية

---

(67) Adorno, *Studien*, p. 278.

(68) Adorno, *The Authoritarian Personality*, p. 973.

الشخصية المتحيزة ممكنة). لكن أليس هذا مستقبلًا غير ملزم، عندما يرى المرء - كما فعل أدورنو مرة أخرى أيضًا في الفصل الذي أعدّه لأجل **الشخصية السلطوية** حول مكانة دراسة بيركلي - الإنسان الحديث مقتصرًا على حزمة من الاستجابات التي يوجهها مباشرة مجتمعٌ مندمج تمامًا، حزمة استجابات لا تقوى بعد الآن حتى على معاداة سامية "عفوية" على حد تعبير أدورنو[69]، ولم تقدم مطلقًا أي موضوع ملائم لعلم نفس فعلي، بحيث يغدو عالمُ النفس الذي يدرسه عالمَ اجتماع حتمًا، لأنه يصطدم بالفرد الموهوم بالمجتمع على نحو مفاجئ؟

لذلك كانت الكلمة الأخيرة للدراسة - لا شك في أن أدورنو هو مصدرها - ضربٌ من الأمل الغريزي الطوباوي في انقلاب من خلال تحويل أقطاب القوى، يشبه كثيرًا أمل فروم وماركوزه المتأخر. "الحقيقة أن النموذج الفاشي الاحتمالي مفروض إلى حد بعيد على أناس لديهم حياله بعض الأمل في المستقبل. يُفرَض على الناس التكيّف باستمرار من أعلى، لأنها يجب أن تتكيّف إذا كان يتعين الحفاظ على النموذج الاقتصادي بكامله، وكان لمقدار الطاقة التي تدخل إلى هذه العملية علاقة مباشرة بمقدار القوة المستقرة في الناس لاتخاذ اتجاه مختلف. من الحماقة التقليل من شأن القوة الفاشية الذي عُني بها هذا المجلد بصورة رئيسية، لكن سيكون من غير الحكمة تجاهل حقيقة أن معظم موادنا لا تعرض نموذج المركزية الإثنية المتطرف، وتتجاهل حقيقة أن هناك طرقًا متنوعة يمكن من خلالها تجنبها بالكامل. على الرغم من أن هناك سببًا للاعتقاد بأن الذين يصدرون الأحكام المسبقة هم الذين يكافأون أكثر في مجتمعنا بمقدار ما يتعلق الأمر بقيم خارجية (عندما يتخذون طرقًا مختصرة لهذه المكافآت، ينتهي بهم الأمر في السجن)، فإننا لا نحتاج إلى افتراض أن على المتسامحين أن ينتظروا الحصول على مكافآتهم في الجنة، إذا جاز التعبير. في الواقع، هناك سبب وجيه للاعتقاد بأن المتسامحين يحصلون على إرضاء أكبر للحاجات الأساسية. ومن المحتمل أنهم يدفعون مقابل هذا الرضى شعورًا واعيًا بالذنب، لأنهم كثيرًا ما يضطرون إلى السير ضد المقاييس

(69) Adorno, *Remarks on 'The Authoritarian Personality'*, p. 28.

الاجتماعية السائدة، لكن البيّن أنهم أسعد من المتحاملين والمتعصبين. وعليه، لا نحتاج إلى افتراض أن التوجُّه إلى العاطفة ينتمي إلى أولئك الذين يسعون في اتجاه الفاشية، في حين أن على الدعاية الديمقراطية أن تحدد نفسها بالعقل والكبت. إذا كان الخوف والتدمير المصدرين العاطفيين في الفاشية، فإن الإيروس ينتمي إلى الديمقراطية"[70]. هذا التطابق بين المؤلفين بشأن مسألة الديمقراطية وضع الديمقراطيةَ في الولايات المتحدة الأميركية في الدرك الأسفل، وتوقّع من ضحاياها، وليس منها، القدرة على التغيير.

كان من الصعب أن يروق للجنة اليهودية الأميركية التي كانت تحرص على الاندماج، تشخيصُ إمكان معادٍ للديمقراطية لم يجد مؤشراته في معاداة السامية أو في التحيّز ضد الأقليات عمومًا، بل في الانتشار العام لمواقف نمطية سياسية واقتصادية محافظة، ولم يعتبر الديمقراطية في الولايات المتحدة الأميركية في الصميم نظامًا مجتمعيًا صحيًا حرر نفسه من خلال أفعال دعائية وتنويرية وتربوية ملائمة. اتضح هذا بدقة في نقد لـ "دراسات في التحيز"، خصوصًا [كتاب] **الشخصية السلطوية**، نشرته مجلة *Commentary* (**كومنتري**) التي تصدر عن اللجنة اليهودية الأميركية، وقد كان نقدًا مفصلًا ومتخصصًا، وحظي إجمالًا بإطراء كبير. كتب النقد ناثان غليزر الذي كان أحد ناشري المجلة وأحد المشاركين في تأليف كتاب **الحشد الوحيد: دراسة في الشخصية الأميركية المتغيّرة** الذي صدر في العام نفسه الذي صدر فيه [كتاب] **الشخصية السلطوية**. هذه الدراسة التي استعملت صراحة مفهوم فروم عن الشخصية الاجتماعية أظهرت بتمييزها بين نماذج الشخصية المشتقة من التقاليد، والمشتقة من الداخل والمشتقة من الخارج بعض التشابه مع تصورات **الشخصية السلطوية** (كتب هوركهايمر ذات يوم إلى ماركوزه عن ديفيد ريزمان، المؤلف الرئيسي الذي أصاب شهرة عبر كتاب **الحشد الوحيد**، عندما عثر على مقالة لريزمان في واحد من الكتب التي كان يريد ماركوزه إرسالها إلى واشنطن: "عندما جمعت الكتب التي تريدني أن أحتفظ بها لك، وجدت مخطوطة للسيد ريزمان حول معاداة السامية، أريد أن أحتفظ بها إذا سمحت. من هو السيد ريزمان هذا؟

(70) Adorno, *The Authoritarian Personality*, p. 976.

أفكاره تلتقي بقوة مع أفكارنا حول الموضوع. إنه يبدو إما رجلًا ذكيًا جدًا وإما أنه درس منشوراتنا بنجاح"[71]).

امتدح غليزر تألق تحليلات أدورنو النوعية، غير أنه جعل منها مناسبة لممارسة نقد حاسم يتمثل في كون المؤلِّفين يؤكدان نظرية مجتمع محددة بوصفها النظرية الصائبة الناجعة واعتبارهما الانحرافات الشائعة علامة على أزمنة الفاشية الممكنة. "ألا يمكن البرهنة على أن 'الاستياء من الاندماج' أو من 'القيود على الدخل' هي 'من حيث الإمكان قناعات فاشية'؟ هنا لن يكون المرء مقتنعًا بأنها فاشية بلا ريب، بحجة أنها مرتبطة بوجهات نظر أخرى. لماذا لا يمكن أن تكون هذه المواقف في شخصية سلطوية عمومًا تقدم أملًا للعمل لمصلحة الديمقراطية؟ إذا كان شخص مستاءً من الاندماج، فيمكن أن يكون مستاءً مما يدركه بوصفه خرقًا غير مشروع لحرياته. على نحو مشابه، يستطيع المرء حتى في هذا الكتاب أن يجد دليلًا يبيّن أن الاستياء من تحديد دخل أحدهم قد لا يكون خاصية ما قبل فاشية؛ فمثلًا، غير السلطويين أكثر اهتمامًا من السلطويين بالسعادة الحسية والمادية، وأقل اهتمامًا منهم بالمكانة والقوة. وفي الواقع، ألم يكن الدخل يبحث عن السعادة، إضافة إلى المكانة والقوة؟"[72]. كان هذا واضحًا. يجب محاربة التحيز، لكن ليس بصورة يوجَّه فيها النقد المبدئي إلى الطريقة الأميركية.

مضى إدوارد شيلز خطوة أبعد في مقالته "السلطوية: 'يسار' و'يمين'" التي نُشرت في عام 1954 في **دراسات في مجال وطرائق "الشخصية السلطوية"** التي أصدرها ريتشارد كريستي (Richard Christie) وماري ياهودا. ينتمي شيلز، الذي كان لزمن طويل مساعدًا لبيتلهايم في مشروع المحاربين القدامى في شيكاغو، إلى أولئك المثقفين الذين لم يكونوا نادرين في الماضي، ممن كانوا ذات يوم ليبراليين، وأصبحوا في مناخ الحرب الباردة والمكارثية محافظين معادين للشيوعية. أخذ على مؤلِّفي **الشخصية السلطوية** العين الزرقاء إزاء الشيوعية من حيث هي نوع مهم من الحكم المسبق. وهذا لم يكن خطأً من

(71) رسالة من هوركهايمر إلى ماركوزه، 3 نيسان/أبريل 1943.

(72) Nathan Glaser, "The Authoritarian Personality in Profile," in: *Commentary* (June 1950), p. 580.

الناحية المبدئية. كان أدورنو قد ميّز عند المتحررين من الأحكام المسبقة بين "الجامدين"، و"المحتجين"، و"المندفعين"، و"المتحررين من الأحكام المسبقة بلا إكراه"، و"الليبراليين الحقيقيين"، وأقر للأخيرَين بتوازن مثالي بين الأنا الأعلى والهو. لكن لم يكن لديه بصورة واضحة صنف من اليساري الزائف في مقابل المحافظ الزائف. بدا أن هذا الصنف ترك ملحقًا في إطار تناذرَي المتحرر من الأحكام المسبقة "الجامد" و"المحتج". لكن ما الذي يجب أن يكونه عندئذ مفهوم المتحرر من الحكم المسبق؟ كان هذا سيكون أكثر من عذر لليسار الزائف الفعلي؛ أو يمكن أن يشير إلى أن اليسار الزائف كان يقوم أيضًا على بنية الشخصية الفاشية، أي يمكن إلحاقهم بتناذرات المتحيزين. يمكن فعل هذا في الواقع، غير أن تعبير "فاشي" في مفهوم "الشخصية الفاشية" لم يُقصد بالمعنى السياسي. ألم يفعل ذلك أدورنو ومجموعة بيركلي الآخرون؛ تارة خجلًا من الحديث عن فاشية يسارية، أي عن شيوعية زائفة أو اشتراكية زائفة راسخة في بنية شخصية فاشية، وتارة أخرى لأن هذا النموذج في عيّنته نادر للغاية، يضاف إلى ذلك أنه لم يكن ذا أهمية اجتماعية في الولايات المتحدة الأميركية، حيث كان الحزب الشيوعي ضعيفًا دائمًا، وكان في الوقت نفسه محظورًا بعد نهاية الحرب؟ إذًا، أصاب نقد شيلز علميًا مشكلة هامشية. إن حقيقة أن شيلز علّق أهمية كبيرة عليه له أسباب سياسية خالصة، ويؤشر إلى المناخ الذي استُقبِل به كتاب **الشخصية السلطوية**، والذي ركّز إلى حد بعيد على المناحي المنهجية والتقنية.

من بين الكتب الأخرى المتبقية من "دراسات في التحيّز" التي تستظل بـ **الشخصية السلطوية**، يُعَدّ **ديناميات في التحيّز** الكتاب الأغنى بالأفكار، والأقرب إلى **الشخصية السلطوية** من حيث الموضوع. كان الدافع لبحث قدامى المحاربين هو التفكير في أنهم يشكلون مجموعة اجتماعية مهمة تعاني من صعوبات خاصة في التكيف مع اقتصاد السلم، أي من المفترض أن يُلاحَظ عندهم جيدًا تحت أي شروط يحصل تفريغ المشاعر العدائية في هيئة عدم تسامح إثني، وخصوصًا تجاه اليهود والسود. تَشكّل الأساس التجريبي من مقابلات مع 150 من قدامى المحاربين في شيكاغو دون رتبة ضابط ممن يُنسبون إلى الطبقة الدنيا وإلى الشريحة الدنيا من الطبقة الوسطى. كانت

المقابلات أطول مما هي في بيركلي، إذ كانت تستمر أربع إلى سبع ساعات. وكان يقوم بإجرائها - في بيوت المستبيَنين قدر المستطاع - ست شابات يعملن في الخدمة الاجتماعية ممن تلقّين تدريبًا نفسيًا. وبناء عليه كان ينبغي خلق جو "مقابلة سعيدة مع أنها مكثفة"[73]، تسهل على المستبيَنين الحديث بصراحة عن تجارب زمن الحرب وصعوبات التكيف الراهنة، ثم بعد ذلك، عندما يتاح الحديث في طور متأخر من المقابلة، بداية على نحو غير مباشر وفي النهاية بصورة مباشرة عن موضوعات إثنية، توضيح مواقف عميقة.

من الناحية النفسية-التحليلية، افترق البحث حول المحاربين القدامى أيضًا في نقطتين أساسيتين عن **الشخصية السلطوية**: أُبرزت الأهمية الإيجابية للحكم المسبق بالنسبة إلى المتحيزين بقوة أكثر ونُظر إليها بتفهم أكبر؛ كما نُظر إلى مؤسسات المجتمع القائمة، بما فيها الجيش، بوصفها شيئًا إيجابيًا يقبله بصورة طبيعية أولئك الذين لم يملأ الحقد قلوبهم، ويرفضه من لا يستطيعون مراقبة أنفسهم، أو من لا يَدَعُون أنفسهم للمراقبة، وكانوا يعتمدون على التعصب الإثني لتفريغ توتراتهم. رأى بيتلهايم ويانوفيتس متصلًا [سلسلة متصلة أو Kontinuum] "من الرقابة الداخلية الذاتية إلى الرقابة الخارجية؛ من رقابة الأنا إلى رقابة الأنا الأعلى، إلى قبول طوعي برقابة خارجية، إلى رقابة خارجية تحت خضوع على مضض، وصولًا في النهاية إلى ضروب من الرقابة كانت من عدم الملاءمة بمكان جعلها لا تستطيع تأكيد نفسها إلا في المناسبات وعلى نحو غير مؤثر. جاءت المجموعة الأخيرة في المتصل من التسامح إلى التعصب، أي المجموعة المتشددة من معادي السامية، وراء متصل الرقابات هذا"[74]. ومن غير أن يخوضا في تقويم عام لنظام المجتمع في الولايات المتحدة الأميركية، أكدا فقط أن "البيانات المتوفرة تدل على أنه بينما تكون الحركة المتقدمة ببطء وثيقة الارتباط بالتسامح، تكون الحركة السريعة، سواء أكانت نحو الأعلى أو نحو الأسفل، مرتبطة على نحو إيجابي بالخصومة بين الإثنيات"[75]. أما مؤلفا

(73) Ibid., p. 10.

(74) Ibid., p. 138.

(75) Ibid., p. 61.

الشخصية السلطوية فقد أثبتا العكس تمامًا: "نحن مدفوعان إلى الشك، على أرضية النتائج في مجالات متنوعة، أن حركة الطبقة نحو الأعلى والتماهي مع الأمر الواقع يرتبطان إيجابًا بالمركزية الإثنية، وأن حركة الطبقة نحو الأسفل والتماهي يتماشيان مع اللامركزية"[76].

نظرًا إلى غياب الرابط بين الدراستين، يتعذر القول إلى أي مدى تُعزى هذه الفروق إلى اختلاف الانتماء الطبقي للعينات المدروسة أو إلى أي مدى اكتشف بيتلهايم الميول التدميرية الراسخة، استنادًا إلى مقابلات مكثفة، بقبضة مباشرة أكثر من مجموعة بيركلي من طريق العلاقة بمؤسسات المجتمع القائمة. لكن كان من الواضح أن مؤلفي دراسة شيكاغو لم يشاطرا وجهات النظر الاجتماعية النقدية لمجموعة بيركلي، ووجدا في القدرة على المشاركة في طريقة الحياة الأميركية علامة على شخصية حسنة التطور، بينما رأى فيها مؤلفو دراسة بيركلي علامة تكيف مع مجتمع مليء بالإخفاقات والمظالم، وبالتالي مرتعًا للأحكام المسبقة.

لم يقم مؤلفا **معاداة السامية والاضطراب العاطفي**، الذي كان ألفين غولدنر من بين من ساعدهما، وخلافًا للخطة التي وضعها هوركهايمر، بإنجاز استبيان خبراء بعيد الأمد، يتعيّن فيه إجراء مقابلات مع عدد كبير من المحللين النفسيين في شأن حالات من المرضى الذين تمارس معاداة السامية دورًا عندهم، بل حصرا نفسيهما بسبع وعشرين حالة أخبر عنها محللون نفسيون، ونوقشت بالتفصيل في مقابلات مع هؤلاء المحللين، وأُكْمِلت جزئيًا بثلاثة عشر تقريرًا عن حالات ترعاها مؤسسات اجتماعية. كان من غير الممكن أن يؤدي مثل هذا الأساس المادي المحدود والبعيد إلى تأكيدات مهمة أو تدقيقات أو إضافات لكتاب **الشخصية السلطوية** الذي تضمّن فصلًا عن "الصحة المعتلة نفسيًا وعلاقتها بفاشية محتملة: دراسة لمرضى العيادة النفسية"، لم يكن أقل حجمًا من كتاب أكرمان وياهودا. كان أكرمان وياهودا متحفظَين في تقويم مادتهما، حيث أمكن مع بعض التحفظ أن يُستنتج فقط أن ما كان قد قيل في الشخصية

(76) Adorno, *The Authoritarian Personality*, p. 204.

السلطوية بناء على دراسة 121 مريضًا في مشفى للأمراض النفسية كان بوضوح صحيحًا من حيث المبدأ: لم توجد علاقات لافتة بين التحيّز والمرض النفسي. ارتبط ظهور التحيّز لدى مجموعات بسمات معينة للشخصية تعارض التصنيفات النفسية المرضية، لكنها غالبًا ما كانت لدى المرضى نفسيًا أكثر شدة[77]. ظهرت حالات الاكتئاب ومشاعر النقص والإثم لدى ذوي التقييم المنخفض في الاستبيان من المرضى النفسيين حصرًا بأشكال أكثر شدَّة مقارنة بـ"الأشخاص الطبيعيين"، بينما اتخذت حالات الخوف، خصوصًا الخوف على الصحة الجسدية، بين ذوي التقييم العالي من المرضى النفسيين حصرًا أشكالًا أكثر عنفًا مقارنة بـ"الطبيعيين" من ذوي التقييم العالي.

قُدمت التوقعات أو الفرضيات التي تفنَّد بهذه الحجة، بصورة شديدة الوضوح، في فصل الطب النفسي والمرضى من كتاب **الشخصية السلطوية**. وبيّنت إحدى الفرضيات أن المركزية الإثنية للمتحيزين كانت تُعزى إلى مواقف لاعقلانية تنتج من الصراعات العصابية. لهذا السبب يُعثر على هؤلاء كثيرًا بين المرضى النفسيين، في حين تتحقق آراء غير المتحيزين بطريقة عقلانية، متساوقة مع الواقع. إنهم الأشخاص "الطبيعيون". أما الفرضية المقابلة فتبيّن أن الأفراد المتحيّزون هم "الطبيعيون"، لأنهم منسجمون جيدًا مع ثقافتهم التي يعد التحيز جزءًا منها، والتي تبنّوها رأيًا لهم. في حين أن أولئك المتحررين من التحيز الذين تمردوا على آبائهم وانتفضوا في وجه كثير من التقاليد السائدة، يمكن العثور عليهم عادةً بين المرضى العقليين. أظهرت نتائج البحث أن الانسجام وعدم الانسجام مع شروط سيئة كانا يتمان مقابل ثمن. ووجد أكرمان وياهودا بعض الأدلة التي تدعم الفرضية التي صيغت بحذر في **الشخصية السلطوية** والتي تفيد بأن من حصلوا على نقاط منخفضة يميلون في حالات المرض أكثر إلى تطوير عصابات، لأن أناهم تطورت بقوة أكثر، في حين كان من نالوا نقاطًا مرتفعة يميلون أكثر إلى تطوير حالات ذهانية، لأن أناهم بقيت متخلفة كما ينبغي بسبب النشأة الصارمة.

(77) Adorno, *The Authoritarian Personality*, pp. 964 f.

تضمّن **الشخصية السلطوية** - الكتاب الوحيد الذي شارك أدورنو بتأليفه مباشرة - نظرية للمجتمع على نحو غير مباشر ونقدًا للمجتمع مباشرًا. وكان، بالتالي، الكتاب الوحيد الذي أثار نقدًا سياسيًا إلى جانب النقاش التخصصي حول طرائق البحث. لكن كيف كانت العلاقة بين العوامل الذاتية وتلك الموضوعية في نظرية معاداة السامية أو في نظرية التحيز؟

أُنجز تحليل المناحي الذاتية، في الواقع، في قسمه الأساسي من خلال **الشخصية السلطوية** وكتابين آخرين من "دراسات في التحيّز". يضاف إلى ذلك أن البحث في التحيّز ذا التوجّه الاجتماعي-النفسي قد تطور في الأربعينيات في الولايات المتحدة الأميركية إلى فرع بحثي واسع النطاق، وكان قد ظهر في ما نشر إبان العمل على مشروع معاداة السامية، تحليلان في مشكلة معاداة السامية أو التحيز، ثمّنهما أدورنو عاليًا، وهما: **تأملات في المسألة اليهودية** لسارتر (1946) و**مشكلات في التحيز** (1946) ليوجين هارتلي. لكن كيف كان الأمر مع العوامل الموضوعية التي كانت قد استهدفتها اقتراحاتٌ لأدورنو في عام 1944 من أجل البرنامج الأقصى لمشروع معاداة السامية؟

كان الأمر سيئًا؛ فأدورنو كان يميل - قياسًا بتحليلاته الأولى للموسيقى الجديدة التي تميّز رؤيته لتطابق ما يصنعه الفنان الكبير بوصفه جوهرًا واحدًا [موناد] مع السمة الموضوعية للعصر - إلى أن يرى في نوع التحليل النفسي الذي مارسه في الوقت ذاته التحليلَ الاجتماعيَّ المستحق أو على الأقل الجزء المهم منه. التزم علم النفس الفردي التحليلي بالنظرية الأرثوذكسية للاوعي والكبت وأفكار الهو والأنا والأنا الأعلى، ولم يقحم نفسه في النقل المشكوك فيه للحالات الفردية النفسية إلى المجتمع ولا في إضفاء الطابع الاجتماعي الإصلاحي على علم النفس، وسجّل - برأي أدورنو - في الفرد تلك القوى الموضوعية التي شكّلته أكثر من أي وقت مضى ولم يكن، في الوقت نفسه، على وعي بها مطلقًا. جاء في الفصل حول أهمية **الشخصية السلطوية** الذي كتبه أدورنو، ولم يُنشر: "لاكتشاف كيف تعمل القوانين الاقتصادية الموضوعية ليس من خلال 'التحفيزات' الاقتصادية الفردية، بل من خلال تركيبه اللاواعي، يتطلب الأمر بحثًا نوعيًا شاملًا ومخططًا بدقة. في أي حال، نجازف باقتراحنا أن حل المشكلة يمكن أن يشرح لنا بصورة علمية صحيحة طبيعة التحيز

المعاصر. لقد قدمت دراستنا مادة أولية ضخمة وعددًا من الفرضيات من أجل مهمة كهذه"[78]. يتبدى في نَفْس المعادين للسامية، كما يعتقد أدورنو، السبب الاقتصادي-الاجتماعي لمعاداة السامية؛ علم نفس المعادي للسامية الذي يتم تطبيقه بإحكام يفضي إلى "الأنثروبولوجيا الثقافية"[79] لمعاداة السامية.

لكن نجمت عن ذلك المشكلة نفسها التي ظهرت في تصوّر أدورنو للنقد المحايث الذي تبنّاه طوال حياته والذي لم يظهر من دون دفعة من التعالي. وهكذا، لم يكن من الممكن أن يظهر أيضًا تحليل العوامل الموضوعية من خلال التحليل العميق للعوامل الذاتية من دون معرفة جوهرية بالعوامل الموضوعية. لكن هل كانت معرفة العوامل الموضوعية التي يمتلكها هوركهايمر وأدورنو، أو التي كانت بتصرفهما، راهنة وعيانية كفايةً كي تجعل "النقد المحايث" الصحيح ممكنًا؟ ألم يعتبر هوركهايمر وأدورنو أيضًا التحليل الراهن والملموس للعوامل الموضوعية حتى في فترة مشروع معاداة السامية ثغرة حاسمة يجب سدّها؟ وبالنظر إلى استحالة تحقيق هذه المهمة بالحلقة من المساعدين التي يقبلان بها، قاما على مر السنين بكبتها أو تعلما إهمال التذكير بها بأشكال العمل الذي كانا يقومان به. عندما عادا إلى فرانكفورت، أتيا بوصفهما مؤلفي **جدل التنوير** و"دراسات في التحيز" والروح المحرّك لهما، وبوصفهما فيلسوفَي التاريخ وناقدَي الثقافة، وبوصفهما متضلّعَين من علم النفس الاجتماعي ومن تقنيات البحث العلمي الاجتماعي الحديثة، وأخيرًا، بوصفهما عالمَين يريدان المضي في تقديم الناجز، وثانيًا ينوي واحد منهما جديًا، هو أدورنو، ألا يعيش من رأس المال.

---

(78) Adorno, *Remarks on 'The Authoritarian Personality'*, p. 15.

(79) Ibid., p. 26.

الفصل السادس

زينة نقدية لمجتمع رجعي

مشاركة في إعادة البناء - بحث في الوعي السياسي عند الألمان الغربيين

لما استقرّ هوركهايمر وأدورنو وبولوك وزوجاتهم في فرانكفورت، وبدأوا بتثبيت وضعهم في ألمانيا، وجدوا أنفسهم كيهود، وكمثقفين يساريين، وكعلماء اجتماع نقديين ومعهم كثيرون من أمثالهم، في محيط جرى تنظيفه بعناية من أمثالهم، وكانت بوادره تدلّ بوضوح منذ أمد طويل على رجعيته. لقد قُضي نهائيًا على التعايش الفريد بين الثقافتين الألمانية واليهودية. وباستثناء هوركهايمر وأدورنو، لم يرجع أحد من الأساتذة البارزين من العصر الذهبي لجامعة فرانكفورت في السنوات الأخيرة لجمهورية فايمار. ولأن هوركهايمر وأدورنو وبولوك كانوا استثنائيين بكل معنى الكلمة وظلوا كذلك، فقد كان بمقدورهم أن يعوّلوا على معاملة طيبة.

بخلاف فولفغانغ أبندروت (Wolfgang Abendroth)، وهو أحد الأساتذة القليلين الذين أعلنوا صراحة ولاءهم للاشتراكية، لم يبحث هوركهايمر وأدورنو عن الدعم لدى منظمات الحركة العمالية أو الجماعات السياسية المعارضة، بل حاولا الحصول على دعم السلطة الحاكمة. لقد بحثا - كما عبّر هوركهايمر مرةً في رسالة شكر بعث بها إلى رئيس وزراء ولاية هِسِن غيورغ أوغست تسين (Georg-August Zinn) - "بلا جدوى عن أصدقاء في مناصب رفيعة، يمكن أن يتمنّاهم الأكاديمي الذي يتبع أيضًا الأهداف العملية للتنوير الحقيقي"[1].

انتُخِبَ هوركهايمر عميدًا لكلية الفلسفة بعد مدة قصيرة من تعيينه في كرسي الأستاذية الذي كان يشغله من قبل. في هذا المنصب الذي بقي فيه من

---

(1) رسالة من هوركهايمر إلى تسين، 18 آذار/ مارس 1955.

خريف 1950 حتى خريف 1951، ساهم في إعادة بناء جامعة فرانكفورت، وأحدث تغييرًا واضحًا في علاقته بالعلوم اللاهوتية؛ إذ حرص على إنشاء كراسٍ تدريسية في الجامعة للاهوت البروتستانتي واللاهوت الكاثوليكي وفي مرحلةٍ لاحقة للدين اليهودي.

أثبت هوركهايمر من جديد مهارته الدبلوماسية والتنظيمية. واستنفد المعهد مرة أخرى جهدًا كبيرًا من هوركهايمر وأدورنو، هذا المعهد الذي كان من المفترض التخلي عنه منذ زمن طويل لأنه يلهي عن العمل الحقيقي، بقي حيًّا بفضل الاعتراف به على نطاق واسع كضمانة لجديتهم.

من أجل الحصول على المال وعلى التشجيع الرسمي، كان هوركهايمر مستعدًا لتأكيد مشاركة المعهد في إعادة الإعمار. وطلب في مذكرة وجّهها، في معرض الترويج الدعائي للمعهد، إلى متبرعين محتملين مساعدة المعهد، ليس فقط لكونه مركزًا لدراسات اجتماعية تقدمية ولربط "التقليد الألماني للفلسفة الاجتماعية وعلوم الروح المتطورة" بـ "مناهج البحث التطبيقية الأكثر تقدمًا في العلوم الاجتماعية الأميركية المعاصرة"، بل "بوصفه أيضًا مركزًا استشاريًا علميًا للمهمات الملحة في البلاد"[2].

من بين ما ذكره هوركهايمر للمتبرعين لمحة عن التاريخ الحديث للمعهد وعن برنامج العمل فيه، جاء فيها: "عرف البحث الاجتماعي في كل فروعه، خصوصًا في مجالات البحث في بنية المجتمع، وفي العلاقات بين البشر وأنماط السلوك في سيرورة العمل، وفي استطلاع الرأي العام وتطبيق المعارف الاجتماعية والنفسية في العقود الأخيرة، عرف رواجًا كبيرًا لم تتمكن ألمانيا بسبب الأحداث السياسية من تقديم المساهمة المرجوة منها فيه. إن الدور الذي تستطيع هذه العلوم أن تؤدّيه اليوم في الحياة العامة في ألمانيا وفي عقلنة اقتصادها هو دورٌ لا يُستهان به إذا جاز لنا أن ننطلق من تجارب البلدان الصناعية الأخرى.

---

(2) مذكّرة حول معهد البحث الاجتماعي في جامعة فرانكفورت، 1950.

لا شك في أن التحليلات الاجتماعية تساعد في إلقاء الضوء على مشكلات سياسية واجتماعية كثيرة وحاسمة في مرحلة ما بعد الحرب، مثل مشكلة اللاجئين. وهي تستطيع في أثناء عملية إعادة إعمار المدن والمناطق الصناعية تقديم أساس معرفي مهم؛ فالتخصص في مناهج البحث الاجتماعي يمكن أن يساعد الشبيبة على فهم أفضل للتوترات القائمة بين المواطنين في بلدهم والشعوب الأخرى، وهذا ما يمكّنهم من المساهمة ذاتيًا في التغلب عليها [...].

يضاف إلى ما سبق أن البحث الاجتماعي يوفر مجموعة من فرص عمل جديدة. ليس الطلب على علماء متخصصين في المناهج الجديدة بقليل في الولايات المتحدة الأميركية، وهم ليسوا أقل قيمةً من المهندسين أو الكيميائيين أو الأطباء. ولا يقتصر وجود الباحثين الاجتماعيين على دوائر الدولة ومختلف فروع التأثير في الرأي العام، كالصحافة والأفلام والإذاعة، بل يعمل عدد كبير منهم أيضًا في مجال الاقتصاد؛ فالاقتصاد يريد إنتاج أفضل الشروط الاجتماعية في معامله، ويريد تعرّف حاجات الجمهور في فرع عمله وتقديرها مسبقًا، ومتابعة تأثير النشاط الدعائي وزيادته. من الجائز توقع تطور مماثل في ألمانيا"[3].

نُشرت في صيف 1950 في *Frankfurter Neue Zeitung* (**صحيفة فرانكفورت الجديدة**) مقالة شارك فيها هوركهايمر بعنوان "علم الاجتماع في الكفاح ضد التحيّز: مكتب المفوضية العليا لشؤون ألمانيا المحتلة يدعم معهد البحث الاجتماعي في جامعة فرانكفورت". جاء في المقالة المذكورة أن مهمات البحث الاجتماعي لا تُستنفد في الوظيفة التنويرية، كما تشهد على ذلك دراسات المعهد عن التحيز، بل تُمكّن، على سبيل المثال، أيضًا من اتخاذ القرار حول "مكان وكيفية إنشاء معمل على الوجه الصحيح، بحيث يستطيع العمال القيام بعملهم على أحسن وجه".

(3) نموذج (رسالة إلى متبرع)، حزيران/يونيو 1951؛ ذُكرت تفاصيل مطابقة تقريبًا قدمها مدير المعهد في الطلب الذي وجّهته إدارة بلدية مدينة فرانكفورت أ. م بتاريخ 8 كانون الثاني/يناير 1951 إلى اجتماع أعضاء المجلس البلدي لتأمين مساعدة مالية لمعهد البحث الاجتماعي.

هل كان هذا احتيالًا ينطوي على جرأة؟ هل ذهب مدير المعهد بعيدًا، ولا سيما في ترويجه للفائدة من المعهد في التجديد العقلاني للعلاقات الرأسمالية على أسس عصرية، لأنه اعتقد أنه يقدم بضائع مهربة بالغة الخطورة؟ هل أدرك فعلًا أنه بعمله هذا إنما يجعل من المعهد مصححًا في عملية إعادة البناء ممولًا من الدولة والاقتصاد؟ أكان الموضوع هو ما سمي لاحقًا، إبان الحركة الطلابية، "المسيرة الطويلة من خلال المؤسسات"؟ أم كان مديرو المعهد يخدعون أنفسهم؟ هل جعلوا المعهد أداةً لإعادة بناء رجعي؛ المعهد الذي عرف كيف يزيّن نفسه بادعائه مبدأ تأكيد الذات والأنوية الفردية والجماعية والمطالبة بتشكيل أكثر إنسانية للعلاقات الاجتماعية بطريقة أفضل، لكن بكلمات رنانة أقل، أكثر من الآخرين بخطبهم الاحتفالية المسبوكة؟ هل تعلّل المعهد بذريعة الحفاظ على وجوده الذي بات يعتمد الآن ماليًا على المتبرعين ليكون أكثر حذرًا مما ينبغي في دوره الفكري والتدريسي، بدلًا من أن يدعم المنظِّرين النقديين؟

الظاهر أنه لم تجرِ مناقشة صادقة وعلنية لكل هذه التساؤلات. ثم مع من تجري هذه المناقشة؟ في الحقيقة، جاء إلى فرانكفورت أقل ممن بقي في المعهد؛ إذ لم يأت إلا هوركهايمر وأدورنو وبولوك. وهكذا تحقق هدف قديم هو التخلص من الثقل الزائد. كانت العلاقات المتكاملة القائمة بين هوركهايمر وأدورنو وبين هوركهايمر وبولوك منسجمةً إلى حد أنهم لم يكونوا بحاجة إلى توضيحات في ما بينهم حول الاستراتيجيات المعتادة وحول صيغ التصورات المكتسبة المتعلقة بأهمية كل واحد منهم وهدفه.

أُعيد تأسيس معهد فرانكفورت من دون أن تكون لدى هوركهايمر رؤية واضحة مسبقة بأنه يجب على معهد لم يعد مستقلًا ماليًا، أن يقوم عاجلًا أم آجلًا بأبحاث تكليفية، وأنه سوف يكون من الصعب على المنظّر النقدي في الأزمنة الرجعية أن لا يدخل في صراعات الضمير. ما عاد أحدٌ ينتظر وصول المال من فليكس فايل. لقد ولى منذ مدة طويلة عهد ازدهار أعماله، وفضلًا عن ذلك بقي مقيمًا في أميركا. ما هي البدائل التي يمكن أن يقدمها لازارسفلد الذي لم يكن يحظى باحترام المنظّرين النقديين؟ هل من بين البدائل تكليف المعهد بأبحاث لا تنال موافقة المعهد، تخلق للمعهد الإمكانية لإنجاز مشاريع

مستقلة ينبغي أن لا تواجه صعوبات حقيقية؛ لأنه بخلاف ذلك يُخشى من حرمان المعهد من تكليفه إجراء أبحاث؟

حدثت في المرحلة الأولى من عمل المعهد الذي أُعيد تأسيسه عملية مميزة. توسط بيتر فون هازلبرغ، وكان أحد طلاب أدورنو قبل عام 1933، وعمل أحيانًا في المعهد بعد عام 1950، لقاءً بين أدورنو ومدير الإنتاج في مصانع شركة هوكست الذي أثار لديه اهتمامًا بعمل المعهد. ألقى أدورنو محاضرةً على الرجل، تكلم فيها حول طريقة عمل المعهد وأهدافه، وأقنعه بأن هذا المعهد ليس لديه ما يفيد به شركة هوكست. هكذا قدم أدورنو، كما فعل في حينه مع مشروع إذاعة برنستون، عجزه التكويني نوعًا ما في البحث الاجتماعي الإداري. لم يتوقف هازلبرغ عند هذه الخطوة، بل ذهب إلى هوركهايمر الذي قال له إنه لا يتوسم خيرًا من علم الاجتماع الصناعي، وتساءل: هل يفترض بنا أن نساعد في هذا المجال أيضًا؟ قدم هوركهايمر نفسه في ذلك الوقت من ناحية بوصفه منظّرًا نقديًا، لكنه حاول من ناحية أخرى أن يجعل عمل المعهد مستساغًا في مجالي الاقتصاد والإدارة؛ ربما فكر هوركهايمر أيضًا أن هذا تمويهٌ جيد في مرحلة بناء المعهد، لكن هذا ليس مما يجب أن يأخذه المرء يومًا بجدية.

حققت استراتيجية هوركهايمر بشأن تأسيس المعهد نجاحًا كبيرًا. تضمنت المذكرة حول معهد البحث الاجتماعي في ربيع 1950 ميزانية لخمس سنوات، يخصص فيها 50,000 دولار لبناء المعهد الجديد وتجهيزه، و109,800 دولار سنويًا للمصاريف الجارية (راوحت الرواتب السنوية بين 1000 دولار للبواب ولكل سكرتيرة، و7000 دولار للمدير الأول، أي لهوركهايمر بالذات). وضع المفوَّض السامي الأميركي جون ماكلوي أماكن مؤقتة تحت تصرف المعهد في المقر القديم الذي دمرته قنابل التحالف، وخصص للمعهد أماكن أخرى في مقر إدارة جامعة فرانكفورت حيث استقر فرع جامعة نيويورك للبحث الاجتماعي، ورَصد مبلغ 200,000 مارك لهذا المعهد ومبلغ 235,000 مارك لبناء جديد للمعهد. عبّرت هذه المساعدات عن قناعة لدى سلطات الاحتلال الأميركية في ألمانيا بأن علم الاجتماع، خصوصًا عندما يمثله مواطنون أميركيون يشددون على البحث التجريبي، سيكون عاملًا فاعلًا في تشجيع الديمقراطية في ألمانيا

(قامت بتمويل "معهد البحوث الاجتماعية" الذي أُسس في دارمشتات عام 1949 المفوضية العليا لشؤون ألمانيا المحتلة، لكن هذا المعهد لم يعمل إلا لبضع سنوات. وكانت مؤسسة روكفلر قد ساعدت في عام 1946 في تأسيس "معهد دورتموند للبحث الاجتماعي" في جامعة مونستر، غير أن الأميركيين فضّلوا دعم العلوم السياسية أكثر بكثير من علم الاجتماع).

دفعت مدينة فرانكفورت مبلغ 100,000 مارك إلى جمعية الأبحاث الاجتماعية، عندما استبدلت عقار المعهد القديم بعقار آخر يقع مباشرة قرب جامعة فرانكفورت التي أرادت المدينة أن توسع مبانيها، وأزالت الركام عن العقار الجديد. شاركت مدينة فرانكفورت في البناء الجديد بمبلغ 55,000 مارك بطلب من هوركهايمر، وجُمعت تلك المبالغ في نهاية تشرين الأول/ أكتوبر 1950. وقد ساهم بها، إلى جانب المفوضية العليا لشؤون ألمانيا المحتلة ومدينة فرانكفورت، متبرعون آخرون وجمعية الأبحاث الاجتماعية. وابتدأت ورشة البناء في تشرين الثاني/ نوفمبر.

كان هوركهايمر على وشك أن يفلح أيضًا في تتويج إعادة تأسيس معهد البحث الاجتماعي، بكل ما لهذه الكلمة من معنى، بضم معهد علم الاجتماع التابع لليونسكو مكانيًا. لكن عدم ثقته في إمكان تحقيق ذلك حمله على طلب الإذن من [مجلس] مدينة فرانكفورت بإضافة طبقة رابعة إلى المبنى. رحبت المدينة بذلك آملة أن تستطيع تزيين نفسها بمعهد لليونسكو. بُنيت الطبقة الإضافية، لكن جرى تأسيس معهد اليونسكو لعلم الاجتماع في مدينة كولونيا، حيث واصل هناك عمله من عام 1951 إلى عام 1958.

بفضل المعونة المالية التي قدمتها المفوضية العليا لشؤون ألمانيا المحتلة لعمل معهد البحث الاجتماعي، تمكّن المعهد من الشروع بأول بحث تجريبي ضخم في صيف 1950، وهو دراسة حول الوعي السياسي لدى الألمان، نُشرت نتائجها لاحقًا في مجلد بعنوان **تجربة جماعية**. كان الهدف من مشروع استطلاع الرأي هذا معرفة مواقف الألمان من البلدان الأجنبية، ومن سلطات الاحتلال، ومن الرايخ الثالث، ومعرفة موقفهم من مسألة المسؤولية المشتركة في جرائمه، ومن الديمقراطية، ومن مكانة ألمانيا في العالم. كان المشروع

منطقيًا، نظرًا إلى أن استطلاع الرأي كان من بين المستوردات القادمة من الولايات المتحدة الأميركية التي لاقت اهتمامًا كبيرًا في ألمانيا الغربية، وإلى أن التربية الديمقراطية كانت لا تزال عنصرًا مركزيًا في أيديولوجيا السياسة الأميركية إزاء ألمانيا، وأن المعهد قدم [سلسلة] "دراسات في التحيز" التي نُشرت في عامي 1949 و1950 كمثال على عمله، وأنه حصل على المال اللازم لهذه الدراسة الأولى، باعتباره معهدًا نصف أميركي، من المفوضية العليا لشؤون ألمانيا المحتلة بشكل أساسي.

لم ينجر هوركهايمر وأدورنو وراء إجراء استطلاع سطحي للرأي، بل بقيا وفيَّين لتقليد الدراسات التي أجراها المعهد في الماضي، حرصًا منهما على أن تنفذ الدراسة لتكشف عما هو تحت سطح الآراء، على غرار ما جرى في **الشخصية السلطوية**، لتكشف في النهاية عن المخزون الفاشي والمعادي للديمقراطية. لكن ما الذي يعنيه هذا في هذه الحالة؟ وكيف يجب تحقيق الأمر هذه المرة؟ في القسم من مشروع معاداة السامية الذي قامت به مجموعة بيركلي جرى تطوير مقاربة تستخدم بنية الشخصية. كان بالإمكان الكشف عن البنى الشخصية بطرق غير مباشرة وإسقاطية. لكن للكشف عن الموقف من قضايا سياسية معينة، لم تكن هذه الطريق سالكة. كما أنه لم يكن بالإمكان تقديم الرأي علنًا في قضايا معينة من دون الكلام عن هذه القضايا نفسها. كان من المهم إذًا أن يبدي الأشخاص المستبيَنون آراءهم علنًا في قضايا واقعية شبيهة بتلك القضايا.

كان الدافع إلى طريقة المسح المطبقة في هذا المشروع فكرة لهوركهايمر مميزة. فحينما طرح مشروع معاداة السامية، كانت فكرة مشروع الفيلم عزيزة جدًا على قلبه، كمثال على أدوات البحث التي تقترب كثيرًا من ظروف الحياة اليومية، والتي من المفترض أن تتيح من خلال ذلك نظرات واقعيةً في الإواليات التي تفعل فعلها في المشاركين بالتجربة. اقترح هوركهايمر هنا الحالة في عربة سكة حديد، كنموذج عن طريقة يمكن أن يتبعها استطلاع آراء الألمان في المواضيع السياسية مغايرة لطرق الاستبيان المعتادة وأكثر واقعية منها. ففيها كانت تجري غالبًا نقاشات يتناول فيها أناس غرباء لا يعرف بعضهم بعضًا، بصراحة مدهشة أيضًا مسائل حساسة جدًا. كان هذا النموذج معقولًا

آنئذ، عندما كانت المتاعب المشتركة أو الذكريات المشتركة عن تلك المتاعب تجعل الناسَ يتواصلون بعضهم مع بعض بسرعة أكبر مما هي عليه في الأوقات العادية.

طلب هوركهايمر على الأرجح أيضًا - وكان هذا في الواقع أمرًا بدهيًا - وَضْع قائمة بالأبحاث الأكثر أهمية لمشروع استطلاع الرأي العام. في هذا الإطار، كان عليه أن يضع نصب عينيه مقالة مارك أبرامز (Mark Abrams) الصادرة في عام 1949 في مجلة *Public Opinion Quarterly* **(الرأي العام الفصلية)** حول إيجابيات المقابلات الجماعية وسلبياتها. من بين إيجابيات المقابلة الجماعية ذكر أبرامز - وهو مدير معهد لندن لاستطلاع الرأي الذي تموّله السوق، وكان قد اتبع هذه الطريقة التي لم تكن في السابق مألوفة بعد في اختبار وسائل الدعاية - أنه في الحلقة النقاشية الجماعية التي استمرت نحو ساعتين، ظهرت آراء ما قبل واعية للمشاركين في الاستبيان، لا يمكن الوصول إليها بطرائق الاستبيان المعهودة؛ وأن جو الجماعة حفّز المستبيَنين على التعبير عن آرائهم ومشاعرهم التي لم يكونوا ليُظهروها في مقابلة عادية لأنهم قد يشعرون في هذه الحالة بأنهم في وضع غير متسامح وضاغط لا يمنح لكثيرين منهم أريحية التعبير؛ وأن الآراء تظهر في نقاشات المجموعة في سياق يمكن معرفته؛ وأن تجاور الآراء المتناقضة الذي يميّز اليومي يعاد إنتاجه؛ وأن بعض الأشخاص عبّروا في المجموعة عن آراء "عامة" تختلف عن آرائهم "الخاصة" في المقابلة الشخصية لكنها تعطي الصورة الحقيقية عن موقفهم الفعلي؛ وأن المستبيَنين حينما يكونون برفقة أولئك الذين يشبهونهم في التفكير أو حتى برفقة أعضاء من النادي نفسه أو من الزمرة نفسها، يَبدون أقل حذرًا ودفاعًا في التعبير عن أنفسهم مما هم عليه في وضع المقابلة العادية. رأى أبرامز المشكلات في تقويم الاستطلاعات، لكنه قلل من أهمية مشكلة تشكيل الجماعات وفق مبدأ الصدف أو من طريق عيّنات النسب، معتبرًا أن الأمر لا يتعلق بجمع آراء مختلفة كما هي الحال في استطلاعات الرأي المعهودة، بل ببنية المواقف وديناميتها. كذلك أيضًا، طوّر فرويد وتلامذته نظرية عامة عن النفس البشرية مع العلم أن مرضاهم كانوا يعبّرون عن حالة صدفة تعبّر عن مجمل السكان.

بغض النظر عما إذا كانت مقالة أبرامز قد أدت دورًا أم لم تؤدِّ في تصور مشروع هوركهايمر وأدورنو، إلا أنها أظهرت أن الأمر يتعلق هنا بجديد أصلي وواعد جدًا بالنسبة إلى الباحثين الذين كانوا مهتمين بالتحليلات النوعية. كان هوركهايمر كعادته منفتحًا على مستجدات من هذا النوع، وقد سبق أن تعرّف منذ الأربعينيات إلى الأهمية التي اكتسبها موضوع دينامية الجماعة، على الأقل من خلال الأبحاث التي أجراها مواطنه المهاجر كورت ليفين الذي كان يشعر به في نيويورك منافسًا في دراسات معاداة السامية. كانت طريقة مقابلة المشاركين التي اتبعها المعهد في عام 1944 في دراسة العمال مثالًا على الكيفية التي يمكن بها توجيه النقاشات في الحياة اليومية، بصورة غير لافتة، نحو موضوعات محددة. ومما كان لدى هوركهايمر وأدورنو من انطباعات وتجارب وخواطر كهذه، نتجت طريقة جديدة في البحث، معدَّلة ومتطورة، خدمت أهداف مشروعه الخاص في مجال "أبحاث الرأي الواقعية" ألا وهي طريقة المناقشة الجماعية (Gruppendiskussion)، وهي - كما ورد في عرضهم الخاص عن المعهد الذي أُعيد تأسيسه في عام 1952 - "منهج متطوّر من طرائق الاستبيان وتقنيات الإسقاط والمقابلات الجماعية" (فضّل العاملون في المعهد مصطلح "المناقشة الجماعية" على مفهوم "المقابلة الجماعية" المستعمل في الأدبيات الأنكلوسكسونية، كي يُبيّنوا بوضوح أن الأمر لا يتعلق بسؤال يُطرَح في الوقت نفسه على مجموعة من الأفراد، بل بمعرفة الآراء التي تظهر في إطار المناقشات الجماعية).

هذه الطريقة التي كانت جماعة فرانكفورت أول من طبقها في ألمانيا وتابعت تطويرها في الخمسينيات وجعلت منها تقنية للبحث الاجتماعي التجريبي معترفًا بها، بدت من حيث المبدأ على النحو التالي: مجموعة مؤلفة من نحو عشرة أشخاص يجتمعون في مكان، اعتاد الناس ارتياده يوميًا، ليناقشوا على مدى ساعتين قضايا معينة. يُعطى المشاركون في حالات معينة بطاقات عليها أسماء مستعارة من أجل إبقاء هويتهم مجهولةً. ولتحفيز النقاش يمكن تقديم "محرّض أساسي" على النقاش (في الدراسة الجماعية للمعهد كان الحضور يستمعون إلى نص الرسالة المفتوحة - الوهمية - المسجلة التي كان قد بعث بها عريفٌ من الحلفاء إلى جريدته بعد أن أمضى خمس سنوات في

خدمة جيش الاحتلال. وعلى نحو مشابه لبنية استمارة **الشخصية السلطوية**، قامت بنية المحرّض الأساسي من ناحية على التجربة المباشرة التي تغنّى بها العريف وعلى أشياء كانت تُعدّ معرفة عامة، ومن ناحية أخرى على المقولات التحليلية، مثل المركزية الإثنية وعقدة الذنب وعقدة السلطوية). يرافق العامل الميداني الذي يحمل آلة تسجيل مساعدٌ يدوّن ملاحظات حول ردات فعل وحوادث لا يمكن تسجيلها على شريط آلة التسجيل، ويقوم هذا المساعد بدور مدير نقاش محايد، مهمته الأساسية هي التهيئة لنقاش حر قدر الممكن ومحرّض على إبداء آراء عفوية، كما يقوم بإغناء النقاش، إذا تطلب الأمر، في جزئه الثاني بحجج نمطية وحجج مضادة حول أسئلة تتفرع من موضوعات النقاش. يوفر ملء استمارة استطلاع مختصرة معلومات أساسية ذات طبيعة إحصائية.

عُدِّل المحرّض الأساسي مرارًا في مرحلة تجريبية - كان على هذا المحرّض أن يؤثر نفسيًا، لا أن يبالغ في التأثير - وجُمعت تجارب حول الأخطاء التي كان ينبغي تجنبها عند تركيب المجموعات، وحول الطريقة المثلى التي كان يجب أن يتبعها "مديرو النقاش". وهنا يجب أن يظل ماثلًا في الذهن أن مساعدي هوركهايمر وأدورنو لم تكن لديهم خبرة في مثل هذه الأبحاث. كان ديدريش أوزمر (Diedrich Osmer)، على سبيل المثال - وهو الأكثر استعدادًا للتضحية من بين جميع المساعدين، ومدير قسم في المعهد - قد درس الحقوق، ونجح في امتحان المحاماة الأول، وكان يعمل في متجر لبيع البيانو إلى جانب عمله في المعهد. وكان لودفيغ فون فريديبرغ، وهو طالبٌ في علم النفس في فرايبرغ، توقف في يوم من الأيام في فرانكفورت، وزار معهد البحث الاجتماعي، وأنجز فيه في عام 1951 تدريبه العملي للحصول على دبلوم في علم النفس. كان المشروع في الوقت نفسه تمرينًا عمليًا للناشئة في البحث الاجتماعي التجريبي. وكان هذا نموذجيًا لبدايات البحث الاجتماعي في العقد الأول بعد الحرب.

أجرى المعهد في شتاء 1950/ 1951 مسوحات لأجل "دراسة رائدة" عن الجوانب المهمة للوعي السياسي لدى الألمان في مدن ومناطق هامبورغ وفرانكفورت وميونيخ وأوغسبرغ. اجتمع في حجرات جانبية في مطاعم

صغيرة، وفي مساكن جماعية، وفي مقصورات في معسكرات العمل، وفي مطاعم الشركات الكبيرة، وفي المخابئ، وفي مقارّ اجتماع النوادي وفي سواها من الأماكن التي كانت تجتمع فيها مجموعات من الناس ويتحدث بعضهم إلى بعض، اجتمع قرابةَ 1800 شخص من مختلف الطبقات ليتناقشوا في مجموعات تتألف في معظمها من 8-16 مشاركًا حول القضايا السياسية التي وردت في "الرسالة المفتوحة" الموجّهة إليهم من العريف في جيش الاحتلال. شارك في المشروع أكثر من عشرين شخصًا في مرحلة المسح، إضافة إلى كتبة الستينوغراف الصحافيين الذين كانوا ينسخون محاضر الأشرطة المسجلة. أخيرًا، توفر للتقويم 121 نقاشًا مع ما مجموعه 1635 شخصًا، أو بدقة: مخطوطات النقاشات، أي 121 مَحضرًا طُبعت على الآلة الكاتبة في 6392 صفحة ثُبّت فيها ما قيل في أثناء جلسات المجموعات، وما لاحظه مديرو النقاشات ومساعدوهم.

سرعان ما تبيّن في مرحلة المسح هذه أن ما بدا مغريًا في نموذج عربة السكة الحديد الذي طوّره هوركهايمر كان مضللًا. ففي المجموعات التي تشكلت عشوائيًا، والتي لم يعرف المشاركون فيها بعضهم بعضًا، ولم تجمع بينهم أمور مشتركة جوهرية من ناحية المهنة أو المصالح أو الأقدار أو ما شابه، لم يظهر جو نقاش حر إلا نادرًا. أما بالنسبة إلى القسم الغالب من مجموعات المناقشة المئة والواحدة والعشرين فشاركت - كما اقترح أبرامز في مقالته - مجموعات من فرانكفورت مبنيّة مسبقًا ومتجانسة إلى حد بعيد اجتماعيًا أو أيديولوجيًا؛ إذ اجتمع فيها، على سبيل المثال، فلاحون من قرية واحدة أو أعضاء نادٍ يعرف بعضهم بعضًا، أو أشخاص غرباء لكنهم يمارسون المهنة نفسها أو لديهم الوعي السياسي نفسه أو يجمع بينهم مصير واحد - مثلًا، مدرّسون شباب، اشتراكيون شباب أو لاجئون - تطور في ما بينهم بسرعة جو نقاش شبيه بالجو الذي يكون بين أشخاص يعرف بعضهم بعضًا منذ مدة طويلة.

كان نموذج عربة السكة الحديد الذي ذُكر في نتائج البحث التي نشرت بعد خمس سنوات بوصفه نموذجًا ملهمًا لمنهج البحث، مؤشرًا إلى إشكالية طبعت بطابعها أيضًا تقويم مواد البحث. فقد افترض نموذج هوركهايمر أن في

جو جماعي يسهل النفاذ إليه، يظهر ما استقر في الأفراد من الأفكار المهيمنة ومن الرأي العام، وما كان موقف هؤلاء الأفراد منها. هنا كان ثمة فكرة مركزية تتلخص في تعطيل آليات عمل الرقابة بوسائل أخرى تختلف عن تلك الوسائل التي كانت متبعة في دراسة بيركلي. لكن تبيّن في مناقشات المجموعات المركّبة مسبقًا، والتي جرى الانتقال إليها في أثناء المسح، بأنه كلما أمكن أكثر استدراج الرأي السائد من خلال المناقشات الجماعية، كان لا بد من تحليل دينامية الجماعة والبنية الشخصية الفردية، ليكون بالإمكان قول شيء ملزم عن الدور الذي مارسه الرأي السائد في البيت النفسي للمشارك وعلى أي موقف من مواقف التواصل الحقيقي يصح الرأي المعبَّر عنه.

أُجريت مقابلاتٌ فردية مع ربع المشاركين في المناقشات الجماعية بعد أربعة إلى خمسة أسابيع من نهاية الجلسات النقاشية. لم تكن هذه المقابلات تفي بالغرض، ولم تؤخذ في الاعتبار في عملية التقويم. يُضاف إلى ذلك أن المقارنة بين نتائج المقابلات الفردية ونتائج الآراء التي ظهرت في المناقشات الجماعية كانت صعبةً أو غير ممكنة في معظم الأحيان، لأن عدد الصامتين في أثناء النقاشات كان كبيرًا جدًا، ولأن متكلمين كثرًا لم يعبّروا عن آرائهم في جميع القضايا المطروحة. شكّل متوسط مجموع الصامتين ما نسبته 61 في المئة، وكانوا بذلك الأغلبية. في ما عدا ذلك، لم تتم الإحاطة بخصائص المجموعات بصورة نسقية، ومن هنا لم يكن بالإمكان تحليل دينامية كل مجموعة.

كان من الصعب، استنادًا إلى المادة البحثية المتوفرة، الوصول إلى موقف حاسم من دينامية الآراء الفردية في ضوء شروط المجموعات. لماذا لم يكتفِ هوركهايمر وأدورنو باعتبار البحث دراسة حول "الرأي العام" للألمان الغربيين في قضايا سياسية معينة؟ ألم يكن بالإمكان، لأسباب وجيهة، اعتبار طريقة المناقشة الجماعية نوعًا من إنتاج تجريبي مصغَّر لمناخ جماعي، يحاكي الشروط التي يمكن الرأي العام أن يظهر من خلالها؟ ألم يكن من الأصح أن يُنظَر إلى هدف المشروع في الكشف عما وُصِف في **الشخصية السلطوية**، بوصفه "مناخًا ثقافيًا" كان الأفراد معرضين له أو محصنين ضده إلى هذا الحد أو ذاك؛ هذا المناخ الذي سماه سارتر في **تأملات في المسألة اليهودية** "المجتمع

الآخر، الذي لا شكل له، الغامض والحاضر في كل مكان"؛ وأطلق عليه أدورنو مفهومًا هيغليًا هو "الروح الموضوعي"؟ جاء في مرحلة متقدمة من التقويم في مسودة كتبها أدورنو إلى أحد المشاركين: "تهتم دراستنا بالعرض الروحي أكثر مما تهتم بالطلب على الروحي، لكنها لا تولي أي اهتمام لشكله المؤسسي، أي 'التواصل الجماهيري'، بل تهتم بالصيغة الغامضة الحاضرة دائمًا، والتي تصل حيةً إلى الناس في وجودهم الاجتماعي: إنها تهتم بالمناخ الروحي الذي تتنشقه [...]. لا يتوجه اهتمام الدراسة المركزي أبدًا نحو الرأي الذاتي، بل يتوجه نحو مضامين الوعي المعطاة موضوعيًا والموسومة اجتماعيًا، والمنتشرة؛ أي يتوجه بالتحديد نحو 'الروح الموضوعي'، نحو 'الأيديولوجيا الألمانية'"[4].

بيد أن هوركهايمر وأدورنو لم يكونا راضيَين بهذا الهدف. فإذا لم يُرْبَط الروحُ الموضوعي الذي يستحضر من خلال تنظيم المناقشة الجماعية بنظرية مادية للمجتمع وبتحليل للعوامل الموضوعية، عليه عندئذ أن يحصل على قاعدة اجتماعية نفسية في الأفراد "الحقيقيين". ومن يريد أن يُقدّم "روحًا موضوعيًا" معزولًا عن الطرفين، عليه، في نظر هوركهايمر وأدورنو، واجب الادعاء المادي، يعني التجريد من البنى الاجتماعية والتجريد من الأفراد الذين تَسِمهم هذه البنى.

هكذا أضرّ الغموض العام بالاستطلاع والتقويم. وعلى الرغم من أن المقصود كان في المقام الأول استحضار الروح الموضوعي من خلال المناقشات الجماعية، فإن مواقف المتكلم الفرد شكلت الأساس للتحليل الكمي والكيفي، لكن ليس بوصفها لحظات لكل مجموعة، بل بوصفها عناصر مجموع المشاركين في الاختبار. وبمقدار ما أريد، فضلًا عن ذلك، الكشف عن وظيفة الروح الموضوعي للمخزون النفسي للأفراد، توقفت محاولات توضيح الطريقة الملائمة لذلك في بداياتها. ولأن الهدف الأخير من العملية كان البحث عن إمكان استطلاع تمثيلي معقول نظريًا (كان يتعيّن على بحث بيركلي أيضًا أن ينتهي إلى مثل هذا الإمكان وفق البرنامج)، لذلك حظيت دراسة المجموعات، إضافة إلى ذلك، بصفة المؤقت والتجريبي.

---

(4) أدورنو، مسودة مرسلة إلى أوزمر، من دون تاريخ.

على الرغم من كل الشكوك التي انتابت المشاركين أنفسهم، كان من الثابت منذ البداية أن المادة التي تم الحصول عليها مثيرة للاهتمام جدًا؛ فالأمر كان يتعلق بأشياء فضّل علماء الاجتماع الآخرون عدم التطرق إليها. صُنّفت المحاضر في جداول من طريق مقولات وصفية وتأويلية، كما صُنفت، مثلًا، مادة البحث حول العمال والموظفين في النصف الثاني من الثلاثينيات، ولكن من دون أن يجري الربط بينهما. أُعدّ على مدى عشرة أسابيع من العمل الجماعي المكثف نوع من دليل تصنيف، أي سجلًا لترميز نتائج محاضر المناقشات. كانت نتائج التحليل الكمي محزنةً (في هذا التحليل لم تعالج المجموعات النقاشية، بل الأفراد بوصفهم وحدات إحصائية، وضُمّت بصورة مستقلة عن المجموعات النقاشية مجموعات إحصائية، كما على سبيل المثال: الفئة العمرية بين 20 و35 عامًا، طلاب المدارس الابتدائية، الفلاحين، وسواهم).

اعتمد التحليل الكمي في تحديد المواقف من الديمقراطية على سبعة "موضوعات اختبارية": الموقف من الديمقراطية (بون[5] وشكل الدولة)، ومن الذنب (المشاركة في المسؤولية عن ويلات الحرب وعن النازية)، ومن اليهود، ومن الدول الغربية (الولايات المتحدة الأميركية، الاحتلال، إنكلترا، فرنسا)، ومن الشرق، ومن إعادة العسكرة، ومن الألمان أنفسهم.

لم يكن موقف المشاركين في النقاش (وبدقة: المتكلمين من بينهم) سلبيًا في الأغلب من الاتحاد السوفياتي وحده، بل كان سلبيًا تجاه القوى الغربية أيضًا؛ إذ عبّر ثلثا المتكلمين تقريبًا عن موقف مبهم من الديمقراطية. وفي ما عدا ذلك، كان عدد أعداء النظام الديمقراطي الذين صرّحوا عن موقفهم، من دون تحفظ، ضعف عدد المحبّذين لهذا النظام. في حين نفى نصف المتكلمين أي شعور لهم بالذنب في ما اقترفه الرايخ الثالث من جرائم. وبرزت اثنتان من المجموعات الإحصائية سلبية على نحو خاص: الفلاحون والأكاديميون. فقد أنكر الفلاحون، بلا استثناء، أي مشاركة لهم في الذنب، وهذا ما فعله الأكاديميون تقريبًا بلا استثناء أيضًا. كذلك ظهر بوضوح أن أكثر من ثلاثة أرباع عدد الفلاحين الذين أدلوا بأرائهم حول معاداة السامية هم معادون للسامية

(5) عاصمة دولة ألمانيا الاتحادية (الغربية). (المترجم)

جذريًا أو إلى حد ما. أما الأكاديميون الذين عبّروا عن آرائهم في الموضوعات الأخرى جميعها بمشاركة تفوق بكثير المعدل الوسطي، فقد تحفظوا، على نحو لافت، في موضوع اليهود. وكان أكثر من 90 في المئة ممن صرحوا بأرائهم حول اليهود، إما معادين للسامية جذريًا، أو بنسبة كبيرة.

بيّنت النتيجة الإجمالية الكمية التي لم تدّعِ أي تمثيل عام لسكان ألمانيا الغربية، والتي اقتصرت أيضًا على المشاركينَ المتكلمين - بصرف النظر عن موضوع الشرق الذي كان فيه الرفض المقوّم إيجابًا هو النتيجة الغالبة - بخصوص المواضيع الستة الأخرى أن: 16 في المئة كان موقفهم إيجابيًا، و40 في المئة غامضًا، و44 في المئة سلبيًا. وبقي الموقف من هذه الفروق لدى سكان ألمانيا الغربية غير واضح، كالموقف من الديمقراطية: هل تصلح الديمقراطية فقط كرأي لدى من شارك في النقاش؟ هل هو موقفٌ ثابت من القيم الديمقراطية. لم تكن هذه النتيجة مشجعة لأنصار نظام ديمقراطي.

شارك في التحليل النوعي ثمانية عشر شخصًا من العاملين في المعهد، فقدموا إحدى عشرة مساهمة فردية؛ من بينها دراسة لأدورنو عن الذنب والدفاع، ودراسة في انعدام الثقة بالديمقراطية تحاول توضيح دوافع "غياب التسييس" الشائع وأسبابه، ودراسة عن البنية الاجتماعية النظرية للموقف المعقد من إعادة تسليح ألمانيا (وهي نقطة حظيت بمعالجة خاصة في التقويم الكمي؛ فمن دون مراعاة للأسباب والدوافع المختلفة جدًا، خصوصًا لدى خصوم إعادة العسكرة - وكان من بينهم، على سبيل المثال، غوستاف هاينمان (Gustav Heinemann) الذي استقال في 11 تشرين الأول/ أكتوبر 1950 من منصبه كوزير للداخلية احتجاجًا على خطط أديناور بشأن إعادة التسليح، وأسّس في تشرين الثاني/نوفمبر 1951 "جمعية الطوارئ من أجل السلام في أوروبا" المحايدة - جرى تقويم الاستجابة عمومًا باعتبارها موقفًا إيجابيًا، والرفض باعتباره موقفًا سلبيًا، لأن أدورنو ومساعديه ربطوا على ما يبدو بين الشعار الشعبي "من دوننا" ورفض كيان دولة ما بعد هتلر).

هكذا بدا، إذًا، في بداية الخمسينيات المشروع الأول الذي أطلقه معهد البحث الاجتماعي المعاد تأسيسه، وهو مشروع جماعي تجريبي كبير نسبيًا، ولا يختلف عن خط الأبحاث التي أجراها المعهد سابقًا عن السلطة والتحيُّز.

تراجعت إلى الخلف مشاريع أخرى للساعة الأولى؛ كان من بينها مشروع عن الوضع الألماني صدر ضمن [سلسلة] "دراسات في التحيُّز"، سرعان ما تقلّص إلى نوع ألماني من **الشخصية السلطوية**. إلا أن هذا المشروع المقتضب لم يفلح، على الرغم من العمل عليه لسنوات، في أن يكون أكثر من ترجمة مختصرة لـ **الشخصية السلطوية** التي لم يرضَ عنها هوركهايمر، ولم تُنشَر إلا بعدد قليل جدًا من النسخ المصوّرة[6]. مشروع آخر توسَّط له لوفنتال الذي بقي في الولايات المتحدة، وكان يشرف منذ عام 1949 على قسم البحوث في صوت أميركا. بحث المعهد، بالاشتراك مع مكتب لازارسفلد للبحث الاجتماعي التطبيقي التابع لجامعة كولومبيا، الفارق في تأثيرات البث الإذاعي باللغة الألمانية بين كلٍ من صوت أميركا، وهيئة الإذاعة البريطانية، والإذاعات التي تبث من الشرق (راديو موسكو وإذاعة ألمانيا الشرقية). نُفّذ هذا البحث الإذاعي - وهو أول بحث يُكلَّف به معهد البحث الاجتماعي في تاريخه - على هيئة استطلاع رأي لمستمعي الإذاعة بإشراف خبراء. وجاءت نتائجه ضئيلة؛ فلم تستطع أن تجعل إذاعة صوت أميركا أكثر دهاءً، ولهذا السبب لم تكن بحاجة إلى أن تُثقل ضمير منظّر نقدي.

إجمالًا، كان ما حصل في السنة ونصف السنة التي تلت إعادة تأسيس المعهد، وفي ظل ظروف مؤقتة من كل النواحي، جديرًا بالاهتمام. ولمّا أُقيم حفل تدشين أبنية المعهد بعد ظهر 14 تشرين الثاني/نوفمبر 1951 في متنزه زنكنبرغ، كان من حق هوركهايمر أن يفخر بما كان قد أنجز حتى الآن.

هوركهايمر - تأسّس بين عشية وضحاها

شارك في الاجتماع الاحتفالي في قاعة المحاضرات في المعهد ممثلون عن الدوائر الحكومية، وعن سلطات المدينة، وممثل عن المندوب السامي الأميركي، وممثل عن جامعة فرانكفورت وممثلون عن جامعات أخرى، وشاركت أيضًا شخصيات اقتصادية وأدبية ومندوبون عن الطلبة. كان من بين الخطباء وزير التربية والثقافة في ولاية هِسِن لودفيغ متسغر، وعمدة مدينة

(6) Max Horkheimer, *Autoritat und Vorurteil*, 2 Bde.

فرانكفورت فالتر كولب، وممثل عن المفوضية العليا لشؤون ألمانيا المحتلة؛ كما تكلم ليوبولد فون فيزه رئيس الجمعية الألمانية لعلم الاجتماع، ورينيه كونيغ (René König) رئيس قسم علم الاجتماع في جامعة كولونيا. أما عن المعهد فقد تحدث - فضلًا عن ثلاثة شبان من أعضاء المعهد ختموا مساهمات لائحة الخطباء بثلاثة تقارير حماسية - مديرُه هوركهايمر الذي كان قد انتُخب قبل مدة قصيرة رئيسًا لجامعة فرانكفورت. ألقى هوركهايمر كلمة خلت من كل ما يُمكن أن يُحدِث صدامًا ومن كل ما يمكن أن يُثير بلبلة لدى ممثلي الحكومة والمدينة والمؤسسات الأكاديمية الذين حضروا الحفل.

لم يختلف ذلك الزمن كثيرًا من حيث قوة الانفجار السياسي عما كان عليه الحال في عام 1931، عندما ألقى هوركهايمر محاضرته الافتتاحية بوصفه أستاذًا للفلسفة الاجتماعية ومديرًا لمعهد البحث الاجتماعي. فقد كانت الحرب الكورية على أشدها منذ عام 1950، وبلغت المكارثية في الولايات المتحدة الأميركية قمة جبروتها. وفي آذار/ مارس 1951 أعلن الجنرال دوايت أيزنهاور الذي انتُخب في العام التالي رئيسًا للولايات المتحدة الأميركية، أن استخدام القنبلة الذرية ضد اليابان مبرَّر أخلاقيًا، لأن الولايات المتحدة ليست هي التي بدأت الحرب. في ألمانيا الغربية، طالب المستشار الألماني كونراد أديناور (Konrad Adenauer) في عام 1950، مستغلًا نشوب الحرب الكورية لإعلاء قيمة ألمانيا الاتحادية، بتشكيل قوات عسكرية في أوروبا الغربية تتضمن فرقًا ألمانية، ممهدًا بذلك للخطوة الأولى على طريق إعادة التسليح. وفي "المستعمرات" ازداد العداء للشيوعية أيضًا. في 19 أيلول/ سبتمبر 1950 اتخذت الحكومة الاتحادية قرار "التثبيت السياسي للعاملين في الخدمة العامة ضد النظام الأساسي الديمقراطي". وكان من بين المنظمات التي "لا يتوافق دعمها مع واجبات الخدمة"، ثلاث عشرة منظمة على وجه الخصوص، من بينها "الجمعية الثقافية للتجديد الديمقراطي في ألمانيا" التي استطاعت أن تلتف على الحظر بتأسيس منظمة تخلفها على رأسها الناشر إرنست روفولت (Ernst Rowohlt)، و"جمعية مضطهَدي الحكم النازي" التي شجعت قيادتها في ولاية هِسِن في عام 1948 عمدة مدينة فرانكفورت كولب على دعوة هوركهايمر إلى حضور الاحتفالات في كنيسة القديس بولس في 18 أيار/ مايو، بمناسبة مرور مئة

عام على افتتاح الجمعية الوطنية الألمانية. كان على كل من لا يُجاهر بمعاداة الشيوعية أن يَحسب حساب التعرّض للتشهير والتمييز. نشر الكاتب الكاثوليكي راينهولد شنايدر الذي كرّس جهده لمناقشة علنية لإعادة التسلح ولمحاولات جدية للتفاهم مع ألمانيا الشرقية، مقالتين في ألمانيا الشرقية لغياب إمكانية نشر أفكار كهذه في ألمانيا الغربية. وبناء عليه رفضت مجلات كثيرة وصحف وإذاعات نشر أو تقديم مساهمات له.

حاولت الحكومات وأجهزة السلطة أن تقطع بمساعدة الشرطة العلاقات السياسية بين ألمانيا الغربية وألمانيا الشرقية. في طريق العودة من لقاء احتفالي أقيم في برلين الشرقية يوم عيد العنصرة، أوقفت شرطة ألمانيا الغربية في عام 1950 عشرة آلاف شاب وفتاة من ألمانيا الغربية على الحدود ليوم كامل، ولم تسمح لهم بالدخول إلا بعد تسجيل أسمائهم وإخضاعهم لفحص طبي من السلطات الرسمية. وفي أيار/ مايو 1951، أوقفت الشرطة عشرة آلاف شاب وفتاة من ألمانيا الغربية كانوا عائدين من برلين الشرقية حيث شاركوا في "لقاء ألمانيا"، أوقفتهم على الحدود يومين، لأنهم رفضوا تسجيل أسمائهم. ولكي تمنع المشاركة في "المهرجان العالمي الثالث للشباب والطلبة من أجل السلام" الذي عُقد في برلين الشرقية من 5 إلى 19 آب/ أغسطس 1951، أغلقت سلطات ألمانيا الغربية الحدود، التي كانت آنئذ لا تزال مفتوحة من الجانب الغربي، باستخدام أعداد كبيرة من قوات الشرطة. وفي أيار/ مايو 1952 قُتل برصاص الشرطة في أثناء تظاهرة غير مرخصة في مدينة إسن الطالب فيليب مولر ابن الحادية والعشرين، والذي كان عضوًا في منظمة "الشباب الألماني الحر".

من ناحية أخرى، طالب أديناور - وقد أصبح مستشارًا بأغلبية صوت واحد فقط، هو صوته تحديدًا - في أول تصريح لحكومته بأن يختفي بأسرع وقت ممكن التمييز بين "طبقتين من البشر في ألمانيا"؛ تحديدًا بين من لا غبار عليهم سياسيًا، ومن ليسوا كذلك. وفي أيار/ مايو 1951 أُقرّ تعديل المادة 131 من الدستور بموافقة الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني، وقد نصّ التعديل على إعادة الاعتراف بالمطالب الشعبية للأشخاص "المذنبين" حتى الآن، والذين كانوا في الخدمة العامة حتى نهاية الرايخ الثالث. فتح هذا التعديل الباب أمام من اعتُبروا مذنبين حتى تاريخ إقراره للعودة إلى صفوف موظفي

الدولة الدائمين وإلى الخدمة العامة؛ لا بل أُعطيت الأفضلية للأشخاص "المذنبين". وكان يجب، استنادًا إلى لائحة أعدتها وزارة الداخلية الاتحادية، التأكد عند تعيين أستاذ جامعي إن لم يكن ثمة من هو مؤهل اختصاصيًا بين الأساتذة الجامعيين المعنيين بتعديل القانون 131. كما ضمن "قانون الولاء" الذي أُقرّ في عام 1952 استبعاد أعضاء "جمعية مضطهَدي الحكم النازي" من الخدمة المدنية.

لم تكن هذه إلا بضعة أدلة على المناخين السياسي والثقافي اللذين كانا سائدين في تلك الحقبة. قبل افتتاح المعهد بشهر، وعلى إثر عودته إلى الولايات المتحدة بعد رحلة قام بها في صيف تلك السنة إلى أوروبا، أقام في خلالها بضعة أيام في فرانكفورت حيث اجتمع بهوركهايمر، كتب ماركوزه رسالةً إلى هوركهايمر جاء فيها: "الأمور هنا تغدو أكثر ظلمة. لكنني أعتقد أنه لن يكون بين الظلام هنا والظلام في ألمانيا إلا فترة قصيرة نسبيًا. لا شك في أن الهواء هناك، الآن، أكثر حريةً (مع أنه ليس منعشًا)"[7].

ألقى هوركهايمر كلمته على هذه الخلفية؛ لم يقتنص الفرصة ليتجاوز، منطلقًا من مكانته الراسخة، ولو قليلًا الإطار الأكاديمي. فقد رأى أن بإمكان علم المجتمع أن يساهم في إزالة شرور التحيّز، وأن يمحو حدودًا قبلية، وأن يجعل دستور العالم أكثر ملاءمة لاحتياجات ساكنيه الحقيقية. لن يُفتح الباب أمام المجتمع الأكثر حرية والأكثر جدارة بالبشر من دون أفكار حرة لا تهدف إلى السيطرة، أفكار هي موضوع الفلسفة وعلم الاجتماع، ولن يتوقف العالم، على الرغم من كل مراحل البناء، عن الوقوع في كارثة بعد أخرى. لم يكن الكلام على أهمية الأفكار الحرة لعالم حر يختلف عن رطانة التناقض التي كانت سائدة سابقًا بين الحرية (= الغرب) والدكتاتورية (= الشرق). ففي رأي هوركهايمر الذي تشبّث بكلمة مغايرة للخطب الاحتفالية ولخطب السياسيين، أن مستقبل البشرية يتوقف على تطور النزعة الإنسانية الحالية. وقد تكلم حتى على النازية باستعارات مجازية تقليدية أسطورية: "قوى شيطانية" طردته هو ومعاونيه من فرانكفورت؛ كان هذا للأسف "حدثًا وحشيًا".

---

(7) رسالة من ماركوزه إلى هوركهايمر، نيويورك، 18 تشرين الأول/ أكتوبر 1951.

وعن أهداف المعهد ومهماته، قال هوركهايمر إن كثيرًا مما أتى على ذكره في خطبته الافتتاحية عام 1931 لا يزال ساري المفعول، وكذلك مطلب مشاركة الفلاسفة وعلماء الاجتماع وعلماء الاقتصاد وغيرهم. "يمكننا اليوم أن نستأنف عملنا؛ فالغمامات الكثيرة، سواء كانت غمامات الاختصاص أو غمامات تقاليد وطنية معينة أو غمامات التقاليد المدرسية، ينبغي أن تسقط عن أعيننا". يجب تعليم علم الاجتماع الألماني الذي كان في الماضي ذا توجه نظري على قدم المساواة مع المناهج التجريبية المصقولة التي طُوّرت حديثًا في العلوم الاجتماعية لدى الولايات المتحدة الأميركية. هذه هي الصيغة التي تبنّاها المعهد ومديره منذ مدة طويلة لتكون جسرًا بين الميزات المحترمة للعمل الخاص التي تجمع الأفكار الأوروبية، والمناهج المتبعة في الولايات المتحدة الأميركية. ومثلما استبدل **أرشيف تاريخ الاشتراكية والحركة العمالية** لغرونبرغ بـ **مجلة الأبحاث الاجتماعية**؛ وكما أحل في محاضرته الافتتاحية التحول المادي المستقل للفلسفة المثالية الألمانية محل استناد غرونبرغ إلى النظرية الماركسية؛ ومثلما استبدل مطلب لوكاتش الذي أصر على الأخذ برأي كارل ماركس وروزا لوكسمبورغ في ما يتعلق بتجاوز تقسيم العمل في العلوم البرجوازية بمطلب التعاون بين العلوم والجمع بين الفلسفة والعلوم التخصصية، على هذا النحو تمامًا سلك هوركهايمر أيضًا مرة أخرى؛ إذ أصرّ على ضرورة استخدام وصف عام، فتح في مواجهة التحجر الدوغمائي لمواقف نظرية يسارية أفقًا غير محدد، وكانت له في الوقت ذاته عذوبة غير ملزمة في آذان أشخاص مؤسسين.

عبّر هوركهايمر في ختام كلمته عما تصبو إليه النظرية النقدية بطريقة يرتقي فيها موضوع تغيير المجتمع إلى مطلب أخلاقي موجَّه إلى علماء الاجتماع يشبه قَسَم أبقراط الذي يُؤديه الأطباء. "حين تكلمتُ على التوجهات الكبرى التي يجب أن ترتبط بالدراسات الفردية، قصدتُ أن هناك دائمًا نية تكمن في جميع التساؤلات، وفي الموقف الاجتماعي بشكل عام، تعلي من شأن المجتمع، كيف ما يكون. من دون هذه النية، وإن لم يستطع المرء أن يدخل في تفاصيلها، لن يكون هناك على الإطلاق التساؤل الصحيح ولا الفكر الاجتماعي. فهو يقع إما ضحية غزارة المادة، وإما ضحية التركيب المحض. يُعدّ الموقف النقدي

المحدد تجاه ما هو قائمٌ - إذا جاز القول - جزءًا من عمل منظّر المجتمع، وهذا العنصر النقدي الذي يتطور من أكثر الأشياء الإيجابية الموجودة، من الأمل، يجعل علماء الاجتماع غير شعبيين. إن تربية الطلاب لتحمُّل هذا التوتر تجاه الموجود الذي هو جزء لا يتجزأ من جوهر علمنا وجعله 'اجتماعيًا'، بالمعنى الحقيقي للكلمة - الأمر الذي يعني أنه قادر أيضًا على تحمُّل البقاء وحيدًا - ربما يكون الهدف الأهم والأخير للثقافة، كما نفهمها"[8].

تكلم هوركهايمر في عام 1931 على الأبحاث الضخمة الجارية والمستقبلية. إلا أنه لم يذكر شيئًا من هذا القبيل عند إعادة افتتاح المعهد؛ لا بل إنه لم يتكلم ولو تلميحًا على النتائج الأولية للدراسة التي أجريت عن الوعي السياسي للألمان الغربيين، على الرغم من أنه لم يكن ليظهر وحيدًا في ذلك. فالمفوضية العليا لشؤون ألمانيا المحتلة، على سبيل المثال، نشرت في عام 1951 نتائج استطلاع للرأي قامت به معاهد ألمانية، طُرح فيه، من ضمن ما طُرح، السؤال: ما هي الجماعات التي لها الحق الأكبر في المساعدة. وأظهر "الرأي العام" ترتيبًا تسلسليًا جديرًا بالملاحظة: احتل أرامل ويتامى الحرب المرتبة الأولى، وجاء ثانيًا ضحايا القنابل، وثالثًا المطرودون من ألمانيا الشرقية، وحل رابعًا مقاومو العشرين من يوليو، ثم بعدئذ اليهود.

في عام 1931 تحدث هوركهايمر عن مهمة جديدة، وصعبة، وعلى قدر من الأهمية تهدف إلى وضع إوالية بحث تجريبية كبيرة في خدمة المشكلات الاجتماعية-الفلسفية. في المقابل، ذكر في معرض المديح أسماء بعض العاملين معه في المعهد من الشباب، ثم أردف قائلًا: "ليس لنا إلا أن نأمل في أن يجعلنا، نحن القدامى، جيلٌ جديد من هذا النوع فائضين عن الحاجة بأسرع وقت، ويعيدنا إلى الفلسفة".

بقيت صيغة المشاركة بين أفكار أوروبية ومناهج أميركية صيغةً فارغة. فهوركهايمر، وخلافًا لما كان عليه الوضع إبان مشروع معاداة السامية، ما عاد يستطيع على ما يبدو تصور أي بحث للمعهد يمكنه أن يدفع النظرية قُدُمًا، ويوقظ فيه الطموح إلى إنجاز دراسة جديرة بالاحترام.

---

(8) "معهد البحث الاجتماعي، تقريرٌ عن الاحتفال بإعادة افتتاح المعهد، وعن تاريخه وأعماله"، فرانكفورت أ. م، 1952، ص 12.

لكن أي آفاق تصوّرَها هوركهايمر للعمل الفلسفي؟ وهل كان باستطاعته أن يضع خطة مشروع ملهم لهذا الغرض؟ الجواب عن ذلك يمكن قراءته في الخطبة الافتتاحية التي ألقاها هوركهايمر - بعد أسبوع من الاحتفال بإعادة افتتاح المعهد - في 20 تشرين الثاني/نوفمبر 1951، بمناسبة تولّيه رئاسة جامعة فرانكفورت. وقد حضر من بين المدعوين ممثلو السلك الدبلوماسي وأسقف مدينة ليمبرغ. كتبت صحيفة *Frankfurter Allgemeine* **(فرانكفورتر ألغماينه)** في تقريرها في اليوم التالي: "زهت بألوانها ملابس العمداء على المنصة التي جمعت الهيئة التعليمية. لكن سطع أكثر من أي شيء آخر الثوب القرمزي المطرز بالذهب الذي ارتداه رئيس الجامعة الجديد الأستاذ ماكس هوركهايمر". كان جو الاحتفال بتبديل رئاسة الجامعة أكثر برودًا في بعض النواحي مما كان عليه الحال في حفل إعادة افتتاح المعهد. وأكد الثوب والشارات الرسمية ابتعاد الجامعة الألمانية عن أشكال اللياقة الديمقراطية. أما الخطب فكانت أكثر غنًى بالإحراجات. فقد وجّه لايسكه نيابة عن عمدة مدينة فرانكفورت كلامه إلى هوركهايمر بالقول: "أنتم عدتم إلى وطنكم، وقد كنتم مثالًا للمصالحة يُحتذى به، وتسلمتم مرة أخرى منصبكم الأكاديمي في هذه الجامعة. وفاءٌ مثل هذا يُلزِم بالإخلاص. لهذا السبب نشعر جميعًا أن انتخابكم لتقلد أعلى منصب أكاديمي في جامعة يوهان فولفغانغ غوته هو بمثابة تتويج لواجبنا بالتعويض لكم".

أبقى هوركهايمر سلسلة رئاسة الجامعة على صدره في أثناء إلقائه خطبته "في مفهوم العقل". إذا كان **كسوف العقل** نسخته الشعبية من **جدل التنوير** الذي أغناه أدورنو، فإن خطبة رئاسة الجامعة كانت موجزًا من **كسوف العقل** (كتاب ترجمه هاينتس ماوس، لكنه لم يكن آنئذ قد نشر بالألمانية بعد). لم يكن من المتوقع أن يكون خطاب رئاسة الجامعة مقياسًا لما سوف يقوم به من أعمال. وقد اقتصرت أعمال هوركهايمر في السنوات اللاحقة على محاضرات وخطب وكتابات تفرضها مناسبات على رجل كان مطلوبًا جدًا؛ وكانت هذه الأعمال جزءًا من مخططات كثيرًا ما وضع أسسها أدورنو.

كان لافتًا أن خطبة هوركهايمر لم تتجاوز في أي فقرة منها ما جاء في **كسوف العقل**، وأنها لم تحاول أيضًا إنشاء صلة بين ما جاء فيها وبين الوضع

الألماني. كان يمكن هذه الخطبة أن تُلقى أيضًا في نيويورك أو في لوس أنجلس. وكان التكرار الحرفي المرتبك لما قاله هوركهايمر في تقرير صحيفة **فرانكفورتر ألغماينه** مؤشرًا إلى التأثير الذي أحدثته الخطبة أكاديميًا. ألا يجب في البلد الذي "لم يُسَمَّ تأريخه الجديد 'قبل التحرير - بعد التحرير'، بل 'قبل إصلاح النقد - بعد إصلاح النقد' (كما وضعه بيتر رومكورف)، في البلد الذي كان يدمج نفسه في الغرب وينشغل بإعادة الإعمار، هذه العملية التي أراد هوركهايمر كثيرًا المساهمة بها، وكانت الرغبة شديدة فيها لقمع الذكريات، مصحوبة بقدر كبير من النفور والعجز في ظل التعويض المالي الذي أجبرت الدول الغربية المنتصرة ألمانيا على تقديمه لضحايا الحكم السابق، ألا يجب في هذا البلد أن يبدو الكلام عن أزمة في مفهوم العقل في هذا البلد والمرافعة دفاعًا عن عودة العقل إلى تقرير مصيره ودفاعًا عن عودته إلى الكلية، كلامًا مجردًا تمامًا ومنفصلًا كليًا؟ ألم يعفِ المتأقلمين و"المثقلين بالذنب" من الحاجة إلى صمّ آذانهم عن السماع؟ وهل كان بالإمكان تحفيز الطلاب بغير تلك الروحانية المتوترة التي تكلّم عنها أدورنو في مقالته التي نُشرت في عام 1950 في مجلة **فرانكفورتر هفتن** وحملت عنوان "قيامة الثقافة في ألمانيا؟".

لكن أن يُقاس هوركهايمر وأدورنو في التقليد الخاص بكل منهما، وفي مستوى حسم كل منهما في ما يتعلق بالتفكير النقدي في عهد جمهورية فايمار، هذا شيءٌ، وأن يُنظر إليهما في إطار ما كانت عليه ألمانيا الاتحادية وما كان عليه المشهد الأكاديمي على وجه الخصوص، فهذا شيءٌ آخر. مهما كان وقع ما قاله ونشره هوركهايمر وأدورنو في الخمسينيات منقطعًا عن الواقع وغير ملزم، وإن لم يكن مسيئًا، فقد استمرت النظرية النقدية ماثلة فيه، وهي ما زالت تحمل آثار ذلك النسيم العليل للنقد اليساري للمجتمع.

كان الكلام عن المجتمع وعن مواضيع اجتماعية مهمة عمومًا حدثًا غير مألوف بالنسبة إلى طلاب الفلسفة. ففي أول مؤتمر بعد الحرب للفلاسفة الألمان عُقد في غارميش بارتنكيرشن عام 1947، كانت، على سبيل المثال، الشخصيتان البارزتان في المؤتمر هما هايدغر الغائب الذي مُنع من الحضور شخصيًا، لأن سلطات الاحتلال الفرنسية كانت قد منعته من التدريس حتى عام 1951 بتهمة موالاته للنازية، ونيكولاي هارتمان الذي ألقى المحاضرة

الافتتاحية، متجاهلًا ذكر أي أمل في "تفلسف يَصْلح للساعة"، ومتحدثًا عن "البحث في المقولات" وهو موضوعٌ غير مقيّد بزمن، عمل عليه طوال عقود من دون أن تزعجه سلطات الرايخ الثالث في أثناء ذلك. كذلك لم يقدم علماء الاجتماع أيضًا مساهمات مقنعة، أي ممثلي ذلك الاختصاص الذي كان معنيًا على نحو خاص بـ "تدابير تطهير" النازيين، والذي كان من المرجح أن يشغل فيه الديمقراطيون المقتنعون من جديد كراسي التدريس الجامعي القديمة أو كراسي جديدة. ولما أُعيد تأسيس معهد البحث الاجتماعي، كان في ألمانيا الغربية (أَستندُ في ما يلي إلى تقرير م. راينر لبسيوس حول "تطور علم الاجتماع بعد الحرب العالمية الثانية" الذي نشر في العدد الخاص من *Kölner Zeitschrift für Soziologie und Sozialpsychologie* (**مجلة كولونيا لعلم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي**) حول **علم الاجتماع الألماني بعد عام 1945**) ثمانية كراسٍ جامعية لعلم الاجتماع الذي كان يشترك جزئيًا مع كراسٍ جامعية أخرى. شغلَ مهاجرون أو مناهضون للفاشية ثلاثة كراسٍ: كان هوركهايمر أحد المهاجرين وكان الآخر رينيه كونيغ الذي خلف في عام 1949 ليوبولد فون فيزه في كولونيا؛ إذ عاش كونيغ كمهاجر في سويسرا إبان الرايخ الثالث، ودرس فيها. كان فون فيزه على الصعيد السياسي ديمقراطيًا محافظًا؛ وكان أكثر العلماء الألمان المؤثرين الذين ناضلوا ودعوا إلى فهم علم الاجتماع بوصفه علمًا مستقلًا عن كل المذاهب الفلسفية، وبوصفه علمًا تجريبيًا. شغل أوتو شتامر (Otto Stammer) في عام 1951 كرسي علم الاجتماع في كلية العلوم الاقتصادية والاجتماعية في جامعة برلين الحرة. وقد مُنِع بوصفه كان ناشرًا منحازًا إلى الحزب الاشتراكي الديمقراطي ومربيًا وناشطًا في حملة هذا الحزب الانتخابية، من العمل والنشر بعد وصول النازيين إلى الحكم. فلم تبدأ مسيرته العلمية إلا بعد نهاية الرايخ الثالث. تتلمذ على يد هرمان هلر، واتبع تقاليد علماء الاجتماع الذين كانوا يعملون لمصلحة الحركة العمالية، والذين كان من بينهم فرانتس نويمان وأوتو كيرشهايمر. أما الذين شغلوا الكراسي الجامعية الخمسة الأخرى فقد صنعوا في ظل النازية، بهذه الدرجة أو تلك، مسارهم الأكاديمي العادي، وهم: أرنولد غِلِن (Arnold Gehlen)، وهلموت شلسكي (Helmut Schelsky)، وغرهارد ماكنروت، وماكس غراف سولمز، وفرنر تسيغنفوس.

ما أظهرته عملية شغل كراسي علم الاجتماع كان مميَّزًا للوضع في الجامعات العلمية؛ فالجامعات كانت، على غرار ما كانت في عهد جمهورية فايمار، جزءًا من الأوساط المحافظة جدًا في المجتمع. وعندما كان يفقد من يتعرض للنقد في ظل الحكم النازي الأمل في الحصول على كرسي جامعي، كما حصل لهايدغر (بعد أن انتهى العمل بقرار منعه من التدريس، وحتى بعد إحالته على التقاعد في عام 1952، بقي حتى عام 1958 أستاذًا جامعيًا، وكان قد ألقى محاضرات مثيرة للاهتمام حتى قبل عام 1951)، لم يكن يقلل هذا من شهرته، بل كان ينشر صيته أكثر في الأوساط الأكاديمية وخارجها، كما لم يكن يؤثر في حضور فكره حتى في بعض الكراسي الجامعية. مهما حاول هوركهايمر وأدورنو أن يموّها، فإنهما كانا يمثّلان لطلبة كثر بصيص نور، حتى ولو لمجرد أنهما فعلا شيئًا غير مألوف، ولأنه يصح في حقهما ما قاله هوركهايمر في خطبته الافتتاحية عندما وجّه الشكر إلى المهندسين في كلامه عن البناء الجديد بالقول: من ينظر إليه من الخارج لا يرى فيه شيئًا متعفنًا.

لكن ما بدا ملموسًا هنا ظل بلا اسم؛ لم تكن هناك نظرية نقدية، ولم تكن هناك مدرسة فرانكفورت. ما أمله هاينتس ماوس الذي أصبح مساعد هوركهايمر، في تقريره المنشور في صحيفة **فرانكفورتر روندشاو** (*Frankfurter Rundschau*) حول رئاسته للجامعة: "في **مجلة الأبحاث الاجتماعية** [...] نُشرت أعمال هوركهايمر على وجه الخصوص". كان يؤمل في نهاية المطاف، لو أمكن، أن يعاد إصدار [مقالات] "الأنوية وحركة التحرر"، و"الهجوم الأخير على الميتافيزيقا"، و"النظرية التقليدية والنظرية النقدية" على الأقل، لكن هذا لم يتحقق. كذلك لم يقدم نشاط هوركهايمر وأدورنو التعليمي الأكاديمي بديلًا. في صيف 1950 ألقى هوركهايمر، بعد محاضرة حول "نظرية ونقد المجتمع بعد سان سيمون"، محاضرات فلسفية عدة عن "إشكاليات الفلسفة الجديدة"، و"فلسفة القرن السابع عشر" إلى آخر ما هنالك، وأدار منذ صيف 1951 تدريبات حول مناهج البحث في العلوم الاجتماعية، رافقتها في ما بعد تمارين حول مفاهيم أساسية في علم الاجتماع وحول ممارسات علمية اجتماعية. لم يحصل أدورنو على الإعجاب الذي عرفه هوركهايمر لدى الطلبة، ومنذ عودته إلى التدريس بشكل كامل في صيف 1950 ألقى لسنوات طويلة محاضرات

في الفلسفة فقط: بدايةً محاضرة في علم الجمال على مدى فصلين دراسيين متتاليين، ثم محاضرات عن هوسرل وإشكاليات نظرية المعرفة المعاصرة، وعن برغسون، وعن تاريخ الفلسفة السياسية وعن إشكاليات الفلسفة المثالية. كانت حلقات البحث التي أدارها هوركهايمر وأدورنو معًا - وهي صدى للعمل الجماعي المؤثر الذي ساد في عصر ازدهار جامعة فرانكفورت في آخر عهد جمهورية فايمار - ذات طابع فلسفي، وتدور موضوعاتها في المقام الأول حول فلسفة كانط وهيغل. كان من الصعب لأعمال هوركهايمر وأدورنو المتوفرة باللغة الألمانية - **جدل التنوير** و**فلسفة الموسيقى الجديدة** و**أخلاق صغرى** - أن تُفهم في ألمانيا الاتحادية بمعزل عن التقليد الذي وُجِدا فيه، ومن دون إحاطة منتجة بعمل المؤلفين الجاري، بوصفها مساهمات في إعادة بناء أو بناء نظرية نقدية للمجتمع. فلقد قدم أدورنو نفسه في مقالات في الصحف والمجلات على أنه ناقد للموسيقى والثقافة مع خلفية اجتماعية.

إذًا، ألم يبق الأفضل، بصرف النظر عن كل النجاحات، ملقًى على الطريق؟ هل تأكدت صحة مخاوف أدورنو في أقل من سنتين؟ فباستثناء الأمان، ما كان عليهما، هو وهوركهايمر، أن يتوقعا الشيء الكثير في ألمانيا، لأن التفكير هناك كان لا يزال قابعًا في داخل نقد الأنطولوجيا، والوضع الاستعماري لم يكن مؤاتيًا لتحليل المجتمع، وكان الإغراء لأداء دور الواعظ المثقف كبيرًا جدًا. ألم يعش الاثنان من عملهما السابق وحده، مرغمين تارة، ويدفعهما تارة أخرى إغراء الحاجة الكبيرة التي تسود في ألمانيا، خصوصًا في مجالي العلوم الاجتماعية وعلم الاجتماع النفسي؟ ألم يشجعهما على فعل ذلك واقعُ أنهما عمليًا المنظّران اليساريان الوحيدان من زمن فايمار اللذان كانا قادرين على إعادة بناء نفسيهما بنجاح؟ أكان المعهد بتكوينه الجديد غير مؤهل، منذ البداية، للقيام بما كان الاثنان يعتبرانه في الولايات المتحدة الأميركية حتى النهاية المطلب الحاسم، أي التحليل الراهن والعيني للعوامل الموضوعية؟ وعندما قال هوركهايمر في الخطبة التي ألقاها في حفل إعادة افتتاح المعهد أنه يأمل في أن يعاود التفرغ كليًا في وقت قريب للعمل الفلسفي، ألم تكن هي الأسطوانة القديمة ذاتها لرجل كان يتذمر من الانصراف عن العمل الفلسفي الذي كان يتوق إليه (بسببه هو شخصيًا) الذين لا يقلّون عنه كفاءة؛ أي مجموعة

من المنظّرين؟ ماذا فعل أدورنو الذي كان لا يزال يشدّد في آخر سنة في حياته على أن ممثلي علم اجتماع نقدي لا يريدون مطلقًا، كما يقال عنهم، أن يكتفوا بالعمل من خلف مكاتبهم، بل يحتاجون إلى ما يُدعى البحث الميداني؟ هل أعطى أدورنو - الأصغر سنًا من هوركهايمر بثماني سنوات والأكثر إنتاجًا - المشروع بأكمله اتجاهًا يتفق مع جديّة معاييره؟ هل حاول ذلك على الأقل؟

رؤية أدورنو لبحث اجتماعي تجريبي نقدي - أزمة المعهد - حلم ماركوزه

ألقى هوركهايمر في 14 تشرين الثاني/ نوفمبر 1951 كلمة بمناسبة إعادة افتتاح المعهد، ثم ألقى في 20 تشرين الثاني/نوفمبر خطبة تنصيبه رئيسًا لجامعة فرانكفورت. وفي 14 كانون الأول/ ديسمبر قدم أدورنو المحاضرة الافتتاحية "في الوضع الراهن للدراسات الاجتماعية التجريبية في ألمانيا" في المؤتمر الأول لدراسات استطلاع الرأي في ألمانيا الذي نظمه معهد فرانكفورت لتعزيز الشؤون المدنية في شارع برغ في فاينهايم. دلل تقسيم العمل هذا على تقسيم الأدوار المستقبلية بين مؤلفي **جدل التنوير**. فإلى جانب مهنة التعليم التي كان لا يزال يقوم بها في الحقل التربوي بنجاح فائق، اضطلع هوركهايمر أخيرًا بدور تمثيلي رسمي خالص، في حين أصبح أدورنو عالم اجتماع، إلى جانب وظيفته التعليمية التي لم تكن في الخمسينيات لافتة للانتباه بعد، فضلًا عن شهرته المستمرة خارج الوسط الأكاديمي بوصفه ناقدًا موسيقيًا ومتخصصًا في جماليات الموسيقى، وشهرته الجديدة بوصفه ناقدًا للثقافة ومتخصصًا في نظرية الأدب.

ينطبق ذلك على أدورنو بمعنًى مزدوج. فهو، من ناحية، عمل باحثًا ميدانيًا في الدراسات الاجتماعية، مثلما عمل مسبقًا في مشروع نزعة معاداة السامية. كما أسهم في الخمسينيات، على نحو مكثف في بعض الأحيان، في المشاريع التجريبية للمعهد، وساعد علاوة على ذلك معهد دارمشتات للأبحاث في علم الاجتماع - وهو المعهد الذي أسسه أحد العاملين في المفوضية العليا لشؤون ألمانيا المحتلة في عام 1949 كي يقدم للمتخصصين في علم الاجتماع من

الشبان الألمان فرصة تعلم المناهج الاستقصائية في علم الاجتماع - بعد أن واجه المعهد صعوبات جمة، بين نهاية عام 1950 وبداية عام 1952، ساعده على نشر نتائج دراسة جماعية موسعة في تسعة أبحاث منفصلة.

من ناحية أخرى، اشتغل أدورنو منظرًا في بحوث علم الاجتماع. وقد انصب التركيز هنا على السؤال عن العلاقة بين البحث الاجتماعي التجريبي وإنشاء النظريات في علم الاجتماع؛ تلك النظريات التي تقوم، في نهاية المطاف، على خطة بحث اجتماعي تجريبي نقدي. وقد أنتج أدورنو، خلال العقدين اللذين أمضاهما في الجمهورية الاتحادية، مجموعة دراسات من هذا النوع، بدءًا من محاضرته حول "الحالة الراهنة لعلم الاجتماع" التي ألقاها في ماربورغ، في شباط/فبراير 1951، في ورشة عمل حوارية حول علم الاجتماع السياسي، مرورًا بمقالة "البحث الاجتماعي التجريبي" التي كتبها بالاشتراك مع زملاء مساعدين في المعهد لـ **القاموس المختصر في العلوم الاجتماعية** الذي صدر في عام 1954، وانتهاء ببحث يستند إلى محاضرة إذاعية سابقة عن **نظرية المجتمع والبحث التجريبي**، كتبت في السنة الأخيرة من حياته.

كان مؤتمر فاينهايم - على الرغم من عنوانه العام "البحث الاجتماعي التجريبي" الذي من المحتمل أن يكون أدورنو قد أصر عليه، وهو المشارك في تنظيمه - معنيًا بصورة رئيسية بطرائق بحوث الرأي والسوق وإشكالاتها. شارك في هذا المؤتمر أكثر من 100 شخص، جاؤوا من معاهد بحوث الرأي التجاري، ومن الجامعات، ومن المعاهد الجامعية، ومن الدوائر الرسمية للإحصاء والإذاعات، ومن المفوضية العليا لشؤون ألمانيا المحتلة وسواها من المنظمات. انعقد المؤتمر بتشجيع من طاقم تحليل الاستجابات في المفوضية العليا لألمانيا، أي من قسم بحوث الرأي للمفوض الأعلى الأميركي المسؤول في ألمانيا. وأرسل جورج غالوب (George Gallup) - وهو من رواد بحوث الرأي الحديث، كان قد تنبأ في عام 1936 بواسطة عينة من ستة آلاف ناخب بنتيجة الانتخابات الرئاسية الأميركية، الأمر الذي جعل طريقة العينات شهيرة بين ليلة وضحاها - برقيةَ تحيةٍ إلى الرواد الألمان الذين يسيرون على خطاه.

وافق ليوبولد فون فيزه، عميد علم الاجتماع الألماني البالغ من العمر 75 عامًا، أن يرأس المؤتمر. وحملت كلمته الافتتاحية الطعم التجريدي المتحفظ الذي عُرِف به علم الاجتماع الألماني في مرحلة ما قبل الحرب، والذي لا يعطي الواقع اهتمامًا في مواجهة البحث الاجتماعي التجريبي. كانت هناك دزينتان من المحاضرات حول طرق علم الاجتماع التخصصية وإشكالاتها، وحول قضايا تنظيمية. تحدث الأستاذ ليو كرسبي (Leo P. Crespi) من قسم أبحاث الرأي في المفوضية العليا الأميركية الذي عادة ما تكون نتائج تحقيقاته "سرية للغاية"، مؤكدًا أهمية استطلاعات الرأي بالنسبة إلى قادة المؤسسات الاجتماعية الديمقراطيين فعلًا. وقام الأستاذ فيغيز (P. L. Fegiz) من معهد دوكسا في ميلانو برسم رؤية لاتحاد أوروبي تجعل فيه الاستبياناتُ حول عادات المستهلكين الأوروبيين وذائقتهم الإنتاجَ الضخم للمنتجات الأكثر طلبًا أرخص ما يمكن. قبل هذا كله حاول أدورنو، في أي حال، في محاضرته الافتتاحية استعادة البحث الاجتماعي التجريبي من "نظام البحث" وإنقاذه، خدمةً لنظرية المجتمع التي واجهت، على نحو نقدي جذري، التقاليد الإنسانية لعلم الاجتماع الألماني.

في الحقبة المثالية، كان الفكر الفلسفي - كما يقول أدورنو - يستحوذ على مادة الحقائق المعروفة آنذاك. وبعد انهيار الأنساق المثالية، انتزعت مفاهيمها المركزية من سياقها النظري وعلاقتها المادية، وأضحت في أيدي نظرية إنسانية للمجتمع أدوات في خدمة الظلامية وتعويق التقدم والمعرفة. "تقتضي هذه البقية الباقية من علم الاجتماع النظري الألماني، على نحو عاجل، استعمال الطرائق التجريبية معيارًا للتصحيح؛ إذ تكمن الأهمية الحقيقية لهذه الطرائق في الدافع النقدي الذي تتضمنه. فالبحث الاجتماعي التجريبي يجب ألا يسمح لهذا الدافع بأن يذوي، ولا يستطيع خداع نفسه في تحرياته عن الروابط الاجتماعية. فالعِلم، عوضًا عن أن يصوغ لنفسه على نحو ملائم، بمساعدة مفاهيم أيديولوجية، صورة تصالحية للواقع الاجتماعي، ويقبل من ثم بالظروف السائدة، يجب أن يُنتج الوعي بقساوة ما هو موجود [...]؛ إن علم الاجتماع ليس علمًا نظريًا. فالأسئلة التي ينشغل بها ليست جوهريًا وأوليًا أسئلة وعي الناس الذين يتألف منهم المجتمع، أو حتى لاوعيهم. تحيل تلك

الأسئلة، قبل كل شيء، على الصراع بين الإنسان والطبيعة، وعلى الأشكال الموضوعية للتحوّل الاجتماعي التي لا يمكن عزوها البتة إلى العقل، بمعنى الفهم الباطني للإنسان. يجب على البحث الاجتماعي التجريبي في ألمانيا أن يكشف عن موضوعية الحالة اجتماعيًا، بعيدًا جدًا عن وعي الفرد، أو حتى عن الوعي الجمعي"[9].

كان هذا نوعًا من الاسترسال في البحث الاجتماعي التجريبي، بالمعنى الواسع للكلمة، في مواجهة التفكير الذي يصدر عن أيديولوجيين. بيد أنه كان أيضًا نقدًا موجَّهًا إلى استطلاعات الرأي، بقدر كونها لا تكفي عادة لكشف موضوعية الحالة اجتماعيًا. قدم أدورنو مثالًا على ما يعنيه: "إذا واجهَنا قولٌ يستند إلى مسوغات مزعومة في علم الاجتماع النظري، يرى أن ما يدعى الإنسان الفلاح يعترض، بسبب طبيعة عقله المحافظة أو انطلاقًا من موقفه المضاد، على كل جديد على الصعيدين التقني والاجتماعي، فإننا لن نرضى بمثل هذه التوضيحات [...] وسوف نرسل [...]، على سبيل المثال، أشخاصًا على دراية بالفلاحين إلى الريف، ونحثهم على مواصلة طرح أسئلة أخرى عندما يخبرهم الفلاحون بأنهم إنما يقيمون في مزارعهم حبًا بأرضهم، وإخلاصًا لعادات آبائهم. سوف نواجه النزعة المحافظة لديهم بحقائق اقتصادية، ونتحرى إن كانت التحديثات التقنية لا تنفع في العمل إذا كانت تحت حجم معين، أو إن كانت هذه التحديثات تتطلب استثمارًا، إلى حدّ أن العقلنة التقنية في منشأة كهذه قد تصبح لاعقلانية"[10].

في هذا المثال اعتمد أدورنو على دراسة مجتمع دارمشتات. ففي إطار مشاركته في هذه الدراسة، تعرّف أدورنو مادة الاستقصاءات حول بعض الجماعات الريفية في ضواحي دارمشتات، وقام بوضع مقدمة لإحدى الدراسات عن "العمل الإضافي للمزارع وعائلته في تداخل شكل الحياة الريفية والمدينية". ما يميز استقصاءات دارمشتات كان جمع وفرة من معطيات وبيانات بنيوية، وموضوعية-مؤسساتية، ومعطيات ذاتية ونفسية-اجتماعية. وبدا أن

---

(9) Theodor W. Adorno, *Gesammelte Schriften*, vol. 8, pp. 481 f.

(10) Ibid., p. 482.

المثال الذي ذكره أدورنو يعني أنه يمكن فحص نظرية أيديولوجية ما باستعمال شكلَي البحث الذاتي والموضوعي. إن طرح أسئلة إضافية في الدراسات الذاتية التي لا تكتفي بقبول حقائق سطحية، وتتطلع إلى تأكيد النظرية الأيديولوجية، ومن ثم ضمّها إلى الحقائق المستقاة من الدراسات الموضوعية، من شأنه أن يقدم صورة للكينونة الاجتماعية لا يتطابق الوعي، وفقًا للسائد، معها. أما ما كان يعني أدورنو فهو، بوضوح، مشروع دراسة العلاقات بين العملية الاقتصادية والنفس والثقافة، المشروع الذي وضعه فروم وهوركهايمر في السنوات الأولى من حقبة هوركهايمر في معهد البحث الاجتماعي، ونموذج البناء التحتي-الفوقي الماركسي، الأصولي، المعدل في ضوء انطباع التحليل النفسي الفرويدي. في هذا السياق وحده يمكن - كما بدا - أن يكون ثمة أهمية للأبحاث المتعلقة باستطلاعات الرأي، بالنسبة إلى أدورنو.

لكن ما الذي كان يعنيه عندما أضاف، في نهاية المثال الذي ساقه، أن من البداهة ألا تحقق كل الاستبيانات الاجتماعية التجريبية وظائف نقدية، ولكن "أعتقد طبعًا أن حتى تحليلات السوق لموضوعات محددة بدقة يجب أن تجسد فيها شيئًا من هذا الروح التنويري غير المؤدلج، إن هي أرادت أن تنجز ما وعدت به. ولعل هذه العلاقة الموضوعية بالتنوير، وبإبطال الأطروحات العشوائية الدوغمائية التعسفية، هي التي تلزمني بوصفي فيلسوف الدراسات الاجتماعية التجريبية"[11]. ما الذي وعد به، إذًا، تحليل السوق غير بيانات يمكن أن تشكل أساسًا لإعلانات أكثر تأثيرًا، ولتعبئة وتغليف أكثر نجاحًا، ولخطط أفضل للبيع؟ ومن سوف يكون، عندئذ، أكثر معرفة غير الزبون؟ لم يكن كافيًا القول - كما فعل أدورنو في أثناء نقاش حول المعايير في استطلاعات الرأي - إن "من الممكن أن يُموَّل البحث من جانب قطاع الاقتصاد الخاص، وأن يحقق، مع ذلك، المعايير العلمية الأكثر صرامة"[12]. ندت، بعدئذ، ملاحظات إلحادية عن بعض المشاركين أيضًا في النقاش العام الذي تلى المحاضرات حول مجالات تطبيق البحث الاجتماعي التجريبي: استطلاعات الرأي السياسية

(11) Ibid., p. 482.

(12) Wissenschaftliche Schriftenreihe des Instituts zur Förderung öffentlicher Angelegenheiten, Bd. 13: *EmpirischeSozialforschung*, 227.

والاجتماعية، ودراسات السوق، واستبيانات المعمل، والدراسات التي تستطلع آراء الحضور. يرى ديتريش غولدشميت من قسم علم الاجتماع في جامعة غوتنغن أن "رب العمل، عندما يأمر بإجراء استبيان في منشأته، يكون بوسع المرء طبعًا أن يزعم أنه إنما يريد بذلك الحصول على أداة تمكنه من التلاعب والتحكم بمستخدمي المنشأة وعمالها. لكن إذا وضع المرء نصب عينيه الهدف الفعلي الذي يُفترض أن يُستخدم لأجله هذا النوع من استطلاع الرأي، أي التخلص من الشروط الرديئة وتحسين العلاقات الإنسانية، يكون من المؤكد عندئذ أن المدير العام للشركة يجب أن يخضع تمامًا، شأنه شأن عمالها، لهذا الاستبيان"[13]. فكّر إ. ب. نويمان من معهد دراسة الرأي العام في ألنزباخ في النتيجة ذاتها أبعد من ذلك، عندما تحدث بحماسة عن أن نتائج معهد غالوب في الولايات المتحدة الأميركية كانت تنشر مرتين أسبوعيًا في أكثر من 100 صحيفة، وأن أعضاء البرلمان، ممثلي الشعب، هم من ينبغي أن يستفيدوا في نهاية المطاف من دراسات استطلاع الرأي.

ما الذي كان يعنيه تأكيد أدورنو أن كل من يريد أن يعالج الناس، كما لو أنهم عقلانيون وإنسانيون، إنما يسهم في تمجيد ما سوف يحصل لهم؛ وأن كل من يعترض بالقول إن البحث الاجتماعي التجريبي آلي جدًا، وعنيف، ولاعقلي، إنما كان ينقل المسؤولية من موضوع علم الاجتماع إلى علم الاجتماع نفسه؛ وأن لاإنسانية الطرائق التجريبية لمّا تزل أكثر إنسانية من أنسنة ما ليس إنسانيًا؟ فإما أن يبقى الأشخاص المستبيَنون موضوعات لا تتأثر لاحقًا بالمعلومات الناتجة من الاستبيان واستخدامها، إلا بوصفها موضوعات فحسب، وفي تلك الحالة تكون الطرائق "لاإنسانية"، ويستمر القصور. وإما أن ينال، من ناحية أخرى، الأشخاص الذين يجرى البحث عليهم، في أي فترة لاحقة على الأقل، الفرصة لفهم نتائج البحث واستيعابها، بوصفها جزءًا من عملية تثقيفية تكشف لهم علاقات كانت، بالنسبة إليهم، غامضة حتى ذلك الحين. في هذه الحالة وحدها يصبح ما قاله أدورنو في بداية محاضرته أكثر من مجرد كلمات جوفاء. "نعلمُ أن الناس الذين ننشغل بهم لا يزالون كائنات إنسانية تتمتع بفرصة

(13) Ibid., p. 83.

تقرير مصيرها بحرية وعفوية، حتى عندما يكونون متورطين في علاقات غامضة بالنسبة إليهم أيضًا؛ ونعلم أيضًا أن عنصرَي العفوية والوعي هما اللذان يضعان حدودًا لقوانين الأعداد"[14].

رأى أدورنو - مستغلًا علم الاجتماع التجريبي ضد علم الاجتماع النظري، ونصيرًا له في مواجهة الأحكام المسبقة التي تهزأ به - أنه لا يحتاج إلى تقديم أي تأكيد خاص لحقيقة أنه لا يستعمل الأيديولوجيات لتحويل علم الاجتماع إلى مجرد فرع من الاقتصاد والإدارة. لكن ألم يرتكب، على وجه التحديد، هذا الخطأ في محاولته إنقاذ دراسات السوق لمصلحة علم اجتماع نقدي؟ ثم ألم يكن يتعامى عن نقطة الاختلاف الأكثر أهمية التي تميز الأبحاث الاجتماعية النقدية من الأبحاث الاجتماعية الإدارية - وكان قد استعمل بحذر هذه المصطلحات التي أدخلها لازارسفلد في العدد الأول من **دراسات في الفلسفة والعلوم الاجتماعية** - عندما لم تعد، بالنسبة إليه، مسألة دوام الحالة الموضوعية أو كسرها للأشخاص المبحوثين موضوعًا منهجيًا على الإطلاق؟

من الواضح، أن أدورنو ارتكب مثل هذه الأخطاء. لقد تركز جهده في الدفاع عن البحث الاجتماعي التجريبي بوصفه واجبًا نحو البرنامج الجدي للبحث الاجتماعي النقدي على نقطتين حصرًا. لقد شدد على أن البحث الاجتماعي التجريبي هو أكثر من تقنيات استبيانية ماكرة، وأنه "طوّر أيضًا منذ أمد طويل، بتأثير من علم النفس المعمق، طرائقه" التي يستطيع "من خلالها أن يعارض السطحية": توجيه أسئلة غير مباشرة، اختبارات، مقابلات معمقة مفصلة، أسلوب المناقشة الجماعية؛ كلها طرائق كان معهد البحث الاجتماعي بالذات قد استعملها ولا يزال يستعملها بفخر.

لقد أبرز، على سبيل المثال، دور قادة الرأي الذي شدد عليه لازارسفلد، ووجهة النظر الواسعة الانتشار في الولايات المتحدة في ضرورة التحليلات النوعية، كي يمكن وضع نظرية المجتمع بوصفها عنصرًا تكوينيًا للبحث الاجتماعي الإمبيريقي. "إن نظريةَ مجتمع كهذه، ليس التغير بالنسبة إليها محض

(14) Ibid., p. 479.

عبارة مبتذلة، يجب أن تستوعب عنف الواقع المتناقض كله إن أرادت ألا تبقى حلمًا قاصرًا، يخدم قصوره السلطة القائمة فحسب"[15].

بهذا كان أدورنو قد بلغ نهاية محاضرته بطريقة أدورنوية معدلة عن برنامج هوركهايمر. في الواقع ألقى أدورنو في فاينهايم محاضرة من النوع الذي كان يمكن تقريبًا أن يتوقعه المرء من هوركهايمر بمناسبة إعادة افتتاح معهد البحث الاجتماعي. هل عنى هذا أن أدورنو كان يريد أن يحل محل هوركهايمر الذي أصبح ممثلًا لهذا البرنامج، ويهتم، على الأقل، بأن يتابع المعهد إنجازه في مشروع آخر يساعد في دفع النظرية المادية للمجتمع قدمًا إلى الأمام؟ ثم ألم يكن من المفترض به أن يتحلى بوعي متبصر للحاجة إلى ضرورة توسيع نطاق البحث الاجتماعي النقدي أبعد من الطرائق المعدة لاختراق البنى العميقة، وأبعد من الجمع بين النظرية والبحث التجريبي، ليشمل، على الأقل، نوعًا من تغذية راجعة طويلة الأمد للبحث التجريبي، كمعلومات تتاح لأولئك الذين خضعوا للاستبيان والبحث؟ لكن بمقدار ما بدا هذا متعذرًا، كان يمكن تصوّر اكتفاء المنظّرين النقديين بممارسة البحث الاجتماعي النقدي، على أمد طويل أيضًا، بعيدًا عن الأشخاص المعنيين بالاستبيان والبحث. لكن عندما لا تكون نتائج البحوث في متناول المنظّرين النقديين وحدهم فحسب، بل تكون، في الوقت نفسه، في متناول من كلفوهم بها أيضًا، أو من أجريت تحت رعايتهم من مجالَي الاقتصاد والإدارة ومؤسسات البحث العلمي، ألا تكون معرفة المنظّرين النقديين، في نهاية المطاف، أداة سيطرة بدلًا من أن تكون خميرة تنوير عام؟ وكيف كان من المفترض تجنّب ذلك؟

كيف كان الأمر مع نظرية المجتمع لو أنها أتاحت لأدورنو أن يتحدث، من دون قيود نقدية، عن انتصارات علوم الطبيعة المحققة تجريبيًا، وأن يصف القبول العام لعلاج طبي جديد من حيث هو بدهية اجتماعية؟ هل كانت النظرية ملائمة بالفعل لوضع أسئلة البحث الأساسية؟ وهل كانت متطورة وواضحة كفايةً كي تجعل المعطيات المتباينة تتكلم؟ هل كانت المشاريع، على الأقل مشاريع معهد البحث الاجتماعي، تستهدي فعليًا، ولو جزئيًا، بنظرية المجتمع؟

(15) Adorno, *Gesammelte Schriften*, 8, pp. 492 f.

بقي الجواب عن هذه الأسئلة مفتوحًا بداية؛ إذ لم يكد معهد العلوم الاجتماعية الذي أُسّس من جديد يبدأ عمله فعلًا حتى فقد أركانه الفعليين. فانتخاب هوركهايمر رئيسًا للجامعة، وإعادة انتخابه ثانيةً بعد عام، عنَيَا أنه، إلى جانب وظيفته التعليمية ومسؤوليات رئاسة الجامعة، لن يكون لديه الوقت للمعهد. أما أدورنو الذي كان هو نفسه مثقلًا بعمل إضافي، نتيجة مساهمته في دراسة جماعة دارمشتات، وعلى الرغم من كونه أقل انشغالًا من هوركهايمر بالواجبات التعليمية، فقد أخذ قسمًا كبيرًا من عمل هوركهايمر، وكرّس نفسه للمعهد بشكل مكثف. لكن في خريف 1952 انتهت السنوات الثلاث التي يحق للمرء، بوصفه أميركيًا، أن يمضيها بلا انقطاع طويل في وطنه الأصلي. فمن لا يسافر بعدها إلى بلد ثالث، أو يعود إلى الولايات المتحدة الأميركية ويعيش فيها ثانية، يفقد جنسيته الأميركية. غير أن هوركهايمر، بوصفه رئيسًا لجامعة فرانكفورت، نجح في استصدار "قانون فردي" يسمح له بالإقامة في بلده الأصلي خمس سنوات بلا انقطاع. أما المواطن العادي أدورنو، فلم يفلح في استصدار مثل هذا الاستثناء.

في وقت بدا كما لو أن الثلاثة - هوركهايمر وبولوك وأدورنو - سيضطرون إلى العودة، في الوقت نفسه تقريبًا، إلى الولايات المتحدة الأميركية، تعاقد مديرو المعهد مع فريدريش هاكر على إنجاز مشروع أو أكثر لتأمين مصدر دخل لهم في الفترة التي تلي عودتهم إلى الولايات المتحدة. كان هاكر - وهو طبيب نفسي من فيينا هاجر إلى الولايات المتحدة، وأصبح معروفًا في السبعينيات في ألمانيا الاتحادية من خلال مؤلفه النموذجي حول العدوانية - قد أسس عيادة نفسية في بفرلي هيلز في لوس أنجلس، آملًا من العمل المشترك مع الأعضاء الرواد لمعهد البحث الاجتماعي أن يحقق السمعة العلمية والدعاية لعيادته.

"أسافر بقلب مثقل بلا حدود"، كتب أدورنو في تشرين الأول/أكتوبر 1952 من باريس، محطة سفره الأولى، إلى هوركهايمر. "في رأيي أن مكاننا على ضفة المحيط هذه". وختم قائلًا: "ماكس: هذا أمر مفروض علينا، ولا خيار آخر أمامنا!". وفي اليوم التالي استقلّ هو وزوجته في لوهافر السفينة متوجهَيْن إلى نيويورك. هناك التقى بلوفنتال وماركوزه، ثم تابع إلى لوس أنجلس.

يتوقف الأمر بالنسبة إليه، الآن في الولايات المتحدة الأميركية، على إرضاء هاكر (وهو الذي لا علم له بالأسباب الحقيقية لتوقيع العقد، أو بالطريقة الخاصة للمعهد في تنفيذه) الذي ينتظر وصول هوركهايمر وأدورنو، وحثّه على دفع المستحقات كاملة، وفي حالة الضرورة أيضًا أن يحافظ على وضعه عند هاكر قبل مجيء هوركهايمر لاحقًا، إلى أن يستطيع، أي أدورنو، العودة إلى ألمانيا ثانية، من غير أن يكون عليه أن يخشى خسارة جنسيته الأميركية. وكتب بعيد وصوله إلى لوس أنجلس: "الشيطاني في الأمر أنني لا أعلم متى أحصل ثانية على جواز سفر. بالتأكيد، ليس قبل نصف عام، وشعوري أن الأمر يتطلب عامًا على الأقل"[16]. ولأن سفره إلى الولايات المتحدة الأميركية كان يشكل له الدليل المؤلم - وقد وجد أن العمل لمؤسسة هاكر تضحية، في حين مثّل له هاكر إزعاجًا - بأن عودتهما إلى ألمانيا لم تكن نهائية بعد، كرر من فوره، عند وصوله إلى الهدف النهائي لسفره، رأيه النهائي: "أرى أساسًا أن علينا أن نركز جهودنا هناك؛ إذ إن خطر الانهيار هنا، في جميع الأحوال، جدي للغاية، ولا تبارحني الفكرة لحظة واحدة [...]. وإذا كان على المرء أن يختار بين فانتازيا جنون العظمة حول واقع يلفّه جنون العظمة وغباء الإنسان المعافى، فإن البارانويا تسعف المرء أكثر". وكتب بعد أربعة أشهر على نحو أكثر إلحاحًا: "بالنظر إلى حقيقة [...] أنه لا يمكننا أن نأمل بأن نكون نحن ذوات تلك الممارسة القادرة على درء الشر، فإن كل شيء يتوقف على استمراريتنا التي تمنحنا الأمل في ألا يضيع كل ما تراكم فينا. لكن هذا لن يكون ممكنًا، وبأي منظور، إلا حيث يكون بإمكاننا أن نتكلم بالمعنى الحرفي والمجازي [...]. ومهما كان الحظ الذي أتاح لنا البقاء في قيد الحياة كبيرًا، لا يحق لنا أن نجعل من الشروط الماضية التي صنعت هذا الحظ صنمًا، ويبدو لي أن القاعدة القديمة التي تقول إن المنفي يعود ويرى ما يمكنه تحقيقه، تتضمن من الحكمة أكثر من الإصرار المؤسساتي اليوم على النقيض الذي يمثله البرجوازيون الضيقو الأفق الذين يستغلون كرامتهم الإنسانية المجروحة ذريعةً للخضوع الذي يبعث على الخزي". ويتابع أدورنو بمشاعره الطريفة المعهودة القول: "أكثر من ذلك،

---

(16) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، لوس أنجلس، 12 تشرين الثاني/ نوفمبر 1952.

فإن كل كرزة في شلاغباوم[17] لها علاقة بفلسفتنا أكثر من الأعمال الكاملة لريزمان". ثم يتابع بعاطفة جياشة قائلًا: "لا أعرف إلى أي حد يحق لي في موضوع يتعلق حرفيًا بالحياة والموت أن أتكلم عنك وعني. وعلى الرغم من أنني أعتقد أنني أستطيع، فإنني أفضل أن أجازف وأضرب حتى الموت هناك على أن 'أشيد' أي شيء ما في أي مكان آخر، أو حتى أن أنسحب إلى الحياة الخاصة، مع العلم أن التطورات الجارية لا تمنح أحدًا فرصة التمتع بأي حياة خاصة". ثم يكتب بجدية مطلقة: "لكننا إذا ما تتبعنا دافعنا، فإنه سيكون بوسعنا، عندما تكون أشغال رئاسة الجامعة وراءك، أن نوزع الوقت بحيث يتبقى لنا متسع من الوقت للتفكير والحياة. وكلاهما الشيء ذاته. في الحقيقة، أنا على يقين من أننا سوف نجد - وإن بدا ذلك متناقضًا - في فرانكفورت، مع كل واجبات الحياة وتشابكاتها، راحة أكبر مما هو عليه الحال في شكل وجود لا يجد في الوحدة إلا لحظتها السلبية، أي العزلة"[18].

اتفق أدورنو مع هاكر على أن ينجز دراسة عن الوظيفة الاجتماعية-النفسية للتنجيم. كان المشروع يمثّل بالنسبة إلى أدورنو تتمة لـ "دراسات في التحيّز"، تندرج بين تحليلات لوفنتال وغوترمان لخطب ومقالات الديماغوجيين ما قبل الفاشية ودراسة بيركلي حول **الشخصية السلطوية**. وكان أدورنو قد ذكر التنجيم في أطروحاته ضد القوى الغيبية في كتابه **أخلاق صغرى**، وابتُدئ جزئيًا، على الأقل، بتطبيق اقتراحه القديم بشأن إمكانية دراسة وتحليل التفكير النمطي والمعادي للديمقراطية بصورة غير مباشرة، من خلال منتجات الصناعة الثقافية ووسائل الإعلام، على مركب هذه الظاهرة التي ساهمت في تعزيز الفاشية. وكان أدورنو، بسبب عدم تيقّنه من قدوم هوركهايمر إلى الولايات المتحدة والانضمام إليه في المستقبل المنظور، قد أعدّ هذا المشروع على نحو يمكّنه من إنجازه بمفرده، إذا اقتضت الضرورة.

كان من الواضح أن الظروف لم تكن مؤاتية لكل من أدورنو وهاكر، وقد بلغت الأزمة ذروتها بينهما عندما تلقى أدورنو في أيار/ مايو 1953 رسالة،

(17) حانة قريبة جدًا من جامعة فرانكفورت.

(18) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 12 آذار/ مارس 1953.

وقّعها جميع أعضاء اللجنة التنفيذية لمستشفى هاكر، تحمله على العمل بدوام جزئي بنصف الراتب، ليتحرر على نحو بيّن من المهمات الإدارية الثقيلة، ومن العلاقات بالمجموعة التي كانت تشكل، كما هو واضح، عبئًا ثقيلًا عليه، فقدّم استقالته على أثرها. وحتى في هذه الظروف، أنجز أدورنو مشروعًا برجل واحد: تحليل مضمون نوعي بحت للمادة المأخوذة على امتداد ثلاثة أشهر من عمود التنجيم في صحيفة **التايمز** في لوس أنجلس، صحيفة اليمين الجمهوري اليومية الكبرى. نُشرت نتائج هذا المشروع الذي عمل فيه أدورنو في أثناء إقامته في الولايات المتحدة الأميركية التي امتدت نحو نصف عام تقريبًا، في عام 1957، تحت عنوان **النجوم تهبط إلى الأرض: عمود التنجيم في صحيفة التايمز في لوس أنجلس. دراسة في خرافة ثانوية** في ألمانيا الاتحادية في **الكتاب السنوي لدراسات أميركا** (صدر بالألمانية تحت عنوان **الخرافة من مصدر ثان** في صياغة أولية موجزة في عام 1959 في مجلة *Psyche* (**بسيشي**)، وفي صياغة نهائية في عام 1962 في مجلد **سوسيولوجيكا** 2 [**اجتماعيات** 2]).

لم يتحدث أدورنو مع قراء عمود التنجيم ولا مع الذين يكتبونه. كما لم يتعامل مع أي معطيات ذات طبيعة موضوعية. آلَ التفسير "الخالص" لعمود التنجيم إلى حالة تطبيقية خالصة لمخزون أدورنو وهوركهايمر من الأفكار. "تقصد خريطة الأبراج قراءً تابعين أو يشعرون بالتبعية. إنها تشترط مسبقًا ضعف الأنا وعجزًا اجتماعيًا حقيقيًا"[19]. "الأبراج [...] تُغطي على التبعية الكلية المقصية، وتُقرّبها وتستغلها"[20].

نظر أدورنو نفسه إلى دراسته بوصفها نموذجًا لطريقة التحليل النوعي. غير أن التحليل النوعي المنعزل للنصوص أثبت وحده أنه كارثي؛ فقد فسّر التعامل مع النجوم بوصفه الصورة الرمزية للعلاقة المحرّمة بشخص الأب الكلي القدرة غير المعروفة تقريبًا، والتي يمكن تحمّلها. لهذا السبب تُذكّر طريقة أدورنو المرء، قبل كل شيء، بنمطية التحليلات النفسية المعمقة وتقريريّتها المسبقة. فالطريقة الميكروية وادعاؤه الاستغراق في الموضوع بلا غطاء كانا بلا

(19) Horkheimer & Adorno, *Sociologica II*, p. 150.

(20) Ibid., p. 163.

جدوى. فالتفسيرات الشاملة دشّنت الأساس المادي الضيق الذي أبدى إلى حدّ ما مقاومة ضعيفة. لقد افتقَدت موهبة أدورنو في التحليل النوعي تجسيدها في ظروف عمل تشبه تلك التي كانت تميّز دراسة بيركلي.

وبينما كان أدورنو يموّل حياته في الولايات المتحدة من مشروع التنجيم، كان هوركهايمر في فرانكفورت يتخبط مع المعهد في صعوبات تزداد أكثر فأكثر. وكان هلموت بلسنر (Helmuth Plessner) يأتي من غوتنغن إلى فرانكفورت يومين أو ثلاثة أيام أسبوعيًا كي يغطي جزئيًا غياب أدورنو. كان بلسنر الذي يكبر هوركهايمر بثلاث سنوات قد فقد في عام 1933، بوصفه يهوديًا، وظيفته التعليمية في كولونيا، وهاجر في عام 1934 إلى هولندا فشغل في عام 1939 كرسي التعليم الذي استحدث في جامعة غروننغن، ليصبح أول أستاذ علم اجتماع في جامعة حكومية هولندية. وقد نجا من الغزو الألماني، وقَبِل في النهاية، وهو في الستين من العمر، تقلُّد كرسي الأستاذية في علم الاجتماع والفلسفة في غوتنغن. وقد أصبح بلسنر من خلال كتاب **مراحل العضوي والإنسان،** إلى جانب شلر، مؤسس الأنثروبولوجيا الفلسفية الحديثة، وقد أقام تحليلاته، بخلاف شلر، على منظور اجتماعي-تاريخي. تحت إشراف بلسنر، بدأ قسم علم الاجتماع في جامعة غوتنغن في عام 1952 استقصاءً تجريبيًا إحصائيًا عن وضع مدرّسي الجامعات الألمانية، نُشرت نتائجه في عامي 1957 و1958 في ثلاثة أجزاء. لكنه كان يعتبر نفسه، قبل كل شيء، فيلسوفًا اجتماعيًا وعالم اجتماع ثقافي، وكان يشدد على أهمية الفلسفة لعلم الاجتماع. وقد وصمه شلسكي لاحقًا بـ "كاره الألمان". على هذا النحو، كان هناك بعض الأمور التي يتشاطرها مع هوركهايمر وأدورنو. غير أن رصيد الاثنين كان، مقارنة به، كبيرًا وظل كذلك، كما كان الحال حقيقة بالنسبة إلى أي طرف ثالث يقف قريبًا منهما.

بسبب غياب أدورنو، وعدم تفرغ هوركهايمر للمعهد لكونه رئيسًا للجامعة وبسبب محاضراته المتواصلة، لم يكن عمل بلسنر الجزئي كافيًا لإنجاز ما كان ضروريًا. فقد كان ضروريًا في المقام الأول - بحسب هوركهايمر - متابعة إصدارات معهد العلوم الاجتماعية التي كان ينبغي، بلا شك، أن تحافظ نوعًا ما على مستوى ماضي المعهد المشرق. غير أن المشروعين المحتملين الأكثر

أهمية للنشر - النسخة الألمانية لـ "دراسات في التحيز"، ودراسة المجموعات حول الوعي السياسي للألمان الغربيين - كانا غير جاهزين للنشر في أي حال، ومن ثم لم يهتم أحد بهما.

كان هوركهايمر، في ما يخص هذه الإشكالات جميعها، ممزقًا هنا وهناك بين خطط لانسحاب سريع من دون إراقة ماء وجه، وانسحاب طويل الأمد في ضوء شروط رائعة. وكي ينهي أخيرًا دراسة المجموعة عن الوعي السياسي للألمان، حدد نهاية نيسان/ أبريل 1953 موعدًا لانعقاد مؤتمر من المفترض أن تُعرض فيه، قبل أي شيء، أمام ممثلي سلطات هِسِّن وفرانكفورت في شكل تقارير تقدم فيها نتائج المشروع. ويمكن نشر التقرير، كما فكّر هوركهايمر، في هيئة كتاب من غير مسؤولية أكاديمية كبيرة، في حين تقدَّم نسخ عن النصوص الكاملة إلى عدد محدود من الأشخاص والمعاهد. بيد أن التقارير لم تُرْضِه كثيرًا، بحيث رمى جانبًا خطة الكتاب، وأحلّ محل الخطة القديمة مجددًا إصدار مجلة، يمكن في إطارها تعويض قصور التقارير البحثية بالنوعية الرفيعة المستوى لمساهمات أخرى.

كان من المفترض ألا يصدر أكثر من ثلاثة أعداد سنويًا، وكان ينبغي أن يتألف العدد من أربعة أقسام: "(1) مقالات، إما لنا (أو إعادة تحرير مواد من إصدارات المجلة القديمة)، وإما مواد تمثل وجهات نظر أصدقاء المعهد الذين سأبعث إليهم برسائل لهذا الغرض، ومن بينهم، على سبيل المثال، آلبورت وكانتريل وكلينبرغ وجورج فريدمان (أو إلى أولئك الذين استقطبتهم أنت). - (2) نصوص. وفي هذا تحضرني قبل كل شيء قطع من أدب القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، غير المتاحة، أو التي لم تُترجم إلى الألمانية قط. ليس على المرء أن يفكر حصرًا في التنوير الجذري، بل في نقيضه [...]. - (3) مقتطفات من أعمال المعهد التجريبية. في هذا الخصوص يمكن التفكير في مناهج التدريب العملي، دراسة الإذاعة، ملخصات الخبراء، مشروع الطلبة، وأخيرًا في أجزاء من دراسات المجموعة، إذا لم يكن ممكنًا جمعها في نهاية الأمر في كتاب صغير. - (4) محادثات"[21]. ثم أضاف قائلًا: "إذا لم نصدر المجلة، أخشى أن نخفق

---

(21) رسالة من هوركهايمر إلى أدورنو، 17 نيسان/ أبريل 1953.

في مسألة النشر، في حين قد تُمكّن المجلة، من ناحية أخرى، من إعادة تنظيم أعمال المعهد على نحو يتفق حقيقةً مع رغبتنا. لكن هل ما تزال قابضًا على هذه القضية؟". أجاب أدورنو بحماسة، وتكفل "بألا يكون هناك نقص في المواد، حتى من دون طبع نصوص قديمة، على الرغم من أن هذا سيكون أيضًا جميلًا جدًا"[22]. في أي حال، ينبغي للعدد الأول "أن يمثلنا فعليًا"[23].

اهتدى هوركهايمر في النهاية إلى ما بدا أنه حلٌّ واعد لمشكلاته الشخصية. ففي كانون الثاني/يناير 1953، أخبر أدورنو، بادئ الأمر، بخطة انسحاب قصيرة الأمد. كان على بلسنر وشابين آخرين يعملان في المعهد، هما ديدريش أوزمر وإيغون بِكِر، أن يشكلوا معًا مجلسًا ثلاثيًا، بحيث يتمكن المعهد من البقاء إذا ما انسحب الاثنان، هوركهايمر وأدورنو. أشعلت خطة الانسحاب الجدل القديم من جديد. غير أن الجدل لم يحصل هذه المرة بين هوركهايمر ولوفنتال وبولوك، بل بين هوركهايمر وأدورنو. إن تخوّف أدورنو من أنهما سيفرّطان بعنصر أمان مهم في ما لو تخلّيا عن المعهد، علاوة على رسالة وصلته من بلسنر حول دراسة المجموعة، يعتبر فيها الأمر بأكمله عبثًا، هما ما دفعا هوركهايمر إلى الانتقال إلى خطة أكثر حذرًا. "لدي الآن الفكرة، بأن يوكل المعهد إلى جمعية علم الاجتماع بالذات، أي إلى حد ما، إلى رئاسة شرفية لفون فيزه الذي ينبغي أن تكون له اليد العليا على جماعتنا، إلى حين عودتنا، مقابل أجر ملائم. إذا سارت الأمور على ما يرام، يمكن أن أكون أشبه بمستشار رئيس، ويُتفق في ما بعد إن كنت تريد أن تفعل الشيء ذاته، أو أن تتسلم إدارة فعالة"[24]. كان لأدورنو أيضًا تحفظ تجاه هذا المقترح، وتجاه فون فيزه. "لكن: ليس لدي اقتراح أفضل، ببساطة بسبب النقص في الأشخاص المتاحين. نصيحتي إذًا: تدبَّر الأمور كيفما اتفق، ولا تَتَّخذ أي إجراءات تنظيمية جديدة إلى حين عودتي. وسوف نرى، كيف سندبر الأمور لاحقًا؛ عندئذ، إذا أصبحت المستشار الرئيسي، سيكون مناسبًا لي أن أتسلم الإدارة الرسمية لفترة من الزمن، على الأقل. فالمعهد، كما يتضح لي أكثر فأكثر، ومعه الجامعة، هما

(22) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 25 نيسان/أبريل 1953.

(23) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 3 حزيران/يونيو 1953.

(24) رسالة من هوركهايمر إلى أدورنو، 19 كانون الثاني/يناير 1953.

رصيدنا الذي نمتلكه في صراعنا مع الواقع الذي يغدو أكثر صعوبة. وفي الوقت الحالي، حيث لم تعد السلطة التنفيذية في يدنا، سوف يتآمر الكل، في الحال، علينا. وينبغي تحمّل الأضرار، بل حتى التأخر في عمل المعهد في الأشهر القليلة القادمة؛ أعتقد أن باستطاعتي أن أعدك بأنني سأنظم الأمور بسرعة، من دون إزعاجك"[25].

قبل أن تصل هذه الرسالة إلى هوركهايمر، كان مجلس الأمناء قد فوّضه، استنادًا إلى تخطيطٍ للقلب يُظهِر مدى الإجهاد الذي تعرّض له، ببدء مفاوضات مع فون فيزه. لكنه قبل ذلك تحدّث مرة أخرى مع بلسنر، واتفق معه في نهاية المطاف على أن يتسلّم، أي بلسنر، في الفصل الدراسي المقبل إدارةَ المعهد كمدير مؤقت بالوكالة، نيابة عن أدورنو. مرة أخرى تحمّس هوركهايمر، وقدّم عرضًا لفون فيزه يُجري بموجبه في الفصل الصيفي، كل 14 يومًا، تمرينًا في علم الاجتماع العام في المعهد، ويلقي، علاوة على ذلك، محاضرة مقابل 1000 مارك ألماني. "ويُعلن من خلال ذلك أن المعهد هو المركز التخصصي في علم الاجتماع في ألمانيا"[26].

في هذه اللحظات، انتصر مجددًا طموح هوركهايمر لنيل الاعتراف الاجتماعي على حساب التنازل عن البحث والتعليم والفعل والثقة بقدرته على الصمود وتحقيق الاستثنائي. ويُعَدّ الحدث التالي من النتائج العرضية لهذا الموقف. فقد أثار ألكسندر ميتشرليش (Alexander Mitscherlich)، الذي يُعَدّ من أتباع فرويد المهمّين القلائل في المرحلة الأولى بعد النازية، كره زملائه له من خلال نشاطه كمراقب وخبير في محاكمات نورنبرغ، وكواحد من ناشري مجموعة الوثائق **علم بلا إنسانية**، والتصقت به سمة تزوير الحقائق وخيانة الوطن. جرى التعامل معه، بحسب هوركهايمر، "في كل مكان، في الكليات، أو في وحدات البحث العلمي، على حد سواء، بوصفه غومبل جديد"[27] (عالم الإحصاء والرياضي إميل يوليوس غومبل (Emil Julius Gumbel) عرّض نفسه في العشرينيات من خلال توثيقه للاغتيالات السياسية، والملاحقات

---

(25) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 24 كانون الثاني/ يناير 1953.

(26) رسالة من هوركهايمر إلى أدورنو، 13 آذار/ مارس 1953.

(27) رسالة من هوركهايمر إلى أدورنو، 16 شباط/ فبراير 1953.

القضائية للجرائم ذات الدافع السياسي، لكره الزملاء والطلبة وشرائح واسعة من الجمهور). فعندما تقدم ميتشرليش مطلع عام 1953 رسميًا لقبوله في المعهد، لم يكن هوركهايمر وأدورنو يريدانه. فقد كانت مشاركة محلل نفسي تلائم تقليد المعهد وتتساوق مع ادعائه المتجدد، عند افتتاحه ثانية، بأن يكون متعدد الاختصاصات العلمية، ومتخصصًا في المشكلات النفسية الاجتماعية على وجه الخصوص. لكن بصرف النظر عن نفوره القديم من توظيف العلماء المُبعَدين الذين ينبغي مبدئيًا أن يعامَلوا على قدم المساواة، أصاب الهلع هوركهايمر أيضًا من أن يؤدي قبول ميتشرليش في المعهد إلى "إثارة محتملة لهجمات مفتوحة استطعنا أن نتجنّبها حتى الآن. فحب الانتقام من النازيين وأنصارهم هو في الحقيقة وصية قديمة، تصل حتى الجيلين الثالث والرابع"[28]. لكن لو لم يكن مديرو المعهد مستعدين لحماية أحدهم في حالة كهذه، ألم تكن المؤسسة الحمائية غاية خالصة في ذاتها؟ على أن حجة هوركهايمر الأخرى القائلة إن ميتشرليش ألقى منذ بعض الوقت محاضرة في المعهد، "كانت بحق شرحًا تحليليًا تعليميًا لأطروحتنا الخامسة في معاداة السامية"، لكنه لم يسمع من ميتشرليش بعد شيئًا أصيلًا، بدا، بناء على ذلك، مجرد عقلنة لا أكثر. وبفضل المحاولة الفاشلة لمديري المعهد في إرسال ميتشرليش إلى هاكر في لوس أنجلس ليحل محل أدورنو، حُلَّت مشكلة طلبه الانضمام إلى المعهد بالطريقة التسويفية التي عومل بها.

لكن الاتفاق مع بلسنر لم يخفف من مشكلات المعهد. في الوقت نفسه، ولأنه أخذ مرة أخرى بالخطة القديمة لإصدار المجلة مجددًا، تقدم هوركهايمر خطوة أخرى، بدا من خلالها أن معجزة ستجد طريقها نحو التحقق؛ فسأل هربرت ماركوزه إن كان مستعدًا للانضمام إليه.

فالعلاقة بين هوركهايمر وماركوزه لم تنقطع قط؛ إذ استمر تواصل ماركوزه بهوركهايمر وإخلاصه له، وهو لا يزال يمثل في نظره الفرصة الوحيدة للعمل النظري. سهّل هذا على هوركهايمر معاملة ماركوزه على نحو يراعي آمال زميل العمل السابق، ويبقيه ودودًا تجاه المعهد.

---

(28) رسالة من هوركهايمر إلى أدورنو، 16 شباط/ فبراير 1953.

في ربيع 1950، حيث لم يكن قد تقرر بعد من ينبغي أن يخلف غادامر في كرسي الفلسفة الوحيد في جامعة فرانكفورت إلى جانب كرسي الفلسفة الاجتماعية الذي يتقلده هوركهايمر، وحيث كان كارل لوفيت، المرشح الأكثر ثقلًا، قد اتخذ قراره بالذهاب الى هايدلبرغ، كتب هوركهايمر إلى ماركوزه يقول: "بالطبع [...] أُلحّ بحزم على أن تُستدعى أنت لتشغل كرسي غادامر هنا". بالنسبة إلى أدورنو كانت الصعوبات أكبر، لأنه سيتماهى كثيرًا جدًا به، أي بهوركهايمر، بسبب اشتراكهما في تأليف **جدل التنوير**. لكنه يضيف: "من المحتمل ألا يقبل الاثنان، فنحصل على أحد الوجوديين من الدرجة الثانية أو الثالثة"، وقد عنى بذلك أنصار هايدغر. "كيف سيكون موقفك في حال استدعائك؟"[29]. كان موقف ماركوزه من الأمر إيجابيًا، فكتب إليه: "يحدوني الأمل في أن نعمل معًا مرة أخرى. لكن لا بد من أن أخطئ كثيرًا في تقويم روح العالم، لو اعتقدتُ بأنه يقبل هوركهايمر وأدورنو وماركوزه في جامعة واحدة"[30]. في أي حال، سمع بعدئذ من هوركهايمر: "في غضون ذلك أفلحتُ (سر من أسرار الكلية!) في وضع تيدي على القائمة"[31]. لكن عندما يحصل أدورنو على كرسي الأستاذية، ويُموّل "المشروع الكبير" - الدراسة حول الوعي السياسي للألمان الغربيين - تكون هناك آمال كبيرة في استحداث كرسي أستاذية ثان للفلسفة الاجتماعية، وأن هوركهايمر لم يُدْلِ بداية الأمر برأيه على الإطلاق لمصلحة ماركوزه. على أن أدورنو لم يصبح في عام 1953 خَلَف غادامر، بل غرهارد كروغر، وهو في عمر أدورنو، ويعمل منذ عام 1946 أستاذًا في جامعة توبنغن، ويهتم أساسًا بأعمال أفلاطون وكانط. وكان قد نشر، فضلًا عن كتب عن هذين المفكرين الكلاسيكيين، مختارات من كتابات لايبنتز في دار نشر كرونر (Kröner-Verlag).

عندما سأل ماركوزه، بُعيد وفاة زوجته في ربيع 1951، هوركهايمر عن خططه، حصل على جواب مراوغ ومضلّل. كانت الخطط ترمي إلى "أن نصل إلى عمل عقلي مرة أخرى". "أما إذا كان هذا ممكنًا هنا أو هناك، فهذا ما يجب أن يتبيّن لنا في هذه الأشهر. لكن سوف يكون من الجيد أيضًا لو

(29) رسالة من هوركهايمر إلى ماركوزه، 17 أيار/ مايو 1950.

(30) رسالة من ماركوزه إلى هوركهايمر، واشنطن، 4 حزيران/ يونيو 1950.

(31) رسالة من هوركهايمر إلى ماركوزه، 3 تموز/ يوليو 1950.

تكتب أنت شيئًا ما عن خططك. فهل تفضّل مثلًا أن تكون أستاذًا في ألمانيا على أن تكون في معهد كولومبيا؟ أم يمكن، في النهاية، التوفيق بين الاثنين؟ كيف تُقوّم التطورات العامة هنا وهناك؟ وهل تعتقد بتوفر الشروط الاقتصادية والسياسية هناك لحياة انعزال متواضعة، في حال كان علينا أن نقرر إنهاء ارتباطاتنا هنا؟"[32]. أسهمت أقوال ماركوزه في ترك المسألة برمّتها معلقة في إطار الأمنيات المستكينة، على الرغم من حماستها. لقد رمى إلى أن العمل الفلسفي المعقول يهمّه أكثر من الأستاذية، وتعزّز هذا الموقف من خلال زيارته هوركهايمر في فرانكفورت في آب/ أغسطس 1951. بيّنت له بضعةُ أيام في فرانكفورت، مرة أخرى، أن "حديثًا في ما بيننا مدته نصف ساعة يثمر أكثر بكثير من جهد منعزل أو احترافي يستمر أسابيع". "أحب أن أكرّس السنوات المتبقية من حياتي لأعمالنا الخاصة، من دون أن يكون لدي هموم مادية حقيقية. وهذا يمكن أن يحصل على أحسن وجه هناك حيث أنت، شريطة أن يتوفر لك بالذات الوقت لهذه الأعمال. أما مسألة المكان فيتوقف علينا وعلى روح العالم [...]؛ إذا كنت مستعدًا أن تبصق في وجه روح العالم، فسأفعل ذلك معك بسرور، لكن يجب أن يكون الفعل مستحقًا. في أثناء ذلك سأعمل، في أي حال، بحيث يكون في مقدوري المجيء إلى هنا في الصيف المقبل لمدة أطول. وآمل عندئذ أن أكون قد أنجزت مخطوط الكتاب عن فرويد[33]، وأن أستطيع المراجعة معك. أعمل جاهدًا على هذا؛ إذ لا بد للإطار غير السياسي ظاهريًا من أن يساعد في التصريح بوضوح قدر المستطاع"[34].

بعد نصف عام، التقى الاثنان في نيويورك، راح بعدها ماركوزه يخاطب هوركهايمر باسمه الأول (مع الحفاظ على صيغة التفخيم أنتم، كما كان مألوفًا دائمًا أيضًا بين هوركهايمر وأدورنو): "عزيزي ماكس (إذا كان يناسبكم)". في صيف 1952، أمضى ماركوزه في أوروبا مدةً أطول. وفي نهاية تموز، قدم لهوركهايمر من سيلس ماريا في سويسرا شكره وامتنانه، لأنه اطّلع على مخطوطة فرويد.

(32) رسالة من هوركهايمر إلى ماركوزه، 26 آذار/ مارس 1951.

(33) المقصود **الإيروس والحضارة** الذي صدر في عام 1955.

(34) رسالة من ماركوزه إلى هوركهايمر، نيويورك، 18 تشرين الأول/ أكتوبر 1951.

والآن، في ربيع 1953، استعلم هوركهايمر من ماركوزه عن استعداده للمجيء إلى فرانكفورت، كما لو كان الأمر جديًا فعلًا. وكان ماركوزه أكثر تصميمًا من أي وقت مضى على التخلي كليًا عن عمله في وزارة الخارجية، ويقبل، من دون رغبة كبيرة بعد عام من منحة زمالة في المعهد الروسي لجامعة كولومبيا، عرضًا مماثلًا لمركز البحوث الروسية في جامعة هارفرد في كامبردج، لأنه يعني، بالتأكيد، "العمل عامًا آخر على قضايا روسية، وأنا لم أعد أطيق ذلك"[35]. وافق ماركوزه على المجيء مبدئيًا، فردّ هوركهايمر: "من أجل استعدادك المبدئي للقدوم، أنا ممتن لك أكثر مما أستطيع التعبير عنه بالقول. والسبب الرئيسي لذلك هو أن المعهد، ببساطة، لن يستمر من دون مساعدة. فبولوك يغادر في الصيف، ويتعيّن على تيدي الذي أناضل من أجل عودته أن يبقى هناك لبضعة أشهر على الأقل. لكن حتى لو كان هنا، فإننا نحتاج أيضًا إلى واحد منا.

الأمر الأكثر أهمية أننا نريد، مرة أخرى، إصدار مجلة يراد لها أن تكون نواة نشاط المعهد. وهي ما إن تصدر حتى يتحدد نهج معين، بحيث يكون بمقدور العاملين هنا في الوقت الراهن اتباعه عندما نغادر جميعنا. وستكون مسرورًا جدًا بهؤلاء العاملين، لكنهم لا يزالون يافعين نوعًا ما، وليس بمقدورهم فعل شيء بمفردهم"[36].

حُلم ماركوزه في السنوات الأولى بعد الحرب - استئناف العمل المشترك مع هوركهايمر، والإصدار الجديد للمجلة - بدا فجأة وكأنه قاب قوسين أو أدنى من التحقق. لقد كان يحلم بالانخراط بتفكير حر ولائق بإشراف اليد الراعية لهوركهايمر الإداري الباحث، وهو الحلم الذي ربط أيضًا بنيامين وفروم ونويمان وكيرشهايمر ولوفنتال بهوركهايمر، والذي كان قد أصبح، بالنسبة إلى بعضهم على الأقل، حقيقة لفترة من الزمن.

بقي إمكان استئناف هذا التعاون حلمًا هذه المرة أيضًا. على أن تحقيق هذا الحلم، ولو على نحو ما، لم يتحطّم بسبب روح العالم، بل أخفق لأنه، في اللحظة التي بدا أن هوركهايمر وماركوزه جاهزَين لجعله جديًا، برزت من جديد الحالة القديمة التي تعود إلى فترة انفصال ماركوزه عن هوركهايمر؛ إذ إن

(35) رسالة من ماركوزه إلى هوركهايمر، 9 شباط/ فبراير 1953.

(36) رسالة من هوركهايمر إلى ماركوزه، 28 نيسان/ أبريل 1953.

الأخير والمعهد لا يريدان تحمل أي التزامات مالية تجاه ماركوزه الذي ساعداه، بلا شك، من خلال تقديم قروض إليه إبان مرض زوجته الذي استمر طويلًا. لم يُرِد ماركوزه، وقد أصبح في أثناء ذلك في الخامسة والخمسين من العمر، أن يجازف في العودة إلى ألمانيا. أما أدورنو فقد أظهر غيرة سافرة. لم تنجح محاولة تمويل سفر ماركوزه والعمل المشترك مع معهد البحث الاجتماعي. كما لم يحظ بالنجاح مخطط ماركوزه لمشروع بحثي عنوانه "دراسات في الأنثروبولوجيا الفلسفية والثقافية"، لإنجازه، لا في ألمانيا ولا في الولايات المتحدة الأميركية، لدى مؤسسة روكفلر.

تأجّل الموضوع وفقد إلحاحيته بعدئذ بالنسبة إلى هوركهايمر، لأن عودة أدورنو ما عادت بعيدة. بعد تلقيه رسالة اللجنة التنفيذية لمستشفى هاكر، قدم أدورنو استقالته في 31 تموز/ يوليو. وكان في منتصف تموز/ يوليو قد حصل هو وزوجته على جوازي سفر صالحين لمدة عامين. ثم أنجز في 6 آب/ أغسطس دراسة الأبراج. وفي 19 منه استقلا، هو وزوجته، السفينة من نيويورك متجهَين إلى شربورغ. وبهذا كان أدورنو قد تخلص من ثلاثة أعباء، إذ بات مشروع هاكر وراءه، وبات بإمكانه أن يعود إلى هوركهايمر في فرانكفورت وأن يترك الولايات المتحدة، حيث أصبحت الأرض حارة جدًا بالنسبة إليه. فقد كانت المكارثية لا تزال في أوج ازدهارها، وإن لم تكن على القدر نفسه من الإثارة الذي كانت عليه في السنوات السابقة. وفي الربيع كان قد بدأ تفتيش المكتبات في البيوت الأميركية، التي كان كثير منها يضم [سلسلة] "دراسات في التحيز". "وإذا قرأ المرء هذا بنظرة شريرة، يمكنه أن يأتي بكل ما يخطر في البال، على الرغم من أن الروح الليبرالي المعادي للتوتاليتارية من كل النواحي التي تتّسم بها مجموعة الدراسات يجب أن يكون واضحًا لكل شخص حيادي"[37]. في الشهر التالي اطلع أدورنو على المقالات في مجلد **دراسات في طيف "الشخصية السلطوية" وطرائقها** الذي جمعته ماري ياهودا وريتشارد كريستي الذي يفترض صدوره في أيلول/ سبتمبر، ولم تلبث السعادة بهذا النجاح أن انقلبت من فورها إلى رعب. "إن مقالة السيد شيلز[38] هي أقسى ما

(37) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 10 أيار/ مايو 1953.

(38) يُنظر ص 591 وما بعدها في هذا الكتاب.

تعرضنا له حتى الآن"، كتب [أدورنو] إلى هوركهايمر. وبعد بضعة أيام أخبره بأن لديه "شعورًا محددًا بأنني يجب أن أكون في الخارج، قبل صدور الكتاب المثير الذي أصدره ميتسي"[39].

بعد ذلك لم يسافر أدورنو قط إلى الولايات المتحدة الأميركية. وعندما انتهت صلاحية جوازَي السفر له ولزوجته أصبح الاثنان مواطنَين ألمانيَّين.

لم يأت ماركوزه إذًا إلى فرانكفورت. ما أَحبَّ أن يفكر فيه دائمًا، بقي عند تعلّقه بهوركهايمر وحلم العمل معه ومع العاملين في المجلة. كتب بعد نحو عام في إحدى رسائله إلى هوركهايمر: "لا بد من أن تكون قد سمعت في أثناء ذلك [...] أنني قبلت عرضًا من جامعة برانديز: أستاذًا متفرغًا في قسم العلوم السياسية. وهذا يعطيني على الأقل الأساس المالي الذي بموجبه يستطيع المرء أن يتخذ القرارات النهائية، لأنني لا أفكر بالطبع في تمضية ما تبقى من سنوات حياتي المهنية هناك. لكن بوسعي الآن أن أنتظر كيف تتطور الأمور عندكم. وكما تكتب: هناك بمقدوري أن أخرج في أي وقت.

أخبرني في الحال، من فضلك، متى يكون بمقدورنا أن نلتقي في الصيف. فأنا أريد، كما تعلم، أن أناقش معك أيضًا مسائل أخرى [...].

كتب تيدي إليّ حول المجلة. وكتاب فرويد قد أصبح جاهزًا في مخطوطة، وعليّ العمل عليه الآن. هل هناك متسع من الوقت، في ما لو أردنا أن نقرر معًا الأجزاء التي يجب أن تُنشر في المجلة؟ هذا هو الأفضل بالنسبة إلي"[40].

استقرار المعهد وأول المنشورات بعد العودة إلى فرانكفورت: "سوسيولوجيكا"، و"تجربة جماعية"

أُجريت انتخابات البرلمان الاتحادي الثانية في الشهر الذي تلى عودة أدورنو إلى جمهورية ألمانيا الاتحادية؛ أي في أيلول/ سبتمبر 1953. كان الإصلاح النقدي، وسياسة "اقتصاد السوق الاجتماعي" التي أعقبته - السياسة التي

(39) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 24 حزيران/ يونيو 1953.

(40) رسالة من ماركوزه إلى هوركهايمر، 3 حزيران/ يونيو 1954.

رسمها في مطلع الثلاثينيات ليبراليو "مدرسة فرايبرغ" الجدد، والتي ارتكزت على فالتر أويكن وفيلهلم روبكه وألكسندر روستوف وألفرد مولر-أرماك، وقام على تطبيقها لودفيغ إرهارد (Ludwig Erhard) وزير اقتصاد كونراد أديناور منذ عام 1948 - قد آثرا الانحياز إلى جانب أصحاب رأس المال. غير أن استقرار الأسعار وتراجع البطالة والزيادة المطّردة في القوة الشرائية للجماهير أكسبت النظام الرأسمالي المجدد جاذبية لآخرين أيضًا. كما أمِل أيضًا أن يستفيد منه ذات يوم من لم يحصلوا بعد على نصيبهم من بركات "اقتصاد السوق الاجتماعي". وفي الوقت الذي تراجع، في عام 1953، نصيب جميع الأحزاب الأخرى من الأصوات، ارتفع نصيب ائتلاف حزبي الاتحاد الديمقراطي المسيحي والاتحاد المسيحي الاجتماعي منها على نحو سريع؛ فحققا بحصولهما على 45.2 في المئة من الأصوات الأغلبية النسبية، متقدمين على الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني الذي حصل على 28.8 في المئة من الأصوات. واستمر هذا التوجُّه. بعد أربع سنوات، أي في عام نشر كتاب لودفيغ إرهارد **الرفاهية للجميع** نفسه، حقق ائتلاف الحزبين في الانتخابات البرلمانية الاتحادية الثالثة أغلبية مطلقة بحصوله على 50.2 في المئة من الأصوات.

عندما كان أدورنو لا يزال في الولايات المتحدة، تلقى وزير الثقافة في ولاية هِسِّن كتابًا من عميد كلية الفلسفة يطلب فيه، من أجل أدورنو، تأسيس كرسي للفلسفة يشغله أستاذ استثنائي. "قدمت الكلية هذا الطلب نظرًا إلى أن كرسي التعليم هذا يمكن أن يُستحدث لأسباب تعويضية بحت، وأنه قد يُلغى في ما لو استقال الأستاذ أدورنو من الجامعة الحالية، بحيث لا تتأثر من خلال ذلك خطط [...] تأسيس كراسٍ أخرى"[41]. في نهاية أيلول/ سبتمبر عيّن الوزيرُ أدورنو في "الكرسي الاستثنائي للفلسفة وعلم الاجتماع" في كلية الفلسفة في جامعة فرانكفورت. وقد عُرِف أيضًا بـ "كرسي التعليم الإصلاحي" في اللغة الرسمية المتداولة، وهو مصطلح يتيح المجال للتشهير والاتهام.

(41) عميد الكلية باتسر، وزير الثقافة في ولاية هِسِن، فرانكفورت، 1 آب/ أغسطس 1953.

كان التعويض قد فُرض على الجمهورية الاتحادية من القوى الغربية المنتصرة في الحرب التي ربطت إزالة وضع الاحتلال، واستقلالية الدولة الجديدة، بضمان الحكومة الاتحادية التعويض. أبدت شخصيات ناشطة في الشأن العام، أمثال كورت شوماخر وكارلو شميد (Carlo Schmid) وتيودور هويس (Theodor Heuss)، استعدادها للتعويض. على أن التعويض لم يكن مقبولًا من عموم الناس البتة، بعد أن أقرّ 106 نواب من مجموع نواب الائتلاف الحكومي البالغ عددهم 208 نواب في عام 1953 في البرلمان اتفاقية التعويض بين إسرائيل والجمهورية الاتحادية. ثار الآريون[42] ونواب الائتلاف الحكومي على مستوى الاتحاد والولايات، حتى منتصف الخمسينيات، ضد قانون رد الدَّين الصادر في عام 1947 عن الحكومة العسكرية للولايات المتحدة الأميركية، والذي تعاد بموجبه الملكية المثبتة التي تَغيّر مالكها عنوةً تحت ضغط الملاحقة والاضطهاد، مقابل إرجاع ثمن بيعها (الآريون الذين كانوا قد أُجبروا على البيع ثانية، لكنهم تمسكوا بالمطالبة بحقوقهم، تلقّوا بدورهم من جديد تعويضًا بعد عام 1969، بوصفهم "ضحايا التعويض"، على حساب عامة المجتمع)[43].

بيد أن أمل أدورنو في أن يصبح أستاذًا ذا كرسي، بمعزل تام عن أي شروط للتعويض، بناء على طلب كلية الفلسفة، وعلى أساس التقدير الموضوعي لكفاءته، لم يتحقق. في شباط/ فبراير 1956 وجد نفسه مجبرًا على لفت انتباه عميد كلية الفلسفة إلى حقه في أن يكون أستاذًا ذا كرسي. وفي اجتماع اللجنة في أيار/ مايو 1956، وعندما تعلق الأمر بـ "حالة تعويض" أدورنو وتسميته أستاذ كرسي استنادًا إلى التعديل الثالث لقانون تعويض مظالم النازية، أبدى بعض المشاركين تحفظاتهم. تحدّث أستاذ الدراسات الشرقية هلموت ريتر (Hellmut Ritter) عن تلاعب وخدعة؛ إذ لا يحتاج المرء في فرانكفورت، كما قال، إلا إلى أن يتمتع بحماية السيد هوركهايمر، وأن يكون يهوديًا، حتى يحقق مسارًا مهنيًا ناجحًا. في ما بعد قدّم اعتذارًا خطيًا إلى هوركهايمر، واعتذر من

---

(42) أولئك الذين ابتاعوا الملكية العائدة إلى اليهود. (المترجم)

(43) ينظر:

Dörte von Westernhagen, "Wiedergutmachung?," *Die Zeit* (5 Oktober 1984), p. 34.

أدورنو أيضًا، بناءً على إلحاح عميد الكلية الغاضب. لكنها لم تكن الملاحظات الأولى من هذا النوع لريتر ولا الأخيرة، ولم يكن أيضًا الوحيد الذي أبدى من بين زملائه ملاحظات كهذه.

هكذا كانت سعادة أدورنو منقوصة، عندما عُيّن اعتبارًا من 1 تموز/ يوليو 1957 في كرسي الفلسفة وعلم الاجتماع. فهو لم يتسلم قط استدعاءً للأستاذية من أي جامعة أخرى يمكن أن يعزز موقعه في فرانكفورت، كما أنه لم يتلقَّ عرضًا كهذا في ما بعد أيضًا. من جديد طبّق أدورنو الخبرة اليهودية القديمة كي يكون متميزًا (فقد كان مميزًا مقارنةً بالمهاجرين والضحايا الآخرين للاضطهاد النازي الذين لا حصر لهم، والذين كان عليهم الانتظار طويلًا للحصول على تعويضهم، أو وجب عليهم أن يجتازوا إجراءات مهينة، أو الذين حصلوا في النهاية، بإذلال، على القليل، أو لم يحصلوا على شيء البتة)، وكي يتنفس، وكي يكون أقل حساسية. "كوزير، سيكون الوزير اليهودي معاليَ الوزير ومنبوذًا في آن"، هكذا صاغ سارتر هذه الخبرة في كتابه **تأملات في المسألة اليهودية**. لهذا وجد أدورنو نفسه، كما في السابق، معتمدًا على حماية هوركهايمر ونصيحته.

طلب هوركهايمر في أيار/ مايو 1956 إحالته على التقاعد المبكر، بسبب تعابير "كراهية اليهود" المتكررة التي سمعها من أحد الزملاء. رجاه عميد الكلية بإلحاح "ألا يستقيل في هذه اللحظة"، وطلب من وزير الثقافة أن يضمن لهوركهايمر وضعًا خاصًا، يمنحه فيه حتى إنهائه عامه الخامس والستين إجازة من الواجبات التعليمية نصف المدة مع الاحتفاظ بكامل راتبه. أمضى هوركهايمر عامًا عميدًا للكلية، وعامين رئيسًا للجامعة، وأدار لثلاثة أعوام، إلى جانب كرسيه، كرسي كروغر، وأشرف على قسم الفلسفة. وفي عام 1954 عُيّن أستاذًا في جامعة شيكاغو، وكان قد أضاع، بسبب الاضطهاد النازي، عشر سنوات من دراساته وأبحاثه الخاصة. في الواقع، منح مرسوم الوزارة الصادر في 6 كانون الأول/ ديسمبر 1956 هوركهايمر سلسلة من الإجازات الفصلية حتى بلوغه سن التقاعد. غير أنه لم يستخدم هذا الامتياز إلا مرة واحدة فقط، لأنه لم يُرِدِ التخلّي عن أجور المحاضرات التي تسقط في حالات الانقطاع عن العمل والإجازات.

كتب أدورنو في حزيران/ يونيو 1953 من لوس أنجلس إلى هوركهايمر، يقول: "أفكر طبعًا بشدة في برنامج عمل المعهد، وآمل أن أكون قادرًا على تقديم مقترحات معقولة لك، عندما نكون معًا في النهاية". لكن حتى بعد عودته، لم يُرَ أي مخطط لمشاريع بحثية طويل الأمد، قائم على أرضية نظرية المجتمع. لكن، أيضًا، لم يجر التنازل عن هذا المطلب أو تأجيله، بوصفه مطلبًا غير قابل للتحقق في فترات إعادة البناء، أو بعد فقدان الاستقلالية المالية. بدلًا من ذلك ظهر شكل أفضل من تدبر الأمور، نصح به أدورنو للفترة التي كان هوركهايمر فيها رئيسًا للجامعة، وكان هو في الولايات المتحدة.

كانت الكتب التي صدرت في عام 1955 بمثابة مجموعة ترمز إلى ما آلت إليه في الخمسينيات ما كانته النظرية النقدية ودائرة هوركهايمر ومعهد البحث الاجتماعي في الثلاثينيات. ففي ذاك العام صدرت المجلدات الثلاثة الأولى من "مساهمات من فرانكفورت في علم الاجتماع"، وهي **سوسيولوجيكا**، وهو مجموعة مقالات أهديت إلى ماكس هوركهايمر في عيد ميلاده الستين؛ و**تجربة جماعية**، وهو تقرير حول دراسة الوعي السياسي للألمان الغربيين؛ **وجو العمل**، وهو تقرير حول استبيان في المعمل لعمال وموظفي شركة مانسمان. فضلًا عن ذلك، نُشرت لأدورنو مجموعة مقالات في النقد الثقافي وعلم الاجتماع: **موشورات**؛ ولهربرت ماركوزه **الإيروس والحضارة**؛ ولفالتر بنيامين **كتابات** في جزءين، أصدرهما تيودور وغريتل أدورنو وفريدريش بودسوس.

لم يظهر هوركهايمر في أي من هذه المنشورات بوصفه مؤلفًا، بل برز بوضوح أكبر بوصفه مكرمًا. كان المنشور الأول لمعهد البحث الاجتماعي الذي أعيد تأسيسه قد أهدي - كما نص الإهداء - إلى "من يعود إليه الفضل في الأمور الحاسمة في المعهد: الإدارة الذكية، والمبادرة التي لا تكل ولا تمل، وتملّك القدرة على مواجهة الظروف الواقعية التي مكّنت وحدها المعهد من البقاء". وخُتم الإهداء الذي خطّه أدورنو على نحو لا يقبل الشك بأمنية أن يحرز هوركهايمر هناء البال وراحته، "كي يستحضر كل هذا النظري الفلسفي الذي يلحّ على صياغته في وعيه. الأبحاث التي أعاد إحياءها بنفسه هي التي هيأت الشروط المادية لذلك. إننا نعرف أنه يمتلك القوة كي يستخلص بإصرار النتائج كلها من المادة التي يشتغل عليها، والتي تتطلب اليوم الصدق والإخلاص". كان

أمل أدورنو لا يزال كبيرًا في أن يستطيع مع هوركهايمر مواصلة العمل في **جدل التنوير**، والمضيّ قدمًا في النظرية المادية للمجتمع التي أفصح عنها علانية.

ضمّ المجلد تقريبًا الأعمال التي جرى التفكير فيها أصلًا للعدد المزدوج الأول أو للسنة الأولى من المجلة الجديدة. وكما كان هوركهايمر يسعى جهده من جديد دائمًا لجذب الصديق فريدريش بولوك إلى العمل النظري (وهو ما حصل في الخمسينيات مرة أخرى مع تعيين بولوك مشاركًا في دراسة المجموعة، ونَشرِ أحد كتبه وعنوانه **الأتمتة مع مواد لتقويم النتائج الاقتصادية والاجتماعية**، بوصف الكتاب هو المجلد الخامس من "مساهمات من فرانكفورت في علم الاجتماع")، كذلك حاول أدورنو جذب هوركهايمر. مقالة أدورنو "في العلاقة بين علم الاجتماع وعلم النفس" التي تصدرت كتاب **سوسيولوجيكا** المهدى إلى هوركهايمر كان من المفترض أن تُنشر أصلًا في العدد الأول من المجلة كمقالة مشتركة لأدورنو وهوركهايمر. غير أن مساهمة هوركهايمر لم تتخطَّ مجموعة من الملاحظات والمقترحات. علاوة على ذلك، أنشأ أدورنو للعدد المزدوج ما سمّاه "إطار رقابة العقل والحفاظ على الذات"، وهو ذلك الشكل الألماني من "أفول العقل" الذي لم يكن هوركهايمر يريد رؤيته في أواخر الأربعينيات منشورًا في ألمانيا من دون تغيير. اتفق أدورنو مع فالتر ديركس (Walter Dirks) الذي يعرفه منذ العشرينيات، وكان أحد ناشري مجلة **فرانكفورتر هفته** الكاثوليكية اليسارية، وعمل زمنًا طويلًا كأحد ناشري "مساهمات من فرانكفورت في علم الاجتماع" على مسح شامل للمنشورات الجديدة عن العمال. وهكذا كان يخطط لأن تكون المجلة الجديدة استئنافًا لا انقطاع فيه تقريبًا للمجلة القديمة.

تخلى هوركهايمر وأدورنو في نهاية عام 1954 عن مشروع المجلة. فعدم إمكان إنجاز المادة البحثية المتوفرة في المعهد في مقالات قصيرة للمجلة - كما ورد في مقدمة **سوسيولوجيكا** - لا يمكن أن يكون السبب الحاسم وراء ذلك؛ إذ تأكد سلفًا، في أثناء جمع المقالات للعدد المزدوج الأول، ضرورة إصدار الدراسة الجماعية عن الوعي السياسي للألمان الغربيين، والدراسة عن جو العمل في شركة مانسمان، في مجلدات مستقلة. كما لا يمكن أيضًا أن يكون تدني نوعية المقالات الواردة عاملًا حاسمًا. كتاب فرويد لماركوزه الذي أُخذ منه مقالة **نظرية الغريزة والحرية**، وهي ترجمة مختصرة للفصل الأخير، حظيت بإعجاب

هوركهايمر، وأراد نشر ترجمتها الألمانية الكاملة ضمن إصدارات المعهد. وكان لأدورنو رأي يثمن عاليًا تقرير فالتر ديركس حول تقصي نتائج اجتثاث النازية. وكان هوركهايمر بالذات قد اقترح في تصوّره الأول لمجلة جديدة مؤلفين أمثال جورج فريدمان أو هادلي كانتريل لـ "مواد تمثيلية لأصدقاء المعهد". وقد حظي برونو بيتلهايم بتقدير كل من هوركهايمر وأدورنو.

لكن لم يكن هناك من يمثّل نظريتهما؛ فقد توفي من كان يُتوقع أن يكون الملائم أكثر من بين مؤلفي **سوسيولوجيكا**، أي فالتر بنيامين. كما غيّب الموت أيضًا فرانتس نويمان الذي كان قد أصبح، في عام 1948 بعد استقالته من وزارة الخارجية، أستاذًا زائرًا، وفي عام 1950 أستاذًا متفرغًا للقانون العام والحكم في جامعة كولومبيا. وعمل مستشارًا ومحاضرًا في الجمهورية الاتحادية الفتية، وأسهم في بناء الجامعة الحرة في برلين. وفي 2 أيلول/ سبتمبر 1954، قضى نحبه في حادث سير في سويسرا. ويعود عدم نشر مجموعة مقالات له، كان من المخطط إصدارها في سلسلة "مساهمات من فرانكفورت في علم الاجتماع" تحديدًا، إلى خلافات نشبت بين أدورنو وماركوزه بشأن المقدمة، حيث اعتبر أدورنو أن علاقته بالمعهد انتهت عندما تصدّرت مقدمة ماركوزه مجلد نويمان بدلًا من المقدمة التي كتبها هو. وفي ما عدا ماركوزه، لم يبق منظّر له صلة بالأمر إلا أوتو كيرشهايمر الذي كتب مقالة عن "العدل السياسي"، وهو موضوع عمله الرئيسي اللاحق الذي حمل العنوان ذاته. لكن العلاقة بكيرشهايمر التي لم تكن، بطبيعة الحال، حميمة على نحو خاص، أصبحت على الأرجح أكثر تحفظًا بعد لقاء أدورنو به، بعد وقت قصير من وصوله إلى فرانكفورت في عام 1949، عندما عرف منه أنه قام بزيارة معلمه القديم كارل شميت، وهو القانوني الذي كان مستعدًا لفعل أي شيء من أجل الوصول إلى السلطة التي أقصته بعدئذ، وهو الذي افتتح في عام 1936 مؤتمرًا علميًا بعبارة "يجب أن نحرّر العقل الألماني من جميع ضروب الزيف اليهودي، ومن تزييف مفهوم العقل الذي مكّن المهاجرين اليهود من أن يصفوا كفاح القائد النازي يوليوس شترايشر الرائع بوصفه كفاحًا لاعقليًا"[44].

---

(44) مقتبس من:

Jürgen Habermas, *Philosophische-politische Profile*, p. 63.

أعقبت هذه الزيارة، على خلاف زيارة ماركوزه لهايدغر في عام 1947، زيارات أخرى[45]. لكن إذا كانت هناك دائمًا تحفظات معينة إزاء ماركوزه بسبب ماضيه الهايدغري، فلا بد من أن ثمة تحفظات فعلية إزاء كيرشهايمر بسبب تقديره المستمر لشميت الذي لم يعلن قط، مثل هايدغر، أن نظرته إلى النازية قد تغيرت بصورة ما.

لعل العامل الحاسم في التخلي عن مشروع المجلة الذي أمل منه هوركهايمر أن يكون "بداية العمل المعقول" هو، في المقام الأول، خوف هوركهايمر نفسه من ألا يحصل في الأمد الطويل على مقالات كافية تُظهر وضعهم الخاص. كتب إلى أدورنو من الولايات المتحدة الأميركية في آب/ أغسطس 1954: "من المفترض ألا تكون المقارنة بالمجلة القديمة في غير مصلحة المجلة الجديدة. أنا لا أفكر هنا في المواد فحسب، بل في الجزء الحواري أيضًا. تكمن الصعوبة في كوننا أساسًا قد وضعنا في الماضي كل طاقاتنا في المجلة بالروح نفسه. والآن، إذا استثنينا أنفسنا، ليس لدينا عمومًا إلا ديركس ودارندورف. الواضح أننا، نحن أنفسنا، يجب أن ننشر معًا فيها، في نهاية المطاف. لكن، أولًا، سوف أحتاج بعد وصولي إلى إجازة طويلة، وثانيًا، لم تكن في الحقيقة المقالات هي التي تعنينا، بل إطار نشر أوسع. في أي حال، ينبغي ألا ندع المجلة تضعف الطاقة المشعّة التي لا يزال المعهد قادرًا على نشرها"[46]. أحد الزميلين العاملين في المعهد اللذين يعتمد عليهما هوركهايمر، وهو فالتر ديركس، انتقل في عام 1956 إلى إذاعة غرب ألمانيا في مدينة كولونيا، وأصبح فيها مديرًا للقسم الرئيسي الثقافي. أما الآخر، وهو رالف دارندورف البالغ من العمر 25 عامًا، فكان قد استقال من عمله عندما وصلت رسالة هوركهايمر إلى فرانكفورت. فاجأت تلك الاستقالة أدورنو كثيرًا؛ إذ قَبِل دارندورف - كما أخبر أدورنو هوركهايمر - عرضًا وظيفيًا رائعًا في جامعة زاربروكن، وشدّد على قراره الذي لا رجعة عنه، من خلال الملاحظة التي ذكر فيها أنه لا يشعر بالانتماء إلى هوركهايمر وأدورنو في المجال النظري. فهما

(45) ينظر:
"Flaschenpost? Horkheimer, Adorno, Marcuse und Nachkriegsdeutschland," *Pflasterstrand* (17 May 1985).

(46) رسالة من هوركهايمر إلى أدورنو، 14 آب/أغسطس 1954.

اعتقدا أنه "تاريخي" جدًا، في حين أراد هو أن يعمل بما يتفق وعلم الاجتماع الشكلاني وعلم اجتماع المعرفة. كتب أدورنو: "إنه، بالتأكيد، أقوى برهان على أطروحتنا بأنه، بالمعنى الدقيق للكلمة، لا شيء سوف يتبعنا"[47].

هناك أمر آخر أيضًا قد يجعل هوركهايمر جزعًا من تحقيق مشروع المجلة: الخوف من ألا يكون هو بالذات منتِجًا على نحو كافٍ بعد الآن، حتى بالعمل المشترك مع أدورنو، والشعور بأنه لن يكون قادرًا بعد الآن على تطوير دقة كافية في المجال الأعز على قلبه دائمًا، أي المجال الفلسفي الاجتماعي، لفضح الصراعات الاجتماعية، ومهاجمة التواطؤ الفكري الذي قلل من أهمية تلك الصراعات. كان الأمر كما لو أنه يطبّق على نفسه ردّه على اقتراح أدورنو بوجوب أن ينشروا في ترجمة ألمانية، ضمن سلسلة كتب المعهد، كتاب **مخطط تاريخي لتقدم العقل البشري** لكوندورسيه أولًا، وبعدئذ نصوصًا للأب ميلييه (Jean Meslier): "سيكون [نص] الأب ميلييه صالحًا للنشر بصعوبة. وما يهم على وجه التحديد نشره كاملًا، أو نشر مقاطع مهمة منه على الأقل. ولعل ما تقوله هذه حول المجتمع والسياسة أكثر قسوة حتى من [المركيز] دو ساد"[48]. كان من الصعب القول أيهما أعظم بالنسبة إلى هوركهايمر: الخوف من التشخيص الراهن للتدمير الذاتي للتنوير الذي يستعصى عليه تعويضه بمفهوم تنوير إيجابي، أو خوفه من العواقب الصادمة التي تنتج من تحليل نقدي للمجتمع لا يكون رزينًا على نحو سوداوي، بل قاسيًا بلا هوادة. في أي حال، كانت النتيجة موقفًا رجعيًا يتأكد في أمور تزداد أكثر فأكثر، تجلى في الخمسينيات، على سبيل المثال، في رفض النضال التحرري في الجزائر، وفي الستينيات في رفض نقد الحرب الأميركية في فيتنام.

صدرت أخيرًا، في مجلد ثان من "مساهمات من فرانكفورت في علم الاجتماع"، الدراسةُ الجماعية حول الوعي السياسي للألمان الغربيين، تحت العنوان الحذر والمضلِّل في ما يخص الموضوع الوازن **تجربة جماعية**. كتب أدورنو في آب/ أغسطس 1954 إلى هوركهايمر الذي كان لا يزال في

---

(47) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 17 آب/ أغسطس 1954.

(48) رسالة من هوركهايمر إلى أدورنو، 22 كانون الثاني/ يناير 1957.

الولايات المتحدة في ما يخص عمله كأستاذ ذي كرسي في شيكاغو: "كتبت، بالمناسبة، للدراسة الجماعية، في أثناء ذلك بعد مراسلات مع فْرِد، تصديرًا جديدًا كليًا، وأعتقد أن الدراسة أصبحت جيدة. النقطة الخلافية الوحيدة في موضوع الدراسة الجماعية هي مسألة أن نضمّ إليها المحاضر، وهو ما أنصح به جدًا، في حين يعارضه فْرِد، لكننا لا نزال قادرين على اتخاذ القرار في هذا الخصوص"[49].

لم يستطع أدورنو فرض إدراج سلسلة من المحاضر الكاملة في المجلد، إذ بلغ عدد صفحات الكتاب 550. كتب أدورنو في الملاحظات التي سبقت القسم النوعي: "في الحقيقة، كان في نيّتنا أن ندرج في الكتاب ملحقًا يتضمن نقلًا حرفيًا لبعض المحاضر النموذجية، لكن قيودًا تتعلق بحجم الكتاب حالت دون ذلك. وما دامت طرائق تقويم هذه النتائج لا تتجاوز في تطورها الحالة الراهنة، فإن قدرة الإقناع الحقيقية للنتائج النوعية وشموليتها لا تتضحان إلا بالاطلاع على المادة الأولية. كذلك لا يمكن حل مشكلة ظهور العشوائية ذات الصلة بتفسير الأجزاء الفردية من الدليل إلا عبر التجربة الحية للنقاشات المتجانسة برمتها"[50]. يلائم هذا الأمر التصوّراتِ التي كان أدورنو قد تبنّاها في مشروع بيركلي، عندما طالب بسلسلة من الدراسات المقطعية، أي تحليلات دقيقة للأفراد الذين شملتهم التجربة، بناء على المادة البحثية التي جُمعت عنهم.

على الرغم من أن أدورنو لم يرَ تصوّراته تتحقق في **تجربة جماعية** ولا في **الشخصية السلطوية**، وعلى الرغم من أن عنوان المجلد والإشارات المتكررة إلى الطابع الريادي لبحثه وعيوبه، كلها أشارت إلى تواضع ما وكَشْفٍ لأوجه القصور لديهم، فقد ادعى بكل كبرياء: "يواجه البحث الاجتماعي التجريبي نوعًا من التناقض. فكلما كانت طرائقه أكثر دقة، تعرضت هذه الطرائق أكثر إلى خطر أن تضع بدلًا من الموضوع المستبْيَن فعليًا موضوعًا محددًا بـ 'تعابير عملية'، أي بكلمات أخرى، حصر وضع المشكلة ذاتها سلفًا بالموضوع المتحرى بطريقة الاستبيان وإهمال كل ما هو على صلة بالمجتمع [...]. من ناحية

(49) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 17 آب/ أغسطس 1954.

(50) Friedrich Pollock (ed.), *Gruppenexperiment*, p. 275.

أخرى، دلّل تاريخ علم الاجتماع، بما فيه الكفاية، على الخطر المقابل، أي خطر الاعتباط والزعم الدوغمائي غير المختبَر؛ إذ يتعذر علينا أن نطالب العلم باستبعاد طرائق جديدة 'لكشف الحقائق' من بحثه. في الوقت ذاته يجب، في أي حال، ألا يخفي فرح الكشف في الطريقة الجديدة حقيقة أنها في سؤالها عن موضوعات ذات أهمية خاصة لمعرفة المجتمع، قد تتعرض للهجوم في النقطة التي تفخر وتعتز بها تمامًا، أي الموضوعية ومعرفة الموضوع الصحيح [...]. يواجه البحث الاجتماعي التجريبي مهمة أن يتغلب، باستعمال الوسائل التي طوّرها، على الأسباب العميقة لقصوره، وأن يجعل البحث الاجتماعي أداة دقيقة فعليًا للمعرفة الاجتماعية [...] فالأمر يتعلق بتوحيد الموضوعية العلمية، مع إدراك نوعي للعنصر الجوهري الذي يتوق دائمًا وأبدًا إلى التملص من الطرائق الدقيقة.

تقدم محاولة معهد البحث الاجتماعي التي يستعرضها التقرير التالي مساهمةً تجريبية تتموضع في نطاق هذه المهمة [...]. وقد استعملت منذ أمد طويل لتصحيح الطرائق المألوفة وإكمالها، مقابلات في إطار علم النفس المعمق، واختبارات إسقاطية، ودراسات حالة مفصلة، وتقنيات أخرى. ومن بين جميع هذه المحاولات، تتميز هنا تقنية المجموعة التي تُطبَّق في معهدنا، والتي سوف نتناولها بالنقاش، في المقام الأول، من خلال كونها لا تكتفي بالتعديلات اللاحقة، بل لكونها تبدأ في مرحلة مبكرة، بينما يتم التحقق من الآراء في لحظة نشوئها"[51].

على أن المشكلات التي تظهر في هذا النوع من تقصي الآراء جرت معالجتها آنفًا[52]. ففي الكتاب، أُلحقت بالتقويم الكمي اثنتان من الدراسات الإحدى عشرة: دراسة لفولكر فون هاغن (Volker von Hagen) في "ظواهر الدمج في مجموعات النقاش"، ودراسة لأدورنو في "الذنب والدفاع". اتبعت دراسة أدورنو كليًا النهج التقليدي لتحليله الكمي لمادة المقابلات في **الشخصية السلطوية**؛ فقد كان واجبًا توضيح الظواهر الاجتماعية باستخدام المقولات

---

(51) Ibid., pp. 30 f.

(52) يُنظر ص 612 وما بعدها في هذا الكتاب.

الفرويدية، من خلال تفسير المادة التي توجَّه إليها تهمة العشوائية فحسب، وذلك عبر تعقب استشهادات موسعة تدّعي بوعي ذاتي تميّزها من البحث الاجتماعي الأصولي الذي يتضمّن إنتاج علم النماذج الشخصية.

استند تحليل أدورنو بصورة رئيسية إلى 25 محضرًا، من بينها تلك العشرون التي تضمنت معظم الآراء المتصلة بعُقد المسؤولية المشتركة عن النازية، والحرب، ومعسكرات الاعتقال، وفظائع الحرب، والموقف من اليهود والمشردين. بدا اقتصار التحليل على 25 محضرًا توفيرًا في العمل ذا دلالة، لأن التحليل الكمي والعيّنات العشوائية أظهرت أن أنماط الاستجابة، استنادًا إلى المحاضر الخمسة والعشرين، وهي بالذات حصرًا، تبرز دائمًا في مادة النقاش كلها في جمود ونمطية يميّزان مجال الأيديولوجيا السياسية برمّته.

في الملاحظات التمهيدية لدراسته عن "الذنب والدفاع" كتب أدورنو: "ينبغي ألا تؤخذ فكرة الذنب المكبوت بالمعنى التحليلي النفسي الضيق؛ إذ بالقدر الذي يكون الوعي بالظلم المرتكَب، بوصفه ظلمًا، مستيقظًا، تَحضر إواليات الدفاع إلى المشهد. ولم يكن هناك أحد من بين جميع المشاركين في التجربة الذين وجدوا أنفسهم في وضع الدفاع مستعدًا للقول: لا غضاضة في أن يُقتَلوا. بل يتعلق الأمر في معظم الأحيان بمحاولة توفيق التماهي الخاص المبالغ فيه بالجماعة التي ينتمي إليها المرء، مع معرفة الجرائم. ذلك أن المرء يُنكر مثل هذه المعرفة أو يقلل من شأنها، حتى لا يفقد إمكانية التماهي مع الجماعة التي تتيح، نفسيًا، لأناس لا حصر لهم التغلب على ضعفهم الذي لا يُحتمَل. ويمكن استنتاج أن أولئك الذين وجدوا أنفسهم في وضع الدفاع، وحتى حين يمثلون بقايا الأيديولوجيا النازية لا أكثر، لا يتعاطفون مع تكرار ما حدث بأي صورة. الدفاع ذاته هو علامة الصدمة التي خبروها، وبهذا ينفتح أفق للأمل"[53].

بيد أن هذه الجانب المأمول جُرِّد من أساسه في سياق الدراسة اللاحق من خلال أطروحة أدورنو عن استمرار "الشروط الأنثروبولوجية" لسيكولوجية الاستغلال الجمعي واستمرار قابلية التأثر بالأنظمة التوتاليتارية التي تسبّبت

(53) Ibid., p. 281.

بها الميول والاتجاهات التقنية والاقتصادية التي كانت تتطور في المجتمع بكليته، ومن خلال "البراعة" التي أظهرها الدفاع الأخلاقي، والتي تعادل ربما "الإحساس اللاشعوري بالذنب الذي يجب على المرء أن يكبته"[54].

جاء أدورنو، ردًا على مفهوم "النرجسية الجمعية"، بردة الفعل "الأنثروبولوجية" التي واصلت تأثيرها بعد نهاية الحرب في علاقات المجتمع ما بعد الليبرالي التي سعى هوركهايمر وفروم وأدورنو في الثلاثينيات والأربعينيات إلى فهمها، باختصار شديد، تحت البنية المميزة السادية-المازوشية أو الاستبدادية، وتحت تصفية الفرد أو عجزه، والخوف من الحرية، وطور الابتزاز في المجتمع، وما إلى ذلك. لاحقًا، حظيت هذه الفكرة بانتشار واسع في صيغة الجملة المقتبسة كثيرًا من المحاضرة التي ألقاها أدورنو في عام 1959 بعنوان "ماذا يعني: تقويم الماضي؟": "أعتبر أن في بقاء النازية **في** الديمقراطية خطرًا كامنًا أكبر من بقاء الميول الفاشية **ضد** الديمقراطية"[55].

تحتل إواليات الدفاع المختلفة مركز الصدارة في دراسة أدورنو، ومن بينها: حساب الذنوب وتحديدها كميًا؛ والزعم باستحالة أن يكون هناك قرار حيادي في شأن الذنب والبراءة في عالم منقسم إلى أمم وقوى عظمى، وموزع بين منتصر ومهزوم؛ والمطالبة بأحكام مخففة لأفراد شعب خاضع لسلطة استبدادية، شعب لم يكن في وقت من الأوقات ملائمًا للديمقراطية، شعب يعاني من "العُصاب الألماني"، كما أطلق عليه المشاركون في النقاش أنفسهم.

يُعَدّ من بين إواليات الدفاع الأكثر استفزازًا "استعمال الحقيقة بوصفها أيديولوجيا"[56]، كما ذكر أدورنو بإيجاز. "فالمرء يعرف الدور الذي تؤديه، عمومًا، في التفكير الشمولي القوالب الجاهزة والتعميم الجامد، وبالتالي الخاطئ. ويصطدم التحليل بها باستمرار؛ فمعاداة السامية التي تَنقل سلسلة من الأفكار النمطية السلبية إلى مجموعة بأكملها، بصرف النظر عن الأشخاص المعنيين، أمر لا يمكن تصوره من غير نهج التعميم الخاطئ: حتى اليوم، لا

---

(54) Ibid., p. 310.

(55) Theodor W. Adorno, *Eingriffe. Neun kritische Modelle*, p. 126.

(56) Ibid., p. 339.

يزال الفرد الجمعي - الروسي أو الأميركي أو الفرنسي - كناية عن الشعوب الأجنبية الأخرى، وهو استعمال دخل إلى الحديث اليومي، قادمًا من قاموس الجيش، دليلًا على ذلك. لقد فتح انهيار الفاشية، بوصفها نظام التعميمات الخاطئة، العيون على هذه الممارسات، ما إن يتعلق الأمر بها نفسها. يقوم قانون علم النفس الاجتماعي الراهن، على ما يبدو، على أن أكثر ما يبعث على السخط هو ما يقوم به المرء نفسه. هنا قد تبقى الدوافع اللاواعية، الأقرب إلى إوالية الإسقاط، من غير نقاش. تكفي الإشارة إلى أن المرء ما إن يتلفظ ضد التعميمات الخاطئة حتى يسهل عليه الابتعاد عن النازية، لكن أيضًا بعد أن يفلح المرء في تحقيق ذلك من غير تكاليف كبيرة، يحق له بالذات أن يجعل مضطهِدي الأمس ضحايا اليوم [...]"[57]. وكما حصل مع الحقيقة، استُعملت الأخلاق أيضًا بوصفها أيديولوجيا. وتَذْكر حجة ضد التعويض والإصلاح أنه، بالنظر إلى فداحة الجريمة، لم يكن التعويض ممكنًا في أي حال. وفي معرض الدفاع عن الإجراءات العنصرية، حاجج بعض المنظّرين أيضًا بأنها كانت على الأقل صادقة، وساعدت، فضلًا عن ذلك، اليهود في إنشاء إسرائيل.

لم يكن لقرار التخلي عن طبع سلسلة من المحاضر الكاملة أثر كبير في قدرة دراسة أدورنو على الإقناع، وفي قيمة التحليل الكلي كنموذج متبع في منهجية البحث. فكما غاب في الجزء الكمي تحليل العلاقة بين مواقف محددة، كذلك غاب في الدراسة عن "الذنب والتكفير" ربط الاستشهادات والتفسيرات بأفراد بعينهم. لا شك في أن أدورنو كان مهتمًا بالروح الموضوعي. لكن إذا قَبِل المرء إلى حدّ ما أقوال بعض الأفراد، كما فعل هو، وصنّف هؤلاء الأفراد لاحقًا في تناذر أيديولوجي أو آخر، عندئذ لا يمكن القفز، ببساطة، فوق السؤال عن المجموعات التي وُجِد فيها ما كان، بالنسبة إلى المؤوّل، العناصر الإفرادية للعقل الموضوعي في أفراد بعينهم، وعن تواتر ظهورها لديهم. وما لم يكن مرضيًا أيضًا أن التشابك بين التحليل الكمي والنوعي لم ينجح نسبيًا في المطابقة بين الأنماط ("سلبي"، و"متناقض"، و"إيجابي" في القسم الكمّي، و"متحيّز جدًا"، و"متناقض"، و"متفهّم" في القسم النوعي). أما اتهام الدراسة

(57) Ibid., p. 339.

الجماعية بكونها بالغت في تقديرها حجم الاستعداد غير الديمقراطي، فقد أمكن بعض المنظّرين أن يردّه. فعلى سبيل المثال، ظهرت الآراء الموافقة، أو الموافقة بشروط، في موضوعات الديمقراطية والذنب واليهود والعلاقة بالقوى الغربية أساسًا في بداية المناقشات، عندما دفع الغموض الذي يحيط بردود أفعال مترئس المناقشات الذي كان يُنظر إليه، بادئ الأمر، على أنه نوع من سلطة رسمية، وبآراء باقي المشاركين إلى منح مزيد من الاعتبار للعقيدة الديمقراطية. أفضى إدراج هذه الآراء في الحساب وإدخالها في التفسير إلى انحراف النتائج إيجابيًا. لكن هذا يحيل في النهاية، مرة أخرى، إلى الإشكال المركزي الذي بقي بلا حل: وزن الرأي بالنظر إلى وظيفته بالنسبة إلى من يتكلم، وبالنظر إلى وظيفته بالنسبة إلى الطبقة أو الجماعة التي ينتمي إليها المتكلم، وإلى وظيفته في حالات التواصل الواقعية.

لم يجعل تعويض الخبرة الشخصية الحية، في التجميع المنهجي للمادة وتنظيمها على يد أشخاص مختلفين، المادة الغنية أكثر وضوحًا فحسب، بل زادها غموضًا في الوقت نفسه. فالجهاز الأكاديمي الضخم - على الرغم من رياديّته التي تُسوّغه - دفع بنفسه كحاجز ردع بين الجمهور المحتمل ودراسة يمكن المرء أن يقول عنها إنها تمثل التحليل الأول والأكثر أهمية في الخمسينيات لعجز الألمان عن الحزن في الفترة التي أعقبت الهتلرية.

عرّضت الدراسة الجماعية عن الوعي السياسي للألمان الغربيين المعهد من فوره للنقد من اليمين. وظهر النقد في موقع بارز: **مجلة كولونيا لعلم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي**. كان المؤلف هو بيتر هوفشتيتر (Peter R. Hofstätter)، عالم النفس الذائع الصيت الذي ورد ذكره في **تجربة جماعية**. ولد هوفشتيتر في فيينا عام 1913، وتأثر بعالمَي النفس كارل وشارلوته بولر وبالفيلسوفين روبرت راييننغر وموريتس شليك، وعمل بين عامي 1937 و1943 عالمًا للنفس في الجيش، بداية في الجيش النمساوي، وفي ما بعد في جيش الدفاع الألماني، وقد دافع عن أطروحته في تلك الفترة، وارتقى مجلس الحكومة، وبعد الحرب عُيّن أستاذًا في علم النفس في جامعة غراتسر، ولاحقًا في الولايات المتحدة الأميركية، وشغل منذ عام 1956 كرسي علم النفس في المدرسة العليا للعلوم الاجتماعية في فيلهلمزهافن.

كان نقدًا متعاليًا جدًا، تَخيّر لازمةً غريبة لتأكيد أن **تجربة جماعية** ليس سوى تنويع على فكرة "في النبيذ تكمن الحقيقة" (in vino veritas)، وتحديدًا "في الواقع يكون الغضب" (in ira veritas) (وهو لعب على الاستثارة المفرطة الموهومة للمشاركين في المناقشة من خلال "المحفّز الأساسي"). وحسب ما كان يرى هوفشتيتر، كان ذلك مثيرًا للريبة، مثلما هو الحال عند استخدام الأقوال المأثورة التي كانت تُردَّد على مسامع هوفشتيتر، عالم النفس في الجيش، بديلًا من طريقته الخاصة التي كانت موضع سخرية واستهزاء بوصفها غريبة عن الحياة. أَهمل نقدُ هوفشتيتر، المُحِقّ نوعًا ما في نقاط مهمة، القصدَ المنهجي للمشروع برمّته. لقد التقط تعبير "وضعيّ-ذرّيّ" (المستعمل لوصف الإجراء المألوف في رؤية الرأي العام بوصفه مجموع الآراء الفردية) من الفقرات حول حدود طرائق البحث الأصولية، وحول النقد الذاتي الدارج آنئذ لطرائق البحث الأصولية، كي يشبك معه الإشارة الساخرة التي تقضي بوجوب تفسير استعمال محمول القيمة السلبي "وضعيّ-ذرّيّ"، وفق مقاييس واضعي الدراسة، دليلًا على الفكر الفاشي.

باستعمال أرقام **تجربة جماعية**، لكن مع عدم تصنيفه الصامتين باعتبارهم ذوي موقف سلبي ببساطة، وتنحيته جانبًا القسم الأكبر من المتناقضين، توصّل هوفشتيتر إلى نتيجة مفادها أنه يمكن وسطيًا اعتبار 15 في المئة فقط من بين المشاركين في المناقشة، بحسب مقاييس دراسة المجموعة، سلطويين ومعادين للديمقراطية. وأضاف بعد ذلك: "لا أعرف إن كان لدينا في ألمانيا، في ضوء هذه النتيجة، مسوّغ أكثر من أي بلد آخر في العالم الغربي للحديث عن 'إرث الأيديولوجيا الفاشية'، أو عن تعبير 'استعداد أنثروبولوجي مستمر'"[58]. كما لو لم يكن هناك فارق بين بلد عاشت فيه قوةٌ على امتداد اثني عشر عامًا إرهابًا وقتلًا، وبلد بقيت فيه قوة كامنة إلى حد بعيد. على أنه بعد أن خفّف بهذه الطريقة من وطأة الخطر القادم من اليمين، وأعلن الحالة الطبيعية، قلَب في نهاية المطاف ظهر المجنّ، وأفصح "على الهامش" عن الخشية من "شكل من الفكر، مُكَرَّس للعقل الموضوعي، قد يواجه خطر الاستسلام للنزعة

(58) *Kölner Zeitschrift für Soziologie und Sozial psychologie*, 1 (1957), p. 101.

الاستبدادية ذاتها"[59]، وصنّف "التحليل النوعي الذي يمتد على 150 صفحة" على أنه "محض اتهام، أو مطالبة بانكسار نفس حقيقي"، وأضاف محتجًا أنه ليس هناك "ببساطة أي شعور فرديّ يمكن أن يطابق النظرة المستمرة إلى تدمير حياة مليون إنسان"، لذلك يبدو أن "غضب المحلل الاجتماعي في غير مكانه أو لا طائل منه". رأى هوفشتيتر أن حل مشكلة الذنب والإحساس الصحيح بحدود تجربة جماعية يكمن في ردة فعل مجموعة من الشخصيات البافارية البارزة الذين رفضوا الجانب الأخلاقي من المسألة ونحُّوه جانبًا، باعتباره موضوعًا يخص كرسي الاعتراف. لكن هذا الأمر أدى في نهاية المطاف إلى تأثير الشعور بالبراءة نفسه، كما هو الحال بالنسبة إلى أطروحة الذنب الجماعي؛ فإما أن يكون الجميع بالضرورة مذنبين - وفي هذه الحالة لا يكون أحد مذنبًا، ويكون كل شيء مجرد قضاء وقدر - وإما أن يكون على كل واحد أن يحلّ الأمر بنفسه، وعندئذ ليس من حق أحد أن يحكم على الآخر، وينبغي ترك أمر كل شيء إلى قدرات الشفاء الذاتي في الحياة الخاصة.

ما قام به هوفشتيتر كان طريقة مجرّبة تُستعمل كثيرًا إلى اليوم، وقوامها تقليل مخاطر اليمين، واعتبار "فاضحي هذه المخاطر" بالذات أخلاقيين، ومثاليين مستبدّين، وإعلان الوعي الحقيقي بهذا الأمر شأنًا خاصًا.

بسبب الطابع الهجومي المستتر لنقد هوفشتيتر، أُعطي أدورنو الفرصة للردّ في العدد نفسه. وقد بيّن في خاتمة ردّه، بوضوح، جوهر الخِلاف بقوله إن "طريقة البحث عقيمة بالضرورة، إذ يجب إنكار الظاهرة التي تبرز من خلالها"[60]، وأوضح أن حديث هوفشتيتر عن الفضائح والاتهامات هو بمثابة نداء للنرجسية الجمعية: فاستنكار الآليات والأيديولوجيا التلقينية يوصف بكونه اتهامًا للأفراد لتحريضهم ضد الاتهام. ويضيف: "ويعتقد هوفشتيتر 'أن من غير الممكن لفرد واحد أن يكون قادرًا على تحمّل هَوْل أوشفيتس'. فالضحايا كان عليهم أن يتحمّلوا فظائعه، وليس أولئك الذين ينكرونه بسبب أذيتهم وأذيّة بلدهم؛ إذ إن 'سؤال الذنب الحافل باليأس' يعني الضحايا وليس الناجين. أما

(59) Ibid., p. 102.

(60) Adorno, *Gesammelte Schriften*, vol 9/2, p. 393.

أن تتم التغطية على هذا الفارق بمقولة اليأس الوجودي التي باتت شائعة لسبب وجيه، فليس إنجازًا ضئيلًا، لكن ينبغي عدم ذكر اسم السيف في دار السياف، كي لا يقع المرء في شبهة من تعتمل في صدره الأحقاد والضغائن"[61].

تبلور في التعارض بين هوفشتيتر وأدورنو، لأول مرة في جمهورية ألمانيا الاتحادية رسميًا، ما دخل في تاريخ علم الاجتماع، في ما بعد، بوصفه نزاع الوضعية؛ أي النزاع من أجل التباينات المنهجية والنظرية العلمية، بوصفه مسرح الجدل النظري الاجتماعي والسياسي-الاجتماعي.

تُعَدّ أيضًا خطة نشر سلسلة من الترجمات الألمانية لمؤلفات في علم الاجتماع من الولايات المتحدة الأميركية من المشاريع المهمة التي بقيت مخلصة إلى حد ما لتقليد المعهد في ظل شروط إعادة البناء؛ تلك الخطة التي استعد لها في الخمسينيات، ومع ذلك لم يكتب لها أن تتحقق. وجاء في مذكرة لأدورنو تعود إلى آب/ أغسطس 1954 أن "مرحلة ما بعد الحرب حملت معها إلى ألمانيا عودة الاهتمام بالعلوم الاجتماعية [...]، وكان التأثير عميقًا في علم الاجتماع الألماني لتقنيات البحث الاجتماعي التي جرى تطويرها وتعديلها في الولايات المتحدة إلى حد بعيد [...]. في أي حال، لم يكن معظم الناس، الطلبة منهم أو الأشخاص العاديون على حد سواء، مدركين حجم مساهمات علماء الاجتماع الأميركيين في الفكر الاجتماعي والنظرية الاجتماعية، ولم يدركوا أن نظرية المجتمع والبحث الاجتماعي، في الولايات المتحدة وفي أي مكان آخر، يعتمد واحدهما على الآخر اعتمادًا شديدًا، وأن كلًا منهما يؤثر في تطور الآخر. الخطة الراهنة مصممة لجسر هذه الفجوة [...]، وذلك عبر تقديمها إلى الجمهور الألماني أعمال المفكرين المستقلّين الذين حاولوا، في الوقت الذي كان روح التجريبية والذرائعية ملهمًا لهم، أن يضمّوا بجرأة دفعة واحدة جملة المجتمع الذي يعيشون فيه". شملت اللائحة الأولية ستة كتب: **العادات الشعبية** لوليام غراهام سومنر؛ و**نظرية الطبقة المترفة** لثورستين فيبلن؛ ونسخة مختصرة من **الميدل تاون** و**الميدل تاون المتغيرة** للزوجين روبرت وهيلين ليند؛ ومختارات من أعمال جون ديوي التي لم تكن قد تُرجمت بعد

(61) Ibid., pp. 392 f.

إلى الألمانية؛ و[سلسلة] "دراسات في التحيّز" لأدورنو؛ و**النظرية الاجتماعية والبنية الاجتماعية** لـ ر. مرتون.

كان هذا مشروعًا يمكن أن يعطي البحث الاجتماعي النظري-المادي، على صعيد المجتمع برمّته، قوة من خلال علم الاجتماع الأميركي. ويشكل بذلك، في آن واحد، بداية لسد نقص كبير في علم اجتماع ما بعد الحرب في ألمانيا الغربية؛ إذ يغيب، على وجه التحديد، ردٌّ ممنهج على التوجهات المستجدة في علم المجتمع. لكن حجم المعارضة لإنتاج هذه السلسلة بدا كبيرًا، كما كان الاهتمام بها محدودًا وبقي كذلك. لم يُنشر إلى اليوم من تلك النصوص التي عُدِّدَت في المذكرة إلا كتاب فيبلن مترجمًا إلى الألمانية.

وداعًا للاستقلالية السابقة: بحث في جوّ العمل في معامل شركة مانسمان - انسحاب أدورنو أيضًا من البحث التجريبي

كان لا يزال مخططًا إعادة إصدار المجلة، وعندما وضعت اللمسة الأخيرة على معالجة الدراسة الجماعية حول الوعي السياسي للألمان الغربيين تحضيرًا لنشره في كتاب، حصل في ذلك الوقت أمر بدا أشبه بالخطيئة الجدية الأولى للمعهد، ألا وهي قبوله تكليف شركة مانسمان. في أوائل الأربعينيات، عندما سعى مديرو المعهد جهدهم لتأمين معونات مالية، حالف الحظ أولئك الذين شخّصوا لدى المهاجرين الآخرين فسادًا أخلاقيًا صرفًا، إلى هذا الحد أو ذاك، بسبب نقص الاستقلالية المادية والنفسية، وأقرّوا للمؤسسات البحثية بقدرة عالية التطور على التمييز بين العلماء الموالين وغير الموالين. وأصبحت اللجنة اليهودية الأميركية مموّلهم. ومهما كانت اللجنة محافظة، فإن من السهل إيجاد قاسم مشترك بين رؤى المعهد والمصالح الراهنة لتلك المنظمة آنئذ من دون تضحية ذاتية. عندما أراد في عام 1950 أحد أصدقاء المعهد المخلصين التوسط للحصول على تكليف شركة هوكست للكيماويات، رفض هوركهايمر بغضب. لكنه قبِل في عام 1954 عرضًا مشابهًا، عندما صوّر بولوك الذي كان لا يزال حتى منتصف الخمسينيات مديرًا للمعهد، مرة أخرى، أن المعهد على

وشك أن يغلق. نشأ العرض من خلال معرفته بهلموت بِكر الذي أصبح لاحقًا مدير معهد ماكس بلانك للبحوث التربوية في برلين، وهو الذي كان في السابق محاميًا ومستشارًا لمنظمات ومعاهد مختلفة.

لم تكن مانسمان كأي شركة أخرى. فهي تُعدّ من بين مؤسسي الجمعية المناوئة للبلشفية، وشاركت بتمويل الحزب النازي، وقد تسلمت في الحرب العالمية الثانية مصانع في البلدان التي جرى احتلالها، ثم أصبحت بعد عام 1945 واحدة من تلك الشركات العملاقة التي جرى تفكيكها؛ فقد كان تفكيك الصناعة الألمانية الثقيلة - وهي التي تتركز في أيادٍ محدودة، وتشكل، في نظر الحلفاء أيضًا، شرطًا مسبقًا حاسمًا للقدرة الحربية الألمانية الهائلة - واحدًا من أهم بنود اتفاقية بوتسدام. على أن الحكومة العسكرية للولايات المتحدة الأميركية كانت قد صرفت اهتمامها منذ البداية لتصبح إجراءات التفكيك تعويضًا عن إجراءات التحول الاشتراكي. بناء على ضغط الولايات المتحدة، منعت حكومة العمال البريطانية التي أمّمت صناعة التعدين في بلدها البرلمان المحلي في ولاية شمال الراين-وستفاليا [الألمانية] من القيام بإجراءات التحول الاشتراكي التي كان يطالب بها، إلى جانب الحزبين الاشتراكي الديمقراطي والشيوعي الألماني (KPD)، الجناحُ العمالي في حزب الاتحاد الديمقراطي المسيحي أيضًا. في كل مكان، حيث تنص قوانين العمل في الولايات على مشاركة مجلس العمال في القرارات في المسائل الاقتصادية، كانت الحكومات العسكرية المتعاقبة تُعلّق هذه القوانين كليًا أو تعلق البنود ذات الصلة. فضلًا عن ذلك، عُهد في عام 1950 رسميًا إلى ممثلي الشركات العملاقة القديمة إنجاز التفكيك؛ إذ بهذا يتم، على الأقل، تعطيل السير الطبيعي للعمل.

كذلك كان الحال مع شركة مانسمان العملاقة. ففي مطلع عام 1949 تسلم فيلهلم تسانغن - الذي كان "زعيم الاقتصاد العسكري" في الرايخ الثالث، والذي اعتُبر بعد الحرب مذنبًا وحكم عليه بالسجن - رئاسةَ مجلس الإشراف في أحد معامل مانسمان القديمة غير آبه باحتجاج المجالس العمالية، وعُيّن من الإدارة المؤتمنة مصفيًا لحسابات مانسمان القديمة. وقد بدأ من فوره في

تركيب الشركة العملاقة القديمة من جديد. في عام 1960 انتهت عملية "إعادة بناء" شركة مانسمان[62]. وعندما تسلم هوركهايمر تكليف مانسمان، دار جدلٌ قانوني بين مجالس العمال ورئاسة الهيئة العليا في شركة مانسمان حول ما إذا كانت الهيئة العليا التي رُبِطت بها ثانيةً مجموعة من المشاريع التي قام الحلفاء بفصلها تخضع لقانون المشاركة بالقرار أم لا، وهو ما عنى التأليف المتساوي لمجلس الرقابة من ممثلي العمال/ الموظفين وممثلي رأس المال الخاص، مما يتيح تعيين أحد ممثلي العمال مديرًا تنفيذيًا.

على الرغم من أن العاملين في المعهد لم يمتلكوا أي خبرات في مجال علم اجتماع المصانع، قَبِل هوركهايمر التكليف بشروط وضعت الدراسة البحثية تحت ضغط كبير في ما يخص المهلة الزمنية. أما هو بالذات فلم يكد يكترث لذلك. ويرجع الفضل في سير الموضوع على النحو الحسن إلى مصادفة سعيدة؛ فعندما انهار ديدريش أوزمر، الزميل الأكثر تضحية في السنوات الأولى، تحت وطأة العمل، وقد أعيَته المادة التي حملتها الاستبيانات والمناقشات الجماعية، برز لودفيغ فون فريديبرغ. تلقى لودفيغ في مطلع الخمسينيات تدريبه في المعهد، ثم أصبح زميلًا في معهد إليزابيت نويل-نويمان لدراسة الرأي العام في ألنزباخ، وعاد الآن ثانية إلى معهد البحث الاجتماعي، كي يمكنه الاستفادة، بوصفه عاملًا في معهد علمي، من منحة روكفلر التي عُرضت عليه. عندما عرض هوركهايمر على الشاب ذي الأعوام الواحدة والثلاثين الذي جمع خبرات في الاستبيانات، ومن بينها تلك المتخصصة في علم اجتماع المعامل، وظيفةَ مدير القسم التجريبي في المعهد، قبل بها فريديبرغ على الفور. كانت مهمته الأولى الوصول بدراسة شركة مانسمان إلى نهاية جيدة.

أراد مجلس إدارة شركة مانسمان أن يحصل على إجابات عن الأسئلة: "ما الذي يفكر فيه عمال ومستخدمو شركتنا؟ وماذا يريدون؟ ولماذا يفكرون فيه ويريدونه؟". لقد أراد أن يعرف جو العمل الاجتماعي في معامل مانسمان، والعوامل الحاسمة في تحقيق جو العمل هذا. فالأمر، بالنسبة إلى الإدارة، يتعلق

---

(62) يُنظر:

E. Schmidt, *Die verhinderte Neuordnung*, p. 160.

بمعرفة الأسباب العميقة والأسس الفكرية والجذور العاطفية لتشكل الرأي - كما قال هرمان فينكهاوس، عضو مجلس إدارة مانسمان في بداية عام 1955، في إحدى محاضراته في أحد مؤتمرات الشركة - إذ لا يمكن إلا انطلاقًا منها فحسب الانتفاع بنتائج الدراسة لحل إشكالات المعمل على نحو فعّال. في هذا الجانب على وجه الدقة، بدا معهد البحث الاجتماعي خيارًا واعدًا بخبراته وبأداة المناقشة الجماعية التي طوّرها، وبادعائه المبرمج بالقدرة على النفاذ إلى عمق الآراء[63].

وضع المعهد مشروع دراسة تتعلق بالعمال وليس بالإدارة، وتتعاطى مع آراء العمال الذاتية وسلوكهم لكن ليس في إطار الموجبات الموضوعية، وتدرس ظروفًا محددة في المعامل نفسها، من دون أن تخوض في العلاقات خارج المعمل. وكما كان الحال عليه في الدراسات السابقة، جرى هذه المرة أيضًا الجمع بين إجراء المقابلات والمناقشة الجماعية.

أُنجزَت في تموز/ يوليو 1954 دراستان أوليان في اثنين من معامل مانسمان، اختُبرت فيهما الصياغة الأولى للاستبيان الذي تكوّن على أساس محادثات مستفيضة مع إدارة الشركة وممثلي العمال، والذي أصبح المحفز الأساسي لمناقشات المجموعات. وقد قام أدورنو سلفًا بتغيير الصياغة الأولية للمحفز الأساسي استجابة لاعتراضات هوركهايمر. حاول أدورنو تهدئة مخاوف هوركهايمر بإرساله الصياغة البديلة التي أعدّها، فكتب إليه يقول: "هذا النوع من المناقشات بين هذا وذاك طبيعي تمامًا وروتيني، ويعكس تعاونًا طيبًا بينهما، وكذلك المواقف التي يجري اعتمادها أيضًا. ولا ضير على الإطلاق في أن تُنسب **إلينا** آراء عنيفة ضد أصحاب الشركة. وفوق هذا كله، سوف يراعي أن يذكر في التقرير، بوضوح، أن الأمر في هذه المواقف والآراء يتعلق بربط مباشر بما جاء في مقالات هذا وذاك في صحيفة **فركتسايتونغ** (*Werkzeitung*)"[64].

(63) يُنظر:
H. Winkhaus, "Betriebsklima und Mitbestimmung," in: *Arbeit und Sozialpolitik* (April 1955).

(64) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 30 حزيران/ يونيو 1954.

في تموز/يوليو وآب/أغسطس، تمت الدراسة الرئيسية في المعامل الخمسة الأساسية لشركة مانسمان التي يخضع أربعة منها لقانون المشاركة العمالية في الإدارة. قام 15 خبيرًا من المعهد الألماني للاستفتاء العام (DIVO) في فرانكفورت بإجراء مقابلات فردية شفوية. معدل مدة المقابلة 50 دقيقة، وقد جرت وفق استبيان، وشملت 1176 عاملًا وموظفًا. العاملون في المعمل الذين اختيروا عشوائيًا من بين نحو 35000 عامل، علموا بالمقابلات من خلال رؤسائهم، أو رؤساء الورشات، أو من خلال ممثلي المعمل قبل وقت قصير من إجراء المقابلة، وجرى استدعاؤهم إلى مكان المقابلة المعني الذي يمكن أن يكون أي غرفة مغلقة في المعمل. علاوة على ذلك، قام مساعدون في معهد البحث الاجتماعي بإنجاز 55 مناقشة جماعية في داخل المعامل عادة مع ما مجموعه 539 مشاركًا. واشتملت النسخة الجديدة المعدلة للمحفّز الأساسي جميع النقاط التي ثبتت أهميتها في الدراسة السابقة، في ما يخص الرضى أو عدمه في معمل ما. وكان من بين ما حُذف فقرة مهمة قد تكون ملائمة لاستثارة نظرة استرجاعية تاريخية هادفة. ومما جاء في هذه الفقرة: "دعونا نفكر في عام 1945 حصرًا. كيف كانت الأمور آنذاك؟ كنّا نحن العمال الذين قاموا بإعادة إعمار كل شيء، لأن أيدي أرباب العمل كانت مقيّدة في ذلك الوقت. وكان كثير منهم في معسكرات الاعتقال، أو كانوا محظورين لأسباب أخرى. وحدنا نحن العمال استطعنا ذلك، غير أننا أثبتنا بذلك أننا قادرون على المشاركة في الإدارة، وأن من الأفضل لاقتصادنا أيضًا أن يكون للعامل ما يقوله وينصح به. لهذا نريد المشاركة في الإدارة الآن".

في منتصف آب/أغسطس، كتب أدورنو إلى هوركهايمر في شيكاغو: "انتهى العمل الميداني لدراسة مانسمان، وسارت الأمور على نحو ممتاز، وتُرجم القسط الأكبر من المناقشات. إنها مادة على قدر كبير من الأهمية. وأعتقد أن بوسعنا فعليًا أن نحرز بهذه الدراسة نجاحًا كبيرًا"[65].

في كانون الثاني/يناير 1955، قام معهد البحث الاجتماعي بتسليم رئاسة مجلس إدارة مانسمان في دوسلدورف التقرير الأولي، وفي حزيران/يونيو

(65) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، فرانكفورت، 17 آب/أغسطس 1954.

التقرير الرئيسي المعزَّز، المؤلف من 410 صفحات. بعد بضعة أشهر صدر عرض مكثف للنتائج في مجلد ثالث من "مساهمات من فرانكفورت في علم الاجتماع". وقد تألف العرض من أجزاء التقرير الرئيسي، أي من الفقرتين التمهيديتين حول "عرض المشكلة" و"عوامل جو المعمل"، ومن "الخلاصة".

جاءت الإجابات عن السؤال المباشر عن العوامل الأكثر أهمية عمومًا للعمال من بين العوامل الثمانية المذكورة، في تسلسل تراتبي بحسب المكانة والأهمية، تصدَّر ذروته الأجر الجيد، ومكان العمل الثابت، وتقدير جهد العامل، وتلاها في الأهمية لكن على نحو أقل بكثير، العلاقة الجيدة مع الرؤساء، والتأمين ضد إصابات العمل.

في حين جرى، بصورة غير مباشرة، تأكيد الأهمية التي تمتلكها عوامل بعينها، بالنسبة إلى الموقف من المعمل، ومن ثم جو العمل المراد تحقيقه، لأن المرء لم يثق بأن الأشخاص المستبيَنين سوف يفصحون مباشرة عن العوامل المهمة في علاقتهم بالمعمل استنادًا إلى رأيهم. فقد استُخدمت الإجابات بالإيجاب أو بالنفي عن أسئلة تفصيلية نوعية، يخص كل منها قطاعًا محددًا من العلاقة بالمعمل - منها مثلًا السؤال: "هل هناك عمل تفضّل مزاولته أكثر من غيره؟" الذي يخصّ الموقف من طبيعة مكان العمل - معيارًا للرضى أو الاستياء في القطاع المعني؛ إذ يتعيّن من خلال خمسة أسئلة تفصيلية الإلمام بخمسة قطاعات تُعَدّ "الأكثر أهمية بحسب التجارب حتى الآن". وقد ثبت بفضل هذا الإجراء أن العلاقة الكبرى كانت توجد بين الاعتقاد بامتلاك مكان عمل ثابت أو عدم الاعتقاد، أو بين موقف إيجابي من المعمل أو سلبي. وكان الاستنتاج من ذلك أن الرضى الذي يوفره ثبات مكان العمل، شكّل العامل الفردي الأكثر أهمية بالنسبة إلى الموقف من المعمل. ويأتي بعده مباشرة الرضى أو الاستياء من معاملة الرؤساء، ومن شروط العمل. في المقابل، لم تحظ الأحكام على الأجر وفرص الترقّي في العمل بأهمية كبيرة.

إذا قبِل المرء هذه الطريقة والنتائج التي خلصت إليها، والتي تتطابق جوهريًا مع نتائج استبيانات عمل أخرى، يبرز عندئذ الوضع المتناقض المتمثل في احتلال الأجر الموقع الأول في الإجابات عن الأسئلة المباشرة المنصبّة عمومًا على أكثر الأمور أهمية، بالنسبة إلى العامل، وعلى المعاناة الأكثر أهمية

في ما يخص إدارة المعمل. لكن سؤال الأجر شغل المرتبة الرابعة في التسلسل التراتبي غير المباشر للعوامل الأكثر أهمية بالنسبة إلى جو العمل. لم تقدم الدراسة أو تقترح تفسيرًا لهذا التناقض بين وعي العمال وسلوكهم، الأمر الذي أكّدته نتائج أخرى أيضًا.

من المعلومات الإضافية للدراسة حول القطاعات الإفرادية للعلاقة بالمعمل، على سبيل المثال، اعتبار نحو ثلاثة أرباع المستبيَنين تقريبًا أنهم على دراية كافية بما يجري داخل المعمل. كذلك وَجد ثلاثة أرباعهم أن سلوك الرؤساء صحيح. ويُقصَد بالرؤساء دومًا الرؤساء المباشرين، في حين ينتمي الرؤساء الأعلى منصبًا، غير المباشرين، إلى عالم غريب بالنسبة إلى أغلب المستبيَنين. فَهِم العاملون في معهد البحث الاجتماعي من المناقشات الجماعية أن العمال "لا يرفضون الرؤساء عمومًا، بل يرفضون السيّئين منهم. لذلك يضع النقد على الفور أيضًا ملامح صورة الرئيس الجيد؛ إذ يجب أن يكون حياديًا في المقام الأول، وأن يقدّر الإنجازات الجيدة، وأن يكون لبقًا، ويسعى للحفاظ على قدر محدد من التواصل الإنساني"[66]. كما تواترت الشكوى من الضغط، وساعات العمل الإضافية، والعمل في العطل، وهيمنة متطلبات الإنتاج، والأهداف الواجب تحقيقها، والآلة. وهي شكاوى كانت ترد دومًا في المناقشات الجماعية، وكانت تنتهي بالرغبة في أن يعامل المرء، بوصفه إنسانًا، وليس مجرد قوة عاملة.

على الرغم من هذه الأمنيات المتواضعة وغير الواقعية في آن، أو بسببها، لم يؤدِّ مجلس العمال والمشاركة في الإدارة، وهما البقية البائسة من آمال الفترة الأولى بعد الحرب، دورًا فائقًا في وعي الأشخاص الذين شملهم البحث. فمع تقصير مجلس العمال في الأمور الاقتصادية وتأثيره المحدود جدًا عمومًا من ناحية، وانفصاله عن جو العمل اليومي من ناحية أخرى، كانت أغلبية المستبيَنين ترى المجلس أفضل ممثل لمصالحها، وإن كانت لا تتعدى الثلث، قياسًا إلى أولئك الذين اعتبروا ممثل نقابة العمال، أو رئيس الورشة، أفضل ممثل يقف إلى جانبهم.

---

(66) Theodor W. Adorno, *Betriebsklima*, p. 48.

أما في ما خص المشاركة العمالية في الإدارة، فقد أظهرت الدراسة أن أكثرية من شملهم الاستبيان لم يكن لديهم تصورات صحيحة عن الاشتراطات القانونية ولا عن تطبيقها. لا بل عبّرت الإجابات عن التوقعات والآمال التي ربطها العمال بالمشاركة في الإدارة، والتي تحيل إلى قضايا مكان العمل الخاص، أو المعمل، أو إلى قضايا العمل في أحسن الأحوال، وتحيل عند نحو 10 في المئة منهم فقط إلى المجال الاقتصادي برمّته، أو إلى مستوى مجلس الإدارة. وبسؤال العمال مباشرة عن الأمور التي يتعيّن أن يشارك العمال بصورة رئيسية في تقريرها، ذكر 59 في المئة منهم الأجور، و36 في المئة المسائل الاجتماعية، و26 في المئة قضايا العمل. أما توزيع الأرباح، وسير العمل، والاستثمارات فلم يذكرها سوى 9 في المئة، و5 في المئة، و4 في المئة ممن شملهم الاستبيان على التوالي. وقد أورد التقرير، بحذر ومن دون ذكر نتائج منطقية عن تقويم وتقدير تأثير طرائق الاستبيان على النتائج، أن "هذه النتيجة ينبغي ألا تؤدي إلى خطأ في الاستنتاج، من قبيل أن العمال مستعدون للتخلي عن المشاركة في الإدارة في المجال 'الأبعد'، لأنهم يتصورون المجال 'الأقرب' أكثر أهمية؛ بل تُظهر المناقشات أن العمال يدعمون المطالبة بالمشاركة في هذا المجال أيضًا، ما إن يوضح لهم ممثلوهم المتعلّمون أن هذه الهيئات تمارس حقوق التوجيه الأكثر أهمية، وأن الرغبات الأكثر إلحاحًا لا يمكن تحقيقها إلا من خلال مشاركة متساوية في اتخاذ القرارات في الهيئات العليا"[67].

قدّمت الأقسام التفصيلية من التقرير الرئيسي وملحق الجداول المنفصل، من بعض النواحي، صورة تختلف إلى حد ما عن الملخص الذي نُشر في الكتاب. وهكذا، من بين المستبيَنين البالغ عددهم 1176 شخصًا، كان على العموم 59 موظفًا إداريًا، و110 رؤساء ورديات، أكثر إيجابية من العمال اليدويين في موقفهم من المعمل. وارتفعت، من ثَم، النتائج "الإيجابية" على نحو ملحوظ؛ إذ كان موقف نحو ثلاثة أرباع ممن جرى استفتاؤهم إيجابيًا من المعمل أو إيجابيًا جدًا. هكذا، رأى 70 في المئة من المستخدمين، و60 في المئة من الرؤساء، و45 في المئة من العمال فقط أن المرء يتقاضى "هنا" أجرًا يتلاءم مع جهده.

---

(67) Ibid., p. 69.

كان ممكنًا أن تستخلص من التقرير الرئيسي أيضًا معطيات، من قبيل أن العمال في معامل الحديد والفولاذ التي تمت الدراسة فيها، الذين أمضوا أقل من ثلاثة أعوام في المعمل، والمُبْعَدين من وطنهم [ألمانيا الشرقية] واللاجئين، والعمال بين 20 و40 عامًا من العمر، اتخذوا من معملهم موقفًا محافظًا على نحو خاص. إن نتائج كهذه كانت مفيدة للإدارة، لكنها ما كانت لتكون كذلك البتة بالنسبة إلى العمال، حتى ولو عرفوا بها.

ظهرت في التقرير الرئيسي أيضًا أكثر مما ظهرت في الملخص تحليلات للمناقشات الجماعية التي قدمت صورة عن مواقف الذين خضعوا للاستبيان على درجة كبيرة من الوضوح العميق، على الرغم من أن التقرير لم يتضمن تحليلًا كميًا، ولا تحليلًا نوعيًا مكثفًا على نحو خاص.

إن المعطيات التفصيلية حول مواقف العمال؛ والاقتصار على ردات الفعل الذاتية الذي يجري التشديد عليه دائمًا وأبدًا، مع صرف النظر عن الوقائع الموضوعية؛ والنتيجة الكلية التي كانت أهم ملامحها الرضى بالمعطى غالبًا، وغياب انحياز خاص لمجلس إدارة المعمل الذي يشعر كثيرون بأنه بعيد جدًا، وغياب كلي تقريبًا لأي انحياز لممثلي العمال الغائبين عن نظر العمال في مجالس الإدارات والرئاسات، والرغبات التي توجهت حيال الشركة، في المقام الأول، نحو المباشر والإنساني، كل ذلك يجب أن يقنع الجهة المكلفة بالدراسة، أو يدعم قناعتها بأن تدريبًا أفضل للرؤساء ومن في حكمهم، يكفي لتحسين جو العمل الجيد أساسًا، ويرفع من خلال ذلك السلم والإنتاجية في المعمل، الأمر الذي سيعزّز من إحساس العمال بأمان أماكن العمل.

لا شك في أن الذين طلبوا إجراء هذه الدراسة نظروا إليها بالطريقة عينها تمامًا. وجاء في محاضرة عضو الرئاسة هرمان فينكهاوس المشار إليها أعلاه: "أثار التفويض الذي منحناه في داخل مانسمان وخارجها التكهنات حول دوافعه. وهذا ظلم في حقيقة الأمر. فإدارة الشركة كانت منذ زمن تعتبر الاهتمام بالإنسان الذي يعمل في الشركة، إلى جانب التغلب على المشكلات التقنية والاقتصادية، جزءًا من واجباتها؛ إذ لم تكن تعنيها، ولا تعنيها اليوم، أفكار الاشتراكية الرومانسية، بل يعنيها التحقيق الأمثل للوظائف التي ينبغي

على الشركة القيام بها، بوصفها مؤسسة اقتصادية واجتماعية في إطار المجتمع. وهذا يتضمن مباشرة المسؤولية إزاء الإنسان العامل في الشركة، والاهتمام باندماجه الناجح في تركيبة العمل داخل الشركة، وبمختلف السبل الكفيلة بضمان استمراره في عمله.

[...] يواجه المعمل اليوم شباب جيل مطبوع، بطريقة فريدة، بتجارب ومتطلبات الحرب وفترة ما بعد الحرب. إنه يواجه أناسًا من المناطق الشرقية، فقدوا، في معظم الأحيان، بخسارتهم الوطن والملكية، مهنَهم الأصلية أيضًا. ويقف عمومًا إزاء أناس ما عادوا واثقين من ضمّهم في المجتمع، وينتظرون لهذا السبب من المعمل لا الخبز والعمل فحسب، بل إدخالهم في المجتمع الإنساني [...].

لم يُعتنَ في أي وقت مضى بالسلم الاجتماعي في المعمل، وبسعادة الناس في العمل، وبارتباطهم بالمعمل الذي يشغلهم، أكثر مما يُعتنى بها اليوم. ولم تكن، في أي وقت مضى، القيادة الصالحة، والبحث المخطط لأسسها، أكثر إلحاحًا مما هي عليه اليوم [...]. لقد دفعتنا جميع هذه التأملات إلى إنجاز بحث في جو العمل في معامل شركتنا المختلفة، وفق أحدث الطرائق العلمية لاستطلاع الرأي. كان مطلوبًا من مستخدمينا وعمّالنا أن يقولوا لنا بأنفسهم ما يفكرون فيه، وما ينتظرونه من المعمل الذي يعملون فيه. على النتيجة أن تجيبنا عن أسئلة من نحو: كيف نحفّز السلم الاجتماعي، ونشكّل العمل المشترك بين الإدارة ومجموع العمال والمستخدمين، ونحقق إنجازات مُرضية للشركة، ونكون بالتالي قادرين على تحمُّل مسؤولياتها المتعددة في إطار المجتمع".

كان هذا حتمًا أسلوب التعبير والتفكير المنمَّق والرزين الذي لا بد منه لمدير مرموق وممثل لـ "أرباب" العمل. كان تطويع الدراسة على هذا النحو متوقعًا تمامًا، مثل احتجاج النقابات على بحث أثبت أنه لم يكن لدى العمال اهتمام كبير للمشاركة في الإدارة. وحاول مديرو المعهد امتصاص حدة ردات الفعل هذه، من خلال حملة صحافية صغيرة. قدّم هوركهايمر وديركس - الأول الذي ظهرت له في 19 شباط/ فبراير 1955 مقالة بعنوان "الناس في المعمل الكبير: استطلاع الرأي في الصناعة" في **الصحيفة الألمانية وصحيفة الاقتصاد**

(*Deutsche Zeitung und Wirtschaftszeitung*)، والثاني الذي نُشرت له في 5 آذار/ مارس في **صحيفة الرور الجديدة** (*Neue Ruhrzeitung*) مساهمة بعنوان "ما الذي يريده العامل: الأجر أم الأمان أم 'جو العمل'؟" - الحجج ذاتها: المسألة تدور حول العلم والحقيقة. فنتائج البحوث التي تتوخى العلمية والحقيقة تخدم الجميع أيضًا؛ إذ إن حرص العاملين على المشاركة في محيطهم المباشر، على نحو أكبر من المشاركة في مستويات أعلى في الشركة، لا يعني أن القميص أقرب إلى الناس من السترة؛ وأن أنسنة المعمل تعود بالخير على جميع المعنيين.

جاء في مقالة هوركهايمر التي احتلت أربع صفحات في الصحيفة: "حتى حين يكون للمرء تحفظات بشأن القيمة النظرية لأبحاث كهذه، يجب تشجيع المعلومات عن الشركة، وصولًا إلى أصغر مجموعة من العمال، في ألمانيا أيضًا، مثلما يجري تطويرها في بلدان أخرى، خصوصًا في الولايات المتحدة. على أن السبب الذي يدفع مالك المعمل إلى توفير فرصة دراسة بحثية كهذه أمر غير ذي شأن حقيقة، سواء أكانت العوامل الإنسانية مجرد شروط أو حدود للزيادة المنشودة في الإنتاجية أو الريعية، أم مجرد غاية في حد ذاتها، أم تجاوزت المشكلة، بالنسبة إليه، مشكلة 'القيادة البشرية' أو مشكلة 'الشراكة'. فالعمال أنفسهم، على العكس من الإدارة، ليس لديهم أدنى اهتمام في تطوير الطرائق العلمية كما هو الحال بالنسبة إلى الإدارة. فهم بحاجة أيضًا، في ظل انعدام الثقة الكلي المفهوم، إلى أن يكونوا على دراية بظروف عملهم وتحسين عواملها. فالمعمل ليس بالنسبة إليهم عديم الشأن. وحيثما تكن الأمور، إلى حدٍّ ما، في إطارها الصحيح، ينشأ ارتباط بالمعمل أيضًا".

كانت عبارات كهذه، من حيث هي دليل على مضمون المقالة برمّتها، تقول الكثير. فقد نُظر إلى العمال هنا، بحسب الدراسة، بوصفهم أشخاصًا يستطيعون أن يحسّنوا ظروف عملهم الخاصة. كما لو كانت لديهم أيضًا، ولو إلى حدٍّ ما، فرص للانتفاع والتصرف، مثل إدارة المعمل؛ أو كأن الدراسة لم تلزم نفسها صراحة بإثبات ردات الفعل الذاتية فحسب، وليس بالكشف عن العلاقات الموضوعية؛ أو كما لو لم تغب في الدراسة الإيضاحات الملائمة عن

أنماط آراء الإدارة وسلوكها، ومن ضمنها ممثلو العاملين؛ أو كما لو أن العمال قد تسلّموا نسخة ملائمة من التقرير الرئيسي الذي لم يقدَّم في واقع الأمر إلا إلى الهيئة التنفيذية لشركة مانسمان، أو في الحد الأقصى إلى بعض خبراء النقابات؛ أو مثلما أن عرض بيانات ومعلومات تفتقر إلى التفسير وتطالب بتفسيرها تاريخيًا وسياسيًا وعلى الصعيد النفسي الاجتماعي، يمكن أن يساهم في تحرير العمال؛ أو كأن الدراسة التي تُنجَز لمصلحة العمال لا يخطَّط لها وتنفَّذ على نحو يختلف كليًا عن الطريقة التي أُنجزت بناءً على تفويض رئاسة مانسمان. عندما ادعى هوركهايمر في مقالته أن دراسة مانسمان تحرّت واحدة من البقع البيضاء على الخريطة الاجتماعية لألمانيا - طبقة العمال المجهولة تقريبًا و"وعي الجماهير العمالية" منذ فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى وما بعدها - عندئذ يمكن المرء أن يصدق أنه كان يسمع صناعيًا يبدي استعدادًا لفهم العالم الغريب لعماله.

عندما كتب أدورنو أن دراسة مانسمان يمكن أن تترك أثرًا إيجابيًا، فقد كان يفكر، أغلب الظن، بطريقة تُشْرِك فيها الدراسة التحليل الكمي لنتائج المقابلات مع التحليل النوعي لمحاضر المناقشات الجماعية، أي تحقيق تلك الصلة في **دراسة المجموعة** حول الوعي السياسي للألمان الغربيين التي لم تفلح بين التمثيلية والتحليل القائم على علم نفس الأعماق، وبين التقويم الكمي والنوعي الذي وسم **الشخصية السلطوية**، وكان قد ميّز في السابق دراسة إريك فروم عن العمال والمستخدمين.

ما ظهر من البحث كان، في أي حال، شيئًا مغايرًا: تقويم كمي للمقابلات التي أُغنيت من خلال تقويم سطحي لمادة المناقشات الجماعية. وقد صدرت في المجلد الثالث من "مساهمات من فرانكفورت في علم الاجتماع" دراسةٌ اختلفت عن جميع المنشورات السابقة لمعهد البحث الاجتماعي؛ أي إن الدراسة كانت تقويمًا كميًا خالصًا لاستبيان على درجة لافتة من الحرفية. يعود الفضل في هذا العمل الحرفي إلى زميل جديد هو لودفيغ فون فريديبرغ الذي كان هوركهايمر محقًا فيه، لأنه بدا له تجريبيًا خالصًا لا يمتّ بصلة إلى النظرية النقدية.

لم يكن جليًا من النظرية النقدية سوى جزء يسير في الفقرة التمهيدية التي تحمل عنوان "وضع المشكلة"، والتي كُتبت، على نحو لا لبس فيه، بخط يد أدورنو. فهي تنمّ عن وعي سليم للقيود الجدية التي تعاني منها الدراسة. تغيب عن الدراسة الشخصيات المفتاحية المسؤولة عن الجو في مكان العمل بنحو خاص، أي مديري المعمل ورؤساء الأقسام، أو آراء هؤلاء، كما جاء في التمهيد. أكثر من ذلك، لم تُفهَم نوعية أنماط السلوك، كتلك التي يتألف منها جو المعمل، إلا من خلال العلاقة الحيوية بنوعية المثير التي تحصل ردات الأفعال استجابة لها. وتتخفى الفكرة التي تلمح إلى البعدَين التاريخي والاجتماعي المفقودَين في جملة إضافية: فالتصورات التي ظهرت اليوم في ما يتصل بموضوع مشاركة العمال في الإدارة من خلال أشخاص مؤهلين، وعنصر اللامبالاة، تطورت في مناخ عدة هناك حيث "لا تسود شروط ديمقراطية أصلية"[68]. جاء في مكان آخر من الدفاع اللافت عن الطابع التقليدي للعمل الموكَل الذي أُنجِزَ، أن مشكلة العلاقة بين الإنتاجية المتزايدة وأنسنة العلاقات في المعمل، أو مشكلة إلى أي مدى كان العمال مهتمين أساسًا بتحسين جو مكان العمل، أو إلى أي مدى كانوا يتنسّمون فيه أكثر خطر مجرد التلاعب والتحكم بهدف زيادة الإنتاج، قد وُضعت جميعها جانبًا، لأنهم حكموا مسبقًا، من خلال الصيغة التي وُضعت بها الأسئلة، على النتائج المرتبطة بجو مكان العمل. تحت شعار أدورنو "كلما عبّر علم الاجتماع عن الحال، بصورة أقسى، متحررًا من الأوهام قدر المستطاع - حتى لو تعارض هذا مع ما يودّ المشاركون المعنيون سماعه - خدم الإنسانية على نحو أفضل"[69]، كان ثمة اقتراب مضلِّل من آراء شلسكي وشعاره عن علم اجتماع يكون "بحثًا عن الحقيقة"، وبحثًا في الوقائع الاجتماعية مضادًا للأيديولوجيا. كان هذا ضربًا من الاقتراب المضلّل والخطير، لأنه أخفق في تأسيس الحق في صياغة الأسئلة المركزية، أو في تقديم أفكار ثاقبة تضيء الأهمية الفائقة للتأويل والنظرية لأولئك الذين لا يسيطرون، وليسوا متميّزين.

---

(68) Ibid., p. 16.

(69) Ibid., pp. 13 f.

لقد كان لودفيغ فون فريديبرغ بالذات الذي أكد بعد سنوات - في أطروحة التأهيل للأستاذية حول **سوسيولوجيا جو المعمل** التي صدرت في عام 1963 باعتبارها المجلد 13 من [سلسلة] "مساهمات من فرانكفورت في علم الاجتماع" - ضرورة تقويم جو مكان العمل "انطلاقًا من معطيات المعمل المركزية الموضوعية وشروط العمل وبنية السلطة فيه"[70]؛ وأن يُنظر إلى جو العمل بوصفه نتاج الصراع بين التوقعات الذاتية ذات الطابع الاجتماعي للعمال في المعمل وعلاقات العمل الموضوعية المتوسَّطة ذاتيًا؛ وألا تسجَّل عناصر جو العمل الخاصة فحسب، بل وتفسيرها أيضًا من خلال العملية الاجتماعية برمّتها. هذا المنظور مكّن من توضيح التناقض الثابت في دراسة مانسمان، التناقض المتمثل في أن العمال يعتبرون أن الأجر الأعلى هو الأهم عمومًا، في حين تكون لشروط جو العمل المباشر الأولوية في ما يخص الموقف من المعمل. "في الحالتين تجلى صراع المصالح بين الإدارة والقوى العاملة بأعراض تغطي، في الوقت ذاته، ذلك الصراع"[71]. كان هناك في الحالتين تشويه للتناقض الأساسي في المصلحة بين الإدارة والقوى العاملة؛ إذ إن دراسة لجو العمل تحصر نفسها بالاستجابات الذاتية للعاملين - وهو قطعًا مؤشر مهم، لكنه مؤشر واحد فقط من بين مؤشرات كثيرة - وتتحفظ على تفسيرهم، لا بد من أن تسهم، شاءت أم أبت، في تغطية صراع المصلحة الأساسي وفي التركيز على أعراضه.

إذا لم تكن دراسة مانسمان ملائمة أيضًا لمساعدة العمال في إدراك أوضاعهم، فهي بالتأكيد لم تمثل أيديولوجيا العمل، أي لم تكن وجهة نظر هاجسها المصلحة في السلم الاجتماعي في مكان العمل. أما كيف بدا الأمر عندما كان علماء الاجتماع من داعمي أيديولوجيا العمل، فقد ظهر، على سبيل المثال، عند أوتو نويلوه (Otto Neuloh) وزملائه. كان نويلوه من جيل أدورنو، وقد عمل بين عامي 1927 و1945 مستشارًا علميًا للشؤون المهنية في مديريات العمل، ثم أسهم في عام 1946 في تأسيس وحدة دورتموند للبحث الاجتماعي في جامعة مونستر، وأصبح منذ عام 1947 مديرها العلمي ورئيس

(70) Ibid., p. 18.

(71) Ibid., p. 51.

قسم علم الاجتماع الصناعي. في مجلّدَي **دستور المعمل الألماني وأشكاله الاجتماعية وصولاً إلى المشاركة في الإدارة** (1956) و**أسلوب المعمل الجديد** (1960)، نشر نويلوه وزملاؤه نتائج البحث المؤسس على أيديولوجيا العمل التي كان رالف دارِندورف قد عدّها، في دراسته عن علم اجتماع الصناعة والمصنع، واحدة من "الدراسات الكبرى الأربع في مشاركة العامل في الإدارة أو عمومًا في وضع العامل في صناعة (الفولاذ) الحديثة". اعتبر نويلوه وزملاؤه المصنع "مكانًا للعيش المشترك"، وقاموا بفصل "العمليات الحياتية" في المصنع عن "عمليات العمل". لقد أرادوا أن يعتبر علماء الاجتماع العاملين في المصنع في المقام الأول أناسًا متعاونين، بمعنى المجموعات غير الرسمية تقريبًا التي كان قد اكتشف دورها المهم عالم الاجتماع الأميركي إلتون مايو، عندما بحث في مصانع هاوثورن التابعة لشركة وسترن إلكتريك (Western Electric Company) عن طرق لزيادة إنتاجية العمال التي كانت محط اهتمام علم اجتماع المصنع.

من بين الدراسات الاجتماعية الصناعية الأربع الكبرى في الخمسينيات، يُذكر أيضًا استبيان المعمل الذي أجري في عامي 1952 و1953 للمعهد العلمي الاقتصادي للنقابات الذي أنجزه فريق البحث المكوّن من تيو بيركر وزيغفريد براون وبوركارت لوتس وفرو هاملرات، ونُشرت نتائجه في عام 1955 تحت عنوان **العمال والإدارة والمشاركة**. شكلت الدراسة التي قام بها في عامي 1953 و1954 هاينريش بوبيتس وهانز باول بارت وإرنست أوغست وهانو كستينغ وتناولت التأثيرات التقنية والاجتماعية في العمل الصناعي في معامل هوتِن (Hüttenindustrie) الدراسة الفريدة في نوعها نظيرًا لدراسة مانسمان، وتفوقت عليها من بعض النواحي. ونُشرت نتائج هذا المشروع في عام 1957 في المجلدين **التقنية والعمل الصناعي** و**صورة العامل في المجتمع**. ينتمي المؤلفون الأربعة – وهم العاملون في وحدة الأبحاث الاجتماعية في دورتموند التي يرأسها نويلوه – مثل فريديبرغ، إلى جيل علماء الاجتماع الشباب. رَأس الدراسة البحثية بوبيتس الذي تُعدّ أطروحته الفلسفية **الإنسان المستلَب: النقد المعاصر وفلسفة التاريخ لماركس الشاب** التي أعدّها في عام 1949 من الموجة الأولى للتأويل الألماني لماركس بعد الحرب التي أطلقها اكتشاف **مخطوطات باريس** حديثًا.

في القسم الثاني الذي خُصِّص لرؤية العامل لعمله الخاص، وللتقدم التقني، والمشكلات الاقتصادية والسياسية، والمشاركة في الإدارة، وأخيرًا للمجتمع بكليته، استند البحث الذي قامت مؤسسة روكفلر بتمويله إلى استطلاع رأي 600 عامل من عمال أحد معامل مجمع هوتن للحديد والفولاذ في منطقة الرور. ما ميّز هذه الدراسة، بادئ الأمر، هو قرب المؤلفين إلى حد ما من "الموضوع" أكثر مما هو الحال في دراسة مانسمان. وكان من بين من أجروا المقابلات المؤلفون الأربعة أنفسهم الذين تعرّفوا في إطار الدراسة عن **التقنية والعمل في الصناعة** بدقة إلى أماكن العمل المنفردة، وأقاموا ثلاثة أرباع السنة في بيت سكن العزّاب التابع للمعمل. وألَمّ ستة آخرون ممن أجروا المقابلات بأماكن عمل العمال الذين كان عليهم إجراء المقابلات معهم. تكوّنت المقابلات من محادثات مدتها ساعتان على الأقل، وغالبًا ما استغرقت وقتًا أطول. وقد تشكل نموذج الأسئلة بناء على محادثات عديدة في أماكن العمل، وفي بيت سكن العزّاب، وفي المساكن الخاصة، وفي البوفيه. أما الاستبيان فكان يحصل في معظم الأحيان في المعمل، ودائمًا في غرف مغلقة.

كان هذا الأسلوب الإجرائي يتلاءم جيدًا مع الادعاءات المنهجية لمعهد البحث الاجتماعي. وورد في دراسة مانسمان في "ملاحظات حول المنهج" أن من يجري المقابلة تتوفر له، من خلال التواصل المباشر مع الشخص المبحوث، مجموعة من الانطباعات الشاملة التي تفوق الإجابات، والتي لا يمكن القبض عليها إلا بصعوبة، عبر إلغاء العامل الذاتي للشخص الذي يجري المقابلة. جاء في فكرة لأدورنو بالغة الوضوح أن "قدرة الاستجابة الذاتية الكلية للشخص الذي يجري المقابلة تصبح هنا 'أداة البحث' التي يمكن تطويعها بأفضل السبل مع الموضوع الذي لا يمكن تقديره في حركيته وتعقيده، وتوافق العلاقة بالمعمل"[72]. على أن ما لم يكن ملائمًا هو أن تُعهد المقابلات، أي العمل الميداني، إلى خمسة عشر شخصًا من الخبراء في المعهد الألماني لاستطلاع آراء الشعب (DIVO) الذين يقدمون، في نهاية الاستبيان حصرًا، انطباعاتهم العامة عن درجة استعداد من أجريت المقابلة معه، ودرجة نوعية

(72) Adorno, *Betriebsklima*, p. 103.

التواصل، وصدقية المستبِين، وارتباطه بالمعمل، ومدى نشاطه النقابي. أما إلى أي حد جاءت "قدرة الاستجابة الذاتية الكلية" لـ "مساعدي" معهد البحث الاجتماعي الذين أوكل إليهم إنجاز المناقشات الجماعية لمصلحة النتائج، فلم يكن ممكنًا استخلاصه من تقرير البحث. علاوة على ذلك، جرى التخلي عن إجراء أي تحليل نوعي لمادة المناقشات الجماعية.

أما من ناحية المضمون، فكانت الدراسة التي تناولت "صورة العامل في المجتمع" أقل ارتباكًا في اللغة، وفي استعادة الاقتباسات، وفي طرح المواضيع الحافلة بالصراعات، مقارنةً بدراسة مانسمان. عالجت دراسة بوبيتس باستفاضة موضوع صراع القوة بين رأس المال والعمل الذي تمت تنحيته جانبًا في دراسة معهد البحث الاجتماعي من دون أسباب مقنعة. وبغض النظر عن مدى التركيز على الجو القائم في كل مكان عمل محدد، يبقى جو العمل في الوقت نفسه يمثل شكلًا معينًا من تناقض المصلحة بين العمل ورأس المال، والناتج عن الوضع الخاص في كل معمل. لا ريب في أن عفوية دراسة بوبيتس نشأت، على نحو لا لبس فيه، من ثقة المؤلفين أنفسهم بأنهم فوق شبهة أي موقف اشتراكي أو يساري. في الفصل التمهيدي لدراسة مانسمان، وفي المقالة الصحافية لهوركهايمر، اتسم الحديث حول ذلك بالحذر: فالنزعة الدوغمائية المتحجرة وحدها تستطيع إنكار أن "الكثير قد تغيّر منذ بداية المرحلة الكارثية، أي منذ 40 عامًا، سواء في طبيعة اليد العاملة أو في موقعها ووظيفتها في المجتمع ككل"؛ ولا شك في أن "كثيرًا من المفاهيم القديمة للحركة العمالية أُفرغت من معناها، لأن الحكم الاستبدادي في روسيا جعل منها وسائل للحكم والسيطرة"؛ لكن، لكي نعرف "إن كان مضمونها الخاص، أي التصور نفسه، سوف يتأثر بذلك"، لا تستطيع "دراسة تجريبية مثل دراستنا أن تدعي ذلك تحت أي ظرف كان"[73]. على العكس، سمى بوبيتس وزملاؤه، عند عرض نتائج دراستهم، الأشياء بأسمائها صراحة، في رفض سافر منهم لنظرية الطبقات الاشتراكية. لقد أكدوا علانية أن "رب العمل ليس مجرد خصم في سؤال المشاركة في الإدارة، بل إنه، عمومًا، الغريم المقابل للعامل. فالأغلبية تتصور أن العلاقة بين العمال وأرباب

---

(73) Ibid., pp. 15 f.

العمل قطبية، وليست نظامًا شاملًا. فمع خصم كهذا يستطيع المرء، من وجهة نظر الطرفين، أن يعقد تسوية؛ لا بل يجب عليه أن يواسيه بشيء ما، إن هو أراد أن يحقق شيئًا ما. غير أن كثيرًا جدًا من العمال تخلوا عن هذا الأمل أيضًا؛ فهم يرون أن القطبية لا يمكن إلغاؤها من 'أعلى' و'أسفل'"[74]. بدا استسلام كثير من العمال أمام ما بدا سلطة مقابلة جبارة في دراسة بوبيتس أشبه بخيبة أمل إنسان ضلّ طريقه. فـ "وراء كثير من التعابير الشعبية المأثورة - مثل قول 'المال يحكم العالم' - يكمن في الحقيقة، على نحو واضح، تقليد أيديولوجي. فالثروة والحكم والمعرفة لا تزال في اشتراطها المتبادل، وعدم قابلية فصل أحدها عن الآخر، في نظر معظم العمال، علامة تميّز سلطة الرأسمالية. وما زال المرء يشعر اليوم أيضًا أن أجيالًا من العمال قد ترسّخ في أذهانهم أن قوة الخصم تُعزى إلى هذا الثالوث، وأن إلحاق الهزيمة بعدوٍّ كهذا يتطلب لهذا السبب جهدًا هائلًا"[75]. أما وقد أصبح عصيًا على رب العمل التآلف المباشر مع العامل، وما عاد الأمر سهل المنال كما كان من قبل، فقد أُتيح للمعتقد القديم أن يستمر ويبقى، وأن تتواصل الإشارة إليه بوصفه رأسماليًا. "ثمة مفارقة ما تكمن في حقيقة أن صورة رب العمل المبالغ فيها لأغراض تربوية والمنقلبة إلى نقيض تحذيري، تمتلك تأثيرًا مخيفًا في عامل اليوم الذي تتنازعه الشكوك"[76].

وفي حين قدمت دراسة مانسمان الصورة الغريبة - حيث أبقت في المدخل التمهيدي إمكانية الصلاحية المستمرة لنظرية الطبقات قائمة، لكنها، في الدراسة نفسها، بدت أقرب إلى إلغاء أشكال بقاء نظرية الطبقات أو التصورات التي حلّت مكانها لدى المبحوثين - شكّل في دراسة بوبيتس رفض نظرية الطبقات أساس الاهتمام المفصل بتصورات العمال المهمة "نظريًا" من الناحية الاجتماعية، وبمحاججاتهم وأقوالهم المتكررة. والدراسة التي استُهلت بأربعة اقتباسات طويلة من تقارير أربعة عمال حول عملهم - أي بأربعة أصوات أصلية إلى حد ما - بعد تحليلات نوعية مستفيضة واقتباسات كثيرة بليغة، أفضت، في النهاية، إلى تصنيف متميز لنماذج صور المجتمع للعمال الذين

(74) Heinrich Popitz et al., *Das Gesellschaftsbild der Arbeiter*, p. 153.

(75) Ibid., p. 154.

(76) Ibid., p. 156.

شملهم البحث، أو للعمال بناء على صورهم في المجتمع؛ وهو ضرب من فينومينولوجيا تجريبية مؤثرة لأشكال ردات فعل العمال على شروط وجودهم بوصفهم عمالًا، وعلى "وضع العامل"، تتأسس أول مرة في الخمسينيات في ألمانيا الغربية[77].

ترتّب على نتائج دراسة مانسمان أن مجلس أمناء عقلنة الاقتصاد الألماني - إضافة إلى معهد أبحاث العلوم الاجتماعية والإدارية في كولونيا الذي كان يرأسه رينيه كونيغ، وإلى قسم البحث في العلوم الاجتماعية في جامعة هامبورغ الذي كان يديره هلموت شلسكي - عرض على معهد البحث الاجتماعي تمويل وظائف مساعدين في علم الاجتماع الصناعي وعلم اجتماع المعمل. لم يلق هذا العرض ارتياحًا كبيرًا لدى أدورنو. لقد رأى خطر الالتزام بـ "بحث صناعي من نوع [...]، لدينا حوله تحفظات محددة" ويمكن أن يؤدي إلى "تنافس مع شلسكي وكونيغ على مستواهما"[78]. لكن ورد بفخر في النشرة التالية للمعهد التي صدرت في عام 1958 - وكانت اللغة التي كُتبت بها، بلا لبس، لغة هوركهايمر - أن الأبحاث التي أُجريت في نطاق شركة مانسمان عن جو العمل، ومشروعَي البحث الآخرَين عن أسباب التقلب في صناعة التعدين، وعن تصوّرات العمال حول الشيخوخة، "تخدم الأهداف العملية للاقتصاد الألماني وإدارته". فضلًا عن ذلك، فإن معهد البحث الاجتماعي الذي أصبح فيه الطلبة متضلعين من طرق البحث الاجتماعي بعمق لا نظير له في جامعات ألمانية أخرى، كان أول من أدخل امتحان الدبلوم للمتخصصين في علم الاجتماع. ويضيف مقدمًا إلى برنامج هوركهايمر القديم للعمل القائم على تعدد التخصصات والفكر المعني بالمجتمع ككل ملاحظة براغماتية تصدرت كلمة هوركهايمر في حفل افتتاح المعهد: "حاملو دبلوم علم الاجتماع ليسوا علماء متخصصين بالمعنى الدقيق، بل هم أناس يربطون المعارف الراسخة في مجالات تخصصية بأسئلة الحاضر الاجتماعية، وبالعلاقة بالكل. فهم يستجيبون للحاجة التي يشعر بها عدد متزايد باستمرار من السلطات والهيئات

---

(77) يراجع:
Oskar Negt, *Soziologische Phantasie und exemplarisches Lernen*, p. 45.

(78) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 3 أيلول/ سبتمبر 1955.

الاقتصادية، كإدارات الشركات والنقابات، فضلًا عن تلك المؤسسات كالإذاعة والصحافة. ومن المفترض أن تضْمن المتطلبات العالية لهذا الامتحان اختيار المتمكّنين فعلًا".

في الحقيقة، يمكن التمييز بين مشاريع المعهد التي كانت مجرد أعمال تُعهَد إليه، والتي كان من شأنها أن تضمن استمراريته ماليًا - على سبيل المثال: بحث الإذاعة، وبحث جو العمل، وتعهدات أخرى لشركة مانسمان كالبحث في أسباب التقلبات في تعدين الفحم الصلب - وتلك المشاريع التي تلائم، من حيث الموضوع، اهتمامات المعهد الخاصة؛ كما الحال في الخمسينيات على سبيل المثال بالنسبة إلى: البحث في الوعي السياسي للألمان الغربيين، والدراسات حول الجامعة والمجتمع، ومتابعة إعداد طريقة المناقشة الجماعية إلى حد ما، وفي الستينيات بالنسبة إلى: العمل على مقياس للنزعة السلطوية A(utoritarismus)-Skala يلائم مقياس النزعة الفاشية F(aschismus)-Skala، ودراسات في الوعي السياسي والتكوين السياسي في ألمانيا الاتحادية. لا بل دار في خلد أدورنو، في ما يخص المجموعة الثانية من الدراسات التي كانت ممولة جزئيًا من الخارج أيضًا - من خلال جمعية البحوث الألمانية، على سبيل المثال - تصوّر تأسيس سلسلة طويلة الأمد من الدراسات في "الأيديولوجيا الألمانية" (وهو العنوان الفرعي الذي أعطاه في عام 1964 لكتابه **رطانة الأصالة**، وهو نوع من تحليل نوعي لمضمون الخطاب الألماني الرصين). غير أن هوركهايمر رأى، بوضوح، أن هذا التمييز عديم الأهمية، على الأقل منذ دراسة مانسمان فصاعدًا. فقد كان يهدف أكثر إلى بناء معهد مرموق، يحمل صورة مبهمة عن ماضٍ متألق، جذب على الصعيد الاجتماعي مختصّين في علم الاجتماع يتمتعون بوعي إنساني، ويحدوهم الأمل للحصول على فرص عمل في مجالَي الصناعة والإدارة.

كان ينبغي أن يعني تطور كهذا تخفيف العبء عن كاهل هوركهايمر الذي كانت لديه حاجة شديدة إلى مودّة الشخصيات النافذة. فهو قد سعى جهده من أجل الحصول على كرسي الأستاذية في جامعة شيكاغو، لأنه رأى فيه وسيلة للاحتفاظ بجنسيته الأميركية. وجنّد في منتصف الخمسينيات كل ما في وسعه كي يحصل من جديد، من طريق استصدار "قانون فردي"، على جنسيته الأميركية

التي سُحبت منه، لكي يستطيع التنعم في النهاية بامتياز حيازة الجنسيتَين الأميركية والألمانية مدى الحياة. سخّر في ألمانيا لهذا الغرض أشخاصًا أمثال رئيس وزراء هِسِن غيورغ أوغست تسين والرئيس الاتحادي تيودور هويس. إلا أنه كان مقدرًا لهذه المطالب أن تحدّ من جهوده لتحقيق تقدم في وضع نظرية مادية نقدية للمجتمع. ما فعله هوركهايمر - وهو الذي يعيش، كما حاله سابقًا، في بلدَين، ويحتقر مجتمع زمانه، لكن خفيةً كما في السنوات الأولى - كان أولًا قيامه، بوصفه معلمًا وخطيبًا ومحرِّضًا ومنسقًا، بالدعاية للتقاليد الثقافية الليبرالية البرجوازية المهمة لإنقاذ عالم مسيَّر، بغض النظر عن الضعف الذي كان يعتري هذه التقاليد وآثارها[79].

بيد أن أدورنو أيضًا لم يأخذ على محمل الجد ما كان يدور في خلده بوصفه تجريبيًا نقديًا. فبعد الدراسة الجماعية عن الوعي السياسي للألمان الغربيين، لم يسهم أدورنو - وهو الذي راح يعمل بهمة كبيرة، مسلحًا بفكرة بحث اجتماعي تجريبي نقدي - جديًا في أي مشروع لمعهد البحث الاجتماعي. وهو لم يكن يشتغل تقريبًا إلا على تقارير البحوث، ويكتب لها المقدمات أو التمهيد. كل هذا من دون نشر، ذلك أن **تجربة جماعية** و**جو العمل** بقيا طوال عقد من الزمن الإصدارين الوحيدين عن المشاريع البحثية لمعهد البحث الاجتماعي في سلسلة "مساهمات من فرانكفورت في علم الاجتماع". يتيح مخطوط من عام 1957 عن العمل الجماعي **في البحث الاجتماعي**، نُشِرَ لاحقًا، استنتاج السبب وراء إسهامه الضئيل في عمل المعهد الذي يعود في جزء منه إلى موقف هوركهايمر المثبط، الذي كانت له حتى الستينيات الكلمة الأخيرة في قضايا المعهد وشؤونه، والذي لم يُرِد أدورنو أن يتحرر منه، ويعود في جزئه الآخر إلى اهتمامات أدورنو الأخرى التي لا تقل أهمية عن اهتمامه بعلم الاجتماع.

كان **العمل الجماعي في البحث الاجتماعي** تجذيرًا للنقد الذاتي في البحث الاجتماعي التجريبي الذي عناه أدورنو في **تجربة جماعية**، بقوله إن بإمكانه أن يواصل القيام به على نحو إنتاجي خلاق. وقد رأى الآن النقد

---

(79) يراجع في ما يخص هوركهايمر في حقبة ما بعد الحرب، وعلى العموم:
Schmid Noerr, "Kritische Theorie in der Nachkriegsgesellschaft," in: Max Horkheimer, *Gesammelte Schriften*, 8, pp. 457 ff.

والتجريب ينقسمان في الممارسة العملية إلى مكوّنَين لا يتوافقان. "من يعرف دومًا الممارسة العملية في البحث الاجتماعي التجريبي من تجربته الخاصة، سوف تفرض عليه الملاحظة أن عمل الفريق في مجال الدراسات موضوع الحديث لا يمكن تعويضه عبر عمل الأسلوب القديم للمتخصص الفرد. فالدراسات التي يقوم بها شخص بمفرده هي دائمًا موضع شك، وتفتقر إلى الخبرة التخصصية"[80]. فلم يكن ممكنًا، على سبيل المثال، أن ينجز فرد واحد المقابلات للحصول على عيّنة تمثيلية. فمن كان يريد أن يكون له شأن بين زملائه في الاختصاص، ومن أراد أن تُعهد إليه دراسات بحثية، لم يكن أمامه مفرّ من استخدام الضوابط - الممكنة فقط من خلال عمل الفريق - التي تهتم بموازنة الانحرافات الذاتية في إعطاء الدرجات، أو جمع البيانات وتصنيفها، في ضوء معايير محددة وفق رؤية عامة.

"بيد أن الثمن الذي يجب أن يُدفع، من أجل تبسيط علوم الاجتماع، باهظ الكلفة جدًا [...]، فما يُضحّى به لمصلحة الحذف ليس الاعتباطية الفردية فحسب، بل أيضًا جميع أشكال الرؤية الموضوعية الممنوحة للفرد المتأمل. وهذه تختفي في عملية التجريد التي تحمل أفرادًا على صياغة وعي مشترك، تُقتطع منه جميع الفوارق النوعية. ولعل الخبرة المقلقة أكثر من غيرها، من بين خبرات الباحث الاجتماعي التجريبي التي أدت في نهاية المطاف إلى تفجّر النقد الذاتي في السنوات الأخيرة، تتمثل في حقيقة أن دراسة تبدأ بآفاق كثيرة، وتتضمن أفكارًا حول العلاقات الجوهرية، وتطرح أسئلة عميقة بمقاصدها، تَفقد على طريق تقدمها من المشروع النظري إلى التطبيق العملي - وتحديدًا عند مرورها بمأزق الاختبارات الأولية - أفضل ما فيها، بحيث تَفقد هنا فعليًا التعهدات المفعمة بالمادة والحماسة جميع قواها، ليس في الحقيقة من خلال ذنب، أو إرادة شريرة، أو ضيق أفق لأي فرد من المساهمين فيها، بل من خلال إكراه موضوعي يعمل في الآلية نفسها"[81]. في عمل الفريق، يجب أن يكون بوسع كل واحد أن يواصل العمل من حيث يتوقف الآخر. كما يجب أن يسود نظام موضوعي، كي يكون بمقدور كل باحث أن يجد طريقه. إذا حاول مدير

(80) Adorno, *Gesammelte Schriften*, vol. 8, pp. 494 f.

(81) Ibid., pp. 496 f.

البحث في النهاية استعادة العنصر الشخصي الذي تخلّى عنه في بداية البحث، وسقط في أثناء سير البحث ضحية الشكل المؤسساتي للعملية البحثية - كان أدورنو يشير هنا إلى تجاربه الشخصية، بوصفه مقدِّم نتائج البحث، وكاتب المقدمات المبدئية - فسيجد أن العلاقة بالمعلومات قد فُقِدت على نحو لا يمكن إصلاحه. وسوف تبقى الأفكار غير ملزِمة، وبوسعها أن تأمل، في أقصى تقدير، احتمالها من حيث هي فرضيات تُختَبر في أبحاث مستقبلية لا تحصل عادة أبدًا. "إن النقص الملحوظ دومًا في الأشخاص القادرين على إنجاز تحرير الدراسات لا يمكن تفسيره بنقص المهارة الكتابية، لأن تقريرًا من هذا النوع ليس مجرد كتابة أدبية روتينية، بل يتطلب الفهم الكامل للبحث. لا بل يكمن التفسير في معضلة وجوب أن يقدم تقرير ختامي من هذا النوع دلالة متجانسة، بينما المعنى المحايث للمنهج الذي يقوم عليه هذا الكل هو تحديدًا نفي دلالة كهذه، وانحلاله في محض وقائع. تغدو النظرية إذًا مجرد كلام، لأن الجداول، وليس اكتساب النظرية من خلال الوقائع، هي الهدف بالنسبة إلى الاتجاه المحايث للبحث"[82].

تبقى النتيجة الكامنة الوحيدة التي يمكن استخلاصها من تقويم أدورنو لخبراته في البحوث الاجتماعية التجريبية أن يقوم في المستقبل بفعل ما يستطيع المرء فعله منفردًا، من غير أن يعرّض نفسه، في الوقت ذاته، لتهمة القصور التخصصي ونقص الخبرة؛ أي أن يشتغل على النظرية. لكن على أي نوع من النظرية؟ وكيف تحمي النظرية نفسها من السقوط في فخ التأمل النظري المحض؟ بعد عامين، بدأ أدورنو العمل على كتابه **الجدل السلبي** الذي يمكن القول إنه حل محل مشروع إتمام **جدل التنوير** الذي كان يتعيّن إنجازه بالاشتراك مع هوركهايمر. وبعد عقدين من الزمن تقريبًا، كان فيهما مكرهًا على الانغماس في مشاريع بحوث اجتماعية تجريبية شارك فيها بحماسة متزايدة لم ينل منها الوهن البتة، عاد أدورنو مرة أخرى إلى موقفه إبان عمله على مشروع بحث يخص إذاعة برنستون، الموقف الذي يتلخص في أن الأمور المهمة لا يمكن مقاربتها تجريبيًا.

---

(82) Ibid., pp. 409 f.

لكن ألم يكن هناك مشروع بيركلي؟ ألم يكن أدورنو لا يزال فخورًا بالجمع بين نظريات التحليل النفسي ومناهج البحث الاجتماعي، أي الجمع بين فرويد والقياس الكمي الذي تحقق هناك؟ هل كان تعاونه مع مجموعة بيركلي لدراسة الرأي العام مجرد 'عمل جماعي بسيط' لا أكثر؟ ثم ألم يكن بالضبط الخوف من انحراف يبتعد كثيرًا عن العمل البحثي، ومن عدم القدرة على تشكيل "جماعة فكرية بين البشر" تربط بعضهم ببعض باسم "قضية تحفزهم موضوعيًا"، وفق صياغة أدورنو، هو الذي منع محاولات جدية لتطوير تجريب نقدي؟ لقد أصاب نقد أدورنو العمل البحثي المؤسس، وليس مشروع بحث اجتماعي تجريبي نقدي. وقد سهّل له النقد التركيز على النظرية الفلسفية، لكنه أتاح له، في آخر المطاف، أن يصرّ على مطلب البحث الميداني في علم الاجتماع النقدي، على الرغم من أنه لم يكن قادرًا على تحديده بدقة أكبر.

"جدل تنوير" ماركوزه: "الإيروس والحضارة"

عندما لا تبدي دور النشر أو الممولون المحتملون اهتمامًا كافيًا بمشاريع إصدارات المعهد، أو عندما يكون هناك نقص في المترجمين الأكفياء؛ وعندما يرضى مديرو المعهد بالعمل البحثي المُمَأسَس؛ وعندما يستهلك العمل الروتيني الذي ينغمسون فيه جُلَّ طاقاتهم، هل كان بإمكانهم، على الأقل، الحفاظ على ما تبقى من ذلك المشترك الروحي بين أشخاص كانت تربطهم قضيةٌ تُحفِّزهم موضوعيًا، وهو الأمر الذي رأى فيه أدورنو البديل الوحيد لعمل الفريق وللعمل الفردي؟ هل كان هناك، على الأقل، نوع من التشارك عن بعد - وإن يكن انتقال ماركوزه إلى فرانكفورت قد أخفق بسبب غيرة أدورنو، وعدم رغبة هوركهايمر في تقييد المعهد بالتزامات مالية طويلة الأجل، وحاجة ماركوزه المفهومة إلى الضمان المالي - بين هوركهايمر وأدورنو وماركوزه، بوصفهم ممثلي النظرية النقدية؟ إن حكاية نشر كتاب ماركوزه **الإيروس والحضارة: بحث فلسفي في فرويد** (كان عنوانا المؤلَّف "ما وراء مبدأ الواقع: فلسفة التحليل النفسي" أو "فلسفة التحليل النفسي: نحو حضارة بلا قمع") بالألمانية تُظهِر صورة مغايرة.

مثّل كتاب فرويد واحدًا من سلسلة محاضرات ألقاها ماركوزه في العام [الدراسي] 1950/1951 في مدرسة واشنطن للطب النفسي. كتب ماركوزه في تشرين الثاني/نوفمبر 1951 إلى هوركهايمر الذي كان قد زاره قبل ذلك بمدة وجيزة، في شهر آب/أغسطس، في فرانكفورت: "تسألونني عن مخطط كتاب فرويد. فأنا ما دمت أغامر هنا في مجال خاص وموضوعي وينطوي على جرأة كبيرة، قررت أن أكتب ما يخطر في ذهني أولًا، ثم أعيد بعد ذلك كتابة كل شيء من جديد. ليس لدي، إذًا، أي مخطط إذا استثنينا الأفكار التي أطلعتُك عليها في فرانكفورت"[83]. قرأ هوركهايمر هذا المخطوط في مراحله الأولى، وظلّ ماركوزه يطلعه باستمرار على تقدُّم العمل فيه. ثم التقى هوركهايمر بماركوزه في أواخر صيف 1954، عندما كان يزور الولايات المتحدة الأميركية لأمر يتصل بكرسي أستاذيته في شيكاغو. كتب هوركهايمر إلى أدورنو يقول: "بالمناسبة، يبدو لي أن عمل هربرت لائق تمامًا ولا يُستهان به، حتى وإن لم تَرُق لنا المقاربة النفسية. في العمل أشياء كثيرة جميلة، بحيث ينبغي علينا أن نقبله كله. وبصرف النظر عن نشر مقتطفات منه في المجلة، فإن ترجمته الكاملة تُعدّ بالتأكيد من بين الأمور الأكثر أهمية التي يمكن أن تقدمها 'سلسلة الترجمات الألمانية' التي ننوي نشرها"[84]. وبعد بضعة أيام، كتب إليه بالنظر إلى الصعوبات المنتظرة في تأمين التمويل لمشروع تلك السلسلة، يقول: "في رأيي يجب أن نصدر كتاب هربرت، سواء بالإنكليزية أو بالألمانية، بوصفه من منشورات المعهد. وهذا لن يسيء، طبعًا، إلى نشر بعض أجزاء منه في المجلة مسبقًا"[85]. وكتب ماركوزه إلى هوركهايمر الذي عاد إلى فرانكفورت: "سيكون من الرائع إذا صدرت الطبعة الألمانية من الكتاب بوصفها من مطبوعات المعهد. فهي ملك المعهد ومديره"[86].

في كتاب **سوسيولوجيكا** الذي أُهدي إلى هوركهايمر بمناسبة عيد ميلاده الستين، نُشرت ترجمة ماركوزه المختزلة للفصل الأخير من كتابه في الموقع

(83) رسالة من ماركوزه إلى هوركهايمر، نيويورك، 26 تشرين الثاني/نوفمبر 1951.

(84) رسالة من هوركهايمر إلى أدورنو، 1 أيلول/سبتمبر 1954.

(85) رسالة من هوركهايمر إلى أدورنو، 10 أيلول/سبتمبر 1954.

(86) رسالة من ماركوزه إلى هوركهايمر، 11 كانون الأول/ديسمبر 1954.

الثاني بعد مساهمة أدورنو تمامًا. لكن قبل أن تصدر النسخة الإنكليزية، تجمّعت في الجو سحب داكنة غطّت خطة نشر الكتاب في طبعته الألمانية. كتب أدورنو إلى هوركهايمر في آب/ أغسطس 1955: "في مجلة **ديسنت** (*Dissent*) مقالة طويلة لهربرت ضد التحليل النفسي، تتضمّن أساسًا الأفكار التي نتبناها حول المسألة، على الرغم من كوننا غير مذكورين فيها ولو بكلمة واحدة، الأمر الذي أثار استغرابي جدًا. إنني أقف بحزم ضد التضامن من جانب واحد، وأودّ، في مسألة كتابه الذي تؤلف هذه المقالة فصلًا منه، أن أناصر فكرة أن لا نفعل **شيئًا على الإطلاق**"[87]. بعد عام، أخفقت نهائيًا خطة نشر النسخة الألمانية لكتاب فرويد لماركوزه وإصداره عن المعهد. جاء في رسالة من أدورنو إلى ماركوزه في صيف 1957: "صحيح أنني شعرت بالضيق من بعض المباشرية والفورية (بالمعنى الملتبس الذي نعطيه اليوم لمفهوم التأمل) في نصّك الإنكليزي عن فرويد، على الرغم من أن هذا لم يؤثر في المواقف الأساسية. كان هذا بالضبط السبب الذي لأجله أردتُ منك إنتاج نسخته الألمانية. يتعلق الأمر، ببساطة، بتباين طبقات اللغة. أنت لا تحتاج إلا إلى صياغة أفكارك بالألمانية لتلاحظ الشيء الذي كان يزعجني، وسوف تقوم بتغييره بطريقة يكون بوسعنا جميعًا الوقوف خلفها بشكل تام [...]. لا يمكن أن يكون ثمة نفور من طرفي، أيًا كان، يمنع نشر الكتاب، بل على العكس، كانت وجهة نظري منذ البداية أن من الطبيعي أن يصدر الكتاب في سلسلة منشوراتنا، ولم يتغير رأيي قيد أنملة"[88]. غير أن ماركوزه ليس بنيامين، ولا كان في وضعه. كان يمكن نسخة معدّلة بما يتوافق مع متطلبات أدورنو أن تكون أفضل من بعض النواحي، تمامًا كما كانت مقالة بنيامين عن بودلير لمجلة المعهد. لكن هل كان شيء كهذا أفضل بالمعنى الذي يهمّ ماركوزه؟ صدرت الطبعة الألمانية لكتاب فرويد لماركوزه في عام 1957 مع الناشر إرنست كليت بعنوان **الإيروس والحضارة** (في الطبعات اللاحقة، تغير العنوان إلى **بنية الغريزة والمجتمع**). أصبحت العلاقة بين ماركوزه ومديري المعهد أكثر هشاشة.

---

(87) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، فرانكفورت، 30 آب/ أغسطس 1955.

(88) رسالة من أدورنو إلى ماركوزه، 16 تموز/ يوليو 1957.

يمكن، بمنظور استعادي، اعتبار كتاب فرويد عمل ماركوزه النظري الرئيسي. أكثر من ذلك، يتمتع بأفضل الحقوق للمطالبة بالنظر إليه بوصفه تتمة النظرية النقدية إذا قورن بإصدارات عام 1955 التي وضعت في قائمة، من قَبْل، في هذا الفصل، وحتى إذا ما قورنت بما نُشر في السنوات قبل ذلك وبعده. في كتاب **العقل والثورة** (الصادر في عام 1941)، حاول ماركوزه منهجيًا خطف هيغل من أيدي الرجعية والفاشية، والقول بأن النظرية الاجتماعية لماركس كانت وريثة الاتجاهات النقدية في فلسفة هيغل. وكان قد اقترح في عام 1946 إصدار عدد خاص من المجلة الجديدة المخطَّط لها متضمنًا تقديرًا منهجيًا للأفكار السياسية والاقتصادية والثقافية وبرامج للأحزاب المهمة في ألمانيا ما بعد الحرب. وفي عام 1947 كان الوحيد الذي وضع خطة أطروحات مبدئية لتوجيه المجلة الجديدة. في ما بعد، قدّم بكتابه **الماركسية السوفياتية** (الصادر في عام 1958) الذي جاء نتاج المِنح الدراسية التي حصل عليها في المعهد الروسي في جامعة كولومبيا والمركز الروسي للأبحاث في هارفرد، نقدًا منهجيًا للأيديولوجيا الماركسية السوفياتية في ضوء النظرية الماركسية. وسعى في **الإنسان ذو البعد الواحد** (الصادر في عام 1964) إلى نقد منهجي لأيديولوجيا المجتمع الصناعي المتقدم. كذلك زوّد النظرية النقدية في **الإيروس والحضارة،** بنوع من التأسيس القائم على الإواليات الغريزية.

كان **الإيروس والحضارة** "جدل تنوير" ماركوزه. وفي حين بقي كتاب هوركهايمر وأدورنو شذرة تدعي أنها وَضعت العمل الأساسي لمفهوم إيجابي للتنوير، تبع القسم الأول من كتاب ماركوزه "تحت حكم الواقع" قسمٌ ثان بعنوان "ما وراء مبدأ الواقع". حاول ماركوزه دحض أطروحة فرويد التي تلقى قبولًا واسعًا، والتي تقول إنه لا يمكن تصوّر حضارة من دون التخلي عن الغريزة وقمعها، ومن دون الاعتراف بمبدأ الواقع. وحاول، باستخدام الجزء النفسي الماورائي من نظرية فرويد، أن يبيّن أنه يمكن جدًا تصوّر حضارة من دون قمع، وأن بمقدور هذه الحضارة أن تستغل الشروط الموضوعية التي خلقتها الحضارة السابقة المقموعة. اتهم ماركوزه الفرويديين الجدد، وخصوصًا إريك فروم، بأنهم بتحويلهم الاهتمام من اللاوعي إلى الوعي، ومن العوامل البيولوجية إلى العوامل الحضارية، إنما يقطعون جذور المجتمع الحركية الغريزية؛ فهم عالجوا

المجتمع بوصفه ذلك الوسط الثقافي الذي ينهض على المؤسسات، ويعارض الفرد، ولم يمتلكوا أساسًا مفهوميًا خارج النظام السائد. وادعى في المقابل أنه، بفضل علم النفس الماورائي لفرويد، وجد في مستوى الغريزة معيارًا نقديًا مستقلًا، يمكن بواسطته قياس المجتمع وكيفية تشكيله الفرد.

بدا تحليل ماركوزه لِـ "جدل الحضارة" على النحو التالي: تميّز المسار الكلي للحضارة حتى الآن بحقيقة أن اكتساب الوسائل الضرورية للحياة لا ينتظم مع الهدف، ولا تُرضي الوسائل حاجات الفرد المتطورة بأفضل السبل، بل بصورة كان فيها "الانتصار التدريجي على عوز الحياة وثيق الصلة بمصالح التسلط التي تشكّله"[89]. لقد وُجِد دومًا خارج القمع الأساسي، وخارج التعديل الضروري للدوافع الغريزية من أجل الاستمرار الحضاري للنوع الإنساني، "قمعٌ إضافي" مشروط بالسيطرة، أو "قمع زائد"، كما ورد بإيجاز في الطبعة الأصلية باللغة الإنكليزية؛ إذ أضعف تقدّمُ الحضارة الذي يتميز بقمع إضافي، بل لنقُل حتى بقمع إضافي متنامٍ نسبيًا بالنظر إلى السيطرة المتزايدة على الطبيعة، المُكوّنَ الإيروسي لطاقةِ الدافع الغريزي، وقوى مكوّنها التدميري. "إن رفضًا قويًا للعدوانية ضروري؛ لكن كي يكون فاعلًا، يجب أن يقوّي رفضُ العدوانية المتزايدة الدافعَ الجنسي، لأن الإيروس القوي يستطيع وحده أن 'يضبط' بنجاح غريزة التدمير. وهذا تمامًا **ما تعجز الحضارة المتطورة عن تحقيقه**، لأن وجودها نفسه يتوقف على ضبط ومراقبة شاملتين متعاظمتين في الشدة"[90]. بهذا التحليل حلّت - برأي ماركوزه - مكان تصوّر الصراع "البيولوجي" الحتمي بين مبدأ الرغبة ومبدأ الواقع، وبين الجنسانية والحضارة، فكرةُ "قوة الإيروس الموحَّدة والمُرْضية [...]، المقيَّدة والمستهلَكة في حضارة مريضة". "تتضمن هذه الفكرة أن الإيروس **الحر** لا يستبعد وجود علاقات اجتماعية حضارية قابلة للاستمرار، وأنه لا يرفض إلا التنظيم القمعي الفوقي للعلاقات الاجتماعية تحت مبدأ ينفي مبدأ اللذة"[91].

---

(89) Herbert Marcuse, *Triebstruktur und Gesellschaft*, p. 41.

(90) Ibid., p. 82.

(91) Ibid., p. 47.

في القسم الثاني من كتابه الذي تضمّن فصولًا عن "الفانتازيا واليوتوبيا"، وعن "أورفيوس ونرسيس" بوصفهما صورًا أولى جسّدت بدائل بروميثيوس، وعن "البُعد الجمالي"، وعن "تحول الجنسانية إلى إيروس"، قدّم ماركوزه نظيرًا، على نطاق مصغر، لـ **مبدأ الأمل** عند بلوخ (صدر جزؤه الأول بأقسامه "أوهام صغيرة"، "الوعي الاستباقي"، و"أوهام في المرآة" في عام 1954، وجزؤه الثاني **مبادئ عالم أفضل** في عام 1955، وأخيرًا جزؤه الثالث والأخير **أوهام اللحظة المتحققة** في عام 1959). حاول الفصل الأخير "إيروس وتاناتوس" انتزاع موضوع الموت من الخصم وإظهار الموت نفسه - الموت الذي علّم البشر أن كل لذة هي قصيرة، وقادهم إلى الاستسلام قبل أن يقسرهم المجتمع عليه - بوصفه شيئًا قابلًا للتغيير. على الفلسفة أن تستجيب للموت أيضًا بـ "رفض كبير" - بحيث إن التعبير اللافت الذي استعاره ماركوزه من وايتهد (A. N. Whitehead) الذي حاول به أن يصف السمة الرئيسية للفن - بالإصرار على "حقوق البشر والطبيعة بالتحقق الكامل"[92]. "في ظل شروط وجود إنساني فعلي، يمكن أن يغدو الفارق بين موت من خلال مرض في سن العاشرة أو الثلاثين أو الخمسين أو السبعين، وموت بنهاية طبيعية بعد حياة متحققة، فارقًا حقيقيًا يستحق عناء الكفاح من أجله بكل الطاقة الغريزية. فليس أولئك الذين يموتون هم من يمثلون الاتهام الكبير ضد حضارتنا، بل أولئك الذين يموتون قبل الأوان أو قبل أن يريدوا ذلك، أولئك الذين يقضون نحبهم في عذاب الموت والمعاناة [...]. الأمر يحتاج إلى جميع مؤسسات وقيم نظام قمعي لإراحة الضمير الذي يعذبه هذا الذنب"[93] (يقوم ماركوزه هنا باستدارة كاملة عائدًا إلى الظروف التي شكّلت نقطة البداية لكتابه عن فرويد الذي استُهلّت طبعته الإنكليزية بالكلمات: "كُتِب في ذكرى صوفي ماركوزه 1901-1951". شرع ماركوزه في تأليف الكتاب في عام 1951، وهو العام الذي توفيت فيه زوجته الأولى بعد معاناة من مرض السرطان دامت ما يقرب من عام ونصف العام انتهت بموتها أمام عينيه).

(92) Ibid., p. 159.

(93) Ibid., p. 232.

في **الإيروس والحضارة**، قام ماركوزه الذي استعمل في مقالاته الأولى أنطولوجيا هايدغر الوجودية بطريقة ماركسية، وتحدث عن "الثورة الشاملة" و"تحقيق الإنسان الكامل"، بوضع مشروع شبَك فيه بطريقة ثورية حضارية أفكار فرويد وماركس. كان هذا العنوان "الإيروس والحضارة" (وهو أفضل من العنوان الألماني الجاف **بنية الغريزة والمجتمع**) بمثابة مناشدة للإيروس، بوصفه الخصم الكبير لحضارة قمعية غير ضرورية، والضامن لحضارة خالية من القمع بألا يضيع هدفها من أمام ناظريه (يذكر ماركوزه هذا عادة، من غير أن يدخل في أي مناقشة إن كان يعني بذلك أنه سوف يغيّر بإزالة القمع الإضافي، على أرضية المكاسب التي أحرزتها الحضارة حتى الآن، طابعَ القمع الأساسي، بحيث لا يكون هناك بعد الآن قمع من أي نوع عمومًا). "فحقيقة أن مبدأ الواقع ينبغي أن يعاد تأسيسه باستمرار في التطور الإنساني، تدلّ على أن انتصاره على مبدأ اللذة ليس تامًا أو مؤكدًا على الإطلاق [...] فما تروّضه الحضارة وتكبته - حقوق مبدأ اللذة - يستمر في الوجود في الحضارة ذاتها؛ إذ يحتفظ اللاوعي بأهداف مبدأ اللذة المحبَط [...]، ولعل **عودة المكبوت** هو ما يتغذى عليه تاريخ الحضارة السري والمحرّم [...]. فالماضي يستمر في كشف المستقبل؛ إذ إنه ينتج الرغبة التي تخلق الجنة ثانيةً على أرضية المنجزات الحضارية"[94]. فاستمرار تاريخ اللذة الخفي دائمًا، وتَذكُّر الفرد السعادة السابقة في الطفولة، كما في طفولة النوع البشري، يضمنان، في تفكير ماركوزه، أن التوق إلى السعادة لا يمكن تدميره، وأنه كان، أيضًا، توقًا إلى السعادة الكاملة.

لكن كيف انطلقت عملية القمع؟ وهل يَفترض التمييز بين قمع أساسي وقمع إضافي أن نشوء عملية حضارية حرة من قمع إضافي أمر ممكن؟ وهل يمكن، عندئذ، لمكتسبات حضارة تتسم بالهيمنة والقمع الإضافي ألا تُمتحَن نقديًا وتُراجَع في خصائص جوهرية؟ أو أن هذا التاريخ الملعون الخفي الأصم لم يسقط ضحية التشوّهات التي لا يمكن أن تُرمى ذات يوم ببساطة مثلما تُرمى الأصفاد الثقيلة؟ أسئلة ملحّة كهذه إما أن ماركوزه لم يطرحها على نفسه بداية الأمر على الإطلاق، وإما أنه أجاب عنها ببساطة بتأملات استمدّها من فرويد،

---

(94) Ibid., pp. 21, 24.

أو أجاب عنها بعبارات دارجة، على سبيل المثال، مشيرًا إلى الحاجة إلى "تنظيم عقلاني جديد للجهاز الصناعي الضخم"[95]، وإلى تحوُّل الجنسانية المحتمل إلى إيروس، وحلول "العمل 'اللذوي'" محل "العمل المستلَب"[96].

ألم يُلْقِ ماركوزه وكتابه، في النهاية، الضوءَ على المصادر التي تغذّت عليها دراسات هوركهايمر وأدورنو؟ في **فلسفة الموسيقى الجديدة**، رأى أدورنو حركة شخص عائد كتعبير عن الموسيقى كلها، حتى في عالم يستحق الفناء. ورأى هوركهايمر وأدورنو، في كتابهما المشترك **جدل التنوير**، في إدراك العقل لذاته بوصفه طبيعة لا تتوافق، المخرج من **جدل التنوير**. وفي **كسوف العقل**، رأى هوركهايمر في أشكال الحياة القديمة التي لا تزال تموج تحت سطح الحضارة الحديثة مصدر القدرة على حب شيء لذاته. الدفاع عن "النزعة المادية البيولوجية" في نداء هوركهايمر وأدورنو ردًا على مقالة إرنست زيمل، أو في مقالة أدورنو عن "التحليل النفسي المعدل"؛ ألم يُفهم كل هذا من خلال افتراض ماركوزه بنية غريزية، أو على نحو أدق، في البنية الغريزية "الخيّرة"، أي في العقل الكامن في الحب؟ ألم يضع هذا في النهاية موضع نقاش - وهو ما يستند إليه أيضًا هوركهايمر وأدورنو، لكن على نحو غير مباشر وخجل، وبأسلوب يعتمد الأمثال والحكم - أن الطريق من الطبيعة عبر الأسطورة، وصولًا إلى التنوير والعقل، هو نوع من لعب إيجابي يتأسس في نهاية المطاف في إحساس عفوي وطبيعي لما هو صحيح وخيّر وحقيقي؟ عندما يشدد هوركهايمر وأدورنو باستمرار على أن التفكير الذي يتأمل ذاته هو وحده الذي يمكن أن يعطي الطبيعة المقموعة صوتها، فإن الوقوف إلى جانب الطبيعة لا يكون ممكنًا إلا من خلال التحرر من تناقضاتها الظاهرية، ومن تفكيرها المستقل. هل يكون بالإمكان عندئذ، بمساهمة الفكر، تصوّر شيء آخر غير جعل شيء ما أعطته الطبيعة "الخيّرة" حاضرًا، أو التعبير عنه؟ ألم يكن هوركهايمر وأدورنو يتجنبان، من خلال تحفّظهما، المواجهة المفتوحة مع المأزق الذي يتمثل في الحاجة إلى مقياس للتمييز بين الطبيعتين "الخيّرة"

(95) Ibid., p. 213.

(96) Ibid., p. 217.

و"الشريرة"، يكون مستقلًا عن الإحساس الخادع بما هو صحيح ومعقول في ظروف محددة، لكن حكم العقل لمن كانت لديه رؤية واضحة لـ **جدل التنوير**، ولاندماج القمع الأساسي بالقمع الإضافي في الحضارة، لم يكن أقل حاجة إلى مقياس يكون مستقلًا عن العقلانية الخادعة في ظل ظروف محددة؟

دعا هوركهايمر وأدورنو، من خلال تحفّظهما في أسئلة تأسيس النظرية النقدية، ومن خلال تأكيدهما دور النفي المحدد والتعبير عما هو الحال، إلى وضع الثقل الرئيسي على نظرية مادية للمجتمع. لكن إذا لم يمضِ العمل على النظرية المادية للمجتمع قدمًا، ألا مفرّ عندئذ من أن تتصدر مشكلة تأسيس النظرية النقدية المكان الأول، ومن ثمّ ألا تجدر، من وجهة النظر هذه، مناقشة كتاب ماركوزه؟

هكذا كان ينبغي أن تكون الأمور فعلًا. لكن كما كان هوركهايمر يشتكي منذ النصف الثاني من الثلاثينيات، خصوصًا في ما يخص مشروع الجدل، من غياب التحليلات النظرية الاقتصادية، كذلك شكا أدورنو، على سبيل المثال في عام 1954، عندما اعتمد خطة جديدة بدلًا من خطته القديمة التي كانت تهدف إلى نشر مجلد يجمع دراسات المعهد حول الثقافة الجماهيرية، في رسالته إلى لوفنتال: "ما ينقص، طبعًا، شيء حاسم، هو تحديدًا تحليل نظري اقتصادي لأساس صناعة الثقافة"، ليضيف بعد ذلك من فوره: "لكن من بوسعه أن يقوم بذلك؟"[97]. وكما كانت هذه الحاجة تبرز دائمًا وأبدًا، ثم تُنحّى باستمرار في الممارسة العملية، كذلك أيضًا أصبحت الحاجة إلى مناقشة أسس النظرية النقدية راهنة جدًا من ناحية، وأكثر إلحاحًا أيضًا من تنحية الحاجة إلى تحليل نظري اقتصادي.

في أحد الأشهر الأخيرة قبيل انتقال أدورنو إلى الساحل الغربي للولايات المتحدة، تبادل هو وهوركهايمر بعض الأفكار في رسائلهما، وتناقشا في مشكلة التأسيس على نحو مفتوح، كما لم يفعلا من قبل، سواء في الرسائل المتبادلة أو

(97) رسالة من أدورنو إلى لوفنتال، 8 كانون الأول/ ديسمبر 1954، في:
"Zum Löwenthal," *Ges. Schrift.*, vol. 4, p. 178.

في المخطوطات. فالوضع السابق يثير شيئًا من هذا القبيل على نحو خاص: كانا على وشك أن يبدآ معًا، وعلى الفور تقريبًا، إنجاز تحفتهما الرائعة، وبدا في ظل هذه الشروط أنه ليس هناك من مشكلة عصيّة، مهما عظمت، لا يمكن حلّها في النهاية في سياق عملهما المشترك. هذا إن كان لها حل عمومًا.

دافع أدورنو مرة أخرى - في مقابل هوركهايمر المرتاب - عن الأهمية التأسيسية للدوافع اللاهوتية، حيث لا بد بالطبع من ضرورة "التفكير في السر أكثر". وأضاف: "لدي شعور ضعيف على نحو لامتناه بأن التفكير في السر لا يزال ممكنًا، لكنني بكل نزاهة لست اليوم بعد في وضع يمكّنني من صوغ الطريقة التي يكون بها هذا ممكنًا؛ إذ بات افتراض أن اللاهوت سوف يتقلص ويختفي يشكّل فكرة أساسية. فالاعتقاد، انطلاقًا من وجهة نظر مركزية، بالفارق بين نفي اللاهوت وتأكيده لا تعني شيئًا آخر (كتاب ماركوزه الذي يعتاش على هذا التفريق، عزّز موقفي بهذا الخصوص لا أكثر). غير أنني أعتقد، قبل كل شيء، بأن كل ما نخبره بوصفه حقيقة - ليس على نحو عشوائي، بل في ضوء حركة المفهوم - وما يقدم نفسه لنا فعليًا للقراءة بوصفه برهان ذاته، ودليل ضده، لا يحمل هذا النور إلا من حيث هو انعكاس ذلك النور الآخر"[98].

في كتاب ماركوزه **العقل والثورة**، ذُكر على سبيل المثال أن "مقولات ماركس سلبية وإيجابية في آن؛ فهي تصف حالة سلبية في ضوء إسقاطها الإيجابي، حيث تكشف الوضع القائم للمجتمع الراهن بوصفه مقدمة لانتقاله إلى شكل جديد"[99]. وجاء في الشذرة الأخيرة من **أخلاق صغرى** لأدورنو: "فالفلسفة، كما يتعيّن أن تكون مسؤولة على نحو استثنائي في مواجهة اليأس، هي محاولة النظر إلى جميع الأشياء كما يتبدى خلاصها انطلاقًا من ذاتها. ليس للمعرفة غير النور الذي ينير العالم من مبدأ الخلاص [...]. فالسلبية الكلية إذا ما فكر فيها تتحول إلى كتابة مرآوية لعكسها [...]". ألم يكن هذا ذاته ما كتبه ماركوزه أيضًا؟ يأتي الفارق بينهما في كل حالة من الجمل التي تلي. ففي

---

(98) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 4 أيلول/ سبتمبر 1941.

(99) Herbert Marcuse, *Vernunft und Revolution*, p. 260.

نظر ماركوزه، تقيم عناصر المجتمع الجديد في المجتمع القائم، وتقوم بإعداد تحوّله إلى مجتمع حر. في المقابل كانت، بالنسبة إلى أدورنو، المعرفة التي تدرك العالم انطلاقًا من منظور الخلاص في انتقاله وغربته، هي المعرفة التي تستبق "نور المخلّص"، وهو الأكثر بساطة والأقرب من جهة، لكنه كان أيضًا المستحيل تمامًا من جهة أخرى؛ لأن هذا النور كان يفترض مسبقًا - كما يرى أدورنو - موقعًا في مكان ما خارج مجال الوجود، في حين كانت كل معرفة ممكنة محكومة بالتشويه الذي تسعى للنجاة منه. رأى ماركوزه الجوهر الإيجابي ثاويًا في الظاهرة السلبية، ورأى في التاريخ الخفي للجوهر الإيجابي التاريخَ الفعلي الذي يترسّخ في النهاية. في أي حال، استغنى أدورنو عن ضمانة تاريخ خفيّ من هذا النوع. ففي لحظة السلبية المكتملة وحدها، يمكن، في الوقت نفسه، السلبي والإيجابي والنور الظافر أن تظهر خلاصًا يلغي من فوره الفرق بين السلبي والإيجابي. ومن اللحظة التي يتم فيها الخلاص، ومن ثم رجوعًا إلى الخلف كحياة تعرّض ماضيها لحظة الموت، يكون ممكنًا التمييز على نحو صائب بين السلبي والإيجابي. ولعل إصرار أدورنو على معضلة النقد المحايث لحالة زائفة هو الذي دفعه، بين قوسَين، إلى نوع من اللاهوت الذي كان أشبه بتناوب يشير المرء إلى طابعه المتغيّر، لكنه يراهن على قابليته للحل.

أخبر أدورنو في تلك الرسالة هوركهايمر أنه "عندما حاول أن يعبّر عن رأيه في هذه المشكلة، بدا الأمر غريبًا وساذجًا، ولم يستطع أن يعبّر عن نفسه إلا بطريقة مرتبكة. لذلك، ليس غريبًا أنه لم يتطرق إلى هذه القضايا في كتاباته، من حيث المبدأ، بل فَضَّلَ أن يلمح إلى المسوغات النهائية للنظرية النقدية بطريقة مجازية، وبصياغة بدت عابرة، وغير واضحة.

كان هوركهايمر - وقد قام باستخدام شوبنهاور بطريقة ماركسية - لا يزال يستند في حينه إلى افتراض وجود توق إنساني للسعادة، ومعاناة مشتركة طبيعية، وتضامن طبيعي لجوهر متناهٍ يعمل على تحقيق ذاته، حالما يتحرر الناس من التلاعب والاستغلال، ومن الصراع من أجل البقاء. وفي ذلك يكمن افتراض عقل ينبثق من خواص الطبيعة البشرية.

غير أن فكرة أخرى ظهرت في أيلول/ سبتمبر 1941 في الرسائل المتبادلة بين هوركهايمر وأدورنو، ورد ذكرها بشكل مقتضب، أظهرت بالطريقة التي تناقشا فيها أن التصوّر الذي طوّره لاحقًا يورغن هبرماس نسقيًا، والذي يقول إن العقل ثاوٍ في اللغة وإن النظرية النقدية قد تتأسس انطلاقًا منها، كان للحظةٍ معلقًا في الفراغ، لكن من غير أن يقبض عليها.

في أثناء العمل على مقالته عن العقل[100]، سأل هوركهايمر أدورنو عن رأيه في أطروحة "جماعة كارناب" عن هوية العقل واللغة؛ تلك الأطروحة التي تعبر تاريخ الفلسفة البرجوازية برمّته. لم يكن العقل يسمى عند فرنسيي القرن السابع عشر "العقل"، بل كان يسمى "الخطاب". غير أن الأطروحة، كما قُصد منها، كانت تعني أساسًا إنكار الحقيقة الموضوعية. "أتساءل الآن إلى أي درجة يجب علينا ألا نأخذ الأطروحة من أيدي الفلاسفة. فاللغة تَقصد، باستقلال تام عن النية النفسية للمتكلم، تلك العمومية التي ينسبها المرء إلى العقل وحده. يؤدي تأويل هذه العمومية بالضرورة إلى فكرة المجتمع الحق. لهذا لا بد للّغة، خدمةً لما هو قائم، من أن توجد في تعارض دائم مع نفسها، وهذا يتبدّى في التراكيب اللغوية الفردية ذاتها. أودّ مسرورًا معرفة ردّة فعلك على وجهة النظر هذه، كما عرضتها الآن بصيغتها الشكلانية والمبهمة. فأنا شخصيًا لا أطمئنّ إليها كما هي هنا. فالتعارض سوف يكون على الدوام بين الخدمة في الممارسة السائدة والقصد الضروري للعمومية الصحيحة. لا تتخيّل أنني لا أعرف سلفًا قول أشياء أكثر تحديدًا، غير أن في الأطروحة الشكلية، مع إيجابيتها كلها، شيئًا مغريًا للغاية. إن 'نقد اللغة' سوف يكون الفاعل المضاف إليه (Genetivus subjektivus). لكنني لا أشعر بالراحة في هذا الطريق، حتى ولو قادني من ماوثنر إلى كارل كراوس"[101].

عندما تخدم اللغة الظلم السائد، تقع في تعارض مزدوج مع ذاتها. فمن خلال توظيفها وتصنيفها، تقع في تناقض مع قدرتها على التعبير عن وفرة من المعاني. اعتبر كارل كراوس "النمذجة غير مضرّة، عندما أراد في كل مرة

(100) يُقارن مع ص416 في هذا الكتاب.

(101) رسالة من هوركهايمر إلى أدورنو، 14 أيلول/ سبتمبر 1941.

استردادها بوصفها خطأً. غير أننا دخلنا في طور ما عادت تكفي فيه مواجهة المثال البرجوازي. وحتى نقد الاقتصاد السياسي الذي لم يكتفِ بالمواجهة، على خلاف نقد اللغة، بل طوّر النقيض، هو موضع تساؤل للسبب نفسه. فهو ما زال يسترشد سرًا بأفكار السلطة والنظام والخطة والإدارة التي تبرز بوضوح عند كراوس".

بيد أن اللغة تقع ضحية تناقض ثانٍ داخل المجتمع القائم. "فتوجيه الكلام إلى شخص ما، يعني أساسًا الاعتراف به عضوًا محتملًا في الرابطة المستقبلية للناس الأحرار. والكلام يؤسس علاقة مشتركة بالحقيقة، وهو تاليًا التأكيد الأعمق لوجود آخر، وفي حقيقة الأمر لكل أشكال الوجود، تبعًا لقدراتها. فعندما ينفي الكلام الممكنات، يجد نفسه بالضرورة في تعارض مع ذاته. كلام الحارس في معسكر الاعتقال النازي هو في ذاته جنون مرعب، أيًا كان مضمونه؛ ما لم يُدِن، طبعًا، وظيفة المتكلم نفسه".

شكّك هوركهايمر من فوره في أن يستطيع المرء أن يقول أيضًا عن مفهوم العمومية المشتق من الحالة الثانية إنه برجوازي تمامًا شأن المُثل الأخرى، وإنه لا يستطيع أن ينكر أصله الكانطي، وإنه ليس دليلًا مرشدًا. وأضاف في شيء من الحيرة: "من المحتمل أن يكون هذا صحيحًا، لكن في هذه الحالة لا توجد عمومًا إلا التجربة وليس تعبيرها". وعندئذ، يكون المنطق فعليًا هو العقل في شكله الخالص. ثم طلب رأي أدورنو في النقطة الثانية.

أعطى أدورنو من جانبه موافقته الأكيدة: "أتفق تمامًا مع أطروحة الطابع التناقضي لكل لغة حتى الآن [...]. إذا لم تكن الإنسانية قد بلغت الرشد إلى يومنا هذا، فهذا يعني، بالمعنى الحرفي، أنها لم تستطع حتى اليوم الكلام، في حين يتوهّم كراوس أنها لن تستطيع ذلك بعد الآن. إن تحوّلك الجديد إلى فلسفة اللغة يرتبط، في الوقت نفسه، ارتباطًا وثيقًا بنقدنا لعلم النفس الذي يُسقِط تحت الطاولة تمامًا يوتوبيا العام الصالح التي تتمثل في المنطق، وإن كان قاصرًا، في حين يظهر العام السيئ، أي ببساطة الخسة، على نحو أكثر حسمًا. أريد أن أكرّس نفسي بكل حماسة للاتجاه النظري في اللغة بالارتباط طبعًا مع الأطروحة الجدلية النقيضة. نعم، إنني مقتنع جدًا ولا أفهم ترددك. في

الحقيقة، يجب ألا يُسمَّى نقد اللغة، بل شيئًا من قبيل 'اللغة والحقيقة' أو 'العقل واللغة'"[102]. وأضاف إلى هذه النصيحة من أجل نزاع هوركهايمر مع الوضعيين ضرورة أخرى ملحّة من خلال الإشارة إلى تجربته الخاصة: "لم أخبر شيئًا أقوى من العلاقة بالحقيقة التي توجد في الكلام، بصورة نوعية تمامًا. كان من الصعب عليّ دومًا، ولا يزال إلى اليوم، أن أفهم أن يكون الإنسان الذي يتكلم وَغْدًا، أو أن يتعيّن عليه الكذب. إحساسي بمطلب الحقيقة في اللغة هو من القوة بحيث يفرض نفسه فوق كل علم النفس، وأميل إزاء المتكلم إلى سذاجة تتعارض على نحو صارخ مع خبرتي، ولا أتغلب عليها عمومًا إلا عندما أقرأ للشخص المعني شيئًا مكتوبًا أو مطبوعًا، أعرف من خلاله بعدئذ أنه **لا** يستطيع الكلام. ولا يرتبط نفوري من قول الكذب الذي لا يمكن التغلب عليه إلا بهذا الوعي، وليس بأي محظورات أخلاقية على الإطلاق [...] وعندما تسألونني عن رأيي في هذه المسألة، لا أستطيع أن أقول لكم إلا أن من المحتمل أن الدوافع الأعمق التي تحركني عمومًا إلى هذا الحد إنما تتأسس، على الرغم من أنني بلا حول ولا قوة أمامها تقريبًا، في ذلك المستوى الذي تتكلمون عنه".

على الرغم من هذا التأكيد الحماسي للفكرة الذي عبّر عنه هوركهايمر، فإن أعمالهما لم تعكس شيئًا من ذلك البتة[103]. في **جدل التنوير**، وفي أعمال أخرى، لم يكن هناك إلا فكرة تفيد بأن اللغة سُلِبت أهميتها، وأن الناس لا يتكلّمون فعليًا، وأن التواصل كله كاذب، ويُبعِد المرء عن الأشياء والناس. لكن مع كون هذه الفكرة مركزية في **جدل التنوير**، وفي أعمال أدورنو، فإنه لم يكن يقصد منها سلبية صارمة في مطلب الحقيقة والعقل المتأصل في اللغة. فهذا المطلب في اللغة لم يشكل المركز الذي تتغذى منه النظرية النقدية. على أنه من غير الممكن أن يستخلص من الرسائل المتبادلة بين هوركهايمر وأدورنو إن كانا رفضا بوعي، إبان عملهما المشترك على كتاب الديالكتيك، فكرة "نقد اللغة" (بمعنى الفاعل المضاف إليه)، ومتى ولماذا رفضاها؛ وإن كان السبب

(102) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 23 أيلول/ سبتمبر 1941.

(103) يُراجع بصدد هذا الموضوع:
Schmid Noerr, "Wahrheit, Macht und Sprache," in: Alfred Schmidt & Norbert Altwicker, *Max Horkheimer heute: Werk und Wirkung.*

يعود إلى أن المحاججة بمطلب الحقيقة الكامن في اللغة، ومطلب ارتباط ناس أحرار بدت لهوركهايمر مثالية جدًا؛ إذ لا يُظهِر **جدل التنوير** سوى أن استراتيجية أدورنو في تقديم لاهوت خفيّ أفلحت في الوصول إلى تثبيت شكلاني لطبيعة تعامله مع مشكلة الأسباب المسوّغة للنظرية النقدية، حيث اندمج مفهوم النفي المحدد لهيغل بالصياغة الرائعة التي قدّمها هوركهايمر في نهاية "اليهود وأوروبا" لمضمون الوحدانية اليهودية. عندما اعترض هوركهايمر بعدئذ، في **كسوف العقل** وفي خطبة تنصيبه رئيسًا للجامعة، مقدمًا "العقل الموضوعي" ضد "العقل الذاتي" المسيطر من غير أن يدّعي هو نفسه، بوضوح، امتلاك العقل الموضوعي، كان يتلافى المشكلة. في أي حال، تعامل مرة أخرى مع المشكلة، واستغلّ الفرصة لتوجيه نقد حازم لـ "العقل الذاتي" المسيطر.

حاول ماركوزه في كتاب **الإيروس والحضارة** أن يسدّ ثغرة. وكان النقد الذي أنجزه أدورنو، من غير أن يدخل في مناقشة الموقف الذي يمثّله ماركوزه، في نهاية المطاف بمثابة نصيحة له بأن يسير على نهج أدورنو وهوركهايمر، أي أن يحافظ على غطائه، ولا يجعل من المركز الذي يتفلسف منه أساسًا موثوقًا يمكن القبض عليه.

لم يكن نقد أدورنو، بالنسبة إلى ماركوزه، مفهومًا. دافع ماركوزه باستمرار، بحماسة أرسطية، عما عبّر عنه هوركهايمر وأدورنو بتحفظ، بشكل أو آخر، وبصورة غير مباشرة، قدر الإمكان. وكان يَنسِب إلى الحقيقي والصحيح طابعًا جوهريًا أساسيًا. وبقي الأمر كذلك. وحتى بالنسبة إلى جماعة المنظّرين الذين يعيش أحدهم بعيدًا عن الآخر، بدت تحفظاتهم المتبادلة عميقة جدًا، والاستعداد لمناقشتها ضئيلًا للغاية.

الفصل السابع

النظرية النقدية في عراك بالأيدي

أدورنو عاملًا فردًا متعدد الاختصاصات - نحو موسيقى غير نظامية ومكافئاتها في مجالات أخرى

أسّس أدورنو بكتابه **فلسفة الموسيقى الجديدة** الجمالَ الموسيقيَّ الحديث ذا التوجُّه الفلسفي التاريخي. معظم كتبه التي نُشرت في العقد الأول من وجوده في ألمانيا الاتحادية اختصت بالموسيقى: **فلسفة الموسيقى الجديدة** (1949)، و**محاولة حول فاغنر** (1952)، و**نشازات** (1956)، و**أشكال صوتية** (1959)؛ وظهر في عام 1958 كتاباه **فلسفة الموسيقى الجديدة** و**نشازات** في طبعة جديدة. وقد أثار بمحاضرته "أطروحات في التربية الموسيقية" التي ألقاها في دارمشتات في عام 1952، القلق والاضطراب في أوساط مجموعات ممثلي "الموسيقى الحديثة" الذين أحيوا في الخمسينيات "تجمُّعًا وطنيًا جديدًا". وقد أصبح، بوصفه مدافعًا قديمًا عن مدرسة شونبرغ وعارفًا ممتازًا فيها، طرفًا مهمًا في المناقشة في الطلائع الموسيقية التي تلتقي في دورات الصيف العالمية للموسيقى الجديدة في دارمشتات. لقد أنقذ البحث المتعلق بجماعة دارمشتات، وشارك حتى أواخر الخمسينيات في أعمال معهد البحث الاجتماعي التجريبية، وأحيا في محاضرات ومقالات عديدة أفكار بحث اجتماعي نقدي. وافتتح ببرنامجه "حديث في الأدب والمجتمع" الذي بُثّ في عام 1951 من إذاعة RIAS[1] برلين، تفسيرًا للأعمال الفنية الأدبية جديدًا في تأثيره، ويسترشد بنظرية المجتمع. وهو تفسير متأصل في ساحة الجمهورية الاتحادية أو راسخ فيها أنطولوجيًا. وفي كتاب **أخلاق صغرى**، قدّم أدورنو في الخمسينيات مثالًا فريدًا عن فلسفة شذرية "مختلطة". وفي عام 1956 نشر في كتابه **نقدُ**

(1) محطة إذاعية أسستها الإدارة العسكرية الأميركية في برلين الغربية بعد الحرب العالمية الثانية. (المترجم)

نقدِ نظرية المعرفة: دراسات حول هوسرل والنقائض الفينومينولوجية الذي بدأ به دراسة هوسرل في إنكلترا عملًا وافيًا يتطابق مع معايير الفلسفة التخصصية الصارمة. وقدّم في كتاب **موشورات: النقد الثقافي والمجتمع** الصادر في عام 1955 الشهادة الدامغة على تنوّع فكره وفرادته، معرّضًا بذلك سمعته لدى زملائه المتخصصين في الفلسفة وعلم الاجتماع للخطر، تمامًا كما فعل في زمنه جورج زيمل. وكانت مؤلفاته الموسيقية التي كتبها أساسًا قبل عام 1945، وخصوصًا مجموعة أناشيد البيانو، تُعزف كثيرًا منذ الخمسينيات. أما في ما يتعلق بإنتاجه الأدبي فهو لم ينشر إلا القليل في مواقع مستترة، أو باسم مستعار. ظهرت له مقالات ومحاضرات في مجلات جماهيرية عامة، خصوصًا في **فرانكفورتر هفته** و**الروندشاو** و**مركور**، وفي كتب موجّهة إلى جمهور عام، أكثر مما ظهرت في مجلات أو كتب تخصصية. وكان كثير من مساهماته أعمالًا إذاعية أصلًا.

كانت هذه تقريبًا هي الصورة التي يقدّمها أدورنو لمن كان يريد في الخمسينيات أن يُلِمّ بالطيف الكامل لأنشطته. لكن أحدًا لم يصدّق هذه الصورة؛ إذ لم يُرَ منها إلا بعض الجوانب، بيد أنها أيضًا الجوانب التي أثّرت في كثيرين، بوصفها بارقة الأمل الباقية في السنوات الخانقة من عهد المستشار أديناور. ويتذكر بيتر بروكنر المولود في عام 1922، وهو أحد المثقفين اليساريين المهمين في الحركة الطلابية في ما بعد في أواسط الخمسينيات: "عند انتهاء دراستي، اكتشفت أعمالًا لهوركهايمر وأدورنو، لكنني لا أتذكر أين وكيف؛ كذلك بقي أيضًا اسم ميتشرليش عالقًا في ذهني. في منتصف الخمسينيات، لم أترك لمدة طويلة كتاب **أخلاق صغرى** من يدي إلا في ما ندر، وكذلك الكتابات الموسيقية الاجتماعية، وتغدو 'مدرسة فرانكفورت' حدثًا ثقافيًا. غير أن هذا يبقى، نوعًا ما، شأنًا خاصًا، تمامًا مثل اهتمامي بالتحليل النفسي"[2]. عاد أوسكار نغت (Oskar Negt) المولود في عام 1934، بعد أن خاب أمله في دراسة الحقوق، في شتاء 1955/ 1956 من غوتنغن إلى فرانكفورت ليدرس الفلسفة هناك، وقد درس لاحقًا على يد أدورنو، وأصبح بعدئذ واحدًا ممن

(2) Peter Brückner, "Die 50er Jahre - lebensgeschichtlich: ein Zwischenland," in: Götz Eisenberg und Hans-Jürgen Linke, *Fuffziger Jahre*, p. 30.

واصلوا مسيرة مدرسة فرانكفورت. وراح يقصد بفضول محاضرات أدورنو: "تحدّث عن علم الجمال في قاعة البيولوجيا التي توشك على الانهيار. بدا كلُّ شيء غريبًا، ومغلقًا بإحكام، وأثارَ في داخلي مقاومة، إذ لم تكن رغبتي في أن أستبدل صحراء التجريد الجليدية بأخرى". بسبب هوركهايمر لم يحزم أمتعته من فوره، مرة أخرى، ويمضي إلى ميونيخ التي بدت له فيها عروض الفلسفة أكثر غزارة وانفتاحًا. "كان [هوركهايمر] يتصرف إزاء مستمعيه محاولًا اكتسابهم إلى صفّه، ويوحي بالثقة فورًا، ويقبض أيضًا على أدنى فكرة، يديرها ويقلّبها إلى أن يتبنى صيغة واضحة. كما كان يكرّس نفسه في الفلسفة أيضًا بوصفه صاحب مشروع منظَّم بعيد النظر، يعرف بدقة كيف يلامس عبر الإحساس والشغف مصلحة الناس. إن لمثل هذه الملكات مزاياها الكبيرة. أما أدورنو فهو، على العكس، يخيف؛ فهو يرفض أن يجعل من المستعمين أداة، على الرغم من أن التصميم والتوسيط في القضية كان الموضوع المركزي لطريقة تفكيره الجدلية من أجل أن يبني جسورًا تعليمية، ويكون فيلسوف السوق [...]. كان هوركهايمر صاحب مشروع، وكان بلوخ النبي السياسي والراوي، في حين كان أدورنو صانع ساعات حاذقًا"[3]. أما يورغن هبرماس، المولود في عام 1929 - وهو الذي جاء إلى فرانكفورت بوصفه فيلسوفًا نال درجة الدكتوراه من بون، والملم بالمشهد الفلسفي لزمنه - فيرى في نظرة استعادية أن المرء، آنئذ، لا يمكن أن يكون لديه انطباع نظرية مترابطة؛ "نظرية نقدية". "كتب أدورنو مقالات في النقد الثقافي، وأقام، في ما عدا ذلك، حلقات بحث [سمينارات] حول هيغل. لقد استحضر خلفية ماركسية محددة، وهذا ما كان"[4]. لكن تحديدًا: "بعد أن تعرّفت إلى أدورنو، ورأيت كيف تحدث فجأة عن صنمية السلعة على نحو يحبس الأنفاس [...]، وطبّق هذا المفهوم على ظواهر ثقافية ويومية، كان هذا صدمة بادئ الأمر. لكنني قلت لنفسي بعدئذ: حاول أن تتصرف كما لو **أن** ماركس وفرويد اللذين تحدث عنهما أدورنو بهذه الصرامة، **معاصران**". قام محرر الملحق الفني والأدبي في مجلة *Die Zeit* **(دي**

---

(3) Oskar Negt, "Heute wäre er 75 geworden: Adorno als Lehrer," *Frankfurter Rundschau*, 11. 9. 78.

(4) Jürgen Habermas, "Gespräch mit Jürgen Habermas," *Ästhetik und Kommunikation* (Oktober 1981), p. 128.

تسايت) الأسبوعية التي كانت محسوبة على اليمين السياسي في ذلك الوقت، وسبق أن نشرت لكارل شميت وآخرين، بإضافة ملاحظة تحريرية إلى النص المنشور لمراجعة كتاب **موشورات** لأدورنو من دون علم المُراجِعة، وكتب أن عالِم الاجتماع من فرانكفورت "فيزنغروند-أدورنو" هو "داعية يروّج لـ 'مجتمع لاطبقي'"[5]. وهكذا جاءت ردة فعل المعادين للشيوعية، حتى على شخص عبّر على نحو لا يقبل اللبس عن نقده لـ "وكلاء الثقافة الشرقية" و"الدكتاتوريات" الحاكمة "في الجانب الآخر من الحدود"، في مقالات مثل مقالته "الموسيقى الموجهة" المنشورة في مجلة **در مونات** المعادية للشيوعية.

ما الذي كان يجعل كتابًا لأدورنو مثقفًا وتنويريًا لشخص، بحيث لا يستطيع أن يفارقه، ومخيفًا لآخر من خلال انطباع الانغلاق المحكم، ويقدّم لثالث الصورة المتوترة لمعالجة ماركس وفرويد بوصفهما معاصرَين، ويُمَكّن مرة أخرى من تَنسُّم شيوعية صالون وصراع طبقي مغاير؟ لقد كان ما يميّز جميع أعمال أدورنو، منذ أواخر العشرينيات، هو المزاوجة بين البؤس والرومانسية، والجمع بين التأويل الاجتماعي للأعمال الفنية وتأويل المجتمع الذي يجعل من وعد السعادة للأعمال الفنية معيارًا، ومزاوجة السعادة في إظهار الشقاء والألم بالرفض السادي-المازوشي للتوق إلى السعادة، وتشارك نظرية الكارثة وتنشق الحرية، والتقوقع والعنف. "هذا ليس سوى الموسيقى؛ كيف يجب أن يُستكمل بناء عالم تُنتِج فيه أسئلة الطباق[6] الموسيقي صراعات لا يمكن تسويتها. إلى أي مدى تبدو الحياة اليوم مفزعة من أساسها، عندما تنعكس رعشتها وجمودها هناك أيضًا حيث لا تصل أي ضرورة تجريبية إلى مجال يعتقد الناس أنه يضمن ملاذًا من ضغط الطبيعي الفظيع". بهذا التفكير، حاول أدورنو في المقدمة التي كتبها في صيف 1948 في لوس أنجلس لكتابه **فلسفة الموسيقى الجديدة** أن يدحض سلفًا الاتهامات الموجهة ضد كتابه، الاتهامات التي بدت له أكثر قربًا وأهمية. فبعد الذي حدث في أوروبا وما يتهددها بعد، يكون من السخرية تضييع الوقت وتبديد الطاقة العقلية في حل لغز أسئلة

(5) رسالة من ماريانه ريغنزبرغر (Marianne Regensburger) إلى أدورنو، برلين، 11 أيار/ مايو 1955.

(6) الطباق (Counterpoint)، أو علم التطابق، هو فن مطابقة أو تطابق لحنين أو ثلاثة وائتلافهما مع بعض، ويعتبر أحد مبادئ الكتابة البوليفونية. (المترجم)

تقنية التأليف الموسيقي الحديثة التي لا تهم إلا قلة من المتخصصين. ولعله من قبيل التحريض أن تظهر مرارًا نزاعات الكتاب العنيدة والبهلوانية، كما لو أنها تتحدث مباشرة عن تلك الواقعية التي لا تكترث لها بتاتًا. لا شيء يمكن أن يصف، بوضوح أكثر، ما يجذب أحدهم إلى أدورنو، وما ينفّر آخر منه؛ إنه ضرب من التفكير، لا يوجد بالنسبة إليه شيء قط لا يُقرأ فيه مصير الإنسانية ويتقرر. هكذا ورد في شذرة "لا تطرق الباب" من عام 1944 في كتاب **أخلاق صغرى** (التي قصد منها زميل أدورنو، من خلال تعبيرات معادية للسامية في رسالته الاعتذارية، أنه "لا يحبها ولا يعتبرها حقيقةً جهدًا علميًا دقيقًا"، شأنها شأن بعض إصدارات أدورنو عمومًا): "تجعل التقنية، في غضون ذلك، الحركات دقيقة وقاسية، وكذلك تفعل بالناس. إنها تُبعِد من الحركات كل تردد، وكل تروٍّ، وكل سلوك متمدّن [...]. بهذا يُنسى كيف يُغلق باب، بهدوء، بلا ضوضاء، وبإحكام؛ فأبواب السيارات والثلاجات يجب صفقها، وهناك أبواب أخرى تنغلق تلقائيًا، وتُغني أولئك الداخلين عن النظر خلفهم، وعن المحافظة على داخل البيت الذي يستقبلهم [...]. ما الذي يعنيه، بالنسبة إلى الذات، ألا يكون للنافذة بعد الآن مصاريع لفتحها، بل مجرد ألواح زجاجية تُفتح بخشونة، وألا يكون هناك سقاطات خفيفة للأبواب، بل قبضات تدار باليد، ولا رواق أو عتبة في مواجهة الشارع، ولا سور حول الحديقة؟ ومن السائق الذي لن تغريه قوة محرك آليّته لقيادتها بشكل يسحق حشرات الطريق، ويدهس المارة والأطفال وسائقي الدراجات الهوائية؟ في الحركات التي تتطلبها الآلات ممّن يخدمها، يوجد سلفًا العنف والدمار والاضطراب المتواصل الذي يميّز السلوك الفاشي الوحشي". في كل ما تحدّث عنه، رأى أدورنو الكارثة والأمل يجتمعان سوية في كل مسألة ناقشها. هكذا قد يتبدى تفلسفه لأحدهم مهمًا ومدمرًا، ولا يترك مكانًا للبراءة وحُسن النية، ويبدو لآخر فكرًا لا يُخيّب توقُّعَ العظيم، فكرًا لا يُسكِّن الدهشة التي تنبثق من الفلسفة، بل يزيد حدّتها، ويترافق مع أكثر عناصر الفن المعاصر جرأة كي يدفعه أبعد من خلال التأمل المفكّر.

كتب أدورنو في "رسالة مفتوحة إلى ماكس هوركهايمر" بمناسبة عيد ميلاده السبعين، ونُشرت في مجلة **دي تسايت**: "بيد أنني كنت، بحسب نشأتي وتطوري المبكر، فنانًا وموسيقيًا، لكنني كنت مسكونًا بإغراء تقديم حساب

حول الفن وإمكانه اليوم، إغراء يضمّ جانبًا موضوعيًا يحاول التعبير عن نفسه أيضًا، وشكٌ بأن السلوك الجمالي الساذج لم يكن ملائمًا في ما يخص التوجهات الواضحة في المجتمع". كانت الظروف التي واجهها أدورنو بُعيد عودته إلى ألمانيا، بالنسبة إلى أنشطته كمنظّر موسيقي، مناسبة للغاية. ففي أواخر الأربعينيات بدأت ألمانيا الغربية تتطور لتصبح مركزًا رائدًا في الموسيقى العالمية؛ إذ أصبحت الجمهورية الاتحادية قِبلة الموسيقى من خلال إقامة الدورات الصيفية العالمية للموسيقى الجديدة التي بدأت في دارمشتات في عام 1946، واستحداث البرامج الليلية المتأخرة في النظام الإذاعي الاتحادي العام غير المركزي، والمؤتمرات الموسيقية في دوناوشينغن، والحفلات الموسيقية (Musica Viva-Konzerten) في ميونيخ وسواها. وارتبطت بدايات هذا التطور بالصعود السريع لمدرسة فيينا. في عام 1948 شارك في مناهج دارمشتات لأول مرة رينيه لايبوفيتز، وهو تلميذ أنطون فيبرن الذي أدخل إلى باريس، حتى في أثناء الاحتلال الألماني، مدرسة فيينا، من خلال تنظيم عروض بصورة غير قانونية، ونشر النوتات الموسيقية، ومن خلال مؤلفاته الموسيقية. لاقت عروضه لأعمال شونبرغ وفيبرن، ودروسه حول تقنية الاثنتي عشرة نغمة قبولًا حماسيًا في ألمانيا ما بعد الحرب. وعندما صدر في عام 1949 كتاب أدورنو **فلسفة الموسيقى الجديدة**، قدم فلسفة مؤثرة تدعم الحركة المنطلقة لتوّها. وشارك أدورنو، بعد عودته إلى ألمانيا، في دورات دارمشتات التي كانت تنعقد في كل صيف بوصفه مديرًا للدورات أو مشاركًا في المناقشات.

بيد أنه لم يصبح رائد حركة موسيقية تبنّت، إلى جانب تقنية الاثنتي عشرة نغمة أيضًا، النقد الممارس في **فلسفة الموسيقى الجديدة**، كما لم يصبح، بأي معنى، قائد حركة دخلت مملكة الحرية بعد أن عبَرت المدرسة الدوديكافونية[7] القاسية، بل حصل العكس؛ فبعد شونبرغ أصبح فيبرن النجم المفضل. وبعد موسيقى الاثنتي عشرة نغمة، غدت الموسيقى التسلسلية شعار الطليعة الموسيقية. لم تعد طبقة العلامة الموسيقية وحدها تخضع الآن لمبدأ

(7) الدوديكافونية (Dodekaphonie) منظومة موسيقية لامقامية تعتمد على توظيف الاثنتي عشرة نغمة للسلم الملوّن (الكروماتي) في الموسيقى. نصح بها شونبرغ وطبقها بأسلوب مبتكر، وقد سميت طريقته التسلسلية، أي الاعتماد على سلسلة محددة من النغمات. (المترجم)

التسلسلية، بل أيضًا مدتها وقوّتها ونغمتها وإيقاعها، وجميع عناصر التأليف، أي العناصر التي وُضِع لها مفهوم "البارامتر" الذي استعير من الفيزياء. فالجانب الذي يميّز شونبرغ الثوري من شترافينسكي الرجعي، بحسب **فلسفة الموسيقى الجديدة** لأدورنو - أي "فكرة التنظيم العقلاني للعمل"[8] - كان قد تجذّر منهجيًا. وأهمل الجانب الآخر في تحديد أدورنو الذي يبدو متناقضًا، والذي يتمثل في أن الموضوعية العقلانية الوحيدة التي كانت لا تزال ممكنة للعمل الفني الحديث لم تكن ممكنة، بأي معنى خاص، إلا من حيث هي منتَج الذاتية.

تُعَدّ مجموعة المقالات الصادرة في عام 1956 بعنوان **نشازات: الموسيقى في العالم المسيّر** أكثر أعمال أدورنو تأثيرًا في الخمسينيات. فالكتاب يتضمّن، فضلًا عن مقالتين قديمتين، مقالتين من سنوات الخمسينيات هما: "نقد الموسيقيّ"، و"تقادم الموسيقى الجديدة". انتقدت هاتان المساهمتان ظواهر متكاملة: طرد الذات، وطرد كل تعبير من خلال أنصار "موسيقى الشباب" الذين يمجّدون التجربة المشتركة من جهة، ومن خلال "المهندسين التسلسليين" من جهة أخرى. وبذلك كان أدورنو يتعرف في المجال الموسيقي ظاهرة تتطابق مع ظاهرة عرفها في الفلسفة وعلم الاجتماع، بحيث تُكمل في نظره الأنطولوجيا والوضعية، أو التأمل النظري الأيديولوجي والتجريبية الوضعية، إحداهما الأخرى، بوصفهما شكلَي وضعية تركل ما كان ساقطًا على كل حال، أي الذات والفرد.

لكن إذا لم تكن الموسيقى التسلسلية، بوصفها الشكل الموسيقي الأكثر تقدمًا، تُعتبَر في ألمانيا وحدها، بل في العالم أيضًا، "هروبًا إلى النظام"، ألا ينبغي عندئذ أن تَلْقى لدى الجمهور، عاجلًا أو آجلًا، صدى إيجابيًا؟ بدا الواقع مختلفًا، وواجه أدورنو الصعوبة ذاتها التي اعترضته في محاكمته موسيقى شترافينسكي التي تأسست على نقد أيديولوجي. كان الطلب على الموسيقى الجديدة من المؤسسات الإذاعية في الخمسينيات كبيرًا. لكنها كانت تُبثّ في الاستديو الليلي الذي كان جمهوره يتألف من عدد قليل من المختصين والمعجبين. "رسالة في زجاجة، غير مرسلة إلى أحد"، كان الوصف الذي أطلق

---

(8) Theodor W. Adorno, *Philosophie der neuen Musik*, p. 56.

حينذاك على هذه الموسيقى، برضًى ذاتي وفخر إلى حد ما[9]. بدا أن الملحّنين التسلسليين يرون في **فلسفة الموسيقى الجديدة** إثباتًا لوجهة النظر التي كانوا يمارسونها في الفن الذي "بقي مخلصًا حقًا لمعاييره الخاصة، وغير آبه بتأثيره". ألم تتحوّل إذًا وظيفة **فلسفة الموسيقى الجديدة** إلى تسويغ البرج العاجي، بوصفه صورة وضعية، تعارض إسباغ الوظيفية على الفن في ظل النازية؟

ظن أدورنو أن الفن أضاع طريقه وتحوّل إلى أيديولوجيا. في أي حال، "ما دام الفن يرتعش مثل صوت الإنسانية"[10]، فإن أدورنو كان يواجه مشكلة كيفية التمييز بين فن يرضى باللاإنساني وفن لاإنساني يعارض اللاإنساني مع ذلك، بلا هوادة. كان جواب أدورنو قائمًا في موضوع مركزي من تفكيره؛ إذ لا بد لكل خلاص أن يأتي من تفاقم عملية التقسية، لكن كل خلاص يتوقف أيضًا على وجود بقية من ذاتية وعفوية[11]. لكن كيف كان يمكن تعرّف هذه البقية وهذا الحد الأدنى من الذاتية في العمل الفني؟ كان جواب أدورنو في أن ذلك يتبيّن من حقيقة اشتمال العمل الفني على لحظة غير آلية، حية، جوابًا ينطوي على نوع من الحشو.

لا جواب عن سؤال المعايير للتمييز بين فن يقبل وفن لا يتصالح. "على هذا النحو" كانت أيضًا محاولة أدورنو لتسويغ مطلب عنصر الحيوية، بوصفه نوعًا من شرط إمكان الموسيقى، وكأنه لحظة ترانسندنتالية. يحاول أدورنو تدعيم نقده لشترافينسكي، فيقول: "الموسيقى، من حيث هي فن زمني، مقيّدة من خلال وسطها الخالص بالشكل الذي يقتضيه التتالي، وهي، من ثم، غير عكوسة مثل الزمن. وهي، بارتقائها، تأخذ على عاتقها سلفًا المضي قدمًا لتكون شيئًا جديدًا، وتطور ذاتها أكثر. فما يمكن أن يسمّى التعالي في الموسيقى يتمثل في أن الموسيقى تصير، في كل لحظة، شيئًا مختلفًا عما هي عليه، وأن الطريقة التي تشير بها إلى ما بعدها ليست قانونًا ميتافيزيقيًا مفروضًا عليها، بل هي خاصية جوهرية لا تستطيع التملُّص منها [...]. إنها لا تتنازل عن جوهرها المضاد للميثولوجيا حتى عندما تجعل، في حالة اليأس الموضوعي،

---

(9) Hans Vogt, *Neue Musik: Seit 1945*, p. 23.

(10) Theodor W. Adorno, "Strawinsky," in: *Gesammelte Schriften*, vol. 16, p. 386.

(11) يقارَن مع ص 431 في هذا الكتاب.

من ذلك اليأس همّها. الموسيقى لا تضمن وجود الآخر؛ لكن يبدو أنها، بالقدر ذاته، لا تستطيع أن تعفي نفسها من حقيقة أنها وُعدت بذلك الوجود. الحرية ذاتها ضرورة محايثة للموسيقى، وهذه طبيعتها الجدلية. أنكر شترافينسكي التزام الموسيقيّ بالحرية، ربما تحت طغيان اليأس الموضوعي، أي انطلاقًا من الدافع الكبير الذي يفرض على الموسيقى أن تصمت. إذا كان الأمر كذلك، فإن ما يكتبه سوف يكون في الحقيقة موسيقى خافتة. لكن ليس بمقدورها أن تحتمل تصور شخص بلا أمل، وكلما قدّمت موسيقاه نفسها بصيغة أكثر كثافة، تقلّ قدرتها على فعل ذلك"[12].

في عام 1957، رسم في دارمشتات اثنان من أهم ممثلي الموسيقى التسلسلية، هما كارل هاينتس شتوكهاوزن (Karlheinz Stockhausen) وبيير بوليتس (Pierre Boulez)، الأول بمقطوعته الموسيقية الجديدة الحادية عشرة على البيانو (Klavierstück XI)، والآخر بمحاضرة حملت عنوان "النرد" ("Alea")، رَسَما معالم بداية طور جديد من الموسيقى الأكثر جدةً، ألا وهي الموسيقى العشوائية (aleatorische Musik). وتعني "Aleatorik" قبول المصادفة في تأليف الموسيقى وتفسيرها؛ أي، على سبيل المثال، إمكانية استبدال أجزاء محددة من لحنٍ ما أو الأداء الارتجالي لأجزاء لم يثبتها الملحن إلا بخطوط عريضة. كما تعني أيضًا إدخال عناصر من الدادائية والزن البوذي إليها، خصوصًا من جون كيج وموريسيو كاغل. قام كيج في عام 1958 بتوجيه الضربة الحاسمة للأصولية التسلسلية بعرض "Imagery Landscape no. 4" التي كُتبت في عام 1951 لـ 12 إذاعة راديو، ولُحّنت بأربعة أرباع، وعُزفت بآلات موسيقية عادية، وأَنتجت "فوضى منظّمة" (هـ. ك. يونغهاينريش).

فسّر أدورنو هذا التطور على أنه نقد ذاتي للموسيقى التسلسلية المعادية للذات. وكان أكثر استعدادًا لرؤيتها على هذا النحو، لأن بعضهم أخطأ في فهم [مقالة] "تقادم الموسيقى الجديدة"، من حيث هو نقد للتركيب الموسيقي وللعقلانية الموسيقية. وهكذا رحّب أدورنو بالاتجاه الجديد بوصفه تركيبًا موسيقيًا متقدمًا نحو تأمُّل ذاته، ونصَّبَ نفسه مفكّره الطليعي. في محاضرة

(12) Ibid., pp. 386 ff.

إذاعية في عام 1960 بعنوان "فيينا"، رأى "الإصرار الذي لا يعرف المساومة على صيغة مبنية موضوعيًا تشدّ الذات إلى هذا الشكل، في حين يغتصب الشكل غير الملزم للكلاسيكيين المحدثين صلاحيته بطرد الذات بالقوة خارجه"، ورحّب بالموسيقى المعاصرة بوصفها تحريرًا لمدرسة فيينا الثانية من بقايا عناصر البرجوازية الصغيرة، وبوصفها شكلًا متقدمًا من التحرر. أفصح بجدلية، وعن طيب خاطر، عن تعاطفه مع إرادة التأكيد الذاتي التي تستعمل المهارات التنظيمية: "في العالم المسيّر لا يستطيع إلا ما هو مختلف أن يصمد؛ لا بل إنه لا يستطيع أن يجد صوته إلا عبر الإدارة ومن خلالها. هناك شيء من النفاق في الاستياء مما يدعى العصابات في ثقافة قانونها الكلي هو قانون الاصطفاء"[13]. كما رحّب في حقيقة أن الموسيقى الأكثر تقدمًا قد تحرّرت أخيرًا من تابو "الموضة". "لأول مرة، تضم الموسيقى تلقائيًا شيئًا إلى داخلها لا يتحقق بخلاف ذلك إلا موضوعيًا، من فوق رؤوس الأعمال نفسها: القيمة التاريخية للحقيقة الجمالية التي لا تتجسد، كما تريد النزعة التاريخية، في الزمان، بل يقيم الزمان نفسه فيها [...]. لهذا من الحماقة السخرية من سرعة التطور التي تتراءى إزاءها سرعة تطور النصف الأول من القرن كسرعة عربة البريد، أو السخرية من التغيير المتعجل للشعارات التي تتحرّق الاتجاهاتُ الأخيرة شوقًا إلى التضحية بها. يبدو أن الفن الراقي يتخلّص بعض الشيء من ادعائه الصنمي بالثبات والديمومة. وهو، في الوقت نفسه، يمارس نقد ذاته مستعملًا سرعته الخاصة به. تطوّر الموسيقى الجديدة إلى نظام - أي إدخال تقنية الاثنتي عشرة نغمة - أسّس لها قاعدة اعتباطية، لم تخضع على نحو خالص لقانون الموضوعية، بل فُرِض عليها هذا القانون من الخارج. يُنزع السم من هذه القاعدة الاعتباطية عندما يتوقف النظام عن التبشير بصلاحيته بجدية صارمة؛ وعندما ينهار النظام، ويسلِّم بانهياره، ويؤول عمليًا إلى ما كانت عليه التكعيبية، النظام العظيم الآخر في الفن الحديث؛ بمعنى أنه لا يصبح جوهرًا قائمًا في ذاته، بل يغدو ممرًا للنظام نحو الوعي المتحرر. إن المؤلفين الموسيقيين الذين استوعبوا المصادفة في القانون يتوقون، مرة بعد أخرى، إلى الإخلال بحرمة القانون"[14].

---

(13) Ibid., p. 451.

(14) Ibid., p. 453.

حاول أدورنو في صيف 1961، في محاضرته في كرانيششتاين، أن يدلّ الموسيقى الأكثر جدة على الاتجاه الذي يجب أن تتخذه: من "نحو موسيقى غير نظامية" ("Vers une musique informelle")، وصولًا إلى "نمط موسيقى الحرية"، وإلى قبول مشروع موسيقى لامقامية في المرحلة ما بعد التسلسلية. أصاب الذهول إدوارد شتويرمان، وهو مدرّس أدورنو للبيانو في فيينا وأحد كبار مفسّري مدرسة شونبرغ، وإرنست كرينيك، وهو محاور أدورنو منذ العشرينيات وأحد كبار مؤلفي الموسيقى الحداثيين الذين لم يتلقوا تعليمًا مختصًا. كتب شتويرمان إلى أدورنو بمناسبة عيد ميلاده الستين: "والآن أنت، مرة أخرى، الشاب الذي يماشي التيارات الأكثر حداثة، وأنا، الكهل، أصبحت اليوم محافظًا"[15]. وكتب كرينيك بصورة لاذعة أكثر: "يُنصَت لفيلسوف الموسيقى مع حبس النفس، وعندما تحمله قفزاته على الهبوط في أرض طليعية، يُحتفى به حليفًا مرحَّبًا به، على العكس من المؤلف الموسيقي الذي تلاحقه - إذا ما تعيَّن عليه أن يقفز إلى هناك - شبهة دأبه 'مدفوعًا بالقوة، إلى هذا الحد أو ذاك، إلى التعلق بما هو أكثر جدّة وحداثة، كي لا يغدو مستهلكًا' [...]"[16].

استهان المهنّئان بتمسك أدورنو وتوجّهه الثابت بشونبرغ وبرغ وفبرن الذين يستند إليهم بشكل ملموس دائمًا. لكن علاقة أدورنو بالتطور الأخير للموسيقى الطليعية قضية تثير الاستغراب. فلقد دعا إلى "استئناف العملية التي أوقفها شونبرغ، عندما دفع بها أبعد ظاهريًا من خلال تجديده العبقري"[17]، وإلى "الوقوف مع فكرة الحرية التي لا تقبل الطعن أو المساومة"[18] من جديد. وهذا، بلا ريب، أمرٌ لم يكن ممكنًا، بوصفه إعادة عَرض لأسلوب عام 1910. "لا يمكن المرء أن يواصل التلحين بلا كلل أو ملل، كما في الأعمال الأكثر جرأة لتلك الحقبة، أعمال شونبرغ الأكثر إنتاجية". ولماذا إذًا كانت موسيقى حرة إذا لم يقم النمط الذي جاء بعدها إلا بإلغاء الحرية مرة أخرى؟

---

(15) Eduard Steuermann, *Zeugnisse*, p. 360.

(16) Ibid., p. 361.

(17) أي تقنية الاثنتي عشرة نغمة.

(18) Adorno, *Gesammelte Schriften*, vol. 16, p. 498.

"بقايا ما كان في الماضي، كالعناصر الكروماتية[19] في اللامقامية الحرة، لم تعد محتملة كما كانت في ذلك الوقت، عندما لم تكن المطالب المحايثة للمادة محسوسة تمامًا بعد [...]. ويعود إلى شتوكهاوزن الرأي القائل بأن البنية الإيقاعية-المترية للموسيقى اللامقامية، وموسيقى شونبرغ بنغماتها الاثنتي عشرة، بقيت، بمعنًى ما، مقامية. هذا لا يمكن نسيانه بعد الآن؛ ولم يعد الاختلاف محتملًا"[20].

على الرغم من أن أدورنو كان لا يزال يرى في التقنية التسلسلية في الخمسينيات نظامًا يترافق مع نبذ المعنى الموسيقي، أي "تركيب اللحن"، فقد اعتبرها في الستينيات تقدمًا في تطور قوى الإنتاج الموسيقية، وتقدمًا في السيطرة على المادة والقدرة على التمييز بين الصواب والخطأ، أي باختصار، عملية تنويرية تستحق الترحيب. "في كرانيششتاين، صادف مرة أن أنتجتُ لحنًا، القصد منه توحيد جميع المقاييس، وتلافي التقريرية الموسيقية اللغوية، وتساءلت: 'أين المقدمة والخاتمة هنا؟'. هذا ينبغي أن يُصحح. لا يمكن تأسيس الموسيقى الراهنة على معايير تبدو ظاهريًا عامة، مثل المقدمة والخاتمة، كما لو أنهما غير قابلتين لاستبدال إحداهما بالأخرى. ليس مكتوبًا على الإطلاق أن الموسيقى يجب أن تحتوي قبْليًا عناصر تقليدية من هذا النوع، أو حتى حقولًا من التوتر والحل، أو الاستمرار، أو التطور، أو التناقض، أو التأكيد. ولا يختلف الحال أيضًا في أن بقايا كل هذا غالبًا ما تؤدي في المادة الجديدة إلى نشازات كبيرة، يكون تصحيحها نفسه محرك التطور"[21].

لكن ألا يكون ما يتبقى عندئذ مجرد كومة من الأصوات لا أكثر، بوسع المرء التلاعب فيها كيفما شاء، حتى بواسطة أشكال تقليدية أيضًا، أو الظن بأنه يمكن أن ينسب إلى نغماتها المصفاة من أي لمسات إنسانية قوى ميتافيزيقية، كما فعل، في الحقيقة، الملحنون الذين استلهموا الزن البوذي مثلًا؟ ثم ألا يتفق هذا بدقة مع الإضعاف الاجتماعي للفرد الذي شخّصه أدورنو منذ زمن طويل،

---

(19) نسبة إلى السلم الملوّن (الكروماتي) في الموسيقي. (المترجم)

(20) Ibid., p. 499.

(21) Ibid., p. 504.

والذي لم يسلم منه الملحنون أيضًا؟ و"في أنثروبولوجيا العصر الحاضر يُعدّ مطلب موسيقى لا تقبل المراجعة مطلبًا يفوق طاقة تحقيقه". أثبت هذا بالفعل أدورنو نفسه الذي تحدث أيضًا، مرارًا وتكرارًا، عن "الصعوبات المثبطة" التي تعترض الفن الجديد، غير أنه رأى في الموسيقى تحديدًا فرص الإنجاز الواقعية لاتجاه ثالث.

عرض أدورنو ما جال في خاطره، على نحو لا لبس فيه أو غموض إطلاقًا، في مثال عاد فيه من جديد إلى شونبرغ. ففي مقطوعة "الانتظار"، وفي الأعمال الشبيهة بها، اعتبر شونبرغ بوضوح معالجة التيمات والموتيفات[22] "شيئًا خارجيًا بالنسبة إلى تدفق الموسيقى العفوي، وشكلًا من أشكال التوظيف"[23]، تمامًا كما اعتُبرت الحتمية التسلسلية شكلًا من أشكال التوظيف منذ النصف الثاني من الخمسينيات. "لذلك فإن غياب التيمات أصبح ملازمًا للمونودراما. فهو لا يترك نفسه ببساطة للمصادفة، بل يصون في داخله روح معالجة الموتيف والتيمة إيجابيًا. وبهذا تتغير هذه المعالجة؛ أي إنها تتسع. في ضوء مفهومها الجديد يجب، من الآن فصاعدًا [...]، أن تُفهَم كل موسيقى تربط مركّبات جزئية ذات استقلالية نسبية برباط يقدمها بالضرورة من خلال خصائصها وعلاقة إحداها بالأخرى من غير أن يكون من الممكن، عمومًا، إثبات وجود تشابهات أو تنويعات في اللازمة. وهي بالطبع أيضًا ليست مكروهة بقسوة، ويُلمَّح إليها أحيانًا بأكثر الصيغ تسترًا. لا تفترض دوافع هذه الموسيقى وعلاقاتها سلفًا تنظيمًا قبْليًا أو مقدمًا، ولا حتى مبدأً كمبدأ التيمة مثلًا، بل تُنتِج، بدلًا من ذلك، الارتباط تلقائيًا. لذلك فهي تنحدر من التيمات، على الرغم من أن التيمات ليست معالجة فيها أو معالجة بطريقة متخلفة، ولا تتكرر أبدًا في فواصل زمنية"[24].

---

(22) الموتيف (Motif) هو أصغر فكرة موسيقية متشكلة من صوت موسيقي واحد، وهو المادة الأولية لبناء أي عمل موسيقي، والتيمة (Thema أو الموضوع الموسيقي) يمكن أن تتألف من موتيف واحد ويمكن لموتيف أن يتحد مع موتيف آخر أو أكثر لتشكيل تيمة واحدة. (المترجم)

(23) Ibid., p. 515.

(24) Ibid., pp. 515 f.

كان هذا مثالًا موضحًا. فتعابير مثل "الجريان العفوي للموسيقى" أو "دوافع هذه الموسيقى وعلاقاتها [...] تُنتج الارتباط من تلقاء نفسها" تدل الفهم، بأسلوب مجازي مكشوف ومن دون ادعاء نظري، على الاتجاه. فضلًا عن ذلك، كان المثال في ما تبقى محاولة للإحاطة لغويًا بما يمكن تعلمه من مقطوعة موسيقية كهذه لحل إشكالات التأليف الموسيقي الحالية: فالخبرات المختزنة والوعي الملموس لمشكلة تتيح حلولًا عملية. والطريق الذي يقود إلى مثل هذه الحلول لا يمكن أن يوصف إلا لاحقًا؛ لا بل حصرًا، بطريقة غير نوعية للغاية.

بيد أن أدورنو أراد أكثر من ذلك: أراد أن يحدِّد الطريق إلى الأسلوب الموسيقي للحرية. تقول الصياغة التي توصل إليها في ردة فعل على تجربة كرنيشتاين التي سبق الاستشهاد بها: "كانت هناك مكافئات[25] تُبنى بحسب حجم المادة الجديدة كي تؤدي هناك، بشفافية، ما أدّته تلك المعايير في القديمة على نحو لاعقلاني ذات مرة، ولهذا كانت غير ملائمة من فورها"[26]. لكن أدورنو، في تحديد هذه المكافئات، لم يتوصل إلى أبعد من إثبات أن "الأذن الملحّنة" وحدها هي التي يمكن أن تعثر عليها، الأذن التي عرفت كيف تصيخ السمع إلى الميول الثاوية في المادة. وبهذا انتهت جهوده النظرية، كما في **فلسفة الموسيقى الجديدة**، إلى الاستعانة بعنصر ذي طبيعة ثقافية. على أن أدورنو بهذه الاستعانة بـ "الأذن الملحّنة" لم يقم، مرة أخرى، إلا باستدعاء الصورة الجديرة للنحّات الذي يُخرِج من الصخرة الشكل الكامن فيها.

في [مقالة] "نحو موسيقى غير نظامية"، أكثر مؤلفاته في التنظير الموسيقي أهمية بعد **فلسفة الموسيقى الجديدة**، أطلق أدورنو الألعاب النارية لموتيفاته بكاملها على القارئ؛ إذ ينبغي أن يُحِلّ محل الجدل المميت بين عقل متحجر وطبيعة مقموعة الجدل المتحرر من السيطرة بين عقل نيّر وطبيعة زاخرة. فالعقل المتحجر كان قطعة منفصلة من الطبيعة، ولا يمكن أن يوجد إلا إذا اشتمل على طبيعة غريزية؛ لكنه بذلك يشتمل أيضًا - ما دام موجودًا - على إمكانية التحسن. فالطبيعة المقموعة كانت عمياء، وتنطوي على توق إلى النور،

(25) لمعايير الموسيقى اللغوية القديمة.

(26) Ibid., p. 504.

وليس بوسعها أن تشعل هذا النور إلا من خلال العقل. على هذا النحو، جاء كل الإشكال الرومانسي للدافع الأدورني في تحليله للموسيقى المعاصرة وآفاقها على صعيد جماليات الموسيقى. وجاء فيه أيضًا من فلسفة التاريخ جدل نزع الأسطرة وتسييل الذات، إضافة إلى الجدل اللاهوتي لموسيقى الجحيم وموسيقى السماء، الموسيقى السوداء والموسيقى الحرة، وأخيرًا مشكلة من أين كان للمرء أن يعرف متى كانت الأذن التي كثيرًا ما أخطأت في الماضي، تسمع تلقائيًا، وتكون قادرة في هذه التلقائية على إدراك إلى أين تريد المادة الذهاب من تلقاء نفسها؛ أي مشكلة إن كان يمكن الصلات بين الطبيعة غير المدرَكة في الملحّن والطبيعة غير المدرَكة في المادة أن تُقبل بوصفها الأساس النهائي؛ أو إن كان من الواجب أن تكون الكلمة الأخيرة لتفاهم خاطئ دومًا بين الذوات حول صيغة التلاعب الأكثر اعتدالًا. وفي هذه الحالة، يطرح نفسه مرة أخرى السؤال: ما الذي يدفع هذه الذوات إلى التفاهم في ما بينها، ويجعلها، إلى جانب ذلك، حريصة على الاعتدال؟

هذا النوع من التفلسف المثقَل و"التفكير الجريء"، كان ضروريًا بوضوح لصوغ مرافعة نظرية لـ "التأليف الموسيقي المليء بالمغامرة"[27]، وقول حكم قديمة بطريقة جديدة لم يعرضها في الموسيقى أحد غيره من قبل بهذا الإلحاح.

ملاحظات في الأدب

لم يوجد في فن الرسم والأدب الألمانيين الغربيين شيء يشبه مدرسة دارمشتات، ولم يكن هناك من تجمُّع يمكن أن يشكّل مركز تبلور الطليعة العالمية. فمثلًا مجموعة "زِن 49" في ميونيخ التي أسّسها فيلي باومايستر وفريتز فينتر وروبرشت غايغر، عكست الحاجة إلى التعويض في مجال فن الرسم التجريدي. لم يمثل المدافعون عن الشعر المجسَّد[28] الذين كانوا ينشرون

(27) Theodor W. Adorno, "Adorno über Mahler," in: *Gesammelte Schriften*, vol. 16, p. 329.

(28) مدرسة شعرية اشتهرت بعد الحرب العالمية الثانية تحت اسم الشعر المُجسَّد أو البصري لصلته بالفن التشكيلي. يعتمد هذا الشعر على ترتيب العناصر اللغوية للقصيدة في شكل من الكتابة يساهم في توصيل المعنى المراد بطريقة تعجز عنها الدلالات اللفظية للمفردات، ولهذا اعتبر أقرب إلى التجسيد البصري. (المترجم)

"نصوصهم" بصورة رئيسية في مجلة *Material* **(ماتيريال)**، انطلاقًا من اهتماماتهم قبل كل شيء، إلا قطاعًا محدودًا جدًا من الأدب. كانت الأعمال الأدبية الراقية نادرة في الجمهورية الاتحادية، وبقيت شأنًا يخص أفرادًا محط خلاف. كتب فولفغانغ كوبن (Wolfgang Koeppen) رواياته **حمام على العشب** (1951) **وبيت الغرائز** (1953) **والموت في روما** (1954) التي تدين بالتقنية والشكل واللغة إلى فوكنر وجويس ودوس باسوس، كما كانت، في الوقت نفسه، ردًا على صدمة النازية وعقلية إعادة البناء التي تميزت بكبت الذكريات المأساوية. كانت كتبًا وُجِد فيها "خوف وقليل من الأمل" (كوبن). لكن روايات كوبن فُهمت سياسيًا على نحو مباشر. كما جاء في تعليق صحيفة *Welt am Sonntag* **(فلت أم زونتاغ)** على روايته **بيت الغرائز**: "هذا الكتاب لا يمكن لمسه إلا بملقط الجمر". صمد كوبن بعد عام 1933 – كما فعل أدورنو سنوات طويلة – حين عاش غالبًا خارج البلاد، لكن من غير أن يهاجر؛ لا بل نشر روايتين في منتصف الثلاثينيات، صدرت الرواية الثانية **الحائط يهتز** عن دار نشر برونو كاسيرر اليهودية التي قام الناشر بحلها في عام 1935. التجأ كوبن في أثناء الحرب، بلا مال ولا أصدقاء في الولايات المتحدة، إلى صناعة الأفلام. في ألمانيا الاتحادية وقف وحيدًا، ولم ينتمِ إلى أي حلقة، ولم يشكّل مدرسة من أي نوع.

وكان الحال مشابهًا مع هانز هِني يان (Hans Henny Jahnn) الذي نشر في العشرينيات مسرحيات تعرضت لنقد عنيف (كتب ألفرد كِر في 5 أيار/ مايو 1926 في *Berliner Tageblatt* **(صحيفة برلين اليومية)** حول تراجيديا **ميديا** (*Medea*): "تأخذ هذه الحكاية المخيفة عن شاب ألماني خط [أوبرا] 'إلكترا' لهوفمانزتال على نحو ماجن ومظلم نحو الوحشية الأخيرة)، ونشر **بيروديا** (*Perrudja*)، الرواية الانطباعية الوحيدة والفريدة في نوعها. في عام 1933، حُظرت جميع أعماله دفعة واحدة. ففرّ إلى المنفى في الدنمارك، وأقام في جزيرة بورنهولم. صدر له في عامي 1949 و1950 **المركب الخشبي، ومحاضر غوستاف أنياس هورن بعد أن أصبح في التاسعة والأربعين** في جزءين، والمقدمة، والجزء الرئيسي من ثلاثيته الروائية **نهر بلا ضفاف** التي تطغى عليها السوداوية والفجور. وفي عام 1956 صدرت روايته القصيرة **ليلة**

من الرصاص. وفي الخمسينيات كرّس يان - الذي كان أيضًا صانع أورغن، وباحثًا في الهرمونات، ومقدم ألحان قديمة، والذي وقف معارضًا إساءة معاملة الحيوانات وإهلاكها - قواه للكفاح، بصورة رئيسية، ضد القنبلة الذرية. كما ناضل أيضًا بمفرده في عملية "إعادة البناء" في الجمهورية الاتحادية (Rühmkorf). في مناقشات دارمشتات عام 1950 حول **صورة الإنسان في عصرنا**، كان يمكن لأدورنو ويان أن يلتقيا، ومن المحتمل أن يكونا قد التقيا. وإذا حصل والتقيا، فلا بد من أن يكون يان العديم التهذيب تمامًا، والعاجز عن مراعاة الرأي العام والأخلاقيات الاجتماعية، في أحسن تقدير، قد أخاف أدورنو، على الرغم من قربهما، في ما يخص جذرية نقد الحضارة لمصلحة العلاقة التبادلية بين الغريزة والعقل والتأمل الذاتي للناس في انتمائهم للخَلق. وهو يُعدّ من بين الأشخاص المنفردين الذين يقوم عليهم **جدل التنوير** و**أخلاق صغرى**، لكنهم في الواقع يثيرون ريبة هوركهايمر وأدورنو أيضًا (يان الذي توفي في عام 1959، دافع عنه في ما بعد، في النصف الثاني من الستينيات، بحزم كبير وحجج أدورنية، فيلهلم إمريش، تلميذ أدورنو في حقبة ما قبل النازية).

ليس لأن هناك حدودًا لتركيزه وقوة عمله فحسب، أو لأنه في الفن على الأقل أراد أن يسترشد بميوله الشخصية ورغباته، اكتفى أدورنو في الخمسينيّات بإظهار تأويله للآثار الفنية من منظور فلسفة التاريخ والمجتمع بحذر، في مواجهة الاتجاهات الأخرى الأدبية النظرية والنقدية السائدة في ألمانيا الغربية وباستخدام ممثلي الحداثة الكلاسيكية ورواد الحداثة مثالًا على ذلك.

مثّلت محاضرة "الشعر الغنائي والمجتمع"، التي أُلقيت بين عامي 1951 و1958 ونُشرت بنسخ مختلفة أيضًا، بطريقة ما النسخة المتزنة من مقالة "عن الوضع الاجتماعي للموسيقى" التي اقتحمت المعترك الأدبي بحذر أكبر (والأخيرة كانت، إلى جانب "في الموسيقى الجماهيرية"، مساهمة معهد البحث الاجتماعي الوحيدة التي لم يُعِد أدورنو نشرها في ألمانيا الغربية). كانت وجهة نظره أن التأويل الاجتماعي للقصائد - كان أدورنو يقدم أفكاره الأولى التي استلهمها من هيغل ولوكاتش والداعية إلى إسباغ الطابع التاريخي على الجمال، والتي كانت جديدة في ألمانيا الغربية في الخمسينيات - يعني

قراءة القصيدة بوصفها "ساعة شمسية تاريخية فلسفية"، ومظهر "المجتمع برمته، ووحدة تنطوي على تناقضات، في داخل العمل الفني"؛ وكتعبير عن "العلاقة التاريخية [...] بين الفرد والمجتمع في وسط [...] العقل الذاتي"[29]. تعود إلى الظهور هنا، مرة أخرى، طريقة أدورنو في التعبير عن المبادئ المألوفة للفنانين وفلاسفة الفن: على المرء أن يكتب القصيدة ممتلئًا بتجربة الواقع الاجتماعي، والحلم نصب عينيه، متحسسًا "الصوت [...]، الذي يتوحّد فيه الألم والحلم"، مقتنعًا "أن السلام لا يتحقق، ما لم يتشظَّ الحلم"[30]. ويجب أن ينظم المرء الشعر غارقًا في الفردية، كي يتحرر من الحدود ويتقاسم في اللغة، باعتبارها وسط التيار الخفي الجمعي، والوسط العام المحبّ للخير والإنساني غير المشوَّه[31].

عرض أدورنو، مستعينًا بقصيدة إدوارد موريكه "في نزهة" وقصيدة شتيفان جورج "في نسيج الريح" من مجموعة قصائد **الخاتم السابع**، ما الذي يعنيه تحديد اللحظة التاريخية التي تسجلها قصيدة من خلال تفسيرها الاجتماعي. فقد رأى في موريكه بداية مرحلة لم تكن ممكنة في الشعر إلا من حيث هي استعادة قلقة وهشة للحلم من الحياة المباشرة في مجتمع كان يتوجّه، أكثر فأكثر، إلى تحطيم هذا الحلم. ردّ الشعر على صعوبة استعادة الحلم بعملية تطهير الوسيلة لحماية الحلم ودقته. "قصائد قسّ كليفرزولتسباخ المصاب بالتوهُّم المرضي [الهُجاس]، والذي كان يُنظر إليه عادة بوصفه فنانًا ساذجًا، هي مقطوعات رائعة لم يسبقه إليها من قبل أيٌّ من أساتذة الفن للفن[32]. إن خواء الأسلوب الراقي وأيديولوجيته يبدوان له راهنين مثل الأسلوب المتواضع خلال حقبة حركة بيدرماير[33] برتابتها البرجوازية المتعامية عن الكل، التي كَتب

(29) Adorno, *Gesammelte Schriften*, vol. 11, pp. 60, 51, 55.

(30) Ibid., pp. 54, 58.

(31) Ibid., pp. 50, 56, 58.

(32) وردت بالفرنسية في النص: l'art pour l'art. (المترجم)

(33) بيدرماير (Biedermeier) مصطلح يستخدم للدلالة على الأساليب الفنية التي ازدهرت في مجالات الأدب والموسيقى والفنون البصرية والتصميم الداخلي في ألمانيا وأوروبا الوسطى في النصف الأول من القرن التاسع عشر. (المترجم)

في أثنائها معظم شعره الغنائي. فالأسلوب الراقي يدفع العقل فيه إلى خلق صور أخرى لا تكشف عن نفسها في ثنايا صالون الاستقبال، ولا في الركن الذي يجمع الأصدقاء في الحانة، ولا في اليقين أو التشدّق. وتخفت فيه الأصداء الأخيرة للأسلوب الراقي، لتبقى مجرد ذكريات مجدولة على أخدود ضيق، لكنها موصولة بكل رموز الحياة المباشرة التي بشّرت بالمصادقة في اللحظة نفسها التي كان اتجاه التاريخ قد أنكرها فيها. وكلاهما لا يرحّب بالشاعر، في نزهة، إلا في تلاشيهما. فهو يملك سلفًا حصة في تناقض الشعر الغنائي في عصر الصناعة القادم"[34].

في الوقت نفسه تقريبًا - ولأن أدورنو فسّر قصيدة موريكه "في نزهة" الأقرب إلى الشعر الحر - قدّم إميل شتايغر (Emil Staiger) تفسيرًا لقصيدة موريكه "على مصباح"، وهي نوع من حياة شعرية صامتة في تفعيلة على الوزن الثلاثي. كان شتايغر الأكثر تأثيرًا بين النقّاد الأدبيين الذين نشروا بعد عام 1945 أعمالًا أصبحت مراجع لما أُطلق عليه التفسير المحايث للنص. هذه الطريقة التي منحت النقّاد من أمثال ماكس كوميريل إمكانية الإفلات من المتطلبات والشروط الأيديولوجية إبان الحكم النازي، أصبحت بعد عام 1945 وسيلة إفلات من فهم جديد فعليًا يتمتع بشعبية واسعة. في المدخل إلى دراسة الأدب، قدم فولفغانغ كايزر هذا الاتجاه في التفسير في كتابه التعليمي المرجعي **العمل الفني اللغوي** الذي صدر في عام 1948. وضع شتايغر - اعتمادًا على كتاب هايدغر **الكينونة والزمان** - في مؤلَّفه **مفاهيم الشعرية الأساسية** الذي نُشر بدايةً في عام 1946، مشروع "شعرية أساسية"، أي فينومينولوجيا الجوهر المثالي الخالص للشعر الغنائي والملحمة والمسرح. وفيه رأى أسماء أو مصطلحات أدبية نقدية لممكنات عامة للإنسان من ناحية، وفضاءات لإمكانات نظم الشعر المتنوعة من ناحية أخرى. كان التأويل في نظره يعني تقديم الدليل من نص القصيدة الذي يخاطبنا بجمالية خاصة، وينال إعجابنا به؛ أي أن نثبت "كيف يتوافق كل شيء في داخل الكل، وكيف يتوافق هذا الكل مع التفاصيل"[35]،

(34) Adorno, *Gesammelte Schriften*, vol. 11, p. 63.

(35) Emil Staiger, *Die Kunst der Interpretation*, p. 15.

وذلك عبر الاستعانة بعلم اللغة، وسيرة الشاعر، وتاريخ الروح، والتاريخ، أي بالإنجازات المختلفة لما يُدعى العلوم الأدبية الوضعية. استقى شتايغر الأبيات التي اختارها من أشعار موريكه صورةَ شاعر وقف على عتبة عصرَين، عند نهاية الرومانسية وبداية حقبة آلمته رتابتُها. "وحده، الشاعر، يدركه[36] في جماليته التي لا تجذب الانتباه. لقد دخل من الخارج. وجاء هو نفسه من عالم العمل اليومي الذي أضاع أحلامه، كما أضاع أحلام غيره. فمن يقدر على مقاومة روح العصر؟ بيد أن الأعضاء النبيلة لعقله لم تمت تمامًا بعد. وهي ستتأثر الآن بالعمل الفني. وفيما يتوقف الشاعر أمام المصباح، ينهض عالم الماضي الجميل ثانيةً، ويبدو راهنًا مرة أخرى، أو يبدو 'مُتلفّعًا بإغواء الغرابة' - كما يحلو للمرء القول - كي يستعمل تعبيرًا من قصيدة 'ذكرى إلهية'. فالشاعر نفسه لم يألف شيئًا كهذا منذ زمن طويل. لكن الجميل ما زال يدهشه، كما تدهشنا أبياته الشعرية. نعتقد الآن أننا نفهم الدهشة، بالمعنى الحرفي للكلمة، على نحو أفضل، انطلاقًا من الوضع التاريخي المعاصر لموريكه. فهو لا يوصل التيار الكهربائي بوصفه السيد في هذا البيت الذي يتدلى المصباح من سقفه. هناك يبدو أنه لا يوجد سيد على الإطلاق. مع ذلك فهو ما زال يحس بنفسه منتميًا؛ إذ إنه يجازف، أو شبه يجازف، في اعتبار نفسه مطلعًا. قد يكون هذا بالضبط ما يُنتِج هذا الخليط من الألم والجمال الذي يسبغ على القصيدة سحرها"[37].

رأى اثنان من المفسرين يتمتعان بالموهبة ذاتها تقريبًا شِعْر موريكه بالطريقة نفسها، في ما يخصّ نقاطًا أساسية محددة وملموسة. أدورنو، من جهته، كان يواجه تهمة أن الخوف من السقوط في النزعة الاجتماعية القاسية جعله يرتقي بعلاقة الشعر والمجتمع إلى حدٍّ لم يتبقَّ معه شيء منها. أما شتايغر فقد عبّر صراحة عن عدم استعداده للسماح لإحساسه المباشر بتقييد الخاصية الفردية التاريخية للقصائد بأي أُسس من الشعرية. أحدهما يخشى علمَ اجتماع الأدب، والآخر لا يهاب ربط الشعر بالتاريخ المعاصر. لكن أين كان يكمن الاختلاف بينهما؟

---

(36) الشكل الفني، أي المصباح.

(37) Ibid., p. 27.

كان تفسير شتايغر رصينًا؛ إذ يطغى عليه مزاج البحث عن العظمة في قبول المعطى من خلال عقول كبيرة، والإعجاب بـ "كون الإنساني نفسه مفتوحًا أمام الإنساني، بعيدًا عن صدوع الأمكنة والأزمنة"[38]، وتسود فيه مشاعر التواصل النيتشوية من ذروة إلى ذروة. في حين كان تفسير أدورنو مسكونًا بقلق البحث عن وسائل التعبير الفني. كان موريكه، بالنسبة إلى أدورنو، معاصرًا في ما أراد تحقيقه؛ ورأى فيه رائدًا في الكيفية التي يريد تحقيق ما يسعى إليه، ومثالًا على كيف أنه لم يعد ممكنًا تحقيقه. في مثال موريكه، حاول شتايغر، كفنان ومنظّر للفن، الوصول إلى فهم أفضل لوسائل متحولة في ضوء ظروف اجتماعية متحوّلة، يمكن أن تمنح التعبير الفني النجاح على نحو أفضل مما هو الحال عند موريكه. في الحقيقة، لم يكن تفسير أدورنو أكثر اجتماعية، بل محكومًا بفكرة من **جدل التنوير**، تفيد بأن دقة وسائل التعبير الفني يفرضها شكل متناقض من تقدم المجتمع، ويجعلها ممكنة. لكن ذلك هو ما منح أعمال أدورنو الأدبية النظرية درجة من الصلة الاجتماعية، واهتمامًا في أحداث محلية، وزخمًا من التزام مشروع الحداثة في الفن الذي يسبق قيام المجتمع الحر؛ هذا الزخم الذي غاب في الخمسينيات عن معظم ما نُشر من أعمال أخرى في نظرية الأدب.

غاب هذا الزخم أيضًا، على سبيل المثال، عن كتاب هوغو فريدريش **بنية الشعر الغنائي الحديث** الذي صدر في عام 1956، وبيع منه في الخمسينيات 60,000 نسخة. كان فريدريش - وهو أستاذ الفيلولوجيا الرومانسية في فرايبرغ في برايزغاو، وفي مثل عمر أدورنو - مهتمًا بإظهار الوحدة البنيوية للشعر الغنائي الأوروبي الحديث من طريق أمثلة ذات صلة بالموضوع، بدءًا من بودلير وصولًا إلى إليوت (T. S. Eliot) وسانت جون بيرس (Saint-John Perse). اعترف في المقدمة: "أنا نفسي، أيضًا، لست طليعيًا، أشعر بالعافية مع غوته أكثر من ت. س. إليوت. غير أن هذا ليس مهمًا. ما يهمني هو معرفة أعراض الحداثة الجسور القاسية [...]"[39]. مستقيًا معاييره من الشعر الأقدم أو، بدقة أكثر، من أشكال الشعر القديم التي تُعدّ، بحسب الذائقة السائدة، مثالًا يحتذى به، أراد فريدريش أن يسمّي عناصر الشذوذ في الشعر الغنائي الحديث، فرآها تعبيرًا

---

(38) Ibid., p. 30.

(39) Hugo Friedrich, *Die Struktur der Modernen Lyrik*, p. 8.

عن النفور من مجتمع مأخوذ بالتقدم المادي، وضد قيام العلم بنزع السحر عن العالم. كان التفسير الوحيد الذي رآه لمظاهر هذا الاشمئزاز بالطريقة الشاذة التي وصفها يتمثّل، عند ممثلي الحداثة البارزين مثل مالارميه، في حقيقة أنها كانت شكلًا من عدم الرضى بعالم كان يميل دائمًا إلى النهوض في العقول المتفوقة[40]. ورأى في ما تبقى "فرضًا لأسلوب وبنية" في العمل[41]. كانت هذه طريقة تأمُّل تسعى للحيادية من شخص لم يستطع أن يرى في الشعر الحديث تعبيرًا عن التجارب التي لا تتوقف عن إزعاجه، أو ساعة شمسية تاريخية فلسفية، بل رأى فيه فقط - أو إلى حد ما - ظاهرة غريبة بقي إلى جانبها التقليد المكرَّس قائمًا من غير أن تُنتقَص صلاحيته.

كان الأمر خلاف ذلك بالنسبة إلى شخص آخر كان هو نفسه شاعرًا، أعني غوتفريد بن (Gottfried Benn). كان غوتفريد مدافعًا متحمسًا عن الشعر الحديث، أي عن فن القصيدة واستقلاليتها، ولم يكن يخفي كرهه للوسطية التي لطالما أسِف لفقدانها بشدة منظِّرو الفن المحافظون، أمثال هانز سِدلماير. "كلمة الشعر لا تمثل صورة أو فكرة أو مثالًا؛ إنها وجود في ذاتها، وتعبير وملمح ونَفَس"، كما جاء في عقيدة بِن الذي رأى أدورنو في عام 1964 في رسالة كتبها إلى بيتر رومكورف (ردًا على مساهمته في كتاب أدورنو التذكاري) أنه "أشعل [أي بِن] أمرًا فظيعًا، لكن لا يزال له، بمعنى سياسي أرقى، علاقة بنا أكثر من كثيرين غيره"[42]. على أن عبارة 'بمعنى سياسي أرقى' تعني بالتأكيد: بمعنى سياسي فني.

في عام 1933 رحّب بِن بالدولة الشمولية، بوصفها شكل الدولة التي تتطابق مع القصيدة المستقلة. وفي كلمة إذاعية في 24 نيسان/ أبريل 1933 رأى أن "كل ما جعل الغرب مشهورًا، وحدّد تطوره، ويؤثر فيه إلى اليوم، إنما نشأ - إذا أردنا أن نعبّر عن ذلك مرة بوضوح - في دول العبيد [...] والتاريخ يزخر بمشاركات تجمع بين ممارسة السلطة الفرعونية والثقافة؛ وتدور الأغنية

---

(40) Ibid., p. 86.

(41) Ibid., p. 107.

(42) Peter Rühmkorf, *Die Jahre, die ihr kennt*, p. 153.

حول ذلك مثل قبة السماء المزيّنة بالنجوم [...]"[43]. في عامي 1948 و1949 قدّم بِن بكتابيه **قصائد ساكنة** و**طوفان غامر** شهادة على استعادة الماضي. استقبل كثير من الشباب برضًى محاضراته الرائعة ومقالاته في نظرية الشعر، وخصوصًا منها محاضرته "مشكلات الشعر الغنائي" التي ألقاها في جامعة ماربورغ عام 1951، بوصفها جديدًا ينطوي على طرافة وإثارة. وفي تشرين الأول/أكتوبر 1951 حاز بِن جائزة غيورغ-بوشنر بعد أن أوضح، بلا لبس أو غموض، قبل ذلك بعام، بنشره مؤلَّفه **كتابات نثرية مبكرة وخطب** أنه لا يزال - كما كان سابقًا - يرى في دولة العبيد الأرضية الملائمة لشعره.

"انتصر إنسان الغرب في عصرنا على الشيطاني من خلال الشكل". هذا ما كتبه في "مديح شتيفان جورج" الوارد في الكتاب الأخير. "يمكنك أن تدعو دائمًا الشكل تهجينًا، أو نظامًا، أو معيارًا، أو ضرورة ترتيب. جميع هذه الكلمات أصبحت مألوفة بالنسبة إلينا، لأن الحركة التاريخية تحاول باسمها، أيضًا، أن تشكّل ذاتها. وهذا هو مجال فن جورج"[44]. في عام 1934، ورد في الطبعة الأولى "شكّلت" بدلًا من "تحاول أن تشكل". وقد اعتبر بِن أن قليلًا من التغيير ضروري لنشر العمل من جديد، ليس بوصفه وثيقة، بل بوصفه عملًا سابقًا لا يزال صالحًا للنشر. ومن دون تغيير يُذكر، أَمل أن يعود من جديد ما كان قد رحَّب به على الفور وهلّل له بحماسة في عام 1933. وعقل العصر الجديد الذي كان قد رآه في عام 1934 حيًّا "في فن جورج، وفي إيقاع رتل كتائب القمصان البنية، بوصفه قيادة واحدة"، رآه في عام 1950 يحيا "في فن جورج بوصفه قيادة واحدة". لم يحذف إلا "وفي إيقاع رتل كتائب القمصان البنية"، لأنها، في الحقيقة، كانت قد توقفت عن السير عند الإصدار الجديد للكتاب.

كان التزام أدورنو الحداثة الفنية كبيرًا، بحيث إنه لم يرَ خصمًا في بِن، ولا في أولئك الذين رفضوا الفن الحديث، واتخذوا مواقف محافظة أو رجعية. كما أن المشكلة التي اعترضت بنيامين ذات يوم في ضوء الافتتان المستجد

---

(43) Gottfried Benn, "Der neue Staat und die Intellektuellen," in: *Gesammelte Werke*, vol. 1, p. 447.

(44) Ibid., p. 473.

بِن وإرنست يونغر - ذلك الافتتان الذي برز في السنوات الأولى للجمهورية الاتحادية، وكان سائدًا في الخمسينيات أيضًا - أي مشكلة وجود نوع من حداثة فنية ترتبط بالفاشية، لم تبدُ لأدورنو ملحّة على نحو خاص؛ إذ كانت الأولوية، بالنسبة إليه، لأعمال الطليعيين ووجهات نظرهم التي استطاعت أن تثير الاضطراب، وتجعل الفن مستقلًا عن ميول أو أهداف استفزازية. لم يكن الفن الطليعي، بالنسبة إليه، أكثر أهمية من مجتمع حر. لكن حماسته لموسيقى جديدة، والنظرة النقدية للواقع الاجتماعي، جعلتا تقدُّم الفن يبدو في نظره أكثر قربًا. فإذا منح الفن مرة - هكذا قد تبدو قناعته الأخيرة - الواقعَ الأخير الميؤوس منه تعبيرًا أصيلًا، عندئذ لا يستطيع الواقع أن يصمد طويلًا.

لم يقم أدورنو بنقد محايث للحداثة المتطورة في مجالي الأدب ونظرية الأدب مشابه لـ **فلسفة الموسيقى الجديدة**، ولم يحاول التمييز بين التقدمية والرجعية. كان تلميذ إميل شتايغر، بيتر صوندي (Peter Szondi)، هو من قدّم، متأثرًا بـ **علم الجمال** الهيغلي، ومقالة لوكاتش "في علم اجتماع الدراما الحديثة"، و[كتاب] **فلسفة الموسيقى الجديدة**، في كتابه **نظرية الدراما الحديثة** الذي صدر في عام 1956، كيف كان تحليل جدل الشكل والمضمون في الأعمال الفردية، من دون آفاق لاهوتية ومسيانية، قادرًا على تبيان أن معالجة المشكلات التقنية في الأعمال هي، في الوقت ذاته، ردة فعل على مشكلات اجتماعية. في تحليل المسرحيات الدرامية من هنريك إبسن إلى آرثر ميلر، أظهر صوندي ذو الخمسة والعشرين عامًا كيف يؤدي التناقض بين الشكل الدرامي والموضوع الملحمي، وبين إطار يقوم على تواصل حواري وعزلة الإنسان التي تفرض نفسها بوصفها مشكلة في نهاية المطاف، إلى مبدأ شكل جديد للدراما. يقود موضوع الحاضر المتغير - وهو مغزى تحليل صوندي الجدلي الفينومينولوجي - المؤلفين المسرحيين إلى عالم أشكال جديد، بمعزل عن الكيفية التي يقوّمون فيها الحاضر في ما لو واجهوه عمومًا.

أصبح أدورنو في مطلع الستينيات من مناصري مواقف الحداثة المعاصرة في الموسيقى والأدب. فكتب إلى هوركهايمر في أوائل عام 1958 بعد عودته من رحلة إلى فيينا: "كان الانطباع الفني الأكثر أهمية هو عرض **نهاية اللعبة** لصامويل بيكيت الرائع بالمعنى الحرفي للكلمة. إنه في الحقيقة نص مهم،

يجب أن تقرأه حتمًا، لا لشيء إلا لأن بعض أهدافه ذات صلة وثيقة جدًا بأهدافنا. وهي لذلك غير مريحة أيضًا، بحيث كانت هناك أصوات مستنكرة"[45].

أصبحت مسرحية بيكيت **نهاية اللعبة** وعمل هانز هلمز *FA: M'AHNIESGWOW*، بالنسبة إلى أدورنو، دافعًا للاعتراف بتقدُّم في الأدب يتخطى بروست وكافكا وجويس. في رأي أدورنو، كانت **نهاية اللعبة** لبيكيت، بالنسبة إلى روايات كافكا، و*FA: M'AHNIESGWOW* بالنسبة إلى **يقظة فينيغان** ما كانته الموسيقى التسلسلية بالنسبة إلى شونبرغ، واللامقامية وتقنية الاثنتي عشرة نغمة[46].

ومثلما جعل مؤلفو الموسيقى التسلسلية مبدأ التسلسل مطلقًا، كذلك أيضًا جعل بيكيت وهلمز مبدأ أسلافهما مطلقًا، وحاولا تحقيق ضرورة متحررة من الذات تحيط بجميع جوانب العمل. انضم بيكيت الذي ينتمي إلى جيل أدورنو عام 1928 في باريس إلى دائرة أصدقاء جويس، وكان في عام 1942، بوصفه عضوًا في مجموعة للمقاومة، يوشك أن يُعتقل من الغستابو، جهاز الاستخبارات النازي، وعاش حتى تحرير فرنسا عاملًا في مزرعة في قرية جبلية في جنوب فرنسا، وقد أفلح في عام 1953، بعد نشاط أدبي دام قرابة 25 عامًا، في تحقيق نجاح كبير بمؤلفه **في انتظار غودو**، وهو مسرحية كانت، بالنسبة إليه، منتجًا جانبيًا لعمله الفعلي، أي العمل الروائي، إذ كان يعمل في ذلك الحين على ثلاثية روائية، كتب الروايتان الأوليان **مولوي** (*Molloy*) **ومالون يموت** (*Malone meurt*) في عام 1948، وكتب الرواية الثالثة **اللامسمى** (*L'innommable*) في عام 1949. اختتمت رواية **اللامسمى** بالكلمات: "في الصمت لا يعرف المرء، يجب عليه أن يواصل الفعل، وأنا سوف أواصل الفعل". واصل بيكيت العمل في كتابة المسرحيات والنصوص التي تُنتَج فيها، من غير أن يتداعى معنى الكلمات الاستدلالي تمامًا، الصلة بين مجموعات الكلمات العارية دائمًا أكثر فأكثر من خلال التنظيم الصوتي، واللازمة الأساسية، والتكرارات، والتماثلات والصدى، وفي المسرحيات من خلال الحركات والتمثيل الإيمائي.

---

(45) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، فرانكفورت، 17 نيسان/ أبريل 1957.

(46) Theodor W. Adorno, "Versuch, das Endspiel zu Verstehen," in: *Gesammelte Schriften*, vol. 11, p. 303; Theodor W. Adorno, "Voraussetzungen. Aus Anlaß einer Lesung von Hans G. Helms," in: Ibid., p. 440.

كُتِبت **نهاية اللعبة** في أواسط الخمسينيات، وكانت نسخة أكثر مرارة من **في انتظار غودو**: دوران في الهاوية، لكنها مع ذلك لعبة. تَبني أصنافُ المسرحيات التي تُعالَج بأسلوب المحاكاة الساخرة ومبادئ الشكل الموسيقية حدًا أدنى من المضمون. في **نهاية اللعبة**، على سبيل المثال، كان هناك حوار ذاتي، لكنه لم يكن إلا مجرد تلميحات معطلة وجوفاء. فلم تُرفع ستارة، بل أزاح هام (Hamm) منديلًا عن وجهه. ما نتج كان مسرحية لا رحمة فيها، مقارنة بكل ما لم يحصل بعد "النهاية"، وعلى الرغم من ذلك، تأخذ كل شيء ما عاد ممكنًا قبوله لتقدمه على خشبة المسرح. أصبح إخراج المسرحية التي شارك فيها بيكيت عمله المتواصل، وترافق مع تغييرات صغيرة كثيرة أخذت جميعها الوجهة ذاتها. وجاء في تقرير ميشاييل هردتر حول العروض التجريبية للإخراج البرليني لـ **نهاية لعبة** عام 1967: "حَدثَ شيء يستدعي الاستغراب في الأسابيع الثلاثة الماضية. لقد صنع بيكيت لـ **نهاية اللعبة** عرضًا مسرحيًا مشدودًا عبر التبسيط وتكرار اللازمة الأساسية وجعلها إيقاعية. لن تكون ضوضاء عبثية تعلم الناس الخوف، بل ستكون شيئًا، خارج تقاليد المسرح نوعًا ما، يتسرّب في وحدته المتبلّرة تحت الجلد"[47]. من الصعب أن يكون هناك تأكيد أفضل مما كتبه أدورنو في تحليله للمسرحية عام 1961: "سير الحوار [...] يبدو كما لو أن قانون تواصله ليس منطق الكلام والكلام المقابل، وليس تداخله النفسي، بل شكلٌ من الإنصات لخاتمة شبيهة بتلك التي توجد في الموسيقى التي تتحرر من النماذج المعطاة. فالدراما تسترق السمع إلى ما يأتي من جملة بعد أخرى"[48].

جعل بيكيت التكرارات والتماثلات المنظمة موسيقيًا تُلتقط من خلال عفوية مزعومة. ومثلما هي الحال عند ألبان برغ الذي اتبع في تلحينه تقنية النغمات الاثنتي عشرة، لكن بطريقة وجدت فيها العناصر المقامية مكانًا لها، كذلك كان في مسرحيات بيكيت لمقادير كثيرة مقام أيضًا مع معنى لاذع، وإن كان غريبًا في الموقع المعني في المسرحية، من خلال السخرية والسأم والكلام الطنان الأجوف. في **نهاية اللعبة** كانت هناك، على سبيل المثال، فقرات كهذه:

(47) Clancy Sigal et al., *Materialien zu Becketts Endspiel,"* p. 85.

(48) Adorno, *Gesammelte Schriften*, vol. 11, p. 308.

"- هام (تاركًا قلنسوته): ماذا يفعل؟

(كلوف يرفع غطاء صندوق ناغ، ثم ينحني).

(صمت)

- كلوف: (يبكي).

(كلوف يغلق الغطاء، ثم يستوي).

- هام: إذًا فهو حي. (صمت)"[49]

في نظر أدورنو، كان نص هلمز أكثر تقدمًا من نصوص بيكيت. راهن جويس أساسًا على علاقة تداع موجهة نفسيًا أو بعلم نفس اللاشعور، في حين كان هلمز يراهن على علاقة تداع موجهة فيلولوجيًا. لكن هذا يعني الرهان على سعة العلم والاطلاع. الغريب أن أدورنو ساوى بين ما وصفه هو نفسه نوعًا من تقليد هزلي للشاعر المُثقف[50] وميل نحو سيطرة علاقة تداع ناشئة من مادة اللغة ذاتها. يحاول هلمز بهذه الطريقة، خلافًا لبيكيت - وهذا يعني أنه أكثر راديكالية وطليعية منه - أن يفلت من المونولوج الداخلي الذي ما عاد يمثل بعد الآن قانون العمل الأدبي، بل أصبح هو نفسه مادته. عندما جُعِلت المصادفة ذاتها مقياسًا، أُقِرّ صراحة بإمكان خطأ الذات. "تميل الضرورة، في وسط المجال المركّب ذاتيًا، إلى الانفصال عن الذات، وتقف في مواجهتها. ما عادت البنية ترى نفسها بعد الآن بوصفها إنجاز الذاتية العفوية التي من دونها لا يمكن أن تُدْرك على الإطلاق، بل تفضّل أن تُقرأ من خلال المادة التي توسّطتها الذات من قبل"[51].

أما ما هو المقصود بأن قوة الشاعر تكون في ذروتها عندما يترك نفسه للمصادفة اللغوية، فهذا ما أظهره أدورنو بأكثر ما يمكن من التفصيل ليس في أعمال هلمز أو بيكيت، بل عند هولدرلين (ثمة عملان كان يُخطّط لهما

(49) Samuel Beckett, *Endspiel - Fin de partie*, p. 101.

(50) وردت باللاتينية في النص: poeta doctus. (المترجم)

(51) Ibid., pp. 440 f.

في إطار جزء رابع من **ملاحظات في الأدب** - أحدهما حول كتاب بيكيت **اللامسمى** والآخر حول **حاجز اللغة** لبول سيلان - كان يمكن أن ينجَزا استنادًا إلى نص معاصر، لكنهما لم يكتبا قط). أثبت هولدرلين المتأخر بالنسبة إلى أدورنو وفلسفته في الشعر أنه شونبرغ الأدب. "خلافًا لما هو الحال في الموسيقى، يقاوم التركيب غير المفهومي في الشعر العودةَ إلى الوسط؛ إذ يغدو انحلالًا تكوينيًا. لهذا لا يعطل هولدرلين منطق التركيب التقليدي إلا برفق. لقد نجح بنيامين في استخدام مفهوم السلسلة في تحقيق هذا المضمون وصفيًا [...]، في حين أن طريقة هولدرلين - كما أكد شتايغر محقًا - التي صُقلت بالعلاقة مع الإغريق لا تستغني عن التراكيب التابعة المتشكلة بجرأة، ويُلاحظ إهمال أدوات الربط في الجملة بوصفها اضطرابات معدّة بإتقان تبتعد عن التراتبية المنطقية لتركيب الجملة الخاضع. ينجذب هولدرلين على نحو لا يقاوَم إلى أشكال من هذا النوع؛ فتحول اللغة إلى تسلسل تترابط عناصره على نحو يختلف عن تسلسل الحكم، هو تحوّل موسيقي"[52]. كانت التقنية التسلسلية التي تم بلوغها من خلال الأشكال الصارمة، وجرى تعلُّمها على يد بنداروس[53] وشعراء إغريق آخرين، مثالًا مقنعًا للكيفية التي يفضي فيها نظام لغوي صارم جدًا إلى إطلاق ما لا يحتاج المرء إلا إلى ترتيبه فحسب. في هذه الحالة، يبدو تحطيم اللغة والإذعان لها أمرًا واحدًا. غير أن اللغة تعني في كل مرة شيئًا مختلفًا. ما ينبغي تحطيمه هو اللغة الدارجة، التواصلية، والمشيَّأة. فاللغة التي يتعيّن الخضوع لها كانت لغة أخرى. "لغة هولدرلين التي لا قصد لها، والتي 'تظهر صخرتها العارية [...] في كل مكان في ضوء النهار'[54] هي مثال: أي مثال الكشف [...] المسافة التي يتخذها هولدرلين من اللغة تمنحه الحداثةَ التي هي على جانب كبير من الأهمية. احتفى هولدرلين المثالي بتلك العملية التي تؤدي إلى عبارات بيكيت البروتوكولية الفارغة"[55].

---

(52) Ibid., p. 471.

(53) شاعر غنائي يوناني ولد على الأرجح في عام 522 ق.م ومات في عام 443 ق.م، ويعدّ من أعظم الشعراء الذين عرفتهم اليونان. (المترجم)

(54) Walter Benjamin, *Deutsche Menschen.*

(55) Ibid., pp. 478 f.

كان الحديث عن عبارات بيكيت البروتوكولية الفارغة مضللًا. عندما وضع أدورنو هلمز وبيكيت على قدم المساواة مع المؤلفين الموسيقيين التسلسليين، كان يدفع الثمن، لأنه لم يعيّن بدقة المقصود من قوننة ما لا يمكن قوننته أبدًا. "ما عاد هذا ممكنًا" كانت صيغة ملتبسة بالنسبة إلى أدورنو. إنها تعني عادة أن طريقة تقليدية كانت تقف في وجهها معوقات؛ فالمرء لن يستطيع بعد الآن تأليف الموسيقى على نحو هارموني، ولا استعمال الكادنزا[56] (Kadenzen) أو إدخال الوتر السابع (Septimakkord) كتصعيد استثنائي؛ ولن يُسمح جديًا بتقديم الحوار الذاتي على خشبة المسرح؛ كما لم يعد ممكنًا استخدام الراوي الكلي المعرفة. لكن عبارة "ما عاد هذا ممكنًا" يجب أن تعني من ناحية أخرى: انتفاء التقاليد، والأحكام المسبقة والمعوقات؛ أي حرية الاختلاف، وحرية السرد من وجهات نظر مختلفة، وحرية التعبير عن المرارة من دون الخوف من الرقابة، وحرية الخصومة. لكن هل أصبحت هذه الأخيرة، على سبيل المثال، ملمحًا لدى هلمز وبيكيت أيضًا؟ هنا بات واضحًا أن مزيدًا من العبث لا يعادل غيابًا أكثر للتوافق، وأنه لا يزال لمعنى الجمل ومجموعة الكلمات دورٌ حاسم لتقوم به. وسرعان ما يعود أدورنو إلى التأكيد أنه يجب أحيانًا، من أجل التقدم في السيطرة على المادة، تحمُّل خسارة في النوعية والمضمون. وهنا غدا واضحًا أيضًا كم كان خلافيًا الحديث عن "جعل اللغة تتكلم" بوصفه معيارًا؛ إذ ما الذي كانته اللغة؟ لا ريب في أنها لم تعنِ لأدورنو ما كانت تعنيه لهايدغر. فهي لم تكن، بالنسبة إليه، شيئًا يتناقله الأفراد في ما بينهم، بل كانت شيئًا لا يوجد إلا بالقدر الذي كان فيه الأفراد أحرارًا. لكن كان من الواجب، عندئذ، التمييز بين الأشكال المتبلّرة التي تزيد من حدة المرارة والقسوة، وتلك التي كانت مجرد حالات قحط.

كذلك طوّرَ أدورنو، على نحو متسرع، فكرةَ شكل من الفن وعد بتحقيق ما بدا غير قابل للتحقق؛ أي إسباغ الموضوعية على ما كان ذاتيًا بشكل لا يمكن التحكّم به[57]، والتطلع إلى إسباغ طابع اجتماعي على الفرد خال من أي قسر أو إكراه. فلدى أدورنو لا يمكن أن يكون ثمة حديث عن التشاؤمية. فقد

---

(56) مقطع مرتجل يُعزف منفردًا في نهاية القطعة الموسيقية. (المترجم)

(57) Mahler, in: Adorno, *Gesammelte Schriften*, vol. 16, p. 329.

استَخدم هولدرلين ليدافع عن اليوتوبيا في مواجهة هايدغر. وفهم من الكتابات السوداء لبيكيت نقطة التمايز التي يختفي عندها الفارق بين الجحيم الذي لا يتغير فيه شيء وحالة المخلّص التي يكون فيها كل شيء في مكانه الصحيح. في انحلال الحوار الذاتي الداخلي، أي الجوّانية التي لا موضوع لها، الذي قام به في الأدب ريمبو والسرياليون، وأخيرًا، على نحو أكثر جذرية، بيكيت، إلى دفق لغوي يمضي جيئة وذهابًا، رأى أدورنو في الاقتراب من التصالح النهائي للفرد مع العام الصالح مجتمعًا حرًا. ما أثار غضب الناس على أدورنو كان الإلحاح الذي حيّا به الأدب الطليعي، بوصفه تعبيرًا لاذعًا عن واقع لا يمكن احتماله، ولا ضرورة له، بدلًا من أن يرفضه، أو أن يلمسه بملقط الجمر، أو أن يفسره بوصفه نوعًا من وصف للأزمة الحدية الإنسانية الأبدية. على أن انحيازه إلى الفن الحديث ودفاعه عن طوباويته، جعلاه أيضًا غريبًا في العالم الأكاديمي. كان أولئك الذين انشغلوا جديًا بالفن الحديث عادة هم أنفسهم فنانين، أو كانوا يمارسون أنشطتهم في مجلات وصحف يومية خارج المجال الجامعي. وحتى مقارنة بهم، بدا أدورنو، إلى حد بعيد، أكثر عدوانية وجزمًا وإزعاجًا. وبصرف النظر عن الاستثناء الكبير الذي يمثّله غونتر أندرس (Gunter Anders)، الذي كان تأويله لمسرحية بيكيت **في انتظار غودو** المتضمَّن في كتابه **تقادم الإنسان** قد صدر أولًا في عام 1954 في مجلة **روندشاو السويسرية الجديدة** (*Neue Schweizer Rundschau*)، كذلك كان وقع تحليلات نصوص بيكيت في اللغة الألمانية في أفضل الأحوال، كما في كتاب غردا تسلتنر نويكوم (Gerda Zeltner-Neukomm) **مقامرة الرواية الفرنسية الراهنة** الذي صدر قبل عام من تحليل أدورنو مسرحية **نهاية اللعبة**: "عندما نصف، بدايةً، حوار بيكيت الذاتي الداخلي الذي لا يقيّده أي طرف مقابل بوصفه حوارًا غنائيًا خالصًا وذاتيًا، فإن هذا يحتاج إلى توضيح. فهذا الصوت الذاتي ببحثه وتنقيبه عن هدف بعيد قد لا يكون موجودًا، هو صوت أولي لا يلبث أن يغدو عامًا على نحو كامل: صوت الوحشة الإنسانية بالذات. ذلك أن حوار الذات الداخلي في الرواية الفرنسية اليوم لم يعد إلى الفردية، بل إنه يتعمّق مُكتَسِبًا صلاحية شاملة ونوعية أصيلة". لقد رأت في بيكيت نسخة محددة من التجربة الحداثية تفجر العمل من داخله، أي "التأكيد الذاتي للكلمة [...] من أجل الصمت الذي ترتقي فيه الكينونة الفعلية، والتي

لهذا لا يمكن تسميتها"[58]. وإلى حين ظهور تأويل أدورنو الخلاصي، كان هناك العديد من أوجه الشبه، إلا أن التحليلَين يتمايزان عمومًا في النبرة طبقًا لاختلاف مفهوميهما الأساسيين: مفهوم الكينونة ومفهوم المجتمع الحر.

من أجل فلسفة لا تخشى غياب الأسس

ظل أدورنو كفيلسوف (مختص) في الخلفية مدة طويلة جدًا. يرجع هذا في بعضه إلى أن الفلسفة لم تكن مجال النشاط الذي يتيح لمعهد أن يحظى بالسمعة والشهرة، وفي بعضه الآخر إلى محدودية دائرة جمهور الفلسفة، لكنه يرجع، قبل كل شيء، إلى أن نشاط أدورنو الفلسفي كان يتركز في معظمه على إلقاء المحاضرات وإقامة الحلقات الدراسية. فضلًا عن ذلك، أراد أدورنو أن يكون عالم اجتماع متخصصًا أكثر منه فيلسوفًا متخصصًا. وبصرف النظر عن الطبعة الجديدة من كتابه **كيركيغارد** التي صدرت في عام 1962، ومجموعة المقالات **ثلاث دراسات في هيغل** الصادرة في عام 1963، لم يُنشر لأدورنو قبل **الجدل السلبي** الصادر في عام 1966 إلا كتاب فلسفي واحد، بالمعنى الضيق للكلمة، وعنوانه **نقدُ نقدِ نظرية المعرفة: دراسات حول هوسرل والنقائض الفينومينولوجية** (صدر في عام 1956). وقد تصدى في الكتاب لبعض القضايا المعقدة التي عالجها في مخطوط أطروحته الضخمة في أكسفورد حول هوسرل، وأعاد النظر فيها، وتضمّن مقدمة طويلة ذات طابع أساسي تشبه مقدمة **فلسفة الموسيقى الجديدة**.

وكما في علم الاجتماع والموسيقى والأدب، اهتم أدورنو أيضًا بإنتاج فلسفة تزيد عقلانية الذات العارفة، وتجعلها حساسة لتركيب الأشياء؛ فلسفة تقتضي لزيادة العقلانية أن تكون مستقبلة لعقلانية الأشياء. لكن كانت هناك حدود مفروضة على الأدب خصوصًا، خلافًا للموسيقى، تتمثل في كونه لا يسمح بتدمير عنصر اللغة الاستدلالي إلى الحد الذي تتوقف فيه اللغة عن أن تكون لغة، وتصبح مجرد صوت. كذلك كانت الفلسفة مقيدة بحدود أضيق، لأنها لا تستطيع التوقف قط عن أن تكون معرفة مفاهيمية. كان مأخذ أدورنو

(58) Gerda Zeltner-Neukomm, *Das Wagnis des französischen Gegenwartsromans*, pp. 150, 152.

على بلوخ، ولزمن طويل أيضًا على بنيامين، يتلخص في أن كليهما يتمتع بانعدام مسؤولية الارتجال الفلسفي والميتافيزيقي. لهذا رأى أدورنو ذروة الفلسفة الراهنة في هيغل؛ ومثّل له هولدرلين، صديق هيغل، ذروة الشعر. ولم يأتِ بعد هيغل في الفلسفة من كان يمكن أن يراه أدورنو النظير الفلسفي لشونبرغ أو كافكا أو بيكيت.

لا ريب في أن شخصًا واحدًا حظي في الفلسفة، في نظر أدورنو، بالتقدير الذي حظي به شونبرغ في الموسيقى. وهذا الشخص هو، على وجه التحديد، هوسرل. في محاضرته الافتتاحية عام 1931 رأى أدورنو في هوسرل الفيلسوف الحديث الوحيد الذي قام بمحاولة جدية للخروج عن التقليد، وأخفق فيها. وقد تمسّك بهذا التقدير حتى بعد أن رفض هوركهايمر ولوفنتال وماركوزه نشر مقالة هوسرل التي كان أدورنو قد أعدها استنادًا إلى مخطوط أطروحته الشامل، في مجلة المعهد، ولم يأخذ هوركهايمر على العمل افتقاره إلى أي صلة بنظرية المجتمع والفلسفة المادية، بل كان مأخذه أن هوسرل لا يمكن أن يصنَّف مثاليًا، وأن أدورنو لم يقم على الإطلاق بنقد المثالية نقدًا محايثًا مقنعًا. على العكس، كتب أدورنو في عام 1940 في مقالته التي نُشرت في *Journal of Philosophy* **(مجلة الفلسفة)** بعنوان "هوسرل ومشكلة المثالية": "يبدو لي أن فلسفة هوسرل كانت، على وجه الدقة، محاولة لتقويض المثالية من داخلها، محاولة تتوسل بالوعي لاختراق جدار التحليل المتعالي، في حين تحاول، في الوقت ذاته، أن تحمل هذا التحليل إلى أبعد ما تستطيع [...]. إنه [هوسرل] يتمرد على الفكر المثالي، وهو يحاول اختراق جدران المثالية بأدوات مثالية خالصة، أي تحديدًا بتحليل شامل لبنية الفكر والوعي". لا بل كان أدورنو لا يزال يعتبر في الستينيات أن هوسرل يحتل موقعًا متميزًا بين الفلاسفة الجدد. وجاء في مقالته "ما الحاجة إلى الفلسفة بعد؟" أن "الفكر الذي يتوجّه صراحة نحو الأشياء ويواكب تطور المعرفة، متحرر إزاء هذه الأشياء على نحو لا يسمح فيه للمعرفة المنظمة أن تملي عليه قواعد وقوانين. إنه يدير جوهر الخبرة المتراكمة فيه نحو الأشياء، ويمزق الحجاب الاجتماعي الذي يخفيها، ويراها من جديد. إذا استطاعت الفلسفة تخليص نفسها من الخوف الذي ينشره إرهاب الاتجاهات المسيطرة - الخوف الأنطولوجي من التفكير

في أي شيء ملوّث، والخوف العلمي من التفكير في أي شيء غير 'مرتبط' بجسم الموجودات العلمية المعترف بصلاحيتها مسبقًا - عندئذ يمكن أن تكون في وضع يمكنها من معرفة ما منعها منه ذلك الخوف، وما كان يهدف إليه فعليًا الوعي غير المشوّه. فما حلمت به الفينومينولوجيا الفلسفية - كمَن يحلم بأن يستفيق - من فكرة 'إلى الأشياء ذاتها'، كان يمكن أن تحققه فلسفة لا تأمل في الحصول على تلك الأشياء بالضربة السحرية لتأمّل ماهيات عامة، بل تفكر في التوسطات الذاتية والموضوعية، لكنها لا تستهدي بالأولوية الخفية إلى الطريقة المستعملة التي تُقدِّم باستمرار للاتجاهات الفينومينولوجية، بدلًا من الأشياء المنشودة ذاتها، مجرد أصنام، أي مفاهيم تصنعها ذاتيًا"[59].

عندما كتب أدورنو في الثلاثينيات دراساته عن هوسرل، فعل هذا انطلاقًا من قناعته بأن "التغيير الحقيقي في الوعي الفلسفي" لا يمكن أن يُنجَز "إلا من خلال التواصل الجدلي الأكثر صرامة مع المحاولات الأكثر حداثة لحل مشكلات الفلسفة والمصطلحات الفلسفية"[60]. وقد سوّغ انطلاقه من هوسرل - وليس من شِلر أو هايدغر اللذين أزاحا في العشرينيات هوسرل عند الجمهور الأكاديمي إلى الظل أكثر فأكثر - بدعوى أن المشاريع الأنطولوجية لخلفاء هوسرل كانت تُبنى على الفينومينولوجيا، ولم يعملوا على تطويرها أبعد، بل استعملوها أساسًا من غير أن يشغلوا أنفسهم بهشاشتها.

لم ينجح هوسرل، في نظر أدورنو، في الخروج من المثالية، من فلسفة الوعي التي تعهد للوعي بمهمة القبض على كلية العالم وإدراكه، لكنه جعل المثالية ناضجة نوعًا ما للإعصار، ودفعها إلى ذرى التدمير الذاتي. وكما عرض لوكاتش في مقالته عن "التشيؤ ووعي البروليتاريا" تناقضات الفكر البرجوازي، كي يقدم حلًا لها في الوعي الذاتي للبروليتاريا المتجسد في النظرية الماركسية، كذلك أراد أدورنو أن يقدم النقائض الفينومينولوجية التي تظهر اليوم بوضوح في التراكيب المتناقضة والروابط المفاهيمية، كي يقدم الجدل المادي - كما فهمه - حلًا لها.

---

(59) Theodor W. Adorno, *Eingriffe. Neun kritische Modelle*, pp. 22f.

(60) Adorno, *Gesammelte Schriften*, vol. 1, p. 340.

استعار أدورنو من هوسرل موضوعين كانا على قدر كبير من الأهمية، وكانا محل اهتمامه أيضًا: فكرة موضوعية الحقيقة، والأحكام المنطقية وما إلى هنالك، وفكرة أن المعرفة الحقيقية، والأحكام المنطقية وما إلى هنالك تتفعل في الفكر من خلال الذات. أيّد هوسرل محاولة إنقاذ الموضوعي من انحلاله كليًا في النزعة النفسية، وأيّد أيضًا توجيه الانتباه نحو الأفعال الذاتية التي يتبدّى فيها الموضوعي. وابتكر طريقة نسقية لإنجاز أفعال ذاتية من هذا النوع هي "الاختزال الفينومينولوجي". وهذا يعني استبعاد كل ما أضيف إلى المعطى الأصلي في "الموقف الطبيعي" ما قبل الفلسفي من العالم: وقبل كل شيء التصديق بظاهر الأشياء. ما يتبقى بعد الاختزال الفينومينولوجي كان التجربة الأصلية، والموضوعيّ فعليًا، و"الظاهرة"، و"الأشياء نفسها". فهي يجب أن تنتمي إلى العالم البيني لوعي الأشياء، وأن لا تندرج في مجال محايث للوعي أو عالم خارجي متعال.

قام أدورنو بنقد العالم البيني لوعي الأشياء بـ "تعاليه المحايث" بوصفه مشاركة تجمع تجريدَين: تجريد كل ما هو واقع في مفهوم الظاهرة المعطاة أصليًا، وتجريد نشاط الأفراد المفكرين المجسدين في مفهوم الوعي. بالنسبة إلى هوسرل، انفصلت هذه التجريدات عما جُردّت منه. والنتيجة كانت تشيؤ التجريد. قَبِل الوعي بشيء بوصفه معطى، لأنه نسي دوره في إنجازه. كان الحيّز الذي التقى فيه الوعي والشيء هو حيّز الوعي المختزَل ذاته.

كانت نقاط الهجوم نفسها مهمة في نظر أدورنو، في ما يخص نقد النزعة الوضعية المنطقية: فصل المنطق عن الكائن (das Seiende) - "منطق النقود اللعبة" كان النقطة الأساسية - وانفصال المعرفة عن الأفراد المفكرين-الذوات؛ أي كما أطلق عليها أدورنو تجربة بلا ذات. وإذا كان يتمسك بهوسرل، فهذا يعود في بعضه إلى أنه رأى نقد الوضعية المنطقية قد تم على يد هوركهايمر بنجاح، وفي بعضه لأن المواضيع المعنية قد احتلت مكانًا واسعًا عند هوسرل، وبدا أنه قدم نقطة انطلاق أكثر جدوى لتغيير الوعي الفلسفي. بالنسبة إلى أدورنو، كان السلف العظيم - والعظيم أيضًا في طرح التناقضات - هو كانط الذي حاول، على سبيل المثال بحسب أدورنو، في محاضرته "مدخل إلى نظرية المعرفة" التي ألقاها في 1957/ 1958 - إنقاذ الموضوعية من خلال

الذاتية، وتحويل المتعالي داخليًا إلى متعال، ووضع التجربة المتعالية والشروط التكوينية لمعرفتنا على قدم المساواة.

إذا كان هيغل بفلسفته الكونية والجدلية ذروة المثالية، فإن فينومينولوجيا هوسرل تمثل صيغتها الأكثر منهجية واختزالًا، ونوعًا ما المحاكاة العبثية لها. وجاء في محاضرة أدورنو الافتتاحية في عام 1931: "عَمِل هوسرل على تنقية المثالية من كل كثرة تأملية، وجعلها تناسب حجم الواقع الذي يمكنه بلوغه في أحسن تقدير"[61]. لقد سلب من الفلسفة كل "الزخارف الفلسفية". في نوع مثالية هوسرل "البرجوازية المتأخرة والقدرية"[62]، بدا لأدورنو أن الخروج عن التقاليد في متناول اليد. كتب أدورنو إلى هوركهايمر في عام 1937 أن ما يشغله في نقد هوسرل لم يكن شيئًا من قبيل استبدال أطروحة أولوية الكينونة بأطروحة أولوية الوعي، بل "أن يُظهر، من ناحية، أن السؤال عن مفهوم أولي مطلق - ولو كان مفهوم الكينونة أيضًا - يتضمن بالضرورة نتائج مثالية، أي يرجع في الحكم الأخير إلى الوعي، وأن الفلسفة التي تأخذ، من ناحية أخرى، فعليًا هذه النتيجة المثالية، تتورط بالضرورة في هذه التناقضات، بحيث يتبيّن بوضوح أن الإشكال نفسه خاطئ. هذا هو مضمون التأكيد بأن 'مشكلة' الكينونة والوعي لم تُحلّ في الحقيقة، بل أُنجزت"[63]. شكّل العرض الجازم لمعضلات فينومينولوجيا هوسرل الحل الوحيد المعقول المتبقي: لم يعد جدل الذات والموضوع موجودًا في الجدل، كما هو الحال عند هيغل، بوصفه مجسدًا في الروح المطلق. فالحديث عن الجدل المادي كان ذا معنى بالقدر الذي تبرز من خلاله اللحظة القادرة على تصحيح الجدل المثالي. لكن، بالتدقيق، لا يتعلق الأمر بجدل مادي، بل يتعلق - هكذا يمكن القول لتوضيح التشابه مع مقاصد أدورنو الموسيقية - بجدل الذات المنفتحة على الموضوع، بجدل حر بهذا المعنى، جدل غير نظامي (dialectique informelle). فهو وحده لا يزال - كما يرى أدورنو - ممكنًا، لأن فلسفة هوسرل قدمت الدليل على أنه من غير الإقرار بتوسط الذات والموضوع، بدلًا من الأشياء ذاتها، ومن الإنجاز الحي للذوات،

---

(61) Ibid., p. 328.

(62) Theodor W. Adorno, *Zur Metakritik der Erkenntnistheorie*, p. 288.

(63) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 23 تشرين الأول/ أكتوبر 1937.

لا تتبدى للنظر إلا إسقاطات الوعي الذي نصّب نفسه مطلقًا. ولهذا أيضًا كانت المشاريع الأنطولوجية إسقاطات باطلة للذات التي تسبغ الإطلاقية على نفسها، والتي تغترب عن ذاتها وعن العالم.

عندما تمكّن أدورنو أخيرًا من نشر دراساته عن هوسرل بعد عقدين على كتابتهما، لم يكن المشهد الفلسفي في ألمانيا (الغربية) قد تغيّر جوهريًا عما كان عليه في العشرينيات والثلاثينيات؛ فبعد الحرب سيطر في ألمانيا الغربية هايدغر ونسخة جديدة من "الظواهرية المادية": الوجودية الفرنسية مع سارتر، ممثلها الأشهر. في حين مثّل كارل ياسبرز نسخة أخرى عن الفلسفة الوجودية. ووجدت الأنثروبولوجيا الفلسفية التي تتمتع، في الوقت ذاته، بتأثير كبير في علم الاجتماع، في بلسنر وغِلِن وشلسكي ممثلين أقوياء. أما الوضعية الجديدة والفلسفة النقدية اللتان كانتا الأكثر تبرمًا وضيقًا من عسف الفاشية، فكان عليهما، على العكس، أن تكسبا أراضيَ جديدة أولًا. استطاعت الفلسفة النقدية تحقيق ذلك في المهاجرَين العائدَين هوركهايمر وأدورنو. في حين لم يعد إلى ألمانيا أحد من الوضعيين الجدد الذين فرّوا منها. على أن الوضعية الجديدة التي أحرزت لها في الولايات المتحدة والدول الإسكندنافية وهولندا موقعًا احتكاريًا، لم تؤثر حتى الستينيات إلا بصورة غير مباشرة في الساحة الفلسفية في البلدان الناطقة بالألمانية. إذًا، لم يكن من غير المعقول، أن يعتبر أدورنو أن دراساته عن النقائض الفينومينولوجية ومشروعه في الجدل غير النظامي المرتبط بها لا يزالان راهنين، وألا يبرز في مقدمته، مرة أخرى، إلا ما يجمع المقالات الأربع في الكتاب، ويمنحها صياغة مؤثرة، أي نقد الفلسفة الأصلية، والفلسفة الأولى (prima philosophia). كانت الأخيرة كل الفلسفة السالفة، بما فيها ضمنًا نظرية المعرفة أيضًا.

"من حيث هو مفهوم، فإن الأول والمباشر يتوسط دائمًا، وهو لهذا ليس أولًا؛ فالمباشر، أو الواقعي، الذي به تأمل الفكرة الفلسفية الإفلات من التوسط بذاتها، لا يحصل للتأمل الفكري إلا من خلال الأفكار. سجلت هذا ميتافيزيقا الكينونة قبل سقراط، وعبّرت عنه في الوقت نفسه شذرة بارمينيدس التي تنص على أن الفكر والكينونة هما الشيء ذاته، وبذلك ترفض أيضًا طبعًا مبدأها الخاص عن الكينونة بوصفها مطلقًا [...]. ومنذ ذلك الحين كانت كل أنطولوجيا مثالية: في البداية من غير أن تعرف، وبعد ذلك كانت مثالية أيضًا

لذاتها، وفي النهاية أضحت مثالية ضد الإرادة اليائسة للتأمل النظري الذي يريد الخروج من المجال الذي سجن العقل فيه نفسه، بوصفه عقلًا في ذاته، إلى العقل في ذاته"[64]. أراد هوسرل "تأسيس الفلسفة الأولى بتأمل العقل ذاته بعد تنقيته من أي أثر للكائن (Seiende) المحض. يظهر التصوّر الميتافيزيقي الذي يميّز بداية العصر، مرة أخرى، في نهايته وقد ارتقى إلى حدوده القصوى، وأصبح أكثر حكمة، لكنه أيضًا أشد ثباتًا وحتمية، وأكثر انكشافًا وعارًا: أي تطوير مبدأ كينونة في ضوء شروط النزعة الاسمية، وهي شروط تَردُّ المفاهيم إلى الذات المفكرة"[65]. أهملت الاتجاهات الأنطولوجية ببساطة هذا التعارض، وتصرفت كما لو كان بمقدور الفلسفة التقليدية، أي الفلسفة الأولى، أن تستمر، كما لو أنها ممكنة بعد هوسرل. تخلّى الوضعيون الجدد عن المطالبة باحتراف التفلسف، ورأوا أنفسهم محللي علوم. لم يستطع كلا التيارين الإسهام بما كان يمكن أن تقوم به، في رأي أدورنو، فلسفة تفتقر إلى الحرية بعد، لدفع نزع الأسطرة خطوة أخرى إلى الأمام، وكشف توافقات التجربة الفلسفية الأصيلة وتقييداتها التي جرى التغاضي عنها.

كانت **الدراسات عن هيغل** أشبه باستدراك ما كان قد قاله أدورنو في دراسات هوسرل عن ذروة المثالية؛ إذ تَشرح فيها وجهةُ نظره الوسيلةَ التي استطاع المرء بها أن يناور بحرية، والتي أصبح بواسطتها ممكنًا للفلسفة ألا تدّعي الاستقلالية الذاتية بعد الآن، مثقلة بالخوف من غياب الأسس، وبالحاجة إلى موقف آمن. وكما في محاضرته الافتتاحية، لم يعتبر أدورنو التصور الماركسي لتعالي الفلسفة في الممارسة العملية راهنًا، بل فلسفة جديدة. أصبح النقد الماركسي للأيديولوجيا في يديه أداة ينتقد بها رفع التجريدات إلى كينونات مستقلة، ويظهر أن جميع الفلسفات المقيّدة، أي كل فلسفة ليست مفتوحة لتجربة "الواقع"، تتحول إلى مثالية فلسفية، أي إلى فلسفة أولى.

لكن أي معرفة "دافعة إلى الأمام" كانت هذه التي يتوجّه الفكر بناء على موقفها صراحةً نحو الموضوعات؟ في الحقيقة، لم تحقق الفلسفة بنظر أدورنو

---

(64) Adorno, *Zur Metakritik*, p. 16.

(65) Ibid., p. 13.

أي تقدم. فضلًا عن ذلك، فقد أكد - بالتطابق مع مقدمة **جدل التنوير** - أن التفكير الحر ينبغي ألا يأتمر بقواعد صادرة عن المعرفة المنظمة. وكانت العلاقة بالعلوم مبهمة. شدد أدورنو على أهميتها بالنسبة إلى الفلسفة، لكنه رفض طرائقها الإدراكية على نحو صارم، حتى بدا أنه من المستحيل الإقرار بنتائج من هذا النوع من أشكال الخبرة المحدودة أو مواصلة العمل عليها.

بناء عليه، إذا تأمل المرء أعمال أدورنو الخاصة، وكم كان يمكن التعلم منها حول فكر يتوجّه، على نحو جليّ ومنطقي وعلى قاعدة معرفة متطورة، نحو الموضوعات ويراها من جديد، فإن المرء يقع على نموذج أشبه بتقويم جديد لباخ (**باخ يدافع في مواجهة حبيبته**، أي بوصفه حداثيًا سابقًا مع حرية العودة إلى العصور القديمة) أو لهاينه (**جراح هاينه**، أي الجراح التي تمثّل شعره، والذي تنقل سهولة أسلوبه تجربة الاغتراب) أو تعريض الديمقراطية للخطر من خلال الميول الفاشية (جاء في مقالة "ماذا يعني تقويم الماضي؟": "أعتبر أن في بقاء النازية **في** الديمقراطية خطرًا كامنًا أكبر من بقاء الميول الفاشية **ضد** الديمقراطية"). كانت هذه أمثلة عن رؤية جديدة للأشياء جاءت في مقالة، رؤية لا تستند إلى اطلاع ومعالجة منهجية للأبحاث العلمية الجارية، بل تقوم على محاضرات عرضية حدسية وخبرات خاصة وتداعيات. كان افتتاح الجزء الأول من **ملاحظات في الأدب**، بمقالة "المقالة بوصفها شكلًا"، اعترافًا بالموقف المعرفي الخاص عمومًا، وكان بإمكانه أن يفتتح بالمثل تمامًا أي كتاب يتضمن مقالات في علم جمال الموسيقى، أو مقالات فلسفية، أو اجتماعية، أو في نقد العصر. لقد مثّلت المقالة بالنسبة إليه شكل التفكير الحر. "راعى وعي اللاهوية من دون أن يضطر إلى قول ذلك. جذريّ في النزعة اللاجذرية، وفي احتواء جميع الاختزالات في مبدأ، وفي تركيز الجزئي في مواجهة الكلي، وفي الجزئيات [...]. والإذعان الخافت لفكر كاتب المقالة يقسره على شدة أكبر من التفكير الاستدلالي، لأن المقالة لا تتبع من فورها هذا التفكير على نحوٍ آليّ أعمى، بل عليها في كل لحظة أن تتأمل ذاتها. فهو يبني تشابك المفاهيم بطريقة يمكن عبرها تخيُّل المفاهيم متشابكة في الموضوع. فمن خلال خرق أصولية الفكر، يغدو مرئيًا في الموضوع ما كان يجب إبقاء هدفه الموضوعي خفيًا"[66].

(66) Adorno, *Gesammelte Schriften*, vol. 11, pp. 17, 32 f.

لكن كيف كان لهذا أن ينسجم مع رؤية أن الناقد الفلسفي للشروط القائمة يجب أن يقبض على الكل المزيف، الكل السيئ، تلك الشروط القائمة التي كان أدورنو يرفضها كنسق مرة بعد أخرى؟ وكيف كان يتعيّن على نظرية المجتمع أن تبقى - كما كانت - جزءًا من البديل النقدي لنسق العلم القائم على مبدأ تقسيم العمل؟ ألم تكن رؤية أدورنو لفكر حر في صيغة مقالة - تشبه ترْك الفنان نفسه للمادة الموسيقية أو تخلي الكاتب عن ذاته للغة - نوعًا من اليوتوبيا يُحتفظ بها، مثلًا، في أعمال أدورنو على نحو يثير الاستغراب، وإن بحدود واضحة، لكنها، في أي حال، كانت اليوتوبيا التي كان يجب أن تُترجم إلى شكل من التجربة قادر على استثمار مكتشفات العلم المنظم الناجحة في نطاقها الواسع، ويرفد في الوقت ذاته العلم بآفاق جديدة، ويوفر مكتشفات وتطبيقات أكثر حذرًا؟ بدا أدورنو بدفاعه وممارسته صيغة المقالة أنه يهرب من المشكلة. بيد أن المعالجة الناجحة لهذه المشكلة كان يتوقف عليها، على نحو متزايد - إن كان لا يزال بمستطاع النظرية النقدية أن تعمل من حيث المضمون مع الأنثروبولوجيا الفلسفية مثلًا، باستعمالها الأبحاث التاريخية والاجتماعية معًا - أن تتجنب خطر التحجر في برنامج مضاد جاذب يقف في مواجهة كل شيء آخر.

يورغن هبرماس - وأخيرًا منظّرٌ للمجتمع في المعهد، ثمّنه أدورنو عاليًا، ووجده هوركهايمر يساريًا جدًا

غادر المعهد في عام 1954 رالف دارندورف الذي علّق أدورنو عليه آمالًا كبيرة. وفي العام الذي تلاه التحق بالمعهد لودفيغ فون فريديبرغ، وهو باحث تجريبي شاب محترف ذو توجّه منفتح على نقد المجتمع. كتب أدورنو إلى هوركهايمر يقول: "سوف نؤهل فريديبرغ للحصول على درجة الأستاذية للتعامل مع المسائل التجريبية في علم الاجتماع، وإذا كان لعالم اجتماع آخر أن يحصل على التأهيل، فيتعيّن حتمًا أن يكون قادرًا على تعليم علم الاجتماع النظري [...]"[67]. بعد عام أصبح يورغن هبرماس مساعد أدورنو وزميلًا في معهد البحث الاجتماعي. كان فيلسوفًا اجتماعيًا انصبّت اهتماماته بدقة في

(67) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 4 نيسان/ أبريل 1955.

مجال عولج بإيجاز في مقالات أدورنو ومحاضرات هوركهايمر وأحاديثه، أي نظرية العصر الراهن وأمراض الحداثة.

وهكذا نشأ تركيب يبعث على العجب، أعاد إلى الذاكرة ما حدث في عامي 1932/ 1933 عندما التحق ماركوزه بالمعهد. في حالة هبرماس، كانت هناك نظرة إلى الوضع المأزوم للحاضر. تتلمذ هبرماس على يد هايدغر ونقاد ثقافة آخرين محافظين من خلال معرفة كتابات الهيغليين الشباب، خصوصًا ماركس الشاب، وأصبحت مقاربته أكثر حدة بعد اطلاعه على كتاب لوكاتش **التاريخ والوعي الطبقي** وكتاب هوركهايمر وأدورنو **جدل التنوير**. لكن قبل عام من انضمامه إلى المعهد، كان قد كتب مراجعة لصحيفة **فرانكفورتر ألغماينه** يعترف فيها بأن كتاب **علم الاجتماع** (الصادر في عام 1975) لغِلِن وشلسكي، الكتاب التعليمي المرجعي في علم الاجتماع الحديث، كتابٌ مثالي؛ وهو كتاب صدر عن اثنين يرى أدورنو فيهما خصمَين رئيسيين للنظرية النقدية: أرنولد غلن الذي أحرز شهرة عالمية بمؤلفه الرئيس **الإنسان** الذي صدر أولًا في عام 1940، لكنه قدّم فيه أيضًا التسويغ الأنثروبولوجي لتمجيد النظام والانضباط، الأمر الذي لا يجعل تعاونه مع النازية يبدو مصادفة، تمامًا كما كان الحال مع هايدغر؛ وهلموت شلسكي الذي اعتبره أدورنو خطيرًا على نحو خاص، لأنه لا يُظهر ميوله الفاشية على نحو صريح مثل بعض الآخرين، لكنه دعم، في أي حال، في مقدمة **علم اجتماع الجنسانية** البرنامج المضاد للتنوير.

ولد يورغن هبرماس في دوسلدورف عام 1929، ونشأ في غومرزباخ، حيث كان أبوه رئيس غرفة التجارة والصناعة فيها. كان استسلام ألمانيا في أيار/ مايو 1945، بالنسبة إليه، تحريرًا. قرأ بشغف الأدب الغربي والأدب الألماني الذي كانت تصدره دار نشر روفولت وكان محظورًا لأمد طويل، وقرأ كراسات ماركس وإنغلز التي كانت تُنشر في برلين الشرقية، ويوزعها محل بيع الكتب الشيوعية في بلدته. كان يأمل في تجديد فكري وأخلاقي في ألمانيا، لكن خاب أمله عندما رأى ضحالة الجديد الذي حملته الانتخابات في البرلمان الأول، وكيف عادت مسألة التسلح من جديد إلى التداول.

من ناحية، تحدّر هبرماس من عائلة برجوازية متكيفة سياسيًا، وكان مرتابًا إزاء الحزب الاشتراكي الديمقراطي، هذا إذا صمتنا كليًا عن

الشيوعيين. وكان، من ناحية أخرى، نتاج فترة "إعادة التأهيل والتعليم" بعد الحرب، فأخذ مُثُلها بجدية، بحيث لم يكن أقل ريبة إزاء الأحزاب البرجوازية التي لم يلحظ لديها أي قطع جذري مع الماضي الخطير جدًا، منه إزاء الحزب الاشتراكي الديمقراطي. في أول الأمر، لم يجد هبرماس الحزب الذي يمكن أن يتوافق معه سياسيًا. درس بين عامي 1949 و1954 في غوتنغن وزوريخ وبون الفلسفة والتاريخ وعلم النفس والأدب الألماني والاقتصاد. كان من أهم أساتذته في الفلسفة إريش روتاكر (Erich Rothacker)، وهو منظّر في العلوم الإنسانية تتلمذ على ديلتاي وأوسكار بِكِر، وهو من جيل هايدغر وتلميذ هوسرل، وقد برز في مجالي الرياضيات والمنطق. وباستثناء واحد هو تيودور ليت، كان جميع الأساتذة الذين كانوا ذوي أهمية بالنسبة إليه إبان دراسته نازيين مقتنعين، أو على الأقل أكاديميين موالين، واصلوا ممارسة أعمالهم على نحو طبيعي إبان حكم النازية.

بدأ هبرماس في بداية الخمسينيات نشاطه في النشر. وتركزت مساهماته على كتب وموضوعات في الفلسفة وعلم الاجتماع، وصدر معظمها في صحيفة **فرانكفورتر ألغماينه** وصحيفة *Handelsblatt* **(هاندلزبلات)** في دوسلدورف، وهي الصحيفة المركزية للاقتصاد الألماني، وفي مجلتي **فرانكفورتر هفته ومركور**، أي في صحف ومجلات تتوجّه تقريبًا إلى جمهور عامة الناس. من بين مقالاته الأولى واحدة لفتت الانتباه على نحو خاص، وأثارت اهتمام المثقفين اليساريين: تعليق نُشر في عام 1953 في صحيفة **فرانكفورتر ألغماينه** ردًا على [كتاب] **مدخل إلى الميتافيزيقا** الذي نشره هايدغر أول مرة في العام نفسه. صرّح هبرماس في ما بعد، في مقابلة مع ديتلف هورستر وفيليم فان رايين، قائلًا: "حتى صدور **مدخل إلى الميتافيزيقا** لهايدغر كانت معتقداتي السياسية ومعتقداتي الفلسفية - إن شئتم - شيئين مختلفين كليًا. كانا عالمَين لا يلامس أحدهما الآخر. ثم رأيت بعد ذلك هايدغر الذي اعتدت العيش في فلسفته يقوم الآن بنشر هذه المحاضرة التي كان قد ألقاها في عام 1935 من غير كلمة توضيحية. وكان هذا في الحقيقة ما صدمني وأثار مخاوفي. كتبت حول ذلك في صحيفة **فرانكفورتر ألغماينه** واحدة من مقالاتي الأولى. كنت ساذجًا، وفكرت كيف يمكن واحدًا من فلاسفتنا الكبار أن يفعل ذلك"[68]. هذه المساهمة النقدية كُتِبت بمرارة

(68) Jürgen Habermas, *Kleine politische Schriften*, p. 515.

من لا يُنكر أنه مدين بالشكر للشخص الذي يتهمه الآن. "ليست مهمتنا أن نثبت استقرار المقولات الأساسية لـ **الكينونة والزمان**، وصولًا إلى **رسالة في النزعة الإنسانية**. بل على العكس، يفرض تبدل نوعية الجاذب نفسه تلقائيًا. وهكذا فإن الحديث اليوم عن الحذر، والتذكر، والحراسة، والرحمة، والحب، والإصغاء، والإخلاص دائم هناك، حيث كان يشجع في عام 1935 على العنف، في حين كان هايدغر، قبل ذلك بثماني سنوات، لا يزال يمجد القرار شبه الديني للوجود الخاص المعتمد على ذاته، بوصفه الاستقلال الذاتي الأخير في قلب عدمية عالم بلا آلهة. وبهذا تلون الجاذب مرتين على الأقل، تبعًا للوضع السياسي، في حين بقيت الفكرة الفلسفية الرئيسية لنداء الأصالة والجدل ضد الانحطاط ثابتة"[69]. من دون تعليق تحدث هايدغر في كتابه عن "الحقيقة الداخلية لهذه الحركة وعظمتها"، أي عن النازية بوصفها "حركة التقنية المحددة على صعيد الكوكب، وحركة إنسان العصر الحديث". فتح هذا عينَي هبرماس على حقيقة أن ما كان يؤخذ على هايدغر لم يكن قط خطبة تنصيبه رئيسًا للجامعة فحسب، بل فلسفته بالذات التي يَنتج تمجيد النازية من بنيتها الموضوعية. اتهم هبرماس هايدغر باستعمال تاريخ الكينونة لاستحسان إلغاء فكرة مساواة الجميع أمام الله، وفكرة حرية كل فرد، وحرية التصحيح العملي العقلاني للتقدم التقني.

برهن هبرماس في أعماله الأولى الأخرى على أنه نوع من ناقد للثقافة ذي توجّه ديمقراطي. وكان مطلعًا على النقد الثقافي المحافظ لهانز فراير (Hans Freyer) وأرنولد غِلِن. وكان - وهو الذي نال إجازة الدكتوراه عن أطروحته "المطلق والتاريخ: عن التناقض في فكر شلينغ" - متضلعًا أيضًا من نقد الاغتراب للمفكرين الرومانسيين المحافظين في العقدين المتاخمين لعام 1800. لكنه انتبه أيضًا، من خلال دراسة كارل لوفيت (Karl Lowith) **من هيغل إلى نيتشه** التي كتبها في منفاه الياباني، إلى الهيغليين الشباب وإلى ماركس الشاب. في عام 1953 اكتشف في مكتبة قسم الفلسفة في بون كتاب لوكاتش **التاريخ والوعي الطبقي** وقرأه بإعجاب، كما وقع أخيرًا على **جدل التنوير** لهوركهايمر وأدورنو، فكانت، بالنسبة إليه، الطريقة التي استعمل فيها المؤلفان فكر ماركس لتحليل الوضع الراهن هي التجربة المفتاحية. لم يكن فكر ماركس، بالنسبة إليه، راهنًا بوصفه نقدًا للرأسمالية، بل بوصفه نظرية التشيؤ التي يراها من منظور أنثروبولوجي.

---

(69) Jürgen Habermas, *Philosophisch-politische Profile* (1971), pp. 72 f.

غير أن التوجُّه نحو العقلنة الاجتماعية في مقالة هبرماس العظيمة الأولى التي حملت عنوان "جدل العقلانية: عن الفقر الشديد في الإنتاج والاستهلاك" التي نُشرت في مجلة **مركور** في عام 1954 كان هناك دافعان بقيا بالنسبة إليه مركزيين. كان أولهما هو موضوع الطابع الخاص للعقلنة الاجتماعية، بوصفه التصحيح العملي والعقلاني للتقدم التقني، وهو موضوع كان قد أتى إلى ذكره في نقده هايدغر: "ألم تبرهن العلوم التي تتعامل مع الإنسان وجوب تحديد التنظيم التقني والاقتصادي في المعمل الصناعي، كي تفسح المجال أمام تفتُّح القوى الطبيعية والاجتماعية؟ غير أن التوجُّه نحو العقلنة الاجتماعية مقيّد في البداية، أي إنه يجب أن لا يَستبعد مجالًا من التنظيم المتقدم، كي يترك حيّزًا لما يتطور ذاتيًا وليس آليًا. هذا الاقتراح لا يتوخى مطلقًا تنظيم تلك القوى والقدرات". أما في ما يخص الدافع الثاني فقد جمع هبرماس في ذهنه الإنتاج المستلب والاستهلاك المستلب في مقولة التعويض. أقرّ عالم الاجتماع الفرنسي جورج فريدمان أن المساهمة في "بحبوحة" و"كمال" منتجات إنتاج متقدم تقنيًا يقدم للعامل في مجال الاستهلاك تعويضًا عما يخسره من رضى في مجال الإنتاج عبر التقدم التقني. قلَب هبرماس النتائج التي توصل إليها فريدمان وعلماء اجتماع آخرون نقديًا، وأخذها دليلًا لتعويض العمل المستلب والاستهلاك المستلب.

نظر هبرماس باستغراب إلى ما كان علماء الاجتماع يقبلون به عادة بوصفه بدهيًا: أي تحويل الاحتياجات التقليدية ذات الصلة بثقافة معينة إلى احتياطي حاجة يمكن تنبيهه افتراضيًا من خلال محفزات استهلاكية. وهو لم يرَ في آلة الدعاية والإعلان إلا نصف تفسير لهذه الحالة الغريبة. ورأى النصف الآخر في فقر الاستهلاك الذي كان نتاج الإفقار في العمل الصناعي. كتب بلغة النقد الثقافي المحافظ: "كما يغترب العمل الصناعي، أكثر فأكثر، عن الأشياء، ويقتل المهارةَ اليدوية، 'ذكاء اليد'، ويسمح بتقليص المعرفة المادية إلى حد أدنى يمكن إثباته إحصائيًا، كذلك يغترب أيضًا الاستهلاك الواسع على نحو متزايد عن السلع التي تُستهلَك، والتي تخبر جودتها على نحو أقل كلما غدا التماس مع الأشياء ذاتها أضعف وأقصر زمنًا، وإدراك طبيعتها أقل دقة والدنو منها أقل فاعلية [...]. من لم يعد يعرف الأشياء ويَخْبرها، لأنه لم يعد مستقلًا في التعامل معها، ولا يستطيع المكوث معها، فهو لا يعرف أيضًا إلى من تنتمي". لا يُبقي العمل المغترِب - كما صاغ مستلهمًا روحية **جدل التنوير** - للعامل إلا نذرًا يسيرًا من وقت الراحة يمكن

أن يدغدغه، لكنه لا يجعله مثمرًا". فالطابع التعويضي للاستهلاك ينتج حاجة لا تُشبَع إلى تعويضات جديدة أخرى.

توافق هبرماس مع نقاد الثقافة المحافظين ونظرائهم في فرانكفورت في نقد الاستهلاك التعويضي، وفي تفسير التطور الخطير نحو حالة من الاغتراب الشامل عبر إلغاء جميع تلك الحالات التي فرضت قيودًا على توفر المنتجات من خلال عنصر التقديس. كان أسير التفكير المحافظ كليًا، عندما وجد أن حل المشكلة المشخّصة يكمن في أسلوب جديد وإرادة ثقافية جديدة وفي "تبلور موقف جديد". لكن ما افتكر فيه من هذه المفاهيم كان يختلف عما اهتمّ به المنظّرون المحافظون. فما أراده كان تخليص العمل قدْر المستطاع من طابعه الاغترابي، كي يصبح المستهلكون شركاء في الثقافة. أما ما أراده غِلِن وفراير وشلسكي، فكان استقرار أنماط سلوك الجمهور في المجتمع الصناعي. وإذا حصل هذا فمن غير تنازلات عن حقوق تعويضية، ومن خلال الاعتياد البسيط للأجيال المتعاقبة على شكل العمل والإنتاج الموضوعي وغير المشخصن.

في أي حال، كان متواضعًا الهدفُ الذي وضعه الشاب هبرماس للتطورات في مجال الإنتاج، تلك التي أطلق عليها اسم "عمليات عكسية"، مستعيرًا المفهوم من شلسكي. ما طالب به للعمال كان "واجبًا محدود المسؤولية، وذا معنًى، ومشبعًا بالمبادرة"[70]. لم يكن هدفه متوجهًا إلى نقد المجتمع الذي أخذت فيه جميع المنتجات، عمليًا، شكل السلع المنتجة بواسطة سلعة قوة العمل، أي شكل مجتمع رأسمالي. لكن هذه كانت، في النهاية، وجهة نظر يمكن أن تظل غريبة على شخص تعلم في فكر محافظ، لا بل حتى ولو قرأ **جدل التنوير**. في الحقيقة، كان مؤلفا **جدل التنوير** عند إعداد نسخة النص لإصداره في دار كويريدو للنشر حريصَيْن على حذف أي صيغة تَذْكر صراحة بالاسم الرأسمالية والاحتكارية والمجتمع الطبقي. وقد واصل الاثنان - آخذَين في الاعتبار المعجزة الاقتصادية الظاهرة في ألمانيا الغربية - سعيهما في الأعمال التي أعيد نشرها لاحقًا في الجمهورية الاتحادية، لا لحذف جميع الفقرات التي كان الحديث فيها يتمحور حول عجز الرأسمالية فحسب، بل أيضًا لحذف تلك التي تشير، على نحو صريح، إلى الرفض الجذري لشكل المجتمع القائم. فعبارة مثل "فالمجتمع المضاد

(70) Jürgen Habermas, "Dialektik der Rationalisierung," in: *Arbeit, Erkenntnis, Forschritt*, pp. 27 f.

الذي يجب أن يُنفى عداؤه للسعادة ويُفضح حتى أعمق خلاياه، لا يمكن تصوّره إلا من خلال ممارسة شكل متقشف من التعويض"[71]، أسقطها أدورنو من مقالته "عن الطابع الصنمي في الموسيقى وتراجع الاستماع"، عندما أعيد نشرها في مجموعة المقالات التي حملت عنوان **نشازات**.

لكن من كان لا يزال يريد أن يرى أعمال أدورنو وهوركهايمر المتوفرة في ألمانيا الاتحادية في سنوات الخمسينيات خارج الاهتمام بنظرية نسقية للمجتمع، بنظرة شريرة أو نظرة مطلعة، سوف يكتشف أن الأمر كان يتعلق بما هو أكثر من نقد ثقافي، وأن أعمالهما كانت قد أُنجزت بعناصر نظرية المجتمع التي كان من الممكن أن يبني عليها. وإذا أخذ أحد ما هذه العناصر وجمعَها، سوف ينتج ما يشبه الصورة التالية: كان المجتمع الراهن "مجتمعًا مسيرًا"، و"مجتمع تبادل". جرى في الاقتصاد، وفي مجالات المجتمع الأخرى، كبت الاستقلال الفردي أكثر فأكثر، وتضاءل، على نحو متزايد، التنافس الحر، من خلال اتحادات شركات عملاقة ومؤسسات ضخمة، وازداد التركيب العضوي لرأس المال أكثر. وهذا يعني أن نصيب العمل المتشيئ كان ينمو بالقياس إلى نصيب العمل الحي. وفي الوقت نفسه، كانت هناك زيادة في التركيب العضوي في الأفراد أنفسهم، أي إن العملية التي تبدأ مع تحول قوة العمل إلى سلعة تتواصل، بوصفها نقصًا متزايدًا في الحصة الحية في الأفراد، في اختلاط الأشياء والبشر في الإنتاج وخارجه على حد سواء. كذلك يُسلب من الأفراد استقلالهم الذاتي بدرجة متزايدة، من خلال تبعيّتهم الاقتصادية المتنامية واعتمادهم المتزايد على منظمات اقتصادية واجتماعية وحكومية، ومن خلال صناعة الثقافة وإدارتها اللتين حيّدتا الثقافة، وجعلتا منها أداة تُصادِر تجربة الناس المستقلة. والأفراد في ارتباكهم في التعامل مع ما يزعجهم أو مع ما لم يصبح سلعةً بعد وكان مسيّرًا، فإنهم كانوا يتطابقون مع ما يبقيهم في قيد الحياة ومع ما ليس له بديل: أي مع رأسمالية مسيَّرة.

يسهل التخلّي عن عرض متصل - ولو بخطوط عريضة أيضًا - بنظرية المجتمع لدى أدورنو وهوركهايمر اللذين يتأرجحان بين وجهة نظر تقول بأن نظرية المجتمع لم تُنْتَج بعد، والقناعة بأن كل ما هو جوهري في هذا الصدد قد قالاه هما وماركس. يسهل بقاء عناصر الغموض التي يمكن أن تعزز

(71) Max Horkheimer, *Zeitschrift für Sozialforschung* (1938), p. 325.

الانطباع لدى القارئ في الخمسينيات بأن الثقافة النقدية التي كان أدورنو وهوركهايمر منخرطين فيها، قد أعطت في أحسن الأحوال أساسًا مؤقتًا في نظرية المجتمع فحسب. إذا كان مبدأ التبادل هو العامل الضروري الحاسم، لِمَ لمْ تحظَ مسألة استقلالية الأفراد والعلاقة بالطبيعة في الاتحاد السوفياتي ودول أوروبا الشرقية الأخرى باهتمام أفضل مما كانت عليه في الواقع؟ وإذا كانت السيطرة على الطبيعة هي العامل الخطير الحاسم، وكانت، هي نفسها، أصل الشرور في المجتمعات الصناعية الغربية والشرقية، فكيف كان لأدورنو عندئذ أن يرحّب بتطور قوى الإنتاج، وألا يرى التشويه إلا في مبدأ التبادل؟ وإذا كان شكل النظام الاجتماعي، سواء في المجتمعات الصناعية الغربية أو الشرقية، مسؤولًا بشكل متساو عن الاستمرار الكارثي لسيطرة الإنسان على الطبيعة، وعن استدامة سيطرة الإنسان على الإنسان، فما الذي كان النظير الشرقي لمبدأ التبادل الغربي؟ وما العلاقة التي كانت تربط السيطرة على الطبيعة ومبدأ التبادل والنظير الشرقي بمبدأ التبادل الغربي؟ وإذا كان أدورنو قد تحدث، في جميع الروابط الممكنة، عن سيطرة العام على الخاص، والشيئي على الحي، وعن سيطرة التجريد على النوعية، ألا يتضح عندئذ افتراض مبدأ تركيب ملغز يميّز جميع الأبعاد الممكنة لمجتمعات صناعية عالية التطور، من غير أن يتضح من أين ينطلق مبدأ التركيب ذاك في التأثير، وكيف؟

من المفروض أن ما أعجب أدورنو في هبرماس كان قدرة هذا الأخير على الكتابة (فأدورنو كان دائم الشكوى من نقص القادرين على الكتابة في أوساط الباحثين المساعدين في المعهد)، وأن هبرماس برز من خلال نقد حازم لهايدغر (أدورنو لم يمارس نقدًا حادًا ضد هايدغر إلا في الستينيات)، وأن له، مثل أدورنو نفسه، الموقف النقدي ذاته من كثيرين (لا عجب، فقد كانت هناك مجموعة من الأفكار المشتركة في فكر أدورنو وهايدغر، مثل نقد الوضعية والمثالية، ونقد التوجّه العام للفكر الغربي برمّته، ونقد تصوّر فلسفة تتمتع باستقلال ذاتي، ونقد إسباغ الإطلاقية في الحفاظ على الذات وهيمنتها). علاوة على ذلك، لم يثر دهشة أدورنو وهوركهايمر، كما يفترض، ألا يتخذ مثقف شاب مثل هبرماس موقفًا نقديًا من علماء أمثال غِلِن وشلسكي، وخصوصًا مما تعلمه منهما ومن فراير. لقد صَمت عن الماضي الفاشي لكثير من زملائهم، أو عن الشبه الكبير بين فكرهم وبين الفاشية، أولئك الذين عرفوا، أو أدركوا، الصلة

بينهما من الناحية النقدية الأيديولوجية. كذلك لزم هوركهايمر وأدورنو الصمت في العلن، وسعيًا حصرًا لمنع تأثير هؤلاء الأشخاص في المجال الأكاديمي على سبيل المثال، من خلال تقارير طالبهما فيها، في عام 1958، أستاذ من هايدلبرغ أراد أن يعرقل تعيين غِلِن في جامعتها المرموقة، أو من خلال التدخل في انتخابات رئاسة الجمعية الألمانية لعلم الاجتماع التي أدى فيها دورًا متزايد الأهمية شلسكي الذي كان - كما كتب رينيه كونيغ في سيرته الذاتية **حياة في التناقض** - في مجال علم الاجتماع القوة الدافعة وراء عودة نازيين معروفين إلى مواقع التعليم الأكاديمية، وظهر، في الوقت ذاته، كمتحدث باسم علماء الاجتماع الشبان ذوي التوجّه التجريبي و"المعادي للأيديولوجيا". بقيت إشارة أدورنو إلى ماضي هوفشتيتر المؤيد للفاشية في ردّه على نقده لـ **تجربة جماعية** في الخمسينيات، إلى جانب دورات ماربورغ الدراسية التي كان يعدّها فولفغانغ أبندروت حول إصدارات أهم العلماء والحقوقيين في الرايخ الثالث[72] مثالًا نادرًا آخر على الملامسة العامة لأمر كان مكبوتًا كليًا.

عندما جاء هبرماس إلى فرانكفورت لم يتغير الشيء الكثير في تصوّر منظّر فرانكفورت. كما لم يتكوّن لديه أيضًا، بوصفه زميلًا في معهد البحث الاجتماعي، الانطباع بوجود نظرية نقدية تدّعي المنهجية لنفسها. في الحقيقة، أراد هوركهايمر تحديدًا - وهو الذي تبنّى ذات يوم هذا الزعم - أن يُبقي في الجمهورية الاتحادية هالة الماضي الكبير للمعهد حية، لكنه أراد أن يبقي في العتمة الأعمال التي تأسست عليها هذه الهالة، لأنها في نظره لا بد من أن توقظ انطباعًا تحريضيًا غير مسؤول في عالم الحرب الباردة وتَشكُّل التكتلات. وكتب هبرماس مستحضرًا الماضي: "كان لدى هوركهايمر خوف كبير من أن نمضي إلى الصندوق الذي كانت توجد فيه نسخة كاملة من المجلة في قبو المعهد"[73]. وأضاف: "بالنسبة إلي، لم يكن هناك نظرية نقدية، ولا أي نظرية ذات صلة بكيفية ما. كتب أدورنو مقالات في النقد الثقافي، وأقام في ما تبقى حلقات بحث حول هيغل. عرض خلفية ماركسية معينة؛ كان هذا كل شيء".

(72) Wolfgang Abendroth, *Ein Leben in der Arbeitrbewegung*, p. 236.

(73) *Ästhtetik und Kommunikation*, 45-46, p. 128.

كشفت الأعمال الاحتفالية التي دعا إليها هوركهايمر وميتشرليش، بمناسبة ذكرى 100 عام على ولادة فرويد في صيف 1956، كشفت لهبرماس أن فرويد الذي لم يسمع شيئًا عنه عمليًا، في أثناء دراسته علم النفس، لم يكن منظّر التحليل النفسي ومؤسّسه فحسب، بل يمكن استخدامه أيضًا، مثل ماركس، في تحليل الظروف الراهنة. على أن ما شكّل القوة الدافعة الأساسية للنظرية النقدية، أي المنظور اليوتوبي للنقد الجذري للعلاقات المسيطرة، استدعى لدى هبرماس دهشة ظاهرة، وتعاطفًا يحار المرء في أمره. وقد واجه هذا المنظور أول مرة صراحة في محاضرة ماركوزه "فكرة التقدم في ضوء التحليل النفسي"، وهي المحاضرة التي اختتمت سلسلة محاضرات فرويد. لم يكن هبرماس على بيّنة من درجة قرب ماركوزه من دائرة زملاء هوركهايمر في الثلاثينيات ومطلع الأربعينيات، أو من درجة الشبه بين منظور ماركوزه ورؤية أدورنو في الخلاص والتحرر. وقد جاء في نهاية تقريره عن اختتام محاضرات فرويد: "قمنا بعزل تشخيص ماركوزه للعصر[74]، وهو ما قدّمه في إطار شبه خلاصي تاريخي، يوصف بأكثر الصور قطعية في فرضية الأب الأولي الذي ينظّم ضرورات الحياة في الجماعة الأولى، ويوزعها على نحو تراتبي، وليس بالتساوي. إنه رمز السقوط التعسفي من الثقافة الليبيدوية، أو من إمكانيتها، إلى الثقافة القائمة على السيطرة، الثقافة التي تملك أو يمكن أن تملك - كما يختم ماركوزه - نهاية تاريخية، تمامًا كما كان لها بداية تاريخية. فجدل التطور جعل اليوم ثقافة غير قمعية ممكنة موضوعيًا، 'ويمكن أن تتحقق غدًا، أو بعد غد، عندما تريد البشرية ذلك أخيرًا'. يمكن هذه الشهادة الألفية تقريبًا أن تُظْهِر بصورة أفضل من النقاشات الطويلة المملة الإثارة والريبة اللتين أيقظتا في المستمعين ذلك التحول الغريب لفلسفة التاريخ الماركسية الأولى في مصطلح النظرية الفرويدية. ينهض البناء وينهار، ما دمنا كنا ننظر بمفهوم تسام غير قمعي. تتواتر الاعتراضات على ذلك، وماركوزه بالذات أفضل من يعرفها. غير أن انطباعًا قويًا على نحو خاص ينشأ في عصر كعصرنا من شجاعة إعادة تحرير طاقات يوتوبية مقرونةً بنزاهة القرن الثامن عشر. وإن كان يريد أن يثير

(74) في التقرير السابق عن محاضرته.

فكرةً، حتى في أوساط الأكثر اعتراضًا بين جمهور المستمعين، فلا بد من أن تكون على الأقل فكرة واحدة: أي فكرة المدى الذي نتشارك فيه جميعًا بلا وعي الاستسلام التقليدي الذي يعزز السائد من الأفكار من غير اختبار 'مفهومه' والإمكان الموضوعي لتطوره التاريخي"[75]. لا يكاد يكون هناك من دليل أوضح على الغربة التي وصل إليها التقليد اليوتوبي والنقد الاجتماعي في الفكر الألماني، ليس نتيجة هيمنة النازية فحسب، بل لأنها بقيت غريبة أيضًا في حقبة إعادة إعمار ألمانيا، وإبان الحرب الباردة لأولئك الذين نشأوا بعد عام 1933.

كتب هبرماس، بعد أن أصبح زميلًا عاملًا في المعهد بوقت قصير، بالاشتراك مع أدورنو، مقدمة طويلة للتقرير البحثي حول القسم الأول من مشروع معهد البحث الاجتماعي الذي بدأ في عام 1952 حول "الجامعة والمجتمع"، وصدرت نسخة موجزة عن هذه المقدمة بعنوان "المعاناة المزمنة لإصلاح الجامعات" في مجلة **مركور** في عام 1957. بدا أن هناك فرصة سانحة يكون فيها ممثل الجيل الجديد قادرًا من ناحية على مواصلة جهود أدورنو، ويكون قادرًا من ناحية أخرى على وضعها في سياق فلسفي جديد. وقد تجلى تأثير أدورنو خصوصًا في توجُّه هبرماس إلى المزامنة بين التطور العلمي الأكاديمي والتطور الاجتماعي، وفي استعماله معايير مستمدة من نظرية الرأسمالية، وليس من نظرية الاغتراب حصرًا، وفي مواجهته المثال اليوتوبي الذي ينبثق في سياقات تاريخية بالواقع الذي يناقضه. "إذ كيف كان الوضع الحقيقي في الجامعات عند نهاية القرن الماضي وبداية القرن الجديد؟ بل وماذا كان في الواقع قدر المدافعين الفلسفيين عنها؟ وُجِّه اللوم إلى كانط في نهاية القرن التنويري، وحُظر عليه الكتابة بسبب انتهاك المعتقد الديني؛ وخسر فيخته أستاذيته من خلال الجدال الإلحادي؛ وعمل هيغل على تأليف كتاباته الأكثر جرأة وجسارة قبل أن ينضم إلى الجامعة، أو بعد أن كان قد تركها في الحقبة المضطربة إبان حروب نابليون [...]. مع ذلك، كان لمرحلة التطور البرجوازي شرف أن تعطي الجامعة مفهومها، أو على الأقل انعكاس ما يمكن ويتعيّن عليها أن تكون، جزئيًا من خلال تحقيق إدارة ذاتية للهيئة الأكاديمية، وحرية أعضائها، وحرية الطلبة في

(75) Jürgen Habermas, "Triebschicksal als politisches Schicksal," *Frankfurter allgemeine Zeitung*, 14/7/56.

تشكيل جمعيات واتحادات، وجزئيًا من خلال التمسك بمبادئ حرية التعليم والتعلم ومبدأ التثقيف الذاتي، بوصفها حقوقًا لا تقبل العبث بها"[76].

تتخلل المقدمة بأكملها فكرة نقد العلوم، بوصفها فكرة هبرماس النموذجية. وإذا كان الدافع إلى هذا قد جاء من **التاريخ والوعي الطبقي** للوكاتش و**جدل التنوير** لهوركهايمر وأدورنو - لم يكن هبرماس آنذاك قد اطلع بعد على مقالتَي هوركهايمر "النظرية التقليدية والنقدية" و"الهجوم الأخير على الميتافيزيقا" - أو من هايدغر، فإن محور نقده للعلوم كان مختلفًا كليًا؛ فهو لم يراهن على "النظرية" أو على "الفكر" اللذين توصلا إلى المعرفة الصحيحة في تضاد حاسم، إلى هذا الحد أو ذاك، مع العلم "البرجوازي"، أو العلم الذي "نسي الكينونة"، بل راهن أكثر على إعادة كسب العلاقة مع الممارسة الحية الهادفة في العلوم ذاتها. شكلت الدافعَ إلى ما سبق النظرةُ "المحافظة" إلى ما كان عليه العلم ذات يوم، أي تلك النظرة التي كانت ترى في العلم شيئًا تقيم في كل عبارة منه "تعاليم الحياة الصحيحة"، وصولًا إلى العصور الوسطى. "ما لم تكن هذه التعاليم خداعة، فإن إشكالية الجامعة في المجتمع الراهن تعود إلى أن هذا المجتمع لا يعترف بالعقل إلا بوصفه قابلًا للاستعمال، كما لو أنه يريد بذلك تعويض العقل عن تدجينه بهذه الطريقة بجوائز كثيرة ينهال بها عليه [...] والعلم، باغترابه عن الممارسة الحية من أجل قابلية استعماله على نحو حيادي، يصبح نظرية خالصة، ويواصل اغترابه وهو يعمل على تشويه منطلقاته النقدية، عندما يأتمن على نتائجه هيئات غريبة عن العلم لاستعمالها كيفما اتفق [...] وأخيرًا، علينا أن نلاحظ أن العيوب التي يعاني منها إصلاح الجامعة منذ البداية، والتي لا يقوى أساسًا على علاجها، إنما تستمد تعنّتها من مجتمع يُسبغ العلمية على المجالات القصيّة فيه، لكنه يزيد في الوقت نفسه من دقة العلم، بحيث يتوقف عن أن يكون وسيط الحياة"[77]. وعن سؤال الكيفية التي تُستعاد بها عندئذ العلاقة العملية الحيوية والغرضية في العلوم ذاتها، لم يستطع هبرماس الإجابة إلا بطريقة تفكير أدورنوية؛ أي من خلال تجذير التخصص، وصولًا إلى

(76) Institut für Sozialforschung, *Universität und Gesellschaft*, Teil I: *Studentenbewegung*, pp. XXXIV f.

(77) Ibid., pp. LVI, LVIII.

التأمل الذاتي. ذلك أنه يتعيّن على كل علم تخصصي أن يتأمل أسسه، ويتأمل في الوقت ذاته علاقته بالواقع الاجتماعي. فالتأمل الذاتي يجب - كما يقول - أن "يكشف عن الجذور العملية الخفية للنظرية الخالصة"، وأن يعي أن "نظرية متوافقة مع الممارسة العملية ينبغي ألا تكتفي بإمكانية الاستعمال العملية"[78].

أما إلى أي حد كان هذا النص الأول الذي أنجزه هبرماس، بوصفه زميلًا في معهد البحث الاجتماعي، عمله الخاص من منظور الفكرة الأساسية، وبأي هدف طموح شقّ طريقه الخاص الذي كان يقوده اهتمام منهجي وأكاديمي فعال، ولم تكن توجد، بالنسبة إليه، مقولة مثل "علم برجوازي" قط، بل لم يكن في العلوم المؤسسة إلا أشياء نافعة وأخرى أقل نفعًا، فهذا ما يظهره الدور المركزي لنقد حياد العلم الاجتماعي والذاتي. وهي مشكلة كانت غريبة، نوعًا ما، بالنسبة إلى أدورنو الذي بدا له أكثر أن الحياد في الثقافة، بمعنى الفن والتأمل النظري، يشكل الخطر الفادح.

أثمرت جدوى هذه الأفكار في الدراستين الكبيرتين التاليتين اللتين وضعهما هبرماس أو أسهم فيهما: **الطالب والسياسة**، و**التحول البنيوي في المجال العام**. بدت هاتان الدراستان - والفضل في ذلك يعود إلى مقاربة العلوم بحيادية، إن لم نقل بسذاجة - معنيّتَين جديًا ببرامج نظرية مادية للمجتمع، تستلهمان فكر النظرية النقدية اليوتوبي-الخلاصي في توجّههما نحو فكر ديمقراطي جذري.

يُعدّ [كتاب] **الطالب والسياسة** - وهو "بحث سوسيولوجي في الوعي السياسي لطلبة فرانكفورت" - واحدًا من مجموعة دراسات أنجزها المعهد حول الجامعة والمجتمع، ثم أصبح بحثًا له مكانته في تقليد المشاريع التجريبية الكبرى لمعهد البحث الاجتماعي. كان العمل على تصنيف المواقف السياسية العميقة، بهدف الوقوف على القوة الديمقراطية الكامنة، استكمالًا لـ **تجربة جماعية**، و**الشخصية السلطوية**، و**دراسات في السلطة والأسرة**، ودراسة حول العمال والمستخدمين. في الوقت نفسه، كان **الطالب والسياسة** استمرارًا لاهتمام هبرماس بالديمقراطية - وهي، في أي حال، ديمقراطية بمعنى جذري،

---

(78) Ibid., pp. LXIV f.

وصولًا إلى "فكرة الديمقراطية"، من خلال القرب من أدورنو، ومن خلال تجربة ماركوزه - هذا الاهتمام الذي تميّز بإعادة التثقيف وبالتربية الديمقراطية.

كان **الطالب والسياسة** نتاج مشروع بحث تجريبي، كان أهم المساهمين فيه يورغن هبرماس وكريستوف أولر (Christoph Oehler) وفريدريش فلتس (Friedrich Weltz). بدأ بتعليمات المقابَلة التي وضعها فلتس الذي أجرى أيضًا القسم الأكبر من المقابلات. ونشأ القسم الآخر - تركيب المادة بمساعدة مقولات "الاستعداد السياسي"، و"الميل السياسي"، و"صورة المجتمع"، وأخيرًا وضع "تصنيف" - في سياق العمل على مادة المقابلات. في الختام، كُتِبت المقدمة، وأُضيفت بطلب من هوركهايمر دراسة متممة قام بإنجازها فريديبرغ.

شملت العينة العشوائية للاستبيان 171 من أصل أكثر من 7000 طالب وطالبة مسجَّلين في الفصل الصيفي 1957 في جامعة فرانكفورت. أجريت المقابلات في الفترة السابقة للانتخابات البرلمانية الثالثة في أيلول/ سبتمبر 1957 التي فاز فيها، بأغلبية مطلقة، تحالف حزبي الاتحاد الديمقراطي المسيحي والاتحاد الاجتماعي المسيحي، في معهد البحث الاجتماعي، واستمرت المقابلة الواحدة وسطيًا ساعتين ونصف الساعة، واستندت إلى إرشادات المقابلة، وكانت في معظمها أسئلة مفتوحة، وكان لها إلى حد ما طابع المحادثة. وقد جرى إعلام الطلبة المستبيَنين أن البحث يُعنى بمشكلات الدراسة. ووُضعت الأسئلة ذات الصلة بالسياسة على نحو لا يلفت الانتباه، قدر المستطاع، تجنبًا لإغراء الأشخاص الذين يشملهم البحث بتَصنّع الاهتمام بالسياسة لأسباب تتعلق بالهيبة والمكانة لا أكثر. شكلت المادةَ البحثية محاضرُ المقابلات التي سُجّلت فيها أقوال المستبيَنين حرفيًا قدر الممكن. وقد قام هبرماس بكتابة نص الكتاب، باستثناء فقرة قصيرة من القسم الرئيسي والملحق.

إن الطابع الشامل والمبدئي للمقدمة، ومشاركة التحليلين الكمّي والنوعي في ظل رجحان التحليل الأخير، والدفاع بوعي ذاتي عن المنهج الفينومينولوجي، تُذكر جميعًا بأدورنو. شكلت المعالجة النسقية لدراسات في العلوم السياسية والقانون العام كتبها علماء "برجوازيون"، واستبدال إبراز "صور المجتمع"، وفق نموذج دراسة العامل لبوبيتس وزملائه، بتأويل الإجابات النفسية اللاشعورية والنفسية الاجتماعية، ملمحًا جديدًا. والجديد كان، في

النهاية، أن مفهوم الديمقراطية الذي مثّل في **الشخصية السلطوية**، وأكثر من ذلك في **تجربة جماعية**، تنازلًا لزبائن البحوث وللوضع السائد، توارى وراءه معيار جذري معادٍ للرأسمالية، وذو طابع ثوري طوباوي، وشُحن هذا المفهوم على يد هبرماس بمضمون جذري، وجُعِل منه بوضوح مقياسًا موثوقًا.

تقدم مقدمة "عن مفهوم المشاركة السياسية" التي تضع مخططَ تطوّر الديمقراطية، وصولًا إلى الوضع الذي كان سائدًا في وقت الاستبيان، خلفيةً لمسألة مشاركة الطلاب في السياسة. رسم هبرماس، معتمدًا خصوصًا على أعمال بعض نقاد الديمقراطية الجماهيرية الحديثة المحافظين الاستبداديين، ذوي النظرة الشريرة، المُعادين للديمقراطية الجماهيرية الحديثة - إرنست فورستهوف وكارل شميت وفرنر فيبر وروديغر ألتمان - صورة أسلوبية مجددة لـ "تطور الدولة الليبرالية الدستورية إلى وسيلة 'لتأمين الوجود'" الجماعي. كانت الديمقراطية يومًا، بالنسبة إلى أقلية ما، واقعًا باعتبار أنها امتلكت سلطة التصرف بوسائل الوجود المادية التي لا يمكن أن تُحَدّ إلا من خلال قوانين عامة يقرّها ممثلو هذه الأقلية. كان هذا، في أي حال، أقرب إلى مظهر سلبي للديمقراطية، بمعنى التشارك في إبقاء الأهمية الاقتصادية للسياسة على النطاق الخاص. وكان هذا سلبيًا أيضًا مقارنة بالمفهوم القديم للديمقراطية؛ إذ كانت قضايا الشأن العام للمجتمع، بالنسبة إلى الأثينيين، هي الأكثر أهمية مقارنة بتنظيم الضروريات الحياتية. وكذلك كان سلبيًا إزاء المعنى الجذري للديمقراطية، بمعنى أن على الشعب أن يكون ذا سيادة أيضًا على أسس وجوده المادي. يتميّز الوضع في القرن العشرين بازدياد تدخُّل الدولة في المجال الاجتماعي الخاص، يقسرها على ذلك تركيز رأس المال في جانب، وتنظيم العمل التابع في الجانب الآخر. غير أن هذا لم يؤدِّ إلى أن يصبّ، في النهاية، تأثير رأس المال والعمل في التنظيم العام المشترك لإنتاج المنتجات وتوزيعها والاستفادة منها. لا بل تطورت دولة إدارة تمارس النفوذ فيها الجمعيات والاتحادات والأحزاب من غير رقابة عامة، ومن غير توسط البرلمان، بوصفه ممثل الشعب. وكانت النتيجة النهائية - كما يقول هبرماس في إشارة إلى ماركس - إنتاج "مواطنين غير مسيَّسين في مجتمع سياسي في ذاته"[79]. "مع تراجع التضاد الطبقي المفتوح، غيَّر التناقض شكله:

---

(79) Jürgen Habermas, *Student und Politiks*, p. 24.

فهو يتبدّى الآن بوصفه تغييبًا للسياسة في صفوف الجماهير، في ظل تسييس متقدم للمجتمع نفسه. وبالقدر الذي يختفي فيه الفصل بين الدولة والمجتمع، وتغدو السلطة الاجتماعية سياسية مباشرة، ينمو موضوعيًا عدم التلاؤم القديم بين المساواة المكفولة قانونيًا وعدم المساواة الفعلية في توزيع الفرص. غير أن العملية نفسها تفضي أيضًا، في الوقت عينه، إلى أن تفقد هي بالذات ضرورتها ودقتها في عقول الناس. والمجتمع الذي، على الرغم من تسييسه وفقًا لمضمونه، ما عاد منفصلًا عن الدولة، برغم مواصلته الانفصال عنها في أشكال الدولة الدستورية الليبرالية. يسبغ هذا المجتمع على مواطنيه طابعًا وظيفيًا على نحو متزايد لخدمة أغراض عامة متنوعة، لكنه يسبغ عليهم، في مقابل ذلك، طابعًا خاصًا مميزًا لوعيهم"[80].

يقف الحاضر، بناء على هذا التحليل، عند مفترق طريقين، بين التسييس القائم على التلاعب والتحكم والتسييس الحقيقي، بين دولة الرفاه والديمقراطية الفعلية. استنادًا إلى الفهم الواسع الانتشار كفل دستور الجمهورية الاتحادية للمواطنين قائمة غنية بحقوق أساسية ليبرالية تتناول الحصانة الشخصية والحرية الشخصية. لكن لم يتمتع الشعب، من الناحية القانونية، بأي إمكانية للتعبير بصورة ملزمة عن إرادته مباشرة في ما يخص قضية محددة؛ إذ بقيت الانتخابات البرلمانية، على الصعيد الاتحادي، الإمكانيةَ الوحيدة للمشاركة السياسية التي تجلّى غياب نتائجها في ما يخص نزع سلطة البرلمان، من خلال السلطة التنفيذية والبيروقراطية والأحزاب السياسية التي تتحكم فيها النقابات ومجموعات الضغط. لذلك كان واضحًا عجز الانتخابات وانحطاطها، بفعل تقنيات الحملات الانتخابية، إلى مجرد ترويج لاصطياد الزبائن.

استشهد هبرماس بأصوات - مثل جوزف شومبيتر وموريس يانوفيتس وهارولد لاسويل وديفيد ريزمان - ساوت الديمقراطية بالحالات التي سادت في البلدان التي تُعَدّ ديمقراطية، والتي تعتبر أن درجة معينة من اللامبالاة السياسية أمر صحيّ (كما يرى يانوفيتس)، وترى في نمط سلوك المواطن غير المسيَّس الموافق على النظام حاجةً يجب الاعتراف بها إيجابيًا على المدى

---

(80) Ibid., p. 34.

الطويل، بما أن ذلك يشكّل أساس هذا النظام (كما يرى شلسكي في كتابه **الجيل المرتاب**). أما هبرماس فيستند إلى "فكرة الديمقراطية"، مقرًا صراحة بأنه مدين في ذلك لـ "النظرية النقدية" التي توجد حريتها، كما اقتبس من شذرة من **جدل التنوير**، في "أنها تقبل المثُل البرجوازية، سواء منها تلك التي ما زالت تصدر عن ممثلي البرجوازية، وإن تكن بأشكال مشوّهة، أو تلك التي لا يزال الإقرار بها ممكنًا بوصفها تعطي الأهمية الموضوعية للمؤسسات التقنية والثقافية، على الرغم من كل التلاعب والتحكم بها بطريقة أو أخرى"[81]. تكمن فكرة الديمقراطية - أي سلطة الدولة الشرعية التي تُستمَد من خلال الإجماع الحر والصريح لجميع مواطنيها - في جذور الدولة الدستورية البرجوازية. وهي ما زالت تشكل المعنى الموضوعي للمؤسسات القائمة في ألمانيا؛ إذ إن توصيل الإحساس بصدقيتها وجدواها هو بالذات الهدف، حيثما يجري السعي حصرًا لإنتاج هذا الإحساس بطرق مداوِرة.

هكذا نجح هبرماس في إنتاج مفهوم طموح للمشاركة السياسية. وهي، بزعمه، لا تكون أكثر قيمة في ذاتها إلا حيثما تُدرَك الديمقراطية بوصفها عملية تاريخية يتحقق فيها مجتمع من مواطنين راشدين، وتتحول فيها السلطة الاجتماعية إلى سلطة عقلانية. وهكذا تسير المشاركة السياسية بالتوازي مع المساهمة في إنشاء الظروف التي شارك فيها الجميع سياسيًا بشكل فعلي، والتي يَستبعد من خلالها التنظيم العام لإعادة إنتاج الحياة الاجتماعية اللامساواة الاقتصادية، بوصفها مصدر الفرص غير المتكافئة في المشاركة السياسية.

كان هذا هو المعيار الذي يقاس به الوعي السياسي للطلبة؛ وكان معيارًا صارمًا للغاية، لكن ثبت في المقدمة أن فرصة واقعية لمشاركة سياسية لا تبدو برأيه ممكنة إلا في "أنشطة خارج البرلمان"؛ أي تلك التي يقوم بها أعضاء في تنظيمات جماهيرية يضعون مؤسسات الدولة تحت ضغط الشارع، وتلك التي تقوم بها النخب الوظيفية في الأجهزة الإدارية في الصناعة والدولة والجمعيات والروابط. غير أن الطلاب لا يُعتبرون عادة جزءًا من أي تنظيم جماهيري، وليس أمامهم، في أحسن تقدير، إلا الانتماء إلى النخب الوظيفية مستقبلًا.

---

(81) Ibid., p. 49.

في سنوات العمل على **الطالب والسياسة**، أصبح جليًا، مرة أخرى، مدى إحباط الأنشطة من خارج البرلمان التي تدعمها تنظيمات جماهيرية، بعد أن أعلنت الحكومة الاتحادية رغبتها في التسليح النووي للجيش الاتحادي، وبدأت موجة احتجاجات واسعة النطاق، وبعد أن حذّر 18 من علماء الذرة الأكثر شهرة في ألمانيا الغربية في **بيان غوتنغن** علنًا من أخطار الأسلحة النووية، في ردة فعل منهم على تصريح المستشار أن الأسلحة النووية التكتيكية "ليست أكثر من تطوير مستمر لسلاح المدفعية". فبعد أن خلص مؤتمر حلف شمال الأطلسي في باريس في كانون الأول/ ديسمبر 1957 إلى قراره بتزويد الدول الأوروبية الأعضاء بأسلحة نووية، احتجت مجالس بلدية وأساتذة جامعات، واتخذت مؤسسات خدماتية، ومجالس عمالية، وتنظيمات نقابية، قرارات طالبت فيها بتنفيذ إضرابات، بل بالإضراب العام. في 25 آذار/ مارس 1958، عندما أقرّ البرلمان بأغلبية الأصوات، بعد مناقشة استمرت أربعة أيام، تزويد الجيش الاتحادي في إطار حلف شمال الأطلسي بالأسلحة النووية، مسلمًا بذلك لاحقًا بسياسة الأمر الواقع، نفّذ آلاف عدة من عمال مصانع هنشل (Henschel-Werke) في مدينة كاسل إضرابًا. كان 52 في المئة من السكان البالغين في ألمانيا الغربية، وفي برلين الغربية، يفضّلون آنئذ الإضراب لعرقلة عملية تسليح الجيش الاتحادي بأسلحة نووية. وكان 150,000 شخص قد شاركوا في المؤتمر الشعبي الاحتجاجي في هامبورغ في منتصف نيسان/ أبريل. وفي 20 أيار/ مايو، احتج علنًا ضد التسليح النووي للجيش الاتحادي عشرون ألفًا من الأساتذة الجامعيين والطلبة، من بينهم أساتذة وطلبة في فرانكفورت. في *Discus* (**ديسكوس**)، صحيفة الطلبة في فرانكفورت، نُشِرت في الشهر التالي مقالة لهبرماس، قُدِّم فيها هبرماس بوصفه صوتًا معارضًا لمقالة فرانتس بوم (Franz Böhm)، أستاذ جامعة فرانكفورت، وعضو البرلمان الاتحادي عن الاتحاد الديمقراطي المسيحي، ذلك الليبرالي الجديد الذي كتب الكلمة التمهيدية لـ [كتاب] **تجربة جماعية**، والذي كان يرأس مؤسسة معهد البحث الاجتماعي. وصف بوم الاحتجاجات بأنها مثيرة للذعر، وعملٌ من جانب واحد موجَّه ضد الغرب، يشارك فيه الدكتاتوريون والمقموعون معًا، وبأنها تحريض طبقي ضد الاتحاد الديمقراطي المسيحي، و"توحّش النقاش السياسي + تفريغ الدستور من محتواه"، وهي تمهّد الطريق أمام نازية جديدة. كانت هذه أفكارًا مكرورة من ترسانة الفكر الاستبدادي الذي يطالب - كما

عبّر لاحقًا كاتب إحدى رسائل بريد القراء - بأن "نتصرف في ديمقراطية، كما لو كنا نعيش في دكتاتورية". فالاحتجاج - كما ورد أيضًا في المقالة المضادة التي حرّرها هبرماس - يتوجّه إلى "رجال الدولة الذين يحكمون بتفويض منا". وطالب بإجراء الاستفتاء كردة فعل على حقيقة أنه لا يوجد في ألمانيا - بحسب رأيه - "ديمقراطية تمثيلية بالمعنى التقليدي".

إن الحملة التي تبناها، على وجه الخصوص، الحزب الديمقراطي الاجتماعي والنقابات، وحّدت جميع القنوات في مطلب إجراء استفتاء شعبي، منعته المحكمة الدستورية الاتحادية في 30 تموز/ يوليو 1958، للتخفيف عن مجموعة إصلاحية، على وجه الخصوص، تتحلق حول هربرت فينر، وكارلو شميد، وفريتس إرلر، وفيلي برانت. أرادت هذه المجموعة، في ردة فعل على نتائج الانتخابات البرلمانية لعام 1957، تحويل الحزب الديمقراطي الاجتماعي إلى حزب الشعب الذي تُعدّ، في نظرهم، صورة جاهزية الجيش الجلية جزءًا منه. عندما أظهر الانتصار الساحق للاتحاد الديمقراطي المسيحي في تموز/ يوليو 1958، في انتخابات ولاية شمال الراين-وستفاليا، أن تأييد الحملة ضد التسلح النووي لا يجذب أصوات الناخبين، نجحت تلك القوى في الحزب الاشتراكي الديمقراطي واتحاد النقابات العمالية الألماني (DGB) التي كانت قد اتخذت قرارها بإنهاء الحملة، في تحقيق ما تسعى إليه. وبهذا كانت نهايتها محتومة فعلًا. لكن الاحتجاجات تواصلت. على هذا النحو عُقِد، على سبيل المثال، في كانون الثاني/ يناير 1959 في برلين الغربية، "مؤتمر للطلبة ضد التسلح النووي"، ضمّ في رئاسته أساتذة جامعيين وكتابًا، أمثال غونتر أندرس وهانز هِني يان. لكن لم يعد هناك حركة. وبدا إذّاك أمل هبرماس في أنشطة خارج البرلمان تقوم بها التنظيمات الجماهيرية أمرًا مبالغًا فيه، وسوء تقدير للقوى المعرقلة في مثل هذه التنظيمات؛ كما بدا أمله في الأساتذة الجامعيين في الاتحاد الديمقراطي المسيحي ضمن البرلمان أشبه باتهام ساخر لديمقراطية تستعمل كل الوسائل المتاحة لإحباط المشاركة السياسية.

كانت صرامة المقياس المطبَّق في الدراسة التي أجريت على الطلبة، مع ذلك، ذات معنى؛ إذ تمَّت من خلال ذلك، خلافًا لاستبيانات الرأي المعتادة، محاولة إثبات الحجم الكبير للإمكان الديمقراطي المحكوم بالتأزم لدى أولئك

الذين شكّلوا مجال تجنيد مهمًا للنخب الوظيفية مستقبلًا. قُسِّم تفسير مادة البحث إلى ثلاث مراحل: إثبات الاستعداد للالتزام السياسي عمومًا (السلوك السياسي)؛ وإثبات الموقف من النظام الديمقراطي (التوجُّه السياسي)؛ وإثبات وجود الدافع الأيديولوجي ونوعيته (رؤية المجتمع). قام "التصنيف الوصفي" - وهو الطريقة المطبّقة في هذه الدراسة، كما ورد في الملاحظات المتعلقة بتقنية البحث - على أساس تصنيف الإجابات عن أسئلة إفرادية، أو عن مجموعة من الأسئلة تشكل وحدة مستقلة. كانت الأسئلة بدورها تُستنتَج افتراضًا "من الفهم المسبق للحالة الموضوعية، ومن ردات الفعل الذاتية المفترضة على أساس الإواليات النفسية-الاجتماعية". على أن دقة أكبر، بالمعنى المألوف للكلمة، سوف تكون غير ملائمة للظواهر - كما يرى المؤلفون - وسوف تؤدي إلى أخطاء كبيرة.

في ما يتعلق بالسلوك السياسي، وُجِدت الأنماط الأساسية الآتية: غير المسيَّس، والمبتعد عن السياسة من دون تفسير منطقي، والمبتعد بتفسير منطقي، والمواطنون البسطاء، والمواطنون المفكرون، والملتزمون. وتوزعت أنماط التوجّه السياسي بين: ديمقراطيين حقيقيين، وديمقراطيين شكليين، ومستبدّين، ولامبالين؛ بينما كانت أنماط رؤية المجتمع على النحو التالي: رؤية المنحدر من الطبقة الوسطى الأكاديمية، ورؤية القيم الداخلية، ورؤية النخبة الثقافية، ورؤية المساواة الاجتماعية، ورؤية الطبقة الوسطى عمومًا. يكمن المغزى، الآن، في أنه بمقدار ما يكون السلوك السياسي والتوجُّه السياسي مستقرَّين أيديولوجيًا من خلال رؤية مجتمع مطابقة، ينبغي أن يكون ممكنًا استخلاص إمكانية سياسية تتخطى الأمر الواقع. فإذا انطلق المرء من حقيقة أن موقفًا ديمقراطيًا يقبع عميقًا هناك، حيث السلوك السياسي لشخص ملتزم، أو لمواطن مفكّر، يتوافق مع توجّه ديمقراطي أصيل ورؤية للمجتمع تقوم على المساواة الاجتماعية، عندئذ لا يكون إلا أقل من 4 في المئة من المستبَينين ديمقراطيين ثابتين. وبهذا لم يبقَ إلا ستة من بين الاثنين والخمسين مبحوثًا الذين كانوا، تبعًا للتوجّه السياسي، مُصَنَّفين بوصفهم "ديمقراطيين أصيلين"، يقابلهم 6 في المئة من المستبدّين المتعنّتين، ارتبط عندهم سلوك ملتزم، أو سلوك مواطن مفكّر، مع توجّه سياسي استبدادي ورؤية للمجتمع نخبوية. وكان 11 من أصل 37 قد صُنّفوا استبداديين، وفق التوجُّه السياسي. على أن النسبة لن تكون أفضل

إذا خفف المرء المعايير؛ فـ "احتمال ديمقراطي نهائي" نسبته 9 في المئة، كان يقابله "احتمال استبدادي نهائي" نسبته 16 في المئة، مع انحياز قسم كبير من مجال الوسط نحو الجانب الاستبدادي والجانب الديمقراطي. ولأن المستبيَنين مع احتمال استبدادي جاؤوا، على الأغلب، من بيوت ذات تقليد أكاديمي، في حين جاء المستبيَنون مع احتمال ديمقراطي، غالبًا، من بيوت تفتقر إلى تقليد أكاديمي، ولأن آفاق المسار الموضوعي والطموحات الذاتية كانت تهدف في الحالة الأولى إلى مواقع في القمة، وفي الحالة الثانية إلى مواقع أكثر تواضعًا، توصل البحث إلى أنه "طبقًا لهذه النتيجة، يبدو أن المجموعة الأضعف في أي حال، والمستعدة أساسًا والملتزمة الدفاع عن الديمقراطية في وضع الأزمة بوسائل ملائمة، ستكون علاوة على ذلك معطلة أيضًا إلى درجة أكبر من المجموعة ذات الاحتمال الاستبدادي، لأنها ستبقى في ما بعد مقيّدة بمجال مناورة متواضع، يمليه عليها دور المواطن البحت"[82].

يعني حجم العينة الصغير البالغ 171 شخصًا، أن أرقام النسبة المئوية المعطاة في الجداول تخفي، في بعض الأحيان، أرقامًا حقيقية صغيرة. لكن عندما كانت الحقائق الكمية تقدِّم، كان من المستحيل تجنّب إعطاء الانطباع أنها كانت تتمتع بتمثيل حقيقي، لهذا قام فريديبرغ في ربيع 1959 بإجراء دراسة إضافية. أنجز البحث 59 طالب علم اجتماع، قابلوا 550 طالبًا باستخدام استمارة أسئلة نموذجية. وأكدت هذه الدراسة المتممة في مثال التوجّه السياسي تمثيل الدراسة الأساسية. لكنها لم تقل شيئًا مؤكدًا بعد عن تمثيل نتائج الدراسة الأساسية في ما يخص توزيع القوة السياسية الراسخة. في أي حال، فإن صورة المجتمع القائمة على المساواة الاجتماعية التي يتمسك بها أولئك الذين صُنفوا بوصفهم ديمقراطيين، لم تكن لها علاقة بالقناعات الاشتراكية، أو بنظرة رزينة إلى علاقات السلطة، بل إنها عَنَت، بدلًا من ذلك، أن الفوارق الاجتماعية كان يُنظر إليها بوصفها شيئًا خارجيًا، يُعزى إلى حالة الغطرسة من ناحية، وإلى الشعور بالدونية من ناحية أخرى. في الوقت ذاته، أُنكر على الأكاديمي حق الحصول على امتيازات. وبدا واضحًا، من بعد، أن المحصلة النهائية لم تكن سلبية جدًا.

---

(82) Ibid., p. 234.

في أي حال، في فترات ما بعد التصفية الوحشية للفكر والسلوك النقديين غير التقليديين، والتي لم تعد فيها التقاليد التي تعرضت للتصفية خيارًا مطروحًا مرة أخرى، يبقى السؤال: ألم يكن ينبغي توقع احتمالات التذمر والاحتجاج التي لم يكن ممكنًا التثبت منها في أثناء تقصّي الوعي والالتزام السياسيين؟ ثم ألم تكن سنوات الخمسينيات أيضًا سنوات الروك أند رول، والشباب المتمرد، التي كشفت أن جديدًا ظهر بعد بيانات المسح المتعلقة بـ **تجربة جماعية**، لا يمكن التعامل معه في مقولات المشاركة السياسية والمعرفة السياسية، لكن من المحتمل أن يرحّب أكثر بديمقراطية تملأ الشعور بوصفها تحريرًا؟

أخّرت اعتراضات هوركهايمر الذي انتقد المقدمة بشدة نشرَ الدراسة. و"فيها قُدمت، بحسب المعنى، أطروحات تشبه تمامًا تلك التي وردت في مقالة مجلة **روندشاو** الفلسفية"، كما أخبر [هوركهايمر] أدورنو في أواخر صيف 1958. كان هوركهايمر يقصد بذلك مقالة هبرماس التي نُشرت في عام 1957 بعنوان "في النقاش الفلسفي حول ماركس والماركسية"، والتي جعل منها مناسبة كي يُسدى النصح بإبعاد هبرماس عن المعهد عاجلًا. كانت دعوة هبرماس إلى إحلال فلسفة التاريخ العملية محل الفلسفة الذاتية التي كانت تهدف عمليًا إلى تحويل فلسفة التاريخ إلى نشاط نقدي وعملي - في نظر هوركهايمر - لعبة في يد الدكتاتورية، وتدمير لآخر ما تبقى من الحضارة البرجوازية. "حل محل كلمة الثورة، وأغلب الظن تحت تأثيرها، 'تطوير الديمقراطية الشكلية إلى مادية، والديمقراطية الليبرالية إلى اجتماعية'؛ لكن 'الإمكان' الذي ينبغي أن يكون مؤثرًا، يصعب أن يكون راهنًا، بالنسبة إلى مخيال القارئ العادي، من خلال طرائق ديمقراطية. وكيف يمكن عندئذ الشعب 'الذي تُقيّده أغلال [...] مجتمع برجوازي بدستور دولة قانون ليبرالي' أن ينتقل إلى ما يدعى المجتمع السياسي - هذا الشعب الذي يعتبره هبرماس ناضجًا لهذه العملية 'منذ مدة طويلة' - إن لم يفعل ذلك بالقوة. إن هذه الإقرارات في التقرير البحثي لمعهد يعتاش من الموارد العامة لهذا المجتمع المقيّد بالأغلال، ليست ممكنة"[83]. كذلك مارس نقدًا عنيفًا أيضًا ضد "الاستعمال غير المتخصص للمادة التجريبية، الاستعمال الذي يفتقر إلى الخبرة في كثير من الأحيان، وضد تقويمه المنحاز". من خلال

(83) رسالة من هوركهايمر إلى أدورنو، مونتانيولا، 27 أيلول/ سبتمبر 1958.

المنظور الكلي للبحث، لَحِق، برأيه، ظلم بأولئك الذين "يفصحون عن الرغبة في ظروف يمكن تحملها، وعن استيائهم من حصرهم في الاختصاص"، ويقدمون بذلك فعليًا أمثلة "لمستقبل الفرد في البلدان التي لا تنتظر إيجابيات كثيرة من التغيرات السياسية"[84]. لا يمكن هذا المعهد أن يحقق نجاحًا بنشر كتاب كهذا برأي هوركهايمر الذي أصبح إبان الخمسينيات مؤيدًا راسخ القناعة لشعار "لا تجارب" الذي كان يرفعه الاتحاد الديمقراطي المسيحي. ما ساقه أدورنو لمصلحة البحث أيضًا، أنه هو بالذات استثمر عملًا كثيرًا فيه، وأن المقدمة بيّنت بوضوح "أننا لا نتوافق مع المدخل التمهيدي للكتاب"، وأن تمهيد هبرماس "قطعة رائعة نسبيًا"؛ وأنه بصرف النظر عن الريبة التي "تعتمل في نفوسنا بسبب تيار الديمقراطية الاجتماعية السائد"، فإن التمهيد يقترب اليوم من الإشكال الحقيقي للمجال السياسي أكثر من أي شيء آخر يعرفه؛ وأن حدود التمثيل توضحت على نحو قاطع، وأن بحثًا أُنجِز في فرانكفورت يقدم الضمانة لنتائج حسنة جدًا أكثر منه لنتائج سلبية جدًا؛ وأن العاملين في البحث أخذوا في اعتبارهم، قدر مستطاعهم، الاعتراضات والمحرّضات؛ وأنهم حاولوا بهذه الدراسة وسعهم القيام "بما كلفناهم به دائمًا؛ أي التوفيق بين المحفّزات النظرية التي يتلقونها منا، مهما كانت مؤقتة وغير كافية، والمادة التجريبية"[85]. لكن هوركهايمر ظل متمسكًا بموقفه.

لم يصدر **الطالب والسياسة** في سلسلة "مساهمات من فرانكفورت في علم الاجتماع"، ولا حتى في دار النشر ذاتها، مؤسسة النشر الأوروبية. وبهذا أصاب مقدمة هبرماس ما أصاب مرةً الفقرة التمهيدية التي صدّر بها بنيامين مقالته "العمل الفني في عصر إعادة إنتاجه التقني". احتُفِظ بالمساهمات المهمة لـ "الشخصيات المسؤولة". ولعل كان من الأفضل كثيرًا لو لم يقم هؤلاء بكتابتها؛ إذ لم يكن عندئذ الخطأ ممكنًا. كتب هوركهايمر إلى أدورنو في نهاية آب/ أغسطس 1959: "عندما يصدر كتاب لنا، يُنعم النظر جديًا في مثل هذه الأسئلة" - أي في هدف الرشد السياسي والاجتماعي لمواطني الدولة على

---

(84) رسالة من هوركهايمر إلى أدورنو، مونتانيولا، نهاية آب/أغسطس 1959، حول نسخة الطباعة لكتاب **الطالب والسياسة**.

(85) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 15 آذار/ مارس 1960.

العكس من الديمقراطية الاستبدادية - "فإن هذا واجب جدًا. فالأمر يتعلق جديًا بالنظرية. لا أستطيع أن أرى لماذا يريد طاقم المعهد، بمناسبة نشر تقرير بحث، الدخول إلى الميدان بخطاب سياسي". صدر في عام 1961 **الطالب والسياسة** عن دار نشر لوشترهاند (Luchterhand Verlag) في سلسلة "نصوص اجتماعية" التي أسهم في تأسيسها هاينتس ماوس، من دون أي إشارة إلى معهد البحث الاجتماعي، إذا استثنينا ذكره في الملاحظات حول تقنية البحث في الملحق. بقي معهد البحث الاجتماعي، الذي رأى هوركهايمر أن هبرماس يعرّض هويته للخطر، إلى حد ما مغفلًا في الكتاب، وبذلك أنكر نفسه في الإصدار الذي أصبح الدراسة التجريبية الأكثر نجاحًا للمعهد وقد أعيد تأسيسه حديثًا.

في ذلك الوقت عمل هبرماس على تحليل التحولات البنيوية والوظيفية في المجال العام البرجوازي، تلك التي أرادها أن تكون أطروحته للحصول على شهادة الأستاذية في فرانكفورت. وكان أدورنو - وهو الذي كان فخورًا به - يحب كثيرًا أن يقبل الأطروحة. لكن هوركهايمر اشترط - مثل الملك في الحكايات الخرافية الذي لا يريد أن يزوّج ابنته - أن يقوم هبرماس أولًا بدراسة عن ريشتر، وهي دراسة كانت ستستغرق من وقته ثلاث سنوات. قدّم هبرماس استقالته، وحقق هوركهايمر هدفه في التخلص من شخص حرّض - بحسب رأيه - الزملاء العاملين في المعهد على زوبعة من الصراع الطبقي في فنجان، وقال عنه: "من المحتمل أن يكون أمامه، بوصفه كاتبًا، مستقبل مهني جيد، بل رائع أيضًا. أما في ما يخص المعهد، فهو سيلحق به ضررًا جسيمًا"[86]. بيد أن فولفغانغ أبندروت - وهو أستاذ العلوم السياسية في ماربورغ و"أستاذ محارب في بلد الإمعات والانتهازيين"، كما يصفه هبرماس، والذي جاء من الحركة العمالية، ودرس يومًا عند هوغو زينتسهايمر في فرانكفورت، وأُدخل السجن في الرايخ الثالث بسبب نشاطه في المقاومة، وأرسل بعدئذ إلى كتيبة العقوبات 999 التي فرّ منها هاربًا ليلتحق بالفدائيين في اليونان، وكان في حقبة ما بعد الحرب الأستاذ الاشتراكي الوحيد علنًا وبحزم في إحدى الجامعات في ألمانيا الاتحادية - كان جاهزًا من فوره لمنح هبرماس الذي أثار انتباهه، من خلال نقده السياسي الاستثنائي لهايدغر، درجة الأستاذية.

(86) رسالة من هوركهايمر إلى أدورنو، 27 أيلول/ سبتمبر 1958.

بعد استقلاله ماليًا عن المعهد بفضل منحة من مؤسسة البحوث الألمانية، أنهى هبرماس كتابه **التحول البنيوي للمجال العام**. هنا أصبح ما بقي في الفصل التمهيدي النظري في كتاب **الطالب والسياسة** رؤوس أقلام معروضًا بالتفصيل مع إدراج فلسفات المجال العام التي تطورت في أوج الطبقة البرجوازية. بهذه الخطوة قام، في الوقت نفسه، زميل في المعهد بأول محاولة لتقديم "التصوّر النظري للمجتمع ككل"، التصوّر الذي ورد ذكره في الفصل التمهيدي من **تجربة جماعية**، والذي "وجد فيه مفهوم الرأي العام موقعه"، وعمل على إعطاء مضمون مادي نظري لصيغ أدورنو وهوركهايمر عن "العالم المسيَّر"، وعن مواصلة تسليم الأفراد الذين اعتراهم الوهن والضعف إلى المنظمات. لا يمكن في ذلك إغفال المصلحة العملية التي حددت وجهة نظر الدراسة. هل من الممكن إرساء تحول ديمقرطي في المجتمعات الصناعية القائمة على دولة الرفاه؟ على هذا النحو يمكن أن يصاغ السؤال الذي أسس لـ **أبحاث في مقولة المجتمع البرجوازي**، كما ورد في العنوان الفرعي.

يقوم الكتاب على أساس تاريخي ممنهج وتفاعل بين العلوم. تَقدّم فصله المركزي "المجال العام البرجوازي: الفكرة والأيديولوجيا"، فصلان عن "البنى الاجتماعية للمجال العام"، و"الوظائف السياسية للمجال العام"، ثم تبعهما فصلان هما "التحول البنيوي الاجتماعي للمجال العام"، و"التحول الوظيفي السياسي للمجال العام". ظهرت هنا مرة أخرى الفكرة الأساسية لوصف تاريخ الجامعة الأحدث في مقدمة **الجامعة والمجتمع** من حيث هي مبدأ بنيوي؛ أي مرحلة محددة من التطور البرجوازي منحت العصر الجديد فكرة عقلنة الجدل العام في قضايا المصلحة العامة، وهي فكرة أصبحت الشروط الاجتماعية غير ملائمة باستمرار لتطبيقها عمليًا.

كانت مرحلة التطور البرجوازي التي أصبح فيها نموذج المجال العام الهيليني المتوارث على الصعيد التاريخي العقلي من جديد الفكرة السائدة، مرحلةَ تطور طبقة برجوازية توجّهت - مستندة إلى أهميتها الاقتصادية، وقد تعلمت من خلال شكل سابق للمجال العام الأدبي، أو من خلال الاحتكاك بالطبقة الأرستقراطية في مؤسسات الاختلاط الاجتماعي - إلى الدولة بمطلب أنه لا يجوز لشيء أن يؤثر في المجتمع البرجوازي ما لم يخضعه للنقاش

السياسي العام مواطنو البرجوازية. ولتحقيق التحرير الكامل للملكية الخاصة من الدولة التي أصبحت، في قدرتها الوظيفية، شديدة الاعتماد على خدمات أصحاب الملكيات الخاصة، فرض هؤلاء النظر إلى مجال إعادة إنتاج الحياة الذي يسيطرون عليه، بوصفه مسألة يجب ألا يكون التدخل فيها ممكنًا إلا على أساس القرارات التي يتوصل إليها المعنيون من خلال النقاش العام.

ما خدم تأمين حق التصرف الخاص بالملكية الرأسمالية، أثبت أنه، في الوقت ذاته، نظام كان فيه ميل كامن إلى استبدال السيطرة من خلال تحقيق ما هو ضروري عمليًا في إطار المصلحة العامة بطريقة لاعنفية. "على قاعدة الهيمنة المستمرة لطبقة على أخرى، تعمل هذه الطبقة المسيطرة مع ذلك على تطوير مؤسسات سياسية، تستوعب بصدق فكرة إلغاء ذاتها بوصفها معناها الموضوعي: السلطة، وليست الحقيقة، هي التي تسنّ القوانين[87]، فكرة انحلال السيطرة إلى ذلك الإرغام الخفيف الوطأة الذي يفرض نفسه في الفهم القسري لرأي عام.

عندما لا تُظهِر الأيديولوجيات الوعي الضروري اجتماعيًا في زيفه الأساسي فحسب، وعندما تمتلك لحظة الحقيقة بارتقائها بالواقع القائم إلى اليوتوبيا، ولو لمجرد التسويغ، عندئذ لا يكون هناك أيديولوجيا عمومًا إلا من ذلك الحين"[88].

تمسّك ماركس "بفكرة المجال العام البرجوازي كي يضعها في مواجهةٍ، كما في مرآة، مع الشروط الاجتماعية لإمكانية تحققها غير البرجوازية تمامًا"[89]. وقد حَدّد الاتجاه التطور الواقعي الذي تميّز، بصورة رئيسية، من خلال حقيقة أن كتلة متزايدة من الطبقات الاجتماعية غير البرجوازية، أي الطبقات التي تفتقر إلى الملكية والتعليم، شقت طريقها إلى المجال العام السياسي، وبدأت تمارس تأثيرها في مؤسساته، وفي الصحافة والأحزاب السياسية والبرلمان، واستعملت سلاح الإعلام الذي ابتكرته الطبقة البرجوازية

(87) وردت العبارة باللاتينية في النص: veritas non auctoritas facit legem. (المترجم)

(88) Jürgen Habermas, *Strukturwandel der Öffentlichkeit*, p. 101.

(89) Ibid., p. 138.

ضدها بالذات. وقد ظهر للمستقبل مجال عام ديمقراطي، جعل توجيه إعادة إنتاج المجتمع وإدارته قضية عامة تهمّ الجميع. وعندئذ بات بإمكان "مجتمع سياسي" أن يضفي الطابع الاجتماعي على وسائل الإنتاج. "اشتق ماركس من الجدل المحايث للمجال العام البرجوازي النتائج الاشتراكية لنموذج مضاد، تنعكس فيه، على نحو خاص، العلاقة التقليدية بين المجالين العام والخاص. في هذا النموذج المضاد، سوف يتمدد نقد المجال العام وضبطه إلى ذلك الجزء من المجال الخاص البرجوازي الذي أُقرّ به للأشخاص الخاصين الذي كانوا يمتلكون سلطة التصرف بوسائل الإنتاج، أي إلى مجال العمل الضروري اجتماعيًا؛ إذ لم يَعُد الاستقلال الذاتي، بحسب هذا النموذج الجديد، يقوم على الملكية الخاصة؛ فهو، على العموم، لا يمكن أن يكون بعد الآن في المجال الخاص، بل يجب أن يجد تأسيسه في المجال العام ذاته. فالاستقلال الذاتي الخاص هو مشتق الاستقلال الذاتي الأصلي الذي يشكل، بداية، جمهور مواطني المجتمع بممارسة وظائف المجال العام التي توسعت اشتراكيًا [...]؛ فبدلًا من هوية البرجوازي والإنسان، وأصحاب الملكية الخاصة والناس، تحلّ هوية المواطن والإنسان؛ وتتقرر حرية الإنسان الخاص، بحسب دور الإنسان، بوصفه مواطنًا في المجتمع؛ ولم يعد يتقرر دور المواطن، بحسب حرية الإنسان، بوصفه صاحب ملكية خاصة. ذلك أن المجال العام ما عاد يتوسّط بعد الآن بين مجتمع من أصحاب الملكيات الخاصة والدولة، بل يضمن الجمهور المستقل ذاتيًا لنفسه مجال الحرية الشخصية، والوقت الحر، وحرية الحركة من خلال تشكيل مخطط لدولة تندمج في المجتمع. في هذا المجال سوف يتحرر تفاعل الناس في ما بينهم، غير الرسمي والحميم، لأول مرة من قسر العمل الاجتماعي، كما كان دائمًا عالم الضرورة، ويصبح تفاعلًا 'خاصًا' حقيقةً"[90].

في أي حال، بيَّن "جدل المجال العام" - وإن بدا في الواقع مختلفًا عن نظيره لدى ماركس - وأظهر للعالم ما كان هذا الذي يكافح من أجله. لقد اتّسع المجال العام، لكنه غدا بذلك أيضًا ميدانًا لتنافس المصالح الذي لا يبتعد عن

---

(90) Ibid., p. 143.

أن يكون مثال استخدام الحوار بطريقة غير عنفية، لتحديد الضروري عمليًا في إطار المصلحة العامة. وبمقدار ما يتسع المجال العام ويشمل أيضًا طبقات غير برجوازية، يعمل منظّرو الطبقة البرجوازية إما على الحط من شأن الجمهور المتسع - بوصفه تكتلًا يتحدد بلحظات حماسية، ولا يلائم البحث عن العقلاني والحقيقي - وإما على المساواة بين نخبة متمرّسة واعية لمسؤولياتها والجمهور الفعلي. لكن، وقبل كل شيء، تُنزع من الجمهور العريض، قدر المستطاع، قوّته، وتُحوَّل وظيفته، ويُصنع منه بحق ما عيب عليه أو ما كُتب عليه، أي أن يكون قاصرًا ومتقلبًا وغير متسامح. وقد بدت الطبقات غير البرجوازية - التي توغّلت إلى داخل المجال العام ووضعت مصالح مجموعاتها أمام الدولة باعتبارها مطالب - وكأنها طبقات غاصبة تجعل مواصلة التفكير العام القويم لإيجاد المعقول والحقيقي أمرًا مستحيلًا.

وقع هبرماس عند عرض هذه المشكلة في صعوبات: إلى أي حد اقتربت البرجوازية، في إطار المجال العام البرجوازي الليبرالي، من تحديد الضروري عمليًا في إطار المصلحة العامة؟ ألم تكن حصرًا مصلحتها العامة التي حددتها على أساس "عقلانية وفاعلية محددتين أفرزهما النقاش العام"[91]؟ ألا يتعين في هذه المواقع أن يغدو النموذج الليبرالي للمجال العام البرجوازي نسبيًا، بالنظر إلى "ما يشبه النوع المقموع من الجمهور العامي" الذي ذُكر في مقدمة الكتاب، ونُحّي صراحة من الدراسة جانبًا؟ ألا يفضي هنا التمسك بفكرة المجال العام البرجوازي وتركيز تفكيره على المواجهة بين فكرة المجال العام البرجوازي وواقعيته إلى تقدير خاطئ للعنصر الذي يتدخل فيه على نحو مزعج، بحيث يبدو وكأنه يقوّض الجمهور البرجوازي؟ كان الأمر كما لو أن هبرماس يخشى التورط بما كان كيرشهايمر قد فعله، بحدة أكبر، في أعماله في السنوات الأخيرة التي سبقت وصول النازية إلى الحكم؛ أي القيام بتحليل الدستور والواقع الدستوري الذي سوف يُظهِر أن أشكال ديمقراطية قادرة على القيام بوظيفتها لم تكن ممكنة حتئذٍ إلا على أساس تفوّق غير خطير لطبقة اجتماعية. تترافق الخشية من التحويل السافر لموضوع تبعية النظام الديمقراطي

(91) Ibid., p. 197.

لتراكيب توزيع السلطة الاجتماعية مع غياب الدوافع التاريخية العقلية للسجال مع هذا الموضوع. ليست أعمال كيرشهايمر الحادة وحدها، والتي تعود إلى العشرينيات ومطلع الثلاثينيات، هي التي تنتمي إلى العقد المقموعة، بل أيضًا جميع مناقشات الاجتماعيين الديمقراطيين ومنظّري اليمين والدولة ذوي التوجّه النقابي في ما بينهم، ومع خصومهم الاستبداديين، وصولًا إلى الستينيات، تنتمي إلى تلك العقد المقموعة لتقليد الفكر الاشتراكي الديمقراطي الذي دمّرته النازية، أو تسبّبت على الدوام في كسره. هذا التقليد لم يُحترم في ألمانيا الاتحادية إلا من فولفغانغ أبندروت، وهو خارجي بين أعضاء الهيئة التدريسية في الجامعة. لم يعرف هبرماس - وآخرون من معاصريه من باب أولى - إلا أعمالًا جديدة لكيرشهايمر ونويمان وفرنكل، غير أن هبرماس لم يذكر، من بين الأعمال التي تنقد الديمقراطية، إلا كتاب كارل شميت: **الدكتاتورية.** على أن نقد شميت للديمقراطية، من موقع العداء للديمقراطية، يريد بالأحرى أن يسهم، بعد كل ما حصل وشارك، في الهروب من استحالة ديمقراطية غير مشوّهة في مجتمع معاد.

وبدلًا من الانخراط في موضوع تطوير دستور مادي ملموس بوصفه نتاج صراع طبقي، طرح هبرماس تصوّر أن النموذج الليبرالي التقليدي للمجال العام البرجوازي والنموذج الاشتراكي المقابل يلتقيان في شرط إشكالي آخر يتمثل في أن هناك "نظامًا طبيعيًا" لإعادة الإنتاج الاجتماعي، وأن تنظيم المجتمع الذي يحرص بشدة على الاستهداء بالمصلحة العامة ممكن من خلال الفهم العام لهذا "النظام الطبيعي" الذي يمكن أن يتضاءل فيه صراع المصالح والبيروقراطية إلى أدنى حد، وينتظمان من دون سجالات كبرى. قامت نظريات هيمنة النخب الديمقراطية بعدئذ على إزاحة وعي الصراع الطبقي، من خلال نموذج الشكل النسبي للمجال العام البرجوازي. في ما بعد سعى الممثلون المنتخبون من الجماهير إلى الحصول على موافقة هذه الأخيرة على التسويات التي يتم بلوغها في مفاوضات غير علنية لانتخابهم كممثلين مرة أخرى.

كان هناك شرط إشكالي آخر مشترك بين النموذج الليبرالي للمجال العام البرجوازي والنموذج الاشتراكي المقابل، يتمثل في افتراض جهاز دولة يخضع لرقابة من الجمهور. وهذا الشرط يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالشرط الأول؛ فإذا كان

هناك "نظام طبيعي" لإعادة إنتاج الحياة، فلن تكون هناك حاجة أيضًا إلى جهاز كبير يضمن إعادة الإنتاج هذه. في الواقع، لقد تطورت دولة إدارة تزداد قوةً باستمرار، ولا تتأثر، كما بدا، بأي رقابة من خلال جمهور منطقي في تفكيره.

لم يكن ما جرى توسعًا في دائرة أشخاص المجال العام البرجوازي وسلطاته، وصولًا إلى تلك التي يمكن أن تلائم المجال العام الاشتراكي، بل كان تقييدًا متبادلًا من الدولة والمجتمع، يسحب من المجال العام النقدي أساسه القديم من غير أن يمنحه أساسًا جديدًا. وتلى ذلك ازدهار الدعاية والترويج من جهة الدولة، والمنظمات، والمؤسسات الحكومية والاقتصادية والسياسية، التي تسعى وراء تأييد الجمهور - وعادة ما تحصل عليه - الذي كان يتألف من مستهلكين تابعين اقتصاديًا، وما عادوا معتادين على النقاش العام، ويعدّون التعبير عن آرائهم قضية خاصة.

خلص عرض هبرماس المفصل لتداعي المجال العام البرجوازي إلى أمل صغير. لقد وفّر المستوى المتضخم لقوى الإنتاج الضخم للغاية، من ناحية، قدرًا كبيرًا من الغنى الاجتماعي، ومن ناحية أخرى، احتمال قدرة تدميرية كبيرة، تبلغ حدًا لا بد من أن تفقد معه صراعات المصالح البنيوية حدتها، كما رأى هبرماس. إزاء هذه الخلفية، كان يجب التحقق إن كان هناك تنظيمات تتمتع بمجال عام نقدي داخلي فاعل تكون قادرة على الإشراف على تنظيمات أخرى يغيب فيها مثل هذا المجال العام. يتوقف - بحسب هبرماس - على زيادة أو نقصان هذا النوع من ضبط القرارات البيروقراطية، من خلال الدعاية النقدية التي يروَّج لها في المجالات العامة داخل التنظيمات نفسها، "إن كانت ممارسة السيطرة والسلطة تستمر كثابت سلبي في التاريخ، أو إن كانت هي نفسها مقولة تاريخية منفتحة على التغير المادي"[92] (تجلّى تحوّل هذا الأمل في الثمانينيات[93] في حقيقة أنه يتوقف على قدرة الثقافات الفرعية المهمة على تشكيل مجالات عامة مستقلة ذاتيًا من خلال تنظيمات قاعدية، وعلى

---

(92) Ibid., p. 271.

(93) يُراجع:

Jürgen Habermas, *Die Neue Unübersichlichkeit*, pp. 159 f.

قدرتها على ممارسة نوع من الشراكة الانعكاسية بين السلطة والتقييد الذاتي، مدى إمكان جعل الدولة والاقتصاد، باستخدام وسائل إعلامهما الموجّهة والمال، أكثر حساسية حيال النتائج الغائية المتصلة بالعالم المعيش، لتكوين إرادة ديمقراطية جذرية، وتحويل التركيز لمصلحة ضوابط تطبَّق على أساس التضامن).

كان **التحول البنيوي للمجال العام** كتابًا مؤمنًا بالديمقراطية، خاليًا من الأوهام. وعلى هذا النحو نُظِر إليه أيضًا من أنصار مرموقين من جيل هبرماس، وانهالت عليه، في الوقت نفسه، أرفع كلمات المديح. أشادت به ريناته ماينتس في **مجلة علم الاجتماع الأميركية**، ورالف دارندورف في مجلة **فرانكفورتر هفته**، وكورت سونتهايمر في صحيفة **فرانكفورتر ألغماينه**. لم يستطع النقاد وجمهور القراء أن يجدوا تعزيتهم إلا بإظهار أن المؤلف أنشأ معيارًا عاليًا جدًا، وطوباويًا للغاية، كما رأى دارندورف. لكن مهما كان موقف المرء من هذا المقياس، لا يتغير شيء في التشخيص النهائي. يريد المرء، شأن دارندورف، تأكيد أن السيطرة لم تكن قط غير مقيّدة، وأن الحاسم في الأمر هو وجود "قوى مضادة موازية". لكن بهذا لم يظهر تشخيص آخر غير تشخيص أن العلاقات المسيطرة في الديمقراطيات الأوروبية، في حقبة ما بعد الحرب، كانت بعيدة كثيرًا عما كانت تطالب به، وعما كان مرجوًا منها.

أما في ما يخص المقترحات المحددة التي طرحها هبرماس، فلم تكن تجربته في محاولة إنتاج دعاية نقدية داخل منظمة مشجعة. فالفكر النقدي الذي أعطاه أدورنو وهوركهايمر وزملاؤهم في المعهد، أمثال أوسكار نغت ويورغن هبرماس، قد ساهم جوهريًا في تطور يسار ثقافي في بعض المدن القليلة الأخرى، مثل ماربورغ وبرلين وغوتنغن ومونستر، وفي فرانكفورت أيضًا داخل أوساط اتحاد الطلبة الألماني الاشتراكي، وهو تنظيم الطلاب الاشتراكي الديمقراطي. كان يسار فرانكفورت ينتمي تحديدًا إلى أولئك الذين لا يعتبرون العمل في اتحاد الطلاب الاشتراكي منصة انطلاق إلى مسار حزبي في الحزب الاشتراكي الديمقراطي، بل ينظرون إليه بوصفه نواة تكوينية لعمل نظري ملتزم اشتراكيًا وممارسة سياسية مبنية عليه. وبالقدر الذي أكسب فيه

هؤلاء المثقفون اليساريون اتحاد الطلاب الاشتراكي تأثيرًا، ازداد استياء رئاسة الحزب الاشتراكي الديمقراطي من التنظيم الجامعي للحزب. في المؤتمر الاستثنائي للحزب الذي انعقد في غودزبرغ في عام 1959، تم التوافق بأغلبية 16 صوتًا فقط على برنامج مبادئ يخلو من أي أثر ماركسي، ويتخلى عن كل الميزانيات العمومية منذ عام 1933، وفي حقبة ما بعد الحرب. قررت رئاسة الحزب في شباط/فبراير 1960 "أن الحزب الاشتراكي الديمقراطي يدعم، إلى جانب اتحاد الطلاب الاشتراكي، روابط واتحادات طلابية أخرى، عندما أقرّت بالبرنامج الذي تبنّاه الحزب في غودزبرغ"[94]. بعد ثلاثة أشهر أسست في بون مجموعات من الطلاب الاشتراكيين الديمقراطيين "رابطة الدراسات العليا الاشتراكية الديمقراطية" (SHB). وفي تشرين الأول/أكتوبر 1961 أسس أبندروت وآخرون، من بينهم هبرماس أيضًا، في فرانكفورت، اتحاد "جمعية المشجعين الاشتراكية لأصدقاء اتحاد الطلاب الاشتراكي ومشجعيه وأعضائه السابقين". وفي الشهر التالي أعلنت رئاسة الحزب أن: "العضوية في اتحاد 'جمعية المشجعين الاشتراكية لأصدقاء اتحاد الطلبة الاشتراكي ومشجعيه وأعضائه السابقين' لا تتفق مع العضوية في الحزب الاشتراكي الديمقراطي، كما لا يتفق أيضًا عضو اتحاد الطلبة الاشتراكي مع عضو الحزب الاشتراكي الديمقراطي". كان إعلانًا غريبًا، استبعد رسميًا اتحاد الطلاب الاشتراكي، عندما تصرف كما لو أن آخرين اتخذوا قرار عدم التوافق بين الحزب الاشتراكي الديمقراطي واتحاد الطلاب الاشتراكي، وكما لو أن قرار عدم التوافق بين الحزب الاشتراكي الديمقراطي ورابطة المشجعين لم يكن إلا نتيجة ذلك. لم تقدم رئاسة الحزب سببًا لقرارها. ولأن مثقفي الجناح اليساري في الحزب الذين غدت السيطرة لهم في الحزب كانوا حريصين إلى حد بعيد على التفاهم مع رئاسة الحزب، وأعلنوا صراحة، مثلًا، أنهم ضد معاداة عمياء للشيوعية في ألمانيا، لكنهم أيضًا أيّدوا اتخاذ مسافة نقدية منها، لم يبقَ إلا تفسير وحيد لسلوك قيادة الحزب الاشتراكي الديمقراطي تمثّل في أنها كانت مشوّشة بشأن قضايا أخرى عديدة، من بينها مثلًا الإصرار على مواصلة لا هوادة فيها للأنشطة خارج

(94) المعلومات المذكورة هنا مقتبسة في:
Tilman P. Fichter & Siegward Lönnendonke, *Kleine Geschichte des SDS*, p. 65.

البرلمان ضد التسلح النووي للقوات المسلحة الألمانية في كل فرصة متاحة. أنشطة، مثل معرض للوثائق عن الحقوقيين النازيين الذين تقلدوا وظائف جديدة في الجمهورية الاتحادية، وهو نشاط اعتبرته صحيفة **فرانكفورتر ألغماينه**، بحسب التعميم السائد، نشاطًا موجّهًا شيوعيًا، أبعدت قيادة الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني نفسها عنه في تصريح صحافي؛ أو مثل نسخة نقد مشروع برنامج المبادئ الذي أقرَّه الحزب في غودزبرغ من موقف أبندروت في صحيفة **(شتاندبونكت** *Standpunkt*)، لسان حال اتحاد الطلبة الاشتراكي الألماني. استبعدت قيادة الحزب، إذًا، مجالًا عامًا نقديًا ذا تنظيم داخلي، مدعومًا من المثقفين اليساريين. وتحملت قاعدة الحزب عناد قيادتها هذا، وبقيت عند هذا الاستبعاد. لم يقم بنقده سوى مثقفين. وبمقدار ما كانوا في الحزب الاشتراكي الديمقراطي، وتجلى نقدهم في العضوية في مجتمع المشجعين لاتحاد الطلاب الاشتراكي، تم استبعادهم أيضًا. هكذا كان أبندروت وأوسيب ك. فلشتهايم. واصل اتحاد الطلبة الاشتراكي وجوده، وحُكِم عليه، بوصفه جزءًا من المجال العام النقدي خارج البرلمان من غير أن يكون متأصلًا في تنظيم جماهيري، بالعجز، بموجب **التحول البنيوي للمجال العام**. لم يُسمع عنه، بعدئذ، بالفعل أي شيء. أجرى الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني من جانبه، ممثلًا بفينر – عندما وضع الحزب الديمقراطي الحر (FDP) في عام 1962، بعد فضيحة مجلة **در شبيغل**، استقالة الوزير شتراوس من الحكومة شرطًا لاستمرار التحالف الحكومي مع الاتحاد الاجتماعي المسيحي/ والاتحاد الديمقراطي المسيحي – لأول مرة محادثات سرية مع ممثلي الحزبين الأخيرين حول ائتلاف واسع. كان الحزب مستعدًا لقبول شتراوس وزيرًا، لكنه رفض قبول أديناور مستشارًا لولاية تشريعية كاملة، وامتنع عن الموافقة على حق الأغلبية الانتخابي وفق النموذج الإنكليزي، بهدف تحييد الحزب الديمقراطي الحر. إذا كان المثقفون النقديون، بالنسبة إلى الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني، غير محتمَلين، فهم كانوا أكثر من ذلك بالنسبة إلى النقابات، كي لا نتحدث عن أحزاب، مثل الاتحاد الديمقراطي المسيحي والاتحاد الاجتماعي المسيحي، التي بدا أنها لا تحتاج حتى إلى مناقشات داخل الحزب، وأن تنظيمات الشباب لم تكن تعني بتاتًا شيئًا آخر غير نقطة انطلاق نحو مناصب حزبية.

عوّق هوركهايمر - الذي كان يقطن منذ عام 1958 في منزل مجاور تمامًا لمنزل بولوك في مونتانيولا، أعلى بحيرة لوغان في سويسرا، والذي كان منذ عام 1960 مواطن شرف لمدينة فرانكفورت - حصول هبرماس على درجة الأستاذية في فرانكفورت. كذلك صدر كتاب **التحول البنيوي للمجال العام** في دار نشر لوشترهاند بدلًا من فرانكفورت، ولم يتضمن أي إشارة إلى معهد البحث الاجتماعي. وقد حقق نجاحًا فاق النجاح الذي أحرزه بحث **الطالب والسياسة**.

في عام 1961، أصبح هبرماس أستاذًا مساعدًا في ماربورغ. ألقى محاضرته الافتتاحية في "النظرية التقليدية عن السياسة في علاقتها بالفلسفة الاجتماعية". ولم تكن مصادفة أنها أصبحت في ما بعد الفصل الافتتاحي لمجموعة مقالات **النظرية والممارسة.** اتخذ هبرماس - وقد حرّضه بحث حنة أرندت **الوضع البشري** الصادر في عام 1958 (نُشر باللغة الألمانية في عام 1960 تحت عنوان *Vita Activa oder Vom tätigen Leben*) - في محاضرته الافتتاحية في ماربورغ من التمييز الأرسطي بين التقنية والممارسة نقطةَ بلورة لضبط متقدم لتحليله المجتمع وتفسيره لحالة النظرية النقدية.

بناء على اقتراح تلميذَي هايدغر، هانز غيورغ غادامر وكارل لوفيت، عُيِّن هبرماس حتى قبل نيله درجة الأستاذية - وهي عملية غير مألوفة في السابق - أستاذًا استثنائيًا للفلسفة في هايدلبرغ. وهناك ألقى محاضرة افتتاحية في عام 1962 عنوانها "نقد هيغل للثورة الفرنسية"، دافع فيها عن الأطروحة القائلة إن هيغل ثبّت الثورة في قلب روح العالم، لكي يُقدّم من خلال ذلك الاعتراف بمكاسب الثورة، في الوقت الذي يُنكر أنها تعزى للثوريين وللتحالف بين الفلاسفة والثوريين.

في عام 1962 ترك المعهد أيضًا فريديبرغ الذي اهتم ذاتيًا، إلى هذا الحد أو ذاك، في سير الأبحاث في المعهد، في حين كان أدورنو يحرص عادة على الحصول، حتى في صغائر الأمور، على نصيحة هوركهايمر وموافقته. كان فريديبرغ أول تلميذ لهوركهايمر وأدورنو يحصل في فرانكفورت في عام 1960 على درجة الأستاذية عن بحثه **في علم اجتماع جو العمل.** كان يرغب بسرور في الجمع بين مواصلة العمل في المعهد والعمل أستاذًا في غيسن، غير

أن تعيينه في غيسن لم يرافقه عرض ملائم، في حين كان العرض الآتي من برلين ملائمًا جدًا، فاختار الذهاب إلى برلين. وبهذا خسر المعهد، في الوقت ذاته، هبرماس منظّر المجتمع الواعد كثيرًا، وفريديبرغ التجريبي المحترف أيضًا.

في الفترة نفسها تقريبًا، وضع هوركهايمر وأدورنو أثرًا يُذكّر باستسلامهما في موضوعات نظرية المجتمع؛ إذ صدر في السنة ذاتها التي نُشر فيها كتاب هبرماس **التحول البنيوي للمجال العام**، ضمن سلسلة "مساهمات من فرانكفورت في علم الاجتماع"، كتاب **سوسيولوجيكا** 2 متضمنًا خطب ومحاضرات هوركهايمر وأدورنو. كان هذا النشر المشترك الوحيد للأعمال التي كتباها بعد عودتهما إلى ألمانيا. ولقد سعت الملاحظة التمهيدية المقتضبة إلى محاولة تجنُّب الخيبة؛ فالنصوص التي تضمّنها الكتاب "لا تُطوّر فكرًا نظريًا مستغلقًا، كما أنها لا تنقل أبحاثًا مترابطة". أما الفقرات الأخرى المتبقية من مسودة المقدمة التي كتبها هوركهايمر ولم تطبع، فقدّمت تفسيرًا أكثر تفصيلًا. أن يقدّم المؤلفان "تأملات إفرادية بدلًا من نظرية المجتمع، على غرار ما جاء في **جدل التنوير**"، قد لا يُعزى ربما إلى ظروف متعلقة بالسيرة الذاتية لكليهما أو إلى ضعفهما فحسب، بل يُعزى أيضًا إلى الموضوع نفسه، إلى وضع المجتمع. "تشترط النظرية المُجْمَع عليها مسبقًا، إلى جانب الإجماع على الموضوع وتماسكه، إمكان تحقق تلك الدوافع التي، بتجاوزها الشروط القائمة، تحيي تصوّرات نظرية، بوصفها شيئًا يختلف عن مجرد شيء واقعي". فألّا يعلن "كل اجتماعي عقلاني" عن نفسه، يقلّل من إمكان نظرية نهائية. أكد هوركهايمر، بأسلوب يطغى عليه الاستسلام، مسودته للمقدمة بالقول إن "الوضع الموضوعي الذي يتناقض مع النظرية النهائية كان أيضًا السبب وراء تكريس المؤلفَين طاقتيهما لواجباتهما الأكاديمية أكثر مما كانا يعتبرانه ممكنًا. فتلك الطاقة كانت تُستثمر في المحاضرات والخطب والأحاديث وحلقات البحث"[95]. إن التحدي الذي سبق هذا التصريح الذي يجب على المرء ألا يعزوه باستسلام إلى النزعة الوضعية المبهمة، وألا يضحي بأفكار "لا يمكن

---

(95) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 31 كانون الثاني/ يناير 1962.

تمييزها من المصلحة في تحقيق الشروط الإنسانية العقلانية"، تحوّل في هذا السياق إلى تحدٍّ باهت. ما كان مفاجئًا في هذه المسودة أن هوركهايمر كان يناقش نظرية للمجتمع متوافقًا عليها ونهائية، وليس إمكان أو استحالة نظرية جدلية للمجتمع.

تتكرر هذه المفاجأة في نسخة أدورنو للمقدمة. قبل بضعة أشهر، أكد في مؤتمر توبنغن للجمعية الألمانية لعلم الاجتماع في السجال مع الوضعية أن "تخلّي علم الاجتماع عن نظرية نقدية يُعدّ رضوخًا واستسلامًا؛ فالمرء ما عاد بعد الآن يغامر في التفكير بالكل، لأن عليه أن يشكّ في تغييره"[96]. كانت هذه عبارة مبهمة، أما وقد نطق بها واحد من ممثلي النظرية النقدية، فيجب على المرء أن يحيلها على المدافعين عن علم اجتماع متواضع من الناحية الوضعية. وإذا قرأ المرء الآن مسودة أدورنو لمقدمة مجلد **سوسيولوجيكا** 2، بدا أيضًا أن المنظّر النقدي يتخلى عن نظرية نقدية للمجتمع. بدت نقاط برنامج أدورنو في نظرية المجتمع من الماضي: التفكير في الكل السيئ من أجل المختلِف المقموع، وفهم النظام المضاد من أجل التنوع الذي شوّهه النظام. لكنه يرى أن "اتجاه التركيز الذي خفّض آليات عمل السوق من عرض وطلب إلى خدعة؛ والتوسع الإمبريالي الذي أطال عمر اقتصاد السوق من خلال دفعه أبعد من مجال صلاحيته؛ والنزعة التدخلية وقطاعات الاقتصاد المخطط التي نمّت مجال صلاحية قوانين السوق؛ كل هذا جعل، على الرغم من إسباغ الطابع الاجتماعي الكلي على المجتمع، محاولةَ بنائه، بوصفه نظامًا متوافَقًا عليه، مريبًا إلى حد ما. لا بل سوف تكون لاعقلانية المجتمع المتزايدة بالذات، كما تتبدى في الكوارث التي تتهدده اليوم، وفي اتضاح طاقة التدمير الذاتي للمجتمع، غير متفقة مع نظرية عقلانية. هذه النظرية يصعب أن تقبل بعد الآن المجتمع بكلمة ما عاد يقولها هو نفسه"[97].

اتخذ عناد هوركهايمر شكلًا له عند أدورنو: "تدور في ذهنَي المؤلفَين طريقة في التفكير حيال المجتمع وتجربة اجتماعية، لا تعلن نظرية نهائية أو

(96) يُنظر ص 787 في هذا الكتاب.

(97) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 31 كانون الثاني/ يناير 1962.

تكررها بصورة دوغمائية، ولا تكتفي بملاحظة ما يجب أن يكون عليه الحال، وتتوافق بالتالي معها عن غير قصد. موقفهما من النظرية يشبه موقف من يأكل من خبزه: تُلتَهم النظرية من الفكر، وهو يعتاش عليها، وهي تتلاشى فيه"؛ إذ لم يعد هنا، إلى جانب "النظرية النهائية"، من مكان بعد الآن لنظرية نقدية. أبرز أدورنو موقفه بوصفه ضربًا من التفكير النقدي الذي تستوعبه النظرية. ففي خضم جهده الحثيث لتسويغ حقيقة أنه هو وهوركهايمر، خلافًا لنيّتهما المبيّتة طويلًا لصوغ نظرية للمجتمع، لم يقدّما إلا مجموعة من الهوامش لنظرية مجتمع غائبة أو على الأقل مبهمة، وصل أدورنو من حيث لا يدري إلى إسباغ المثالية على "الهوامش"، بوصفها الهدف الفعلي لعملهما المشترك. لكن ألم يكن ممكنًا أن يكون رفض نظرية نقدية، مسوغة من خلال لاعقلانية النظام الاجتماعي، التعبير الملائم عما كان يجول في ذهنيهما؟ في مسودة هوركهايمر، أزعج أدورنو افتراض أن غياب المصلحة في العلاقات الإنسانية العقلانية يؤثر في إمكان نشوء نظرية للمجتمع. "قد يكون بمقدور المرء، في وضع اجتماعي سيئ الطالع إلى هذا الحد ويندفع على نحو حتميّ نحو الكارثة، أن يرد ببساطة بأن المصلحة العليا - أي حرفيًا المصلحة المباشرة لكل فرد - تكمن في إيجاد التفسير المقنع لذلك في النظرية. والإنسانية بمقدار ما أصبحت واقعية، تنتظر الكلمة الخلاص". وهي، فضلًا عن ذلك، "ليست إلا الوجه الآخر للقضية ذاتها التي تتمثل في إمكانية أن تنشأ، في ضوء مسار العالم الراهن، أوضاعُ اليوم غدًا، وتقوم، في حين يكون لها على الأرجح طابع كارثي، في الوقت ذاته بإعادة إنتاج تلك الإمكانية العملية التي تنقطع اليوم. وطالما بقي العالم معاديًا واستمرت التناقضات، فإنه سيرث إمكانية تغييره أيضًا"[98]. لكن يمكن، على نحو مشابه تمامًا، الاعتراض على نسخة أدورنو بأن استحالة بناء المجتمع اللاعقلاني "بوصفه نظامًا متفقًا عليه" و"قبوله بكلمة ما عاد ينطقها المجتمع ذاته بعد الآن"، لا يمكن، ببساطة، استنتاج استحالة إنتاج نظرية جدلية للمجتمع. كانت لايقينيتهما حول موقفهما، بوضوح، في ما يخص نظرية للمجتمع، هي التي دفعت هوركهايمر وأدورنو إلى التخلي عن كل شيء يتجاوز العبارات الجافة للملاحظة المسبقة.

(98) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 31 كانون الثاني/ يناير 1962.

على الرغم من عدائية هوركهايمر وضعف أدورنو، لم يصل الأمر إلى القطيعة مع هبرماس. وحتى عودة هبرماس الذي تسلق سلّم الشهرة بسرعة إلى فرانكفورت في عام 1964 ليتسلم - بدعم من أدورنو - كرسي هوركهايمر للفلسفة وعلم الاجتماع، واصل مع أدورنو ما يشبه العمل المشترك عن بعد.

في الوقت الذي نُشرت أعمال مهمة في مجال تاريخ الفكر لزملاء آخرين في معهد البحث الاجتماعي، أمثال ألفرد شميدت وأوسكار نغت في سلسلة "مساهمات من فرانكفورت في علم الاجتماع" - نُشر لألفرد شميدت في عام 1962 **مفهوم الطبيعة في نظرية ماركس**، ولأوسكار نغت في عام 1964 **العلاقات البنيوية بين نظريتي المجتمع لكونت وهيغل** - انخرط هبرماس في "النزاع الوضعي بنسخته الخاصة من النظرية النقدية التي ارتسمت معالمها باكرًا". يرجع ما دخل لاحقًا تحت هذا العنوان في تاريخ العلوم الاجتماعية إلى سنوات الخمسينيات، ولا يعني، بالنسبة إلى أدورنو، إلا مواصلة ما بدأ في الثلاثينيات نزاعًا بين حلقة فيينا وحلقة هوركهايمر، وأدى إلى لقاء نقاشي بين أتباع فرانكفورت وأتباع فيينا في فرانكفورت وباريس ونيويورك، ومواصلة ما كان قد أصبح مفهومًا من هوركهايمر في مقالاته الأكثر شهرة، بوصفه تعارضًا بين "النظرية التقليدية والنظرية النقدية". عندما ألقى هبرماس في كانون الثاني/ يناير 1962 في مؤتمرات جامعة برلين محاضرة عنوانها "المهمات النقدية والمحافِظة لعلم الاجتماع"، بيّن بوضوح أكثر من أدورنو حول ماذا تدور الأمور.

بعد عام نَشر هبرماس مجموعة من الأعمال الأولى بعنوان "النظرية والممارسة" التي أراد أن تُفهَم كدراسات تاريخية تسبق البحث النسقي للعلاقة بين النظرية والممارسة في العلوم الاجتماعية. وفي العام نفسه، صدر له ضمن "شهادات" - وهو إطار تماثل صيغته سلسلة "مساهمات من فرانكفورت في علم الاجتماع" بمناسبة عيد ميلاد أدورنو الستين - [مقالة] "نظرية العلم التحليلية والديالكتيك: ملحق إلى المناظرة بين بوبر وأدورنو"، متخذًا بذلك أيضًا موقفًا رسميًا إلى جانب أدورنو.

رأى رالف دارندورف في عام 1961، في ملاحظاته على مناقشة التقارير حول منطق العلوم الاجتماعية التي قدمها كارل بوبر وتيودور أدورنو في مؤتمر داخلي لجمعية علم الاجتماع الألمانية في توبنغن، أنه "ليس سرًا أن هناك تباينات كثيرة في وجهة البحث، وفي الموقف النظري أيضًا، وكذلك في الموقفين الأخلاقي والسياسي، تُميّز الجيل الراهن من أساتذة علم الاجتماع في الجامعات الألمانية. بعد بعض المناقشات في السنوات الأخيرة، بدا كما لو أن مناقشة أسس علم الاجتماع العلمية المنطقية يمكن أن تكون طريقًا ملائمًا يتيح إظهار الفوارق القائمة، وجعلها مفيدة للبحث. لكن مؤتمر توبنغن لم يؤكد هذا الظن. ومع أن مشاركين من كلا الطرفين لم يترددوا خلال نقاشاتهم في إبداء الرأي بوضوح، فقد افتقر النقاش عمومًا إلى تلك الحدة التي كان يمكن أن تلائم اختلافات وجهات النظر الموجودة في الواقع. كذلك تشبثت بقوة معظم المساهمات في المناقشة بالمجال الضيق للموضوع، بحيث لم تنجلِ كثيرًا المواقف الأخلاقية والسياسية التي تقوم عليها"[99].

لم تؤدِّ التباينات إلى أقل من الاتهام المتبادل بالميول الشمولية. وتجلّى ذلك بوضوح، مرة أخرى، قبل مؤتمر توبنغن في المؤتمر الرابع عشر لعلماء الاجتماع الألمان الذي انعقد في برلين في عام 1959. في محاضرتين رئيسيتين متتاليتين، تحدث هوركهايمر عن "علم الاجتماع والفلسفة"، وتحدث كونيغ عن "التحولات في موقف إنتليجنسيا علم الاجتماع". فأكد هوركهايمر أن علم الاجتماع، من دون الاهتمام بمصير الكل، ومن دون تحقيق مهمة "تأمُّل المجتمع لذاته" في ضوء هدف "الحياة المشتركة الصحيحة بين البشر"، سوف يخفق في "الكفاح ضد العالم الشمولي الذي لا يتهدد العالم الأوروبي من الخارج فحسب"[100]. لا بد من أن كونيغ الذي رفض بدقة مطلب هوركهايمر لأنه ما عاد ملائمًا لعلم اجتماع تخصصي "خالص"، قد فهم أن الحديث موجَّه إليه. فاستغل محاضرته ليثأر لنفسه، عندما أكد أن خبراء علم الاجتماع الذين تأقلموا في المعمل وفي الوظائف، والذين رعوا "قيام الآلة بوظيفتها الحقيقية"، استطاعوا أن يمارسوا النقد "في المكان الوحيد الذي يستحق النقد فعليًا،

---

(99) Theodor W. Adorno et al., *Der Positivismusstreit in der Deutschen Soziologie*, p. 145.

(100) Max Horkheimer & Theodor W. Adorno, *Sociologica II*, pp. 12, 13.

أي ليس في البعد غير الإلزامي للنقاش الأدبي، بل في الواقع الذي تُتَّخذ فيه جميع القرارات التي يزخر بها المستقبل"، وأضاف ملاحظة أنه "يجب، في أي حال، أن يكون مفهوم النقد أيضًا محط تدقيق وبحث. ولا يمكن أن يقتصر الأمر على رفض هذا الجانب أو ذاك من الاقتصاد الرأسمالي، أو قياس واقع معطى في مفهوم غير ملزِم. لقد بيّن سوريل أن طريقة الهجوم الطوباوي هذه لا بد من أن تؤدي، في نهاية المطاف، إلى الإكراه المطلق والإرهاب، كما يتحقق عمليًا؛ وذلك - كي نقول مع غايغر مرة أخرى - لأن 'المستاء اليوم هو الحاكم المحتمل غدًا'. هناك، أيضًا، نقد للشمولية ينطوي على شمولية خفية، يظهر خصوصًا في نقد الثقافة الذي حدده ماركس. وعلى العكس، تطوّر نقد السلطة - كما لاحظه غايغر - على خط مغاير كليًا، أي على خط علوم المجتمع التجريبية التي تقيس أيديولوجيات الحكام وادعاءاتهم على الوقائع، وتؤثر بمعنى 'تنوير' حقيقي"[101].

في استغلال الواقع وتوظيفه، ليس إزاء أيديولوجيات الحكام فحسب، بل أيضًا، وعلى نحو أشد وأبعد، إزاء أيديولوجيات الطوباويين والمستائين، التقى عالمُ الاجتماع "الخالص" كونيغ ومحلل العصر التكنوقراطي شلسكي ومنظّر العلوم الليبرالي الجديد بوبر. حتى شلسكي الذي رحّب بـ "نظرة علمية اجتماعية حقيقية" بالانسحاب من المجال السياسي العام إلى العائلة الخاصة والنشاط المهني الخاص، بوصفه "ردًا سارًا جدًا للمجرد والمبدئي في الفكر الاجتماعي إلى تجربة كل وجود شخصي وموضوعيته"[102]، استطاع أن يتّهم في موقع واحد على الأقل منظّري فرانكفورت بالميول الشمولية تقريبًا. وجاء في كتاب **تحولات العائلة الألمانية في الوقت الحاضر** الصادر في عام 1953: "هذه الأيديولوجيا العائلية المعادية للشمولية عقائديًا تصبح، بوعي أو بلا وعي، نصيرًا لحزب السلطة البيروقراطية وتسلطها المجرد ضد حميمية العائلة والتسلُّط الطبيعي للفرد فيها"[103].

---

(101) Rene König, *Studien zur Soziologie*, pp. 89, 90, 101.

(102) Helmut Schelsky, "Vom sozialen Defaitismus der sozialen Verantwortung," *Gewerkschaftliche Monatshefte* (1951), p. 334.

(103) Ibid., p. 327.

تحادث بوبر وأدورنو في خلال مؤتمر توبنغن بأدب في مواضيع جانبية، واكتفيا بخلاصات أساسية لمواقفهما العلمية النظرية. فبوبر الذي تأثر بالكانطية الجديدة وعلم النفس الغشتالتي، ونشر في عام 1934 في فيينا، وهو في الثانية والثلاثين من عمره، مؤلَّفه الرئيسي **منطق البحث العلمي**، وعى نفسه منذ البداية ناقدًا للوضعية المنطقية. وواجه بجمعه بين التجريبية والمنطق الجديد منهجَ التجريب النقدي لمحاولات حل نظري للمشكلات، وبرهن بذلك على صحة نظرة أكثر انفتاحًا لعملية البحث الحقيقية. كانت النزعة النقدية وقابلية الخطأ، أي إثبات الصلاحية من خلال المناقشة النقدية لكن من دون الوصول نهائيًا إلى حلول موثوقة للمشكلات، هما ما يميّز المنهج النقدي الذي تطبّقه - بحسب رأي بوبر - العلوم الحديثة منذ غاليليه، والذي يمكن أيضًا نقله إلى التاريخ والسياسة.

كذلك حذّر بوبر في محاضرته في توبنغن علماء الاجتماع من "النزعة العلموية"[104]، أي من نقل "سوء فهم منهج العلوم الطبيعية"، و"أسطورة الطابع الاستقرائي لمنهج العلوم الطبيعية، وطابع الموضوعية في العلوم الطبيعية" إلى العلوم الاجتماعية؛ فما يجب أن يُنقَل هو نظريته العلمية النقدية. أدى هذا بوضوح إلى أن يدخل الاقتصاد بوصفه مثالًا نوعيًا، أي ذلك العلم الذي امتلك منذ مدة طويلة درجة من الكمال الشكلي تفوق جميع العلوم الاجتماعية الأخرى، وتجرَّد بقدر كبير عن الواقع الاجتماعي. فقد رأى بوبر في الاقتصاد طريقة فهم **موضوعي** أو منطق حالة تُطبَّق عمليًا. وفيه كان يجري العمل على إعادة بناء نظرية لأفعال "تلائم الحالة موضوعيًا". إعادة البناء النظرية هذه كانت قابلة للنقد عقلانيًا وتجريبيًا، ويمكن إدخال التحسينات عليها. لكن من أجل أغراض تحليل الحالة، يجب تحويل رغبات الفرد ودوافعه وذكرياته وما شابه، إلى أهداف موضوعية، وإلى تزويدها موضوعيًا بهذه النظريات أو تلك، وبهذه المعلومات أو تلك. أدى الفهم إلى إيجاد منطق الحالة لفعل يمكّن الباحث من القول: لو امتلكتُ الأهداف والنظريات والمعلومات ذاتها، لتصرفتُ على النحو ذاته

---

(104) العلموية (Szientismus) مصطلح استعمله أول مرة عالم الأحياء الفرنسي فليكس لو دانتيك، وكان يعني به إمكان استعمال أساليب العلوم الطبيعية خاصة للإجابة عن كل سؤال في المجالات العلمية الأخرى، كالعلوم الإنسانية مثلًا. (المترجم)

تمامًا. فالأمر لم يتعلق بفحص الكيفية التي تتداخل فيها الرغبات الذاتية والقيود الموضوعية، والتصورات الذاتية والعلاقات الموضوعية في الفعل الاجتماعي، بل كان يتعلق بتحويل العوامل الذاتية، عبر عملية ترجمة، إلى عوامل شبيهة بالوقائع التي تفحصها العلوم الطبيعية، إلا أن كيفية تطبيق عملية الترجمة هذه في إطار نظرية العلم النقدية لبوبر، تبقى غير واضحة. بدا كارل بوبر، بتشديده على أولوية النظرية والوظيفة التصحيحية الخالصة للتجربة، أنه أقرب إلى النظرية النقدية منه إلى الوضعيين الحقيقيين. لكن، بالنسبة إليه، شكلت أيضًا الحقيقة التاريخية لتطور المعرفة في العلوم الطبيعية، من غاليليه إلى أينشتاين، نقطةَ الانطلاق والمعيار النقدي لكل الانعكاسات الفلسفية. كذلك ساوى بين المنهج التحليلي-التجريبي في العلوم الطبيعية الذي يقوم على ركيزتين أساسيتين - التجارب أو الاختبارات، والنظريات أو أنساق القول الاستنباطية - والعقلانية العلمية عمومًا. على أنه أصبح، بعدم استبعاده الفرضيات التي لم يكن هناك ما يثبتها تجريبيًا في الوقت الراهن، أكثر إنصافًا لواقع تطور العلوم الطبيعية.

ومن غير محاولة إجراء مقارنة بين الموقفين نسقيًا، أو تطوير موقفه إلى نقد محايث انطلاقًا من موقف بوبر، قام أدورنو بتسمية النقاط التي أوضحت أن نظرية العلم لبوبر تفضي أيضًا إلى رفض النظرية النقدية بوصفها نظرية لاعلمية. ذلك أن نظرية العلم لبوبر استبعدت أن تكون الملاحظات الفردية القيمة ممكنة إلا نسبة إلى تصوّر مؤقت، كالعادة، عن الكلية الاجتماعية. وهي تستنكر أن يكون بإمكان أي نظرية غير استنباطية أن تكون الشكل الملائم لمعرفة المجتمعات المتناقضة والمتخاصمة. إنها تستبعد أن يكون بمستطاع تجارب الأفراد أن تكون أكثر صوابية من النتائج المؤسسة في مخبر العلم الرسمي المنظم. وهي تستتبع وجهة النظر القائلة بأن التقويم في علم الاجتماع لا يمكن أن يكون شيئًا حياديًا من خلال المعرفة الذاتية، بل هو شيء يركّب المعرفة بهذا الشكل أو ذاك. ويحاجج أدورنو في القسم الأخير من ورقته التكميلية، قائلًا: "ليست تجربة الطابع المتناقض للواقع الاجتماعي نقطة انطلاق عشوائية، بل هي الدافع الذي يؤسس، بدايةً، لإمكان علم الاجتماع عمومًا"، ويضيف: "إن تخلّي علم الاجتماع عن نظرية نقدية للمجتمع يُعَدّ استسلامًا؛ إذ ما عاد المرء يجازف في التفكير في الكل، لأنه يجب أن يرتاب في إمكان تغييره. لكن إن

أراد علم الاجتماع، لهذا السبب، أن يلزم نفسه بمعرفة الحقائق والشخصيات في خدمة ما هو قائم، فلا بد من أن تُلحِق هذه الخطوة الضررَ، على نحو متزايد، بتلك الرؤى التفصيلية التي يظن علم الاجتماع أنه حقق من خلالها نصرًا على النظرية، وتجعل من تلك التفاصيل عديمة الأهمية"[105].

يحب كل من بوبر وأدورنو أن يختبرا الطابع المتناقض للمجتمع. غير أنهما اختبراه على نحو مختلف، وكانت استجاباتهما مختلفتين. أقرّ أدورنو في المناقشة أنه يرى نفسه، في ما يخص الواقع الاجتماعي، متغلبًا على وجهة النظر الهيغلية اليسارية[106]؛ إذ يجعل فهم الناس وشكل الواقع من كل من يتصرف "كما لو أن المرء يستطيع تغيير العالم غدًا"، كاذبًا. بناء على ذلك، اتهمه بوبر بالتشاؤمية التي تنبع بالضرورة من الخيبة، بسبب فشل الآمال اليوتوبية أو الثورية. من يعتقد مثله - أي بوبر نفسه - أنه لا يعرف شيئًا، ولا يريد كثيرًا، بوسعه أن يكون متفائلًا. وصلت المواجهة التقليدية إلى نقطة النقاش المتأخرة هذه. مثّل بوبر وجهة نظر أن على المرء أن يقوم بما هو ممكن، وزعم أنه يتشاطر مع أدورنو مثال مجتمع أكثر عقلانية، لكنه كان يعتبر هذا المثال شيئًا مستحيلًا يجب أن يأمل به المرء لتحقيق ما كان ممكنًا. واتهم خصمه بأنه يصف المستحيل بوصفه ممكنًا من الناحية المبدئية؛ وهو [أدورنو] إن لم يحرّض، بوصفه ثوريًا متفائلًا، على الثورة، سوف يستثير بوصفه خصمًا للإصلاح يائسًا التذمّرَ من الوضع القائم وما يمكن فعله، ويستدعي الاستسلام مع كل ما يحمله من عواقب.

سلك هبرماس نهجًا مغايرًا كليًا لأدورنو. وقد استطاع أن يتبع طريقًا مختلفًا تمامًا، لأن تصوّره - كما تبيّن في هذه المناسبة على أبعد الفروض - يختلف في النقاط الجوهرية عن أدورنو، وعن باقي المنظّرين الرئيسيين في حلقة هوركهايمر أيضًا. استطاع هبرماس - كما أصبح جليًا الآن على الأقل - أن يحاول تقديم ما يشبه مقاربة نقدية محايثة لبوبر، وهي المحاولة التي لم يُقْدِم عليها أدورنو إلا بفتور. استطاع مبدئيًا، وهو منظّر المجال العام النقدي والممارسة، بالمعنى المؤكد للفعل الأخلاقي السياسي، أن يتصدى

---

(105) Adorno et al., *Der Positivismusstreit*, pp. 142 f.

(106) يُقارن مع ص 826 وما بعدها في هذا الكتاب.

لبوبر ونقده للوضعية بالطريقة ذاتها التي تصدى فيها ماركس لليبرالية، بعكس الفكرة الملتقطة للمجال العام البرجوازي مرآويًا على الشروط الاجتماعية التي يمكن أن يتطلبها تحققها غير البرجوازي. أخذ هبرماس فكرة بوبر عن تأسيس الموضوعية العلمية في النقاش العقلاني النقدي بالاعتبار، وعارضها بضرورة "عقلانية شاملة للحوار الحر بين الأشخاص المتواصلين"[107]، بوصفها شرط إمكان تحقق مثل هذه الفكرة إذا ما تم التخلي عن نموذج تقدم المعرفة في العلوم الطبيعية.

أسقطت التجريبية المنطقية، أو الوضعية الجديدة، مثالًا علميًا على ممارسة العلم من غير أن تهتم بالإنتاج الفعلي للمعرفة العلمية. لقد اعتبرت - بالتطابق مع الرؤية التي سادت حتى الستينيات عن تطور العلم الذي يتحدد جوهريًا بالعلاقة بين العلوم - العلم من حيث المبدأ "عالمًا ثالثًا" (بوبر) لاتاريخيًا ولااجتماعيًا للمعرفة الموضوعية، تخضع بنيته الداخلية وتطوّره للمنطق وحده. وسّع بوبر النظرة، ووضع مشكلة تقدم العلم في المقدمة، لكن بالطبع في ضوء التقيّد في "سياق الدحض"؛ أي التحقق النظري المعرفي والمنطقي من الفرضيات النظرية، واختبارها التجريبي في ضوء مبدأ الدحض، بهدف مواصلة الاقتراب من الحقيقة، لأنه استبعد "سياق الكشف"، أي التأثيرات الخارجية ذات الطبيعة النفسية والاقتصادية-الاجتماعية التي اعتبرها غير مهمة لمنطق البحث العلمي. درس هبرماس في سنوات إقامته في هايدلبرغ البراغماتيين الأميركيين بناء على اقتراح صديقه كارل أوتو أبل (Karl-Otto Apel)، وتعلّم تقويم أعمالهم بوصفها ضربًا من فلسفة الممارسة الديمقراطية النظرية في الولايات المتحدة الأميركية. تمثلت مناورة هبرماس بالنقلة التالية: اعتبر نظرية العلم لبوبر المرحلة الأولى في نقد الوضعية لذاتها، وقام بتجذير المرحلة الأولى هذه من خلال منظور براغماتي، وحمل نموذج المعرفة في العلوم الطبيعية إلى سياق أكثر شمولية مما فعل بوبر، ثم وضع هو نفسه منظورًا براغماتيًا لفكرة بوبر عن المناقشة العقلانية النقدية. قدم تسويغًا براغماتيًا لمنطق البحث العلمي

(107) Jürgen Habermas, "Dogmatismus, Vernunft und Entscheidung - Zu Theorie und Praxis in der verwissenschaftlichten Zivilisation," *Theory und Praxis*, p. 254.

لبوبر، لكي يفسح المجال للمنطق، وللتأسيس البراغماتي لنموذج البحث الجدلي، ولكي يقدم، في نهاية المطاف، ضوابط ثقافية للعقلانية التقنية التي جعلتها التجريبية المنطقية وعقلانية بوبر النقدية مطلقة.

في تحليل طرق الاختبار التجريبية الممكنة للنظريات في فلسفة العلم، نشأ ما أطلق عليه "مشكلة الأساس"، أي مشكلة أن البيانات الحسية الأولية لا يمكن اعتبارها معطى حدسيًا وبيّنًا من فوره، كما تزعم التجريبية المنطقية. اقترح بوبر كحلّ ممكن للمشكلة تطبيق معياره في قابلية اختبار النظريات على "العبارات الأساسية". ويمكن تقرير ما إذا كانت عبارة أساسية تستند إلى تجربة كافية من خلال إجماع مؤقت وقابل للردِّ باستمرار من جميع المراقبين الذين يشاركون في محاولات دحض نظريات محددة. لكن ضرورة الإجماع تحيل إلى التوجّه نحو توقّع سلوك منمذج اجتماعيًا. وتبعًا لهبرماس، تقترح طبيعة الشروط التجريبية، وطبيعة القوانين النظرية (تنبؤات مشروطة عن السلوك القابل للمراقبة)، تفسيرًا براغماتيًا معينًا لعملية الكشف التي حلّلها بوبر، أي تفسيرها بوصفها جزءًا من مجال فعل العمل الاجتماعي. "ما تُدعى مشكلة الأساس لا تظهر، ببساطة، إذا اعتبرنا عملية البحث جزءًا من عملية شاملة لأفعال مؤسسة اجتماعيًا، تواصل من خلالها مجموعات اجتماعية حياتها المحفوفة بالمخاطر، بحكم الطبيعة. بالنسبة إلى العبارة الأساسية، فإنه ما عاد يتطلب الصلاحية التجريبية من دوافع الملاحظة الفردية وحدها، بل أيضًا من الاندراج السابق للإدراكات الفردية في عالم القناعات التي لا تشكل إشكالية، وأثبتت نفسها على قاعدة واسعة. يحدث هذا في ظل شروط تجريبية تُقلّد بدورها ضبط نتائج الفعل المركَّب، بصورة طبيعية، في أنساق العمل الاجتماعي. لكن عندما تُشتَقّ الصلاحية التجريبية للفرضيات المختبرة تجريبيًا من علاقات عملية العمل، فلا بد عندئذ من أن تحتمل المعرفة العلمية التجريبية الصارمة تفسيرها من خلال مرجعية الحياة ذاتها، وصولًا إلى نموذج فعل العمل، أي إلى السيطرة الملموسة على الطبيعة"[108].

---

(108) Jürgen Habermas, "Analytische Wissenschaftstheorie und Dialektik, 1963," in: Adorno et al., *Der Positivismusstreit*, p. 181.

في أي حال، يقوم نموذج فعل العمل - بحسب هبرماس - على المصلحة بجعل العملية الموضوعية متاحة. بناء عليه، توجّه نموذج البحث التحليلي-التجريبي نحو هذه المصلحة أيضًا. وقد شكّلت هذه المصلحة التقنية بنظر هبرماس الرابطة المعيارية لنموذج العلم الذي ساوت الوضعية الجديدة والعقلانية النقدية بينه وبين عقلانية العلم وجعلته، من حيث المبدأ، بلا قيمة. وبهذا حسم هبرماس الجدل حول خلو العلم من القيمة بحجج أنثروبولوجية على النحو التالي: كانت العلوم التحليلية-التجريبية جزءًا من إعادة الإنتاج الاجتماعية، وتمتلك في الحقيقة شرط إمكانها في وظيفتها المحددة في إعادة الإنتاج الاجتماعية. ما قدّمه هبرماس كان نوعًا من التأسيس البراغماتي المتعالي لنموذج العلم الوضعي، أو إذا توخينا الدقة أكثر، لنموذج تلك العلوم التي تنصفها، إلى حد بعيد، نظرية علم وضعية.

لكن ما المزايا التي نتجت من ذلك، بالنسبة إلى دفاع هبرماس عن إمكانية توجُّه علمي في السلوك العملي، وعن ارتباط المعرفة الوثيق بالممارسة العقلانية، والتفاهم العقلاني حول الأهداف والغايات، والسيطرة العملية على العمليات التاريخية؟

انتُزِعت من زعم العلوم التحليلية-التجريبية باحتكار العقلانية والموضوعية العلميتينِ الحجة بأنها كانت خالية من القيمة. فهذه العلوم امتلكت أيضًا مرجعية حياتية موضوعية، ما عادت ببساطة ملحوظة لدى العلماء وفلاسفة العلم، لأنها كانت أكثر الأشياء وضوحًا في العالم. على أن النسيان الصارخ لهذا بالذات في حالة المصلحة المعرفية التقنية، يمكن تفسيره من خلال نتائج التحديث الرأسمالي. "فبالقدر الذي تؤثر العلاقات التبادلية في عملية العمل، وتجعل أسلوب الإنتاج تابعًا للسوق، تنفصل علاقات الحياة التكوينية في عالم جماعة اجتماعية، أي العلاقات الملموسة للناس بالأشياء وفي ما بينهم [...]. ومثلما تتلاشى، من ناحية، قوة العمل الموظفة فعليًا، ومتعة الاستهلاك المحتملة في القيم التبادلية، كذلك يحتجب، من ناحية أخرى، تنوّع علاقات الحياة الاجتماعية والمصالح التي تقود المعرفة في الأشياء المتبقية، إذا ما جُرّدت منها الطبقة السطحية من خصائص القيمة الذاتية. وسيكون أكثر يسرًا للهيمنة الإقصائية لمصلحة محددة أن تفرض نفسها بلا وعي، وأن تُشرك، استكمالًا

لعملية الانتفاع، كلًا من عالمي الطبيعة والمجتمع في آلية العمل، وتحوّلهما إلى قوى منتجة"[109]. فالنظرية والتقنية لم ترتبطا معًا في العلوم الطبيعية إلا إبان المرحلة الأولى من الرأسمالية.

إذا لم يعد بوسع العلوم التحليلية-التجريبية أن تشرح، بالاستناد إلى زعم امتلاكها احتكار خلو القيمة والموضوعية العلمية، صعوبات تطبيقها في مجال المجتمع، من خلال تأكيد غياب أي بدائل علمية لها، وإذا كان إيجاد الحلول للمشكلات الناشئة مجرد مسألة وقت، يظهر عندئذ فحسب نموذج آخر من علم الاجتماع. وُفِّرت على نموذج العلم الجديد هذا بعض المشكلات المركزية لعلم اجتماع تحليلي تجريبي؛ فهو لا يحتاج، على سبيل المثال، لأن يحتار إن لم تكن ثمة طريقة لعزل علاقات الغاية والوسيلة، كما هو الحال في السيطرة التقنية على الطبيعة، وتطبيقها على السلوك الإنساني من حيث هي نموذج تفسيري، بل أن تؤكد الوسائل، مثلًا، امتلاكها قيمة، أو أن تبرهن الغايات على تنوّعها، وألا تكون مفهومة إلا في سياق اجتماعي أكبر. إذا كان الأمر كذلك، فإن نموذج علم الاجتماع المختلف هذا لا يمكن أن يُرفَض على أرضية اتهامه بأنه ليس خالي القيمة. بدلًا من ذلك، يمكن القيام بمحاولة تأسيس النموذج الجدلي لعلم الاجتماع في "وضعه في إطار مرجعية ترانسندنتالية" بديلة.

لم يتم تمييز إطار المرجعية هذا منذ زمن طويل على النحو الدقيق، كما هو الحال بالنسبة إلى مجال السيطرة التقنية على العمليات الموضوعية. في تحديده، كان هدف هبرماس إنجاز تصوّر عملية تكوين للنوع البشري، يتلاءم فيها تأسيس العلوم البراغماتي المتعالي أو الأنثروبولوجي المعرفي. في ردّه على مقالة لهانز ألبرت، تلميذ بوبر، جمع هبرماس ما تعلّمه من طيف واسع من المصادر في وصف أصلي وشامل لعلم الاجتماع ككل، ضمّت مصادره، مثلًا، روتاكر حول "أسلوب الحياة"، وغِلِن حول "مجال السلوك"، وغادامر حول "الحوار"، من حيث هو أساس الوجود الإنساني المتشكِّل عبر التواصل، وهوسرل حول علاقة عالم الحياة بالعلم، وأدورنو وهوركهايمر حول النظرية النقدية وشلسكي وريتر وغيرهما حول دور العلوم في حضارة

(109) Ibid., p. 185.

شوّهها العلم، وحنة أرندت حول علاقة النظرية والتقنية والممارسة، وفرويد حول التحليل النفسي علاجًا عبر التأمل الذاتي. في الفقرة الأخيرة من ردّه، كتب هبرماس: "في علم الاجتماع بوصفه علم سلوك صارمًا، لا يمكن صوغ الأسئلة التي تحيل إلى الفهم الذاتي لمجموعات اجتماعية؛ لكنها ليست بلا معنى لهذا السبب، ولا تنسحب من النقاش الملزِم. فهي تتأتى موضوعيًا من كون إعادة إنتاج الحياة الاجتماعية ما عادت مجرد أسئلة قابلة للحل تقنيًا، بل تضم ما هو أكثر بوصفها عملية تكيُّف مع نموذج استعمال الوسيلة بغاية عقلية. فالأفراد الذين انضووا في جماعات لا يحافظون على حياتهم إلا من خلال هوية جماعية، بخلاف التجمّعات الحيوانية التي يتعيّن إعادة بنائها باستمرار، وتدميرها وتشكيلها من جديد. يستطيع هؤلاء الأفراد أن يضمنوا وجودهم من خلال عمليات تكيُّف مع المحيط الطبيعي، ومن خلال إعادة التكيُّف مع نظام العمل الاجتماعي بالقدر الذي يتوسّطون عملية تفاعلهم العضوي مع الطبيعة عبر توازن غير مستقر إلى حد بعيد بين الأفراد [...]، يكرر كل منهم في دوائر حياته تجارب خسارة الهوية المهددة، وإرسال التواصل الكلامي؛ لكنها ليست أكثر حقيقية من التجارب الجمعية في تاريخ النوع التي قامت بها لنفسها في الوقت ذاته، جميع الذوات الاجتماعية في مواجهتها للطبيعة. ويتعذر توضيح أسئلة تتصل بهذا المجال من التجربة من خلال البحث التحليلي-التجريبي، لأنه لا يمكن الإجابة عنها بواسطة معلومات يمكن الاستفادة منها تقنيًا. على الرغم من أن علم الاجتماع يحاول أيضًا أن يناقش، منذ بداياته في القرن الثامن عشر، هذه الأسئلة على نحو خاص، وهو في ذلك لا يستطيع التخلي عن التفسيرات التاريخية. كذلك لا يستطيع تجنُّب أحد أشكال التواصل الذي لا تطرح المشكلات نفسها إلا من خلاله، أعني الشبكة الجدلية لسياق تواصليّ يطوّر فيه الأفراد هويتهم الهشة بين مخاطر التشيُّؤ وفقدان التشكُّل [...]. في تطوّر الوعي تطرح مشكلة الهوية نفسها، في الوقت عينه، بوصفها مشكلة البقاء في قيد الحياة والتفكير. ومن الوعي انطلقت ذات مرة الفلسفة الجدلية"[110].

(110) Jürgen Habermas, "Gegen einen posivistisch halbierten Rationalismus, 1964," in: Ibid., pp. 263 f.

فوق هذا كله، وُجِدت يوتوبيا خاصة يوفرها العلم لإعادة إنتاج "العقلانية الشاملة التي لا تزال تعمل في إطار التأويل الطبيعي للغة اليومية بشكل طبيعي، إن جاز القول"[111]، وذلك بوصفها نوعًا أنثروبولوجيًا لمفهوم هبرماس لتقليص الهيمنة وعقلنتها من خلال المجال العام السياسي. كان المقصود بالتأويل الطبيعي للغة اليومية أن اللغة اليومية كانت وسيطًا محتملًا يُمكّن من التأمل الذاتي؛ أي كان يمكن تفسير تعابير لغوية عادية، بحسب الحاجة، بوسائل لغوية عادية. والبشر بوصفهم ذوات ناطقة، يجدون أنفسهم - كما يرى هبرماس - "في تواصل دائم، ينبغي أن يفضي بالنتيجة إلى تفاهم"[112]، ومن ثم إلى "عقلانية شاملة".

ألقى هبرماس الذي تقلّد كرسي الأستاذية خلفًا لهوركهايمر محاضرته الافتتاحية "المعرفة والمصلحة"، في صيف 1965 في فرانكفورت. رسمت هذه المحاضرة أخيرًا طورًا هجوميًا في النزاع مع الوضعية (هذا المفهوم الذي كان لا يزال يستعمله هبرماس وأدورنو، والذي لا يشير إلى تجاهل التحول أو التقدم في المعسكر العلمي الذي عالج الشكل المسيطر الراهن للبحث العلمي بوصفه شكلًا مطلقًا، بل يؤشر إلى التشبث بمفهوم أعلى يأخذ في الحسبان القواسم المشتركة المركزية الطويلة الأمد بين المواقف المتباينة). بعد جيل، تأكد هبرماس - بوعي ذاتي، واضعًا نفسه في تقاليد مدرسة فرانكفورت - أنه يأخذ مرة أخرى موضوع التمييز بين نظرية بالمعنى التقليدي ونظرية بالمعنى النقدي، وهو الموضوع الذي كرّس له هوركهايمر واحدًا من أهم أبحاثه. تضمّنت المحاضرة الافتتاحية مجمل "نظرية العلم النقدية" التي أظهرت قبضة نظرية العلم الوضعية وفق خصائص العلم المختلفة، والتي لم تحاول إيقاف هذه القبضة بسلسلة من الأطروحات فحسب، بل سعت إلى تبنّيها في إخراجها الخاص.

يميّز تقسيم العلم المعروف منذ زمن في الولايات المتحدة بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية. في دراسته الصادرة في عام 1963 حول فكرة الجامعة الألمانية وشكلها وإصلاحها - وعنوانها **العزلة**

---

(111) Ibid., p. 260.

(112) Ibid., p. 254.

والحرية - وضع شلسكي خطة تقسيم ثلاثية مشابهة، تلائم تطور العلم الألماني وتطور العلم الأوروبي الجديد عمومًا، ونظامه الأكاديمي. جرى في الفترة التي تلت مرحلة هومبولت فصل كلية العلوم الطبيعية عن كلية الفلسفة التي غدت كلية "علوم الروح" (العلوم الإنسانية) التي تشمل العلوم غير الطبيعية (بصرف النظر عن الطب والحقوق واللاهوت التي لم تصنَّف أشكالًا علمية ثقافية[113]، ولها كليّاتها الخاصة بها). انفصل علم الاقتصاد، وعلم الاجتماع، والعلوم السياسية، وعلم الحقوق وما إلى هنالك عن كلية العلوم الإنسانية، وتبلورت إزاءها في مركّب العلوم الاجتماعية. وهكذا كان هناك - كما هو الحال في تقسيم العلوم في الولايات المتحدة الأميركية - ثلاثيّ مؤلف من العلوم الإنسانية والطبيعية والاجتماعية. لكن هذا التقسيم يخفي وراءه، خلاف الحال في الولايات المتحدة الأميركية، تاريخًا من انحسار فكرة الثقافة (Buildung) من خلال العلم، وهي الفكرة التي كانت تميّز المثالية الألمانية وإصلاح الجامعة المنسوب إلى ألكسندر فون هومبولت واعتبرت الرياضيات والعلوم الطبيعية أصلًا من العلوم التثقيفية، لأن لها، في نظر ألكسندر فون هومبولت، علاقة بكليّة الطبيعة التي تحركها قوى داخلية وتبثّ فيها الحياة[114]. مثّل ديلتاي بقوة، مرة أخرى، إحياء الأفكار التطويرية في العلوم الإنسانية، لكنه استاء سلفًا من التاريخانية، ومن ميلها إلى تحويل التاريخ والتقاليد إلى قطع متحفية. عندما تبلورت العلوم الاجتماعية، بدورها، بوصفها مُركّبًا جديدًا، لم تدَّعِ مطلقًا في البداية أنها تؤدي دورًا ثقافيًا. وهي إن ادعت لنفسها أهمية عملية، فالأهمية كانت ذات طبيعة إدارية.

غير أن هانز فراير، في كتابه **علم الاجتماع بوصفه علم الواقع** الصادر في عام 1930 - وهو محاولة تأسيس فلسفي لنسق علم الاجتماع - نسب إلى هذا العلم دورًا خاصًا، يحافظ فيه كما بدا على فكرة الثقافة؛ أي دوره في تقديم "المعرفة الذاتية العلمية للواقع الاجتماعي"، و"المعرفة الذاتية لحدث في وعي

(113) الثقافة هنا تقابل كلمة Buildung في الألمانية، وتعني التربية أو تكوين الشخصية أو الطريقة الملائمة لتطوير المواهب والقدرات الطبيعية. (المترجم)

(114) يُنظر:

Alexander von Humboldt, *Kosmos - Entwurf einer physischen Weltbeschreibung*, 5 Bde (1862; [1845]).

الإنسان الذي ينتمي وجوديًا إلى هذا الحدث"[115]. ما دعا إليه فراير كان، على وجه التحديد، تأسيسًا فلسفيًا، وتحليلًا منطقيًا يساعدان علم الاجتماع في القيام بمهماته: "في الفهم والتفسير والفاعلية في الحياة"[116]. رأى فراير شرط ذلك في طرح السؤال الكانطي حول الكيفية التي تكون فيها علوم الطبيعة والتاريخ وعلم الاجتماع ممكنة، على الرغم من أنه لا يجب بالضرورة أن يكون الجواب كانطيًا.

كان جواب فراير أنه يرى في "إرادة معرفة واعية"، وفي "موقف معرفي مميّز"، الشرطَ المسبق لعلمية أشكال المعرفة. وقد ميّز بين ثلاثة مواقف معرفية، تتوافق مع ثلاثة مجالات من الموضوعات مبنيّة بصورة مختلفة، وثلاث علاقات حياتية بمجالات الموضوعات. "على الأرض يريد [الإنسان] أن يعيش، وهو يريد أن يزرعها. وهذا يعني أن يمنحها أشكالًا إنسانية. لا يمكن تصور الموقف المعرفي للعلوم الطبيعية من دون حقيقة الإرادة الأولية هذه، أي من دون الإرادة التقنية بالمعنى الأوسع للكلمة. فمن أي عناصر تتركّب عمليات الطبيعة المعقدة، وبموجب أي قوانين تسير؟ وما أشكال الأنساق المادية التي يؤدي إدخالها في العملية الطبيعية إلى نشوء وضع محدد 'ب' انطلاقًا من وضع محدد 'أ'؟ تشكّل هذه الأسئلة المُوجِّه الخفي للمعرفة في العلوم الطبيعية، وتستدعي جميع تكويناتها المفهومية. هذا الموقف المعرفي لا يعني خلط الدوافع غير المتجانسة للمنفعة، بل هو قائم في موضوع المعرفة ذاتها، وفي علاقة حياة الإنسان به. قامت العلوم الطبيعية الغربية الحديثة، بلا مبالاة وعلى نحو جذري، بتنفيذ هذه الأخلاقية في المعاينة العنيفة أو المداورة للطبيعة، بهدف السيطرة التدريجية عليها. بيد أن هذا الشكل التاريخي للفكر في العلوم الطبيعية - وهو الأقرب إلينا والذي ننطلق منه بداهة - يقوم على موقف معرفي له صلاحية عمومية، يمليه الموضوع بالذات"[117]؛ فالموقف المعرفي للفهم والتلقّي الداخلي يتلاءم مع البنى العقلية ذات الصلة. فالتاريخ الحادث، أي الحدث المعقول الذي ينتمي إليه الإنسان نفسه وجوديًا، يلائم، بوصفه موقفًا معرفيًا، الوعي الذاتي لواقع وجودي، ومعرفة ذاتية بقصد تشكيل المجتمع.

(115) Hans Freyer, *Soziologie als Wirklichkeitswissenschaft*, p. 205.

(116) Ibid., p. 7.

(117) Ibid., pp. 203 f.

(أن يطوي النسيان تأسيس فراير لعلم الاجتماع بعد عام 1945 - صدرت، بداية، في عام 1964 طبعة في جمعية الكتب العلمية - يجد تفسيره، قبل كل شيء، في أن فراير كان يرى في الحركة النازية، بداية الأمر، شأن هايدغر، إمكانية تجديد وجودي، ولأنه لم يثبت قط، على الرغم من تحفُّظه على الحركة، حتى في ما بعد، أنه اتخذ مسافة حاسمة من الفاشية، ولا حتى بعد عام 1945. لكن بما أن الظرف ذاته في حالة هايدغر لم يفضِ إلى نسيان **الكينونة والزمان**، كان يجب ربما - فضلًا عن الشهرة الأوسع لهايدغر الذي تورّط أكثر في هذا الأمر - أن يؤخذ أمر آخر في الاعتبار. ففراير قارن في هذا الكتاب بوعي ذاتي فائق - وليس من دون أسباب وجيهة - "علم الاجتماع الأميركي" بـ "علم اجتماع ألماني" أو "أوروبي"، وتحدّث عن علم اجتماع يتبع - كما بدا - شعارًا يقول: دعونا نصبح مثل الأميركيين. على أن هذا لم يكن ملائمًا في ألمانيا الاتحادية في حقبة ما بعد الحرب).

في ما يخص أيضًا مشكلة تأسيس علم اجتماع نقدي، اجتمعت عند هبرماس الذي كان يعرف كتاب فراير، محرّضات مثمرة من الجانبين النقدي والمحافظ. وعندما عاد، مرة أخرى، إلى تصوّر نظرية نقدية للعلم، كان على اطلاع على آخر المستجدات في هذا المجال، وأصبح مشروعه - المشروع الذي عمل على توسيعه في السنوات اللاحقة في كتابيه **في منطق العلوم الاجتماعية** و**المعرفة والمصلحة** - أكثر واقعية وجاذبية من مشاريع أسلافه.

يرى هبرماس أنه يمكن، بالنسبة إلى ثلاث خصائص لعمليات البحث، إثبات علاقة نوعية بين القواعد المنهجية المنطقية والمصالح التي توجّه المعرفة. في العلوم التحليلية-التجريبية، يقترح البناء المنطقي لأنظمة البرهان المتاحة ونموذج شروط الاختبار أن يستنبط الواقع في ضوء المصلحة الموجَّهة نحو الامتلاك التقني للعمليات الموضوعية. أما في العلوم التأويلية-التاريخية، فالإطار المنهجي مكوَّن من فهم المعنى، وتفسير النصوص، وتطبيق التقاليد المرتبط بها على حالة الفرد الخاصة التي لا يمكن فصلها عن هذه. يقترح التفسير بأن الواقع يُستنبَط في ضوء المصلحة الموجَّهة نحو المحافظة على التفاهم بين الذوات وتوسيعه بالنسبة إلى العلوم ذات التوجّه النقدي. ويشير الإطار المنهجي -

المؤلف من إجراءات موضوعية، أو معرفة الأسس المنطقية، ومن طريقة فهم محددة - إلى إدراك الواقع على أساس تحلُّل علاقات تبعية موضوعية ظاهريًا، لكنها قابلة للتغير من حيث المبدأ. في الحالة الأولى، كان الإطار المتعالي يُحدّد شروط الموضوعية الممكنة من خلال مصلحة معرفية تقنية، وفي الثانية من خلال مصلحة عملية، وفي الثالثة من خلال مصلحة تحررية. قام الفهم الوضعي للعلم بتشويه النظرة إلى هذه المصالح المعرفية المتعالية. وعندئذ يمكن أن يُساء فهم العلوم الطبيعية بوصفها نظرية خالصة، لا تقوم على السيطرة على الطبيعة، بل على معرفة موضوعية، وأن تسقط علوم الروح [العلوم الإنسانية] في النزعة الوضعية للتاريخانية. أما العلوم الاجتماعية، فتتصلّب في معرفة اجتماعية تقنية.

نشأت الشروط المتعالية للعلاقة العلمية بالعالم - كما يرى هبرماس انطلاقًا من كانط - تحت شروط تجريبية، وامتلكت أساسها في التاريخ الطبيعي للنوع البشري الذي كفل وجوده من خلال العمل والكلام، وتشكّل بواسطة علاقات السلطة. تميّز الناس، بوصفهم كائنات ناطقة - وفق هبرماس - من الطبيعة، وتحرروا بفضل بنية اللغة. وبصفتنا كائنات ناطقة، استطعنا أن ندرك مسبقًا المصلحة في الاستقلالية والمسؤولية "مع أول جملة أُفصح بصورة لا لبس فيها أو غموض عن النية بإجماع عام وطوعي"[118]. تجسّد اللغة "عقلًا" يعني "في الوقت ذاته إرادة العقل". في مجتمع متحرر تتناقص السيطرة، وتُنسَج العلاقات الاجتماعية بين الأفراد في "حوار خالٍ من السيطرة، يشترك فيه الجميع"[119]، في حين تخضع الطبيعة لسيطرة البشر التقنية.

مع مشروع هبرماس - حال أي مشروع مبدئي - بدت الإمكانية لإنقاذ العلوم من براثن الوضعية ترتسم. فتمكّن هبرماس من أن يربط العلوم الطبيعية ببيرس وبوبر، والعلوم الإنسانية بديلتاي وغادامر، والعلوم الاجتماعية بالنظرية النقدية أو الماركسية الغربية. وقد بدا أن هذه الأشكال من تفسير العلم بالذات يمكن أن تتعمّق من خلال نوع من الاستنباط البراغماتي-المتعالي. الحديث

(118) Habermas, "Erkenntnis und Interesse," in: *Technik und Wissenschaft als Ideologie*, p. 163.

(119) Ibid., p. 164.

عن العلوم التحليلية-التجريبية، والتأويلية-التاريخية، والنقدية - ببساطة بدلًا من العلوم الطبيعة والروحية والاجتماعية - والتفريق بين معرفة أسس المنطق وقوانينه وعمليات التأمل في مجال العلوم الاجتماعية التي تستثيرها هذه المعرفة، بدوَا أنهما يقيان نظرية العلم لهبرماس من تنظيم سطحي للمناهج ومجالات الموضوعات، ومن التثبت على أشكال عرضية للتنظيم العلمي. ففي العلوم التأويلية-التاريخية والعلوم النقدية بدا متوفرًا، بدقة، ما كان ضروريًا لتصوّر عقلنة في بُعْد الأهداف والفعل السياسي العملي. في مقابل "نزعة شبه عقلانية وضعيًا"، بدا أن مشروع نظرية علم نقدية تبرر عقلانية كاملة، يندرج فيها إسباغ العقلانية على الإطار الثقافي-الاجتماعي. بافتراض فكرة العقل الثاوية في اللغة، بوصفها شرطًا وجوديًا للنوع البشري، بدا أننا اكتسبنا مقياسًا لنقد المجتمع مستقلًا عن التقاليد التاريخية. في هذه الإشارة، أتاح هبرماس لأفكار الدازاين الإنساني التي يتبنّاها هايدغر وغادامر بوصفها محادثة، ولأفكار جميع متكلّمي لغة أن تفضي إلى تضامن نهائي.

لكن إلى أي حد كان مشروع هبرماس مقنعًا؟ تثار الشكوك من فورها حول بعض الافتراضات[120]. هل كان ممكنًا فعليًا، بواسطة انعكاس نظرية العلم على نماذج العلم الحديثة (في أشكالها التي لم يشوّهها سوء الفهم الوضعي) إيجاد إطار متعال لإعادة إنتاج الجنس البشري، يقدم المعايير الصالحة دائمًا للتعامل الصحيح مع الطبيعة الخارجية والطبيعة الداخلية والبيئة الاجتماعية؟ ألم يكن هناك تحول جذري في مجال علم الطبيعة والتقنية والعمل منذ القرن السادس عشر، بحيث كان من المستحيل افتراض أن مصلحة المعرفة التقنية ذاتها يمكن أن تشكّل الإطار المتعالي للعلاقة بالطبيعة الخارجية؟ ألم يبدأ في القرن السابع عشر التقدم الظافر لنمط خاص من التقنية وعلاقة خاصة بالطبيعة الخارجية، وُجِدت إلى جانبها أيضًا نوعية مغايرة لم تكن مختلفة، لأنها كانت مغلّفة بقناع ثقافي، بل لأن الطبيعة كانت تُرى بوصفها علاقة سببية نافعة تقنيًا، وفي الوقت ذاته بوصفها عملية تتطلّب الفهم، وقد كانت جزءًا من سياق معقّد يتدخل

(120) لتفسير محاضرة فرانكفورت الافتتاحية ونقدها، يُنظر أيضًا:
Axel Honneth, *Kritik der Macht.*

فيه الباحثون؟ هل يمكن في عملية العمل - كما تشكلت في ضوء شروط الرأسمالية - رؤية النموذج البراديغمي[121] لإعادة الإنتاج المادية للمجتمع؟ هل تجلّى فيها فعليًا العمل المتحرر من جميع الأغلفة الثقافية، من غير تأهيل، أم إن الأمر كان يتعلق بشكل مشوّه للعمل؟

لماذا نبذ هبرماس فكرة أنه يريد "أن يدخل إلى جانب طرائق البحث العلمي الاجتماعي المحسوسة 'طريقة جديدة' تقريبًا"[122]؟ فإذا كان ما يهمّ علم الاجتماع النقدي هو أن تستثير المعلومات عن علاقات حتمية عملية تأمُّل في وعي المعنيين، وجب عندئذ تغيير بعض طرائق البحث العلمية الاجتماعية المعمول بها في بعض المجالات واستكمالها في أخرى. وإذا كان من المفروض أن يكفل تأسيسُ المعرفة العلمية الاجتماعية في مصلحة معرفة تحرُّرية شكلَ الموضوعية الخاص بهذا النموذج من العلم، وجب عندئذ أن يكون هدف طرائق جمع المعلومات، قدر المستطاع، إطلاق عمليات التأمل الذاتي، كما تصوّرها هوركهايمر وأدورنو في المرحلة الأولى من مشروع معاداة السامية، لكن من غير أن يصنع من ذلك مبدأً منهجيًا بيّنًا ومن غير التزام تلك الفكرة من بعد[123]. يجب على عالم الاجتماع النقدي - على الأقل في طور لاحق من مشروع البحث - أن يواجه "أشخاصه المستَبيَنين"، إذا كانوا في أي حال ممن عانوا، طبقًا لمعاييره، من قيود اجتماعية طبيعية المنشأ، بوصفهم ما يمكن أن يكونوا، أو ما يتوقع منهم أن يكونوا؛ إذ لم يكن يكفي أن يقيّد المرء نفسه بمطلب تغيير الفهم الذاتي لعلماء الاجتماع، أو يأمل في أن يعيد مجالٌ نقدي عام مستَرَدّ، يومًا ما، نتائج البحث العلمي إلى أفق عالم الحياة الاجتماعي.

---

(121) البراديغم (Paradigm) وتعني النموذج الإرشادي أو الإطار الفكري، وهو تلك النظريات المعتمدة كنموذج لدى مجتمع من الباحثين العلميين في عصر بذاته، إضافة إلى طرائق البحث المميزة لتحديد المشكلات العلمية وحلّها وتحديد أساليب فهم الوقائع التجريبية. (المترجم)

(122) Jürgen Habermas, "Gegen einen positivistisch halbierten Rationalismus," in: *Der Positivismusstreit*, p. 236.

(123) ينظر بهذا الخصوص:

Wolfgang Bonß, *Die Einübung des Tatsachenblicks.*

أُلقي الضوء على مشكلة أخرى من خلال تباينات ظهرت بين هوركهايمر وأدورنو من ناحية، وهبرماس من ناحية أخرى، في ما يخص دوافعهم الأساسية وتصوّراتهم عن مجتمع عقلاني وحياة جيدة. كان كثير مما كتبه هبرماس تدقيقًا وتنسيقًا لأفكار مأخوذة من أدورنو وهوركهايمر. وحتى في هذه الحالات، قضت الظروف أن ينشأ لون مغاير لم يكن نتاج مواقف مغايرة من منهج العلم ومن ديمقراطيات الغرب. في رسالته، صيف 1958، عن مقالة هبرماس "في المناقشة حول ماركس والماركسية"، وضع هوركهايمر إصبعه على التباين بين دوافعهما الأساسية: "ثمة ظاهرة تدعى الطبيعة، والمبدأ الذي يُنسَب إلى 'ماركس الشاب' والقائل إن كل موضوع يجب أن يواجَه 'نقديًا في إطار النظرية الثورية للمادية التاريخية [...] بما فيه الطبيعة'، إما أنه لا يقول شيئًا، وإما أنه، ببساطة، الوجه الآخر لمفهوم الحرية المفرط الذي يستثني الطبيعة في نهاية المطاف من المصالحة، بوصفها مجرد موضوع للسيطرة، أو عنصر تبادل، أو كما يصف هبرماس العمل [...] المنتج: عنصر 'التبادل بين الإنسان والطبيعة'. يتعيّن - بحسب هبرماس - اعتبار السيطرة بين الناس حصرًا، وليس العنف المفترس الموجَّه نحو جميع المخلوقات التي يُعاد إنتاجها في الأفراد، 'أمرًا باطلًا'"[124].

ظل ما يميّز هبرماس، في الواقع، أنه رأى في مطلب شكلٍ من التنوير قادر بذاته مطلبًا يمكن أن يتحقق، وأن قسر الطبيعة العشوائي لن يمتدّ إلى هيمنة الإنسان على الإنسان، بل سيتعامل البشر، بوصفهم كائنات ناطقة بعضهم مع بعض من غير هيمنة، في الوقت الذي يتصرفون بالطبيعة بنجاح أكبر من أي وقت مضى. في مقالة له بعنوان "مثقف متفلسف" نشرها في صحيفة **فرانكفورتر ألغماينه** بمناسبة عيد ميلاد أدورنو الستين، وجَّه هبرماس انتقاده الذي يتمثل في أن **جدل التنوير**، في أكثر فقراته سوداوية، استسلم أمام أطروحة التنوير المضاد القائلة بأن الحضارة مستحيلة من دون قمع. ثم يتغلب لدى هوركهايمر وأدورنو موضوع التضحية بالنفس أمام طبيعة غير محددة الشكل، عند هوركهايمر في نوع شوبنهاوري، وعند أدورنو في نوع أكثر يوتوبية جنسية وفوضوية. في توافق

(124) رسالة من هوركهايمر إلى أدورنو، مونتانيولا، 27 أيلول/ سبتمبر 1958.

جزئي مع كارل بوبر، شخّص هبرماس عند الاثنين نزعة تشاؤمية تخلقها فكرة فيّاضة عن التصالح مع الطبيعة. وهو حين يجعل اللغة أساس إمكان يوتوبي، إنما يعلن أن الحديث عن "قمع" الطبيعة الخارجية التي لا نتحدث معها، هو وصف غير ملائم لقضية عادية لا مفرّ منها، ويعلن أن فكرة التحرر، التحرر من علاقات السيطرة الاجتماعية من خلال تواصل حر لا قسر فيه، هي إمكان معياري راسخ في اللغة. مشكلة ديالكتيك مصير الطبيعتين الداخلية والخارجية اللتين كانتا تدفعان مؤلفي **جدل التنوير** دومًا إلى الغموض والتناقض، أخفقت في اقتراح هبرماس القاضي باستبدال فكرة التحرر بفكرة التصالح مع الطبيعة.

تحدث هبرماس في محاضرته الافتتاحية في فرانكفورت عن الطبيعة الرخوة الحاضرة في الفرد بوصفها ليبيدو، والتي تلحّ على التحقق اليوتوبي. ويجري تلقُّف مطالب فردية من النسق الاجتماعي كهذه، وتدخل في التعريف الاجتماعي للحياة الجيدة. لكن أليست الطبيعة الداخلية والطبيعة الخارجية لحظتين للطبيعة نفسها؟ وهل يمكن أن يكون للعقل سلوك منقسم تجاههما باستمرار؟ وهل يمكن أن يدخل الليبيدو في تحديد الحياة الجيدة من غير أن تدخل علاقة ليبيدوية بالطبيعة الخارجية في هذا التعريف؟ وهل يمكن أن تستقيم علاقة أداتية خالصة بالطبيعة الخارجية من غير أن ترتدّ على سلوك كل ما يخترق الطبيعة عمومًا، أي على الناس أيضًا؟ ألم تتزعزع سلفًا قدرة الكلام بوصفها خط الفصل بين السلوك الأداتي والتواصلي في ما يخص عالم الحيوان؟ وهنا ألا تثبت فوريًا ضرورة وجود تمايزات أخرى؟ وحده البديل بين التواصل مع الطبيعة والسيطرة عليها بفضل العلم الحديث والتقنية، ومن ثم إعلان النوع الثاني بوصفه الممكن الوحيد، والتمسك في الوقت عينه بفكرة التحرر، يمكن أن يؤدي إلى وجوب رفض هذه الفكرة أيضًا، بوصفها فكرة تنطوي على مبالغة.

كان هناك شخص آخر بدا أقرب إلى أدورنو وهوركهايمر في الأفكار المركزية من هبرماس، هو تحديدًا إرنست بلوخ الذي سطع نجمه في الستينيات في ألمانيا الغربية، ولاقى إقبالًا رائعًا عندما ألقى، على سبيل المثال، في كانون الثاني/يناير 1965 في فرانكفورت، محاضرة عنوانها "الوضعية، والمثالية، والمادية". غير أن أدورنو وبلوخ كانا خصمَين أكثر منهما حليفَين. فقد رأى

بلوخ في أدورنو تلميذًا خائنًا، بينما رفض أدورنو بلوخ بسبب ما سمّاه نمط التفلسف غير المنضبط و"المتفاخر". كذلك لم يكن مقبولًا، بالنسبة إليه، رفع الأمل إلى مستوى مبدأ، ومفهوم التصالح مع الطبيعة الذي ضمّ تصوّر طبيعة طابعة (natura naturans)، أي طبيعة لا تنعكس على نفسها من حيث هي ذات. وربما باعد بينهما أن بلوخ بقي طوال حياته بعيدًا عن الحركة العلمية، وعن نظريات العلم الراهنة والنزاعات الفلسفية؛ ووقف، غير مبالٍ بأمور مثل نزاع الوضعية أو نقد هايدغر، أشبه بصخرة تنتصب وحدها، أو بـ "شلينغ ماركسي" - كما وصفه هبرماس مرة - في الحقلين الثقافي والأكاديمي في الجمهورية الاتحادية. كذلك كان أدورنو بالتأكيد يخشى التواصل مع بلوخ "الشيوعي"؛ إذ كان بلوخ ستالينيًا يُسلّم بالعمليات الاستعراضية التي تجريها موسكو، من حيث هي إجراءات دفاعية في مواجهة التهديدات التي تحدق بالدولة الاشتراكية الوحيدة.

وهكذا لم يكن أحد، في نهاية المطاف، أقرب إلى أدورنو من هبرماس في النزاع السياسي - النظري.

نزاع النزعة المحافِظة

في الفترة التي كان أدورنو يركز قواه على هايدغر - وكان قد صدر في عام 1964 **رطانة الأصالة** الذي يُعدّ أكثر كتب أدورنو نجاحًا في الستينيات، والذي سرعان ما أصبح عنوانه شعارًا، وفي عام 1966 صدر **الجدل السلبي** الذي كُرّس جزؤه الأول للنزاع الفلسفي مع هايدغر والأنطولوجيا - واصل هبرماس نزاعه مع نظرية العلم الوضعية بشدة أكثر. كما دخل، على نحو أشد من أدورنو، في نزاع مع شلسكي وغِلِن، الممثلَين المرموقَين بطريقة واعية لنوع من الوضعية معادٍ للديمقراطية، يقع في تقليد معارض للتنوير.

كان شلسكي وغِلِن وفراير نقادًا محافظين للثقافة. وهم، بمقدار ما كانوا وضعيين، كانوا يمثّلون موقفًا أداتيًا رافضًا الثقافة الحديثة والثقافة الصناعية

عمومًا. "في ألمانيا رسمت[125] الخط الفاصل بين جيلَي المحافظين 'القديم' و'الشاب'، بحسب طريقة مواجهتهم الحاضر نقديًا، سواء أكان ذلك بنظرة راجعة إلى الماضي الأبعد أم بالإسقاط على الماضي، أو بوقوفهم بوعي إلى جانب السائد، ليعملوا فقط بأدوات القياس والحساب، ويقدموا أنفسهم كأشخاص حصيفين مرتابين. هؤلاء الوضعيون المحافظون تركوا أنفسهم يسترشدون بتلك 'النزعة الواقعية' التي يجد فيها الفكر المحافظ العذر دومًا. في زمان كزماننا، تكون السلطة حاضرة في كل مكان، لا يخلو من معقوليةٍ ما أن يتّقد 'الإحساس بالسلطة'، خصوصًا وقد غدت أكثر دقة في المدرسة التاريخية الألمانية، ولهذا يضحَّى من أجلها بالتصوّرات المعيارية لأشكال السلطة السابقة والمتغيرة"[126]. على هذا النحو، حدّد هبرماس في التمهيد للقسم الأول من مشروع المعهد **الجامعة والمجتمع** ملامح وضع المحافظين الجدد، مشيرًا إلى تحيُّز شلسكي الواضح للتنوير المضاد في مجلد **علم اجتماع الجنسانية**.

كان المحافظون الجدد، ومعهم "عالم الاجتماع الأصيل" رينيه كونيغ (قاموس **علم الاجتماع** الذي أصدره كونيغ عن دار فيشر، بداية، في عام 1958، وصل عدد نسخه إلى مئة ألف في عام 1960)، منافسين ناجحين جدًا لمعهد البحث الاجتماعي في فرانكفورت منذ الخمسينيات، ليس من وجهة النظر السياسية العلمية وفي قطاع النشر المتخصص فحسب، بل في التأثير خارج الوسط الأكاديمي أيضًا. وكان كتاب شلسكي (**علم اجتماع الجنسانية**) الصادر في عام 1955 كجزء ثان ضمن سلسلة كتب الجيب من "موسوعة روفولت الألمانية"، قد بلغ عدد نسخه في عام 1957 مئة ألف. وشلسكي نفسه هو واحد من أعضاء المجلس الاستشاري العلمي العالمي المشرف على السلسلة التي تتسم بالرصانة العلمية، والموجهة في الوقت ذاته إلى جمهور واسع. في هذه السلسلة نفسها صدر لأدورنو، في البداية، كتابان في عامي 1968 و1969: **مدخل إلى علم اجتماع الموسيقى**، و**المراكز العصبية للموسيقى الجديدة**. أما كتاب **النفس في العصر التقني** الصادر ضمن السلسلة ذاتها في عام 1957 لصديق شلسكي ومعلمه السابق أرنولد غِلِن، فقد بلغ عدد

---

(125) الوضعية التي فقدت رياديّتها، وغدت محافظة.

(126) Institut für Sozialforschung, *Institut für Sozialforschung*, Teil I, Studentenbefragung, LVI f.

نسخه في عام 1960 أربعين ألفًا. وبهذا لم تتمكن كتب علم الاجتماع الصادرة عن معهد البحث الاجتماعي في طبعات صغيرة في دور نشر أوروبية من أن تواكَبَ عن بعد. لم تنفد الطبعة الأولى من كتاب **جولات استطلاعية في علم الاجتماع**، والتي بلغ عدد نسخها الثلاثة آلاف، إلا بعد نصف عقد من صدورها، مع العلم أن الكتاب صدر في عام 1956 كجزء رابع من [سلسلة] "مساهمات من فرانكفورت في علم الاجتماع"، وقُدِّم بوصفه مدخلًا جديدًا في علم الاجتماع، بناء على سلسلة من "نماذج تفكير" في مفاهيم ومجالات اختصاص فردية. لم تحقق كتب أدورنو أيضًا حتى الستينيات أي نجاح يُذكر في نسبة مبيعاتها، ولم يستطع الأخير أن يتنفس الصعداء إلا في نهاية عام 1963 - بعد صدور **المواشير**، وهو أول كتبه التي تصدر في طبعة شعبية من 25,000 نسخة من كتب الجيب - فكتب إلى كراكاور قائلًا: بعد أن بلغت نسخ كتاب **تدخلات** 18,000 نسخة، أعتبرُ أن كل شيء ممكن؛ علمًا أن الكتاب هو مجموعة من تسعة **نماذج نقدية** صدرت في عام 1963 في طبعة أولى من 10,000 نسخة، بوصفها الكتاب العاشر من طبعة دار نشر زوركامب.

توجّهت نصوص شلسكي - وهو أصغر النقاد المحافظين الثلاثة سنًا وأكثرهم تحررًا - على وجه الخصوص نحو جمهور أوسع. فهي تمارس، متحررةً من أي اعتبارات منهجية أو نظرية معرفية، ومن أي تقييد ذي صلة بالتخصص العلمي والجفاف الرياضي الإحصائي، ضربًا من الوضعية الشعبية. قدم شلسكي نفسه ممثلًا لنزعة إنسانية واقعية، ومحاميًا مدافعًا عن حاجة المجتمع الألماني في حقبة ما بعد الحرب لواقع وتوجُّه بعيدين عن الأيديولوجيا، وحليفًا ضد أي تكليف لمعاصريه فوق طاقتهم، من خلال مُثُل طنّانة، ومن خلال المطالبة التنويرية بالوعي والانعكاس الذاتي.

وكما هو الحال مع فراير وغِلِن، نبّهه وضعه المعادي للتنوير إلى **جدل التنوير**. ما اتّهمه ماركوزه في ما بعد باللاتصعيد القمعي، كشفه شلسكي على نحو لا يقلّ حدة في كتابه **علم اجتماع الجنسانية**. "كثيرًا ما أثير الجدل تجاه كون عصرنا يُظهِر درجة عالية من الإثارة الجنسية أم لا. فاستطاع من أجابوا بالإيجاب أن يدللوا على زعمهم بالانتشار الواسع لصور الإثارة في الدعاية والإعلان، وبالعرض الواضح والصريح للمثيرات الجنسية في المجلات

المصوّرة، والسينما والأغاني والإعلانات وشاشات التلفزة وغيرها. ويبدو لي أن سؤال إن كان هذا يعني ببساطة إثارة، لا أهمية له إزاء وجهة النظر التي ترى أن هذه الصور والكليشيهات الإيروسية التي تُقدَّم، بضغط متواصل من وسائل الإعلام الجماهيرية، تُهدئ فاعلية الفانتازيا الجنسية عند الفرد إلى حد ضمورها افتراضيًا، ومن ثم تثبيطها في الواقع"[127]. لا بل كان نقده أكثر حدة لما يمكن أن يسمى تنميطًا من خلال التعليم، أو مصادرة الوعي من خلال تصنيع الوعي. "تحلّ المعالجة النفسية والرعاية النفسية، والتربية الجنسية الواعية، والاستشارة الزوجية المنظمة، وعيادات تنظيم الأسرة وإرشاد الطفل، والتعليم الجماعي والعلاقات الإنسانية، والجهاز الكامل لتقنية الرفاهية العقلية الحديثة أو لـ 'الهندسة الاجتماعية'، تحلّ محل الخدمات المؤسساتية المتناقصة والخدمات المعهودة في صياغة عالم الغرائز الإنسانية [...]. نريد أن نسمي هذه العملية إسباغ الطابع التقليدي على العقل، من خلال تبسيط علم النفس. في إطار أوسع بكثير، وتأثير أشد عمقًا مما وصل إليه أي تأثير نفسي واع ومنظم، اضطلع التفسير النفساني الذاتي والغيري للإنسان الحديث بدور القوة الطقسية في الحياة الاجتماعية التي تقدم الرموز، وتُبعد، وتصنف، وتخلق المعايير والنماذج. ويعود انسحاب هذا التأثير من المؤسسات القديمة إلى نشوء هذا التفسير، وإلى نشوء موضوعه. لكن على المرء أن يلاحظ أن قيمة علم النفس المعرفية العلمية قد أضحت اليوم تافهة، مقارنة بأهميته، من حيث هو وظيفة اجتماعية، وأن علماء النفس أصبحوا، بالمعنى العميق جدًا، موظفي المجتمع ووكلاءه"[128].

انطوى هذا النقد الثاقب على معان عديدة. ففي المقام الأول، كان الكتاب برمّته مأخذًا على ممثلي التنوير والمثقفين الذين أوقعوا الناس في القلق والاضطراب بزعزعتهم بداهة أنماط السلوك التقليدية، وأثاروا تاليًا قلق العلماء الذين كان عليهم أن يتداركوا نتائج تبسيط الاكتشافات العلمية. لكن المفارقة أن المعادي للتنوير وعدو تبسيط "الرؤى التخصصية العلمية العالية"[129] توجّه نحو

(127) Helmut Schelsky, *Soziologie der Sexualität*, p. 126.

(128) Ibid., pp. 110 f.

(129) Ibid., p. 8.

جمهور عريض بكتاب جيب يفترض أن يكون دليلًا على القضية المتناقضة من جديد: "في كثير من المجالات العلمية، نحن في طور إعادة اكتشاف الأهمية الوظيفية للتقاليد"(130). إذًا، يتعيّن على القراء الذين من المفترض ألا يفهموا فعليًا أي شيء من كتاب شلسكي أن يتشجعوا على العودة إلى الاعتراف، بلا تفكير، في التقاليد، عبر المحاولة العلمية لاسترداد التقاليد ذات الصلاحية الطبيعية، سواء بوعي أو اصطناعيًا.

من ناحية أخرى، ظهر في تحليلات شلسكي بعض الرضى؛ إذ سارت الأمور، مرة أخرى، على نحو جيد. فلم يُظهِر هدم التقاليد، في نهاية المطاف، سوى أن أفكار التنوير، والتنوير عمومًا، تطالب الجماهير الكبيرة بما لا تستطيع احتماله، وتمهّد الطريق أمام نظام جديد لا أكثر. "فلا شيء ينهك الإنسان، في علاقته بغرائزه، أكثر من أن يُطلَب منه أن يكون من فوره شخصًا وفردًا في آن. بهذا نربط وصف إسباغ التقليد الواسع الانتشار من جديد اليوم، وإسباغ المعيارية الاجتماعية على القضايا الجنسية، مع القناعة بأنه بناء على هذه الواقعة تنفتح مرة أخرى إمكانية رابطة جديدة بين الفكر والثقافة والأخلاق إزاء جنسانية البشر"(131).

في أي حال، كان رضاه بكون التحرر الجنسي ليس أكثر من لاتصعيد قمعي محدود. فـ "الاعتماد الاجتماعي الواسع للجنسانية وتشكّلها، وإسباغ المعيارية على أنماط السلوك الجنسي وجعلها تقليدية، لا تمثل بلا ريب ذُرى الشخصية التي توجد بوصفها مطلبًا وتفويضًا داخليًا في علاقة كل إنسان بغرائزه؛ وهذا هو أصل الصوت النقدي لأي إثبات ممكن لواقعة في هذا المستوى الاجتماعي للسلوك"(132). أما أين كانت ذُرى الشخصية، بحسب رأيه، فهذا ما أوضحه شلسكي في سياق تحليلاته: هناك حيث يكبت الواحد طواعية شهوته، ليقدم نموذجًا للحالة السوية. إن "المؤسسات الاجتماعية، والطقوس وأنظمة القياس – تلك الوسائل المساعدة للإنسان في أسلوب عيشه – تستبعد

(130) Ibid.

(131) Ibid., p. 127.

(132) Ibid.

الشاذين. وهو إذا ما خضع لها، فلن يكون هذا إلا على حساب بحثه عن الرضى الجنسي، بحيث يجب أن يوجد فيها بوصفه إنسانًا فارغًا. الخطوة التي لا تفلح في نقله إلى الطبيعي [...] تعزله اجتماعيًا [...]. في هذه الحالة لا يكسب الإنسان الأوضاع التي تمكّنه من قيادة غرائزه، ومن ثم حياته. فهو يفقدها من يده، ويفقد نفسه، وتستقلّ إوالية الغريزة فيه. ويكون هذا الإنسان عندئذ نموذج علم نفس الغريزة الذي بمقدوره فهم كل ما هو معياري في مواجهة الغريزي بوصفه تعطيلًا ورقابة وضبطًا وما إلى ذلك، أي بوصفه 'ظاهرة مشوّهة'، وهي رؤية لا بد من أن تخطئ فيها الخصائص الأساسية للمستوى الاجتماعي للسلوك، شكلَ الحياة الغني الذي تتألف منه 'الطبيعة الثانية'"[133]. في الحقيقة، لم يكن تحقيق ذرى الشخصية متاحًا إلا لنخبة دخلت - وفق شلسكي الذي استشهد بمقالة غِلِن لعام 1952 "حول ولادة الحرية من رحم الاستلاب"[134] - إلى المؤسسات بعيون مفتوحة، ناظرة إليها بوصفها أوامر كبرى، وأقدارًا تحافظ علينا وتستهلكنا، سامحة لها على الأقل أن تحترق وتُستهلَك من مخلوقاتها، وليس من الطبيعة الأولية مثل الحيوانات. لكن انعكاس هذه العظمة يمكن أن يُنقَل أيضًا إلى العامة التي لم يتقبّل شلسكي تنميطها جنسيًا - أيًّا كانت طريقة ممارستها أو وضع معاييرها - وتوجيه استهلاكها، وما إلى هنالك، لأنها ظهرت على الأمد الطويل خطرة جدًا، وباهظة التكاليف، وغير طبيعية كفاية. يتعيّن على المؤسسات أن تحمي الناس من المواجهة المباشرة والواعية مع غرائزها، وليس من الصراع من أجل البقاء. كان من المهم بالضبط لأولئك الذين يفتقرون إلى الكبر الكافي، كي يسمحوا لأنفسهم بأن تستهلكهم المؤسسات بكل طواعية وأعينهم مفتوحة، من أجل الحصول على شكل أرقى من الحرية، كان من المهم، خصوصًا لهؤلاء بالذات، أن يشعروا، مرة أخرى، بقساوة الحياة أكثر. فقد أخفق الاستلاب الحديث، في نظر شلسكي وغِلِن وفراير، في حرف الناس، في نهاية المطاف، عن البحث عن لذتهم، وعن حاجتهم إلى الحرية الآنية، إلى الحد الذي قدّم لهم، من باب التعويض، وفرة من إشباعات أخرى، يسّرت لهم نسيان مصاعب الحياة.

---

(133) Ibid., p. 74.

(134) Ibid., p. 63.

وكما كان اليسار راغبًا في إظهار الميول التي تتطابق مع خاصية العصر، أو مع خاصية عصر، كذلك كان اليمين أيضًا. فقد رأى المحافظون الجدد "أن مهمات التنظيمات التقنية في المحافظة على نظام تأمين الوجود ورعايته والعمل على راحته"[135] لا تطفئ حماسة المتنوّرين لتحسين العالم فحسب، بل تطفئ أيضًا "ملامح متعة الحياة الأنوية والمادية" التي تذهب بعيدًا جدًا. في الطور المتقدم من فترة الانتقال والتجاوز المأزوم لعتبة الحضارة، وصولًا إلى المرحلة الصناعية، بدا أن الظروف مهّدت أمام نزعة المحافظة الألمانية - وخصوصًا منها تلك الموصومة بإخفاق "الثورة المحافظة" وبتعاونها الجزئي مع النازية - الطريق نحو مخرج يلائم العصر: "استقرار المجتمع الصناعي"[136]، "تشكّل ثقافي"[137]، واستكمال ما كان إرنست يونغر، منظّر نزعة المحافظة التكنوقراطية الأول، قد أطلق عليه قبل عام 1933 اسم "التكوين العضوي".

جاء في محاضرة شلسكي "الإنسان في الحضارة العلمية" (لعام 1961) أن "الإنسان يحرر نفسه من قيد الطبيعة، كي يخضع من جديد إلى قيد إنتاجه"، وهو إعلان مبرمج، نوقش على نطاق واسع، يستبدل بالسياسة قيودًا موضوعية تقنية. تؤدي إعادة تركيب العالم والإنسان، من خلال إنتاجه التقني العلمي الخاص، إلى وضع مؤثر على نحو مفارق، تحدّد فيه الوسائل غايات هذه العملية، لأنه لم يعد بمقدور أي تفكير إنساني أن يتكهّن الخلق الذاتي التقني-العلمي للإنسان. فلم يكن موضع شك أنه لا يمكن وضع صورة مترابطة للعالم انطلاقًا من العلوم - كما يرى غِلِن في محاضرته "حول تشكّل ثقافي" - "لأن جميع هذه العلوم مترابطة في الواقع، فإن هذا التركيب لا يمكن أن يتحقق في العقول، بل في واقع المجتمع بأكمله". احتفى شلسكي وغِلِن بالواقع الذي لا يقبل الدمج عقليًا، ولا أخلاقيًا ولا عاطفيًا، ويندمج حصرًا في البنية الفوقية للسياق الاجتماعي، ورحّب كلاهما بالمعالجة العلمية للواقع بوصفه نوعًا من مؤسسة عملاقة للعصر الصناعي التقني-العلمي. إذا كان مقدَّرًا

(135) Helmut Schelsky, "Über das Restaurative in unserer Zeit," in: *Auf der Suche nach Wirklichkeit*, p. 417.

(136) Helmut Schelsky, "Zur Standortbestimmung der Gegenwart 1960," in: Ibid., p. 435.

(137) Arnold Gehlen, "Über kulturelle Kristallisation, 1961" in: Studien zur Anthropologie und Soziologie, p. 321.

للتقدم التقني-العلمي وتنامي الكفاءة الفكرية أن يزعزع الديمقراطية أكثر فأكثر، فقد يُستغنى يومًا ما عن المشاركة الديمقراطية بفعل ترتيبات الرفاهية الشاملة، وتُستبدَل "جزرة الراحة والمتعة" بتحدي "عصا الترهيب بالاغتراب"[138]. وفي العمل من أجل بنية مجتمع لا ترحم، سيكون ممكنًا وضروريًا إيجاد مواقف وأنماط سلوك مقولبة، تتطلب من ممثليها وأيديولوجييها "تصعيدًا ذاتيًا"، في حين أن ملايين الجماهير المستهلكة التي "يعترف بعضهم ببعض في الجانب الإنساني المجرد"، والتي وجدت لنفسها مكانًا مريحًا "في الطبيعة التي غدت آلية"[139]، ستجفل مذعورة من راحتها وإنسانيتها المجردة.

(عندما بدأت في أواخر الستينيات حركة الاحتجاج التي قام بها الطلبة والتلاميذ وطلاب المعاهد الصناعية من جهة، والحركات الثقافية الفرعية من جهة أخرى، لتغيير التوجُّه السائد في قيم العمل والنظام والاستهلاك في اتجاه قيم ما بعد مادية، ورفع أيضًا فيلي برانت، مستشار الائتلاف الليبرالي-الاجتماعي، شعار "تجرأ على ديمقراطية أكبر"، بدا كما لو أن الآمال التي وضعها شلسكي في المجتمع الصناعي وقيوده تنهار. على العكس، بدت محقة وجهة نظر غِلِن التقليدية المحافظة بأن عصر الصناعة يجلب معه تداعيًا إضافيًا أسرع في المؤسسات الحقيقية، ولا يمكن القيام بأكثر من الحفاظ على ما تبقى بعد من أنظمة القيادة الحقيقية. بعد عقد من الزمان، بدا الوضع، مرة أخرى، مختلفًا تمامًا، وأفلح شاب يدعى نيكلاس لومان (Niklas Luhmann) - كان يواصل عمل شلسكي بوسائل حديثة - في بلوغ الشهرة. ينتمي لومان إلى جيل هبرماس، وكان بادئ الأمر موظفًا إداريًا، تعرّف في بداية الستينيات، في أثناء عطلة دراسية في جامعة هارفرد، إلى تالكوت بارسونز، مؤسس النزعة الوظيفية البنيوية، وعيّنه شلسكي في منتصف الستينيات مديرًا لمركز دورتموند للبحوث الاجتماعية في جامعة مونستر الذي يرأسه، ونال كرسي علم الاجتماع في الجامعة الجديدة في بيليفلد التي كانت أساسًا من تخطيط شلسكي. قام لومان بتوسيع ما بقي مجرد برنامج في أفكار غِلِن وشِلسكي، وأنتج نظرية نسقية للمجتمع. وفق هذه النظرية، لم يكن شكلٌ من التحكُّم بالنظم الاجتماعية المعقّدة

(138) Hans Freyer, *Schwelle der* Zeiten, p. 331.

(139) Arnold Gehlen, *Urmensch und Spatkultur*, p. 258.

غير مدمج فكريًا ولا أخلاقيًا أو عاطفيًا، ويقع خارج العقول الفردية، كارثة أو خطبًا رهيبًا يستدعي التغيير، بل كان شكلًا ملائمًا للتغلب على مشكلات المجتمعات الصناعية العالية التطور. كان لومان نموذجًا جسّد شكلًا من الوضعية المحافظة، أو من المحافظة الوضعية، ملائمًا للعصر، وكان السجال بينه وبين هبرماس استمرارًا لمناظرات الستينيات).

كان السجال النظري مع موقف كهذا أكثر صعوبة من السجال مع الوضعيين الذين رأوا أنفسهم في تقليد التنوير. وقد انتهت مناظرة جرت بين غِلِن وأدورنو في عام 1965 في الإذاعة إلى مواجهة بين موقفَين كلاسيكيَّين. عند هذه النقطة بدا الحوار كما لو أن المفتش الأكبر يتحدث من حكاية إيفان كارامازوف في رواية دوستويفسكي **الإخوة كارامازوف** مع يسوعٍ لن يطول صمته.

"**غِلِن:** [...] سيّد أدورنو، أنت ترى هنا بالطبع مشكلة الاستقلالية مرة أخرى. هل تعتقد فعلًا أن المرء ينبغي أن يُحمِّل جميع الناس ثقل المشكل الأساسي، والبذل التأملي، وأخطاء الحياة التي تخلّف في ما بعد تأثيرًا عميقًا، تلك الأخطاء التي خبرناها، لأننا حاولنا السباحة بحرية؟ هذا ما أريد أن أعرفه منك بسرور.

أدورنو: في معرض إجابتي أستطيع القول ببساطة تامة: نعم! لديّ تصوّر عن السعادة الموضوعية واليأس الموضوعي، ويمكنني القول إن رفاهية الناس وسعادتهم في هذا العالم، ما دام المرء يُخفِّف الأعباء عنهم، ولا يُحمّلهم المسؤولية الكاملة وتقرير المصير، ستكونان وهمًا. وهو وَهْمٌ سينفجر ذات يوم. وعندما ينفجر سوف تكون له نتائج مخيفة.

غِلِن: هنا نحن تمامًا عند نقطة تقول فيها أنت 'نعم' وأقول أنا 'لا'، أو العكس، حيث يمكن أن أقول إن كل ما يستطيع المرء أن يعرفه عن الإنسان منذ السابق وحتى اليوم ويصوغه، يمكن أن يدلّ على أن وجهة نظرك أنثروبولوجية-يوتوبية، وإن كانت وجهة نظر غنية ورائعة [...].

أدورنو: ليست على الإطلاق يوتوبية على هذا النحو المخيف، بل سأقول بداية ببساطة تامة: [...] الصعوبات التي بسببها يلحّ الناس على نظريتك كي

يتخفّفوا من الأعباء [...] والبؤس الذي يدفع الناس إلى هذا التخفيف هو بالذات الثقل الذي تسبّبه لهم المؤسسات، أي منشأة العالم الغريبة عنهم والقاهرة لهم [...]، وهذا يبدو لي أقرب ما يكون اليوم إلى ظاهرة أصلية في الأنثروبولوجيا تتمثل في أن الناس يهربون تمامًا إلى السلطة التي تسبّب لهم الوبال الذي يعانون من وطأته. ويملك علم نفس المعمّق لهذا أيضًا تعبيرًا؛ فهو يدعوه تحديدًا 'التماهي بالمعتدي' [...].

غِلِن: سيّد أدورنو، نوشك أن نصل إلى ختام حديثنا. وليس بمقدورنا أن نفصّل فيه أكثر [...]. لكنني أريد أن أقدّم مأخذًا مقابلًا. فأنا، على الرغم من أنني أشعر أننا متفقان في مقدمات عميقة، لدي الانطباع أن من الخطر أن تميل إلى جعل الإنسان غير راضٍ بعض الشيء بما بقي له في يديه من الحالة الكارثية بأكملها"[140].

على هذا النحو، بدا الحوار عند نهايته أمام طريق مسدود. هل كان هذا الانطباع خادعًا؟ ألم يكن غِلِن هو الخاسر؟ فالمدافع بالذات عن موقف "الخروج إلى حياة العداء" يظهر هنا بمظهر الحامي؛ فهو بالذات، "الفيلسوف التجريبي" – كما أطلق على نفسه – لم يكن على استعداد في الحقيقة للمجازفة بالأمر وصولًا به إلى تجربة. في أي حال، كانت هناك بحسب رأيه ثورات دائمًا وأبدًا، وكانت المؤسسات في "الحضارة الحديثة" تضمحلّ، من غير أن يبرهن كثير من الناس في هذه المناسبات على قدرتهم على تقرير المصير.

لكن لِمَ لا يكون أدورنو هو المغلوب على أمره؟ فهو بالذات، من آمن بقدرة الناس على تقرير المصير، لم يكن مؤمنًا بأنهم يأخذون الحرية لذلك ببساطة، بل يجب على المرء أن يقدمها لهم. في أي حال، فقد تنبأ بنتائج مخيفة إن لم تُقدم الحرية لهم. غير أن هذه الملاحظة بقيت في الظلام، فهي تشير إلى فوضى وانهيار أكثر مما تشير إلى ثورة وتحرر. لهذا السبب انتهى الحوار بينهما إلى طريق مسدود.

---

(140) Theodor W. Adorno & Arnold Gehlen, "Ist die Soziologie eine Wissenschaft vom Menschen? Ein Streitgespräch," in: Friedemann Grenz, *Adornos Philosophie in Grundbegriffen*, pp. 249 ff.

مرة أخرى، كان هبرماس هو من أسهب في الاهتمام بهذا الخصم الذي تعلّم منه كثيرًا، وحاول في خضم السجال معه أن يبني وضعه، ويجعله معقولًا.

قدّر هبرماس الكيفية التي ربط فيها غِلِن في كتابه **الإنسان** وفرةً من نتائج البحث مع أفكار شلر وبلسنر والبراغماتي الأميركي والمنظّر جورج هربرت ميد في أنثروبولوجيا منهجية تُبيّن كيف حوَّل الإنسان شروط وجوده الناقصة إلى فرص لإطالة أمد حياته، وكيف بنى نظامًا من أنماط السلوك، متحررًا من الغرائز إلى حد بعيد، ومتغذيًا من فائض قوة دافعة تسمح له بأخذ زمام حياته بيده بدلًا من أن يحيا فحسب. كذلك الأمر، ثمّن هبرماس الكيفية التي أعاد بها غِلِن في **الإنسان الأول والحضارة المتأخرة** بناءَ نشوء المؤسسات: فالوسائل التي أُنتجت لإرضاء احتياجات أساسية أصبحت بالقدر الذي أثبتت صلاحيتها، وجعلت من تحقيق الاحتياجات الأولية أمرًا بدهيًا، أصبحت هي بدورها موضوعات لاحتياجات ثانوية، وعندما بدا تحقيق هذه الاحتياجات أمرًا طبيعيًا، وأصبحت الوسيلة غاية في حد ذاتها، أصبح تعطيل الاحتياجات الأولية وتعديلها ممكنًا، وصولًا إلى التخلّي عنها كليًا. بهذا تحقَّق الشكل الأعلى للمؤسسة: خلق الجواهر الكائنة والمتعالية ونقاط تبلور "التعالي في الحياة الدنيا" التي يمكن أن تكون الدافع إلى الفعل.

أُغفِل في هذا العرض ذلك الجانب الذي وصفه ماركس الشاب باغتراب قوى الإنسان الجوهرية، وبتكريس منتجنا الخاص سلطة موضوعية تتفوق على قدرتنا على التحكم فيها. استبعد السؤال عن بدائل الحياة الممكنة للإنسان بسبب ميزاته، وأيٌّ منها يمكن تعرُّفها بواسطة التاريخ. فحقيقة أن الإنسان كان يتّصف بكبح الغريزة وفائض القوة الدافعة والانفتاح على العالم، تكافئ في المعنى، بالنسبة إلى غِلِن، أنه كان لدى الإنسان استعداد للفوضى، ولم يكن بمقدور غير بديل غريزي أن ينقذه من ذلك. كانت المؤسسات هي شبه الغرائز هذه، ولذلك كان على المؤسسات الحقيقية، وفق مشروع غِلِن، أن تكون على درجة من القسوة والبدهية التي لا شك فيها، والتي تجعل منها مكافئات وظيفية للغرائز الحيوانية. لكن لا يُستنتَج من التركيب النسقي للمكتشفات والتأملات الأنثروبولوجية - كما يمكن تلخيص نقد هبرماس - أن الإنسان كان، انطلاقًا من خلقه، وحشًا ضاريًا مطلق العنان، ولا أن المؤسسات تتمتع بالقساوة التي لا رحمة فيها للغرائز

البديلة. لذلك، ولأن ما يتاح من التفسيرات المعقولة نوعًا ما لمظاهر أزمة الحاضر لم تكن أيضًا مقنعة عندما استنتج غِلِن مظاهر التأزُّم من انهيار المؤسسات، فإنه لم يكن أمرًا لا ريب فيه أن تحُلَّ عمومًا المظاهر الحديثة للأزمة، إن وجدت نوعيًا، في مؤسسات قديمة قاسية كانت ذات يوم ربما ملائمة، كما لم يكن متفقًا عليه ألا تكون قد وُجدت أيضًا في أزمنة سابقة أشكال أخرى من العيش فعّالة وأكثر إشباعًا في الوقت عينه. كما اتفق في النهاية أنه لا يمكن أن توجد عملية تعلُّم في بُعد نمط العيش الإنساني، يتعيّن التسليم بأن الأزمات جزء منها، وأنها لا يمكن أن تتقدّم إلا من خلال الأزمات.

بناء على هذه الاعتبارات، لم يُحاسَب غِلِن في الأساس إلا على كلمته. فأن يتعيّن تعريف الإنسان من خلال اختزال الغريزة وفائض القوة الدافعة والانفتاح على العالم، كان سيفضي من فوره إلى الاستدلال بالضد[141]، عندما لا يُستخلَص منه إلا ضرورة غرائز بديلة. فالموقف النقدي لأنثروبولوجيا متشائمة - كما أكد هبرماس في سجاله مع شلسكي في [مقالة] "تفاؤل تربوي أمام محكمة أنثروبولوجيا متشائمة" (صدرت في عام 1961) - لا يتميّز من خلال أنثروبولوجيا مقابلة متفائلة، بل يتميّز من خلال التخلي الفلسفي-التاريخي عن النظريات الفلسفية الثابتة الأنثروبولوجية عمومًا. في البداية كان التاريخ هو الحقل الذي يرى فيه المرء ما صنعه البشر من أنفسهم. في هذا الحقل تبدّى أن المؤسسات يمكنها، على الأقل بين آونة وأخرى وموضع وآخر، أن تتجرد من سلطتها الموضوعية بعد احتجاج عليها، وأن تتشارك الكفاءة في التغلّب على ضرورات الحياة مع زيادة الشغل الذاتي والتضامن في تعامل بعضهم مع بعض. ما يظهره التاريخ، علاوة على ذلك، تمثّل في أن "واحات" كهذه من شكل حياة منفتح، لم تنجح في الصمود طويلًا أمام هجوم مجموعات اجتماعية مع أنساق قيادية شبيهة بالغرائز. وُجِدت عندئذ فرص تثبت صلاحيتها - وليس عندئذ فحسب، بل في داخل كل مجتمع في كل وقت يوميًا - بكل الكميات، فرص تحديدًا للدفاع عن الأضعف في مواجهة الأقوى. لكن هذا كان يتطلّب فعليًا الشجاعة والانضباط الذاتي؛ إذ لا تشعر "الكائنات البطولية" دائمًا بالقوة إلا إلى جانب من يتصرفون

(141) ad absourdum وتعني بالعربية أيضًا برهان الخُلف أو الاستدلال بالمحال. (المترجم)

على نحو شبه غريزي. برهن التاريخ واليومي أن خطر المجتمعات الممأسسة بقسوة على هذه المجتمعات ذات المؤسسات الرخوة كان يميل إلى أن يكون أكبر على النوع البشري من خطورة انهيار المؤسسات ذاتها.

أمام هذه الخلفية، لم يكن، في أي حال، الانطباع المعطى إلا نوعًا من استدعاء الأقوى، عندما واجه هبرماس توصية غِلِن المتعلقة بمفارقة الاختزال القصدي في الإنسانية، بقوله: "الإنسانية هي الجرأة التي تتبقى لنا في النهاية، بعد أن نكون قد أدركنا أن الوسيلة الخطرة للتواصل الهش نفسه هي وحدها التي تستطيع أن تقاوم أخطار هشاشة شاملة"[142].

نقد هايدغر

كان هايدغر أقل الخصوم تجاوبًا على مسرح الجمهورية الاتحادية. فقد نشر هبرماس، بمناسبة عيد ميلاده السبعين في عام 1959، في صحيفة **فرانكفورتر ألغماينه** مقالةً بعنوان "التأثير الكبير: ملاحظة مؤرخ بمناسبة عيد ميلاد مارتن هايدغر السبعين". في مقالته النقدية الأولى حول هايدغر في عام 1953، اعتبر هبرماس **الكينونة والزمان** الحدث الفلسفي الأكثر أهمية منذ **فينومينولوجيا الروح** لهيغل. وفي عام 1959 كتب، باعتدال أكبر، أن هايدغر كان له - في الإطار الجامعي على الأقل - أكبر تأثير لفيلسوف منذ هيغل. إذا كان [كتاب] **الكينونة والزمان**، في المقام الأول، محاولة عبثية جديدة لتأسيس ذاتي للفلسفة، وكان محتوى ذلك العمل تأسيسًا أنطولوجيًا للمفاهيم السائدة في نقد الثقافة، بدءًا من شبنغلر ووصولًا إلى ألفرد فيبر، فعندئذ لا يتبقى، بعد أن تخلى هايدغر عن الممارسة الاجتماعية والعلم وعن الفلسفة أيضًا، واكتفى بدور المفكر الميثولوجي، لا يتبقى شيء يمكن أن يستثير فكرًا يهتم بإكمال نصف العقلانية من الناحية الوضعية، خصوصًا في السجال مع العلم والتقنية، وفي مجتمع يُشكّله العلم والتقنية بوصفهما القوة الإنتاجية الأولى. "من المحتمل تمييز فكر هايدغر، على نحو غير مباشر، من خلال ما لا يقوم به؛

(142) Jürgen Habermas, "Nachgeahmte Substantialität. Eine Auseinandersetzung mit Arnold Gehlens Ethik", in: *Philosophisch-politische Profile*, 214.

فهو كما لا يرتبط بالممارسة المجتمعية، كذلك لا يتفهم تأويل نتائج العلوم. لا بل يرفض في العلوم، انطلاقًا من أسسها، محدوديتها الميتافيزيقية، ويترك لها، هي والتقنية عمومًا، 'الضلال والخطأ'؛ إذ لا يجعل الرعاة من أرض غير ذات زرع مكانًا لسكناهم في العالم المتصحر [...]"[143]. كانت هذه لزمن طويل كلمة هبرماس الأخيرة لهايدغر. إلى جانب الوضعية التي أَلِفَت نفسها في تقليد التنوير والوضعية المحافظة، قدمت أنطولوجيا هايدغر الجديدة، الأكثر تأثيرًا، صورةَ نزعة لاوضعية (A–Positivismus) محافظة.

بدلًا من هايدغر، ركّز هبرماس في ما بعد اهتمامه، بشدة أكبر، على غادامر الذي رأى نفسه تلميذًا لهايدغر، ولغويًا تقليديًا متخصصًا، وهو الذي اهتم في مؤلفه الرئيسي **الحقيقة والمنهج** الذي صدر في عام 1960 بنسبية العلوم في مجال الفلسفة والفن. ولعل أشد ما انجذب إليه هبرماس في غادامر هو أن هذا الأخير كان الفيلسوف التأويلي الذي حضر القطاع الهايدغري. فلقد أسهم فيلسوف العلوم الإنسانية، من غير قصد، في تصوّر ذاتي أكثر ليبرالية للعلم الحديث.

في أي حال، بقي هايدغر يمثّل تحديًا لأدورنو الذي كان له، خلاف هبرماس، علاقة متناقضة بالعلم. عندما سافر ماركوزه إلى أوروبا أول مرة بعد نهاية الحرب، رجاه هوركهايمر أن يُحضِر معه كتاب كوغون (Eugen Kogon) **دولة الإس إس** وكتاب هايدغر **عن جوهر الحقيقة**. حقّق له ماركوزه الأمنيتَين، بل حملهما إليه من هايدغر الذي تحدّث معه مطولًا أكثر مما تمنّى. وعندما كان أدورنو في عام 1949، مرة أخرى، في فرانكفورت، حاول أن يحثّ هوركهايمر على إجراء مراجعة لمجلة **در مونات** عن كتاب هايدغر **دروب الغابة** الذي كان قد صدر لتوّه. وكتب إليه، مرسلًا في الوقت نفسه بعض ملاحظاته، أن هايدغر الذي فكّر فيه كثيرًا، لم يكن "بكيفية ما بعيدًا عنّا في دروب الغابة على الإطلاق"[144]. وقد أراد أدورنو أن يترك المراجعة لهوركهايمر، لأنه كان منشغلًا بعمل حول هايدغر ولوكاتش.

---

(143) Jürgen Habermas, "Die große Wirkung," in: *Philosophisch-politische Profile*, p. 85.

(144) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، فرانكفورت، 26 تشرين الثاني/ نوفمبر 1949.

كان التعاطف مع **دروب الغابة** هو ما جعل أدورنو يأخذ هايدغر بجدية حتى النهاية. انتقد أدورنو - بحسب هبرماس - تنحّيه الأرستقراطي عن العلم الذي يؤكد سيادته الكلية. انتقد نفور هايدغر من عالم الطرق السريعة والتقنية الحديثة، وانتقد طريقته في عرض "دفء القلب" الذي يعفي من الحاجة إلى نقد الواقع. كما شدد أدورنو أيضًا - مثل هبرماس - على استمرار الحالة الخطيرة التي كانت تميّز حقبة الحكم النازي، أي الجمع بين تمجيد الحياة الأصلية البسيطة والتسريع الذي لا هوادة فيه لعملية التركيز الاقتصادي والتطور التقني.

لكن أدورنو، بخلاف هبرماس، أحسّ بتعاطف مع فكر يريد، مستقلًا عن حركة العلم، أن يتقدم نحو الأهم، بصرف النظر عن قيود المنهج العلمي. لقد رأى أن هذا الدافع لدى الأنطولوجيين - مهما كان مشوّهًا - لا يزال حيًا، تمامًا كما فعل هوركهايمر في مقالات الثلاثينيات. "شيء من تذكُّر هذا الخير الأسمى[145] الذي لم تَنْسَه الفلسفة النقدية، ولم تستبعده بحماسة، احترامًا للعلم الذي سعت إلى تأسيسه، يستمرّ في الوجود في الحاجة الأنطولوجية؛ الإرادة في عدم السماح للفكرة بأن تنحرف عن الغاية التي أُنتجت من أجلها"[146]. وكما في السابق، لا تزال علاقة أدورنو بالعلم متناقضة. عندما كان ينتقد العلم، ظل من غير الواضح، في كثير من الأحيان، إن كان يعني الفهم الوضعي للعلم، أو العلوم في هيئتها القائمة (سواء أُدرك هذا الشكل على نحو مطابق من النظرية العلمية الوضعية أم لا)، أو التخصصات العلمية التي تعتمد تقسيم العمل عمومًا. يتطابق مع هذا، من ناحية أخرى، الدفاع عن التأمل النظري، التفكير المقالي المستقل الذي لم يكن - مع التشديد الكلي على ضرورة الانضباط المفاهيمي - على الأقل، أكثر بعدًا من التذكُّر الهايدغري للكينونة مما هو الحال من طرائق البحث العلمي المتعددة. وعلى عكس هبرماس، لم يستفد كثير من كتابات أدورنو الفلسفية من نتائج بحث علمي محدد، ولم تشتمل على أي تأملات نظرية حول فلسفة العلم، وأصبح الفكر الفلسفي أداة مستقلة للمعرفة.

---

(145) الرغبة الشديدة في معرفة جوانية الأشياء.

(146) Adorno, *Negative Dialektik*, pp. 80 f.

كان أدورنو يسعى، بخلاف هبرماس، من أجل نقد محايث لفلسفة الكينونة عند هايدغر. وقد أمل في تقديم تسويغ لفلسفة ملموسة موجزة، من خلال نقد محايث للتجسيد الذي شقّ طريقه إلى الأنطولوجيا المهيمنة في ألمانيا. تلميذه في الفلسفة وزميله كارل هاينتس هاغ أظهر في أعماله بدقة كيف أن هايدغر - لأنه لم يكن قادرًا على إدراك الكينونة في معناها التقليدي، تبعًا للنقد الاسمي - حدّدها مكرهًا بوصفها "عدم" الكائن، بوصفها وسيطًا خالصًا، وكينونة عابرة، وفريدة في تحوّلها المفاجئ إلى كائن الكينونة الكائنة. لم يكن فكرُ الكينونة فكرَ كينونة بمعنى المضاف الموضوعي إلا بالقدر الذي كان بمعنى المضاف الذاتي. فالفكر كان فكر ما فكّر به. الكائن والفكر أصبحا قدر الكينونة، قدر كينونة تفتقر إلى التحديد، أي طارئة وخالصة. فالكينونة التي في نقائها هي النقيض تمامًا للمباشرية الخالصة، أي شيء يُتوسَّط كليًا، ولا يكون ذا معنى إلا في توسُّطات، كانت قد افتُرضت خطأً بأنها المباشرية في حد ذاتها[147].

في تصوُّر هايدغر للكينونة الذي شُدَّ فيه التوسُّط إلى موضوعية غير موضوعية، وإلى تعالٍ متعدٍّ، رأى أدورنو التشويه الأنطولوجي للمضمون الجدلي الذي يشترط فيه الدازاين، أو الذات بوصفها مكوِّنًا، الواقعيةَ التي يُكوّنها. في رأيه، لقد حاول هايدغر التعبير عن البنى الجدلية بطريقة غير جدلية، وسعى إلى إنصاف مزية التعليق في الفلسفة التي لا تتكوّن من حقائق المنطق (vérités de raison)، ولا من حقائق الواقع (vérités de fait). "حوَّل هايدغر [...] تلك المزية النوعية للفلسفة بمعنى الكلمة - ربما لأنها تستعد للانطفاء - إلى فرع، وإلى موضوعية من مرتبة شبه عالية؛ إذ إن فلسفةً تعرف أنها لا تحاكم وقائع ولا مفاهيم بالطريقة التي تحاكم فيها أشياء أخرى، وليست متأكدة مما تتعامل معه، سوف تبحث عن مضمون إيجابي في ما وراء الوقائع والمفاهيم والمحاكمات. وبهذا يرتفع الطابع المعلّق للفكر إلى مستوى ما لا يمكن التعبير عنه والذي يريد الفكر التعبير عنه؛ ويرتقي غير الموضوعي إلى موضوع محدد من طبيعته، وبذلك يُعتدى عليه. تحت ثقل التقاليد التي يريد هايدغر زعزعتها،

(147) Karl Heinz Haag, *Kritik der neueren Ontologie*, p. 73.

يصبح ما لا يمكن التعبير عنه واضحًا ومدمجًا في كلمة الكينونة؛ في حين يتشيَّأ الاعتراض على التشيؤ، خارجًا من الفكر، ولاعقلانيًا. في معالجته جانب الفلسفة غير المعبَّر عنه، يحتجز هايدغر الفلسفة حتى استدعاء الوعي. ومن باب العقاب، تجفّ البئر التي يحاول حفرها. إنها، وفق تصوّره، بئر مطمورة، ترشح قطرات أقل ضآلة مما جاء من أفكار الفلسفة المحطمة المزعومة التي تميل، من خلال التوسُّطات، نحو ما لا يمكن التعبير عنه"[148].

حاول أدورنو، مستأنفًا نقده لهوسرل المنشور في الخمسينيات، أن يدلّ الفلسفة على الطريق نحو التجسيد الحقيقي للتعبير عما لا يمكن التعبير عنه، ولا يتخلّى عن الفكر، وذلك من طريق النقد المحايث للأنطولوجيا المهيمنة في ألمانيا وبما يتجاوز التأمُّل الذاتي للعلوم. وراء أنطولوجيا هايدغر - كما يمكن اختصار سجال أدورنو معه - كانت تكمن موضوعيًا مصلحته في فكر يميّز نفسه نوعيًا من العلوم وفلسفة العلم والمنطق، ويمضي نحو الجوهري؛ فكر ينبثق من محايثة الوعي. لقد أدى تجاهل العلوم، بل أيضًا تجاهل التقليد الغربي برمّته منذ أفلاطون، إلى بقاء هايدغر أسير الميتافيزيقا التقليدية التي لا سبيل إلى التحرر منها إلا عبر التأمل الذاتي وحده. فالفلسفة المجسّدة ستكون - في رأي أدورنو - "تجربة مكتملة، غير مختزلة، في وسط التأمل المفاهيمي". أما إلى أي مدى تخطى أدورنو هايدغر في هذه الناحية فعلًا، فهذا ما يمكن قراءته في كتابه **الجدل السلبي** الذي صدر في عام 1966، والذي افتتحه بنقدٍ لهايدغر يزعم أنه نقد محايث.

لم تقلل محاولة إنتاج نقد محايث وعيه للخطر المقبل من المواقع المعارضة. فقد اتهم هبرماس الواقعية المشطورة للوضعيين الذين وجدوا أنفسهم في تقليد التنوير بتشجيع حضارة تقنية يتهددها انقسام الوعي وانقسام الناس إلى طبقتَين: مهندسين اجتماعيين، ومقيمين في مؤسسات مغلقة[149]. كان هذا، برأي المحافظين التكنوقراطيين، برنامجًا مفتوحًا إلى حدٍّ ما. فبالنسبة إليهم - خلافًا لما أطلق عليه التكنوقراطي المحافظ آرمين موهلِر تسمية نزعة

(148) Adorno, *Negative Dialektik*, p. 116.

(149) Jürgen Habermas, "Dogmatismus, Vernunft, und Entscheidung," in: *Theorie und Praxis*, p. 257.

المحافِظة، أو ما سمّاه لاحقًا إرهارد إبلر نزعة المحافظة على القيم - لم يكن من الممكن الانطلاق من نقد محايث. كانت مزاياهم في هذا الأمر تكمن في حقيقة أنهم - بسبب كراهية الديمقراطية والاشتراكية وازدرائهما عمومًا - كانوا يصفون التشويهات التي تعاني منها الديمقراطية والاشتراكية على نحو حاد ولاذع أكثر من اليسار. دور هايدغر الخطير الذي بقي ثابتًا صاغه أدورنو في نهاية المطاف في **رطانة الأصالة**، بقوله: "اللاعقلانية في العقلاني هي جو عمل الأصالة"[150]. لكن هذا تطابق مع موقف المحافظين التكنوقراطيين: إذ كان ينبغي أن تُدمج في الحضارة التقنية كأداة توجيه طبيعيّةٌ مصطنعةٌ تُحاكي الأصل.

إذا تأمَّل المرء الاحترام والتأثير اللذين يحظى بهما أشخاص مشبوهون، مثل هايدغر وغِلِن، في الجمهورية الاتحادية، وتأمَّل أبعد من ذلك كيف سارت عملية إعادة البناء في ألمانيا الغربية في حقبة أديناور، وكيف تبعتها حقبة إرهارد بكل سلاسة بشعارها عن "المجتمع المتشكّل"، وكيف لحقت بها بسلاسة أيضًا حقبة الائتلاف الكبير، عندئذ لا يمكن المرء إلا أن تتملّكه الدهشة من تذمّر هايدغر وغِلِن وتَبَرُّمهما. ألم يستطيعا إيجاد نفسيهما في خواء الحتمية الموضوعية للمجتمع الصناعي؟ ربما جزئيًا. لكن تفسير ذلك يكمن، قبل كل شيء، في حقيقة افتقارهما - إذا استعرنا كلمات كيرشهايمر - إلى "شعور الأمان الأخير وشعور الموثوقية للحظة الأخيرة الحاسمة". في عام 1952، في الطور الأخير للاقتصاد الموجَّه من الدولة، أكد وزير الاقتصاد النيوليبرالي لودفيغ إرهارد، "أبو المعجزة الاقتصادية"، "أن دولة الرفاه التي نهضت في ظروف اجتماعية يجب تقويضها لأسباب اجتماعية مرة أخرى بأسرع ما يمكن"[151]. وبقي هذا برنامجًا مستدامًا. في الستينيات، كتب روديغر ألتمان، مستشار إرهارد الذي يعود إليه شعار "المجتمع المتشكِّل"، على سبيل المثال، في مقالة في صحيفة **هاندلزبلات**، يقول: إن الأمر يتعلق في "أن هذا المجتمع يجب أن يتعلم قبول قساوة صراعه التقني-الاقتصادي، وأنه لن يكون هناك

---

(150) Theodor W. Adorno, *Jargon der Eigentlichkeit*, p. 43.

(151) أورده أوسكار نغت في:

Oskar Negt, "Gesellschaftsbild und Geschichtsbewusstsein der wirtschaftlichen und militarischen Fuhrungsschichten," in: Gert Schäfer & Carl Nedelmann (eds.), *Der CDU-Staat*, p. 367.

فردوس اجتماعي [...]، وأن جميع البرامج التي تريد أن [...] تُخضِع الاقتصاد للنظام الاجتماعي، هي أوهام"[152]. في العام الانتخابي 1965، أصدر هانز فرنر ريشتر كتاب **مرافعة لأجل حكومة جديدة أو لا بدائل**. وطُبعت مقالة رولف هوخهوت "صراع الطبقات" أولًا في مجلة **در شبيغل** بتزيين ضخم؛ وقُدِّم فيها إرهارد نصيرًا لصراع طبقات من أعلى. وكانت ردة فعل رئيس الحكومة الاتحادية: "هناك نوع من الفكر ينقلب إلى عته. وعندئذ ينتهي، بالنسبة إليّ، الشاعر، ليبدأ جروٌ متباهٍ النباحَ بغباء"[153].

(152) أورده غيرت شيفر في:
"Leitlinien stabilitätskonformen Verhaltens," in: Schäfer & Nedelmann (eds.), *Der CDU-Staat*, p. 444.

(153) *Der Spiegel* (21 Juli 1965), p. 18.

الفصل الثامن

النظرية النقدية في زمن الانتفاض

متابعة أدورنو "جدل التنوير": "الجدل السلبي"

كتب أدورنو إلى هوركهايمر في كانون الأول/ ديسمبر 1966: "'**الجدل السلبي**'، الطفل البدين، سوف تحصل عليه من بين أشياء أخرى، وأنا متوتر إلى أقصى حد حيال ما ستكون عليه ردة فعلك، ولستُ أرغب في الإلحاح عليك لقراءته بأسرع مما نقرأ، أنت وأنا، شيئًا كهذا. آمل أن لا تجده عودة إلى الفلسفة، بقدر ما يُقصَدُ منه، بتعبير ملطَّف، محاولة توسيع المفهوم التقليدي للإشكالية الفلسفية من داخلها [...]. ما يمكن أن يثير السجال حصريًا هو إن كان على المرء أن يخوض، لهذا السبب، في ما يسمى مجال الفلسفة التخصصي؛ غير أن هذا يلائم شغفي في النقد المحايث، وهو ليس مجرد شغف، وقد يكون أيضًا مسوَّغًا في الكتاب إلى حدٍّ ما"[1].

لا شيء يمكن أن يوضح أكثر من هذه الفقرة من الرسالة كيف كان أدورنو يلخّص فترته المعاصرة بتدخله مباشرة فيها، وكيف لم يكن أمامه مفرّ من التعبير عن هذا الدافع إلا بطريقة غير مباشرة. كُتِبت الرسالة التي تضمّنت الفقرة المقبوسة في مرحلة حرجة من تاريخ الجمهورية الاتحادية. فنظرًا إلى الكساد الأول الذي ألحق الضرر بالمعجزة الاقتصادية في ألمانيا الغربية، انهار في خريف 1966 الائتلاف الحكومي المؤلف من تحالف الاتحاد الديمقراطي المسيحي والاتحاد الاجتماعي المسيحي والحزب الديمقراطي الحر. وبات لودفيغ إرهارد، رئيس الحكومة الاتحادية، أشبه بالمشلول. استطاع الحزب الديمقراطي القومي اليميني المتطرف الذي أُسِّس قبل عامين أن يشقّ طريقه إلى البرلمان المحلّي في كل من هِسِّن وبايرن بحصوله على 7.9 و7.4 في المئة على التوالي من الأصوات. والحال هذه، اتفق الحزب الاشتراكي

(1) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 15 كانون الأول/ ديسمبر 1966.

الديمقراطي الألماني مع تحالف الاتحاد الديمقراطي المسيحي/ الاتحاد الاجتماعي المسيحي في نهاية تشرين الثاني/نوفمبر 1966 على تشكيل ائتلاف كبير. قَبِل الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني، بخلاف الحزب الديمقراطي الحر، بفرانز يوزف شتراوس وزيرًا، وهو المثقل بقضية مجلة **در شبيغل** وفضائح أخرى؛ وقَبِل رئيسًا للحكومة كورت غيورغ كيسنغر الذي كان عضوًا في الحزب النازي ورجل الارتباط بين وزارة ريبنتروب ومحطات الإذاعة المستخدمة للدعاية النازية في البلدان المحتلة. وأصبح فيلي برانت - وهو أحد ملهمي انعطافة غودزبرغ في الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني - وزيرًا للخارجية ونائبًا لرئيس الحكومة. كتب هبرماس في صحيفة الطلبة في فرانكفورت **ديسكوس**: "لدينا سبب للخشية من الحكومة الجديدة [...]، فخطة الطريق المعروفة حتى الآن ليست في مصلحة تثبيت الديمقراطية في حالة الطوارئ أكثر مما هي في مصلحة فرض حالة الطوارئ على الديمقراطية"[2].

كتب ماركس في عام 1875 نقده لبرنامج غوتا للحزب الاشتراكي الديمقراطي. وكان أدورنو قد خطط منذ مدة طويلة لكتابة نقد برنامج غودزبرغ للحزب الاشتراكي الديمقراطي، واختار لنشره مجلة *Kursbuch* (**كورزبوخ**) لهانز ماغنوز إنتسِنبرغر الذي كان متحمسًا للفكرة. لكن خوفه من صب الماء في الطواحين التي "ترتجّ على وقع الديمقراطية المهزوزة بعنف"، دفعه إلى الإقلاع عن تنفيذ خطته. وقد شدّ هوركهايمر من أزره في ذلك. وبذلك استطاع أدورنو أن يتفرغ بضمير مرتاح لدمج فكره الجمالي، مواصلًا في حالة من القلق السياسي، بهذه الطريقة، إسباغ تعبير غير مباشر على دوافعه السياسية.

عمل أدورنو على **الجدل السلبي** منذ عام 1959. وجاء في رسالته إلى الملحّن إرنست كرينِك في تشرين الأول/ أكتوبر 1963: "إنني غارق الآن حتى أذنيّ في مشروع فلسفي طموح، وهو الأكثر ثقلًا منذ [كتاب] **نقدُ نقدِ نظرية المعرفة**". كان يوم عمله، إبّان اشتغاله على الكتاب، يبدو على النحو التالي: في الصباح الباكر عزف على البيانو. ظهرًا وبعد الظهر في معهد البحث الاجتماعي، في غرفة الإدارة التي تفتقر إلى الهدوء والرومانسية، والتي تطلّ على ميدان

---

(2) *Diskus*, 8 (1966), p. 2.

سِنكِنبرغ الذي يمثّل عصب الحركة المرورية في فرانكفورت. في كل عام، كان أدورنو يُلقي يومي الثلاثاء والخميس دروسه الفلسفية والاجتماعية، ويشرف على حلقات دراسية [سمينارات]، من بينها أحداث اجتماعية أصلية، كحلقة دراسية عن الضحك، وأخرى عن النزاع، يجري في كل منها التعاطي مع تجارب الطلبة اليومية. وكان من بينها أيضًا الحلقة الدراسية الفلسفية الرئيسية التي كانت تُقام بالاشتراك مع هوركهايمر. وكانت أمسياته في البيت – وهو شقة مستأجرة تبعد خمس دقائق من المعهد، وكان البيانو علامتها المميزة – مكرّسة للقراءة وما شابه. كان أدورنو – في ما يخص أعماله – يدوّن لنفسه باستمرار ملاحظات في دفتر صغير يحمله معه على الدوام، وكان يُملي نصوصَه اعتمادًا عليها. كانت الصفحات تُكتب على الآلة الكاتبة بفاصل سطرين، وهوامش عريضة، وغالبًا بعبارات غير مكتملة تمامًا. وكان أدورنو ينقّح هذه الصفحات، بحيث لا يُبقي، أحيانًا، على شيء مما كتب بالآلة الكاتبة، ويستبدل به جميعه كتابة بخط اليد. تتكرر هذه العملية في بعض الأحيان حتى أربع مرات (هذا ما نقله إليّ رولف تيدمان، تلميذ أدورنو ومساعده وفي ما بعد ناشر أعماله ومدير تركاته، فضلًا عن كونه خبيرًا ببنيامين وبمؤلف كتاب **دراسات في فلسفة فالتر بنيامين** الذي صدر في عام 1965 ضمن سلسلة "مساهمات من فرانكفورت في علم الاجتماع").

في نهاية عام 1965 طلب أدورنو، لأول مرة منذ عام 1953، عطلة بحثية لمدة عام كي يتمكّن من إنجاز مشاريعه. "ما يعنيني في المقام الأول هو إنجاز كتاب ضخم حول أساسيات الديالكتيك، وآخر حول علم الجمال، طالما أنني أعرف أني لا أزال في كامل قواي"[3]. عزّز حضور أدورنو إخراجًا جديدًا لمسرحية بريخت **أوبرا القروش الثلاثة**، التي وجدها قديمة على نحو لا يمكن تخيّله[4]، شكوكه إن كانت تلك الأعمال التي أُنتجت من أجل اللحظة الحاضرة قادرة على الاستمرار والبقاء. أما كتاباه الأساسيان الكبيران عن الديالكتيك وعلم الجمال فقد انبثقا أيضًا من سعيه إلى حل التناقض الثابت الذي لاحظه، على سبيل المثال، في **فلسفة الموسيقى الجديدة**، والذي يتمثل

(3) رسالة من أدورنو إلى ديكان، 23 تشرين الثاني/ نوفمبر 1965.

(4) رسالة من أدورنو إلى كراكاور، 27 نيسان/ أبريل 1965.

في حقيقة أن الأعمال الوحيدة التي تُعدّ اليوم هي التي ما عادت تُحسب أعمالًا؛ إذ حاول أدورنو أن يحل التناقض بعقلية معلّمه الموسيقي ألبان برغ، كما حاول إبداع أشكال عظيمة، أي أعمال، يتمرد مضمونها على العمل.

وعلى غرار **فلسفة الموسيقى الجديدة** و**نقدُ نقدِ نظرية المعرفة**، كانت النتيجة الأولى تجميع دراسات في صورة مقالات مع مقدمة تمهيدية طويلة. وهكذا تألَّف **الجدل السلبي** من مقدمة طويلة، ومن الأقسام الثلاثة: "العلاقة بالأنطولوجيا"، و"الجدل السلبي: المفهوم والمقولات"، و"النماذج". وقد بُني القسمان الأول والثاني على محاضرات كان قد ألقاها في الكوليج دو فرانس في باريس، في حين ارتبط القسم الأخير بمشاريع ونصوص الثلاثينيات.

لماذا فلسفة وليس نظرية للمجتمع؟ هل كان أدورنو يريد أن يؤكد أيضًا "أولوية الفكر من حيث مضمونه"[5]، وأن يَعِد بما هو أكثر من مجرد تجسيد خفي للفلسفة؟ لماذا الفلسفة مضمون وليس نظرية مادية للمجتمع؟ بدأت المقدمة بالقول إن "الفلسفة التي بدا أنه تمّ تجاوزها يومًا لا تزال باقية في قيد الحياة، لأن لحظة تحققها قد فُوّتت. فالحكم الإجمالي بأنها فسّرت العالم فحسب، وأنها تقوقعت على ذاتها أيضًا باستسلامها أمام الواقع، غدا نوعًا من انهزامية العقل، بعد أن فشلت محاولة تغيير العالم [...]. ربما لم يكن التفسير الذي وعد بوضع الفلسفة موضع التطبيق العملي كافيًا"[6]. وفي الصفحات الأولى من القسم الثاني، وضمن مبحث "العلاقة بالهيغلية اليسارية"، أي بفلسفة تلامذة هيغل الذين سخر منهم ماركس وإنغلز بوصفهم أيديولوجيين ألمانًا يحاربون التصوّرات الخاطئة للناس على أرضية الفلسفة، ويسعون إلى إحلال الأفكار النقدية محل التهيؤات الخالصة، يَذْكر مرة أخرى أن "تصفية النظرية، عبر إضفاء الجمود العقائدي وحظر التفكير، أسهمت في الممارسة الرديئة؛ وأن استعادة النظرية استقلالها ثانيةً هو في مصلحة الممارسة ذاتها. ليست علاقة اللحظتين إحداهما بالأخرى مقررة على نحو نهائي، بل هي تتغير تاريخيًا [...]. إن ما تبقى قاصرًا في هيغل وماركس على الصعيد النظري، أصبح جزءًا من

(5) Theodor W. Adorno, *Negative Dialektik*, p. 9.

(6) Ibid., p. 15.

الممارسة التاريخية. لهذا من الضروري التفكير من جديد في النظرية، بدلًا من انحناء الفكرة أمام أولوية الممارسة على نحو لاعقلاني [...]"[7].

لكن كما فعل في خطبته الافتتاحية في عام 1931 حول "راهنية الفلسفة"، أكد أدورنو في **الجدل السلبي** أيضًا أن الفلسفة ينبغي ألا تأمل أبدًا القبض على الكليّة. لكن إذا لم يكن للفلسفة في عجزها عن القبض على الكلية ما يميزها عن نظرية المجتمع، فلماذا يمارس اليسار الهيغلي الفلسفة، وليس نظرية المجتمع غير المنهجية؟ ثم بعد ذلك، لماذا يكتب عملًا فلسفيًا كان يجب أن يتبعه كتاب **نظرية إستطيقية** - وهو مؤلَّف ضخم لم يكتمل في حياة أدورنو بل صدر بعد موته - الذي كان من المفترض أن يتلوه أيضًا كتاب في فلسفة الأخلاق؛ أي بالإجمال ثلاثية يتعيّن أن تُقدّم - بحسب فهم أدورنو - "ما يجب عليّ أن أُلقيه في كفة الميزان"[8]؟ ألم تكن في هذه الحالة نظرية مجتمع غير منهجية أكثر أهمية وجدوى؟

إن الجواب عن سؤال "لماذا فلسفة ذات مضمون وليس نظرية مادية للمجتمع؟" ينبغي أن يعني أنه كان لدى أدورنو شيء يشبه ما وصفه كراكاور مرة عند بلوخ بالاندفاع المسعور نحو الله. فبدلًا من أن يعمل أدورنو على تفسير للعالم ملائم أكثر على مستوى نظرية المجتمع، دفعه نفاد صبره أكثر إلى التركيز على فكرة الوصول إلى ما بقي خارج سحر الكليّة الزائفة. وجاء في مقدمة كتاب **الجدل السلبي**: "بوسائل منطقية، يتطلع الجدل السلبي إلى أن يقدم، بدلًا من مبدأ الوحدة والسلطة الكلية لمفهوم التسامي، فكرة ما يمكن أن يكون خارج سحر وحدةٍ كهذه. منذ أن وثق المؤلف بدوافعه العقلية، وجد أن من واجبه أن يكسر، بقوة الذات، خداع الذاتية التكوينية، وهو لا يرغب في تأجيل هذه المهمة أكثر من ذلك"[9]. إن ما يعنيه على مستوى نظرية المجتمع إظهار منطلقات لتغيير الكل الناقص أو وضع مشروع لها، يمكن استحضاره أيضًا على مستوى "نظرية الفلسفة"[10] بمرارة من دون استخدام اليدين. أكثر

(7) Ibid., pp. 146 f.

(8) Theodor W. Adorno, *Asthetische Theorie*, p. 537.

(9) Adorno, *Negative Dialektik*, p. 10.

(10) Ibid., p. 39.

من ذلك، فإن ما بدا مستحيل التحقق على مستوى العمل المشترك بين العلوم، بدا أن تنفيذه ممكن على مستوى نظرية الفلسفة بطريقة مبدئية، من خلال نوع من بحث فردي في إطار منهجية متعددة الاختصاصات.

كان "الجدل السلبي" مصطلحًا جديدًا لبرنامج أدورنو القديم للنزوع الفلسفي، ولتصوُّر "جدل متناوب" كان قد أكده من قبل في كتاب **كيركيغارد**. في "الجدل المتناوب" كان اعتراض الحقيقة بين الذوات يعارض السيطرة الكلية الأسطورية للذات التلقائية[11]. كان الجدل السلبي منطق انهيار الروح الذي يُرضي ذاته، ووسيلة لما كان قد أُطلق عليه في كتاب **كيركيغارد** "تعالي الشغف"[12]. كانت مهمته وضع نهاية لفكرة الوحدة، ولوظيفة التصحيح الذاتي.

لكن كيف كان ممكنًا في العالم المسيَّر الذي شخَّصه أدورنو بنفسه أن "يتفتح"، في ظل سحر فكرة الوحدة الخاص، والفردي، واللامطابق؟ وعندما كانت تتحرر "حالة صحيحة" من الجدل[13]، ما الذي يؤدي إلى ألا يعود اللامطابق الذي تحرَّر، والذي لم تعد لفكرة الوحدة والجدل من سلطة عليه، إلى عدم التشكُّل والعزلة والطبيعة العمياء؟ ما الذي كانه هذا الذي "أصلحه" المختلف الذي جعل علاقة حرة وعمومية بلا قسر ممكنة؟ إذا كان الجدل معرفة تَفْتَح بالمفاهيم غير المتصوَّر والمفهوم، من غير أن تجعله مساويًا لها[14]، فكيف كان يمكن تصوّر تصعيد نحو عمومية متحررة من القسر، وصولًا إلى قول هولدرلين: "لكن المختلف جيد"؟

احتوى الجدل الذي تطوّر على يد هيغل في إطار النسق المثالي، واستُخدِم مبدأً في التفلسف الجوهراني، تجربةَ مقاومة الموضوع للذات، واللامطابق للمطابق. وهذا لم يُتِح، في نظر أدورنو، جدلًا فلسفيًا غير مطابق، ومضادًا للنسقية، بل كان أقرب إلى شرطها. "الجدل هو وعي اللاهوية"[15]. "التعارض

---

(11) Theodor W. Adorno, *Kierkegaard*, p. 180.

(12) Ibid., p. 251.

(13) Adorno, *Negative Dialektik*, p. 22.

(14) Ibid., p. 21.

(15) Ibid., p. 17.

هو اللاهوية من منظور التطابق؛ والأولوية الجدلية لمبدأ التعارض تجعل من فكر الوحدة مقياسًا للاختلاف"[16].

لكن ما يدفع نحو الجدل ليس ما يبدي مقاومة من أسفل فحسب، بل تدفع نحو الجدل أيضًا المفاهيم الفلسفية الأولى المزعومة، أي المبادئ العليا. إلا أنها أخفقت تحديدًا في مسعاها نحو الكلية. لكنها إن لم تكن المبادئ الأولى بالمطلق، فهي ليست الأولى على الإطلاق، بل كانت - بوصفها المبادئ "العليا" والأكثر نشاطًا وحركية - الأكثر تبعية. وبحسب مسار فكر أدورنو المتبقي، فإن "نقد الهوية المنجَز يتلمّس تفوّق الموضوع ورجحانه". "تفكير الهوية ذاتي، وإن رفض ذلك. وهو يستأنف بحسب هوية اللاحقيقة، ولا يؤسس توازنًا بين الذات والموضوع، ولا سيطرة كلية لمفهوم الوظيفة في المعرفة، كما أنه لا ينزع التقويض من الذات إلا بصورة محدودة. تعرف الذات لماذا تشعر، وفق مقياسها للمطلق، أن أقل فائض من اللاهوياتي يمثّل لها تهديدًا مطلقًا؛ فأدنى حد منه يقضي عليها، بوصفها كُلًّا، لأنها تدّعي أنها الكليّة. تُغيّر الذاتية نوعيتها في سياق لا يستطيع أن يتطور بذاته. وبحكم عدم التساوي الكامن في مفهوم التوسيط، تدخل الذات إلى الموضوع على نحو يختلف عن دخول الموضوع إلى الذات. فالموضوع لا يمكن أن يُفكَّر فيه إلا من خلال الذات، لكنه يبقى دائمًا شيئًا مختلفًا عن الذات؛ غير أن الذات، تبعًا لطبيعتها الخاصة، هي سلفًا موضوع أيضًا. انطلاقًا من الذات لا يمكن تصوّر، ولو كفكرة، أن الموضوع غير موجود، لكن انطلاقًا من الموضوع يمكن تخيُّل أن الذات غير موجودة. فأن تكون موضوعًا، إذًا، هو جزء من معنى الذاتية، لكن ليس جزءًا من معنى الموضوعية أن تكون ذاتًا. الأنا الكائنة هي لزوم حسّي 'لأنا أفكر المنطقية التي يجب أن تكون قادرة على مرافقة جميع تصوراتي' لأن تتالي الزمن هو شرط إمكانها، وتتالي الزمن ليس إلا تتالي الزمني. يحيل ضمير المتكلم 'لي' إلى ذاتٍ بوصفها موضوعًا بين موضوعات، ومن دون هذه الـ 'لي' لن يكون هناك مرة أخرى 'أنا أفكر'"[17]. في خلفية ذلك تكمن رؤية بسيطة: يمكن العالم أن يوجد من دون الناس، لكن الناس لا يمكن أن توجد من دون

---

(16) Ibid.

(17) Ibid., p. 184.

العالم. كان 'الجدل السلبي' ذكرى الآخر؛ فهو لم يكتمل إلى نسق، ولم يكن، كما الحال عند هيغل، انتقالًا من مقولة إلى أخرى. لا، بل إنها تُذكِّر، من حالة إلى حالة، ومن جديد باستمرار، بـ "إفساح المجال أمام اللاهوية"[18] التي لن يستقلّ عنها الفكر المحدّد والعقل المعتد بذاته أبدًا، والذي لن يتمكّن إلا من تشويهها بعواقب لا يمكن التكهُّن بها. لا يمكن التنويم المغناطيسي أن يكون ناجحًا في الأمد الطويل، لذلك فإن المخرج المعقول الوحيد هو الاعتراف بالموضوع وقبوله، وبالآخر، وبالغريب، كما جاء في نتيجة **الجدل السلبي**.

"الذي يريد أن يدفع أي شيء إلى واقع خالص، يميل إلى معاداة الآخر، أي الغريب الذي لا يُذكر اسمه عبثًا بالاغتراب. إنه يميل إلى تلك اللاهوية التي يجب أن تكون الخلاص لا للوعي وحده، بل للإنسانية المتصالحة [...]. لا يمكن أن نلغي، من جدل القائم، ما خَبره الوعي بوصفه شيئًا غريبًا؛ القسر والتبعية من الناحية السلبية، لكن أيضًا الشكل المشوَّه لما يمكن أن نحبّ، وما لا يسمح لنا تأثير التزاوج الداخلي للوعي بحبّه. بعيدًا عن الرومانسية التي أحسّت بأنها تمثل ألم العالم ومعاناة الاغتراب، تنهض عبارة أيشندورف 'غرباء جميلون'. إن الوضع المتصالح لا يضم إليه الشيء الغريب عبر إمبريالية فلسفية، بل يجد سعادته في أن يظل الشيء الغريب في قربه بعيدًا ومختلفًا، وخارج التباين والخاص"[19].

وطالما لم يكن الأمر إلى هذا الحد، كان يمكن توقُّع أولوية الموضوع بالمعنى السلبي. ومثلما هي الحال عند أدورنو عادة، كان للمفاهيم المركزية قطبان. كانت أولوية الموضوع تعني، بالمعنى الإيجابي، انفتاح الذات المتميزة على الموضوع المدرَك في تميُّزه الخاص[20]. أما أولوية الموضوع، بالمعنى السلبي، فكانت تعني هيمنة القوى الاجتماعية المستقلة على القوى الفردية العاجزة؛ أي حالة المجتمع في غياب ذات كلية اجتماعية.

---

(18) Ibid., p. 18.

(19) Ibid., pp. 191 f.

(20) يُقارن مع ص 476 وما بعدها في هذا الكتاب.

وحيثما توجد أولوية الموضوع بالمعنى الإيجابي، توجد أيضًا "كثرة من الذات"[21]. وكان يمكن الموضوع ألا يتصوّر وجود الذات. لكن لم يكن الحديث عن أسبقية الموضوع بالمعنى التوكيدي ممكنًا إلا حيثما كانت هناك حرية ذات متميزة مدرِكة للموضوع، وحيث لا تشتغل ذات متميزة مدرَكة بالموضوع، لا تنازلًا ولَا تسليمًا ولا ضرورة، ولا في تزلّف أو خداع، بل تدع نفسها للموضوع[22]، وتجعل من نفسها أداة مزج قدرة ردة الفعل التعبيرية والنظام المفهومي[23]. وقد زعم أدورنو أن مالر تمتع بقدرة غير مسبوقة على "إسباغ الموضوعية على الذات غير المقيّدة"[24]. كان إسباغ الموضوعية على الذات غير المقيّدة هو المهمة التي رأى أدورنو أنها مطروحة على الفن منذ نقده الموسيقى في العشرينيات. في حين كان إسباغ الموضوعية على الموضوع في الذات المدركة المتميزة الشكلَ الشامل الذي قَبِل مع مرور الزمن تلك المهمة، والذي من أجلها كان على **الجدل السلبي** أن يقدم الحل الأكثر تطورًا.

قدّمت الأقسام العامة من الكتاب، بحسب هبرماس، "تمرينًا على الصمود" في نقد عقلي يوجّه أداة التفكير المحدد ضد نفسها بالذات، من غير أن يجازف بالهرب منها. فالمقدمة التي عرّضت مفهوم التجربة الفلسفية للخطر، والقسم الثاني الذي عالج فكرة الجدل السلبي وموقعها من المقولات الخاصة، كانا يدوران بشكل متواصل حول شكل فكر تنوير منعكس، وهو مفهوم إيجابي للتنوير، يشبه ما أراد **جدل التنوير** تحضير الأرضية له. وقد واصل قسما الكتاب عملية الإعداد هذه.

أما النماذج التي قُدّمت في القسم الثالث من الكتاب فترمي إلى إظهار إن كان مطلب تنوير منعكس، أي مطلب تجاوز المفهوم من طريق المفهوم[25]، والوصول عبر المفهوم إلى اللامفهوم[26]، ومطلب خبرة كاملة، غير مختزلة، في

---

(21) Ibid., p. 50.

(22) Ibid., p. 53.

(23) Ibid., p. 55.

(24) Theodor W. Adorno, *Gesammelte Schriften*, vol. 16, p. 329.

(25) Ibid., p. 27.

(26) Ibid., p. 21.

وسط "الانعكاس المفاهيمي"[27]، قد تحقق فعليًا. كما رمت أيضًا إلى تبيان إن كان ممكنًا التمييز على نحو معقول بين الشكل المشوَّه لما يمكن أن يُحَب - أي ما يستحق أسبقية الموضوع بالمعنى الإيجابي - والتبعية، وهيمنة العلاقات الوظيفية الاجتماعية التي ما عاد يميّزها البشر، أي ما يجسّد أسبقية الموضوع بالمعنى السلبي.

يمثّل تصوّر نموذج وفكرة نموذجية[28] جهدًا للقبض على نسق الكلية المزيّفة بطريقة غير نسقية، واضعًا حدودًا لهذا النظام في حالات خاصة، كانت تتّسم بالتشوّه ومقاومة "الآخر"، وتمثّل في الوقت ذاته جهدًا في إطلاق "تماسك اللاهوية"[29] في داخل الآخر. يشتمل النموذج الأول على تأملات في فلسفة الأخلاق، تخص مفهوم الحرية في شكل نقدِ نقدِ العقل العملي. ويقدم النموذج الثاني تأملات في فلسفة التاريخ تخص مفاهيم روح العالم وتاريخ الطبيعة في شكل ملحق تفصيلي عن هيغل. والثالث - وهو "تأملات في الميتافيزيقا" - يعالج مفاهيم مثل الموت والحياة والسعادة والخلود والقيامة والتعالي والأمل، أي الأسئلة النهائية. لم يقدم أدورنو أي شرح لسبب اختياره هذه المفاهيم الخاصة، على الرغم من استغراب أن مقاربته لم تكن قائمة على العابر، والرث والصغير، بالطريقة التي يمكن أن يحمل شرحه فكرة جدل سلبي على التوقع. كان مبعث استغراب أيضًا ألا تكرّس أي من هذه النماذج الظاهرة التي تخطر فوريًا في البال دومًا بالارتباط مع مفهوم اللاهوية، أو مفهوم أسبقية الموضوع؛ أي الطبيعة الخارجية التي يسيطر عليها البشر. فأن لا يقحم أدورنو نفسه في هذا الموضوع كان أمرًا مفهومًا من ناحية. لقد أقرّ مرارًا في نقد ذاتي أنه لا يفهم شيئًا في العلوم الطبيعية، وأنه، للأسف، لهذا السبب ليس في وضع يُمكّنه من أن يعاكس الاغتراب الخطر الذي يتهدد الفلسفة والعلوم الطبيعية. من ناحية أخرى، قد يكون بالإمكان التفكير بالعلاقة مع الطبيعة الخارجية من جوانب أخرى أيضًا غير تلك المتصلة بالعلوم الطبيعية أو بفلسفة الطبيعة. وقد كان ذلك - كما برهن أدورنو نفسه في مواضيع أخرى - ممكنًا حتى من

(27) Ibid., p. 25.

(28) Ibid., p. 90.

(29) Ibid., p. 36.

غير ضمٍّ كبير لأبحاث علمية فردية، تخص مجالات تاريخ الاقتصاد، وتاريخ التقنية، وتاريخ الثقافة. لا تستدعي الفجوة الاستغراب، نظرًا إلى اهتمامات أدورنو، لكنها شكلت ضعفًا حساسًا في نظرية رأت في سيادة العقل، المعتد بذاته، على الطبيعتين الخارجية والداخلية، الخطرَ الحاسم على تاريخ العالم، وكان تصوّرها عن المعرفة الحقيقية قريبًا من الحالة الصحيحة لعالم فلسفة الطبيعة الرومانسية.

كان النموذج الأول، مناقشة سؤال إن كانت الإرادة - أو الذوات - حرة أو لا، مؤثرًا على نحو خاص. تركت التخصصات العلمية - مدفوعة في بحثها عن حتميات إلى جانب التقريرية - للفلسفة السؤال الذي أجابت عنه بناء على أفكار تبريرية قبْل علمية عن الحرية. وكانت النتيجة العقاب الذي أكّدته الفلسفة للذوات التي نعتتها العلوم بالتقريرية. "تثقل أطروحة حرية الإرادة الأفراد التابعين بالظلم الاجتماعي الذي لا يملكون شيئًا حياله، وتذلّهم باستمرار الثغرات التي يتعيّن أن يفشلوا أمامها. هكذا تطيل أطروحة الاستعباد سيطرة المعطى ميتافيزيقيًا، وتعلن أنها ثابتة لا تتغير، وتحثّ الفرد - ولو لم يكن، في أي حال، مستعدًا لذلك - على الانكماش، إذ لم يتبقَّ له في الحقيقة شيء آخر [...]. إذا أنكرت حرية الإرادة ببساطة، يُحمَل الناس بلا تحفُّظ إلى الشكل الطبيعي للطابع السلعي لعملهم في الرأسمالية المتطورة. ولا تَقلّ الحتمية القبْلية خطأً عن نظرية الإرادة الحرة التي تريد أن تُجرَّد في وسط المجتمع السلعي من هذا المجتمع. يشكّل الفرد نفسه لحظة منه؛ وتُنسَب إليه العفوية الخالصة التي ينزعها منه المجتمع؛ إذ لا تحتاج الذات إلا إلى بديل حرية الإرادة، أو استعبادها الذي لا مناص لها منه، ولا تلبث أن تضيع بعدها"[30].

عارض أدورنو هذا بصياغة جدل الحرية والعبودية، من أجل تقديم مقياس نقدي لتقويم حرية الأفراد الذين أضحوا اجتماعيين وعبوديتهم. "تكون الذوات حرة - وفق النموذج الكانطي - بالقَدر الذي تعي نفسها وتتطابق مع ذاتها. وهي في مثل هذه الهوية لا تكون حرة أيضًا، ما دامت تخضع لقسرها وتُبقي عليه. وهي ليست حرة، من حيث هي طبيعة غير متطابقة ومنتشرة، وهي، بوصفها

---

(30) Ibid., pp. 260 f.

كذلك، حرة لأن انفعالاتها التي تتغلب عليها - ليست لاهويّة الذات مع ذاتها شيئًا مغايرًا - تخلّصها أيضًا من الطابع القسري للهوية"[31]. في العالم المعادي تتغلب الطبيعة القسرية على الهوية، والطبيعة التدميرية على الدوافع. وكلاهما شكل يعبّر عن غياب الحرية. الحرية الحقيقية يمكن أن تعني أن يتبع المرء دوافعه، ويكون أكثر تطابقًا مع ذاته، أي أن يكون متوافقًا مع الآخرين. وكصورة مقابلة لفهم اجتماعي تشرعن فيه أطروحة حرية الإرادة عقاب أعضاء المجتمع القاصرين، ولتقليد فلسفي يربط الحرية والمسؤولية إحداهما بالأخرى في روح القمع، قدّم أدورنو نسخة هشة من يوتوبيا "مشارَكة فاعلة بلا خوف لكل فرد"، ويوتوبيا "كُلٍّ لا تزيده صلابةً مساهمة الأفراد مؤسساتيًا، لكي يكون لها فيه نتائج واقعية"[32].

الخيط المركزي في محاججة أدورنو كان نقد كانط، فيلسوف الحرية الكبير. قام أدورنو بردّ مفهومَي الحرية والاستعباد اللذين أصبحا ثابتين على الأفراد المعزولين إلى السياق الاجتماعي-التاريخي، وحافظ على وعي تجارب عصره بلا كبت، ومن بينها خصوصًا انطباع المهانة الأعمق حتى الآن، أي تجربة عجز الفرد في معسكرات الاعتقال النازية الأكثر فتكًا. ولقد توصّل بهذه الطريقة إلى نتائج غير تقليدية، ليس في حقل الفلسفة في الجمهورية الاتحادية فحسب، بل في المناخ العام للفكر الذي يعبَّر عنه في ألمانيا، والذي يقدم نوعًا من الواقعية الإنسانية. "تطرح الأسئلة الأخلاقية نفسها بصورة موجزة، ليس في تقليدها الهزلي المتعارض، القمع الجنسي، بل في عبارات مثل: ينبغي ألا يُعذَّب، وينبغي ألا يكون هناك معسكرات اعتقال، بينما يستمر هذا كله في أفريقيا وآسيا لكن على نحو مستتر، لأن الإنسانية المتحضرة - كما الحال دائمًا - ليست إنسانية حيال الناس الذين تَسِمُهم بلا حياء بكونهم لاحضاريين. لكن إذا استولى فيلسوف أخلاقي على تلك العبارات، وهلّل طربًا لإمساكه بنقّاد الأخلاق أخيرًا، وهم يستشهدون بالقيم ذاتها التي ينادي بها فلاسفة الأخلاق بسرور، فإن النتيجة القطعية ستكون خاطئة. فالعبارات صادقة بوصفها دوافع، عندما تُبلِّغ أن تعذيبًا يحصل في مكان ما، لكنها ينبغي ألا تُعقلَن. فهي، بوصفها

(31) Ibid., p. 294.

(32) Ibid., p. 261.

مبدأً مجردًا، تقع من فورها في اللانهائية الرديئة لاشتقاقها وصلاحيتها [...]. فالدافع، والخوف البدني العاري، والشعور بالتضامن مع الأجساد المعذبة - وفق تعبير بريخت - المحايثة للسلوك الأخلاقي، يجري رفضها من خلال مسعى إسباغ العقلانية بلا مبالاة. ويعود ما هو أكثر إلحاحًا مرة أخرى ليصبح تأمليًا، وينصبّ التهكم على إلحاحه [...]. فما ليس منفصلًا[33] لا يعيش إلا في حالات التطرّف، وفي الانفعال التلقائي الذي لا يريد - وقد نفد صبره مع الحجة - أن يحتمل استمرار البؤس، وفي الوعي النظري المرعب الذي لم يأمر به أحد، والذي يستشرف لِمَا يستمر الرعب مع ذلك إلى ما لانهاية. هذا التناقض وحده - نظرًا إلى العجز الحقيقي لجميع الأفراد - هو مسرح الأخلاق اليوم"[34].

كانت النتيجة التي ترتبت على ذلك هي تسويغ الأنشطة العفوية للمقاومة والثورة. كان يمكن أن يكون أكثر أخلاقية من محاكمات نورنبرغ - بحسب مثال أدورنو - لو أن عامة الجنود الذين كانوا مسؤولين عن التعذيب، ومعهم جميع أولئك الذين أعطوهم الأوامر، ومن ضمنهم الصناعيون الكبار الذين كانوا نصيرًا لهم، قُتلوا جميعًا رميًا بالرصاص في الثورة ضد الفاشيين. كانت القناعة التي تقف وراء ذلك هي أن الحقيقة سوف تكون، على الأرجح، في الحالات الحرجة التي تُطلق دوافع قوية في حقبة أثبت فيها نموذج الشخصية المتلاعبة أنه الأخطر، لأنه يقضي على الضحايا بطرائق إدارية، ويجعله ذكاؤه المتروّي، وافتقاره الكلي تقريبًا إلى العواطف والانفعالات، شخصًا بلا رحمة[35]. كان أدورنو يعي سوء الفهم الذي يمكن أن تنطوي عليه رؤى كهذه، ويعي القرب من الفلسفة الوجودية، وسوء استعمال الطبيعة المتمردة، خصوصًا في ظل الفاشية. في فقرات كهذه غدا [أدورنو] فيلسوف الجسارة الذي يعرض في سياق ملائم حدوسه الأساسية. "إذا أراد المرء أن يجازف بمنح المجهول الكانطي X ذي الطابع القادر على الفهم مضمونه الحقيقي الذي يدعي أنه ضد عدم التحديد الكلي للمفهوم الإشكالي، فسيكون عندئذ بالتأكيد

---

(33) بين النظرية والممارسة العملية.

(34) Ibid., pp. 282 f.

(35) يُقارَن مع ص 586 في هذا الكتاب.

الوعيَ الأكثر تقدمًا تاريخيًا الذي يومض وينطفئ انتقائيًا، هذا الوعي الذي يلازمه الدافع لفعل ما هو صحيح. إنه الاستباق العيني والعابر لإمكان ألا يكون غريبًا عن الناس أو متطابقًا معهم"[36]. كانت هذه أروع صياغة وجدها أدورنو لما يمكن أن يسمَّى واقعية إنسانية.

إن تأملات أدورنو الفلسفية-الأخلاقية في مفهوم الحرية التي تعني علاقة الفرد بالطبيعة الداخلية، وبالجسد، وبالناس الآخرين، في أوضاع تاريخية اجتماعية خاصة، تأكدت بوصفها مشروعًا يُحاول فيه الوصول بمفاهيم إلى ما ليس مفهومًا، من دون أن ينحلّ في المفاهيم، وبدقة أكثر: أن يعترف ما قضى عليه التجريد بـ "الدافع الذي يسبق الأنا"[37]، وبـ "الدافع الجسدي"[38]، وبـ "الإضافي"[39]، من دون أن يرمي جانبًا الهوية وتفكير الهوية، والعام الذي يتجسد في حياة الناس الاجتماعية بعضهم مع بعض. وكما قامت فلسفة الموسيقى الجديدة لأدورنو على وجهة نظر أن البربرية يمكن أن تجعل العقل معتدًّا بنفسه في مواجهة ضروب إسباغ الموضوعية على نشاطه الخاص الذي أصبح غريبًا بالنسبة إليه؛ ومثلما قام **جدل التنوير** على ذكرى الطبيعة في داخل الذات، ونقد هوركهايمر للعقل الذاتي الأداتي على تحالف التأمل والغرائز، كذلك قام **الجدل السلبي** على وجهة نظر أن "وعي الحرية الغسقي" يقترب "من تذكُّر الدافع الذي تقادم عليه الزمن، والذي لا توجّهه أنا ثابتة"[40]. "فما كان موجودًا منذ زمن طويل بين قطبين ولم يعد معروفًا، لا يلبث أن يومض منه ما يمكن أن يكون"[41]. لكن خط الوصل بين الدافع الذي يسبق الأنا وتوقعات ما هو أبعد من الأنا وما يمكن أن يكون الفردية الحقة يبقى في العتمة، مظلمًا مثل الثقة بأن للقوة الناعمة في الدافع الجسمي، وفي الغريزة، وفي الحالة البرية، الأسبقية في الحفاظ على الذات بلا ضابط أو رابط.

(36) Ibid., p. 292.

(37) Ibid., p. 221.

(38) Ibid., pp. 193 f.

(39) Ibid., p. 226.

(40) Ibid., p. 221.

(41) Ibid., p. 228.

تضمَّن النموذجان الآخران تطويرات مختلفة لأفكار أدورنو الأولى. وقد بلغت في **تأملات في الميتافيزيقا** من الإملاء بأن الثقافة كلها بعد أوشفيتس قمامة، وصولًا إلى الإنقاذ المادي للدافع اللاهوتي في أفكار مثل التوق المادي إلى قيامة الجسد، أو إلى يوتوبيا عالم لا يزول منه الألم والمعاناة فحسب، بل يكون فيه الماضي الذي لا يستعاد قابلًا للاستعادة أيضًا. كان الدافع الأخير الذي تناقش حوله في الثلاثينيات، باختزال، بنيامين وهوركهايمر أيضًا، الخلفية لفكرة واقعية إنسانية وجد أدورنو أن خير تعبير عنها قول ستريندبرغ بأن "وحده من يمقت الشر، بمقدوره أن يحب الخير". وكان بنيامين وماركوزه قد أعطياه أيضًا التعبير الملحّ، أولًا في أطروحات **في مفهوم التاريخ**: "الكراهية كالقدرة على التضحية [...] تقترب إحداهما من الأخرى في الصورة الحقيقية للأسلاف العبيد أكثر من الصورة المثالية للخلف المتحرر"، وأخيرًا في **البنية الغريزية والمجتمع**: "النسيان يعني غفران ما ينبغي ألا يُغتفر، إذا كان للعدالة والحرية أن يأخذا مجراهما".

كانت **التأملات في الميتافيزيقا** خالية من أي رزانة أو حكمة، وقد استُهلّت بشذرة "بعد أوشفيتس". لم يكن فحواها التحدي، بل كون "العملية التي انتقلت من خلالها الميتافيزيقا، بلا معوقات، نحو ما كانت قد وُضِعت أصلًا ضده، قد بلغت نقطة اللاعودة. أما إلى أي مدى انزلقت إلى أسئلة الوجود المادي، فهذا ما لم تستطع الفلسفة، منذ هيغل الشاب، أن تكبته، ما لم تَبِع نفسها إلى التفكير المعتمَد. تحدس الطفولة شيئًا من هذا القبيل في الافتتان الذي ينطلق من منطقة السلخ، من الرمّة، من رائحة التعفن الحلوة الكريهة، ومن التعابير الشائنة لتلك المنطقة. قد لا تكون قوة ذلك المجال في اللاوعي أقل من قوة الجنسانية الطفولية [...] تهمس المعرفة اللاواعية إلى الأطفال بما تقمعه فيهم التربية الحضارية. فالمهم، كما يقول الصوت الهامس: الوجود الفيزيائي الفقير يتّقد في الاهتمام الأقصى الذي لا يكون أقل قمعًا، وفي 'ما هذا؟' و'إلى أين؟'. فمن يحظى بالتفكير بما تثيره في الذهن كلمتا لودرباخ وشفاينشتيغه سوف يكون أقرب إلى المعرفة المطلقة من الفصل الهيغلي الذي يعد القارئ بأن يخفق في التفوق عليه"[42].

(42) Ibid., p. 359.

يكمن في هذا الكلام شيء من العناد، وإن ذكّر بالجانب المتطرف الآخر من الخبرة الميتافيزيقية: "تغدو الخبرة الميتافيزيقية، بالنسبة إلى من يترفّع عن إسقاطها على الخبرة الأصلية الدينية المزعومة، أقرب ما تكون إلى الكيفية التي يستحضر فيها بروست في ذهنه السعادة في أسماء قرًى، مثل أوترباخ وفاترباخ وروينتال ومونبرون. إذ يعتقد المرء عندما يذهب إليها أن آماله سوف تتحقق. وما إن يكون هناك فعلًا، حتى يتراجع الموعود به مثل قوس قزح. مع ذلك لا يخيب أمل المرء. لا بل يشعر وكأنه الآن قريب منه جدًا، ولهذا لا يراه [...]. من البدهي، بالنسبة إلى الطفل، ألا يجد ما كان يسحره ويفتنه في مدينته الصغيرة المحببة إلا هناك، فيها وحدها وليس في أي مكان آخر؛ إنه يخطئ لكن خطأه يؤسس نموذج الخبرة، هو نموذج مفهوم يمكن أن ينتهي به الأمر إلى مفهوم الشيء نفسه، وليس إسقاطًا متواضعًا من الأشياء"[43]. ما هو مشترك في كلتا الخبرتين كان تجاوزًا مثقلًا بالحسّي والمادي، خارج ما هو حسّي ومادي. في فقرات من هذا النوع قدمت صورة عما يمكن أن يكون صحيحًا في الحياة التي تمرّغت في وحل الحياة الزائفة، بطريقة تكاد تستعصي على نظرية المجتمع. "الحياة بعد أوشفيتس". أصبح هذا الموضوع، بالنسبة إلى أدورنو، حجة على أن التفلسف حول قضايا جوهرية، من زاوية الخبرة الخاصة، كان لا يزال ممكنًا.

قدّم **الجدل السلبي** الصورة الغريبة عن حقيقة أن شخصًا كان يهمّه التفلسف المجسَّد وضع، كعمل فلسفي رئيس، كتابًا شكّل في الفلسفة الملموسة ملحقًا لعرض أساليب عمله وتسويغها. وإذا أُخِذ الكتاب بكليّته، كان **الجدل السلبي** - كما يقترح العنوان، لأنه لا يشير حقيقةً إلى مضامين الكتاب - نوعًا من المقابل النظري الفلسفي لنظرية العلم ونظرية المعرفة التقليدية أيضًا. هذه الوسطية تُبعد الكتاب، في الوقت ذاته، عن أنطولوجيا العلم والأنطولوجيا النظرية المعادية. لكنه لم يكن مقنعًا في وجهة نظره التي تقول بأن تضمين الأبحاث العلمية الفردية قد يعرّض للخطر الرؤى التي تُكتسب من التأمل، أو حتى قد يعطلها. لم يُبْقِ مشروع الجدل السلبي، في الحقيقة، في وجه نماذج نظرية العلم المختلفة إلا على الإصرار على خبرة غير ثابتة، ودلّ على الوجهة

(43) Ibid., p. 366.

التي يجب أن يتخذها هذا الإصرار من خلال مفهوم السلب: "اللامطابق" الذي يتألق في معناه بين قطبَي "السر"، و"يجب أن يكون الفردية"؛ إذ لا يمكن أن يكون مجديًا إلا العمل على نظرية المجتمع بروح الجدل السلبي في العلاقة بين العلوم. يستطيع نفاد الصبر، والميول الشخصية وحدها، أن يشرحا استبعاد الأبحاث العلمية الفردية والتعامل الفلسفي التاريخي مع نظرية المجتمع التي لا توجد عند أدورنو إلا بصورة جزئية.

المنظّرون النقديون والحركة الطلابية

في السنة ذاتها التي نُشر فيها **الجدل السلبي** لأدورنو، نُشرت أيضًا مقالة ماركوزه "التسامح القمعي" (مع مقالتَي صديقي ماركوزه اليساريَّين الأميركيَّين: روبرت بول وولف وبارينغتون مور، في مجلد **نقد التسامح الخالص** الذي كان قد صدر بالإنكليزية في الولايات المتحدة الأميركية قبل عام 1965)، وكانت مقالةً "معرضةً للنقد جدًا"، كما كتب ماركوزه نفسه إلى هوركهايمر في أثناء عمله على المقالة في بداية عام 1965.

في كتابه **الإنسان ذو البعد الواحد: دراسات في أيديولوجيا المجتمع الصناعي المتقدم** (صدر بالإنكليزية في عام 1964، وبالألمانية في عام 1967)، حاول ماركوزه أن يقدّم ما افتقده المرء عند المنظّرين النقديين القدامى الآخرين؛ أي تحليلات المجتمع الرأسمالي المتأخر في سياق منهجي. وقد فعل ذلك بطريقة تتسم بالحزم والإحاطة، أي بأسلوب يميّزه، من حيث الجوهر، من منظّري فرانكفورت الآخرين. إن "رفض الحرية" - كما عبّر برومانسية بسيطة عن التجربة اليومية لمنظّر مرهف الإحساس - "وحتى رفض إمكانها، يتفق مع منح الحريات التي لا يحدّها قيد، حيثما تُقوّي هذه الحريات القمع. تخيف الدرجة التي يُسمح عندها للناس بزعزعة السلم، حيثما لا يزال هناك سلم وهدوء، وبالاستنكار وازدراء الأشياء، وبازدياد الحميمية الخاصة وانتهاك الأشكال الجيدة. وهي مخيفة، لأنها تعبّر عن الجهد القانوني، وحتى المنظَّم، من أجل عدم الإقرار بالحق الأصلي للآخر، ومنع الاستقلال الذاتي حتى في مجال صغير محافَظ عليه من الوجود. في البلدان المتطورة جدًا يصبح

جزء متزايد من المواطنين جمهورًا أسيرًا - ليس أسير نظام حكم شمولي، بل أسير حريات المواطنين التي تُجبِر وسائلُ متعهم وراحتهم الآخرَ على أن يتحمّل أصواتهم ومناظرهم وروائحهم [...]. يبدأ التحويل الاجتماعي الضخم في البيت، ويثبط تطوّر الوعي والضمير"[44].

كان مضمون ما قاله ماركوزه في كتابه يمثّل نظرية فرانكفورت الاجتماعية، وبدا أنه يشير إلى أن العمل المشترك القديم وتوزيع الأدوار مستمر بلا انقطاع. إن التشخيص الذي لخّصه عنوان الكتاب - على نحو شبيه بنتائج أعمال أدورنو - عارضته الإشارةُ إلى فرصة التغيير النوعي الذي كان في حالة كارثية. وفي تطابق مع الأفكار التي كان قد طوّرها في **بنية الغريزة والمجتمع**، رأى ماركوزه في هذه الفرصة "تحديدًا جديدًا للحاجات". في الصفحات الأخيرة من **الإنسان ذو البعد الواحد**، تحدث مغازلًا تصوّر دكتاتورية مثقفة بأن تحرير الفانتازيا يشترط قمع كثير مما كان الآن حرًّا، والإبقاء على مجتمع قمعي. وقبل أن يختم بمقبوس بنيامين "لم يُكتب لنا الأمل إلا بسبب أولئك الذين هم بلا أمل"، قام بخطوة أخرى في اتجاه نظرية المجموعات المهمشة: ألا وهي مواطنو الولايات المتحدة الأميركية الذين دعموا في فيتنام صراع دكتاتور ضد كفاح شعب من أجل الحرية، والذين واصلوا قمع السود في بلدهم، والذين لم يقوموا بترويض الرأسمالية عبر الدولة الاجتماعية إلا بصورة بدئية[45]. "ولكن ما زالت توجد تحت الطبقات الشعبية المحافظة طبقة المنبوذين واللامنتمين: المستغَلّين والمضطهَدين من الأعراق والألوان الأخرى، والعاطلين من العمل والعاجزين عنه. إنهم موجودون خارج العملية الديمقراطية، وحياتهم تتطلب، على نحو آني وواقعي، إلغاء الشروط والمؤسسات التي لا تُطاق ولا تُحتمل. وبناء عليه فإن معارضتهم ثورية، حتى ولو لم يكن وعيهم ثوريًا. معارضتهم تسدّد الضربات إلى النظام من الخارج، ولهذا السبب يعجز النظام عن تحويل مسارها؛ إنها قوة أولية تخرق قواعد اللعبة، وتكشف تاليًا عن كونها لعبة بالغة الزيف. وعندما يتجمّع أولئك الناس، وينزلون إلى الشارع من دون سلاح وبلا حماية، كي يطالبوا بأكثر حقوق المواطنة بدئية، فإنهم يعلمون علم اليقين أنهم

---

(44) Herbert Marcuse, *Der eindimensionale Mensch*, pp. 255 f.

(45) يُقارَن مع ص 545 في هذا الكتاب.

يواجهون الكلاب والحجارة والقنابل والسجن ومعسكرات الاعتقال، لا بل حتى الموت. تقف قوّتهم وراء أي تظاهرة سياسية تقوم من أجل ضحايا القانون والنظام. إن حقيقة أنهم بدأوا رفض الزج بأنفسهم في اللعبة، يمكن أن يكون الواقعة التي تدلّل على بداية نهاية حقبة".

ما كان في **الإنسان ذو البعد الواحد** مترددًا بادئ الأمر، أي توجّه النظرية نحو الالتزام العملي، وجد في مقالة التسامح تعبيره الحماسي. في هذا النص، وقف ماركوزه الذي انتقد بشدة في عام 1948، في ضوء نظرية فرانكفورت، كتاب سارتر **الكينونة والعدم**، ورأى فيه، وراء "اللغة العدمية للوجودية"، "أيديولوجيا التنافس الحر، والمبادرة الحرة، والفرصة نفسها لكل شخص"، وقف إلى جانب الفيلسوف الوجودي الملتزم الذي كتب في عام 1961، بلا تحفّظ، مقدمة تضامنية لكتاب فرانتز فانون **معذَّبو الأرض**، الذي يُعدّ بمثابة البيان الشيوعي للثورة المضادة للكولونيالية. صدر كتاب فانون، مثل مقالة ماركوزه "التسامح القمعي"، في عام 1966 بالألمانية، وهو رمز أدبي لما كان قد بدأ في تلك الفترة في ألمانيا الغربية أيضًا عند المثقفين والطلاب.

أهدى ماركوزه مقالته التي تعرّضت للنقد "التسامح القمعي" إلى طلابه في جامعة برانديز. كان هذا أكثر من مجرد حركة تعبّر عن شكره وامتنانه للطلبة النبهاء المشاركين في حلقاته الدراسية. كان تعبيرًا عن التضامن مع الطلاب الذين غدوا ناشطين سياسيًا. في المعارك من أجل الحقوق المدنية في جنوب الولايات المتحدة الأميركية التي جرت فيها، منذ مطلع الستينيات، محاولة فرض إلغاء الفصل العنصري في المطاعم والمحال التجارية ووسائل النقل العام، من خلال الاعتصامات والتظاهرات، أصبح الطلاب أيضًا - وليس الزنوج وحدهم - ضحايا عنف البيض. في بيركلي ظهرت حركة حرية التعبير، وناضل الطلبة من أجل حقهم في جمع المال داخل الحرم الجامعي، لدعم منظمات الحقوق المدنية وقضايا أخرى، واعتُقِل ثمانمئة طالب خلال إضراب في كانون الأول/ ديسمبر 1964، وهي أكبر عملية اعتقال جماعي في تاريخ الولايات المتحدة الأميركية. كان الطلاب يحتجون ضد الحرب في فيتنام، وردّوا على استدعائهم للخدمة العسكرية بحرق أوامر الاستدعاء.

"لا يستطيع اللِّين أن يمحو آثار العنف، فالعنف وحده يستطيع أن يزيلها. والمستعمَر يتعافى من عُصاب الاستعمار حين يطرد المستعمِرين بقوة السلاح". عارض سارتر في مقدمة كتاب فانون **معذَّبو الأرض** اليسار في وطنه الأم الذي انتظر من رجال حرب العصابات أن يتصرفوا بمروءة وفروسية، وأن يبرهنوا عن إنسانيتهم. لكن على الرغم من أنه لم يتفق مع رؤية فانون المتمثلة في حقيقة أن على المقموع أن يرى قدمَي القامع كي يستطيع أن يكون إنسانًا، رأى ماركوزه أنه "في ما يخص الوظيفة التاريخية، كان هنالك فارق بين العنف الثوري والعنف الرجعي، بين العنف الذي يمارسه المقموعون وعنف القامعين. من الناحية الأخلاقية، فإن كلا شكلَي العنف لاإنساني وشرير؛ لكن منذ متى يُصنَع التاريخ وفق معايير أخلاقية؟ يبدأ تطبيق هذه المعايير في الوقت الذي يثور المقموعون على القامعين، والفقراء على المالكين؛ ما يعني خدمة مصلحة العنف الموضوعي عبر إضعاف الاحتجاج عليها"[46]. ربط ماركوزه جذرية نقد الإمبريالية بجذرية نقد المجتمع الصناعي المتقدم؛ إذ يسود العنف واقعيًا في مراكزه أيضًا، ويكون المجتمع برمّته في وضع خطر للغاية. وبدت نتائجه صالحة سواء للمقموعين من سلطة العالم، الولايات المتحدة الأميركية، أو لأولئك الموضوعين تحت وصاية المجتمع الصناعي الأكثر تقدمًا في الولايات المتحدة الأميركية، أو لأولئك الذين قبلوا الكفاح ضد النظام القمعي، تضامنًا مع الأقليات أو الشعوب المظلومة والمقموعة، أو لأولئك الذين يقومون بذلك، ببساطة، انطلاقًا من معاداة ذلك النظام. ويختم ماركوزه مقالة التسامح بقوله: "أعتقد بأن هناك 'حقًا طبيعيًا'[47] للأقلية المقموعة والمغلوب على أمرها في المقاومة واستخدام وسائل غير شرعية، طالما تبيّن أن الوسائل الشرعية قاصرة. فالقانون والنظام هما دائمًا وأبدًا قانون ونظام أولئك الذين يحمون التراتبية القائمة. إن من الحماقة أن يَتوجَّه إلى الاستبداد المطلق لهذا القانون وهذا النظام أولئك الذين يعانون منه ويناضلون ضده، ليس لمكاسب شخصية أو لثأر شخصي، بل لأنهم يريدون أن يكونوا بشرًا. ليس هناك من قاضٍ عليهم إلا السلطات المفروضة،

---

(46) Herbert Marcuse, "Repressive Toleranz," in: Robert Paul Wolff, Barrington Moore & Herbert Marcuse, *Kritik der reinen Toleranz*, p. 114.

(47) علامات التنصيص – كما شرح ماركوزه في مناسبة لاحقة – من المفترض ألا تعني سوى أن الأمر يتعلق بمصطلح تقني قديم في النظرية النقدية.

والشرطة، وضمائرهم. وهم عندما يلجأون إلى العنف، فإنهم لا يبدأون سلسلة جديدة من أعمال العنف، بل يقوّضون العنف القائم. ولأنهم سيتعرضون للضرب، فهم يعرفون الخطر الذي يتربّص بهم؛ وهم إن أرادوا أن يأخذوا الخطر على عاتقهم، فإنه لا يحق لطرف ثالث، على الأقل المعلمين والمثقفين، أن يدعوهم إلى التعفُّف"[48].

إذا بدت هذه العبارات بحاجة إلى تأويل، خصوصًا عندما تُقرأ في السياق الألماني الغربي، فإن العبارات الأخرى، التي يُصاغ فيها على امتداد المقالة كلها مطلب نوع من دكتاتور مثقف يساري للمجتمع الصناعي المتقدم، تبدو عندئذ مغامِرة ومتناقضة في ذاتها. "يجب تقديم العون إلى الجماعات الصغيرة والعاجزة التي تناضل ضد الوعي الزائف؛ فاستمرار وجودها مهم أكثر من الحفاظ على الحقوق والحريات التي يُساء استعمالها، والتي تكفلها السلطات الدستورية لأولئك الذين يضطهدون هذه الأقليات. يجب أن يكون واضحًا في غضون ذلك أن ممارسة حقوق المواطنة ممن لا يتمتعون بها، يَشترط نزع حقوق المواطنة من الشخص الذي يعطّل ممارستها [...]"[49]. لكن مَن غير السلطات الحاكمة والمؤسسات يستطيع أن ينزع الحقوق المدنية أو يفرضها؟ في مجتمع كانت تسري فيه - كما افترض ماركوزه - في الخلفية دومًا قيود للتسامح أحادية الجانب، يمكن أي مطلب تسامح منحاز ألا يعزز إلا موقف الحكّام غير المتحيّزين. في حالات كهذه، لم يبد ذا معنى سوى مطلب ضمان ممارسة حقوق المواطنة للجميع. وعندما يحصل صراع، مثلًا، بين الحق في حرية الرأي والمعلومة والبنية الرأسمالية لوسائل الإعلام الجماهيرية، يمكن عندئذ أن يطالب المرء بإسباغ الطابع الديمقراطي على هذه الوسائل، وأن يكافح من أجل هذا المطلب، لا أن يطالب باستبدال "رقابة مسبقة" علنية بـ "الرقابة المستترة" التي تتغلغل في وسائل الإعلام الجماهيرية. تقف وراء أفكار ماركوزه، كما يبدو، إحالة مغلوطة لحق المقاومة الطبيعي إلى مجالات الوعي والتربية والتعليم. العنف وحده يمكن أن يشفي المستعمَرين من عُصاب الاستعمار؛ والعنف وحده يستطيع، في حالات كثيرة، أن يحمي من

(48) Ibid., pp. 127 f.

(49) Ibid., p. 121.

العنف، لكن لا يمكن المرء أن يكافح تلاعب اليمين وتحكّمه بتلاعب اليسار وتحكّمه. لكن من المحتمل أن يكون رأي ماركوزه أمرًا بدهيًا لا أكثر، أي إن الحرية يجب الدفاع عنها ضد أولئك الذين يطالبون بها على حساب آخرين، وأن انتزاع الحريات التي يُضَنّ بها يعني إلحاق الضرر بالحريات التي تحققت على حساب أخرى. لكن لماذا كان عليه أن يلجأ إلى مفاهيم خطرة مثل رقابة أو رقابة مضادة، إذا لم يكن الأمر متعلقًا على الإطلاق بأمر خطير، أي بمزيد من الديمقراطية والحرية؟ ولماذا تحدّث بصيغة عامة عن العنف إذا كان يفهم تحته أيضًا أشكالًا لاعنفية من العصيان المدني، وأشكالًا من المقاومة السلبية، واحتلال ساحات، أو أبنية، أو أي أنشطة أخرى لا ضرر منها؟ قد يكون أمرًا شائعًا بين الحقوقيين والسياسيين وقطاعات واسعة من الجماهير أن تعتبر هذا الأنشطة عنيفة، ما داموا لا يقبلون الأهداف التي تسعى تلك الأنشطة إلى تحقيقها، لكن ألا يثير ذلك حتمًا سوء فهم في قراءة فيلسوف المعارضة في مجتمعات الغرب الصناعية العالية التطور؟ هل كان في الأمر ما يدعو إلى العجب بأن يُخبِر أدورنو - وهو الذي لم يقرأ **التسامح القمعي**، بل سمع شيئًا من طرف ثالث أو رابع في الدائرة الضيقة من معارفه حول أقوال ماركوزه - هوركهايمر أن عليهما حتمًا أن يتحدثا في أقرب فرصة ممكنة مع ماركوزه الذي يبدو أنه - كما كتب أدورنو - يتخذ موقفًا متصلبًا نوعًا ما، ولا تخيفه فكرة أنه يجب حظر جميع مخالفي الرأي، أي أن يفصح عن أشياء مرعبة بالنسبة إليهما، هو وهوركهايمر[50]؟ إذ كان ماركوزه قد عبّر مرارًا وتكرارًا عن رغبته في التعليم في فرانكفورت، لكن في أواخر عام 1965 انتهز الفرصة التي قدمتها له كلية الفلسفة في جامعة برلين الحرة ليخبر هوركهايمر بأنه سيكون من غير المعقول أن يرجع إلى ألمانيا ولا يأتي عندئذ إلى فرانكفورت.

في العام ذاته الذي صدرت فيه الترجمة الألمانية لمقالته "المستهدف بالنقد" حول "التسامح"، شارك ماركوزه، بشكل لافت أيضًا، في احتفال للطلبة المعارضين في ألمانيا الغربية. في 22 أيار/ مايو 1966، ألقى في المؤتمر الذي عقده اتحاد الطلاب الاشتراكي المحاضرة الرئيسية في جامعة فرانكفورت

(50) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 8 كانون الأول/ ديسمبر 1966.

بعنوان "فيتنام: تحليل مثال". وقد شارك في المؤتمر ما ينوف على 2000 طالب ومجموعة من الأساتذة والنقابيين. وكان من بين المحاضرين والمشرفين على المناقشات في دوائر العمل يورغن هبرماس وأوسكار نغت. وشكّلت مسك الختام التظاهرة الأكبر التي انطلقت ضد حرب الولايات المتحدة الأميركية في فيتنام، وكانت الأكبر في الجمهورية الاتحادية حتى ذلك الحين. وقدّم ماركوزه في محاضرته - متجاوزًا التنوير من خلال المعلومات - خلاصة تأويله للحاضر.

وتساءل ماركوزه، مستأنفًا التفكير والتأمل في **الإنسان ذو البعد الواحد**، عما إذا كان يحق للعالم الثالث الأمل ببديل عن العقلانية التقنية القمعية لكل من الغرب وعملية التصنيع السوفياتية، قائلًا: "هل يمكن أن يوجد شيء من قبيل تصنيع لارأسمالي في هذه البلدان، تصنيع يتحاشى تصنيع الرأسمالية الباكرة القمعي والاستغلالي الذي يبني الجهاز التقني 'على مقاس الإنسان'[51]، وليس بحيث تكون له، منذ البداية، سلطة على البشر ويخضع الإنسان له؟ وهل يمكن الحديث هنا ثانية عن المزية التاريخية 'لما يأتي في ما بعد'؟"[52]. أجاب، مخففًا بعض الشيء من إجابته المتشائمة في **الإنسان ذو البعد الواحد**، بقوله: "تقف، للأسف، ضد هذا الإمكان الكبير لتصنيع لارأسمالي حقيقة أن معظم هذه البلدان النامية تعتمد في تحقيق التراكم الأولي لرأس المال، في السراء والضراء، على الدول الصناعية المتطورة، سواء في الغرب أو في الشرق. في أي حال، أعتقد أن حركات التحرر الميليشيوية تمثّل، موضوعيًا، اليوم في البلدان النامية أقوى قوة محتملة للتحول الجذري"[53].

لكن إذا لم يكن هناك، أيضًا، أمل في تحقيق بديل للتقنية التي رصدها ماركوزه في المجتمعات الصناعية الغربية والشرقية كشكل للحكم في العالم الثالث، فإن ماركوزه رأى، مع ذلك، أن قناعته بقوة النفي، وبالرفض الكبير، وبالحاجة إلى العيش بحرية، تترسخ بقوة أكثر. "ما الذي تعنيه فيتنام؟ [...]

---

(51) ورد التعبير بالفرنسية: à la mesure de l'homme. (المترجم)

(52) Jürgen Habermas, "Die Analyse Eines Exempels," *Neue Kritik* (Juni-August 1966), p. 37.

(53) Ibid.

فيتنام هي جميع حركات التحرر الوطنية في نطاق المجتمع الصناعي العالي التطور؛ حركات التحرر التي تضع العقل والمؤسسات وأخلاقية هذا المجتمع الصناعي العالي التطور موضع تساؤل وتهدده. لقد أصبحت فيتنام رمز مستقبل القمع الاقتصادي والسياسي، ورمز مستقبل سيطرة الإنسان على الإنسان. ما الذي يمكن أن يعنيه انتصار حركة التحرر الوطني في فيتنام؟ قد يعني انتصار كهذا - وهنا يكمن، في رأيي، الجانب الحاسم - أن النجاح قد يكون حليف تمرد أساسي للبشر ضد أقوى جهاز قمع تقني عبر كل العصور"[54].

أقرّ ماركوزه للطلاب بتضامن غريزي وثقافي. قال لهم: ليس في المجتمعات الغربية أي نشاط ثوري يعمل على تحرير الوعي، بل هناك حركة أصبح بمقتضاها الحكام اليوم عصبيين. فليست الأخلاقيات والأخلاق مجرد بنية فوقية، وليسا محض أيديولوجيا. ففي مواجهة ما يحدث في فيتنام "يجب أن نحتجّ، حتى عندما نعتقد أن ذلك بلا جدوى، وهذا، ببساطة، كي نبقى بشرًا، وربما أيضًا كي نجعل الآخرين يعيشون حياة كريمة [...]"[55]. بهذا قال من فوره، في ظهوره الأول أمام طلاب ألمانيا الغربية، ما قام بالتمهيد له في تقويمه لمعارضة الطلاب وتقديره لأنشطتهم: ليس تحديدًا جوانب التسويغ النظري والذكاء الاستراتيجي وتجنُّب المخاطر، بل احترام الحاجة الوجودية إلى سلوك لائق إنسانيًا. بعد ثلاث سنوات، بيّن لأدورنو، بعد إخلاء الشرطة معهد البحث الاجتماعي[56]، مرة أخرى، موقفه الأساسي من معارضة الطلاب، قائلًا: "نعلم (وتعلمون أنتم) أن الوضع ليس ثوريًا، لا بل ليس وضعًا قبل ثوري. لكن الوضع نفسه مخيف جدًا، وخانق، ومُذِلّ، بحيث يجبر التمرد ضده على ردة فعل بيولوجية وفيزيولوجية؛ إذ لم يعد بمقدور المرء تحمله، فهو يختنق وعليه أن يتنفس الهواء [...]. إنه الهواء الذي نريد أن نستنشقه (أنا على الأقل) من جديد أيضًا [...]"[57].

---

(54) Ibid., p. 33.

(55) Ibid., p. 38.

(56) يُقارَن مع ص 869 في هذا الكتاب.

(57) رسالة من ماركوزه إلى أدورنو، لاهويا في كاليفورنيا، 5 نيسان/ أبريل 1969.

بعد عام على انعقاد مؤتمر فيتنام في فرانكفورت في تموز/ يوليو 1967، دخل ماركوزه إلى الساحة البرلينية معلّمًا مرموقًا لليسار الجديد. وقدّمته مجلة **در شبيغل** في مقالة تصدرتها العبارات الختامية من مقالة التسامح، وفيها اقتبس كنوت نفرمان (Knut Nevermann)، الرئيس السابق للجنة الطلابية العامة (ASTA) في جامعة برلين الحرة: "إن ماركوزه يعني لنا الكثير؛ فهو الأساس لما نقوم به". قبل ذلك بقليل، في الثاني من حزيران/ يونيو، قُتل الطالب بينو أونيزورغه رميًا بالرصاص، خلال مشاركته بتظاهرة ضد شاه إيران أمام دار الأوبرا في برلين. بعد أن اختفى الشاه في دار الأوبرا، فرّقت الشرطة المتظاهرين. في خلال عملية "صيد الثعالب"، أصيب أونيزورغه بعيار ناري أطلقه عليه شرطي بلباس مدني في فناء خلفي. توجّه عمدة برلين بالشكر إلى رجال الشرطة، ومُنعت التظاهرات الأخرى، في حين سخرت صحافة شبرينغر (Springer presse)، التي تحتكر حصريًا تقريبًا سوق الصحافة في برلين، من الطلاب. كذلك سجّلت الشرطة أرقام السيارات التي تحمل أشرطة حداد، وطُعِنت إطاراتها بالسكاكين.

مثّل الثاني من حزيران/ يونيو 1967 ذروة تطوُّر بدأ يرتسم منذ عام 1965، جعل من الجامعة الحرة بيركلي ألمانيا الاتحادية. في السابع من أيار/ مايو 1965، الذي صادف الذكرى العشرين لاستسلام ألمانيا ومن ثم تحرير ألمانيا من الحكم النازي، دعت اللجنة الطلابية العامة في الجامعة الحرة، من بين آخرين، الصحافي إريش كوبي إلى حوار على المنصة، كان من المفترض أن يديره لودفيغ فون فريديبرغ، أستاذ علم الاجتماع في الجامعة الحرة منذ عام 1962. فما كان من رئيس الجامعة، الذي شارك شخصيًا بعد بضعة أسابيع مع رئيس مؤتمر رؤساء الجامعات في ألمانيا الغربية في الاحتفال بذكرى مرور 150 عامًا على المنظمات الطلابية الألمانية في القاعة الألمانية في برلين، إلا أن قام بمنع انعقاد مؤتمر اللجنة الطلابية العامة بحجة أن كوبي تعرّض ذات مرة للجامعة الحرة بالقذف. فرأت منظمات الطلاب السياسية واللجنة الطلابية العامة أن إجراء منع كوبي من الكلام الذي لا تعتبره من جهتها قانونيًا، بل قرارًا سياسيًا، يحدّ من حرياتها الديمقراطية، ويجعل النزاع عامًا. على هذا النحو، مهّد حظر مؤتمر السابع من أيار/ مايو – المؤتمر الذي انعقد في الجامعة التقنية كما كان مقررًا – لسلسلة من الحوادث عمدت السلطات الأكاديمية في ظلّها

إلى تقييد فضاء الحركة السياسية للطلاب أكثر فأكثر، في حين أتاح، من ناحية أخرى، تعبئة الطلاب وتحشيدهم سياسيًا.

في العام التالي، اتخذت كليّتان في الجامعة الحرة من توصيات المجلس العلمي للتنظيم الجديد للدراسة مناسبةً لإدخال التسجيل الدراسي المحدد، أي التحديد الإلزامي لمدة الدراسة أو - كما كان الطلاب يقولون - التسجيل القسري للامتحانات. مثّل ذلك استفزازًا، بالنظر إلى حقيقة أن الشروط الدراسية الكارثية، والتنظيم القاصر لعملية التعليم، كانت بادئ ذي بدء وراء معدلات الانقطاع الدراسي المرتفعة وفترات الدراسة الطويلة. رد الطلبة على بدايات الإصلاح الجامعي القمعي في 22 حزيران/ يونيو 1966 بالاعتصام الكبير الأول من نوعه في جامعة ألمانية، شارك فيه نحو 3000 شخص. لقد كانت البوادر الأولى لإصلاح جامعي قسري أكثر استفزازًا، لأن الطلاب كانوا هم من أعدّوا الخطط الوحيدة الشاملة للجامعات في مجتمع صناعي ديمقراطي، لكنها لم تلقَ آذانًا صاغية. على أن الخطر الذي كان على طلبة برلين التصدي له أولًا يكمن في حقيقة أن الأساتذة ذوي الكراسي اتفقوا مع "زبائنهم" على حساب الطلبة، أي مع الشركات الكبرى التي توظّف خريجي الجامعات، وتُلحّ على إجراءات عقلنة تزيد الكفاءة. ومن شأن ذلك أن يجمع ما بين النظام الأكاديمي الجامعي على مستوى الأساتذة، والشركات البيروقراطية الضخمة. أمِل الطلاب في منع هذا الأمر، من خلال إقرار حقوق المشاركة للطلاب وباقي الطاقم التعليمي من غير الأساتذة.

عندما تفاقم الوضع جدًا على إثر أحداث الثاني من حزيران/ يونيو 1967، كان التضامن الوحيد مع طلاب برلين هو ذلك الذي تلقّوه من خارج الجامعة، باستثناء عدد قليل من أساتذتهم. عمّ السخط والغضب بسبب إطلاق النار على بينو أونيزورغه جميع جامعات ألمانيا الاتحادية. وعندما انطلقت الاحتجاجات الطلابية في جميع المدن الجامعية في الوقت ذاته، أصبح الطلبة عاملًا فاعلًا في السياسة الداخلية في ألمانيا الغربية. وأصبح إصلاح الجامعة وإصلاح المجتمع، في نهاية المطاف وعند أقلية من الطلبة، مطلبَين على القدر نفسه من الأهمية. فالسخط والغضب من قتل أونيزورغه بالرصاص مثّلا الشرارة التي فجّرت ما كان محتقنًا أمدًا طويلًا لدى الشباب: عدم ارتياح مركّب مبعثه إهمال

الإصلاح الاجتماعي لمصلحة الرفاهية الاقتصادية، الأمر الذي استمر عشرين عامًا، والذي بدا أنه قد رُحِّل مع تشكيل الائتلاف الكبير نهاية عام 1966 إلى أجل غير مسمى.

في الأسابيع التي تلت الثاني من حزيران/ يونيو، بدت علاقة المنظّرين النقديين بحركة الاحتجاج الطلابية مثالًا يحتذى به. ففي اليوم الذي ووري جثمان أونيزورغه في التراب، أقامت اللجنة الطلابية العامة في جامعة برلين في مدينة هانوفر - في المنفى إلى حد ما - مؤتمرًا بعنوان "الجامعة والديمقراطية: شروط المقاومة وتنظيمها". دعت اللجنة الطلابية إلى هذا الاجتماع الجماهيري الأول غير الإقليمي "الأساتذة الجامعيين اليساريين الذين وقفوا معنا في الآونة الأخيرة". وكان هبرماس واحدًا منهم.

حاول هبرماس في الكلمة التي ألقاها أن يحدّد الدور السياسي للطلبة، ويوضح الصعوبات التي تعترض محاولة ليس تفسير العالم فحسب، بل تغييره أيضًا. وقد كان، بوصفه مؤلفًا رئيسيًّا لكتاب **الطالب والسياسة**، ومؤلف **تحول بنية المجال العام**، ومنظّر العلم النقدي، وبوصفه مشاركًا لسنين طويلة في مناقشات اتحاد الطلاب الاشتراكي، خصوصًا ما يتعلق منها بمشاريع تخص الإصلاح الديمقراطي للجامعات، من بين من هم ليسوا طلابًا، المهيأ أكثر من غيره بلا شك للقيام بمحاولات التفاهم والتوضيح هذه. شكَّلَت العناصرُ المركزية لتأملاته النظرية قاعدةَ تحليله والنتائجَ المستخلصة منها. وقد رأى في المعارضة الطلابية كلا العنصرَين متواشجًا: الإصرار على مطلب استعادة القدرة التعليمية للعلوم، ومطلب استعادة طاقة التحرير العملية في المجتمع؛ مطلب الحفاظ على بُعْد التأمل الذاتي في الجامعة أو العودة إليه، ومطلب العودة إلى بُعْد الممارسة في المجتمع. أما ماركوزه ونغت اللذان يردّان تهمة الانكفاء إلى الممارسات والأنشطة الوهمية التي توجَّه باستمرار إلى حركة الاحتجاج، فقد سوّغا التضامن مع حركات التحرر في العالم الثالث، بوصفها الطريق الوحيد الذي يمكن من خلاله وعي القوى التاريخية الكامنة والتطلعات الثورية أن يخترق المشهد السياسي المتيبّس في المجتمعات الصناعية العالية التطور. رأى هبرماس هناك، بحذر أكبر، بعضًا من إعادة إنتاج المجال العام السياسي. "إن لاحتجاجات الطلبة - وهذه أطروحتي - وظيفة تعويضية، لأن

إواليات الضبط المدمجة في ديمقراطيتنا لا تعمل لدينا، أو تعمل بشكل غير صحيح"[58]. وكأمثلة على ذلك ذكر من بين الأسماء فيتنام. "أتذكر بدقة كيف فَتح في برلين هجومُ الطلبة على التحديدات الزائفة لحرب، هي نضال تحرري اجتماعي، ثغرةً في النظرة الرسمية عن بلدنا، من خلالها استطاعت، من جانب آخر، أن تنفذ شيئًا فشيئًا معلوماتٌ تنويرية"[59]. وشدّد على المطالبة بالتشجيع الرسمي للنقاش النقدي للأسئلة السياسية في الجامعة، بالإشارة إلى قناعته بأن "التأمل الذاتي للعلم الذي هو وسيلة التقدم العلمي، يرتبط بالنقاش العقلاني للأسئلة العملية والقرارات السياسية من خلال الصيغة المشتركة للنقد"[60].

بعد ذلك راح هبرماس يتحدث عن الأخطار الذاتية التي تتهدد حركة الطلاب، أو التي ينبغي أن تكون واعية لها، بالنظر إلى الفجوة التي غدت كبيرة على نحو غير مألوف بين النظرية والممارسة، وبالنظر إلى التوترات المميزة لدور الطلبة بين الإعداد المهني والالتزام السياسي، وبين النظام الأكاديمي الوضعي الذي ما عاد بمقدوره أن يقدم دليلًا للفعل، والحاجة إلى دليل عملي شامل. وصف هبرماس الطريق الصعب والصحيح بأنه رحلة حدّية بين عدم التمايز والتكيّف المفرط والفتور السياسي، أو بأنه توجّهات سلوكية لاعقلانية لجهة جمهور الطلبة من ناحية، وبأنه فعالية، واستعداد ذاتي دائم للثورة، وإفراط في التبسيط النظري لجهة مجموعة صغيرة من الطلبة لا تستحق الذكر من ناحية أخرى. كما شَهِد هبرماس لقادة الطلبة الذين كانوا معه على المنصة بأنهم مثال يُحتذى في الفهم المتعقل للصراعات والمخاطر التي ذكرها، وحذّر في الختام قادة الطلبة، مرة أخرى، من المازوشية، ومن تحويل قوة المؤسسات الكامنة إلى قوة ظاهرة من خلال تحدّيها. فالمعارضة الطلابية مقيّدة بـ "العنف الاستعراضي" الذي يخدم في "جذب الانتباه قسرًا إلى حججنا التي نعتبرها الأفضل"[61].

---

(58) Jürgen Habermas, *Bedingungen und Organisation des Widerstandes*, p. 44.

(59) Ibid., pp. 44 f.

(60) Ibid., p. 46.

(61) Ibid., p. 48.

جاء الاعتراض الأساسي والأعنف على هبرماس من رودي دوتشكه (Rudi Dutschke)، طالب علم الاجتماع في الجامعة الحرة الذي رفض أداء الخدمة العسكرية بوصفه عضوًا ناشطًا في الكنيسة البروتستانتية في جمهورية ألمانيا الديمقراطية، لذلك لم يتمكّن من الدراسة هناك، وفرّ قبل بناء الجدار مباشرة إلى برلين الغربية. في عام 1964 كان له دور في "النشاط الهدام" الذي ارتبط به أدباء تأثروا بالنظرية النقدية، وطلاب مهتمون بالتحليلات الاقتصادية التاريخية، كي يؤسسوا خلايا في مدن ألمانيا الاتحادية، ويصبحوا فاعلين سياسيًا عبر الفعل المباشر. في مطلع عام 1965، انتقل دوتشكه إلى اتحاد الطلبة الاشتراكي مع أعضاء آخرين من برلين ينتمون إلى "النشاط الهدام"، لتأسيس جناح ناشط، وإعطاء اتحاد الطلبة الاشتراكي إجمالًا طابعًا جديدًا ناشطًا ومعاديًا للسلطة. أصبح الخطيب البليغ مع تصوراته الديمقراطية الجذرية معروفًا، من خلال وسائل الإعلام، باسم "رودي الأحمر"، وغدا قائد المعارضة الطلابية. صرّح دوتشكه في هانوفر أن وجهة نظر هبرماس الماركسية الأصولية القائلة إنه لا يكفي أن تتغلغل الفكرة إلى الواقع، وأن الواقع عليه أيضًا أن يتغلغل إلى الفكرة، قد جرى تجاوزها منذ زمن طويل. قام دوتشكه بتثوير وجهة نظر ماركوزه التي تقضي بأن التقدم التقني يخلق حاجات جديدة، بعد تخطي مبدأ الواقع الذي يوجب الحرمان، وصولًا بها إلى نزعة إرادية جديدة، كما أطلق عليها هو نفسه. لقد راهن على الإرادة بدلًا من الاتجاه التحرري الكامن في التطور الاقتصادي-الاجتماعي. واتهم هبرماس بنزعة موضوعية غير مفاهيمية، تقضي على الذات التي يجب أن تحرّرها. وكعلاج معاد للتسلط، يكافح التوجّهات البيروقراطية في لجنة الطلاب العامة واتحاد الطلبة الاشتراكي ومنظمات طلابية أخرى معترف بها رسميًا، طالبَ علاوة على ذلك ببناء مراكز أنشطة في عموم أرجاء ألمانيا الاتحادية، مراكز أنشطة "لتوسيع التسييس في الجامعة والمدينة من خلال التنوير والنشاط المباشر، سواء أكان ضد حالة الطوارئ، أم ضد الحزب الوطني الديمقراطي أم ضد الحرب في فيتنام أم ضد أميركا اللاتينية، قريبًا كما هو مأمول أيضًا".

في وضع سياسي متوتر، وقعت في خلاله عملية القتل الأول، رأى هبرماس أن الخطر أصبح شديدًا، عندما لم يتراجع الرجل الأكثر تأثيرًا وموهبة

في الخطابة من بين قادة الطلبة، عن الحافة الضيّقة لتذليل الصراع العقلاني. دفع هذا بهبرماس القلِق الذي كان قد خرج في طريقه إلى سيارته للرحيل، إلى العودة مرة أخرى كي يصوغ من جديد، وبحدة أكبر، تحذيره من تحدٍّ مازوشي لسلطة مؤسساتية، كان قد عبّر عنه مرتين، لكن بصياغة متحفّظة، وكي يصف الأيديولوجيا الإرادية التي قدّمها دوتشكه بـ "الفاشية اليسارية". قدّم هذا التفسير في صيغة سؤال ألقاه على الحضور - في تلك الأثناء كان دوتشكه قد غادر المؤتمر - لكنه لم يناقَش، لأن المؤتمر كان قد أوشك على نهايته. على هذا النحو، بقي الزعم المصاغ بحدة في الفضاء، تُدين حدّتُه، في نظر الطلاب الناشطين، هبرماس نفسه. في وضع يستعمل فيه قاذفو المعارضة الطلابية بسرور تعبير "فاشي"، يقع أكثر حلفاء الطلاب التزامًا وفكرًا في صفوف الأساتذة في شبهة تقديم ذخيرة معتبرة إلى الخصوم. لاحقًا ذكر هبرماس في مقابلة: "لو تحدثت معي قيادة اتحاد الطلبة الاشتراكي بلا تحفُّظ، لكان هذا قد انتهى في منتصف عام 1967"[62].

بعد شهر من انعقاد المؤتمر في هانوفر في 7 تموز/ يوليو، جاء أدورنو إلى برلين كي يلقي محاضرة في قاعة المحاضرات الكبرى في الجامعة الحرة، بعنوان "في النزعة الكلاسيكية لـ 'إفيجينيا' غوته"، كان متفقًا عليها سلفًا قبل الثاني من حزيران/ يونيو، بدعوة من قسمَي الدراسات الجرمانية والدراسات في علوم الآداب العامة والمقارنة. بعد مصرع بينو أونيزورغه، استهلّ محاضرته في علم الجمال في 6 حزيران/ يونيو بتوضيح يتصل بأحداث برلين عبّر فيه عن تعاطفه مع الطالب الذي "لا يتلاءم المصير الذي لحق به - أيًا كان ما يقال - إطلاقًا مع مشاركته في تظاهرة سياسية"، وطالب بـ "إجراء التحقيقات في برلين من هيئات بعيدة عن شبهة الارتباط التنظيمي بأولئك الذين أطلقوا النار، هيئات ليس لها أي مصلحة في نتائج التحقيق". كان هذا تقريبًا "تدخّله" الوحيد من هذا النوع إبان مسيرته كأستاذ جامعي؛ فهو لم يكن مستعدًا لتقديم تقرير حول مناشير وزّعتها الكومونة 1. وقد جرى فصل الكومونة 1 التي وصفتها وسائل الإعلام بـ "كومونة الرعب" من اتحاد الطلبة الاشتراكي في أيار/ مايو 1967،

(62) Jürgen Habermas, *Kleine politische Schriften*, pp. 519 f.

بسبب السلوك الذي يلحق الضرر بالمنظمة الطلابية؛ إذ دعت المناشير المعنية، برأي المدعي العام في برلين، إلى إشعال الحرائق. لقد استُغِلّ في الواقع الحريق الذي اندلع في متجر في بروكسل وذهب ضحيّته 300 إنسان، لتوجيه نقد ساخر وغير لائق إلى لامبالاة مجتمع المستهلكين بالحرب في فيتنام. وفي برلين، لم يكن أدورنو، هو أيضًا، على استعداد لتلبية مطلب اتحاد الطلبة الاشتراكي في التخلي عن محاضرة إفيجينيا وإقامة حوار سياسي. في منشور وزّعه اتحاد الطلبة الاشتراكي أمام قاعة المحاضرات الكبرى، استبق نبرة إحدى المجموعات المتفرعة عن حركة الاحتجاج الذي تحول إلى إرهاب في ما بعد، واستبق التهمة التي وُجِّهت لاحقًا من جهات مختلفة ضد المنظّرين النقديين، ورد أن "محاكمة فريتس تويفل بتهمة الحريق المتعمد، وثيقة اللاعقلانية للعدالة المنفلتة من عقالها، لا يمكن أن تنتهي إلا بانتصار الطلاب، وإن جعلت من خلال شبكة التقارير المتممة المقدمة إلى المحكمة كل حجة عقلانية، ولو ظاهريًا، غير ممكنة. كان الأستاذ أدورنو مهيّأً مسبقًا لتقارير كهذه، لكنه عرض مفاهيم مثل 'التركيب السلعي للمجتمع' و'التشيُّؤ'، و'صناعة الثقافة'؛ أي برنامجه الذي أوحى به لمستمعيه بيأس عال. لكن توسّلات الزملاء والطلاب ذهبت أدراج الرياح، فالأستاذ أدورنو لم يتنازل ويفسّر منشور الكومونة، بوصفه تعبيرًا ساخرًا عن اليأس. رفض ذلك. هذا الموقف صادق وكلاسيكي في تواضعه، لأن دعابات مثل تلك التي أثارتها الكومونة تشترط مسبقًا ثبات نظرية الأستاذ أدورنو".

قام بتقديم أدورنو في بداية المحاضرة بيتر صوندي، وهو واحد من الأساتذة الذين انحازوا إلى صف الطلبة المعارضين، وهو يعرف أدورنو منذ وقت طويل، ويصف نفسه بأنه تلميذه، على الرغم من أنه لم يحظَ بفرصة الدراسة على يدَيه قط. أشار إلى أنه قدّم في اليوم السابق تقريرًا من 14 صفحة في قضية الحريق، ضد الطالبَين راينر لانغهانز وفريتس تويفل، ونجح من ثم في مساعدة أدورنو في تقديم محاضرة هادئة إلى حد ما. بعد المحاضرة، أرادت إحدى الطالبات تقديم بالون مطاطي أحمر إلى تيدي (وهو الاسم الذي كان يُنادى به أدورنو في دائرة أصدقائه)، لكن أحد الطلاب ضرب البالون وهو في يدها، فاستنكر أدورنو ذلك بوصفه "عملًا بربريًا".

لكنه اجتمع بعد يومين بأعضاء من اتحاد الطلبة الاشتراكي في مناقشة داخلية. واشترط في اللقاء ألا يُسجَّل الحديث على شريط؛ فما قد يقوله في هذه المناسبة كان من الممكن أن يجعل منه معلّمًا تحتفي به حركة الاحتجاج لو أدلى به علنًا. لكن، في الحقيقة، لم يكن مُرَحَّبًا به؛ فأن يكون معلّمَ الطلاب المعارضين أمرٌ لا يتطلب بالضرورة التماهي التام مع المعارضة الطلابية - التي لم تكن موحّدة على الإطلاق - في ما تعبّر عنه وتطالب به وتفعله، ولا يبدي الالتزام الفاعل الذي ينحاز إلى حركة الاحتجاج الطلابية، أو الاعتراف الحماسي من جانب الطلاب.

خلافًا لهبرماس، لم يكن لأدورنو أدنى اهتمام بأفكار ملموسة لإصلاح الجامعة أو لإحياء المشاركة السياسية، بل كانت آماله تصبّ أكثر في اتجاه الحفاظ على المساحات الحرة المتبقية للفلسفة التأملية وللفنون الطليعية. لذلك كان يتأرجح بين التعاطف والنفور حيال حركة الاحتجاج الطلابية. بعد انتهائه من **الجدل السلبي** وانشغاله بالعمل على كتاب علم الجمال، كانت أمنيته، كما كتب إلى هوركهايمر في شباط/ فبراير: "لو يتوفر لنا الهدوء والسكينة فحسب، لننجز أمورنا، ونختم حياتنا بلا خوف أو ضغط"[63]. وهذا ما لا يتفق مع دور مكشوف في حركة الاحتجاج. وأدورنو أيضًا، بطريقة تفكيره وسلوكه، لا يمكن أن يكون ملائمًا لما ذكر. في مقابلته مع مجلة **در شبيغل** بعد عامين، ذكر بوضوح أين كان يرى إمكاناته وقوّته، فقال: "أحاول أن أقول ما أعرفه، وما أفكر فيه. لكن ليس بوسعي أن أوجّهه نحو ما يمكن المرء أن يفعل به، أو إلى ما يمكن أن يفضي إليه"[64]. وهذا لا يتطابق تمامًا مع التصوّرات التي طوّرها هبرماس وهوركهايمر عن نظرية نقدية تنعكس على وظيفتها الاجتماعية. ولا بد من أن يكون له في بعض الآذان وقع فوضوي غير مسؤول، وفي بعضها الآخر وقع كلام صادر من برج عاجي. لم يكن في ذلك إلا القليل من العنجهية، وقد غلب على الأمر شكل أعزل ومنفتح من التسويغ الذاتي، عندما قال أدورنو في المقابلة عينها: "عندما أقدّم نصائح عملية، كما

---

(63) رسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، 13 شباط/ فبراير 1967.

(64) *Der Spiegel*, 19 (1969).

فعل إلى حدٍّ ما هربرت ماركوزه، فإن هذا يقلّل من إنتاجيتي. قد يقال كثير جدًا ضد تقسيم العمل، لكن ماركس الذي هاجمه بشدة في شبابه، كان قد أعلن لاحقًا - كما هو معروف - أن الأمور لا تستقيم أيضًا من دون تقسيم العمل".

دخل ماركوزه، كما ذكرنا، في تموز/ يوليو 1967 الساحة البرلينية كمعلّم تحتفي به أوساط اليسار الجديد. عندما وصل، كان يريد مناقشة أدورنو حول تباينات جدية بينه من ناحية وهوركهايمر وأدورنو من ناحية أخرى، تخصّ تقويمهما للولايات المتحدة وحرب فيتنام والحركة الطلابية. لم يكن من الممكن حلّ هذه التباينات عبر المراسلات، عندما كان ماركوزه لا يزال يعيش في كاليفورنيا، وهوركهايمر في سويسرا، وأدورنو في فرانكفورت. لكن عندما وصل ماركوزه، كان أدورنو قد طار لتوّه عائدًا إلى فرانكفورت من برلين. في 12 تموز/ يوليو بدأ الحفل الذي نظّمه اتحاد الطلاب الاشتراكي، واستمر أربعة أيام، وتمحور حول ماركوزه. في قاعة المحاضرات الرئيسية التي غصّت بالحضور، ألقى محاضرته حول "نهاية اليوتوبيا" و"مشكلة العنف في المعارضة"، وشارك في مناقشات المنصة حول "الأخلاق والسياسة في المجتمع الانتقالي" و"فيتنام: العالم الثالث والمعارضة في العواصم الكبرى".

أن يقف واحد من رجال النظرية النقدية الكبار قدرًا وسنًّا، والمهاجر الذي سطع نجمه في تلك الأثناء، إلى جانب طلاب المعارضة كليًا بعاطفة ثورية وإنسانية، كان أمرًا له أفعل الأثر في نفوسهم، بعد بضعة أسابيع فقط من شبهة الفاشية اليسارية التي كانت لا تزال تحوم حوله. كانت التوقعات أكبر، لأن معظم أولئك الحاضرين، باستثناء منظِّري اتحاد الطلبة الاشتراكي، عرف أعمال ماركوزه، في أحسن الأحوال، معرفة سطحية. لكن الناشطين من بين الطلبة هم تحديدًا من كانوا يأملون بأن يقدم ماركوزه إجابات عن الأسئلة الملحّة التي لم يكونوا قادرين هم أنفسهم على تقديمها إلى الطلاب الذين حرّكوهم. في مقابلة نُشرت في مجلة **در شبيغل**، مباشرة قبل احتفالية ماركوزه، أعلن دوتشكه أعلن أن تصوّر يوتوبيا مجسّدة هي المهمة الأكثر إلحاحًا التي تواجه النظرية النقدية، خصوصًا في الفترة الانتقالية الراهنة الشديدة البطء والتعقيد.

غير أن ماركوزه خيّب هو الآخر آمال الطلبة؛ إذ قال لهم، على نحو لا يحتمل اللبس، إنهم ليسوا الذات التي تغيّر التاريخ. كما أنكر عليهم أن يكونوا أقلية مضطهدة. وأوضح أن ليس هنالك إلا قوى كثيرة مبعثرة يمكن الاعتماد عليها. فهو في الواقع لم يرَ، بخلاف هبرماس، العلاقة المهمة، بالنسبة إلى فهم الطلبة الخاص بين معارضتهم في العواصم المركزية والنضال التحرري في العالم الثالث، في كسر تعريفات زائفة وتصحيح الإعلام المتحيّز فحسب، بل في ما هو أساسي أكثر إلى حد بعيد. أما كيف رآه، فهذا ما سوف يخيّب بالضرورة آمال الطلاب الذين كانوا يظنّون أن معارضتهم لمواقف السلطة الاستبدادية الراسخة في بلدهم تُشكّل، من خلال نضالات العالم الثالث التحررية، الخلفية لزعزعة البلدان الصناعية على صعيد السياسة العالمية. يعتقد ماركوزه الذي طوّر في محاضرته الأولى، مرة أخرى، فكرة "أنثروبولوجيا جديدة"، أن العلامةَ المميّزة لمجتمع اشتراكي حر هي "بُعْدُه الإيروسي الجمالي"، ويقول: "أرى المَيل إلى هذه الحاجات الجديدة موجودًا في الجانبين، أي في المجتمعات الأكثر تطورًا، وفي أجزاء العالم الثالث التي يعتمل فيها النضال التحرري [...] إذ لا يحتاج الفيتناميون الذين يعيشون فترة نضال تحرري، على سبيل المثال، إلى فرض السلام، فهم يمتلكونه [...]. ومن ناحية أخرى، تقف في المجتمعات الصناعية العالية التطور تلك المجموعات الأقلوية التي تستطيع الحصول على الاحتياجات الجديدة، أو التي - حتى وإن لم تستطع الحصول عليها - تتمتع بها ببساطة سلفًا، لأنها تختنق بخلاف ذلك فيزيولوجيًا. وهنا أعود، مرة أخرى، إلى حركة البِيتنيك [ثقافة البِيت] (Beatnik) وحركة الهيبيز. في أي حال، نحن هنا بالتأكيد إزاء ظاهرة مهمة، تتمثل ببساطة في رفض المشاركة في نِعَم 'المجتمع في وفرته'. وهذا يشكّل أيضًا واحدًا من التغيّرات النوعية للحاجة"[65].

لا عجب في أن تتناول إحدى الملاحظات الأولى للمناقشة "السؤال الذي من المفترض أن يثير اهتمامنا على نحو خاص، والذي لم نحصل منكم على جواب عنه حتى الآن، ألا وهو السؤال عن القوى المادية والثقافية

(65) Herbert Marcuse, *Das Ende der Utopie*, pp. 27 f.

اللازمة لتحوّل جذري"[66]. بدلًا من ذلك، اعترف ماركوزه بحيرته أمام الدائرة المفرغة التي تستوجب أولًا، من أجل تطوير احتياجات جديدة، إلغاء الإواليات التي تعيد إنتاج الاحتياجات القديمة، وأنه كي يكون إلغاء هذه الإواليات ممكنًا، يجب، في البدء مرة أخرى، خلق الحاجة إلى إلغائها. وكما ذكر مسبقًا في مقالته عن التسامح، ومرة أخرى، بإفراط مبالغ فيه تمامًا، في مقابلة معه بعنوان "الأساتذة، بوصفهم أوصياء على الدولة؟" نُشرت في مجلة **در شبيغل** بعد بضعة أسابيع من احتفالية برلين، فإن الحل الذي اهتدى إليه ذهنيًا هو دكتاتورية تعليمية. قد يكون هذا قاسيًا، بالنسبة إلى ذائقة المعارضة الطلابية التي كان يطغى على موقفها معارضة الاستبداد. لكنه عندما وصف في محاضرته الثانية حول "مشكلة العنف في المعارضة" البحثَ عن المواجهة من أجل المواجهة باللامسؤولية، وأكد ضرورة العمل على النظرية النقدية، واعتبر تحرير الوعي - وهو تحرير تطلّب المناقشة، وحتى التظاهر، و"انخراط الناس جميعهم" - أولوية للمعارضة، لم يبقَ عندئذ في النقاط المهمة التي يتوقعها سامعوه أي فارق مع ما مثله هبرماس في هانوفر. تبدّت العاطفة الشجيّة التي أبداها ماركوزه نحو النضال التحرري هروبًا من السؤال عما ينبغي فعله في العالم الغربي. غير أن نقاشًا فعليًا للنقاط لم يحصل، نظرًا إلى أن ماركوزه أقرّ صراحة بحيرته، ولا يمكن أن يحصل أيضًا في إطار احتفالات كبيرة كهذه.

بعد ظهور ماركوزه في برلين، رأى كنوت نفرمان أن "على ماركوزه أن يرينا يوتوبيا إيجابية". وفي ما يخص توقعات الطلبة المعارضين، وخصوصًا الرؤوس القيادية من بينهم، كان كلام ماركوزه في درجة وضوحه والتزامه لا يزال متخلفًا عما قاله دوتشكه في المقابلة التي أجرتها معه مجلة **در شبيغل** حول الديمقراطية المجالسية ومراكز الفعل، وحول أشكال المقاومة السلبية ضد صحافة شبرينغر وخطة جامعة مضادة، بوصفها أمثلة عن الأفعال المباشرة، وعن "الرفض الكبير" الذي طرحه أيضًا.

---

(66) Ibid., p. 20.

بدا أنه لا مفر من علاقة تعيسة بين الطلبة المعارضين والمنظّرين النقديين، مهما اختلفت مواقع الأخيرين وطرق سلوكهم، سواء اهتم واحد، كأدورنو مثلًا، بوصفه أستاذًا أكاديميًا وناشرًا آثر البقاء بعيدًا عن الأمور السياسية، بمواصلة تقديم فكر نقدي إلى معارضة خارج البرلمان، تعود إلى الحياة تدريجيًا في حضن عودة الجمهورية الاتحادية، وبقي يتحفظ في المجال العام بحكمه على ما حصل لنتائج تفكيره، فلا هو يتماهى به صراحة ولا هو ينأى عنه صراحة؛ أو واحد مثل هبرماس يعكس، بوصفه أستاذًا أكاديميًا، وناشرًا له اهتمامات محددة بفلسفة السياسة، العلاقة بين العلوم والجامعة والمجتمع، ويتماهى مع الحركة الاحتجاجية، لكنه قام بتوضيح الغايات والطرق، والفرص والمخاطر، بحدة مرة أو مرتين، وبدا من خلال ذلك موضوعيًا، كما لو أنه يتخذ مسافة منها؛ أو واحد مثل ماركوزه قدّم مجموعة من المفاهيم الجاذبة ("الرفض الكبير"، و"الحق الطبيعي في المقاومة"، و"حساسية جديدة")، مفاهيم لم تترسخ في نظرية، بل في رؤية أساس غريزي في الاشتراكية، وفي حماسة إنسانية ثورية. وقد التقى هذا مع مزية إيجابية أُعلنت صراحة لمصلحة مختلف مجموعات المعارضة المحتملة، طالما كانت - حيثما بدا العنف ضروريًا - لا تطبّقه بوصفه ضرورة.

لكن من عجيب المفارقات أن هوركهايمر الذي يميل إلى المطابقة بين نزعة الأمركة المضادة والنزعة المناصرة للشمولية، والذي أعلن رفضه للحركة الطلابية والنضال التحرري في فيتنام، راح يحظى باحترام متزايد، مع تنامي النزعة الراديكالية في أوساط الحركة الطلابية، عندما أثبتت نفسها بعض كتاباته المبكرة بوصفها معين لا ينضب لمقبوسات تلائم المزاج الراهن. لم يكن هذا، بالطبع، مبعث رضى هوركهايمر وارتياحه. فقد أمكن دفعه في مطلع الستينيات إلى إصدار طبعة من **جدل التنوير** باللغة الإيطالية، لم تقتضِ إجراء تعديلات عليها، لكنه رفض الموافقة على إصداره الجديد باللغة الألمانية بطبعة ضخمة كانت دار فيشر تنوي إصدارها. حاول أدورنو أن يوضح لماركوزه التأخير: "يتلخص الوضع، ببساطة، في أننا كنا نخشى، من ناحية، صياغات محددة تستثير النقد، خصوصًا منها تلك التي تخص الدِّين المؤسساتي لو أن الأمر انتشر بين الناس كثيرًا على النحو الذي نتوقعه، غير أننا تلقّينا النص سليمًا،

ولا نريد، من ناحية أخرى، أن نخفّف من حدته من خلال أي وجهات نظر أو اعتبارات"[67]. وكما دفع لوكاتش الغضب من قرصنة كتابه **التاريخ والوعي الطبقي** إلى إعادة نشره، كذلك دفع الغضب هوركهايمر، بعد نشر الترجمة الألمانية لكتابه **كسوف العقل** في عام 1967، إلى إصدار مقالاته في **مجلة الأبحاث الاجتماعية** في طبعة جديدة. لقد فعل ذلك، بمعنى التوثيق، ووضع مقدمة، وجّه فيها تحذيرًا إلى "شباب الوقت الحاضر"، قال فيه: "إن حماية حرية الفرد المحدودة والعرضية في وعي التهديد المتزايد لها وضمانها وتوسيع نطاقها حيثما كان ذلك ممكنًا، هو أكثر إلحاحًا بكثير من نفيها على الصعيد التجريدي، أو حتى تعريضها للخطر من خلال أفعال لا أمل يُرتجى منها". على أنه لم يأذن من جانبه، طبعًا، بنشر النصوص التي اقتُبست منها بعض شعارات الطلبة من مقالته "اليهود وأوروبا" المنشورة في **مجلة الأبحاث الاجتماعية** والتي تضمّنت هذه العبارة: "لكن من لا يريد الكلام على الرأسمالية، فليصمت أيضًا عن الفاشية"، ومجموعة شذرات نشرها آنذاك بعنوان **الفجر** وباسم مستعار هو هاينريش ريغيوس، جاء فيها أن "المسار الثوري لا يتقدم من خلال الولائم والألقاب الشرفية، ولا الأبحاث المهمة ورواتب الأساتذة، بل يتقدم من خلال البؤس والهوان والنكران والسجون، يتقدم نحو المجهول الذي لا يضيئه إلا إيمان خارق. لهذا قلّما سلك هذا المسار أشخاص غير موهوبين".

تَواصل تجذير حركة الاحتجاج الطلابية وتطورها إلى قوة دافعة للمعارضة خارج البرلمان، لأن الأسباب التي قامت من أجلها الحركة كانت لا تزال قائمة: غياب إصلاح ديمقراطي للجامعات؛ والتداعي المتواصل للنظام البرلماني في ظل ائتلاف كبير، وقد كان من بين الشروط التي وضعها هدفًا له إصدار قوانين لحالة الطوارئ، ومغازلة فكرة نظام الأغلبية البسيطة الانتخابي، أو حصول الحزب على 10 في المئة من مجموع الأصوات على الأقل شرطًا لشغله مقاعد في البرلمان؛ ودعم الجمهورية الاتحادية المالي والمعنوي لحرب فيتنام؛ والتلاعب بالرأي العام الجلي للعيان الذي يقوم به احتكار شبرينغر وصحافة برلين؛ والتوجُّه العام بنموذج "مجتمع متشكّل". بعد توسُّع

(67) مسودة رسالة إلى ماركوزه، أرفقت برسالة من أدورنو إلى هوركهايمر، في 7 أيلول/ سبتمبر 1962.

الاحتجاج إلى جامعات الجمهورية الاتحادية اكتسبت في شتاء 1967/ 1968 ومطلع 1968 الأنشطةُ السياسيةُ العامة أولويةً حيال السياسات المتعلقة بالجامعات، إذ بدا للطلبة الناشطين، أكثر فأكثر، أن الجامعات تشكّل أرضية للنزاعات السياسية العامة ومسرحًا لها.

في شباط/ فبراير أقام اتحاد الطلاب الاشتراكي في برلين، في الجامعة التقنية، "مؤتمر فيتنام العالمي"، وأتبعه بتظاهرة، ربط فيها بصورة هادفة مع سياسة المؤتمر المشبعة بمشاعر التضامن التي نادى بها فيلي مونتسنبرغ، والتي يفترض أنها تختلف عن مؤتمرات الطلبة السابقة بتحليلاتها النظرية ونقاشاتها، كما حصل في عام 1966 مع ماركوزه في فرانكفورت. انطلق المؤتمر تحت راية ضخمة لجبهة التحرير الفيتنامية، تحمل كلمات تشي غيفارا الذي كان قد قُتل قبل بضعة أشهر في بوليفيا، في نضال تحرري يعتمد أسلوب حرب العصابات: "من واجب كل ثوريّ أن يصنع الثورة". وفي نيسان/ أبريل جرت محاولة لاغتيال دوتشكه؛ إذ أطلق عليه العامل يوزف باخمان ثلاث رصاصات من مسدس كاتم للصوت، أصابته بجراح خطرة. وعلى الفور، رأى الطلاب هذه المحاولة نتاج مزاج متأجّج معادٍ للطلاب، حاكت خيوطه صحافة شبرينغر على وجه الخصوص، الأمر الذي دفع إلى حصار شبرينغر، إذ حاول نحو 60.000 شاب في جميع أنحاء الجمهورية الاتحادية منع توزيع صحف شبرينغر في أيام عيد الفصح. وحصلت معارك في الشوارع، لم تشهد لها ألمانيا الغربية مثيلًا منذ سنوات فايمار الأخيرة. كما قُتل في ميونيخ مصوّر صحافي وطالب.

ثم كان أيار/ مايو 1968. ففي باريس كان شهر ليالي المتاريس في حي الجامعة، الحي اللاتيني، والشهر الذي دعت فيه النقابات والأحزاب اليسارية إلى إضراب عام في 13 أيار/ مايو. في مقابلة مع دانييل كون بنديت – طالب علم الاجتماع الذي ينتمي إلى المتمردين والذي سطع نجمه فجأة – ناشد سارتر الطلابَ ألا يتراجعوا في محاولتهم إحضار الفانتازيا إلى السلطة، وتوسيع أفق الممكنات. وفي ألمانيا كان شهر أيار/ مايو علامة النضال ضد الموافقة على قوانين الطوارئ؛ إذ تظاهر نحو 100,000 شخص في بون في 11 أيار/ مايو. وفي 20 من الشهر نفسه، بدأت، انطلاقًا من برلين الغربية، موجة من حالات احتلال الجامعات والمعاهد. ودعا اتحاد الطلبة الألماني

الاشتراكي، بالاشتراك مع الهيئة العليا "لحالة الطوارئ الديمقراطية" المدعومة من نقابة الصناعات المعدنية (IG Metall) و"الحملة من أجل الديمقراطية والحد من التسلح" التي انبثقت عن حركة مسيرة الفصح، إلى إضراب سياسي عام في المصانع والجامعات. وفي 27 أيار/ مايو قام 2000 طالب بقيادة هانز يورغن كرالز - وهو نصير دوتشكه في فرانكفورت، وطالب دكتوراه مرموق عند أدورنو ومطّلع جيد في مجال النظرية - باحتلال مباني الجامعة الرئيسية، بعد أن ردّ رئيس الجامعة على نداء إضراب الطلبة بإغلاق الجامعة. وأُطلق اسم "جامعة كارل ماركس" على جامعة فولفغانغ غوته. في الجامعة المحتلة، شُرِع بوضع برنامج "الجامعة السياسية" التي أُنشئت قبل ذلك بقليل موضع التنفيذ، وقُدّمت نموذجًا للجامعة النقدية. أسهم بذلك مساعدو هبرماس، أمثال نغت وأوفي وأوفرمان وفلمر، بحلقات دراسية [سمينارات] حول "التاريخ والعنف: في النظرية السياسية للمعارضة خارج البرلمان"، و"الجامعة غير المسيَّسة وتسيُّس العلم". بعد ثلاثة أيام أخلت الشرطة المبنى وقامت باحتلاله، بعدما أقدمت مجموعة من الطلاب على فتح خزانة الملفات في رئاسة الجامعة. في أثناء مؤتمر للطلبة والتلاميذ انعقد في أيام عيد العنصرة في فرانكفورت حول شروط المقاومة وتنظيمها، بعد عام من مقتل بينو أونيزورغه بالرصاص وانعقاد مؤتمر هانوفر، انطلقت مسيرة احتجاجية نحو الجامعة التي كانت تحتلها الشرطة، وسارت من غير حوادث تذكر.

في هذه الأسابيع، وعندما كانت النزاعات السياسية تنحي جانبًا الخلافات حول السياسات الجامعية لدى الطلبة المتمردين الذين اصطدموا بعجزهم وقصورهم في جميع المناحي - وُزِّعت صحفُ دار شبرينغر بعد الفصح، كما كان الحال دائمًا، وبيعت وقُرِئت، وصادق البرلمان في 30 أيار/ مايو على قوانين الطوارئ، وظلّ استنكار حرب فيتنام قضية الأقلية المعارضة - أدلى برأيه في الحركة الطلابية اثنان من المنظّرين النقديين في فرانكفورت: أولهما كان أدورنو، والثاني هبرماس.

في 8 نيسان/ أبريل 1968، افتتح أدورنو - بصفته الرئيس المنتهية ولايته للجمعية الألمانية لعلم الاجتماع - بمحاضرته مؤتمر علم الاجتماع الألماني السادس عشر المنعقد في فرانكفورت. أما الموضوع الرئيسي الذي كرّس له

محاضرته فكان "الرأسمالية المتقدمة أو المجتمع الصناعي؟"، وقد اختير بمناسبة مرور 150 عامًا على ولادة كارل ماركس. لكن كان يمكن المرء أن يفترض أن هذا الاختيار يُخفي وراءه نوعًا من إجْلال للحركة الطلابية التي تَفاجأ بها علماء الاجتماع، والتي لم يعرف علماء الاجتماع الألمان حتى ذلك الحين، باستثناء هبرماس، ما يقولونه بصددها. مع ذلك، يعقد علماء الاجتماع اجتماعهم الآن في مركز المعارضة الطلابية الأكثر أهمية بعد الجامعة الحرة في برلين، تلك المعارضة التي اهتمّت بين أمور أخرى بطرح الأسئلة البنيوية المرتبطة بمجتمع رأسمالي عالي التطور صناعيًا، وبإدخالها مرة أخرى إلى مجال النقاش العام.

في أحدث دراسة له في علم الاجتماع وضعها أدورنو بالاشتراك مع أورسولا ييريش، إحدى طالباته، بعنوان "ملاحظات في الصراع الاجتماعي اليوم" - وهو العمل الذي صدر في عام 1968 في الكتاب التذكاري بمناسبة عيد الميلاد الستين لفولفغانغ أبندروت - قام أدورنو بتطوير فكرة كمون الصراع الطبقي وتحويل الصراع نحو المناطق الهامشية، الفكرة التي كان من الممكن أن تكون منطلقًا مفيدًا للتحليلات النظرية لليسار الجديد. في محاضرته الافتتاحية "الرأسمالية المتقدمة أو المجتمع الصناعي؟"، لم يتلقف أدورنو تلك الفكرة الواعدة جدًا لتحليل الوضع الراهن، بل تحدث أكثر عن الافتراض الاستسلامي الذي كان قد حُذف وقتئذ من مقدمة **سوسيولوجيكا** 2، ومفاده أن المجتمع الراهن قد يكون أبعد من الوصول إلى نظرية متماسكة في ذاتها. وكانت صورة المجتمع التي أعاد رسمها هذه المرة أيضًا هي صورة مجتمع يرزح تحت لعنة شاملة تضمّنت، بصورة منفتحة أكثر من السابق، عناصر ماركسية أصولية منثورة هنا وهناك، وفيها يعزو تلك اللعنة التي تثقل المجتمع إلى النزعة التدخلية للدولة كعامل من بين عوامل أخرى، تلك النزعة التي تثبتها، بصورة غير مباشرة، نظرية الانهيار الحتمي للرأسمالية. لم تتهشّم هذه الصورة للمجتمع إلا في نقطة واحدة في المحاضرة، عندما أوضح أدورنو، بعد أن شدد ثانيةً على انهيار الفرد، قائلًا: "مؤخرًا جدًا، بدأت تُلاحَظ آثار ميل مضاد في المجموعات الأشد تباينًا، تتمثل في مقاومة الخضوع الأعمى، وحرية الاختيار العقلاني للأهداف، والنفور من عالم الغش والخداع، والاعتراف بإمكان التغيير. ويبقى

أن ننتظر لنرى إن كان الدافع المتزايد لدى المجتمع لتدمير ذاته سينتصر على الميل المضاد"[68]. بعد ذلك تابع مسار تفكيره الذي قطعه الاقتباس، كما لو أنه لم يأتِ قط إلى ذكر تلك الملاحظة. على هذا النحو، أعلن تعاطفه المبدئي مع حركة الاحتجاج التي بقيت في الوقت ذاته بلا تأثير في تفكيره. وانتهى مؤتمر علماء الاجتماع من غير أن يقال الشيء الكثير في تفسير حركة الاحتجاج وحال المجتمعات الغربية، انتهى في اليوم ذاته الذي أعطت محاولة اغتيال دوتشكه إشارة بدء حصار دار شبرينغر.

في الأول من حزيران/يونيو، سبت العنصرة، واليوم الأول لمؤتمر الطلاب والتلاميذ، تحدث هبرماس مساءً في المنزا [المطعم الجامعي]، خارج حرم الجامعة الذي تحتله الشرطة، في ظل وضع أمني يعكس توتر الشرطة حيال الطلبة. وكان موضوعه، وفق البرنامج: فضاء الفعل للاحتجاج والمقاومة. مرة أخرى، كان ما قاله في المحاضرة مزيجًا من تحليل ضروري لحركة الاحتجاج ونقدها. وهنا أيضًا، حيث يعنيه النقد الداخلي، كان وقع النقد حادًا للغاية. بعد تجاربه مع حركة الاحتجاج التي استمرت عامًا، وامتدت إلى جميع أنحاء البلاد، وبعد فصل دراسي أمضاه في الولايات المتحدة أستاذًا زائرًا في شتاء 1967/ 1968، أعطى هبرماس الطلاب المعارضين الشهادة بأنهم فتحوا أفقًا جديدًا وجديًا للانقلاب على بنى المجتمع الراسخة عميقًا. وكما رأى سابقًا في هانوفر أن الهدف المباشر لحركة الاحتجاج هو تسييس العموم - أي استعادة الأسئلة ذات الأهمية إلى النقاش العام، وعكس الظاهر التكنوقراطي لتغييب السياسة - اعترف اليوم أيضًا بمشروعية وضرورة التقنيات التحريضية وسيلةً لخرق القواعد المحددة، وفرض النقاشات هناك حيث كانت مرفوضة. وكان الجديد، قبل كل شيء، أن لديه الآن تصورًا عن الكيفية التي تعلن عن نفسها حركة الاحتجاج التي قام بها الطلاب والتلاميذ، وأنه ما عاد يُصنِّف أو يتّهِم، من فوره، الرؤى الفوضوية الجديدة والأنشطة المباشرة بأنها شكل من أشكال الفاشية.

---

(68) Adorno, *Gesammelte Schriften*, vol. 8, p. 368.

استقى تفسيره هذا من اشتراك نظرية تحويل الصراع إلى المجتمع الرأسمالي المتأخر مع نظرية ماركوزه في الحساسية، بوصفها تشخيصًا من ناحية، ويوتوبيا من ناحية أخرى، ومع نتائج الدراسات التجريبية في الولايات المتحدة الأميركية حول تأثير الانتماء الطبقي وأشكال الاجتماع في موقف الشباب وسلوكهم. وكان قد عرض تفسيره بأكثر ما يكون من التفصيل في محاضرةٍ نهايةَ عام 1967 في معهد غوته في نيويورك. "من المحتمل أن يكون هذا الجيل قد نشأ وترعرع بفهم نفسي أفضل، وتربية أكثر ليبرالية، وموقف أكثر تسامحًا من كل الأجيال التي سبقته [...]. وإذا أضفنا إلى ذلك حقيقة أن هذا الجيل هو الأول الذي نشأ تحت شروط اقتصادية مخففة، ولهذا كان نفسيًا أقل تأثرًا من أسلافه بالضغط المبدئي لسوق العمل، يتبيّن عندئذ افتراضيًا وجود صلة تتيح لنا تفسير الحساسية الخاصة للناشطين الشباب. لقد أصبحوا حسّاسين تجاه تكاليف الحياة التاريخية لمجتمع تحدده حالة التنافس، وسباق الإنجاز، وإضفاء البيروقراطية على جميع مجالات الحياة؛ إذ تبدو هذه التكاليف بالنسبة إليهم باهظة الثمن جدًا، مقارنة بالمنافع التقنية الممكنة فيها [...]. قد يكون من المستحسن جدًا أن يجعل تداعي السلطة الأبوية، وانتشار طرائق التربية المتسامحة، الخبرات لدى الأطفال الناشئين ممكنة، ويحثهم على إيجاد التوجهات التي لا بد من أن تصطدم، من ناحية، بالمعايير القائمة لأيديولوجيا الإنجاز، لكنها تتقارب، من ناحية أخرى، مع الإمكان المتاح تقنيًا للتسلية والحرية والرضى والطمأنينة، الإمكان الذي لم يحرّره المجتمع بعد"[69].

من ناحية أخرى، قام هبرماس من جديد بنقد حاد، دفعته إليه المخاوف من مسيرة الاحتجاج نحو الجامعة التي تحتلها الشرطة، تلك المسيرة التي كان مخططًا القيام بها في اليوم التالي، فضلًا عن قلقه على حركة الاحتجاج نفسها. فقد كانت هذه الحركة شريكًا وقف إلى جانبه كثيرًا في نقد إقصاء أسئلة عملية من المجال العام الذي غُيّبت فيه السياسة، وكان معرّضًا للخطر وخطرًا في الوقت ذاته، في السير على الحبل المشدود للتمرد في حقبة غير ثورية.

(69) Jürgen Habermas, "Studenenprotest in der Bundesrepublik," in: *Protestbewegung und Hochschulreform*, pp. 175 f.

حادًا كان النقد في توصيف تقنيات التظاهر الجديدة، بوصفها أشكالًا طقسية للضغط والتحدي تمارسها الناشئة حيال الآباء الغافلين والمتساهلين نسبيًا. وقد كان، إلى ذلك، حادًا أيضًا في حقيقة أن هبرماس أوصل الاتهام المتمثل في أن بعض القادة خلطوا بين احتلال الجامعة واستيلاء زائف على السلطة، إلى الذروة، من خلال ملاحظة أن الأمر نفسه يُحقّق في المجال السريري واقعة التصوّر الهذياني. أخيرًا، كان النقد حادًا في حقيقة أنه عاب على الطلبة استرشادهم بحقائق واضحة وضوح الشمس، أوقفوا بها حوارًا شاقًا للغاية، وغير منتهٍ، من مجال نظرية المجتمع الماركسية لمصلحة يقينيات أكثر تبسيطًا، ولمصلحة القناعة بمشكلات استخدام رأس المال غير المحلولة حتى في الرأسمالية المقوننة على الصعيد الحكومي أيضًا، والقناعة بالأمل باستمرار إمكان إثارة الصراع الطبقي الاقتصادي-الاجتماعي، وتحويله إلى صراع طبقي سياسي، وأخيرًا لمصلحة القناعة بوجود علاقة سببية بين الاستقرار الاقتصادي للبلدان الرأسمالية المتطورة والوضع الاقتصادي الكارثي في بلدان العالم الثالث. أدت هذه القناعات، برأي هبرماس، إلى الاستراتيجيات الخطرة التي انتقدها.

كانت هذه اتهامات مدهشة. فهي مدهشة، من ناحية، لأن القناعات التي ذكرها هبرماس كانت تنطبق أكثر على "التقليديين" بين أعضاء اتحاد الطلبة الاشتراكي الألماني، في حين كان "المعادون للاستبداد" - أمثال دوتشكه الذين يهتدون أكثر بماركوزه، أو أمثال كرال الذين يأتون من النظرية النقدية لأدورنو وهبرماس - هم مؤيدو تقنيات الاحتجاج الجديدة. وكانت مدهشة، من ناحية أخرى، لأن هبرماس نفسه استخدم مفاهيم ماركسية أصولية عن شروط الثورة، وزاد من حدة الشروط على أرضية استياء الجماهير المستغَلة الصريح التي كان النظام الاجتماعي معتمدًا على تعاونها، كي يرتّب على عدم تحقق هذه الشروط غياب وضع ثوري، وبالتالي قصور جميع الأنشطة التي لم تجبر على الالتفات، من خلال الضغط الرمزي، إلى الحجج، بل قصد منها أن تكون وسيلة عنيفة للاستيلاء على مواقع في السلطة. في أي حال، مهما كان الاختلاف ممكنًا حول ما إذا كان هبرماس قد أصاب على نحو صحيح القناعات التي تحدد سلوك الجهات الفاعلة من الطلبة، أو كانت الاستراتيجيات المستخدمة فعليًا

قد نتجت من قناعات كهذه، أو لم تكن شروط الحالة الثورية التي ذكرها هبرماس قد ضُيّقت كثيرًا، فقد أصاب زعمه أن اتحاد الطلبة الاشتراكي رأى فضاء الأنشطة من خلال وضع ينقل إلى الثورة. ودلّت تحليلات اتحاد الطلبة الاشتراكي، أكثر فأكثر، على اتجاه فهم ذاتي، وعلى تقدير وضع يجب تبعًا له أن تحافظ حركة الاحتجاج على سيرها، لا يهمّ كم تطول، بل أن تفضي، في نهاية المطاف، إلى ثورة يشارك فيها العمال.

أدى هذا إلى الفارق الحاسم في النهاية بين هبرماس والقسم الناشط من الطلبة. فبالنسبة إلى هؤلاء، لم يكن الانقلاب العنيف لمجتمع الوفرة شيئًا مستحيلًا، بل كان تسييس المجال العام في خدمة انقلاب معادٍ للاستبداد، ومعادٍ للرأسمالية. أما بالنسبة إلى هبرماس، فلم يكن تثوير مجتمعات صناعية عالية التطور ممكنًا إلا على النحو التالي: السأم من حالة الرفاهية التي تم بلوغها تجعل ذات يوم، حتى العمال المندمجين، لا يتحملون أشكال العمل والحياة البيروقراطية. أما أولئك الذين في السلطة فعليهم - كي يستمروا في الحصول على الخدمات الضرورية من السكان الذين لم يعودوا مستعدين لتقديم التضحيات غير الضرورية - أن يتحمّلوا عندئذ إعادة تسيُّس المجال العام الذي جُفّف. فالجمهور المسيَّس سوف يتفق، من جديد، حول أهداف الفعل الاجتماعي. وإن وظيفة حركة الاحتجاج لا يمكن أن توجد في نظر هبرماس إلا في تعزيز أو إحياء الديمقراطية التنظيمية داخل الأحزاب والنقابات والروابط، من خلال الضغط من أسفل أو من الخارج، وتقوية الوظيفة النقدية لوسائل الإعلام الجماهيرية، وأن تسهم بهذه الطريقة في التوسُّط لإرساء تحوّل ديمقراطي في المجتمعات المركّبة وتخليصها من بيروقراطية السيطرة. فالاختراق المتمثل في الانتشار والفعل المباشر الذي قدّمه بوضوح في المشهد البرليني دوتشكه والأنصار الآخرون لمجموعة "الفعل الهدام" في عامي 1964 و1965، وجسّده دوتشكه، على وجه الخصوص في ما بعد، في الحركة الطلابية في ألمانيا الغربية، وأبقاه حيًا بوصفه العنصر الحاسم في دينامية الحركة؛ هذا الاختراق الذي أمكن ماركوزه، منظّر الحساسية الجديدة والأساس الغريزي للاشتراكية، أن يرحّب به، وكان لا بد من أن يلقى عند أدورنو، منظّر اللاهوية والدافع الجسدي، قدرًا محددًا من التعاطف والتفهّم، أثار لدى

هبرماس، منظّر العقلانية الشاملة وتحرير الطبيعة الداخلية عبر التواصل، الخشية من اللاعقلاني، والخشية من التعبير والفعل اللذين من شأنهما الإصرار على حقوقهم، إذا لزم الأمر، من دون تحديد مفاهيمي ومن دون مناقشة.

لم يتم التوصل قط إلى تفاهم بين المنظّرين النقديين والطلاب النقديين الذين انتظروا من الأساتذة اليساريين أن يراهنوا على الثورة بحياتهم كلها، لا على الصعيد النظري أو على مستوى التنظيم الجامعي فحسب. انتظر الطلبة من الأساتذة اليساريين أن يراهنوا بوجودهم كله على الثورة التي كان يُعتقَد أنها وشيكة. لم يطلق الكتاب الذي صدر في العام نفسه بعنوان **اليسار يردّ على يورغن هبرماس** - تحديدًا على الأطروحات التي ألقاها في مؤتمر عيد العنصرة في فرانكفورت وقدّمها في الكتاب الذي ضمّ مساهمات أعضاء مختلفين في اتحاد الطلبة الاشتراكي، ومدرّسين يساريين في الجامعة - لم يطلق أيَّ نقاش نظري، على الرغم من أن أوسكار نغت - مساعد هبرماس، وفي الوقت ذاته ممثل اليسار الجديد الوثيق الصلة باتحاد الطلبة الاشتراكي - رأى في مقدمته، بدواعٍ طيبة، ومن غير أن يخشى نقدًا جذريًا لهبرماس، أهمية الكتاب في "الجدل داخل أوساط اليسار الجديد الذي انتقل إلى المجال العام". لم يجر تأسيس مجلس قسم محايد في قسم علم الاجتماع في كلية الفلسفة في فرانكفورت، بسبب فقدان الثقة المتبادل بين الأساتذة والطلاب، وبسبب المطالب التي لا تتوقف لمجموعة نافذة من اتحاد الطلبة الاشتراكي تنادي بالتسييس المباشر للعلم.

في الفصل الدراسي الشتوي 1968/ 1969 احتدم الوضع أكثر. في بادئ الأمر أضرب الطلاب في قسم علوم التربية احتجاجًا على الإشارات الأولى لإصلاح جامعي تكنوقراطي أصابهم، وقاموا بتنظيم سمينارات بديلة. انضم إليهم على الفور طلاب علم الاجتماع، وطلاب الدراسات السلافية والرومانية والألمانية. وجاء في منشور أصدرته المجموعة الأساسية في علم الاجتماع: "نحن نقبل، مرة أخرى، السجال مع الأساتذة من أجل التغيير الفوري لتنظيم دراسة علم الاجتماع في يوم الجمعة الموافق 5 كانون الأول/ ديسمبر في الساعة 19,00 في قاعة المحاضرات رقم 6، في اجتماع يضم جميع طلاب

علم الاجتماع. سوف نناقش هناك: 1) إمكانية جلسة تضمن للطلاب المشاركة في ضبط ومراقبة الاستراتيجيات الأساسية للبحث والتعليم؛ 2) إمكانية تعليق التعليم في علم الاجتماع مؤقتًا، على النحو الذي كان يجري حتى الآن، والتنظيم المشترك للعمل الجماعي التعليمي والبحثي الذي سوف يلغي وضع التعليم السلطوي، ويقدم استراتيجية جديدة للتعليم والبحث. يجب الاعتراف بمجموعات العمل المشتركة هذه بوصفها دراسة نظامية". وجاء في المنشور أيضًا: "ليس لدينا رغبة في لعب دور مهرّجي اليسار في الدولة السلطوية الذين هم نقديون في النظرية، وخاضعون في الممارسة العملية. إننا نأخذ قول هوركهايمر على محمل الجد". وهنا يختم المنشور بالفقرة المقبوسة من [كتاب] **الفجر** المذكورة أعلاه. ويمرّر أدورنو المنشور إلى هوركهايمر مذيّلًا بملاحظة "إلى هذا الحد وصلنا".

بعد ثلاثة أيام على النقاش العقيم مع أساتذة علم الاجتماع، احتل الطلاب قسم علم الاجتماع في شارع ميليوس الذي أُطلق عليه "قسم سبارتاكوس". وكانت تُنتخَب في كل مساء لجنة إضراب لليوم التالي، تكون مسؤولة عن توزيع الغرف على مجموعات العمل المختلفة، وعن تنسيق دائرة العمل بين الكليات، وإعداد المنشورات وجرائد الحائط. وفي ما يربو على دزينة من مجموعات العمل، راح طلاب علم الاجتماع والفلسفة والحقوق والرياضيات وطلاب كلية التربية يتناقشون حول "نظرية الحق الماركسي"، و"نظرية المعرفة ونظرية العلم والوضعية"، و"التنظيم والتحرر"، وغيرها. كان هذا "إضرابًا فعالًا"، استمرارًا لما كان قد بدأ أول الأمر في بيركلي تحت مسمى "الجامعة البديلة"، وجرى تبنّيه في برلين في الفصل الدراسي الشتوي 1967/ 1968 تحت عنوان "الجامعة النقدية"، وظهر في فرانكفورت في ربيع 1968 لفترة وجيزة باسم "الجامعة السياسية". أثبتت موجات الاحتلال التي حصلت في إطار الأنشطة الرافضة لتطبيق قوانين الطوارئ ذاتها، أنها العتبة التي يوجد خارجها، بالنسبة إلى المعايير الألمانية، نوع من التجاور العجيب تقريبًا لتعليم وبحث عادي، إلى هذا الحد أو ذاك، في جزء من الجامعة، ودراسة منظّمة ذاتيًا في مجالات الجامعة الأخرى.

كان يمكن هذا أن يمثّل استراتيجية جديدة في حال تطبيق إصلاح جامعي ديمقراطي: تنظيم الدراسة الذاتي المقدَّم على ما سواه، وتوسيع مضامين الدراسة وأشكالها كوسيلة ضغط لتطبيق نهائي لتصوّر حديث للإصلاح. لكن في تجربة "الإضراب الفعّال" يهيمن نموذجان من المصلحة، كلاهما غير مستعد أو غير مهيأ لاستراتيجية مزدوجة تنضوي تحت استراتيجية عملية للإصلاح: أولئك الطلبة الذين أرادوا تأسيس قواعد في الجامعات، استنادًا إلى استراتيجية حرب العصابات في "المناطق المحررة" التي قدّمت "فرصة المعرفة الجماعية لتطوير استراتيجيات ثورية اجتماعية طويلة الأمد للعواصم الكبرى"[70]؛ وأولئك الطلاب الذين كان يعنيهم دمج الدراسة على نحو أقوى مع تجاربهم واهتماماتهم السياسية في إطار حركة الاحتجاج، وتعنيهم مشاركة ذاتية في تحديد مضامين وأشكال جديدة للدراسة.

في البداية، تعامل هبرماس وفريديبرغ (وكان قد عاد من برلين إلى فرانكفورت في عام 1966، وأصبح مديرًا لقسم علم الاجتماع ومديرًا لمعهد البحث الاجتماعي) على نحو طبيعي تقريبًا في "قسم سبارتاكوس". ثم بدأ بعدئذ يستعملان أكثر فأكثر قسم الفلسفة. اتصل ذات يوم رئيس الجامعة فالتر رويغ بهبرماس، وأعلمه أن نقابة الأطباء، بوصفها مالكة لمبنى القسم، هددت بإنهاء عقد الإيجار، وأنه أمر بإخلاء القسم، مستعينًا بالشرطة، في ساعات الصباح الباكر في اليوم التالي. وعن سؤاله إن كان هذا الأمر يجب أن يُقبل من دون اعتراض، أجابه بـ "نعم". وحين أرادت الشرطة عند الساعة الرابعة أو الخامسة من صباح اليوم التالي إخلاء القسم، بناء على شكوى التعدي على حرمة المبنى، كان المبنى فارغًا.

وفي الشهر التالي تواصلت المهزلة. عندما رأى أدورنو ظهر يوم 31 كانون الثاني/ يناير، من نافذة غرفة مكتبه، في زاوية مبنى معهد البحث الاجتماعي، عشرات الطلاب يمشون بخطوات سريعة حول الزاوية، ويختفون في داخل المبنى، استنتج على الفور وجود نية لاحتلال المبنى. بداية توجّه الطلاب إلى

(70) Hans-Jürgen Krahl, "Zur Ideologiekritik des antiautoritären Bewußtseins," in: *Konstitution und Klassenkampf*, p. 279.

قسم علم الاجتماع الذي كان تحت "احتلال مُعدَّل"، فوجدوه مغلقًا، فراحوا يبحثون عن غرفة لإجراء النقاشات فيها، من دون أن يكون لديهم أهداف أخرى. وبعد أن طلب فريديبرغ بلا جدوى من الطلاب إخلاء المكان، قام هو وأدورنو - وهما يشكلان بالاشتراك مع الخبير في الإحصاء رودولف غونتسرت إدارة المعهد - باستدعاء الشرطة حالًا. اعتقلت الشرطة الطلبة جميعًا، وقامت بترحيلهم، ثم أُطلق سراحهم في اليوم نفسه، باستثناء كرال الذي وُجِّهت إليه تهمة التعدي على حرمة المبنى، لتستمر بعدها محاكمة عبثية أشهرًا عدة.

أشار ماركوزه إلى إخلاء المعهد عندما كتب في نيسان/ أبريل 1969 إلى أدورنو قائلًا: "باختصار، أعتقد أنني، عندما أقبل دعوة المعهد من غير أن أتحدث أيضًا مع الطلبة، أتماهى مع حالة لا أتشاركها سياسيًا [...]. ليس بوسعنا أن نلغي من العالم حقيقة أن هؤلاء الطلبة متأثرون بنا (أو على الأقل، ليس بكَ بالتأكيد) [...]. نعرف (وهم يعرفون) أن الوضع ليس ثوريًا، وحتى ليس ما قبل ثوري. لكن الوضع نفسه بائس للغاية، وخانق ومهين، بحيث يجبر التمرد عليه على ردة فعل بيولوجية وفيزيولوجية؛ فالمرء ما عاد بمقدوره التحمل، إنه يختنق، وعليه أن يجد متنفسًا. وهذا الهواء النقي ليس هواء الفاشية اليسارية (تناقض بين عبارتَي المقولة)[71]، إنه الهواء الذي نريد نحن (أنا على الأقل) أن نتنفسه مرة أخرى، وليس بالتأكيد هواء المؤسسات [...]. البديل بالنسبة إليّ هو أن آتي إلى فرانكفورت وأتحدث مع الطلبة أيضًا، أو ألا آتي. إذا ارتأيتَ أن الحل الأخير هو الأفضل، فالأمر بالنسبة إليّ حسن تمامًا، فربما نستطيع عندئذ أن نلتقي في الصيف في مكان ما في سويسرا، ونوضّح هذه الأمور. ولعل من الأفضل أيضًا لو أمكن في هذه الحالة أن يكون ماكس وهبرماس معنا. على أن توضيح الأمر بيننا ضروري"[72].

وبعد شهرين كتب: "أنت تكتب عن 'مصالح المعهد'. وهذا مرفق بتنبيه مفخَّم: 'إنه معهدنا القديم، هربرت'. لا، يا تيدي. المعهد الذي يقتحمه الطلبة

(71) وردت باللاتينية في النص: contradictio in adjecto. (المترجم)

(72) رسالة من ماركوزه إلى أدورنو، لاهويا، 5 نيسان/ أبريل 1969.

ليس معهدنا القديم. وأنت تعرف مثلي تمامًا كم هو جوهري الفرق بين عمل المعهد في الثلاثينيات وعمله في ألمانيا اليوم. والاختلاف النوعي لا يتأتى من تطور النظرية نفسها؛ فالمساعدات المالية التي تذكر كثيرًا أنها عارضة، هل هي عارضة فعلًا؟ أنت تعلم أننا متفقان في رفض أي تسييس فجائي للنظرية. لكن نظريتنا (القديمة) تتمتع بمضمون سياسي داخلي، وحركية سياسية داخلية، تلحّ اليوم أكثر من أي وقت مضى على موقع سياسي ملموس. وهذا لا يعني تقديم نصائح عملية، كما تتهمني في حديثك لمجلة **در شبيغل**. أنا لم أفعل هذا قط. ومثلك أجد أن من المعيب توجيه النصح بالعمل، انطلاقًا من المكتب، إلى أولئك المستعدين بوعي تام للتضحية بأنفسهم في سبيل القضية. غير أن هذا يعني، في رأيي، أن علينا - كي يبقى 'معهدنا القديم' - أن نكتب ونتصرف اليوم على نحو يختلف عما كنا نفعل في الثلاثينيات [...].

أنت تكتب لإدخال مفهوم 'البرود' بأنه كان علينا في حينه أيضًا أن نتحمل قتل اليهود من دون أن ننتقل إلى الممارسة، 'لأنها كانت، ببساطة، موصدة أمامنا'. نعم، وهي اليوم، على وجه الدقة، ليست موصدة في وجهنا. الفرق بين الحالتين هو الفرق بين الفاشية والديمقراطية البرجوازية. وهذه الأخيرة تقدم لنا أيضًا حريات وحقوقًا. لكن بالدرجة التي تمنع الديمقراطية البرجوازية (بسبب تناقضها المحايث) التغيير النوعي، وهذا من خلال العملية الديمقراطية البرلمانية نفسها، وتغدو المعارضة غير البرلمانية الشكل الوحيد 'للمنافسة': 'العصيان المدني'، أي الفعل المباشر. كذلك أيضًا لم تعد أشكال هذا الفعل تتبع النموذج التقليدي. وأنا، مثلك تمامًا، أدين كثيرًا من هذه الأفعال، لكنني أجد نفسي بها، وأدافع عنها في مواجهة خصومها، لأن الدفاع عن الوضع القائم والحفاظ عليه، والتكاليف التي يتطلبها من حيوات الناس، مخيفة أكثر بكثير. هنا يكمن بالتأكيد الاختلاف الأعمق بيننا. أن تتحدث عن 'الصينيين على الراين'، طالما أن الأميركيين موجودون على الراين، أمرٌ بالنسبة إليّ غير مقبول"[73].

(73) رسالة من ماركوزه إلى أدورنو، لندن، 4 حزيران/ يونيو 1969.

على الرغم من أن ماركوزه قد يكون محقًا في ما يتعلق بإخلاء المعهد وفي آرائه السياسية، فإن الوضع في ألمانيا الغربية وفي فرانكفورت لا يمكن أن يُفهم على نحو ملائم بمثل هذه الوسائل. في اتحاد الطلبة الاشتراكي، أصبح مطلب إضفاء الأداتية على العلم، أو حتى تقويضه، مقررًا، وكان نقل طاقة الاحتجاج إلى ثقافة تحتية نصف مسيَّسة، ومجموعات شيوعية منشقّة، سياسة زائفة على قدم وساق. كان هذا نتاج فشل الأنشطة السياسية لحركة الاحتجاج، ونتاج الجهود والخيبات المتصلة بمحاولة تغيير شيء ما في الجامعات بطريق مباشر. عندما انفجرت في نيسان/ أبريل 1969 محاضرة أدورنو الفلسفية "مدخل إلى الفكر الجدلي"، كان المسؤول عن ذلك نسوة في اتحاد الطلبة الاشتراكي أعلنّ تمردهن، وكنّ قد قمن بتشكيل مجلس نسوي في عام 1968، وكنّ من بين رواد الحركة النسوية. نفّس أحدهم، ويدعى الدكتور هانز مايز، عن غضبه وعن الحس الشعبي السليم، في رسالة كتبها إلى أدورنو بعد أن قرأ عن الحادثة في صحيفة *Die Welt* **(دي فلت)**، جاء فيها: "كنت أتمنى أن أرى كيف لاذ الأستاذ 'الجسور' بالفرار. فالطالبات أنزلن بكم الجزاء الذي تستحقونه أنت والأساتذة اليساريين. ثابر على ذلك، كي يأتي الانقلاب الجدلي أبكر وأعمق! الأستاذ هوركهايمر يعيش سلفًا في لوغانو [...] وأنت سيكون بإمكانك أن تقيم هناك، كي تنجو من التحوّل الذي سيأخذ مجراه في غضون بعض الوقت. وسوف تفيق ذات يوم أيضًا قلنسوات الحكومة الحالية النائمة. أرفض كلمة الساخر الوقح الذي يتمنى هتلرَ جديدًا، كي يؤمّن للأساتذة والطلبة اليساريين 'تذكرة مجانية' إلى الفرن. لكن مئات الألوف يتطلعون إلى إيقاف العبث الذي يسمّم الشباب، كما تمارسه أنت وزملاؤك".

بيد أن ردة الفعل لم تأت إلا في ما بعد. في البداية حصل شيء مفاجئ: فترة إصلاح، كان يُنظر إليها من ناحية بوصفها تأثيرًا لحركة الاحتجاج، وسرّعت، من ناحية أخرى، في تقليص حركة الاحتجاج، وأدت إلى تحويل التزامات الشباب باتجاه قنوات تقليدية من جهة، وإلى مقاومات ثقافية فرعية من جهة أخرى. في آذار/ مارس 1969 انتخب رئيسًا للجمهورية الاتحادية غوستاف هاينمان الذي كان قد استقال مرةً من منصب وزير الداخلية احتجاجًا على خطط أديناور في إعادة التسلح، وشارك في تأسيس حزب الشعب لعموم

ألمانيا الذي كان في حينه الحزب الوحيد الذي أيّد حياد ألمانيا. عند تقلّده منصبه في تموز/ يوليو، طالب بمزيد من الديمقراطية. بعد انتخابات البرلمان الاتحادي السادس في أيلول/ سبتمبر، تشكّل ائتلاف ليبرالي اجتماعي، مع فيلي برانت رئيسًا للحكومة، الذي وعد - مثل غوستاف هاينمان - بمزيد من الديمقراطية، وأعلن عبارة مفتاحية: "لا خوف من التجارب". عندما بدأ زمن الإصلاحات، على نحو مفاجئ مثل حركة الاحتجاج قبل بضع سنوات، كانت المنيّة قد وافت أدورنو. ففي السادس من آب/ أغسطس، توفي إثر إصابته باحتشاء عضلة القلب، في أثناء عطلة كان يمضيها في سويسرا (وبعد بضعة أشهر، في شباط/ فبراير 1970، أودى حادث سير بحياة المنظّر الأكثر أهمية لاتحاد الطلبة الاشتراكي؛ الاتحاد الذي ما عاد موجودًا عمليًا آنذاك، وحُلّ رسميًا بعد ذلك بمدة وجيزة). كان غريبًا كيف صادفت نهاية حركة الاحتجاج مع نهاية الشخص الذي خلق - وهو ما لم يفعل غيره - الأساس الثقافي ذا التأثير الطويل الأمد للحاجة التي غدت عصية على السيطرة إلى قيامة من "التأسيس الجديد".

هبرماس في الطريق نحو نظرية تواصلية للمجتمع - وصية أدورنو: نظرية إستطيقية قاعدةً لفلسفة في ظل وعد السعادة

"أنا لا أخجل على الإطلاق من القول علنًا إنني أعمل على كتاب ضخم في علم الجمال". هذا ما قاله أدورنو في مقابلة أجرتها معه مجلة **در شبيغل** بعد وقت قصير من تعطيل محاضرته في الفلسفة. كتاب النظرية الإستطيقية الذي لم يكتمل، وهو ثاني الثلاثية التي كان يُفترض أن يَعرض فيها ما كان عليه أن يقدمه، ويلقيه في كفة الميزان، أصبح وصيّته التي لم تلقَ، في البداية، اهتمامًا كافيًا في فترة التأثيرات اللاحقة للعواصف التي ضربت الفن، وحطمت تقاليده السائدة. حظي عملا هبرماس **المعرفة والمصلحة** و**التقنية والعلم كأيديولوجيا** اللذان صدرا في عام 1968 بنجاح أكبر وتأثير أقوى. كان **المعرفة والمصلحة** قد كُتِب بين عامي 1964 و1968، وأريد له أن يكون تمهيدًا، من المفترض أن يلحق به في جزءين تحليل تطور الفلسفة التحليلية. أراد هبرماس أن يقدم مدخلًا إلى

نظرية للمجتمع جديدة، لا تقوم على أرضية مثالية. فأعاد **المعرفة والمصلحة** بناء التاريخ الفكري للوضعية الجديدة (neueren Positivismus)، وحاول من طريق معرفي أنثروبولوجي الوصول إلى تسويغ نظرية نقدية للمجتمع. جعل هبرماس الكتاب موضوعًا لحلقة دراسية [سمينار] فلسفية في الفصل الدراسي الشتوي 1968/ 1969 حول "مشكلات نظرية المعرفة المادية"، حاول فيه الطلاب ممارسة المشاركة في تحديد الموضوعات والأسئلة؛ وقد انتقد الطلاب الكتاب على خلفية وقوعه في فخ أسئلة محايثة للعلم. قدم **التقنية والعلم** مقترحًا لتحليل العلاقة الاجتماعية التي نشأت فيها الوضعية، وأخذت وظيفة أيديولوجية، واستخلص من ذلك نتائج لتوضيح الشروط من أجل تثوير المجتمعات الرأسمالية المتأخرة. استمد الطلاب من هذا العمل على الفور شعار التقنية والعلم بوصفه قوة إنتاجية أولى.

كان **المعرفة والمصلحة** استمرارًا لتلك المقالات في **النظرية والممارسة** التي كانت تدور حول تحديد حالة النقد أو حالة النظرية الماركسية كشكل للمعرفة التي تتوضع بين الفلسفة والعلم، وكان أيضًا امتدادًا لمساهمات هبرماس في نزاع الوضعية، وكذلك لمحاضرته الافتتاحية حول [كتاب] **المعرفة والمصلحة**. كان الكتاب مقدمة، من طريق تاريخ المشكلة، لنظرية العلم النقدية التي اهتمت، خلافًا لنظرية العلم العلموية، بتطوير نظرية شاملة لجميع أنواع أشكال المعرفة المتميزة في جميع العلوم التي كانت توجد في المجتمعات الصناعية. كان الجديد، مقارنة بأعماله السابقة، يتمثل أساسًا في العرض الأكثر وضوحًا وتفصيلًا للعمليات في المجال الموضوعي الذي يعني العلوم ذات التوجّه النقدي. استعمل هبرماس مثال التحليل النفسي لتوضيح ذلك بدقة أكبر.

"تستطيع منهجية العلوم الطبيعية في مستوى تأملها الذاتي أن تكشف علاقة خاصة بين اللغة والفعل الأداتي، بينما تكشف منهجية علوم الروح [العلوم الإنسانية] مثل هذه العلاقة بين اللغة والتفاعل، وفي الحالتين، يمكن تعرّف هذه العلاقة بوصفها علاقة موضوعية، وتحديد دورها الترانسندنتالي. يعالج ما بعد علم النفس (Metapsychologie) علاقة أساسية أيضًا؛ أي العلاقة

بين تشوّه اللغة وعلم أمراض [باتولوجيا] السلوك. وهو يشترط في ذلك مسبقًا نظرية اللغة المتداولة التي تتمثل مهمتها في وظيفتين: الأولى توضيح الصلاحية البينذواتية[74] للرموز والتوسط اللغوي للتفاعلات على أساس الاعتراف المتبادل، والثانية فهم التكيُّف الاجتماعي في علم نَحْو ألعاب اللغة بوصفه عملية فردنة. ولأن بنية اللغة - وفق هذه النظرية - تحدد اللغة والممارسة الحياتية أيضًا، يمكن أيضًا فهم دوافع الفعل من حيث هي حاجات مفسرة لغويًا، بحيث لا تمثل الدوافع غرائز ملحّة تعمل من خلف ظهر الذاتية، بل تمثل مقاصد موجّهة ذاتيًا، ومتوسطة رمزيًا، وترتبط في ما بينها، في الوقت ذاته، تبادليًا.

إن مهمة علم النفس الماورائي أن يثبت أن هذه الحالة الطبيعية حالة حدية من بنية دافع تعتمد، في الوقت ذاته، على تفسيرات الحاجة المتواصلة في المجال العام والمقموع والخاص. تعمل الرموز المنقسمة والدوافع المكبوتة على تطوير قوّتها من فوق رؤوس الذوات، وتفرض الإشباعات التعويضية والترميزات البديلة [...]؛ فالرمز المنقسم لا يفقد تمامًا صلته باللغة العامة، لكن هذه الصلة النحوية تغدو كأنها خفيّة. إنها تحصل على قوّتها بتشويهها منطق الاستعمال اللغوي العام؛ إذ إن الرمز المكبوت يرتبط بمستوى النص العام وفق قواعد قابلة للفهم موضوعيًا، وناتجة من الظروف العارضة لتاريخ الحياة، وليس وفق القواعد البينذواتية المعترف بها. لهذا لا يكون إخفاء المعنى العرضي واضطراب التفاعل المطابق، بادئ الأمر، مفهومًا لا للآخر ولا للذات نفسها. فهي تصبح مفهومة في مستوى البينذواتية التي يتعيّن إنتاجها بين الذات بوصفها أنا (Ich) وبين الذات بوصفها هو (Es)، بحيث يخترق الطبيب والمريض معًا حاجز التواصل تأمليًا [...]، ويختفي بذلك التشويه اللغوي الخاص والإشباع التعويضي العرضي لدافع الفعل المكبوت الذي أصبح الآن في متناول الرقابة الواعية"[75].

---

(74) البَيْنذواتية (intersubjective) مصطلح يستعمل في الفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا للتعبير عن العلاقة النفسية بين الناس. (المترجم)

(75) Jürgen Habermas, *Erkentniss und Interesse*, pp. 311, 312 f.

حاول هبرماس استنادًا إلى التفسير النظري اللغوي لنظرية التحليل النفسي لنشوء الأعراض ومعالجتها، باعتبارها عملية نزع وإعادة ترميز، المستلهم من ألفرد لورنتسر، زميل هبرماس من فرانكفورت، أن يستمد أيضًا من فرويد نظرية نشوء المؤسسات والأيديولوجيات وتحلّلها. "فهم فرويد المؤسسات، بوصفها سلطة بادلت العنف الخارجي الحاد مقابل القسر الداخلي الدائم لتواصل مقلوب ومقيّد لذاته. وهو يفهم الموروث الثقافي على نحو مطابق، بوصفه اللاوعي الجمعي المراقَب على الدوام والمقلوب نحو الخارج، حيث تُوجِّه الرموزُ المحاصرة الدوافعَ التي يشطرها التواصل، لكنها تندفع بنشاط على طرق إشباع افتراضي. إنها القوى التي، بدلًا من الخطر الخارجي والعقاب المباشر، تستولي على الوعي عبر إسباغها الشرعية على السلطة. وهي في الوقت ذاته القوى التي يمكن أن يتحرر منها الوعي المأسور أيديولوجيًا، من خلال التأمل الذاتي، عندما يطعن إمكان جديد في الهيمنة على الطبيعة، بصدقية مشروعيات قديمة"[76]. نتيجة لذلك، كان الهدف بالنسبة إلى فرويد هو "التأسيس العقلاني لتعاليم الثقافة"، وهو تصوّر أعاد هبرماس صوغه بوصفه "تنظيمًا للعلاقات الاجتماعية، وفق مبدأ يربط صدقية أي معيار غني بالنتائج سياسيًا بإجماع يتحقق في تواصل خال من الهيمنة"[77].

على هذا النحو، تمّ بلوغ نقطة الالتقاء مع تحليل هبرماس الذي يتمثل في أن نظام الهيمنة الراهن يعتمد على استبعاد الأسئلة العملية من المجال العام غير المسيَّس، وأن حركة الاحتجاج قد أصابت بإصرارها على المشاركة في النقاش العام حول كيفية إجراء حياة مستحبة النقطة الضعيفة في نظام الهيمنة هذا. "الأيديولوجيا الجديدة[78] تنتهك [...] مصلحة تُلازم أحد الشرطَين الأساسيين لوجودنا الثقافي؛ أي المصلحة في لغة، أو بدقة أكثر، في شكل الجمعنة والفردنة الذي يتحدد من خلال التواصل عبر اللغة المتداولة. وتمتد هذه المصلحة إلى الحفاظ على التفاهم البينذواتي، وإلى إنتاج تواصل خال من الهيمنة. ويجعل الوعي التكنوقراطي هذه المصلحة العملية تتوارى وراء توسيع قدرتنا التقنية"[79].

---

(76) Ibid., pp. 341 f.

(77) Ibid., p. 344.

(78) أي الوعي التكنوقراطي.

(79) Jürgen Habermas, *Tecknik und Wissenschaft als 'Ideologie'*, p. 91.

لا ريب في أن التأسيس الأنثروبولوجي المعرفي لنظرية نقدية للمجتمع قد جلب معه سلسلة من المشكلات، نذكر من بينها التوتر بين افتراض ذات نوع موحدة وتأسيس المصلحة المعرفية العملية والتحررية في البنى البينذواتية. كما ينتمي إليها أيضًا عدم التماثل بين مصلحة معرفية تقنية وعملية من ناحية، والتي كانت قيمتها الأساسية لإعادة إنتاج النوع الإنساني بادية للعيان، ومصلحة معرفية تحررية تهتم بما هو أكثر من إعادة الإنتاج والحفاظ على الذات، أي بحياة إنسانية حرة وكريمة. إذا كان يفترض أن تُعدّ "مصلحة العقل في التحرر والاستقلال الذاتي للسلوك والتحرر من الدوغمائية"[80] من أسس إعادة إنتاج نوع إنساني، ألا ينبغي أن يكون لها عندئذ تأثير ما في المصلحة المعرفية التقنية والعملية؟

ردّة فعل هبرماس على هذه وغيرها من المشكلات كانت إحلال مشروع نظرية نقدية للمجتمع قائمة على أساس نظري تواصلي محل محاولة تأسيس أنثروبولوجي معرفي وانطلاقة أنثروبولوجية معرفية لنظرية نقدية للمجتمع. وهو، في جعله حديث الناس وسلوك واحدهم تجاه الآخر حقيقة ينطلق منها، حاول أن يُدلّل على أن التطلع إلى تواصل غير مشوّه كان شرط إمكان الفعل التواصلي، أي الفعل الذي يهدف إلى تحقيق التفاهم. تلقّى هبرماس من الصديق والفيلسوف كارل أوتو أبِل مقترحات أساسية تشير إلى هذا؛ فالحالات التي ظهرت بمظهر مثالي في إطار براغماتية شاملة، بوصفها شروط إمكان تواصل لغوي، ينبغي أن تكوّن المعايير التي لا تسمح بعد الآن بتسويغ النقد القائم على التقاليد التاريخية. وسيكون عندئذ بمقدور النظرية النقدية أن تواجه العملية الحياتية الواقعية للمجتمع بالمظاهر المثالية الضرورية للحياة. بعد بضع سنوات، وردت في مجلد **مشكلات المشروعية في الرأسمالية المتأخرة** الصياغة الواضحة لوجهة النظر المسوّغة من المنظور البراغماتي الشامل عن نظرية نقدية للمجتمع والتاريخ. "كيف يمكن أن يفسّر أعضاء نظام اجتماعي، في حالة معلومة من تطور القوى الإنتاجية، حاجاتهم على نحو جمعي مُلْزِم، وما المعايير التي كان يمكن أن يقبلوا بها مسوّغًا، لو استطاعوا أو أرادوا تنظيم

(80) Jürgen Habermas, "Dogmatismus, Vernunft, und Entscheidung," in: *Theorie und Praxis*, p. 233.

التعامل الاجتماعي، من خلال تكوين إرادة استدلالية بمعرفة وافية للشروط المحددة لمجتمعهم وأوامره الوظيفية؟"[81].

التقنية والعلم كـ "أيديولوجيا" كان استمرارًا للنقاش حول اضمحلال الرابط بين التقنية وعالم الحياة الاجتماعية الذي كان حاضرًا في تحليلات هبرماس الأولى عن باتولوجيا العالم الحديث، وعن التنوير المشوَّه، تلك التحليلات التي جمع فيها هبرماس - تلميذ روتاكر وتلميذ هايدغر بطريقة ما أيضًا - نوعًا مركّبًا من الدوافع. حاول هبرماس أن يحدد، بأسلوب أكثر دقة من ماكس فيبر وهربرت ماركوزه، الظاهرة التي بمقتضاها كان الشكل العقلاني للعلم والتقنية - أي العقلانية المتجسدة في أنساق من الفعل العقلاني الغائي - يتمدد ليصبح الكلية التاريخية لشكل حياة. فسّر فيبر الحدث بوصفه عملية عقلنة توازي عملية "نزع الأسطرة" عن التقاليد؛ في حين سعى ماركوزه إلى تحديده مفهوميًا بوصفه دمجًا للتقنية والسلطة.

ما يميّز التقنية، بوصفها سلطة، هو تمتّعها بناحية أساسية تتمثل في أن السلطة تبدو منيعة باكتسابها شكل العقلانية العلمية والضرورة التقنية. إذا كانت النظرية الماركسية قد رأت يومًا في قوى الإنتاج العامل الذي يفجّر قيود علاقات الإنتاج المتقادمة، فإن العلم والتقنية - وقد أصبحا القوة الإنتاجية الأولى - يبدوان، في غضون ذلك، بوصفهما دعامتَي علاقات الإنتاج السائدة. اتخذت الملاحظة القديمة للنظرية النقدية التي ترى أن شكل المجتمع الرأسمالي يواصل عمله مهما بلغت التضحيات، ولهذا يشعر معظم أعضاء المجتمع أنهم مرتبطون بالنظام القائم أكثر من ارتباطهم بإمكان مجتمع أفضل، هذه الملاحظة اتخذت، لدى ماركوزه، شكل التشخيص المثبّط بأن التقدم العلمي التقني لا يسوّغ علاقات الإنتاج السائدة، لأنها مشروعة وظيفيًا فحسب، بل لأنها تقوم هي ذاتها على السلطة.

خلافًا لفيبر وماركوزه، لم يدرك هبرماس صيرورة عقلانية العلم والتقنية الآيلة إلى كلية تاريخية، بوصفها عملية حتمية تُسوِّغ نفسها، بل أدركها بوصفها عملية تزيد حدة المشكلة أيضًا. وسعيًا منه لتقديم خلفية لهذا الموضوع، قدّم

(81) Jürgen Habermas, *Legitimationsprobleme im Spätkapitalismus*, p. 156.

هبرماس مخطط تاريخ تطور اجتماعي، تقوم فكرته الرئيسية على أن مشكلة توزيع الثروة والسلطة كانت شرعية رغم أنها لم تكن عادلة. في المجتمعات التقليدية، كانت تُحَلّ هذه المشكلة من خلال ترافق السلطة السياسية مع صور العالم التي تعطي أيضًا أولئك الذين عليهم أن يقمعوا حاجاتهم أكثر من اللازم، إحساسَ المشاركة في شكل حياة يوفر القدر الأكبر من التعايش الكريم. في النظام الرأسمالي، يتحرر الاقتصاد والتقنية والعلم إلى حد بعيد من ارتباطهم بإطار سلطة سياسية تمثله صور عالم تقليدية، وتصبح أيديولوجيا التبادل الحر والعادل - تلك الأيديولوجيا التي نُزِع السحر عنها، لكنها لا تزال تسترشد بحياة مشتركة جيدة - المشروعيةَ الحاسمة. في نظر هبرماس، كان هناك اتجاهان مقرران في الرأسمالية المتقدمة: نمو عمل الدولة التدخلي بهدف ضمان نظام مجتمع يغدو أقل تطابقًا مع أيديولوجيا التبادل الحر والعادل ومثقلًا بالأزمات، وتطوّر العلم والتقنية إلى قوة الإنتاج الأولى. بعد تقويض الأشكال التقليدية للمشروعية، سُحبت الأرضية أيضًا من الأيديولوجيات البرجوازية، بينما ازداد تمدد "الأنظمة التحتية للفعل العقلاني الهادف" وتعقيدها. سعت الدولة المتدخلة لتحقيق حاجتها إلى المشروعية من خلال "البرمجة التعويضية"، أي من خلال المحافظة على نظام قَدَّم الأمن الاجتماعي، وفرص الارتقاء إلى الأعلى بالتناسب مع الإنجازات. وكي تستطيع أن تضمن ذلك إلى حد ما، وترعى ولاء الجماهير وإخلاصها حيال شكل المجتمع الرأسمالي، كان لا بد من وجود حيّز ضخم للتلاعب والتحكّم للتدخل الحكومي الذي يوغل في تدخّله عميقًا في الحياة الاجتماعية والخاصة. وهذا ما جعل، من جديد، الحاجة إلى المشروعية أكبر.

تمثلت المشكلة التي نتجت في جعل مواطني ديمقراطيةٍ ما يقتنعون بتجنُّب النقاش العام حول أهداف عملية، وبتوجّه فعل الحكام نحو حل المسائل الإدارية والتقنية حصرًا. استفاد الحكام من حقيقة أن النمو الضخم، من حيث الاتساع والتعقيد، للاقتصاد والتقنية والعلم، جعل من اليسير خلق الانطباع بأن القوانين المحايثة لهذه المجالات تنتج ضرورات يتعيّن على السياسة أن تخضع لها، كي تتمكن من تحقيق برنامجها البديل. وكما لم تكن، بالنسبة إلى نظرية العلم العلموية، مشكلة على الإطلاق في تنحية بُعْد الأسئلة

العملية والأهمية التربوية من العلوم، كذلك أصبح الوهم التكنوقراطي مسوّغًا، يبرر للجماهير غير المسيَّسة عدم تسييسها واستبعادها من عمليات صنع القرار التي لها تداعيات على المجتمع كله.

يبيّن كتاب **التقنية والعلم كـ "أيديولوجيا"** أن الوعي التكنوقراطي أقل أيديولوجية من سائر الأيديولوجيات السابقة، ومن ثم أكثرَ خطرًا في الوقت ذاته؛ إذ ما عاد من الممكن إرجاعه إلى شكل أساسي للتفاعل المنصف الخالي من علاقات السيطرة. "ما ينعكس في الوعي التكنوقراطي ليس انفصالًا لعلاقة أخلاقية، وإنما كبت 'الأخلاقية' بوصفها خاصية العلاقات الحياتية عمومًا. يعطّل الوعي الوضعي المشترك النظام المرجعي للتفاعل باللغة المتداولة الذي يمكن أن تنشأ فيه السيطرة والأيديولوجيا تحت شروط تواصل مشوَّه، وتنكشف من خلال عملية تأملية أيضًا. إن نزع تسيُّس الجماهير الذي يجد مشروعيته من خلال وعي تكنوقراطي هو، في الوقت ذاته، إسباغ ذاتي للموضوعية على الناس في خصائص متشابهة مع الفعل العقلاني الهادف والسلوك المتكيّف؛ إذ تجد النماذج المجسِّدة للعلوم طريقها إلى عالم الحياة الاجتماعي الثقافي، وتكتسب سلطة موضوعية فوق الرؤية التي تمتلكها الإنسانية عن نفسها. يكمن الجوهر الأيديولوجي لهذا الوعي في إلغاء التمييز بين الممارسة العملية [البراكسيس] والتقنية؛ إنه صورة مرآوية - وليس المفهوم - لنموذج جديد من العلاقات بين إطار مؤسساتي مجرد من السلطة من ناحية، ونظام فعل عقلاني هادف مستقل من ناحية أخرى"[82].

في **التقنية والعلم كـ "أيديولوجيا"**، قدّم هبرماس على نحو مفاجئ البديل لهذا التحليل الذي لم يتخلّف عن التشخيصات السوداء لـ **جدل التنوير** **والإنسان ذو البعد الواحد**، وموضوع "العالم المسيَّر": "لا يمكن أن تتحقق العقلنة على مستوى الإطار المؤسساتي إلا في وسط التفاعل ذاته المتوسط لغويًا، أي من خلال إزالة حواجز التواصل. فالتواصل العام غير المقيَّد والخالي من علاقات السيطرة في ما يخص ملاءمة المبادئ والمعايير التي توجّه الفعل والرغبة فيها، في ضوء الانعكاسات الاجتماعية الثقافية لفروع الأنظمة

(82) Habermas, *Technik und Wissenschaft*, pp. 90 f.

المتقدمة للفعل العقلاني الهادف، هذا النوع من التواصل، على جميع مستويات العمليات السياسية وعمليات إعادة تكوين الإرادة سياسيًا، هو الوسط الوحيد الذي يكون فيه شيء مثل 'العقلنة' أمرًا ممكنًا"[83]. فالحركة الطلابية، من حيث هي قوة احتجاج تضغط من أجل تسييس المجال العام المجفَّف، لم تظهر بعد، على الإطلاق، كمؤشر على عملية تسببت فيها الرأسمالية المقوننة حكوميًا بتفاقم مشكلات يتعسر عليها حلها.

فضلًا عن ذلك، لم يشدّد هبرماس في النزاع مع نيكلاس لومان إلا على أن نموذج التشريع الجديد يتغذى من دفاع بديل، يلحّ في مجتمعات مركّبة على الأيديولوجيات التي أصبحت مطعونة في صدقيتها، سواء أكانت من أصل برجوازي أم حتى ما قبل برجوازي. "البديل الذي يرتسم هو التحويل الديمقراطي لجميع العمليات الحاسمة التي لها نتائج على المجتمع برمّته، تلك العمليات التي ستظهر أول مرة في تاريخ العالم بديلًا من الشرعنة، بمعنى التسويغ، وتسمح بمحاسبة الصلاحية الشرعية لمعايير الفعل لتقبلها أو ترفضها استدلاليًا"[84]. اعتقد هبرماس في [كتاب] **مشكلات المشروعية في الرأسمالية المتأخرة** (الصادر في عام 1973) أنه اكتشف أكثر من مجرد نقطة ضعف الرأسمالية المنظَّمة حكوميًا. "بناء عليه، ثمة حد نسقي لمحاولات تسوية عيوب المشروعية، من خلال حالات التلاعب والتحكم الموجّهة، يكمن في عدم التماثل البنيوي بين مجالات الفعل الإداري والموروث الثقافي. بالطبع، لا يمكن تركيب حجة أزمة من هذا إلا بالارتباط مع وجهة النظر الأخرى التي تفيد بأن توسع نشاط الدولة يفضي إلى نتيجة جانبية، تتمثل في زيادة غير ملائمة في الحاجة إلى المشروعية. إنني أعتبر أن زيادة غير ملائمة أمر محتمل، ليس لأن اتساع القضايا الإدارية يجعل إخلاص الجماهير ضروريًا للوظائف الجديدة لأنشطة الدولة فحسب، بل لأن حدود النظام السياسي إزاء النظام الثقافي تنزاح في إطار هذا التوسع. في هذا الوضع، تدخل البدهيات الثقافية التي كانت سابقًا شروطًا حدية للنظام السياسي، في مجال تخطيط الإدارة. على هذا النحو تصبح الموروثات موضوعات، وهي التي كانت ممنوعة على البرنامج العام

---

(83) Ibid., p. 98.

(84) Jürgen Habermas & Niklas Luhmann, *Theorie der Gesellschaft oder Sozialtechnologie*, pp. 265 f.

والخطابات العملية"[85]. لكن ما إن تستخدم التقاليد الثقافية استراتيجيًا حتى تفقد قواها التي لا يمكن المحافظة عليها إلا من خلال الاستيعاب النقدي للتقاليد، طالما أمكن إثبات مزاعم صدقيتها من خلال الاستدلال.

"على جميع المستويات، يُنتِج التخطيط الإداري من دون قصد تأثيرات مقلقة ودعائية، تُضعِف قوة تسويغ التقاليد التي أُقصيت عن مسار تطوّرها الطبيعي. وعندما تتحطم صدقيتها، لا يمكن استقرار مزاعم الصدقية أن يتم إلا عبر النقاشات الحيوية. لذلك تتطلب بلبلة البدهيات الثقافية تسيُّس مجالات الحياة التي يمكن أن تعصف حتى ذلك الحين بالمجال الخاص، لكن هذا يعني خطرًا على نزعة الخصوصية الأهلية المضمونة بصورة غير رسمية عبر بنى المجال العام. وبناء عليه، تكون تطلعات المشاركة والنماذج البديلة، في المجالات الثقافية على وجه الخصوص كالمدرسة والجامعة والصحافة والكنيسة والمسرح ودور النشر وسواها، مؤشرًا شأنها شأن العدد المتزايد من مبادرات المواطنين"[86]. بدا أن سياسة قائمة على موقف خفيّ للبنية الطبقية يهدم أساسها الخاص، لأن القضاء على الموروثات الثقافية وتقليص مغزاها اللذين ينجمان عن التدخلات المتزايدة للدولة في المجال الثقافي-الاجتماعي لا يمكن استبدالهما، بصورة غير محدودة، من خلال تعويضات اجتماعية وقيم قابلة للاستهلاك. وبذلك انتهى تحليل هبرماس للرأسمالية المتأخرة إلى إعادة صياغة أكثر دقة لفكرة قديمة للنظرية النقدية، بحيث يخنق التحويل الاجتماعي الكلي أساسه. قام هبرماس، مستندًا إلى التمييز بين التقنية والممارسة العملية، التمييز الذي صار في ما بعد تمييزًا بين النظام والعالم المعيش، بمحاولة لربط نقد المجتمع للنظرية النقدية القديمة بنظرية أزمة أعفت النظرية النقدية من تأثيراتها المحبطة.

انتقد هبرماس حركة الاحتجاج بشدة، انطلاقًا من الأهمية التي أسبغها على الحركة في تفسيره. وبيّنت له الحركة، من جديد، الاتجاه الذي أعاد فيه بدقة أكبر ضبط التمييز بين التقنية والممارسة العملية، وربطه بميول اجتماعية راهنة، دلّته عليه حركة الاحتجاج. خلص منها ومن أشكال استمرارها

---

(85) Habermas, *Legitimationsprobleme im Spätkapitalismus*, pp. 100 f.

(86) Ibid., p. 102.

المتنوعة - مجموعات محلية على مستوى القاعدة، واحتلال البيوت، والحركة البديلة، والحركة النسوية، وشتى ضروب مبادرات المواطنين - إلى أن هناك أسبابًا وجيهة تدعو إلى افتراض وجود عقلانية معاندة في البُعد العملي، وأن الأمر يتوقف على تعزيز هذا الشكل المميَّز من العقلانية وتقويته، عبر التعاون بين النظرية النقدية للمجتمع، والاحتجاج ضد الإصلاحات التكنوقراطية.

كانت نبرة التحدي واضحة في تصريحات أدورنو في مقابلة مجلة **در شبيغل** في أيار/ مايو 1969، عندما أقرّ بالبرج العاجي، وبالعمل على مؤلَّف في علم الجمال، كما لو كان في الحقيقة شيئًا لا يتأثر كليًا بأحداث السنوات الأخيرة. لكن، ألم يكن هنالك فعلًا تغيير وإعادة تحديد لمفهوم الموسيقى غير النظامية، والأدب غير النظامي، والفلسفة والمجتمع لدى أدورنو في أعقاب حركة الاحتجاج؟ هل كان لدى أدورنو عناصر أقل منهجية، وربما أقل تنظيمًا، مما هي عليه عند هبرماس، عالجت الخبرات الراهنة، "ممتلئة بالرغبة في تقديم حساب عن الفن وإمكاناته اليوم"[87]، في وقت كانت الثورة الثقافية وإلغاء الفن مطروحَين على جدول الأعمال حتى في داخل صناعة الثقافة؟

بدأ **الجدل السلبي** بعبارة: "الفلسفة التي بدا يومًا أنه تم تجاوزها، بقيت في قيد الحياة، لأن لحظة تحققها قد فُوِّتت". وعلى نحو مماثل، جاء في كتاب **نظرية إستطيقية**: "في اللحظة التي يُحظر فيها، ويصدر الحكم بأنه لم يعد له الحق في الوجود، يستعيد الفن داخل العالم المسيَّر حقَّه في الوجود الذي يُعَدّ إنكاره بالذات عملية تسيير"[88]. على أن عواصف الفن التي اندلعت إبان الحركة الطلابية، والتي تُعزى إلى التداعيات الغربية لـ "الثورة الثقافية" الصينية، وإلى التقاليد الدادائية والسريالية، وإلى نقد ماركوزه الموجَّه إلى "الطابع الإيجابي للثقافة" في مقالته في عام 1937، وإلى مقالة بنيامين عن العمل الفني الصادر في العام الذي سبق، وإلى أعماله الأخرى التي تعود إلى الثلاثينيات، أخافت أدورنو، لأنه يعتبرها محاكاة ساخرة لتعالي الفن، وإلغاءً للفن المسكون مباشرة بوهم التغييرات المهمة المحتملة الذي يقوّض الفرص للتحويل الجذري للفن.

---

(87) Theodor W. Adorno, *Offener Brief an Max Horkheimer*, *Die Zeit* (12 February 1965).

(88) Theodor W. Adorno, *Ästhetische Theorie*, p. 373.

لم يفهم أدورنو قط لماذا كان النقد يوجَّه، منذ عام 1967، إلى إصداره أعمال بنيامين في الخمسينيات، ولماذا اتُّهم باختلاس بنيامين المادي المدافع عن دور الفن الحاسم في الصراع الطبقي. كان بنيامين "الماركسي" يبدو لأدورنو دومًا شيئًا غير بنياميني، لا يمكن تفسيره إلا من خلال تأثير بريخت، وشيئًا معاديًا للفن لا يلائم بنيامين.

بعد عاطفة التنوير غير المنقطع في المساهمة المبكرة في **مجلة الأبحاث الاجتماعية**، لجهة الموسيقى التنويرية التي أنجزت في مجالها السيطرة التامة على الطبيعة، بوصفها تحريضًا للمجتمع غير التنويري؛ وبعد وضع الآمال في العنصر البربري الذي أعيد إحياؤه في سلّم شونبرغ الاثني عشري الذي عاد إلى الانتظام في **فلسفة الموسيقى الجديدة**؛ وبعد الريبة حيال التطور التسلسلي في حقبة ما بعد الحرب في **تقادم الموسيقى الجديدة**؛ وعقب المطالبة بالثورة الموسيقية بعد التسلسلية في **نحو موسيقى غير نظامية**، كان كتاب **نظرية إستطيقية** خلاصة دافعت - كما لم تفعل أي نظرية أخرى في الفن بعد الحرب - عن مشروع الفن الحديث في حقبة بدا أن العصر البطولي للفن الحديث قد ولّى إلى غير رجعة. لكن ما الذي كان يعنيه هذا؟ هل رأى أدورنو في نهاية الستينيات تقدمًا يتخطى مدرسة شونبرغ أو جويس أو بيكاسو، أو أي تحقُّق لفن حر أصيلٍ صار ممكنًا حتى من خلال تحرر أكثر جذرية من التقاليد؟ ما الآفاق التي فُتِحت أمام الفنان المعاصر من خلال أدورنو؟ كيف أنجز أدورنو فوضى المعايير الممكنة التي كان قد أدخلها حتى ذلك الحين لتقويم الأعمال الفنية: النوعية، ودرجة التقدم التقني، والخاصية المميزة مقارنة بكل التقاليد الموروثة، وغنى المعنى؛ أي في القصائد والمقطوعات الملحّنة والرسوم، والمضمون الفلسفي التاريخي، ومضمون الحقيقة، والمعارضة التي غدت شكلًا، ودرجة الحرية؟ هل دفعت حركة الاحتجاج أدورنو - وإن لم يقرّ بذلك - إلى فهم معدَّل للحالة الكلية لمجتمع الرأسمالية المتأخرة، وعلى نحو ملائم أيضًا إلى رؤية معدَّلة للفرص والمخاطر التي كانت قائمة بالنسبة إلى الفن الذي يتطابق، على نحو يصعب التكهّن به، مع الحالة الكلية الاجتماعية؟ هل كان يمكن أن يكون كتاب **نظرية إستطيقية** نوعًا من التصحيح ضد التطلعات الثورية الثقافية الطائشة لحركة الاحتجاج، وتعزيزًا لنقد تحييد الثقافة الثاوي فيها؟

تشهد الإجابات التي قدّمها أدورنو عن تساؤلات كهذه على حماسته للفن الحديث عمومًا، وعلى حيرته وارتباكه حيال الفن الحديث الأكثر جدّة، وعلى تفهّمه للمراحل المحبطة في تطور الفن، وتركيزه على طريق التقدم في الفن الذي يفضي تمامًا إلى نتائج محبطة ومخيّبة للآمال. وبالتشابه مع الفكرة الأساسية في أعماله الفلسفية بالمعنى الضيّق للكلمة - أي الموضوع الذي يقضي بوجوب ألا يُسمح بتاتًا للعنصر المجرَّد بالانفصال كليًا عن العنصر الذي جُرّد منه - بيّن أدورنو أن سر الآثار الفنية الحديثة المقنِعة، يكمن في حقيقة أنها لم تتحرر كليًا مما كانت تلغيه. وورد في فقرة أساسية من المبحث المعنون "الفن وما هو غريب عن الفن": "فالطبقة قَبْل الفنية للفن هي في الوقت ذاته تذكار خاصيته المضادة للثقافة، وارتيابه في أطروحة نقيضه إزاء العالم التجريبي التي تترك هذا العالم على ما هو عليه في طُمَأنينته. لذلك تسعى الآثار الفنية المهمة إلى أن تضم إليها تلك الطبقة المعادية للفن. وحين تغيب تلك الطبقة لريبة أنها صبيانية، يكون الفن قد خضع واستسلم، وحيث يعوز موسيقيّ الحجرة الروحاني الأثرُ الأخير لعازف الكمان واقفًا، أو حيث يعوز الدراما التي خاب ظنُّها الأثرُ الأخير لسحر كواليس المسرح. حتى بالنسبة إلى **نهاية لعبة** لصامويل بيكيت، يبقى رفع الستارة زاخرًا بالوعود؛ فالمسرحيات وأشكال الإخراج المسرحي التي تُسقِط رفع الستارة تقفز بخدعة قاصرة فوق ظلالها؛ ذلك أن اللحظة التي ترفع فيها الستارة هي لحظة انتظار للظهور. وإذا كانت مسرحيات بيكيت، في التشاؤم الذي يشبه ما يعقب غروب الشمس ونهاية العالم، تأمل طرد الألوان المتنافرة للسيرك، فإنها تبقى مع ذلك مخلصة له، من خلال كونها تحدث على المسرح. ونحن نعرف جيدًا أنها تستلهم كثيرًا أبطالها المضادين من المهرّجين، ومن سينما الغروتيسك. وهي لا تتخلى بتاتًا عن الملابس والأروقة الخلفية [...]. وعمومًا يبقى موضع تساؤل، إن كانت معظم الأعمال الأكثر تجريدًا في الرسم لا تزال تتضمّن، من حيث موادها وتنظيمها البصري، بقايا موضوعية تتسبب في إلغائها"[89].

---

(89) Ibid., pp. 126 f.

[أشير هنا إلى أنني آثرت نقل جميع اقتباسات كتاب **نظرية إستطيقية** الواردة في هذا الفصل عن الترجمة الرائعة للدكتور ناجي العونلي (الصادرة عن منشورات الجمل، 2017) مع تعديلات طفيفة]. (المترجم)

أما السؤال: فيمَ رأى أدورنو تفسير عظمة بيكيت، فكان في نظره، في الوقت ذاته، علامة لذروة الفن السابقة، أي الأعمال المتأخرة لفناني ما قبل الحداثة. "من دون ذكرى التناقض واللاتطابق، لن يكون التناغم جماليًا ذا وزن [...]؛ فالمرء لا يكاد يعمم بصورة لائقة، من منظور تاريخ الفلسفة المتباين جدًا، حين يشتقّ الحركات المضادة للهارمونيا عند ميكيلانجلو، ورمبرانت المتأخر، وبيتهوفن الأخير، من دينامية مفهوم الهارموني نفسه، بل يستنتج من ذلك، أخيرًا، قصوره، بدلًا من تفسيرها بناء على تطور ذاتي مشحون بالألم؛ ذلك أن النشاز هو حقيقة الهارمونيا. وإذا أُخِذ بصرامة، تبيّن أنه لا سبيل إلى إدراكه تبعًا لمعياره نفسه. فلا وفاء بما يقتضيه الانسجام إلا حين يظهر أن عدم قابلية إدراكه هذا جزء من الماهية، كما هو الحال في ما يدعى الأسلوب المتأخر لأعلام الفنانين"[90]. هناك إذًا عنصران أحدهما وثيق الارتباط بالآخر كانا يميّزان، في نظر أدورنو، الفن الحديث العظيم: الهشاشة المتزايدة للظاهر الجميل المتبقي، وانفتاحه عبر ذلك على ما كان يومًا مستبعدًا. حيثما اجتمع هذان العنصران فعليًا، امتلك الفن الحديث جمالًا مرًّا، وسوداوية كفاحية. "ما تعتبره المتعية الجمالية التي صمدت أمام الكوارث في فرضية المظلم والسوداوي - كما رفعها السرياليون، بوصفها سخرية سوداء، إلى مصاف المنهجية - انحرافًا، هو حقيقة أنه يُنتظر من أشد لحظات الفن سوداوية أن تستثير نوعًا من اللذة. وهذا يدل على أن الفن والوعي الصحيح به لا يجدان سعادتهما إلا في القدرة على الثبات. فهذه السعادة تشع من الداخل على الظهور الحسي. ومثلما ينتقل أيضًا روح الآثار الفنية إلى أكثر الظواهر هشاشة، وكأنه يخلّصها حسيًا، كذلك لا يزال للمظلم والسوداوي منذ بودلير جاذبية حسية هي نقيض الواجهة الخداعة والحسية للثقافة. هنالك متعة في النشاز أشد من تلك التي في التناغم: وهذا ردّ بالمثل على المتعية. فالحاسم يحتد ديناميًا، ويتميز في ذاته ومن أحادية الإيجابي ويصبح جاذبية. هذه الجاذبية، وهي لا تقل عن النفور من الحماقة الإيجابية، تقود الفن الجديد إلى أرض بلا إنسان، بديلًا من الأرض العامرة بالسكان. لقد تحقق هذا البعد أول مرة في 'بييرو في ضوء

(90) Ibid., p. 168.

القمر' لشونبرغ، حيث تتحد الماهية الخيالية بجملة النشاز على نحو التبلّر؛ لأن السلبي أمكن أن يتحول إلى متعة، لكنه لا يتحول إلى إيجاب"[91].

في أي حال، لم يكن بيكيت وسيلان - وهما الوحيدان من بين فناني عصره اللذين اعترف بهما أدورنو من غير تحفظ، مع أسسهما اللذّوية التي ترفض الأشكال القديمة، ومع شعرية نصوصهما التي تضاعفت من خلال إدخال المكبوت، وفق مقياس أدورنو الفلسفي التاريخي - لم يكونا فنانَين معاصرَين لأدورنو، بل معاصرَين لشونبرغ وبيكاسو وجويس، أي معاصرَين للحداثة البطولية. لكن المعاصرين الفعليين لأدورنو وقفوا بوصفهم الأكثر تقدمًا والأفقر، ولم يكن لديه ما يقوله لهم أكثر من أنهم يفتقرون إلى غنى الذرّة البيكيتية، وأن الفن قد بلغ لديهم على ما يبدو نهاية، بحيث يجب عليهم منطقيًا أن يواصلوا العمل. "والتطور الأخير للفن إنما يكمن جديدُه النوعي في أن الفن يريد انطلاقًا من حساسيته تجاه التوافقات التخلص منها باعتبارها مرفوضة. إنه في الحقيقة نفيُ نفي محتوم، وانتقال مُرضٍ إلى إيجابية جديدة، وغياب للتوتر الذي يسِم الكثير من لوحات وموسيقى عقود ما بعد الحرب. الإيجابية الكاذبة هي الموضع التكنولوجي لفقدان المعنى وضياعه. ما كان في العصور البطولية للفن الجديد، قد أُدرِك على أنه معناه، كان يتماسك بعناصر النظام منفية نفيًا متعينًا؛ وتصفية هذه العناصر لا تتعدى مفعول المطابقة الخاوية التي تُعرَّى من كل احتكاك"[92]. و"سيتعيّن أن يفضي التطور إلى تقوية تابو اللذة الحسية، على الرغم من أنه يعسر، في بعض الأحيان، الحسم في تحديد مدى تعليل هذا التابو بقانون الشكل، بل بمجرد نقص في المهنة [...]. في نهاية المطاف، يتجاوز تابو اللذة الحسية ذلك، ويفضي إلى ضد ما هو ممتع ومرض، لأنه لا يمكن استشعاره أيضًا في نفيه تخصيصًا، وإن بكيفية قصية. في شكل ردة الفعل هذا يقترب النشاز كثيرًا من عكسه، أي من المؤالفة والتلاؤم، ويصير هشًا أمام ظاهر الإنساني الذي هو أيديولوجيا اللاإنسانية، ومن ثم يميل إلى جانب الوعي

(91) Ibid., pp. 66 f.

(92) Ibid., p. 238.

المشيَّأ. ويتجمد النشاز في مواد سيانية، أي في شكل جديد من اللاتوسيط، يخلو من أي أثر لذكرى مصدره، لكنه يبقى إزاءه أصمّ وبلا نوعية"[93].

لكن إذا لم تؤدِّ تصفية المادة الفنية من رواسب الماضي - وهو ما رحّب به أدورنو في [كتاب] **نحو موسيقى غير نظامية** - إلى زيادة حرية الفن في موضوعه، وزيادة قوّته لكسر "تابو المحاكاة"، وإلى زيادة قدرته على التوجُّه نحو غير المسموح والممنوع، فلماذا يصرّ، إذًا، مع ذلك على أن اتباع هذه الوصية لا يكون إلا بانتهاج هذا الخط، وأن على المرء أن يكون حداثيًا بالمطلق، وأن يبحث عن الجديد؟ من أين جاءه اليقين، على سبيل المثال، بأن الرسم الذي لا موضوع له هو وحده الممكن؟ "لا يمكن تبرير زيادة اللامبالاة في الأعمال الفنية بتراجع فعاليتها الاجتماعية وحسب. هناك دليل يشير إلى أن الآثار الفنية تفقد معامِل احتكاكها، وهو عنصر أساسي لها، عندما تلتفت إلى ذاتها، ومن ثم تتحول لتكون لامبالية تجاه ذاتها. في أي حال، لا تبرر إمكانية تعليق لوحة تجريدية في غرف الاستقبال، من دون أن تسبب إزعاجًا ما، استعادة لموضوعية قبْلية ممتعة، حتى لو وقع الاختيار على تشي غيفارا بقصد المصالحة مع الموضوع"[94]. لكن هل كانت الموضوعية، عندئذ، قبْلية مريحة فعلًا؟ ألم تكن، غالبًا، مزعجة بما يكفي؟ ألم يصبح الرسم التجريدي في ألمانيا الغربية، لأسباب سياسية تحديدًا، الاتجاه المسيطر بين الاتجاهات الحديثة في الرسم، لأن الموضوعية الحديثة يمكن أن تصبح بيسر مزعجة؟ لا يمكن تفسير السهولة التي أنهى بها أدورنو كل رسم موضوعي، بوصفه عملًا تقليديًا يجاري المألوف، إلا من خلال جاذبية الفكر التحوّلي، أي عبر الأمل بتغيير مفاجئ من خلال محاكاة العتمة بالمعنى الكلي للكلمة. وفي هذا يظن أدورنو، نفسه، أنه "لا مجال عمومًا للتمييز: تُرى هل من يضرب صفحًا عن كل تعبير هو الناطق باسم وعي مشيَّأ أو أن التعبير الصامت الذي لا يعبّر عن شيء هو الذي يستنكر هذا الوعي المشيَّأ؟"[95]. لكن ما هذا الذي جعل التمييز في الحالة الفردية

---

(93) Ibid., p. 30.

(94) Ibid., pp. 315 f.

(95) Ibid., p. 179.

ممكنًا؟ بالتأكيد هو ذلك الاختلاف، على وجه الدقة، مع محاكاة الشيئية التامة التي يعود إليها تثمين أدورنو لبيكيت وسيلان. كان يمكن أن يتعلّم من تثمينه لهاتين القامتين أن تقدُّم الفن لم يتم وفق صيغة أن هذا أمر لم يعد واردًا، بل تبعًا لصيغة أن هذا لم يعد على هذا النحو ممكنًا. فالكلام على التقدُّم في الفن، إذا لم يكن يريد أن يؤكد، منذ البدء، مطلب صيرورته صامتًا وباردًا ولامباليًا، وفي النهاية مطلب شطب الفن نفسه بنفسه، عندئذ يجب أن ينظر إلى إمكان التقدم من منظور أوسع، وبصورة أكثر تأنيًا وانفتاحًا، لخلق كل ما يقاوم في الفن، في ما يخص علاقات الحاضر.

الإصرار الذي دافع فيه أدورنو عن تصوُّر التقدم في الفن الحديث الذي يتوجَّه إلى تطهير نفسه من التقاليد الموروثة والعناصر الغريبة عن الفن، دونما اعتبار للنوعية والمضمون، لم يتأكد من خلال جاذبية فكر التغيير وحده، بل تأكد أيضًا من خلال تصوّرات أدورنو عن الطبيعة والتصالح معها. "في الواقع، وخلافًا لما قد يريده الوعي المشيَّأ، لم يغترب الفن عن الطبيعة من خلال الرَّوحنة التي حدثت له إبان المئتي سنة الأخيرة، وبفضلها اشتد عوده، بل اقترب كثيرًا في تشكُّله من الجميل الطبيعي [...]. فالفن يلتمس تحقيق لغة ما هو غير إنساني بوسائل إنسانية؛ ذلك أن التعبير الخالص للآثار الفنية، متحررًا من الاضطراب الشيئي، ومما يدعى مادة طبيعية أيضًا، يلتقي مع الطبيعة، مثلما نرى الصوت الخالص في الأعمال الأكثر أصالة لأنطون فيبرن التي تُرَدّ إليه بقوة الحساسية الذاتية، يصب في صخب الطبيعة. وهو، بلا ريب، صخب طبيعة فصيحة، صخب لغتها وليس في نسخة لقطعة منها. إن التكوين الذاتي للفن، بوصفه لغة غير مفهومية، هو في مرحلة العقلانية، الشكل الأوحد الذي ينعكس فيه شيء من قبيل لغة الخلق، مع مفارقة الطابع المستغلق لما ينعكس ههنا. وذلك أن الفن يعمل على محاكاة عبارة لن يتخللها مقصد إنساني. فهذا الأخير ليس سوى مطيّة للفن. كلما اكتمل الأثر الفني، تسقط عنه المقاصد والنيات. فالطبيعة المتوسَّطة، باعتبارها مضمون حقيقة الفن، تشكل مباشرة ضدَّها. وإذا كانت لغة الطبيعة صامتة، فإن الفن يعمل على استنطاق الصمت وتكليمه. الإخفاق في تحقيق ذلك ينكشف من خلال التناقض الذي لا يمكن التغلب عليه بين هذه الفكرة التي تتطلب جهدًا يائسًا والفكرة التي يتوجَّه نحوها

هذا الجهد، أي فكرة اللاإرادي المطلق"[96]. في كتاب **نظرية إستطيقية**، ارتبط نقد سيطرة الإنسان على الطبيعة ونقد المجتمع المسيَّر معًا، على نحو مفصَّل أكثر مما كان الحال عليه في الأعمال الأولى، وأصبحا نقدًا للمجتمع يَرفض، من خلال البنى المتشيِّئة للطبيعة، السكينةَ التي يجري توسُّطها اجتماعيًا، والتي يتوق إليها. من ارتباط هاتين الفكرتين، استمدت فلسفة أدورنو الإستطيقية عاطفتَها أيضًا، تمامًا كما فعلت فلسفته في المجتمع والتاريخ والمعرفة. ومن هذا الارتباط تغذّى مطلب ممارسة التنوير المتبصِّر أو تعزيزه. أخلاق فلسفة الفن لدى أدورنو، وأخلاق مواصلة **جدل التنوير** الذي كان ينادي به في **نظرية إستطيقية**، تمثّلت في أن الآثار الفنية كانت جميعها تواريخ أصلانية للذاتية، تلك التواريخ التي كانت تسعى إلى تحقيق التنوير المتبصِّر: "لغتها[97] في علاقتها باللغة الدلالية، هي أقدم ولكنها غير مصرَّفة، كما لو أن الأعمال الفنية تكون من حيث تنسج في مبناها على منوال الذات، معاودة لمولد الذات وانبعاثها. فهي لا تعبر من حيث هي إفادة وتبليغ للذات، بل من حيث تُردِّد مرتعشة التاريخ الأصلاني للذاتية، للنفس الحيوانية [...] هذا ما يشرح الوشيجة بين الأثر الفني والذات. إنها تستمر لأن ذلك التاريخ الأصلاني لا يزال قائمًا في الذات التي لا تنفك تبدأ في كل تاريخ من البداية. وحدها الذات تصلح أداة للتعبير، فهي نفسها متوسَّطة، مهما ظنّت أنها مباشرة. وحتى حين يشبه المُعبَّر عنه الذات، وحيث تكون الانفعالات ذاتية، فإنها، في الوقت ذاته، لاشخصية، وتندرج ضمن إدماج الأنا ولا تفنى فيه. تعبير الآثار الفنية إنما هو اللاذاتي في الذات: ختمها وطابعها وليس عبارتها، إذ لا شيء يعادل شحنة تعبير أعين الحيوانات - القردة التي تشبه الإنسان - التي تبدو موضوعيًا حزينة لأنها ليست بشرًا. وبما أن الانفعالات تنقل إلى الآثار التي تحوّلها بمقتضى قدرتها على الإدماج إلى انفعالات تختص بها، فإنها تظلّ ضمن المتَّصِل الجمالي، ممثلة للطبيعة غير الجمالية، ولكنها لا تعمّر طويلًا من حيث هي نسخة لها. هذه الازدواجية تسجلها كلُّ تجربة جمالية أصيلة بكيفية لا نظير لها

(96) Ibid., p. 121.

(97) أي الآثار الفنية.

في التوصيف الكانطي للشعور بالجليل، بوصفه في حد ذاته قشعريرة تحدث بين الطبيعة والحرية"[98].

بيد أن هذا التصوُّر عن الفن لا يستطيع أن يشمل إلا بنيته الداخلية. وإذا جعله المرء مباشرةً مقياسًا لتقدُّم الفن، تتحدّد عندئذ، من طرف واحد، القوة لأشكال جديدة من ردة الفعل الفنية على تقدم جدلي للمجتمع لا يمكن التكهن مسبقًا بأشكال مظاهرها.

عند أدورنو نفسه اصطدم العاملان أحدهما بالآخر مرة أخرى بقساوة؛ فمن ناحية القناعة بأن ثمة منطقًا لتطوّر الفن الحديث قابل للصياغة في خصائص، مثل الرَّوْحَنة واللفظ المتقن وسواهما، ومن ناحية أخرى، ثمة اعتبارات عامة حول الفن لا تجعل هذا المنطق يظهر، بالضرورة، كدَوَران متقدّم حول هدف لا يمكن تحقيقه، بل كدَوَران يستجيب لمحرّضات تاريخية خفيّة. "في نهاية الأمر، ليست الآثار الفنية ملغزة بحسب تركيبها، بل طبقًا لمضمون حقيقتها. فالسؤال المتكرر باستمرار الذي يطرحه كل من يمر بالأثر الفني 'ما معنى هذا كله؟' يتحول إلى سؤال 'لكن هل هذا حقيقي؟'، أي يتحول إلى سؤال عن المطلق، يستجيب له كلُّ عمل فني من خلال تنازله عن شكل الإجابة الاستدلالية. فآخر أنباء الفكر الاستدلالي هو التابو الذي يتعلق بالإجابة. أما الفن فيسعى، بوصفه مقاومة محاكاتية للتابو، إلى تقديم الإجابة، لكن لأنه يجب أن يظلّ حياديًا، يفشل في فعل ذلك. ومن ثم يصير الفن ملغزًا جدًا، مثل هول العالم الابتدائي الذي يتحول ولكنه لا يختفي، فكل فن يبقى سيسموغراف[99] لذلك الهول [...]. والشكل الأقصى الذي يمكن أن يتفكّر فيه الطابع الملغز هو النظر في كون المعنى نفسه موجودًا أم لا. ذلك أنه ما من أثر فنّي يكون من دون اتّساقه، أنّى كانت تنويعات تحوّله إلى الضد أيضًا. لكن هذا الاتساق يَطرح أيضًا من خلال موضوعية الآثار الفنية دعوى موضوعية المعنى في ذاته. وليست هذه الدعوى من قبيل ما لا يمكن الوفاء به وحسب، بل إن التجربة تناقضها.

---

(98) Ibid., p. 172.

(99) السيسموغراف (Seismogramm) هو جهاز رصد الزلازل وقياس قوتها. (المترجم)

فكل أثر فني يقدم طابعًا ملغزًا مختلفًا، ولكن كما لو كانت الإجابة مثل إجابة السفنكس، هي هي دائمًا مع أنها لا تكون كذلك إلا من خلال التنوّع، وليس الوحدة التي ربما يبشّر بها اللغز إيهامًا وخداعًا. أما إذا كانت البشرى خداعًا، فذلك هو اللغز"[100].

يخفي الفن، على خلاف الفلسفة، وعدًا بالسعادة. إنه ينجز ما تتطلع إليه الفلسفة الجدلية السلبية، أي إن "عنصرًا موضوعيًا يتكشّف من خلال العمل الذاتي"[101]. غير أنه لا ينجزه إلا في مقابل ظهوره. لهذا وجب أن تكون كل فلسفة للفن نقدًا له في الوقت عينه. ينطبق ذلك أيضًا على ما يتصل بالآثار الفنية الحديثة الجذرية التي حافظت على الوهم، أرادت أم لم تُرِد، من خلال جعل الانهيار مبدأها الأساسي. لكن إن لم تقدم الآثار الفنية أيضًا التحقق اللامفهومي لِما تطلعت إلى إنجازه الفلسفة الجدلية السلبية من خلال مفاهيم، فإنها تقوّي محرّضها بإلزامه التفكُّر. "وبذلك يمكنها، بوصفها أشكالًا للكائن غير قادرة على استدعاء اللاكائن إلى الموجود القائم، أن تصير صورته القاهرة، ما لم يكن اللاكائن بالفعل قائمًا في ذاته"[102].

لا يمكن الحديث عند أدورنو عن صيرورة جمالية للنظرية. وإذا كان الفن ملاذ المحاكاة، فإن "النظرية" هي ضامن المعرفة المفهومية. إن رأس تَحرُّر الإنسان - كما يقول ماركس - هو الفلسفة، أما قلبه فهو البروليتاريا. على أن تَحقُّق الفلسفة والسمو بالبروليتاريا، برأيه، لا يكونان ممكنَين إلا معًا. كذلك أيضًا الفلسفة والفن، لا يمكن الاستغناء عنهما - هذا إن كان ذلك ممكنًا عمومًا - إلا معًا في مجتمع حر. لقد كانا، بالمناسبة، حليفَين، يسند واحدهما ظهر الآخر متشبّثَين بوحدة المحاكاة والعقل، وبتنوير متبصِّر، كلاهما في موقع معرَّض للخطر، وكلاهما معني بهزّ طرق الإدراك والسلوك الراسخين، وكلاهما يستهدف الإبقاء على الدهشة أو إيقاظها.

---

(100) Ibid., pp. 192 f.

(101) Ibid., p. 173.

(102) Ibid., p. 129.

رأى أدورنو في عام 1962، في مقالة له بعنوان "الالتزام"، أن "تشويه السياسة الحقيقية هنا واليوم، وجمود العلاقات التي لا تُبدي ميلًا نحو اللين، تُرغِم العقل على الذهاب إلى حيث لا يحتاج إلى التعامل بقسوة"، أي إلى الآثار الفنية التي تحمل عبء "التأكيد، من دون كلام، على ما هو ممتنع على السياسة". وفي ذلك رأى التسويغ السياسي-الاجتماعي للتشديد على الأثر الفنّي المستقل. على هذا النحو كان لا يزال يرى الأمر في نهاية الستينيات؛ فهو لم يثق بمقاصد الثورة الثقافية التي أرادت أن تلغي الفن المستقل من غير أن تعرفه. لهذا السبب لم يرَ أي هدف لحركة الاحتجاج يمكن أن يسمح له بالقيام بدور من يحرص على تصحيح الانحرافات عن ذلك الهدف. حيثما رأى هبرماس ضوءًا لعملية ديمقراطية تستهدي بنموذج التواصل بين العلماء الخالي من السيطرة، لم يرَ أدورنو أي ضوء للتعبير عن اللامطابق. وحيثما وضع هبرماس، المنظِّر النقدي للعلم، آماله في إصلاح جامعي ديمقراطي، لم يرَ أدورنو أملًا في أن يصبح الفن الحديث الدافع إلى تنوير متبصّر. في زمن صار العلم والتقنية القوة الإنتاجية الأولى، بدا هبرماس في اهتمامه بالعلم وإصلاح الجامعة أنه أكثر واقعية؛ في أي حال، وبسبب أهمية العلم والتقنية تلك، كانت فرص التغيير في هذا المجال أيضًا أقل بكثير.

ثمة أمل يائس في رهان أدورنو على القوة الصادمة لفن يتطور باستمرار من خلال وضعه الإشكالي، ويضعف على نحوٍ متزايد، ولا يؤخذ بجدية كثيرًا في المجتمع. غير أن هبرماس لم يكن أقلّ خيبةً في تعليقه الآمال على تحالف بين أشكال جديدة ناشئة في المجال العام السياسي وبين قوة العلم الموجِّهة والمتأملة ذاتها، العلم الذي كان المجتمع يستخدمه على نحوٍ أكثر انتقائية وإصرارًا بوصفه قوة إنتاجية وأيديولوجيا والذي كانت مبادئه الثقافية والفكرية مهمشة في دور "ذاتي" وغير مهم، كما هو حال الفن منذ زمن طويل. على أن تحوُّل البراديغم من فلسفة الذات ومن يوتوبيا تصالح العقل مع الطبيعة، إلى نظرية الفعل التواصلي وإلى يوتوبيا استنفاد المضمون المعياري للفعل الذي يهتدي بالتفاهم، وعدَ بنظرة جديدة إلى المجتمع والتاريخ، تتيح لأول مرة عمومًا إمكان فهم منهجي للتقدم في مقاربة خلق إنسانية مُجْمِعة على أهدافها الأساسية ولا تخشى السيطرة، هذا إذا كانت مثل هذه الإنسانية ممكنة.

لم يكن منطلق أدورنو في البراديغم الجديد متساميًا، وهو ينبغي ألا يكون كذلك أيضًا، لأن هبرماس اعتبره من الناحية الأساسية غير مطلوب. شيءٌ من الأهمية نَسَبَه أدورنو إلى الفن، اقترن بافتراض هبرماس أن عقلنة العالم المعيش كانت تحصل نتيجة قوة العلم والفلسفة، لتفسير العالم وتفسير أنفسهم، ونتيجة قوة التنوير المزوَّد بمفاهيم القوانين والأخلاق الشاملة على نحو صارم، ونتيجة التجارب الجذرية للحداثة في علم الجمال. كان تصورًا معقولًا ألا يمثّل الفن وحده وعدًا، بل الأبعاد الثلاثة. ما لم يكن مقبولًا هو استبعاد بُعدٍ آخر كان يؤدي دورًا مهمًا عند أدورنو: أي جمال الطبيعة. كذلك طاول الإهمال أيضًا السؤال الذي لمّا يصبح بعد بلا أهمية، من خلال انفتاحه عبر براديغم محكم وتأكيده؛ أعني السؤال عن العلاقة بين السيطرة على الطبيعة الخارجية والطبيعتين الداخلية والبدنية، وعن العلاقة بين السيطرة على الطبيعة والعلاقات الاجتماعية. كان هذا تساؤلًا يتعيّن أن يُختبَر أولًا بعيانية وتأكيد مادي، وهو ما لم يحاول أدورنو وهوركهايمر التطرق إليه قط.

شكلت وفاة أدورنو حدًّا فاصلًا في تطور النظرية النقدية. كان فروم لا يزال في قيد الحياة، غير أن الاغتراب بينه وبين الآخرين ممن ينتمون إلى حلقة هوركهايمر لم يعرف نهاية البتة. في الخمسينيات انتقد هو وماركوزه، مرة أخرى، أحدهما الآخر بشدة. اتهم ماركوزه فروم بلعب دور المعلّم الروحي. وأصبح لوفنتال في عام 1956 أستاذًا في جامعة بيركلي الذائعة الصيت. وهوركهايمر واصل حياته أيضًا، لكن بوصفه شخصًا وقف على مسافة من ماضيه، واتّحدت فيه الخطب الساحرة للاهوتيين عن التَّوق إلى شيء مغاير تمامًا، مع رفض كل فرصة لتحقيق علاقات اجتماعية يعيش فيها الناس أحرارًا ومتساوين ومتضامنين في الوقت عينه. كان ماركوزه لا يزال في قيد الحياة، ومقولة هوركهايمر أن شهرة ماركوزه كانت تقوم على أفكار "أكثر فجاجة وبساطة من أفكار أدورنو وأفكاري"[103] كانت تتضمّن، علاوة على ذروة شريرة ضد صديق مخلص سابق ما عاد يرضى بالتذمر والشكاية من العالم المسيَّر، اعترافًا بأن ثمة مشتركًا فكريًا كان يجمع بينهما. بيد أن ماركوزه لم يجسّد مركز تبلور مدرسة

(103) *Der Spiegel* (30 Juni 1969), p. 109.

فكرية قائمة على المؤسسات. وعليه عنى موت أدورنو نهاية شكلٍ - وإن لم يكن شكلًا موحدًا دائمًا - من النظرية النقدية التي تمركزت في شكل فريد حول معهد البحث الاجتماعي، بوصفه شكلها الظاهري، وحول إرادة معرفة تتغذى من عاطفة معادية للبرجوازية، ومن وعي الرسالة الاجتماعية النقدية. أن يغادر الشباب في غضون عامين أو ثلاثة المشهد الفرانكفورتي، لا يؤكد إلا طابع الوقفة التي تسبب بها موت أدورنو. أصبح فريديبرغ في عام 1969 وزيرًا للثقافة في ولاية هِسِن، وتبنّى على المستوى الإداري الكفاح من أجل إصلاح التعليم. وأصبح نغت في عام 1970 أستاذَ علم الاجتماع في هانوفر. وتسلَّم هبرماس في عام 1971 منصب مدير في معهد ماكس بلانك لشؤون البحث في الشروط الحياتية للعالم العلمي التقني في شتارنبرغ، بالقرب من ميونيخ، وأمل أن يتمكن فيه من تحقيق تصوُّره حول العمل النظري بين العلوم الذي لم يرَ فرصة له في معهد البحث الاجتماعي الذي كان قد عُرِض عليه المشاركة في إدارته. كتب إلى هوركهايمر في نيسان/ أبريل 1971: "لا أحتاج إلى أن أصف لك مدى التغيُّر الذي طاول المشهد هنا بعد وفاة أدورنو. لديّ دافعان للذهاب إلى شتارنبرغ؛ فمن ناحية، لدي هناك فرص وافرة للبحث، وأستطيع إشغال 15 وظيفة علمية، ويعود إليّ القرار في اختيار المشاريع في مجال مالي واسع نسبيًا. في المقابل، لم تُتَح هنا، في فرانكفورت، قط الإمكانية الواقعية للمشاركة مع الزملاء في معهد البحث الاجتماعي الذين أحب العمل معهم. ويتأتى السبب الآخر من واقع أن اختصاص علم الاجتماع سوف يأخذ على عاتقه، في المستقبل، مهمة الإعداد الأساسي للمعلّمين والحقوقيين والاقتصاديين. وأنا إن بقيت هنا، فسوف يكون عليّ أن أكرّس قوة عملي الكاملة لهذه المهمات الملحّة إلى حد ما في الحقيقة"[104]. لم يبقَ في المعهد إلا ألفرد شميدت، وهو، نوعًا ما، الفيلسوف المادي من بين من التحق أخيرًا بالمعهد (وقد أصبح، في ما بعد، مع جوزف ماير، تلميذ هوركهايمر وزميله منذ زمن نيويورك، مديرَي تَرِكة هوركهايمر).

---

(104) رسالة من هبرماس إلى هوركهايمر، 22 نيسان/ أبريل 1971.

وماذا عن معهد البحث الاجتماعي؟ حتى في حياة أدورنو، كان المعهد قد اتخذ قرارًا يقضي بالتركيز على البحث النقابي في عمله المستقبلي. وبهذا يكون النهج المقبل قد تقرر، وعمل على إنجازه، بعد عام 1969، طاقم جديد كليًا تقريبًا. نُشر أيضًا في عام 1971، كملحق في سلسلة "مساهمات من فرانكفورت في علم الاجتماع" التي كان يصدرها أدورنو وفريديبرغ، المجلد 22: كتاب ميشاييلا فون فرايهولد **النزعة الاستبدادية والخمول السياسي: تحليل مقياس لتحرّي طرق السلوك المرتبط بالسلطة**. بعد هذا الكتاب توقفت السلسلة. ومنذ عام 1974 لم تُنشَر إلا نتائج البحث في النقابات ودراسات المعهد حول العمل في المصانع. لم يكن هناك من ناحية أي منظّر، ولم تكن هناك أعمال تكليفية من ناحية أخرى. وفي ما عدا المساعدات المقدَّمة من المدينة وحكومة الولاية، كان تمويل المعهد يقوم على الأموال التي يتقاضاها لقاء مشاريع البحوث التي يُعِدّها بناء على طلب حكومي[105].

---

(105) ينظر:

Leviathan (4/1981),

العدد الخاص من:

Goethe-Universität, *Institute fur Sozialforschung: Gesellschaftliche Arbeit und Rationalisierung. Neure Studien aus dem Institute für Sozialforshung in Frankfurt am Main.*

خاتمة

في نهاية الستينيات ومطلع السبعينيات، توقفت النظرية النقدية إلى حد ما عن القيام بدور المرشد للحركات الاحتجاجية. تحول بعض المجموعات الى أشكال أصولية من الماركسية واللينينية والتروتسكية والستالينية والماوية، في حين تحوّل بعضها الآخر عن النظرية بأكملها. خلافًا لذلك، بدا أن حقبة إصلاحية قد بدأت. وانتشر ممثلو النظرية النقدية الأخيرون في كل الاتجاهات، وواصلوا ممارسة تأثيرهم من مواقع أكثر رسوخًا. على أن الإشارات الأولى لنهاية ربيع الجمهورية الاتحادية كانت في مطلع عام 1972 جليّة. ففي بداية العام المذكور، أقرّ المستشار الاشتراكي الديمقراطي فيلي برانت مع رؤساء الحكومات في ولايات ألمانيا الاتحادية حظرًا على المعلمين والموظفين الحكوميين المتطرفين، كانت الغاية منه منع ممثلي جيل الطلبة النقديين المتطرفين من الدخول في مسار طويل عبر المؤسسات، لكنه سرعان ما أدى إلى ممارسات خرجت عن السيطرة، قوامها الفرز والاستبعاد من وظائف الخدمة المدنية. بقي مفهوم "مدرسة فرانكفورت" مألوفًا في ألمانيا، وكان يستخدمه، من سنوات تمرُّد الطلبة فصاعدًا، أولئك الذين أحبّوا ربط الاستياء والاحتجاج والجهود لإصلاح جذري والأنشطة الإرهابية بالتحريض الذي كان يمارسه المثقفون المضللون على الشباب. في تشرين الأول/ أكتوبر 1977، قُتل المدعي العام الاتحادي زيغفريد بوباك وسائقه، ويورغن بونتو، رئيس مجلس إدارة بنك درسدن، وقُتل الحرّاس الشخصيون لهانز مارتن شلاير، الذي قُتل بدوره في 16 تشرين الأول/ أكتوبر. وفي الشهر نفسه أعلن رئيس حكومة بادن فورتمبرغ هانز فيلبينغر، ورئيس الاتحاد الديمقراطي المسيحي

في ولاية هِسِن ألفرد دريغر، الأول في خطبة ألقاها في احتفالات الذكرى 500 لجامعة توبنغن، والثاني في برنامج تلفزيون بافاريا الذي بُثَّ في عموم ألمانيا من خلال محطة التلفزة ARD، أعلنا أن مدرسة فرانكفورت كانت سببًا من أسباب الإرهاب. وأصبح الإرهاب والحاجة إلى تحليل جذوره الثقافية والسياسية ذريعة للتشهير بمن يُدعى المتعاطفون معه، وبأولئك الذين ينتقدون المجتمع، ويتحدثون عن الاشتراكية. شعر الأكاديميون المحافظون وأولئك الذين أصبحوا محافظين أن يوم الحساب جاء، للجناح اليساري من المثقفين عمومًا، ولمدرسة فرانكفورت خصوصًا.

أعلن غونتر رورموزر - وهو فيلسوف اجتماعي عيَّنَهُ فون فيلبينغر، القاضي في المحكمة العسكرية البحرية، الذي كان قد أصدر في الأيام الأخيرة من الحرب العالمية الثانية حكمًا بالإعدام أثار فضيحة كبرى، دافع عنه في السبعينيات بقوله إن ما كان في الماضي عدلًا، لا يمكن أن يكون اليوم ظلمًا - أعلن منذ نشر كتابه **بؤس النظرية النقدية** في عام 1970، وبصور مختلفة، أن ماركوزه وأدورنو وهوركهايمر هم الآباء الروحيون فكريًا للإرهابيين الذين يريدون عبر الثورة الثقافية تحطيم تقاليد الغرب المسيحي. وحذا حذوه علماء مشهود لهم بوصفهم تنويريين وديمقراطيين ليبراليين، مثل إرنست توبيتش وكورت صونتهايمر. تحت شعار "نقاش عقلاني" و"حوار خال من السيطرة"، أوضح، في عام 1972، إرنست توبيتش - وهو أستاذ فلسفة في غراتس وعقلاني ناقد - أن إرهابًا واعيًا جليًّا "يتأسس في الجامعات، على نحو لم نشهده بهذه الصورة المباشرة، حتى في ظل الحكم الاستبدادي للنازية"[1]. أما صونتهايمر الذي عُرِف في الستينيات من خلال دراسته **الفكر المعادي للديمقراطية في جمهورية فايمار**، فقد أعلن في السبعينيات أن النظريات اليسارية الثورية هي الأرضية التي يتغذى منها الإرهاب[2]، ورأى أن الفكر اليساري يتهدد الجمهورية الاتحادية، تمامًا كما هدَّد ذات يوم الفكر اليميني المعادي للديمقراطية جمهورية فايمار. عندما نشر تلميذ رورموزر وأستاذ التربية

---

(1) Ernst Topitsch, "Die neue Linke - Anspruch und Realitat," in: Willy Hochkeppel (ed.), *Die Rolle der Neuen Linken in der Kulturindustrie*, p. 34.

(2) Kurt Sontheimer, *Das Elend unserer Intellektuellen* (1976).

من كولونيا هنينغ غونتر وزملاؤه في عام 1978 كراسًا ضخمًا، قُدِّم على أنه تحليل أكاديمي، وعنوانه **عنف النفي: النظرية النقدية وعواقبها**، كان هذا الكتاب بمثابة الناطق بلسان حال نوع من الفهم الواسع الانتشار في صفوف الأساتذة والسياسيين. وكما كان الحال في المرحلة الأولى من إعادة إعمار الجمهورية الاتحادية، توسّعت أيضًا في المرحلة الثانية منها الإجراءات المعدّة لمكافحة المعارضة المخالفة للدستور لتشمل المعارضة الشرعية، متهمين أي مسعى إصلاحي لخصوم الديمقراطية المحافظين بأنه انحراف عن "النظام الأساسي الديمقراطي الحر"، ورأوا أنفسهم في ذلك مدعومين، في كثير من الأحيان، من "الليبراليين" الذين وقفوا إلى جانب "ديمقراطية خلافية" ودولة قوية، مثل وزير الداخلية السابق فرنر مايهوفر.

في هذا الجو حيث جاء منحُ هبرماس جائزة تيودور ف. أدورنو من عمدة فرانكفورت الديمقراطي المسيحي فالتر فالمان في عام 1980 بوصفه نوعًا من تصحيح "إعلان الخصومة داخل الحكومة"، تمسَّك كلاوس أوفه وألبرشت فلمر، وخصوصًا يورغن هبرماس وأوسكار نغت، الأكثر استهدافًا للنقد من بين المنظّرين النقديين الشباب، بالنظرية النقدية بثبات. ولأن لا شيء موحدًا لاءم مفهوم مدرسة فرانكفورت أو "النظرية النقدية"، لم يكن ممكنًا الحديث عن تداع أو انهيار، ما دامت العناصر الأساسية التي تُحسب على النظرية النقدية تُواصل تطورها في شكل يتصل بالفترة الراهنة. يشير التداخل في مفاهيم مثل مدرسة فرانكفورت، أو النظرية النقدية، أو الماركسية الجديدة، في الواقع إلى أن الفكر اليساري المنتَج نظريًا كان يركّز، منذ الثلاثينيات وصاعدًا في المجال الناطق باللغة الألمانية، على هوركهايمر وأدورنو، وعلى معهد البحث الاجتماعي، وكان يُنظَر إلى آخرين، أمثال إرنست بلوخ أو غونتر أندِرس أو أولريش زونيمان، في إطار العلاقة بهذا التركيز. ولعل من المهم، في معرض الحديث عن مدرسة فرانكفورت، خصوصًا ما يتصل بفترة النظرية النقدية القديمة عندما شكّل معهد البحث الاجتماعي الذي كان يديره هوركهايمر وأدورنو نوعًا من الرمز المؤسساتي لها، أن يؤخذ مفهوم النظرية النقدية بمعنى آخر، منفصل عن هوركهايمر وأدورنو ومعهد البحث الاجتماعي، وأن يُرى بوصفه فكرًا يلتزم إلغاء السيطرة، ويقف في تقليد ماركسي منفتح على صلات

متنوعة بدءًا من تفكير أدورنو المضاد للنسقية وذي الطابع المقالاتي، وصولًا إلى مشروع هوركهايمر المتمثل في نظرية نقدية متعددة الاختصاصات.

سوف يمثّل هذان القطبان منذ السبعينيات هبرماس ونغت بشكل مؤثر وأصيل. في شتارنبرغ الواقعة بالقرب من ميونيخ، والتي رفضت جامعتها منحه الأستاذية الفخرية، حاول هبرماس، بوصفه مديرًا في معهد ماكس بلانك لشؤون البحث في الشروط الحياتية للعالم التقني العلمي، أن يأخذ من جديد على محمل الجدّ برنامج نظرية للمجتمع متعددة الاختصاصات. عندما عاد إلى فرانكفورت، بعد عقد من الزمان، وغدا هناك أستاذًا للفلسفة، اعتبر أن المشروع مخفق، لكن كان هناك **نظرية الفعل التواصلي** (عام 1984) التي يُفترض أن تقدم الأساس المعياري والإطار المفاهيمي الأساسي لبرنامج نظرية للمجتمع نقدية راهنة، وضع مخططه في ختام عمله المؤلف من جزءين، أي برنامج بحث النماذج الانتقائية للتحديث الرأسمالي القائم على تعدد الاختصاصات؛ هذا البرنامج الذي قاد إلى تصادم أمر النظام الاقتصادي وأمر النظام السياسي مع البنى التواصلية العنيدة لعالم الحياة. قام نغت بالاشتراك مع الكاتب والمخرج السينمائي ألكسندر كلوغه بمحاولة الاستفادة من تحليل أدورنو الميكروي ومن نظريتة المعرفية التشكيكية عن اللامطابق - المقموع وغير المدوَّن - من أجل نظرية تنظيم وفلسفة تاريخ للمقاومة البروليتارية ضد التصنيع الرأسمالي. كان المجلد الذي أهدي إلى أدورنو والذي يحمل عنوان **المجال العام والتجربة** متوترًا يتوزع بين تحليل المجال العام البرجوازي، بوصفه شكلًا مشوَّهًا ونازعًا للملكية لتنظيم التجربة الاجتماعية، وبين تصوُّر المجال العام البروليتاري من حيث هو "عملية إنتاج جماعية موضوعها هو الحسية الإنسانية المترابطة"[3]. في كتاب **التاريخ والعناد** (الصادر في عام 1981)، كان الموضوع هو تحليل القطب المقابل لرأس المال، أي تاريخ قوة العمل الحية، في حين كان تحليل تاريخ قدرة العمل الإفرادية محاولة "معارضة لإنشاء مقابل معاكس للفيزياء الدقيقة للسلطة"[4] التي اكتشفها فوكو.

---

(3) Oskar Negt & Alexander Kluge, *Öffentichkeit und Erfahrung*, p. 486.

(4) Alexander Kluge, in: "Die Geschichte der lebendigen Arbeitskraft. Diskussion mit Oskar Negt und Alexander Kluge," in: *Ästhetik und Kommunikation* (Juni 1982), p. 102.

إن التوقف عن الكتابة هو السبيل الوحيد لإنهاء كتاب عن تاريخ مدرسة فرانكفورت والنظرية النقدية. من يرِد المزيد حول الجيل الثاني من المنظِّرين النقديين يجده في كتاب **الفلسفة كنقد** لفيلِم فان رايِن. تقدم محاضرة هبرماس بعنوان "ثلاث أطروحات في التاريخ المؤثر لمدرسة فرانكفورت" مخططًا شاملًا للتاريخ المؤثر لمدرسة فرانكفورت، وقد ألقاها في ندوة مؤسسة ألكسندر فون هومبولت في كانون الأول/ ديسمبر 1984 حول مدرسة فرانكفورت والنتائج. ومهما كان كبيرًا أو مهما يكن الاستعداد لاستقبال النظرية النقدية وقدرتها على الاندماج، ومهما تنوّعت الدوافع التي انطلقت منها، والتي يعود الفضل فيها إلى تعدد أشكالها وأطوارها، ومهما غدت الحدود، في غضون ذلك، غير واضحة مع علم الاجتماع والفلسفة اللذين أصبحا بدورهما متنوِّعين، يظل هناك وجه للنظرية النقدية يُعدّ مسؤولًا عنه، في طبيعته اللادوغمائية والحاسمة، "فلاسفة" أمثال هبرماس ونغت، مثالًا واختلافًا.

المراجع

Abendrorth, Wolfgang. *Ein Leben in der Arbeitrbewegung.*

"Adorno - Löwenthal, 16. 7. 24," in: Leo Löwenthal, *Mitmachen wollte ich nie - Ein autobiographisches Gespräch mit Helmut Dubie.*

Adorno, Theodor W. *The Authoritarian Personality.*

__________. *Betriebsklima.*

__________. "'*Dialektik der Rationalisierung*', Jürgen Habermas im Gespräch mit Axel Honnethm Eberhardt Knödler-Bunte und Arno Widmann." *Ästhetik und Kommunikation*. vol. 45/46 (Oktober 1981).

__________. *Eingriffe. Neun kritische Modelle.*

__________. "Gedichte von Reinhold Zickel." *Akzente.* vol. 3 (1958).

__________. *Gesammelte Schriften.* vol. 16.

__________. "Henkel, Krug und frühe Erfahrung." in: *Gesammelte Schriften*. vol. 11.

__________. *Jargon der Eigentlichkeit.*

__________. *Kierkgaard Construccion De Lo Estetico.*

__________. *Minima Moralia.*

__________. "Memorandum zur Berkeley-Situation" (21 Juli 1947).

__________. *Negative Dialektik.*

__________. "Offener Brief an Max Horkheimer." *Die Zeit* (12 February 1965).

__________. *Philosophie der neuen Musik.*

__________. *Philosophische Terminologie, Band 1.*

__________. *Remarks on 'The Authoritarian Personality'.*

_________. *Studien zum autoritären Charakter.*

_________. "What National Socialism Has Done to the Arts" (1945).

_________. "*Wissenschaftliche Erfahrungen in Amerika*," in: *Stichworte.*

_________. *Über Walter Benjamin.*

_________. *Versuch über Wagner.*

_________. *Zur Metakritik der Erkenntnistheorie.*

_________ & Ernest Krenek. *Briefwechsel.*

_________ et al. *Der Positivismusstreit in der Deutschen Soziologie.*

Ästhtetik und Kommunikation.

Alexander Kluge, in: "Die Geschichte der Lebendigen Arbeitskraft. Diskussion mit Oskar Negt und Alexander Kluge," in: *Ästhetik und Kommunikation* (Juni 1982).

Aragon, Louis. *Pariser Landleben.*

Becker, Carl H. *Gedanken zur Hochschulreform.*

Benjamin, Walter. *Charles Baudelaire: Ein Lyriker im Zeitalter des Hochkapitalismus.*

_________. *Der Begriff der Kunstkritik in der deutschen Romantik.*

_________. "Die Schulreform, eine Kulturbewegung, 1912." in: *Gesammelte Schriften*, vol. 2.

_________. "Drei Lebensläufe," in: S. Unseld (ed.), *Walter Benjamin zu ehren.*

_________. "Eduard Fuchs." *Gesammelte Schriften* (1937).

_________. *Gesammelte Schriften*. vol. 2.

_________. *Gesammelte Werke*. vol. 3.

_________. "Zweite Exposé von 1939," in: *Passagenwerk.*

_________. *Ursprung des deutschen Trauerspiels.*

_________ & Gershom Scholem. *Briefwechsel.*

_________ & Rolf Tiedemann. *Versuche über Brecht.*

Beckett, Samuel. *Endspiel - Fin de partie.*

Borkenau, Franz. *Der Übergang vom feudalen zum bürgerlichen Weltbild.*

Bloch, Ernest. *Briefe*. vol. 1; vol. 2.

_________. *Briefe 1903-1975, band 2.*

_________. *Erbschaft dieser Zeit.*

_________. *Geist der Utopie.*

Bonß, Wolfgang. *Die Einübung des Tatsachenblicks: zur Struktur und Veränderung empirischer Sozialforschung.*

_________ & N. Schindler. "Kritische Theorie als interdisziplinärer Materialismus." in: Wolfgang Bonß & Axel Honneth (eds.), *Sozialforschung als Kritik: zum sozialwissenschaftlichen Potential der Kritischen Theorie.*

Borsdorf, Ulrich & Lutz Niethammer (eds.). *Zwischen Befreiung und Besatzung.*

Brauer, Ludolph, Albrecht Mendelssohn-Bartholdy, Adolf Meyer (hg.). *Forschungsinstitut.* band 2: *Ihre Geschichte, Organisation und Ziele.*

Brückner, Peter. "Die 50er Jahre - lebensgeschichtlich: ein Zwischenland," in: Götz Eisenberg und Hans-Jürgen Linke, *Fuffziger Jahre.*

Buckmiller, Michael. *Karl Korsch und das Problem der materialistischen Dialektik.*

Dahrendorf, Ralf. *Die angewandte Aufklärung.*

"Das Schlimme erwartet und doch das Gute versuchen. Ein Gespräch mit Professor Dr. Max Horkheimer," in: G. Rein (ed.), *Dienstgespräche mit Zeitgenossen.*

Heidegger, M. "Davoser Disputation," in: *Kant und das Problem der Metaphysik.*

Der Spiegel (21 Juli 1965).

_________. (1969).

_________. (30 Juni 1969).

Deutsche Juristen-Zeitung (15 September 1935).

Die Musik (Juni 1934).

Diskus, 8 (1966).

Dünner, Joseph. *Zu Protokoll gegeben. Mein Leben als Deutscher und Jude.*

Erdmann, Karl Dietrich. *Deutschland unter der Herrschaft des Nationalsozialismus, 1933-1939.*

Eckert, C. "Das Forschungsinstitute für Sozialwissenschaften in Köln," in: Ludolph Brauer, Albrecht Mendelssohn-Bartholdy, Adolf Meyer (hg.), *Forschungsinstitut.* Band 2: *Ihre Geschichte, Organisation und Ziele.*

Fehér, Ferenc. "Am Scheidung der romantischen Antikapitalismus," in: Agnes Heller et al., *Die Seele und das Leben.*

Feuer, Lewis S. "*The Frankfurt Marxists and the Columbia Liberals.*" *Survey* (Summer 1980).

Flaschenpost? Horkheimer, Adorno, Marcuse und Nachkriegsdeutschland." *Pflasterstrand* (17 May 1985).

Fraenkel, Ernest. *Reformismus und Pluralismus.*

Fromm, Erich. *Arbeiter und Angestellte am Vorabend des Dritten Reiches.*

Fichter, Tilman P. & Siegward Lönnendonke. *Kleine Geschichte des SDS.*

Foucault, Michel & Gérard Raulet. "Um welchen Preis sagt die Vernunft die Wahrheit? Ein Gesprach." *Spuren*. vol. 1 (Januar 1983), p. 24.

Franzen, W. *Martin Heidegger.*

Freud, Sigmund. *Gesammelte Werke*. vol. 14.

Freyer, Hans. *Schwelle der Zeiten.*

__________. *Soziologie als Wirklichkeitswissenschaft.*

Friedrich, Hugo. *Die Struktur der Modernen Lyrik.*

Fromm, Erich. *Das Christusdogma und andere Essays.*

__________. *Gesamtausgabe*. vol. 6.

Funk, Rainer. *Erich Fromm.*

Goethe-Universitat. *Institute fur Sozialforschung: Gesellschaftliche Arbeit und Rationalisierung. Neure Studien aus dem Institute fur Sozialforshung in Frankfurt aim Main.*

Glaser, Nathan. "The Authoritarian Personality in Profile." in: *Commentary* (June 1950).

Grenz, Friedemann. *Adornos Philosophie in Grundbegriffen.*

Gumnior, Helmut & Rudolf. Ringguth. *Max Horkheimer.*

Grünberg, Carl. *Archiv für die Geschichte des Sozialismus und der Arbeiterbewegung.* vol. 11.

__________. *Festrede: gehalten zur Einweihung des Instituts für Sozialforschung an der Universität Frankfurt a. M. am 22. Juni 1924.*

Habermas, Jürgen. *Arbeit, Erkenntnis, Forschritt.*

__________. *Bedingungen und Organisation des Widerstandes.*

__________. *Die Neue Unübersichlichkeit.*

_________. "Die Analyse Eines Exemples." *Neue Kritik* (Juni-August 1966).

_________. "Dogmatismus, Vernunft und Entscheidung - Zu Theory und Praxis in der verwissenschaftlicten Zivilisation," *Theory und Praxis*.

_________. *Drei Thesen zur Wirkungsgeschichte der Frankfurter Schule*.

_________. "Gespräch mit Jürgen Habermas." *Ästhetik und Kommunikation* (Oktober 1981).

_________. *Kleine politische Schriften.*

_________. *Legitimationsprobleme im Spatkapitalismus.*

_________. *Philosophisch-politische Profile* (1971).

_________. *Strukturwandel der Öffentlichkeit.*

_________. *Student und Politiks.*

_________. "Studenenprotest in der Bundesrepublik," in: *Protestbewegung und Hochschulreform*.

_________. *Tecknik und Wissenschaft als 'Ideologie'*.

_________ et al. *Gespräche mit Herbert Marcuse.*

_________ & Niklas Luhmann. *Theorie der Gesellschaft oder Sozialtechnologie*.

Hahn, Hans. *Logik, Mathematik und Naturerkennen.* Wien, 1933.

Heidegger, M. "Mein Weg in die Phenomenologie." in: *Zur Sache des Denkens.*

_________. *Sein und Zeit.*

_________. *Was ist Metaphysik.*

Herhaus, Ernest. *Notizen Während der Abschafung des Denkens.*

Horkheimer, Max. *Aus der Pubertät: Novellen u. Tagebuchblätter.*

_________. "Bemerkungen in Sachen der Habilitation Dr. Wiesengrund, February 1931." in: *Akte Theodor Adorno.*

_________. *Dammerung.*

_________. *Die gegenwärtige Lage der Sozialphilosophie und die Aufgaben eines Instituts für Sozialforschung, Frankfurter Uinversitatsreden*, 1931.

_________. *Kants Kritik der Urteilskraft Als Bindeglied Zwischen Theoretischer Und Praktischer Philosophie.*

_________. "Materialismus und Metaphysik." *Zeitschrift für Sozialforschung.* vol. 2, no. 1 (1933).

_________. "Materialismus und Moral." *Zeitschrift für Sozialforschung* (1933).

_________. *Zeitschrift für Sozialforschung* (1932).

_________. _________ (1938).

_________. "Zum Problem der Voraussage in den Sozialwissenschaften." *Zeitschrift für Sozialforschung*. vol. 2, no. 3 (1933).

_________. "Zum Realismusstreit." *Zeitschrift für Sozialforschung* (1934).

_________. *Autoritat und Vorurteil*. 2 Bde.

_________ & Theodor W. Adorno. *Sociologica II.*

_________ et al. *Studien über Autorität und Familie.*

Humboldt, Alexander von. *Kosmos - Entwurf einer physischen Weltbeschreibung*. 5 Bde (1862; [1845]).

Hühnerfeld, P. *In Sachen Heidegger.*

Institut für Sozialforschung, *Universität und Gesellschaft*. Teil I: *Studentenbewegung.*

Jastrow, Ignaz (ed.). *Die Reform der staatswissenschaftlichen Studien.*

Jay, M. *Dialektische Phantasie: Die Geschichte der Frankfurter Schule und des Instituts für Sozialforschung 1923-1950.*

Karl Wittfogel. in: M. Greffrath, *Die Zerstörung einer Zukunft.*

Kirchheimer, Otto. *Zur Staatslehre des Soziaismus und Bolschewismus.*

_________ & Wolfgang Luthardt. *Von der Weimarer Republik zum Faschismus.*

Klages, Ludwig. *Mensch und Erde.*

_________. *Vom kosmogonischen Eros,* extended ed. (1926). vol. 2.

_________. "Vom Traumbewusstsein." in: *Sämtliche Werke*. vol. 3.

Knoll, Reinhold et al. "Der österreichische Beitrag zur Soziologie von der Jahrhundertwende bis 1938." *Kölner Zeitschrift für Soziologie und Sozial psychologie*. special issue 23.

Kluke, Paul. *Die Stiftungsuniversität Frankfurt am Main 1914-1932.*

Kölner Vierteljahreshefte für Soziologie, h. 1 (1921).

Kölner Zeitschrift für Soziologie und Sozial psychologie. 1 (1957).

Kommerel, Max. *Briefe und Aufzeichnungen 1919-1944.*

König, Rene. *Studien zur Soziologie.*

Korn, K. *Lange Lehrzeit.*

korsch, Karl. *Jahrbuch Arbeiterbewegung*. vol. 2.

Krahl, Hans-Jürgen. "Zur Ideologiekritik des antiautoritären Bewußtseins," in: *Konstitution und Klassenkampf.*

_________. *Erkenntniss und Interesse.*

Kracauer, S. "Die Wartenden," in: *Das Ornament der Masse.*

_________. "Soziologie als Wissenschaft," in: Theodor W. Adorno, *Gesammelte Schriften*, vol. 1

Lazarsfeld, Paul F. *Eine Episode in der Geschichte der empirischen Sozialforschung.*

_________. *Jugend und Beruf: Kritik Und Material* (Jena, 1931).

Löwenthal, Leo. *Mitmachen wollte ich nie - Ein autobiographisches Gespräch mit Helmut Dubiel.*

Löwith, Karl. "*Curriculum vitae*, 1959," in: Prospekt des Metzler-Verlags zu Löwith, *Sämtliche Schriften.*

_________. *Entwicklungsgeschichte des modernen Dramas.*

"Leitlinien stabilitätskonformen Verhaltens." in: Gert Schäfer & Carl Nedelmann (eds.), *Der CDU-Staat.s*

Levithan (1981).

Lukács, Georg. "Bolschwewismus als moralisches Problem." in: *Brecht-Jahrbuch* (1979).

Maier, A. in: Rainer Erd (ed.), *Reform und Resignation, Gespräche über Franz L. Neumann.*

Mann, Thomas. *Politische Schriften und Reden*. vol. 3.

_________. *Schriften und Reden zur Literatur*, *Kunst und Philosophie*. vol. 2.

Marcuse, Herbert. *Das Ende der Utopie.*

_________. *Der eindimensionale Mensch.*

_________. *Hegels Ontologie.*

_________. Paper vom Februar 1947.

_________. "Repressive Toleranz," in: Robert Paul Wolff, Barrington Moore & Herbert Marcuse, *Kritik der reinen Toleranz.*

_________. *Gesammelte Schriften*. vol. 1.

_________. *Triebstruktur und Gesellschaft.*

_________. *Vernunft und Revolution.*

Marcuse, Ludwig. *Mein zwanzigstes Jahrhundert: Auf dem Weg zu einer Autobiographie.*

Massing, Hede. *Die große Täuschung*: *Geschichte einer Sowjetagentin.*

Meng, H. *Leben als Begegnung.*

Meyer-Leviné, Rosa. *Im inneren Kreis. Erinnerungen einer Kommunistin in Deutschland 1920-1933.*

Migdal, Ulrike. *Die Frühgeschichte des Frankfurter Instituts für Sozialforschung.*

Mitscherlich, M. "Freud erste Rebellin." *Emma*. vol. 12 (1978).

Mörchen, H. *Adorno und Heidegger: Untersuchung einer philosophischen Kommunikationsverweigerung.*

_________. *Festrede: gehalten zur Einweihung des Instituts für Sozialforschung an der Universität Frankfurt a. M. am 22. Juni 1924.*

Morrison, D. E. "Kultur and Culture: the Case of Theodor W. Adorno and Paul F. Lazarsfeld." *Social Research*. vol. 45, no. 2 (1978).

Negt, Oskar. "Heute wäre er 75 geworden: Adorno als Lehrer." *Frankfurter Rundschau*, 11. 9. 78.

_________. *Soziologische Phantasie und exemplarisches Lernen.*

_________ & Alexander Kluge. *Öffentichkeit und Erfahrung.*

Neue Rundschau (April 1932).

Neumann, Franz. *Behemoth: The Structure and Practice of National Socialism.*

_________. *Demokratischer und autoritärer Staat.*

_________. *Die Herrschaft des Gesetzes.*

_________. *Wirtschaft, Staat, Demokratie: Aufsätze 1930-1954.*

Noerr, Schmid. "Wahrheit, Macht und Sprache," in: Alfred Schmidt & Norbert Altwicker, *Max Horkheimer heute: Werk und Wirkung.*

Neue Blätter für Kunst und Literatur. no. 1 (1922-23).

_________. no. 6 (1921-22).

Pollock, Friedrich. "Bemerkungen zur Wirtschaftskrise." *Zeitschrift für Sozialforschung*. vol. 2, no. 3 (1933).

_________. *Die planwirtschaftlichen Versuche in der Sowjetunion.*

_________ (ed.). *Gruppenexperiment.*

_________. *Sombarts 'Widerlegung' des Marxismus* (1926).

_________. *Memorandum for P. T. [Paul Tillich] on Certain Questions Regarding the Institute of Social Research*, Max Horkheimer Archiv (1943).

_________. *Rapport Annual* vom 9/4/1938.

Hilferding, Rudolf. *Protokoll der Verhandlungen des sozialdemokratischen Parteitages 1927 in Kiel.* Berlin, 1927.

Popitz, Heinrich et al., *Das Gesellschaftsbild der Arbeiter.*

Preobrazhenskiĭ, E. A. & N. Bukharin, *Das ABC des Kommunismus.*

"Programm der Sozialisierungskommission vom 11 Dezember 1918," in: Herbert Michaelis & Ernest Schraepler (hg.), *Ursachen und Folgen III.*

Radkau, Joachim. *Die deutsche Emigration in den USA.*

Reijen, van. *Philosophie als Kritik.*

Riezler, Kurt. *Tagebücher, Aufsätze, Dokumente.*

Rühmkorf, Peter. *Die Jahre, die ihr kennt.*

Rusche, G. & Otto Kirchheimer. *Sozialstruktur und Strafvollzug.*

Sartre, Jean-Paul. *Drei Essays.*

Schelsky, Helmut. "Vom sozialen Defaitismus der sozialen Verantwortung." *Gewerkschaftliche Monatshefte* (1951).

_________. *Auf der Suche nach Wirklichkeit.*

_________. *Soziologie der Sexualität.*

Schivelbusch, Wolfgang. *Intellektuellendämmerung: Zur Lage der Frankfurter Intelligenz in den zwanziger Jahren.*

Schmidt, E. *Die verhinderte Neuordnung.*

Scholem, Gershom. *Walter Benjamin.*

Schönberg, Arnold. "Franz Liszts Werk und Wesen, 1911," in: *Stil und Gedanke.*

_________. *Harmonielehre.*

Schopenhauer. *Die Welt als Wille und Vorstellung.* vol. 1.

Sigal, Clancy et al. *Materialien zu Becketts "Endspiel".*

Simon, Ernst. "Erinnerungen an Erich Fromm," *Stadtarchiv Ffm.*

Söllner, in: Rainer Erd (ed.), *Reform und Resignation, Gespräche über Franz L. Neumann.*

Sontheimer, Kurt. *Das Elend unserer Intellektuellen* (1976).

Staiger, Emil. *Die Kunst der Interpretation.*

Steuermann, Eduard. *Zeugnisse.*

Stuchlik, Gerda. *Goethe im Braunhemd: Universität Frankfurt, 1933-1945.*

Studies in Philosophy and Social Sciences (SPSS) (1940); (1941).

Tiedemann, Rolf. *Einleitung zum Passagen-Werk.*

Tillich, P. "Gutachten über die Arbeit von Dr. Wiesengrund: Die Konstruktion des Aesthetischen bei Kierkegaard," in: *Akte Theodor Adorno.*

_________. "Autobiographische Betrachtungen," in: *Gesammelte Werke.* vol. 12.

Topitsch, Ernest. "Die neue Linke - Anspruch und Realitat," in: Willy Hochkeppel (ed.), *Die Rolle der Neuen Linken in der Kulturindustrie.*

Verhandlungen des Deutschen Soziologentages.

Vogt, Hans. *Neue Musik: Seit 1945.*

Weil, Felix. *Sozialisierung.*

Westernhagen, Dörte von. "Wiedergutmachung?." *Die Zeit* (5 Oktober 1984).

Wilbrandt, Robert von. *Ihr glücklichen Augen.*

Winkhaus, H. "Betriebsklima und Mitbestimmung." in: *Arbeit und Sozialpolitik* (April 1955).

Zeisel, Hans, Marie Jahodan & Paul F. Lazarsfeld. *Die Arbeitslosen von Marienthal.*

Zeitschrift für Musik (11th Aug. 1923).

Zeitschrift für psychoanalytische Pädagogik. vol. 3 (Oktober 1928-Dezember 1929).

Zeitschrift für Sozialforschung (*ZSF*) (1932); (1935); (1936); (1937); (1938); (1939).

Zeltner-Neukomm, Gerda. *Das Wagnis des französischen Gegenwartsromans.*

فهرس عام

ز

س

ش

ق

ك

ل

م

ن

هـ

و

ي